

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقرا ربك الذي خلق



كتبه

أضعفه عباد الله وأحوجهم إلى عفو الله

محمد فاضل

خویدم العلماء وتراج أقدام الفقراء

قصة الاستخلاف

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ

وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

الباب الأول

مقدمة

فاعلم أنه لا إله إلا الله

اعلم أيها اللبيب الرشيد، المتوجه نحو التوحيد، وفكك الله إلى إنجاح مهامك، وأوصلك إلى منتهى مقصدك ومرامك، أن تتوجه إلى كتاب ربك، وتذكر ما فيه من المواعظ والأخبار على وجه الاستبصار، محتنباً عما يشوشك عن غبار الأغيار، معيراً بمعيار العبرة والاعتبار، بحيث لا يلهيك عنه وسوسة الشيطان الحيل المكار، وعليك أن تتوسل في استرشادك من كتاب الله بأحاديث رسوله المختار، إذ هي مبينة له، كاشفة عن سرائره ومرموزاته، موضحة لما فيه من الغوامض، متكفلة لسلامة عقيدتك من العوارض، فلك أن تواظب على الاستفادة منها مشمراً ذيل همتك لتهديب ظاهرك وباطنك عما يعوقك عن العروج إلى معارج التوحيد ومدارج التجريد والتفريد، ناوياً في استفادتك استخلاص نفسك عن ربة التقليد، ملتزماً سنة إبراهيم عليه السلام التي هي سنة نبيك ﷺ القائل كما جاء في الحديث المتفق عليه: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» وراوي الحديث سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه الذي أسلم في العام السابع أي أن الحديث ورد في فترة الصراع مع أهل الكتاب! والمسلم اليوم إذا أراد يتحقق في قضية بني إسرائيل أهل الكتاب فلا بد أن ينطلق من الشك في حقيقتهم وفي حقيقة إيمانهم بالله واليوم الآخر، الشك الناضج والتساؤل الفعال الذي يقتلع جذور الشرك ليزرع مكانها جذور التوحيد... وهذا التساؤل هو المحرك الأول لفهم معالم

الدين: إسلام وإيمان وإحسان مع إدراك حقيقة الحفاة العراة «هذا جبريل جاء
ليعلم الناس دينهم» وقد اعتمد الخطاب القرآني على أنموذج تاريخي عريق في
التساؤل ليدخل من خلاله إلى حقيقة بني إسرائيل وعقائد اليهود والنصارى
ومناهج أهل الكتاب، ومن هذه الحقيقة المميزة للوضع الإبراهيمي في السياق
القرآني يمكن أن نفهم كيف بنى الخطاب القرآني عنصر التفكير الأول عليه!
فالحوار الذي دار بينه وبين آزر انطلق من الشك بالمناهج التقليدية في مجتمعه
ليبدأ بالبحث عن الحقيقة التي تمثل نضج العقل الإنساني ومحاولته فك أسرار
الخلافة، وذلك برفض كل البدهيات التقليدية والبدء من جديد نحو هدف
واضح بفهم راجح بعد أن سارت رياح التاريخ بعكس ما تشاء سفن الإسلام
الحنيفي. وآزر هو رمز للسلطات التي تُكرس بقاء التقاليد والأعراف المخالفة
للوحي... لقد كانت الشرارة الأولى التي مهدت لنزول الكلمة الإلهية هي شرارة
التساؤل الذي مهّد له الطريق، وهل يمكن أن يُلهّم الحكمة عقل خامل لا نظر
فيه ولا تساؤلات؟ أو أن ينمو الإيمان في قلب لم يستيقن ويتحقق؟ وإذا كان أبو
الأنبياء قد سأل رؤية كيفية إحياء الموتى فإن موسى الكليم حفيد الرسول
إبراهيم كانت له معطيات واقعية مشابهة ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه
قال رب أرني أنظر إليك﴾ إن مرتبة الطمأنينة التي حازها إبراهيم عليه السلام ومرتبة
الأولية على المؤمنين التي حازها موسى عليه السلام كانت نتيجة بحث وجهد وتأملات
وتساؤلات بعيداً عن درن التقليدات! وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على
دم التقليد كما جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث أسماء أن رسول الله
ﷺ قال: «وأوحى إليّ أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال فأما المؤمن
أو المسلم فيقول: محمد جاءنا بالبينات فأجبناه وآمنا، فيقال: نعم صالحا علمنا

أنك موقن، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً **فقلته»** ورؤي أن إبليس تمثل لعيسى عليه السلام فقال: قل لا إله إلا الله، فقال: كلمة حق أقولها لا لقولك. وذلك لأن إبليس تحت الخير تليسات لا تتناهى يُضل بها أصناف الخلق. لقد وهب الله سبحانه للإنسان العقل المميز والإرادة الحرة والفطرة السليمة واستنقذ ما ران عليها بحجية الكتب والرسل لينضبط المؤمن بميزان المنهج الإلهي الممثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يكون مع الحق حيث كان، لا ينصرف إلا لطريقة المتابعة المحمدية في الأقوال والأفعال، لا تميحه العصبية هكذا وهكذا، متى صرعه الحق انصرع له، ولو جرى على لسان رقيقه ومملوكه، وشعاره الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها في تثبت ويقين، والملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المبحث الأول:
حقية المنزل وصديق المنزل عليه

الحمد لله المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتعزز المتأزر بإزار المجد والبهاء، المتوحد المتفرد بالقيومية والبقاء، الأزلي الأبدي العلي بذاته المتعالي عن أن تصفه ألسنة العقلاء، وتعرب عنه أفهام العرفاء، الكبير المستكبر في شأنه، المحيط بعموم مظاهره ومصنوعاته، المستقل بأمر الوحي والإنزال، والإلهام والإرسال، العزيز الغالب في أمره وشأنه، الحكيم المتقن في أفعاله وتديراته الجارية في ملكه وملكوته، جل جلاله عن أن يحيط به وبأوصافه وأسمائه مشاعر شيء من مظاهره ومصنوعاته، لا قدرة لمخلوق مع قدرته، ولا فعل لمصنوع دون مشيئته، ولا رادّ لإرادته ولا معقب لحكمه، ولا يجري في ملكه إلا ما ثبت في علمه، ورسم في لوح قضائه، واحد في عز سنائه، فردّ في جلال بهائه، وترّ في جبروت كبريائه، له الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، دلت الأفعال على علو شأنه، وذلت الرقاب عند شهود سلطانه، لا حدّ لذاته ولا عدّ لصفاته، ولا حصر لأسمائه ولا نهاية لأوصافه، ارتفعت عن صفة المخلوقين صفات قدرته، وعلا عن ذكر الذاكرين كبرياء عظمت، لا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأفهام، كلّت الألسن عن تفسير صفته، وانحسرت العقول عن كنه معرفته، لا شريك له ينازعه، ولا منازع يعانده، ولا ضد يكافئه، ولا معين يساعده، ولا قسيم يجانسه، ولا قديم يؤانسه، ولا شيء يماثله، إذ لا موجود غيره، ولا وجود لغيره، ولا إله سواه، الكل منه بدأ في الابتداء، وإليه يعود في الانتهاء، ولا يجري في ملكه إلا ما يشاء، اختص بصفات الجلال والعظمة والكمال، وتنزه عن الحد والجهة والأشكال، وتعالى عن الأنداد والأشباه والأمثال، بإرادته إدالة الدول وتصريف الأحوال وتقدير الآجال، لا تغرب عن علمه خبايا الأفئدة وخفايا الأعمال، فسبحانه ما أعظم

شأنه! وما أعزَّ سلطانه! وما أجلُّ برهانه! عليٌّ في فخامة شأنه وجلالة مقداره،
حكيم في كمال تمنعه وكبريائه، منزّه متعال عن شركة أحد من خلقه، لا تتناهى
قدرته فلا تتناهى مقدوراته، ولا تحصى بوجه معلوماته، لا تلاحظه العيون
بأنظارها، ولا تطالعه العقول بأفكارها، شأنه لا يضاهى، وإحسانه لا يتناهى،
ونحن في معرفته حائرون، وفي إقامة مراسم شكره قاصرون.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المجتبي المقرب
 المنتخب الذي شيد أركان الشريعة للعالمين، وأوضح أفعال الطريقة للسائرين،
 ورمز في علوم الحقيقة للعارفين، بين دقائق القرآن، وظهرت به معالم العرفان،
 وتشرفت به جميع الأكوان، أشرف نوع الإنسان، المستخلص من خالص
 خلاصة ولد عدنان، جوهرة خزانة القدرة الإلهية، وعروس ممالك الحضرة
 الربانية، السر الجامع الفرقاني، والمخصص بمواهب القرب من النوع الإنساني،
 مورد الحقائق الأزلية ومصدرها، وجامع جوامع مفرداتها ومنبرها، أظهر سرائر
 الغيوب، وزين مقاصير القلوب، بيت الله المعمور الذي اتخذ لنفسه، وجعله
 ناظماً لحقائق أنسه، شخصت أبصار بصائر سكان سدرة المنتهى لجلال جماله،
 وحتت أرواح الأنبياء إلى مشاهدة كماله، وتلفتت لفتات أنفس الملا الأعلى إلى
 نفائس نفحاته، فخرج به إلى المستوى الأقدس، وأطلعه على السر الأنفس، في
 إحاطته الجامعة، وحضرات حظيرة قدسه الواسعة، فوقفت أشخاص الأنبياء في
 حرم الحرمة على أقدام الخدمة، وقامت أشباح الملائكة في معراج الجلال على
 أرجل الإجلال، وهامت أرواح العشاق في مقامات الأشواق، اشتاق القمر
 لمشاهدته فانشق، فشق مرائر الأشقياء المشاققين، وحن لمفارقه الجذع فتصدع
 فانصدعت قلوب السفهاء المنافقين، ولم يزل يجاهد في الله بصادق عزماته،
 وينظم أشتات الإسلام بعد افتراق جهاته، واصل الله عليه فضائل الصلوات،
 وشرائف التسليمات، ونوامي البركات، وعلى آله درر خزائن الغيب، وأصحابه
 الأئمة المبرئين من كل دنس وعيب، صلاة وسلاماً لا ينقطع عنهما أمد الأمد،
 ولا يحصرهما العدد أبد الأبد. أما بعد:

فإن كتاب الله المبين هو المعجزة الكبرى في حفظ هذا الدين الذي ارتضاه تعالى للعالمين، ولما كانت بلاغة البيان تعلو إلى علو قدر المبين، كان علو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه، وبيان كل مبين على قدر إحاطة علمه، وبيان الله سبحانه عن الكائن بالغ إلى غاية ما أحاط به علمه، وقد حوى كتابه علم الأولين والآخرين، وأخبار الحاضرين والغائبين، ونبأ كل شيء، وتفصيل كل شيء، وتنزيل كل وحي، ولذلك كان ختماً لكل كتاب، ونبوة المنزل عليه ختماً لكل نبوة ورسالة... والناس في العلم بهذا الكتاب طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به، فإن من وفقه الله لتعلمه والعمل بما علم منه؛ فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة...

الفصل الأول: عداوة الشيطان للإنسان

لما تمت المشيئة الإلهية للإنسان أن يكون خليفة في الأرض، جهّزه بالمهمة الضخمة التي سيكلها إليه، وخصّه بسر القدرة على الرمز بالأسماء التي لم يُجهّز بها الملائكة من قبله ما داموا مخلوقين لغير ما خلق له، وأسجد له الملائكة الكرام، فكانت مَعلاة له شاهدة بفضله، وأسكنه جنته وقال له ولزوجه ﴿كُلَا مِنْ حَيْث شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وهي كناية عن كل ما نهي الله عنه، وقال ﴿إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوأتهما لغرض إيقاعهما في المعصية وإسقاطهما من مرتبتهما، ولما كان عدواً لهما كان يسعى إلى ما يؤذيهما، ومظهر الأذية إبداء السوات، وكان لباسهما نوراً فلما خالفا النهي انكشف عنهما وبدا لهما شؤم المعصية وطفقا يستران نقائصهما ويمحوان ذنوبهما بالواردات والإلهامات الربانية التي هي من تفاريع المعارف الإلهية ومستنبطات العلوم اليقينية، وقد تمثل لهما اللعين في صورة شيخ جليل وأقسم على أنه ناصح لهما وأخذ في تأويل نهي الله إياهما عن الأكل منها تأويلاً باطلاً حيث قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة لغرضٍ إلا لغرض أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وعَلِمَ اللعين أنهما ما طمعا أن يكونا ملكين وذلك لسجود الملائكة لآدم وتفضيله عليهم فأتاهما من جهة الخلد والرياسة ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ وألقى إليهما تسويلاً خفياً مزيناً ذلك لهما وأقسم لهما بالنصيحة فخدعهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية، وهذه أول خدعة صدرت عن الشيطان وأول تضليل منه للإنسان... والقصة تُرشدنا إلى قضية ضخمة وهي أن البشرية انحرفت في أول أمرها حين استزلها الشيطان بوسوسته وإغوائه

وإغرائه، وأول معصية ارتكبتها تَمَّ بخدعته! فإن من مكاييد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح، فيصور الشر بصورة الخير! والعداوة متأصلة وجبلية بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله **(بعضكم لبعض عدو)** وقد مر آدم عليه السلام بمراحل ثلاث: المعصية على وجه السهو ثم الإنابة ثم الاجتناء بالنبوة **(وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)** فهل نستفيد اليوم من هذه التجربة التي مرَّ بها آدم عليه السلام؟ وهو يمثل الفطرة البشرية التي تحتاج إلى الوحي، لنخرج من مرحلة التيه، إذ لا يمكن للعقل وحده أن يتنبّه إلى المخلوقات المعنوية بإضلاله...

لقد أنزل الله تعالى الكتب وأرسل الرسل وأوضح السبل ونصب الأدلة إبطالاً لكيد الكائدين وحيل المحتالين، وإرشاداً للعباد إلى العهد الذي عُهد إليهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وكان الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل من أولهم إلى آخرهم، شهد المولى به وأشهد ملائكته وأولي العلم الذين هم خلاصة الأنعام فقال المولى سبحانه **(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام)** ذلك أن الإسلام هو الدين المشتمل على توحيد الله في الحكم والعبادة، وقد تأكد ذلك بإيراد التهليل مرتين دلالة عليهما، ثم قرن بهما قوله **(العزيز الحكيم)** لتضمنهما معناه لأن كونه قائماً بالقسط لا يتم إلا بتقرير الوحدانية في الحكم والعبادة كما قال عز وجل **(إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه)** ولما أقام المولى سبحانه الشواهد اللاتحة والدلائل الواضحة أخبر عن ضلالات أهل الكتاب وخباثة جبلتهم وطويتهم وسوء قصدهم وافتراءهم في دين الإسلام وتلقيهم له

بالاختلاف بعد ظهور الحق واستبعاد وجود الخلاف فقال ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ والبغي: السعي بالقول والفعل في إزالة الحق بما اشتملت عليه ضمائر الباغي من الحسد.

﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾

مدلولات القراءة النبوية لتقسيم الأزمنة التي تمر بها الأمة المسلمة:

مرحلة النبوة المحمودة الحمديدية والرسالة الخاتمية والنيابة الإلهية والكمالات الفائضة الربانية التي انتهت بوفاة سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام.

ثم مرحلة الخلافة الراشدة كما روى الإمام الترمذي عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخلافة في أمي ثلاثون سنة ثم مُلْكٌ بعد ذلك**» قال ابن كثير: كانت خلافة أبي بكر سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة إلا اثنتي عشر يوماً، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين، وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحواً من ستة أشهر. اهـ. هذا من حيث التاريخ الرقمي المنصوص، أما من حيث التاريخ السلوكي العملي للمرحلة فيدل عليه ما رواه البزار عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**تدور رحى الإسلام يعني على رأس خمس وثلاثين سنة فإن يهلكوا فسيبيل من هلك وإن يبقوا يبقى لهم أمرهم سبعين سنة**» ودوران الرحى كناية عن الحرب والقتال وكان ذلك سنة خمس وثلاثين عند ما خرج أهل مصر وحصروا عثمان رضي الله عنه وبعدها بسبعين سنة لم يبق من الصحابة أحد.

ثم مرحلة المُلْك العاض أو الخير الذي فيه دَخَن، وهي أطول المراحل الزمنية حيث امتدت إلى سقوط الدولة العثمانية.

ثم مرحلة الشر المحض، وهي مرحلة المُلْك الجبري وأشرط الساعة والسنين الخدّاعة التي سقط فيها قرار الحكم والعلم ولم يبق فيها غير الحفظ العام الموعود من الله للأمة وللقرآن على أيدي العلماء شيوخ السند والمدد من أهل العترة النبوية والمرتبطين بهم وقد عبر القرآن عن هذه المرحلة بالعلو الكبير لبني إسرائيل في الأرض.

ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» وفي بعض طرق الحديث: «أول دينكم نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك وجبرية» وبالملاحظة التأملية لهذه المرحلة وظواهرها ومظاهرها وألسنتها الناطقة والصامته ومستجداتها وموعوداتها تنجلي الحقيقة وتنكشف الوجوه المقنعة والخدع الإبليسية المتنوعة...

واعلم أيها المؤيد بالوحي الإلهي والنور القدسي أن هذه الجبرية التي تشهدها أخطر مرحلة تمر بها الأمة! ومن نجا منها نجا من فتنة الدجال كما جاء في

صحيح ابن حبان من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال إنها ليست من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلا تتضع لفتنة الدجال فمن نجا من فتنة ما قبلها نجا منها وإنه لا يضر مسلماً مكتوب بين عينيه كافر مهجّة ك ف ر» وإنما خاف ﷺ الفتنة على أمته في هذه المرحلة التي تحوّل الحكم فيها إلى الأمة الإسرائيلية! وأصبح المؤمن طائراً بلا جناح، ومحارباً دون سلاح، يدعو إلى جهاد السفهاء السفال، أئمة الكفر والضلال، روى أبو داود الطيالسي بإسناده عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون» أي الحكام والعلماء الذين يسلكون منهج التحريف والصراع وإثارة الخلاف بين المصلين ويسيسون الإسلام والإيمان والإحسان لاستقطاب الناس وإضلالهم وخداعهم! وفتنتهم عظيمة جسيمة يمل الخاطر عن إملائها ويكل اللسان من بياها، ولذلك أرشد ﷺ أمته إلى التنبّه والتحقق والتجرد والسؤال والنظر لما في هذه المرحلة من عظام الأهوال واختلاط المسلمين بالكافرين، ولا يتصور اليوم معرفة دعاة الإسلام من أعدائه الذين تظاهروا به إلا بعد الشك فيهم وإعادة النظر وإعمال الفكر في أفعالهم لأن دليل أصل المرء فعله، ولهذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام إماماً للناس لا للمتقين فحسب...

هذه المرحلة الغامضة استدعت نزول رئيس الملائكة جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ متمثلاً في صورة رجل بمحضر من الصحابة الكرام ليروا ويسمعوا الروح الأمين الذي وصفه المولى بقوله **(إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين)** حضر بمشهد من الصحابة متأدباً معلماً مبيناً عظمة ومنزلة سيد الوجودات، وشرف صنوف المخلوقات، وعلة نسج هذه الذرات،

وروح أجزاء الكائنات، عليه أكمل الصلوات والتسليمات، حيث أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم سأله عن الساعة لأنها ميعاد الجزاء على ذلك كله، وهذه المسائل الأربع تمثل معالم الدين فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الدين تركه، وقد جعل ذلك كله ديناً، وفي هذا الحديث انحصرت علوم الدين ورجعت كلها إليه، ومن مقاصد الركن الرابع من أركان الدين ومهماته كشف الحقائق المغيبة عن عقول المسلمين وخاصة فيما يتعلق بكيد الشياطين وأضاليل المفسدين في أمر الدنيا والدين، فالتأمل في هذا الركن هو الكفيل بإبراز خطورة هذه المرحلة ومقاومة العدو النجدي المتربص بالأمة المستغفلة وهو يدفعها إلى خراب دينها ودنياها بشتى الوسائل القائمة على التحريش بين بعضها البعض كما ورد عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الترمذي: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينهم» وفي سؤاله عن الساعة قال الصادق المصدوق عليه السلام: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها» والاستدراك ناشئ عن الاهتمام بأشراطها، على معنى: لا تسأل عن الساعة واسأل عمّن سأنبئك بشأنهم، ثم قال عليه السلام: «إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها - والمراد الإخبار عن تبدل الحال وانعكاسه وتغيره وانقلاب الأمور - والله ورسوله أعلم - فبعد أن كانت أمة الإسلام متبوعة أصبحت تابعة لبني إسرائيل يدتسون مقدساتها ويأكلون فيأها - وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها» أي في هذه المرحلة التي يحكمون فيها العالم، وهذا ما أكّده الرواية الأخرى في صحيح الإمام مسلم بما لا يدع مجالاً للشك: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها - والمراد بهم السفلة الرعاع

أولياء الشيطان - ولما أدبر جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» والحديث يكشف عن قادة الفتنة وأئمة النفاق وزعماء الضلالة! وعليه فيمكن تقسيم علامات الساعة في هذا الحديث إلى ثلاثة أقسام: أحدهما: ما يختص بقبض العلم وحصول خلل في الاعتقاد وهو ما أشار إليه قوله: «إذا ولدت الأمة ربهما» والثاني: ما يختص بنقض الحكم وتملك البلاد وهو ما أشار إليه قوله: «وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس» والثالث: ما يختص بحصول فساد في المال والاقتصاد وهو ما أشار إليه قوله: «وإذا تطاول رعاء البهيم في البنيان» وقد جعل ﷺ معرفة ذلك من صميم الدين وأشار إلى ما طرأ على الإنسانية وعلى الأمة الإسلامية من حبكة الشيطان وأوليائه وهيمنتهم على الأمم والشعوب.

والوصف بالحفاة العراة هو الأبلغ في الدلالة على تفاهتهم وأنه لا يُفطن إليهم ولا يُؤبه لهم ولا يُبالى بهم ولا يُهتدى للتحفظ منهم ولا تلحقهم الظنون لبذاذهم وقتلتهم! ومن هنا يتوجب على المؤمن تطلب أخبارهم والنظر في أحوالهم والتنبه على خطرهم وعظم فتنهم! وفي ذلك تحصين ووقاية شرعية للمسلم تحفظه وترشده إلى الصواب وتجنبه الوقوع في مسببات الإثم والعقاب وتبين له الموقف المتخذ شرعاً نحو هؤلاء القوم.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً» وفي هذا دليل على أنه ﷺ ذكر لهم جميع العوالم العلوية والسفلية والمرئية والغيبية حتى ذكر لهم عالم الطير وذكر لهم منه علماً فهل يتصور العاقل بعد ذلك أن يكون رسول الله ﷺ قد أهمل بيان

بني إسرائيل وترك ذكرهم؟! بل الحق الذي لا ريب فيه أنه ﷺ بين أمرهم على
أكمل الوجوه يعلم ذلك كل من عقل وتبصر وتفكر فيما جاء به ﷺ.

الفصل الثاني:

يا حذيفة تَهَامُ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ

روى أحمد وأبو يعلى والبزار عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن أمتك مختلفةٌ بعدك، قال: فقلت: فما المخرج يا جبريل؟ قال: كتابُ الله، يُعْتَصَمُ به من كل جبار، من اعتصم به نجا ومن تركه هلك، قولُ فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن ولا يثقل عن طول الرد ولا تفتني عجائبه، فيه نَبَأٌ ما كان قبلكم وقضاء ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم» وفي رواية للترمذي والبيهقي والدارمي والبزار عن سيدنا علي كرم الله وجهه وأتخفه برضوانه وسلامه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» قال: قلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نَبَأٌ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من يردّه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن ردّ ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، من قال به صدق ومن عمل به أُجِرَ ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ومن اعتصم به هُدى إلى صراط مستقيم» إن أقصى ما يمكن أن تحج إليه المقاصد الإنسانية تلتبس فيه زاداً يفتح مغاليق الأمور هو هذا الكتاب العزيز، ومعجزته بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان والنظم فوجدوا لذلك حلاوة، وعليه طلاوة، وهم أهل لسن وفصاحة، وأصحاب براعة وبلاغة، ونحن نأتي على ذكر طرفٍ من

آياته المحفوظة من الخلل، مسترشدين بهدي الحمود عند أرباب الملل والنحل، مستعصمين من الخطأ والخطأ، مستوفقين لأصوب القول والعمل، سالكين طريق الإقلال خشية الملل، فخير الكلام ما قل ودل، وحسبك من الزاد ما بلغك الحل. روى الشيخان عن طلحة بن مصرف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله. وروى الحاكم وأحمد عن أبي موسى الغافقي قال: إن رسول الله ﷺ كان آخر ما عهد إلينا أن قال: «عليكم بكتاب الله، وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عني، فمن قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ومن حفظ عني شيئاً فليحدثه» وروى الإمام الطبراني في المعجم الكبير عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا العطاء ما دام عطاء فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الاسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم وإن أطعتموهم أضلوكم» قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: «كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله» وذكر السيوطي في الجامع الصغير عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «سيكون أمراء من بعدي يأمرونكم بما لا تعرفون ويعملون بما تنكرون فليس أولئك عليكم بأئمة» وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وأسأله عن الشر وعرفت أن الخير لن يسبقني، قلت: يا رسول الله أبعد هذا الخير

شر؟ قال: «يا حذيفة تَعَلَّمْ كتاب الله واتبع ما فيه» ثلاث مرار، قلت: يا رسول الله أبعد هذا الخير شر؟ قال: «يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه» ثلاث مرار، قلت: يا رسول الله أبعد هذا الشر خير؟ قال: «هدنة على دخن وجماعة على أقذاء» قلت: يا رسول الله أبعد هذا الخير شر؟ قال: «يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه» ثلاث مرار، قلت: يا رسول الله أبعد هذا الخير شر؟ قال: «فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار، وأن تموت يا حذيفة وأنت عاض على جذلٍ خير لك من أن تتبع أحداً منهم» والفتنة العمياء تتعلق في شأن التلبس بالدين واتباع الأئمة المضلين أولياء الشياطين ومن ذلك ما أشار إليه الحديث عند أبي يعلى والدارقطني والترمذي في نواذر الأصول عن أنس بن مالك قال: كان في عهد رسول الله ﷺ رجل يعجبنا تعبه واجتهاده فذكرناه لرسول الله ﷺ ووصفناه بصفته ففيما نحن نذكره إذ طلع الرجل، فقلنا: هو هذا يا رسول الله، قال: «إنكم تخبروني عن رجل على وجهه لسفعة من الشيطان» قال: فأقبل حتى وقف عليهم ولم يسلم، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك الله! هل قلت حين وقفت على المجلس: ما في المجلس أحد أفضل مني أو خير مني؟» قال: اللهم نعم، ثم دخل ليصلي فقال رسول الله ﷺ: «من يقتل الرجل؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فدخل فوجده يصلي، فقال: سبحان الله! أقتل رجلاً يصلي وقد نهانا رسول الله ﷺ عن قتل المصلين؟ فخرج فقال له رسول الله ﷺ: «مه؟» قال: وجدته بأبي أنت وأمي يصلي وقد نهيتنا عن قتل المصلين، فقال رسول الله ﷺ: «من يقتل الرجل؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنا، فوجده ساجداً فقال: أقتل رجلاً واضعاً جبهته لله تعالى وقد رجع أبو بكر رضي الله عنه وهو أفضل مني! فخرج فقال رسول الله ﷺ: «مه؟» فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله وجدته ساجداً

فكرهت أن أقتله واضعاً جبهته لله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «من يقتل الرجل؟» فقال علي رضي الله عنه: أنا، قال: «أنت إن أدركته قتلته» فوجده علي قد خرج فجاء فقال: وجدته بأبي أنت وأمي قد خرج، قال: «لو قتلته ما اختلف من أمي رجلاً كان أولهم وآخرهم واحداً» أي كان أولهم وآخرهم على قلب رجل واحد. وقد أخبر ﷺ أن أمر الأمة في هذه الفتنة يؤول إلى دعاة الضلال كما في جاء في الخبر: «ثم تنشأ دعاة الضلال» يعني الأئمة المضلون وإليهم أشار ﷺ في الصحيحين من حديث حذيفة: «دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفه فيها» وأوصى ﷺ باتباع القرآن واعلم أيها الإنسان أن أتباع القرآن يستلزم اتباع روح الأعيان وكنز الأمان سيدنا سيد ولد عدنان فإنه الميّن لهذا القرآن... وروى البيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو جبل الله» ونظير هذا في التنزيل العزيز ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ والاعتصام بالقرآن مستلزم الاعتصام بالسنة لقوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ قال علامة العصر وفهامة الدهر الإمام التحرير مولانا السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الحسيني ثم الحسيني الشهير بالرواس رضي الله عنه: حبل النبوة حبل لا ينفصم، يصل إلى الحق من به يعتصم، ما زلّ عن الطريق من أخذ به، ولا انحرف عن الصواب من وقف معه، به الهداية إلى الطور الصالح والفهم النير، وعنده خيرات الدنيا والآخرة كلها، والمفارق له مفارق لكل خير. اهـ. روى الإمام الترمذي من حديث عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي» وفي رواية للخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث: «الذين

يحيون سنتي من بعدي ويعلمونها عباد الله» ومثله أيضاً حديث: «من أحيأ سنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد» ومن معاني هذه الآثار يُفهم ضرورة إحياء ما أمت الناس من السنة ومنها ما يتعلق بمعرفة الحفاة العراة خصوصاً عند ظهور لعن آخر الأمة لأولها كما جاء في قوله ﷺ: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كتم حديثاً فقد كتم ما أنزل الله» وفي رواية: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عند علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد» ولا يخفى ما حل بالأمة من فتن التحريش والخلاف في أمر الدين واستتباع سنن بني إسرائيل وكل ذلك بأسباب أهمها ذهاب العلم وسقوط الحكم كما في الحديث: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي تليها أولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة.. ورُب مصلٍّ لا أمانة له» وهذا الحديث الهام يضع حكام العالم في قفص الاتهام ويشير إفسادهم في مسيرة الحياة وما يفعلونه من إلقاء البشرية بالمتناقضات والصراع الطبقي والسياسي والاعتقادي ليحجبوا خطر التهمة عن أنفسهم وهم يصنعون مستقبل الدجال في العالم مع الشيطان! ولذلك لا بد من تعلم فقه أشراط الساعة وكشف عيون الفتنة وزعماء الضلالة وقادة النفاق الذين نقضوا العلم والحكم فالعصر عصر دجل ودجاجة ونحن معنيون بإحياء السنن الميته والمهجورة وتدبر كتاب الله فقد روى الدارقطني وأحمد والبخاري وأبو يعلى بألفاظ متقاربة عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه وأتفه برضوانه وسلامه أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل فقال يا محمد: إن الأمة مفتونة بعدك، قلت له: فما المخرج يا جبريل؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين وهو الصراط المستقيم وهو قول فصل ليس بالهزل إن هذا القرآن لا يليه

من جبار فيعمل بغيره إلا قصمه الله ولا يتغى علماً سواه إلا أضله الله ولا يخلق عن رده وهو الذي لا تفنى عجائبه من يقل به يصدق ومن يحكم به يعدل ومن يعمل به يؤجر ومن يحكم به يقسط»

والمأمل لهذا الكتاب العزيز والناظر فيه يلاحظ أنه يلفت الأنظار إلى المسجد الحرام ويُذكر القارئ بين الفينة والأخرى بمكانة هذا البيت ويحرض المؤمنين على تطهيره ويرشدهم إلى تحريره بل إن معظم سور القرآن تتحدث عن هذا البيت بالتصريح أو بالتلميح والتلويح بينما الأقصى لم يذكر سوى مرة واحدة وجاء مقترناً بذكر المسجد الحرام! وهذا يعني أن المشكلة ابتداء هي في تلك البقاع المعظمة... وإذا قمنا باستقراء المراحل التاريخية - وعلى وجه الخصوص مرحلة الحكم الجبري - نجد أن الدولة الوهابية السعودية هي المعنى بذلك وعليها مدار حديث الحفاة العراة كما سيأتي بيانه مفصلاً إن شاء الله تعالى، وكان أول أمرها في الدرعية بنجد عام 1139هـ الموافق 1727م ولما أصبحت ذات مركز قوي في المنطقة تم إعلان الدولة عام 1157هـ الموافق 1744م وقد قامت على قبيلتين: آل عبد الوهاب وآل سعود الذين عقدوا ميثاقاً سُمي (ميثاق الدرعية) بين الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود تم الإعلان عنه عام 1158هـ الموافق 1745م وهو ما شكل تقاسماً للسلطة حيث قال ابن عبد الوهاب لابن سعود: «الرياسة فيك وفي ذريتك من بعدك، والمشيخة والخلافة فيَّ وفي آلي من بعدي أبداً بحيث لا ينعقد أمر ولا يقع صلح ولا حرب إلا ما نراه كذلك» فقال ابن سعود: «قبلت وبابعتك على ذلك» وبدأ الإمام ابن عبد الوهاب في إقامة دعوته النجدية وكانت له المشورة في جُل الأمور ثم أرسل الرسائل إلى أمراء وقضاة ومشايخ البلدان المجاورة

يدعوهم فيها إلى الامتثال لدعوته الدينية وتوحيد الصفوف القتالية فبدأت سلسلة معارك متصلة امتدت من عام 1160هـ ولا تزال فتنة الأئمة المضلين تتجدد في الفينة بعد الفينة في أقطار عديدة من العالم مدة تقارب الثلاثمائة عام مما وفر زخماً كبيراً للنفوذ في الأرض!

روى الإمام الدارمي بإسناده عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر بن الخطاب: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين».

ولما أخبر ﷺ أن من نجا من فتنة ما قبل الدجال نجا من فتنة الدجال، وكان كتاب الله هو الحكم للناس في هذا الإبان، وكان متلقى من أفضل الوحي والكتب الإلهية؛ حث النبي ﷺ على تعلمه ورغب فيه وأمر الناس بالرجوع إليه لكونه الميراث الأصيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من تدرّع به ملك حاضره ومستقبله، ومن أعرض عنه فهو كالعطشان أدلى دلوه جوف بئر ما بها قطرة ماء... والنبي ﷺ هو المبين لهذا الكتاب حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإسناد التبيين إلى النبي عليه الصلاة والسلام باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان، واللام على هذا الوجه لذكر العلة الأصلية في إنزال القرآن، وتكون اللام لتعليل بعض الحكم الحافّة بإنزال القرآن وهي كثيرة، ثم عطف بقوله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لحكمة أخرى من حكم إنزال القرآن وهي تهئية تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يتلى عليهم، فعلى الوجه الأول في تفسير ﴿لتبين للناس﴾ يكون

المراد أن يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده، وعلى الوجه الثاني أن يتفكروا في بيانك وحديثك ويعوه بأفهامهم، والله تعالى أعلم.

وإذا كان القرآن وحياً من الله سبحانه وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدى العرب بمعارضة أقصر سورة منه، فقد نسج نظمه نسجاً بالغاً أقصى ما يراد من سلاسة اللفظ وحسن السبك وجودة الرصف وإحكام الترتيب مع ما تضمنه من الوعظ والتذكير والإيعاد والوعيد، فجاء القرآن على أسلوبٍ أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب! قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ أي ومثل ذلك التنزيل البديع أنزلناه قرآناً عربياً فهو بديع في فصاحته وشرف معانيه وعذوبة تراكيبه وارتفاعه على كل كلام من كلام البلغاء وفي تنجيته وغير ذلك، وإن شئت قلت: كما أنزلنا الكتب السابقة المنبئة عن التوحيد المذكرة بيوم الوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة في أساليب مختلفة وأفانين متنوعة مؤتلفة، والضمير في قوله ﴿لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ لبني إسرائيل والكلام مرتبط بما افتتحت به السورة من قوله ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى﴾ لأنهم المقصود الأول، قال شيخ الإسلام مولانا أبو الهدى الصيادي الرفاعي الحسيني الحسيني قدس الله سره النوارني: طه اسم من أسمائه ﷺ يشتمل على الطاء والهاء وهما من حروف الهجاء والطاء بتسعة والهاء بخمسة والمعنى الإشاري: أيها القمر ليلة أربعة عشر. اهـ. ولما بلغت هذه الجمل نهاية الإعجاز فاشتملت على غاية الحكمة دالة على أن لقائلها تمام العلم والقدرة والعدل في أحوال الدراين تسبب عن سوقها أن بان له من العظمة ما أفهمه قوله معظماً لنفسه الأقدس بما هو له أهل بعد تعظيم كتابه تعليمًا لعباده ما يجب له من الحق

دالاً بصيغة التفاعل على مزيد العلو **(فتعالى الله)** أي فتعالى الله عما يصفه به أهل الكتاب من اتخاذ الولد والشريك فلا يلحقه شيء من إلحادهم ووصفهم **(الملك الحق)** أي الذي يحق له الملك بأنه ملك غير مُملَك وكل مُلك غيره فملكه مستعار. والجملة معترضة بين جملة **(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا)** وبين جملة **(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه)** أي من قبل أن يوحى إليك بيانه وتبيناه... وسمي قرآناً لأنه نظم على أسلوب معجز سهل في تلاوته، والتكثير يفيد الكمال أي أكمل ما يقرأ، وفي وصفه **(عربيا)** تعريض بالعرب من بني إسرائيل وتحميق لهم حيث أعرضوا عنه وكذبوا به، وذكر الوعيد هنا للتهديد ولمناسبة الكلام السابق **(وقد خاب من حمل ظلما)** أي شركاً تعريض بأهل النار! وكان ﷺ يطلب المزيد من العلم ويستعيد من حال أهل النار كما جاء في السنن أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: **«اللهم انفعني بما علمتني وعلمي ما ينفعني وزدني علما، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار»** ولأجل هذه المناسبة ذيلت الآية الكريمة بقوله **(وقل رب زدني علما)** أي بتفهم ما أنزلته كما زدني بقراءته وتحفيظه وفي هذا دليل على أن التأني في العلم بالتدبر وبإلقاء السمع أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال وأعون على الحفظ فمن وعى الكلام تجنب الزلل واستقام.

ولما كان لبني إسرائيل دور كبير في البشرية على مر العصور وكانت لهم آثار خفية متجددة لا يدركها الإنسان بوسائل معرفته الذاتية؛ ناسب أن يُفرد لهم السياق القرآني كل هذه المساحة ويربطهم بالأمم الغابرة.

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع
عليم)

اعلم أيها المجبول على حب النبي الجليل، أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل،
ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب
الآيات الدالة على تعظيم قدره ﷺ ورفعته ذكره، وعلو منصبه الجليل ومكانته،
وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في
حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهار عظيم شأنه
لديه، وقسمه تعالى بحياته، إلى غير ذلك مما يشير إلى أناقة قدره العلي عنده، وأنه
لا مجد يساوي مجده، ومن تأمل القرآن العظيم وجدده طافحاً بتعظيم الله تعالى
لنبيه صلى الله وسلم عليه، وزاده فضلاً وشرفاً لديه، بل كل حرف من
حروف القرآن ناطق بفضائل الرسول العظيم وخصائصه كما في قوله تعالى
(يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين) أي يا سيد الناس أجمعين، وحقاً
لقلب الأكوان أن يُذكر في قلب القرآن، والقسم بالقرآن يشمل كل حروفه
المنطوقة وأسراره المخزونة وإشاراته الخفية، وعظم القسم يؤذن بفخامة شأن
المقسم عليه، ومن وجوه المناسبة بين القسم والمقسم عليه: أن في كل حرف من
حروف القرآن المقسم به: شهادة على المقسم عليه، وهو حقية رسالته ﷺ مع ما
يقتضيه ذلك المقام الرفيع اقتضاء لازماً من اتصافه بالحكمة الباهرة والعلوم
المتظاهرة وثبوت سائر الكمالات له في جميع شؤونه الظاهرة، والله در القائل:

يا قلبَ كلِّ الكائنات الذي ... كلُّ كتابِ الله في قلبه

أنت كتابُ الله في قلب مَنْ ... قد قاده الحظُّ إلى ربه

وفي مطلع السورة يخاطب الله تعالى المؤمنين بخطاب فيه قوة التنبيه بقوله "يا" ثم التأنيه بقوله "أيها" ثم بقوله "الذين آمنوا" أي أنتم الذين آمنتم بالله ورسوله وفي هذا حث لهم على اهتمامهم بما يلي والتزامهم به فيقول سبحانه "لا تقدموا بين يدي الله ورسوله" وإن من الأدب أن لا يُتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند كل ذي عقل سليم. قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ. وانظر أدب الصديق ﷺ معه ﷺ في الصلاة إذ تقدم بين يديه كيف تأخر وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، كيف أورثه مقامه والإمامة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أوماً إليه أن اثبت مكانك. ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجراءة عليه، ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه صاحبه ممكناً أو يسميه شبهة أو شكاً أو يقدم عليه آراء الرجال وتحليلاتهم وزبالات أذهانهم وما شابه ذلك من متابعة تقارير الإعلام ومناقشة فضول الكلام وبحوث التسييس والاستسلام وصراعات القيل والقال وتبرير الانهزام، بل يوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل

بالحكم والعبادة والخضوع والذل والإنابة، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره. قال شيخ الختمية المحمدية الغوث الأكبر والكبريت الأحمر والقمر الفاطمي الأزهر مولانا الإمام السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس الله أسرارهِ وشيد آثارهِ: من حُرِم معرفة قدر النبي ﷺ فلا سبيل له إلى معرفة الله ولا إلى محبته تعالى ومن ضل عن طريقه وسنته فكل طريقه ضلال. وقال سهل بن عبد الله التستري قدس سره: من لم ير ولاية الرسول ﷺ في جميع أحواله، ويرى نفسه في ملكه لم يذق حلاوة سنته، لأنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فمن أثر هذا النبي الكريم على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن كان معه بلا اختيار ظهرت له خفايا حقائق أسرار أنسه.

(ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) الغرض المقصود بالآية هم كفرة بني إسرائيل وقد أشار إليهم المفسر الأعظم والمبين الأفخم ﷺ بقوله في الحديث المتقدم: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشرطها» وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتناولون في البناء ملوك الناس» قال الإمام الطبري في تفسيره: وأولى التأويل عندي بالآية التأويل الأول الذي قاله ابن عباس ومن وافقه عليه وهو أن معنى الآية: ومثل وعظ الكافر وواعظه كمثل الناقع بغنمه ونعيقه فإنه يسمع نعيقه ولا يعقل كلامه على ما قد بينا قبل فأما وجه جواز حذف "وعظ" اكتفاء بالمثل منه فقد أتينا على البيان عنه في قوله "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا" وفي غيره من نظائره من الآيات بما فيه الكفاية عن إعادته

وإنما اخترنا هذا التأويل لأن هذه الآية نزلت في اليهود وإياهم عنى الله تعالى ذكره بها ولم تكن اليهود أهل أوثان يعبدونها ولا أهل أصنام يعظمونها ويرجون نفعها أو دفع ضررها ولا وجه إذ كان ذلك كذلك لتأويل من تأول ذلك أنه بمعنى: مثل الذين كفروا في ندائهم الآلهة ودعائهم إياها. فإن قال قائل: وما دليلك على أن المقصود بهذه الآية اليهود؟ قيل: دليلنا على ذلك ما قبلها من الآيات وما بعدها فإنهم هم المعنيون به فكان ما بينهما بأن يكون خبراً عنهم أحق وأولى من أن يكون خبراً عن غيرهم حتى تأتي الأدلة واضحة بانصراف الخبر عنهم إلى غيرهم، هذا مع ما ذكرنا من الأخبار عمن ذكرنا عنه أنها فيهم نزلت والرواية التي روينها عن ابن عباس أن الآية التي قبل هذه الآية نزلت فيهم وبما قلنا من أن هذه الآية معني بها اليهود كان عطاء يقول: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم "إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً" إلى قوله "فما أصبرهم على النار". وقد بين الحق تعالى نفاقهم في مطلع السورة الكريمة **(صم بكم عمي فهم لا يرجعون)** وهذا إخبار من الله جل ثناؤه عن هؤلاء المنافقين الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدى وصممهم عن سماع الخير والحق وبكمهم عن القيل وبما وعماهم عن إبصارهما أنهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم فأيس المؤمنين من أن يبصر هؤلاء رشداً أو يقولوا حقاً أو يسمعوا داعياً إلى الهدى أو أن يذكروا فيتوبوا من ضلالتهم.

الفصل الثالث: الإيمان بالغيب

اعلم أن الإيمان: تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب، وفي مطلع الكتاب المبين وقع أول ثناء على المتقين الذين اهتدوا بهدي القرآن الكريم وانتفعوا به حقاً لأنهم عملوا بما أرشدهم إليه ودلهم عليه فصاروا بذلك متقين وهذا دليل على رجحان عقولهم فإن المتقي هو الذي يتوقى المكاره والمحاذير والمخاوف وينظر في عواقب الأمور ويتعقل فيها خوف الوقوع من المهالك (والم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وكان من شأن العقلاء المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ولو لم يروه عياناً لأنه قد ثبت عندهم صدق المخبر الذي جاء به ثبوتاً قطعاً فهم يؤمنون به ويعملون بمقتضاه (الذين يؤمنون بالغيب) أي الأمر الغائب الذي لا نافع في الإيمان غيره وهو ما أخبر به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في حديث جبريل عليه السلام من مغيبات أخبارهم وخفايا أحوالهم التي هي في غاية الغيبوبة حسبما يفيد قوله جل شأنه (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين، إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) والإيمان بذلك من عالم الغيب لا عالم الشهود ومعلوم أن الشيطان يدخل في الغيبات بخلاف عالم الشهود فإنه لا يمكنه أن يلبس فيه! ومقصود سورة البقرة إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ومجمعه الإيمان بما قصه تعالى عن بني إسرائيل وما أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب واليوم الآخر فلذلك سميت بها السورة وكانت بذلك أحق من قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها في نوع البشر ومما تقدمها في قصة بني إسرائيل من الأحياء بعد الإمامة بالصعق وكذلك ما شاكلها لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب

ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة ولا سيما وقد أُتبعَت بذكر قساوة قلوب بني إسرائيل الموجبة للشقاوة! واعلم أن العبد ينال الإيمان بالإخلاص فقد روى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله ﷺ قال: «سلوني عما شئتم» فنادى رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة» قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» الحديث. وقيل: المراد بالغيب ما لا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع كأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه وفسّر الغيب بالمصدر أي الغيبة والباء للملابسة وهي ظرف مستقر فالوصف تعريض بالمنافقين الذين يؤمنون بالظاهر وهم مبطنون الكفر، وهذه الأقوال وغيرها داخلة تحت عموم الغيب فهي من باب اختلاف التنوع لا من باب اختلاف التضاد كما هي القاعدة المقررة في علم التفسير... وإنما يؤمن بالغيب من كان معهم سراج الغيب وأوردتهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار... وإن أفضل الإيمان إيمان بالغيب، وما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، وبما وعد الله بالغيب، ولما أثنى النبي ﷺ على بني حارثة قال: «أولئك رجال آمنوا بالغيب» وقد وصف تعالى حملة العرش ومن حوله من الملائكة الكروبيين المستغرقين في أنوار جلاله سبحانه بالإيمان فقال ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وإنما يوصف بالإيمان: الغائب، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء وأنه تعالى منزّه عن صفات الأجرام، وقد روعي التناسب في قوله ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. والإيمان بالغيب يحصل

به الهدى والرشاد ويستقر به الإيمان في القلب ويتبصر المسلم واقعه ويستشرف مستقبله وينفتح له الباب إلى فهم القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين وأحوال الشخصوس والدول والحضارات، وبدون ذلك ستظل رؤيته مبتورة مشوهة منقوصة. والنبوءات الصحيحة وحيي يجب الإيمان بها لأنها من الغيب الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام ومن دلائل النبوة ومن دلائل الإعجاز وتكون عادة في أحداث كبرى...وهي من حيث العموم إنذارات وبشارات وهدايات تحدد للأمة معالم الطريق في مسيرة جهادها وحملها لرسالة الله إلى العالمين لتحقيق بها الشهادة وتقوم بها الحجة عليهم...وصرفها عند تحقق وصفها بالشك والريب بدعوى عدم جواز الجزم هو من تعطيلها...وكما أنكر الجاهليون دعوة النبي ﷺ في حياته مع ظهور أمره لكل ذي عقل؛ كذلك النبوءات لا ينكرها إلا جهلاء العقول، واعلم أن النبوءات انعكاسات لوحي رباني وسمو إيماني لا مجال فيها لاستفزازات الطبع أو تطويع نصوص الشرع. روى الإمام البزار في المسند عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «أي الخلق أعجب إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: الملائكة كيف لا يؤمنون؟ قالوا: النبيون، قال: النبيون يوحى إليهم فكيف لا يؤمنون؟ قالوا: الصحابة، قال: الصحابة يكونون مع الأنبياء فكيف لا يؤمنون، ولكن أعجب الناس إيماناً قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتاباً من الوحي فيؤمنون به ويتبعونه فهم أعجب الناس أو الخلق إيماناً؟».

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) هذه الآية الكريمة فذلكة جامعة لما فصل قبلها من العقائد الإيمانية

والأعمال التكليفية فجاءت مبينة لما يجب على المؤمن أن يقف معها موقف الإيمان الجازم والانقياد الحازم دون شك ولا ارتياب ولا تردد ولا اضطراب كما جاء في صفات المتقين المذكورة في أول آيات السورة وقد اشتملت الآية الكريمة على العقائد الإيمانية الستة المذكورة في حديث سيدنا جبريل عليه السلام حين سأل النبي الأكرم ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» والإيمان بالقدر داخل تحت الإيمان بكتب الله القضائية القدرية، والإيمان بالآخرة داخل في قوله تعالى ﴿وإليك المصير﴾ ولما سأله عن قيام الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأحدثك عن أشراتها: إذا رأيت المرأة تلد ربها فذاك من أشراتها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراتها» والحديث يشير إلى موقف ملوك الأرض تجاه الإسلام والإيمان والإحسان فكان الكلام في الحديث الشريف والآية الكريمة مسوقاً بطريق التعريض بكفرهم بعد شرح أحوالهم وتسلسل الكلام عليهم في سورة البقرة ابتداء من قوله ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأندرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ثم قوله ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ ثم قوله ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ ثم قوله ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ ثم قوله ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ يعني أن من عادى واحداً منهم فقد عادى جميعهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم وجبريل وميكائيل

إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل هو سيد سادات الملائكة وأمين الوحي وخازن القدس، ويقال له: الروح الأمين، وروح القدس، وطاووس الملائكة والناموس الأكبر إذ ينزل بالشرائع الربانية وبالكتب الإلهية على الرسل صلوات الله تعالى عليهم والناموس في أصل اللغة هو صاحب سر الخير وسمي جبريل عليه السلام بذلك لأنه أمين الله تعالى على أسرارهِ الموحاة إلى أنبيائه صلوات الله تعالى عليهم كما وأنه هو الذي يتعهدُها فيؤيد مؤيديها وأنصارها ويحارب محاربيها وينتقم من جاحديها والمستهزئين بها وكل ذلك عن أمر الله تعالى وإذنه فهو الذي صاح بقوم ثمود كما قال تعالى ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِينَ﴾ أي ساقطين على وجوههم لاصقين بالتراب وكان جزاؤهم من جنس عملهم فإنهم آذوا رسول الله صالحاً بأراجيف الأقوال والتهديد له وتعالوا بعلمهم مستهزئين وساخرين فجاءتهم الصيحة الجبريلية من فوقهم هزت قلوبهم وخلعتها وجاءتهم الرجفة الشديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق وحلت بهم المثالات أي العقوبات المماثلة... وهو الذي رفع مدائن قوم لوط عليه السلام وقلبها عاليها سافلها وذلك أنهم لما انقلب مزاج نفوسهم وانعكست ميولاتهم الشهوانية عن سنن الطباع الإنسانية وتمكن ذلك منهم بسبب شدة طغيانهم وإفراطهم في مصارف شهواتهم حتى اكتفى رجالهم برجالهم ونساءؤهم بنساءئهم - كما ورد أنه قيل لمحمد بن علي رضي الله عنهما: عذب الله تعالى نساء قوم لوط بعمل رجالهم فقال: الله تعالى أعدل من ذلك ولكن استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وآخرون يأتیان المرأة من عجيزتها

أي دبرها - فكان جزاء انقلابهم النفساني الانقلاب المكاني ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ وكم بين النفوس الإنسانية والآفاق الكونية من ارتباطات وتناسبات صحة وفساداً وعماراً وخراباً يعلمها ذووا البصائر والدرايات فإنه تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم! ثم أمطر الحق على من كان غاب منهم الحجارة ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ أي طين متحجر منضود أي منضد حيث إنه أعد وهبى لعذابهم فجيء به منظماً في الإرسال يرسل بعضه إثر بعض دون انقطاع ولا فتور متوالياً فوقهم كتوالي قطر الأمطار الشديدة ﴿مسمومة عند ربك﴾ أي عليها سيما أنها ليست من أحجار الأرض كما أنها معلمة باسم من يرمى بها أي كل حجرة وفيها اسم من ترميه وتصيبه وكانت أحجاراً كبيرة الحجم عظيمة الجسم قوية الحطم والهدم ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ وفي هذا تهديد ووعيد لمن نحا نحو قوم لوط من الظالمين الجدد في إشراكهم وفساد مزاجهم عياداً بالله تعالى! وروي أن مدائن قوم لوط كانت خمسة وقيل: سبعة كبرى فيها العدد الكثير والجسم الغفير من السكان فلما حق عليهم العذاب جاء سيدنا جبريل عليه السلام فاقتلع تلك المدائن من نخومها بريشة من جناح من ستمائة جناح له ورفعها وقلعها ثم أهوى بها كما قال تعالى ﴿والمؤتفة أي المنقلبة أهوى، فغشاها ما غشى﴾ أي غطاها بأمطار الحجارة الشديدة على شكل فطيع عظيم جداً... وقد امتن الله تعالى على بني إسرائيل بإهلاك عدوهم إذ أمر جبريل عليه السلام بحشر أتباع فرعون وجمع آخرهم على أولهم حين لحقوا موسى عليه السلام وتوجهوا نحو البحر ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أي اتبع فرعون وقومه نبي الله تعالى موسى وقومه ووصلوا إليهم عند شروق الشمس فلما تراءى الجمعان أي تقاربا بحيث رأى كل من الفريقين صاحبه ﴿قال

أصحاب موسى إنا لمدركون) أي ملحقون وذلك باعتبار أنهم انتهوا إلى سيف البحر فصار البحر أمامهم والعدو من ورائهم وأرادوا بذلك التحزن وإظهار الشكوى لموسى عليه السلام ليحسن التدبير والتفكير في طريق المخرج من هذا المضيق فقال لهم موسى عليه السلام (كلا إن معي ربي سيهدين) إلى ما فيه نجاتكم ونصركم على عدوكم (وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر) أي فيطيعك فور ضربه وينفلق عن عدة مسالك يتسع لكل من هو معك سالك! فقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: «اللهم يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجاً» فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر وقد أوحى الله تعالى إلى البحر أن يتهياً لذلك كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أوحى تلك الليلة إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك فبات البحر تلك الليلة وله أفكلاً أي رعدة واضطراب لا يدري من أي جوانبه يضربه موسى عليه السلام فضربه موسى عليه السلام (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين) أي قربنا هناك الآخرين فرعون وقومه قربانهم من قوم موسى عليه السلام وألحقناهم بهم حتى يدخلوا البحر على إثرهم كما ألحقنا الآخرين من قوم فرعون بأولهم وجمعناهم إلى بعضهم لئلا ينجو منهم أحد وكان ذلك بواسطة جبريل عليه السلام كما أخرج عبد بن حميد وابن عبد الحكم عن مجاهد التابعي المفسر أنه قال: كان جبريل عليه السلام بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فجعل جبريل عليه السلام يقول لبني إسرائيل: «ليلحق آخركم بأولكم» ويستقبل آل فرعون فيقول: «رويدكم أي مهلكم ليلحق بكم آخركم» فقالت بنو إسرائيل: «ما رأينا سائناً أحسن سياقاً من هذا» يشيرون إلى جبريل ولكن لم يعرفوه

وقال آل فرعون: «ما رأينا وازعاً أي جامعاً أحسن زعة من هذا» وروى ابن جرير وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنها: أن فرعون كان على فرس أدهم حصان فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر فتمثل له جبريل عليه السلام على فرس أنثى فلما رآها حصان فرعون اقتحم البحر خلف فرس جبريل عليه السلام وقيل لموسى عليه السلام **(واترك البحر رهواً)** أي مفتوحاً ذا فجوة واسعة على حاله ولا تغلقه وراءك ليلجحه العدو! ودخل فرعون وقومه البحر حتى آخرهم وجاز قوم موسى عليه السلام البحر عن آخرهم ثم أطبق البحر على فرعون وقومه. وروى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: نزل جبريل عليه السلام يوم غرق فرعون وعليه عمامة سوداء. ثم إن جبريل عليه السلام هو الذي أنزل حصون بني قريظة وصفوفهم فقد روى ابن سعد من مرسل حميد بن هلال أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله انهض إلى بني قريظة فقال: **«إن في أصحابي جهداً أي تعباً من غزوة الخندق فلو أنظرتهم أي أخرتهم أياماً»** فقال جبريل: انهض إليهم فلاضعفهم. وعند ابن إسحاق: أن جبريل عليه السلام قال: إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمززل بهم حصونهم. فأمر مؤذناً فأذن: **«من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»** وفي رواية ابن عائد عن جابر رضي الله عنه قال: بينا رسول الله يغسل رأسه مرجعه من طلب الأحزاب إذ وقف عليه جبريل عليه السلام فقال: ما أسرع ما حللتهم السلاح والله ما نزعنا نحن الملائكة من لأمتنا أي سلاحنا شيئاً منذ نزل العدو قم فشد عليك سلاحك فوالله لأدقنهم دق البيض على الصفا - وأراد بذلك أنه يلقي الرعب في قلوبهم حتى يصيروا كالهالكين ثم يززل بهم فينزلهم من حصونهم - وفي ذلك نزل قوله تعالى **(وأنزل الذين ظاهروهم)** أي عاونوا المشركين يوم

الخنديق (من أهل الكتاب من صياصيههم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً) أي من بني إسرائيل وكانوا قد تحالفوا مع كفار قريش ضد رسول الله ﷺ ومن ذلك لما كانت وقعة بدر كتبت كفار قريش إليهم: إنكم أهل الحلقة والحصون فلتقاتلن صاحبنا أو ليكونن بيننا وبينكم أمر. فلما بلغ كتابهم إليهم اجتمعت بنو النضير على الغدر فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك ويخرج منا ثلاثون حبراً فنلتقي بمكان منصف فيسمعون منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا أجمعون. فأعلمه جبريل بكيدهم فغدا عليهم ثم غدا على بني قريظة ثم حصر بني النضير بالكتائب حتى نزلوا على الجلاء واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها.

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً" وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني قد أبغضت فلاناً فينادي في أهل السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض» دلالة على تحبيب الله تعالى جبريل عليه السلام بأحبابه الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتبغيضه سبحانه لجبريل في أعدائه الذين يبغضهم رب العالمين والنداء الجبريلي لذلك في السماوات والأرض. وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يا علي قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عند وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة» فنزل جبريل بهذه الآية في علي رضي الله عنه. وقال أبو سعيد الخدري: إنا كنا معشر الأنصار لنعرف المنافقين يبغضهم علي بن أبي طالب.

وروى الحاكم في المستدرک عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلف عن الصلوات، والبغض لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه» وروى الطبراني في المعجم الكبير بإسناده عن ابن عباس في قوله **(سيجعل لهم الرحمن ودا)** قال: «المحبة في صدور المؤمنين نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه».

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) المراد من الذين كفروا خصوص المشركين من بني إسرائيل كما هو غالب اصطلاح القرآن فقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "إن الذين كفروا" أي بما أنزل إليك من ربك وإن قالوا "إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك" وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله صلی الله علیه وسلم توبيخاً لهم في جحودهم نبوة محمد صلی الله علیه وسلم وتكذيبهم به مع علمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله صلی الله علیه وسلم إليهم وإلى الناس كافة. وقد أشبع تعالى في إقنات المؤمنين من إيمانهم وكشف عن أغطية قلوبهم وفضح نفاقهم ابتداء من هذه الآيات إلى قوله **(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون)** وحكى تعالى تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه وبين نفاقهم وحدد صفاتهم وذواتهم وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم. روى الإمام عبد بن حميد عن جابر قال: كنا مع النبي صلی الله علیه وسلم في سفر فهاجت ريح تكاد تدفن الراكب فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: **«بعثت هذه الريح لموت منافق»** فلما

رجعنا إلى المدينة وجدنا مات في ذلك اليوم منافق عظيم النفاق فسمعت أصحابنا بعد يقولون: هو رافع بن التابوت. وروى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب فزعم أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت هذه الرياح لموت منافق فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات» وفي رواية لأحمد وابن حبان عن جابر: أنهم غزوا غزوة فيما بين مكة والمدينة فهاجت عليهم ريح شديدة حتى دفعت الرحال فقال رسول الله ﷺ: «هذا لموت منافق» فرجعنا إلى المدينة فوجدناه منافقاً عظيماً النفاق قد مات. وفي جمع الفوائد بلفظ: فلما قدم المدينة إذا عظيم المنافقين قد مات. قال ابن إسحاق: وكان ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود من بني قينقاع: سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى وزيد بن اللصيت الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة! فقال رسول الله ﷺ وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله ودل الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ على ناقتة: «إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقتة وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دليني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف، ورافع بن حريملة وهو الذي قال له الرسول ﷺ فيما بلغنا حين مات: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ورفاعة بن زيد بن التابوت وهو الذي قال له رسول الله ﷺ حين هبت عليه الرياح وهو قافل من غزوة بني المصطلق فاشتدت عليه حتى أشفق

المسلمون منها فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار» فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح، وسلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خَذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في الآية الكريمة تهديد الله تعالى المعاندين لرسوله وتخويفه المعارضين بواسطة جبريل عليه السلام فقد جاء أن بني إسرائيل لما توقفوا عن أخذ التوراة وأبوا أن يقبلوها حين جاءهم بها موسى عليه السلام أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يرفع فوقهم جبل الطور وقيل لهم: إن قبلتم التوراة والعمل بها وإلا ليقعن عليكم فوقك كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه وهناك قيل لهم ﴿خَذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من مضامين التوراة ومشتملاتها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد وعزم ﴿وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه واعملوا به ولا تتركوه ترك المنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تنتظمون في سلك المتقين المتوفين عن قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ لما أنكر جل ثناؤه على أهل الكتاب جحدهم وإخفاءهم التوراة، أخبر عن القرآن بأنه كتاب وتفسير لما تقدم من الكتب الإلهية، شاهد عليها، مصدق لها بمطابقته لها في الأصول والعقائد والأخبار "ولتنذر أم القرى ومن حولها" ولما كانت مكة هي أم أمهات القرى كلها وعاصمة العواصم باعتبار أن البلاد ترجع إليها في محجها وصلواتها كان من الحكمة أن يبعث صاحب الرسالة العامة لجميع البلاد منها،

وسميت مكة بذلك لأنها منشأ الدين ودحو الأرض منها ولأنها وسط الأرض ومحل حُكمها ولكونها قبلة وموضع الحج ومكان أول بيت وضع للناس والمعنى: ولتنذر أهل أم القرى ومن حولها وهي القرى المحيطة بها ويشمل جميع البلاد لأن مكة هي في منتصف المعمورة والمقصود ابتداءً: جزيرة العرب لورود الآثار الصحيحة في الأمر بإخراج اليهود والنصارى منها والإخبار عن غزوها وفتحها قبل الدجال، وقرئ "لينذر" بالياء جعل الكتاب هو المنذر لأن فيه إنذاراً ألا ترى أنه قال "ولينذروا به" أي بالكتاب، وقال "وأُنذر به" وقال "إنما أنذركم بالوحي" فلا يمتنع إسناد الإنذار إليه على سبيل الاتساع، وظاهر قوله "والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به" يقتضي أن الإيمان بالآخرة جار مجرى السبب للإيمان بالقرآن وبسيد الأنام عليه الصلاة والسلام لكونهما مبنيان على الإيمان بالبعث والقيامة وليس لأحد من الأنبياء مبالغة في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فلهذا السبب كان الإيمان بها وبصححة الآخرة أمرين متلازمين ولأن من يؤمن بالآخرة يؤمن بالثواب فيعظم رغبته في تحصيله كما يؤمن بالعقاب فيعظم رهبته عن حلوله ويبالغ في النظر في دلائل الوحدانية والنبوة فيصّل إلى العلم والإيمان ويصبح في حال من يعلم أن هناك مسؤولية على أقواله وأفعاله ومحاسبة على ما يقدمه ويؤخره ويطنه ويظهره ويخفيه ويعلنه وهذا مما يُلزمه بالوفاء بالعهد والميثاق وأداء الأمانة ويحمّله على صدق القول وإصلاح الفعل ويدفعه إلى الجد والعمل ويمنعه من القعود والكسل ويحجزه عن اللهو واللعب. روى الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في الشعب عن البراء بن عازب قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: «علام اجتمع عليه هؤلاء؟» قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي

أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع فبكى حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال: «أي إخواني مثل اليوم فأعدوا» وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذف به في القلب يفسح له القلب» قالوا: يا رسول الله فهل لذلك من أمانة تُعرف؟ قال: «نعم» قالوا: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت». وفي الآية تحريض على تطهير أم القرى من المستهزئين بالدين والتنبيه على إخراجهم من قبول هذا الدين لأن الحامل على ترك الحقد والحسد ورئاسة الدنيا وتحمل مشقة النظر والاستدلال ليس إلا الاستعداد ليوم الدين وهؤلاء القوم لما أنكروا ذلك اليوم وجحدوا البعث والنشور امتنع منهم ترك الحسد والرياسة فلا جرم يبعد قبولهم لدين الإسلام واعترافهم بنبوة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وإن أظهروا خلاف ذلك مخادعةً للمؤمنين، ولما تكرّر وصف المنافقين بالكفر باليوم الآخر والتكاسل عن الصلاة جعل الإيمان بالآخرة والمحافضة على الصلاة علماً على الإيمان بالكتاب المبين لأحوال الذين أوتوا الكتاب! ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير) فإن القوم لما كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر كما أخبر عنهم جل ثناؤه في غير موضع، أردف ذلك بإنذارهم بذلك اليوم. وسميت بأم القرى لأنها موضع المسجد الحرام وقبلة جميع الناس يؤمونها كما قال عز وجل أمراً بإقصائهم عنها (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد

الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم، قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) أي من يهود ونصارى بني إسرائيل الذين أوتوا التوراة والإنجيل.

العلاقة بين عالم الجن وعالم الإنس

وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة

لما كشف الحق جل جلاله عن حقيقة المنافقين وبيان أحوالهم وانتقل إلى خطابهم بيا أيها الناس مبيناً أنه خلقهم وخلق المستخلفين من قبلهم، عقبه ببيان أمر الاستخلاف في الأرض... وتجريد الخطاب لرسول الله ﷺ مع إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ لإبراز مزيد قرب المخاطب وإظهار اللطف به وعظيم منزلته ولطيف خصوصيته... والحق سبحانه أشار في هذه الآية الكريمة إلى الخليفة المفسد وسمّاه هنا خليفة لأنه جعله مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم وحاملاً الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال، وسياق الكلام بعده يشير إلى العلاقة بين الخليفة وبين إبليس الذي رفض السجود لآدم معترضاً على تكريم الله له... والذي ينساق إليه أسلوب النظم أن يكون العطف في الآية الكريمة على قوله (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض) ويؤيده قول الملائكة (قالوا أتبعل فيها من يفسد فيها) كما يؤيده موقع الآية (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) بين الكلام عن المنافقين وبين الخطاب للجن (يا بني إسرائيل) وما أعقبه من بيان أحوالهم ومغيبات أسرارهم وخفايا أخبارهم؛ فكانت الخلافة من هذا الوجه إيماءً

إليهم، وتقدير الكلام: إني جاعل في الأرض خليفة يفسد فيها ويسفك الدماء، وعدل عن إسناد الشرّ إلى الله تعليماً للأدب مع جناب الحق تعالى. ورُوي أن الأرض هنا يعني بها مكة المكرمة لأن الأرض دحيت منها فصارت لجميعها أمّاً، ولأنها مقرّ من مات من الأنبياء، وأن قبر نوح وهود وصالح وغيرهم بين المقام والركن. روى الإمام الطبري عن ابن سابط أن النبي ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت فهي أول من طاف به وهي الأرض التي قال الله: إني جاعل في الأرض خليفة» وسميت مكة المكرمة أم القرى لأن منها كان انطلاق الإنسان في خلافته الأرض ولأنها كبراهها وعاصمتها وكرسيها ومحل حكمها وقد احتلها الحفاة العرابة عام 1924 في الوقت الذي أُعلن فيه سقوط الدولة العثمانية وذلك بعد مائة وثمانين سنة على إعلان الدولة السعودية الأولى واستحواذها على الفرس والروم! والتعليل الشرعي أعم من النظر في سقوط الدولة لجرد الضّعف وإنما هناك عوامل هامة تربط أول الزمان بآخره وشاهد ذلك قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فكأنه عليه الصلاة والسلام قد جعل المراحل المتقلبة من عصره إلى قيام الساعة تحت مجهره الشرعي ودعوته الشاملة فما يحدث من حادث في مستوى الحكم إلا وهو ﷺ يفند هويته وهوية علاقته بالإسلام أو بالكفر حتى تأتي الساعة بعلاماتها زماناً ومكاناً ومن هذا المنطلق يشير ﷺ إلى موقفه من مرحلة الأحلاس إلى مرحلة الصليمة وما يلحقها من نواقض خطيرة في مسيرة الأمة المسلمة أثناء صراعها مع الأمة الإسرائيلية وقد أخبر النبي ﷺ عن نقض الحكم والعلم أو الأمانة والعبادة المشار إليهما في الآية الكريمة على لسان يوسف السباعي (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) فقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً: الحكم، وآخرهن: الصلاة» وهذا الحديث الشريف أعظم شاهد على معاشة الرسول ﷺ للأحداث الجارية في مستوى السياسة عند نقض العرى عالمياً في هذه المرحلة كما كان معاشاً لها خلال المراحل السابقة داخل الخيمة الإسلامية فقوله ﷺ: «لتنقضن عرى الإسلام» إشارة إلى تفكك عرى الدين بأيد خفية حسبما يفيد بناء الفعل للمجهول «لُتُنْقَضْنَ» وكأنها في الأصل عرى منتظمة كحبات المسبحة وهذا النقض المتتابع في العرى تجلّى في حكم الأئمة المضلين حتى تمكن العدو النجدي بالشراكة مع الشيطان من استغلال المسلمين وسحب قرار الحكم الإسلامي العام واستبداله بالقرارات القومية المتعددة وتجزئة الوطن الواحد ليصبح عدة كيانات متفرقة من الحدود وإثارة الفتن والحروب وإشغال كل بلدة من داخلها بالصراع ومن خارجها بالضغوط السياسية والاقتصادية! وبنقض الحكم بدأ العمل الخفي بصور شتى على ملاحقة بقية عرى الإسلام فتم نقض الإحسان المتمثل بجانب التصوف ثم نقض الإيمان المتمثل بجانب الاعتقاد ثم نقض الإسلام المتمثل بجانب الفقه بمذاهبه الأربعة حتى يقع الفساد المتلاحق ويُنقض عمود الدين وهو الصلاة في كافة شؤونها فقهاً وروحاً «وَرَبُّ مَصْلٍ لَا أَمَانَةَ لَهُ» أي لا يؤدي الصلاة على وجهها الشرعي ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ: «مَنْ اقْتَرَبَ السَّاعَةَ أَنْ تَصْلِيَ خَمْسُونَ نَفْسًا لَا يُقْبَلُ لِأَحَدِهِمْ صَلَاةٌ» وقد شهدنا نقضها في مرحلة الاستهتار والشيوعية والعلمانية والليبرالية! وعُبر عن الحكم بالأمانة كما روى الطبراني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يَرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْأَمَانَةُ وَآخِرُ مَا يَبْقَى الصَّلَاةُ وَرَبُّ مَصْلٍ لَا خَيْرَ فِيهِ» وعن ابن مسعود قال: «إِنْ أَوَّلُ مَا تَفْقَدُونَ مِنْ دِينِكُمْ

الأمانة وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة وليصلين قوم لا دين لهم ولينتزعن القرآن من بين أظهركم» ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ والظلم هو الذي من شأنه الشرك! والجهول الذي من دأبه الاستهزاء! وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين - أراه - السائل عن الساعة» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» أي إذا ضيعت الخلافة وتحوّلت إلى المفسدين وصاروا مستخلفين وأسند إليهم أمر الحكم والعلم فإن ذلك من أشراط الساعة... والعاقل لو راح يفكر ويتبصر فيما جاء به هذا الرسول الأكرم ﷺ من المعجزات القرآنية والمعجيات التي لا يُطَّلَع عليها إلا من جهة الأخبار النبوية يعلم يقيناً أنه نبي الله المكرم ورسوله المعظم ﷺ... وقد أشار حديث جبريل عليه السلام من رواية أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين إلى سقوط حكم المسلمين وذلك في قوله: «إذا كانت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها» وفي لفظ الإمام مسلم: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها» ولما سأله عن الإسلام قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» ولم يذكر الحج وذلك لتبعيته للمشركين، خلافاً للروايات التي ورد فيها ذكر الحج إبان نشأة دولتهم في الدرعية! وأشار ﷺ إلى قبض العلم وحبسه

في المنهجيات الموجهة وفشو الجهل بحقائق السعة الشرعية في الأصول المتبعة وذلك في قوله: «إذا ولدت الأمة ربها» وفي الصحيحين: «من أشرط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل» والحق لائح لمن تأمل وأسلم للدليل! والحديث من أعلام نبوته ﷺ حيث أخبر بأمر مغيب قبل وقوعه وكشف عن الحقائق المغيبة عن عقول المسلمين وخاصة فيما يتعلق بكيد الشياطين وأضاليل المفسدين الذين فرقوا أمر المسلمين حتى لا يصاب المرء بالإحباط في أمر الدنيا والدين فقد روى الإمام مسلم بإسناده عن عرفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان» أي ستكون فتن وشرور وفساد وقد تحقق ذلك بخروج الأئمة المضلين الذين فرقوا أمر هذه الأمة وفي الحديث أمر صريح بقتالهم وروى الشيخان عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن» قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» - أراد أنهم من العرب وأنهم في الظاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون - قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» والمعنى إذا لم يكن في الأرض خليفة

للمسلمين فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان أي اعتزل الناس اعتزالاً لا غاية بعده ولو قنعت فيه بعض أصل الشجرة وهو كناية عن مكابدة المشقة ولزوم العلماء وشيوخ السند والعدالة من أهل البيت النبوي والمرتبطين بهم دون الإنطواء في الأنظمة المسيّسة - وقد قامت دولة الحفاة العراة عام 1744 ثم سيطروا على جزيرة العرب واشتد الصراع بينهم وبين العثمانيين بين كرّ وفرّ حتى تمكنوا بالاتفاق مع حلفائهم بإسقاط الخلافة عام 1924 وبعد ذلك لم يعد للمسلمين جماعة ولا إمام يقوم بأمرهم - وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزاباً فلا يتبع أحداً في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر وعلى ذلك يتنزل ما جاء في سائر الأحاديث وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف منها. وهذا حديث عظيم بيّن فيه الرسول الأعظم ﷺ الأطوار التي ستطراً على أمته والفتن التي تعصف بها والمخرج منها، وقد تحقق كل ما أخبر به ﷺ، فقد كانت بعده خلافة راشدة وهي من الخير المحض بعد النبوة، ثم حدث بعد ذلك الخير الذي فيه دخن حيث الخلفاء الذين يُعرف منهم ويُنكر إذ يهتدون بغير هديه ﷺ في أمر الشورى والخلافة وسياسة الأمة واستمر ذلك حتى طلوع أولياء الشيطان عام 1744 كما أشار الحديث عند الإمام مسلم: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس» - وقوله "وسيقوم فيهم" دون قوله "منهم" دليل على أنهم ليسوا من المسلمين - قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمر وإن ضُرب ظهرك وأُخذ مالك فاسمع وأطع» أي الأمير المسلم وليس المنافق الكافر إذ المشاركة والمساندة لأرباب الفتنة إثماً وضلالة لقوله ﷺ: «من سوّد مع قوم فهو

منهم ومن روع مسلماً برضاء سلطان جيء به معه يوم القيامة» رواه ابن أبي عاصم، وفي رواية للدليمي: «من كثر سواد قوم فهو منهم ومن رضي عمل قوم كان شريكاً من عمل به» وأشار ﷺ إلى أرباب الفتنة في رواية أبي الأسود: «يكون بعدي أئمة يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي» أي أنهم يزعمون العمل بالكتاب والسنة في الظاهر ولا يستنون بسنته في الحقيقة والمعتقد! وقد أمر ﷺ بلزوم إمام المسلمين وجماعتهم التي تزامن سقوطها مع سقوط قبلتهم! والإسلام والإمام توأمان فارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر كما روى الدليمي عن ابن عباس قال: «الإسلام والسلطان أخوان توأمان لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه فالإسلام أس والسلطان حارس وما لا أس له يهدم وما لا حارس له ضائع» وروى البيهقي في الشعب عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض» ومعلوم أن للناس طبائع وغرائز مختلفة وأهواء متفرقة وعادات وسيراً متفاوتة مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ويترتب على ذلك فهم متباينة وأخلاق متعادية فإن لم يكن لهم إمام تتحد عقائدهم وسرهم وآراؤهم بمتابعته وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته كانوا متفرقين فرائس للشيطان كشريدة الغنم تكون للذئب ولهذا لا بد للناس من إمام واعلم أن رسول الله ﷺ لم يرسل رجلين فصاعداً لشأن إلا وأمر أحدهما على الآخر وأمر الآخر بطاعته ومتابعته ليتحد الأمر وينتظم وإلا وقع الهرج والمرج واضطرب أمر الدين والدنيا واختل نظام المعاش والمعاد وقد نص علماء الدين من الفقهاء والمتكلمين على وجوب نصب الإمام وافتراس طاعته وامتنال أمره ولأهمية هذه المسألة تعرض أهل الفقه وأصحاب العقائد إلى تحقيقها وإثبات نصوصها وأدلتها

وبراهينها، فوجود الإمام من أهم المهام لحفظ الإسلام ودفع المردة والظلام وجلب الأمن والراحة لجميع الأنام وإنما يحتاج إلى السلطان لأن الناس مع اختلاف أهوائهم وتفرق آرائهم وكثرة شحنائهم لا ينقاد بعضهم إلى بعض فيفضي ذلك إلى هلاك الكثير ووقوع الأمر الخطير ولولا السلطان لما انتظم أمر الدنيا والدين ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في التفرق وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ومهما كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور فلهذا وجب التأمر ليجتمع شتات الأمة، وفي الحديث المتفق عليه: «إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويُتقى به» والله در عبد الله بن المبارك حيث يقول:

كم يدفع الله بالسلطان معضلة ... في ديننا رحمة منه ودنيانا

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نبأً لأقوانا

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم» قال الإمام الحافظ أبو العباس القرطبي: ولما كان نبينا ﷺ آخر الأنبياء بعثاً وكتابه لا يقبل التغيير أسلوباً ونظماً وقد تولى الله تعالى كلامه صيانة وحفظاً وجعل علماء أمته قائمين ببيان مشكله وحفظ حروفه وإقامة أحكامه وحدوده كما قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». وقد أمر ﷺ بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين والمراد بها سنة الواقف في الحكم وكانت

ثلاثون وبعدها كانت خلافة العلم حسبما ينبئ عنه قوله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي» قلنا: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: «الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس» وفي رواية: «العلماء خلفاء الأنبياء» ويروى عنه ﷺ أنه قال: «علماء أمتي كأنباء بني إسرائيل» ولما كان أمر هذه الأمة كذلك اكتفى بعلمائها عما كان من توالي الأنبياء هنالك.

وقوله: «وستكون خلفاء فتكثر» هذا منه ﷺ إخبار عن غيب وقع على نحو ما أخبر به ووجد كذلك في غير ما وقت فمن ذلك مبايعة الناس لابن الزبير بمكة ولمروان بالشام ولبني العباس بالعراق ولبني مروان بالأندلس ولبني عبيد بمصر ثم لبني عبد المؤمن بالمغرب، وقوله «فوا بيعة الأول فالأول» دليل على وجوب الوفاء ببيعة الأول وسكت في هذا الحديث عما يحكم به على الآخر وقد نصّ عليه في الحديث الآتي حيث قال: «فإن جاء أحد ينازعه فاضربوا عنق الآخر» وفي رواية: «فاضربوه بالسيف كائناً من كان». اهـ. وما كان للأفعى الوهابية السعودية أن تصل إلى المسجد الحرام في وجود الإمام ودولة الإسلام التي امتدت من المحيط الأطلسي إلى الهندي ومن البحر الأسود إلى بحر العرب إذ الاعتداء على قبلتها يكون استنفاراً لجميع المسلمين - كما حصل في محاولات الوهابية المتكررة التي انتهت بهزيمتهم - فكان لا بد من إسقاط دولة الإسلام وإزاحة الإمام وإزالة حبل القرآن بزرع دولة صهيونية في الشام تصرف الأنظار عن الأمة التي عليها مدار آيات القرآن ومن ثم يسهل عليها التخفي في شعار الإسلام لتفريق المسلمين إلى فرق وجماعات وأحزاب يضرب بعضها بعضاً. روى ابن أبي شيبه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر، قال: قلت: يا رسول الله رأيت هذا الخير الذي

كنا فيه هل كان قبله شر وهل كائن بعده شر، قال: «نعم» قلت: فما العصمة منه؟ قال: «السيف» قال: فقلت: يا رسول الله فهل بعد السيف من بقية؟ قال: «نعم هدنة» قال: قلت: يا رسول الله فما بعد الهدنة؟ قال: «دعاة الضلالة فإن رأيت خليفة فالزمه وإن نهك ظهرك ضرباً وأخذ مالك فإن لم يكن خليفة فلهرب حتى يأتيك الموت وأنت عاض على شجرة» قال: قلت: يا رسول الله فما بعد ذلك؟ قال: «خروج الدجال» قال: قلت: يا رسول الله فما يجيء به الدجال؟ قال: «يجيء بنار ونهر فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره ومن وقع في نهره حط أجره ووجب وزره» قال: قلت: يا رسول الله فما بعد الدجال؟ قال: «لو أن أحدكم أنتج فرسه ما ركب مهرها حتى تقوم الساعة».

والخلافة هي مدار الصراع في الأرض بين الإنسان والإنسان وبين الشيطان والإنسان، نعم هو تكريم للإنسان بالحكم والخلافة دون الشيطان، وفي الحالة الطبيعية يكون عالم الجن تبعاً لعالم الإنس إلا إذا أشركوا فحينئذ يستحوذ عليهم الشيطان، وفي القرآن العظيم ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ والمعنى أنه استحوذ عليهم فأنساهم توحيد الله! والنسيان مراد منه لازمه وهو الإضاعة والترك - والله أعلم وأحكم - والشيطان أول من سنَّ الشرك وهو القائل كما جاء في سورة بني إسرائيل ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ أي لأستولين عليهم ولأقودنهم كما يجعل الإنسان الرَسَن في حنك الدابة، ولما كوّن الله فيه الصغار والحقارة بعد عزة الملكية وشرفها سأل النظرة بطول الحياة إلى يوم البعث ﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين﴾ وذلك حين خلق الله تعالى في نفس إبليس مقدرة على

إغواء الناس وجعله باقياً متصرفاً بقواه الشريرة إلى يوم البعث فأحس اللعين أنه سيكون داعية إلى الضلال والكفر بجبله قلبه الله إليها قلباً وهو من المسخ النفساني (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) والجملة الأولى أفادت الترصد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجم عليهم بشتى الوسائل وكما ضرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقيود على الطريق، كذلك مثلت هيئة التوسل إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكن فيها من أخذه فهو يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تخور قوة مدافعه أي أن إبليس يأتي ابن آدم من جهاته الأربعة ويدخل على كل جهة من هذه الجهات: من بين أيديهم أي مما يستقبلونه ويصيرون إليه لأن الإنسان إنما تستقبله عوالم الآخرة فلما يأتي الشيطان الناس من بين أيديهم يلقي إليهم الريب والشكوك في قضايا الآخرة حتى ينكروا البعث! ويأتي من خلفهم أي مما يتركونه وراء ظهورهم من الدنيا فيرغبهم فيها ويزين لهم زخارف الدنيا وحطامها وأمواها فإبليس يأتي الإنسان من خلفه حتى يلتفت إليه ويشغله عن أمور دينه! وعن أيمانهم أي عن ما قوي عندهم من الحسنات التي تعبوا عليها والقوة التي صرفوها فيما يرضي الله ولعله يدخل عليهم العجب فتبطل حسناهم ولعله يدخل عليهم الرياء والكبر والغرور وهكذا فتحبط أعمالهم فهو يأتي عن يمين الإنسان حتى يهدم ما فيه من القوة، ويأتي عن الشمال بأن يزين للإنسان فعل السيئات والذنوب والخطايا حتى يوقعه فيها وإن شئت قلت: من بين أيديهم أي مما قوي عندهم واعتقدوه وصار متمكناً بين أيديهم وهي العقائد الإيمانية وفي الحديث عند أبي داود:

«اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» وتلك الجهات الأربعة التي يأتي منها إبليس وهذا تعليم للأمة وإلا فهو ﷺ معصوم بعصمة الله تعالى. وقد بلغ من حقد إبليس بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله إذناً بأن يغوي ويخدع البشرية ويقودها إلى الجحيم يقتل حباله وينصب فخاخه ويستدرج فرائسه وقد أنبأ تعالى بني آدم بأن الشيطان توعد نوع الإنسان وأشار إلى غواية تاريخية شيطانية جاءت على لسان إبليس ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾ والإغواء: الإضلال والخداع والإفساد والإغراء والغش. وفي مثل للعرب: من حفر مُعْوَاة أو شك أن يقع فيها. والمغواة: حفرة كالزبية تحتفر للذئب ويجعل فيها جدي إذا نظر الذئب إليه سقط عليه يريده فيُصاد! وقد حذر الله الإنسان من كيد الشيطان وأشعره بقوة الشيطان عسى أن يتخذ العدة للنجاة من مخالب فتنته وأردف ذلك بالتحذير من حزبه ودعاته ثم استثنى العباد المخلصين الذين يكافحونه كما يكافحون أتباعه وأولياءه في معركة ضارية واحدة كما في ظاهر قوله سبحانه ﴿إلا عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط علي مستقيم﴾ يعني لا عوج فيه، عليّ دلالة وبيانه وهدايته، ولا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الفرد الفذ، وقُرئ ﴿قال هذا صراط عليّ مستقيم﴾ أي رفيع عظيم القدر لا ينال إلا باللطاف الله وعنايته للمخلصين، فليس للشيطان عليهم سلطان ولا تأثير، ولا يملك أن يزين لهم لأنه عنهم محصور وهم منه في حمى ولأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة وهو تعالى قد حفظهم من مطاوعته كما حكى تعالى ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ وتلك ألطاف من الله أودعها في نظام

الحياة البشرية عند التكوين فغلب بسببها الصلاح على جماعة البشر في كل عصر، والمقابل لهم من قبلوا تزيين الشيطان كما أخبر جل شأنه ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم﴾ وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن الابتداعات المنافية لما جاءت به الرسل عليهم السلام، وأسند التزيين إلى الشيطان إذ كان هو المتسبب في ذلك بأقدار الله تعالى، والمراد بـ"اليوم" زمان استخلافهم في الأرض وبالضمير في "وليهم" أعقاب بني إسرائيل وأنسابهم من الكفرة المعاصرين إذ زين لسلفهم وللأمم قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء اليوم أي قرينهم تولى إضلالهم بالغرور وهذا دأب الشيطان فهو يحاول على مر العصور أن يغوي بني آدم ويوقعهم في الشرك وذلك بأن يعرض عليهم خدماته وخدمات جنوده فيستجيب له الإنسان الطامع في الحكم والسلطة ويتخذة ولياً من دون الله، يرجو منه النصرة والمدد ويشركه في الأمر فيتم له بذلك تمام التسلط عليه! وهذا يؤدي إلى هلاكه في الدنيا وعذابه في الآخرة، مثله كمثل المارد الذي يعرض على الساحر خدماته مقابل قيام الساحر بطقوس كفرية شركية فيحقق المارد هدفه المزدوج، فهو من جهة يدفع الساحر إلى الكفر، ومن جهة أخرى يستعمل الساحر كوسيلة قدرية لإيذاء من سلطه عليهم من البشر، فيظن الساحر أنه هو من يستخدم الجني والحقيقة أنه هو المستعمل!!! والجن أجسام لطيفة نارية غائبة عن إدراك العيون وهم أصناف: مؤمنون ويهود ونصارى وصابئة ومجوس...حكام ومحكومون...متبوعون وأتباع...ملاء ورعاع...فالأتباع جهلة ضلال والكبراء مضلون منفذون عالمون بما أنزل الله على الرسل والأنبياء من الوحي أدركوه وفهموا مقاصده وهؤلاء هم إبليس وذريته مردة الشياطين، وإبليس لنوع الشياطين والجن بمنزلة قابيل لنوع

الإنسان، وقد نبّه أكابر العارفين إلى أن إبليس ليس أباً للجن ولكنه أول أشقياء الجن أي أول من شطن من الجن كما أن قابيل أول أشقياء الإنس. وقد حكى تعالى قصة آدم وإبليس وأنكر على بني إسرائيل - المعبر عنهم في الآثار الصحاح المتواترة بقرن الشيطان - اتخاذهم إبليس وذريته أولياء من دونه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ والجن بينهم حروب وقاتل ويتوالدون ويأكلون ويشربون ويموتون قرناً بعد قرن، قال الحسن والسدي: الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وحكى السدي أيضاً عن أشياخه أن في الجن المؤمن والكافر والمعتزلة والجهمية وجميع الفرق. وأورد الحافظ ابن حجر في المطالب العالية عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله تعالى الجن ثلاثة أصناف، صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الحساب والعقاب، وخلق الله عز وجل الإنس ثلاثة أصناف، صنف كالبهائم قال الله عز وجل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله» وعددهم أضعاف عدد الإنس فلا يولد من الإنس ولد إلا ولد من الجن تسعة كما روى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكالي عن عبد الله بن عمر قال: «إن الله جزأ الملائكة والإنس والجن عشرة أجزاء تسعة أجزاء منهم الملائكة وجزء واحد الجن والإنس، وجزأ الملائكة عشرة أجزاء تسعة منهم الكروبيون الذي يسبحون الليل والنهار لا يفترون وجزء واحد لرسالاته ولخزائنه وما يشاء من أمره، وجزأ الإنس والجن عشرة أجزاء فتسعة

منهم الجن والإنس جزء واحد فلا يولد من الإنس ولد إلا ولد من الجن تسعة، وجزأ الإنس عشرة أجزاء تسعة منهم يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس» واعلم أن الجن يتشكلون بأشكال مختلفة كما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: «إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث» وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين فلما رأى جبريل انتزع يده وولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه إنك جار لنا، فقال (إني أرى ما لا ترون) وذلك حين رأى الملائكة» والشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم كما في الحديث الصحيح: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبيهقي أنه عليه السلام قال: «إن الشيطان واطع خرطومه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه» أي نشب فيه وسوسته ويحدثه بالأفكار الرديئة. وقد يُسلط الجن على الإنس كما روى الطبراني عن ابن سيرين قال: بينا سعد يبول قائماً إذ اتكأ فمات، قتلتة الجن فقالوا:

نحن قتلنا سيد الخزرج ... سعد بن عباد

ورميناه بسهمين ... فلم نخطئ فؤاده

وروى الطبراني وأحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «فناء أمتي بالطعن والطاعون» فقيل: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: «وخز أعدائكم من الجن وفي كلٍ شهداء» وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ثابت قال: «بلغنا أن إبليس قال: يا رب إنك خلقت آدم وجعلت بيني وبينه عداوة فسلطني، قال: قيل له: صدورهم مساكن لك، قال: رب زدني، قال: لا يولد لآدم ولد إلا ولك عشرة، قال: رب زدني، قال: تجري منه مجرى الدم، قال: رب زدني، قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد، قال: فشكا آدم إبليس إلى ربه فقال: يا رب إنك خلقت إبليس وجعلت بيني وبينه عداوة وبغضاء وسلطته عليّ وأنا لا أطيقه إلا بك، قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكين يحفظانه من قرناء السوء، قال: رب زدني، قال: الحسنة بعشر أمثالها، قال: رب زدني، قال: لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة ما لم يغرغر» وذكر ابن حجر الهيتمي أنه جاء من عدة طرق يبلغ بها درجة الحسن: «أن هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس جاء النبي ﷺ ومعه أصحابه وهم قعود على جبل من جبال قحمة فأخبر أنه ليالي قتل قابيل هابيل كان غلاماً وأنه كان ممن آمن بنوح وأنه عاتبه على دعوته على قومه حتى بكى وأبكاه وأن له شركة في دم هابيل فهل له توبة؟ فأمره بأشياء يفعلها من جملتها أنه يتوضأ ويسجد سجدين ففعل لوقته فأخبره أن توبته نزلت من السماء فخر لله ساجداً حولاً وأنه آمن بهود وعاتبه كما وقع له مع نوح وأنه زار يعقوب وكان من يوسف بالمكان الأمين وأنه كان يلقي الناس بالأودية وتلقاه الآن وأنه لقي موسى فعلمه من التوراة وأمره أن يقرأ منه السلام على عيسى ابن مريم إن لقيه وأنه لقي عيسى فأقرأه ذلك وأن عيسى أمره أن يقرئ السلام على محمد

ﷺ إن لقيه فبكى ﷺ ثم قال: وعلى عيسى السلام مادامت الدنيا وعليك السلام يا هامة بأداء الأمانة ثم سأله أن يعلمه من القرآن كما علمه موسى من التوراة فعلمه الواقعة والمرسلات وعم والكوثر وقل هو الله أحد والمعوذتين وقال: ارفع لنا حاجتك يا هامة ولا تدع زيارتك» وقد بين تعالى أن نفراً من الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كبراًؤهم من تشبيه الله بخلقه واتخاذ صاحبة وولداً فاستعظموه ونزهوه عنه قائلين: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطربهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو وقاع شيء يكون منه ولد، والاقتصار في بيان تعالي جد الله على انتفاء صاحبة عنه والولد ينبى بأنه كان شائعاً في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن وما اعتقاد المشركين إلا ناشئ عن تلقين سروات الجن فعلموا أن سرواتهم يكذبون وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج كما حكى تعالى ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرك ربنا أحدا، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا، وأنه كان يقول سفيها على الله شططا، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا﴾ والمشهور أن هذا الاستماع هو المذكور في سورة الأحقاف وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات، والجن الذين أتوا النبي ﷺ بمكة جن نصيبين، والذين أتوه بنحلة جن نينوى، وسفيهم: إبليس لعنه الله وأشياعه من مرءة الجن. ووجه مناسبة السورة لما قبلها ظاهرة وهي أنه

تعالى لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر واتخاذهم آلهة في الحكم والعبادة تلاه بالإعلام بصفات الجن فبدأ بالتنويه بمن آمن منهم وبين أنهم كانوا متوغلين في حسن ظنهم بمن ضللوهم **(وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا)** وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة وأنها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلد بل يتعين النظر واتهام رأي المقلد حتى ينهض دليله، ثم بين تعالى أنه كان رجال يلتجئون إلى الجن ويتولونهم ويستنصرون بهم فزادوهم رهقاً أي جراءة وطغياناً وإعجاباً بحيث قال مردة الجن: سدنا الإنس والجن. وروي عن قتادة أن الجن لذلك كانت تحتقر بني آدم وتزدريهم لما ترى من جهلهم فكانوا يزيدونهم مخافة ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهى طاقاتهم ويغوونهم في إرادتهم لما رأوا رقة أحلامهم فهذا هو الرهق الذي زادته الجن ببني آدم. وقد بين النبي ﷺ أصول العوالم الثلاثة: الملائكة والجن والإنس في الحديث عند الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»** وقدّم ذكر الملائكة لأنهم أسبق في الوجود على الجن ثم الجن لأنهم خلقوا قبل الإنس وأحال وصف خلق آدم على القرآن طياً للاختصار لأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم وقد أخبر سبحانه أنه خلق آدم من تراب إشارة إلى المبدأ الأول ومقام التراب مقام التواضع والمسكنة ومقام التواضع الرفعة والثبات وفي موضع آخر أخبر أنه خلقه من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء ومقام التراب والماء مقام الطهارة وأخبر في موضع آخر أنه خلقه من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال ليصلح لقبول التصوير ومقام الطين اللازب مقام الالتئام والثبات والتماسك وأخبر في موضع آخر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون إشارة إلى ييسه وسماع صلصة منه

ومقام الصلصال من الحمأ المسنون مقام النطق والإبانة وأخبر في موضع آخر أنه خلقه من صلصال كالفخار إشارة إلى فخره وشرفه ثم نبه تعالى على تكميله بنفخ الروح فيه وتعليمه وسجود الملائكة له وهذا مقام رفيع منيع ومنصب شريف منيف.

قل هو نبأ عظيم

الآية متعلقة بأول السورة فإنه تعالى لما أقسم بقوله ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ أنكر على المشركين عزهم وشقاقهم وقولهم ﴿هذا ساحر كذاب﴾ وتعجبهم من كونه منذراً واستبعادهم لما أخبر به من الوجدانية ثم عدَّ قبائحهم وعنادهم وحسدكم واستهزاء بهم وخسأهم وأنهم جند ما هنالك مهزوم من جنس الأحزاب الخالية الذين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله وفصل ذكر داود عليه السلام وأخبر بجعله خليفة في الأرض - وكان مدة ملك داود أربعين سنة مما وهبه الخليفة الأول من عمره فإن آدم وهب لداود من عمره ستين سنة كما جاء في السنن فلذا كان خليفة في الأرض كما كان آدم خليفة فيها - وذكر عقيبه سليمان وجملة من الأنبياء عليهم السلام كل ذلك تمهيداً للأمر بالإنذار والبشارة والدعوة إلى التوحيد وعبادة الله بعد الإشارة إلى استخلافهم بذكر استهزائهم بالمؤمنين واستبعادهم إياهم وتوطئة لقوله ﴿قل هو نبأ عظيم، أنتم عنه معرضون﴾ بعد ما قصه سبحانه من مناظرة أهل النار ومقاولة الأتباع مع المتبوعين وفي هذا ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة

فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية تضمنت ذكر نبأ بطريق الوحي من عند الله تعالى فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال: الملائكة حين شووروا في خلق آدم ﷺ فاختصموا فيه قالوا: أئجل في الأرض خليفة. فالمراد بالملاء الأعلى: الملائكة وباختصامهم قولهم لله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ في مقابلة قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقد أخبر تعالى أنه علم آدم ﷺ أسماءهم وأسماء كل شيء والمقصود سيد الوجودات فإنه ﷺ كان نبياً وآدم بين الروح والجسد ومن علومه علم اللوح والقلم على نحو ما رواه الإمام الدارمي بإسناده عن عبد الرحمن بن عائش قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» قال: فيم يختصم الملاء الأعلى؟ فقلت: «أنت أعلم يا رب» قال: «فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات والأرض وتلا ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾» ثم قرر سبحانه ثبوت علم رسوله الجليل الأكرم ﷺ بقوله ﴿إِنْ يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ومعنى الحصر أنه ﷺ لم يوح إليه لأمر إلا لأنه نذير مبين وأيّ مبين كقولك: لم تستقض يا فلان إلا لأنك عالم عامل مرشد! ونحوه قوله سبحانه ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ ولما دل على أنه نذير وأزال ما ربما أوردوه عليه، شرع في تفصيل ما أجمل من الاختصام الذي هو ما جرى من التقاول ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ وضح إسناد الاختصام إلى الملائكة مع أن التقاول كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إلخ لأن تكليمه تعالى إياهم كان بواسطة الملك فمعنى المقابلة بين الملاء الأعلى مقابلة ملك من

الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام في شأن الاستخلاف ومع إبليس في شأن السجود ومع آدم في قوله **(أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ)** ومعنى كون المقابلة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم في الجملة ولم يذكر سبحانه جواب الملائكة عليهم السلام لتتم المقابلة اختصاراً بما كرر مراراً ولهذا لم يقل جل شأنه: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت جاعل إياه خليفة. وروعي هذا النسق لجعل مصب الغرض من القصة حديث إبليس ليلائم ما كان فيه حزبه وأولياؤه وأنه بامتناعه عن امتثال أمر واحد جرى عليه ما جرى فكيف يكون حالهم وهم مغمورون في المعاصي وفيه أنه أول من سن العصيان فهو إمامهم وقائدهم إلى النار وذكر حديث سجود الملائكة وطى مقاولتهم في شأن الاستخلاف ليفرق بين المقاولتين وأن السؤال قبل الأمر ليس مثله بعده فإن الثاني يلزمه التواني ثم فيه حديث تكريم آدم **(الطَّيِّبُ)** ضمناً دلالة على أن المعلم والناصح يعظم وأنه شرع منه تعالى قديم وكان على المستخلفين أن يعاملوا النبي ﷺ معاملة الملائكة لآدم لا معاملة إبليس له.

معنى الإمامة ووجوب نصب الأئمة وقادة الأمة

الإمامة: رئاسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا متضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية وإقامة الدعوة بالحجة والسيف وكف الجنف والحيث والانتصاف للمظلومين من الظالمين واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفاؤها على المستحقين، فنصب الإمام عند الإمكان واجب حتى لا يترك الناس أخيفاً يلتطمون ائتلافاً واختلافاً، لا يجمعهم ضابط ولا يربط شتات رأيهم رابط، ولذلك بادر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى نصب الإمام

وتركوا بسبب التشاغل به تجهيز ودفن سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، ولا يرتاب من معه مسكة أن الذب عن الحوزة والنضال دون حفظ البيعة محتوم شرعاً، ولا يجحد ذلك إلا من جهل بحقيقة الإلهية وذهل عن سر الربوبية، ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم وازع ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشيطان رادع مع تفنن الآراء وتفرق الأهواء لتبتر النظام وهلك الأنام وتوثب الطغام والعوام وتحزبت الآراء المتناقضة وتفرقت الإرادات المتعارضة وملك الأرذلون سراة الناس ونشبت الخصومات وتبددت الإرادات واستحوذ على أهل الدين ذوو العرامات، وما يزعج الله بالسلطان أكثر مما يزعج بالقرآن. قال الإمام الرزاي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية المدفوع والمدفوع به، فقوله "ولولا دفع الله الناس بعضهم" إشارة إلى المدفوع، وقوله "ببعض" إشارة إلى المدفوع به فأما المدفوع عنه فغير مذكور في الآية فيحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدين ويحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدنيا ويحتمل أن يكون مجموعهما أما القسم الأول: وهو أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدين فتلك الشرور إما أن يكون المرجع بها إلى الكفر أو إلى الفسق أو إليهما فلنذكر هذه الاحتمالات، الاحتمال الأول: أن يكون المعنى: ولولا دفع الله بعض الناس عن الكفر بسبب البعض وعلى هذا التقدير فالدافعون هم الأنبياء وأئمة الهدى فإنهم الذين يمنعون الناس عن الوقوع في الكفر بإظهار الدلائل والبراهين والبيّنات قال تعالى "كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور" والاحتمال الثاني: أن يكون المراد: ولولا دفع الله بعض الناس عن المعاصي والمنكرات بسبب البعض وعلى هذا التقدير فالدافعون هم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر على ما قال جل شأنه "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" ويدخل في هذا الباب: الأئمة المنصوبون من قبل الله تعالى لأجل إقامة الحدود وإظهار شعائر الإسلام ونظيره قوله تعالى "ادفع بالتي هي أحسن السيئة" وفي موضع آخر "ويدروُن بالحسنة السيئة" الاحتمال الثالث: ولولا دفع الله بعض الناس عن الهرج والمرج وإثارة الفتن في الدنيا بسبب البعض واعلم أن الدافعين على هذا التقدير هم الأنبياء عليهم السلام ثم الأئمة والملوك الذابون عن شرائعهم وتقديره: أن الإنسان الواحد لا يمكنه أن يعيش وحده لأنه ما لم يخبز هذا لذاك ولا يطحن ذاك لهذا ولا يبني هذا لذاك ولا ينسج ذاك لهذا لا تتم مصلحة الإنسان الواحد ولا تتم إلا عند اجتماع جمع في موضع واحد فلهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع ثم إن الاجتماع بسبب المنازعة المفضية إلى المخاصمة أولاً والمقاتلة ثانياً فلا بد في الحكمة الإلهية من وضع شريعة بين الخلق لتكون الشريعة قاطعة للخصومات والمنازعات فالأنبياء عليهم السلام الذين أوتوا من عند الله بهذه الشرائع هم الذين دفع الله بسببهم وبسبب شريعتهم الآفات عن الخلق فإن الخلق ما داموا ييقون متمسكين بالشرائع لا يقع بينهم خصام ولا نزاع فالملوك والأئمة متى كانوا يتمسكون بهذه الشرائع كانت الفتن زائلة والمصالح حاصلة فظهر أن الله تعالى يدفع عن المؤمنين أنواع شرور الدنيا بسبب بعثة الأنبياء عليهم السلام واعلم أنه كما لا بد في قطع الخصومات والمنازعات من الشريعة فكذا لا بد في تنفيذ الشريعة من الملك ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام والسلطان أخوان توأمان» وقال أيضاً: «الإسلام أمير والسلطان حارس فما لا أمير له فهو منهزم وما لا حارس له فهو ضائع»

ولهذا يدفع الله تعالى عن المسلمين أنواع شرور الدنيا بسبب وضع الشرائع وبسبب نصب الملوك وتقويتهم.

وأن أتلوا القرآن

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين) الأمر هو الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام وهو أمرٌ لحبيبه عليه الصلاة والسلام أن يخص مولاه وحده بالعبادة ويفرده في الحكم، والمراد بالبلدة: مكة المكرمة والإشارة للتعظيم وأسند التحريم إليه تعالى تشریفاً لها واختصاصاً وتنبيهاً على كفر بني إسرائيل إذ استخلفهم فيها فلم يراعوا حرمتها وألحدوا فيها أشنع الإلحاد وأشركوا أعظم الإشراك وزعموا أنهم مسلمون قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولما أخبر تعالى أنه مالك هذه البلدة، أخبر أن جميع الأشياء داخلية في ربوبيته فشرفت البلدة بذكر اندراجها تحت ربوبيته على جهة الخصوص وعلى جهة العموم، ولما كانوا ربما قالوا: ونحن نعبد كما تعبده، بين مفهوم العبادة وأنه يخالف ما أحدثوه في دين الإسلام وعظم المفعول المأمور به يجعله عمدة الكلام بوضعه موضع الفاعل فقال (أن أكون من المسلمين) أي من الرعيّل الممتد في الزمن المتطاوّل من الموحدين المنقادين لجميع ما يأمر به الحق أتم انقياد ثابتاً على ذلك غاية الثبات إذ الإسلام الانقياد ولما كان الانقياد للخالق بحق يشمل توحيدِهِ ومعرفة صفاته التي دل عليها فعله كانت حقيقة الإسلام ملازمة لحقيقة التوحيد فكلمة الإسلام تضمنت معاني

حساناً جماعها التوحيد والبراءة من الحول والقوة وإخلاص الطاعة وفيه أيضاً تنويه بهذه الأمة إذ جعل الله رسوله من آحادها وذلك نكتة عن العدول عن أن يقول: أن أكون مسلماً ولما بين ما أمر به من الإسلام، أتبعه ما أوضحه لبي إسرائيل فيما قصه عليهم بيان ما ذُكر على وجهه الرافع للاختلاف بينهم فقال **(وأن أتلوا القرآن)** فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يتلوه على الناس ليعقلوا ما فيه وليوصل روح القرآن إلى روح الإنسان ويوصل النور القرآني إلى قلوبهم وعقولهم فمن اهتدى فنفع هدايته عائد إليها مفيد لها ومن ضل وأعرض فأمرى منحصر بالإنذار والتخويف! والتلاوة في أصل معناها اللغوي: المتابعة ومن ذلك قوله تعالى **(والقمر إذا تلاها)** أي تبعها، فهناك تلاوة بقراءة كلماته وحروفه وهناك تلاوة بتتبع معانيه... وكان ﷺ قرآناً يمشي بين الناس وكان خلقه القرآن أي صار له حياة وسلوكاً ووجداناً وذوقاً... وأعمال الإسلام كلها بما في ذلك الجهاد في سبيل الله تابع لهذا الأصل والكلام في قوله **(وأن أتلوا القرآن)** متصل بمطلع السورة بالتنويه بشأن القرآن وتخلل ذلك بذكر قصة موسى وفرعون والاعتبار بملك داود وسليمان وقصة ملكة سبأ وانتقل إلى ذكر ثمود وإفسادهم في الأرض ومكرهم برسولهم وتآمرهم على قتله مدججاً في ذلك التعريض بالمستخلفين الذين ماثلهم بقوم لوط وكان استبعادهم للبعث من أعظم كفرهم ثم تخلص إلى ذكرهم في قوله **(إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون)** وتخلل بيان أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة حتى انتهى إلى قوله **(وأن أتلوا القرآن)** ووجه الاتصال بين الآيتين أنه تعالى لما بيّن أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم يختلفون من أمر الاستخلاف وأحوال الحشر والنشر ودلائل التوحيد والتفريد وأمر الإلهيات والنبوات والغلو

في الإفراط والتفريط والتعطيل والتشبيه والوقوع في طرفي الإشراك وغير ذلك من الدقائق التي يعلمها حذاقهم؛ أتبعه بالأمر بتلاوته لأجل الحكم بينهم فيما اختلفوا فيه وخالفوا ليشغلوا بتدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم والتوجه نحو التدبر فيما قرع أسماعهم من الآيات الباهرة الكافية في إرشادهم والشفافية لعللهم، والقرآن هو الكتاب الجامع لكل كتب الله التي تنزلت على الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات رب العالمين، ومعنى الأمر بتلاوة القرآن: أن أواظب على تلاوته وتلوه عبادة لرب هذه البلدة وإبلاغاً للناس ما أرسلت به إليهم وأن أبيّنه لهم لتتكشف لهم حقائقه المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً، قال الإمام الرازي: التلاوة القراءة وأصل الكلمة من الإتياع فكأن التلاوة هي إتياع اللفظ اللفظ. فالتلاوة: الاتباع، يقال: تلوته أي تبعته وتلا إذا اتّبع كما حكى سبحانه ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ والتلاوة تعني تحري المطابقة والسير على الغرار بتتبع مقاصد الكلام المتلوّ واتباعه حق اتباعه وبيانه للناس فإن الكلام يراد منه إفهام السامع، فإذا تلاه القارئ ولم يبين ما أراده قائله كانت تلاوته غامضة، قال تعالى ﴿رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة﴾ وقوله "رسول" بدل من "البينة" بدل كل من كل أو مبتدأ لوصفه وخبره جملة ﴿يتلوا صحفاً مطهرة﴾ وجملة المبتدأ وخبره مفسرة للبينة وذلك مثل قوله تعالى ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولا يتلوا عليكم آيات الله﴾ أي يقرأ آيات الله التي تبين سيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية وتقلبهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية فكونه يتلوه يقتضي كونه مبيناً له إذ لا يستقيم أن يقرأ كتاباً مبهماً غامضاً معناه خافياً نظمه ومبناه، فتحصل أنه يتلو صحفاً مطهرة من

الشبهات والشكوك والغموض والضلالات والتناقض والاختلاف وتصرف الشياطين منزهة من الخلل والباطل والعلل ولذلك قال ﷺ كما رواه أبو داود: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» أراد بذلك السنة المبينة لما في الكتاب. فحق التلاوة هو العلم بما في المتلو وتدبر آياته وتعلم حقائقه وتفهم دقائقه والعمل بمحكماته، وقد جاء في حديث عذاب القبر: «وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» والدراية: فهم حرره التحري والاجتهاد، والتلاوة: نقل حري بالاعتماد، أي لا فهمت ولا اتبعت من يدري لتحصل على الهداية، والأصل فيه (تلوت) فردوه إلى الياء لازدواج الكلام، وفي رواية للإمام أحمد: «لا دريت ولا تليت ولا اهتديت» ولذلك فإن تلاوة القرآن إنما هي في حقيقة الأمر تكاليف شاقة ثقيلة وابتلاءات عملية ووظائف وجدانية ترقى بالخروج من الجزئي البشري إلى الكلي الرباني في منزلة إيمانية عالية. وروي عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه وأتحفه بجليل رضوانه وسلامه أنه قال: «إن الله يتجلى للذاكرين عند الذكر وتلاوة القرآن» وسمي القرآن قرآناً لأنه يجمع السور والآي والحروف وجمع فيه القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد وأصل القرآن الجمع أو هو مشتق من القراءة بمعنى المقروء والقراءة هي ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقيل هو قرآن بوزن فعال من القرن بين الأشياء أي الجمع بينها لأنه قرنت سور بعضها ببعض وكذلك آياته وحروفه وأما اشتقاقه من القراءة فلا أن أول ما بدىء به الرسول من الوحي (اقرأ باسم ربك) وأورد الراغب في مفرداته قول أحد العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه

جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم. وقد فرّع على الأمر بالتلاوة حصول الهداية **(وأن أتلاوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه)** واعلم أن من لم يكن وارثاً لرسول الله ﷺ في مقام تلاوته للقرآن إنما يتلفظ حروفاً ممثلة في خياله حصلت له من ألفاظ معلّمه فتلفّظها عن غير تدبر ولا فهم ولا استبصار ولهذا التالي أجر القراءة لا أجر التدبر لأنه ما تلا المعاني وإنما تلفّظ حروفاً تنزل من الخيال إلى اللسان فيترجم به لا يجاوز حنجرتّه إلى القلب الذي في صدره فلا يصل إلى قلبه منه شيء. وفي سورة فاطر لما ذكر الله تعالى أمر الاختلاف في ظواهر الأشياء المشاهد في اختلاف ألوانها، أردف بقوله **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** أي إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم ولذلك قال السيد الأعظم ﷺ كما رواه عبد بن حميد في مسنده: **«والله لأنّا أعلمكم بالله وأحشاكم له»** ولذلك لما تقلل بعضهم قيامه ﷺ على قيامه وصلاته على صلاته أنكر ﷺ عليه ذلك ثم ذكر أن تفضيله عليهم إنما كان بمعرفته لله تعالى فهذه بعض جهات تفضيله ﷺ ولا مشقة فيها ولم لا والله تعالى يقول لموسى عليه الصلاة والسلام **(إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي)** قال الإمام أبو العباس ابن عجيبة الحسني: العلماء على قسمين: علماء بأحكام الله، وعلماء بالله، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه، والعلماء بالله يخشون إبعاده واحتجابه، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام، والعلماء بالله يتقون سوء الأدب في حضرة الملك العلام فخشية العلماء بالله أرق وأشد، العلماء بالله أخذوا علمهم من الله، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. اهـ. ثم عاد التنزيل إلى تفصيل ذلك بقوله **(إن الذين يتلون كتاب الله)** ولم يعن تلاوة مجردة عن المعرفة والبيان لئلا تكون مبنية على الظن والتخمين كما هو شأن

الأميين من بني إسرائيل الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وقد أنبأ الله تعالى عن جهلهم فإنهم لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة من غير فهم وقد اعتمدوا على علمائهم وأحبارهم الذين ضلوا وأضلوا. وفي سورة الرعد لما قالوا ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ جاء الجواب عن قولهم ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمة لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا﴾ ولما ذكر تعالى في سورة الحج عبادتهم لآلهتهم، ذكر إنكارهم لما لا يصح أن ينكر فقال ﴿وإذا تنلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يستطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبطشون ويقعون بالذين يبينون لهم ما نزل إليهم من صوادع البيان ومعاني القرآن. ولما وصف تعالى القرآن في سورة يونس بما وصفه به من الشفاء وختم ذلك بتهديد المشركين على افتراء الكذب في شرع ما لم يأذن به، أعقبه بقوله ﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه﴾ إيذاناً بأنك بعيني في جميع هذه المراجعات وغيرها من شؤونك وأنا العالم بتدبيرك والقادر على نصرتك، وفيه وعد بالثواب للرسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتأييد دين الإسلام، ثم خوّف المشركين بما عرفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم فإنه تعالى لا تعزب عنه الحوادث والأسرار الخفية، قال الإمام الماتريدي في قوله ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ يقول: أنا شاهد فيما تخوضون وفيما تقولون في رسول الله أو في دينه أو فيما يتلو عليكم. وقال الضحاك: الهاء عائدة على القرآن والمعنى: إذ تشيعون في القرآن الكذب. وفي سورة العنكبوت

خاطب تعالى رأس أهل الإيمان عليه صلوات الرحمن لأنه أعظم الفاهمين له ليقنّدي به أتباعه فقال معرّضاً بالمرائين من المصلين معرّفاً بعنايته برسوله الأمين وأتباعه المؤمنين ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ روى ابن جرير والبيهقي في الشعب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» وفي رواية: «لم يزد من الله إلا بعداً» وتلك الصلاة صلاة المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويطنون في نفق قلوبهم الإنكار والكفر فصلاّتهم لم تزدهم من الله إلا بعداً. وفي الآية دلالة على أن في الصلاة حصلتين عظيمتين: الأولى: التخلية أي عن الفحشاء والمنكر، والثانية: التحلية أي بذكر الله تعالى. ويكفي أن الذاكر جليس الحق كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني» وقال ابن عباس وأبو الدرداء وسلمان وابن مسعود رضي الله عنهم: ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. وقال بعضهم: أكبر من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا المعنى يستلزم المعنى الأول لأن العبد إذا ذكر الله تعالى فإن الله يذكره وبهذا صار أكبر وأعظم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وقيل: المراد بهذا الذكر هو الذكر الخالص وهو أصفى وأجلى من الذكر المشوب بالأعمال الظاهرة وهو خير من ضرب الأعناق وعتق الرقاب وإعطاء المال للأحباب وذكر الله سبب الحضور وموصل إلى مشاهدة المذكور بعناية الله الملك الغفور ومن لم يجعل له نوراً فما له من نور وأول الذكر توحيد ثم تجريد ثم تفريد كما قال النبي ﷺ: «سبق المفردون» فقال له رجل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً» وقيل: إن ذكر الله بأسمائه وصفاته أكبر وذكر الله عبده في الصلاة أفضل من الصلاة وهذا الذكر هو الذي إذا

يسره الله للمصلي وأحضره قلبه نهاه عن الفحشاء والمنكر. وقيل: ما تعملون من ذنوب لا بد من إتيانها إذ هي مقدرة قبل الكون يقول: نغفرها بالذكر فذكر الله جل ذكره أكبر من الأعمال كلها لأنه ذكر أكبر مذكور لأن ذكر العبد مقترن بذكر الله هذا للذكر فكبر قلة الذكر لله عز وجل لأجل ذلك إلى ما لا غاية له تعلم قال الله عز وجل **(فأذكروني أذكركم)** وأعمال الجوارح فيما سبيله طاعة الله لا يقاس بمحتاج الدنيا والذكر لله تعالى لا تجده أبداً يقاس إلا بالقرب فقد آن أن يتبين لك من هذا ونحوه أن ذكر أسمائه وصفاته هو الذكر الأكبر وذكره في القرآن هو القرآن العظيم. وقيل **(ولذكر الله أكبر)** أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها بالذكر كما في قوله تعالى **(فأسعوا إلى ذكر الله)** للإيذان بأن ما فيها من ذكره تعالى هو العمدة في كونها ناهية عن السيئات. والصلاة قد تسمى ذكراً لاشتغالها على الذكر من باب تسمية المشتغل بما اشتمل عليه أو يقال: من باب تسمية البعض باسم الكل قال تعالى **(وأقم الصلاة لذكري)** والدليل على صحة هذا القول أن قوله تعالى **(فأذكروا)** أمر، والأمر للوجوب ولا ذكر واجب هنالك سوى الصلاة. وروى ابن جرير والبيهقي عن عطية رضي الله عنه في قوله **(ولذكر الله أكبر)** قال: هو قوله **(فأذكروني أذكركم)** فذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. قلت: الفاء للتفريع على قوله **(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة)** أي يقرأ عليكم الآيات التي فيها بيان ما في التوراة والإنجيل وسيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية وتقلبهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية ويطهركم ويعلمكم فهم معاني القرآن والسنة. وفي الحديث القدسي

عند الترمذي: «من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» أي من اشتغل بالقرآن أي بعلم مبادئه وتدبر معانيه والعمل بما فيه ولم يفرغ إلى الذكر والدعاء أعطاه الله مقصوده ومراده أحسن وأكثر مما يعطي الذين يطلبون من الله حوائجهم. وقوله **(ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)** أي من أمور لا سبيل لكم العلم إلى بها وإنما جاءت من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ليعلمكم إياها كما روى الإمام الطبراني عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً قال: فقال ﷺ: **«ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم»** وفي الخبر أن جبريل عليه الصلاة والسلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: **«أعطيت أمتك ما لم أعطه أمة من الأمم»** قال: **«وما ذاك يا جبريل؟»** قال: **«قوله تعالى: فاذكروني أذكركم»** قال ابن برجان: فهو عز وجل إذا شاء ذكر عبده بأن يذكره فيذكره العبد لأن ربه عز وجل ذكره بذلك فيذكره فذكره هو جل ذكره جزاء لذكره إياه هو الأول والآخِر والظاهر والباطن. وقال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والذكر وقراءة القرآن فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق. وقد أمر رسول الله ﷺ بذكر الله في أحاديث كثيرة، ورغب إلى الذكر في أخباره الصحيحة الشهيرة، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون»** وقال الحسن البصري رحمه الله: والله لقد أدركت سبعين بديراً أكثر لباسهم الصوف ولو رأيتهم لقلت: مجانين. أي من كثرة ذكرهم لله. وكان ﷺ يقول: **«أعظم المجاهدين أجراً: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً»** فالذكر سيفهم الذي يحاربون به كل الأعداء

وهو الذي يرفع رايته بين جموع الأولياء ويمكّنهم من تحقيق كل مطلب وغاية ويرميهم إلى حضرة العناية. وروى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً يقول المنافقون إنكم تراؤون» والذكر أفضل من الدعاء لأن الذكر ثناء على الله بجميل صفاته وأسمائه بينما الدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ وقد جاء في الحديث القدسي عند البيهقي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين، وذاكر الله في الغافلين مثل المصباح في البيت المظلم، وذاكر الله في الغافلين مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده من الجنة، وذاكر الله في الغافلين يغفر الله له بعدد كل فصيح وأعجمي، فالفصيح بنو آدم والأعجمي البهائم» وعن شيخ الصوفية السيد الجنيد أنه قال في قوله تعالى (والذي يميني - أي بالغفلة - ثم يميني) أي بالذكر. والمقصود بذكر الله عند العارفين ورجال السنة رضي الله تعالى عنهم: تطهير القلب من الأغيار وإشغال جارحة اللسان بذكر الواحد القهار وفي هذا سر حقيقة الافتقار إلى العزيز الغفار وعلى ذلك كان الرسول المختار ﷺ فإذا ظفر العبد بهذا الوصف فقد ظفر بمتابعة نبي الرحمة الذاتية وتجرد من وهم الغيرية وقد كان ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه حتى كان يقول: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» وهذه بركة حضور القلب مع الحكيم الودود والتجرد من لوث الوجود فإن ذكر الله إذا أحاط بالقلب واشتغل به اللسان دفع الأغيار، وما أحسن في هذا الباب قول مولانا السيد صدر الدين الصياد قدس سره:

عظموا ذكر حبيبي ... فبه المكسور يُجبر

واتركوا الأغيار طراً ... ولذكر الله أكبر

وفضل الذكر مشهور حتى أن فضائله فاقت العقول وقد قال أهل العلية من
الأشياخ رضي الله عنا وعنهم: ما جاء في فضائل ثواب الذكر لا يعلم سببه ولا
يوجد الإيمان به إلا تسليماً. قال شيخ الإسلام مولانا أبو الهدى الصيادي
الرفاعي الحسيني الحسيني قدس الله سره النوارني: اعلم أن ذكر الله إنما تظهر
ثمراته لمن ذكر الله تعالى بلسانه وقلبه بخلاف من ذكر الله تعالى بلسانه وكان
قلبه مشغولاً قد طبعت فيه صور الكائنات وتعلقت به معاني الموجودات وهو
غافل عن الملك الحنان المذكور بكل لسان فذكره قليل الجدوى. ونقل عن أبي
علي الدقاق قدس سره أنه قال: الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد
أعطى المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل، وذكر الله بالقلب للمريدين به
يدفعون الآفات التي تقصدهم. وذكر العارف بالله الشيخ أحمد بن جلال
الرفاعي في كتابه جلاء الصدى الذي ألفه بسيرة شيخ الأولياء وملجأ الفقراء
مولانا السيد الشيخ أحمد الرفاعي الكبير قدس الله سره وألحقنا به ونظمنا في
سلكه ونفعنا ببركات علومه: إن السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره العزيز رحمته
قال: من قال: الله أكبر وفي قلبه شيء أكبر منه فقد كذب نفسه على لسانه
ومن أراد أن يعرف قدر معرفته بالله فلينظر قدر هيئته عنده وفي خدمته وإن
القلب هو محل الأنوار ومورد الفوائد وبه يصح الاعتبار، جعله الله أميراً فقال
(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وجعله أسيراً فقال (أن الله يحول بين
المرء وقلبه) وقال أيدنا الله ببركته: وجدان القلب مع الله تعالى: بغية الأنبياء
ومنية الأولياء، أي سادة: إذا حصل لكم الله حصل لكم كل شيء، وقال رحمته:
من خاف الله ذكر الله ومن ذكر الله خاف الله ثم تلا (وأما من خاف مقام ربه

وهنى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى) وقال: إن العبد حالة ذكره يخاطب ربه فإذا تفكر واعتبر وذل وخشع وتواضع وخضع فإن ذلك ينظره الله تعالى بعين الرحمة والمحبة فيحبه ويحبب إليه خلقه ويجعل له الهيبة في قلوب العالمين وكل من رآه هابه وأحبه. وقال مولانا الشيخ أحمد شهاب الدين بن حجر الهيتمي في فضل التفكير: وقد بين تعالى أنه لا يصلح للتفكر في خلق السموات والأرض إلا أولوا العقل الكامل واللب الفاضل كما يدل عليه آيتا البقرة وآل عمران (إن في خلق السموات والأرض) الآية، وذكر في الأولى المختمة بـ(يعقلون) من الآيات الأرضية والسمائية أكثر مما ذكر في الثانية المختمة بـ(أولي الأبواب) مع أن اللب أشرف من العقل لأن الأولى تناسب مقام السالكين لاحتياجهم للنظر في الآيات الكثيرة ليحصل لهم ذلك مع الإدمان وتغاير الدلالات والآيات مع كثرتها وعجائبها ملكة المراقبة ثم الشهود العلمي حتى لا تقدر عليهم الأغيار ولا يتشككون فيما منحوه بسبب ذلك إلى أن يرتقوا إلى مقام الأخيار، وأما الثانية فإنها إنما تناسب مقام العارفين لأنهم إنما ارتقوا عن شهود الأسباب والوسائط إلى شهود موجدتها وباريها فليس لهم كبير تعلق بها فلذا اختصر الأدلة في حقهم لأنهم مشغولون بذلك للشهود الأقدس والجمع الأكمل عن النظر في البراهين لاستغنائهم عنها بالوصول إلى عين اليقين فناسب أن يشار لهم بذكر الدلائل محملة لا مفصلة إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى الله من طريقها ومن وصل من طريق لا ينبغي له أن ينساه وإن استغنى عنه ومن ثم رؤي مع الجنيد سبحة فليل له: تحتاج إليها يا إمام؟ فقال: طريق وصلنا إلى الله بسببها لا نتركها، فالحاصل أن آية البقرة لما ختمت بـ(يعقلون) الذي هو أدنى المقامين كانت بالسالكين أنسب فناسب ذكر الدلائل الكثيرة فيها لأنها

المناسبة لحالهم كما تقرر وأن آية آل عمران لما ختمت بـ **(أولي الأبواب)** الذي هو الأعلى والأكمل ناسب أن يذكر فيها ما يليق بالأكمل وهو ملاحظة الدلائل إجمالاً لا تفصيلاً لاشتغالهم عنه بما هو أهم وأولى وأكمل فتأمل ذلك لتعلم فائدة التفكير ويتضح لك أنه في ساعة أفضل من عبادة ستين سنة: أي ليس فيها تفكير نظير قوله تعالى **(ليلة القدر خير من ألف شهر)** أي ليس فيها ليلة القدر كما قاله الأئمة؛ ومعنى قوله ﷺ: **«تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»** أي ليس فيها تفكير، وسر فضله عن بقية العبادات أنه يؤدي إلى التحلي بالمراتب العلية وانكشاف الحقائق الوهبية وأما غيره من العبادات الخالية عنه فإنه لا ينتهي إلى هذه الفوائد الكاملة والمعارف الفاضلة ولا شك أن كل ما أدى إلى قوة الإيمان وزيادة الإيقان وصقالة القلب وخلوه عن الأغيار خير مما لم يؤد لذلك وإن قل زمنه وطال زمن غيره إذ روح العبادة المقصودة لأجلها إنما هو معرفة الحق وأسراره في خلقه وتجليه عليهم بمعالي أسمائه وصفاته والتفكير هو المحصل لذلك دون غيره.

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) هذا الحفظ يشتمل على ثلاثة أمور تدخل تحت هذه الكفالة: الأول: حفظ حروفه وكلماته كاملة في الصدور والسطور بنصوصها النازلة على الرسول الأعظم ﷺ كما جاء في الحديث القدسي: **«إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان»** الثاني: حفظ بيان القرآن الكريم وهو الحديث النبوي الشريف وكان صلى الله عليه وسلم ينهض بهمة أصحابه إلى حفظ أحاديثه ووعاها وتبليغها فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرها عن جبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ بالخيف في منى يقول: **«نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها»**

وبلغها من لم يسمعها» الثالث: حفظ مَنْ يحمل ذلك وبيّنه إلى يوم الدين كما جاء في صحيح الإمام البخاري عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك».

(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) روى الإمام الطبري عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا الفطيويني لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها! فأنزل الله الآية. وإذا كان أسلافهم في الاستهبال والكفر والفسوق إلى هذا الحد فكيف هؤلاء الأخلاف الأجلاف؟ ولفظ الفسوق لم يُسمع في شعر الجاهلية ولا في كلامهم إنما هو من مستحدثات القرآن ومعناه: الخروج عن حُكم الله وأمره وسلطانة عناداً ومكراً ومكابرة وجدالاً كما حكى تعالى عن إبليس (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض ولعل انفهام ذلك من القراءة الأخرى (أَمَرْنَاهُ) بالمد يعني جعلناهم آمريين أي صيّرناهم أمراء، والآية تقرر سنة الله، فإذا قدّر الله لقرية أنها هالكة أمر عليها المترفين فأخذوا بأسباب الهلاك وخرجوا عن حكم الله وحاربوا الله تعالى، وأشد هذه الحرب وأنكاهها هو تحويل الحكم إلى ميثاق الأمم المتحدة وجعل مجلس الأمن حكماً حتى لا تقوم لله قائمة ولا يصبح لدين الله وجود! واقتضت هذه الآية أن مخالفة الملك الحق تؤول الى خراب العالم وفناء الخلق.

﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ المعنى أن هؤلاء الذين شنشنتهم هجر القرآن وإنكار البعث والنشور أتوا على قرية قوم لوط وكانوا قد استخلفوا بعد قوم إبراهيم، قال تعالى ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ يعني على ديار قوم لوط وهو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، هاجر معه من أرض بابل إلى الشام، فأرسله الله عز وجل إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده فلم يجيبوه ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وفي هذا إيماء إلى أن قومه كانوا يظهرون الإسلام والإيمان ويضمرون الشرك والكفران، فلم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معاً، وفي آية العنكبوت بيان وتأكيد ﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ والفسق هو الخروج عن حُكمه تعالى وأمره وسلطانهِ عناداً ومكرراً ومكابرة، ونظير هذا ﴿وإن يكذبوك - أي بالحكمة - فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين وكذب موسى﴾ والملاحظ أنه تعالى ما نظم موسى ﷺ في سلك ما تقدم من ذكر الأنبياء عليهم السلام وتكذيبه بل كرر له الفعل وأتى به مجهولاً للإيذان بنفاقهم واستهزائهم وفيه أيضاً تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية... والاستهزاء شنشنة معروفة في بني إسرائيل وهي جريمة زائدة على التكذيب وفيها من التهاون والاستخفاف والشناعة ما لا يخفى! وإذا كان آل فرعون قد كذبوه فإن بني إسرائيل أيضاً قد كذبوه مرة بعد أخرى واستهزؤوا به وبكتابه حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿قالوا أتتخذنا هزوا﴾ ونحوه قولهم ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ ونحو ذلك من الآيات الكريمات... وفي آية النمل تصريح بإشراكهم ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر

المنذرين، قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون) روى عبد بن حميد عن قتادة أنه كان إذا قرأ (الله خير أما يشركون) قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم. وفي سورة هود أخبر الحق أنه أرسل عليهم حجارة مسومة من سجل منضود ثم أتبع ذلك قوله (وما هي من الظالمين بعيد) أي وما هي من المشركين بعيد، قال مجاهد: أن يصيبهم ما أصاب القوم. وكان إبليس لعنه الله قد تمثل لهم في صورة شاب ودعاهم إلى دبره ثم نشأ فيهم اللواط والسحاق فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تحسف بهم... وفي الحديث عند الطبراني: «إن من أعلام الساعة وأشراتها أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء» وقد عرضت سورة الحجر قصة آدم وإبليس ثم جاءت البشارة لإبراهيم أبي العرب بالغلام العليم - إسحاق - وأتبعها بقصة أصحاب الشذوذ الجنسي وبينما يعرض النظم هذه الصورة البشعة في تسع عشرة آية لهؤلاء المسوخ ذوي الطباع المقلوبة الذين يتلمظون في سعارهم وهو يصور حالتهم الدائمة التي لا ترجى معها صرخة النخوة والفترة السليمة يلتفت قبل ختام القصة إلى قَسَم يدل على رفيع منزلة المخاطب صلوات ربي وسلامه عليه (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) فأقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه وتفضيلاً له على سائر البرية مشيراً إلى المستخلفين الجُدد الذين شابهت حالهم حال قوم لوط فهم في شهوتهم يتردّون وعن شركهم لا يقلعون! وما أقسم الله بعمر أحد من خلقه إلا بحياة محمد سيدنا وسيد الناس أجمعين وهذه مرتبة ما نالها أحد من العالمين إلا إمام المرسلين وخاتم النبيين عليه صلوات رب العالمين وما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم على الله من سيدنا وسيد العالمين وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض ليعرف الناس عظمته عند الله

ومكانته لديه، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال **(لا أقسم بهذا البلد)** وذكر بعض المفسرين أنه تعالى أقسم بزمان الرسول صلى الله عليه وسلم فقال **(والعصر)** فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله **(وأنت حل بهذا البلد)** وبعمره في قوله **(لعمرك)** فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره» وسمّاه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسماً كما بيّن ذلك الحافظ القسطلاني في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه. واسمه في عالم البطون سيدنا أحمد، واسمه في عالم الظهور سيدنا محمد، ومعنى أحمد أي أحمد الحامدين في سرادقات جلال الله وأعظم الذاكرين لله الذي ملأ العوالم كلها بمحامد الله تعالى ولم يبق لغيره مكان ذرة كما دل عليه حديث: **«وملأ ما شئت من شيء بعد»** ومعنى محمد أي أحمد المحمودين من الله وأعظم المذكورين عند الله، وهذا الاسم الكريم منقول من صفة الحمد، والحمد: الذي حمد مرة بعد مرة والذي تكاملت فيه الخصال الحمودة، وسيدنا محمد أعظم خلق الله كمالاً وأكرمهم خصلاً وأجلهم فعلاً وأعمهم نوالاً وهو محمود على ألسنة كافة الأمم خلقاً وخلقاً وأعمالاً وأحوالاً وأقوالاً وأفعالاً وعلوماً وأحكاماً وهو خير محمود وأكرم موجود وهو الواسطة العظمى لإيجاد هذا الوجود وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود واللواء المعقود والشفاعة العظمى، والأحاديث الواردة في ذلك أكثر من أن تحصى وأعظم من

أن تستقصى... وإذا كان يوسف عليه السلام قد أوتي شطر الحسن فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أعطاه الله الحسن كله فهو أجمل وأحسن خلق الله على الإطلاق. قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلأل في الجدر نورها. اللهم بأكرميتك عليك أفض علينا من أسرارهِ وأنوارهِ وبركاته وإشراقته صلى الله عليه وسلم في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

(أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفيأبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) لما أنكر الحق في مطلع السورة على من ظن أن مدعي الإيمان لا يكلف البيان وذكرَ صفات المنافقين وبيّن ظواهر أحوالهم وفصل مجموع أمورهم، ذيل السورة ببيان تمكينه تعالى إياهم في بيته المعظم، وتخصيص الحرم لأنه محل الاستخلاف في الأرض، والضمير للمستخلفين الذين امتن الله عليهم بالأمن وهذا ظاهر فإن العرب والعجم وجميع دول العالم وسائر أهل الملل يحترمونها وما يتعرضون لهم البتة مع كونهم يوقدون الحروب بينهم حتى يقتل وينهب بعضهم بعضاً، وقد حُكي قولهم قبل هذه السورة (وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيئ إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي إن تتبعك يتخطفنا الناس وليس لنا نسبة إلى أكثرهم ولا قوتهم فيسرعوا إلينا ونحن قليل في كثير من غير نصير فأوحى الله إليهم أو ليس الذي استخلفكم وأنتم تعبدون غيره بقادر على حمايتكم إن دخلتم في دينه وصرت من حزبه بأنواع الحماية وإعلائكم على كل من يناوئكم إلى أعلى الدرجات كما فعل في حمايتكم منهم ومن سائر المخالفين أعداء الدين؟ والتخطف: شدة الخطف وهو هنا مستعار للغلبة

السريعة، والاستفهام للإنكار وهذا الإنكار يقتضي توبيخاً على هذه الحالة التي نزلوا لأجلها منزلة من ينفي أن الله مكن لهم حرماً، وقد حصل في خلال الرد لقولهم إدماجٌ للامتنان عليهم بنعمة الاستخلاف والأمن وجلب من كل ما في الأرض من الثمرات ما لم يخطر لأحد منهم في بال ليحصل لهم وازعان عن الكفر بالمنعم: وازع إبطال معذرتهم عن الكفر، ووازع التذكير بنعمة المكفور به. وما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس! وذكر بين الآيتين إنذارهم من عاقبة الإشرak وبشارته ﷺ آخراً بالظفر والعودة إلى الحرم (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) بعد أن قدم لذلك بتنظير حال بني إسرائيل مع الوساطة العظمى وأمتة بحال فرعون وملئه مع موسى وقومه.

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) هذه الآية تضمنت الإشارة إلى مكان الاستخلاف في الأرض، وإنما كان البعث في أم القرى لأنها كرسي المملكة ومحل الأحكام وأعظم البلاد شهرة وأكثرها زواراً لمكان الكعبة فيها، فبيّن لهم أن ليس من عادة الله تعالى أن يهلك القرى حتى يبعث في أصلها وقصبتها رسولاً لإلزام الحجة وقطع المعذرة عن المستخلفين، وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبي ﷺ إيماء إلى إنذار من جحدوا بالوحدانية! وقد ذكر الحاكم والبيهقي من طريق ابن إسحاق أن يهودياً كان يبيع العطر بمكة فوقف على ملاء من قريش فيه صناديدهم فقال لهم: هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: لا نعرف... ثم سألوا فقالوا: نعم ولد فيها لعبد المطلب ابن... فقال اليهودي: أرونيه، فذهبوا إلى النبي

ﷺ فلما نظر إليه ونظر إلى الخاتم وقع مغشياً عليه، فلما أفاق قال: أفرحتم يا معشر قريش أما والله سيكون لكم سطوة يخرج حديثها من المشرق إلى المغرب، لقد ذهب الله دولة بني إسرائيل. وذكر الخطيب البغدادي وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى في الخصائص: أنه لما كانت ليلة ولد فيها رسول الله ﷺ قال حبر كان بمكة: يولد الليلة في بلادكم هذا النبي الذي وصف بأنه يعظم موسى وهارون ويقتل أمتهم. وفي الآية تخويف لهم من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة وظلموا أنفسهم بالإشراك، فدمرهم الله وخرب ديارهم. وقد كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾ والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض وإنما أوتر لفظ القرية لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريضاً بالمستخلفين في مكة ومشايعة لهم بالندارة كما قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنُطْبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والاستفهام في الآية مستعمل في التعجب من شدة ضلالتهم إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم ونسوا أن الله قادر على إهلاكهم إذا شاء، والكلام في الآية تعقيب على ما قبله ﴿أَفَأَمَّنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ أَمَّنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ وإنما خص بالذكر إهلاك القرى دون ذكر الأمم لأن المواجهين بالتعريض هم أهل مكة وهي أم القرى أي هذه التي قصصنا أخبارها لأن ما ذكر من القصص ابتداء من قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ القصد منه

العبرة بالأمم الخالية موعظة للحفاة العراة ملوك الأرض فلما تلا عليهم قصص خمس أمم أعقب ذلك بتهديدهم وذلك هو المقصود من تلك القصص.

قرن الشيطان

روى الإمام البخاري في الجامع الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر النبي ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا» قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا» قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ فأظنه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان» ونجد هي البقعة التي تتوسط جزيرة العرب وفيها عُقد ميثاق الدرعية. وقرن الشيطان: حزبه وأولياؤه وأهل زمانه ومحل ملكه وتصرفه وهم بنو إسرائيل، وهذا واضح لمن تأمل أشتات قصتهم في القرآن، وقد عَلم ﷺ استيلاء الشيطان عليهم وأن الشرَّ موضوع في جهتهم فترك الدعاء لهم، وهذا الحديث عَلم من أعلام نبوته ﷺ لإخباره عن موضع خروجهم. وقيل: القرن القوة وهو من استعمال اسم السبب للمسبب أي يطلع من حيث قوة الشيطان، وفي رواية للإمام مسلم: «من حيث يطلع قرنا الشيطان» فيكون معناه هنا إضافة قوتها إلى الشيطان وعونهما له على ما يهم به، قال الإمام النووي أفاض الله على روحه أنواء الرحمة والمغفرة: هما جمعاه اللذان يغريهما بإضلال الناس. وقيل: شعبته من الكفر. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رأس الكفر نحو المشرق» والمعنى أن رئاسة الكفر ومنشأ اليهودية والنصرانية في أمة تطلع قبل المشرق، أراد نجداً وهي مشرق المدينة وبها مرده الجن وكل داء عضال. وكان أول أمرهم في مدينة الدرعية على ضفاف وادي

حنيفة عام 850هـ حين قدم أجدادهم إلى نجد واضعين اللبنة الأولى لتأسيس دولتهم لتصبح مركزاً مهماً للسيطرة على الأرض وفي تلك الفترة كانت الأحوال السياسية في نجد تعاني من الإهمال والتفكك وانتشار الجهل مما ساعد على تخفي الأمة الملعونة! روى الترمذي عن ابن عمر قال: قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «هاهنا أرض الفتن - وأشار إلى المشرق - حيث يطلع جذل الشيطان» أو قال: «قرن الشيطان» ونُبه على أنه لا يصلح الاستدلال بحديث إلا بعد استيفاء رواياته وضبط ألفاظه ولا بدّ من ارتباط نصوص الكتاب بالسنة بعضها مع بعض حتى تكون منتظمة المباني. أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله ﷺ وعن أبيه قال: قام النبي ﷺ خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: «هنا الفتنة - ثلاثاً - من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» والمراد بالفتنة: الشرك والكفر بدليل قوله في الرواية الأخرى عند الإمام أحمد: «إن الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وبذلك يتبين معنى الفتنة في استخدام الشارع إذا جاءت غير مضافة كما قال سبحانه ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي الشرك أعظم جرماً عند الله وأكبر من القتل، قال قتادة: يقول: «الشرك أشد من القتل» وروى عن مجاهد والربيع والضحاك وابن زيد مثل ذلك وقد حكى الإجماع عليه الماوردي في النكت والعيون إذ قال: يعني بالفتنة الكفر في قول الجميع وإنما سمي الكفر فتنة لأنه يؤدي إلى الهلاك كالفتنة. وقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن والسدي: حتى لا يكون شرك. وقال ابن زيد: حتى لا يكون كفر. وانتفاء ذلك يتحقق بقتلهم وإخراجهم من

المسجد الحرام على وجه الخصوص ومن جزيرة العرب على وجه العموم كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وهو أمر متجدد مستمر بتجدد سببه وهو وجودهم في جزيرة العرب ففي أي زمان وجدوا فيها ألزموا النفي والجلاء والإخراج، والمقصود من ذلك تخلص جزيرة العرب من الشرك وعموم الإسلام لها لأن الله اختارها لأن تكون قلب الإسلام ومنبع معينه، ولا يمكن تخصيص جزيرة العرب إلا على وجه قيام دولة تحكم الأرض - والله تعالى أعلم - وكانت جزيرة العرب على الدين الإسلامي الحنيف وكان لعلماء الحرمين الشريفين أثر في الحياة العلمية في الحجاز فضلاً عن الوافدين من مختلف بقاع العالم الإسلامي للمجاورة في مكة والمدينة فانتشر العلم من خلال الزوايا والتكايا والمدارس العتيقة كبقية بلدان العالم الإسلامي بينما كان الجهل سمة أهل البادية الأمر الذي ساعد على انتشار الدعوة النجدية الممدودة بالمال والسلاح فدبت ديب النار في الهشيم وسرت كما يسري النخل في الأديم ثم تخطى الأذى إلى المرتقى الصعب ونَحَرَ التوهب كنخِر السوس في الخشب! قال الإمام القرطبي في تفسير قوله عز وجل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ قال علماؤنا: وفي هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا واستبراء أحوال الشهود والقضاة وأن الحاكم لا يعمل على ظاهر أحوال الناس وما يبدو من إيمانهم وصلاحتهم حتى يبحث عن باطنهم لأن الله تعالى بين أحوال الناس وأن منهم من يظهر قولاً جميلاً وهو ينوي قبيحاً، فإن قيل: هذا يعارضه قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» الحديث، وقوله: «فأقضي له على نحو مما أسمع

منه» فالجواب أن هذا كان في صدر الإسلام حيث كان إسلامهم سلامتهم وأما وقد عم الفساد فلا، قاله ابن العربي. قلت: والصحيح أن الظاهر يعمل عليه حتى يتبين خلافه لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صحيح البخاري: «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقرّبناه وليس إلينا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال: إن سريره حسنة» انتهى. وقال صاحب التحرير والتنوير في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذه الآية إيدان للمنافقين بأن النفاق يوجب جهادهم قطعاً لشأفتهم من بين المسلمين وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعلمهم ويعرفهم لحذيفة بن اليمان وكان المسلمون يعرفون منهم من تكررت بؤادر أحواله وفتلات مقاله وإنما كان النبي ممسكاً عن قتلهم سداً لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام كما قال لعمر: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» لأن العامة والغائبين عن المدينة لا يبلغون بعلمهم إلى معرفة حقائق الأمور الجارية بالمدينة فيستطيع دعاة الفتنة أن يشوهوا الأعمال النافعة بما فيها من صورة بشيعة عند من لا يعلم الحقيقة فلما كثر الداخلون في الإسلام واشتهر من أمان المسلمين ما لا شك معه في وفاء المسلمين وشاع من أمر المنافقين وخيانتهم ما تسامعته القبائل وتحققه المسلم والكافر، تمحضت المصلحة في استئصال شأفتهم وانتفت ذريعة تطرق الشك في أمان المسلمين وعلم الله أن أجل رسوله عليه الصلاة والسلام قد اقترب وأنه إن بقيت بعده هذه الفئة ذات الفتنة تفاقم أمرها وعسر تداركها واقتدى بها كل من في قلبه مرض، لا جرم آذهم بحرب ليرتدعوا ويقلعوا عن النفاق، والذي

يوجب قتالهم أنهم صرحوا بكلمات الكفر أي صرح كل واحد بما يدل على إبطانه الكفر وسمعها الآخرون فرضوا بها وصدرت من فريق منهم أقوال وأفعال تدل على أنهم مستخفون بالدين وقد توفي رسول الله ﷺ بقرب نزول هذه الآية ولعل من حكمة الإعلام بهذا الجهاد تهينة المسلمين لجهاد كل قوم ينقضون عرى الإسلام وهم يزعمون أنهم مسلمون كما فعل الذين منعوا الزكاة وزعموا أنهم لم يكفروا وإنما الزكاة حق الرسول في حياته وما ذلك إلا نفاق من قادتهم اتبعه دهماءهم. انتهى. وقد أشار ﷺ إلى قادة الفتنة والنفاق الذين فرقوا الأمة إلى ثنتين وسبعين وأخبر عن تلبسهم بالدين وأمر بقتلهم كما جاء في مسند أبي يعلى ومجمع الزوائد عن أنس بن مالك أن رجلاً كان يغزو مع رسول الله ﷺ فإذا رجع وحط عن رحله عمد المسجد فجعل يصلي فيه فيطيل الصلاة حتى جعل أصحاب النبي ﷺ يرون له فضلاً عليهم فمر يوماً والنبي ﷺ قاعد في أصحابه، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله هو ذاك الرجل فيما أرسل إليه وإما جاء من قبل نفسه فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «والذي نفسي بيده إن بين عينيه سفعة من الشيطان» فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ: «أقلت في نفسك حين وقفت على المجلس: ليس في القوم خير مني؟» قال: نعم، ثم انصرف فأتى ناحية من المسجد فخط خطاً برجله ثم صفّ كعبيه فقام يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟» فقام أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «أقلت الرجل؟» فقال: وجدته يصلي فهبته، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟» فقال عمر: أنا، وأخذ السيف فوجده يصلي فرجع، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «أقلت الرجل؟» فقال: يا رسول الله وجدته يصلي فهبته، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟» قال علي: أنا،

قال رسول الله ﷺ: «أنت له إن أدركته» فذهب علي فلم يجده فقال رسول الله ﷺ: «أقتلت الرجل؟» قال: لم أدر أين سلك من الأرض! فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا أول قرن خرج في أمي لو قتلته ما اختلف في أمي اثنان إن بني إسرائيل تفرقوا على واحد وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة» فقلنا: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة» والمراد بالجماعة: السواد الأعظم وما عليه الجمهور من الصحابة والتابعين والسلف الصالح أهل المذاهب الفقهية والعقدية التي نقضتها المدارس النجدية الشيطانية فقد أخرج الإمام مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو مستقبل المشرق: «ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» ومعلوم أن "ها" حرف تنبيه، فنبه ﷺ أمته الغافلة التائهة وأرشدّها إلى مكن الخُطر حيث يطلع أولياء الشيطان الذين يغريهم ويسوّ لهم خداع الناس كما أغرى آدم وزوجه (فدلاهما بغرور) أي غرهما بقوله وخدعهما بمكره، يقال: ما زال فلان يدلي لفلان بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرفٍ باطل من القول ومنه قوله ﷺ في معجم شيوخ ابن الأعرابي: «المؤمن غرٌّ كريم، والكافر خبٌّ لئيم» أراد أن المؤمن ينخدع لئنه وانقياده، والخب: ضد الغر وهو الخداع المفسد الخبيث. واعلم أيها اللبيب أن من أهم من وسائل أولياء الشيطان: الحلف بالله كذباً وبهتاناً (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم) كما أقسم الشيطان لآدم وحواء بالنصيحة الكاذبة (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) وقد ظهرت دولتهم بظهور فتنة الدهيماء واستمرت حتى نجاح الحرب العالمية الأولى وبروز الأمم المتحدة كغطاء عالمي وانهيار الدولة العثمانية وتفكيك حدود العالم الإسلامي

حيث ظهرت فتنة الصليمة وتم إقامة الكيان الصهيوني وانقسام العالم الإسلامي إلى شيوعي ورأسمالي وإشعال الصراع الطبقي والاعتقادي وظهرت القوى الحركية والانقلابات والثورات الشعبية وتشكلت الجماعات والأحزاب السياسية الإسلامية وغير الإسلامية وفتحت مصارف الاقتصاد الربوي العالمي ثم أعلنت سياسة العولمة وتم اجتثاث الجماعات والأحزاب والتنظيمات المسيية...

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾

هذا الفريق هم أولياء الشيطان وأئمة الكفر وصناديد الشرك وقادة النفاق الذين يتصدون للمجادلة بما لهم من تلبيس وتمويه وأغاليط وسفسطة! والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى تضليلهم الناس وصددهم إياهم عن متابعة العلماء الربانيين! والمجادلة: المخاصمة والمحااجة، والظرفية مجازية أي يجادل جدلاً واقعاً في توحيد الله وإخلاصه العبادة له! ووصف الجدل بأنه بغير علم أي جدلاً ملتبساً بمغايرة العلم الصحيح المأخوذ من العلماء أو بلا شيء يصح من جهة العلم وبغير إذعان لمن عنده العلم أي جدلاً ناشئاً عن سوء نظر وسوء عقل! واتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتقداته والعمل بذلك دون تردد ولا عرض على نظر واستدلال! والمراد بكل شيطان شياطين متكاثرة! والمريد صفة مشبهة أي العاتي في الشيطنة.

﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إهم لمحضرون﴾

لما كان الذي سبق ادعائه أن هؤلاء المنذرين يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال، سيق الكلام دليلاً شهودياً على القصص الست من الأمم المستخلفة الغابرة التي ضلت وأضلت وكان ذلك سبباً للأمر بإقامة الدليل على ضلال

المستخلفين الجدد فقال متهماً بهم مخصصاً الأمر به ﷺ إشارة إلى عظم هذه النتيجة وأنه لا يفهمها حق فهمها سواه ﷺ ﴿فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون﴾ أي فاطم من أولياء الشيطان الذين يعرضون عن دعوتك إلى أباطيلهم أن يجيبوك فتوة منهم وكرماً بأي دليل وبأي حجة حكموا بما يقولونه تبعاً لأبائهم في الملائكة الذين هم في غاية الشدة بحيث إن جبريل عليه السلام زلزل حصونهم يوم قريظة وبحيث إن صيحة واحدة من أحد الملائكة يميت الأحياء كلهم وصيحة أخرى يحيي الأموات كلهم! هذا إلى ما أفادته السورة من الصف والزجر والتلاوة حين ابتدأت بالإقسام بالملائكة ﴿والصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً﴾ لأن لمقصودها نظراً عظيماً إلى أحوالهم في تجردهم وتقديسهم ويلزم من هذا الاستفتاء تنزيههم وتنزيه الذي خلقهم وذلك مقصود السورة! وقد لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها فقال "الربك" فإن الرسول دال على قدر من أرسله وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من الإنباء عن تشريفه ﷺ ما لا يخفى حتى كان أكمل الخلق وأعلاهم في كل أمر يكون به الكمال والقرب من الله تعالى، واعلم أيها الشاهد أن أولياء الشيطان جاؤوا بثلاثة أنواع من الكفر حين جعلوا بين الله تعالى وبين الجن نسباً: أحدها: أنهم أثبتوا الولد والتجسيم لله تعالى لأن الولادة من أحوال الأجسام. وثانيها: أنهم جعلوا ذلك الولد بنت فاختاروا لله تعالى الأدنى وخصوا أنفسهم بالأعلى وجعلوا لله ما يكرهون وهم يرغبون في البنين ويكرهون البنات! وثالثها: أنهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة وأرادوا بها الخساسة ففضلوا أنفسهم على ربهم حين جعلوا أضعف الجنسين له وأرفعهما لهم إذ أثبتوا للملائكة الضعف والعجز

وأثبتوا لشياطين الجن القوة والقدرة! ثم قال معلماً بأنهم أهل لأن ييكتوا ويستهنأ بهم ﴿أأم خلقتا الملائكة إناثا وهم شاهدون﴾ ولما اشتد تشوف السامع إلى أن يعلم حقيقة قول المنافقين الذي تسبب عنه هذا الاستفتاء أعلم سبحانه بذلك في قوله مؤكداً قولهم معجباً منهم منادياً عليهم بما أبان من فضيحتهم بما قدم من استفتائهم ﴿ألا إناهم من إفاكهم ليقولون﴾ أي قولاً هم مستمرون عليه وإن كانوا لا يقدرول على إبرازه ﴿ولد الله وإناهم لكاذبون﴾ وعدل عن مظهر العظمة إلى اسم الجلالة العلم على الذات الجامعة لجميع الصفات إشارة إلى عظيم تعالىه عن ذلك وأن كل صفة من صفاته ونعت من نعوته يأبى الولدية! ودل على كذبهم بإنكاره موبخاً لهم في أسلوب الخطاب زيادة في الإغصاب ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ أي البنات اللاتي تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم وتستحيون من نسبتهن إليكم! ولذلك عظم حُسنًا وتناهى بلاغة وزاد في التقرير عليهم بقوله معجباً منهم ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ أي بمثل هذه الأحكام التي لا تصدر عن له أدنى مسكة من عقله! ولما كان إشراكهم شديد المنافة للعقول، عظيم البعد عن الطباع، حسن جداً قوله مبكناً ﴿أفلا تذكرول﴾ أي أدنى تذكر فإن الأمر في غاية الظهور لما في عقولكم وطباعكم من أنكم لا ترضول لأنفسكم أحسن المنازل فكيف يختاره لنفسه ربكم الذي بيده كل شيء؟ وإنه لا يكون الولد مطلقاً إلا ممن له جنس فيكون محتاجاً إلى جنسه واحتاج لا يكون إلهاً بوجه! وأشارت قراءة الجماعة بالتشديد والإدغام إلى أن الأمر يحتاج إلى مزيد تذكر بما أشار إليه التشديد! ولما قررهم على شهود ذلك بما تضمن إبطاله عقلاً فلم يبق من طرق الأدلة إلا السمع، عادل به قوله ﴿أأم لكم سلطان ميين﴾ أي على ادعاء ذلك دليل سمعي بخبر سماوي قاهر وأشار بقوله "ميول" إلى

أنه لا يتكلم في أحوال الملوك إلا بأمر واضح! ولما كان المخاطب بذلك أهل الكتاب ابتداءً، بيّنه بما سبب عنه قوله **(فأتوا بكتابكم)** ومعلوم أن كفار قريش لم يكن لهم كتاب يخصهم فتعيّن أن الخطاب لأهل الكتاب المعبر عنهم في الآثار الصحاح المتواترة بـ **«قرن الشيطان»** وإن كان فيه موعظة لأتباعهم ليحسبوا الأسباب التي أوجبت غضب الله عليهم! وقد دل على كذبهم تلويحاً بعد أن أتى به تصريحاً وهو أنكى ما يكون بالإتيان بأداة الشك في قوله **(إن كنتم صادقين)** وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع والأساليب التي وردت عليها ناطقة بعظيم جرمهم وقساوة قلوبهم وجرأتهم على ربهم مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مثل ذلك على بال فضلاً عن أن يتخذ معتقداً... ولما تم إظهار ضلالهم فضحهم في أسلوب آخر معرضاً عن خطابهم **(وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا)** إذ قالوا: إنه - جلت سبحات وجهه وعظم تعالى جده - تزوج بنات سروات الجن فأولد منهم الملائكة. ومن المعلوم أن أحداً لا يتزوج إلا من يجانسه فأبعدوا غاية البعد لأنه لا مجانس له. ولما كان النسب يكرم ولا يهان قال منزهاً نفسه عن النسب مؤثراً لضميرهم زيادة في تحقيرهم **(ولقد علمت الجنة إهم لمحضرون)** أي مطلقاً سروات الجن منهم والأسافل محضرون إليه بالبعث كرهاً ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق يوم فصل القضاء والتجلي في مظاهر العز والعظمة والكبرياء فهم أقل من أن يدعى لهم ذلك. ولما ذكر سبحانه اليوم الأعظم الذي تتلاشى فيه مظاهر أعيان الكائنات وتمحي آثار الفانيات قال مصرحاً باسم التسبيح الجامع لجميع أنواعه إشارة إلى عظم المقام **(سبحان الله عما يصفون)** أي تنزه الذي له جميع العظمة تنزهاً يفوت الحصر عما يصفه به أولياء الشيطان الذين ادعوا له الولد وجعلوا الملائكة

من الولد **(إلا عباد الله المخلصين)** أي الذين يصلحون للإضافة إلى الاسم الأعظم المتجردين عن علائق العوائق عن السير إلى الملك الأعظم الذي نزه نفسه المقدس عن كل نقص. ثم التفت الخطاب إلى أئمة الضلال ورؤوس الكفر وقادة الفتنة وزعماء الشرك مواجهاً لهم بالخطاب لأنه أنكى وأجدر بالإغصاب **(فإنكم وما تعبدون)** أي الشيطان الذي اتخذتموه إلهاً ومعبوداً مطاعاً **(ما أنتم عليه بفاتنين، إلا من هو صال الجحيم)** وضمير عليه عائد إلى ما يعبدون بمراعاة أفراد اسم الموصول وهو "ما" فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى وإبليس أخوان. وروى ابن جرير عن قتادة في قوله "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا" قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن فخرج منهما الملائكة، قال: سبحانه سبى نفسه. ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية وأهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض منه التنبيه على فساد قول أولياء الشيطان إهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية. ولما بين الحق ضلال أولياء الشيطان أعلم بأنهم زادوا على عيب الضلال في نفسه عيب الإخلاف للوعد والنقض لما أكدوه من العهد فقال مشيراً إلى نفاقهم هاتكاً ستورهم **(وإن كانوا ليقولون، لو أن عندنا ذكراً من الأولين، لكنا عباد الله المخلصين)** أي فعلوا ذلك من الضلال بالشبه التي افترضت بما كشفناه من ستورهم فهم يقولون قولاً لا يزالون يجددونه مع ما فيه من التأكيد منكرين ومتنكرين لكتبهم: لو جاءنا كتاب وبعث لنا رسول لكنا أول المؤمنين فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به **(فكفروا به فسوف يعلمون)** أي فتسبب عما عاهدوا عليه أنهم كفروا بذلك الذكر مع زيادته في الشرف على ما طلبوا بالإعجاز وغيره فإن هذا الذكر الذي

أتاهم مع كونه أعظم ذكر أتى مصداقاً لكتبهم وكتب الأولين وكان الرسول الآتي به أعظم الرسل فتسبب عن ذلك تهديدهم ممن أخلفوا وعده ونقضوا مع التأكيد عهده.

دخول عبادة الأصنام إلى جزيرة العرب

كان التوحيد في صدر العرب شائعاً ودين إبراهيم وإسماعيل قائماً وأول من غيره واتخذ عبادة الأصنام عمرو بن لحي الخزاعي! قال الإمام أبو الوليد الأزرقى في أخبار مكة: وكان عمرو بن لحي غيّر تلبية إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، بينما هو يسير على راحلته في بعض مواسم الحج وهو يلي إذ مثل له إبليس في صورة شيخ نجدى على بعير أصهب فسايره ساعة ثم لى إبليس فقال: لبيك اللهم لبيك، فقال عمرو بن لحي مثل ذلك، فقال إبليس: لبيك لا شريك لك، فقال عمرو مثل ذلك، فقال إبليس: إلا شريكاً هو لك، فقال عمرو: وما هذا؟ قال إبليس لعنه الله: إن بعد هذا ما يصلحه: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال عمرو بن لحي: ما أرى بهذا بأساً، فلباها فلى الناس على ذلك وكانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فلم تزل تلك تلييتهم حتى جاء الله بالإسلام. وفي الحديث عند الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «أول من سيب السوائب وبحر البحيرة وغير دين إبراهيم: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف بن خزاعة» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت فلا يجلبها أحد من الناس والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر

قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب» والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المحدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي. اهـ. قال الحافظ ابن كثير في تاريخه: كانت العرب على دين إبراهيم إلى أن ولي عمرو بن عامر الخزاعي مكة وانتزع ولاية البيت من أجداد النبي ﷺ فأحدث عمرو المذكور عبادة الأصنام وشرع للعرب الضلالات من السوائب وغيرها وزاد في التلبية بعد قوله: لبيك لا شريك لك، قوله: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فهو أول من قال ذلك وتبعته العرب على الشرط فشابهوا بذلك قوم نوح وسائر الأمم المتقدمة وفيهم على ذلك بقايا من دين إبراهيم، وكانت مدة ولاية خزاعة على البيت ثلاثمائة سنة، وكانت ولايتهم مشؤومة إلى أن جاء قصي جد النبي ﷺ فقاتلهم واستعان على حربهم بالعرب وانتزع ولاية البيت منهم إلا أن العرب بعد ذلك لم ترجع عما كان أحدثه لها عمرو الخزاعي من عبادة الأصنام وغير ذلك لأنهم رأوا ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي أن يغير. اهـ. فهو أول من نصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصلة وحى الحامي فاستوى له أمره بالملك والسدانة على إثر دخول بني إسرائيل جزيرة العرب فإنهم ما دخلوا أرضاً إلا غيروا معالمها وأفسدوا دين أصحابها ولا قرية إلا فتنوا أهلها وقلبوا أوضاعها وأبدلوا عزها ذلاً وجاهها خملاً ولا بلدًا إلا أسرع إليه خراب النفوس وانهيار الأخلاق وانطلاق سعار الشهوات وتحطيم الكيان البشري من أساسه! وقد دلت القرائن والشواهد على أنهم غرّوا أهل مكة وسولوا لهم اتخاذ الأصنام ووافقوهم على ذلك وهذا حال أولياء إبليس

الأخسرين وأهل الضلالة الأسفلين! وهناك حوادث عديدة تشير إلى العلاقة بينهم وبين صاحبهم إبليس فإنهم هم المقصودون ابتداءً وأما خزاعة وغيرهم فمندرج بالتبع حسبما يفيدته تفسير الآية الكريمة (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) فقد روى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن أبي موسى "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب" قال: أهل الكتاب. وقال في قوله "وأكثرهم لا يعقلون" هم أهل الأوثان. وقد ذكر أهل السير أنه لما اجتمعت قريش في دار الندوة للمشاورة فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام، تزيّا لهم إبليس في صورة شيخ نجدي عليه طيلسان من خزّ، واجتمع رأيهم على قتله وتفرقوا على ذلك...وفي بنيان قريش الكعبة تمثل إبليس في صورة شيخ نجدي حين حكّموا رسول الله ﷺ في أمر الركن من يرفعه، فصاح الشيخ النجدي: يا معشر قريش، أقد رضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم؟ وتكرار مجيء إبليس في صورة شيخ نجدي يثير سؤالاً في النفس: ما هي الصلة بين الشيطان وصورة الشيخ النجدي؟ وما حقيقة العلاقة بينهما وبين الصنم؟ أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أنه قال: «ليس من صنم إلا فيه شيطان» وذكر ابن الجوزي عن ابن عباس أنه قال: «في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم» فكانت عبادتهم الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الأمر لهم بالعبادة للأصنام! ومعلوم أنهم كانوا يثبتون الإله إلا أنهم يعتقدون أنه تعالى جسم وذو صورة إلا أنه محتجب بالسموات فلا جرم اتخذوا صوراً وأصناماً وتماثيل...قال الإمام الخازن في تفسيره: ألجبت اسم للأصنام والطاغوت شياطين الأصنام ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس فيغترون بذلك

وقيل: هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش. اهـ. وقد كشف تعالى حالهم مع الأصنام في قوله ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي اشرع لنا أصناماً نعبدها كالتي لهؤلاء القوم فكانوا أشد خلق الله عناداً وكفراً واستهزاء! وكان كفار قريش ومن حولهم إبان البعثة قد ركبوا السنن حتى قال رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهؤلاء ذات أنواط فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا السِّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» ولما كان المشركون في الجاهلية يعوذون بالشياطين وكان في كل صنم شيطان زادوهم رهقاً أي غشياناً وتسلطاً وجراءة فصاروا في فرق وخوف فقد روى البيهقي في دلائل النبوة أن وفد ثقيف قالوا لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّبَّةَ - يعني اللات - ماذا نصنع فيها؟ قال: «اهدموها» قالوا: هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها قَتَلْتَ أَهْلَهَا... ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ قد أمر عليهم خالد بن الوليد وفيهم: المغيرة بن شعبة فلما قدموا عمدوا اللات ليهدموها واستكفت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين - أي الفأس - وقال لأصحابه: وَاللَّهِ لَأُضْحِكَنَّكُمْ مِنْ ثَقِيفٍ فَضْرَبَ بِالكَرْزَيْنِ ثُمَّ سَقَطَ يَرْكُضُ فَارْتَجَ أَهْلُ الطَّائِفِ بَصِيحَةً وَاحِدَةً وَقَالُوا: أَبْعَدَ اللَّهُ الْمَغِيرَةَ قَدْ قَتَلَتْهُ الرِّبَّةُ وَفَرَحُوا حِينَ رَأَوْهُ سَاقِطًا وَقَالُوا: مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَلْيَقْتَرِبْ وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى هَدْمِهَا فَوَاللَّهِ لَا تَسْتَطَاعُ أَبَدًا فَوْثُ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ فَقَالَ: قَبْحَكُمُ اللَّهُ يَا مَعْشَرَ ثَقِيفٍ إِنَّمَا هِيَ لِكَاعٍ حَجَارَةٌ وَمَدْرٍ فَاقْبَلُوا عَافِيَةَ اللَّهِ وَاعْبُدُوهُ ثُمَّ ضَرَبَ الْبَابَ فَكَسَرَهُ ثُمَّ عَلَا

على سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض وجعل صاحب المفتاح يقول: لِيُغْضَيْنَ الأساسُ فليُخَسَفَنَّ بهم فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالده: دعي أحفر أساسها فحفره حتى أخرجوا تراهما وانتزعوا حليتها وأخذوا ثيابها فُبُهِتَتْ ثقيفٌ فقالت عجوز منهم: أَسْلَمَهَا الرُّضَّاعُ وتركوا المِصَّاع. وذكر الواقدي في المغازي أنه لما بعث رسول الله ﷺ من يهدم اللات قال شيخ من ثقيف: إن قدر على هدمها فهو محق ونحن مبطلون وإن امتنعت ففي النفس من هذا بعد شيء! انتهى. وإذا تقرّر هذا فاعلم أن بني إسرائيل كانوا وراء عبادة الأصنام لثبوت الولاية بينهم وبين الشيطان كما نصّت الكتب الإلهية والآثار النبوية... وقد ذكر تعالى قصة إبليس نحو آدم في القرآن في سبعة مواضع تنبيهاً للمستخلفين وتحذيراً لهم من غرور الشيطان وناداهم سبحانه في سورة الأعراف بقوله ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتُهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والخطاب هنا متصل بقصة آدم عليه السلام! وعنى بني آدم: المستخلفون المفسدون قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين والفراعنة وأسلاف بني إسرائيل الذين أشركوا بالله وأخلافهم المقتدين بآبائهم ومن تبعهم من الضعفاء الذين أغوهم وزينوا لهم شبهاتهم الواهية فاستنوا بهم واقتحموا معهم الضلالة! وناداهم بني آدم تذكيراً بقصة أبيهم آدم عليه السلام حين غره الشيطان حتى أخرجه من الجنة مع كونه صفي الله ليشتد الحذر من عدوهم كما حذر أباهم عليه السلام... وفي سورة طه ذيل القصة بقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ والكلام هنا تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه بقصة بني إسرائيل نحو السامري

الذي كان يظهر الإيمان ويظن الكفر. وحكى تعالى في سورة بني إسرائيل قول إبليس اللعين ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرَجَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستولين عليهم بشدة احتيالي كما يستولي الآكل على ما أخذه في حنكه، والكلام في الآية مرتب على قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وقد أوَّلَت الشجرة الملعونة بالشیطان وأوليائه اليهود والنصارى لقوله تعالى ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأول ما عمت الفتنة بني إسرائيل وحق فيهم مكر الشيطان أنه دخل في الصنم الذي صنعه رأس النفاق السامري على صورة العجل فصوّت كالبقر فقالوا هذا إلهكم وصاروا مجسمة وحلولية ولذلك جوزوا حلول الإله في بعض الأجسام... وبناء على ما قدّمنا من الآثار الصحاح فإن قوّة الشيطان تكمن في قرنيه فإذا قطع قرنائه وهن سحره وضعف كيده، وقد كانوا يعدّون تفتن المسحور للسحر يطل أثره، قال تعالى ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ والمراد - والله أعلم وأحكم - أن كيد الشيطان يضعف إذا قوتل أولياؤه وإلا كان عظيمًا، واعلم أنه ليس شيئاً أشد على الشيطان من أن ينكشف حاله ويفتضح أوليائه، ألا ترى أن الدجال يخرج من غضبة يغضبها؟ وذلك حين ينكشف أمره وتسقط أقنعه التي يقاتل من ورائها... ولذلك التفت الكلام من الأمر بقتال أولياء الشيطان إلى الإخبار عن ضعف كيده؟ وتأكيد الجملة بمؤكدين "إن" و "كان" يقتضي تقرّر وصف الضعف لكيد الشيطان إذا قوتل أولياؤه، وقد حسّن الالتفات أنه مؤذن بانتقال الكلام إلى التهكم! والالتفات من أفانين البلاغة وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس ولم يزل أئمة اللغة والأدب يستخرجون بدائعه وروائعه، وجاء منه

في القرآن ما لا يحصى كثرة. وفي الآية من الأسرار ما لا تسعها الأفكار ومن الإشارات ما لا تحدد بها نطاق العبارات.

قصة آدم وإبليس

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) نداء آدم نداء تنويه بذكر اسمه بين الملاء الأعلى، وينتزع من هذه الآية أن العالم جدير بالإكرام كما أخذ من التي قبلها أنه جدير بالتعظيم، ونظير هذه الآية في سورة الأعراف في سياق الخبر عن إبعاد إبليس ولعنه وطرده (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أي قلنا لآدم بعد طرد إبليس من الجنة: لازم الإقامة فيها على طريق الإباحة والتكريم وذلك في حضرة واحدة كان فيها آدم والملائكة وإبليس حضوراً، والآيات مشعرة بأن آدم وزوجه أُمرَا بسكنى جنة أُعدت للاختبار وليست الجنة الجزائية التي عرضها السموات والأرض لأنه كُلف فيها ونام وأخرج منها ودخل عليه إبليس ولا يجوز ذلك في جنة الجزاء، وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة وحسرة ومقموعة وتنكيل إذ أطرده الله وأسكن الذي احتقره وترفع عليه وتكبر أن يسجد له وإبليس أول من قاس الدين برأيه وهو أول المتكبرين ولم يعظم من عظمه الله فطرده من رحمة الله وكان من الموحيدين فلم ينفعه توحيده، وآية البقرة لم تخل عن ذكر ما فيه تكربة لآدم وهو قوله (ورغداً) لأنه مدح للممتن به والذي وقع في سورة البقرة (وكلاً) بالواو وفي الأعراف بالفاء (فكلاً) والعطف بالواو أعم فالآية أفادت أن الله تعالى أذن لآدم بأن يتمتع بثمر

الجنة عقب أمره بسكنى الجنة وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام، ولما كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس الذي تكبر وفضل نفسه عليه كان الحال مقتضياً إعلام السامعين به في المقام الذي حكي فيه الغضب على إبليس وطرده، وأما آية البقرة فإنما أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بثمارها في مقام إظهار فضيلة العلم التي اختص بها وظهر فضله على الملائكة، فحصل من مجموع الآيتين فوائد عديدة وزعت على عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها بتجديداً للفائدة وتنشيطاً للسامع وتفنناً في أساليب الحكاية، والكلام في الآيتين مسوق إلى بني إسرائيل الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله ولهذا المناسبة والمشاركة أردف الحق قصة آدم في سورة البقرة بقصة بني إسرائيل مع ما بينهما من طول المدة، وقد جمعت السورة من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها "فسطاط القرآن" وقد حيك بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام وفصلت الحديث عن بني إسرائيل تفصيلاً يحمل المسلمين على العظة والاعتبار ويعرفهم طبيعة أولئك القوم حتى يأخذوا حذرهم منهم ويحذروا اتباع أهوائهم وينفروا من التشبه بهم وكان أسلوب السورة أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لحاسن الأساليب الخطابية والكتب التشريعية يتحدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين وقد ابتدئت السورة بالرمز إلى تحدي المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف التهجي المفتوح بها رمزاً يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله **(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على**

عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ فلم يعارضوه لا سيما في ميدان البيان فإنهم كانوا فرسانه المالكين لأزمته الحائزين قصب السبق به... فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه صنفين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي ولما كان أخص الأصناف انتفاعاً بهديه المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة ابتدئ بذكرهم ثم أردف بذكر الكفار المتظاهرين بالإيمان فخصهم بالإطناب تشويهاً لنفاقهم وإعلاناً لدخائلهم وردّ مطاعنهم وقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة واتسع المجال لدعوتهم إلى عبادة الرب الحق الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض وأنعم عليهم بما في الأرض جميعاً وتخلص إلى صفة بدء خلق الإنسان مدججاً في ذلك تذكيرهم بالاستخلاف في الأرض مبيناً كيف نشأت عداوة الشيطان لآدم ولنسله وأعقب بذكر مئة عظمى تخص أهل الكتاب الذين هم أشد الناس مقاومة لهدي القرآن وأنفذ الفرق قولاً في عامة العرب لأن أهل الكتاب يومئذ هم أهل العلم ومظنة اقتداء العامة لهم من قوله ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي﴾ الآيات فأطنب في تذكيرهم بنعم الله وأيامه لهم ووصف ما لاقوا به نعمه الجمّة من الانحراف عن الصراط السوي انحرافاً بلغ بهم حد الكفر وذلك جامع لخلاصة تكوين الأمة الإسرائيلية وجامعتهم في عهد موسى ثم ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالحسد والعداوة حتى على الملك جبريل عليه السلام وبيان أخطائهم لأن ذلك يلقي في النفوس شكاً في تأهلهم للاقتداء بهم وذكر من ذلك نموذجاً من أخلاقهم من تعلقهم بالحياة ومحاولة العمل بالسحر وأذى النبي وحسدهم المسلمين والسخط على الدين وبيّن طريقة تبادلهم المهام المختلفة

واقترسامهم الأديان المتخالفة وانتقل إلى ذكر المسجد الحرام مشيراً إلى استخلافهم فيه مبيناً ملة إبراهيم محرّضاً للمسلمين على تطهيره منهم مبكّثاً لهم في طعنهم على تحويل القبلة ثم ذكّروا بنسخ شرائعهم بما هو خير منها ثم عاد إلى محاجتهم بالاستدلال بآثار صنعة الله ومحاجتهم في يوم يتبرأون فيه من شركائهم وإبطال مزاعم دينهم في محرمات من الأكل وقد كمّل ذلك بذكر أوصافهم ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً ثم تفصيلاً وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة المحمدية وذلك من جوامع الكلم فكان هذا الختام تذييلاً وفذلكة وكانت في خلال ذلك كله أغراض شتى سبقت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات بتجديداً لنشاط القارئ والسامع كما يسفر وجه الشمس إثر نزول الغيوث الهوامع وتخرج بوادى الزهر عقب الرعود القوارع من تمجيد الله وصفاته ورحمته وضرب أمثال واستحضار نظائر وعلم وحكمة ومعاني الإيمان والإسلام وتثبيت المسلمين والكمالات الأصلية والمزايا التحسينية والنظر والاستدلال ونظام الحاجة وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ لما ذكر سبحانه ما منح المستخلفين به من التمكين، ذكّرهم ما كانوا عليه قبل هذه المكنة من العدم تذكيراً بالنعم في سياق دال على البعث الذي فرغ من تقريره وعلى ما خص به أباهم آدم عليه السلام من إفاضة روح الحياة وروح العلم وأمر أهل سماواته بالسجود له والغضب على

من عاداه وطرده عن محل كرامته ومعدن سعادته وفي ذلك تنبيه لأهل المكنة على شدة عداوة إبليس وتحذير لهم من غروره وتزيينه ووسوسته وقد ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع: في سورة البقرة وفي سورة الأعراف وفي سورة الحجر وفي سورة بني إسرائيل وفي سورة الكهف وفي سورة طه وفي سورة ص، وقد اعتمد إبليس على تأليه وتعظيم الفكرة العقلانية وفهم الطبع الذاتي ونتاجه القائم على معادلات التصور الظني الذي لا سند له من الدين وزين للناس تفسير الوجود تفسيراً نظرياً مادياً مرتبطاً بالعقل والتجربة وقراءة الواقع وقام بنصب الحيل والأحاييل والخداع للبشرية وأثار العواطف والنفوس والغرائز والرغبات وبث ثقافة التحريش المترتب عليها الحروب والتعدي على الحدود ووسوس بالتشكيك في قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر والتكذيب بما وراء العقل والتصور الذهني المجرد. قال صاحب كتاب "التضمين في الكتاب المبين" نفعنا الله بعلمه وبركته: في مشهد مثير واحتفال مهيب يحشد له الجليل في الملاء الأعلى ملائكته وفيهم إبليس وتشهده السماوات والأرض، يعلن فيه ميلاد الإنسان ويأمرهم بالسجود له زيادة في تكريمه ويسجد لهذا المخلوق الجميع ما عدا إبليس إذ جعل لنفسه حقاً فيما يرى في تنفيذ ما يتلقاه من الأوامر فكشف عن طبيعته الشريرة والأصيلة وليست العارضة **(أنا خير منه)** تصوير يشخص الخلجات النفسية والمعاني العقلية... و"لا" في الآية ليست زائدة ومن ادعى زيادتها فمتسرع لم يتحرر الكيس في دعواه ولم يسلك طريق المعرفة بها ليكشف له عنها، ومن قال مؤكدة فماذا تؤكد ثبوت المنع أم نفيه؟ أو قال للتحقيق فماذا تحقق؟ ومن ادعى أن المنع مجاز عن الاضطراب فقد رد عليه السكاكي: بأنه لا قرينة في هذا المجاز وأنه من باب التضمين ما حملك على ألا

تسجد، ولعل تضمين "منع" معنى "حدا" أظهر للمعنى في هذا السياق وأسير، فما حداك على ألا تسجد؟ والعلاقة بين المنع والحدو وشيخة فكلاهما فيه حمل النفس على ما تكره من أمر السجود، وإلجاؤها إلى ما يؤدي بها إلى الهلاك في رفضها للأمر - إذ أمرتك - وقسرها وقهرها على طاعة مولاهما فالمنع في سورة الأعراف جاء مصحوباً بظرف **(إذ أمرتك)** ومعناه: ما حداك على ألا تسجد حين أصدرت أمري إليك؟ فرفض السجود هو بالتالي رفض الأوامر، وتقرير حال أوضاع الحروف يوجهنا كيف تسري أحكامها في أحشاء الآية فنحمل المعنى على التضمين لننجو من آفة زيادة الحروف، أما المنع في سورة ص فليس فيه تضمين، بقي أن أقول: لم جاء التعبير بالمنع بدل الحداء؟ والجواب: لعله في لفظ ما **(منعك)** يسأله سبحانه عن الموانع وهي بمعناها اللغوي قسرية قهرية لا إرادية، وفي لفظ "ما حداك" يسأله عن الدوافع وهي طوعية إرادية، وفي اختيار الأولى بدل الثانية إيقاع له في الحرج وكشف عن الجريمة في أسلوب ساحر لاذع لأن أحداً لم يمنعه من السجود وإنما امتنع بملء حرите وبكامل وعيه وبتصميم من إرادته، فأى جواب سيبرر ما وقع فيه وما أخذ به نفسه؟ لقد قال: أنا خير منه! "فأنا" الإبلية هي الدافع له على التمرد والباعث له على التأبي عن الطاعة وهي السبب في عتوه وصلفه وكبريائه فإذا قال تعالى في الحديث الشريف: **«الكبرياء ردائي من نازعني فيه قصمته ولا أبالي»** فقد قصمه بسبب منازعته إذ أخرجه فأهبطه، فاختيار **(ما منعك)** على حميله "ما حداك" فلائنه سلّم إلى تحصيل المطلوب من زلات الألسن وما تخفي الصدور فلو لم يكن تحصيل هذا المعنى إلا في ثبل اللفظ ونباوته لكان حجة على تقدمه أما حذف "لا" في سورة ص وإثباتها في سورة الأعراف فلائن السؤال عن المنع في سورة ص

على حقيقته لا تضمن فيه، وجاء الجواب من المولى الجليل (أستكبرت أم كنت من العالين) أما في سورة الأعراف فتضمن سؤال المنع السؤال عن الدوافع فلا بد من (لا) النافية وإلا يفسد المعنى، جاء الحرف (لا) ليشارف معنى "الحداء" وقد تزاممت الأغراض على جهاته، تفانيه لنباوة محله فيزداد بها سفوراً، وببديع نظمها تجلياً وظهوراً. اهـ. ثم حكى تعالى عن إبليس ذكر الداعي الذي دعاه إلى ترك السجود (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فقاس اللعين أن ما خلق من النار أفضل مما خلق من الطين فأخطأ قياسه وذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب وما في الطين من الوقار والأناة والحمل والتثبث، ويكفي في فضل جوهر التراب على جوهر النار أن التراب إذا أسلمته حبة عوضك عنها أضعافاً مضاعفة، والنار لو أسلمتها الدنيا بما فيها لأحرقها وأفسدتها جميعاً، ولو تأمل اللعين أن النار تنتج الرماد، وينتج عن التراب ما هو مشاهد من الأشجار والأزهار والثمار لكفاه دليلاً على فساد رأيه، ولكنه غلبه الحسد فردّه عن الطريق القويم وصده عن الطريق المستقيم فتمرد وتكبر وتعزز وتجبر فعاد بعد قربه مطروداً وبعد قبوله مردوداً، ولما علم أنه ما أخذ إلا من وجهين - الحسد والكبر - صار لعنه الله يجتهد في إغواء بني آدم لا سيما بهذين الخلقين الذميين والوصفين القبيحين حتى سول لبني إسرائيل أنهم أرفع الناس مقاماً وأعظمهم احتراماً ولا زال يأتي إليهم بالوسائل والأسباب ويدخل عليهم من كل باب حتى عتوا عن أمر ربهم واستهزؤوا برسولهم وادعوا العلو على أبناء جنسهم، وحقيق بمن كان إبليس أميره والشيطان الرحيم دليله وسميره أن يصل لمثل ذلك ويقع في أودية المهالك. روى أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «أول

من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» قال جعفر: فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس. وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله حين فضل النار على الطين لأن الطين أفضل من النار من وجوه: أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر وذلك هو الداعي لآدم في السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع وأدركته المغفرة والاجتماع والهداية والتوبة، ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب وذلك الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار فأدركه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاق. والثاني: أن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفريقها. والثالث: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وفي النار تراباً. والرابع: أن النار سبب العذاب وهي عذاب الله لأعدائه وليس التراب سبباً للعذاب. والخامس: أن الطين يسقى من النار والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

﴿فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ما ووري عنهما من سواهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ لما ذكر الحق رفض إبليس السجود لآدم أعقب ذلك بذكر وسوسة الشيطان له! والعرب كانوا يرادفون بين إبليس والشيطان فهما اسمان لذات واحدة إلا أن إبليس ذكر في معرض السجود لآدم فلما استكبر أبلس يأساً وأما الشيطان فإنه ذكر في معرض الوسوسة والإغواء فلما اعوجج والتوى وأضل وأغوى أبعده الله تعالى! قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله "فأكلا منها فبدت لهما سواهما": عَرِيََا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجُهما.

والسوأة تطلق اتساعاً على فتنة الجنس وعلى ما يسوء من الفحش والمعاصي والنقائص وقد عَلم اللعين أنهما ما طمعا أن يكونا ملكين وذلك لسجود الملائكة لآدم وتفضيله عليهم فأتاهما من جهة الخلد والرياسة ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي أقسم لهما وإنما عبّر بصيغة المفاعلة ليدل على أنه حصلت بينهما في ذلك مراوغات ومحاولات بذل اللعين فيها جهده لمعرفة أنهما طُبعاً على النفرة من المعصية، وكان اللعين أول من حلف بالله كاذباً وظناً أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً فاغترا به فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكّن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، قال ابن عباس: حلف لهما بالله حتى خدعهما وإنما يُخدع المؤمن بالله تعالى، قال إبليس: إني خلقت قبلكما وأن أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. وكان ابن عمر يقول: «من خدعنا بالله انخدعنا له» وذلك أن إظهار الانخداع مع التفطن له من الكرم والحلم وفي الحديث عند الترمذي: «المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم» أي من صفات المؤمن الصفح والتغاضي حتى يظن أنه غر ولذلك عقبه بكريم لدفع الغرية المؤذنة بالبله فإن الإيمان يزيد الفطنة لأن أصول اعتقاده مبنية على نبذ كل ما من شأنه تضليل الرأي وطمس البصيرة ثم إنه لما زكت نفسه عن ضمائر الشر وخطورها بباله وحمل أحوال الناس على مثل حاله عرضت له حالة استئمان تشبه الغرية فصار من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر والغفلة وترك البحث عنه وليس ذلك منه جهلاً ولكنه كرم وحسن خلق، والفاجر خدّاع مكار مفسد خبيث ولذلك قابل به الغر لأن الناس يتأذون به لما يصلهم من شره... وكذلك إبليس أهبط أبويننا عن معالي العز إلى مهاوي الذل بخداع وحيلة وتأويل باطل كما أشارت آية البقرة ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ والضمير عائد على الطاعة فيكون إذ ذاك

الضمير عائداً على غير مذكور إلا على ما يفهم من معنى قوله **(ولا تقربا)** لأن المعنى أطيعاني بعدم قربان هذه الشجرة، وقرأ حمزة **(فأزاهما)** والقراءتان متقاربتان في المعنى وهو الزوال عن الصواب من غير قصد، وكرر الأمر بالهبوط لما علق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر فعلق بالأول العداوة المؤدية إلى الفتنة والبلاء، وعلق بالثاني إيتاء الهدى المؤدي إلى النجاة والنجاح وقد تأكد ذلك بما اعترض بينهما من تلقي الكلمات، وجاء التعبير في سورة طه بصيغة التثنية **(اهبطا)** على أن المراد - والله أعلم - آدم وإبليس وأما حواء فتبع لزوجها، وخوطبا بضمير الجمع **(بعضكم لبعض عدو)** لأنه أريد عداوة نسليهما فإنهما أصلان لنوعي الإنسان والشیطان. واعلم أن آدم عليه السلام لم يعص إلا بتأول ولكنه اعتبر عصياناً لكونه في الواقع مخالفة لأمر الله تعالى، وذكر الحق تعالى الإلزال منه باسمه الشيطان لا باسمه إبليس لما في معنى الشيطنة من البعد والسرعة التي تقبلا التلافي ولما في معنى الإبلas من قطع الرجاء فكان في ذلك بشرى استدراك آدم بالتوبة، فتلقى من ربه كلمات الإنابة، وهبَّ عليه نسيم الهداية، بما سبق له من عين العناية، فتاب عليه وقرَّبَه إلى حضرة الشهود، ومعاينة طلعة الملك الودود، فلم يبلغ الشيطان قصده ولا أدرك مراده بل ازداد سخينة عين وغيظ نفس وخيبة ظن، والحكمة الإلهية اقتضت هبوط آدم إلى أرض العبودية ليقوم بحقوق الحكمية فلو بقي في الجنة لفاته نصف الكمال، فكل ما ينزل بالروح إلى قهرية العبودية فهو سبب إلى الترقى لشهود نور الربوبية، وكذلك نزوله إلى الأرض التي هي محل الذلة والافتقار أكمل في حقه ففيها العز والافتخار، وبالجملة فإن الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه

المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم ير في حال الأمر بالسجود من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار. واعلم أن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين: الخير والشر، وبهما وقع التجلي والظهور ليُظهر آثار أسمائه تعالى فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر فيما نفهم، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالي أو جمالي لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته، والآيات أنزلت تمهيداً لهداية الناس ووعظهم وإرشادهم إلى ما تكمل به فطرتهم. وقد افتتحت سورة الأعراف بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليلبغه وكان افتتاحها وارداً على أحسن وجوه البيان وأكملها وتدور مقاصد السورة على عدة أغراض منها: النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة ووصف ما حل بالمشركين والذين كذبوا الرسل من سوء العذاب في الدنيا وما سيحل بهم في الآخرة، والتذكير بنعمة خلق الأرض وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان وتحذير بني آدم من التلبس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمان أنفسهم الطيبات ومن الوقوع فيما يزرع بهم في العذاب في الآخرة ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين وتخلص إلى ذكر تأويل الكتاب والتذكير بالبعث وتقريب دليله والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان والتذكير ببديع ما أوجده الله لإصلاحها وإحيائها والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإصلاح وأفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المستخلفين وما لاقوه من

عنادهم وأذاهم وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله المستخلفين قبل أن ينزل بهم العذاب إعداراً لهم أن يقلعوا عن شركهم وعنادهم فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال وأطال القول في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وتخلل قصته ذكر النبي الأُمي ﷺ وفضل دينه ثم تخلص إلى موعظتهم كيف بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك وضرب لهم مثلاً بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى ووصف حالهم ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول ووصف آهنتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال ثم ذكر إشراكهم وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بالإعراض عنهم والمداومة على الدعوة وحذرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرّاً وجهرّاً والإقبال على عبادته فكان في هذا الختام محسن رد العجز على الصدر.

(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

لما ذكر سبحانه المنعم عليهم تشوقت النفوس إلى معرفتهم فميزهم ببيان أضدادهم تحذيراً منهم فعرف أنهم قسمان: قسم عَرَفَ وكفر فاستوجب الغضب، وقسم أعرض وخالف حتى ضل في أمر المسيح فاضطرب وصار إلى العطب! واعلم أن الضلال إنما يكون بعد الكفر لأن الكافر يعظم قبحه ويفحش أمره بإخفاء الحق فإذا زاد قبح الكفر بلغ في الضلالة النهاية القصوى وتاه في تيه الهوى وتردى في مهاوي الردى كما قال عز وجل **(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون)** وقال تعالى **(ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)** ونظيره قوله سبحانه لبني إسرائيل **(فمن**

كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) وقوله لهم أيضاً (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي ومن ينزل عليه غضبي بسبب كفره فقد سقط في مهاوي الضلال. وصفة المغضوب عليهم تكرر في القرآن إلحاقها باليهود الذين خالفوا نطق الصواب كما أن صفة الضالين تكرر في القرآن إلحاقها بالنصارى الذين أضلهم الله وطمس على قلوبهم حتى لا يعرفون الباب كقوله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) روى الإمام البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: غير المغضوب عليهم يقول: أرشدنا غير دين هؤلاء الذين غضبت عليهم وهم اليهود، ولا الضالين وهم النصارى أضلهم الله بعد الهدى بمعصيتهم، غضب الله عليهم فجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت يعني الشيطان أولئك شر مكاناً في الدنيا والآخرة يعني شر منزلاً من النار، وأضل عن سواء السبيل من المؤمنين يعني أضل عن قصد السبيل المهدي من المسلمين. وروى الإمام الترمذي بإسناده عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» وقال الخازن في تفسيره: وجعل منهم عبد الطاغوت يعني من أطاع الشيطان فيما سول له والطاغوت هو الشيطان. وقد مثلهم الله تعالى في سورة الحشر بقوله (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) والسورة حكى أحوال بني النضير وأضرابهم وحددت صفاتهم، وذكر سبحانه في سورة البقرة تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم فقال (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف لبيان ما أفاده السياق من

تظاهر كلا الفريقين بعداوة الآخر! ونحو هذا "أو" في قوله تعالى ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾ وقد أخبر عنهم الحق تبارك وتعالى في بعض المواضع بقوله "الذين من قبلكم" أراد بني إسرائيل لأن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة كما في الآية الكريمة ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي يريد الله أن يبين لكم شرائع الذين من قبلكم ويعرفكم سنن اليهود والنصارى أنهم لما تركوا كتابهم كيف عاقبتهم! وأخبر ﷺ عن غياب أمته عن كتاب ربها واتباعها سنن الذين من قبلها ورغبتها في تقليد أعدائها على غير وعي أو تمييز كما جاء في الحديث المتفق عليه: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله آلهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» أراد يهود ونصارى بني إسرائيل فقد يكون الوصفان لأهل الكتاب فيكون العطف من قبيل تعدد الأحوال ويؤيده ما جاء في مسند الإمام أحمد: «لتتبعن سنن بني إسرائيل شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخل رجل من بني إسرائيل جحر ضب لتبعتموهم فيه» والحديث من أعلام النبوة فقد وقع مصداق ما أخبر به ﷺ وفيه تخويف وتحذير للأمة أن تسلك طريق بني إسرائيل أو تنحرف عن الصراط المستقيم وتتبع السبل كما قال جل شأنه ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ وفي هذا نهي عن اتباع سبل اليهود والنصارى الذين بين ﷺ أمرهم البيان الجزل في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن الفقيه الأعظم العدل ابن العدل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا» وأوماً بيده نحو المشرق «من حيث يطلع قرنا الشيطان» أي اليهود والنصارى. وفي رواية أخرى بصيغة الإفراد إشارة إلى بني إسرائيل: «الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن

الشيطان» فتنبه لهذه الإشارات اللطيفة الشريفة والأسرار العجيبة الخفية! والمراد بالفتنة: الشرك والكفر كما جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «إن الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان».

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة

الخطاب في الآية لبني إسرائيل وقد أشار إليهم المفسر الأعظم والمبين الأفخم ﷺ بقوله في الحديث المتفق عليه واللفظ للبخاري: «ألا إن القسوة غلظت القلوب في الفدادين عند أصول أذنان الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» يعني في جهة المشرق حيث هو مسكن هاتين القبيلتين، والطلوع يُحمل على الاختفاء يقال: طلع إذا اختفى وغاب وهذا من الأضداد - كما جاء في لسان العرب - أي يغيب ويختفي قرنا الشيطان في ربيعة ومضر! وهذا الحديث من معجزات النبوة فإن آل سعود وآل الشيخ لبسوا جلدة بني إسماعيل وانتحلوا نسب ربيعة ومضر! والحق أنهم مسحة إسرائيلية اختفت في ربيعة ومضر! حيث ينسب آل سعود أنفسهم إلى محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن محمد بن ربيعة بن مانع بن الحسيب بن المقلد بن بدران بن مالك بن سالم بن مالك بن حسان بن ربيعة بن مرة بن منقذ بن الحارث بن سعد بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، كما ذكروه في الأجوبة النجدية. ومعلوم أن بكر بن وائل من ربيعة، قال ابن حزم في كتاب جمهرة أنساب العرب: وبنو بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة. اهـ.

وآل الشيخ ينسبون أنفسهم إلى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاهر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن هثمل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، كما ذكروه في الأجوبة النجدية. ومعلوم أن بني تميم من مضر، قال ابن حزم: بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر. اهـ. قال تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أراد أنهم أذعياء ينتسبون إلى قوم ليسوا منهم تفضيحاً لهم وتشهيراً لأمرهم وقهويلاً لذلك الانتساب المكذوب - والله أعلم - ووصف قوم بـ(آخَرِينَ) للدلالة على المغيرة أي قوم ليسوا من بني إسماعيل وإنما هم من ذرية إسحاق ويعقوب، وهم يكتمون هذا النسب ويتحلون نسب ربيعة ومضر! قال تعالى ﴿عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ والعتل: الغليظ القاسي، والزنيم هو الدعيّ الملتصق بالقوم وليس منهم! روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا إليّ من كان هاهنا من يهود» فجمعوا له، فقال: «إني سألكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان، فقال: «كذبتُم بل أبوكم فلان» قالوا: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا، فقال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيراً ثم نخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال: «هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم

عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُماً؟» قالوا: نعم قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح وإن كنت نبياً لم يضرّك. وكما لعب سلفهم بالأنساب كذلك لعب خلفهم "آل سعود وآل الشيخ" وادّعوا قوماً ليس منهم ولا قلامة ظفر فانتسبوا إلى ربيعة ومضر كذباً وزوراً وانتحلوا نسب بني إسماعيل! وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر، ومن ادّعى قوماً ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار» وفي صحيح الإمام البخاري من حديث عمر: «إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم» يعني فتنتسبوا إلى غيرهم كما فعل بنو إسرائيل. وروى الدارمي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وفي مسند البزار عن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً أو ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» وقال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم في قوم مرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا حثالة» وشبك بين أصابعه قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: «اصبروا خالفوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي مسعود يبلغ به النبي ﷺ قال: «من هاهنا جاءت الفتن نحو المشرق والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر عند أصول أذنان الإبل والبقر في ربيعة ومضر» والفدادون وصف أطلقه الرسول الأعظم ﷺ على أهل قساوة القلوب المخاطبين بقول علام

الغيوب ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قال الإمام أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي المعروف بابن الأعرابي: فَدَدَ الرجلُ تفديداً إذا مشى على الأرض كبيراً وبطراً. وقيل: الفدّاد: هو الشديد الصوت رحب الجوف، يقال: فدا إذا رفع صوته، وهو دأب الإسرائيلي الفخور المصعر حده استكباراً ﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ وحكى أبو عبيدة معمر بن المثنى أن الفدادين هم أصحاب الإبل الكثيرة من المائتين إلى الألف، ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح وقال: أهل الوبر بفتح الواو والموحدة أي ليسوا من أهل المدر لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر وعن أهل البادية بأهل الوبر. ومعنى قوله: "عند أصول أذنان الإبل والبقر" أي الذين استخلفهم الله تعالى وأورثهم أموال الأمم العاصية الغابرة حين حملهم في السفينة مع نوح! وبنو إسرائيل كانوا أصحاب إبل كما أشار قولهم ﴿ونزداد كيل بعير﴾ وقولهم ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ قال الفراء: لا يقال عير إلا لأصحاب الإبل. وكان أحب الطعام والشراب إلى أبيهم يعقوب عليه السلام الإبل ولحومها، وكانوا أيضاً أصحاب بقر وقد سميت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها وأهل جزيرة العرب لم يكونوا في الغالب أصحاب بقر فكان هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ لأنه أخبر عن المغيب ووافق الواقع خبره حيث صار لأهل القسوة وغلظ القلوب في جزيرة العرب أكبر مزارع الأبقار في العالم! وقد آل أمر بني إسرائيل في زمن البعثة المحمدية إلى قريظة والنضير وقينقاع وبعد أن قتل رسول الله ﷺ قريظة وأجلى قينقاع والنضير عادا إلى جزيرة العرب وعقدا ميثاق الدرعية! وأما أهل نجران فقد

دخلوا في النصرانية برجل أتاها من جهة ملوك غسان فعلمهم إياها ولم يكونوا من بني إسرائيل وذكرَ النَّسَّابون أن السيد والعاقب اللذين قدما على رسول الله ﷺ في وفدهما من ولد الأفعى بن الحصين بن تميم بن رهم بن مرة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

يا بني إسرائيل

خاطب المولى سبحانه بني إسرائيل في كتابه الكريم وأقبل عليهم بنداء جليل بعد أن مهّد بين يدي ذلك بقصة آدم وإبليس فذكرهم بنعمه وآلائه ليوفوا بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم بتوحيده وعبادته وعدم الإشراف به شكراً على تفضيله لهم ورغبة في العودة إلى مقام التكريم. وقوله **(يا بني إسرائيل)** خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصرت الأمة اليهودية والنصرانية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيها اليهود والنصارى لأن من كان متبعاً دين اليهودية والنصرانية من غير بني إسرائيل لا يعتد بهم أصلاً لأنهم تبعوا لبني إسرائيل يسوقونهم إلى موارد التلف والهلاك فلو آمن بنو إسرائيل لآمن أتباعهم إذ أن المقلد تبع لمقلده. ولأنّ هذا الخطاب للتذكير بنعم الله على أسلافهم فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك ألا ترى أنه لما ذُكروا بعنوان التدينّ بدين موسى ذُكروا بوصف الذين هادوا، ولما ذُكروا بعنوان التدينّ بدين عيسى ذُكروا بوصف النصارى، وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بعهد الله لهم، وعند ما يكون الغرض من الخطاب التنبيه على علمائهم بنجد القرآن يعنونهم بوصف **(الذين آتيناهم الكتاب)** أو **(الذين أوتوا الكتاب)** أو **(الذين**

أوتوا الكتاب من قبلكم) وتخصيص القبلية لبيان حقيقة الكتب المنزلة على الأمة الإسرائيلية خاصة إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وللإشعار بأن من دان الكتاب بعد نزول القرآن خرج عن وصف أهل الكتاب. وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة كقوله سبحانه (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) فإذا جاء الخطاب بأسلوب شامل لعلمائهم وعامتهم صُرف إلى كل طائفة من الطائفتين ما هو لائق بها. والتفطن لرتب البيان في موارد هذا النحو من الخطاب في القرآن من مفاتيح الفهم وبوادي مزيد العلم.

أخرج الحاكم في المستدرک عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظيم صلاة» فانظر يا رعاك الله كيف أنه من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يحدث أصحابه عن بني إسرائيل بفترة زمنية طويلة من ليلته، وهذا إن دل فإنما يدل على خطر هؤلاء القوم وفيه إرشاد للأمة بضرورة التعرف عليهم وكما يقال: عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه! ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه.

المراحل الزمنية والجهود التضليلية للأمة الإسرائيلية

لما ذكر سبحانه ما أخذ على بني إسرائيل من الميثاق ووعيده لهم إن كفروا بعد ذلك، ذكر أنهم نقضوا مرة بعد مرة فعبدوا العجل وقتلوا أنبياءهم وحاولوا الفتك بالمسيح فرفعه الله إليه وقد رتبهم على ترتيبهم في الزمان حيث بدأ بذكر اليهود قوم موسى ثم أعقب بذكر أحفادهم النصارى قوم عيسى فقال جل شأنه (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف

عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وخص النصارى بالذكر لأن نفاقهم أشد وأسمج فقال "ومن الذين قالوا" أي مسمين أنفسهم ملزمين لها النصره لله مؤكدين قولهم رداً على من يرتاب فيه "إنا نصارى" أي مبالغون في نصره الحق فالتعبير بذلك دون ومن النصارى لمزيد تقرير نفاقهم وأنهم تسموا بما لم يفوا به! وشبيه هذا الترتيب قوله تعالى ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) واعلم أيها اللبيب أن للناس في حقيقة اليهود والنصارى ظنونا كاذبة قد أخطؤوا فيها فظن بعضهم أن اليهود غير النصارى وأن النصارى ليسوا من بني إسرائيل وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له البينات وتنطق به الآيات أنهم أبناء رجل واحد هو يعقوب عليه السلام ولسان واحد هو اللسان العربي وأبناء ملة واحدة وإن اختلفت مذاهبهم ونحلهم وتنوعت وسائلهم وأحوالهم وأمكنتهم وأزمنتهم وقد شهدت أقوال رسولهم المسيح في الإنجيل بأنه لم يرسل

إلى الأمم، من الروم والفرس العجم، وإنما أرسل إلى ذوي الأضاليل والأباطيل من بيت إسرائيل فقد روى الترمذي عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها» الحديث. ومصادقه في التنزيل العزيز ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقد رُتّبوا في الذكر ترتيباً زمانياً وجرت عادة القرآن بأنه يذكر اليهود لأنهم أقدم البيوت الإسرائيلية التي أنزلت عليها الكتب السماوية ثم يعطف عليهم النصارى إذ أنهم آخر البيوت الإسرائيلية المنزل عليها الآيات والوصايا الإلهية قبل البعثة المحمدية وأحياناً تُذكر الصابئية في الآيات القرآنية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وابتدأ بذكر الذين آمنوا باللسان دون القلب تنبيهاً على عرافتهم ورسوخهم في النفاق في جميع أزمانهم! وقدم الصابئين على النصارى لتقدمهم عليهم في الزمان فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. ومعلوم أن الزبور في زمن داود أي بين زمن موسى وبين زمن عيسى عليهم السلام... وفي آية البقرة آخر الصابئين لمراعاة الملازمة بين اليهود والنصرى.

ومدلولات النصوص النبوية قسّمت مراحل الأمة المحمدية في صراعها مع الأمة الإسرائيلية إلى ما يلي:

مرحلة الأحلاس: وكانت في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه وتمادت وبقيت إلى زمن معاوية رضي الله عنه.

ثم السراء: ويمكن حملها على ما بعد معاوية رضي الله عنه إلى زمن انعقاد ميثاق الدرعية بين بقايا بني إسرائيل.

ثم الدهيماء: ويمكن حملها على ما بعد قيام الدولة الوهابية السعودية الأولى إلى انهيار الدولة العثمانية.

ثم الصيلمة: ويمكن حملها على ما بعد انهيار الدولة العثمانية حيث العلو الكبير لبني إسرائيل في الأرض إلى زمن إساءة وجوههم وانهيار دولتهم وغزو جزيرة العرب.

الإيمان في أهل اليمن والشام

ورياسة الكفر في نجد

روى الإمام مسلم بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاكم أهل اليمن هم ألىن قلوباً وأرق أفئدة الإيمان يمان والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشرق» والحكمة عبارة عن العلم المشتمل على المعرفة بالله سبحانه المصحوب بنفاذ البصيرة وتحقيق الحق والعمل به... وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الإيمان يمان، والفتنة هاهنا، هاهنا يطلع قرن الشيطان» وفي صحيح الإمام مسلم: «إني لبُعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم» وهذا مدح رفيع اختص به أهل اليمن، وقد نسب الإيمان إليهم لأصل في نصر هذا الدين ولم يزلوا كذلك ينفس الله بهم

كربات المسلمين... وفي سنن الدارمي من حديث ابن عباس مرفوعاً: «جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ فقال: «هم أرق أفئدة والإيمان يمان والحكمة يمانية» وأخرج الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس الرحمن من قبل اليمن، ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب المعز والوبر» وفي رواية للطبراني في المعجم الأوسط عن شبيب أن أعرابياً أتى أبا هريرة فقال: يا أبا هريرة حدثنا عن النبي ﷺ، وردها عليه ثلاثاً فلم يجبه أبو هريرة ينكت بعود له لا يلتفت إليه، فلما رأى الأعرابي ذلك ولّى، فقال أبو هريرة عليّ بالرجل، فلما رجع قال: اجلس، فقال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي كمثل الآخر والنبي ﷺ ينكت بعود له كما رأيته أنكنت فقال: يا رسول الله العن أهل اليمن ثلاثاً وسكت عنه كما فعلت بك، ثم إن النبي ﷺ قال: «أين هذا السائل الذي سألتني أن ألعن أهل اليمن؟» فقام إليه الرجل فقال له النبي ﷺ: «إن الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن، ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب الشعر والوبر يغشاهم الشيطان على أعجاز الإبل» فقام الرجل مغضباً، فقال: ارجع عليّ أزيدك. ومعنى قوله "يغشاهم الشيطان على أعجاز الإبل" أي أخذهم من حيث لا يدرون. وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل الفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم» وأراد بقوله: "والسكينة في أهل الغنم" أهل اليمن لأن غالب مواشيهم الغنم، بخلاف الأعراب أصحاب الخيل والإبل أهل الجفاء والتكبر الذين يجرون ثيابهم ويستحقرون الناس وجلّهم فدّاد متجبر كما

جاء في الرواية الأخرى: «الإيمان يمان، والكفر قبيل المشرق، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل والوبر» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن فقال: «الإيمان يمان هاهنا، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذنان الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» ورابطة النظام بين فصول الحديث أن من أراد صحبة أهل الإيمان والعرفان فعليه بمصاحبة أهل اليمن على وجه الإيمان ومن أراد السلامة لدينه فعليه بمفارقة قرني الشيطان، وفي هذه الأحاديث إشعار ببغي بني إسرائيل على أهل اليمن واتهامهم لهم بالضلال وكذلك أهل المغرب أي الشام، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وقد قسم في حديث أبي مسعود أهل الجهات الثلاثة اليمن والشام والمشرق ولم يتعرض للمغرب في هذا الحديث وقد ذكره في حديث آخر فعله كان فيه ولم يذكره الراوي إما لنسيان أو غيره والله أعلم. اهـ. قلت: ويؤيده ما جاء في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن - وقال أبو المغيرة: من قبل المغرب - ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب الشعر والوبر الذين يغتالهم الشياطين على أعجاز الإبل» والمقصود بقوله "نفس ربكم" ما يحصل للمسلمين من التنفيس والفتح عن طريق جيوش الشام وأمداد اليمن، والله ورسوله أعلم.

(وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم)

ذَكَرَ اللهُ تعالى في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد وذكَّرَ في مطلعها أن حق الحمد ليس إلا له لأنه مبدع العوالم فعلم أنه المتفرد بالإلهية ثم أبطل تأثير

الشركاء بإثبات أنه المتفرد بخلق العالم جواهره وأعراضه وذكر أن آلهة المشركين لا تملك تصرفاً ولا علماً وتخلل ذلك تهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى وأنهم ما يضرّون بالإنكار إلا أنفسهم ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ثم عند البعث وسفّهم فيما اقترحوه على النبي ﷺ من طلب إظهار الخوارق تمكماً وأبطل اعتقادهم أن الله لقنهم على عقيدة الإشراف وأثبت صدق القرآن بأنهم يعرفون أنه الحق وأنحى عليهم تكذيبهم بالبعث وأثبت أنه واقع وأنهم يشهدون بعده العذاب وتترأ منهم آلهتهم التي عبدوها وسيندمون على ذلك كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا فإنهم لا يدعون إلا الله عند النوائب وأبطل ما شرعوه من شرائع الضلال وضرب المثل للنبي معهم بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه وكان الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدم منهم ومن تأخر وبيّن أن بني إسرائيل ما قدره جل شأنه حق قدره حين اجترؤوا على إنكار بعثه للرسل وإنزاله للكتب والآية نزلت في شأن مالك بن الصيف وكان من أحبار اليهود ورؤسائهم وكان سميناً فدخل على رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «هل تجد في التوراة أن الله ييغض كل حبر سمين؟» قال: نعم، فقال له النبي ﷺ: «فأنت حبر سمين ييغضك الله» فغضب فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء! أنكر الرسل والكتب جميعاً فأكذبه الله تعالى وأظهر نفاقه عند قومه. وإذا كانت تلك شنشنتهم أيام البعثة فهم فيما بعد ذلك أسوأ حالاً وأشد غياً وسفهاً وقد أمر تعالى حبيبه ﷺ بإنذارهم في أم القرى التي استخلفهم اليوم فيها وذكر افتراءهم عليه الكذب حتى انتهى إلى قوله مبيناً أن الشرك في غاية الفظاعة والشناعة ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ يعني وما كان ينبغي أن يكون له شريك مطلقاً لأن الصفة إذا ذكرت

مجردة غير مجرة على شيء كان ما يتعلق بها من النفي عاماً في كل ما يجوز أن يكون له الصفة وحكم الإنكار حكم النفي ولما اهتز السامع من هذا التقديم لزيادة المعنى من غير زيادة اللفظ، تشوف إلى معرفة النوع الذي كان منه الشركاء فبينهم بقوله ﴿الجن﴾ أي الذين هم أجراً الموجودات عليهم وأعداهم لهم فأطاعوهم كما يطاع الإله وجعلوهم له تعالى شركاء في الحكم! وهو مرتبط بقوله تعالى ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ والكلام متصل لاحقه بسابقه في موضوع الحكم وهذا هو المقصود من السورة ابتداء من قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ إلى الآية الكريمة ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ والضمير في قوله ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ عائد إلى الجن والمعنى أن أولياء الشيطان قالوا: الجن شركاء الله! ثم اعترفوا بأن الله خلقهم ومتى ثبت أنهم مخلوقون لله امتنع جعلهم شركاء له تعالى وبطل زعمهم... ولما حكى سبحانه عنهم أنهم أثبتوا الجن شركاء له تعالى في الحكم أردف ببيان أنهم أثبتوا الله شركاء في العبادة فقال ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ إذ يقول اليهود عزيز ابن الله، ويقول النصارى المسيح ابن الله، ويقول الصابئون: الملائكة بنات الله! روى الإمام الطبري عن سفيان قال: سئل السدي عن الصابئين فقال: هم طائفة من أهل الكتاب. وفي رواية عن أبي العالية قال: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. قال الفراء: معنى ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ افتعلوا وافتروا. وقرأ ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ بالتشديد على المبالغة والتكثير واستعمل الخرق مجازاً في الكذب. وقوله ﴿بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ أي بغير حجة إذ يأخذون الناس بالشبهات فهو كالتنبية على ما هو الدليل القاطع في فساد هذا القول ومن علم أن الإله ما حقيقته استحالة أن يقول له ولد فكان قوله ﴿بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ إشارة إلى هذه الدقيقة، ثم إنه تعالى ختم الآية فقال

﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ والتسبيح تنزيه لله عن كل ما لا يليق به، وأما قوله ﴿وتعالى﴾ فمعناه تعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد أي كونه في ذاته متعالياً متقدساً عن هذه الصفات سواء سبحه مسبح أو لم يسبحه فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبحين والتعالى يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له لذاته لا لغيره.

وعلاقة إبليس مع بني إسرائيل هي علاقة استحواذ وسيطرة فهم أولياؤه وحزبه الذين يتأتى له حكم الأرض من خلال التسلط عليهم كما أفاد قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ والكلام تميم لما سيق من ذم المنافقين المغضوب عليهم، وقد بين الحق سبحانه أن الشيطان متمكن منهم ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ وهذا الإشراك ثمنه الاستهزاء بالله تعالى وآياته وملائكته ورسله! قال تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي أنهم أثبتوا لله شركاء الجن في الحكم ونسبوا له تعالى كذباً وزوراً بنين من النبين - إذ قالوا: عزيز ابن الله والمسيح ابن الله - وبنات من الملائكة أشركوهم بالعبادة على وجه السخرية والاستهزاء بزعمهم أن الله سبحانه وتعالى صاهر سادات الجن فولد منهم البنات فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى ﴿وجعلوا الملائكة الذي هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون﴾ فأنكر على من حكم عليهم بالأنوثة وإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فالملائكة لا ذرية لهم لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى. والمراد بالعلم: الجزم المطابق للواقع عن دليل

والمعنى أنهم يأخذون الناس بشبهات وأباطيل! فخرقوا له بنين وبنات بغير دليل عقلي يتشبثون به أو نقلي يستندون إليه بل هو ناشئ عن شبهة وهوى ومكابرة وعناد والله أعلم، وقيل: إن ذلك كناية عن نفي ما قالوا فإن ما لا أصل له لا يكون معلوماً ولا يقام عليه دليل ولا حاجة إليه إذ نفيه معلوم من جعله اختلاقاً ومن قوله عز وجل ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ من أن له جل شأنه شريكاً أو ولداً. قال الإمام الماتريدي في تفسيره: ثم تأويل قوله عز وجل والله أعلم ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ وذلك أنهم كانوا يعبدون الملائكة دون الله ويعبدون المسيح دونه فأخبر أن أولئك الذين تعبدوهم أنتم لم يستنكفوا عن عبادتي فكيف تستنكفون أنتم؟. اهـ. قلت: وهذا معلوم في أهل الكتاب يجعلون الأنبياء والملائكة أرباباً كما أشارت الآية الكريمة ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وقد أنكر عليهم تعالى قسمتهم الجائرة فقال ﴿ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى﴾ وجاء التعبير بصيغة الأنوثة من باب اللين والعجز والضعف والنقصان، كما أن الذكورة من باب الشدة والقوة والصلابة، والعرب تؤنث للضعف والتحقير، كأنه قال: كيف جعلتم لله الضعف والنقص، ونسبتم إلى أنفسكم الكمال والعظمة؟ وهذه الآية توضح طبيعة المعركة بين الجن وبين الملائكة، وثبُّن بطلان زعم بني إسرائيل الفاسد أن الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن وأن شركاءهم الجن أشد شكيمة من الملائكة! روى الإمام الطبري عن قتادة في الآية ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة

فرغم عدو الله أنه لا يد له بالملائكة وقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب والله عدو الله ما به مخافة الله ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستعاذ به حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك. ونحوه قوله تعالى ﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فالملائكة لها دور عظيم في المعركة إذ تباشر القتال في صف المؤمنين وتقاتل كفرة الجن والإنس وتبث الرعب في قلوبهم، هذه هي طبيعة المعركة بين الروح الأمين وبين الذين أفسدوا في الماضي البعيد والحاضر القريب ولا يزالون إلى أن يتنزل الروح الأمين من جديد ليزلزل حصونهم وقواعدهم، وفي السنن الكبرى للبيهقي: «ونصرت بالرعب يسير بين يديّ مسيرة شهر يقذف في قلوب أعدائي» وهذه هي الحرب الشاملة التي يصورها القرآن واصفاً عالم الغيب وعالم الشهادة معاً ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ﴾ وهي صورة أشمل وأعم من الصورة المنقوصة التي يتخيلها المسلم الذي غرق في المادية فطمست سمعه وبصره وظن أن الغرب هو الذي صنع تاريخ العالم وأنه هو الحركة وصخبها والأحداث وضجيجها والثورات وإثارتها والجيوش وسطوتها والتقنية وبريقها وهو الاستعمار والاحتلال والجمعيات والمنظمات... وصار المسلم أسيراً لما يُروَّج من دراسات وتحليلات فيرى تاريخ العالم نتاجاً لأحداث وحوادث كثيرة متراكمة متباعدة ومتضاربة يستحيل إيجاد الرابط بينها وتحوّل المفكرون والمحللون إلى مجرد رصدة لأحداث لا يفهمون معناها ولا يعون مسارها الذي تسير فيه وغايتها التي تتجه إليها... وانحصرت

مشكلة المسلم مع الغرب والدولة العبرية! والحق أن النظام العالمي اليوم مؤلف من جنود من الجن والإنس ساقهم إبليس لخدمة بني إسرائيل وتثبيت ملكهم وصناعة حضارتهم مقابل أن يشركوه في حكم الأرض! وقد عاصر إبليس الحضارات السابقة التي كانت تفوق حضارة اليوم، وأوضح القرآن أن أولئك الأقوام كانوا أشد قوة وأكثر إثارة للأرض وعمارة لها من هؤلاء الحاضرين ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ويبيّن تعالى أن حضارة هؤلاء نزر يسير بالنسبة إلى حضارات الأمم الغابرة ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ وكان لإبليس وجنوده من الجن دور أساسي في صناعة تلك الحضارات... وما نراه من فساد وإفساد هو عصارة الإفسادات السابقة في الأرض ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ وأخبر تعالى عن بني إسرائيل أنهم سيفسدون في الأرض ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾ وهكذا تتبين العلاقة بين استخلاف بني إسرائيل وبين إبليس، استخلاف مقرون بالإفساد، وخطة الإفساد تبدأ أولاً باحتلال العقول وانتكاس القلوب قبل احتلال الأقطار والأمصار وذلك بغيب القرآن عن وعي البشر وإزاحة وحيه من الفاعلية في مجتمعات البشر وتحريف مسألة التوحيد ثم تُغرس هذه التحريفات والمناهج في أذهان النخب حتى تنتظم مع مرور الوقت في سلك المسلمات المفروغ عنها ثم تَظْهَر آثارها الأخلاقية والاجتماعية والتشريعية فتتحول إلى كيانات مجتمعية فتعتادها الأمة وتألّفها وتصير حقيقة لا تقبل النقض! ثم تولد

أجيال تفتح أعينها على تلك المناهج وما تراكم منها وتُشبَّ عليها وتشيب، وهي في الأصل محرفة! والوحي هو مصدر العلاقات بين البشر وهو محور ارتكاز مجتمعاتهم فإذا طويت آثاره من النفوس آلت علاقات البشر إلى الفوضى الشاملة وسارت المجتمعات في مسار التفكك والشقاق والتنازع والتقاتل... وقد عمل بنو إسرائيل على إزاحة الوحي لتتفتت البشرية بالخريطة العرقية والسياسية إلى مئات الكيانات والمذاهب والفرق، وحوّلوا المجتمع الغربي إلى اختراع بشري ليكون عنوان عقل المسلم ورائد آماله ومرجعه في أخلاقه وعلومه وحربه وسلمه، وقهروا المجتمعات المسلمة لتنفجر في أفران ثورتهم وتخرج منها وقد أعيد سبكها في قوالبهم وطبقاً لخريطتهم وفي الاتجاه الذي يريدونه وأقاموا لها ميادين للاقتتال بلا ضوابط ولا أخلاق! وصرفوها عن الآخرة بزخرف الدنيا وإذا صارت الدنيا غاية الإنسان استعرت رغباته وفسدت نفسه وساقته هو ومن معه إلى الهلاك والدمار.

القوى الملكية والعظمة الجبريلية

ذكر سبحانه في سورة الملائكة المسماة بسورة فاطر مظاهر قدرته وآثار قوته المشهودة في تكوين السماوات والأرض (الحمد لله فاطر السماوات والأرض) ثم أردف ذلك بذكر ملائكته سبحانه وأنه جعلهم رسلاً في تنفيذ أوامره التكوينية وفي تبليغ وحيه وأحكامه التشريعية وأنه سبحانه زاد في خلقهم جمالاً وبهاء وقوة فجعلهم أولي أجنحة فمنهم ذو الجناحين ومنهم ذو ثلاثة أجنحة ومنهم ذو أربعة أجنحة ومنهم الأكثر من ذلك لأنه سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة فإنه لا تعجز قدرته عما خصصته إرادته واقتضته حكمته لأنه

على كل شيء قدير (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) وفي ذلك إيماء إلى زيادة الحسن والجمال في خلق الملائكة عليهم السلام وزيادتهم في القوة وأنهم في ذلك على مراتب متعددة فقد وردت الأحاديث في بيان عظمة جبريل عليه السلام وكثرة أجنحته فمن ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وآله رأى جبريل له ستمائة جناح» وفي رواية لمسلم: «أن النبي صلى الله عليه وآله رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «رأى جبريل في صورته التي خلق عليها مرتين فرآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض» فكان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله ويتراءى له في صور متعددة فتارة في صورة دحية بن خليفة الكلبي حيث كان جميل الصورة بهي المنظر وتارة يأتيه في صورة أعرابي وتارة في صورته الجبريلية الحقيقية التي خلق عليها له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب وقد رآه صلى الله عليه وآله على هذه الصورة مرتين في القول الشائع فالمرّة الأولى كانت في بطحاء مكة رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض والثانية عند سدرة المنتهى ليلة المعراج وروى الإمام أحمد بالسند الجيد القوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم» وروى أحمد أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت» وروى أحمد والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبريل في حلة من رفرق قد ملأ السماء والأرض» ولا يلزم من رؤيته صلى الله عليه وآله جبريل ليلة المعراج عند سدرة

المنتهى لا يلزم من ذلك أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج كما توهمه بعض الناس وإنما الحق أنه ﷺ رأى جبريل عند السدرة كما وأنه ﷺ رأى ربه ليلة المعراج ولا ينافي ذلك هذا لما ثبت في الأدلة الصحيحة وليس هنا موضع بسطها، وروى الإمام أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «رأيت جبريل منهبطاً وقد ملأ ما بين الخافقين عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت» وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعتُ بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه حتى هويت إلى الأرض فجتت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني فذروني فأنزل الله تعالى: "يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر" فهذا الملك هو جبريل عليه السلام الذي جاء إلى النبي ﷺ قبل هذه المرة بقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق) الآيات الخمس فإنها أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق ثم فتر الوحي فكان أول ما نزل بعد فترة الوحي خمس آيات من أول المدثر.

واعلم أيها الشاهد أن أولياء الشيطان سألوا رسول الله ﷺ: من وليك من الملائكة فعندها بنجامعك أو نفارقك؟ قال: «فإن وليي جبريل عليه السلام ولم يبعث الله عز وجل نبياً قط إلا وهو وليه» قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: هو عدونا. الحديث كما عند الطبراني في الكبير. وزعموا أن الملائكة بنات الله من سرورات بنات الجن وجعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة وأثبتوا لهم الضعف والعجز وأثبتوا لشياطين الجن القوة والقدرة! واعلم أن تصدير السورة بذكر الملائكة

وإصدار صفة الرسالة عليهم وأحوال التشكل الذي يتشكلون به إنما هو لإظهار القوة الملائكية وتوطئة لبيان وهن الكائنات الجنية وحقارة شأنها وعظيم ضعفها المبين بقوله ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرَكُمْ﴾ والخطاب هنا للمستخلفين في الأرض بقرينة قوله في آخر السورة ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ثم أظهر عجز شركائهم الجن بقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَحْدِثُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال صاحب روح البيان: "أم آتيناهم" أي الشركاء ويجوز أن يكون الضمير للمشركين "كتاباً" ينطق بأننا اتخذناهم شركاء فهم على بينة منه أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية. اهـ. والمعنى أنا ما آتينا شركاءهم من الجن كتاباً وإذا كان المراد شركاءهم من الإنس ممن يسموهم اليهود والنصارى فليسوا من أهل الكتاب بدليل الآية الكريمة ويؤيده ما رواه البيهقي عن عطاء قال: «إنما أهل الكتاب بنو إسرائيل والذين جاءتهم التوراة والإنجيل فأما من دخل فيهم من الناس فليسوا منهم».

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾

قال عامة أهل التأويل: أي جعلوا لله تعالى من عباده أنثى أي بنتاً. وجعلهم هذا يعني أولاً المشابهة بينه تعالى وبين الخلق لأن الخلق لا يخلو إما أن يكون مولوداً من آخر أو يولد آخر منه وإما أن يكون له شريك فيما يملكه أو يكون هو

شريك غيره فيكون البعض شبيهاً ببعض ولهذا تبرا الله تعالى من الأولاد والأنداد ونفى ذلك عن نفسه نفياً واحداً في آيات عديدة... ثم ذكر الحق سفههم وشدة تعنتهم وأنكر عليهم نسبتهم إليه ما هو أضعف وأعجز وأنقص فيما ذكر وقد اتقوا هم منها واختاروا لأنفسهم ما هو أكمل وأقوى وهم الذكور فقال ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ والهمزة للإنكار والتعجب من شأنهم! والالتفات إلى خطابهم لتشديد الإنكار فقد جمعوا في الكفر ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه الأخس المكروه عندهم، وجعلوا ذلك من الملائكة فاستخفوا بهم واحتقروهم! والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أما تظننتم لما ارتكبتم من الشطط في القسمة وقبح ما ادعيتم من أنه سبحانه أترككم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما وترك له جل شأنه شرهما وأدناهما فما أنتم إلا في غاية الكفر والعتو والفجور، وتنكير بنات وتعريف البنين لقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة... ثم أخبر عنهم ما يظهرون من الحزن عندما يولد لهم من الإناث وما يلحقهم من الكراهة في ذلك بقوله تعالى ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنه وتحكي لغيرهم تعجباً والجملة الاسمية في موضع الحال أي إذا أخبر أحدهم بجنس ما جعله مثلاً للرحمن جل شأنه صار وجهه أسود في الغاية لسوء ما بشر به عنده والحال هو مملوء من الكرب والكآبة! ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ أراد التنبيه على نقصانها وهو أن الذي يربى في الحلية يكون ناقص الذات لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية، ثم بين نقصان حالها بطريق آخر وهو أنها إذا

احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه! ولما فرغ تعنيفهم على ما أتوا في جهة الله تعالى بقولهم: الملائكة بنات الله، بين تعالى فساداً في مقالتهن بعينها من جهة أخرى من الفساد وذلك وصفهم الملائكة بالأنوثة ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ وهو وصف بالضعف والعجز والنقصان فلا يتيها لهم القيام بما ذكر تعالى من نصر أهل الحق ودحر أهل الباطل! فافهم هذا ونزه الله تعالى عما يصفه به المبطلون، وقرئ "الذين هم عند الرحمن" وهذه القراءة أدل على رفع المنزلة وقربها في التكرمة ﴿أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ أي أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموه بضعفهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة والكلام وعيد لهم بالعقاب والمجازاة على ذلك والسين للتأكيد... قال أهل التحقيق: هؤلاء الكفار جاؤوا في مقامهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر: أحدها: أنهم أثبتوا الولد والتجسيم لله تعالى لأن الولادة من أحوال الأجسام. وثانيها: أنهم جعلوا ذلك الولد بنت فاختاروا الله تعالى الأدنى وخصوا أنفسهم بالأعلى وجعلوا لله ما يكرهون وهم يرغبون في البنين ويكرهون البنات! وثالثها: أنهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة ففضلوا أنفسهم على ربهم حين جعلوا أضعف الجنسين له وأرفعهما لهم إذ أثبتوا للملائكة الضعف والعجز وأثبتوا لشياطين الجن القوة والقدرة! ثم حكى تعالى ما استظهروه من معاذيرهم ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم - والمعنى أنهم قالوا ذلك وفي قلوبهم بخلاف ما أخبروا وهو أن الكفر ليس مما شاء الله تعالى وإنما شاء الإيمان، أو أنهم قالوا ذلك على وجه

الاستهزاء والسخرية لا على الجد فيكون قصدهم تلبيس الصدق على الناس ورده ويكون إخبارهم من هذا الوجه ولهذا الغرض خرساً وكذباً والله أعلم. وبعد أن نفى أن يكون قولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم مستنداً إلى حجة العقل، انتقل إلى نفي أن يكون مستنداً إلى حجة النقل عن إخبار العالم بحقائق الأشياء التي هي من شؤونهم (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) والمعنى وما آتيناهم كتاباً ينطق بصحة ما يدعون "من قبله" والضمير عائد إلى القرآن المذكور في أول السورة... وهذا تمهيد للتخلص إلى قوله عز وجل (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) فإنه تعالى لما ذكر استهزاءهم بكل نبي يبعثه إليهم وبين سفههم وعنادهم وتناقضهم في دعواهم واستخفافهم بجانب الإلهية إذ زعموا أنه تعالى أصفاهم بالبين واتخذ بنات أي بتكوين الانفصال عن ذاته تعالى بالمزوجة مع سروات الجن وأخبر سبحانه أنهم وصفوا الملائكة بغير ما هم عليه ففرطوا بوصفهم بالضعف ونفى إشهداه لهم خلقهم وإيتاءه كتاباً يصح معتقدتهم، نسق عليه جوابهم عن ذلك مؤكدين إظهاراً جهلاً أو تجاهلاً واستهبالاً أنهم وجدوا آباءهم على ملة قديمة وجماعة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم "وإنا على آثارهم مهتدون" وجعلوا اتباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق! وقد نعى تعالى عليهم تقليدهم من ليسوا أهلاً لأن يقلدوا وجاء ذلك في مواضع عديدة من القرآن كما في قوله تعالى (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أرادوا أن الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرسوم وسنوها فكان أمر الله آباءهم أمراً لهم - وكل من انتمى إلى شخص ولو بوسائط كثيرة يطلق عليه أنه ابنه - ولو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات

لكت في إبطال القول بالتقليد وذلك لأنه تعالى بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه من الإشراك بالله. بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، ثم بين الحق أن هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين قد استووا فيه كما استووا في مثاره وهو النظر القاصر المخطئ ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض الذين أترفهم النعمة وأبطرهم الشهوات والملاهي فتمسكوا بالإشراك الذي كان عليه آباؤهم! ثم حكى تعالى قول كل نذير ﴿قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي ساترون لما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لأحد ولا يتبعهم فيه مخلوق. قال الإمام الماتريدي في تفسير قوله تعالى "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه" الآية: لقائل أن يقول: ليس فيما كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ما يجب أن يدفع الطمع عن إيمان هؤلاء؟ فهو - والله أعلم - لوجهين: أحدهما: أنهم كانوا أصحاب تقليد كقوله "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" فأخبر عز وجل أن هؤلاء - وإن رأوا الآيات العجيبة - فإنهم لا يؤمنون أبداً لأنهم أصحاب تقليد، لا ينظرون إلى الحجج والآيات. والثاني: أنهم مع كثرة ما عاينوا من الآيات وشاهدوا من العجائب في عهد رسول الله موسى ﷺ لم يطمع في إيمانهم فكيف طمعتم أنتم في إيمان هؤلاء وهم أتباعهم؟ والله الموفق. وقال تعالى مخبراً عن الكفار حين سألهم خزنة النار ﴿ألم يأتكم نذير، قالوا بلى قد جاءنا

نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) أي قالوا لرسولهم: ما نزل الله من شيء في ما تدعونه من الوحدانية وما أنتم إلا في ضلال كبير! وقد أخبرنا تعالى عن مواقف الأمم السابقة مع رسولهم وقد جاءهم رسولهم بالبينات والأدلة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) فوجهوا سؤالاً إلى المستضعفين وهو أنهم اتبعوا صالحاً وصدقوه: مسaire أو عن تغفل وعدم تفكير أم أنهم اتبعوه وصدقوه بناء على علم منهم قاطع يثبت لهم صدقه وأنه رسول الله حقاً بعد التفكير والنظر فيما جاء به؟ فأجابوهم (إنا بما أرسل به مؤمنون) أي مصدقون تصديقاً جازماً مبنياً على نظر وتفكر وعلم بحقية ما جاء به.

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) روى أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة أن أكثم بن صيفي لما بلغه مخرج النبي ﷺ أراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه - أي يتركوه - وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأتته من يبلّغه عني ويبلّغي عنه فانتدب رجلان وروي أنهما ولداه فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ وفي رواية: وبم جئت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا؟ فأنا: محمد بن عبد الله وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله جئتكم بقول الله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" فقالا: ردّد علينا هذا القول فردّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه فسلنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر أي أشرفهم وأمجدهم وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهنّ أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم

الأخلاق وينهى عن ملائمتها فكونوا في هذا الأمر رؤوساً أي أسرعوا إلى الدخول في دين هذا الرسول ﷺ تكونوا رؤوساً سادة وقادة ولا تكونوا فيه أذنباً، ولقد كان أكثرهم من الأذكياء الفطناء فلما سمع هذه الآية الكريمة أشرق قلبه بأنوار حكمته واستضاء عقله بمجامع خيرها وآدابها فاعتبرها وتدبرها فتذكر المحاسن والمكارم التي انطوت فيها فأسلم وأسلم قومه فكان ممن قال فيهم سبحانه في آخر الآية "لعلكم تذكرون". وروى البيهقي في الدلائل وكذلك أبو نعيم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً نسابة أي خبيراً بأنساب العرب فوقف على منازلهم ومضاربهم في منى فسلم عليهم وردوا السلام وكان في القوم مفروق بن عمرو وابن هانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان أقرب القوم إلى أبي بكر رضي الله عنه مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال له: إلى ما تدعو يا أبا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر رضي الله عنه يظله بثوبه فقال النبي ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله وأن تؤوني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله تعالى وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد» فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً" إلى قوله "تتقون" فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر

والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فقال له مفروق: دعوتَ والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وقال هانئ بن قبيصة: قد سمعتُ مقاتلك واستحسنْتُ قولك يا أخوا قريش ويعجبني ما تكلمتَ به ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «إنكم لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم يعني أرض فارس وأتھار كسرى فعليكم أن تسبحوا الله وتقدسوه» فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخوا قريش ونعوذ بالله من حاسد إذا حسد ومن حاقد إذا انتقد ومن جاهل إذا اعترض ومن مبغض إذا امتعض. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن هذه الآية وذلك لأن الله تعالى يأمر فيها بمكارم الأخلاق ومعاليها وينهى عن ملامتها وسفاسفها. وقد ورد في الحديث الذي رواه الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُحب معالي الأخلاق وأشرفها ويكره سفاسفها» وهذه الآية الكريمة جمعت مجامع الفلاح والصلاح والنجاح في الدين والدنيا والآخرة والأولى كما أنها قَمَعَتْ وسدَّتْ تغور الفساد والضلال والشُرور وقد قرأ الحسن البصري رضي الله عنه هذه الآية يوماً (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية إلى تمامها ثم وقف فقال: إن الله تعالى قد جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عز وجل إلا جمعه ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله تعالى شيئاً إلا جمعه. اهـ. فجاءت الآية تبين أن الله تعالى يأمر بالعدل المطلق، والإطلاق يشمل ويعم فيدخل تحت عمومه العدل بالنسبة لموقف العبد مع ربه سبحانه والعدل بالنسبة لموقفه مع نفسه والعدل بالنسبة لموقفه مع مخلوقات الله تعالى، أما الموقف الأول: فإن العدل يوجب على العبد أن يكون موقفه مع الله تعالى رب

العالمين موقف الموحّد اعتقاداً وعبادة فإن هذا رأس العدل ومصدر العدل وهو العدل فوق كل عدل ولذلك قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل" الآية قال: إن الله تعالى يأمر بلا إله إلا الله. نعم لأن كلمة لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد وتوحيد الله تعالى هو العدل القويم والشرك بالله ظلم عظيم قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالتوحيد هو العدل، والشرك هو الظلم فإن اعتراف العاقل وإثباته الحق لصاحب الحق هو عدل وأما إنكاره الحق وإثباته لغير صاحبه فهو ظلم فإيمان الموحّد وإثباته الألوهية لله تعالى وحده هو العدل القويم لأنه إثبات الحق لمن له الحق فإن الله تعالى هو الرب الخالق البارئ المصور الرزاق المدبر فإثبات الألوهية له وحده هو العدل لأنه اعتراف وإقرار بالحق لصاحبه وأما إثبات الألوهية لغير الله تعالى فهو وضع الشيء في غير موضعه المستحق له وهذا ليس من العدل بل هو الظلم العظيم وهذا ليس من الحكمة في شيء بل هو العبث والفساد والضلال فإن الرب الذي هو يخلق ويرزق ويحيي ويميت هو الإله الذي يعبد حقاً وأما مَنْ لا يملك من ذلك شيئاً فإنه لا حظ له في الألوهية قال تعالى ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فإعطاء المشرك الألوهية لغير الله تعالى هو ظلم عظيم صدر عن ظالم لنفسه وظالم في حكمه وظالم في أقواله وأفعاله فأَي ظلم أعظم من ذلك، وأما الموحّد فهو العادل في توحيدهِ والعادل في اعتقاده والعادل في عبادته لربه والعادل في حبه لربه وفي إرضائه وقربه وتعظيمه لربه وحمده وتسبيحه وتكبيره ودعائه ربه فإن الموحّد أيقن أن الإله واحد لما ثبت بالدليل القطعي والذوق الفطري فتوجه الموحّد بكليته إلى ذلك الإله الواحد في عبادته له وثنائه عليه وفي دعائه ومحبه له ورهبته منه ورغبته فيما عنده ومخافته منه ومراقبته له

وأما المشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر فهو على ظلمه العظيم في جعله مع الله إلهاً آخر علاوة على ذلك لو أنه طُلب أن يعدل بين الإلهين بأن يحبهما على السواء ويعظمهما على حد سواء ويعبدهما على حد سواء ويحمدهما ويشني عليهما على حد سواء وأن يدعوهما ويتضرع إليهما على حد سواء أو يخافهما ويرهبهما على حد سواء أو يرجوهما على حد سواء أو يراقبهما على حد سواء لو أنه طُلب بذلك لما استطاع بل لا بد أن يميل إلى أحدهما أكثر من الآخر فهو ظالم في إشراكه وجعله من ليس بإله إلهاً وهو ظالم في معاملته لهما وإلى هذا كله يشير قوله تعالى منبهاً للعقلاء **(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيا فارهبون)** أي فيا أي فارهبون وأحبوني واحمدوني وادعوني وراقبوني فإن ذلك مستطاع لديكم فالحمد لله رب العالمين **(وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا)** الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً... فلا إشراك بالله تعالى ظلم عظيم ليس بمرضي شرعاً ولا مقبول عقلاً، جاء في حديث الحارث الأشعري الذي رواه الترمذي وغيره وفيه: قال يحيى بن زكريا عليهما السلام لبني إسرائيل وقد جمّعهم في بيت المقدس وامتلأ بهم حتى جلسوا على الشرف وذلك ليلبغهم ما أمرهم الله تعالى به فقال لهم: إن الله تعالى أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً فإن مثلاً ذلك أي مثلاً من أشرك بالله تعالى كمثله رجل اشترى عبداً من خالص ماله: ذهب أو ورق أي فضة فقال له أي قال الرجل المالك لعبده الذي اشتراه: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد فكان هذا العبد يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك. الحديث. فعبد يعيش في دار مولاه ويأكل من رزقه ويرتع في رحابه ويتمتع بنعمه إذا عمل

وأدّى عمله لغير مولاه إنه لظالم حقاً وليس بعادل أصلاً وأما عدل الإنسان مع نفسه فإن للنفس على صاحبها حقاً وذلك بأن لا يُعرضها إلى ما يُضرها في دينها أو دنياها فلا يُلقى بنفسه في المعاصي فيكون ظالمها غير عادل ومن ثمّ وصف الله تعالى المخالف لأوامره سبحانه أو المرتكب لما نهى عنه وصفه بأنه ظالم نفسه قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وأما العدل مع المخلوقات فهو إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم وهذا باب واسع تدخل فيه الأقوال والأفعال وحقوق الآباء والأمهات والأبناء والأقرباء والجيران وحقوق سائر بني الإنسان، وأما الإحسان المأمور في الآية الكريمة فهو يشمل إحسان المعاملة مع الخالق جل وعلا ويشمل إحسان المعاملة مع المخلوقات، أما إحسان المعاملة مع الله تعالى فهو إحسان عبادته والدوام على مراقبته كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ: «فأخبرني عن الإحسان» فقال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وجاء في رواية لمسلم: «أن تخشى الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث. وذلك باستحضار العبد مقام القرب وأنه أمام جناب حضرة الرب سبحانه مُشاهداً له كأنه يراه فإن لم يستطع ذلك فليراقب أن الله تعالى يراه كما أن من إحسان المعاملة مع الله تعالى أن يكون المسلم في سائر أموره مع الله تعالى بالصدق والإخلاص له والإقبال عليه سبحانه وأما الإحسان مع المخلوقات فهو يشمل الإحسان بالقول وإحسان الأعمال وهذا يتطلب الإحسان إليهم حسب ما يقتضيه الموقف معهم فقد روى الطبراني عن النبي العدنان المبين للقرآن حامل لواء الفصاحة والبيان وصاحب المقام المحمود بأشرف مكان المرسل بالهداية والرحمة إلى الإنس والجان أنه قال: «إذا حكمتم فاعدلوا وإذا قتلتم فأحسنوا فإن

الله محسن يحب المحسنين» بل إن من شريعة دين الإسلام الإحسان في كل شيء وإلى كل شيء كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» وهذا الحديث كما نقل العلامة المناوي وغيره عن السلف الصالح: أنه من قواعد الدين ودعائمه، فالله تعالى كتب - أي شرع - فالكتابة تشريعه - الإحسان على كل شيء فتدخل الأقوال والأفعال والأخلاق والمعاملة والمعاشرة والمجاورة وتشمل الإحسان إلى بني الإنسان وأنواع الحيوان.

(ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) لما أمر الحق بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وإيفاء العهود ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، مثلاً حال الأحبار والرهبان المنافقين الناقضين للعهد بناقضة غزلها من بعد إبرامه وناكثته من بعد إحكامه، واستعير النكث لعدم الوفاء بالعهد الذي الذي أخذه الله عليهم، والمعنى أنه تعالى نهاهم أن يكونوا مَضْرِبٍ مثل معروف في العرب بالاستهزاء وهو المرأة التي تنقض غزلها بعد شدّ قتله! والنكث حقيقته نقض المفتول من حبل أو غزل، ثم وصل بذلك ما يعرف أنهم أسفه من تلك المرأة بسبب أن ضررها لا يتعدها وأما الضرر بفعلهم فإنه يتعدهم إلى غيرهم فقال سبحانه (تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) أي لا تخونوا العهد ولا تفسدوه بالخديعة والغدر والمكر ولا يحملكم على نقضه أن تكون الأمة الحمدية أعز في الشرف منكم (إنما يلوكم الله به) أي يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتوفون بعهد الله أم تغتروا! والآية في أهل النفاق أنهم كانوا يقسمون بالله إنهم ينصرون رسول الله وأصحابه ويقولون: إنا

معكم كقوله "ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم" الآية، كانوا يرون من أنفسهم الموافقة لهم والنصر والعون لهم على أعدائهم ويحلفون على ذلك ثم إذا رأوا الكثرة مع الكفرة والغلبة وقلة المؤمنين تحولوا إلى أولئك ونقضوا أيمانهم وكانوا معهم كقوله "فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم" الآية، ذكره الماتريدي. قلت: من أهم وسائل المدرسة النجدية: الحلف بالله كذباً وبهتاناً كما أقسم إبليس لآدم وزوجه بالنصيحة الكاذبة! ثم يبين جل شأنه أنه لو شاء لجعل الأمة المسلمة والأمة المشتركة أمة واحدة يعني على ملة الإسلام ولكن يضل من يشاء يعني عن دينه ويهدي من يشاء ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ يعني سؤال المحاسبة والمجازاة يوم القيامة، ثم جاء النهي بقوله ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ بصيغة التصريح عن اتخاذ الأيمان دخلاً بعد التضمنين لأن اتخاذ المذكور فيما سبق وقع قيداً للمنهى عنه فكان منهياً عنه ضمناً تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي عنه وتمهيداً لقوله تعالى ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا سوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ وسبيل الله المصدود عنها هي الإسلام، ثم أتبعه النهي عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الأخذ أو تركه أو فعل ما يجب عليه تركه فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها فمن أخذ على ذلك مالاً فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلاً من الدنيا فقال ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون، ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ثم أتبعه بقوله سبحانه جواباً لمن كأنه قال: هذا خاص بأمة دون أمة مرغباً في جهاد الأئمة المضلين الذي هو رأس العمل الصالح

وفي عموم أعمال الطاعة المقيدة بالإيمان ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ولما تقررت هذه الأحكام على هذه الوجوه الجليلة وأشارت بحسن ألفاظها وشرف سياقها إلى أغراض هي مع جلالتها غامضة دقيقة فلاح بذلك أن القرآن تبيان لكل شيء في حق من سلم من غوائل الهوى وحبائل الشيطان، تسبب عن ذلك الأمر بأنه إذا قرئ هذا القرآن المنزل على مثل تلك الأساليب الفائقة يستعاذ من الشيطان لئلا يحول بوساوسه بين القارئ وبين الفهم الصحيح المستند إلى نص صريح لئلا يفسده الشيطان بوساوسه أو يحول بين الفهم وبينه فقال تعالى مخاطباً لأشرف خلقه ليفهم غيره من باب الأولى فيكون أبلغ في حثه وأدعى إلى اتباعه ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾

ووجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر إنزال الكتاب تبياناً لكل شيء وذكر أشياء مما بين في الكتاب، ذكر المعركة مع الشيطان وأوليائه فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة، والاستعاذة إنما تتحقق بترك ما يحبه الشيطان واستبداله بما يحب الإله الديان، والحكمة في التعوذ: الاستئذان وقرع الباب لأن من أتى باب ملك من الملوك لا يدخل إلا بإذنه، كذلك من أراد قراءة القرآن إنما يريد الدخول في المناجاة مع الحبيب فيطهر باطنه بالتعوذ، قال أهل المعرفة: هذه الكلمة وسيلة المتقربين ومباشطة المحبين واعتصام الخائفين وعتبي المجرمين ورجعي الهالكين وهي امتثال قول رب العالمين، والاستعاذة

صفاتية وأفعالية وذاتية كما قال صاحب النبوة ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك ومعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» فالشرور إما من الضلالات الاعتقادية ويدخل فيها جميع الفرق الضالة، وإما من الأفعال البدنية التي تضر في الدين ويدخل فيها منهيات التكليف، وإما من الكدورات البدنية التي لا تضر في الدين ويدخل فيها الأمراض وغيرها من البلايا... فعلى العاقل إذا أراد الاستعادة أن يستحضر هذه الأجناس الثلاثة وأنواعها المتناولة فإذا عرف عدم تناهيها عرف أن قدرة الخلق لا تفي بدفعها فحمله عقله أن يقول: أعوذ بالله القادر على كل المقدورات من جميع المخاوف والآفات. وقد شُرعت الاستعادة عند ابتداء القراءة إيداناً بنفاسة القرآن ونزاهته إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته وجمعه وتعلّمه بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلا بأن يسأل من خضعت له الرقاب وانتكست دون سرادقات جلاله أعناق ذوي النهى والألباب أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله تعالى، لأن جانب الله قدسيّ لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه، وفي الآية دليل على رعاية الله للحنفاء المتوكلين عليه، وأولياء الله وخاصته يتوكلون عليه وحده في نصرته دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره، وهذا توكل الأنبياء وورثتهم في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه وحفظ حاله مع الله، أو معلوم يناله منه من رزق وعافية وزوجة وولد ونحو ذلك، ومن لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب كالمسلمين الذين انخدعوا لبعض وسوسة الشيطان وأهمّلوا التوكل على الرحمن، والاستعادة الحقيقية من الشيطان هي الغيبة عنه في

ذكر الله أو شهوده فلا ينجح في دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن فإن عداوة العدو حقاً هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك **(إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)** وهم أهل الكتاب الذين تولوه وتبعوا وسأوسه وأطاعوا أوامره وعبدوه فتمكن منهم غاية التمكن، وتقديم الجور في **(به مشركون)** لإفادة الحصر أي ما أشركوا إلا بسببه، ولما كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أن القرآن منزل من عند الله وبيان فضله وهديه والتنبيه على نفاسته ويمنه، لا جرم تقياً المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن وهو تعمدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفاً لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام، والمغايرة بالتعميم والتخصيص ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلق بها، فيتخذون من ظاهر ذلك دون وضعه مواضعه وحمله محامله مغامز، وهو ناشيء عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسمو معانيه، وبعضه ناشيء عن تعمد للتجاهل تعلقاً بظواهر الكلام يلبسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم **(وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون)** والمراد من التبديل مطلق التغير بين الأغراض والمقامات أو تغير المخاطبين باختلاف الأزمان والأشخاص والأمكنة، والمراد بالآية الكلام التام من القرآن والله تعالى أعلم. ولما كان كأنه قيل: فما أقول؟ فقال **(قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين)** ولما ذكر تعالى استيلاء الشيطان على أوليائه وكانوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً عبد أعجمي، أكذبهم الله في ذلك منبهاً على جهالة أتباعهم الذين يلفتون الأنظار إليهم فقال **(ولقد**

نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وكانوا يقولون إنما يعلمه جبر الرومي ويسار أو سلمان الفارسي وهذه شنشنة قديمة فيهم إذ يصرفون الآيات النازلة فيهم إلى أتباعهم تمشياً مع خدعهم ومكرهم وانحرافهم وزيفهم! والآية لا تقتصر على من نزلت فيهم فإن سبب النزول لا يخصص... ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد لأصحاب اللسان العربي فقال (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) ثم ردّ قولهم (إنما أنت مفتر) بقلب ما زعموه عليهم بكلام أبلغ من كلامهم بعد إمطة شبهتهم ورد طعنهم (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وجاء بصيغة تقصرهم - دون أتباعهم الأعاجم - على الافتراء المتكرر المتجدد إذ المضارع يدل على التجدد وأكد فعل الافتراء بمفعوله الذي هو بمعنى المفعول المطلق لكونه أثلاً إليه المعنى وعرف الكذب بأداة تعريف الجنس الدالة على تميز ماهية الجنس واستحضارها فإن تعريف اسم الجنس أقوى من تنكيهه، وعبر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم فيقال: إنما يفترى الكذب أنتم، ليفيد اشتغالهم بمضمون الصلة ولأن للصلة أثراً في افتراءهم لما تفيده الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وعليه فإن من لا يؤمن بالدلائل الواضحة التي هي آيات صدق لا يسعه إلا الافتراء لترويج تكذيبه بالدلائل الواضحة وفي هذا كناية عن كون تكذبيهم بآيات الله عن مكابرة لا عن شبهة ثم أردفت جملة القصر بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل وطريق تعريف المسند وهي جملة (وأولئك هم الكاذبون) وافتتحت باسم الإشارة بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة وهو

قصرهم على الكذب لأن من لا يؤمن بآيات الله يتخذ الكذب ديدناً له متجديداً وجعل المسند في هذه الجملة معروفاً باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتحد بهم وصار منحصرأ فيهم أي الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه فيحصل قصران في هذه الجملة: قصر موصوف على صفة وقصر تلك الصفة على ذلك الموصوف والقصران الأولان الحاصلان من قوله **(إنما يفترى)** وقوله **(وأولئك هم)** إضافيان أي لا غيرهم الذي رموه بالافتراء وهو محاشى منه، والثالث **(أولئك هم الكاذبون)** قصر حقيقي ادعائي للمبالغة إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغاً قوياً منزلة انحصاره فيهم! وقد روى أبو نعيم بإسناده عن الحسن قال: «أصل النفاق الذي بني عليه الكذب» وفي رواية له: «النفاق نفاقان: نفاق تكذيب لمحمد ﷺ فذلك كفر، ونفاق خطايا وذنوب فذاك يُرجى لصاحبه» واختير في الصلة صيغة **(لا يؤمنون)** دون: لم يؤمنوا، لتكون على وزان ما عرفوا به سابقاً في قوله **(الذين لا يؤمنون بآيات الله)** ولما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمررون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضد ذلك أي الذين طابت بالكفر نفوسهم بعد معرفتهم واستيقانهم فأولئك غضب الله عليهم وأضلهم **(ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم)** وهم المنعوتون بالصم البكم العمي في الآثار الصحاح المتواترة...

مفهوم العبادة

العبادة لغة تطلق على العمل الدال على الخضوع المتقرب به لمن يعظمه باعتقاد تأثيره في النفع والضرر واعتقاد الجاه العظيم الذي ينفعه في الدنيا والآخرة وهي التي فهمى الله سبحانه عنها أن تقع لغيره ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ لأن أهل الكتاب عبدوا الملائكة والنبين وما أطاعوهم ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله أدت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم فالعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية. قال الإمام الرازي: لا بد في كون الفعل عبادة من شيئين أحدهما: غاية التعظيم ولذلك قلنا: إن صلاة الصبي ليست بعبادة لأنه لا يعرف عظمة الله فلا يكون فعله في غاية التعظيم والثاني: أن يكون مأموراً به ففعل اليهودي ليس بعبادة وإن تضمن نهاية التعظيم لأنه غير مأمور به والنكته الوعظية فيه أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودي ليس بعبادة لفقد الأمر فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمرٌ ولا تعظيم؟ وقال الإمام البقاعي: العبادة امتثال أمر الله تعالى كما أمر على الوجه المأمور به من أجل أنه أمر مع المبادرة بغاية الحب والخضوع والتعظيم. اهـ. فخرجت بذلك عبادة اليهود والنصارى لأنهم اتبعوا أهواءهم وابتدعوا ديناً محدثاً قام به أحبارهم وخاصتهم ودان به جمهورهم فخلطوه بالحق! واعلم أن الله تعالى لما فهمى القوم عما هم مشغولون به من عبادة غيره ووجههم على وضع الشيء في غير محله وتعظيمهم غير أهله وبين لهم بالدلائل الواضحة عدم صلوحية ما اتخذوه من دونه لما اتخذوه إليه وكان الحامل لهم على ذلك اتباع أهوائهم والاسترسال مع أغراضهم وذلك مناف لعبوديتهم إذ العبد لا يتصرف في نفسه بمقتضى شهوته وغرضه وإنما يتصرف على مقتضى أمر سيده ونهيه، قصد سبحانه أن يخرجهم عن داعية أهوائهم واتباع أغراضهم

حتى يكونوا عبيداً لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً فوضع لهم الشريعة المطهرة وبين لهم الأعمال التي تعبدهم بها والطرق التي توصلهم إلى منافعهم ومصالحهم على الوجه الذي ارتضاه لهم ونهاهم عن مجاوزة ما حدّ لهم، فاخترعوا طريقة في الدين لم يسبق لها مثال وخالفوا قصد الشارع من وضع الشريعة واحتالوا على إطفاء نور الحقيقة وإضلال الناس وصدّهم عن صاحب الشفاعة فبنوا على غير أساس ورضوا أخذ دينهم من صاحب وسواس! فقد جاء في رسالة حبرهم ابن عبد الوهاب مجدد الدعوة النجدية: **واعلم أن التوحيد هو: أفراد الله سبحانه بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين: ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله تعالى يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة وعيسى ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبى مرسل فضلا عن غيرهما وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يخلق ولا يرزق إلا هو ولا يحيي ولا يميت إلا هو وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بهذا، فاقراً قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن**

يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأني تسحرون﴾ وغير ذلك من الآيات الدالات على تحقق أنهم يقرون بهذا كله وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ. وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه وهو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم منهم من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين لأجل صلاحهم وقربهم من الله عز وجل ليشفعوا لهم ويدعو رجلا صالحا مثل اللات أو نبيا مثل عيسى وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على ذلك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله كما قال تعالى ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا﴾ وقال تعالى ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾ الآية. وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدين كله لله والدعاء كله لله والذبح كله لله والنذر كله لله والاستغاثة كلها بالله وجميع أنواع العبادات كلها لله وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب لله بذلك هو الذي أحل دمائهم وأموالهم عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكا أو نبيا أو وليا أو شجرة أو قبرا أو جنيا لم يريدوا أن الإله هو: الخالق الرازق المدبر فإنهم يقرون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك وإنما يعنون بالإله: ما يعني المشركون في

زماننا بلفظ السيد فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: لا إله إلا الله والمراد من هذه الكلمة: معناها لا مجرد لفظها والكفار الجاهل يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلق والكفر بما يعبد من دونه والبراءة منه فإنه لما قال لهم قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك؛ فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من معنى هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر إلا الله فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله. انتهى.

وحاصل ما اشتملت عليه رسالته مبحثان: الأول: في بيان نفاقه ومخالفة قوله فعله وذلك أنه وأشياعه من بني جلدته أشركوا الشيطان وجنوده في الحكم واتخذوا الملائكة والنبیین أرباباً وانتسبوا إلى غير آبائهم ثم مع هذا كله ادَّعوا أنهم أئمة التوحيد وشيوخ الإسلام وقد عيَّرههم الله تعالى بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) والثاني: في بيان شبهاته وتحريفه للكلم عن مواضعه فإنه ذكر أنه يجب أن يفرّد الله سبحانه بالعبادة بمعنى أنه لا يتعلق بغيره في مطلب من المطالب تعلقاً غير عادي على أي وجه كان ذلك التعلق وأن أهل زمانه لما تعلقوا بالأولياء بعد وفاتهم بطلب الحاجات منهم ونذر النذور إليهم والذبح في مقاماتهم والاستغاثة بهم في ملماهم، أشركوا بالله تعالى لأن ذلك التعلق عبادة لذلك الولي لأن طلب الحاجات دعاء وهو من أنواع العبادة التي لا تكون إلا لله ومثل ذلك النذر والذبح والاستغاثة إن كانت بمعنى الغوث فهي الدعاء وإن كانت بمعنى التوسل فالقصد نفع الجاه وهو الحامل

على الأمور الأخرى فصاروا كأهل الأوثان العابدين لها لنفع جاهها، وقوله: (وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه وهو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد) هذا هو المقصود بالذات إذ هو محل النزاع بيننا وبينه فعلى إثباته ألف الرسائل وأقام الدعاة وعلى نفيه أقمنا الآيات البينات، ويعني به أن تعلق أهل هذا الزمان بصلحتهم بالنذر والذبح في مقاماتهم والاستغاثة بهم في ملماهم وندائهم لقضاء حاجتهم والتوسل بهم في مهماتهم مماثل لما كان عليه أولئك المشركون الذين أرسل إليهم السادات المرسلون في كون كل من الأمرين عبادة أريد بها غير الله تعالى! وتصور الأمرين يرد قوله واعتقاده ولا يتوقف على دليل يوضح فسادَه فإن تعلق أولئك المشركين بآلهتهم كان على وجه الاستبداد والاستقلال من دون أمر الله وإرادته أي أنهم أقاموا آلهتهم مقام رب العالمين وأما أهل الإسلام فإن وجهتهم وتضرعهم إليه سبحانه وتعظيمهم له تعالى وإنما أقاموا صلحاءهم مقام الوسيلة إليه في قضاء حاجتهم مقرين بعبوديتهم وأنهم لا يملكون كشف الضر ولا تحويله ولا يطلقون عليهم الآلهة ولا الأرباب والفرق بين الحالتين مثل الصبح لذي عينين ومقصود هذا الخبر وأشياعه تكفير من تعلق بني أو ولي بنذر أو ذبح في مقامه أو طلب منه بعد وفاته شفاعته أو حاجة أو ناداه للملّة نزلت به أو توسل به إلى الله تعالى في جلب أو دفع! كما ذكر في كتاب كشف الشبهات: فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في وقتنا: "الاعتقاد" هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا... إلخ. وقد اغتر بهم جمع غفير من المسلمين بسبب جهلهم بمفهوم العبادة وضعفهم باللغة فظنوا أن الحق مع هؤلاء فاتبعوهم حتى صرفوهم عن الملّة السمحاء وصاحب الشفاعاة والإسراء

وأوصلوهم إلى هذه النهاية المزرية فضاهوا الخوارج فيما بنوا عليه واتحدوا معهم فيما ترجع بدعتهم إليه من قتل أهل الإسلام وإلحاقهم بعبدة الأوثان واستعمال الآيات النازلة في المشركين في عباد الله الصالحين كما جاء في صحيح الإمام البخاري أن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما كان يراهم شرار خلق الله وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين.

وأما مسألة النذر للأولياء فصورتها أن الإنسان إذا نزلت به شدة أو عرضت له حاجة عند الله تعالى يلتزم إن قضى الله حاجته بشيء لولي من الأولياء الأحياء أو الأموات، والناذر لا يقصد التقرب إلى الولي وإنما يقصد أحد أمرين: الأول: وهو الغالب أنه يخص الولي ليدعو له لأن دعاءه مرجو الإجابة وبذلك يكون ظاهر فعله أنه من التبرعات وباطنه من المعاوضات لأنه أعطى شيئاً في مقابلة الدعاء وهذا من باب هبة الثواب وجوازها في الشرع مما زال عنه الارتياح ونظيره الإعطاء على الرقية للاستشفاء وقد علم وقوعه من الصحابة وإقرار النبي ﷺ له في حديث الرقية المشهور. والثاني: أنه يقصد التقرب إلى الله تعالى بإكرام وليه يستنزل بذلك رحمة الله تعالى وموالاته حيث والى وليه فإذا عرضت له حاجة فزع إلى الصدقة لأنها تطفئ غضب الجبار وتحري لها مظنة قبولها وطلب من الله قضاء حاجته بالتعريض لا بالتصريح لأن من والى من والاه الله كان جديراً بأن يكرمه ويتولاه كما أن من تعرض له بأذى فقد آذنه الله بالحرب وبذلك يكون فعله عبادة لله لا للولي لأنه متقرب لله غاية ما فيه أنه ابتغى إليه الوسيلة بإكرام ذلك الولي وهذا القدر لا يصير الولي معبوداً... فإذا تصورت المسألة فاعرضها على ما قررناه يظهر لك خبث شياطين الدرعية وكذبهم في دعواهم أن ذلك الصنيع عبادة للولي فكفروا المسلمين وانطلقوا إلى آيات نزلت

فيهم وفي نظرائهم فجعلوها على المؤمنين كما جاء في الأجوبة النجدية: **ومن نذر للميت فقد جعله شريكاً لله في عبادته (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) اهـ.** وقولهم هذا ينبئ عن فرط جرأتهم وغرورهم! والتحقيق فيما قدمناه أن التكفير بالذبح إنما يكون إذا بلغ حد العبادة ولا يبلغ حدّها إلا بتعظيم المذبح له تعظيم المعبودات ومن المعلوم الذي لا يختلف فيه اثنان أن ناس هذا الزمان لا يقصدون بذبحهم تعظيم المذبح له تعظيم المعبودات بل الملاحظ لهم في تعظيم الأولياء هو تعظيم الله تعالى فتقربهم إنما هو لله تعالى ويفعلونه على أنه عبادة له سبحانه فالإقدام على تكفيرهم مع احتمال أمرهم خروج عن مهيع الدين.

وأما التوسل والاستغاثة ودعاء الصالحين الذي نقمه المنافق الكتابي على المؤمنين فهو قولهم عند نفوذهم ونزول الشدة بهم: يا رسول الله أو يا سيدي فلان وما أشبه هذا الكلام فزعم الوهابي أن هذا دعاء لهم والدعاء عبادة لأنه مما تعبدها الله به وكل ما هو كذلك لا يقع إلا لله وإلا كان كفراً بناءً على أصله الفاسد كما جاء في الأجوبة النجدية: **إذا عرفت أن معنى الله هو الإله وعرفت أن الإله هو المعبود ثم دعوت الله أو ذبحت له أو نذرت له فقد عرفت أنه الله فإن دعوت مخلوقاً طيباً أو خبيثاً أو ذبحت له أو نذرت له فقد زعمت أنه الله. اهـ.** فنقول: الدعاء مشترك بين معان منها: النداء كقوله تعالى **(وادعوا شهداءكم)** والنداء معناه: طلب إقبال المنادى وحضوره للمنادي. ومنها: الدعوة إلى الشيء كقوله تعالى **(ادع إلى سبيل ربك)** ومنها: التمني كقوله تعالى **(ولهم ما يدعون)** ومنها: الطلب وعرفه بعضهم بأنه طلب الأدنى بالقول من الأعلى شيئاً ما ويشمل دعاء المخلوقين لبعضهم إذ طلب الحاجات كما يكون من الله سبحانه

يكون من العبد فيما يملكه فإذا طلبه من هو أدنى منه كان دعاء. فهذه المعاني كلها يطلق عليها لفظ الدعاء في لغة العرب فإذا تقرر هذا ظهر لك أن الدعوة إلى الشيء والتمني مما لا يتوهم عاقل أنهما لا تصح لأن تكون عبادة من حيث ذواتها وماهيتها وأن النداء كذلك إذا طلب حضور الشخص لدى المنادى لا تذلل فيه ولا تعظيم فإذا ما تعلقت همة الداعي بحصول المطلوب وتوجهت نيته لنيل المرغوب ولم يقصد التقرب بذلك الانكسار ولا تعظيم المطلوب تعظيم المعبود فهذا العمل لا يطلق عليه اسم العبادة وعلى هذا يحمل طلب الحي فيما يقدر عليه إذ القصد هو نيل المطلوب لا التقرب والتعظيم الاعتبار في العبادة فتحصل أن مجرد الدعاء أو النداء في قول بعضهم: يا رسول الله أو يا ولي الله أغثني لا يكون عبادة وإنما القصد منه التوسل به إلى الله وكذلك قولهم: مدد يا ولي الله فإن المدد مطلق العطاء والمراد: ادع الله أن يعطيني فأسند العطاء إليه لأنه بدعائه سبب في ذلك والعطاء يضاف إلى سببه ويضاف إلى مسببه وكثيراً ما يسند الفعل إلى السبب ومنه قوله تعالى ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ فإن المراد تسببوا في رزقهم بالتجارة ونظيره في الحديث عند أبي داود وابن خزيمة والحاكم: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً» وقرينة هذا المجاز فإن اعتقاد المسلمين أن لا تأثير لشيء من الكائنات لا نبي ولا ولي وقد نص علماء البيان أن عقيدة القائل مما تصلح أن تكون قرينة للمجاز العقلي الذي خرجنا عليه هذا الكلام فظهر أنه لا عبادة في شيء من ذلك لغير الله تعالى وإنما هو من قبيل التشفع والتوسل وبذلك يتبين أن قصود منافقي أهل الكتاب إضلال المسلمين وإكفارهم وإيقاع الفتنة والعداوة والبغضاء بينهم حتى يضرب بعضهم رقاب بعض كما جاء في الأجوبة النجدية: أن الاستمداد طلب المدد لا يكون إلا بالقلب واللسان

والأركان وهذا هو الشرك في العبادة كما قال تعالى ﴿وَأَن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فتبين أن الاستمداد بغير الله كفر بالله. اهـ.

وأما التفريق بين دعاء الميت والحي عند منافقي أهل الكتاب فمبني على اعتقادهم الفاسد أن الموت عدم محض لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور! يقولون بألسنتهم: آمنا بالله واليوم الآخر! وقلوبهم وأعمالهم تقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين! وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. قال ابن عباس في الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إنها نزلت في منافقي أهل الكتاب. اهـ. وقوله "وما هم بمؤمنين" يفيد النفي مطلقاً أي ليسوا متلبسين بشيء من الإيمان في وقت من الأوقات والجملة الاسمية تدل على الاهتمام بشأن الفاعل أي أن القائِلين آمنا لم يقع منهم إيمان ألبتة كقوله عز وجل ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فما يؤمنون أصلاً! ومقصود سورة البقرة إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ومجمعه الإيمان بالآخرة فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب فلذلك سميت بها السورة وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها في نوع البشر ومما تقدمها في قصة بني إسرائيل من الإحياء بعد الإماتة بالصعق وكذلك ما شاكلها لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة ولا سيما وقد أُتبعَت بذكر قساوة قلوب بني إسرائيل الموجبة للشقاوة وفيها إشارة إلى أن هذا الكتاب يرشدهم في كل أمر إلى صواب، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن

أجاب اتقى وأجاد، وسميت الزهراء لإنارتها طريق الهداية والكفاية في الدنيا والآخرة وإلّا يجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن في شك مريب فيحال بينه وبين ما يشتهي لأنه ليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد الذي هو الأساس الذي ينبنى عليه كل خير، والمنتهى الذي هو غاية السير، والعالي على كل غير، بأعلى ولا أجمع من الإيمان بالآخرة ولأن السنام أعلى ما في بطن المطية الحاملة، والكتاب الذي هي سورته هو أعلى ما في الحامل لأمر الآخرة، وقد أمر تعالى بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من أهل الكتاب فقال جل شأنه وعز سلطانه ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾ ولما امتن تعالى عليهم بإهلاك فرعون وأشياعه وجعلهم خلائف في الأرض، أعقب بقوله ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي الذين لا يؤمنون بالبعث ولقاء الله في الآخرة فلم يعملوا خيراً يرجوننا به إذا لقونا يوم القيامة! ويؤكد ما تقدم هذه الآية من قوله ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ إلى قوله ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ ونظيره قوله جل شأنه ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبيراً﴾ وقال تعالى ممتناً عليهم بالاستخلاف في الأرض بعد إهلاك فرعون ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ أي جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أحلاطاً. ولما ثبت أمر الحشر بإثبات القدرة على كل ممكن تارة وبإعلام بني إسرائيل الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ثبت أن هذا القرآن المخبر بذلك حق ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً

ونذيراً، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) قال المفسرون: كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولاً كائناً لا محالة ولا شك فيه ولا خلاف. وفي سورة طه لما ذكر الحق سبحانه لموسى ﷺ أن الساعة آتية لا ريب فيها، أردف ذلك بتزييف مزاعم من لا يؤمن بها (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وذلك تعريض ببني إسرائيل في أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر! ونظيره قوله جل شأنه (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بقاء رهم يؤمنون) أي آتيناه الكتاب جامعاً لكل ما ذكر ليجمع قومه محل رجاء للإيمان بالبعث بعد الموت وهذا لا يقال للمؤمن! ولما أرسل تعالى المسيح إلى بني إسرائيل أراهم آية للبعث وذلك قوله (وأحيي الموتى بإذن الله) وقوله (وإذ تخرج الموتى بإذني) وفي سورة البقرة أمر تعالى بني إسرائيل بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة احتجاجاً عليهم في صحة الإعادة لأهم لم يكونوا مؤمنين باليوم الآخر (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) وظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم فكان ذلك دالاً على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أي رجاء أن يحصل لكم عقل فيرشدكم إلى اعتقاد البعث الذي كانت قصة البقرة دليلاً عليه. ولما فصل تعالى في سورة طه قصة بني إسرائيل وشرح أحوالهم أعقب ذلك بقوله (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له) يريد الإخبار به أي لا شك فيه ولا يخالف وجوده خبره. وسورة بني إسرائيل المسماة بسورة

الإسراء تدعو أهل الكتاب إلى التفكير وتوقظهم من غفلتهم وتستنفذ مشاعرهم ولكنهم أغبياء منقوصين وحمقى معاندين ﴿وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا، قل كونوا حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يبعثنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ والنغض هو ذكر النعام وحالهم كحال هذا الحيوان الذي عظم بطنه ودق رأسه وصارت حدقتاه أكبر من دماغه حتى إذا باغته السبع هرب محرّكاً رأسه ثم دسه في الأرض وقد أخذته نشوة الأمن! وهذا المثل يشخص حال هؤلاء التوكى الذين يحركون رؤوسهم - إنكاراً للبعث واستهزاء به - كما يحرك النغض رأسه وهم في غاية الغباوة والجهالة وإفراط العماية والبلادة! وسورة الكهف نزلت بعد سؤال أهل الكتاب إذ قالوا لكفار قريش: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب! فجاء جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها خبر ما سأله عنه من أمر الفتية وأطلع الله نبأهم وخبرهم ليعلم من أنكر البعث أن من قدر على إبقاء الأنفس مدة مديدة طويلة بلا غذاء تغتذي به لقادر على إحياء الموتى وبعثهم بعد الموت. وقال جل ثناؤه حاكياً لسان حال الذين أوتوا الكتاب ﴿يقولون إنا لمردودون في الحافرة، إذا كنا عظاما نخرة، قالوا تلك إذا كرة خاسرة، فإنما هي زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة، هل أتاك حديث موسى، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ إلى قوله ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ أي سؤال إنكار واستبعاد واستهزاء وهذا القول صادر من كفر بني إسرائيل ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم في ذلك الضرب من الضلال! وذكر عز وجل - بعد بيان نشأة عيسى عليه السلام وبيان أصله - أنهم

ينكرون البعث ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ قال صاحب بحر العلوم: يعني لا يصدقون بالبعث. وقال الإمام الرازي: وهم لا يؤمنون أي بذلك اليوم! ولما ذكر الحق في سورة غافر ما من به عليهم من إيراثهم الكتاب ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أردف ذلك بالإلحاح على جداهم فيه ثم قال ﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ والمراد بالناس هنا خصوص بني إسرائيل كما يقتضيه السياق. وقد جاء على لسان حبرهم ابن عبد الوهاب في كتاب كشف الشبهات قوله: ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله، إذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف وهذا جائز في الدنيا والآخرة وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك فتقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياته وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعائه نفسه. وجاء في الأجوبة النجدية: ومن أعظم الشرك والضلال: ما وقع في هذه الأمة من البناء على القبور ومخاطبة أصحابها بقضاء الأمور. وهذا الكلام موافق لاعتقادهم الباطل فإنهم في حقيقة أمرهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يؤمنون بالغيب إذ قالوا لمنقذهم ورسولهم الأول ﴿أرنا الله جهرة﴾ وأما أهل الإيمان فإنهم يعتقدون أن الموت انتقال من دار إلى دار وأن من انتقل إلى عالم البرزخ من المؤمنين يعلم أحوال الأحياء غالباً وأن الإدراكات كالسمع والعلم ثابتة لسائر الموتى ولا يتوقف ذلك على البنية المخصوصة وإنما يتوقف على الحياة وهي ثابتة

لأرواحهم وأن الأنبياء عليهم السلام وخيار الأمة أحياء حقيقة بأجسادهم كما كانوا في الدنيا بل حياتهم هذه أتم ففي الحديث الصحيح عند البيهقي وغيره: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» وكما أن الأنبياء يصلون في قبورهم فكذلك الأولياء فقد ذكر ابن الجوزي عن بعض أصحاب ثابت البناني أنه قال: والله الذي لا إله إلا هو لقد أدخلت ثابتاً لحده ومعني فلان فلما سويناه عليه اللبن سقطت لبنة فإذا هو يصلي في قبره. وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما حج مر بوادي عسفان فقال: «لقد مر بهذا الوادي هود وصالح وموسى عليهم السلام على بكرات حمر خطمهم الليف وعليهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق» وكما أنهم يصلون ويحجون فكذلك يتصرفون بإذن الله تعالى فقد ذكر ابن القيم في كتابه الروح: أن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت وفارقت واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحاً عليّة زكية كبيرة ذات همة عالية فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر. فثبت بهذا كله صحة عقيدة عامة المسلمين وصح بذلك ما رتبوا عليه من نداء أولياء الله تعالى وطلب دعائهم وحضورهم لهم لأن ذلك كله ممكن وواقع ويكفي في ذلك ما ثبت من أحاديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم عليه فإنها تدل على أنه ﷺ لا يزال ناظراً في أعمال أمته والاستغفار لهم والدعاء بكشف الكربات والتردد في أقطار الأرض بحصول البركات، ونحوه حديث توسل الأعمى وقصة العتي ولما أصاب الناس قحط في زمن عمر جاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا

رسول الله استسقى لأمتك فإنهم قد هلكوا... والحديث رواه ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي في الدلائل والخليلي في الإرشاد وصححه الحافظ ابن حجر وما ثبت لبنينا من المزايا فلخواص أمته أنموذج منه فليس في ندائهم وطلب دعائهم ما يُنكر... قال الإمام الألويسي في تفسيره: لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى قد يكرم من شاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيبرئ سبحانه المريض وينقذ الغريق وينصر على العدو وينزل الغيث وكيث وكيث كرامة له. وقال الإمام الزبيدي في تحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: الدعاء بحصول الحاجات يطلب منه ﷺ بعد مماته كما كان يطلب منه في حياته بل حياته هذه أتم وأكمل وإنه يعلم سؤال من يسأله مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه لهذا العالم وكذا في عرصات يوم القيامة وفي الجنة لأنه لا يزال في مقام الوسيلة يشفع عند ربه وهذا مما تواترت به الأخبار وقام عليه الإجماع. اهـ. وهذا الإجماع الذي حكاه قاصم لظهور أولياء الشيطان وباقر لبطونهم ودال على فرحهم بما عندهم من العلم وثقتهم بعقولهم حيث تفتنوا واهتدوا إلى ما لم يهتد إليه علماء المسلمين على اختلاف أعصارهم وأقدموا على تضليلهم لأن هاته التي نقموها لا يخلو منها عصر ولا مصر والعلماء متوافرون ولم يبلغنا إنكار ذلك إلا عن هؤلاء الذين قتلوا أنبياءهم وأنكروا عليهم وحرفوا كتبهم ونسبوا أقوالاً باطلة إليهم وإلى بعض علماء الإسلام كابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

(وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من

المشركين)

لما بين الله تعالى أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغي والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول ﷺ وطاعته، شرع في تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة مضمناً عظم منزلته ورفعته شأنه وجلالة قدره وعلو مقامه ﷺ وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقاً للحق وإبطالاً لما عليه أهل الكتابين في شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم في إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية.

الفصل الرابع: مفهوم الاستخلاف

الاستخلاف: هو تفويض بحكم الأرض وسياسة الناس وفق عقد بين ملك الملوك وبين المفوضين بالحكم في الأرض، وإن شئت قلت: هو خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا. وقد بعث الحق تعالى لكل أمة مستخلفة رسولاً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أراد الأمة المستخلفة كأمة نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم فرعون وقوم تبع فإنه ما من أمة مستخلفة إلا سلف فيها نذير ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وفي الكلام إضمار والتقدير "وإن من أمة مستخلفة" ومعلوم أن الفرس والروم قبل مبعث سيدنا محمد ﷺ لم يُبعث رسول إليهم وقد تدين كثير منهم بالأناجيل التي حرفها بنو إسرائيل! ثم بُعث ﷺ إلى الناس عامة وبذلك نفهم قول الحق ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أراد الأمة المستخلفة ثم يوم القيامة يؤتى بالرسل يشهدون على أممهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ والمعنى فإذا جاء رسولهم فكذبوه وشهدت له الأمة المحمدية قضي بينهم بالقسط حسبما ينطق به قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة مستخلفة برسول يشهد عليها وجئنا بك يا سيد الرسل شهيداً على عرفاء أمتك وهداة ملتك الذين يشهدون على الناس... ومعرفة المستخلفين ليست من طوق عامة الخلق إلا بعون وجذب من جانب الحق وتوفيق وتأيد من نوره ولطف وفيض من حضرة علمه المقتبس من مشكاة لوح قضائه، لا سيما في عصر توارى فيه الحكام الفعليون عن الأنظار وصدّروا مؤسسات ومنظمات وشخصيات يديرون العالم من خلالها، ويتضح ذلك في تشتت الناس عند تعيين

من يحكم، هل رؤساء أمريكا والغرب؟ أم أصحاب رؤوس الأموال وقادة الجيش والأجهزة الأمنية ولوبيات الإعلام؟ أم منظمات سرية كالماسونية؟ والحقيقة أن كل هذه الأطراف واجهة للملوك الحقيقيين، ولكي نكشف ملامح الحكم لابد أن نفهم نصوص الوحي لأن حكم الأرض هبة ربانية، ودون الرجوع إلى الحقيقة المطلقة المتمثلة في القرآن والسنة لا يمكن الاهتداء إلى الحكام الفعليين المستخلفين في الأرض.

ومن جليل حكمة سيد الأنام، التي أفرغها بلسان النصيح العام، قوله عليه الصلاة والسلام: «اتَّبِعُوا الْعُلَمَاءَ فَإِنَّهُمْ سُرُجُ الدُّنْيَا وَمَصَابِيحُ الْآخِرَةِ» وقد أَلَمَّ الغلط بكثير فزعموا أن العلماء بأجمعهم قد زُوروا عن صفّ أهل السياسة، ولا حظّ لهم من الكياسة والفراسة، وكأنّ العقل قد انصبّ فيمن تعلم العلوم الغربية، وعرف العادات الإفرنجية، وما عرفوا أن في العلماء من مزقّ بردة سياسة الزمان، ووقف على كنهها المندمج في العرب والجان، وعطف على إدارة رحي السياسة بهمة كادت تشابه الفلك في عزمته، وفكرة توقف دولاب المشكلات عن دورته، نفعنا الله بركات علومهم، وأفاض علينا من فتوحاتهم، وأمدنا بمددهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

لقد ذكر تعالى قضية الاستخلاف في آيات عديدة وبين أنها في الإنس دون الجان فقال جل شأنه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقد استخلف الله قوم نوح ثم استخلف عاداً ﴿وَإِذْ كَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ واستخلف بعدهم ثمود ﴿وَإِذْ كَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا﴾ ويُشاكل

هذه الآية الكريمة قوله عز وجل ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ والمقصود واحد بهذه العبارات وإن اختلفت بحسب الاعتبار والله أعلم، روى ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: استخلفكم فيها. ثم استخلف سبحانه قوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع وقوم فرعون واستخلف بعدهم بني إسرائيل ﴿قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ واستخلف كذلك بني إسماعيل وخص قريشاً بالتفضيل لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم» وإذا قد علمنا أن أحداً من قريش لم يبق بعده على الكفر علمنا أن المراد منه أن الإسلام لم ينقصهم مما كانوا عليه في الجاهلية من الشرف فهم سادة في الإسلام كما كانوا قادة في الجاهلية، وفي صحيح الإمام مسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها» والله يؤتي ملكه من يشاء من عباده ويختار من يشاء من الناس لحمل الأمانة، ولما حملها بنو إسرائيل نقضوا الميثاق واتَّبَعُوا الشيطان وأشركوا بالرحمن. وقد ذكر سبحانه في كتابه الكريم تسع أمم استخلفها في الأرض كما استخلف بني إسرائيل فاتخذت شركاء من دون الله ثم برزت كل أمة في معصية تجاهر بها فبارز قوم شعيب رهم ببخس المكيال وقوم لوط باللواط...وبنو إسرائيل بارزوا رهم بالمنعم عليهم بكل ما لدى تلك الأمم من الفواحش والمعاصي! وبحسب الاستقراء لأماكن الأمم الغابرة تبين أنها تقع داخل المنطقة العربية اليوم وهي مسكن بني إسرائيل وهذا في معنى قوله تعالى ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي في مساكن قوم

نوح وعاد واثود وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك وقد تكلمت تلك الأمم المستخلفة بالعربية التي نزلت بها الكتب الإلهية فقد روى الإمام الطبراني في المعجم الأوسط والهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله وحياً قط على نبي بينه وبينه إلا بالعربية ثم يكون هو بعد يبلغه قومه بلسانه» والمقصود من التبليغ تبين ما في الكتب الإلهية من المعاني والكشف عن المراد منها وليس المقصود الترجمة إلى الألسنة الأخرى وذلك لأمر: منها: تنافر حالي الكتاب والمرسل إليهم، ومنها: أن الكتب الإلهية هي كلام الله المنزل بالعربية والترجمة ليست كذلك، ومنها: لو فرضنا نزول الكتب الإلهية إلى أعاجم لأدى إلى أشد الفرقة وربما قالوا لرسولهم عند اختلاف الألسنة: لا نفهم ما نزل إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ما نفقه كثيراً مما تقول! هذا هو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك؟ ومنها: لو فرضنا أن بني إسرائيل ليسوا من العرب لكانوا أولى الناس بالترجمة إذ الخطاب القرآني **(يا بني إسرائيل)** موجه إليهم ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه ترجم القرآن الكريم إلى اللسان العبراني أو إلى غيره، وقد أرشد ﷺ إلى جميع ما ذكرنا في قوله "ثم يكون هو بعد يبلغه قومه بلسانه" دون قوله "بلسانهم" فإن معناه التبين على حد قوله تعالى **(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)** وعلى حد قوله سبحانه **(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين، قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم)** أي لستم على شيء مستقيم حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن الكريم وهذا يناسب قوله قبله **(ولو أنهم أقاموا**

التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم) والمقصود بنو إسرائيل بقرينة قوله بعده (ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً) والرسل إنما أرسلوا بحسب ما وقع عليه التواطؤ في لسان المستخلفين المرسل إليهم وهو اللسان العربي فإنه لما قدم ما أفهم أنه أرسله ﷺ بلسان قومه لأن اللسان العربي أفصح الألسنة وأجمعها وأبينها وختم بأن السبيل إليه في غاية الاستقامة والاعتدال، دلّ على شرف هذا اللسان وأنه لسان جميع المرسلين فلذلك أتبعه قوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فإن بني إسرائيل حرفوا الكتب الإلهية وترجموها إلى اللغات الأخرى بما يزيدها إهماماً وأقاموا أدلتها بما يملؤها التباساً وموهوا على الناس اللسان الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعث به الرسل، والكلام في الآية عطف على قوله (كتاب أنزلناه إليك) أي القرآن النازل بلسان قومك لتبين لهم المصدق لما بين يديه من الكتب المهيمن على جميعها وإذا تأملت ذلك وأمعنت فيه النظر لاح لك سرّ تعقيبه بالتهديد للكافرين الذين نزل القرآن بلسانهم فالتمسوا لسبيله تعالى الزيف والتحريف وسعوا في إلقاء الشكوك والشبه يطلبون اعوجاج السبيل الإلهي والطريق الحمدي ويصفونها بما ينفر السالك عنها وكأن هذا من تمام قوله سبحانه (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك) أي كما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا الكتب عليهم بالعربية فكذبوا وخالفوا ومكروا كذلك أنزلنا إليك هذا القرآن ثم أعقب بالتمثيل بالنظير تسلية للبشير النذير (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) فابتدأ بذكر القرآن وأردف بذكر التوراة دليلاً على أنه تعالى يضل من يشاء إضلاله حسب قهره وجلاله ويهدي من يشاء هدايته بمقتضى لطفه وجماله وهو في ذاته العزيز الغالب على عموم مشيئته، الحكيم في فعله على مقتضى إرادته (لتخرج الناس

من الظلمات إلى النور) والظلمات أنواع: ظلمة الكفر بأنواعه وظلمة الجهل بأنواعه وظلمة الظلم بأنواعه... فشرّف المولى سبحانه العرب على غيرهم من الأمم إذ أنزل كتبه بلسانهم وجعل أنبياءه منهم فإن آدم عليه السلام لما نفخ الله فيه الروح عطس فقال: "الحمد لله" وهي كلمة عربية تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدي المراد منها أي لا يوجد لها مقابل في جميع الألسنة! روى النسائي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فحمد ربه بإذن الله له فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة وملائمهم جلوس، فقل: السلام عليكم، فقالوا: سلام عليك ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم» ولما قص الله تعالى في سورة طه من أنباء ما قد سبق من بني إسرائيل عطفَ عليه قوله (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) أي كما أنزلنا الكتب على الرسل بالعربية؛ كذلك أنزلنا عليك القرآن عربياً، فشبه إنزاله عربياً بما أنزل إلى ما تقدم من كتب أهل الكتاب أي مثل إنزال كتب أهل الكتاب. واللغة هي الكفيلة بإيضاح حقائق التنزيل والإفصاح عن خفايا التأويل، وإظهار دلائل الإعجاز وشرح معالم الإيجاز، وعلوم اللغة ممتزجة بعلم التفسير لا تكاد تنفك عنه، ومن غفل عن هذه البديهة فقد ضل السبيل وأوغل، وهي مما أوحى بها العليم الخبير إلى عبده آدم ليكون أنبه لها وأذهب في شرف الحال بها، والعربية كانت وستبقى حضارة يضيق عنها الوصف وينحسر عنها الكلم فلا يكاد يبين، وصارت لوسيع مذاهبها وبديع مناحيها من أفضل وسائل التربية والتهذيب دون منازع، عبقريتها في صياغتها، وأسرار جمالها في خصائص تركيبها، وكفاءتها العالية في تشقيق معانيها.

والاستخلاف مرتبط بالجنس والمكان، فبعد هلاك الأمم السابقة، ظل الاستخلاف محصوراً في أبناء إبراهيم عليه السلام؛ دولة بين بني إسماعيل وبني إسحاق، والمقصود من بني إسماعيل - والله أعلم - قريش فإن الناس تبع لهم كما ورد عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند البخاري: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان» والأمر هو الخلافة.

والاستخلاف تكليف رباني محدود بمدة زمنية (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وهو أن يجعل الله سبحانه أمة تخلفه في الحكم بين عباده على أن تعبده ولا تشرك به وتسوس الناس بشرعه تعالى، وقد وفّت الأمة المحمدية بالميثاق، ونقضه بنو إسرائيل واستبدلوه بميثاق الأمم المتحدة وأشركوا مع الله آلهة أخرى واتبعوا الشيطان الذي وعدهم بتسخير الأمم مقابل أن يشركوه في الأمر، فحشد لهم النخب تحت راية المجتمع الدولي والأسرة العالمية.

وحروب الاستخلاف لا تنكشف إلا بنصوص الوحيين، وقد خاضها بنو إسرائيل عبر شركائهم في القرن الماضي وأدت إلى سقوط الحكم الإسلامي وسقوط مقدسات المسلمين، وهي كذلك الحروب القادمة التي ستحطم أركان ملك الأمة الإسرائيلية وتعيد الخلافة إلى الأمة الإسماعيلية من آل بيت سيد الأنبياء الأكارم وخاتم الرسل الأعظم صلوات الله عليه.

وخص الله عز وجل بني إسرائيل بالخط الأوفر من التذكير وبيّن طرقهم في الإفساد والتضليل، وهذه المساحة الكبيرة في القرآن ليست كلاماً عن أمة غابرة مضت وانقضت وإنما هو خطاب متجدد للمستخلفين اليوم فإن صلاح المتبوع

يعقبه صلاح التابع والعكس، والمولى عز وجل يخاطبهم بلسان عربي مبين مؤكداً عربيتهم مقيماً الحجة عليهم ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين، أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل، ولو نزلناه على بعض الأعجمين، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ وفي الآيات كفاية لمن تدبر معانيها، وغنية لمن تأمل مقاصدها.

شأن القرآن العظيم والفرقان الكريم

القرآن الحكيم أنزله المولى الكريم ليكون حاكماً للناس في قضايهم كما أرسل رسوله الأعظم ﷺ حاكماً على الخلق ومتولياً لأموارهم، قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ قال صاحب تفسير بحر العلوم: يعني الحاكم على الكتب كلها. اهـ. فهو الكتاب الحاكم المحكم وإليه المنتهى في الحكمة كما قال سبحانه ﴿حكمة بالغة﴾ وحُق لكتاب جاء بالحكمة البالغة أن تكون حججه دامغة وأدلته قاطعة وإرشاداته نافعة لأن الحكمة منبع كل خير ومنار كل برٍّ وإن كتاب الله تعالى هو مجمع الحكم ومنبع العلم وميدان الفهم وكما وصف الله تعالى الكتاب بالحكيم، وصفه سبحانه بأنه كتاب عزيز قال تعالى ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله. والمعنى أن هذا الكتاب هو عزيز لا يُداني ولا يُساوى ولا يُسامى بل له التفوق المنيع والمجد الرفيع والهيمنة والسلطنة على جميع ما سواه من الكتب فعزته تقتضي تعاليه وغلبته على غيره كما هو مفهوم العزة لغة ولذا كان من شأن هذا الكتاب العزيز أنه كما وصفه الله تعالى ﴿ولا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) أي لا يمكن أن يتسرب إليه أي باطل وهذا العموم المفهوم يتناول أموراً متعددة نذكر جملة منها: الأول: لا يأتي الباطل إلى براهينه وحججه والمعنى أن حجج القرآن وبراهينه كلها حق وحقيقة فهي تبطل كل ما خالفها من حجة وبرهان وتثبت بطلان تلك الحجة والبرهان المخالفين للقرآن الكريم، أما حجج القرآن وبراهينه فإنها لا تبطلهما أي حجة وأي برهان لأنه تنزيل من حكيم حميد فحججه غالبية غير مغلوبة صادقة غير مصدوعة ودافعة غير مدفوعة (قل فله الحجة البالغة) الثاني: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بتبديل أو تحريف كلمة أو زيادة فيه أو نقص فهذا الباطل بألوانه كله لا يمكن أن يتسرب إلى هذا الكتاب العزيز فإن الزيادة باطلة ليست منه ومبطلّة لإعجازه لأن الزيادة لا تبلغ حد الإعجاز باعتبار أنها من كلام البشر والنقص منه أيضاً باطل لأنه يبطل ما هو حق ثابت فيه ومخل بإعجازه لأن نقص كلمة أو جملة تخل بإعجاز الباقي وكذلك التبديل ولو جاز ذلك لأدى إلى وقوع الخلاف بين البيان والأصل المبين فإن البيان المحمدي الوارد في سنته الشريفة هو بيان لأصل أصيل نازل من عند الله تعالى على رسوله ﷺ فإذا أجري على القرآن تغيير اختلف البيان المحمدي مع الأصل القرآني وهذا كله محال شرعاً وعقلاً وواقعاً وذوقاً وفطرة ومن البديهي أن إعجاز القرآن هو الوصف الملازم الذي لا ينفك عنه كملازمة العربية له فلو أنك جردت القرآن الكريم عن العربية لخرج عن كونه قرآناً لأن الله تعالى قال (إنا أنزلناه قرآنا عربياً) وكذلك صفة الإعجاز لا تنفك عنه فإن الله تعالى تحدى به الأولين والآخرين بإعجازه وأعلن عجزهم عن الإتيان بمثله لإعجازه فلو زيد فيه أو نقص لأخل ذلك بإعجازه ولأمكن الإتيان بمثله. الثالث: لا يأتي الباطل إلى أحكامه

التشريعية فإنها قائمة على عدله وحكمته فجميع الأحكام التي شرعها مستندة إلى حكمته سبحانه الإلهية العالية التي لا تداني ولا تسامى وإن حكمته سبحانه هي مقتضى علمه، وعلمه محيط بكل شيء وهو بكل شيء عليم. الرابع: لا يأتي الباطل إلى إخباراته الغيبية فما أخبر عنه مما مضى وهو المراد بقوله **(من بين يديه)** فهو واقع حقاً وما أخبر عنه أنه سيكون وهو المراد بقوله **(ولا من خلفه)** فلا بد أن يكون ويقع وإن تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما مضى هو أكبر دليل على تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما سيكون. وقد أقرت جميع الأمم ما أخبر عنه القرآن الكريم من الوقائع السابقة ولم يجدوا سبيلاً إلى إنكار شيء منها ولو أنهم استطاعوا تكذيب شيء منها لاحتجوا بها على رسول الله ﷺ ولعارضوه ولو أن شيئاً من ذلك لم يك مسلماً عند الأمم ومعلوماً لديهم في جملة الإخبارات التاريخية الماضية لما جاءهم بها رسول الله ﷺ لأن العاقل الحكيم لا يفتح على نفسه باب نقد واعتراض لا يستطيع إغلاقه فكيف يُعلن لهم وقوع أمور لم يثبت وقوعها؟! لا ولا وإنما جاء القرآن الكريم يخبر عن أمور واقعية لا يستطيع أحد إنكارها لا من أهل الكتاب ولا غيرهم. الخامس: لا يأتي الباطل إلى الحقائق الكونية التي كشف عنها القرآن الكريم أو أقرها مهما حاول المبطلون تحريفها وتبديلها عبر امتداد العصور وتقدم العلوم واتساع دائرة الاكتشاف العلمية والمخابر والوكالات فإن الأمر الواقع قد أثبت حقيقة ما أخبر عنه القرآن الكريم وصدق ما جاء به من البينات والأدلة. الوجه السابع: إن الله تعالى سمى هذا القرآن الكريم: فرقاناً وهدىً وبياناً وتبياناً لكل شيء ونوراً وبصائر ودعا سبحانه جميع العقلاء إلى التفكير فيما جاء به والتذكر والتبصر والتدبر والاعتبار وفي هذا حجة الله تعالى على جميع من كانوا وأين كانوا ويتضح ذلك من وجوه

متعددة: الأول: إن في قوله جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ إن في ذلك كله إعلاناً من الله تعالى وإعلاماً لجميع عباده بحجية هذا القرآن الكريم وقوة برهانه ووضوح بيانه وظهور تبيانه وحقية هديه وهيمنة سلطانه، وجلّ الله تعالى الحكيم العليم وعزّ عن أن يعلن ذلك لعباده ثم تكون حقيقة الأمر وواقعه خلاف ذلك! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فإن أدنى من له حظّ من العلم والحكمة يتعالى عن ذلك فما ظنكم برب العالمين الذي نزل القرآن بعلمه وبحكمته؟ قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ الثاني: إن في ذلك الإعلان عن القرآن تحدياً صريحاً لجميع العقلاء والحكماء والفقهاء والعلماء وحملات لهم على التذكير والتدبر في تلك البينات والحجج والاعتبار في تلك البصائر والتفكير فيما هدى إليه القرآن الكريم، فلا شك بعد التفكير والتدبر يقفون أمامه موقف المقرّ المعترف المحجوج، ومن ادعى غير ذلك فليقدم بحجته وبرهانه وليرد ما أثبتته القرآن الكريم إن استطاع لذلك سبيلاً وأنّ لهم ذلك ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ الثالث: القرآن الكريم دعا جميع العقلاء إلى التفكير فما جاء به والتذكر والتدبر والتبصر والنظر والاعتبار، ومعاني هذه المدارك متقاربة تجتمع في شيء وتنفرد في شيء آخر وهي متلازمة وينتهي بعضها إلى بعض ويوصل بعضها إلى بعض، فالتفكير: استعمال الفكرة في الأمر الذي يفكر فيه، والتذكر: إحضار ذلك الأمر عنده مصحوباً بإحضار العلم حول ذلك الأمر وما يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه وقد يطلق النظر على كل من التفكير والتذكر ويقال: نظر فيه أي فكّر وتذكّر لأن النظر في الشيء يحتاج إلى إحضار القلب والتفاتة إلى المنظور فيه وأما التدبر فهو النظر في

أواخر الأمور وعواقبها كما قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فالتدبر في القول يتطلب النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، مع التفهم والتبين للمعاني وأما الاعتبار فهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الأمر الذي فكّر فيه إلى معرفة أواخره وهو المقصود من الاعتبار ويسمى عبرة كما قال عز وجل ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِمَن يَخْشَى﴾ وقد نوّع الله تعالى الآيات وصرفها لعباده ليقوم عليهم الحجة ويبيّن لهم المحجة قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فهو سبحانه يذكر لعباده الآيات الآفاقية والنفسية المشهودة بالعيان والمذكورة بالجنان ويبيّن جدال أولياء الشيطان، ومن هذه الوجوه المتقدم ذكرها يتضح للعاقل وجوب التعرف إلى كتاب الله تعالى والتفكير فيه والتدبر والاهتمام كل الاهتمام بتعلمه وتفهمه والاطلاع على براهينه وبيّناته والاستبصار بأنواره والاعتبار بأخباره والاتعاظ بمواعظه والائتمار بأوامره والانتهاز عما نهى عنه وانتهاج منهاجه القويم، وقد دلت الآيات القرآنية على أن هناك أركاناً خمسة وأصولاً خمسة لا بد منها في الإيمان بالله تعالى، الأول: الإيمان بأن الله تعالى هو حقُّ أي واجب الوجود. الثاني: الإيمان بأنه سبحانه هو واحد أي لا شريك له. الثالث: الإيمان بأنه سبحانه مُتَّصِفٌ بالكَمالات وله سبحانه الأسماء الحسنى على وصف لا انتهاء له. الرابع: الإيمان بأنه سبحانه ليس كمثله شيء أي لا مشابهة بينه وبين المخلوقات. الخامس: الإيمان بأن جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالى بإرادته وقدرته واختياره ومشيئته. وقد جاءت الآيات القرآنية في تفصيل الكلام على تلك الأصول والأركان الخمسة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أذكر هنا طائفة منها...

الأصل الأول: أن الله تعالى هو حق واجب الوجود وهذا أول واجب إيماني فقد قال سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال تعالى ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ والمعنى أن رب السماء والأرض وخالقها هو حق واجب الوجود بدليل هذا الموجود المشهود وهو السماء والأرض فهو حق لا شك فيه ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ وقال ﷺ: «أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ» الحديث كما في الصحيحين، فالله تعالى هو حق أي واجب الوجود الذاتي وأما الجنة والنار وما وراء ذلك فهي حق يجعل الله تعالى وخالقه، ومعنى الحق في اللغة هو ما وجب إثباته والاعتراف به ولا يمكن إنكاره والشك فيه لقوة ثبوته وقطعية حُجتيه ويقابله الباطل فهناك حق الوجود ويقابله الباطل وهو العدم وهناك الحق الشرعي وهو ما أحلّه الله تعالى شرعاً وأثبتته ويقابله الباطل وهو الحرام وهناك الحق الخبري وهو الصدق المطابق للواقع ويقابله الباطل وهو الكذب المخالف للواقع، فالله تعالى هدى العباد في تلك الآيات من القرآن الكريم إلى الإيمان بأن الله تعالى هو حق أي واجب الوجود بحيث يجب على العاقل الاعتراف به قطعاً والإيمان بوجوده من غير ارتياب إذ ليس هناك ثابت تظاهرت الأدلة والبراهين القاطعة على إثبات وجوده كما تظاهرت على إثبات وجود الباري جل وعلا ومن ثم حق له أن يتسمّى بـ﴿الحق المبين﴾ أي الذي لا يخفى إثبات وجوده على أي عاقل بل هو الظاهر ولا أظهر وجوداً منه بحيث لا يُشك فيهِ كما أنه لا شك في وجود الكائنات المشهودة بالعيان قال تعالى ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكما أنه لا شك في وجود السماوات والأرض المشهودة بالعيان فإنه من باب أولى وأحق لا شك في وجود مَنْ أوجد السماوات والأرض وهو الله تعالى فهو

سبحانه حق أي وجوده واجب قديم لا أول له باق لا آخر له ويقابله الباطل وهو ما كان وجوده ليس بقديم ولا باق وهو الممكن الذي لا وجود له من ذاته بل بإيجاد الله تعالى له ولذا جاء في الحديث المتفق عليه: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أي كل ما سوى الله تعالى هو باطل بالنسبة إلى وجود واجب الوجود القديم الباقي لأن كل ما سوى الله تعالى هو مخلوق بعد عدم وهو ممكن الوجود أي ليس وجوده واجباً ولا ذاتياً له بل صار موجوداً بإيجاد غيره وهو الله تعالى واجب الوجود... فهذه الممكنات بعد ما أوجدها الله تعالى وأعطاهما الوجود الإمكانى المحدود هي حق بالنسبة للمعدومات التي لم توجد بعد وحقية وجودها ليست من ذاتها بل بتحقيق الوجود لها بقدرة واجب الوجود الذاتي وهو الله تعالى القديم الباقي (هذا هدى) أي فالآيات القرآنية جاءت تهدي للإيمان بأن الله تعالى هو الحق أي واجب الوجود الذاتي قطعاً. وأما البيّنات من الهدى إلى الإيمان بأن الله تعالى هو الحق فقد جاء ذلك في آيات كثيرة متعددة في مناسبات مختلفة: فمن ذلك قوله سبحانه (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وقوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير) وقوله جل شأنه (أفبى الله شك فاطر السموات والأرض) فمشاهدة السماوات والأرض دليل قاطع على حقيقة موجدتهما ومن ذلك قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) الآيات ومن ذلك قوله تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين) وقوله عز وجل (وفي أنفسكم أفلا تبصرون، وفي السماء رزقكم وما توعدون، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فالله تعالى حق وفي قوله تعالى (وفي

أنفسكم أفلا تبصرون) تنبيه لأقرب شيء إلى الإنسان والتبصر فيه وهو نفسه. الأصل الثاني: هدى القرآن الكريم إلى توحيد الله تعالى وهو الإيمان بأن الله تعالى هو واحد بمعنى أنه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وإلى هذا الأصل الإيمانى هدى الله تعالى عباده بقوله (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون) وقال تعالى (والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وفي هذه الآيات وأمثالها هدى للإيمان بوحداية الله تعالى ثم أتبع الله تعالى ذلك بذكر البينات من الهدى فقال سبحانه في بيان الأدلة على ذلك وهي البينات من الهدى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون) ففي هذه الآيات الكريمة يذكر سبحانه بينات من الهدى ستة مشهودة بالعيان ثابتة بالبُرهان يعقلها كل عاقل ويصبرها كل من أبصر، فالأولى: خلق السماوات والأرض وهما العالمان الحيطان بهذا الإنسان سماء تُظله وأرض تُقله وما أودع فيهما من الآيات والمبدعات فلينظر العاقل إلى السماء فوقه كيف بُنيت ورُفعت وإلى الأرض كيف سطحت ولينظر فيما أودع الله تعالى في السماوات والأرض من الآيات قال تعالى (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض) فحث عباده وأمرهم بالنظر في آيات السماوات والأرض قال تعالى (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) والنظر في آيات السماوات والأرض هو التفكير والتدبر ليقف العاقل فيها على ما هي عليه من إثباتات ودلالات ومسلزمات من أن لها صانعاً عليمًا حكيمًا حيًا قديرًا لأنها مصنوعة في أحسن الصنع، والصنع يقتضي صانعاً إذ لا

يتصور مصنوع بلا صانع ولا يتصور الصنع من الصانع إلا إذا كان عالماً بالمصنوع قبل أن يصنعه قادراً عليه حكيماً فلا بد في هذا الصانع أن يكون عليمًا حكيمًا قديرًا وهذه الصفات تسلتزم أن يكون من باب أولى أن يكون حياً يريد ويختار وله الاقتدار. الثانية: اختلاف الليل والنهار فإن الأمور حين تختلف فإنها دليل على وجود من يخالف بينها ويتصرف فيها فإن التبدل والتغير دليل على وجود من يبدل ويغير وفي اختلاف الليل والنهار تقسيم للزمن حسب مصالح البشر في حياتهم ومعاشهم وتنظيم لمجتمعهم وأوقات عملهم وراحتهم وهذا الاختلاف يشمل تخالفهما إثر بعضهما وتعاقبهما الحثيث وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ ويشمل اختلافهما في الطول والقصر صيفاً وشتاء وفي ذلك حكم عظام ومصالح جسام تعود على العباد بالمنافع الصحية البدنية والفوائد المعاشية، وفي اختلاف الليل والنهار دليل على قدرة الخالق البارئ المدير الحكيم الذي أدار الكواكب بانتظام وتقدير وإحكام دون خلل ولا فساد ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ وقد قال ﷺ له رسل إليه يسأله: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال له ﷺ: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟» يعني أن من المعلوم بدهشة أن النهار إذا كان في جانب من الأرض فالليل في الجانب الآخر وهكذا العكس فهما أمران متتابعان يختلفان على سطح الأرض. الثالثة ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ وفي هذا آيات مشهودة دالة على قدرة وجود الله تعالى وحكمته وذلك أن هذه الفلك التي تجري في البحر كالأعلام أي كالجبال في ضخامتها وثقلها بالأمثلة والمشحونات الثقيلة الكثيفة وإذا بها يُقلَّها الماء اللطيف ويحركها ويسيرها الهواء اللطيف ﴿إن

في ذلك آيات لقوم يعقلون) تُشهدهم قدرة الله تعالى وحكمته الذي أمسك بقدرته هذا الماء وشدَّ بقوته هذا الهواء فصار اللطيف قوياً يحمل الكثيف وإلى هذا يشير قول العدل اللطيف (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام) وقوله (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) وفي هذا مشهد ظاهر يدل على أن اللطائف تحمل وتُحرك الكثائف مع أن تلك اللطائف لا تُمس ولا تُمسك بل ولا تُرى كالهواء فإن العين الباصرة لا ترى عين الهواء وإنما ترى ما يحمله الهواء من غبار وهباء! وخذ مثلاً على ذلك: الروح مع الجسم فإن الجسم ثقيل كثيف تحركه وتحمله الروح اللطيفة. الرابعة (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) وفي هذا تنبيه للعقلاء وتبصير لهم بالحق وذلك بأن يتفكروا في هاتين الآيتين المشهودتين: أولاهما: هذا الماء النازل من السماء كيف كونه وقدّره الله تعالى وأنزله وفق أطوار وتحولات أجراها سبحانه بقدرته وأرشدنا إليها بقوله (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) وقال سبحانه (هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال) فهو سبحانه الذي ينشئ السحاب الثقال بالمياه الكثيرة والأمطار الغزيرة ويحملها على متن الرياح التي يُقلبها كيف يشاء ويسوقها حيث يشاء وهذا أمر مشهود لدى العيان كما قال تعالى مذكراً أولياء الشياطين المنكرين للبعث والنشور (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الثانية: الآثار الناشئة من هذا

الماء النازل من السماء كما في الآية الكريمة ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَى النُّهَى﴾ أي للعقلاء الذين تنهاهم عقولهم عن كل رديئة وتحملهم على الفضيلة! وقال جل شأنه مخاطباً سيد المرسلين عليه صلوات رب العالمين معرّضاً بالمنكرين ليوم الدين القائلين آمنا باليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا﴾ وقال سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ والمراد من كل دابة: كل نوع من أنواع الدواب ومعنى بثّها: تكثيرها بالتوالد والتولد ولا شك أن في خلق تلك الدواب المتنوعة وإعطائها صورها المناسبة لها وهدايتها لنظام معاشها وتوالدها وغذائها وهدايتها لما ينفعها مما يضرّها وربط نظام تعايشها مع بعضها في ذلك آيات لقوم يعقلون! وقد نبّه تعالى العقلاء إلى ذلك بقوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي في تعايشها ونظامها وانتظامها سواء في ذلك النمل والنحل فما فوق ذلك... قال تعالى ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فما من جحر نمل إلا وله قيادة ونظام وإمارة وما من كورة نحل إلا ولها نظام وقيادة تقودها وهكذا... وفي الحديث الصحيح: «قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بَقْرِيَةَ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ» وقال تعالى في تلقيه الحجة لموسى على فرعون ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ فهدى سبحانه بالهدى العام جميع الدواب والطيور وأنواع الحيوان إلى نظام غذائها ومعاشها وتوالدها وتربية نسلها وإلى

معرفة ما ينفعها وما يضرُّها كما أن في بث تلك الدواب وتسخير بعضها لبني آدم ينتفع بلحومها أو لبنها أو الحمل عليها وركوبها أو في الاصطياد منها أو الانتفاع بجراستها كالكلاب ونحوها أو في الانتفاع بأشعارها وأوبارها ونحوه في ذلك كله لآيات لقوم يعقلون. الخامسة: قال تعالى ﴿وتصريف الريح﴾ أي وفي تقليب الله تعالى للرياح وتنويعه لها في اتجاهاتها جنوباً وشمالاً وقُبُولاً ودُبُوراً وفي تنويعها حارة وباردة وعاصفة ورخاء ولينة ولواقح وعقيماً وإرسالها بالرحمة أو بالعذاب إلى غير ذلك. السادسة: قال تعالى ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ والسَّحاب: اسم جنس واحده سحابة وسُمِّيَ بالسحاب لانسحابه في الأجواء أو لجرِّ الرياح له وانسحابه معها ففي إنشاء الله تعالى له ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ وضمه بعضها إلى بعض وتكاثفها فوق بعضها وتحميلها الأمطار الغزيرة وإنزالها منها ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً، لنخرج به حبا ونباتاً، وجنات ألفافاً﴾ في ذلك كله آيات عظيمة لقوم يعقلون فيعلمون أن لها رباً خالقاً حكيماً عليمًا بكل شيء قديراً على كل شيء أتقن صنع كل شيء وهكذا يبين سبحانه وتعالى آياته للناس وفيها بينات من الهدى إلى الإيمان بوجوب وجوده ووحدانيته سبحانه وقدرته على البعث بعد الموت فيقول ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأني توفكون﴾ أي إلى أين تذهب عقولكم وتُصرف؟ ففكروا فيما تشاهدونه من هذا التخليق والتطوير والتدبير الكوني الذي تعينونه واعقلوا ما فيه من البينات والدلائل على وجود بارئه وخالقه ومدبره فإن سألتم عن الله تعالى فهذا جوابكم ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأني توفكون، فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر

حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) ويقول سبحانه (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أي ومن الآيات الدالة على وجوب وجوده ووحدانيته وقدرته على البعث أن الله تعالى خلقكم من تراب ثم طوّركم وخلقكم خلقاً من بعد خلق فإذا أنتم بشر تنتشرون وقد فصل سبحانه تلك الأطوار والأدوار التي قلبه فيها فقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ففي هذه الآيات الكريمة أصناف من البينات يقيمها الله حجة على المنكرين وذلك أن هذه الأطوار ثابتة عندهم وهذه التقلبات مشهودة لديهم لا يشكون فيها فمن المطوّر لها ومن هو المقلب لها؟ ومن هو المصور لها ومن هو الممد لها بالغذاء والماء؟ إذاً لا شك في الله تعالى (أفي الله شك) لا شك في وحدانيته وقدرته أصلاً.

وقد جاء القرآن بالهدى وبينات من الهدى في جميع المبادئ التي دعا إليها الاعتقادية والعملية والخلقية وجاء بالفرقان والمراد به الأمر الفارق بين الحق الذي جاء به ودعا إليه وما يترتب عليه من محاسن ومصالح وبين الباطل الذي لا دليل عليه وما يترتب عليه من مفاسد وأباطيل وضلالات وخرافات (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وبيان ذلك أن يقال لو كان هناك ربان أو أكثر فإما أن يكون اختلافهما واجباً أو يكون اتفاقهما واجباً أو يكون اختلافهما واتفاقهما جائزين هذه هي الوجوه التي يمكن أن يفترضها العقل لدى السبر والتقسيم، فإن كان اختلافهما واجباً بأن يريد أحدهما إيجاد شيء ويريد الآخر إعدامه فإما أن يغلب أحدهما الآخر فلا شك أن الغالب هو الربُّ الإله الحق

والآخر ليس بإله حق لعجزه وإما أن يغلب كل واحد منهما الآخر فكلاهما ليس برب حق لعجزهما معاً عن الإيجاد والإعدام ويلزم على ذلك أيضاً ارتفاع النقيضين وهما الوجود والعدم وارتفاع النقيضين مستحيل كاجتماعهما وذلك أن النقيضين هما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في الشيء الواحد ولا يفارقانه كالوجود والعدم والظلمة والنور والحركة والسكون ونحو ذلك وأما الضدان فهما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في شيء واحد وقد يفارقانه كالبياض والسواد وإما أن لا يغلب كل واحد منهما الآخر فكلاهما ليس برب حق أيضاً لعجز كل واحد منهما عن أن يغلب الآخر ويلزم من هذه الصورة اجتماع النقيضين وهذا مستحيل أيضاً هذه صور اختلافهما وكلها مستحيلة، وأما إن كان اتفاقهما واجباً أي أمراً لازماً في كل ما يفعلانه وفي كل ما يريدانه فيلزم منه حينئذ أن يكون كل واحد منهما لا يمكنه أن يفعل فعلاً أي فعل كان ولا يمكنه أن يريد شيئاً أي شيء كان حتى يوافقه الآخر على فعل ما يفعله أو يوافقه على إرادة ما يريد حتى إنه لو لم يوافق أحدهما الآخر على فعل ما يفعله أو إرادة ما يريد لما أمكن الآخر أن يفعل شيئاً أصلاً ولا أن يريد شيئاً أصلاً وعلى هذا فيلزم حينئذ عجز كل واحد منهما معاً في كل ما يفعلانه أو يريدانه وذلك لأنه حينئذ لا يتمكن هذا من فعل ما يفعله أو إرادة ما يريد حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته وهذا أيضاً لا يتمكن من فعل ما يفعله أو إرادة ما يريد حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته فيكون حينئذ هذا عاجزاً بنفسه عن فعل ما يفعله وإرادة ما يريد حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً أو بالعكس أي ويكون هذا أيضاً عاجزاً بنفسه عن فعل ما يريد حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً فلا يكون واحد منهما قادراً على فعل ما يريد إلا بأن يجعله الآخر قادراً على ذلك

حتى لو طَلَب العبد حاجته من أحد الربين لم يقدر الآخر على قضاء حاجته إلا بأن يأذن له الرب الآخر ويعاونه ويجعله بإعانتته واتفاقه معه قادراً أو بالعكس بل نقول إن نفس الموافقة ونفس الإرادة فعل من جملة الأفعال وقد فرضنا أن كل واحد من الربين لا يمكنه أن يفعل فعلاً حتى يوافقه الآخر وعلى هذا فلا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة وبالعكس أي لا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة وهذه الموافقة أيضاً لا يمكن أن يفعلها هذا حتى يوافقه الآخر على فعلها وبالعكس وهكذا فيلزم عليه أن لا يكون هذا رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر بموافقته رباً والآخر أيضاً لا يقدر أن يجعله رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر رباً وهكذا يدور الأمر وهذا يسمى عند العلماء بالدور القبلي وهو باطل استحيل بإجماع أهل الأرض والسماء وهكذا يدور الأمر فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى الآخر حتى يجعله رباً فالاستحالة هنا من جهتين: من جهة أن هذا دور قبلي ومن جهة أن من عجز أن يجعل نفسه رباً فكيف يقدر أن يجعل غيره رباً؟ وبالجملة فقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ برهان تام عقلي قطعي على توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وفي هذه الآية قياس استثنائي ترتبته هكذا: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة إلا الله جل وعلا، ومن هنا يعلم العاقل أن القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على وحدانيته تعالى وإحاطة علمه وعظيم ملكه وسلطانه وكمال حكمته وقدرته الدالة على حقيقة قضايها الإيمان كلها.

سورة الرعد

قال الإمام برهان الدين البقاعي قدس الله روحه ونور بالرضوان ضريحه: سورة الرعد مقصودها وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه، وتارة يتأثر عنه مع أن له صوتاً وصيتاً وإرعاباً وإرهاباً يهدي بالفعل، وتارة لا يتأثر بل يكون سبباً للضلال والعمى، وأنسب ما فيها لهذا المقصد الرعد فإنه مع كونه حقاً في نفسه يسمعه الأعمى والبصير والبارز والمستتر، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر وتارة لا، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة وسلمت من عاهة، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة وتارة يضر لإغراق أو الصواعق أو البرد وغيرها والله أعلم. ولما ختم تعالى سورة يوسف بالدليل على حقية القرآن وأنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون بعد أن أشار إلى كثرة ما يحسونه من آياته في السموات والأرض مع إعراضهم، ابتداءً هذه بذلك على طريق اللف والنشر المشوش لأنه أفصح للبداءة في نشره بالأقرب فالأقرب فقال **(المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)** قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه تلك آيات الكتاب يعني تلك الأخبار التي قصصناها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة والذي أنزل يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق فاعتصم به واعمل بما فيه. واستدل تعالى على تفرد بالوحدانية بدلائل خلق العالمين ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وأدمج الامتنان لما في ذلك من النعم على الناس ثم انتقل إلى تفنيد أقوال المشركين ومزاعمهم في إنكار البعث وتهديدهم أن يحل بهم ما حل بأمثالهم والتذكير بنعم الله عليهم وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم وأن الله العالم بالخفايا ثم هدد بالحوادث الجوية أن يكون منها عذاب لهم كما حل بالأمم قبلهم وأن آلهتهم لا تستجيب لهم بشيء وأنكر عليهم اتخاذهم أولياء

من الملائكة والنبين وشركاء من الجن والإنس وخوفهم من يوم الجزاء وذكرهم بأن الدنيا ليست دار قرار ويُن مكابرهم في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم مقابلاً ذلك بيقين المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير وأن الرسول ﷺ لقي من قومه من الاستهزاء ما لقي الرسل عليهم السلام من قبله، وأشار تعالى إلى حقيقة القدر ومظاهر الحو والإثبات وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال، والمقصود من هذه السورة - والله أعلم - قوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ وذلك أنه لما حكى في سورة يوسف نشأة بني إسرائيل، عطف الكلام إلى التفصيل وأوماً إلى أنه حان اجتناء الثمرة في هذه السورة ويلتحم بذلك وصف المصدقين بذلك، والكلام عطفٌ على قوله سبحانه ﴿وكذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي مثل ذلك الإرسال البديع الشأن اختصاصك بالرسالة في أمة مستخلفة تقدمها أُمم غابرة لتتلو عليهم القرآن الذي أحكمت آيات ثم فصلت من لدن حكيم خبير فهو المحكم بمبانيه ومعانيه وكلماته وبيناته لا خلل في ذلك ولا نقص ولا سبيل إلى معارضة ذلك ولا نقض فهو الرصين الحصين والحق المبين وأنت الرسول العظيم المبين لهذا الذكر الحكيم تبين لهم حقيقة الوحانية والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي أشهدهم ربوبيته في ذاتهم وذراتهم وذرياتهم فاسم الرحمن له مزيد اختصاص بالربوبية والألوهية حسبما نطق به قوله بعده ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينبههم على توكله على مولاه في نصرته عليهم وينبهم على رجوعه ورجوعهم إليه فقال ﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾ ولما فرغ من الجواب عن الكفر بالموحى عطف عليه الجواب عن الكفر بالوحي فقال ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو

قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) وفي الكلام من تفخيم شأن هذا الكتاب العظيم ما لا يخفى، والمعنى لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في التخويف والإنذار والله أعلم، والحذف في الكلام مع الدلالة على المراد أبلغ، واللطائف فيه أكثر وما يظهر بسببه من الحُسْن أظهر، إذ النفس تذهب فيه كل مذهب، والحال لو أن قرآنًا أمر الجبال أن تسير، والأرض أن تتقطع كما فعل بالحجر حين ضربه موسى، أو كُلم به الموتى كما وقع الإحياء لعيسى لكان هذا القرآن بالغاً ذلك، وفي الكلام تعريض بضاللتهم إذ لم يهتدوا بهدي القرآن واقترحوا غيره على سبيل التعنت، وجملة **(بل الله الأمر جميعاً)** عطف على الجملة السابقة بحرف الإضراب مقرررة الوحداية المطلقة في جميع شعبها وأدق مجالاتها وأوضح سماتها وأعرق دلالاتها، والعطف بـ **(بل)** من طرق القصر، واللام في **(الأمر)** للاستغراق، و**(جميعاً)** تأكيد له، وتقديم المجرور على المبتدأ للاهتمام، وفرع على الجملة استفهاماً إنكارياً **(أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً)** إنكاراً لانتفاء يأس الذين آمنوا أي فهم حقيقون بزوال يأسهم وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، وفي هذا الكلام زيادة تقرير لمضمون الجملة المتقدمة **(قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب)** ثم أردف بالوعيد على تعنتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن وتهكمهم باستعجال العذاب الذي توعّدوا به فهُدّوا بقارعة تنزل بهم ويتطايرون إليها شررها وتتعدى إليهم شرورها، وخوّفوا بحلول البعوث والسرايا بالذين من حولهم تُنكَل بهم حتى يأتي وعد الله، قال ابن عباس: فتح مكة. وقال الحسن: يوم القيامة. وجملة **(إن الله لا يخلف الميعاد)** تذييل لجملة **(حتى يأتي)**

وعد الله) إيداناً بأن إتيان الوعد المغيا به محقق وأن الغاية به غاية بأمر قريب متوقع بوقوع أسبابه ومقدماته، والتأكيد مراعاة لإنكارهم...
(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) السيئة تُطلق على الشرك كما تطلق الحسنة على كلمة التوحيد، والمثلثات: أي عقوبات أمثالهم من المكذبين المستهزئين. ولما بين سبحانه عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيد بها سيدنا محمد ﷺ وشرف وكرم وأعظمها آيات القرآن، عجب منهم عجباً آخر في طلبهم إنزال الآيات فقال (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) والتحضيض هنا للتعجيز، وقد عدل النظم عن تورّكهم في طلب معجزة مادية ليهتهم بمعجزة القرآن فسَمَّى القرآن آية وسمى أجزاءه آيات، وفي ذلك دلالة على أن القرآن هو المعجزة الباقية وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحدياً صريحاً فرسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن الذي لا تفنى عجائبه ولا تنقطع فوائده وإن كان قد أيد بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال خاصة، أما القرآن فهو معجزة عامة ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة بينما تصرمت وانقرضت معجزات من قبله من الأنبياء... ولكل قوم هاد يهدي الناس إلى حضرة الله تعالى وهم ورثة الهادي الأسعد والنبى الأجد عليه صلوات الله وسلامه، المجددون للديانة بعد دروسها، المحيون للحقيقة بعد خمود أنوارها، المظهرون للشريعة بعد خفاء أعلامها.

وكذلك أنزلناه حكماً عربياً

(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق) لما ذكر تعالى حال تلقي أهل الكتاب للقرآن عند نزوله، عرّج على بيان أن القرآن أنزل للحكم بينهم. وقوله (وكذلك) مركب من كاف التشبيه واسم الإشارة، وهو يدل على تشبيه شيء بشيء، والمشبه به متقرر في العلم مشار إليه مفهوم من السياق، والإشارة للتعظيم وتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي أي مثل ذلك الإنزال البديع الشأن المنظوي على أحوال أهل الكتاب أنزلناه حكماً عربياً، ووجه الإتيان بإشارة البعيد التنبيه على عظم المشار إليه، وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق، قال صاحب تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: أي كما أنزلنا عليك الكتاب يا محمد فأنكره بعض الأحزاب، كذلك أيضاً أنزلنا الذكر والحكم حكماً عربياً. اهـ. وفي كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم وفيه تعريض بأفن رأي منكريهم... ويجوز أن يكون المعنى: ومثل هذا الإنزال البديع المثال البعيد المنال، أنزلنا الحكم عربياً لتحكم بين أهل الكتاب بما أراك الله... ولا يبعد أن يكون عطفاً على (وكذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن) وأدمج في هذا أهم ما أرسل لأجله وهو توحيد الله تعالى، والمعنى كما أرسلناك في أمة مستخلفة قد خلت من قبلها أمم لتبين لهم التوحيد؛ كذلك أنزلنا الحكم عربياً لتحكم بينهم بما أنزل الله حسبما يفيد قوله عز وجل (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة

واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون» ولا يخفى أن عترة الرسول عليه الصلاة والسلام وورثته يقومون مقامه فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له ﷺ. قال الإمام الشافعي رحمه الله: أمرنا الله عز وجل بالحكم بينهم بكتاب الله المنزل على نبيه ﷺ. اهـ. وقد أشار المفسر الأعظم ﷺ إلى أهل الكتاب في حديث أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام - والله ورسوله أعلم - على نحو ما ورد في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس رسول الله ﷺ مجلساً له فأتاه جبريل عليه السلام فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله» قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت» قال: يا رسول الله فحدثني ما الإيمان؟ قال «الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان وتؤمن بالقدر كله خيره وشره» قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد آمنت» قال: يا رسول الله حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لم تره فإنه يراك» قال: يا رسول الله فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو (وإن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما

تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك» قال: **أجل يا رسول الله فحدثني**، قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس فذلك من معالم الساعة وأشراتها» قال: **يا رسول الله ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟** قال: «**العرب**» وفي رواية للبيهقي: «إذا رأيت العالة الحفاة العراة يتطاولون في البناء وكانوا ملوكاً» قال: ما العالة الحفاة العراة؟ قال: «**العرب**» وسيأتي شرح هذه المسألة بالاستقصاء.

فإنه تعالى لما أراد في هذه المرحلة أن يرفعهم وييسط أيديهم؛ سخر لهم الفرس والروم وظفرهم بهم حتى أطاعهم من في سائر جهات الدنيا وانقادوا لهم كما ينقاد الجمل العظيم للصبي الضعيف!

وبعد أن أفصح الحق تعالى عن هذا الكتاب المنظوي على الحكم العربي؛ هيّج على الثبات في الدين وحذر من اتباع أهواء الكافرين فقال **(ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق)** والضمير لأهل الكتاب المدلول عليهم بمعونة السياق المكتنف بالسباق واللاحق والمعبر عنهم بالأحزاب **(ومن الأحزاب من ينكر بعضه)** أي ومن أحزاب الذين أوتوا الكتاب من ينكر بعض القرآن وما هو حقيقة التوحيد ونعت الإسلام وشرف سيد الأنام عليه الصلاة والسلام مما حرفوه وبدلوه وهم خبثاؤهم ودهاقم الذين توسموا أن القرآن يفضح نفاقهم ويطل شرائعهم... وكانت دولتهم تُعرف في أقطار الإسلام بالدولة الوهابية وقد خادعوا المؤمنين بدعوة التوحيد التي سطرها حبرهم الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي طاب له بأرض نجد القرار وانتحل ديناً خالف فيه ما عليه سلف الأمة وأعلام الأئمة من التوسل بالنبي ﷺ

والاستغاثة به في العضلات والالتجاء إليه في الملمات وشنَّع على أهل الإسلام ما هم عليه من شدهم الرحال إلى زيارة الأولياء والتوسل بهم وبالأنبياء ونقم عليهم التبرك بما لهم من الآثار والمشاهد وبناء الروضات والقباب ثم إن هذا الرجل لم يقتصر على هذا القدر فسرح الفتيا باتصاف أهل الإسلام بالشرك والكفر وتأول عليهم أنهم بتوسلهم واستغاثتهم عابدون لغير الله فصادف أناساً اغتروا بدعوته وقبلوها وأذاعوها ودعوا إليها وأشاعوها وقتلوا وقتلوا في سبيلها وكبر الأمر وتفاقم واشتهر وتعاضم إلى أن أفضى إلى الصد عن المسجد الحرام واستحكمت هاته النحلة الردية في قلوب الأعمار وأهل البداية فاستلحموا بها استلحام ذوي اللحمة النسبية واشتدت عصبتهم وعظمت فتنتهم فأقام أهل الكتاب دعاة يدعون الناس لدعوتهم ويستظهرون بالأدلة عليها فوضعوا رسائل تتضمن تقرير تلك المسائل وتحسينها بما زعموا أنه من الدلائل فرجع الدين لغربته وأسفر عن كربه... وهذه العقائد والمناهج والأفكار والأديان التي كتبها أصحاب ميثاق الدرعية بأنفسهم أو بواسطة حلفائهم إنما هي امتداد تاريخي لعصور بني إسرائيل المتعاقبة وليست وليدة لحظة انبثاق الدعوة الوهابية كما يتهمها خصومها والهدف من ذلك كله محادة الله ورسله ومحاولة استتباع الناس والسيطرة على العالم كله وحُكمه حُكماً خفياً أو ظاهرياً بحيث لا يفلت من الوقوع في حبالهم إلا من سماهم الله تعالى المخلصين... والخطاب في قوله **(ولئن اتبعت أهواءهم)** لسيد المخاطبين عليه صلوات رب العالمين والمراد أمته لوجود عصمته ﷺ وكذلك الجواب في سائر ما أشبه هذا المعنى من الآي وكثيراً ما جاء هذا المعنى في القرآن فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى رهم عبّر به عنهم على عادة العرب في ذلك. والمعنى: ولئن اتبعت أهواءهم بعد وضوح

البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ما لك من ولي يشفع ولا واق ينصر ويدفع، وفي ذلك لطف للسامعين وإلهاب للثبات على الدين والتصلب فيه وزيادة تحذير لمن يتبع أهواءهم ويترك الدليل بعد إنارته، وأكد تعالى التحذير بعشرة مؤكدات وهي: القَسَم المدلول عليه باللام، واللام الموطئة للقسم لأنها تزيد القسم تأكيداً، وإسمية جملة الجزاء، وجَعَلَ حرف الشرط الحرف الدال على الشك وهو "إن" المقتضي أن أقل جزء من أتباع أهوائهم كاف في الخذلان، والإجمال، ثم التفصيل في قوله **(ما جاءك)** وتبيينه بقوله **(من العلم)** وجعل ما جاء هو العلم كله لعدم الاعتماد بغيره لنقصانه، وتأکید النفي بمن في قوله **(من ولي)** وتأکید **(من ولي)** بعطف **(ولا واق)** الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه، والمقصود من هذا - والله أعلم - تهيج المسلمين على التصلب في دينهم وتحذيرهم من تمويهات أهل الكتاب ووعيد شديد من الدخول في حُكمهم والرجوع إلى دينهم وتأسيس لهم من الطمع في التنازل لهم في عقائدهم ولو أقل تنازل وقد ورد في السنة لابن أبي عاصم: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»** وأمثال هذه القوارع إنما هي لقطع أطماعهم وتهيج المؤمنين على البراءة منهم فإن من وافقهم أو قلدهم كان فيه شبه منهم. والهوى: رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل وسمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، ولشدة سلطانه وصفه الله بأنه إله الكفار. وفي قوله سبحانه **(بعد ما جاءك من العلم)** دليل على أن المسلم مكلفٌ بالنظر والاستدلال وإعمال الفكر ونبد التقليد، وأتى بـ**(ما)** لأنها أعم من "الذي" وأشد إهاماً لشمولها الظاهر والخفي، ومن اتبع أهواءهم وقع في الضلالة وفقد الهداية وهلك في تيه الجهالة وترامى أمره إلى الغواية، والاتباع: مجاز شائع في

الموافقة أي لو وافقت ما يشتهونه ما لك من الله من ولي ولا واق، وهذا من باب البعث للأمة على الثبات في الدين والاجتهاد في مخالفة الكافرين. وهذا بحث دقيق قلّ من يفطن إليه فتأمل أيها المنصف في معاني الآية فإن فيها أسراراً عجيبة وتنبيهات على أمور عالية لتقف على طرف من هذا الإعجاز الذي ربما رمت به العقول الضعيفة أو المتعصبة التي لم تؤتِ النظر والبحث حقه... واعلم أنه يكفي في فظاعة وشناعة اتباع أهوائهم ما رُتب على ذلك من فساد العالم ومن فيه كما حكى سبحانه **(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن)** والظاهر أن يراد بالحق الذي جاء به النبي ﷺ وجعل الاتباع حقيقةً والإسناد مجازياً كما قال العلامة الألوسي وقيل: ما آل المعنى لو اتبع النبي ﷺ أهواءهم فجاءهم بما يشتهون لاختلت أصول انتظام العوالم وهو فرض محال من تبديله عليه الصلاة والسلام ما أرسل به من عند الله تعالى. ولما حُسِمَت الأطماع عن إجابتهم رجاء الاتباع أو خشية الامتناع وقالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا من قبل، كان موضع توقع الخبر عما كان للرسول في نحو ذلك فقال تعالى **(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله)** أي ما كان لرسول يأتي بدلائل وبراهين إلا بإذن الله، وكل رسالة سماوية يبلغها رسول من الرسل تكون داعمة لما قبلها ومصححة خطأ العقل البشري في فهم النصوص أو تعطيلها أو تحريفها... والرسول ﷺ نور سره باق بين عترته وورثته يقومون مقامه، قال أئمة الطريق وسادات أهل التحقيق: الإذن له سطوته لأن الإنسان إذا كان مأذوناً تُقبل كلامه في القلوب. وإذا قد كان ما أخبر عنه القرآن من الغيوب ولتأويله أجل موقوت ناسب أن يذكر بعده **(لكل أجل)**

كتاب) روى ابن جرير عن الضحاك قال: لكل كتاب ينزل من السماء أجل فيمحو الله من ذلك ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقد نص الداني والشاطبي وغيرهما على إثبات الألف بعد التاء في كلمة "كتاب" في هذا الموضع "لكل أجل كتاب" قال صاحب نثر المرجان في رسم نظم القرآن: لعل السر في إثبات الألف فيه أن الكتاب هنا ليس المراد منه المعنى المشهور بل المراد الحكم فكُتِبَ بإثبات الألف مخالفاً للضابط العام ليدل على أن معناه مخالف للمعنى المشهور. اهـ. ولما كانوا قد قالوا: لو كان في دعوى الرسالة محققاً لما خالف ما نحن عليه ولما نسخ ما تواطأنا فيه، أجاب سبحانه عن ذلك بقوله **(يُمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)** ثم عطف عليها باعتبار ما تفيد من إيهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات وأن النبي ﷺ ليس مأموراً بالاشتغال بذلك وإنما هو مبلغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده فقال عز وجل **(وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)** ثم أرشد سبحانه إلى نصرته لرسوله ﷺ ومن تابعه وإعلائهم على كل من ناوَاهم وبيّن تعالى أنه قادر على الكفرة وإن كانوا كالقاطعين بأنهم يغلبون لما لهم من القوة والكثرة والقدرة بالأموال **(أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها)** ثم أثبت سبحانه لنفسه أمراً كلياً يندرج ذلك فيه فقال لافتاً الكلام من أسلوب التكلم بالعظمة إلى غيبة هي أعظم العظمة بالاسم الأعظم **(والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)** وقد حكم لرسله بالغلب والإقبال وحكم على أعدائهم بالانتكاس والإدبار وذلك كاف في الخوف من سطوات قدرته وهو مع ذلك يعد لكل عمل جزاءه على ما تقتضيه الحكمة وهو تعالى المدير بمقتضى الحكمة يحكم بحكم مبرم لا معقب لحكمه وإن اشتد مكر

الماكرين فهو لا يغني عنهم شيئاً فقد مكر الغابرون بالرسل وأتباعهم فكان
مكرهم وبالأعلى عليهم وهؤلاء مكرهم سيحيق بهم مثل ما حاق بأضراهم الأولين
(وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم
الكفار لمن عقبى الدار) وقد يبلغ بهم المكر أن يتظاهروا على وسائل الإعلام
بعمالة عبد العزيز آل سعود للإنجليز وأن محمد بن عبد الوهاب ليس إلا ذلك
العميل الذي تعود المسرحية إلى ذكره! ليصرفوا الناس عن الحقيقة الثابتة في
القرآن فيكيدوا له بإبطال خصيصة ما أتى به، والذي يُصدّقهم إنما يشهد
شهادة كاذبة تُخالف ما نطق به الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة، فقد
صرّحت السنة بأنهم ملوك الأرض ورؤوس الكفر وهو ما ثبت في
القرآن... ومسألة العمالة للغرب من أهم القضايا التي يسعى بنو إسرائيل
إيصالها إلى عقول المسلمين وهي تحمل آثاراً سيئة ونتائج خطيرة تؤدي إلى
تعطيل الكتاب والسنة، وتفريغ الكتاب والسنة في قوالب حكايات
وأساطير... ولما بين الملك الأعلى الذي يعلم السر وأخفى أن مكرهم الذي
اجتمعوا عليه وبالأعلى عليهم عطف عليه قوله مشيراً بالعاطف إلى فلتات أقوالهم
وفحوى كلماتهم وما أضمرت قلوبهم (ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل
كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) ومعنى كفروا: أي ستروا
وجحدوا الحق بعد ما تبين لهم وعرفوه واتضح لهم والمراد: رؤساء بني إسرائيل
وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك منهم واستمراره ولما كان الرسول
الجليل الأعظم شاهداً على الوجدانية ومشاهداً كمال الفردانية وكانت الشهادة
له بالصدق شهادة عليهم بأنهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم. وعالم
الكتاب هو الذي عنده علم القرآن وما احتوى عليه من النظم المعجز والعلوم

الغيبية ولا ينافي ذلك خصوص سبب النزول، ووجه شهادته برسالة الرسول الأفخم: تفسيره للرموز الواردة في القرآن الذي نزل عليه... وتشريف العبد بعلوم القرآن من إحسان الله تعالى إليه وتوفيقه، نسأل الله تعالى أن يشرفنا بهاتيك العلوم ويوقفنا للوقوف على أسرار ما فيه من المنطوق والمفهوم ويجعلنا ممن اهتدى بهداه وتمسك بعروته الوثقى ببركة حبيبه روح الأكوان وسيد الإنس والجان عليه أفضل الصلاة والسلام ما كرّ الجديدان واختلف الملوّن.

والقرآن الحكيم يواجه الأجيال تلو الأجيال، يدعوهم إلى طريق رشادٍ لاجِب، ولا تبلغ خارقة من الإعجاز ما يبلغه في كل جانب، فجانبه التعبيري وأداؤه البياني أعجز من نزل بلسانهم وهم من كانوا يتفاخرون باللسان العربي في أسواقهم، ووجوه إعجاز القرآن من جهة حسن تأليفه والتتام كلماته وفصاحته وإيجازه في مقام الإيجاز وبلاغته ظاهرة جداً مع ما انضم إلى ذلك من حسن نظمه وغرابة أسلوبه مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات مما وقع من أخبار الأمم الماضية مما كان لا يعلمه إلا أفراد من أهل الكتاب ولم يعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم ولا أخذ عنهم وبما سيقع فوق على وفق ما أخبر به في زمنه ﷺ وبعده هذا مع الهيبة التي تقع عند تلاوته والخشية التي تلحق سامعه وعدم دخول الملل والسامة على قارئه وسامعه مع تيسر حفظه لتعليمه وتسهيل سرده لتاليه ولا ينكر شيئاً من ذلك إلا جاهل أو معاند ولهذا أطلق الأئمة أن معظم معجزات النبي ﷺ القرآن ومن أظهر معجزات القرآن إبقاؤه مع استمرار الإعجاز وأشهر ذلك تحديه اليهود أن يتمنوا الموت فلم يقع ممن سلف منهم ولا خلف من تصدى لذلك ولا أقدم مع

شدة عداوتهم لهذا الدين وحرصهم على إفساده والصد عنه فكان في ذلك أوضح معجزة...

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾

لما ذكر سبحانه الكتاب الناطق بالحق **﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾** انتقل إلى وصف قلوبهم بأنها في غمرة عن الحق لم يمسه نوره الحي لاندفاعها في الشهوات حتى تفيق لتلقى العذاب الأليم وتلقى معه التوبيخ والتحقير فإذا بهم يرفعون أصواتهم بالجوار مستغيثين مسترحمين وهم يتلقون الزجر والتأنيب والتئيس من كل ناحية ومن كل نصير **﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا وهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين به سامرا تهجرون﴾** أي تهجرون القرآن وتقطعونه وهو على هذا مشتق من الهجر، وقُرئ بضم التاء وكسر الجيم مضارع أهجر أي يقولون الهجر وهو الفحش، وضمير **﴿به﴾** عائد على الكتاب الناطق بالحق أو الآيات لأنها في تأويل القرآن فيكون **﴿مستكبرين﴾** ضمن معنى مستهزئين فعدي بالباء للإشارة إلى تضمينه، ثم وبخهم تعالى على إعراضهم بعد تدبر القول لأنهم بعد التدبر والنظر الفاسد قال بعضهم مجنون وبعضهم ساحر وسائر ذلك **﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾** وهذا توبيخ أيضاً لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين كلام ذي الجنة لا يخفى على ذي فطرة والضمائر لأهل الكتاب ابتداء وأما غيرهم وإن شاركوهم فيها فبالتابع وقد

روعي في هذه التوبيخات التي اثنان منها متعلقان بالقرآن والباقيان به عليه الصلاة والسلام الترقى من الأدنى إلى الأعلى، ثم بين تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في مجيئه بالحق **(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن)** أي لو كان ما جاء به الرسول بحكم هوى هؤلاء لاختلّ نظام العالم، وفي تفسير الحق أقوال: أولها: الله جل وعلا واعترض ابن عطية على هذا القول بأنه ليس من نط الآية وقال: ومن قال إن الحق في الآية الله تعالى بشعت له لفظة اتبع وصعب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية لأن لفظة الاتباع على كلا الوجهين إنما هي استعارة بمعنى أن تكون أهوائهم يصوبها الحق ويقررها فتحن نجد الله تعالى قد قرر كفر أمم وأهوائهم فليس في ذلك فساد سماوات وأما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبق أهوائهم لفسد كل شيء فتأمل. والثاني: الرسول الأعظم ﷺ، والثالث: الكتاب الذي تقدم ذكره أي لو ورد القرآن متابعاً لأهوائهم فيما يشتهونه موافقاً لفساد مقاصدهم ونزل بما يحبون وما يعتقدون لفسدت أحوال السماوات والأرض لأنها جارية بالحكمة لا على الهوى ولفسد من فيهن وذلك إشارة إلى ما يعقل وما لا يعقل لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد فعلى هذا يكون من الفساد ما يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أرباباً وهي مربوبة وفساد من في الأرض من الإنس بعبادة غير الله وإحداث عقائد تفسد عقول البشر كلهم وأما فساد الجن فيكون بأن يطاعوا فيطغوا وأما فساد ما عدا ذلك فيكون على وجه التبع بأنهم مدبرون بذوي العقول فعاد فساد المدبرين عليهم... قال الإمام ابن جزى: الاتباع هنا استعارة والحق هنا يراد به الصواب والأمر المستقيم. وهذا هو الأجرى على أن يكون المذكور قبل، الذي جاء به روح الأرواح ﷺ

ويستقيم على هذا فساد السماوات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء وذلك أنهم جعلوا لله شركاء وحرفوا الكلم عن مواضعه وغيروا معانيه التي قصدت من سوقه وأريدت من شرعه وأبعدوه عن حقائقه وبدلوا معنى الإسلام والتوحيد، قال الإمام أبو حيان: والظاهر أنه الحق الذي ذكر قبل في قولهم ﴿بل جاءهم بالحق﴾ أي لو كان ما جاء به الرسول من الإسلام والتوحيد متبعاً أهواءهم لانقلب شراً. وقال بعضهم: أي لو اتبع ما نزل من القرآن أهواءهم. وفي قوله ﴿بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ إبطال لما اقتضاه الفرض في قوله ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ أي بل لم يتبع الحق أهواءهم فأبلغنا إليهم الحق على وجهه بالقرآن الذي هو ذكر لهم يوقظ عقولهم من سباتها، وعدي فعل ﴿أتيناهم﴾ بالباء لأنه استعمل مجازاً في الإرسال والتوجيه، والذكر يجوز أن يكون مصدراً بمعنى التذكير ويجوز أن يكون اسماً للكلام الذي يذكر سامعه بما غفل عنه وهو شأن الكتب الربانية وإضافة الذكر إلى ضميرهم لفظية من الإضافة إلى مفعول المصدر والفاء لتفريع إعراضهم على الإتيان بالذكر إليهم أي فتفرع على الإرسال إليهم بالذكر إعراضهم عنه والمعنى أرسلنا إليهم القرآن ليذكرهم وقيل: إضافة الذكر إلى ضميرهم معنوية أي الذكر الذي سأله حين كانوا يقولون "لو أن عندنا ذكراً من الأولين، لكننا عباد الله المخلصين" فيكون الذكر على هذا مصدراً بمعنى الفاعل أي ما يتذكرون به والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة أي فيها قد أعطيناهم كتاباً فأعرضوا عن ذكرهم الذي سأله، والتعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكنه منهم وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محل عجب! كما قاله صاحب التحرير والتنوير.

وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون

لما كشفَ سبحانه في القرآن القناع عن قرن الشيطان وذكر أنه هياً للمستخلفين قرناء أي أحياناً من الشياطين استولوا عليهم استيلاء النار على الفحمة فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها وما خلفهم من أمور الآخرة وإنكارها؛ دبّروا تدبيراً في منع الناس عن فهمه لأنه يغلب القلوب ويسلب العقول فقال بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون أي لا تسمعوا له إذا بُيّن وأشغِلوا الناس بأشياء أُخر لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس فبهذا الطريق تغلبوهم! وهذا القول ناشئ عن تزيين قرنائهم، وهذا القول صادر من كفرة بني إسرائيل ويتلقفه أتباعهم الذين لم ينقطعوا عن الاتصال بهم منذ ظهرت دعوة الإسلام! وإذ كانوا بالأمس قد صرفوا أتباعهم عن هذا القرآن فإنهم اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه للناس من رسائل وفتاوى وكتب ومطويات، ولا يدعوا أهل الحق يُقيمون الحجة ويزيلون الشبهة لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنقض فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من الكذب والبهتان! فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد؛ فيعدلون إلى لغو الكلام وينفخون في أبواق الإعلام ويعرضون المناصب ويغدقون المنح والأموال لكسب الرأي العام لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق ويغمرون القول الصالح باللغو! وكذلك شأن دعاة الضلال والباطل أن يكّموا أفواه الناطقين بالحق والحجة ويردّوا أيديهم في أفواه الرسل تسكيتاً لهم! وقد جعل تعالى أكثر معجزات الأمم السابقة حسياً لبلادهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها

كالأنبياء، ولما كانت هذه الشريعة باقية على وجه الدهر وكانت العقليات باقية غير مبتدلة، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية، ومن تفكر فيما أورده ﷺ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة، اطلع على أشياء عجيبة! ومما خصه الله تعالى به من المعجزات هذا القرآن وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر ماثلة في الأرض، وقد دعاهم ﷺ إلى معارضته فعجزوا فجعل عجزهم علماً للرسالة فلو قدروا ما أقصروا وقد بذلوا كل شيء في إطفاء نوره وتوهين أمره ليغلبوه! غير أن هذا القرآن يظل هو الغالب بذلك السلطان الغالب، وما إن تعرض الآية منه في ثنايا قول البشر حتى تستولي على الحس الداخلي في الفطر وتنحي ما عداها من قول البشر، ثم يبقى وراء ذلك كلام هذا القرآن الموجز لفظه المعجز نظمه المحكم تأليفه...

(ولقد اخترناهم على علم على العالمين)

لما ذكر الحق ما منَّ به على بني إسرائيل من النجاة من العذاب المهيّن، أعقب ذلك ببيان أنه اختارهم بسبب علم لم يؤته بالجملة سوى أهل الحقيقة من المكملين المحمدين لتظهر فضيلة العلم على العالمين وشرفه! فقوله "على العالمين" هذا عام دخله التخصيص في مواضع كقوله تعالى "تكونوا شهداء على الناس" أي على بني إسرائيل على وجه الخصوص ودخل معهم من تحتهم من الأمم، وقوله "على علم" في موضع الحال أي عالمين بمكان الخيرة والاستخلاف وبالكتب الإلهية المعنوية بهم على وجه الخصوص إذ أنهم درسوا ما فيها ثم احتالوا عليها وحادّوا الله بميثاق أممي عالمي رُسمت خطوطه عام 1143 للهجرة! وقد أخطأ الناس في حقيقة الدولة الوهابية السعودية وظنوا تبعيتها للغرب! وهذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات

والآثار أنهم ملوك الأرض، والحقيقة التي يبحث عنها أهل الحكمة هي الثابتة في نفسها مع قطع النظر عن الظواهر التي تبدو للناس وهذه لا يتوصل إليها إلا بالعلم واليقين...والذي تقتضيه ظواهر الأخبار النبوية أن الغرب ظهير بني إسرائيل ومددهم ونتاج عقائدهم التوراتية والإنجيلية المحرفة فإن بني إسرائيل هم عمقه العقائدي وخزانه الذهني والنفسي ومصدر فهمه ومعارفه، ولما غابت هذه المسألة عن أذهان المسلمين فقدوا موضع المعركة وتوهموا الأعداء أخلاء فاتبعوهم واستحسنوا فهمهم لنصوص الكتاب والسنة ورغبوا في تقليدهم على غير وعي أو تمييز! روى الإمام البخاري في صحيحه - باب ما ذكر عن بني إسرائيل - عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لتبتعن سنن من قبلكم شيراً بشير وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» يعني فمن يكون غيرهم؟ والسنن: بضم السين جمع سنة والمراد: طرقهم ومناهجهم وسبل أفعالهم التي ابتدعوها من تغير دينهم. وفي نسخة بفتح السين أي: على منوالهم وطبق حالهم وشدة الموافقة لهم في عاداتهم. والمعنى - والله ورسوله أعلم - أنهم الغالبون المشهورون من بني إسرائيل فإذا أطلق "مَن قبلكم" فهم المراد لأن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة فكان غيرهم من الأمم كلا شيء في الاعتبار عند الإطلاق كما دل عليه اللفظ النبوي "مَن قبلكم" فالمراد بهم: يهود ونصارى بني إسرائيل كما جاء في مصنف عبد الرزاق ومسند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «لتبتعن سنن بني إسرائيل شيراً بشير وذراعاً بذراع حتى لو دخل رجل من بني إسرائيل جحر ضب لتبعتموه فيه» وقال مرة: «لتبعتموه فيه» ونحوه في الحديث عند الترمذي: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الخالقة لا أقول

تخلق الشعر ولكن تخلق الدين» وهذا يشير إلى استتباع اليهود والنصارى! والسلامة من هذا الداء متابعة نص الحديث النبوي وما يحمله من معالجة: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يُثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم» وهذا يتضمن سلامة القلب من الغل والحقد والحسد وسائر الأمراض. وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى بني إسرائيل حدو النعل بالنعل» وهذا كناية عن شدة الموافقة لهم في أمور الديانات التي ابتدعوها بأصولها وفروعها، لا في ظاهر الكفر الذي وضعوه لفارس والروم، كأنه قيل: متبوعون في كل أمر وأنتم تقتفون آثارهم وتتبعونهم فيما أحدثوا لكم من الأمور والبدع والأهواء كما اتبعتهم فارس والروم في العوائد والعقائد التي اختلقوها لهم، يؤيد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في باب قول النبي ﷺ: "لتتبعن سنن من كان قبلكم" حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع» فقول: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك؟» وفي رواية الأصيلي: «بما أخذ القرون قبلها» وفي رواية الإسماعيلي: كما فعلت فارس والروم؟ والمعنى: لا تقوم الساعة حتى تسير أمتي بسير بني إسرائيل كما وقع لفارس والروم أو أن بني إسرائيل سنّوا في الفرس والروم عوائد ليغزوا بها أذهان المسلمين حيث سادت في هذه المرحلة عوامل التأثير الانفعالي بحضارة المادة في الغرب بعد ظهور الثورة الصناعية! ومفهوم الحديث يدل على اتباع عوام أمته ﷺ سنن بني إسرائيل كما فعلت الأمتان المشهورتان لأن مُلك البلاد منحصر في بني إسرائيل وجميع من

عداهم من الأمم تحت حُكمهم، وهو مما فهمه البخاري إذ خرجه في باب: ذكر بني إسرائيل. وكانوا يقولون إنما يعلمه جبر الرومي وهذه شنشنة قديمة فيهم إذ يصرفون الآيات النازلة فيهم إلى أتباعهم تمشياً مع خدعهم ومكرهم! والخلاصة أنهم ليسوا تبعاً للغرب كما يتبادر إلى أذهان العموم بل الغرب تبعٌ لهم - والله ورسوله أعلم - والاتباع هو شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه وشأن المحكوم مع الحاكم، فالناس على دين ملوكهم، والمغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وشرعته ومنهجه ونحلته وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه لا سيما إذا تظاهر بدين الله تعالى بما وقر عندها من تعظيمه، وأحياناً تنقاد النفس للغالب لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لصحة دين الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت عقائد ومذاهب الغالب وتشبّثت به فذلك هو الاتباع وهذا راجع للأول. وفي الحديث إيماء إلى أن الأمة سوف تكون تحت سلطان بني إسرائيل، ولما تمكنوا في القرون الماضية من التحكم في الروم والفرس استخدموا هذه الأمم في تحطيم دولة الإسلام! وسنّوا في المجتمع الأوروبي عوائد ليغزوا بها أذهان المسلمين! ولا يخفى أن الروم قامت ثورتها بعد اللقاء مع الحفاة العراة وأخذت حظها من ذلك التقسيم، ومثلها فارس التي تشمل بلاد ما وراء النهر، وبذلك أضحت الدولة العثمانية مسرحاً للدُمى الأوروبية والروسية التي تتحرك وفق إرادة قرن الشيطان مما أدّى إلى إضعاف الدولة من خلال إشراكها في تحالفات وحروب سياسية وخداع بعض الولاة وتغريهم بالوعود والعهود الكاذبة وتم هدمها من الداخل من خلال منظمات سرية تخريبية أساءت إلى الدولة ونشرت فيها الظلم على نطاق كبير مما ساهم في إشعال ثورة عربية بدأت في الحجاز سنة

1916م وتم نقض الحكم سنة 1924م ثم قبض العلم وعُزلت المنهجية النبوية الأبوية عن مواقع التربية والتعليم لضمان صناعة جيل الخدمات وتم قتل الكثير من العلماء حتى أن عميلهم أتاتورك قتل في يوم واحد خمسة آلاف رجل عالم وقد أشارت جملة من الأحاديث إلى ذلك ففي مسند الفردوس من حديث ابن عباس يرفعه: «يأتي على الناس زمان يُقتل فيه العلماء كما تقتل الكلاب فيا ليت العلماء في ذلك الزمان تحامقوا» وفي مسند الشاميين للطبراني: «يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم» وقد برزت هذه الظاهرة بعد سقوط الدولة العثمانية وتم تقسيم الأرض وترسيم حدودها. روى الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» وعليه فإن قتال الفرس والروم الذي نراه اليوم هو من قبيل قتال المباشر والله أعلم، أي: العدو الذي يباشر القتال بأمر سيده حسبما ينبئ عنه قوله سبحانه (وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) ونحوه ما جاء في صحيح الإمام مسلم: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها» ومعناه أن بني إسرائيل مستولون على البلاد فيمنعون حصول ذلك للمسلمين، والإشارة هنا إلى الخراج على نحو ما جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لم تحتبوا ديناراً ولا درهماً؟ ومعنى الحديث: منع الجزية والخراج لغلبة العجم والروم - شركاء بني إسرائيل - على البلاد كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: يوشك أهل العراق أن لا يُجى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذاك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجى إليهم دينار ولا مدي، قلنا من أين ذاك؟

قال: من قبل الروم... الحديث. ويُشاكل هذا الحديث الشريف قوله صلوات الله وتسليماته عليه كما في مسند البزار: «يوشك أن يملأ الله أيديكم من العجم ثم يجعلهم أسداً لا يفرون يقاتلون مقاتليكم ويأكلون فيئكم» وهذا الأمر واقع مشاهد لا ينكره أحد فإن بني إسرائيل حركوا جيوش شركائهم بعد استحكام أمرهم لغزو ديار المسلمين وتداعوا بدول الاستعمار على الأمة المسلمة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها - بسبب فقدان الحكم والعلم - وقد أخبر ﷺ عن ذلك في الخبر عند أبي داود عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ، قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» والغثاء: الأعواد الصغيرة من النبات التي تنحدر مع السيل متفرقة كل واحد لوحده، أي تكونون - بسبب غياب خليفتم - متفرقين مشتتي الآمال، ضعيفي الحال، خفيفي البال، وتُنزع بسبب ما ييسط عليكم من الدنيا المهابة والخوف والرعب من صدور عدوكم - والله ورسوله أعلم - إنها مؤامرة مدبرة ومكر مبيت ولكن الضحايا لا يعلمون عنه شيئاً سوى التصفيق والتأييد لحملة القصعة الدسمة رجاء الحصول على فتاتها المتناثر! وقد أمر ﷺ باعتزال العامة - لاتباعهم سنن من قبلهم - والإقبال على الخاصة كما جاء في الفتن لنعيم بن حماد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كيف بكم وزمان يغربل الناس غربلة تبقى حثالة من الناس فإذا كان ذلك فخذوا ما تعرفون وذروا ما تنكرون وأقبلوا على أمر خاصتكم وذروا أمر العوام» وفي رواية للطبراني: «عليك بما تعرف ودع ما

تنكر وعليك بخويصة نفسك وإياك وعوامهم» وكفى عن أهل السند والمدد بالخاصة والخويصة - والله ورسوله أعلم - ومدلولات النصوص النبوية قسّمت مراحل الأمة إلى مرحلة الأحلاس ثم مرحلة السراء ثم مرحلة الدهيماء ثم مرحلة الصيلمة.

ونستخلص مما سبق أنه قد وقع على هذه الأمة وفشا في أعمالها وأحوالها على نظير ما كان عليه بنو إسرائيل في اختلافهم وغلبة أحوالهم وهو ما أشعر أولو الفهم بوقوعه فيهم بنحو ما في مضمون قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» يعني اليهود والنصارى الذين أتوا بفهوم عوراء وآراء باطلة تحريفاً للكلم عن مواضعه وإفساداً للكتاب والسنة وإنما قوي وكثر في هذه الأمة حال هاتين الملتين اليهودية والنصرانية وتمادى ذلك فيهم منذ تبدلت الخلافة ملكاً إلى أن تضع الحرب أوزارها وتصير الملل كلها ملة واحدة ويرجع الافتراق إلى ألفة التوحيد... فكل من قلد يهود ونصارى نجد في المنهج والعقيدة واستضاء بفهومهم واتبع رسومهم ففيه شبه منهم! وكذلك كل من اقتطع واقتصر من هذه الشريعة المحمدية حظاً مختصاً من ظاهر أو باطن ولم يجمع بينهما في علمه وحاله وعرفانه! وحيث ظهر البغي والحسد وتعظيم ما ظهر تعظيمه من الدنيا واستحقار ضعفاء المؤمنين والاقتصار على إصلاح ظاهر الأمر مع تضييع الباطن فهنالك أعلام يهودية ظاهرة! وحيث اقتصر من هذه الشريعة الجامعة المحمدية على باطن من إصلاح حال أو قلب مع تضييع ظاهر الأمر ومجامع الخير وتعاضد الإسلام فهنالك أعلام نصرانية ظاهرة! وذلك أن هذا الدين الجامع إنما يقوم بمعالم إسلامية ظاهرة ومعالم إيمانية في القلوب باطنة وحقائق إحسان شهودية، وقد التزم بمعالم الإسلام طوائف يسمون المتفقهة، والتزم بشعائر الإيمان طوائف

يسمون الأصوليين والمتكلمين، وترامى إلى الإحسان طوائف يسمون المتصوفه، فمتى كان المتفقه منكراً لصدق أحوال الصوفية لما لعله يراه من خلل في أحوال المتصوفة فقد تسنن بسنن اليهود، ومتى كان المتصوف غير مجل للفقهاء لما لعله يراه من خلل في أحوال المتفقه فقد تسنن بسنن النصارى، وكذلك حال المتكلم بين الفرقتين لأيهما مال، وإنما أئمة الدين الذين جمع الله لهم إقامة معالم الإسلام والإيمان الإحسان وجاهدوا الحفاة العراة أولياء الشيطان.

(إن علينا جمعه وقرآنه)

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي يعالج من التنزيل شدة وكان مما يُحرك لسانه وشفثيه فيشتد ذلك عليه ﷺ فأنزل الله تعالى الآية (لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه) قال: علينا أن نجمله في صدرك (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) فإذا أنزلناه فاستمع (ثم إن علينا بيانه) علينا أن نبينه بلسانك، قال: ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى» ومعنى ذلك كما جاء عن الحسن وغيره: كان النبي ﷺ في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن سارع جبريل القراءة أي أسرع للقراءة قبل أن ينتهي جبريل ولم يصبر حتى يُتمها مسارعة إلى الحفظ لئلا يتفقت منه شيء فلما نزلت الضمانة من الله تعالى بحفظه عليه لم يتسارع لذلك. وروى الطبراني من طريق الشعبي: «كان ﷺ إذا أنزل عليه القرآن عجل يتكلم به من حبه إياه» أي فكان ﷺ يتكلم بما يُلقى إليه أولاً فأولاً من شدة حبه إياه فأمره الله تعالى أن يتأني إلى أن ينقضي النزول. نعم إن السبب الأول في مسارعته للقراءة هو شدة حبه ﷺ للقرآن النازل عليه وتعشقه به وهذا مما

يحملهم ﷺ على الحرص والتحفظ به والمسارة لقراءته مخافة أن يتفلت منه شيء
فإن المحب الصادق حريص كل الحرص على محبوبه فالله تعالى تكفل لرسوله ﷺ
فأوجب على نفسه سبحانه أن يحفظ عليه هذا القرآن في صدره ﷺ فقال (إن
علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه) فهو سبحانه الكفيل
الضامن لحفظه عليه وبيانه له وكفى بالله كفيلاً وحفيظاً. وقال تعالى (ولا
تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً) والمعنى لا
تتعب نفسك بتلاوة القرآن الذي نوحيه إليك متعجلاً بذلك قبل أن يُقضى
إليك تبيانه فالله تعالى الذي يوحيه إليك هو يعلمك إياه نصاً وأداءً ومعنىً وبياناً
ويزيدك علوماً وعلومًا... والأمر بطلب المزيد من العلم بعد ذكر قصة بني
إسرائيل وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة يقتضي خفاء حالهم - والله تعالى
أعلم - ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم انفعني بما
علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من
حال أهل النار».

الفصل الخامس: حقيقة الشريعة

شرك الحكم وشرك العبادة

مفهوم الحكم ليس مما يفهمه العامة بل هو مختص بفهم المخاطب ومن شاء الله تعالى تفهيمه خصوصاً في هذا الزمان الذي ضاع فيه سلطان الأمة بالكلية فدخل المسلمون في سلطان المحتل الذي فصل بين العبادة والحكم أو بين الدين والسياسة فصلاً قاطعاً في حين أن الدين في شريعة الإسلام لب السياسة وقوامها، ووظيفة السياسة منوطة بحماية الإسلام والذود عن أصوله المقررة وحراسته من عبث العابثين وهجوم المغرضين، فالحكم هو أساس الدين وقاعدته وقوام دعوة الرسل وجميع الشرائع جاءت لحفظه وتحقيقه وصيانتة، ولهذا نجد المتكلمين يتحدثون في العقيدة عن الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته كما يتحدثون عن الخلافة والرياسة وقواعد الحكم، ونجد علماء الأصول أثناء تناولهم لأصول الأحكام ومصادر الشريعة يتناولون أيضاً الخلافة والحكم. وحتى نتصور ماهية شرك الحكم وشرك العبادة تصوراً دقيقاً ينبغي أن نعرف أصناف ومراتب البشر والذين ينقسمون إلى قسمين في جميع الممالك على مر العصور والأزمنة: حكام ومحكومون... متبوعون وأتباع... ملوك وشعوب... ملأ ورعاع... ومن السنن الثابتة في الأرض قيام سلطة ودولة تنتظم فيها التجمعات البشرية، والناس في هذه الدول طبقتان: حكام يمارسون السلطة، ومحكومون تمارس عليهم السلطة، وقد دأب الملوك على استعمال وسيلتين أساسيتين لإخضاع الشعوب: وسيلة قهرية سلطوية وهي الجند والعسكر والشرطة بمختلف تشكيلاتها، ووسيلة روحية تلقائية تتمثل في الدين، والملوك الظالمون يبذلون جهدهم في إبطال

الشرائع الإلهية لأنها تتعارض مع مصالحهم وتمنعهم من التسلط على رقاب العباد، لذلك يتواطأ الملوك والأباطرة مع الكهان والرهبان ليكيّفوا الشرائع وفق أهوائهم ويقنعوا الشعوب أن هذا هو الدين الحق فيخضع الناس للسلطة الروحية ولنظام الدولة طواعية، وصرفُ الشعائر التعبدية للأوثان هو من عمل طبقة المتبوعين من الحكام بالشراكة مع الكهان وبالتوافق على مضامين الشرك ومعانيه، وأما تظاهر أهل الكتاب الحاضرين بالتوحيد في جانب علاقتهم مع المسلمين فإنه من الحيلة والخديعة والمواربة والمماكرة لله تعالى في معاملته وعبادته وأصل الحيلة في شريعة الإسلام خديعة والخديعة نفاق والنفاق عند الله عز وجل أعظم من صراح الكفر قال الله عز وجل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وإنما كذبهم الله تعالى لأن إيمانهم بالله ليس بإيمان لأنهم يعتقدونه جسماً وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله وكذلك إيمانهم باليوم الآخر ليس بإيمان فلما قالوا آمنا بالله كان خبثهم فيه مضاعفاً لأنهم كانوا بقلوبهم يؤمنون به على ذلك الوجه الباطل وباللسان يوهمون المسلمين بهذا الكلام إنا آمنا لله مثل إيمانكم! فلهذا كذبهم الله تعالى فيه. روى أبو داود الطيالسي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة خب ولا خائن» ومعنى "خب" أي ذو مكر وخديعة أفلا ترى أن المنافقين أظهروا توحيد العبادة وألزموا أنفسهم التدين به حيلة بذلك وخديعة فأكذبهم الله تعالى فيما ادعوا بما أسروا وأبطنوا ورد عليهم كيدهم وخديعتهم بسوء اعتقادهم وإرادتهم غير الذي أمر الله به من خالص التصديق وصافي التوحيد واستعمالهم آلات الإيمان لغير ما أَرادها الله عز وجل وقد لعنهم رسول الله ﷺ باستعمالهم الحيلة

ومخادعتهم ربهم كما جاء في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» وهذا باب من الحيلة والخديعة وهو أفحشها وأقبحها وكل ما كان منها فمشبه بها ومنسوب إليها ومتشعب عنها. واعلم أن الشرك الذي عليه الحكام هو شرك الحَكَمِية والربوبية والألوهية ولذلك نجد أن خطاب الرسل للحكام والملا يدور حول تحقيق الألوهية والربوبية له تعالى، وأما خطابهم للأتباع فمداره حول قضيتين: الأولى: جهاد الحكام وعدم الخضوع لهم لأنهم معتدون على سلطان الله تعالى الذي استحقه بصفات الكمال والجلال (ألا له الخلق والأمر) فالخالق هو الذي يستحق أن يكون المتفرد بالسيادة والقهر والملك بجميع الأمر ومن ثم كان الحق كل الحق ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة أن الذي يخلق هو الذي يحكم لا غيره، والأخرى: نبذ أديانهم الباطلة ومناهجهم الزائفة ومعبوداتهم الزائفة التي لا تنفع ولا تضر، فدعوة الرسل هي حركة ثورية هدفها نزع الحكم من الأرباب الباطلة وإعادته إلى الرب الحق، وإخراج الناس من الخضوع للملوك والأرباب البشرية وإخضاعهم لملك الملوك، ولذلك نجد أن حرب الرسل والأنبياء كانت مع الملا وهذا المعنى ورد في آيات عديدة (قال الملا من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) (قال الملا الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) (قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) فالملا يحاربون أصحاب الحق أشد الحرب لأنهم يعرفون أن قيام دولة الحق تعني انهيار ملكهم، وقد قال الرجل العربي بفطرته وسليقته حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: هذا أمر تكرهه الملوك! وقال سيد الوجود وحبيب الرب المعبود لعمه أبي طالب: «يا عم، كلمة

واحدة تعطونهاها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» وفي التنزيل العزيز ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ والحكم هو الحاكم الذي لا يُرد حُكمه وهذه الصفة لا تليق إلا بالله تعالى فإن من أسمائه الحكم وقد غيّر رسول الله ﷺ اسم الحكم كما جاء في سنن أبي داود... والكلام في الآية الكريمة مسوق من جهته تعالى لتحقيق حقية الكتاب الذي نيط به أمر الحكمة، والحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم وهو مرتبط بقوله ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وهذا هو المقصود من السورة ابتداء من قوله ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ ونهاية بقوله ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فكان هذا الانتقال بمنزلة رد العجز على الصدر وما بينهما اعتراض نشأ بالتفريع والعطف والحال استدعاه تناسب المعاني وأخذ بعضها بحجز بعض تفنناً في الغرض. قال الإمام الألوسي في مقدمة رسالته سفرة الزاد: ختم الرسل عليهم السلام بأفضلهم وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم قبل هذه النشأة في أولهم. اهـ. وهذا واضح من قوله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» قال في "المقاصد": رواه أبو نعيم في "الدلائل" وابن أبي حاتم في تفسيره والديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً وله شاهد من حديث ميسرة الفخر، أخرجه أحمد والبخاري في "تاريخه" والبخاري وابن السكن وأبو نعيم في "الحلية" وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة: أنه قال للنبي ﷺ: متى كنت أو كتبت نبياً؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم

أيضاً وفي لفظ: «وآدم منجدل في طينته» وفي صحيحي ابن حبان والحاكم عن العرباض بن سارية مرفوعاً: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» وكذا أخرجه أحمد والدارمي وأبو نعيم ورواه الطبراني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وفي مصنف ابن أبي شيبة: «فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا نبي الله فتح الله بك وختم» وهذه النصوص شاهدة بأن روحه ﷺ أو حقيقته وجدت قبل غيره وهو ما يصطلح السادة الصوفية على تسميته بالنور الحمدي وليس مقصدهم بذلك جسده الشريف فإنه لا يخالف عاقل أن جسده الشريف ولد من أم وأب بعد أجساد جميع الأنبياء. والله ورسوله أعلم.

(والقرآن الحكيم) التعبير على هذا النحو يجمع الحكمة ما بين دفتي الكتاب الذي يحكم على معارضيه ويحكم على غيره من الكتب الإلهية بما فيه من التفصيل والبيان. واختيار وصف (الحكيم) من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن فيه مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة ما اشتمل عليه من براهين الحكمة التي بينها تعالى في هذه السورة بياناً لم يكن في غيرها بما وقع من التصريح في مطلعها، روى الدارمي في سننه في فضل يس عن الحسن قال: «بلغني أنها تعدل القرآن كله» ولما أقسم سبحانه بالقرآن الداعي إلى الحكمة جاء جواب القسم بقوله (إنك لمن المرسلين) مؤكداً هذا الخبر بحرف التأكيد ولام الابتداء ومعرضاً بالمكذبين، ونكتة هذا التأكيد زيادة التقرير لرد إنكارهم، والنكت لا تتزاحم، وهو رد عليهم حيث قالوا (لست مرسلان) عقيب إخباره بإنزال القرآن للحكم بينهم، فأقسم الله باسمه وكتابه: إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى طريق مستقيم لا انحراف ولا اعوجاج فيه، ومجيء النظم الكريم

بالجملة الإسمية يقتضي بأن الوصف المذكور دائم ثابت له ﷺ، لازم ذاتي لرسالته غير منفك عنه، وجاء التنكير في (صراط) للتفخيم أي على صراط لا يُكْتَنه وصفه، ولا صراط أقوم منه (على صراط مستقيم) والمقصود منه: الإيقاظ إلى حقيقة الإسلام بعد إثبات رسالته ﷺ والله أعلم، والغرض: العلم بأن الوحدانية هي الصراط المستقيم، والمحجوج المبهوت يُخفي القويم ويستعوج المستقيم.

خطاب الرسل لطبقتي الملا والشعب

نموذج إبراهيم عليه السلام

ذكر تعالى في سورة الأنعام حواراً مفصلاً دار بين إبراهيم وبين آزر وقومه، والذي عوّل عليه الجمل الغفير من العلماء أن آزر اسمٌ لعم إبراهيم، وجاء إطلاق الأب على العم في قوله تعالى (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) فذكروا إسماعيل بصيغة الأب وهو عمهم، وقد ذكر آزر مصرحاً باسمه في أول موضع في ترتيب المصحف في سورة الأنعام ثم أُهْمَ فيما يلي هذا الموضع لدلالته عليه، وعمُّ الرجل مثل أبيه لكونهما تشعباً من أصل واحد على نحو ما ورد عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الطبراني: «استوصوا بعمي العباس خيراً فإنه بقية آبائي وإنما عم الرجل صنو أبيه» وقد دعا إبراهيم لوالديه بعد موتهما بمدة مديدة وبعد براءته من عمه وهجرته وعمارته للبيت العتيق (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) فلو كان الهالك هو أبوه الحقيقي لم يصح منه ﷺ هذا الاستغفار له أصلاً فالذي يظهر أن الهالك هو العم الكافر المعبر عنه بالأب مجازاً، والتعبير بالوالد في آية الاستغفار وبالأب في غيرها إشارة إلى المغايرة، وفي صحيح مسلم: «إن أبي وأباك في النار» أراد

عمه أبا لهب. وقال الإمام السيوطي: أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فلم يستغفر له. وأخرج عن محمد بن كعب وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم قالوا: كان يرجوه في حياته فلما مات على شركه تبرأ منه. ثم هاجر إبراهيم عقب واقعة النار إلى الشام كما نص الله على ذلك في القرآن ثم بعد مدة من مهاجره دخل مصر واتفق له فيها مع الجبار ما اتفق بسبب سارة وأخدمه هاجر ثم رجع إلى الشام ثم أمره الله أن ينقلها وولدها إسماعيل إلى مكة فنقلهما ودعا فقال "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع" إلى قوله "ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب" فاستغفر لوالديه وذلك بعد هلاك عمه بمدة طويلة فيستنبط من هذا أن الذكر في القرآن بالكفر والتبري من الاستغفار له هو عمه لا أبوه الحقيقي فله الحمد على ما أهم، روى ابن سعد في الطبقات عن الكلبي قال: هاجر إبراهيم من بابل إلى الشام وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة فأتى حران فأقام بها زماناً ثم أتى الأردن فأقام بها زماناً ثم خرج إلى مصر فأقام بها زماناً ثم رجع إلى الشام فنزل السبع - أرضاً بين إيلياء وفلسطين - ثم إن بعض أهل البلد آذوه فتحول من عندهم فنزل منزلاً بين الرملة وإيلياء، وروى ابن سعد عن الواقدي قال: ولد لإبراهيم إسماعيل وهو ابن تسعين سنة، فعرف من هذين الأثرين أن بين هجرته من بابل عقب واقعة النار وبين الدعوة التي دعا بها بمكة بضعاً وخمسين سنة. اهـ. وقد ورد في الحوار لفظ الأصنام **(أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً)** وقد عبدوها بأمر الشيطان فكأنهم عبدوه! وذكر ابن الجوزي عن ابن عباس أنه قال: «في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم» وهنا مسألة لا بد منها وهي أنه ليس دين عبدة الأصنام كون الصنم خالقاً

للسماء والأرض وإنما كان لهم فيه تأويل وقد ذكر الإمام الرازي عن أبي معشر أن السبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان! وقد ورد في آية العنكبوت لفظ الأوثان **(إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً)** والوثن كما قال صاحب لسان العرب: كل ما له جثة معمولة، والصنم الصورة بلا جثة. وفرّق بعضهم بين الصنم والوثن فالصنم ما صُنِعَ على مثال حي، أما الوثن: ما كان على غير ذلك من شجر وحجر خام لم يشكل أو يعالج. وفي سنن أبي داود أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية، قال **«لصنم»**: قالت: لا، قال: **«لوثن»** قالت: لا، قال: **«أوفي بنذرك»**. وقد يطلقان على كل ما عبد من دون الله، وعبر القرآن عن هذه الألفاظ بصيغة العاقل كقوله تعالى **(فجعلهم جذاذاً)** فالصور والتماثيل ترمز إلى ملوك تستموا ذروة الربوبية، وكان قوم إبراهيم يعتقدون بعقيدة الحلول فإذا مات عظيمهم حلت روحه في كوكب! ومن تلك الكواكب: مثرى والزهرة والشعري، ولما رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنماً ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها، وكانوا يُصوِّرون الصالحين ويدعون إلى عبادتهم! ثم شابه بنو إسرائيل الامبراطوريات الحاكمة في عقائدها وبالغوا في تعظيم الملائكة والنبين فصوروا لهم الصور، وبنوا على قبور النبين والصالحين المساجد والكنائس داعين إلى عبادتهم واصفين الله تعالى بالحلول والاتحاد فيهم. والاستفهام في قوله **(وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة)** إنكار لأفعاله وكشف لأستاره وأحواله، وإذا كان إبراهيم عليه السلام صاحب الحنفية الأولى فلا بد من البحث في

إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام والكواكب بها، ولا بد من تحديد معنى الأصنام وتمثل صورها المتجددة مع الأتباع والرعايا، وصورها مع الملوك والحكام الذين أدخلوا التحريف على الحنيفية وزعموا أتباعهم ملة إبراهيم وقد أخطئوها، والآيات تربط بين الرؤية الصحيحة للكون وبين التوحيد! والحفاة العراة لم يُشَوِّهوا التوحيد فحسب بل أقاموا النظريات العلمية على الخدعة وغيرُوا خلق الله وصورُوا الأرض والسموات بشكل مُشوَّه لا يليق بالكمال الإلهي! والنظم الجليل يربط بين شرك العبادة الذي قام عليه شرك الحكم وبين توحيد الربوبية وبين الرؤية الصحيحة للكواكب ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي﴾ وهو سؤال إنكاري واستفهام تعجبي يدحض الرؤية التجسيمية التي يعتقدونها والمخوسية التي كانوا عليها، وعند ما تكون رسالة إبراهيم قد بدأت من تخوم التساؤلات فإن هذه البداية تتضمن الحنيفية التي بدأت من التساؤل المطلق أمام الحقائق الكونية ورفض القبول المسبق الخالي من التمحيص والبحث! ويبدو أن هذا الحدث كان في أعيادهم التي يجتمعون فيها في أيام وليالي تتعلق بظهور تلك الكواكب فلما ظهر الكوكب قال إبراهيم مستفهماً مستنكراً ﴿هذا ربي﴾ واللفظ في صوته ولحنه يشرح معناه ويترك للقلم البيان، والتعرض لوصف الربوبية للإيدان بكمال قبح ما ارتكبه من الإشراك، وقد ردَّ إبراهيم عليه السلام على قومه بكلمة معجزة بليغة برئ فيها من ربوبية الطواغيت بأسلوب الداعية الحكيم اكتفى فيه بفهم المخاطبين على وجه لا يورثهم مزيد غضب إذ قال ﴿لا أحب الأفلين﴾ لأن الكوكب إذا زال نوره وذهب سلطانه يصير كالمعزول ومن يكون كذلك لا يصلح للإلهية، ثم تدرج معهم في حسن الخطاب إلى التعريض بضلالهم ﴿لئن لم يهديني ربي لأكونن من

القوم الضالين) والتعريض أبلغ بالمعرض به من التصريح وأوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لانقياده وأدعى إلى التنبه على الخطأ الذي عليه... ثم تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء إلهيته، وقوله للشمس مستفهماً على جهة الإنكار (هذا ربي هذا أكبر) باسم إشارة المذكر مع أن الشمس تجري مجرى المؤنث لأنهم اعتبروها رباً وكانوا يقولون بالحلول أي حلول روح زعيمهم الأكبر فأنكر عليهم ذلك واستخدم السؤال ليكون وسيلة لهدم أوثان الفكر الذي تعششت في العقول! فنبّه الأتباع على الخطأ وأرشدتهم إلى طريق النظر والاستدلال، ثم واجه الأتباع والمتبوعين في المرة الثالثة بعد أن برئ منهم بصريح العبارة لأن عقيدته واضحة صريحة لا تقبل التميع والمداهنة (قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) وهذه المفارقة والمباينة والقطيعة والمواجهة هي العدو اللدود لمن يحترفون المراوغة ويدينون بالتقية ويجيدون ترويض البشرية وتطويع النصوص الشرعية! وواجب المسلمين أن يواجهوهم ويجادلوهم بالأحسن من تهجين دعوتهم وتبيين عقيدتهم وتوهين شبهتهم أسوة بإبراهيم (وحاجه قومه قال أتأجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون) أي شرعوا في مغالبتهم في أمر التوحيد تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد وأخرى بالتهويل والتهديد فأجاب بأنه لا جدوى لمحاكتهم إياي بعد أن هداي الله إلى الحق وكشف لي ما أنتم عليه من الشرك وفيه إشعار بنفاقهم ويؤكد عطف قصته على ما قبلها من أحوال أولياء الشيطان أهل النفاق (قل أئندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته

الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴿١﴾ ولما كشف تعالى في سورة التوبة عن نفاق المستخلفين ونهى عن الاستغفار لهم، أشار إلى نفاق آزر وإخلافه الوعد الذي هو صفة المنافقين فقال ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ وذلك أنه كان وعده أن يترك عبادة الآلهة فسأل الله له المغفرة ولم يعلم نفاقه ثم تبين له ذلك وكما دل عليه قوله بعد ذلك ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ أي تبين له أنه منافق محكوم بشقاوته مقضي بغوايته، ويرشحه ما أخرجه ابن المنذر في تفسيره بسند صحيح عن سليمان بن صرد قال: لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار جعلوا يجمعون الحطب حتى أن كانت العجوز لتجمع الحطب فلما أن أرادوا أن يلقوه في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل فلما ألقوه قال الله "يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم" فقال عم إبراهيم: من أجلي دفع عنه فأرسل الله عليه شرارة من النار فوقعت على قدمه فأحرقته. وأما قوله ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ فإنه تمنى له المغفرة باستدعاء سببها وهو أن يوفقه الله للتوبة ويهديه إلى الإيمان كما يلوح به تعليل قوله ﴿واغفر لأبي﴾ بقوله ﴿إنه كان من الضالين﴾ فإن القصد بالاستغفار الإقبال به إلى الإيمان الموجب للغفران، قال الإمام الماتريدي: أي أعطه السبب الذي به يستوجب المغفرة وهو التوحيد، كان سؤاله سؤال التوحيد إذ لا يحل طلب المغفرة للكافر. والاستثناء في قوله ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ منقطع في معنى الاستدراك... ولما خوفوه بطش شركائهم في الحكم أظهر مزيد ثقته بالله وعدم مبالاته بهم ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون، كيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم

بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون،
الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) والأمن هو
المطلب المفقود الذي يدندن حوله أهل الكتاب وينشدونه ولا يجدونه فالحمد لله
الذي أنعم علينا به حمداً يليق بجلاله وعلو شأنه لا رب غيره ولا يرجى إلا
خيره. ومعنى يلبسوا أي يخلطوا وهو هنا مجاز في العمل بشيئين متشابهين في
وقت واحد واللبس من صفات المنافقين، والكلام تبكيت لهم ويجوز أن يكون
مستأنف من الله تعالى لابتداء حكم فتكون الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً
تصديقاً لقول إبراهيم عليه السلام. وفي ذكر هذه القصة تورك على الحفاة العراة إذ
كانوا على الحالة التي نعاها جدهم إبراهيم على قومه وكفى بذلك حجة عليهم.
وقال المفسر الأعظم رحمه الله في تفسير الآية كما رواه الإمام البخاري في صحيحه
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليس بذاك ألم
تسمعون إلى قول لقمان لابنه إن الشرك لظلم عظيم» وكما أن الشرك هو الظلم
العظيم فإن التوحيد هو العدل القويم كما قال حبر الأمة في قوله تعالى (إن الله
يأمر بالعدل) قال: «شهادة أن لا إله إلا الله» وهذا تفسير لأول ما يتناوله العدل
فإن التوحيد أعاد العدل وعنه تتفرع فصول العدل. وفي سورة الصافات يجيء
التساوق بين قصة نوح وإبراهيم (وإن من شيعته لإبراهيم) فإبراهيم من شيعة
نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ولكنه المنهج الإلهي الواحد
الذي يلتقيان عنده ويشتركان فيه (إذ جاء ربه بقلب سليم) وفي الحديث عند
أحمد والبيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل
قلبه سليماً ولسانه صدوقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة» والتعبير بالسلامة

يوحي بالاستسلام الخالص في تعلقه بمولاه، وذلك حين فاصلهم ثم واجههم متوكلاً على مولاه، معلقاً قلبه بالله وحده ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَتُنْفِكُوا آلِهَةَ دُونِ اللَّهِ تَرِيدُونَ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو استفهام أريد به التوعد والإنكار والتوقيف على الخطأ، أي فما ظنكم بكنه الربوبية؟ فإنكم جاهلون الصفات التي تقتضيها وفي مقدمتها الوجدانية في الحكم، فإبراهيم رجل في أمة... واحد أمام أمة... فرد يواجه أمة بجيوشها وأزلامها ومطارقها ونيرانها... يواجه الأتباع في عبادتهم، ويزلزل السادات في ربوبيتهم، ويحرض الشعب بأسلوب عميق التأثير يخاطب الفطرة ويوقظ الضمير ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ، فَأَقْبَلُوا - أَيِ الْأَعْوَانِ - إِلَيْهِ يَزْفُونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، قَالُوا - أَيِ الْأَعْيَانِ - ابْنُوا لَهُ بَنِينَ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ وقد حُكي نظير ذلك في سورة الأنبياء ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أي آتيناه رَشْدَهُ من قبل أن نؤتي موسى وهارون الفرقان، ووجه ذكر هذه القبلية التنبيه على وحدة الصُّحف ووحدة المواجهة - والعكوف للتماثيل لكن القلوب تتجه للأشخاص التي ترمز إليها - وقد واجه إبراهيم صنفين من الناس، الأول: المتبعون المستخلفون في الأرض ﴿أَتُنْفِكُوا آلِهَةَ دُونِ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ أي أتريدون آلهة في الحكم من دونه إفكاً. والآخر: الأتباع المستعبدون ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي آلِهَتِهِمْ في العبادة... فأجابوه بالتقليد الذي يوجب مزيد النكير وأنه فعل آبائهم اقتدوا به من غير ذكر برهان، وما أقبح هذا التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند

لجوج! وكان سؤاله إياهم عن عبادتها وغايته أن يذكرُوا شبهة في ذلك فيبطلها، فلما أجابوه بما لا شبهة لهم فيه وبدأ ضلالهم فلا جرم أجابهم بقوله ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ فحكم بالضلال على الأعوان والأعيان وبين لهم فساد التقليد وأن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به، وكانوا يستبعدون أن يجري مثل هذا الإنكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمعتقدهم، فلما حَقَّق ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصاً ورأوه ثابتاً على الإنكار فعند ذلك قالوا له ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ وعُدل عن الإخبار عنه بوصف لاعب إلى الإخبار بأنه من زمرة اللاعين مبالغة في توغله في ذلك بحيث يكون قائله معدوداً من الفريق الموصوف باللعب، وجاء هو في جوابهم بالإضراب عن قولهم وعُدل إلى بيان التوحيد ﴿قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن﴾ والضمير في فطرهن للآلهة العاقلة المرموز إليها بالتماثيل والأصنام وهذا أظهر في إلزام الحجة عليهم وأدخل في إضلالهم، وجوابه عليه السلام وارد على الأسلوب الحكيم، وكان من الظاهر أن يجيبهم بقوله: بل أنا من المحقين فجاء بقوله ﴿بل ربكم رب السماوات والأرض﴾ لينبّه به على أن إبطالي لما أنتم عاكفون عليه مما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل ولكن انظروا إلى هذه الشنيعة الشنعاء وهي أنكم تتركون عبادة ربكم ورب السماوات والأرض الذي فطر آلهتكم وتستغلون بعبادتها دونه، فأَيُّ باطل أظهر من ذلك وأَيُّ ضلال أبين منه؟ وعنى بقوله ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ الذين شهدوا بتوحيد الله في الحكم والعبادة، وأكد أنه قادر على إثبات الحكمية بالحجة القطعية وأنه ليس مثلهم في العجز عن إثبات الدليل بالحجة القطعية، وانتقل إلى ذكر إشراكهم بالعبادة وأكد للأتباع أنه قادر على تقطيع صور آلهتهم وتحطيم أصنامهم ﴿وتالله

لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون﴾ وفيه إيماء إلى أنه ﷺ احتال لهذا الأمر مع صعوبته ليحتاطوا في الحفظ فيكون الظفر المطلوب أتم في التبكيت، وكان هذا منه ﷺ عزماً على تنبيه الأتباع والإرشاد إلى ضلالتهم بالطريقة الفعلية ﴿قالوا - أي الأتباع - من فعل هذا بالهتتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا - أي الرؤساء - فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا - يعني الأتباع - أنت فعلت هذا بالهتتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوههم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، قالوا - أي الرؤساء - حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ وأراد إبراهيم ﷺ أن يستفيق الأتباع من غفلتهم ويثوبوا إلى رشدهم ليثوروا على السلطان الأرضي الذي قرّر عبادة الأصنام في المجتمع وجعل لها قيمة روحية كي يستعبد الأتباع ويغرقهم في وحل شرك العبادة، في الوقت الذي تسنّم فيه ذروة الربوبية! ومن وقف على هذه النكتة البديعة عِلِمَ اشتمال القرآن على أسرار عجيبة في تنزلات الخطاب غفل عنها الأكثرون! وقوله ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يؤوّل بأنه أسند إليه لأنه هو السبب لذلك وإسناد الفعل إليه من أبلغ المعاريض، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه، وإن شئت قلت بأن إبراهيم ﷺ قصد تقرير الفعل لنفسه على أسلوب تعريضي وليس قصده نسبة الفعل إلى الصنم، أو يوقف عند لفظ: فعله، أي: فعله فاعله، وكبيرهم هو ابتداء الكلام، أو هو مشروط بقوله: إن كانوا ينطقون ومعناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم

هذا، وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها. روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي ﷺ قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة» قال الماوردي: يؤول ذلك بأنه كذبٌ بالنسبة إلى فهم السامعين أما في نفس الأمر فلا. وفي نهاية المطاف يعلن إبراهيم ﷺ متاركة المشركين ومفارقة للمتبوعين والتابعين الذين أجمعوا على إحراقه فأنجاه الله من النار (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) أي مهاجر إليه تعالى، وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين وتوحيد رب العالمين، وإبراهيم ﷺ هو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق، جادل أهل الشرك وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة، وهو صاحب الحنفية الأولى وأول خصال الحنفية: الهجرة في سبيل الله ومتاركة المشركين، ولما زعم أهل الكتاب أنه منهم كذبهم الله تعالى بقوله مثبتاً له الحنفية (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) وكل من كان على دين الحق مخالفاً لدين الباطل فهو أمة وحده، وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال في زيد بن عمرو بن نفيل: «يأتي يوم القيامة أمة وحده» ولما كاد الملائكة بإبراهيم وغالبوه بالجدال لقنه الله تعالى الحجة المبكّنة، وذلك قوله (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) ثم عدلوا القوة والجبروت وثوروا عليه الأتباع وأجمعوا رأيهم على إحراقه فحقق الله له المعجزة وخمدت كل نار في الأرض وحينها آمن الناس وثاروا على ملوكهم وانقلب الأمر عليهم، وذلك قوله (فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين).

نموذج موسى عليه السلام

أرسل تعالى موسى إلى فرعون وناداه بالواد المقدس ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتحشى، فأراه الآية الكبرى، فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى﴾ أي نادى في الجمع أنه أعلى كل علاء قدرة وسلطاناً أي الحاكم الأعلى يعني على كل من يلي أمرهم من رؤساء العالم! أراد أنه صاحب السلطة العليا في الأرض وأنه الحاكم المسيطر الذي يسيّرهم كما يشاء فيتبعونه بلا معارض! وهذه الربوبية على هذا الواقع حَكَمِيَّة كما يفيد المدلول اللغوي فالرب هو الذي ينفذ حكمه فيهم، وفرعون لم يدّع أنه خالق هذا الكون ومدبره إنما كان يدّعي الحَكَمِيَّة! وأما ناس تلقوا التشريع والنظام من بشر وأطاعوه فقد عبدوه كما بيّن صاحب البيان عن القرآن معنى الآية ﴿اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ لعدي بن حاتم. وقد ورد نظير ذلك في الحديث عند الإمام أحمد: «إن من ورائكم الكذاب المضلل وإن رأسه من ورائه حُبْكُ حُبْكُ وإنه سيقول: أنا ربكم، فمن قال: كذبت لست ربنا ولكن الله ربنا وعليه توكلنا وإليه أنبنا ونعوذ بالله منك، قال: فلا سبيل له عليه» وقد علا فرعون في الأرض واتخذ شركاء من دون الله لينازع بهم سلطان الله في الأرض كما أشارت الآية ﴿وقال المأ من قوم فرعون أئذّر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك﴾ والمعنى كيف يكون الجمع بين ترك موسى عليه السلام وقومه مفسدين في الأرض وتركهم طاعتك وترك المبالاة بشركائك أي لا يمكن وقوع ذلك، والإفساد عندهم هو إثبات التبعية لرسولهم وإبطال عقائدهم! وآلهة فرعون هم آلهة المستخلفين الغابرين وعلى رأس الآلهة: الشيطان الذي كان فرعون يخلو إليه في

السر كما أشارت الآثار فقد روى الطبري عن الحسن قال: كان لفرعون إله يعبد في السر. وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان فرعون له آلهة يعبدونها سرّاً. اهـ. والكلام في الآية لا يقتصر على آلهة الحكم فإن فرعون كان قد قرر آلهة في العبادة واستخف بعقول أتباعه وجعل لهم بقرّاً يعبدونها وكان يقول لهم: هؤلاء أربابكم الصغار وأنا ربكم الأعلى! وقُرئ في الشاذ "ويذكرك وإلاهتك" قال الزجاج: المعنى ويذكرك وربوبيتك. وفي الجانب الآخر كان يدعي ديانة التوحيد كما جاء في الكتب المصرية القديمة! وقول فرعون ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ هو ردُّ على قول موسى ﷺ ﴿هل لك إلى أن تزكي، وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ كما أن قوله ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ ورد عقب مجيء موسى بالبينات وامتناعه ومن اتبعه بالآيات ﴿ونجعل لكم سلطاناً فلا يصلون إليكم بآياتنا أنتم ومن اتبعكم الغالبون، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ والمعنى على التقديم والتأخير أي نجعل لكم سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكم أنتم ومن اتبعكم الغالبون فلما لم يصلوا إليهم ولم يستطيعوا البطش بهم نسبوا ذلك إلى السحر وجانبوا الصواب وعاكسوا الحقيقة وصرفوا الرصد العلوي إلى الرصد السفلي! وفي كلام موسى ﷺ تفويض إلى ما سيظهر من نصر أحد الفريقين على الآخر وتعريض بالوعيد بسوء عاقبتهم وهو الأمر الذي استفز فرعون! ولما كان فرعون قد تظاهر بالديانة التوحيدية صح أن يقول موسى ﷺ: ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعاً والله در القائل:

وإذا البينات لم تغن شيئاً ... فالتماس الهدى بهن عناء

ويبدو أن فرعون عجز عن الحجاج بعد ظهور دعوة موسى واستجابة النفوس إليه حسب فطرتها فأعلن اللعين جيروته مديراً في دفع موسى معلناً للناس فساد دعواه متغافلاً عن هذا التوحيد لخبثه ومكره ملقياً إلى الجهال نفي الدعوة من أساسها على حد قوله تعالى ﴿وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ ويروى أن اللعين قال: حتى أشاور هامان، فشاوره فقال له هامان: أبعد ما كنت ربّاً تكون مربوباً؟ وبعد ما كنت ملكاً تكون مملوكاً؟ فكذب فرعون عند ذلك وعصى وجمع الناس ونادى فيهم بالكفر! والملاحظ أن ادّعاءه الربوبية كان عاماً وادّعاءه الألوهية كان خاصاً للملأ وهم أشراف دولته ورؤساؤهم الذين حضروا عنده. وفرعون وهامان "قرنا الشيطان" كانا قد وضعنا لبني إسرائيل الديانة التوحيدية ومنهاج العقيدة في صورة مشوّهة فهوّتها نفوسهم وأشربت محبتها قلوبهم وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها ولهذا كانوا أشدّ تعنتاً على موسى وأكثر اختلافاً عليه إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم ذلك المنهج بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب، وما آمن له في أول أمره إلا فتية على خوف من فرعون وأشراف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم! ولذلك أردف تعالى بذكر العلو في الأرض والإسراف في إفساد عقول بني إسرائيل وخداعهم والاستهزاء بهم وسفك دمائهم! وقد بلغ مُلك فرعون مشارق الأرض ومغاربها حتى قال لهامان على سبيل التهكم وهو دليل على التعظم والتجبر ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ وجاء أمر هامان وهو كاهنه ببناء الصرح عقّب تذكيره برسالة موسى ويوسف وجداله في آيات الله! ونظير هذا

قوله تعالى ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهايمان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾ وفي هذا دلالة على أن الفراعنة القدامى كالجُدُّ يقولون بالتشبيه ويزعمون أنه تعالى جسم مُصَوَّر وجوهر محدد مقدَّر يحيط به الجهات حسبما تفيده الآية الكريمة ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبيراً﴾ أي علوا علواً كبيراً ومعلوم أن الكبر والخيلاء ورد في حق الفدادين أهل قساوة القلوب! والإيقاد على الطين مجاز في الإنشاء أو أن فرعون لم يبن صرحاً وعلى هذا يكون أمره ذلك للتلبس على قومه فإن الحاضرين لم يبلغوا معشار المتقدمين في القوة والحضارة! ولما كان القوم الذين خوطبوا بهذه اللغة أعرف الناس بسعة مذاهبها وانتشار أنحائها جرى خطابهم بها مجرى ما يألّفونه ويعتادونه منها وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعاداتهم في استعمالها. وقد اتخذ الفراعنة القدامى آلهة وشركاء في بقاع الأرض يديروهم حيث شاؤوا ويريدونهم على ما شاؤوا، ومُكِّنُوا في الأرض تمكيناً لم يمكنه الله سبحانه للفراعنة الجُدُّ كما حكى تعالى ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ وقال سبحانه ﴿كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾ وقال عز وجل ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ وقال تعالى ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ ولفظ الأولاد مستعمل مجازاً في الأتباع. والآيات استخلاصٌ

لموعظة هؤلاء بمن قبلهم ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك أولئك الذين جحدوا بآيات ربهم واستهزؤوا بها وبوعيده قادر على إهلاك من هم دونهم في القوة والعدد. ولما كان التكذيب بالربوبية هو الأمر المتوارث بين الغابرين نَبَّه تعالى عبده موسى وناداه بالنهوض بتحقيق الربوبية ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ملك العالمين المدير أمورهم والمتصرف فيهم ومالكهم فهم مملوكون له وسيدهم فالكل عباده، وقد أنكر فرعون هذه الربوبية الجامعة لمعاني الإسلام وأصوله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو سؤال المتنكر لتوحيد الربوبية، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور لأنه صَوَّرَ للناس أن الربوبية لا علاقة لها بالحكمة! وينتقل التاريخ وتنتحل الدولة الجديدة أساليب الدولة الماضية وتنسى حوادث الماضي وتغلب على مخيلات الناس الحالة الحاضرة، وبهذا يتضح باعث فرعون على هذا السؤال الذي ألقاه على موسى وهو استفهام مشوب بتعجب وإنكار على طريق الكناية، ومن دقائق هذه المجادلة أن الاستفسار مقدَّم في المناظرات ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أرسل موسى ﷺ وكان جواب موسى ﷺ بياناً لحقيقة صاحب الربوبية بما يصير وصفه برب العالمين نصاً لا يحتمل غير ما أراده من ظاهره، فأتى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ وضمير الجمع في ﴿كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ مراد به ملأ فرعون، ولذلك استثار فرعون نفوسهم فاستفهمهم استفهام تعجب من سكوتهم على كلام موسى ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وهذا أمر منكر عند فرعون لا يصح السكوت عليه لأنه كان يرى نفسه صاحب السلطة العليا، ولكون خطاب فرعون لمن حوله يتضمن جواباً عن كلام موسى حُكي كلام

فرعون بالصيغة التي اعتيدت في القرآن حكاية القول، وكلام موسى **(قال ربكم ورب آبائكم الأولين)** إعلان حرب على مُلك فرعون وآبائه المقدسين وإبطال لدعوى وراثته الربوبية، ولذلك احتدّ فرعون زاعماً أن ذلك ضرب من الجنون لا يصدر إلا عن مختل العقل **(قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون)** ولما رأى موسى سوء الردّ انتقل إلى الاستدلال بالعوالم العلوية **(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون)** ليفيقوا من سكرة السلطة ويعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال أي إن كنتم تُعملون عقولكم، ومن اللطائف جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون لأن الجنون يقابله العقل فلما رأى موسى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول وعارض قول فرعون معرضاً **(إن كنتم تعقلون)** أي فلا تكونوا أنتم المجانين! ولما لم يجد فرعون لحجابه نجاحاً ورأى شدة شكيمة موسى في الحق عدل عن الحجاج إلى التهديد ليقطع دعوة موسى من أصلها **(قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين)** وهكذا المبطل ينصرف عن الجدل إلى الوعيد إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح فلم يكن أحد أبغض إليه من الحق ولم يبق له مفرّج إلا مناصبته. إنّ إعلان ربوبية الله للعالمين لم يغيب عن فرعون وملئه أنه يحمل في طياته كشف عدوانهم وطغيانهم، وهدم ملكهم، وقلب نظام حكمهم، وزوال دولتهم! فهل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوة الخطيرة؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وسلطانه؟ وعلام يقوم الملاء من قومه ومراكزهم وشرهاتهم؟ وعلام يقوم هذا كله إن كان الله هو رب العالمين؟ وأين يذهب شرع فرعون وحكمه إذن؟ لقد واجه موسى فرعون وملؤه بهذه الحقيقة وهو يعلم أنهما تعني

الثورة على فرعون ونظام حكمه! إن ربوبية الله للعالمين تعني أول ما تعني إبطال شرعية كل حكم جائر وتنحية كل طاغوت يُعبد الناس له من دون الله!

وقد تلخصت دعوة موسى عليه السلام في أمرين:

أحدهما: دعاؤه فرعون إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده. والآخر: إطلاق بني إسرائيل من الأسر والقسر وإخراجهم من تحت يد العادية ليكونوا مع رسولهم يرشداهم ويدبر شؤونهم ويخرجهم إلى الشام لإقامة نظام أمة يلي ربوبية الله كما حكى تعالى في سورة الأعراف ﴿قَدْ جِئْتَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جئتكم ببينة واضحة لائحة ناشئة من صاحب الربوبية لهديتكم وإيصالكم إلى توحيده فاتبعوني وأطلقوا بني إسرائيل وائذنوا لهم بالخروج. وفي سورة طه ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وفي سورة الدخان ﴿أَنْ أَدْعُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أطلقوا بني إسرائيل ولا تعلوا على ربوبية الله، وعلى هذه الحقيقة أمر موسى أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل، وباسم تلك الحقيقة الكبيرة، حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين، طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل لأنهم عبيد لله وحده فما ينبغي أن يُعبدَهم فرعون لنفسه! إن الإنسان لا يخدم سيدين ولا يعبد إلهين، فمن كان عبداً لله فما يمكن أن يكون عبداً لسواه، وإذا كان فرعون إنما يُعبد بني إسرائيل لهواه فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله، وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل! إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي

بذاتها إعلان تحرير الإنسان، تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله، تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر! إن إعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع ربوبية أحد من البشر للبشر، ولا يجتمع مع حكم أحد من البشر بشرع البشر، والذين يظنون أنهم على جادة التوحيد بينما هم خاضعون لربوبية غير ربوبية الله واهمون! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله، إنما هم في دين ملوكهم لا في دين الله! إن الشعوب تخضع لشرع فرعون وأمره حين يكون ربه هو فرعون! فالحاكم هو رب الناس، وهم في دينه أيّاً كان! وإذا كان فرعون مصر قد استطال بجبروت الحكم والسلطان فإن لوائح الفراعنة الجدد لا تزال شاهدة، وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على أن مجلس الوصاية الدولي مهمته وضع إخضاع الأقاليم تحت منظومة الأمم المتحدة.

وجاء في المادة 81 من ميثاق الأمم المتحدة في نظام الوصاية الدولي ما يلي:

يشمل اتفاق الوصاية في كل حالة الشروط التي يدار بمقتضاها الإقليم المشمول بالوصاية ويعين السلطة التي تباشر إدارة ذلك الإقليم ويجوز أن تكون هذه السلطة التي يطلق عليها فيما يلي من الأحكام (السلطة القائمة بالإدارة) دولة أو أكثر أو هيئة الأمم المتحدة ذاتها.

وجاء في المادة 84 ما يلي:

يكون من واجب السلطة القائمة بالإدارة أن تكفل قيام الإقليم المشمول بالوصاية بنصيبه في حفظ السلم والأمن الدولي وتحقيقاً لهذه الغاية يجوز للسلطة القائمة بالإدارة أن تستخدم قوات متطوعة وتسهيلات ومساعدات من الإقليم

المشمول بالوصاية للقيام بالالتزامات التي تعهدت بها تلك السلطة لمجلس الأمن في هذا الشأن وللقيام أيضاً بالدفاع وإقرار حكم القانون والنظام داخل الإقليم المشمول بالوصاية.

وجاء في المادة 88 ما يلي:

يضع مجلس الوصاية طائفة من الأسئلة عن تقدم سكان كل إقليم مشمول بالوصاية في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وتقدم السلطة القائمة بالإدارة في كل إقليم مشمول بالوصاية داخل اختصاص الجمعية العامة تقريراً سنوياً للجمعية العامة موضوعاً على أساس هذه الأسئلة.

إن دعوة الرسل واحدة ولا يحتاج المسلم إلى كثرة الأدلة وتعدد الشواهد لكي يفهمها فالرسل يُبعثون لتقرير حكم الله في الأرض ويدعون الملوك إلى الدخول في الطاعة المطلقة لله عز وجل والإقرار بربوبيته، ويدعون الأتباع إلى عبادة الله وحده والخروج عن طاعة الملوك والثورة عليهم وعدم الانتظام في نظامهم والبراءة من عقيدتهم، فالمعنى الحقيقي لتوحيد الربوبية هو الإقرار بالسلطة العليا والسيادة المطلقة لله الواحد القهار، وليس كما صوّره أهل الكتاب أنه مجرد الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المصور المحيي المميت وهذا التحريف يأتي على أصل الدين من القواعد ويشوّه دعوة الإسلام وهو أعظم تحريف في تاريخ الأمة بل أخطر قول تم تمريره منذ أن بعث الله محمداً هادياً ومعلماً ورسولاً... إنَّ من يدّعي الربوبية يدّعي أنَّ له الأحقية بحكم الأرض وعلى هذا الأساس الواضح يجب أن نفهم مدلول قول فرعون **(أنا ربكم الأعلى)** وأما مسألة الخلق فلم ينكرها فرعون وأشباهه كما حكى تعالى عنهم **(ولئن سألتهم من خلقهم**

ليقولن الله) فأظهر تعالى عليهم الحجة من أقوالهم وإقرارهم بأن الله هو خالقهم وموجدهم بعد عدم ثم وقفهم على جهة التقرير والتوبيخ بقوله (فأني يؤفكون) أي فلائي جهة يصرفون؟ وهذا إلزام للخصم بنهوض الحجة عليه، وهو مضمون قول القرآن (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله إن أرادي الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادي برحمة هل هن ممسكات رحمته) فجاء بالصفة التي لا شركة فيها لآلهتهم وهي الخالقية وقدّم في ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به تعالى ثم أثبت أنه لا قدرة لتلك الآلهة على الخير والشر ونّبّه على كمال ضعفها بوصفها بالتأنيث فإن الأنوثة مظنة الضعف فألقمهم بهذه الحجة الحجر وقطعهم فلا يُحيروا بينت شفة... والله عز وجل يأتي بهذه الشواهد لإبطال دعوى الأرباب الأرضية وهذا أمر دقيق مهم جداً فاحفظه فإنه من بنات الحقائق لكي تفهم تاريخ الشرك، قال تعالى (ولا يشرك في حكمه أحداً) ونظيره قوله تعالى (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) وقال سبحانه (ألا له الحكم) وفي أمثال هذه الآيات تتلخص رسالة موسى لفرعون، ولذلك قال حين أدركه الغرق (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) وقد جاء التعبير بهذه الصيغة دون قوله (آمنت أنه لا إله إلا الله) ليفيد اعترافه برسالة موسى وتبصره في دعوته إلى الحكمية وتنزيهه تعالى عن المكان والجسمية وتصويبه لبني إسرائيل فيما هُودوا إليه فجعل الصلة طريقاً لمعرفته بحكمية الله وتنزيهه عن الجسمية إذ كان مجسماً يعتقد أن الله في السماء! وفي سورة سبأ لما ذكر الحق تكذيب الذين من قبلهم وما بلغوا هؤلاء معشار ما أتوا أولئك من القوة والحضارة فكان إنكاره وإهلاكه لهم بالهلاك والاستئصال، أعقب بقوله (قل إنما

أعظكم بواحدة) قال ابن عباس: هي لا إله إلا الله. ثم بينها بقوله (أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) أي وحداناً ومجتمعين أو منفردين برأيكم ومشاورين لغيركم أو أن المثنى عمل النهار والفردى عمل الليل أو مناظرين مع غيركم ومفكرين في أنفسكم - لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله فإذا كانوا فردى كانت فكرة واحدة وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد والله أعلم - ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذباً أو رأيتم فيه جنة أو في أحواله من فساد أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر أو تعلم الأقايص وقرأ الكتب أو عرفتموه بالطمع في أموالكم أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة فإذا عرفتكم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة.

(أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) الهمزة للاستفهام التقريري، والفاء للتفريع على جملة (أم يقولون افتراه) والبينة المذكورة هي القرآن العظيم الذي جاء به الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فإنه أعظم بينة وأقطع بينة وأسطع بينة وإليها المنتهى وليس لها انتهاء، ومعنى (ويتلوه شاهد منه) أي يصدقه شاهد من ربه وهو الإنجيل وفيه إشارة إلى نزول ابن مريم، وقوله (ومن قبله كتاب موسى) أي التوراة، وجملة (إنه الحق من ربك) تأكيد لما دلت عليه جملة (أفمن كان على بينة من ربه) من التحقق بمقام التوحيد والبعد عن مقتضيات إمارات التخمين والتقليد، وحاصل معنى الآية

مرتبط بقوله ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ فإن الذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بينة من ربهم مؤيدة بالإنجيل ومعصودة بالتوراة، وهذه الكتب كلها براهين على وحدانية رب العالمين، وفي معنى الآية قوله تعالى ﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ و﴿قرئ﴾ لتنذر الذين ظلموا﴾ والكلام في الآية معطوف على قوله ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ وقوله ﴿على مثله﴾ يريد بالمثل الإنجيل والضمير عائد في هذا التأويل على القرآن أي جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى، وقوله ﴿فآمن﴾ على هذا التأويل يعني به تصديق عيسى بأمر محمد وتبشيريه به فذلك إيمان به، وقوله ﴿ومن قبله﴾ أي من قبل الشاهد كتاب موسى. ثم انتقل الكلام إلى الذين أسندوا إليه سبحانه ما لم ينزله من الحرف الذي صنعوه ونفوا عنه سبحانه ما أنزله من القرآن ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ ويشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ كما في حديث ابن عمر عند الإمام مسلم: «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله» وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ وهذه الشواهد تنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح والحزني والذل والهوان والفضيحة لاجترائهم على ما ذكر

من الافتراء والتكذيب على ملك الملوك، ولما كان كأنه قيل: فما لهم بعد هذا العذاب العظيم بهذه الفضيحة؟ أُجيب ﴿ألا لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والصد عن سبيل الله بمعاداة المسلمين وقتالهم وتكذيب الداعي إلى الحق ومنع الناس عن متابعتهم بجميع وجوه المكر والخداع وقطع طريق الحق عليهم في صورة النصيحة! قال ابن عباس: يضلون عن دين الله. وقوله ﴿ويغونها عوجاً﴾ أي يطلبون اعوجاجها ويصفونها بما ينفر السالك عنها من الزيغ والميل عن الحق ويختلقون لها نقائص يموهونها على الناس. قال الألوسي: أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل هي سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة، وقيل المراد بالعوج الشك واللبس. وقيل: المعنى يطلبون أن يروا فيها ما يكون عوجاً قادحاً فيها. ونحوه قوله تعالى ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾ قال الإمام الرازي: اعلم أن من كان موصوفاً باستحباب الدنيا فهو ضال ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين وهذه المرتبة الثانية وهي كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين... واعلم أن الإضلال على مرتبتين: المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم. والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال وإليه الإشارة بقوله: ويغونها عوجاً. اهـ. ثم نبه الحق تعالى على كفرهم بيوم الجزاء فقال مؤكداً تأكيداً عظيماً ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وفي تكرير الضمير تنبيه على أن هؤلاء اختصوا بهذا الإنكار!

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم».

الشرك في الحكم ومفهوم الآلهة

الشرك في الحكم درجت عليه الأمم المستخلفة الغابرة واشتهر في بني إسرائيل ثم أزاله رسول الله ﷺ، وظهر هذا الشرك في مرحلة الحكم الجبري وغاب مفهومه عن الأذهان فإن عامة الناس لا يعرفون إلا شرك العبادة ولا يتصورون الشرك وتعدد الآلهة على غير الأصنام والكواكب وأمثالها وذلك هو شأن سائر أديان الشعوب فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح الشرك محصوراً فيها، والحق أن شرك العبادة صنعه الأئمة المضلون لأتباعهم وقام عليه سلطانهم، وحتى يستقيم التفسير ينبغي علينا أن نعيد قراءة المشهد لكي نفهم طبيعة الشرك بشموله خصوصاً في ما يتعلق بطبقة الحكام لأنهم موضع المعركة كما قال جل شأنه ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ وقد حرصوا على إقصاء القرآن عن دائرة الصراع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فأصبحت الآلهة أساطير لا وجود لها في الشعور الإسلامي لأن مظاهرها تكاد تكون معدومة في عصرنا الحالي فلا تكاد تجد اليوم من يعبد صنماً أو يسجد لحجر أو يقدم القرابين للجن إلا النزر اليسير، وبالتالي أوهموا الأمة المسلمة أنها تعيش في عصر التوحيد! العصر الذي سُلِب سلطان المسلمين فيه بالكلية! وضاعت الربوبية جملة وتفصيلاً!!!

إن حيازة الملك والسلطان هي منشد الملوك عبر اتخاذ شركاء في الحكم من الجن والإنس، يستنصرون بهم وينازعون فيهم سلطان الله تعالى ويستعبدون بهم

الشعوب، ومفهوم العبادة هنا يختلف عن مفهوم العبادة عند الشعوب، فعبادة الملوك لآلهتهم تكمن في محبتهم وتخصيص قدر من الأموال لهم والاستنصار بهم وطلب العون والمدد في مواجهة الملك الكبير المتعال ﴿واخذوا من دون الله آلهة لعلمهم ينصرون﴾ والله عز وجل ينفي عن الآلهة القدرة على نصر بني إسرائيل والدفاع عنهم ويوضح حقيقة هذا الشرك القائم على مغالبتة تعالى ومنازعة في ملكه ﴿لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ ومفهوم شركاء الحكم هنا يختلف عن مفهوم شركاء العبادة! فإن مقصد ملوك الأرض من اتخاذ آلهة الحكم تقديم الحماية والنصرة، وقد نفى المولى سبحانه عن الآلهة نصر أنفسهم فضلاً عن متخذيهم ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ وقال جلّ شأنه ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وحذرهم من الإشراك وبيّن كونه ضلالاً بعيداً ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً﴾ ووصفه تعالى الشياطين بالأنوثة ليكون أبلغ في ضعفهم واتضاع منزلتهم وانحطاط قدرهم، وفيه ردٌّ عليهم إذ وصفوا الملائكة بالإناث ووصفوا حلفاءهم من الجن بالبنيين على حد قوله في سورة بني إسرائيل ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ والكلام هنا تفريع على النهي عن اتخاذ الجن آلهة ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ والأدلة والشواهد على الشراكة بين الجن والإنس كثيرة في القرآن لكنها غائبة عن وعي المسلم اليوم حيث صار يدرس قضايا الفكر والسياسة بناء على التقارير الإخبارية ونتائج مراكز الدراسات الغربية وتصريحات الساسة ويقرأ

التاريخ قراءة أحداث سياسية ووقائع إنسانية منفصلة عن الوحي مشوبة بتأليه المادة والعقل! والتأليه من وظائفه رفض الغيب وإرضاخ كل شيء للعقلانية المجردة المرتبطة بالعلمانية! وبذلك غابت دراسة واقع الدول انطلاقاً من تأمل القرآن والسنة وتصور أحوال الأمم السابقة، قال أبو المعالي والبراهين وغوث أعظم الواصلين، شمس العرفان وفرد الزمان، علامة العصر وفهامة الدهر، الإمام النحرير مولانا السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس رحمته الله وعنا به ونفعنا والمسلمين بعلومه وبركاته آمين: عالم الحدث طمس، وعالم الرسالة شمس، ولا ينكشف طمس الحدث إلا بشمس الرسالة، ومن زعم الاستنارة في عالم الحدث بغير شمس الرسالة خبط في دُجّة فحماء، وسقط في فاحمة ظلماء، وزعم النار قراح الماء. انتهى كلامه رحمته الله. وما أحوجنا اليوم ونحن نرقب بعثة الأمة المسلمة من جديد أن نعيد قراءة الواقع ونستشرف خط السير على ضوء نصوص الوحي ونفهم طبيعة شرك الحكم من خلال واقع الأمم الغابرة وموقع الشيطان في العلاقة بين الحاكم والمحكوم وواقع المجتمع العربي قبيل البعثة وقد روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به» قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غدירתان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه. وفي هذا

دليل على إشراكهم آلهة من الجن، وكانت لهم أحلاف قائمة على المصالح الاقتصادية والعسكرية والعلاقات الاستراتيجية، ناهيك عن قيامهم على البيت الحرام الذي يفاخرون بفضيلة رعايته على الناس، وقد أمروا بالاعتراف بوحدانيته تعالى وعبادته والإقرار بربوبيته كما جاء في سورة قريش (إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والكلام متصل بقصة أصحاب الفيل كأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة، وتخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة: إن للبيت رباً سيحفظه. وكانت قريش تجهز رحلتين إحدهما في الشتاء إلى اليمن يبلغون بها بلاد حمير والأخرى في الصيف إلى الشام، قال صاحب التحرير والتنوير: وكان الذين سن لهم هاتين الرحلتين هاشم بن عبد مناف وسبب ذلك أنهم كانوا تعثرهم خصاصة فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً ويسمى ذلك الاعتفار فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهموا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشماً لأن أحد أبنائهم كان ترباً لأسد بن هاشم فقام هاشم خطيباً في قريش وقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب وتذلون وتعز العرب وأنتم أهل حرم الله والناس لكم تبع ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم ثم جمع كل بني أب على رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم وفيه يقول مطرود الخزاعي:

يا أيها الرجل الحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف

الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف

والخالطون غنيهم بفقيرهم ... حتى يصير فقيرهم كالكافي

ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإسلام وهم على ذلك، والمعروف المشهور أن الذي سن الإيلاف هو هاشم وهو المروي عن ابن عباس وذكر ابن العربي عن الهروي: أن أصحاب الإيلاف هاشم وإخوته الثلاثة الآخرون عبد شمس والمطلب ونوفل وأن كان واحد منهم أخذ حبلاً أي عهداً من أحد الملوك الذين يمرون في تجارتهم على بلادهم وهم ملك الشام وملك الحبشة وملك اليمن وملك فارس فأخذ هاشم هذا من ملك الشام وهو ملك الروم وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة وأخذ المطلب من ملك اليمن وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس فكانوا يجعلون جعلاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر يسمى الإيلاف أيضاً يعطوهم شيئاً من الربح ويحملون إليهم متاعاً ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم ليكفوهم مؤونة الأسفار وهم يكفون قريش دفع الأعداء فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام وكانوا يسمون المجيرين. اهـ. والسبب الذي منعهم من عبادة إله محمد ﷺ هو تبعيتهم للنبي ﷺ لأن دينه يقتضي أن يكون الحكم خالصاً لله! روى ابن هشام أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له: يبحرة بن فراس: والله لو أبي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على

من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»
قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا
حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. فالمسألة هي مسألة أمر وحكم!

والنظام العالمي اليوم قائم على هذا النوع من الشرك فبنو إسرائيل مستخلفون في
الأرض بوعد رباني كما حكى تعالى على لسان موسى عليه السلام (قال عسى ربكم
أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) والاستخلاف
إقامة الخليفة والمراد الاستخلاف عن الله في ملك الأرض أي جعلكم أحراراً
غالبين مؤسسين ملكاً في الأرض، وقد دلت الآية على استخلافهم بعد هلاك
فرعون فقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع وملكوا الأرض مع داود عليه السلام كما
حكى تعالى قصته ثم خاطبه بقوله (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم
بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ولما كان من ذريته من
هو نزاع إلى الهوى ميال إلى السوى عاصٍ للرحمن موالٍ للشيطان، قال موضحاً
خطرهم مبيناً للمراد من معناه (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد
بما نسوا يوم الحساب) ثم تخلص لذكر استخلاف سليمان من جهة أنه من منن
الله على داود عليهما السلام (ووهبنا لداود سليمان) وإلى ذلك أشارت سورة
النمل في قصة داود وسليمان عليهما السلام وتخلص الكلام إلى ذكر المستخلفين
الجُدُد (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أئله
مع الله قليلاً ما تذكرون) فلم يقابلوا هذه النعم بالشكر بل وقع منهم الكفر
والعصيان والنقض والعدوان فمُسَخُوا قردة في زمن داود عليه السلام ومسَخُوا خنازير
في زمن عيسى ابن مريم عليه السلام كما مسَخُوا فِتْرة على نحو ما ورد في الصحيحين
واللفظ للبخاري: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يُدرى ما فعلت وإني لا أراها

إلا الفار إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت» وكان أول سؤالهم إثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم موسى إلهاً ولعل هذا هو المقصود من قوله ﴿أَعْلَمَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ كما هو المقصود من التفریع فی قوله ﴿فَیَنْظُرْ كَیْفَ تَعْمَلُونَ﴾ واللّٰهُ أَعْلَمُ. ودعوتهم النجدية دعوة شيطانية الهدف منها السيطرة على الأرض ولأجل ذلك تحالف الشيطان وأوليائه ونازعوا الله تعالى في ربوبيته وسلطانه وحكمه! وقد أشار إليهم صاحب البيان عن القرآن في الحديث عند الإمام مسلم: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها» فلم يقوموا بالأمانة وخانوا فيها ونقضوا العهود وروّضوا الدين للفرقة والمنازعة والتحريش والتشويش واتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون الله! قال تعالى ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذَرْيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وفي الحديث عند الإمام مسلم: «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» يعني المشرق. واتخذوا أعضاء الأمم المتحدة أنداداً من دون الله، وعلى رأسهم الخمسة الكبار في مجلس الأمن: أمريكا، روسيا، فرنسا، بريطانيا، الصين. وهي أحلاف مقرها مبنى الأمم المتحدة قامت على التبعية لبني إسرائيل والقيام بما يحتاجون من إعانة ونصرة ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ وقد بيّن تعالى أن بني إسرائيل يتخذون من النفاق سبيلاً إلى الدخول بين المعسكرات ﴿الَّذِينَ يَتَرْبِصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فإبليس مستحوذ على المنافقين ﴿استحذو عليهم الشيطان﴾ والمنافقون مستحذون على الكافرين ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ

نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم) صورة توضح ماهية العدو! فبنو إسرائيل ليسوا عملاء لمعسكرات الشرق والغرب وإنما هم ملوك الأرض أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر مقتاً لأهل الإسلام وطعناً عليهم كما حكى تعالى ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا ينطبق على أتباعهم في الدولة العبرية فإنهم لم يُظهروا الإيمان، وقال تعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وفي الأثر: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى: مُرْ ظِلْمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْلُوا مِنْ ذِكْرِي؛ فَإِنِّي أَذْكَرُ مِنْ ذِكْرِي مِنْهُمْ بِاللَّعْنَةِ» وقد نعتهم النبي ﷺ بالصم البكم دلالة على كفرهم ونفاقهم، ونظيره قوله جل شأنه ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي المنافقين لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النعمة والتباعة، رواه ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه.

فالأمر لا يحتاج إلى مجازاة ولا مداراة لأن مُلّاك القرار الفعلي لا صلة لهم بالإسلام كله وهم أعداء الأمة المتسلطون على مقدرات الأمم والشعوب وما الرموز الحاكمة في تل أبيب وواشنطن ولندن وباريس وبكين وموسكو وطهران وغيرها إلا أدوات تنفيذ وعساكر ضبط... وأمام هذه الحالة المشينة لا يلزمنا التخفي ولا الانطواء بل يلزمنا الإبلاغ والإظهار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه... فالعصر عصر دجل ودجاجة! والأمة المحمدية أوكلت إليها مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَيَوْمَ يُخْشِرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ لما نوّه الحق سبحانه في مطلع السورة بالقرآن وأشار إلى عجزهم عن معارضته وأنه معصوم من أن يتطرّقه

الباطل وذكرَ تلقيهم له بالإعراض وصم الآذان وأبطل مطاعنهم فيه وذكرهم بأنه نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلاً في عدم انتفاعهم بهديه ووبخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على ربوبيته ووعظهم بحال الأمم المكذبة من قبلهم وأنذرهم بعذاب يحل بهم في الدنيا كما حل بأولئك ليكون لهم ذلك عبرة فإن لاستحضار المثل والنظائر أثراً في النفس تعتبر به ما لا تعتبر بتوصف المعاني العقلية، انتقل إلى إنذارهم بما سيحل بهم في الآخرة فجملة **(ويوم يحشر أعداء الله)** معطوفة على جملة **(فقل أنذرتكم صاعقة)** والتقدير: وأنذرهم يوم يحشر أعداء الله إلى النار ودل على هذا المقدر قوله **(أنذرتكم صاعقة)** أي وأنذرهم يوم عقاب الآخرة، والفاء في قوله **(فهم يوزعون)** عطف وتفریع على **(يحشر)** لأن الحشر يقتضي الوزع إذ هو من لوازمه عرفاً إذ الحشر يستلزم اختلاط المحشورين وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم وكف بعضهم عن بعض ورد المتبوعين عن الأتباع وحبس أولاهم على أخراهم فيوقف ملوكهم حتى يصل إليهم أتباعهم ويساق القادة بين يدي الأتباع وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم حتى يجتمعوا فيككبوا في النار يُبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، ثم ذكر سبحانه غايات إهانتهم بالوزع فقال **(حتى إذا ما جاؤا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون)** ولما أخبر بهذا الذي يفتت الحجارة لو علقت ساعة ما، أخبر أنه لم يُفدهم الرجوع عن طبعهم الجافي وبلادهم الكثيفة فقال عاطفاً على ما تقديره: فلم تُفدهم هذه الشهادة خجلاً من الله ولا خضوعاً في أنفسهم ولا رجوعاً عن الجدل والعناد كما لم يفدهم ذلك مجرد علم الله فيهم **(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول**

مرة وإليه ترجعون» روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانها: انطقي، قال: فتنتطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنك كنت أناضل» ولما اعتذروا بما إخبارهم به في هذه الدنيا وعظ وتنبيه وفي الآخرة توبيخ وتنديم، قالوا مكررين للوعظ ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ ولما كان ذكر المعصية وما جرأ عليها يقتضي انتقاصاً يقدر في الربوبية، بين أنه الموجب للغضب فقال ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ ولما كان ذلك، تسبب عنه قوله لافتناً القول عن خطابهم إيذاناً بشدة الغضب وإشارة إلى أنهم لما وصلوا إلى ما ذكر من الحال أعيا عليهم المقال فلم يقدرُوا على نطق بلسان ولا إشارة برأس ولا بنان ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ قال الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره: فإن يصبر هؤلاء الذين يحشرون إلى النار على النار فالنار مسكن لهم ومنزل ﴿وإن يستعتبوا﴾ يقول: وإن يسألوا العتي وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبون بتخفيف العذاب عنهم ﴿فما هم من المعتبين﴾ يقول: فليسوا بالقوم الذين يرجع بهم إلى الجنة فيخفف عنهم ما هم فيه من العذاب وذلك كقوله جل ثناؤه مخبراً عنهم ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾

إلى قوله ﴿ولا تكلمون﴾ وكقولهم لحزنة جهنم ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ إلى قوله ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ لما ذكر تعالى لأولياء الشيطان حالهم في الساعة معه سبحانه، أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه فيقول ءأنتم أي أيها المعبودات أضللتم بالقهر والخداع والمكر عبادي هؤلاء حتى عبدوكم أم هم باختيار منهم لإهمالهم استعمال ما أعطيتهم من قويم العقل وسديد النظر ضلوا السبيل الذي نهجته ونصبت عليه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة؟ ﴿قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا﴾ أي تنزهت عن الشريك والظهير والمعين والنظير... وقرئ "تَتَّخَذَ" أي أننا مفتقرون إلى من ينفعنا لحاجتنا وفقرنا ولكن هم أنزلونا هذه المنزلة بمجرد دعائنا لهم فضلوا بإرادتك إذ متعتهم وآباءهم في الدنيا واستدرجتهم بلطائف المنن وأطلت أعمارهم حتى نسوا ما أنزلته إليهم وكانوا في علمك بما قضيت عليهم في الأزل قوماً هلكى! ثم التفت سبحانه إليهم مبكناً فقال ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي من أنهم يشفعون لكم وينصرونكم ﴿فما تستطيعون صرفا ولا نصرا﴾ وقرئ بالياء "يستطيعون" أي الشركاء المعبودون لا يستطيعون صرفاً بشفاعه ولا نصراً بمغالبه ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ ثم أبطل سبحانه ما وصموا به رسله وأعقب بذكر الابتلاء ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنه أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ ثم أتبع ذلك بالكشف عن أحوالهم وكفرهم بالله واليوم الآخر والاجترأ على طلب إنزال الملائكة بالعذاب وتمردهم غاية

التمرد فقال ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾ وغرضهم من طلب الرؤية: التشبيه والتجسيم والعياذ بالله! وقد بيّن المفسر الأعظم رحمه الله أن الكبر في الفدادين أهل قساوة القلوب! ثم بين لهم حالهم عند بعض ما طلبوا فقال ﴿يَوْمَ يَرُونَ الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا﴾ أي تقول لهم الملائكة: حراماً محرماً أن تكون لكم البشرى ويحتمل أن المجرمين يقولون حجراً أي عوداً يستعيدون من الملائكة ويطلبون شفاعاة ونصرة آلهتهم فيمنعون ويحظرون! قال أبو عبيدة: وهذا عوداة العرب يقوله من خاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة. ثم بيّن تعالى أن ما كان لهؤلاء المنافقين من عمل في الخير فهو أشبه بالعدم لكونه لم يؤسس على الإيمان وإنما هو للهوى والشيطان ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ ثم تلا بحال أضدادهم فقال ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ ثم قال عاطفاً على ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ مبيناً نصرته لرسله وللمؤمنين ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ أي بسحاب مثل الضباب كنزول الملائكة يوم بدر فيما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين» ولما كان ذلك سبباً لزوال ملكهم ومعرفة أنه لا ملك سواه سبحانه قال ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾ ثم بين

عسر يوم القيامة الذي إنما أوجب جرأتهم تكذيبهم به بتناهي ندمهم على فعلهم ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ ولما تأسف الظالم على مجانبة سيد ولد عدنان، تندم على مصادقة الشيطان بقوله ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ ثم استأنف قوله الذي يتوقع كل سامع أن يقوله ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ أي شديد الخذلان يورده ثم يسلمه إلى ما يكره!

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾

الكلام في الآية تكملة لإبطال شبهة المشركين إبطالاً بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجة وتحقيق كلفة تعلق مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أن الإلجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الأفعال الاختيارية لهم فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم وأمرهم بعبادة الله وحده واجتناب طاعة الشيطان ومعلوم أن كل رسول كان يبدأ دعوته بقوله ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ والمقصود تحذيرهم من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته ابتداء لأنه سبب الإغواء ومادة كل شر، قال الإمام النسفي: ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ الشيطان يعني طاعته. وقال الحسن: الطاغوت هو الشيطان. والمراد من اجتنابه اجتناب ما يدعو إليه وأضيفت العبادة إليه في الآية الأخرى ﴿لا تعبدوا الشيطان﴾ لأن من يعبد دونه يعبد بأمره فأضيفت لذلك إليه، ثم ذكر تعالى عناد أولياء الشيطان وحرص السيد الأعظم ﷺ على إيمانهم وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾ والشرط هنا لتعليق

العلم بمضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط والمعنى إن كنت حريصاً على هداهم حرصاً مستمراً فاعلم أن من أضله الله لا يهديه أحد، فالمضارع مستعمل في معنى التجدد لا غير، وجُعِلَ المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسم الجلالة للتهويل المشوق إلى استطلاع الخبر، والخبر هو أن هداهم لا يحصل إلا إذا أَرَادَهُ اللهُ ولا يستطيع أحد تحصيله فمن قَدَّرَ اللهُ دوام ضلاله فلا هادي له، ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يكون المسند إليه ضمير المتحدث عنهم بأن يقال: فإنهم لا يهديهم غير الله، والضمير في **(يُضِلُّ)** لله، والضمير السبي محذوف، والمعنى أن الله لا يهدي من قَدَّرَ اللهُ دوام ضلاله وطبع على قلبه، وإسناد الإضلال إلى الله إسناد لتكوينه على ذلك لا للأمر به وذلك واضح، وقرئ بضم الياء وفتح الدال **(لَا يُهْدَى)** مبنياً للنائب وحُذِفَ الفاعل للتعميم أي لا يهديه هاد، و**(مَنْ)** نائب فاعل، وضمير **(يُضِلُّ)** عائد إلى الله وهو في معنى **(مَنْ يَضِلُّ اللهُ فلا هادي له)** فالمسند سبي وحُذِفَ الضمير السبي المنصوب لظهوره، ثم عطف على جملة نفي هداهم خبر آخر عن حالهم وهو **(وما لهم من ناصرين)** رداً على الزاعمين أنهم إذا أصابوا خطيئة عند الله أن أنبياءهم يشفعون لهم وأن شركاءهم ينصرونهم.

(ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)

هذا تمثيل لحال قرن الشيطان في عدم تدبر القرآن بحال من يعيش عن الشيء الظاهر للبصر، وعدي يعيش بـ**(عن)** المفيدة للمجاوزة لأنه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرحمن وهو القرآن وإضافته إلى الرحمن للإيدان بربوبيته وهيمته الكاملة على كل شيء، والكلام متصل بمطلع السورة بالتنويه بالقرآن

ووصف عنادهم في الصد عنه والإعراض وقولهم الملائكة بنات الله وقولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم وأطنب في وصف تناقض عقائدهم وفضح شبهاتهم بأنهم لا تعويل لهم إلا على ما كان عليه آباؤهم الأولون وأنذروا باقتراب انتهاء تمتيعهم وإمهالهم وتقضى ذلك بمزيد البيان وأفضى الكلام إلى استخفافهم بالقرآن والاحتكام على حكمة الله في تحيّر من يختار ثم عاد الكلام إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التدبر في الكتاب المبين فكان انصرافهم سبباً لأن يسخر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في التوحيد وهو تسخير اقتضاه نظام تولد الفروع من أصولها، ومعنى نقيض أي نُتِج له شيطاناً ليستولي ويستحوذ عليه فهو له قرين أي مشدود به كما يشد الأسير فلا يمكنه التخلص منه يُزَيِّن له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى كما قال تعالى ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبعد أن ذكر الحق أن لكل عاشٍ شيطان قرين أخبر أنهم يصدونهم عن سبيله تعالى وتوحيده وكتابه، ولما كانت الحيدة عن السبيل إلى غير سبيل بل إلى معاطب لا يهتدي فيها دليل، عجباً! أتبعه عجباً آخر فقال ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي مع سيرهم في المهالك فكان ضلالهم ضلالاً مركباً إذ هم قد ضلوا عن السبيل بعدم التفكير في القرآن وإهمال النظر فيه ويحسبون أنهم مهتدون! فمقارنة الشياطين ضلالة وحسابهم ضلالهم هدى وضلالة أيضاً كما حكى تعالى عنهم في سورة الأعراف ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وفي الحديث عند الإمام أحمد: «ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب الشعر والوبر الذين يغتالهم الشياطين على أعجاز الإبل» أي أخذتهم الشياطين من حيث لا يدرون! نعوذ بالله تعالى من الضلال والنزول في

منازل الجهال والتلوث بخبائث أهواء أهل الإضلال. ولما كان من ضل عن الطريق ومن ظن أنه على صواب لا يكاد يتمادى بل ينجلي له الحال عن قرب ضم إلى العجبين الماضيين عجباً ثالثاً بياناً له على ما تقديره: ونملي لهذا العاشي استدراجاً له وابتلاء لغيره ونمد ذلك طول حياته ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ وقرأ ﴿جاءنا﴾ على التثنية أراد الكافر وشيطانه أي إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة قال مخاطباً له: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين والمراد بهما المشرق والمغرب لكن غلب المشرق على المغرب إيماء إلى الجهة التي يطلع منها قرنا الشيطان، وبعد أن تمنى مفارقتها فرّع عليه ذمّاً ﴿فبئس القرين﴾ فالكافر يذم شيطانه الذي كان قريناً ويُعرض بذلك للتفصي من المؤاخذة وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضله، والمقصود من حكاية هذا تفضيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين والتحذير منها والإيقاظ إلى عداوة الشيطان للإنسان على نحو قوله تعالى ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ثم زجرهم عن ظلمهم بتذكيرهم بزوال ما هم فيه من المناصرة ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ ولما كان ﷺ أحرص الناس على هدايتهم وأسعى في وصول الخير إليهم وأكثر اجتهاداً في نجاتهم أخبره سبحانه بخبث طبيعتهم وآيسه من اهتدائهم وبين أن الضلال محيط بهم إحاطة لا يكادون ينفكون عنه من كل جانب فقال ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتناولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله،

من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» ثم امتد الكلام إلى ذكر رسالة موسى وعيسى عليهما السلام وانتهى إلى الاستدلال على امتناع الولدية وإثبات الوحداية رداً للمقطع على المطلع. وفي سورة الملك أخبرنا تعالى عن اعترافهم يوم القيامة بتفريطهم وأنهم جنوا على أنفسهم وظلموها (تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) فلو أنهم ألقوا أسماعهم إلى ما يتلى عليهم من آيات الله تعالى وأشهدوها قلوبهم لاهتدوا أو أنهم عقلوا عن الله تعالى وأوامره التي في كتابه النازل على رسوله ﷺ وتبصروا حكمتها ومنافعها وأنصفوا في مواقفهم معها لعرفوا يقيناً أنها الحق ولكن صدّهم عن ذلك كله الكبر والعناد، فسلكوا طريق الشر والفساد.

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين)

اعلم أن الله سبحانه أنزل القرآن نبأ عن جميع العصور والأزمان مما يكون وما قد كان، فلكل من الماضين مثلٌ متكرر في الحاضرين، فإن من أسرار القرآن في إعجازه أن تكون عبارته متوجهة إلى الحاضرين وإشارته شاملة لغيرهم من حيث اتصافهم بعلّة ذلك الحال أو غير ذلك من الخلال، ومما صد أكثر هذه الأمة عن تفهم القرآن ظنهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار الغابرين فحسب! وأن ذلك إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط! كلا وليس كذلك... إن ذلك إنما مقصوده التنبيه بمشاهدة متكررة في كل أمة مستخلفة، من نظائر جميع

أولئك المستخلفين وأحوالهم، حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته منطبقاً على الأمة المستخلفة الحاضرة وأئمتها، فحينئذ يفتح له باب الفهم، ويضيء له نور العلم، وتتجه له حال الخشية، ويرى في أصناف المستخلفين الجُدد ما سمع من أحوال القرون الماضية، وإنه كما قيل في المثل السائر «إياك أعني واسمعي يا جارة» ثم إذا شهد انطباق القرآن على كلية الأمة الحاضرة، فكان بذلك عالماً يفتح له باب ترقى، فيترقى سمعه إلى أن يجد جميع كلية القرآن المنطبق على كلية الأمة الماضية منطبقاً على الأمة الحاضرة، في أحوالها وتقلبها وتصرفات أفعالها، حتى يسمع القرآن منطبقاً عليها، فينتفع بسماع جميعه، ويعتبر بأي آية قرأها، فيطلب موقعها في الأمة الحاضرة فيجدها بوجه ما، رغبة كانت أو رهبة، تقريباً كانت إلى أرفع الغايات أو تبعيداً إلى أنزل الدركات، فيكون بذلك عارفاً، هذا مقصود الآية ونظائرها والله أعلم. والحق أن تقييد القرآن وقصره على زمان نزوله يترتب عليه القول بتعطيله إذ يصبح كل ما فيه من إرشادات وبيانات مقيد بزمانه وبالتالي فإن مكان القرآن هو المكتبات والمتاحف وليس حياة البشر وحركتهم! والمستخلفون الجدد يحاولون تعطيل القرآن وإبطال مفعوله في تأويله وصرف الآي عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون وأوهموا الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها، ووصفوا القرآن بأنه يحكي قصص يختصر ورستم وبهرام وقصص آبائهم الأولين وما قبلهم من الأمم الغابرين وقصص أبي جهل والوليد بن المغيرة وأممية بن خلف وعتبة وعقبة وشيبة فحسب ولا علاقة له بواقع اليوم! في الوقت الذي شتوا على الكتاب والسنة حرباً منظمة مأكرة خبيثة أبعدها أنفسهم خلالها عن الآيات القرآنية الموجهة إليهم ودسوا في القرون الماضية

المفتريات من الروايات الإسرائيلية في كتب التفسير ثم شككوا في السنة من خلال منهجية كاذبة خاطئة وضعها أحبارهم في الشرح والاستدلال والتصحيح والتضعيف تابعهم عليها بعض المحدثين الذين افتتنوا بمنهاجهم واستحسنوه! روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

(بالبينات والزبر) الباء للمصاحبة أي مصحوبين بالبينات والزبر، فالبينات دلائل الصدق من أدلة ومعجزات وحجج وبراهين **(وَالزَّبْرُ)** الكتب التي كتب فيها أخبار الغابرين الذين أهلكهم الله بتكذيبهم وما أوحى إلى الرسل السابقين الذين حمل كل منهم بعض كلمات الله إليهم! ثم أخبر عن الكتاب المنير بقوله **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)** وفي الاختصار على إنزال الذكر عقب قوله **(بالبينات والزبر)** إيماء لطيف وإنهاء شريف إلى أن الكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ هو بيّنة وزبور معاً وذلك من مزايا القرآن المهيمن على سواه من الكتب كما حكى تعالى **(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»** قال المحققون من العلماء: المراد من هذا الحديث أن معجزات الأنبياء السابقين انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها وكانت حسية تشاهد بالأبصار وأما معجزة القرآن الكريم فإنها تشاهد بالبصر والبصيرة فهي باقية مستمرة إلى يوم القيامة مع خرق العادة في أسلوبه

وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدرُوا مع غير ذلك من وجوه إعجازه وعجائبه التي لا تنقضي.

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيايي فارهبون)

اعلم أنه لما كان التوحيد أعظم المأمورات وكان العصيان فيه أعظم العصيان وكان سبحانه قد أكثر التخويف من عصيانه، أبلغ الأمر إلى نهايته بالإخبار بأن كل ما سوى الله منقاد خاضع لجلاله تعالى وكبريائه ثم أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الإشراف وبالأمْر بأن كل ما سواه فهو مُلكه ومِلْكه وأنه غني عن الكل، وجاءت الآية عطفاً على قوله **(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)** ليتظافر على ذلك أدلة العقل والنقل وتسليكاً بأحوال بني إسرائيل الذين مكروا السيئات فكانت هذه الأدلة من أعظم أدلة التوحيد، وصيغة التشية **(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين)** تضمنت إبطال شرك الحكم وشرك العبادة، ثم علل ذلك النهي بما اقتضاه النظم من الوجدانية فقال **(إنما هو إله واحد)** لا شريك له في حكمه، ولا مساهم له في عبادته، يعبد بالحق ويرجع نحوه في مطلق الشدائد والكروب والوقائع والخطوب، له حق التصرف في ملكه بما يريد من حكمه، ومن جملة ما حكم وقضى ونفذ به التقدير وأمضى إفراده بالوجدانية التي لا محيص عنها إذ لا يمكن الدخول من بايين ولا التوجه إلى جهتين ولا الاستقرار بمركزين ولا البروز بوقتتين وقياساً على ذلك وأمثاله فلا يمكن القول بإلهين "تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً" ولما كانت الوجدانية مما لا يخفى على عاقل وكانت مركوزة في كل فطرة بدليل الاضطراب عند الحزن والشدائد

والفتن وكان بنو إسرائيل قد خوطبوا بالرهبة - في أول نداء علوي جليل في سورة البقرة - لاستبطائها فيما يختص لمخالفة العلم، عبر بها ملتفتاً إلى أسلوب التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في قلوبهم فقال ﴿فإياي فارهبون﴾ ولما كان أسلوب الغيبة من الحاضر دالاً على التردّي بحجاب الكبر المؤذن بشدة البطش وسرعة الانتقام وبعد المقام، رجع إليه وأعاد الضمير على الله الاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنی فقال ﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون﴾ أي وله الحكم خالصاً ثابتاً دائماً سرمداً، وإن شئت قلت: الدين: الملك، والواصب: الدائم، كما قال حسان:

غيرته الريح تسفي به ... وهزيم رعه واصب

ومنه قوله تعالى ﴿ولهم عذاب واصب﴾ وقول الديلي:

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه ... يوماً بدم الدهر أجمع واصبا

ويموز أن يكون الدين بمعنى الديانة فيكون تذيلاً للجملة ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ لأن إبطال دين الشرك يناسبه أن لا يدين الناس إلا بما يشرعه الله لهم أي هو الذي يشرع لكم الدين لا غيره من أئمة الكفر والضلال وقادة دين الشرك، فقلوه ﴿وله الدين واصبا﴾ من متممات جملة ﴿وله ما في السماوات والأرض﴾ لأنه لما قصر الموجودات على الكون في ملكه كان حقيقاً بقصر الحكم عليه ولذلك قدم الجورور في هذه الجملة على فعله. قال صاحب البحر المديد في تفسير القرآن الجيد: وله ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبداً وله الدين أي: الطاعة والانقياد واصباً: لازماً أو واجباً وثابتاً لما تقرر أنه الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه فلا يدان لأحد إلا هو، وقيل: وله الدين أي

الجزاء واصباً أي دائماً فلا ينقطع ثوابه لمن آمن ولا عقابه لمن كفر. اهـ. وقال ابن قتيبة: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو الموت إلا الحق سبحانه فإن طاعته واجبة أبداً.

(لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) في الآية الكريمة بشارة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بالأمن لهم عن أذى المشركين وضررهم إلا أذى باللسان وهو كقوله تعالى **(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً)** ونحوها من الآيات التي فيها بشارة لأهل الإيمان بالنصر لهم على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق! والتصريح بالقبلية للإيدان بحقيقة الكتب المنزلة على الأمة الإسرائيلية خاصة على أن من دان الكتاب من غيرهم خرج عن وصف إيتاء الكتاب. وقد قاتلوه ﷺ يوم قينقاع فنزلوا على حكمه، وقاتلوه يوم بني النضير فأجلاهم عن بلادهم، وقاتلوه يوم بني قريظة فولوا الأدبار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقاتلوه يوم خيبر فهزمهم وملكهم وأخذ عنوة خير بالسيف فرضوا به أن يقرهم على أن يكونوا حرثة يعملون له في النخل وكان رسول الله ﷺ قد كتب إليهم فيما روى ابن هشام عن ابن عباس: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ﷺ صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم **(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**

منهم مغفرة وأجراً عظيماً) وإني أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى وأنشدكم بالذي أيس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ إن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم (قد تبين الرشد من الغي) فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه. ثم دفع الراية إلى سيدنا علي كرم الله وجهه وكانت بيضاء فكان أول ما فتح من حصونهم حصن ناعم ثم حصن الصعب وتحولت اليهود إلى حصن قلعة الزبير وهو في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون فحاصروهم وغلقوا عليهم حصنهم وافتتحه رسول الله ﷺ فكان آخر حصون النطاة ثم فتح حصن أبي والنزار وبقي من حصونهم الوطيح والسلام والغموص لابن أبي الحقيق وكان من آخر حصونهم افتتاحاً وحاصروهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ونصب المنجنيق عليهم فلما أيقنوا الهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح فصالحهم على أن يحقن دماءهم ولهم ما حملت ركاهم وللنبي ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة وأن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم ولمن بقي منهم نصف الثمر كل عام.

(أضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) المعنى أُلزموا الذلة أي القتل والأسر وسي الذراري وأخذ المال وإلحاق الصغار وثبتت تلك الذلة فيهم فلا خلاص لهم منها أين ما تقفوا كقوله تعالى (واقتلوهم حيث تفتمهم) والثقف في الأصل: الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً ويتضمن ذلك

التنبه لهم والتبصر في أمرهم والتفطن لحقيقتهم... وقد حرصوا على تغيير أنسابهم وإخفاء حالهم إذ لو انكشف أمرهم لبطل سحرهم ولزال سلطانهم ولتلاشى ملكهم. وفُسرَّ حبل الله: بالإسلام، وحبل الناس: بالشركاء، والاستثناء ظاهره الانقطاع ويحتمل أن يكون متصلاً مفرغاً من أعم الأحوال والمعنى على النفي أي لا يسلمون من الذلة في حال من الأحوال إلا في حال تظاهرهم بالإسلام واعتصامهم بالشركاء، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم لأن البنية النفسية المفككة والجلبة الهابطة المتداعية أثبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي خلقوا من أجلها... وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها ثمن، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف! ولم يشهد تاريخ أمة ما شهدته تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالناشير عدداً من أنبيائهم وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين، وقوله **(ويقتلون الأنبياء بغير حق)** أي لم يكن حقاً باعتقادهم وإنما حملهم عليه الغلو في العصيان والاعتداء، ونظيره في الآية الأولى من السورة **(ويقتلون النبيين بغير حق)** وجيء بالحق في آية البقرة معرفاً باللام الدالة على العهد **(ويقتلون النبيين بغير الحق)** للإيدان بأن ذلك بغير الحق المعهود في الدعاوى لا الحق الثابت في نفس الأمر لأن قتل النبيين لا يكون إلا بغير ذلك الحق، ويبدو أن آيتي آل عمران فيمن شاهد منهم أمر سيدنا محمد ﷺ وعائين تلك البراهين واستوضح أنه الذي أخبر به موسى وغيره وتكاثرت الأدلة في أمره ثم لم يجد إلا التماذي في الكفر والعناد وأما آية البقرة إنما هي في سلفهم ممن لم يشاهد أمر سيدنا محمد ﷺ وقد وقع الإفصاح فيها بكفرهم بعد تعريفهم بذكر آلاء ونعم عديدة وقد ورد فيها أن بعض تلك الآثام أو أكثرها قد عفي عنهم

فيها، فهم وإن وصفوا بالكفر والاعتداء بما وصفوا ليسوا في ارتكاب البهت
 والمجاهرة بالباطل والاعتداء وحال معاينة البراهين كحبي بن أخطب وأشباهه من
 المعاصرين لنبينا ﷺ والمشاهدين أمره فناسب حال أولئك الذين لم يشاهدوه ما
 وقع التعبير به من قوله تعالى ﴿بغير الحق﴾ إذ ليس المعرف في قوة المنكر، وحيء
 في الآية الثانية من آل عمران بجمع التفسير ﴿الأنبياء﴾ ليشمل الأنبياء وورثتهم
 من أولي العلم، وأما ورود جمع السلامة في آية البقرة والآية الأولى من آل
 عمران ﴿النبيين﴾ فيختص بهم، ولما كانت العرب تتسع في جموع التفسير أتى
 بالجمع في الآية الثانية مكسراً ﴿الأنبياء﴾ ليشملهم مع ورثتهم، وعطف ورثتهم
 عليهم في الآية الأولى ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ ففهم ما
 أجملته من الحقائق والإشارات فسوف يتضح لك به إذا استوفيته ما يعينك على
 فهم الإعجاز. فإن قيل: كيف جاز أن يخلي بين الكافرين وقتل الرسل والأنبياء؟
 والجواب أن التولية كانت قبل رفع المسيح ﷺ فإن سيد الكائنات عليه أكمل
 الصلوات والتسليمات قد عصمه الله من الناس، وذهب الحسن وابن عباس
 رضي الله عنهم إلى أنه لم يُقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال أما من أمر
 بقتال فهو منصور فظهر أن لا تعارض بين الآيات المتقدمة وبين قوله ﴿ولقد
 سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون﴾ مع أنه يجوز أن يراد به
 النصرة بالحجة وبيان الحق وكل منهم بهذا المعنى منصور. ولما كان القتل طريقة
 أسلافهم صحت هذه الإضافة إلى الحاضرين إذ كانوا مصوبين وبطريقتهم
 راضين فإن صنع الأب قد يضاف إلى الابن إذا كان به راضياً وعلى طريقته
 جارياً. روى البزار عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم
 القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي وإمام ضلالة» وقد كفروا أشنع الكفر واعتدوا

أشنع الاعتداء وعصوا أبشع المعصية، وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل، ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة باطلة ومن جملتها: ادعاء اختصاصهم بالجنة وأنهم أحباء الله وأهل التوحيد وكلها أماني كواذب ساقها الأمل ليس عليها بينة! وفُسرَّ حبْل الناس بشركاء الإنس، وعلى رأسهم اليوم: أمريكا. جاء في المادة الأخيرة من ميثاق الأمم المتحدة رقم 111 ما يلي: يظل الميثاق مودعاً في محفوظات حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وتبلغ هذه الحكومة حكومات الدول الأخرى الموقعة عليه صوراً معتمدة منه، ومصدقاً لما تقدم وقع مندوبوا حكومات الأمم المتحدة على هذا الميثاق.

ولما أخبر المولى سبحانه أن هؤلاء القوم سيكون لهم علو كبير وقوة ظاهرة يحسب حسابها، تكفل تعالى بتهوين شأنهم في نفوس المسلمين. ومعنى قوله **(وضربت عليهم المسكنة)** أي الحاجة والفقر، على نحو ما ورد في حديث جبريل **عليه السلام**: **«الحفاة العراة العالة»** فالفقر لازم لهم ولو ملكوا الدنيا بأجمعها فإنهم يشكون القلة... حياتهم كحياة الديدان والجعلان... صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة، لا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة **(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)** والمراد من العصيان هنا تعمد الشرك والخروج عن أمر الله والانقياد لحكمه كما قال تعالى "ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً" والخلود في النار لأهل الشرك لتظاهر الأخبار عن رسول الله **ﷺ** بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها... والاعتداء راجع لقوله تعالى "ويقتلون الأنبياء بغير حق" وفي هؤلاء الأخابث من الأوصاف الذميمة اللازمة وفي أئمتهم من الأوصاف القبيحة العميمة الملازمة أضعاف ذلك. ولما وصف الحق الأمة

الحمدية بأنها خير أمة للناس وأعقب بذكر الأمة المذمومة قال نافياً أن يكونوا سواء فقال ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ روى أبو يعلى وأحمد والبخاري وابن أبي شيبه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله عز وجل هذه الساعة غيركم» قال: ونزلت هذه الآية "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون" حتى بلغ "وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين". قال بعضهم: ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ فأقاموا صلاة العتمة في الساعة التي ينام فيها غيرهم من أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا. قلنا: هذا القول يرده ويأباه ما رواه الإمام الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول في قوله "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة" قال: "لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ" وروى أيضاً عن السدي رضي الله عنه قال: "ليس هؤلاء اليهود كمثل هذه الأمة التي هي قائمة".

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشرهم بعذاب أليم﴾ المراد من أصحاب هذه الصلوات بنو إسرائيل في العصر النبوي وأخلافهم لأنهم الذين توعدهم بعذاب أليم، وجيء في لفظ "يقتلون" بالمضارع لقصد استحضار الحالة الفظيعة وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم الذين قتلوا إرمياء وحزقيال ونشروا زكرياء وأشعياء بالمنشار وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فهو معدود

عليهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه، وبألغوا في قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس كما دلت القراءة الأخرى ﴿ويقاتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ بصيغة المفاعلة في أسباب القتل بجميع أحواله من مباشرة ومظاهرة، وكل تلك الجرائم معدودة عليهم لأنهم رضوا بها وألحوا في وقوعها، نعوذ بالله من الإطالة على الأنبياء وورثتهم الأولياء. روى البزار عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلت يا رسول الله: أي الشهداء أكرم على الله؟ قال: «رجل قام إلى أمير جائر فأمره بمعروف ونهاه عن منكر فقتله» قيل: فأأي الناس أشد عذاباً؟ قال: «رجل قتل نبياً أو قتل رجلاً أمره بمعروف أو نهاه عن منكر» ثم قرأ ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾ ثم قال: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً في ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنى عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً».

﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون، قال رب إنني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون، ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾ الاستماع مجاز عن السمع اختير للمبالغة لأن فيه تسليماً للإدراك وهو مما ينزه الله تعالى عنه سواء كان بحاسة أم لا فسقط ما قيل من أن السمع في الحقيقة إدراك بحاسة فإن أريد به مطلق الإدراك فالاستماع مثله فلا حاجة إلى التجوز فيه، وقال بعضهم: "إنا معكم مستمعون" استعارة تمثيلية مثل سبحانه حاله عز وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهما ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالإعانة... وجعل العلامة الألوسي

الكلام تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى: "إنني معكما أسمع وأرى" والخطاب لموسى وهارون ومن اتبعهما. وقيل: المراد أن ملائكتنا معكم مستمعون وهو مما لا ينبغي أن يستمع ولا بد في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ سياق الآية يجول مع بني إسرائيل جولة واسعة طويلة تخللتها دعوتهم للوفاء بعهد الله مع تذكيرهم بعثرتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى، وقد ظهر منهم النقص بعد ما أوتوا من البيان الواضح، والدليل اللائح... والموقن يكفيه نص واحد، وألف نص لا يفيد المكابر المعاند، لما في قلبه من غلظة الحجاب، والقسوة الدافعة عن طريق الصواب، وما هو إلا جماد، أو أسمع من الجماد، قال تعالى في سورة بني إسرائيل المسماة بسورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا، وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تُكُونَ لَكَ جُنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ والآيات في بني إسرائيل بقريئة انصباب الكلام في السلسلة الطويلة عليهم في الدرجة الأولى ولا يضر خصوص سبب النزول. قال الإمام المحقق أبو الفضل محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي علامة الزمان سقى الله عهده سحائب الرضوان وأسكنه أعلى الجنان: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السورة وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى

مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة والله الهادي. انتهى. وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه.

﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ لما أخبر تعالى بمدة لبث أهل الكهف لا جرم تشوّفت النفس إلى معرفة مدة لبث قومهم الذين تداولوا الحكم فكأن قائلاً قال: فكم لبث قومهم الذين أشركوا؟ فقل ﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع﴾ فالكلام هنا في قوم أهل الكهف وهو ما يلتئم مع قوله بعده ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ وضمير الجمع يعود إلى المشركين الذين تداولوا الملك وهو إبطال لشفاعاة آلهتهم بطريقة التنصيب على عموم النفي بدخول ﴿من﴾ على النكرة المنفية، ثم أردف بإبطال الإشراك في الحكم ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ وقرأ الشامي بتاء الخطاب وجرّم الكاف على أن ﴿لا﴾ ناهية، وهذا الخطاب الموجه إلى الرسول الجليل الأعظم أبلغ في الدلالة على النهي وأكشف لقبح المنهي عنه، وفيه تشنيع بالمشركين وتفضيع لذلك الشرك الذي تجمعت خيوطه إبان اللقاء بين الحفاة العراة وبين مبعوث الامبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس! ولما كان الشيطان اللعين هو الذي

حملهم على الشرك واتخاذ الشركاء، وقام بإغواء الأمم وتسخيرها لبني إسرائيل واستعبادها وتطويعها وجعلها منقادة لهم قائمة بخدمتهم؛ ناسب هذا التنبيه عليه والتحريض على قتال أوليائه الذين انطلقوا من نجد فصدق فيهم حديث رسول الله ﷺ: «**هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان**» قال العلامة علي القاري في المرقاة: وقوله: "هناك" أي في ناحية نجد وهو المعنى بقوله: "نحو المشرق" وقوله: "الزلازل" أي الحسية أو المعنوية وهي تزلزل القلوب واضطراب أهلها "والفتن" أي البليات والحن الموجبة لضعف الدين وقلة الديانة فلا يناسبه دعوة البركة لها "وبها" أي بتلك البقعة ونواحيها "يطلع" بضم اللام أي يظهر "قرن الشيطان" أي حزبه وأهل وقته وزمانه وأعوانه. وفي رواية للترمذي: «**منها يخرج قرن الشيطان**» وفي مسند أحمد: «**من هنالك يطلع قرن الشيطان وبها تسعة أعشار الشر**» وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا**» فقال رجل: وفي مشرقنا يا رسول الله، فقال: «**اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا**» فقال الرجل: وفي مشرقنا يا رسول الله، فقال: «**اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا، إن من هنالك يطلع قرن الشيطان وبه تسعة أعشار الكفر وبه الداء العضال**» وفي أشراط الساعة ما لا يخفى من ذكر أهل النفاق المفسدين في الأرض والمعلولين بعلّة والفسق والكفر المتعاونين مع شركائهم ضد الديانة الإسلامية مما ينزع عنهم صفة الحصانة ويدين حملهم للأمانة ويرد كيدهم في نحورهم ويكشف كنه توجههم القليبي في خدمة الشيطان! وقد أخذ الله ميثاقهم على التوحيد فتولوا وعصوا وظهر منهم النقض وحادّوا الله تعالى في ملكه ونازعوه في سلطانه بميثاق أمي رُسمت خطوطه عام 1730 وتم إعلانه عام 1919 ويُعرف بميثاق الأمم المتحدة.

وهذا الميثاق يضم دول العالم ويقوم على السلطات الآتية:

1- الجمعية العامة وتتألف من جميع أعضاء الأمم المتحدة وتناقش أي مسألة أو أمر يدخل في نطاق هذا الميثاق.

2- مجلس الأمن الدولي ويتألف من خمسة عشر عضواً من الأمم المتحدة منها خمسة أعضاء دائمين وهم أمريكا وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا ويتعهد وفق المادة 25 أعضاء الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق، ومجلس الأمن وفق المادة 42 أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه ويجوز أن تتناول هذه الأعمال؛ المظاهرات.

3- المجلس الاقتصادي والاجتماعي ويقوم بدراسات وتقارير عن المسائل الدولية في أمر الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة ويمد مجلس الأمن بما يلزم من المعلومات وعليه أن يعاونه متى طلب إليه ذلك وفق المادة 65

4- مجلس الوصاية الدولي ومهمته وضع وإخضاع الأقاليم تحت منظومة الأمم المتحدة.

5- محكمة العدل الدولية وهي الأداة القضائية الرئيسية للأمم المتحدة ويتعهد كل عضو من أعضاء الأمم المتحدة وفق المادة 94 أن ينزل على حكم محكمة العدل الدولية في أية قضية يكون طرفاً فيها.

6- الأمانة العامة حيث يكون لها أميناً عاماً بناء على توصية مجلس الأمن.

والأمين العام للأمم المتحدة هو الموظف الإداري الأكبر في هيئة الأمم المتحدة وعليه أن ينبه مجلس الأمن وفق المادة 99 إلى أية مسألة يرى أنها تهدد حفظ السلم والأمن الدولي.

وهذا الميثاق الذي صاغوا نصوصه وشرعوه لشركائهم يكشف طبيعة العلو الكبير في الأرض، ويشي بضخامة الدور الذي يقومون به تجاه الإسلام وأهله، ويصور نفوسهم المتلوية الخبيثة الخداعة اللئيمة الماكرة التي تجبن عن المواجهة وتتظاهر بالإسلام لتمزق الإسلام، وهي تختبئ خلف شركائها.

ويكفي أن يعرف المؤمن علاقة بني إسرائيل بالشیطان، ليدرك النقلة الضخمة التي أحدثها في دول الغرب، وإذا كان الشيطان قد تمثل لكفار قريش في هيئة شيخ من أهل نجد، فإنه قد فرّخ في فارس والروم وبسط عبقرية، وتمكن من السيطرة الفكرية والعقائدية على زعماء تلك الأمم ومفكرها.

وقد علم الشيطان اللعين أن السيطرة على المجتمعات البشرية تبدأ بتغيير خريطة العالم الذهنية وتوجيهها بمختلف وسائل توجيه العقول والتصورات النفسانية والتحكم بالنخب دون أن تدري للوصول إلى الحكومة الواحدة واعتلاء بني إسرائيل سدة الحكم! والمقلد قد يُنكر ذلك لكونه محجوباً باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد فإنه سمع من الآباء والشيوخ ومن وسائل الإعلام علوماً اطمأن إليها وثبت عليها ولم يخطر بباله خلافها، وهذا يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهو حجاب عظيم به حُجب أكثر الناس باعتقادات جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق فإن المجتمع اليوم قد مُني

عصوراً طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه أهل التضليل فاختلطت عنده بالعلوم الحق فتناول الناس عليها وارتاضوا على قبولها فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيته وتلقوها بالتسليم على مر الأيام ولذلك يعسر إقلاعهم عنها وإدراكهم ما فيها من تحريف عن الحق وليس لتمييزها إلا أهل الرسوخ أصحاب العلوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كل سبيل واستوضحوا خطيرها وسليمها فكانوا للسابلة خير دليل.

الإعجاز القرآني في توصيف أئمة الشرك والشركاء

الوصف الأول: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت

اتخذت بيتا

لما قص الله تعالى في سورة القصص قصة موسى وفرعون وامتحان بني إسرائيل وابتلائهم بفرعون، افتتح سورة العنكبوت منكرًا على من ظن أن مدعي الإيمان لا يفتن ولا يتميز بالامتحان وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين إذ بين عز وجل أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ولم ينفعه طوله وشركاؤه وماله وسلطانه ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده وتخلص إلى تمثيل اتخاذ أولياء من دونه باتخاذ العنكبوت بيتاً يخذل آوياً ويقتل ثاوياً والتمثيل أوقع في النفوس وأجلى للمعاني وهو أخص أنواع التشبيه وللتشبيه التمثيلي الحظ الأوفى عند أهل البلاغة، وقد شبه تعالى أئمة الشرك في بنائهم دولتهم بالعنكبوت التي تبني وتجتهد وأمرها إلى الخسار والهلاك فكذلك ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في ملكهم وتولوه من دون الله مضمحل زائل لا قوة له ولا معتمد،

وإذا صحَّ تشبيه ما اعتمدوه في ملكهم بيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن مملكتهم أوهن الممالك لو كانوا يعلمون! وإن شئت قلت: إن أوهن ما يعتمد عليه في بناء الممالك اتخاذ الشركاء لو كانوا يعلمون. وفي المراسيل لأبي داود من طريق يزيد بن مرثد أن رسول الله ﷺ قال: «العنكبوت شيطان فاقتلوه» وفي رواية: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه» وروى الثعلبي عن علي رضي الله عنه قال: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر» والأنثى تُصعد بيتها وتمد الشعرة ناحية القرون والأوتاد ثم تسدي من الوسط ثم تهبي اللحمه وتهبي مصيدتها في الوسط فإذا وقعت عليها فريسة تحرك ما هناك ارتبطت ونشبت بها فتركها على حالها حتى إذا وثقت بضعفها غلتها وأدخلتها إلى خزانتها وإن كانت جائعة مصتها من رطوبتها ورمت بها فإذا فرغت رمت ما تشعث من نسجها، وشبكته من أبرز الفخاخ في الطبيعة، والحرب الكيماوية تتخذ مستوى حديثاً من القوى مع سلاحها، عدائية حتى مع أولادها وزوجها حيث تقتله بعد إتمام عملية التلقيح، وبعض أنواع العناكب تترك الأنثى الذكر ليقوم الأبناء بقتله، وهناك أنواع أخرى تقوم الأنثى بتغذية صغارها حتى إذا اشتد عودهم قتلوا أمهم وأكلوها، ثم يقتل بعضهم بعضاً، فالبناء الاجتماعي والعلاقات الأسرية في بيت العنكبوت هشة مبنية على مصالح مؤقتة حتى إذا انتهت انقلب الأفراد أعداء وقام بعضهم بقتل بعض مما يجعل هذا البيت أوهى بيوت المخلوقات ويقال لبيت العنكبوت: الشُعُّ وحُقُّ الكهول والعنظل والكعْدْبَة، والعنكبوت مشتقة من العكب بمعنى الشدة في السير فكأنها لشدة وثبها أو لشدة حركتها عند قرارها أطلق عليها اسم العنكبوت، وقد أعدت لأعمال القتل...أنواعها كثيرة وتعتمد على خداع فريستها...تنصب

الفخاخ وتلاحق وتشل وتسمم، وإنما تنسج الأنثى فأما الذكر فإنه أحرق ينقض ولا ينسج! تعيش وحيدة ولا تعرف التعاون والتضحية والإيثار، ولا تقتل الحشرات فحسب بل تصطاد العناكب الأخرى، ولا تنتظر أن تأتي الفريسة إلى شبكتها بل ترمي شبكتها عليها، وقد زودها الله بسلاح سري لإغواء الفرائس إلى شبكتها، وعند وقوع الفريسة في شبكتها تقاوم... وكلما قاومت ثبتت نفسها أعمق فأعمق في الشبكة، وقد تختصر العنكبوت شبكتها إلى خيط واحد تتدلى في آخره نقطة من الشمع الجميل الأخاذ يعمل كصنارة صيد...تطور حياً جديدة لتصبح أكثر الحشرات المفترسة سيطرة على وجه الأرض، وأنواع أخرى من ذوات السموم تحفر بيتها في الأرض وتخرج في الليل كسائر الهوام! وإذا كانت العناكب تتفاوت في الأحجام والأشكال ونمط المعيشة فإنه يغلب عليها الإفساد وقد ذكرت مرتين وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَقُضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ كما يغلب عليها العدائية والقتل ويُشير إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ وقد ذكر الله تعالى في سورة العنكبوت ست حضارات من حضارات الأمم الغابرة وذكر مصارعها ثم أعقبها بقوله ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولما كان ضرب المثل للشيء لا يصح إلا من العالم بذلك الشيء وكان النصير على شيء لا يمكن أن يتوجه إلى معارضته إلا إن كان يعلمه ويعلم مقدار قدرته وعدة جنوده، وصل بذلك أن هذا شأنه سبحانه وأن شركاءهم الذين يتناصرون بهم في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات المدلّمة في غاية البعد عن ذلك فقال مشيراً إلى إصغارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا

يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم) والغرض تثبيت المؤمنين ووعده الله بنصرهم وهزيمة الشركاء ومُلقنيهم من أهل الكتاب، قال العلامة الألوسي: و(ما) استفهامية منصوبة بتدعون و(يعلم) معلقة عنها فالجملة في موضع نصب بها و(من) الأولى متعلقة بتدعون على ما هو الظاهر و(من) الثانية للتبيين وجوز كونها للتبعيض، ويجوز كون (ما) نافية و(من) الثانية مزيدة وشيء مفعول تدعون أي لستم تدعون من دونه تعالى شيئاً كأن ما يدعونه من دونه عز وجل لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً وجوز كونها مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر مفعول (يعلم) على أنها بمعنى يعرف ناصبة لمفعول واحد و(من) تبعيضية أي يعرف دعاءكم وعبادتكم بعض شيء من دونه وقيل (من) للتبيين و(شيء) بمعنى ذلك المصدر وتنوينه للتحقير أي يعرف دعوتكم من دونه هي دعوة حقيرة وجوز كونها موصولة مفعول (يعلم) بمعنى يعرف ومفعول (يدعون) عائدها المحذوف و(من) إما بيان للموصول أو تبعيضية وجوز زيادتها على هذا الوجه وما بعده ولا يخفى ما فيه والكلام على الوجهين الأولين في (ما) تجهيل للكفرة المتخذين من دون الله تعالى أولياء لما فيهما من نفي الشيئية عما اتخذوه ولياً والاستفهام عنه الذي هو في معنى النفي لأنه إنكار وفيه تأكيد للمثل لأن كون معبودهم ليس بشيء يعاب به مناسب ولذا لم يعطف وعلى الوجهين الأخيرين فيها وعيد لهم لأن العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارة عن مجازاتهم عليها وكذا العلم بما يدعونه عبارة عن مجازاتهم على دعائهم إياه، وترك العطف فيه لأنه استئناف ويجوز إرادة التجهيل والوعيد في الوجوه كلها، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) في موضع الحال ويفهم منه التعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه. اهـ. والكلام في الآية صريح

في إبطال إلهية إبليس وجنوده فيما يسمى بالأمم المتحدة وفي أنها بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية القصية كالمعدوم البحت، ولما شابهت المعدومات في انتفاء الفائدة المزعومة لها استعمل لها التركيب الدال على نفي الوجود على طريقة التمثيلية، وقرئ بالتاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء. وفي الآية تشخيص صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود... يعني أن هذه الآلهة ليست بشيء مهما ملكت من وسائل القوة والحضارة ووسائل البطش والتكيل، فالله عز وجل هو صاحب الملك والسلطان ونفوذ الإرادة والمشیئة، لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه، ولا يساويه أحد في ملكه ولا يساميه مُسام في سلطانه فيكون شريكاً في ربوبيته أو نداً في ألوهيته. والأمثال نموذجات الحكمة، ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال، ومن عقل الأمثال سماه الله تعالى عالماً ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ وفي مسند الحارث أن عمر وأبا هريرة وأبي بن كعب دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: من أعلم الناس؟ قال: «العاقل» وفي رواية: «قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له» ثم ذُلت السورة بالتنويه بشأن الجهاد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي من جاهد بكليته في ذاته تعالى هداه الله لمعرفته وإلى طرق الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة والمعارف الإلهية المقربة إليه سبحانه فيزداد حباً وقرباً على وجه الترقى الدائم... ولما كان المجاهد للأعداء يفتقر إلى ناصر ومعين، ذُيل الآية بقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن نهض إلى مقام الشهود والعيان كان من أهل الإحسان، فإن جهاد أولياء

الشیطان لیس کجھاد الخدم والغلمان! وهذه خاتمة جامعة فاذة شريفة مجاوبة لمفتتح السورة ناظرة الى فريدة قلاذتها ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ لائحة الى واسطة عقدها ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ ولما ذكر تعالى المجاهد الصالح عطف عليه ذكر المنافق فقال ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي إذا أمر المنافق بالجهاد في سبيل الله، رفض ما أمر به وجعل ما يدخل عليه من البلية في الجهاد كعذاب الله في الآخرة وهو لا يقر به، ولئن حصل للمؤمنين فتح ليقولن إنا كنا معكم! ويفسره قوله تعالى ﴿الذين يترصبون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ ولما كان التقدير: أليس أولياؤنا المتفرسون بأحوالهم عالمين؟ عطف عليه منكرأ قوله ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ ثم صرح بالعلم واعدأ متوعداً عاطفاً على ما أفهمه النظم ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ والآية بمنزلة ما جاء في الخبر: «من أسر سريرة ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر» ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان» والكلام في الآية السابقة متصل بقوله تعالى ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين، أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون﴾ والسبق مستعار للنجاة ممن يطلب والتفلت من سلطته فشبه المتخلص من طالبه بالسابق، وجملة ﴿سوء ما يحكمون﴾ تذييل لما قبلها من إنكار حسابهم وتشنيع إشراكهم ثم ختمت سورة العنكبوت بما تضمنته سورة القصص من الحديث عن الذين استخلفهم الله في بيته العتيق وتصحيح الانحراف الذي وقعوا فيه.

الوصف الثاني: ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً

سليماً لرجل هل يستويان مثلاً

هذه الأمثال يضربها الله في كتابه يصور فيها حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك ويصور حالة المشركين مع شركائهم، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغلبة كما قال سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فيبقى المشرك متحيراً لا يدري أيّ هؤلاء الشركاء يستنصر وعلى أيّهم يعتمد! فهمه شفاع وقلبه أوزاع! أمّا من يثبت إلهاً واحداً فهو قائم بما أمره، منته عما نهاه، له إله واحد يعبد سائماً له، كما في القراءة الأخرى ﴿سائماً﴾ بصيغة اسم الفاعل أي: خالصاً، وذلك الإله ينصره على أعدائه ويعينه على مهماته، فأَيّ هذين العبدین أحسن حالاً وأحمد شأنًا؟ وهذا مثل ضرب في غاية الحُسْن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد. وقد أثنى المولى سبحانه ونزه ذاته العلية بكلمة جامعة شملت الحماد كلها وحصرتها ﴿الحمد لله﴾ وذكرُ التَّحْمِيدُ بالإفراد يدل ضمناً على التنزيه وقد علم سبحانه عجز خلقه عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حمد نفسه بما افتتح به خطابه... وهذا خطيب الأولين والآخرين سيد الفصحاء وإمام البلغاء لما سمع حمده لنفسه ومدحه سبحانه لحقه علم أن تقاصر اللسان أليق به في هذه الحالة فقال: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» وجملة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم، وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأن منهم من يعلم الحق ويكابّر استبقاءً للسلطة

واستجلاًباً لطاعة دهمائهم فهذا ذمّ لأكثرهم بالصراحة، وهو ذم لأقلّهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض.

(فمن أظلم من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) الفاء تفرّيع على الآية المتقدمة (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) تفرّيع القضاء على من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه، وهم المنافقون الذين كذبوا على الله بنسبة الشركاء إليه وكذبوا بالصدق وهو القرآن، وادّعوا أنهم أهل التوحيد! والاستفهام مرادّ به أنهم أظلم الظالمين وأنه لا ظالم أظلم منهم، فال معناه إلى نفي أن يكون فريق أظلم منهم فإنهم أتوا أصنافاً من الظلم العظيم: ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ ألحقوا به شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنه أمرهم بذلك، وظلم الرسول بتكذيبه، وظلم القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلم المؤمنين بالخداع والأذى، وظلم الحقائق بقلبها وإفسادها، وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد، وعدل عن الإتيان بضميرهم إلى الإتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه كونهم أظلم الناس وأكذب الناس!

الوصف الثالث: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا

أن يهدي؟

(قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون) لما بيّن تعالى عجز شركاء بني إسرائيل عن الإبداء والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل الحكمة التي هي من خصائص الربوبية والألوهية، بيّن

عجزهم عن هذا النوع من صفاته تعالى وهو الهداية إلى الحق، وأشار سبحانه إلى أن شركاءهم الإنسيون مسخرون لا يتحركون إلا بتوجيهاتهم، وإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق التهكم بهم أي أنتم والذين زعمتم أنهم شركاء! وقوله ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي﴾ استفهام تقريرى أفاده النظم الكريم من قصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأن الذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع إذ المقصود الأعلى هو الهداية، أما الذي لا يهتدي إلى الحق فلا يحق له أن يتبع، وعبر عن أتباعهم لشركائهم باستفهام تعجبي! إذ كيف يتأتى النصر والتمكين ممن لا خير فيه البتة وما هو إلا سراب زائل وعكس عاطل وظن باطل بدليل قوله بعده ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾ وأريد بالهدي في قوله ﴿إلا أن يهدي﴾ التوجيه أي لا يهتدي إلى العلم والحكم وفيه إشعار بكون شركائهم مسخرين فشبههم بالخمير على طريقة التعريض، ورمز إلى ذلك بما هو من لوازم السير وهو التوجيه! وقد شوهده اللعين سعود الفيصل في أحد الفنادق التركية برفقة السفير الأمريكي وكان هذا الأعجمي ينفذ توجيهاته مفاوضاً جهلة المقاتلين السوريين! وجملة ﴿فمالكم كيف تحكمون﴾ تفريع استفهام تعجبي على اتخاذهم شركاء يعاندون فيهم العزيز الحكيم، وجملة ﴿كيف تحكمون﴾ استفهام يتنزل منزلة البيان لما في جملة ﴿فمالكم﴾ من الإجمال ولذلك فصلت عنها، فهو مثله استفهام إنكاري تعجبي من حكمهم الضال إذ حكموا بإشراك من لا يهتدي لينازعوا الحكم من يهدي للحق وهو الله سبحانه الذي خلقهم وأنعم عليهم ووهبهم الحكم والعلم فهو تعجيب على تعجيب!! والخطاب في الآية للمستخلفين في الأرض كيما ينظروا

في الأدلة التي نصبها لهم بما وقفهم على الشرائع بإنزال الكتب وإرسال الرسل وبما أظهر لهم من الدلائل الدالة على وحدانيته... وهذه الأسئلة: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي؟ تملأ الحس البشري بالرهبة والروعة كما تملؤه بالحذر واليقظة، وهذا الحق الواضح يعترف علماء بني إسرائيل بمقدماته، لكنهم ينكرون دلالاته، ولا يقومون بمقتضياته، وهذه الأسئلة جوابها مقرر ووقائعها حاضرة بين أيديهم، ولذلك جاء تقرير الإجابة المفروضة التي تحتمها البديهة والمقدمات المسلّمة معقباً عليها بقوله **(فما لكم كيف تحكمون)** وهذه الآلهة كالأنعام المسخرة لا تهتدي وتتحرك وتُصرّح وتُأمر وتُنهى إلا بتوجيهات بني إسرائيل كما في القراءة الأخرى **(أمن لا يهدي إلا أن يهدي)** بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال، وقرأ شعبة بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، وقرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال، وقرأ أبو عمرو بفتح الياء واختلاس فتحة الهاء وتشديد الدال، وهذه القراءات من ظواهر الإعجاز في كتاب الله، لا يقف عندها إلا الراسخون في العلم، رغم أنها فاشية على ألسنة القراء، منثورة في كتب القراءات، وربما تخفى أسرارها على أهل الصنعة لأنها روحانية لا يستشفها إلا من علّمه الله ثم لا يصيبها إلا في الفرط والندرة... ومن تأمل هذه الآية رأى معانيها ظاهرة جليلة فهناك أمم مذلة لبني إسرائيل يديرونها حيث شاؤوا كالبهائم المسخرة بل كالدُمى المندحرة... مسوخ في هيئة البشر! روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضرها ففالت: إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا

للحرث» فقال الناس: سبحان الله بكرة تكلم! فقال: «فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر» ويستفاد من الحديث أنه يرخص للعارف إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها بعبارة رقيقة وإشارة لطيفة بحيث لا يأخذ العوام منها شيئاً فقد كان الجنيد - أذاقنا الله حلاوة مشربه - يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد فقليل له في ذلك فقال: علمنا محفوظ من أن يأخذه غير أهله.

الوصف الرابع: وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر كلام الخليل عليه السلام مع قومه في قوله (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً) شرع في إكمال قصته عليه الصلاة والسلام معهم وأنكر عليهم عبادة الأوثان، واللفظ القرآني يعم الأتباع والمتبوعين جميعاً فإن الأتباع يعبدون أوثاناً يصنعونها بالنحت والتصوير ويفترون بها الإفك في أنها آلهة، وملوكهم يعبدون إبليس وجنوده - وعبر عنهم بالأوثان على التوسع والمجاز - فأنكر عليهم اتخاذ الأوثان مودوداً أو مودة بينهم كقوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وقال لهم: إنما اتخذتم من دون الله آلهة للمودة أي: فعلتم ذلك للمودة وهذا على قراءة من نصب و"ما" مع "إن" حرف واحد، وأما من رفع المودة فإنه جعلها خبر إن و"ما". بمعنى الذي أو على إضمار مبتدأ أي: هو مودة أو تلك مودة أي: إلفتكم وجماعتكم مودة بينكم، وإن شئت جعلت "مودة" مبتدأ و"في الحياة الدنيا" الخبر. قاله مكِّي بن أبي طالب القيرواني. قلت: وهذه القراءات متقاربات

الجوهر، غزيرات المعاني، بديعات الدلالة، دقيقات المسرب. قال صاحب التحرير والتنوير: ومودة خبر "إن" تكون كتابة إنما متصلة من قبيل الرسم غير القياسي فيكون الإخبار عنها بأنها مودة إخباراً مجازياً عقلياً باعتبار أن اتخاذ سبب عن المودة ولما في المجاز من المبالغة كان فيه تأكيد للخبر بعد تأكيده بـ"إن" فيقوم التأكيدان مقام الحصر إذ ليس الحصر إلا تأكيداً على تأكيد كما قال السكاكي أي لأنه بمنزلة إعادة الخبر حيث يثبت ثم يؤكد بنفي ما عداه. وقال ابن عطية: وفي هذه التأويلات مجاز واتساع في تسمية الأوثان. اهـ.

وهؤلاء اليوم أشبهوا أشياعهم ونظراءهم من أهل الكفر من الأمم الغابرة!

فقد جاء في المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

إنهاء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب...

وجاء في المادة 14 ما يلي:

للجمعية العامة أن توصي باتخاذ التدابير لتسوية أي موقف مهما يكن منشؤه تسوية سلمية متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم ويدخل في ذلك المواقف الناشئة عن انتهاك أحكام هذا الميثاق الموضحة لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها...

وهذا الميثاق هو النواة الوهابية السعودية التي تكونت حولها الأمم المتحدة وصبغت بصبغتها ورسمت لها مسارها ووضعت لها إطارها، والميثاق ينص على اتباع بني إسرائيل أهواء من قبلهم في اتخاذ آلهة يحبونها ويرجونها وينصرونها

ويستنصرون بها! وقوله ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ كقوله تعالى ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ وكقوله ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ ثم صرح سبحانه بالعذاب إيضاحاً لحالهم وحال آلهتهم فقال ﴿ومأواكم النار﴾ وهو في معنى قوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ ولما ذكر تعالى لعن الأتباع القادة ولعن القادة الأتباع وطرحهم في النار، بين أنه ما لهم من مخلص يخلصهم ولا ناصر ينصرهم فقال ﴿وما لكم من ناصرين﴾ وهو كقوله تعالى ﴿واخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ وقد نبه المولى في سورة بني إسرائيل أن هذه الآلهة لو كانت مع الله لا بتغت إلى ذي العرش سبيلاً بالمغالبة وهذا محال ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ ولذلك أعقب هنا بالتنزيه المطلق بعد كمال استعلائه على الوجود ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ لينبه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد إقامة الدليل على كونه سبحانه منزهاً، وشبيهة بهذه الآية ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أخرج ابن ماجه وابن حبان والطبراني وأحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» والاسم ما دل على ذات أو صفة، وأسماء الله دالة على ذاته تعالى، وإذا كان التنزيه متعلقاً باسمه فتعلق التنزيه بذاته أولى، وجيء بالاسم هنا ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ للدلالة على الصفة المنبئة عن ربوبيته تعالى قصد بها المبالغة في تنزيه الله وإبطال قول فرعون ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وهذه نكتة من دقائق معاني التنزيل،

فاستعمال لفظ الاسم في هذا بمنزلة استعمال الشعار المختص بالله تعالى، كما جاء في حاشية سورة الرحمن ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي تعالى اسمه الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن الربوبية، والإجلال إشارة إلى التسبيح، والإكرام إشارة إلى التحميد، وفي حديث أبي سعيد عند النسائي قال: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: «سُبْحَانَكَ اللهم وبحمديك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» ونحو هذا قوله تعالى له عليه الصلاة والسلام ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وقال ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ لأنه لا بدّ في أول السلوك من الذكر باللسان مدة ثم يزول الاسم ويبقى المسمّى فالدرجة الأولى هي المرادة بقوله "واذكر اسم ربك" والمرتبة الثانية هي المرادة بقوله "واذكر ربك" وفي استيفاء مباحث ذلك طول يخرج عن الغرض وهذا شذا عبقة صوفية، وفي استحضار الجلالة بعنوان ﴿رَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضمير المخاطب ﷺ إشارة إلى مضمون الرسالة التي حملها، وإذ عُذّي فعل الأمر بالتسبيح هنا إلى اسم فقد تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله بطريقة التوصيف بالأوصاف المقدسة لإثباتها إلى ما يدل على ذاته تعالى من الأسماء والمعاني، ولما كان أقوالاً كانت متعلقة باسمه تعالى باعتبار دلالته على الذات، فالمأمور به إجراء الصفة الرفيعة على الاسم الدال على الربوبية التي جردها بنو إسرائيل! ومعنى قوله تعالى ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: نزه اسم ربك عما يقول الكافرون بذكر اسمه المنبئ عن ربوبيته وعلوه، وهذا آيل إلى تنزيه المسمّى سبحانه عن الشركاء، وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به يسمى تسبيحاً، وإثبات الكمالات والمحامد لله تعالى يسمى حمداً، والإثبات والتنزيه هما أصل الإيمان وأساس التوحيد، وقد يُفرد سبحانه ذكر التسبيح في مواضع لأنه ذكر في مقابله

الحمد مفرداً في مواضع أخرى على أن ذكر التحميد بالإفراد يدل ضمناً على التنزيه فإذا قلت: الله سميع بصير هذا إثبات وحمد وفي ضمنه تنزيه عن ضدهما وإذا سبحته ونزهته عن النقائص والعيوب فقد أثبت له الكمالات والمحامد ضمناً ففي التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به وفي الحمد إثبات الكمالات اللاتئة به ولذلك جاءت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة بالحث على الإكثار من التسبيح والتحميد لما يترتب عليهما من الفضائل والأجر الكبير.

الوصف الخامس: أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟

الاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار، وصيغة المضارع في يشركون دالة على تجدد هذا الإشراك منهم، وينتج من هذا التقرير أن الكلام لا يقتصر على الآلهة الساذجة في جاهلية العرب القديمة، بل يذكُر الآلهة العاقلة المدعاة في جاهلية العرب الحديثة، بدلالة ضمائر العقلاء في قوله **(وهم)** وقوله **(يُخلِقون)** وما بعده من الآيات... وقوله **(ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)** أي عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم ولا مدافع عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة على نحو ما ورد في سورة هود **(فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء)** وأين كانت آلهتهم التي اتخذوها من دون الله حين سقطت دولتهم الأولى والثانية؟ وقد أشبعت سورة الأعراف من أفانين قوارع المشركين وعظمتهم وإقامة الحجة عليهم وفضح ضلالهم وفساد معتقدهم والتشويه بشركائهم، وتخلل ذلك كله التسجيل بمكابرتهم والتعجيب منهم كيف يركبون رؤوسهم وكيف يتأون بجانبهم وكيف يصمون أسماعهم ويغمضون أبصارهم

عما دعوا إلى سماعه وإلى النظر فيه. ولما تبين من هذا الاستفهام الإنكاري ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾ المعجب من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغيبة أن من أشركوه ليس فيه نوع قابلية لما أهلوه؛ أتبع ذلك في أسلوبه تعجباً آخر منهم أشد من الأول فقال تعالى ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، فيكون العدول من الغيبة إلى الخطاب أوقع في الدمغ بالحجة، والمقصود ببيان عجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على البغية والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تحصل للطالب والخطاب لأئمة الشرك بطريق الالتفات بدلالة ما بعد وفيه إيذان بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيك أي وإن تدعوا الجن إلى أن يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم ولا يقدرّون على ذلك، ويحتمل أن يكون الخطاب للرسول والمؤمنين وضمير النصب للكفار أي وإن تدعوا الكفار إلى الهدى لا يقبلوا منكم فدعائكم وصمتكم سيات أي ليست فيهم قابلية قبول ولا هدى كما قال تعالى ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ثم بيّن أن ذلك ليس بأمر عارض بل هو مستمر دائم ﴿سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون﴾ ثم أخبرهم بأن شركاءهم الذين يتناصرون بهم في الأمور المهمة عباد أمثالهم وتحداهم وقرعهم بالعجز ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أي أن شركاءكم الذين تدعوهم من دون الله عباد مخلوقون أمثالكم وليسوا بخالقين، وإذا تحقق عجزهم عن خلق أنفسهم انتفت عنهم أسباب النجدة والنصرة وانتفى عنهم كل ما يهتمكم من دفع ضرر

أو جلب نفع، ثم أكّد عجزهم فقال ﴿أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ والمعنى أن الشركاء كلهم في قبضة القهر مصروفون بقدرة القهار، ليس لهم أرجل يمشون بها بل بالله تعالى إذ هو الذي يمشيهم وكذا يقال في الأيدي والأعين والآذان فلا تخف منهم أيها المسلم في شيء، إذ لا يقدرّون على شيء، ولا تركز إليهم في شيء، إذ ليس بيدهم شيء، ووصف الأرجل بـ﴿يَمْشُونَ﴾ والأيدي بـ﴿يَبْتَطِشُونَ﴾ والأعين بـ﴿يَبْصُرُونَ﴾ والآذان بـ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ليكون توطئة لقوله ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ والمعنى: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فِي الْحَكْمِ لِيَنْصُرُوكُمْ عَلَيَّ فَتُسْتَرْجِحُوا مِنِّي، وقد تحداهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إياه وذلك نهاية الاستخفاف بهم وبشركائهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك، وانتفاء نصرّة الشركاء أدل على عجزهم وعجز متخذيهم، وفي هذا التحدي تعريض بأنه سينتصر عليهم ويُتبرّ شركاءهم، ولن يبلغ المسلم شيئاً إلا بمثل هذه الثقة وتلك العزيمة وذلك اليقين، وفي الآية أمرٌ بالتوكل على الله ونهيٌ عن المبالاة بغيره تعالى كما قال نوح لقومه ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ والقدر الذي يرتبط التوكل به أن ينكشف لك أيها المؤمن أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه اتكالك فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضحاً أتم من المشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام

يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك... وفي قوله ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ إشارة إلى تحقق عجزهم عن كيد المؤمنين، والآية متصلة في المعنى بقوله ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ لإبانة المضادة بين شأن ولي المؤمنين وحال أولياء المشركين، وفي الآية تعليل بعدم الاكتراث بتألب المشركين واستنصارهم بشركائهم ووثوق المؤمن بالنصر عليهم بما دل عليه الأمر والنهي التعجيزيان فهؤلاء الشركاء سيجري فيهم قدر الله النافذ الذي يجري على متخذيهم، وإجراء الصفة لاسم الله بالموصولية ﴿الذي نزل الكتاب﴾ فيه تنويه بشأن الكتاب، والتعريف في الكتاب للعهد أي الكتاب الذي عهدتموه وفهمتموه وعجزتم عن معارضته، ومجيء المسند فعلاً مضارعاً لقصد الدلالة على استمرار هذا التولي وتجدده وأنه سنة إلهية، فكما تولى النبي يتولى المؤمنين أيضاً، وهذه بشارة للمسلمين الصالحين المستقيمين على صراط نبيهم بأن ينصرهم الله كما نصر نبيه وأوليائه.

﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي حين يجري قدر الله في الموعد المحدد، وفي هذا إبطال لولاية ونصرة شركائهم، ويبدو أن مورد الآية في جعلهم شركاء من الإنس ويتضمن ذلك ما ذكره المفسرون من إشراك الأصنام فإن حيي بن أخطب وأضرابه لما نزلوا على أبي سفيان قال لهم: إن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا. وأما الكلام في الآية السابقة فموردها في جعلهم شركاء من الجن والله تعالى أعلم، والخطاب في قوله ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون﴾ للرسول والمؤمنين وضمير النصب للكفار أي وإن تدعوا الكفار إلى الهدى لا يقبلوا، ويحتمل أن يكون الخطاب لقادة الشرك وضمير النصب لشركائهم أي وإن تدعوا

شركاءكم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم مطلقاً أو في خصوص الكيد المعهود لا يسمعوا ويُحمَل السماع على الاستجابة لأنها فرع السماع كما يُحمَل البصر على العلم ونظيره قول إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني آلهته من الإنس والجن، وجاء التعبير في مطلع القصة بصيغة شاملة للأصنام إيجازاً في الكلام وتعريضاً بالملا في إضلال الأتباع! وكان آزر من الكبراء الذين أشركوا مع الله تعالى آلهة في الحكم وأغرقوا الأتباع في شرك العبادة... والخطاب في قوله ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لسيد المخاطبين بطريق التجريد أي أن المشركين لشدة إعراضهم عن الحق لم ينتفعوا بذلك النظر فصاروا كأعمى كآبائهم الذين لم يبصروا خصائص ما أودعناه فيك، وبركات ما أجرينا في الخليقة بك، وفي الكلام تنبيه على أن ما فيه عليه الصلاة والسلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين، وقد أثبت المولى سبحانه للمشركين النظر ونفى البصيرة عنهم، ومن أبصر المصطفى ﷺ ظهرت عليه بركات رؤيته بقدر ما كشف له من البصيرة، ألا تراه يقول: «طوبى لمن رآني» وقد رآه حيي بن أخطب وعزير بن أبي عزيز ورافع بن حريملة... وشاهدوه، ولكن طوبى لمن رآه بالموضع الذي وضع في مشاهدة عظيم بركاته التي لو فاضت واحدة منها على أهل الأرض لو سعتهم... والمقصود من تخصيص النصر في قوله ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ وقوله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ

ينصرون) تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة شركائهم على نصرهم إذ كان النصر أشد مرغوب لهم والله أعلم، وبعد أن ختمت السورة باليأس من ارعوائهم وبانتظار ما سيحل بهم من العذاب بأيدي المؤمنين، شرع في استئناف غرض جديد يكون ختاماً لهذا الخوض البديع **(أخذ العفو)** وهذا الخطاب للنبي ﷺ ويدخل في عمومه جميع أمته، والمعنى: الأمر بأخذ العفو من أخلاق الناس - كما جاء في السنن - والفضل اليسير الطيب من كل شيء، ثم جاءت العبارة الأخرى داعية إلى توحيد الله **(وأمر بالعرف)** وعُرف الشيء أعاليه وهو التوحيد، ثم ذيلت الآية بالأمر بالإعراض عمن جهل **(وأعرض عن الجاهلين)** أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم صيانة لك عليهم ورفعاً لقدرك عن مجاوبتهم، وما أعز هذا الخلق فإن فيه راحة قلب وعزة نفس سلامة صدر وقد تخلق بخلقه العالي وتأدب بأدبه المبارك صدور الأمة المحمدية وأكابرها وعقلاؤها فوصلوا إلى الله تعالى وأظهر الله سبحانه على أيديهم الخوارق ومكنهم من الاطلاع على الحقائق ويتضمن الأمر في الآية التحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب والانتظام في سلك مقصدهم حتى تتحقق الغيرية المذكورة في خاتمة الفاتحة **(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)** فإن المؤمن لما طلب أشرف طريق وسأل أحسن رفيق استعاذ من أولئك الذين شاهدتهم في التيه عائرين وعن القصد جائرين أو حائرين...ولمّا كان الشيطان هو الصارف عنه الملبّس الشرك في صورة التوحيد لا جرم حسن التعقيب بقوله **(وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعد بالله)** فإن اللعين هو الذي أغوى بني إسرائيل وحملهم على اتخاذ الشركاء! وقد كشفت السورة في مطلعها عن حقيقة الصراع بين آدم وإبليس وطريقة إبليس الخدّاعة في إغواء آدم وزوجه ثم ذيلت السورة بذات

الإيقاع، فله دره من آخر عائق الأول، ومقطع رد إلى مطلع تنزل. ولما كان القرآن تذكرة للمتقين الذين إذا صُرفوا عن الأصل إلى العارض وعن المتبوع إلى التابع تذكروا، علله بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ثم أتبعه وصف الأئمة المضلين وغش أوليائهم لهم فقال ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ يريد أن شركاءهم من الجن لا ينصروهم بل يضروهم بزيادة الغي أي يلجؤوهم إلى الشرك والضلالة ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، قال ابن عباس: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يسأمون. ثم بيّن تعالى ما يطلبونه من خوارق مخصوصة على سبيل التعنت ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ ولما كان المقام داعياً إلى السؤال في تعليم الجواب، أسعف ذلك بقوله معظماً شأن القرآن الهادي إلى الحق المبين النازل بفضائح المشركين ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولما كان الإنصات في الظاهر من آداب أهل الباب والإنصات بالسرائر من آداب أهل البساط، أوجب سبحانه ذلك وقت قراءة القرآن فقال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وقد ذكر المولى سبحانه في السورة ست حضارات استعصت على ربها ورفضت حَكَمِيَّتَهُ فحكمها الشيطان وقادها إلى الجحيم، وفصلت السورة جزءاً من الحديث عن بني إسرائيل وحَكَمَتْ بضلالهم وطغيانهم ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والعمة انطماس البصيرة والتردد في الضلال والتحير وفعله عَمَهُ فهو عامَّةٌ وأعمه أي يخبط خبط الذي لا بصيرة له أصلاً فلا يتعدَّ حداً إلا عمه فلم يرجع عنه فهو أبداً متزايد الطغيان! ونحوه في آية البقرة ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وإنما أضاف الطغيان لضمير

المنافقين إشارة إلى تفضيع شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه وأنهم اختصوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم، وفي سورة بني إسرائيل ذكر الحق أنهم يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ وهؤلاء لا حظ لهم في الهدى لأنهم كفروا بالوحدانية وأحدثوا في الدين من البدع والضلالات ما لا يأتي عليه الحصر، مسارعين في الكفر، وقلّبوا الأمور على كر العصور وتعاقب الدهور، مستترين بتبعية الكتاب والسنة، مرددين قول خير البرية: «من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وكتاب الله أصدق الحديث لأنه برهان ما في سائر الكتب ودليل صحتها فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة، وأحسن الهدي والسمت والسيرة والطريقة ما جاء به سيدنا محمد ﷺ لأن نور الأنبياء مستمد من نوره، وشر الأمور التي أحدثها المبتدعون المضلون على خلاف أصول الدين وفرقوا الأمة إلى ثلاث وسبعين.

﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ أي لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة لأن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصر يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره، وهذا إخبار عن حالهم مع آلهتهم في الدنيا وفي الآخرة، وسبق قوله ﴿ولا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ لبيان بطلان نصره شركائهم وخيبة

رجائهم وانعكاس تديبرهم أي لا يستطيعون نصرهم في الدنيا حال كونهم معدون لحفظهم والذب عنهم فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصر يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره، وفي الآخرة محضرون معهم في النار لا يدفعون عنهم بل يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم، وجعلهم جنداً من باب التهكم والاستهزاء وكذلك لام لهم الدالة على النفع. وفي الحديث عند الإمام أحمد: «يجمع الله عز وجل الأمم في صعيد يوم القيامة فإذا بدا لله عز وجل أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحمونهم النار». قال تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها كل فيها خالدون﴾ أراد آلهتهم في الحكم.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ في تفسير هذه الآية لطائف إحداها: إبطال شفاعة أوليائهم، والثانية: إبطال نصره شركائهم وإن شئت قلت: عجزهم عن الغلبة بشركائهم وقوتهم والثبات له تعالى والمقاومة معه وعجزهم عن الانفلات من قبضته عز وجل والهروب من عذابه وفيها إشارة إلى إبطال اغترارهم بتأخير الوعيد الذي توعدوه في الدنيا أي أنتم في قبضة القدرة فلا تفوتوني في الأرض ولا في السماء ولا تغلبوني بأسلحتكم الأرضية والجوية ولا بآلهتكم الجنية والإنسية وما لكم من ولي يشفع ولا نصير يدفع كما وقع في الآية الأخرى ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ وجيء بالخبر جملة اسمية في قوله ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ للدلالة على ثبات الخبر ودوامه أي نفي إعجازهم ثابت لا يتخلف فهم في مكنة خالقهم، ولما آيسهم من الانفلات بأنفسهم في

جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات بشركائهم في دفع العذاب عنهم بالسعاية والنصرة والمدافعة عنهم فقال ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لكم ولي يشفع ولا نصير ينصركم على الله فتغلبونه كقوله جل شأنه ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ قال الإمام الطبري: يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصرء.

واعلم أيها المتحقق بتوحيد الحق أن الشفاعاة التي أبطلها الله: شفاعاة الشريك فإنه سبحانه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعاة الملائكة والنبين والشهداء والصالحين للمؤمنين، وقد أخبر عز وجل أن حال ملكه للسماءات والأرض يوجب أن تكون الشفاعاة كلها له وحده وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإن الملائكة والنبين لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه إلا بعد إذنه لهم فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ليتقدموا ويشفعوا له عند الله فهو مستهزئ بربه متلاعب بدينه! وحكى واقع المستخلفين إذ يعبدون من لا يملك بهم دفع الضرر إن عصوهم وتركوا عبادتهم ولا يملك جر النفع إن عبدوهم كما قال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماءات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقولهم "هؤلاء شفعاؤنا عند الله" هو في حقيقته كفر في صورة السخرية والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر! أرادوا إثبات نصرة أهتتهم من حيث إنهم شركاء لله في الإلهية والشفاعة هنا النصرة التي أثبتها وسنها

أئمة الشرك وقد صرح المولى عز وجل ببطالانها كما جاء في مطلع السورة ﴿يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن﴾ فإنه تعالى لما أثبت أنه يدبر الأمر يعني يحكم ويتصرف في ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه، أتبع ذلك بنفي أن يكون شفيع عنده يضطره إلى قبول الشفاعة.

سورة ص

المقصود منها - والله أعلم - بيان ما ذكر في آخر الصفات من الأمر بمفارقة أئمة الشرك ومفارقة شركائهم وإبصارهم وإبصار شركائهم وكل من سلك مسلكهم وأنه سبحانه صادق في وعده ووعيده مستحق الحمد لذاته وصفاته وأن جنده هم الغالبون وإن تأخر نصرهم وهو عين ما افتتحت به السورة وعلى ذلك دلت تسميتها بحرف "ص" فإن له من الصفات العالية ما لا يخفى من الفخامة والضحامة، ومن صفاته "الصفير" والصفير عند العرب يعني إعلان الحرب! وهذه طريقة القرآن يطرق قلوب المشركين بإيقاع مزلزل ويعلن الحرب عليهم! وحروف القرآن وكلماته وعباراته وآياته كلها إعجاز وكلها إبداع وكلها إichاء وكلها دلالات وهي بجملتها تنطق بتوحيد الله... وكل جيل يدرك منها ما يطيقه ويلحظ منها ما يراه حسب توفيق الله. ولما كان القسم لا يحسن إلا بما يعتقد المقسم له شرّفه فقال ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ أي ذي البيان وأنواع الدلائل والبرهان الهادي إلى الرشد والعرفان المنزل من عندنا لتبيين أحكام دين الإسلام وتحقيق شعائر التوحيد والإيمان والتنبيه على مراتب الإحسان المنتهي إلى الكشف والعيان، ثم ذكر تعالى إعراضهم عن القرآن ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص، وعجبوا أن

جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة - ولما حكى سبحانه تعجبهم من رسولهم ونسبتهم له ولما جاء به إلى السحر، أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) والغرض من قولهم هذا التنبيه على توغلهم في الكفر إذ جاءهم منذر يدعوهم إلى التوحيد فعدّوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار وكان الأولى أن يعترفوا برسالته ويبادروا بتصديقه، واعلم أن كفر أهل الكتاب أشد من كفر غيرهم لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام فهم الذين بثوا بين المشركين الأديان الباطلة والعقائد الزائغة والأعمال القبيحة وأيدوهم في إنكار نبوة محمد ﷺ بما هو أتقن من ترهات المشركين إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئاً من أحوال الرسل والشرائع فلما صدمتهم الدعوة الحمديدية فزعوا إلى أهل الكتاب ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة (وانطلق الملاء منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد) والمراد من المشي: الإكثار، يقال: مشت المرأة أي كثر ولدها، وناقاة ماشية أي كثيرة النتاج والله أعلم. والمعنى: ضمّوا جموعكم وكاثروا مواليكم واثبتوا على آهتكم. ثم قالوا جواباً واقفاً مع التقليد والعادة التي وجدوا عليها أسلافهم (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة) أي الملة التي هم عليها حسبما ينطق به قوله تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) ومرادهم إنكار شرك الحكم وإنكارهم مفهوم الآلهة في الكتب الإلهية، وقولهم "في الملة الآخرة" كناية عن استمرار انتفاء هذا إلى الزمن الأخير فيعلم أن انتفاءه في ملتهم الأولى بالأحرى، قال الزجاج: أي ما سمعنا بهذا في النصرانية ولا في اليهودية ولا فيما أدركنا عليه آبائنا.

والحاصل أنهم ركنوا إلى السوء والعادة وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة واستناموا إلى التقليد والهوادة، ثم أنكروا اختصاصه ﷺ بالوحي من بينهم فقالوا **(أنزل عليه الذكر من بيننا)** وهذا الإنكار هو ناشئ عن حسد عظيم انطوت عليه صدورهم فنطقت به ألسنتهم وكانت قلوبهم لا تشك ولا ترتاب في نبوة هذا السيد الأواب الناطق بالحكمة والصواب الذي أنزل عليه الكتاب وإنما كان تكذيبهم لأمر دينوية وأغراض دنية أعظمها أنهم طمعوا في أن يكونوا متبوعين وأنفوا أن يكونوا تابعين وغلب عليهم الحسد لمظهره البديع وقدره الرفيع حتى حملهم على التكذيب بنبوته العلية وتبديل صفاته من الكتب المنزلة السماوية وقد سبق لك أن جُدي بن أخطب قال لأخيه حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. وفي السورة توبيخ لهم ولأتباعهم من كفار مكة في تكذيبهم رسول الله ﷺ وتكبرهم عن قبول ما أرسل به وتهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم وتمثيل لهم بمن حل به العذاب من قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأن هؤلاء الحاضرين إنما كذبوا رسولهم لأنه جاء بتوحيد الله تعالى ولأنه اختص بالرسالة من دونهم، وفي السورة تسليية الرسول ﷺ عن تكذيبهم وأن يقتدي بالرسول من قبله داود وأيوب وغيرهم وما جُوزوا عن صبرهم واستطرد بقصة داود وقد وردت بشأن سبب توبته أخبار إسرائيلية منكورة! قال الإمام السيوطي في الجامع الصغير: وما وقع في كثير من التفاسير مما لا ينبغي تسطيره بشأن سبب توبة داود عليه السلام فغير صحيح بل لو صح وجب تأويله لثبوت عصمتهم ووجوب اعتقاد نزاهتهم عن ذلك السفساف الذي لا يقع من أقل صالحي هذه الأمة فضلاً عن الأنبياء وخص

داود بذلك مع وقوع مثله لآدم وغيره لأن حزنه على ما ارتكبه كان عظيماً جداً، هذا وإن ما ورد في تلك التفاسير منقول من الإسرائيليات ولا أصل له في الحديث ولا في سياق الآيات، فما وقع هنا هو أن داود عليه السلام حكم بظلم أحد الطرفين بمجرد تكلم خصمه ودون سماع طرفه وهو إنما كان معذوراً لفزعه من تسور الخصمين عليه ودخولهما في غير وقت العادة، هذا يؤيده نص الآيات المذكورة وتؤيده الآية التي تلي "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب" ووجه التأييد هو أن الله تعالى ختم ذكر هذه القصة بهذه الآية فأتضح منها أن الحكمة من تلك الحادثة كانت تقوية داود عليه السلام على الحكم بين الناس بالحق ولو أثناء فزعه. اهـ. وللإمام فخر الدين الرازي كلام نفيس في هذا المقام فليراجعه من شاء. ولما تم سبحانه الكلام في شرح قصة داود أردفها ببيان أنه تعالى فوّض إليه خلافة الأرض فقال **(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق)** قال الإمام الرازي: واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع لأن الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث وذلك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج وهذا يخطط وبالجملة فيكون كل واحدة منهم مشغولاً بمهم وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع فثبت أن الإنسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه

يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشرعية الحقبة الإلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه فهذا هو المراد من قوله "فاحكم بين الناس بالحق" يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" الآية، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب. اهـ. ولما نهي الله تعالى عبده داود عن اتباع الهوى عرّض بالمستخلفين الجُدُد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ وعند هذا يلتزم صحة القول بالحشر وإلا لزم التسوية بين من أصلح واتقى ومن أفسد وفجر وذلك ضد الحكمة، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم حيث يراه في ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب، قال الحسن البصري: وما تدبر آياته إلا اتباعه بعقله أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول إني لأقرأ القرآن وما أسقط منه حرفاً وقد والله أسقطه كله فما يُرى القرآن في خلق ولا عمل... وبعد تتميم قصة داود شرع في قصة ابنه سليمان ومدحه بقوله ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ أي هو فحذف المخصوص للعلم به، وفي قوله ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ كما مر

في قصة داود إشارة إلى أنه كان شبيهاً بالأب في الفضيلة والكمال فلذلك استويا في جهة المدح وفي القصة واقعة يمكن تقريرها على وجه لا يقدح في العصمة وهو المختار عند المحققين في قوله ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ﴾ وهي جمع صافن وهو الذي يقوم على ثلاث قوائم وعلى طرف الرابعة وهو نعت جيد للخيل، والجياد جمع جواد وهو جيد الجري يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال وإذا أجريت كانت سراعاً في جريها ثم إن سليمان سلام الله عليه احتاج إلى الغزو فجلس بعد صلاة الظهر على كرسيه وأمر بإحضار الخيل وذكر أي لا أحبها لأجل الدنيا وحظ النفس وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ والله أعلم. وسمى الخيل خيراً لتعلق الخير بها كما جاء في الحديث المتفق عليه: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ومعنى الآية أي آثرت حب الخير صادراً عن ذكر ربي لأن ربي أمرني بارتباطها ولم يصدر حب هذه المحبة الشديدة إلا عن ذكر الله وأمره والضمير في قوله ﴿وَحَتَّى تَوَارَتْ﴾ للخيل أي ما زالت تعرض عليه ويأمر بسيرها إلى إن غابت عن بصره ثم قال ﴿رَدَّوْهَا عَلَيَّ﴾ أي أمر الرائيين بأن يردوا الخيل عليه فلما عادت عليه طفق يمسح مسحاً بسوقها وأعناقها تشريفاً لها وإظهاراً لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو أو لأنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها أو أراد إظهار أنه بلغ في اختبار أمور المملكة إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، وقيل: مسح الغبار عن أعناقها وسوقها بيده، وقيل: وسم أعناقها وأرجلها فجعلها في سبيل الله. وقد ذكروا في الآية قصصاً لينة الأسانيد، وأما قوله ﴿وَلَقَدْ فِتْنَا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ فقد روى الشيخان واللفظ للبخاري أن

رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» وقيل إن سليمان مرض مرضاً شديداً امتحنه الله به حتى صار جسداً على كرسيه ملقى (ثم أناب) أي رجع إلى حالة الصحة. وهناك روايات إسرائيلية تدست إلى بعض كتب التفسير من أباطيل أهل الكتاب لا تليق بجناب الأنبياء وعصمتهم كادت تغطي التفسير الصحيح لكتاب الله تعالى وتخفي الكثير من جلاله وجماله وهدايته التي هي أقوم الهدايات وعقائده التي هي أسمى العقائد. وبعد ذكر داود وسليمان استطراد الثناء على أيوب وأتبع ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وخص إسماعيل واليسع وذا الكفل ومن أغراض السورة إثبات البعث لحكمة جزاء العالمين بأعمالهم من خير أو شر وجزاء المؤمنين المتقين وضده من جزاء الطاغين الذين أضلوا أتباعهم وقبحوا لهم الإسلام والمسلمين ووصف أحوالهم وما قصه الله تعالى من مناظرة ومقابلة الأتباع مع السادات في النار وذكر أول غواية حصلت وأصل كل ضلالة وهي غواية الشيطان في قصة السجود لآدم وتعلقها ببني إسرائيل وقد جاءت فاتحة السورة مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذب به المشركون وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم، ومن أحوال المؤمنين سببه ضد ذلك مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء.

الوصف السادس: ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت
أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم
أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون

هذا المثل لتبيان ضلال المشركين حين سَوّوا شركاءهم بالخالق! فمثل سبحانه
بطلان عقيدة الإشراف به بعض مخلوقاته بحالة أهل النعمة المرزوقين، لأنهم لا
يرضون أن يُشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم فكيف يسوون بالله عبيده في
صفته العظمى؟ وفي الآية إيماء إلى تمكن بني إسرائيل من شركائهم كتمكن
السيد من مملوكه، وتعرض بتشبيه شركائهم بالدواب! والمعنى: هل يرضى
أحدكم أن يكون مملوكه في رزقه مثله؟ فإذا كنتم تأنفون أن يشاركوكم في
شيء من الرزق فضلاً عن أن يساووكم فيه، فكيف تقولون إن من عبيده تعالى
شركاء في سلطانه وتثبتون في جانب رب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد ما لا
يليق عندكم بجوانبكم؟ وكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم مع نقصانها وعجزها
وحقارتها عن مشاركة عبيدكم وهم بشر مثلكم، وتجعلوا إبليس وجنوده
شركاء لله وهو سبحانه خلقهم! فهذا حكم فاسد وعمى في القلب وهو أغلظ
الكفر. ولما كانت أداة التشبيه أدلّ؛ أثبتنا فقال ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ أي
تخافونهم أن يشاركوكم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم من
الأحرار المساهمين لكم، ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم
لحاجتهم إليها ليعقلوا بما فيدرّكوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، ولما
كان هذا المثل في الذروة من الكمال كان السامع جديراً بأن يقول: جل الله!
ما أعلى شأن هذا البيان! هل يبين كل شيء هكذا؟ فقال ﴿كذلك نفصل

الآيات لقوم يعقلون) والفصل هو الميز والبيان أي مثل هذا البيان العالي نبين الآيات ونضرب الأمثال لأن التمثيل يكشف المعاني بالتصوير والتشكيل كشفاً لا يدع لبساً فيصور المعاني المعقولة بصورة المحسوس ويُبرز أوابد المدركات على هيئة المأنوس، فيزداد المؤمنون يقيناً ويؤمن الغافلون الذين تروج عليهم ضلالات أهل الكتاب ثم تنكشف عنهم بمثل هذه الدلائل البينة. وهذا المثل أفضل من حفظ ديوان كامل في التوحيد لأن العبادات إنما تصح بتصحيح هذه المسألة في القلب، فاعقل ذلك... والقوم الذين يعقلون هم المتزهدون عن المكابرة والإعراض والطالبون للحق لوفرة عقولهم ولذلك أردف بقوله (لقوم يعقلون) أي للذين سجيتهم العقل، وفي هذا تعريض بالمتصلبين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول.

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب) المراد بالناس: خصوص أهل الكتاب والله أعلم، وموقع هذه الآية بين الآية (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى) والآية (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب) هو موقع البيان والتقرير لحقيقة التوحيد وكشف حقيقة الأنداد الذين يشاقون الله فيهم كما أشار قوله (أن القوة لله جميعاً) حيث سقطت قوة إبليس وجنوده وعجزوا عن نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم (إذ تبرأ الذين اتَّبَعوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تَتَّبَرَّؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) والذين اتَّبَعُوا هم المتبوعون يتبرؤون من أتباعهم بالتنصل من إضلالهم لئلا يحق عليهم عذاب المضللين (ورأوا العذاب

وتقطعت بهم الأسباب) أي في تلك الحالة يزداد الهول والخوف وتقطع أسباب
الحبة والمعاضدة والمعاونة والحماية والنصرة وتتلاشى العقود والعهود والمواثيق
وتخيب آمال الملوك حين لم يجدوا المنعة التي تعبوا لأجلها وذلك نهاية ما يكون
من اليأس، ويتمنى الأتباع لو يرجعون إلى الدنيا فيترؤون من المتبوعين هناك بعد
ما انكشف لهم سوء صنيعهم لكي تحصل لهم خيبة وهزيمة كما خيبرهم في
الآخرة. وظهر الندم على ما كان من الشرك بالله والإعراض عن دعوة أنبيائه
ورسله! وظهرت حقيقة الإلهية الواحدة والقدرة الواحدة وانكشف كذب
القوى الضالة وضعفها وعجزها أمام قوة الله، وجملة (والذين آمنوا أشد حبا
لله) معترضة والغرض منها التنويه بشأن الذين آمنوا بأن حبهم لله أشد من حب
أهل الكتاب لآلهتهم، فالذين آمنوا بذلوا أنفسهم وأموالهم لله طمعاً بما عند الله
في الدار الآخرة. روى الإمام مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث
من كنّ فيه وجد طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن
يرجع يهودياً أو نصرانياً» ولما استوفى سبحانه وتعالى ذكر طريق إشراكهم
وأصناف بغيتهم وعدوانهم وإراءة الحسرات النازلة عليهم، نظم به ذكر خبث
مآكلهم فقال منادياً لهم بأدنى أوصافهم معرضاً بما هم عليه من الطغيان
والانسلاخ من الإيمان واتباع الشيطان (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا
طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ومحا اسمهم عن الذين
آمنوا لأنهم مذنبون لا يثبتون ولا يدومون على حال، متبعون للشيطان عاصون
للرحمن مثيرون للفتن والعدوان، ولما أخبرهم تعالى أن الشيطان عدو أخذ يذكر
ثمره العداوة وما نشأ عنها (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما

لا تعلمون) والعطف هنا عطف لمتغايرين بالمفهوم والذات لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي وقوله "وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون" يشير إلى ما اختلقه الأئمة المضلون من رسوم العبادات ونسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو اتخاذ الأنداد والافتراء على الله والإشراك، وبنو إسرائيل اتخذوا الأنداد بمقتضى أهويتهم وتقليدهم لأسلافهم ولذلك أردف ذلك بقوله تعالى **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)** والضمير لأهل الكتاب ابتداء أو لليهود خاصة وإن لم يُذكرُوا بناء على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن الآية نزلت فيهم لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وقد وردت هذه الآية عقيب الزجر عن أكلهم السحت وأتباعهم خطوات الشيطان تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والتذكر في الحجج والبراهين وأن اتباع الكتاب المنزل إنما يكون باتباع الرسول المرسل ﷺ ولما أبوا إلا إلف التقليد ودنوا عن السمو إلى عداد أولي العلم بالنظر السديد، أنكر عليهم سبحانه وتعالى ذلك فقال مبكثاً لهم **(أولو كان ءابؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)** روى ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله الآية. ولما كان التقدير: فمثلهم حينئذ كمن تبع أعمى في طريق وعر خفي في فلوات شاسعة كثيرة الخطر، عطف عليه ما يرشد إلى تقديره من قوله منبهاً على أنهم صاروا بهذا كالبهائم بل أضل لأنها وإن كانت

لا تعقل فهي تسمع وتبصر فتتهدي إلى منافعها (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) والمثل ما يتحصل في باطن الإدراك من حقائق الأشياء المحسوسة فيكون الطف من الشيء المحسوس فيقع لذلك جالياً لمعنى مثل المعنى المعقول ويكون الأظهر منهما مثلاً للأخفى فلذلك يأتي استجلاء المثل بالمثل ليكون فيه تلطيف للظاهر المحسوس وتنزيل للغائب المعلوم ففي هذه الآية يقع الاستجلاء بين المثليين لا بين الممثلين لتقارب المثليين يعني وهو وجه الشبه وتباعد الممثلين وفي ذكر هذين المثليين تقابل يفهم مثليين آخرين فاقترضى ذلك تمثيلين في مثل واحد كأن وفاء اللفظ الذي أفهمه هذا الإيجاز مثل الذين كفروا ومثل راعيهم كمثل الراعي ومثل ما يرعى من البهائم وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب، ومن لا يصل فهمه إلى جمع المثليين يقتصر على تأويله بمثل واحد فيقدر في الكلام: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق أي يصيح وذلك لأن التأويل يحمل على الإضمار والتقدير، والفهم يمنع منه ويوجب فهم إيراد القرآن على حده ووجهه، فأولياء الشيطان في كونهم لا يرجعون عن غيهم لما يسمعون من الأدلة وهم أولو عقل وسمع وبصر كالبهيم التي تسمع وتبصر ولكنها لكونها لا تعقل لا ترجع بالكلام لأنها لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته بل بالحجر والعصا فإن الراعي إذا أراد رجوعها عن ناحية صاح بها ورمى بحجر إلى ما أمامها فترجع فهي محل مثلهم الذي هو عدم الإدراك، والبهيم في كونها لا ترجع بالنداء بل بقارع كالأصم الأبكم الأعمى الذي لا يرجع إلا بقارع يصكه في وجهه فينكص على عقبه فهو محل مثلها، وداعيهم في كونه يتكلم فلا يؤثر كلامه مع المبالغة فيه كراعي البهيم فهو موضع مثله، وراعي البهيم من حيث إن بهم لا ترجع إلا

بضربة بالحجر أو غيره كالسوط الذي يقمع به الأصم أو كضارب الأصم المذكور فهو محل مثله فلذلك كانت نتيجة التمثيل قوله "صم" أي لا يسمعون "بكم" أي لا ينطقون "عمي" أي لا يبصرون، وقد علم بهذا أن الآية من الاحتباك حذف من الأول مثل الداعي لدلالة الناقع عليه ومن الثاني المنعوق به لدلالة المدعوين عليه، روى ابن جرير عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم "إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب" إلى قوله "فما أصبرهم على النار". اهـ. وقد أشار إليهم الرسول العظيم ﷺ في حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: «وَأَنْ تَرَى الصَّمَّ الْبَكَمَ الْعَمِيَّ الْحَفَاةَ رِعَاءَ الشَّاةِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنَاءِ مَلُوكَ النَّاسِ» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب». ولما كان موجود إدراك العقل هو حقائق المحسوسات وقد نفى عنهم الحس المدرك للمحسوسات ترتب عليه قوله "فهم لا يعقلون" لأنهم لا ينتفعون بعقولهم كما أن هذا الأصم كذلك، ونفاه بلا النافية للممتنع وصيغة المضارع المنبئة عن الدوام، ثم أعرض الحق عن خطاب أصحاب الكتب التوراتية والإنجيلية الذين ظهروا مؤخراً بالدرعية وأقبل على خطاب من هم أعلى منهم رتبة فقال منادياً لهم بما يتعلق برسوخهم في طريق التوحيد من الخصال الجميلة والشيم المرضية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولما قيد الإذن لهم بالطيب من الرزق افتقر الأمر إلى بيان الخيث منه لِيُجْتَنَّبَ فيين صريحاً ما حرم عليهم مما كان أولياء الشيطان يستحلونه ويحرمون غيره وأفهم حل ما عداه وأنه كثير جداً ليزداد المؤمنون شكراً فقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغير

الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) فأوضح الحق
 أن هذا الدين يسراً لا عسر فيه ولا حرج ولا جناح ورفع حكم التحريم عن
 المضطر وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وإغاظه لهم ونكاية بهم فإنهم لما عتوا كما
 حكى الله عنهم في غير موضع شدد عليهم أشياء صارت عليهم إصراراً وأغلالاً،
 ولما كان في بيان هذه المحرمات الإشارة إلى عيب من استحلها من أهل الكتاب،
 تلاها بذكر كتمان ما عندهم من الحق والإسلام وشأن سيد الأنام عليه أفضل
 الصلاة وأتم السلام خوفاً على انقطاع رئاستهم ومصالحهم وشهواتهم فقال (إن
 الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون
 في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم وهم عذاب أليم)
 وكتمان الحق عند طلب بيان الحق أمر من آثام القلوب قال تعالى (ومن
 يكتُمهما) أي الشهادة (فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم، الله ما في السموات
 وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) أي من إظهار شهادة الحق أو
 كتمانها إذا كان ذلك موقوفاً عليه فإنه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرار
 وإعلان فإن سوق نفاقهم غير نافق عنده سبحانه وهذا من جملة مفهوم الآية
 واعلم أنه من نظر نظرة احتقار واستصغار إلى شعائر الله فقد كفر ومن قصر في
 تعظيمها وتوقيرها فقد ارتكب إثماً كبيراً فلا يكفي تقوى القوالب - أي
 الظواهر - بل لا بد له من تقوى القلوب كما علم سيدنا رسول الله ﷺ عمر
 بن الخطاب رضي الله عنه وليس المراد تعليم سيدنا عمر رضي الله عنه خاصة بل الناس كلهم علمه
 أن يقول: «اللهم اجعل سريري خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة، اللهم
 إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد، غير الضال ولا
 المضل» ثم حكم تعالى على أهل الكتاب بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة لأنهم

كانوا عالمين بما هو الحق وكانوا عالمين بأن في إخفائه وإلقائه الشبهة فيه أعظم العقاب فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ ولما كان الكلام السابق مثار اختلاف ناسب التعقيب بقوله ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ والإشارة إلى ما يفعلونه من جرائعهم على الله في مخالفتهم أمر الله وكتماهم ما أنزل الله! فبين تعالى أن ذلك إنما هو من أجل أن الله نزل الكتاب بالحق وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق وتنزيله الكتاب بالحق هو إخباره عنهم بقوله ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأندرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ إلى آخر ما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم! وقد نعى البيان الإلهي في عديد من آياته اختلافهم في كتابهم كما نعى عليهم جعلهم معيار الحق والباطل تقادم الفكرة أو امتداد حال من الأحوال وإلف الآباء عليه! والله در الأبوصيري حيث يقول:

بل تمادت على التجاهل آبا ... ءُتَقَفَّتْ آثارها الأبناءُ

بَيَّنَّتْهُ تواراتهم والأناجيـ ... لُ وهـم في جحوده شركاءُ

عرفوه وأنكروه وظلماً ... كَتَمَتْهُ الشهادةُ الشهداءُ

وقد وصفهم تعالى بأنهم لا يعقلون ولا يهتدون وفي هذا تفضيع لحال أهل الكتاب حيث أعرضوا عن اتباع ما أنزله الله في كتابه المجيد، وتركوا النظر والتدبر في أدلة التوحيد، وأخلدوا إلى التقليد، وفي آية المائدة بين تعالى من حال المتبوعين والأتباع أنهم بلغوا النهاية في الاعتداد بتقليد الآباء وقطعوا على أنفسهم طرق العودة عنه ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا

حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم - والضمير في "لهم" عائد ابتداء على المفتريين في قوله تعالى ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ وقد نص غير واحد على أن المفتريين هم أهل الكتاب على نحو ما رواه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن أبي موسى "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب" قال: أهل الكتاب. ونظير هذا قوله تعالى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي بغير حجة إذ يأخذون الناس بالشبهات! وقال تعالى مبيناً اتباعهم أوائلهم وأسلافهم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ وهذا الإصرار على اتباع مآثور الآباء ومآثور السلف يراد منه رفض الاستجابة لدين الله جملة وتفصيلاً، ودلت الآيات على إنكار ما كان مماثلاً لهذا الاستدلال وهو كل ما توكأ على اتباع الأهواء وكل دليل استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه. وقولهم ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ طريق شيطاني يقود إلى الهاوية، ونلفت الانتباه ما تم في العقود الثلاثة المنصرمة في المدرسة النجدية التي تظاهرت بالتمسك باتباع السلف ومحاربة البدع ورفضت كل ما هو جديد وطارئ حتى لا تُواجه بشرك الحكم! ويمكن للدارس أن يلاحظ أنها بالغت في التبديع وأدانت تراث الأمة الفكري وتخذلت في خندق واحد ونظرت إلى الآخرين كأعداء بل واهمتهم في نواياهم! والآيات تستنكر موقف التقليد الأعمى وتشير إلى الشرك الشائع في مرحلة الحكم الجبري والسنين الخوادم كما هو عادة المترفين الغابرين ﴿وكذلك

ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة
وإنا على آثارهم مقتدون) والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض وقد
جاءت الرسائل الإلهية لتصحيح المسار بين الحين والآخر نظراً للقصور الملازم
للإنسان ورفضه للتغيير وتقديسه أحياناً لكلام العلماء متناسياً أنه لا عصمة لغير
الأنبياء، وكثيراً ما يكون الأخذ عن العلماء تقليداً لهم عن غير وعي وتمحيص،
وقد يكون هذا الأخذ متسلحاً ببعض المسوغات الشرعية! وهنا يكرر القرآن
تحذيره من خطورة التقليد الذي يحترفه علماء بني إسرائيل! يقولون على وجه
السخرية: ما هذا الذي نفعله إلا ما يفعله سلفنا وهم أرجح منا عقولاً وأصبح
أفهاماً وإنا وجدناهم على ملة قديمة وجماعة مستقيمة وطريقة عظيمة يحق لها أن
تقصد وتؤم وإنا على آثارهم مقتدون... وقد ذُلت آية يونس بالتنبيه على
الغرض الذي يصددهم عن التسليم بدعوة الرسول، وهو الخوف على سلطاتهم
الذي يستمدونه من عقائدهم الموروثة (قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا
وتكون لكما الكبرياء في الأرض) إنها العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى
مقاومة الدعوات! إنها الكبرياء في الأرض وما تقوم عليه من معتقدات يحرص
الفراعنة على بقائها متحجرة في قلوب أتباعهم، لأن استنارة العقول بالنور
الجديد خطر على القيم الموروثة! وخطر على المملكة التي ترفع لافتة التوحيد
وهي تقيم أرباباً من دون الله، وتُخضع الشعوب بالقهر والإضلال! ودعوة
الإسلام إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين وتنحية الأرباب الزائفة
التي تغتصب حق الإلهية وخصائصها... وما كانت الأنظمة التي صنعها الفراعنة
لتدع الإعلان العام الذي يحمله الإسلام بربوبية الله وحده للعالمين وتحرير رقاب
البشر يصل إلى الشعوب وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبية ملوك الأرض،

والانقلاب على سلطاتهم، والانقضاض على ملكهم، والانطلاق إلى الفطرة السليمة الكريمة اللائقة بالإنسان! إنها هي العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين! وما كان الحفاة العراة ليخطئوا إدراك رسالة محمد ﷺ، وما في عقيدتهم من تهافت وفساد، ولكنهم يخشون على كبريائهم، كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطاتهم في الأرض فقالوا متبحجين ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً! وبذلك ينتهي الخطر الذي يخشونه على معتقداتهم الموروثة وعلى سلطاتهم في الأرض وهو الأساس! والتشبث في أثناء الطعن بمثل هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم.

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيهم وإننا لصادقون﴾ لما ذكر الحق سبحانه ما افتروه عليه كذباً من الحرث والأنعام ليضلوا الناس بغير علم، أخبر أنه حرم عليهم هذه المذكورات جزاء بغيهم وعصيانهم وعتوهم وإضلالهم الناس! وتسبب عن هذا الإيحاء الجامع الوجيز الدال على الصدق الذي لا شبهة فيه التعقيب بقوله ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ وفي هذه الآية من شديد التهديد مع لطيف الاستعطاف ما هو مسبوك على الحد الأقصى من البلاغة.

المدرسة الوهابية

هي مدرسة ذات هوية سياسية منحرفة منتمية إلى مذهب عقدي خطير يُنسب إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي أسس مذهباً فكرياً ووضع بصمات الانحراف

وهياً أسبابه في المجتمعات ورسم سياسة الدجل والنقض والقبض وحرف الكلم عن مواضعه وشذّ وغلا في الأحكام والتصورات والمواقف وصار مدرسة فكرية تحمل آراء ومعتقدات أدت إلى تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً، ومن أخطر مبادئها: البتر والإقصاء واجتثاث الآخرين! ومن وسائلها: الحلف بالله كذباً وبهتاناً **(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم)** كما أقسم الشيطان لآدم وحواء بالنصيحة الكاذبة **(وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين)** والمدرسة الوهابية امتداد للمدرسة السبئية التي بذرت بذور الشقاق في المجتمع الإسلامي وأدت إلى مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه واخترقت أتباع الإمام علي رضي الله عنه وأرجفت في مسألة الولاء والبراء إرجافاً خطيراً حتى كان للإمام علي رضي الله عنه دور فعال في معاقبة الشيعة والخوارج ثم قام أشقى القوم ابن ملجم بضربه بسيف مسموم ليلة الجمعة سنة أربعين للهجرة ثم انتقضت الأمور من بعده واشتبكت... ويرى ابن كثير في تاريخه أن مقتل عثمان كان مدبراً وأن تألب الأحزاب عليه كان من فعل ابن سبأ ويؤيد ذلك ما ذكره ابن خلدون في العبر (2/1027): أن عبد الله بن سبأ يعرف بابن السوداء كان يهودياً فهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه فأخرج من البصرة فلحق الكوفة ثم الشام وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر إلى أهل البيت ويحرض الناس على القيام بذلك والطعن على الأمراء فاستمال الناس بذلك في الأمصار وكاتب بعضهم بعضاً. اهـ. ويشير إلى مثل ذلك المقرئزي وابن حجر والسيوطي وغيرهم، وكل ذلك يؤكد علاقة ابن سبأ بأمرين: الأول: تكوين فتنة المدرسة السبئية التي انتشرت فيما بعد داخل المجتمع المسلم وتطورت إلى منهج ومذهب اختلط بمنهج الرافضة المتعلقين بآل البيت رضي الله عنهم وهم منه براء. الثاني: علاقة هذه المدرسة وما تفرع منها بفتنة

الدجال وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «أول الفتن قتل عثمان، وآخر الفتن خروج الدجال، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من حب قتل عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره» وعلاقة هذه الفتنة بالنفاق تتضح من قوله ﷺ لعثمان: «إن الله مقمصك قميصاً فإذا أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه» والمقصود بالنفاق ابتداء أهل الكتاب - وأما غيرهم فتبع لهم - كما روى ابن عساكر بإسناده عن ابن عباس في قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: الذين يأمرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ: وُلَاةُ الْعَدْلِ عِثْمَانُ وَضَرْبُهُ. اهـ. وقد اتسع النفاق حتى صار منهجاً له سقفه الفكري وتجمعه الفتوي! وكان من خطر أعمال المدرسة السبئية: التخطيط في السر لإقامة فرقتي الشيعة والخوارج وإدخال المعتقدات الفاسدة وإثارة الفوضى وزعزعة الثقة بالحكم والأمراء من خلال الإرجاف وتكوين الأحزاب المعارضة وانتحال المواقف السياسية بالتزوير كما هو في قضية تزوير الرسالة التي أثارت المصريين على سيدنا عثمان فناظرهم ورد عليهم افتراءاتهم حتى قال أحد الأعراب الثائرين عليه وهو مالك بن الأشتر: لعله مُكْرَ به وبكم. اهـ. ثم استغلوا الفرص للإثارة والدفع بالمتنازعين للقتال والحرب كما حصل في معركتي الجمل وصفين، ففي معركة الجمل لما توافق عليّ مع طلحة والزبير وبات الناس على نية الصلح قال الذين أثاروا الفتنة: إن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا فتكلم ابن السوداء عبد الله بن سبأ وهو المشير فيهم فقال: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فغدوا في الغلس وعليهم ظلمة وما شعر بهم جيرانهم إلا وقد

وضعوا فيهم السيوف فنار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه الذين باغتهم وخرج الزبير وطلحة يسألان فقالوا: طرّقنا أهل الكوفة ليلاً، وقال أهل الكوفة: طرّقنا أهل البصرة ليلاً ونشبت المعركة! قال الإمام الطحاوي: فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين. وفي معركة صفين لما قُتل عمار امتنع كثير من المقاتلين عن القتال فما كان من مهندسي الفتن إلا أن بينوا الأمر على غير وجهه وقالوا: إن الذي جاء بعمار إلى الحرب هو علي وفتنه فهي التي قتلتها وهي الفئة الباغية! وعندما برز الحق وانكشف جيش الشام عمدوا إلى حيلة المصاحف ورفعها وطلب تحكيم كتاب الله ففطن الإمام علي عليه السلام للخدعة والحيلة وصاح بجيشه قائلاً: «عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم في القتال ويحكمهم إنهم ما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة» وبذلك تبين وسائل المدرسة السبئية وتتضح وسائل الجامعة الدجالية العالمية الحقيرة في إسقاط الأنظمة والدول والتحرش السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي من مقتل عثمان إلى خروج الدجال فهي سلسلة من المؤامرات ضد البشرية بعمومها وضد دعوة الحق بخصوصها، وقد كان لهم صولة وجولة في القرار الإسلامي في مراحل الملك العضوض وعصر شتات القرار الإسلامي الواحد ضمن الدويلات! وبهم دون غيرهم على مدى تاريخ الأمة اكتسب الشيطان القدرة على تمزيق العالم الإسلامي كما ورد عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الترمذي: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينهم» والمدرسة الوهابية التي تعمل اليوم على التحريش وإثارة الفتن وتحريف الكلم وتستفيد من الأعراب والغوغائية، هي امتداد للمدرسة السبئية التي عملت بالأمس على تحريك الغوغاء

من أهل الأمصار ونزاع القبائل لغزو حرم رسول الله ﷺ وإثارة المواقف ومنازعة موقع القرار وامتلاكه! وفي ذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه لما بويع على الخلافة وطلب منه طلحة والزبير إقامة الحدود على قتلة عثمان: «يا إخواني إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم» وقبل ذلك كان كسر باب الفتنة بمقتل سيدنا عمر رضي الله عنه ففي الحديث عند الطبراني: «هذا غَلَقُ الفتنة - وأشار بيده إلى عمر - لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين ظهرانيكم» وفي رواية: «لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم» ومقتله رضي الله عنه كان مؤامرة مدبرة من اليهود والنصارى ولم تكن مجرد نزوة من الجوس إذ كان يقف وراءها جفينة النصراني وكعب الأخبار اليهودي الذي أُنذر سيدنا عمر بقوله: «اعلم أنك ميت في ثلاثة أيام» ولم يُعِر سيدنا عمر هذا الإنذار عناية خاصة! وفُجِعَ الإسلام بهذه الحادثة التي نَبّه عليها رسول الله ﷺ وحذّر من وقوعها وعبر عنها بكسر الباب وأنه لن يُغَلَقَ بعده أبداً كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلمكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل! قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت؟ لله أبوك، قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأَيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً

لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر، قال عمر: أكسراً لا أبا لك؟ فلو أنه فتح لعله كان يعاد، قلت: لا، بل يكسر، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثاً ليس بالأغاليط، قال أبو خالد: فقلت لسعد: يا أبا مالك ما أسود مرباداً؟ قال: شدة البياض في سواد، قال: قلت: فما الكوز مجحياً؟ قال: منكوساً» وإنما خُص عثمان بذكر البلاء مع أن عمر قُتل أيضاً لكون عمر قُتل بخنجر الكفار.

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) المولى سبحانه يدعوهم هنا إلى النظر في مصير الأمم التي اتخذت من دون الله شركاء مثل عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم، وسبب حلول تلك العاقبة الفظيعة بهم هو جعلهم لله شركاء لا يخلقون شيئاً ولا يملكون رزقاً ولا موتاً ولا حياة كما أشار إليه قوله قبله (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميّتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون) ونحو هذا ما ذكر سبحانه في سورة القمر من إهلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون ثم التفت وخاطب المستخلفين الجدد في مكة بقوله (أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر) أي أكفاركم خير من الذين ذكرنا أقاصيصهم وإهلاكهم أم لكم في كتب الله المنزلة براءة من العذاب؟ ثم أعاد ذلك الإضراب الانتقالي التوبيخي بمثله وبين أنهم إن كانوا قد صرحوا بذلك فظاهر وإن كانوا لم يصرحوا به فهو إنباء بأنهم سيقولونه (أم يقولون نحن جميع منتصر) ثم أعلم الله عز وجل أنه يهلكهم في الجهة التي يقدرון الغلبة منها فقال (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ثم أضرب سبحانه

تهميماً بأمر الساعة التي هي أشد عليهم من كل هزيمة وقتل فقال ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ ولما كانوا مع كثرة مرورهم على ديارهم ونظرهم لآثارهم وسماعهم لأخبارهم لم يتعظوا، صرف الخطاب عنهم وتوجه إلى السامع المطيع فقال مسبباً عما مضى من إقامة الأدلة والوعظ والتخويف ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾ أي يتفرق الخلائق فرقاً بمقتضى ما كانوا عليه في نشأة الاختبار والابتلاء. ولما ختم في أول السورة الآيات الدالة على الوحداية المستلزمة للبعث لأن به تمام ظهور الحكمة وانكشاف غطاء القلوب عن صفات العظمة بأن قيام السماء والأرض بأمره، أتبعه ذكر ما هو أعظم أدلة البعث وهو النبات وهي بحملتها دليل ذلك فاستعمل المؤمن ما رزقه سبحانه من العقل في النظر في ذلك حتى أداه إلى الإيمان به وشكره وأبطره الكافر فأوصله إلى كفره...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بنسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ مشهد عجيب بين قوة رفع الجبل فوق رؤوسهم وبين قوة أخذ العهد، حتى يأخذوا ما فيه بقوة وأن يعزموا فيه عزيمة، فأمر الخلافة وأمر الحكم وأمر الإسلام واتباع سيد الأنام عليه الصلاة والسلام لا رخاوة فيه ولا تميع ولا خداع! ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا اللعب، وله تكاليف شاقة... إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تُقبل عليه النفس إقبال الجاد العارف بتكاليفه، المتجمع لهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف... إنه ميثاق ضخمة ناءت بحمله السماوات والأرض والجبال فحمله السفلة الرعاع وواجهوه بمظهر من مظاهر الإشراك مع الاستهزاء واللي والتحلل

من العهد! إذ أخذ الله ميثاقهم على الإقرار بالإسلام والإيمان بالرسول الكرام ونصرة سيد الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام فتولوا وعصوا واتبعوا الشهوات وتعلقوا بالدنيا وزينتها وحادّوا الله تعالى في ملكه بميثاقٍ أممي...

جاء في المادة 47 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

1- تشكل لجنة من أركان الحرب تكون مهمتها أن تسدي المشورة والمعونة إلى مجلس الأمن وتعاونيه في جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات حرية لحفظ السلم والأمن الدولي ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع.

2- تشكل لجنة أركان الحرب من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن أو من يقوم مقامهم، وعلى اللجنة أن تدعوا أي عضو في "الأمم المتحدة" من الأعضاء غير الممثلين فيها بصفة دائمة للإشراف على عملها إذا اقتضى حسن قيام اللجنة بمسؤوليتها أن يساهم هذا العضو في عملها.

3- لجنة أركان الحرب مسؤولة تحت إشراف مجلس الأمن عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس، أما المسائل المرتبطة بقيادة هذه القوات فستبحث فيما بعد.

4- للجنة أركان الحرب أن تنشئ لجانا فرعية إقليمية إذا خولها ذلك مجلس الأمن وبعد التشاور مع الوكالات الإقليمية صاحبة الشأن.

وجاء في المادة 83 ما يلي:

1- يباشر مجلس الأمن جميع وظائف "الأمم المتحدة" المتعلقة بالمواقع الاستراتيجية، ويدخل في ذلك الموافقة على شروط اتفاقات الوصاية وتغييرها أو تعديلها.

2- تراعى جميع الأهداف الأساسية المبنية في المادة 76 بالنسبة لشعب كل موقع استراتيجي.

3- يستعين مجلس الأمن بمجلس الوصاية - مع مراعاة أحكام اتفاقيات الوصاية ودون إخلال بالاعتبارات المتصلة بالأمن - في مباشرة ما كان من وظائف "الأمم المتحدة" في نظام الوصاية خاصا بالشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية للمواقع الاستراتيجية.

وهذا يعني مباشرة تواجههم الخدمي من مراكز صحية ومدارس وهيئات إغاثية ومراكز دعوية في المواقع الجديدة لضمان السيطرة كما حدث في أفغانستان والعراق والبوسنة والشام واليمن...

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) اعلم أيها الشاهد أنه لما استوفى خطاب النداء لبني إسرائيل وجهي التذكير بالنعمة والرئاسة جاء ما بعد ذلك من تفاصيل النعم عطفاً من غير تحديد نداء إلى منتهى خاتمة الخطاب معهم حيث ثنى لهم الخطاب الأدني بالتذكير بالنعمة ختماً لمتسق خطابه بما تضمنه تذكيرهم بتكرار قوله: وإذ، واحدة بعد أخرى إلى جملة منها فذكرهم بنعمة النجاة من آل فرعون بعد ما اقترفوه قبل موسى عليه السلام حين أصابهم من آل فرعون ما أصابهم ثم بإتمام أمرهم

بتهيتهم للاستخلاف بإغراق فرعون وجنوده بمراى من بني إسرائيل ونصرهم على من ناوأهم ثم بالميعاد الذي وعد لموسى أربعين ليلة فاختلفوا في العد ثم قالوا أخلفنا الموعد وبدا تعنتهم فاتخذوا العجل ثم بإيتائه الكتاب والفرقان يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقناً يفرق بين الحق والباطل ولم يكن لبني إسرائيل كتاب ينتهون إليه فسول لهم الشيطان عبادة العجل بالتظاهر مع السامري رأس النفاق قبل مجيء موسى ﷺ إليهم! ولما تكمل إقبال الخطاب عليهم مرات بما تقدم من ندائهم والعطف على ما في صلته صرف الحق وجه الخطاب عنهم إلى ذكر خطاب نبيه موسى ﷺ لهم فإن الله يخاطب العباد بإسقاط الواسطة بينه وبينهم ترفيعاً لأقذارهم لديه فيرفع من شاء فيجيبه بما شاء ويوقف من شاء فيجعل بينه وبينه في الخطاب واسطة من نبيه فلما قررههم بما مضى من التذكير على ما واجههم به الحق تعالى ذكر في هذه الآية تقريرهم على ما خاطبهم به نبيهم حين أعرض الحق عن خطابهم بما أصابوه من قبيح خطيئتهم وجعل توبتهم قتل التائب منهم المجرم، وهذا الحكم لم يُنسخ في حقهم وذلك في زمن استخلافهم وهو المراد - والله أعلم - في كل موضع جاء فيه ذكر توبتهم كقوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، إلا الذين تابوا ﴿وَقَوْلُهُ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَن عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، خالدٍ فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلا الذين تابوا ﴿وَقَوْلُهُ﴾ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، إلا الذين تابوا ﴿وَقَوْلُهُ﴾ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ

لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا) وكقوله (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين، والذين عملوا السيئات ثم تابوا) وكقوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا) إلى آخر قوله تعالى (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) وهذه الآيات ليست قاصرة على الواقع التاريخي الذي نزلت فيه وإنما تدرك بالبيان والإرث النبوي الأبوي.

(إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) الكاتمون هم أهل الكتاب والآية نزلت فيهم، والمراد من الكتمان - والله أعلم - كتمان التأويل لأن كلمات القرآن محفوظة فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محاملها الصحيحة، وقوله (ويلعنهم اللاعنون) أي يلعنهم الأنبياء والرسل فإنهم يطلعون على كتمان الأحبار فيلعنونهم بالتعيين كما لعنهم داود وعيسى بن مريم، وقوله

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله عز وجل ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعين. ومناسبة وقع هاته الآيات بعد التي قبلها أن ما قبلها كان من الأفانين المتفenne على ذكر ما قابل به أهل الكتاب دعوة محمد ﷺ وتشبيههم فيها بحال سلفهم في مقابلة دعوة أنبيائهم من قبل إلى ما أفضى الكلام إلى الإنحاء عليهم قلة وفائهم بوصايا أبيهم إبراهيم الذي يفتخرون بأنهم سدنة بيته فنوه بإبراهيم وبالكعبة واستقبالها وشعائرها وتخلل ذلك رد ما صدر عنهم من إنكار التولية إلى المسجد الحرام وأردف بكتماهم الحق ثم عقب بتكملة فضائل الصفا والمروة فلما تم جميع ذلك عطف الكلام إلى تفصيل ما رماهم به من الكتمان لإيفاء المعنى المقصود ثم الرجوع إلى ما يهم الرجوع إليه من تفصيل أو اعتراض تخلل الغرض المراد... والبيانات جمع بينة وهي الأدلة المرشدة إلى أمر التوحيد والصفات الإلهية... والهدى هو ما به الهدى أي الإرشاد إلى طريق الخير فيشمل هدي الأنبياء وسننهم وأصول الشريعة، واعلم أيها المتحقق بمقام الخلافة والنيابة أن الكتب السماوية التي نزلت على بني إسرائيل ما هي في الحقيقة إلا سلطة إلهية يحكمون بها البشر فكتموها حفظاً لجاههم وسلطتهم مخافة أن يحوزها غيرهم وأخرجوا لأتباعهم نقيضها حجباً لهم عن معرفة الله وحجزاً عن الوصول إلى شرف الاصطفاء والسيادة، والقرآن لا يكشف عن هذا الكتمان والتحريف لإيراد حادثة تاريخية على سبيل العبرة والعظة فحسب بل لآثاره المتراكمة في مسيرة البشر وفي وعيهم لاتخاذ مواقف حاسمة تجاه الأمة الملعونة. ولما ذكر تعالى كتمانهم ذلك وتوعد عليه باللعنة والعذاب لا جرم حسن العطف بقوله (وإلهمكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن

الرحيم) أي أن الله تعالى واحد بمعنى أنه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والخطاب للكافرين وفيه زجر لهم عما هم عليه من كتمان حقيقة التوحيد. ويبدو أن الآية (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) في كاتمي معاني القرآن، والآية الأخرى (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) في كاتمي التوراة والإنجيل إذ كتموا أمر رسول الله ﷺ وأنكروا نبوته وبدلوا صفته وأخفوا الإسلام وتوحيد الملك العلام وغيروا الآيات الكونية وفسروها على غير واقعها ولا يخفى على العارف الفطن ما جاؤوا به من علوم تطبيقية قائمة على الكذب والخداع في هيئة السماوات والأرض ومسألة اختلاف الليل والنهار ونزول الماء من السماء والرياح والسحاب... وأحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله استتباعاً للشيطان، واشتروا الفاني الخسيس! قال صاحب ملاك التأويل: ذَكَرَ حَالُ الكاتمين وجزاءهم المترتب على فعلهم من استحقاق اللعن من الله سبحانه وممن ذَكَرَ من عبادِهِ، واللعن: الطرد والإبعاد ثم إنه سبحانه تدارك من تاب منهم وأصلح ويبيّن بعد أن كان كتم فلما بين في هذه الآية أمر هؤلاء أعقب في الأخرى بعد ذكر حال المتمادين على مرتكبهم من الكتم وما زادوا إلى ذلك من اشترائهم به ثمنا قليلاً وحظاً من دنياهم لا خطر له وذكر ما زيدوا في الجزاء من العقاب موازنة لزيادة المرتكب فقل (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) ولم يذكر هؤلاء حال توبة إن تابوا لسوء المرتكب وليس المراد أنهم لا توبة لهم ولكن عدم ذكرها

أوقع في الإغلاظ لما ذكر من سوء مرتكبهم ليجري مع قوله تعالى "ولا يزيكهم" فإن التزكية تطهير من الإثم ومحو له وذلك هو الذي تثمره التوبة النصوح فلم يكن ليلائم هنا ذكر التوبة وليناسب بذلك أيضاً ما عرفت به الآية بعد من حالهم الأخروي في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فلما عرف بهذه الغاية من جزائهم لم يكن ليناسب ذلك ذكر التوبة، ووجه المراد في هذه الآية من قوله ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ وتخصيصها بهذا إنما هو لما تقدم من قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ذكر تعالى لهؤلاء ما أحل لهم أكله وما حرم عليهم فلما تقدم هذا أتبعه بإعلام هؤلاء الآكلين بالتحريف والتبديل بجنث مأكلهم وشنيع مشتراهم وأنه لو كشف عن أبصارهم لرأوا أنهم إنما يأكلون ناراً. انتهى. أخرج ابن ماجه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ ﴿يَلْعَنَهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ قال: «دَوَابُّ الْأَرْضِ» والذين كتموا ما نزل من البينات والهدى هم أيضاً يقرأون القرآن فإذا قرأوا لعنة الكاتمين فقد لعنوا أنفسهم بالسنتهم! وسمات اللعنة التي لا تفارقهم، تبدو على سيماهم وتنضح بها جبلتهم المطرودة من الهداية، كما تبدو القسوة في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من الإنسانية، ومهما حاولوا مكرراً إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعمومة في الملمس عند الكيد والوقية عبر المساعدات الإنسانية فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف وحقد القلوب والأفئدة... وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه حتى يتماشي

مع مصالحهم وأهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من السنة مفسرة وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث!

(ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير) لما نهى تعالى عن مخافة أولياء الشيطان الذين يسارعون في الكفر، ذكر هنا نوعاً من أنواع كفرهم وهو بخلهم تبيان ما علمهم الله وكتماهم الحق وإخفاؤهم البيّنات وحضهم على عدم الإنفاق على من عند رسول الله حسبما ينطق به قوله تعالى (الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) روى الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل» ثم أظهر الحق تعالى تعريفاً بوصفهم المبيّن لنفاقهم والموجب لحتفهم واستيلاء الشيطان عليهم (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) قال إبراهيم النخعي: هم اليهود والنصارى. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «والرياء في الفدادين» وروى الطبراني عن ابن عمر أن النبي ﷺ استقبل مطلع الشمس فقال: «من هاهنا يطلع قرن الشيطان وهاهنا الفتن والزلازل والفدادون وغلظ القلوب» أي أولياء الشيطان وأهل قساوة القلوب المثيرون للفتن العظام الذين انطلقوا من نجد فصدق فيهم حديث رسول الله ﷺ، وها هم اليوم نراهم ينفقون أموالهم لا لغرض الطاعة بل لغرض الرياء والسمعة ونشر البدع والضلالات وأنواع المخالفات وتدبير الخيانات والجنايات! يُنشئون الفرق والأحزاب الإسلامية ثم يقاتلوها! ينسجون الجماعات ثم يفرقونها! يبنون الدول والتنظيمات ثم يهدموها!

ويختلط الأمر على تلك الأحزاب والفرق فيعتقدون أن مواقفهم حرص على الحق وسلامة له ولكنها في حقيقة الأمر دافع نفسي شيطاني يخدم أولياء الشيطان فالنفس لها سلطة على العقل والجوارح وهذه السلطة يتدخل الوسواس الشيطاني! وعلى هذه القاعدة الخفية قامت الحروب والثورات وانتهبت الشعوب والثروات.

﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ لما نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على انفراده تعالى بالإلهية من قوله ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ وقوله ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ وقوله ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ وقوله ﴿هو الذي يريكم البرق﴾ الآيات، وبما فيها من دلالة رمزية دقيقة من قوله ﴿له دعوة الحق﴾ وقوله ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ لا جرم تقياً المقام لتقرير المشركين تقريراً لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعاً لا يسعهم إلا تجرع مرارته، لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنوياً بوضوح الحجة ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قبل المستفهم وهذا كثير في القرآن وهو من بدیع أساليبه، والمراد من الاستفهام تبكيت المشركين وإلجائهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال شركهم، والاستفهام مستعمل في التهكم والتغليط وهذا إفحام لهم وتسفيه لأحلامهم وهو أسلوب متبع في القرآن، والآية تربط بين شرك العبادة وشرك الحكم وتكشف الذين نسبوا لله ولداً من الإنس واتخذوه من

النبين ونسبوا لله ولداً من الجن واتخذوه من الملائكة ووصفوا الملائكة بالأنوثة التي هي مظنة الضعف والعجز! وجعلوا لله شركاء في الحكم وهم إبليس وجنوده ووصفهم بالذكرورة التي هي مظنة القوة والقدرة! والمعنى - والله أعلم - كيف تتخذون من دون الله أولياء بالعبادة وتجعلون له شركاء في الحكم؟ وقد أبطل تعالى في سورة الكهف شفاعة أوليائهم من الملائكة والنبين ونصرة شركائهم من الجن والإنس فقال ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وضمير الجمع يعود إلى المشركين وهو إبطال لشفاعة أوليائهم ونصرة شركائهم بطريقة التنصيب على عموم النفي بدخول "من" على النكرة المنفية. و"أم" في قوله ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ للإضراب الانتقالي في التشبيه فهي لتشبيه آخر، والتفت عن الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم، وقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ هو في معنى قوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال العلامة الألوسي: والمراد لا أملك ذلك في وقت من الأوقات إلا ما شاء الله أي إلا وقت مشيئته سبحانه بأن يمكنني من ذلك فإنني حينئذ أملكه بمشيئته. ثم ساق تعالى مثلاً ضربه لتقدير ما تقدم من التوحيد والشرك ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَايَا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ فشبه التوحيد وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به الأودية فتخصوب وتنبث وتردهر، وشبه القلوب بالأودية فبعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلاً، وشبه الشرك في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنافع بزبد السيل الطافي الذي تقحمه

العين لعدم جدواه، وساق تمثيلاً آخر ورد استطراداً يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان المدن فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم. بمثل ما يُصهر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبدًا ينتفي عنه وهو الخبث لا يصلح لشيء في حين صلاح معدنه لاتخاذ حلية أو متاعاً آخر.

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) لما جرى من استهواء إبليس المستخلفين واستزلاله فاتبعوه في كل ما دعاهم إليه من التكذيب بالبعث والإشراك وغير ذلك من السيئات وكان اللعين مصدر الضلال وعنصر الإغواء، أعقب ذكره بذكر فروعه وأوليائه وافتتح الكلام بأمر النبي ﷺ بأن يقول لهم ما هو متتابع في بقية هذه الآيات المتتابعة بكلمة "قل" فأمر بالقول تجديداً لمعنى التبليغ الذي هو مهمة كل القرآن والمعنى قل للمشركين: ادعوا الذين زعمتم من دون الله شركاء والتجئوا إليهم فيما يعرفونكم وانتظروا استجابتهم لنصرتكم! وهذا وإن كان ظاهره أمراً لكنه إخبار عن عجز ما يدعون من دونه وتعجز ما ذكر من كشف الضر ودفعه والتحويل! ثم أخبر عنهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة وهو أحقر الأشياء أي أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، ثم ذكر مقر ذلك المثقال وأخبر أنهم ما لهم في السماوات ولا في الأرض من شركة فنفي نوعي الملك من الاستبداد والشركة، ثم نفى الإعانة منهم له تعالى في شيء مما أنشأ بقوله (وما له منهم من ظهير) فبين عجز شركائهم في الحكم، ثم أبطل شفاعة شركائهم في العبادة فقال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا

الحق وهو العلي الكبير) والمعنى: حتى إذا كشف الفرع من قلوبهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق أي القول الحق وهو إبطال شفاعة الملائكة للمشركين والإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وفي الحديث عند ابن ماجه: «إذا قضى الله أمراً في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان إذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير» وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق: من الأنصار - قال: فرمي بنجم عظيم فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قال: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ويخطف الجن السمع فيؤمنون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرِفون فيه ويزيدون» وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان - قال علي: وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك - فإذا "فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: "الحق وهو العلي الكبير" فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا: بعضه فوق بعض فيسمع الكلمة فيلقاها

إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فرمما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء» ولما سلب الحق تعالى عن شركائهم أن يملكوا شيئاً من الأكوان وأثبت جميع الملك له وحده، قررهم وسألهم عمن يرزقهم محتجاً عليهم بأن رازقهم هو الله إذ لا يمكن أن يقولوا إن آلهتهم ترزقهم ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله﴾ ثم أمرَ تعالى المؤمنين بعد إقامة هذا الدليل البين بأن يُتبعوهم ما هو أشد عليهم من وقع النبل بطريقٍ لا أنصف منه ﴿وإننا أو إياكم لعلی هدی أو فی ضلال مبین﴾ وترك الخبر عن جواب الخصم في الآية استغناء بدلالة الكلام عليه، وجاء الخطاب على وجه الإنصاف من الكلام، وفي اللفظ من الأدب وحسن الخطاب ما لا يخفى، وفيه تقرير بليغ ودلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الإسلام والهدى إذ المشركون أشركوا الشيطان وزعموا أنهم أهل التوحيد والعرفان! والتعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة... والآيات متصلة تمام الاتصال بقوله تعالى ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون، فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾ أي لا تملك الملائكة اجتلاب نفع لعبديهم كما لا يملك الجن دفع ضرر عن عابديهم! وفي الآيات من التقرير والتبكيك للمستخلفين بإشراكهم آلهة في الحكم والعبادة ما لا يخفى. ثم انتقل من الاحتجاج على بطلان شرك العبادة إلى بطلان شرك الحكم وعاد إلى المساق الأول فقال ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم﴾

أراد إظهار خطئهم العظيم والمقصود من هذا - والله أعلم - تحقير شأن إبليس وجنوده ونفي شركتهم لله وازدراء أمرهم وأنهم أحط رتبة وأخس منزلة وأهون قدراً وأدنى مكانة، فنبه على أنهم نكرة لا يجلبون نصراً ولا يدفعون ضرراً، زيادة في تبكيتهم... ولما كان الرسول ﷺ من العظمة في نفسه وفي تبلغ رسالات الله في هيئتها بمكان من العظمة بحيث لا يخفى على أحد وكان التقدير: أرسل إليكم رسوله بعزته مؤيداً له بإعجاز هذا القرآن بحكمته دليلاً على صدقه وكمالته في جبلته وتأهله لبدائع نعمته ومعالي رحمته وكان في ذلك دليل الصدق في الرسالة، نسق به قوله معليةً لشأنه بالخطاب في مظهر العظمة ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وكل ما جاء به الرسول عن الله تعالى ينقسم إلى قسمين: بشارة ونذارة بجميع أنواع الخطاب المعبر عن هذا وهذا أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً... وفي ثانياً الكلام يحكي تعالى تحاور أئمة الشرك مع أتباعهم في موقف القيامة مبيناً أن شرك الحكم قام على شرك العبادة ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم - أي لولا تلييسكم علينا وتمويهكم - لكننا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا - أي في العبادة - وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ وإطلاق المكر على تسويلهم لهم شرك العبادة باعتبار أنهم يأمرهم بنسبة الولدية لله تعالى.

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾

ذكر الفخر الرازي عن الواحدي أنه قال: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظاماً وتفسيراً وقد تخط فيها الكبار من العلماء. وحرّر وحرّ صاحب التحرير والتنوير وأجاد وأفاد حيث ذكر أن الكلام في الآية الكريمة ليس وارداً على ما يتبادر من ظاهره في مفرداته أو تركيبه فوجب صرفه عن ظاهره إما بصرف تركيب الخبر عن ظاهر الإخبار وهو إفادة المخاطب النسبة الخبرية التي تضمنها التركيب بأن يصرف الخبر إلى أنه مستعمل في معنى مجازي للتركيب وإما بصرف بعض مفرداته التي اشتمل عليها التركيب عن ظاهر معناها إلى معنى مجاز أو كناية... ثم حرر رأيه بقوله: فهذا الكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها فهو من الحكاية لما كانوا يعدون به فهو حكاية بالمعنى كأنه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة! وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجيب أو الشكاية من صلف المخبر عنه وهو استعمال عزيز بديع. اهـ. فإن مجيء رسول من الله - ليس من أهل الكتاب ولا نشأ فيهم - بما هو أوضح من فلق الصبح من مغيبات ومعارف إلهامية أدهشت الألباب وأثارت الإعجاب؛ يقتضي الاجتماع على اتباعه لا العكس إذ كانوا يستفتحون برسائله ويستنصرون به على أعدائهم! وذلك دال على نفاقهم وشدة قسوتهم وسكرتهم في غيهم ونهاية عمههم وعتوهم واستكبارهم وخيلائهم في أنفسهم! فالآية الكريمة وردت مورد إقامة الحجة على أهل الكتاب بأنهم متعللون للإصرار على الكفر والشرك عناداً ونفاقاً كما حكى تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ وأراد بالناس: اليهود والنصارى وهو نظير الآية الكريمة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

والمشركين من أهل الكتاب" أراد اليهود والنصارى حيث عبّر عن الطائفة الأولى بالذين كفروا وعبّر عن الأخرى بالمشركين ويعضده نزول السورة بالمدينة وهذا التأويل يلتئم مع قوله بعده ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ ولم يذكر في هذه الآية صفتي الكفر والشرك لدلالة الآية السابقة، وعُطِفوا هنا كما عُطِفوا في قوله ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف لتقرير اتفاقهما على عداوة المؤمنين! ونحوه قوله سبحانه ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ أراد اليهود والنصارى، وناسب لفظ الكفر في اليهود لأنهم ستروا أدلة التوحيد، كما ناسب ذكر الشرك في النصارى لأنهم أشاعوا التثليث، ألا ترى أنه تعالى لما حكى قولهم ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ أردفه بقوله ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ والشرك والكفر متقاربان كما حكى تعالى قول مؤمن آل فرعون ﴿تدعوني لأكفر بالله وأشرك به﴾ وفي الحديث عند الإمام مسلم: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ أقوالاً عديدة منها: أن المشركين وصف أهل الكتاب أيضاً لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد فالنصارى مثلة وعامة اليهود مشبهة والكل شرك وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء وأنت تريد أقواماً بأعيانهم تصفهم بالأمرين. اهـ. والبينة: الحجة الواضحة وإطلاقها على الرسول كإطلاق النور والسراج عليه. والمقصود من

الآيات تسلية الرسول ﷺ أي لا يغمرك انفكاكهم وتفرقهم فليس ذلك لقصور في الحجة بل لعنادهم فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة الشيطان إلا من بعد ما جاءهم البينة فهي عادة قديمة لهم.

(وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً) ذهب أبو العالية والربيع وسفيان الثوري إلى أن قوله "وليس التوبة للذين يعملون السيئات" في حق المنافقين. وقد تكون الصفتان لفريق واحد جمع بين النفاق والكفر وهم أهل الكتاب فيكون العطف من قبيل تعدد الأحوال إذ ليست حروف العطف بمقصورة على تعدد الذوات، ولذلك اجتلبت في الإخبار عنهم بهاتين الصلتين صيغة المضارع الدالة على التجدد إيذاناً بتجدد نفاقهم وكفرهم كما حكى عنهم القرآن في آيات كثيرة وعُطِفوا هنا كما عُطِفوا في قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد تقدم الكلام في ذلك مستوفى.

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أي هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها يعني المستخلفين قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب نقص عليك من أخبارها لما فيها من الاعتبار ولقد جاءتهم رسلهم بالآيات والمعجزات والعجائب فما كانوا ليؤمنوا بالذي كذبت به أئمتهم وأسلافهم من قبل أو فما كانوا ليؤمنوا به في المستقبل من أعمارهم بسبب تكذيبهم أول مرة فإنه ران على قلوبهم! وكانوا إنما زعموا التوحيد غروراً

ونفاقاً ودخلاً لا إيماناً وإخلاصاً! والطبع على القلوب استعارة لانغلاقها عن معرفة الحق وعدم قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها.

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)

لما بين تعالى حسد أهل الكتاب من اليهود والنصارى للسيد الأعظم ﷺ على القرآن وكانوا يرون أن كتبهم لا تُنسخ وكان النسخ لذلك من مطاعنهم في هذا الدين، ناسب أتم المناسبة أن ينظم على هذا الترتيب جواز النسخ فقال جواباً عن طعنهم معلماً أنه قد ألبس المسلمين المحسودين ما كان قد زين به أهل الكتاب دهوراً فابتذله ودنسوا محياه وردلوه وغيروه وبدلوه "ما ننسخ" أي ما ننسخ من كتب أهل الكتاب أو ننسها نأت بخير منها في الشرائع أو مثلها في الدعوة إلى التوحيد والعقيدة وهذا المعنى يلتئم مع ما قبلها التثاماً حسناً فتدبره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر، وساقها بغير عطف لشدة التباسها بما قبلها لاختصاصنا لأجل التمشية على حسب المصالح بالفضل والرحمة لأنه إن كان المراد نسخ جميع الشرائع الماضية بكتابتنا فلما فيه من التشريف بالانفراد بالذكر وعدم التبعية والتخفيف للأحمال التي كانت، وإن كان المراد نسخ ما شرع لنا فللنظر في المصالح الدنيوية والأخروية بحسب ما حدث من الأسباب، قال الحرالي: النسخ نقل بادٍ من أثر أو كتاب ونحوه من محله بمعاقب يذهبه أو باقتباس يغني عن غيبته وهو وارد الظهور في المعنيين في موارد الخطاب والمعاقبة في هذا أظهر. اهـ. وقد سُمِّيَ ﷺ بالعاقب ليكون شرعه ناسخاً لغيره من الشرائع ولأنه ﷺ الثمرة العظمى إذ هو المقصود من هذا العالم "أو ننسأها" والنسء تأخير عن وقت إلى وقت ففيه مدار بين السابق

واللاحق بخلاف النسخ لأن النسخ معقب للسابق والنسء مداول للمؤخر وهو نمط من الخطاب عليّ خفي المنحى لم يكد يتضح معناه لأكثر العلماء إلا للأئمة من آل محمد ﷺ لخفاء الفرقان بين ما شأنه المعاقبة وما شأنه المداولة، وهذا يناسبه بعده بيان أن الله تعالى له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي إيجاداً وإعداماً وأمراً ونهيّاً حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه فهو قادر على أن يتفضل سبحانه بأنواع التفضلات على سيد البرية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية، فإنه تعالى لما ذكر سبحانه هذا الكتاب وأكد أمره مراراً وكان ناسخاً لفروع شريعتهم أعرض عن خطاب أهل الكتاب تعريضاً بغاوتهم إلى خطاب أعلم الخلق ﷺ على وجه الاستفهام المتضمن للإنكار والتقرير المشار فيه للتوعد والتهديد (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والله جل شأنه يخلق بقدرته من الأسباب ما يصير الشيء في وقت مصلحة وفي وقت آخر مفسدة لحكم ومصالح دبرها وأمور أتمها وشؤون أحكمها وقدرها.

(الر، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) يعني هذه الآيات آيات الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل وأما قوله "وقرآن مبين" فهو المهيمن على سواه من الكتب والمبين للمؤمنين ما يسكن قلوبهم وللمريدين ما يقوي رجاءهم وللمحبين ما يهيج اشتياقهم وللمشتاقين ما يثير لواعج أسرارهم، وفي جمع وصفي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن غيره نسيج وحده بديعاً في بابيه خارجاً عن دائرة البيان قرآناً غير ذي عوج ونحو هذا فاتحة سورة النمل (طس، تلك آيات القرآن وكتاب مبين) خلا أنه

آخر هاهنا الوصف بالقرآنية عن الوصف بالكتابية لما أن الإشارة إلى امتيازها عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره منها أدخل في المدح لئلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازها عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وعكس هناك نظراً إلى حال تقدم القرآنية على حال الكتابية وجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ وذكر أن تقديمه هنا باعتبار الوجود وتأخيرها هناك باعتبار تعلق علمنا لأنها إنما نعلم ثبوت ذلك من القرآن.

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) أي أنزلنا إليك القرآن العظيم الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق لتفوقه على سائر الكتب الإلهية والمهيمن. بمعنى أنه الأمين المؤتمن عليها والحكم الشاهد بصدق ما جاء فيها الحاكم عليها وهو زُبدتها ومجمع ثمرتها كما أشارت الآية الكريمة (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أي هذه آيات ما تقدم القرآن من الكتب وآيات قرآن مبين. قال مجاهد: معنى "تلك آيات الكتاب" يعني آيات التوراة والإنجيل. وكذلك قال قتادة. ومعنى تصديقه لها أنه مطابق لها في أصل الدين والملة نازل حسبما نعت فيها، والمهيمن مشتق من أمن وأصله اسم فاعل من آمنه عليه. بمعنى استحفظه به فهو مجاز في الرقابة إذ يشهد على سائر الكتب الإلهية ويقرر أصول شرائعها ويعين أحكامها المنسوخة ويثبت ما أسقطوه منها ويبين ما حرفوه وبدلوه ويحكم على الكتب كلها وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما المهيمن. بمعنى الحاكم. ومعنى الشاهد. ومعنى الأمين فالقرآن هو الأمين والشاهد والحكم على الكتب قبله يُحق ما فيها من حق ويُبطل ما

حُرِّفَ منها وأُدخِلَ عليها من باطل وأنتج هذا وجوب الحكم بما فيه فلذا قال مسيئاً عما قبله **(فاحكم بينهم بما أنزل الله)** لأن الأنبياء في الحقيقة خلفاؤه عليهم السلام ونوابه الحاكمون ببعض شرائعه وطرقه فهو آدم الأكبر الحقيقي ومن ثم يقول آدم عليه السلام إذ لقيه: يا ولد ذاتي ووالد معناني، والله در الأبوصيري حيث قال:

وكل آي أتى الرسلُ الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهرن أنوارها للناس في الظلم

فالكواكب ليست مضيئة بالذات وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس وكذلك الأنبياء قبل وجوده عليه السلام كانوا يظهرون فضله كما جاء في الحديث: **«كنت نبياً»** أي مستفيضاً من الله ومفيضاً على خلقه ولذا لم يقل: كنت إنساناً ولا موجوداً بل أخبر أنه صاحب النبوة قبل وجود الأنبياء والمرسلين فهو صاحب الشرع أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً والذي نسخه من شرعه المتقدم ما أراد الله أن ينسخ منه وكان المنسوخ من الأحكام خاصة لا من الأصول فاعتقاد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متحد في التوحيد لكنهم مختلفون في الشرائع لاختلاف أمزجة الأمم وذلك لا يقدر في وجود الأصل، وظهوره عليه السلام في آخر الزمان جسماً وروحاً لأنه لو كان موجوداً بجسمه من لدن آدم لكن من بعده تحت شريعته فيلزم أن لا يبعث أحد من الأنبياء والمرسلين فتقدم عليه السلام روحاً لا بدنأً وبُعث الأنبياء والمرسلون إلى أقوام مخصوصة لتحقيق نيابة كل واحد منهم عن النبي عليه السلام ونسب كل شرع إلى من بعث به وهو في الحقيقة شرعه عليه السلام... وأهل الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ويعلمون أن القرآن حوى ما في التوراة والإنجيل وصدقهما وأنه

منزل من ربهم بالحق وأنه المرجع الأخير للكتب السماوية لكنهم لا يأخذون منه إلا ما يوافق أهواءهم! فأما إن بين كلمة الحق قالوا انت بقرآن غير هذا أو بدله! فما وافق أهواءهم أخذوه **(يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا)** أي إن أُجبتُم بمثل ما تهوون فاقبلوه وإن لم تجابوه فاحذروا قبوله! وقد أمرنا المولى سبحانه بجهادهم وحذرنا من اتباع أهوائهم فإن أهويتهم الفاسدة خرجت من صفات ملعونة فكل من أخذ بها أصابه من وبائها بقدر ما أُشرب قلبه ومالت نفسه حتى يتحول إلى مَسخ فتصير أفكاره أفكارهم وينظر إلى المسلمين بمنظارهم فيفتّ في عضد إخوانه دون علم بغاية أسياده بسبب ارتباطه بخطوات الشيطان وبمثل ذلك يخترق الشيطان قلوب البشرية كلها! واعلم أن مجانبة الهوى منوطة باتباع القرآن واقتفاء آثار سيد الأنام في جميع موارد ومصادره وحركاته وسكناته ويقظته ومنامه حتى يلجم النفس بلجام الشريعة ويتجلى في القلب حقائق الحقيقة. وقد تضمّن النهي عن الاتباع في قوله **(ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)** معنى الصرف، فأمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصرف أهواءهم لئلا يختلط باطلهم بحقه، والخطاب لرسول الله ﷺ في الظاهر والمراد به أمته لأنه محفوظ ومعصوم من اتباع أهوائهم... ومعنى النهي عن متابعة أهواء أهل الكتاب النهي عن موافقتهم بحيث إذا تأمل المخاطبون وجدوا أنفسهم قد اتبعوهم وإن لم يكونوا قاصدين متابعتهم؛ فيكون الكلام تنفيراً للمسلمين منهم وتحذيراً من سلوكهم في دينهم ومن ذلك تخصيص ما نزل من القرآن بكفار قریش فإنه تعطيل للفرقان واتباع لأهواء قرن الشيطان إذ لم يبق على الأرض بعد حجة الوداع قرشي كافر! روى ابن أبي شيبة وابن عبد البر عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل

الكتاب، فقال: يا رسول الله: إني أصبت كتاباً حسناً من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب فوالذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» هذا هو هدي رسول الله ﷺ، متاركة حاسمة وبراءة تامة، وقد وصف الحق الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، والغرض: التبرؤ من أهل الكتاب والإعراض عنهم والبعد عن الإصغاء إليهم والاحتراز عن الاغترار بتلبيساتهم فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق! وروى أبو نعيم عن عبد الله بن ثابت الأنصاري قال: جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه جوامع من التوراة فقال: مررت على أخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة أفلا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ فقلت: أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فذهب ما كان بوجه رسول الله ﷺ ثم قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى أصبح فيكم ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» وفي قول سيدنا عمر رضي الله عنه "مررت على أخ لي من بني قريظة" دلالة على نفاقهم - فإنهم أهل مكر وكيد وخيانة وخبث وخداع وغدارة - إذ لا يكون الأخ إلا مؤمناً.

تاريخ الشرك في الحكم

لا يمكن تصور التاريخ تصوراً دقيقاً دون فهم الحاضر وملابساته وطبيعة حركة دولته، كما لا يمكن تشخيص الحاضر تشخيصاً عميقاً واستشراف مآلاته دون استقراء الماضي وفهمه وإدراك سننه، فهي حركة منسجمة متسقة، حركة ذهاب وإياب بين الحاضر والماضي، تزيد المؤمن في كل شوط منها علماً وإدراكاً وعمقاً في فهم نواميس الكون وتفاعلات شخوصه، فالإنسان هو هو لا يتغير ولا يتبدل، والدول هي هي والفطرة البشرية هي هي منذ آلاف السنين، وقد جبل الله الناس على الانتظام في دول وممالك، وجبل الإنسان على حب السلطة، وجرى التاريخ وتعاقت الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر فعاجلته السنن التي لا تتبدل ولا تتحول، ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، وقد أبدع بنو إسرائيل مع حليفهم إبليس في صياغة الحكم الجبري وإبعاد الناس عن ارتباط هذه المرحلة بالأمم الغابرة! فصار من يعيش في هذه الحضارة يظن أن الأمم الغابرة كانت تعيش في تخلف حضاري متناسياً أن القرآن أخبر أن من سبقنا كانوا أشد منا قوة وأكثر منا أموالاً وأعظم حضارة وتقدماً! وقد استخلف الله قوم نوح ثم قوم هود ثم قوم صالح وجاء بعدهم قوم إبراهيم وقوم لوط وجاء بعدهم أصحاب الأيكة والفراعنة ثم استخلف الله بني إسرائيل ثم استخلف بني إسماعيل حين بعث فيهم رسولاً منهم يحدثهم عن أشراط الساعة وتحولات الأمم ويظهرهم ويعلمهم الكتاب والسنة ثم عاد بنو إسرائيل مرة أخرى في هذه المرحلة ثم يعقبهم بنو إسماعيل، وقد اتخذت الأمم الهالكة المستخلفة إبليس وجنوده آلهة في الحكم وهذا الإشراك قائم على الإشراك في العبادة، فقوم نوح شيدوا حضارة عظيمة تفوق هذه الحضارة

وكانوا أشد قوة من هؤلاء اليوم! فأظهر نوح عليه السلام عدم مبالاته بهم وبشركائهم واثقاً بما وعده ربه من كلاءته ونصرته **(فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون)** فنجاه مولاه وأغرق قومه الذين كذبوه وجادلوا في الآيات الكونية وجاؤوا بتمويهات باطلة لشكل الأرض وحركة الشمس والقمر كما أشارت الآيات الكريمة **(ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً، والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً، والله جعل لكم الأرض بساتين، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً)** وأعقب كلامه بوصف هذا التحريف بالمركر الكبار لأن تأمل آيات الله على حقيقتها يحصل به اليقين والإيمان كما حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام **(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين)** وعلى نهج قوم نوح سار أرباب النظام العالمي الجديد بعد أن سحروا أعين الناس واسترهبوهم بالمادية الجدلية وبالعلوم التجريبية وحرفوا آيات الله الكونية وفسروها على غير واقعها فصرفوا العقل الإنساني بعمومه عن الغيبات والمسلمات واليقينيات الكونية وربطوها بالعلم النظري الحديث وشككوا في الثوابت العقدية وفصلوا بين الأسباب ومسببها وبين الظواهر وخالقها من خلال تجريد العلوم النظرية عن الارتباط بالديانة وكان الروم هم الضحية في مرحلة الثورة الصناعية وما تمحض عنها من صراع بين العلم المحدث والكنيسة ثم أنزلوا هذا الموقف على ديانة الإسلام تشفياً والإسلام منه براء! وقد خدمهم جملة من العلماء المتأخرين ممن تخصصوا في دراسة الظواهر الكونية وصارت كتبهم وتفسيراتهم تملأ المكتبات والأسواق تحت مسمى الإعجاز العلمي! قال الإمام ابن عطية الأندلسي في تفسير قوله

تعالى ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ وظاهر هذه الآية أن الأرض سطح لا كرة وهو الذي عليه أهل العلم، والقول بكريتها وإن كان لا ينقص ركناً من أركان الشرع فهو قول لا يثبت علماء الشرع. وقال بذلك الثعالبي صاحب الجواهر الحسان في تفسير القرآن. وقال جلال الدين المحلي: وقوله "سطحت" ظاهر في أن الأرض سطح وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع.

﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ قصود أهل الكتاب في جميع أحوالهم من أعمالهم وأقوالهم قصود خبيثة ودأبهم تحريف آيات الله التشريعية والكونية فقد قلبوا المشاهد الكونية وعكسوا الحقائق وزعموا أن الأرض كرة تدور وتتحرك! والقرآن الكريم أدمج في ضمن دلائله الجمة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلاً على سكون الأرض واستقرارها ودوران الشمس والقمر حولها وحكى في هذه الآية حادثاً يبين انقلاب مظاهر الكون يوم النفخ في الصور والمقصود من اختيار التشبيه بمرور السحاب إدماج تشبيه حال الجبال حين ذلك المرور بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها فيكون من معنى قوله "وتكون الجبال كالعهن المنفوش" وهو في معنى قوله تعالى "ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم" قال صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: "وترى الجبال" أي عند القيام من القبور، والخطاب إما للنبي ﷺ ليدل ذلك - لكونه ﷺ أنفذ الناس بصراً وأنورهم بصيرة - على عظم الأمر، وإما لكل أحد لأن الكل صاروا بعد قيامهم أهلاً للخطاب بعد غيبتهم في التراب

"تحسبها جامدة" أي قائمة ثابتة في مكانها لا تتحرك لأن كل كبير متباعد الأقطار لا يدرك مشيته إلا تخرصاً "وهي تمر" أي تسير حتى تكون كالعهن المنفوش فينسفها الله فتقع حيث شاء كأنها الهباء المنثور فتستوي الأرض كلها بحيث لا يكون فيها عوج، وأشار إلى أن سيرها خفي وإن كان حثيثاً بقوله: "مر السحاب" أي مرّاً سريعاً لا يدرك على ما هو عليه لأنه إذا طبق الجو لا يدرك سيره مع أنه لا شك فيه وإن لم تنكشف الشمس بلا لبس وكذا كل كبير الجرم أو كثير العد يقصر عن الإحاطة به لبعد ما بين أطرافه بكثرتة البصر يكون سائراً والناظر الحاذق يظنه واقفاً ولما كان ذلك أمراً هائلاً أشار إلى عظمتة بقوله مؤكداً لمضمون الجملة المتقدمة "صنع الله" أي صنع الذي له الأمر كله ذلك الذي أخبر أنه كائن في ذلك اليوم صنعاً ونحو هذا المصدر إذا جاء عقب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداذه والصارخ بعلو مقداره وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا هكذا ثم زاد في التعظيم بقوله دالاً على تمام الإحكام في ذلك الصنع "الذي أتقن كل شيء" ولما ثبت هذا على هذا الوجه المتقن والنظام الأمكن، أنتج قطعاً قوله "إنه" أي الذي أحكم هذه الأمور كلها "خبير بما يفعلون" أي لأن الإلتقان نتيجة القدرة وهي نتيجة العلم فمن لم يكن شامل العلم لم يكن تام القدرة وعبر بالفعل الذي هو أعم من أن يكون بعلم أو لا، لأنه في سياق البيان لعماهم ونفي العلم عنهم وقرئ بالخطاب المؤذن بالقرب المرجي للرضا المرهب من الإبعاد المقرون بالسخط وبالغيبة المؤذنة بالإعراض الموقع في الخيب. وقال الإمام النسفي في تفسيره: المعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد لعظمها وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح.

(قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) حكى تعالى عن قوم هود اتخذهم آلهة في الحكم والعبادة! وأرادوا بقولهم "إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء" أن شركاءهم الجن مسوؤه لكونه سبهم وحرص على ترك عبادتهم فجعلوه يتكلم مكافأة بما يتكلم به المجانين كما قال المشركون الجدد "معلم مجنون" فجعلوه مجنوناً وجعلوا سبب جنونه مساً من الجن وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديداً للناس بأنه لو تصدى له شركاؤهم من الإنس لدكوه دكاً! ولما نسبوا ما صدر منه من دعائهم إلى الله وإفراذه بالوحدانية إلى الخبل والجنون، أحاجهم بقوله (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون، من دونه فكيديني جميعاً ثم لا تنظرون) ولما أمر شعيب قومه بترك الإشراف بالله الذي يحبط صالح العمل أجابوه بجواب المستهزئين (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لآنت الحليم الرشيد) وذلك لأن شعائر الإسلام القائمة على التوحيد تلغي النظام السياسي والاقتصادي القائم على الشرك المتوارث والمعمول به في الدولة. لقد بعث الله النبي الكريم محمداً ﷺ من ذرية الغلام الحليم إسماعيل عليه السلام فأقام الأمة المرحومة الوسط العدل التي وفت بعهد الله إلى أن جاء وعد الله باستخلاف بني إسرائيل فأعادوا الأمم إلى سيرتها الأولى وأركسوها في برائن الشرك والعبودية لغير الله واتخذوا إبليس وجنوده آلهة وشركاء في الحكم وأعرضوا كما أعرض أسلافهم عن الذكر الحكيم الذي أنزله الله بلسان عربي مبين.

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله إن أرادي الله بضربه هل هن كاشفات ضربه أو أرادي برحمة هل هن

ممسكات رحمته) لما أطنب تعالى في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الشيطان وجنوده وبني ذلك على أمرين: أحدهما: أن المشركين المستخلفين مُقرّون بوجود الإله الخالق القادر وهذا متفق عليه بين المستخلفين لا نزاع بينهم فيه، والآخر: التنبيه على أن الآلهة المتخذة كالإناث لا تدفع ضرراً ولا تجلب نصراً كما دل على ذلك ضمير (هُنَّ) وهو عائد إلى ما الموصولة وكذلك الضمائر المؤنثة الواردة بعده على اعتبار التأنيث من قبيل الكلام الموجه وهو متصل بقوله (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الطاغوت: الشيطان. وإذا كان الشيطان لا قدرة له على الخير والشر كانت عبادة الله كافية وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية - والله أعلم - هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) ونحو هذا قوله عز وجل (إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه) قال أهل العربية: معناه يخوفكم أوليائه والدليل على ذلك قوله عز وجل (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي كنتم مصدقين فقد أعلمتكم أنني أنصركم عليهم فقد سقط عنكم الخوف، وهو تذكير وإحماء لإيمانهم وتوكلهم عليه تعالى خاصة.

الفصل السادس: توحيد الربوبية

الربوبية تقتضي الملّك، ونظير هذا الاستعمال ما أنشده القرطبي:

إذا قيل من ربُّ المزالف والقرى ... وربُّ الجياد الجرد قلت لخالِدُ

والرب: يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والقيم، والمعنى الحقيقي للرب هو من بيده أمر التدبير والسيادة والتصرف والقيام بالمصالح، قال تعالى ﴿قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ونظائرها: أدلة مشهودة على حقّية ربوبيته سبحانه وعلى حقّية ملكه وكمال حكمته في تصرفه بعباده... قال صاحب لسان العرب: الرب هو الله عز وجل هو رب كل شيء أي مالكة وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة، قال: ويقال الرب بالألف واللام لغير الله وقد قالوه في الجاهلية للملك؛ قال الحرث بن حنزة:

وهو الرب والشهيد على يوم ... الخيارين والبلاء بلاء

والاسم: الربابة؛ قال:

يا هند أسقاك بلا حسابه ... سقيا مليك حسن الربابه

والربوبية: كالربابة، وعلم ربوبي: منسوب إلى الرب على غير قياس.

وفي حديث عروة بن مسعود رضي الله عنه: لما أسلم وعاد إلى قومه دخل منزله فأنكر قومه دخوله قبل أن يأتي الرّبّة يعني اللات. قال الشاعر:

له ربّة قد أحرمت حلّ ظهره ... فما فيه للفقرى ولا الحجّ مزعمُ

قال صاحب شمس العلوم: الربة: المالكة. وقال الإمام القرطبي: "رب العالمين" أي مالكمهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه... والرب: السيد ومنه قوله تعالى "اذكرني عند ربك" وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربتها» أي سيدتها... والرب: المصلح والمدير والخابر والقائم، قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربه يربه فهو رب له وراب، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب، وفي الحديث: «هل لك من نعمة تربها عليه» أي تقوم بها وتصلحها، والرب: المعبود، ومنه قول الشاعر:

أربُّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير: رباه وربيه وربته، حكاة النحاس. وفي الصحاح: ورب فلان ولده يربه ربا وربيه وتربيته بمعنى أي رباه. والمربوب: المربي... واختلف في اشتقاقه، فقيل: إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى "وربائبكم اللاتي في حجوركم" فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها، فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل، وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات. اهـ. وإذا كان هذا الدليل حجة على الجاهليين القدماء في تقرير الربوبية، فهو كذلك يواجه لوثات الجاهلية الوهابية التافهة... وأول آية نزلت في القرآن تضمنت توحيد الربوبية (اقرأ باسم ربك الذي خلق) والمعنى اقرأ باسم ربك المنفرد بالربوبية بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الصنع والاختراع والإيجاد والتكوين... والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى النبي ﷺ للإيدان بفيضان إحسانه إليه وعنايته الخاصة به ورعايته وإمداده وإعداده وتهيته وتأييده ونصره في جميع أطواره وتقلباته وفيه إشعار

بعلية الربوبية والمالكية والحكمية وهذه الآية تفسيرية لما أحكم من الآيات لأن
 توحيد الربوبية هو الأصل وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل
 وهو الذي يتفرع عنه جميع التفاصيل، ولذلك تكرر الأمر بتوحيد الربوبية
 والاستدلال عليه في القرآن، وأول ما يلزم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية
 فتتوحد العبودية كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وقد جاء الأمر
 الإلهي لأبي الأنبياء مرشداً إلى أصل الإسلام وأساس التوحيد ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ
 أَسْلَمْ قَالَ أَسَلِمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه الآية تضمنت جماع معاني التوحيد،
 إبراهيم عليه السلام يذكر الله بصفة الربوبية الدالة على السلطة العليا والسيادة المطلقة
 السرمدية، وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة البشرية! وهي مفرق
 الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك، فإما أن يدين الناس لرب
 واحد وإما أن يدينوا لأرباب متفرقة! ولذلك قال إبراهيم ﴿أَسَلِمْتُ لِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ وجاء التعبير بهذه الصيغة دون قوله: أسلمت لك ليأتي بالإسلام
 وبدليله، والمعنى استسلمتُ للملك الحق الذي تحقّق له الربوبية والملك والسيادة
 والسياسة، والإسلام إنما سُمّي إسلاماً لهذا المعنى وهذه هي ملة إبراهيم وهذا هو
 التوحيد بشموله وهذا هو الإسلام الخالص الصريح، لا يرغب عنه إلا ظالم
 لنفسه سفيه عليها ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ثم حكى
 تعالى عن إبراهيم أنه بالغ في وصية بنيه وذكر عَقِيْبِهِ أن يعقوب وصّى بنيه بمثل
 ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة في البيان ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ
 بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
 والمقصود - والله أعلم - بعثهم على الإسلام والدوام عليه وذلك أن المرء يخشى
 أن تعاجله المنية فيفوته الظفر بالنجاة، والوصية دالة على أن شفقة الأنبياء على

أبنائهم كانت في باب الإسلام وهمتهم مصروفة إليه دون غيره. قال الراغب الأصفهاني في تفسيره: وقوله "بها" أي بالملة وقيل بالكلمة التي دل عليها قوله "أسلمت" وكلاهما غير منفك من الآخر إذ كانت هذه الكلمة من جملة الملة، والملة مقتضية لهذه الكلمة فبين تعالى أن إبراهيم وصى بنيه ووصى يعقوب بنيه أيضاً بها كما أوصى إبراهيم وقال "إن الله اصطفى لكم الدين" أي دين إبراهيم فحذف القول لتضمن الوصية لذلك. اهـ. وقد احتج عليهم تعالى بقوله ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ أي ذلك رب جميع الخلائق، الرب العظيم الشأن الذي تحقّ له الربوبية والسلطة العليا والسيادة المطلقة على نحو ما ورد في الحديث عند الإمام أحمد: «السيد الله» أي الحَكَم الذي يسوس الخلق ويملك نواصيهم هو الله سبحانه، استحق ذلك لأنه عز وجل خلق كل شيء، وكل شيء قام به تعالى، وهو سبحانه قائم عليه، وهذه الربوبية التي عنها مؤمن آل فرعون في قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جاءكم بالدلائل الدالة على توحيد الربوبية وفي ذكر الرب تذكّار لهم في أنه سبحانه كان يريهم ويصلح حالهم إذا كان سيدهم ومالكهم وهم عبيده. روى الإمام أبو داود عن زيد بن أرقم قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول في دبر صلاته: «اللهم ربَّنَا وربَّ كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الربُّ وحدك لا شريك لك» الحديث، ومن تأمل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تُفتتح باسم الرب. وهذا الذي هدى الله إليه فتية أهل الكهف ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والقول مسوق إلى قومهم المشركين إذ قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وعدم الاكتراث بتهديد الملك المنافق وآلته أو قصدوا به

موعظة قومهم بدون مواجهة خطابهم استنزالاً لطائرهم واستقصاء لتبليغ الحق إليهم على طريقة التعريض من باب «إياك أعني فاسمعي يا جارة» ونظير هذا قول الرجل المؤمن ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ وقال سبحانه مثنياً على المؤمنين ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ وحين أرسل تعالى موسى وهارون إلى فرعون حَقَّق الأمر بقوله ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك﴾ وخصَّ الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون قصداً للتعريف بهذا التوحيد الذي أنكره فرعون ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ يعني من ربكما الذي تسعيان لتقرير سلطانه وحكمه؟ وأعرض عن أن يقول: فمن ربي؟ إلى قوله ﴿فمن ربكما﴾ إعرافاً عن الاعتراف بالربوبية، فأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقد ذكر ابن عبد الوهاب - كما ورد في كتاب الجواهر المضية لمحدد الدعوة النجدية - أن توحيد الربوبية هو أن الله سبحانه متفرد بالخلق والتدبير عن الملائكة والأنبياء وغيرهم وهذا حق لا بد منه لكن لا يدخل الرجل في الإسلام بل أكثر الناس مقرون به... وقال في موضع آخر: أما توحيد الربوبية فيقر به الكافر والمسلم، وأما توحيد الألوهية فهو الفارق بين الكفر والإسلام... إلخ. وهذا الذي حرّفه وزعم أنه من عند الله فألحقه في كتاب الله، لم ينزل به الله وإنما تعمد هذا الخبر قيل الكذب على الله والشهادة عليه بالباطل والإلحاق بكتاب الله ما ليس منه، نعوذ بالله من استحقاق المقت! قال تعالى ﴿ألا إن عادا كفروا ربهم﴾ ونظيره ﴿ألا إن ثمودا كفروا ربهم﴾ وقال عز وجل ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم﴾ أي كفروا بالآيات الدالة على الربوبية! وقال أيضاً ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ ونحوه قوله سبحانه ﴿مثل الذين كفروا

برهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) وحكى تعالى قول الكفار يوم القيامة (تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين) وروى الحاكم في المستدرك عن قرّة بن إياس رضي الله عنه أنه لما كان يوم القادسية قال العليّ للمغيرة بن شعبة: إنكم معاصر العرب قد عرفتم الذي حملكم على المجيء إلينا أنتم قوم لا تجدون في بلادكم من الطعام ما تشبعون منه فخذوا نعطيك من الطعام حاجتكم فإنما قوم مجوس... فقال المغيرة: والله ما ذاك جاء بنا ولكننا كنا قوماً نعبد الحجارة والأوثان فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره ولا نعرف رباً... الحديث. وبهذا يتبين فساد دعوى ابن عبد الوهاب! ولو كان توحيد الربوبية متحققاً عند الكفار، ما صحّ أن يؤخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر (ألسن بربكم) ولا صحّ أن يقولوا يوم القيامة (إننا كنا عن هذا غافلين) ولما صحّ سؤال الملكين للميت عن ربه: «من ربك؟» كما جاء في صحيح الإمام مسلم. والحق أن الوهابية بهذا الزعم الباطل أعادوا الخوارج وصيّروا المسلمين كفاراً يستوون مع عباد الأوثان. واعلم أن الرب والإله وردتا في القرآن والسنة بنفس الاستعمال، قال تعالى (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) ولو كانت كلمة التهليل تتضمن توحيد الألوهية فقط لاقتضى أن لتوحيد الربوبية كلمة أخرى غير هذه ولا قائل بذلك، وقد بين المولى جل شأنه في خاتمة كتابه هذه الحقيقة (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس) فذكر سبحانه ربوبيته لهم وملكه إياهم وألوهيته الحق فحق عليهم أن يستعينوا به من شر الذين يفسدون عليهم عقائدهم.

ولما ذكر الحق في سورة فصلت أن المعصية وما جرأ عليها يقتضي انتقاصاً يقدح في الربوبية ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ أتبعه بتبيان أنه تعالى هيئاً لهم أخطاناً وأصحاباً من غواة الجن يستولون عليهم استيلاء القشر على البيض فقال ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ وقد عبّر عنهم المفسر المعظم صاحب الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله بـ«**قرن الشيطان**» ولما أخبر سبحانه بملازمة الشياطين لهم وعرفوا أن القرآن نزل بفضحهم وهتك سترهم، احتالوا بكل وجه وتمالؤوا ودبروا تدبيراً لمنع الناس من فهمه فعمدوا إلى التظاهر بالإيمان وحرفوا معاني القرآن وسعوا في آياته معجزين جاهدين في بطلانها وصرفوا تأويلها إلى شركائهم رجاء أن يغلبوا المسلمين ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ ولما استحقوا بهذا العقوبة، سبب عن ذلك مؤكداً لإنكارهم قوله جل شأنه ﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي يجحدون كبراً وعناداً والعنيد كالحديد لا يُلينه إلا النار! ثم أتبع ذلك بذكر مقالة أتباعهم إذا دخلوا النار ورأوا عظيم ما حل بهم فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادي ضلالتهم ويعظم غيظهم وحنقهم عليهم ﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ وإنما قدّم الجن على الإنس هنا لأنهم أصل الوسواس كما حكى تعالى في خاتمة كتابه العزيز ﴿من الجنة والناس﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة

لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) ومعنى "أخرجهم" أي الأتباع والرعية، والمراد بـ"أولاهم" الأولى في المرتبة وهم القادة والمتبوعون من كل أمة، والله تعالى أعلم. ولما ذكر كفرهم بالربوبية، أتبعه ذكر المؤمنين الذين أقروا له تعالى بالربوبية فقال مبشراً بتنزل الملائكة عليهم في الحياة الدنيا بالنصر والتأييد وعند موتهم وفي قبورهم وبعثهم وحشرهم وفي جميع تقلباتهم في برازخ الآخرة تطيباً لقلوبهم وتأميناً لهم من جميع المخاوف (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) والربُّ: هو السيد المالك، استحق ذلك لأنه سبحانه خلق العباد وسواهم وقام على تربيتهم ورعايتهم، وسمي المالك بالرب لأنه يربي ما يملكه، ووجوه تربية الله لعباده كثيرة غير متناهية من حين أخرجهم من العدم إلى حين رجوعهم إليه، فسبحانه من رب لا يُضاهى، ومنان لا يحصى كرمه ولا يُتناهى، ونحن في تيار بحر جوده ساجدون، وعن إقامة مراسم شكره قاصرون، ولما كانت صفة الربوبية أمماً جامعاً لأصول الإسلام قال منبهاً على عظيم وبديع نبلها حاثاً على الرغبة في طلبها من واهبها والاستظلال بجميع ظلها مشيراً بالبناء للمفعول إلى أنها هي العمدة المقصودة بالذات! ثم بين تعالى المواقف الأخلاقية ضد طموح الرغبة وجموح الطبع والذين التزموها هم الذين ينطبق عليهم قوله (وما يلقاها

إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ولما كان الشيطان اللعين هو الصارف عنها، حَسُنَ أن يعطف عليه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) ولما كانت الشمس والقمر من آثار ربوبيته وكان القوم يرون تأثير الكواكب استقلالاً من دون الله، أنتج قوله مبيناً أنهما من آثار ربوبيته تعالى محذراً من فساد معتقدهم القائم في نظرهم على أسس علمية والعلم منه براء (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) ولما كان القوم لا يؤمنون باليوم الآخر، ذكر الحق بعض آيات الأرض الدالة على قدرته على البعث بعد ذكره بعض آيات السماء فقال (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير) ثم بين الحق اجترأهم على الإلحاد وقدهم في الاعتراف بالربوبية وميلهم وصرفهم المعاني عن القصد وسنن العدل ومما حلتهم وكفرهم بالذكر وضلالهم في شأن الربوبية وأخبر حبيبه ﷺ أنه ما يقال له إلا ما قيل لمن قبله.

(فذلکم الله ربکم الحق) الفاء للتفريع على الإنكار في قوله (قل من يرزقکم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله أفلا تتقون) والمعنى أنه تعالى هو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه يلي تدبير أمر العالم جميعاً ويقضي أمر ملكه، فالمفرع من جملة المقول، واسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة صاحب الإلهية الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه للتنبيه على أن المشار إليه جدير بالحكم الذي سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف المتقدمة على اسم الإشارة،

وإفراد الله بالربوبية بيان لاسم الإشارة لزيادة الإيضاح تعريضاً بقوة خطئهم وضلالهم، و﴿الحق﴾ نقيض الباطل والوصف بالحق هو وصف المصدر في معنى الحاق أي الحاق الربوبية دون الأرباب الذين زعموهم باطلاً، وموقع هذه الآية بين قوله ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ وقوله ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ موقع التقرير للوحدانية، والفاء في قوله ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ تفريع للاستفهام الإنكاري على الاستنتاج الواقع بعد الدليل، فهو تفريع على تفريع وتفرع بعد تفريع، والاستفهام هنا إنكاري في معنى النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء في قوله ﴿إلا الضلال﴾ أي لا يكون إثر انتفاء الحق إلا الضلال، وعبر عن الباطل بالضلال لأن الضلال أشنع أنواع الباطل، والفاء في ﴿فأني تصرفون﴾ لتفريع التصريح بالتوبيخ على الإنكار والإبطال كأنه يقول: أين عقولكم؟ والتعبير القرآني في سوق هذه المعاني يفوق كلام البلغاء براعة وإيجازاً ووضوحاً.

﴿قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأني توفكون﴾ الاستفهام في الآية تقرير للكلام المتقدم، وتعيد الاستدلال من دواعي التكرير وهو احتجاج عليهم بأن حال شركائهم على الضد من صفات القوة والقدرة والتدبير، وقد جرى الكلام على صورة الاستفهام لتعجيز المخاطبين وتوبيخهم وذمّ حالهم والتعجيب من جعلهم لله شركاء من مخلوقاته! وفيه إيماء إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم معانداً بعيداً عن الإنصاف!

﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ الربوبية والألوهية متلازمان يقع كل منهما موقع الآخر في الكتاب والسنة وكلام علماء الإسلام، وقد أشار القرآن الكريم والسنة المستفيضة إلى تلازم توحيد الربوبية والألوهية، فالإله هو الذي يستحق أن يكون رباً وحاكماً وسيداً ومعبوداً ومتصرفاً ومشرعاً ومُوجّهاً، ألا ترى أنه تعالى لما شرع في مجمل قصة أصحاب الكهف قدّم منها ما فيه وصف إيمانهم بالربوبية ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ ثم استتبع بوصف إيمانهم بالربوبية والألوهية ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططاً﴾ والقول مسوق إلى قومهم المشركين إذ قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وعدم الاكتراث بتهديد الملك المنافق وآلته. وهذا دليل على أن "الرب" و"الإله" كلمتان مترادفتان معناهما واحد. روى ابن السني عن عمرو بن معدي كرب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من قال حين يصبح: الحمد لله ربي لا أشرك به شيئاً أشهد أن لا إله إلا الله، ظل مغفورا له، ومن قالها حين يمسي بات مغفورا له».

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ قدّم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك لإبطال عبادة غير الله، ومجموع الجملتين في قوة صيغة حصر مفاده: اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره، فاشتمل على معنى إثبات ونفي كما قال في موضع آخر ﴿يعبدوني لا يشركون بي شيئاً﴾ والعدول عن طريق القصر في مثل هذا طريقة بليغة، وإنما يصار إليها عند ما يكون الغرض الأول هو طرف الإثبات ثم يقصد بعد ذلك نفي الحكم عمّا عدا المثبت له، ولأجل ذلك لما خوطب بنو إسرائيل بنظير هذه الآية خوطبوا بطريقة القصر في قوله ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا

تعبدون إلا الله) لأن المقصود إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله فأخذ عليهم الميثاق بالنهي عن عبادة الشيطان ابتداء واتخاذَه وجنوده أولياء - والله أعلم - ولما كان الإشراك للمعبود في العبادة يشبه ترك العبادة جعل ترك الإشراك مساوياً لنقيض العبادة لأن الإشراك ما هو إلا ترك لعبادة الله في وقت الخلو إلى الشركاء، والحفاة العراة أثبتوا لله شركاء ساووا بينهم وبين الله تعالى ثم زعموا أنهم مسلمون! ثم أتبع ذلك من تحجب مراعاته لله وبدأ بمن جعله سبباً لإيجادهم فقال (وبالوالدين إحسانا وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً) وفي هذا أمرٌ بلين القول من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم وهو مما ارتضاه الله وأحبه وبالإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد وفي ذلك معنى من التعريض بهم ورميهم باضطراب الحال ومناقضة الأقوال للأفعال (وقولوا للناس حسناً) وذلك بأن يأمرهم بما أمر الله به وينهوهم عما نهى عنه، ولما أمرهم بما إن امثلوه اجتمعت كلمتهم ذكر أعظم جامع على الله من الأعمال فقال (وأقيموا الصلاة) ثم ذكر ما به تمام الجمع ودوامه فقال (وآتوا الزكاة) ولما كان الإعراض عن هذه المحاسن في غاية البعد فكيف إذا كانت بعهد فكيف إذا كان من الله أشار إلى ذلك بأداة التراخي فقال (ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون) وإذا كانت دعوة نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام قد تلخصت في العبارة الموجزة التالية (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فإن الأمر بعبادة الله تعالى تقدمه التنبيه على استخلافهم في الأرض كما دلت عليه آيات أخرى وهذا ما حملهم على إنكار الرسل وتكذيبهم والتمرد عليهم ونسبتهم إياهم إلى الجنون وقد تملأت الأمم المستخلفة على طريقة واحدة من النفاق والكفر بناء على أن

الأنبياء كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة... ومدلول الصيغة **(اعبدوا الله)** الأمر بعبادة الله، والعبادة لا تقوم إلا إذا كان الحكم لله وحده، ومدلول الصيغة التي تليها **(ما لكم من إله غيره)** النهي عن عبادة غير الله وأكد ذلك بـ(من) الدالة على الاستغراق والتوكيد، والمدلول الثاني هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه ولكن الأول منطوق، والآخر مفهوم، وقد اقتضت حكمة الله في بيان هذه الحقيقة الكبيرة عدم الاكتفاء بالمفهوم في النهي عن عبادة غير الله وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل، وإن كان مفهوماً ومتضمناً في الأمر الأول، وهذه طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها: عبادة الله، وعدم الإشراك به، ومن ثم جاء النص القرآني بالأمر والنهي معاً بصيغة لا تبقى معها ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة، ودعوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت خاصة في قومهم والبشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء. وقد تَرَدَّد العباد في القرآن سبيل التداخل مع الحكم إن انفردا كالإسلام والإيمان إن اجتمعا دل كل منهما على معنى غير الآخر ويدلان على معنى واحد إن انفردا... قال جل شأنه وعز سلطانه **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)** والمراد بالناس بنو إسرائيل ابتداء قبل بقية البشر لأنهم الغرض في كتاب الله - والله أعلم - وإذا كانت العبودية هي إظهار التذلل والعبادة هي غاية التذلل فإنها لا تتحقق إلا بعد معرفته تعالى ولا سبيل إلى معرفته إلا بالدليل وهذا يدل على أن المرء مكلفٌ بالنظر والاستدلال، قال تعالى **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** والكلام في الآية مرتب على ما تقدم من الإنذار والموعظة والاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمستخلفين في الكفر والتكذيب ابتداء من قصة إبراهيم

مع ضيفه من الملائكة وإرسالهم إلى قوم لوط إلى قوله ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين﴾ وبذلك تتعانق معانيه وتترابط مبانيه حتى كأنه كلمة واحدة! وقد سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو؟ فقال: المعرفة لقوله جل ذكره ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ قال ابن عباس: إلا ليعرفون. فسمى تعالى المعرفة به عبادة، وهذه الآية الجامعة تحوي حقيقة من أضخم الحقائق الكونية وأعظم الشرائع الربانية التي لا تستقيم حياة البشر بدون إدراكها بكمالها، ومن ضل في فهمها واتبع أهواء أهل الكتاب فقد أبطل غاية وجوده، وباتت حياته فارغة من الفهم والمعرفة، مملوءة بالجهالات والظلمة... وللعبادة لذة وحلاوة ونعيم وطلاوة، فمن طعم حلاوتها وذاق لذتها تعلق بها وعشقها، فهو لا ينفك عنها أبداً لأنها تصير راحته وريحانه، وإن أعظم ذائق ذاق حلاوتها، وأكبر من نعم بها وشهد أسرارها وأنوارها، هو سيدنا محمد عليه صلوات رب العالمين، إمام العباد وسيد الصالحين، وأتقى الأولين والآخرين، بنص قوله: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» والمتبعون الحمديون نالوا نصيبهم من لذة العبادات ونعيم الطاعات على حسب مراتبهم... وللعبادات صبغة نورانية وآثار في النفس تهذبها من الرعونات والأنانيات حتى تصفو وتدخل في دائرة العبودية لسلطان مقام الربوبية كما قال سيد البرية لربيعة لما سأله مرافقته في الجنة: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» والكلام في الآية معطوف على قوله ﴿اففروا إلى الله﴾ ومن أعجب العجائب أن يفر العبد من مولاه، ويتوجه بالطلب لما سواه! مع أنه لا انفكاك له منه ولا محيد له عنه، إذ لا وجود له إلا منه ولا قيام له إلا به. قال أحد العارفين: عمى البصيرة في ثلاث: إرسال الجوارح في معاصي الله، والطمع في خلق الله، والتصنع بطاعة الله.

﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر كتاب موسى وذكر بعده ابن مريم وأمه وما حصل من أمر بني إسرائيل الذين قطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة مع اتحادهم واقتسموا هذه الأديان المنافية لصرافة مشرب التوحيد وجعلوا لها أسفاراً وأنشؤوا أحزاباً؛ ذيل ذلك بالتنويه والتفخيم بشأن العارفين بالحكمة المقرّين بالربوبية الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقته، وما طلب منهم إلا تكليفاً لا يشق عليهم، ولمراعاة هذا المعنى عطف قوله ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ والكلام في قوله ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ خبر مراد منه لازمه وهو تيسير الاعتذار على أهل التوحيد مع ما في ذلك من جبر الخواطر المنكسرة الذين لم يلحقوا غيرهم لعجز أو خصاصة، وتسجيل الكذب على الذين تقطعوا أمرهم بينهم وقطع معذرتهم لأن قلوبهم في غمرة عن الحق لم يمسسها نوره الخبي لاندفاعها في الشهوات حتى تفيق لتلقى العذاب الأليم وتلقى معه التوبيخ والتحقير.

حملة العرش المجيد

أخبر سبحانه أن للعرش حملة يحملونه تعزراً وتشرفاً وفي ذلك مظهر لسلطان الملك ومقام هيبة الربوبية ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به﴾ كما بين سبحانه عدتهم فقال ﴿والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي ثمانية أملاك من الملائكة كما ذكر العباس عليه السلام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا

الله تعالى. وروى عنه أنه قال: هم الكروبيون. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية» والضمير في قوله "فوقهم" للملائكة الحملة. وقيل: للعالم كله. وكل قدرة كيفما تصورت فإنما هي بحول الله وقوته. وروى أبو يعلى بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه في الأرض السابعة والعرش على منكبيه وهو يقول: سبحانك أين كنت وأين تكون» أي تنزهت عن المكان والجهة والزمان فسبحانك في قدمك الذي لا أول له وسبحانك في بقائك الذي لا آخر له.

قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون

الآية استئناف مقرر لمضمون ما جاء في مطلع السورة الكريمة من توحيد الله وكبرياء ربوبيته عز وجل الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة إلى مقطعها، حيث ابتدئت بما هو كالمقدمة للمقصود وذلك بالتنويه بشأن القرآن لأنه جامع لأغراضها التي تحوم حول إثبات تفرد الله تعالى في الحكم والعبادة وإبطال الشرك فيهما، ثم أبطل تعالى تعللات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم، ونفى ضرباً من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً، واستدل سبحانه على وحدانيته بدلائل تفرده بإيجاد العوالم العلوية والسفلية مما لا ينكر المشركون انفراده به، ثم استدل عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إليه تعالى عند ما يصيبهم الضر، وتخلل ذلك التنويه برفعة العلم ومذمة الجهل، والتنبيه على أن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل، والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بالغايبين، وإثبات البعث والجزاء ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على

أنفسهم...ولما قامت هذه الدلائل قيام الأعلام فانجابت دياجير الظلام وكان الجهلة قد دعوا المسلم إلى الإقرار بألّتهم التي أقاموها في الميثاق الأُمّي وكان الإقرار عليها عبادة لها، تسبب عن ذلك أمره بما يصدّعهم به بقوله **(قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)** وقرئ بإظهار النونين على الأصل **(تأمروني)** ولعل الإدغام إشارة إلى أنّهم حالوه في أمر آلّتهم على سبيل المكر والخداع! والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعنيف يُقصد منه التوطئة لوعيدهم بحبوط العمل الذي كان يؤدي إلى الثواب لو كان معمولاً على أصول التوحيد **(ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)** والكلام جرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ والمراد من أرسل إليه فهو خطاب للناس على طريقة الإدماج أي الخروج من خطابٍ إلى غيره تعريض بالمنافقين وإسماع لهم فكل ما جاء في القرآن من نذارة، إلى النبي صاحب البشارة، كن لبيباً وافهم الإشارة، إياك أعني واسمعي يا جارة...ونحو هذا ما جاء في الحديث المتفق عليه: **«ألا وإنه يَجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»** والذين أحدثوا هم المنافقون المرتدون! وأراد بقوله "أصيحابي" أن يشفع لهم ويعاملهم على ظاهر ما فارقههم عليه مع علمه بباطنهم وقد وقع في ربة التقليد من توهم أن رسول الله ﷺ لا يدري لاجتماعنا على عصمته من الوقوع فيما يخالف به الأدب فضلاً عن وقوعه في مثل ما ذكر في الآية من الشرك. وقد تضمنت الآيات إيجازاً بليغاً ووعظاً ووعيداً وإنذاراً عظيماً، ولما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل، ناداهم بالوصف المقتضي ذلك فقال **(أيها الجاهلون)** وإنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً

للأشياء ومتصرفاً فيها ومالكاً لمقاليده السموات والأرض، ومن أعرض عن عبادة
إلهه الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة وأشرك هذه المخلوقات مع الله
فقد بلغ في الجهل مبلغاً لا مزيد عليه واستكبر عن التوحيد استكباراً لا حدَّ له!
واعلم أنه تعالى لما قدَّم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ
وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ والمراد منه - والله أعلم - إبطال كلامهم والتحذير من
أحوالهم ورَدُّ لِمَا أمروا به من الإقرار بآلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك
بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله ولا تلتفت إلى غيره وتقديم المعمول لإفادة
الحصر، ولما كانت عبادته لا يمكن أن تقع إلا شكراً لما له من عموم النعم سابقاً
ولاحقاً وشكراً المنعم واجب، نبَّه على ذلك بقوله ﴿وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي
العريقين في هذا الوصف لأنه جعلك في خير الخلائق.

الفصل السابع: ما هو الشرك الذي وقع فيه بنو إسرائيل؟

اعلم أيها الموحد المحمدي المتحقق بحقية القرآن المجانب لأولياء الشيطان أن بني إسرائيل اتخذوا إلهين اثنين وجعلوا له تعالى شريكين على النحو التالي: الأول: شركاء الحكم والمراد بهم: إبليس وجنوده! ووصفوا الجن بالبنين وهو نعت للقوة والشدة والصلابة. والثاني: شركاء العبادة والمراد بهم: الملائكة والنبيون! ووصفوا الملائكة بالبنات وهو نعت للعجز والوهن والضعف - والله أعلم - فكفروا وضلوا وأضلوا أتباعهم وصرفوهم عن الإسلام إلى عبادة الملائكة والنبين وأثبتوا لهم الألوهية والربوبية كما حكى تعالى ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ وقال سبحانه ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وقد أثبت الله تعالى لنفسه الملك المطلق والسلطنة القاهرة والبسطة الغالبة فقال عز وجل ﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ وفي الآية إيماء إلى آلهتهم في العبادة والحكم أي ما لكم من ولي يشفع وينفع، ولا نصير ينصر ويدفع، فالولي هنا من الملائكة والنبيين، والنصير: إبليس وجنوده من الإنس، ونظيره قوله تعالى ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون﴾ والمولى والولي في كلام العرب واحد والمعنى أنه لا يغني ولي عن متخذه شيئاً في الشفاعة ولا ينصرهم ناصر شديد الاستطاعة يدفع عنهم غلب القوي عليهم فالله هو الغالب لا يدفعه غالب، وبني فعل "ينصرون" إلى المجهول ليعم نفي الإنس والجن مع إيجاز العبارة. وها هم اليوم بنو إسرائيل يقررون شرك الحكم

وينتهجون أسلوباً خبيثاً بإصدار فتاوى وكتب في توحيد العبادة لخداع المسلمين وبذلك حافظوا على نمطية الشرك! واستهزؤوا بالملائكة من خلال الأفلام السينمائية التي تُظهر الملائكة في صورة أنثى لطيفة ترتدي ألبسة الحلل! وتُظهر الجن بصورة رجال أشداء ذوي قوى خارقة! وقد حاجهم الله في القرآن في مواضع عديدة وبيّن عظم جرمهم وسفاهة عقولهم وفساد فطرقتهم من خلال آيات واضحة تصور المعركة بين عالم الجن وعالم الملائكة. واعلم أن إضافة هذا القول "وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله" وأمثاله إليهم هو إضافة لهم إلى آبائهم فما مات الآباء ولا انقطعت من الأرض جرثومة الشرك والشر التي كانت فيهم بموتهم بل هم أحياء في هؤلاء الأبناء بكل ما عرف عنهم من لؤم وسوء وفساد، طبيعة واحدة لا يختلف خلفهم عن سلفهم في شيء مما هم عليه من عناد وكفر بآيات الله ومكر بآلائه ونعمه فهؤلاء الأبناء الذين يخاطبهم القرآن الكريم هم الذين خاطبهم موسى وداود وعيسى ومحمد عليه وعليهم صلوات الله وفي هؤلاء الأخلاف كل ما في آبائهم من عناد وعداوة وتمرد وتعنت واستهزاء ومكابرة وعصيان وغدر ونفاق وكفر.

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين)

لما أخبر أن عاقبة المستهزين السوآى؛ أتبع بتفصيل ذلك لأجل البيان وزيادة التهويل فقال "ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء - يعني من الملائكة والنبیین - وكانوا بشركائهم - يعني من الجن والإنس - كافرين" أي أنهم يكفرون بشركة إبليس وجنوده يوم القيامة وهو كقوله "ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً" وفي ذلك

اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم، والإبلاس يأس مع حيرة يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير وذلك أن الطمع إذا انقطع باليأس فإنه ينفطر فؤاده أشد انفطار ومثل هذا اليأس هو الإبلاس ومثل المجرمين كمثّل من يكون في أرض وحواليه الجند والحرس والملاهي ولديه ما يفتخر به ويباهي فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد ولا يصده صاد إذا جاءه لا يُبلعه ريقاً ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له الشيطان أنا لك مجير وناصر فيشتغل بما هو فيه ويستمر على غيه ويقيم على شركه وكفره وإنكار بعثه ونشوره واستيفاء ملاذه معتمداً على غروره فيأتيه الموت ويحيط به فأول ما يراه من الأهوال منكر ونكير أسودان أزرقان فظان غليظان أعينهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالريح العاصف معهما مرزبة من حديد لها شعبتان فأول ما يسألانه عن الربوبية فيبقى متحيراً آيساً مفتقراً فيضربونه ضربة فيشقق شهقة يسمعها كل شيء إلا الثقلان ويلعنه كل من يسمع صوته ويأتيه عذاب يخزيه حتى إذا جاءت الطامة الكبرى فأول ما أرتّه تبرؤ من اعتقد شفاعتهم وإحراق من طلب نصرتهم فلا يجد إلى الخلاص من طريق ويحق عليه عذاب الحريق فييأس حينئذ أي إياس وييلس أشد إبلاس! ثم بين سبحانه المبدأ والمعاد وأخبر أنهم كذبوا بقاء الآخرة! ولما كان إشراكهم وتكذيبهم سبباً لأن ينزه سبحانه نفسه المقدسة قال ذاكراً من أفعاله العالية التي لا مطمع لغيره في القدرة على شيء منها ما يدل على خلاف ذلك الذي يلزم اعتقادهم لافتاً الكلام عن صيغة العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ ثم أتبعه ما يعرف بعموم الكمال ﴿وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ ثم ذكر ما هو

أنسب للسياق ولمقصود السورة وهو القدرة على البعث الذي هم به مكذبون ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرِجُونَ﴾ ثم استدل سبحانه لذلك بدلائل من آياته في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان وختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرِجُونَ﴾ الآيات...

ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم!

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لما نهي تعالى عن اتخاذ إلهين اثنين؛ بين هنا بالدلائل القاهرة جهل آلهة الحكم واستغلاق عقلها واستطارة رشدتها، وشرح طريقة بني إسرائيل في إشراك آلهة الحكم والعبادة وفصل أفعالهم... فالإشراك الأول: أنهم أشركوا مع الله تعالى آلهة في الحكم ووصفوها بالذكورة والقوة والقدرة وجعلوا لها حظاً مما أنعم به تعالى عليهم! وقد أقسم تعالى بنفسه أنه يسألهم عن هذه الجريمة النكراء "تالله لتسألن عما كنتم تفترون" وهذا تهديد شديد ووعيد رعب. والإشراك الثاني: أنهم أشركوا مع الله تعالى آلهة في العبادة ونسبوا لله ولداً من الملائكة حين قالوا إنهن بنات الله فوصفوهن بالأنوثة التي هي مظنة الضعف والعجز ورضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم! وأهل الكتاب هم المقصود ابتداءً وأما غيرهم فالذي حملهم على ذلك قول أهل الكتاب حيث وصفوا الله بالولد فرأوا أن ما يكون له الولد يكون له البنات كما

ذكره الإمام الماتريدي في تفسيره. ويستتبع ذلك وصفهم الملائكة بالأنوثة كما قال سبحانه ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ وإنما أطلقوا عليها لفظ التأنيث للتحقير والضعف فهذا سبب إقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل! والمقصود من قوله ﴿وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ تعجيب من جرائتهم على تلك العظيمة! ولما ذكر تعالى ما نسبوه إليه أتبعه بوصف حالهم حيث يجعلون ما يتحاشون عنه وما شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالي! فمدار الخطأ جعلهم لله سبحانه الصنف المحقر مع إباثهم إياه، وإذا ثبت هذا فالشيء الذي بلغ الاستنكاف منه إلى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لإله العالم المقدس العالي عن مشاهة جميع المخلوقات؟ ثم ذيل الكلام باستقباح فعلهم وسوء حكمهم، وجاء التعقيب بقوله ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ جواباً عن مقالته السابقة وقد جرى الجواب على استعمال العرب في الردّ عند ما يسمعون كلاماً منكراً وجاء الردّ بتحقيرهم على ما ينسبونه إلى الله من الضعف ومن هذا الصنف المحقر عندهم، والغرض من التمثيل تشنيع مقالته واستحالة صدقها بحسب العرف، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم! والمثل الأعلى هو وصفه تعالى بلا شبه ولا نظير، ولما حكى تعالى عن الكفار عظيم ما ارتكبوه من الشرك ونسبة التولد له سبحانه، بين أنه يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهذا نظير ما جاء في الصحيحين: أهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» وفي التنزيل العزيز ﴿وَاقْوُوا فَتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

شديد العقاب) ويحتمل أن يكون المراد بالناس المذكورون في قوله "ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم" الذين تقدم ذكرهم من المشركين الذين أثبتوا لله البنات بدليل أن كل الناس ليسوا مشركين، والمراد بالدابة: الكافر حسبما ينبئ عنه قوله سبحانه (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ثم أعقب تعالى بتفطيع مقالهم وتبشيع عملهم وتقبيح صنيعهم مع الوعيد والتهديد (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أي ويجعلون لله البنات ويزعمون أن لهم البنين لا جرم أنهم مقدّمون معجل بهم إلى النار أي فرط للذين يدخلون بعدهم لأنهم أشد أهل النار استحقاقاً لها وقرئ بكسر الراء (مفرطون) أي مفرطون في الافتراء على الله تعالى وقرأه أبو جعفر بكسر الراء مشددة من فرط المضاعف، ثم نظر تعالى حالهم وكفرهم في سوء أفعالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) وتأكيده الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجه إليه الخبر لأن النبي ﷺ لا يشك في ذلك ومصب القسم هو التفریع في قوله تعالى "فزين لهم الشيطان أعمالهم" وجملة "فهو وليهم اليوم" يجوز أن تكون مفرعة على جملة القسم بتمامها على أن يكون التفریع هو المقصود من جملة الاستئناف للتنظير فيكون ضمير وليهم عائداً إلى المنظرين بقرينة السياق ولا مانع من اختلاف معادي ضميرين متقاربين مع القرينة والمعنى: فالشيطان ولي المستخلفين المفسدين اليوم يغريهم ويغويهم ويتولى أمرهم كما كان ولي سلفهم إذ زين لهم أعمالهم أي لا ولي لهم اليوم غيره رداً على زعمهم أن لهم الحسنى ويكون في الكلام شبه الاحتباك والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان

أعمالهم فكان وليهم حينئذ وهو اليوم ولي بني إسرائيل ومن تبعهم يزين لهم أعمالهم كما كان ولي من قبلهم! وقوله "اليوم" مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور أي فهو وليهم الآن وهو كناية عن استمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلم مطلقاً بدون قصد. ولما كان الكلام السابق موضع غرابة ومثار اختلاف، حَسُن التعقيب بقوله ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وقد قرن تعالى قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة لأنهما ينبعان من انحرافٍ عن جادة الوحدانية، والكلام في الآية متصل بقوله تعالى ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيأي فارهبون﴾ وصيغة التثنية تضمنت إبطال شرك الحكم وشرك العبادة.

﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾

ادعائهم الولد إنما كان لصرف البشر عن الغاية التي خلقوا لها وإفساد نظام عالمهم والتحكم في رقابهم، وصدهم عن الحكمية إلى شرك العبادة إلباساً للحق بالباطل ومنازعة لله في حكمه وسلطانه كما أشارت سورة بني إسرائيل ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾ وبذلك افتتحت سورة الكهف حيث استهلّت بالنكير على من زعم أن لله ولداً في معرض قصة أصحاب الكهف التي ذيلت بقوله ﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ ولما ذكر تعالى الفرقان والمنزل عليه على طريق الإجمال، أتبع ذلك بوصف المنزل سبحانه فقال ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ ثم أشار إلى استهجان اتخاذهم آلهة في العبادة والحكم فقال ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون

لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) والمؤمن يعجب من هؤلاء المستخلفين كيف نازعوا الله تعالى في ملكه ونسبوا الولدية له تعالى! وقد عجزت الملائكة المقربون أن تكيف صفة رب العالمين فهم خشوع خضوع خنوع في حجرات سرادقات العرش محبوسون أن يتأملوا ساطع النور الأوهج، يضحجون حول عرشه بالتقديس ضجيجاً ويعجون بالتسبيح عجيجاً باهتون راهبون خائفون مشفقون وجلون في عالم الأنوار ومنازل الأسرار لما بدا لهم من عظيم القدرة وشموخ الرفعة، فكيف يليق القول بادعاء الولدية؟ وإذا رجعنا إلى صيغة الاستفهام (ألكم الذكر وله الأنثى) نجد فيها من الإبطال والتسفيه والتهكم والسخرية ما يليق بالمستهزئين المكذبين بعموم ما نزل من الكتب المبينة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين، إذ بدلوا التوحيد واتخذوا لأنفسهم أرباباً من الجن والإنس في دور الحكم والسياسة، ثم جعلوا لله في دور العبادة أرباباً من الملائكة والنبیین واعتقدوا أن لهم حق الشفاعة المحتمة القبول، فكان المعنى: أخصصتم الله بالإناث والضعف دون الحكم والسلطان، والله أولى بالفضل والكمال؟ فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم... وفي الصيغة التهكمية إبطال لأهتهم بطريق الفحوى، ثم ذكر تعالى دلائل العظمة الإلهية بإبطال آهتهم شياطين الأمم المتحدة الذين شاقوا الله فيهم ووضعوا لهم أسماء ما لها حقائق وليس هذا فحسب بل زعموا أن الملائكة أضعف منهم! وما هو إلا كذب ووضع مستحدث منحول! والمراد بقوله (فاستفتهم ألبك البنات ولهم البنون) التهكم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون: ولد الله، على أنهم قسموا قسمة ضيزى حيث جعلوا لله ما يكرهون وهم يرغبون البنون ويكرهون البنات! وقد جاؤوا في مقامهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر: أحدها: أنهم أثبتوا الولد

والتجسيم لله تعالى لأن الولادة من أحوال الأجسام. وثانيها: أنهم جعلوا ذلك الولد بنت فجعلوا لله ما يكرهون وهم يرغبون البنون ويكرهون البنات كما حكى تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وثالثها: أنهم جعلوا للملائكة وصف الأنوثة ففضلوا أنفسهم على ربهم حين جعلوا أضعف الجنسين له وأرفعهما لهم إذ أثبتوا للملائكة الضعف والعجز وأثبتوا لشياطين الجن القوة والقدرة! ولما ذكر تعالى آهتهم على وجه التهكم أتبع ذلك باستفهام حافل بالإنكار ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ أي أفضلكم على جنابه فخصكم بالعظيم المحبوب المستحسن على وجه الخلوص، وآثر لذاته الأخس الحقير المذموم بزعمكم؟ ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما ذكر في صفة الوحي ومشاهدة رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام ما دل على شئون جليلة من عظمة الله تعالى وشرف رسوله ﷺ ومنازل الزلفى التي حظي بها والعروج في المنازل العليا، ومكانة جبريل عليه السلام إذ وصف بصفات القوة والكمال ومنازل العزة، كان ذلك مما يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال آهتهم التي لا تملك تصرفاً ولا يعرج بها إلى رفعة فكان هذا التضاد يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته فانتقل الكلام من غرض إثبات شرف الملائكة إلى إبطال ما وصفوهم بأنهم بنات الله وإبطال إشراكهم مع الله في العبادة، وتحقير أمر شركائهم الجن ومناط التحقير قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ والخطاب هنا يعم أولياء الشيطان من أهل الكتاب وأتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة والمعنى كيف ترون آهتكم لما وُصف في عظمة الله تعالى ومكانة ملائكته؟ وهذا تهكم بهم وإبطال لقوة شياطينهم بطريق الفحوى فإنهم لما جعلوا الملائكة إناثاً ردّ الله عليهم بقوله ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ وظاهر

الكلام يشمل المشركين السابقين والحاضرين والتابعين والمتبوعين، وروي عن الحسن أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان لأنهم يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنسوان. وفي حديث وفد ثقيف: كان لهم بيت يسمونه الربّة يضاهئون به بيت الله تعالى فلما أسلموا هدمه المغيرة. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: كان في كل صنم شيطانة تتراءى للسدنة وتكلمهم أحياناً فلذلك أخبر سبحانه أنهم ما يعبدون من دون إلا إناثاً. ونحو هذا قوله تعالى ﴿رَبِّ إِنْهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مع كل صنم شيطانة. ولما كان فيما جرى من وصف عظمة جبريل إشعار بسعة قدرة الله تعالى وعظيم ملكوته أردف بإبطال قوة شياطينهم بأنها أقل مما يؤملون من نصرتها إذ تلك أوهام لا حقائق لها ولكن اخترعتها مخيلاتهم ووضعوا لها أسماء ما لها حقائق، وقد قرّر هذا المعنى وأكده بقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ يعني ما هي إلا تسميات اخترعتموها وآلهة ضعاف إناث أقمتموها لا اعتبار وراء أسمائها وهذا على سبيل المبالغة والتجوز يقال لتحقير إنسان: ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة تعتبر في الكلام بين الناس والمعنى ما تعبدون من دونه ألوهية ولا لكم تعلق بآله وما هي إلا مسميات لا تملك قطميراً ولا تخلق نقيراً ولا تدفع عنكم كثيراً ولا يسيراً ولا تنفعكم ولا تسهل عليكم عسيراً ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً فهي أحقر وأخس من أن يوضع لها اسم لضعفها - والله أعلم - وعبر عن الآلهة بأنها أسماء أي مجرد أشكال ليس لها قوة ولا غلبة فبذلك كانت تلك الأسماء الموضوعية مجرد ألفاظ لا تنفء النصره التي وضعوا الأسماء لأجلها،

وهم إنما وضعوا لها الأسماء وعبدوها باعتبار كون الإلهية جزءاً من المسمّى الموضوع له الاسم وهو الداعي إلى التسمية، فلما كانت المعاني المقصودة من تلك الأسماء منتفية كانت الأسماء لا مسمّيات لها بذلك الاعتبار... ونظير هذه الآية ورد على لسان يوسف عليه السلام لعائلات ملوك القبط ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وقد نفى سبحانه أن تكون لهم حجة على زعمهم وأثبت أنهم استندوا فيما يزعمونه إلى الأوهام والظنون ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ أي ما تحبه نفوسهم من آلهة اتخذوها في الأمم المتحدة! وتفعيل مؤثراتها ومؤامراتها وإعداد عتادها وعدتها، وغرورهم بأنها تنصرهم وتمنعهم فتلك ظنون وأوهام وأمانى محبوبة لهم يعيشون في غرورها كما قال عز وجل ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ والمقصود - والله أعلم - تأسيس المشركين من نصرة آلهتهم إذ يخامرهم بعض الشك في صدق ما توعدّهم الله به من الهزيمة والعذاب، ثم يغالطون أنفسهم ويسلّون قلوبهم بأنه إن تحقق ذلك سيجدون من آلهتهم التأييد والحماية والنصرة ويقولون في أنفسهم: لمثل هذا اتخذناهم، فسيق هذا الكلام لقطع رجائهم منهم بالاستدلال على أنهم دون ما يظن بهم، وجملة "وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء" كالنتيجة للجملة الأولى إذ المعنى أن الجميع ملك لله، واتباع المشركين شركاءهم اتباع خاطئ باطل، والعجب أنهم يفعلون ذلك والحال أنه قد جاءهم من ربهم الهدى الواضح على لسان الرسول الناصح ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ والتعبير عن الجلالة بعنوان ربهم لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى مع أنه ممن تحب طاعته فكان

ضلالهم مخلوطاً بالعصيان والتمرد على خالقهم... ثم بيّن تعالى أن أمور الدارين بيده سبحانه وأن ليس للإنسان ما تمنى وضرب لذلك مثلاً من الأماني ﴿وَأَمَّ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾، فله الآخرة والأولى، وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ فبيّن إبطال قولهم، وأنهم من إذن الشفاعة بمعزل، وعنه بألف ألف منزل، ثم كشف عز وجل كفر بني إسرائيل وهم يُسمون الملائكة الذين رافقوا رسولنا ﷺ في رحلته ليلة الإسراء والمعراج بتسمية الأنثى والضعف ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ أي يصفون الملائكة بوصف الضعف ويزعمون أنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ ظُنُّوا لَا يَكُونُ إِلَّا خَيْسٌ﴾ ولما كانوا بعد مجيء الهدى قد أصروا على الهوى، سبب عن ذلك ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي لم تتعلق إرادته بغيرها فليس له فكر في سواها فهو كالبهيمة في العمى عن دنائها وحقارتها ثم ترجم جملي الإعراض والإرادة بقوله ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وقلة عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة فصارت عيون بصائرهم عمي ومرائبها كثيفة مظلمة لا تكشف عن نظر الآخرة التي هي أصل العلوم كلها، ولما كشف تعالى عن عقائد السفهاء المنافقين علل هذه الجملة بقوله مبيناً ضلالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي سبحانه هو العالم بمن حاد عن طريق الحق والصواب إلى طريق الكفر والعقاب وجعل الملائكة إناثاً كما في قوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ وقرئ ﴿الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ والعندية عندية منزلة ومكانة لا مكان، وقد ورد اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في الآية لنكتة لطيفة وهي شمول ملكية الله

المطلقة لكل شيء وعلمه المحيط بكل شيء، فالإضافة إلى اسم الرحمن تفيد تشريف الملائكة، والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب كالعندية التي أشار إليها قوله **(إن الذين عند ربك)** والاستفهام في قوله **(أشهدوا خلقهم)** للإنكار وهو تجهيل لهم وتهكم بهم كقوله **(أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون)** وذلك الإنكار يشتمل على التهديد والوعيد، وكتابة الشهادة كناية عن تحقق العقاب على كذبهم، والسين لتأكيد الوعيد، ووردت قراءة أخرى بهمزتين الأولى مفتوحة محققة والثانية مضمومة مع إسكان الشين **(أشهدوا)** وفيها إنكار وتوبيخ وتهكم بالمشركون! والسؤال سؤال تهديد وإنذار بالعقاب وليس مما يتطلب عنه جواب، وأطلق عليها شهادة تهكماً بهم! وقد استنكر تعالى عليهم هذه القسمة الجائرة **(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين، وجعلوا الملائكة الذي هم عباد الرحمن إناثاً)** والالتفات إلى الخطاب لتأكيد الإجماع وتشديد التوبيخ، وتنكير (بنات) وتعريف (البنين) لما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة، وعبر بالإناث لإفهام الضعف بمدلول اللفظ وعبر بالبنين لإفهام القوة، ونظير ذلك في سورة بني إسرائيل **(أفأصفاكم ربكم بالبنين - والمقصود هنا والله أعلم سادات الجن - واتخذ من الملائكة إناثاً)** والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد النكير وتأكيد، وهذه الجملة متفرعة على جملة **(ولا تجعل مع الله إلهاً آخر)** تفرعاً على النهي عن إشراك الجن في الحكم باعتبار أن المنهي عنه مشتمل عمومته على هذا النوع الخاص الجدير بتخصيصه بالإنكار، وفي سورة ق إيعاب هذا **(وقال قرينه - أي من الملائكة - هذا ما لدي عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، منع للخير**

معتد مريب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد، قال قرينه - أي من الجن - ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴿فالقرين في الآية الأولى هو الملك الموكل بسوقه، وفي الأخرى هو الشيطان المقرون به. وفي صحيح الإمام مسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدتهم وهو أنهم بنات الله، وإنما حملهم على ذلك كله شركاء الجن الذين أغروهم وأغووهم وسؤلوا لهم عبادتهم! ولما ذكر تعالى فظاعة قولهم بأن الملائكة بنات الله أعقب ذلك بأن في القرآن هدياً كافياً ولكنهم يزدادون نفوراً من تدبره فقال جل شأنه ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفوراً﴾ ثم أكد إبطال إشراكهم الجن في الحكم زيادة في الحجة وتتميماً للبيان ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ وقرأ بقاء الخطاب على أنه خطاب لبني إسرائيل على طريقة الالتفات. وقد أقسم المولى سبحانه بطوائف من الملائكة تنويهاً بشأنهم ثم أردف بذكر شياطين الجن تحقيراً لهم ﴿والصافات صفا، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً، إن إلهكم لواحد، رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحوراً...﴾ ومعنى "الملا" أي: الجماعة أهل الشأن والقدر، والمراد بهم هنا الملائكة، ووصف الملا بالأعلى لتشريف الموصوف، وإسناد فعل "يقذفون" للمجهول لأن القاذف معلوم وهم الملائكة الموكلون بالحفظ كما أشارت الآية ﴿وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ حيث تتلقفهم الملائكة بالشهب وتقذفهم من كل جانب وتدحرجهم دحراً...ومن هنا تسقط

القوى الزائفة لشركائهم من الجن وآلهتهم المدعاة التي يبتغون أن ينالوا بها النصر بينما لا تستطيع نصر نفسها. ثم يقرر المولى سبحانه مُلكه العظيم ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي كل ما في العالم العلوي والعالم السفلي مُلك لله الملك الأعظم يتصرف فيهما بما شاء، ولما ادّعى القوم أنهم على الهدى وكان هذا الادّعاء من النفاق، علّق عليه مجازاتهم بالإساءة فقال ﴿ليجزى الذين أسأؤوا بما عملوا﴾ ثم أردف ببيان حال المحسنين ﴿ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم إن ربك واسع المغفرة﴾ ولما وصف الذين أحسنوا، أتبعهم أضدادهم أهل النفاق فقال مخاطباً لهم ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وشبيهه قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾ ولما أبرز نفاقهم، أظهر لهم وصفاً آخر وهو التولي عن القرآن فقال ﴿أفرأيت الذي تولى﴾ ثم أشار إلى سوء سياستهم للناس وإنفاقهم للرياء ووصف عطاءهم بأنه قليل توطئة لزمهم بأنه مع قلة ما أعطوه قد بخلوا به فقطعوه ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ وهذا العطاء إنما هو لأجل التحكم في الناس وتعيين الرؤساء والشركاء ووضع النبوءات ورسم السياسات المستقبلية وفرض ذلك على الدهماء حسبما يشير إليه قوله سبحانه ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ والجملة استئناف بياني للاستفهام التعجبي السابق! وتقديم "عنده" للاهتمام بهذه العندية العجيب ادعاؤها والإشارة إلى بعدهم عن هذه المنزلة.

تلقي جبريل الوحي عن رب العالمين واستغراق الملائكة من هيبة الوحي

عن النّوأس بن سمعان ؓ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحى بأمر تكلم بالوحي فاذا تكلم بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ؑ فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد فيمضي به جبريل ؑ على الملائكة فكلما مر بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل ؑ بالوحي حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض» وهذه الرجفة الشديدة التي تأخذ السماوات من سطوات الهيبة هي المشار إليها بقوله تعالى ﴿لحم، عسق، كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم، له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم، تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ أي تكاد كل سماء تنفطر فوق التي تليها من سطوة الوحي الوارد عليهن والملائكة الذين لا تسع العقول وصفهم على ما عليه كل واحد منهم من عظم الخلق في الهيئة والطول والمتانة والقوة إلى غير ذلك مما لا يحيط به علماً إلا الذي يراهم ينزهون الله تعالى ويقدسونه كما قال ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تظ ما فيها موضع قدم إلا فيه ملك قائم يصلي» أي قائم يسبح لاشتمال الصلاة على التسبيح من تسمية الكل باسم البعض، ويحتمل أن يكون انفطار السماوات من عظيم شناعة الكفر بالله تعالى وجعل الأنداد له سبحانه وهذا كناية عن التخويف بالعذاب لأن من المعلوم أن العالي إذا انفطر تهيأ للسقوط فإذا سقط أهلك من تحته فكيف إذا كان من العلو والعظم وثقل الجسم على صفة لا يحيط بها إلا الله تعالى؟ فذكرُ الفوق تصوير لما يترتب على هذا

الانفطار من البلايا الكبار! وكانت كيدودة انفطارهن في حال تسبيح الملائكة واستغفارهم لما من فوقهن من العظمة ومن تحتهن من ذنوب الثقلين فلولا التسبيح والاستغفار لتفطرن وحضر العذاب فعوجل الخلق بالهلاك وقضي الأمر! وإذا كانت كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار فما ظنك بما يكون لو عرى الأمر عنه وخلا منه؟ ثم عطف عليه قوله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ وفي الآية وعيد للمستخلفين الذين اتخذوا أولياء من الملائكة والنبیین في العبادة بقرينة قوله قبله ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ إلى قوله ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾ ثم اتخذوا إبليس وجنوده أولياء في الحكم ويرجحه قوله بعده ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فאלله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ وبين الآيتين تقرير وتوكيد ﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ أي ما لهم من ولي يشفع وينفع ولا نصير ينصر ويدفع، وقد تخلل بين الآيات إنذار للمستخلفين ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ ولما كان القوم لا يؤمنون باليوم الآخر كما أخبر عنهم جل ثناؤه في غير موضع، أردف ذلك بإنذارهم بذلك اليوم ﴿وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ فإن أردت أيها العبد أن تعرف نفسك من أي الفريقين أنت؟ فانظر في قلبك وسعيك، فإن كنت تؤمن بربك وتوحده في ملكه وتنقاد لمن عرّفك به وهو رسوله ﷺ وتؤمن بيوم الجمع فأنت من أهل الجنة، وإن كنت تنكر فأنت من أهل السعير الذين استخلفوا فخانوا الأمانة وخالفوا الديانة! ولما كان الكلام في الآيات السابقة مثار اختلاف ناسب التعقيب بقوله ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن هو الله

الذي تحقّق له الألوهية والربوبية، عليه توكلت في مجامع أموري وإليه أرجع في كل ما يعن لي من معضلات الأمور، وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً والإنابة متعددة متجددة حسب تحدّد موادها أوثر في الأول صيغة الماضي وفي الثاني صيغة المضارع، والتوكل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه والاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكل عليه، والتوكل لبّ العبادة فجمعت الآية توحيد الحكم والعبادة وهو ما تضمنه قول هود عليه السلام **(إني توكلت على الله ربي وربكم)** وقول إبراهيم والذين آمنوا معه بعد البراءة من قومهم **(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا)** وكذلك قول شعيب والذين آمنوا معه لقومهم **(قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)** أي إلا أن يشاء الله تعالى أن يمكنكم من إكراهنا ويخلي بينكم وبيننا فنعود إلى إظهار ملتكم مكرهين بقرينة قوله قبله **(أولو كنا كارهين)** ولما زعم قومهم أن لديهم من الوسائل والإمكانات ما يضبطون عليهم حركاتهم ويطلعون على أحوالهم أجابوهم بقوله **(وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا)** وفيه من الانقطاع إلى الله ما لا يخفى إذ فوضوا أمورهم كلها إلى ربهم ملتجئين إليه من خوف عدوهم متوكلين عليه في عموم أحوالهم، واستعير فعل "وسع" لمعنى الإحاطة التامة، وفيه إبطال لما يوهموهم به قومهم من علمهم وسيطرتهم على البشر. قال صاحب التحرير والتنوير: تقدم الجار والمجرور على فعل "توكلنا" لإفادة الاختصاص تحقيقاً لمعنى التوحيد ونبد غير الله ولما في قوله "على الله توكلنا" من التفويض إليه في كفايتهم أمر أعدائهم، صرح بما يزيد ذلك بقوله "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق" وفسروا

الفتح هنا بالقضاء والحكم وقالوا: هو لغة أزد عمان من اليمن أي احكم بيننا وبينهم وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر لأن العرب كانوا لا يتحاكمون لغير السيف ويحسبون أن النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

حكمة لقمان

لما ذكر سبحانه إنعامه على عبده لقمان بالحكمة أردف بذكر وصيته ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ والمقصود التنبيه إلى نفاسة ما وعظه به من معرفة حقيقة التوحيد على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه، ويروى أن لقمان الحكيم كان قاضياً في بني إسرائيل وأدرك داود عليه السلام، وورد عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند البخاري: «ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» والحكمة هي السنة والأحاديث النبوية الشريفة، وقيل: معرفة الله والعلم به وبوحدانيته والفهم عنه تعالى وعن رسوله ﷺ، قال تعالى ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ واسم الإشارة عائد إلى ما تقدم من قوله ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً، وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ لتمييز الحكمة أكمل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ ولذلك أردفها بقوله ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وهذا من رد العجز على الصدر فهي مرتبطة بقوله ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وهي تنزل منها منزلة البيان لما تضمنته الحكمة من الاهتمام بأمر الوحدانية التي اشتهر بها لقمان الحكيم ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده والعلم بالله ومعاني كلامه، وقد ترك وصية سطرها القرآن الكريم في سورة سُميت باسمه، ولما كان إصلاح الاعتقاد

أصل لإصلاح العمل، ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله الذي هو من تنمة قوله تعالى ﴿فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي الذين اتخذتموهم شركاء من دونه! وحتى نعرف طبيعة الشرك لا بد من استقراء النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة. والمراد من افتتاح الموعظة بنداء المخاطب ﴿يَا بُنَيَّ﴾ طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، وقرأ المكي بإسكان الياء مخففة، وقرأ الجمهور بكسرها مشددة ﴿بُنَيَّ﴾ والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وفائدة ذكر الحال بقوله ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك، فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده. وحكمة لقمان عني بما أهل التربية وأهل الخير، وكان لقمان معروفاً عند خاصة العرب، ولما قدم سويد بن الصامت مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان... وذلك يقتضي أنه كان معروفاً للعرب. وفي الوصية تعريض ببني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والكلام في الآية متصل بقوله ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ، وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقُرْأَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقد فُسر لهو الحديث بالشرك والسحر والقينات والغناء والخرافات الموضوعية والروايات المكذوبة والتأويلات الباطلة... والمقصود كل ما ينشره أهل الكتاب مما يُلهي عن فهم الكتاب الحكيم في تقوية أمرهم وتغيير معاني الكتب الإلهية ليصدوا عن سبيل الله

والمراد بسبيله تعالى دين الإسلام والله أعلم، وقوله **(بغير علم)** أي بغير دليل مستند إلى الوحي بل يأخذون الناس بشبهات وأباطيل وهوى مركوز في جبلتهم وكفر مرتكز في خبث طينتهم وهزء مركب في طبيعتهم. بمقتضى الشقاوة الأزلية، وفي هذا إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية وأنه لا يرجى منهم التزكي والتذكر! ووصية لقمان تتابع خطوات التوحيد وتقرر سلطان الله وعظمته وإحاطته بكل شيء إذ أتى بأصغر الأشياء وأصلبها وأعظمها وأظلم الأماكن وأعلاها وأسفلها في ذلك الكيان الشاسع الهائل... والاعتراف بوحدانية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه هو الذي عناه لقمان لابنه حين وعظه وهو أليق بقوله بعده **(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)** وإسلام الوجه هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى وذلك يتضمن الإسلام والإيمان، وجملة **(وهو محسن)** حال قصد منها اتصافه بالإحسان أي خلع الشرك قاصداً للإحسان وهو استحضار مراقبة الحق ومشاهدته في السر والعلانية والجلاء والخفاء وهو قوله **(يا بني إنما - يعني الخطيئة - إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله - أي فيحاسب عليها - إن الله لطيف خبير)** فهذه ثلاثة أوصاف بها يكمل الدين: الإسلام والإيمان والإحسان، والقرآن يقرر هذه المعاني ويؤكددها في كل مناسبة وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض، وهي ما تضمنته وصية لقمان، وليس في تلك الصورة المشوهة التي يصورها شياطين الدرعية الذين يجادلون في لا إله إلا الله بغير دليل عقلي فاض عليهم ولا هُدى وكشف صريح لديني قد نبع من قلوبهم ولا كتاب منير ودليل نقلي ينور بصائرهم بل إنه ما نشأ عموم ما نشأ منهم من المجادلات إلا من

محض النفاق الحاصل من متابعة الهوى بإغواء الشيطان وإغرائه ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله "أسبغ عليكم نعمه" قال: لا إله إلا الله "ظاهرة" قال: على اللسان "وباطنة" قال: في القلب. والخطاب لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال، والاستفهام تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحداية، ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله، وقرئ "نعمة" بصيغة المفرد، ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن خطابه توبيخاً لهم على وقاحتهم واستهزائهم وكفرهم بنعمة ربهم وجدالهم في توحيدهم تعالى، ولما كان ضلال الجمع أعجب من ضلال الواحد وكان التعجيب من جدال الواحد تعجيباً من جدال الاثنين فأكثر من باب الأولى، أفرد أولاً وجمع هنا فقال ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ ولفظ الآية يعم أهل الكتاب وأتباعهم لكن أهل الكتاب داخلون في هذا العام دخولاً قصدياً لأن الكلام سيق بالأصالة فيهم وهم أولياء الشيطان المعبر عنهم في الآثار بـ«**قرن الشيطان**» كما يقتضيه صرائح الآيات والأخبار... وقد اشتملت وصية لقمان على القيام بوظائف بدنية ولسانية منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبلغه أن تمنع نفسك عما تنهى عنه، ومنها: الصبر على النوائب سواء كانت من جهة الخلق أو من قهرية الحق، ومنها: التواضع والليونة وهما مصيدة الشرف ومن علم أن مولاه ينظر إليه لا يتكبر ولا يتناول بل يتخاضع ويتضاءل، ومنها: السكينة والوقار والرزانة وهي نتيجة

عمارة القلب بالهيبة والإجلال، ومنها: خفض الصوت في سائر الكلام وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة والقرب من الحق... فوصية لقمان هي نصيحة حكيم لابنه في أسلوب يفيض انعطافاً ورحمة، علّمه كيف يقدم وشيخة العقيدة على وشيخة النسب والرحم - كانت في ظل حكومة أشبه ما تكون بهذه الحقبة التاريخية التي استخلف الله فيها بني إسرائيل - وأرشده إلى أصل دين الإسلام ثم انتقل إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعقبها بالصبر على ما يصيبه لأنها تواجه بمعاداة الحكام، ثم انتقل بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقارهم وعن التفرخ عليهم، ثم قفّاها بحسن الآداب في حالتي المشي والتكلم، وعلّل الأمر بالغض من صوته بدفع التشبه بصوت الحمير لأن رفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظ من النكارة ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصُوتَ الْحَمِيرِ﴾ وفيه تعريض بتحقيق الحفاة العراة المُعَبَّر عنهم بالفدّادين على نحو ما ورد في الحديث المتفق عليه: «أَلَا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغَلْظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَادِينَ» والفدّاد: هو الشديد الصوت رحب الجوف، يقال: فدا إذا رفع صوته وهو دأب الحفاة العراة وعادتهم. وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ﴾ وما بعدها... وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان، والتنبيه إلى بطلان ادعاء الكهان.

المبحث الثاني:
حديث سيدنا جبريل عليه السلام

الفصل الأول: خصوصية ورمزية نزول جبريل عليه السلام

﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم﴾ ابتدئت السورة بتصوير ما يكون في يوم القيامة من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأى عين كما رواه الإمام أحمد والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ "إذا الشمس كورت"» واشتملت على تحقيق الجزاء الذي أنكروه وعلى التنويه بشأن القرآن الذي كذبوا به لأنه أوعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوعه وأقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصراف الليل وياقبال النهار عقيب من غير فصل، فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته لينبه إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء والضلالة الظلماء وبين النور الساطع والضياء اللامع الذي جاء به الروح الأعظم والحبيب الأكرم ﷺ وكما أن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم فكذاك اقتضت رحمته وحكمته أن لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتيه الغي والضلال بل يهديهم بأنوار النبوة الأحمدية والرسالة المحمدية، والضمير في قوله ﴿إنه﴾ عائد إلى القرآن ولم يسبق له ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنه مما

أخبرهم به القرآن أنه قول رسول كريم وهو هنا جبريل عليه السلام واسطة وحيه تعالى بالقرآن الكريم إلى حبيب رب العالمين سيدنا محمد أفضل خلق الله أجمعين لأنه ذكر صفته قطعاً بعد ذلك بما يعنيه به وناهيك بهذا دليلاً على جلالة مكانه وفضله على الملائكة ومباينة منزلته! والثناء على الواسطة هو في الحقيقة ثناء على الموسوط له المبلغ إليه وفيه بيان عظيم مقام سيدنا محمد وشرافة قدره عند ربه ولذلك أرسل إليه عظيم الملائكة وكبيرهم صاحب المقام الكريم والأمر المطاع العظيم، وأما "الرسول الكريم" في سورة "الحاقة" فهو الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ "الرسول" يدل على ذلك فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام الله حقاً وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بلغه عن الله تعالى بواسطة جبريل الأمين عليه السلام، وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا وهي العلم والمعرفة والهدى والبر والإرشاد وهذا غاية الكرم، وفي هذا الوصف تزكية كاملة لسند القرآن وأن الذي نزل بالقرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول كريم جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير طيب مطيب عظيم العلم والمعرفة عظيم الأسرار والأنوار اجتمع فيه الكرم الصوري والمعنوي فحقيق بمن هذا وصفه أن يكون واسطة نزول القرآن إلى صفوة الأكوان حبيب الرحمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لتمام المناسبة كما قيل: والجنس يألفه الجنس، ثم بين سبحانه في وصف جبريل عليه السلام أنه ذو قوة فهو بقوته يمنع الشياطين أن تدنو من القرآن العظيم أو تنال منه شيئاً أو يزيدوا فيه أو ينقصوا منه بل إذا رآته الشياطين هربت منه وأيضاً فإن جبريل بقوته هو معاضد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيد له وناصره ومن كان هذا الملك

القويّ عضدّه وناصره فمن الذي يستطيع أن يغلبه أو يخذله؟ كما وأنه ذو قوة في عبادته لله تعالى وطاعته وفي تنفيذه أوامر الله تعالى فهو الذي رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل وبريشة واحدة من أجنحته رفع قريات قوم لوط على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلاهما وأصوات بنيها **(ذي قوة عند ذي العرش مكين)** أي متمكن المنزلة وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم **(مطاع)** في ملائكة الله تعالى المقربين، يصدرّون عن أمره ويرجعون إلى رأيه وإذا نزل في أمر حَفَّت به الحشود والجنود من الملائكة تحت راية إمارته وقيادته **(ثم أمين)** على وحي الله ورسالته، فقد عصمه الله من الخيانة والزلل، فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فنهايك بهذا السند علواً وجلالة فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ولما كانوا يصفون سيدنا محمداً ﷺ بما هو في غاية النزاهة عنه، أبطله مبكّناً لهم مبالغاً في شرفه **(وما صاحبكم بمجنون)** وهذا النفي المؤكد ثابت له في كل وقت على سبيل الاستغراق، وقد أخبر ﷺ عن الحفاة العراة وأخبر عن مغيبات وأمور مكنونة لا يُهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير **(وما هو على الغيب بضنين)** والضنين مجاز مرسل في الكتمان بعلاقة اللزوم لأن الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي ما هو بكاتم الغيب فيزوي بعضه غير مبلغه أو يُسأل تعليمه فلا يعلمه، وهو الوحي الذي أطلعه الحق عليه من الحقائق والرموز والإشارات المتعلقة بجميع تفاصيل الدين، فما أخبركم به هو الحق وهو عين ما أوحيناه إليه، وكل ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من الأنباء المنبئة عن الغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به إعلاماً على ثبوت نبوته، ودلائل على صدق رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره عليه

الصلاة والسلام بين أصحابه بالاطلاع على الغيوب، حتى إن كان بعضهم
ليقول لصاحبه: اسكت فوالله لو لم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة
البطحاء، ويشهد له قول حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد

فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

وأما معنى **(بظنين)** وفق القراءة الأخرى فهو مشتق من الظن بمعنى التهمة أي ما
هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه بمتهم فيما يحكيه،
والمعنى أن ما بلغه من حقائق الغيب والنبوءات هو الحق لا ريب فيه، فكلامه هو
عين ما أخبر الله به والآية الكريمة تضمن تنزيه الرسولين سيدنا محمد وسيدنا
جبريل عليهما الصلاة والسلام عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان والتهمة
أحدهما بطريق النطق والثاني بطريق اللزوم ولذلك حَسَنَ العطف في الآية على
قوله **(إنه لقول رسول كريم)** وهذا رجوع إلى ما أقسم عليه من القرآن بعد أن
استطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على زيادة كمال هذا القول بقدسية
مصدره ومكانة حامله عند الله وصدق متلقيه منه عن رؤية محققة لا تخيل فيها
فكان التخلص إلى العود لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله **(وما هو على
الغيب بضنين)** فإن القرآن من أمر الغيب الذي أوحى به إلى سيدنا محمد عليه
الصلاة والسلام وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب وعلى وجه الخصوص
أشراط الساعة وأخبار الحفاة العراة الذين عليهم مدار آيات القرآن، وإليهم تُشد
جُلّ خيوطه، وقد علم أن الضمير عائد إلى القرآن لأنه أخبر عن الضمير بالقول
الذي هو من جنس الكلام إذ قال **(وما هو بقول شيطان رجيم)** فكان المخبر

عنه من قبيل الأقوال لا محالة، وهذا إبطال لقول المشركين أنه: ساحر وكاهن ومجنون!

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) لما ذكر الحق تعالى أنه حفظ طريق نزول القرآن من تلاعب الشياطين ومشابغتهم فملاً السماء حرصاً شديداً من الملائكة وشهباً كثيرة محرقة، بين في هذه الآيات أنه كذلك يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته فتحيط الملائكة بالرسول من بين يديه ومن خلفه رصداً وبذلك تحفظ ما ينزله الله تعالى إلى الرسول من الوحي حتى يبلغ رسالة ربه إلى أمته محفوظة مصونة من أي دخيل أو ملاعبة شيطان. روى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: «ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة يحفظونه» وروى عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال: «كان النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بُعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، أن يتشبه الشيطان بالملك» ولما كان الدأب من الحفظ في الرسل وخلفائهم بين الغاية أعقب الحق بإعلام الشيطان وأوليائه أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطهم، أو أن المعنى ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المتلقين باستراق السمع، أو ليعلم سيدنا محمد ﷺ أن خلفاءه قد بلغوا عنه، أو ليعلم كل عاقل يتأتى منه العلم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم! وقرئ (ليُعلم) على البناء للمفعول والفاعل المحذوف حذف للعلم به أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم. قال الإمام أبو حيان: والإتيان بالموصول والصلة في قوله "إلا من ارتضى من رسول" لقصد ما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى تعليل الخبر

أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس فيعلم من هذا الإيمان أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو أن يفعلوه وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة أو أمور الدنيا وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة. اهـ. وقد أطلع الله تعالى رسوله المعظم ﷺ على عموم الغيب وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ وقوله ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ لأن المراد: لا أعلم الغيب إلا أن يعلمني الله ويطلعني على الغيب، وقد أطلعه الله عز وجل على المغيبات ومنها: إطلاعه على بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار كما جاء في صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: «قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه» وروى الإمام مسلم عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه» وروى أبو داود عن حذيفة أنه قال: «والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته» وروى الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَفَعَ لِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا هُوَ كَائِنٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفْيِ هَذِهِ» وَلَا

يمنع من إطلاع الله تعالى بعض أصفياه على تلك المغيبات وهذا إنما حصل لهم باتباعهم لرسوله عليه أفضل صلاة المصلين وأزكى سلام المسلمين. وقد أخبر الأنبياء والأولياء والمرتضين بشيء كثير من ذلك، وهو داخل تحت قوله **(إن أتبع إلا ما يوحى إلي)**.

أشراط الساعة العظمى

العلم بعلامات الساعة علم ذو أهمية بالغة في كافة مراحل الرسالات الإلهية وهو ركن شرعي من أركان الدين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأركان الثلاثة "الإسلام والإيمان والإحسان" ولا ينفك عنها لأنها من مشكاة واحدة وفي سياق حديث واحد يحمل وحدة الموضوع ووضوح الهدف والغاية فهو عاضدها وسندها وهو منقذ أصولها وفصولها من عوادي الزمن ومضلات الفتن... وهذا الركن أشبه ما يكون بالوعاء الذي يحفظ الأمانة من العبث ويمنع الوجوه المقلعة والفهوم المصنعة من اختراق الديانة والأمة المصانة ولأهمية هذا الركن وحساسيته يحتاج إلى الارتباط بأهل الكمال والسلوك في طريقهم حتى ينضبط المزاج النفسي والغريزة الطبيعية فتكون الأحكام مطابقة لقول من لا ينطق عن الهوى ﷺ كما يحتاج إلى العلم بالكتاب والسنة فإن العلم قبل القول والعمل كما عز وجل **(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)** والكلام تفريع على ما ذكر من أشراط الساعة **(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءهم ذكراهم)** قال الإمام أبو حيان: "أن تأتيهم" بدل اشتغال من الساعة والضمير للمنافقين أي الأمر الواقع في نفسه انتظار الساعة وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك لأن ما في أنفسهم غير

مراعى لأنه باطل. اهـ. ونظم الكلام: فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة
فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم فقد جاء أشراطها، وتقديم جملة (فقد جاء
أشراطها) يفيد الاهتمام.

وللقيامه أشراط وقد ظهرت ... بعض العلامات والباقي على الأثر
بعض الذي قاله خير الأنام جرى ... والبعض يأتي كما قد نص في الخبر
وسوف تظهر تصديقاً له فتن ... كقطع ليل خلا من غرة القمر

روى الترمذي بإسناده عن المستورد بن شداد الفهري قال: قال رسول الله ﷺ:
«بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه لهذه» مشيراً لأصبعيه السبابة
والوسطى. وقوله "نفس" كناية عن القرب أي بعثت عند تنفسها. وقد جاء
التنبية على أشراط الساعة في الآثار الصحاح المتواترة: «إذا كانت الحفاة العراة
رؤوس الناس فذاك من أشراطها» وإذا تيقنت أيها المقتبس من المشكاة
المصطفوية المحمدية أن الساعة آتية وقد جاء أشراطها فإنه أول ما يجب عليك
العلم بوحداية الملك الأعظم وإذا تحققت أنك في زمن الحفاة العراة فلا بد أن
تعرفهم علماً وعياناً وكشفاً وبياناً فإنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ
في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، ولهذه الكلمة "لا إله إلا الله" من الأسرار ما
يملاً الأقطار والمقصود منها - والله أعلم - مسمى الجلالة المستجمع لعموم
الأسماء والأوصاف الإلهية وهو أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا
حقيقة ولا مجازاً وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره ومن خصائص هذا الاسم أنه
ينسب جميع أسماء الحق إليه كما قال تعالى (والله الأسماء الحسنى) فالألوهية أعلى
المراتب وهي التي تعطي كل ذي حق حقه وتحتها الأحدية وتحتها الواحدية

وتحتها الرحمانية وتحتها الربوبية وتحتها الملكية... واعلم أَرانا الله وإياك رشدنا أنك لن تتحقق بمعرفة الله إلا إذا تحققت بمعرفة رسوله عليه أكمل الصلوات والتسليمات لأنه الواسطة العظمى بين الله وبين عباده وكما دل الكلام على كلمة التوحيد صريحاً دل على كلمة الرسالة التي لا ينفع التوحيد إلا بها تلويحاً بتسمية السورة "سورة سيدنا محمد" لأن التوحيد لا ينفع بدون الشهادة له بالرسالة، وسميت بسورة القتال لأنه ﷺ أمر أن يقاتل المنافقين وسميت السورة التي تليها بالفتح إشارة إلى أنه ما قاتل أحد عليهما مع الإخلاص إلا فُتح عليه ولا يقدر أحد على مخالفته مع مناصبته إلا نفاقاً على وجه الذل والخسار والخزي والصغار. ولما كان حصول التوحيد الذي هو كمال النفس موجباً للإجابة أمر تعالى المؤمن بعد تكميل نفسه السعي في تكميل غيره ليحصل التعاون على ما خلق العباد له من العبادة وهذا المعنى مستفاد من طلب العبد الغفران من الله لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات. وقد أخبر ﷺ عن غياب أمته عن كتاب ربها واتباعها سنن الذين من قبلها كما جاء في الحديث المتفق عليه: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شيراً بشيراً وذراعاً بذراعاً» وهؤلاء القوم لهم فهم استعملوها في تحريف الكتاب فأولوه وبدّلوه... والأمة اليوم بعد اختلافها واتباعها سنن من قبلها أحوج ما تكون إلى تعلم كتاب الله على نحو ما رواه الإمام أحمد عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد إن أمتك مختلفةٌ بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: كتابُ الله به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا ومن تركه هلك - مرتين - قول فصل وليس بالهزل، لا تحتلقه الألسن ولا تفني أعاجيبه، فيه نبأ ما كان قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم»

وتزداد أهمية العمل بالكتاب والسنة في عصر حُرُفت مدلولات الكتاب والسنة حتى غدا بعض المسلمين يتناول الكتاب والسنة بالقول والخطابة والاحتجاج وحقيقة الحال غير ذلك مما يلبس على الأغرار والعوام ويستثمر الدين لنقضه! وفي قوله **(فقد جاء أشراطها)** دليل على أنه ينبغي أن يعلم أشراطها لمن جزم ونظر في دينه فإن الذي جاء من أشراطها: الحفاة العراة كما تبين في حديث جبريل عليه السلام فقد بان من أمر الساعة قدر ما، والمقصود: التنبه لخطر المذكورين إذ التفطن إليهم هو عين المقصود الذي ينبغي عليه أمر الدين والله أعلم، ونُبّه على أنه لا بدّ من ارتباط نصوص الكتاب بالسنة بعضها مع بعض حتى تكون منتظمة المباني متسعة المعاني ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد متصل أوله بآخره، ولا يصلح الاستدلال بحديث إلا بعد استيفاء رواياته وضبط ألفاظه. وقد تَمَثَّل جبريل عليه السلام في صورة أعرابي، ومرة في صورة شاب، ومرة في صورة دحية الكلبي، ولما أدبر قال رسول الله ﷺ: **«هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم»** والحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه هداه إلى التسليم والانقياد له وهو مقام الإسلام، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة الطمأنينة والتصديق وهو مقام الإيمان، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة وهو مقام الإحسان... وقد اشتمل هذا الحديث على أصول الدين ووكلياته حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه، وإذا كان مفتاح العلم السؤال فإن جبريل لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك سماه معلماً إذ أن الفائدة من الحديث انبنت على السؤال والجواب معاً، فالسؤال نصف العلم، وهذا الحديث يصلح أن يقال له: أساس الدين لما تضمنه من الفقه والسؤال والنظر والبحث عن الحق واليقين، على نحو قوله ﷺ: **«شفاء العبيّ السؤال»** وبالسؤال يمكن الوصول إلى اليقين

النهائي فإن أبا الأنبياء ﷺ لم تمنعه المكانة الرسولية التي تبوأها من السؤال وإعادة النظر، وقد قدمه الخطاب القرآني في حوار يربط بين السؤال والإسلام أو بين السؤال والإيمان محاولاً خلاله إعادة النظر والتقييم للوصول إلى الحق واليقين... والسؤال هو المحرك الأول لفهم الدين من خلال فهم حقيقة الحفاة العراة! وإذا كانت سورة الفاتحة أم القرآن لاشتمالها على المعاني القرآنية والحكم الفرقانية بالدلالات الإجمالية، فإن حديث جبريل ﷺ هو أم السنة وأم الأحاديث وأم الجوامع لأنه متضمن للدين ومتضمن للشريعة والطريقة والحقيقة بياناً إجمالياً على الوجه الأتم الذي علم تفصيله من السنن النبوية والشرائع المصطفوية على صاحبها ألوف التحية، قال الإمام الحافظ أبي العباس القرطبي في كتابه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: يصلح هذا الحديث أن يقال فيه: إنه أم السنة لما تضمنه من جمل علم السنة كما سميت الفاتحة: أم الكتاب لما تضمنته من جمل معاني القرآن. اهـ. وفي نزول جبريل بصورة رجل لم يعرفه النبي ﷺ إلا بعد أن ولى؛ تنبيه عظيم تضمن توجيهاً مباشراً من الله تعالى إلى السؤال والنظر والبحث عن هؤلاء الأعراب كما في صحيح ابن حبان: «هذا جبريل ﷺ أتاكم يعلمكم دينكم فخذوا عنه فوالذي نفسي بيده ما شبّه عليّ منذ أتاني قبل مُدتي هذه وما عرفته حتى ولى» وفي سنن النسائي: «لا والذي بعث محمداً بالحق هدى وبشيراً ما كنتُ بأعلم به من رجل منكم وإنه لجبريل ﷺ نزل في صورة دحية الكلبي» وفي مسند إسحاق بن راهويه: ثم سطع غبار من السماء... وفي مسند الإمام أحمد: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ما أتاني في صورة إلا عرفته غير هذه الصورة» وفي رواية: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم والذي نفس محمد بيده ما جاءني قط إلا وأنا أعرفه إلا أن تكون

هذه المرة» والملاحظ في هذه الرواية أن السائل قال: يا رسول الله إن شئت حدثك بعلمتين تكونان قبلها، فقال: «حدثني» فقال: إذا رأيت الأمة تلد ربها، ويطول أهل البنيان بالبنيان، وعاد العالة الحفاة رؤوس الناس. وفي رواية لابن نصر المروزي: «وإذا رأيت ملوك الناس العراة العالة» قلت: من هم؟ قال: «العرب» ثم ولى الرجل، قال رسول الله ﷺ: «التمسوه» فذهبوا فلم يروا شيئاً فقال: «ذاك جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» والدين ما شرعه الله تعالى من الأحكام على لسان نبيه ﷺ سمي ديناً لأننا ندين به أي نقاد له ويسمى ملة لأنه يملئ على الرسول وهو يملئ علينا ويسمى شرعاً وشرعة لأن الله شرعه وبينه. وفي أمالي ابن بشران: قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» قال: فما اليقين؟ قال: «التصديق بالقيامة» قال: فمتى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن لها أعلام، إذا رأيت رعاة الشاة تطاولوا في البناء، وإذا الحفاة العراة كانوا ملوكاً» قال: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «العرب» وفي رواية للنسائي: قال: يا محمد أخبرني متى الساعة؟ قال: فَنَكَسَ فلم يجبه شيئاً، ثم أعاد فلم يجبه شيئاً، ثم أعاد فلم يجبه شيئاً، ورفع رأسه فقال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تُعرف بها، إذا رأيت الرعاء البُهم يتطاولون في البنيان ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض ورأيت المرأة تلد ربها» ووصف الرعاء بالبُهم لأنهم مجهولوا الأنساب - وهذه الجهالة في النسب منطبقة على آل سعود وآل الشيخ - ومنه أُبهم الأمر فهو مبهم: إذا لم تعرف حقيقته. والتطاول في البنيان: مجاز في فساد المال والاقتصاد! ولا يمتنع حمله على الحقيقة وذلك بالتفاضل في ارتفاع البناء ومساحته وكثرته والتفاخر في حسنه وزينته، وهو مفعول ثانٍ إن جعلت الرؤية فعل البصيرة أو حال إن جعلتها فعل الباصرة،

ومعناه أن الحفاة العراة تبسط لهم الدنيا ملكاً ومُلكاً فيتوطنون البلاد ويستولون على المال ويننون القصور ويتباهون فيها فهو إشارة إلى تولي الرئاسة من لا يستحقها وتعاطي السياسة والأموال من لا يستحسنها، وتناول العلوم من ينقضها ويؤيده ولادة الأمة ربها. وفي رواية عمر عند الإمام مسلم: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» وجبريل ملك متوسط بين الله ورسله، والسر في التوسط أن المكاملة تقتضي مناسبة بين المتخاطبين فاقتضت الحكمة توسط جبريل ليتلقف الوحي بوجهه الذي في عالم القدرة من الله سبحانه تلقفاً روحانياً أو من اللوح ويلقيه بوجهه الذي في عالم الحكمة إلى النبي ﷺ فرمما ينزل الملك إلى صورة البشر وربما يرتقي النبي ﷺ وقد يرتقي إلى المرتبة الملكية ويتعزى عن الكسوة البشرية فيرد الوحي على القلب في لبسة الجلال وأبهة الكبرياء والكمال ويأخذ بمجامعه فإذا سري عنه وجده المنزل ملقى في الروع كما في المسموع وهذا معنى قوله: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» ثم جبريل بكسر الجيم وفتحها مع كسر الراء بعدها ياء وفتحها وهزة مكسورة مع ياء وتركها، أربع لغات متواترات والأول أشهر وأكثر، وإسناد التعليم إليه مجازي لأنه كان السبب في الجواب فلذلك أمر بالأخذ عنه، واتفقت الروايات على أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بشأنه بعد أن التمسوه فلم يجدوه، ومعنى قوله: فلبثت ملياً أي مكثاً طويلاً، وبينته رواية النسائي: فلبثت ثلاثاً. ورواية الترمذي: فلقيني النبي ﷺ بعد ذلك بثلاث. وكانت هذه الحادثة بعد حجة الوداع كما دلت رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند ابن منده وأبي

عوانة والبيهقي: أن رجلاً في آخر عمر رسول الله ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أدنو منك؟ قال: «نعم» قال: فجاء حتى وضع يده على ركبته، فقال: ما الإسلام؟ وفي مسند البزار: أن جبريل عليه السلام أتى النبي في هيئة رجل شاحب مسافر حتى وضع يده على ركة النبي ﷺ فقال: ما الإسلام؟... والروايات المتظاهرة والمتعددة تُبصر المسلمين وتبعثهم على الوقوف على حقيقة بني إسرائيل حيث تخللت توجيهات ظاهرة وخفية، وكل رواية وكل طريق مشتمل على معانٍ غزيرة وفوائد كثيرة. والملاحظ في رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام صنع صنيع هؤلاء الأعراب فبدأ بالسؤال دون السلام، وقال: يا محمد، دون قوله: يا رسول الله! والظاهر أنه أراد بذلك المبالغة في تعمية أمره حيث تمثل بجفاة الأعراب ولهذا تخطى الناس دون أن يُسلم حتى انتهى إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه كهيئة الند والمائل والمناوئ... وفي صحيح ابن حبان: قال: ما العالة الحفاة العراة؟ قال: «العريب» والمراد بهم الأعراب أهل البادية - والله ورسوله أعلم - قال تعالى ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ والأعراب هم سكان البادية وهم بادية العرب وكان بنو إسرائيل أهل بادية كما جاء على لسان يوسف عليه السلام ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ فليس المراد بالأعراب العموم بل خصوص أهل الكتاب الذين قدموا جزيرة العرب وحادوا الله ورسوله - والله ورسوله أعلم - والحديث يشير إلى موقف ملوك الأرض تجاه الإسلام والإيمان والإحسان فكان الكلام في الحديث الشريف مسوقاً لبيان كفرهم كما دل عليه وصفهم بالصم البكم، واستنبط من الحديث أنه يتوجب على المؤمن دراسة واقعهم لما يترتب على معرفتهم معرفة الإسلام والإيمان والإحسان حيث جعل ذلك من الدين! قال الإمام البخاري في

صحيحه: باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له ثم قال: «جاء جبريل ﷺ يعلمكم دينكم» فجعل ذلك كله ديناً. وقال الإمام النووي: واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف بل هو أصل الإسلام كما حكيناه عن القاضي عياض. اهـ. فهو حديث عظيم اشتمل على شرح معالم الدين كلها وذلك أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه ولهذا قال النبي ﷺ في آخره كما في سنن ابن ماجه: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم» والدين له معالم ومحددات: "إسلامية" فقهية حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية، و"إيمانية" عقدية: الصدر الأول والحنابلة والأشاعرة والماتريدية، و"إحسانية" صوفية منضبطة بالمذاهب العقدية والفقهية، و"أشراط زمانية" تكشف عن قبض العلم ونقض الحكم واتباع سنن الأمة الإسرائيلية. وقد جعل ﷺ كل ذلك وحدة واحدة وقضية مترابطة لا تنفصل ولا تتجزأ، فلا يمكن أن نفهم العرى الثلاث التي نقضوها: الإسلام والإيمان والإحسان بعيداً عن فهم حقيقتهم... فإنهم نقضوا أولاً: الإحسان المتمثل بجانب التزكية وذلك بالطعن في التصوف بذريعة الخوف على الأمة من الشرك وعبادة القبور والأولياء والصالحين! ثم نقضوا الإيمان المتمثل بالجانب العقدي وذلك بالطعن في الأشاعرة والماتريدية بأكاذيب وافتراءات عليهم لا أصل لها! ثم نقضوا الإسلام المتمثل بالجانب الفقهي وذلك بالطعن في المذاهب الأربعة بأكذوبة فقه الدليل والعمل بالراجح وأن الحق واحد لا يتعدد وغيرها من الأكاذيب ومنعوا دروس المذاهب الفقهية في المسجد الحرام حيث كانت فيه أربع زوايا لتدريس الفقه واقتصروا تدريس مذهبهم المنحرف لينقضوا فقه السلف بأكذوبة نشر فقه السلف حتى نقضوا الصلاة في كافة

شؤونها فقهاً وروحاً! وحين تفترق العقائد والأهداف والغايات هذا الاختلاف فلا مجال لمشاركةٍ أو تعامل أو علاقة أو تقارب بين المسلمين وبين الحفاة العراء، ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق، فإما نظام الإسلام وإما نظام أهل الكتاب وبذلك تتضح غربة الدين كما قال الرسول الأمين عليه صلوات رب العالمين: «**إن الدين غريباً بدأ ويرجع غريباً فطوبى للغرباء**» رواه ابن قانع في معجم الصحابة... ولذلك لا بد من الخروج عن دائرة المؤلف ودراسة معالم الدين الأربعة مجتمعة لا متفرقة إذ المؤلف إقصاء الركن الرابع لكونه مغيباً عن الدراسة التحليلية في كتب علماء الأصول وسبب ذلك كونه مرتبطاً بالحوادث، قال عمرو بن مرة: خرج عمر رضي الله عنه على الناس فقال: أُحْرَجَ عليكم أن تسألوا عما لم يكن فأين لنا فيما كان شغلاً؟ وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر رضي الله عنه لعن السائل عما لم يكن. وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول: كان هذا؟ فإن قالوا: لا، قال: دعوه حتى يكون. وقال مسروق: سألت أبي بن كعب عن شيء فقال: أكان بعد؟ فقلت: لا، فقال: أرحنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا. وبذلك يتضح أن السلف رضي الله عنهم كانوا يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها، أما وقد وقع أكثرها الآن فالإيضاح عما وقع لا بد منه وإذا أراد المسلم أن يكون على صفة الاعتدال الواعي بخريطة الطريق فلا بد أن يربط بين الإسلام والإيمان والإحسان على ضوء دراسة الحفاة العراء ويفهم حقيقة ما حصل على الوجه الصحيح... وفي الإيمان بالقدر زاد للمسلم في معركته مع هؤلاء القوم فلا يتثاقل عن جهادهم ويمضي في مواجهتهم دون أن تأخذه في الله لومة لائم كما قال تعالى **(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لُومَةَ لَائِمٍ)** أي لا يخافون أن يلحقهم

لوم من جهة بعض المسلمين الذين يراعون أمر قادة النفاق وينكرون جهادهم حفظاً لمصالحهم أو مراعاة لما في نفوسهم من العقائد الزائغة والأهوية الفاسدة. روى البيهقي وابن رجب عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه يصيب أمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لا ينجو منه إلا: رجل عرف دين الله بلسانه ويده وقلبه فذلك الذي سبقت له السوابق، ورجل عرف دين الله فصدق به ولأول عليه سابقة، ورجل عرف دين الله فسكت فإن رأى من يعمل الخير أحبه عليه وإن رأى من يعمل بباطل أبغضه عليه فذلك ينجو على إبطانه» ومن ظواهر هذه المرحلة: انقلاب القيم والأخلاق والتأثر بالكفر والكافر وما يفرزه في الواقع الاجتماعي من سمومه ونفثات طباعه بسياسة الرقي وما يليها من الاستهتار واللعب بعقول الأجيال في الإعلام والمدارس والجامعات وغيرها من أحاييل الانحلال والضلال المسيس حتى قال ﷺ واصفاً هذه الحال: «من أشراط الساعة الفُحش والتفحش وقطيعة الأرحام وتخوين الأمين وائتمان الخائن» وروى الحاكم في المستدرک عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان عبّادٌ جهالٌ وقراءٌ فسقة» والعباد الجهال هم الغيورون على الديانة المخدوعون بمنهاج أهل الكتاب الآخذون عنهم من غير وعي ولا علم ولا تعرّف على دحائلهم وحيلهم المنتشرة في الحياة الاجتماعية بل ربما كان العابد الزاهد أحد دعاة مؤسسات الدعوة إلى التضليل والإلحاد والشبهة والإفساد ومساعداً على انتشار هذه المكاتب والمؤسسات التي تعمل على هدم دينه وهو لا يعلم من الأمر شيئاً! وأما القراء الفسقة فهم الدعاة المثقفون وحملة الشهادات الواقعون في الإثم والرياء والنفاق.

(فاعلم أنه لا إله إلا الله)

قال علامة الزمان وقطب الوقت والأوان، بركة الإسلام وشيخ الخواص والعوام، غريب الغرباء وقدوة الأولياء والعلماء، الإمام التحرير مولانا السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الشهير بالرواس عطر الله روحه وأفاض علينا فتوحه: وخلاصة معناها عند علمائنا رضي الله عنهم: لا معبود بحق متصف بصفات الكمال منزّه عن صفات الحوادث والنقصان إلا الله وهو الغني عن كل شيء وإليه يحتاج كل شيء وهو على كل شيء قدير. وقال مولانا العلم العلامة والبحر العذب الفهامة أبو الهدى الصيادي نور الله ضريحه: كلمة التوحيد شاملة لما يجب له تعالى وما يجوز وما يستحيل وقد قرر علماء التوحيد أن كلمة "لا إله إلا الله" مع قلة كلماتها شاملة وجامعة لما يجب لله تعالى ولما يجوز ولما يستحيل وذلك لأن لا إله إلا الله قد أثبتت الإلهية لله تعالى ونفتها عن غيره سبحانه وتعالى...والإله: الذي ولّهت به الأشياء وهامت بجلاله الأشياء وتعشقت به الأشياء كلها فكل شيء يقال له شيء سواء كان مشهوداً أو مغيباً علوياً أو سفلياً معنوياً أو مادياً كل شيء موله ومولع بالله وهذا حب وعشق فطري وذوقي وخلقي لأن الله تعالى أوجده فكل شيء إنما عرف - أول ما عرف - عرف الله وكل شيء إنما أحب - أول ما أحب - أحب الله وتعلق به ثم بعد ذلك صار له علاقات مع أمه وأبيه وبني جنسه وهكذا فالعقلاء - وهم أولو الألباب - قد تعلقوا بالله ولم ينشغلوا بأشياء أخرى عن الله بل بقوا متعلقين بالله كيوم خلقهم وكأنه الآن أوجدهم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ والحب الأشد هو العشق المفرط وهكذا شأن جميع الأشياء لأن الله تعالى خلقها وكل شيء متعلق بالله ومتعشق به سبحانه وكل ذرة في الكون عابدة لله مسبحة بحمده ساجدة لله تعالى عاشقة لله لا تستغني عن الله لأنه ربهما وبه قامت وله

استقامت ولو أنك استنطقت العالم بسمائه وأرضه وجباله لرأيت فيه من العشق والحب لله والغيرة له سبحانه ما أدهشك ولرأيت من الحب والعشق فيه ما يعجز عنه الواصفون والكتاب...والإله: المستغني عن كل ما سواه المحتاج إليه كل ما عداه، فالعنى لا مستغني عن كل ما سواه ومفتقر إليه ما عداه إلا الله أما استغناؤه سبحانه وتعالى عن كل ما عداه فهو يوجب له عز شأنه الاتصاف بالوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والتنزه عن جميع النقائص والقيام بالنفس بمعنى أنه لا يفتقر إلى محل ولا إلى مخصص ويدخل في ذلك وجوب السمع والبصر والكلام المنزه عن المشابهة لكلام البشر إذ لو لم تجب له هذه الصفات لكان سبحانه وتعالى مفتقراً إلى محدث يحدثه وإلى محل يكتنفه وإلى مخصص يخصصه وإلى من يدفع عنه النقائص تعالى القادر المالك عن أمثال ذلك وكيف يتصور افتقاره جل شأنه إلى شيء مما ذكر وهو المستغني عن كل ما سواه، ويؤخذ من ذلك: أنه سبحانه وتعالى منزّه عن أضداد هذه الصفات لأنه متى ثبت له سبحانه وتعالى صفة استحال ضدها إذ اجتماع الضدين محال، فحيث أفادت هذه الكلمة الشريفة أن الله سبحانه وتعالى موجود قديم باق مخالف للحوادث منزّه عن جميع النقائص سميع بصير متكلم لزم نفي ضدها بالضرورة فيستحيل عليه سبحانه وتعالى العدم والحدوث والفناء والموافقة للحوادث والاتصاف بشيء من النقائص وكذلك يستحيل عليه سبحانه وتعالى الصمم والعمى والبكم وأما افتقار كل ما عداه إليه جل شأنه فهو يوجب له تعالى الحياة والقدرة والإرادة والعلم إذ لو انتفى شيء منها لم يمكن أن يوجد شيء من الحوادث بل كان وجود هذه الكائنات من المستحيلات وإذا لم يوجد شيء فلا يفتقر إليه تعالى شيء إذ المعدوم لا يوصف بالاحتياج والافتقار وهو

سبحانه وتعالى يفتقر إليه كل ما سواه ويوجب ذلك له تعالى الوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله لأنه لو كان متعددًا لما وجد شيء من هذه المخلوقات فلم يحتج إليه شيء كيف وهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه ويؤخذ من ذلك أن هذه العوالم بأسرها كلها حوادث إذ لو كان شيء منها قديمًا لكان مستغنياً عن الله تعالى كيف يتصور ذلك؟ وهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه، ويوجب ذلك أنه لا ضار ولا نافع ولا واصل ولا قاطع ولا محرك لشيء من الساكنات ولا مسكن لشيء من المتحركات ولا مؤثر في الوجود في ذرة من عالم الغيب والشهود سوى الموجود سبحانه وتعالى ولولا ذلك لاستغنى هذا المؤثر فيه عن الله بوجود مؤثر غيره كيف؟! وهو سبحانه وتعالى المفتقر إليه كل ما سواه، وإذا وجبت له سبحانه وتعالى صفات الحياة والقدرة والعلم والإرادة والوحدانية انتفت واستحالت أضدادها بالضرورة فيستحيل عليه تعالى الموت والعجز والجهل والكرهية والتعدد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويؤخذ من ذلك أيضاً أن له فعل كل ممكن وتركه لأنه لو لم يكن له فعل الممكنات لكان عاجزاً عن إيجاد هذه الموجودات وكيف يوصف بالعجز؟! وهو سبحانه مفتقر إليه كل ما عداه، فتحصل من ذلك أن كلمة الشهادة جامعة لكافة ما يجب لله تعالى من الصفات وما يجوز وما يستحيل. اهـ. والخطاب في الآية للنبي ﷺ والمراد كل مؤمن من أمته لأنه - أرواحنا له الفداء - عالم بذلك وهذا يناسبه قوله بعده **(واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)** وقد جاء الأمر في الآية تفريعاً على ما سبق من ذكر أشراط الساعة كما تقدم، ومضمون ما ذكر ﷺ من أشراط الساعة يرجع إلى خروج الدجالين الكذابين وانعكاس سائر الأحوال على نحو ما ورد في الحديث عند ابن ماجه: **«سيأتي على الناس سنوات خداعات يُصدّق**

فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق
 فيها الرويضة» قيل: وما الرويضة؟ قال: «الرجل التافه في أمر العامة» وفي
 رواية: «الفاسق يتكلم في شؤون العامة» وفي رواية: «الفويسق» وفي رواية:
 «السفيه» وفي رواية: «الوضع» وفي رواية: «يتكلم في الناس من لم يتكلم
 وينكر الحق تسعة أعشارهم ويذهب الإسلام فلا يبقى إلا اسمه ويذهب القرآن
 فلا يبقى إلا رسمه» وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله
 ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش
 والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن ويهلك الوعول وتظهر التحوت» قالوا: يا
 رسول الله، وما الوعول والتحوت؟ قال: «الوعول: وجوه الناس وأشرفهم،
 والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم» وفي رواية للطبراني:
 «ويعلو التحوت الوعول» وفي الحديث عند الترمذي: «لا تقوم الساعة حتى
 يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع» أي حتى يكون الحمقى والعبيد واللئام
 رؤساء الناس! ومن ظواهر هذه المرحلة أن يكون التصوف همّة حيث كشف
 العدو النجدي اللثام عن خبث نيته وفعله ضد الديانة! وبلغ التيه أوجه حين نرى
 كلا النقيضين: المتوهب الفاجر والمتصوف القاصر يواليان كفراً واحداً يخادعهم
 مستهزئاً بهم متظاهراً بعمارة الحرمين وخدمة الحجاج والمعتمرين! وروى
 الهيثمي في مجمع الزوائد أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يجعل
 كتاب الله عاراً ويكون الإسلام غريباً وتبدو الشحنة بين الناس وحتى يقبض
 العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البشر وتنقص السنون والثمرات ويؤتمن التهماء
 ويتهم الأمناء ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ويكثر الهرج وهو القتل...»
 وفي الصحيحين عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما

وأنا أنتظر الآخر: حدثنا: «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة» وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبراً وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان» ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً رده علي الإسلام، وإن كان نصرانياً أو يهودياً رده عليّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أباع إلا فلاناً وفلاناً. وهذا الحديث من أعلام النبوة وذلك أنه ﷺ أخبر حذيفة بأمور من الغيب، وكان حذيفة قد حُص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن فكان أكابر الصحابة يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يُسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم وكان عمر رضي الله عنه إذا دعي إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك. والأمانة هي التكليف الإلهية التي كلف الله تعالى بها المستخلفين والعهود التي أخذها عليهم من الإقرار بوحدانية الله، وكانوا مفطورين عليها ثم حصلت بنصوص الوحيين فكانت هي الباعثة على الأخذ بهما، والنومة كناية عن الغفلة الموجبة لارتكاب السيئة الباعثة على نقص الأمانة فكانت تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً، فإذا زال أول جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة وهذه الثلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقابه الظلمة إياه

بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى النفط، فيصبح الناس يتبايعون على الإمارة! وهذا المعنى دل عليه قوله: "فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً" وإذا كان ذلك في خير القرون فما الظن بشرّها؟ وفي الفتن لنعيم بن حماد: «إذا تقارب الزمان أناخ بكم الشرفُ الجُونُ فتن كقطع الليل المظلم» والشرف النوق الهرمة شبه الفتن في اتصالها وامتداد أوقاتها بالنوق المسنة السود المظلمة! وفي رواية: «الشرق الجُونُ» بالقاف والراء ساكنة أي تأتي من قبل المشرق وكل شيء جاء من ناحية المشرق فهو شارق وشرق! ومن علامات الساعة أن يوضع الأخيار ويرفع الأشرار ويتكلم الجاهل ويسكت العالم ويسود كل قبيلة منافقوها حيث يقبض العلم ويحبس في المنهجيات الموجهة ويفشو الجهل بحقائق السعة الشرعية في الأصول المتبعة، ويعود الحفاة العرا رؤوس الناس إشارة إلى استيلائهم على الأمر وتملكهم البلاد بالقهر والمعنى أن هؤلاء الأذلة ينقلبون أعزة ملوكاً على نحو ما ورد في الحديث عند البزار: «ورأيت الحفاة العرا العالة - يعني العرب - ولّوا الناس» وقد بين ﷺ في هذا الحديث معالم الدين، وأشار بقوله: «أن ترى الحفاة العرا العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» إلى إفسادهم في المال والاقتصاد! ويمكن حمله على تطاولهم في الدين والوقعة فيه واستحقار أهله كما أشار إلى نفوذهم وعلوهم في الأرض، وفي رواية عند أحمد: «ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان» وتعديته بالباء حملاً على تضمين معنى الاستهزاء، أي يستهزئون بالدين! وفي الحديث استعارة بالكناية حيث شبه الدين بقواعد البنيان تشبيهاً مضمراً في النفس ودل عليه ما هو من رواده ولوازمه وهو البناء، على نحو ما ورد في الحديث: «بني الإسلام على خمس» ونظيره في التنزيل العزيز ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ

ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) أي: بنیان دینه - كما ذكره الخطيب الشربيني في تفسيره - والآية ضرب مثل للحفاة العراة، أي من أسس بنيان دينه على الإسلام خير أم من أسسه على الشرك والنفاق؟ و(خير) اسم تفضيل وهو مستعمل للتهكم بالمنافقين! ولا نرى مثلاً أكثر مطابقة لأمرهم من هذا المثال... ويمكن أن يُحمل التطاول في البنيان على الحقيقة كما جاء في سنن ابن ماجه: «وَأَنْ تَرَى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البناء» وفي مسند أحمد: «وَأَنْ يُرَى الحفاة العراة الجوع يتبارون في البناء» والذي ينبغي اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن والسنة على المعنيين جمعاً بين الحقيقة والمجاز، وكذلك مختلف المحامل التي تسمح بها تراكيب الكلام وإعرابه ودلالته من صريح وكناية وبديع إذا لم تفض إلى خلاف المقصود، والنبي ﷺ لكونه أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً كان حقيقاً بأن يودع في كلامه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة العربية ليحصل تمام المقصود من الإرشاد، ويدل لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من روايات فرى منها ما نوقن بأنه المعنى الأسرع انسياقاً إلى الذهن ولكننا بالتأمل نعلم أن الرسول الجليل الأعظم ﷺ ما أراد إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من كلامه... وخصَّ «رعاء الشاء» بالذكر لأنهم أضعف أهل البادية ومعناه أنهم من الضعف والبعد عن أسباب القوة والحضارة فيما يبدو للأنظار بحيث لا يؤبه لهم ولا يُفطن إليهم ولا تلحقهم الظنون، وفي رواية: «رعاء البهْم» وهي صغار الضأن والمعز، ومقصوده أن هؤلاء المهازيل سينقلب بهم الحال إلى أن يصيروا ملوكاً مع بعدهم عن أسباب ذلك. وفي رواية: «الإبل البهْم» بضم الباء أي: السود وهو بحر الميم

ورفعها وصفاً للرعاة جمع بهيم فيكون كناية عن حالهم وأنه لا يعود لهم أصل من أهم الأمر إذا لم يعرف حقيقته، ويمكن حمله على سواد اللون لأن الأدمة غالب ألوانهم أو للإبل جمع بهماء إذ السود شرها عندهم.

والقول الفصل الذي يرشد إليه الحديث: أن معالم الدين كاملة الأجزاء محكمة الوضع سوية البناء ثابتة الأسس متسقة النظم لا يمكن فصل بعضها عن بعض بل إن الفصل بينها ضربٌ من العبث وفيها بيانٌ لبطلان دين الحفاة العراة بالنسبة إلى الدين الحق، ووصفٌ لما هم عليه من فنون الكفر والنفاق، وهتكٌ لأستارهم، وكشفٌ لأسرارهم وإزاحة لشبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبية على أن الحجة قد تمت فلم يبق بعد ذلك علة لمتمل ولا عذر لمعتذر...

وبالجملة فإن حديث سيدنا جبريل عليه السلام حوى مهمات الدين والدنيا وحدد المعالم الخيرة والشواهد النيرة وأظهر أئمة الكفر المخادعين ودمغهم بواضحات البراهين ولم يبق علينا نحن المسلمين غير العود إلى ربط حديث جبريل الأمين بالقرآن المبين لنحل اللغز الأعقد ونظفر بالمجد الأوحد! فالحديث ينبئ عن ميلاد الإسلام، وعن معركة مفروضة على الإسلام، لا خيار للمسلمين في خوضها، ويكشف عن صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً، ولا يمكن فهم الإسلام بوضوح إلا بمراجعة نصوص الكتاب والسنة وفق الواقع التاريخي الحركي لهؤلاء الأعراب، بل من العبث إدراك الإسلام بعيداً عن فهم واقعهم، وفرقٌ بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ، والنصوص في صورتها الحركية، وهذا يقودنا إلى الحكم على أصحاب ميثاق الدرعية بأنهم المعنيون بالأحاديث النبوية... فالقضية ضخمة كبيرة تستحق الوقوف والتأمل

لتأثيرها في حياة البشر تأثيراً خطيراً ولذلك استدعت نزول رئيس الملائكة الكروبيين متمثلاً بصورة رجل في جمع من الصحابة الكرام الطيبين رضوان الله عليهم أجمعين. قال ابن المنير في قوله "يعلمكم دينكم" دلالة على أن السؤال الحسن يسمى علماً وتعليماً؛ لأن جبريل عليه السلام لم يصدر منه سوى السؤال ومع ذلك فقد سماه النبي ﷺ معلماً، وقد اشتهر قولهم: حسن السؤال نصف العلم، ويمكن أن يؤخذ من هذا الحديث؛ لأن الفائدة فيه انبنت على السؤال والجواب معاً. وقال ابن رجب: وهو حديث عظيم يشتمل على شرح الدين كله ولهذا قال النبي ﷺ في آخره: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» بعد أن شرح درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان فجعل ذلك كله ديناً.

وكان جبريل عليه السلام قد نزل على النبي ﷺ في أول البعثة في صورته التي خلقه الله عليها مرتين، وجاءه في مثل صلصلة الجرس، وهو رمزٌ من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه، على نحو ما ورد في الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» وحملة القول أن النبي ﷺ كان معيَّناً بالبلاغ، مهيمناً على الكتاب، مكاشفاً بالعلوم الغيبية، مخصوصاً بالمسامرات القلبية، وكان يتوفر على الأمة حصتهم بقدر الاستعداد، فإن أراد أن ينبئهم بما لا عهد لهم به من تلك العلوم صاغ لها أمثلة من عالم الشهادات، ليعرفوا مما شاهدوه ما لم يشاهدوه، فلما سأل الصحابي عن كيفية الوحي وكان من المسائل العويصة والعلوم الغريبة التي لا يماط نقاب التعرز عن وجهها لكل طالب ومتطلب، ضرب لها مثلاً بالصوت المتدارك الذي يُسمع ولا يُفهم منه شيء تنبيهاً على أن

إتيانها يرد على القلب في لبسة الجلال، فتأخذ هيبة الخطاب بمجامع القلب، فإذا سرّي عنه وجد القول المنزل ملقياً في الروع واقعاً موقع المسموع، وكان ﷺ يهتم بأمر الوحي أشد الاهتمام ويهاب مما يطالب به من حقوق العبودية والقيام بشكر المنعم ويخشى على عصاة الأمة أن ينالهم من الله خزي ونكال، فيأخذه الغم الذي يأخذ بالنفس.

وقد نصت الآثار على عداة اليهود لجبريل عليه السلام كما جاء في صحيح الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ «خبرني بمن آنفأ جبريل» قال: فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة. وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيهِ لئن حدثتكم شيئاً فعرفتُموه لتتابعني على الإسلام» قالوا: فذلك لك، قال: «فسلوني عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن... وكان مما سأله: حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجمعك أو نفارقك، قال: «فإن وليي جبريل عليه السلام ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه» قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم من أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا! قال: فعند ذلك قال الله عز وجل ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿كتاب الله وراء

ظهورهم كأنهم لا يعلمون) فعند ذلك (فباؤوا بغضب على غضب) الآية. ولا تخفى مرافقة جبريل وميكال لنبينا عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم المعراج إلى السماوات وإلى سدرة المنتهى كما جاء في سورة الإسراء "سورة بني إسرائيل" وهذا ما أثار حفيظة اليهود على هذين الملكين الكريمين عليهما السلام، وذلك حين ركب النبي ﷺ البراق وهو دابة أبيض طويل يضع حافره عند منتهى طرفه، له جناحان في فخذه يحفز بهما، فانطلق به جبريل وهو عن يمينه وميكائيل عن يساره، وفي رواية عند ابن سعد: وكان الآخذ بركابه جبريل وبزمam البراق ميكائيل. وفي الحديث عند الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «وزيري من السماء: جبريل وميكائيل» وما أحسن قول حسان رضي الله عنه:

أنت النبي وخير عصبة آدم ... يا من يجود كفيض بحر زاخرٍ

ميكال معك وجبرئيل كلاهما ... مددٌ لنصرك من عزيز قاهرٍ

ومعنى (مصدقاً لما بين يديه) أي موافقاً لما تقدّم الخبر به في سائر الكتب ولما يأتي بعده من مغيبات وإخبارات. وحديث سيدنا جبريل عليه السلام حديث عظيم متفق على عظم موقعه وجلالته، يكاد يكون مدار الإسلام عليه؛ لأنه قاعدة من قواعده، مشتمل على أساسه وشرائعه، مفصل طاعاته القلبية والبدنية أصولاً وفروعاً، وعلى أمر الغيب فجميع علوم الشريعة ترجع إليه من أصول الإيمان والاعتقادات ومن علوم الإحسان ونفوذ البصائر في الملكوت ولأهمية هذا الغرض تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل في جمع من الصحابة الكرام الطاهرين رضوان الله عليهم أجمعين. وروايات الحديث تُبصّر المسلمين وتبعثهم على

الوقوف على حقيقة بني إسرائيل حيث تخللت هذه الروايات توجيهات ظاهرة وخفية! والحديث معنيٌ بتصحيح ما أخطأته الأمة المسلمة وهذا التصحيح مرهون بدراسة أركان الدين الأربعة مجتمعة لا متفرقة حيث تقوم أركان الثوابت الثلاثة بأمر التكليفات الشرعية على البشرية ويقوم الركن الرابع بالكشف عن ملوك الأرض وعلاقتهم بالشيطان ووصف أحوالهم وأعمالهم ووسائل انحرافهم وما قاموا به من توظيف سلبى ضد الديانة الإسلامية وضد البشرية! ومبدأ الحكمة يقتضي عرض هذا الأمر على العقلاء والأمناء من القادة والعلماء ليعرف الناس بهم أهمية الابتعاث الواعي لهذا الركن المهجور على ضوابط الشريعة ومنهج الاعتدال الواعي دون غلو ولا جفاء... وجبريل عليه السلام في هذا الحديث يشير إلى مرحلة جديدة - لا سيما أن الحادثة وقعت بعد حجة الوداع بعد أن تحدد للصحابة مفهوم الدين - يعود فيها الإسلام غريباً كما بدأ غريباً! على نحو ما ورد في صحيح مسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً» فلا بد من قراءة النص النبوي قراءة توضيحية مرتبطة بالهدف الشرعي الذي جاءت من أجله وإعادة الربط الواعي بين التاريخ والديانة كما هو سمة العديد من الصحابة وآل البيت والعلماء الذين عاصروا التحولات وشهدوا المتغيرات واتخذوا قراراتهم وفق قراءتهم الشرعية للحوادث من واقع المعرفة كما أخبر عنهم صاحب البيان النبوي عليه السلام.

الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة

روى الإمام الترمذي في السنن عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بقناع عليه رطب فقال: ﴿مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في

السماء تَقْوِي أَكْلَهَا كُل حِين بِإِذْن رَبِّهَا) قَالَ: «هِيَ النخلة». ومعنى الآية أن مثل لا إله إلا الله كمثل الشجرة المعروفة بشجرة النخل ووجه المشابهة ظاهر من وجوه فإن الشجرة المذكورة لا تنبت إلا في أرض طيبة وكذلك لا إله إلا الله لا تنبت إلا في القلب الطيب وأما القلب الخبيث كقلب المشرك والمنافق فلا تنبت فيه ولا تستقر أنوارها عليه فإنه لا ينشرح لقبول الإيمان ولا يميل إلا إلى الكفر والطغيان ولا يسعى إلا لدار الهوان ولا يثمر جده وسعيه إلا ثمار الهون والخذلان وكذلك الشجرة المذكورة من أطوال الأشجار وهكذا كلمة التوحيد فإنها مغروسة في قلب المؤمن وأنوارها واصله إلى العرش وكذلك شجرة النخل أسفلها حطب وأعلاها تمر ورطب وكلمة الشهادة أولها شاقة على من لم يكن ذاق أنوارها ورأى بعين بصيرته أسرارها ولا سيما مع ما ينبي عليها من التكاليف بعبادة الله وترك جميع ما حرم الله فمن صبر على ذلك وصل إلى ثمرتها وهي الجنة الموعودة ولا شك أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة كما ورد في الخبر عن النبي الصادق الأبرار عليه السلام: «مفاتيح الجنة لا إله إلا الله» رواه الطبراني، لكن لا بد للمفتاح من أسنان وهي متابعة سيد ولد عدنان الموجهة لرضاء الديان ومحبة الرحمن وقد جعل الإمام الغزالي للتوحيد أربع مراتب فقال: التوحيد ينقسم إلى لب، ولب لب، وإلى قشر، وقشر قشر، ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها

على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال العبد لا إله إلا الله حرقَت سقوف السماء حتى تصير في كتابه مثل القمر وأعماله حولها مثل الكواكب» وفي الحديث: «أخبرني جبريل أن لا إله إلا الله أنيس المسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره» وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر» ويستحب مد الصوت في قولها كما ذكره العلامة النووي وذلك لما ورد من الأحاديث الدالة على طلب مد الصوت بها فمن ذلك قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله ومدَّ بها صوته أسكنه الله دار الجلال» وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «هل فيكم غريب؟» يعني أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمرنا بغلق الباب وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال: «الحمد لله، اللهم بعثني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «أبشروا، فإن الله عز وجل قد غفر لكم» رواه أحمد والطبراني وغيرهما. وفي الحديث عند ابن ماجه والحاكم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» وفي رواية للحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله».

الفصل الثاني: قال: فأخبرني عن الساعة

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال جبل بن أبي قشير وسَمُول بن زيد - من بني قريظة - لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإننا نعلم متى هي، فأنزل الله تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي﴾ إلى قوله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. وقد عُرف من شئنتهم إنكارهم البعث وتهمهم بالرسول عليه الصلاة والسلام! وقيل: نزلت في كفار قريش وأياً ما كان فإن كفار قريش كانوا يرجعون إلى يهود كوفهم أهل كتاب وأعلم بالرسالات السماوية! ونحوه قوله جل شأنه ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أي سؤال إنكار واستبعاد واستهزاء لأنه لا يؤمن بالبعث والآخرة! والدليل على الصلة بين أهل الكتاب وكفار قريش سؤالهم عن عدة ملائكة النار، والسؤال مصدره أهل الكتاب ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ وسورة المدثر من أوائل السور نزولاً على المصطفى ﷺ، وروى الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل كلاهما من طريق ابن إسحاق ببعض اختلاف في الألفاظ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه

علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، فانصرفوا فسألوا فقيلاً لهم: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خر مغشياً عليه وقال: أفرحتم يا معشر قريش أما والله سيكون لكم سطوة يخرج حديثها من المشرق إلى المغرب لقد ذهبت والله دولة بني إسرائيل. فلما سمعوا ذلك منه خلصوا نجياً. قلت: هذا الخبر يؤكد سيطرة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي في مكة قبل البعثة. ومعنى قوله **(يسألونك عن الساعة أيان مرساها)** أي يسألونك مكررين عن وقتها سؤال استنكار واستهزاء أي وقت ثبات ثقلها واستقراره؟ والمرسى يكون مصدراً وزماناً ومكاناً من رست السفينة إذا ثبتت بالحديدة المتشعبة وإنما كان هذا بياناً لعمهم فإنهم وقعوا بذلك في الضلال من وجهين: السؤال عما غيره لهم أهم، وجعله على طريق الاستهزاء مع ما قام عليه من الأدلة! وكان اللائق بهم أن يجعلوا بدل السؤال عنها اتقاءها بالأعمال الصالحة، وفي الحديث عند البزار: **«بعثت في نسمة الساعة»** أي أول أشراتها أو في ذوي أرواح خلقهم الله وقت اقتراب الساعة كأنه قال: في آخر النشئ من بني آدم. ثم بين سبحانه أنه لم يطلع عليها أحداً من خلقه وأن إخفاءها أعظم لشأنها وأهيب وأدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية وأقرب إلى التوبة **(قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو)** أي أن علم الساعة مما اختص الله به، أما أشراتها فيديها سبحانه لوقتها... والتجلية هي إزاحة الستر المسدل أمام الغيب الموصد وكشف الستار عن المغيب ليظهر ويبدو، وفي القرآن العظيم **(إن الساعة آتية أكاد أخفيها)** وكلمة أخفيها من الأضداد، ولها معنيان: الأول: ما روي عن ابن عباس وجعفر الصادق رضي الله تعالى عنهما أن المعنى أكاد أخفيها من نفسي، والمعنى الآخر:

إن أشرط الساعة آتية أكاد أبديتها وأظهرها وقريب من هذا قوله تعالى ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ والكلام تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إلى قوله ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ وبين الآيات وقعت آية معترضة ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على أسلوب القرآن الكريم، وتأويل الكلام في الآية ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي إذا لم يتذكروا ويعقلوا عند وقوع أشراطها، فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة بغتة؟ والاستفهام إنكار مشوب بتهكم، وهو إنكار وتهكم على الكافرين، وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى ما مضى من قوله ﴿والذين كفروا يمتنعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ وهم أئمة الكفر - كما أخبرنا الإله في بيانه المعصوم - الذين من اختارهم الله على علم على العالمين وآتاهم خطة شاملة لإصلاح مسيرة الأمم وبيّن لهم فيها أصول الدين وتفصيل كل شيء فعقلوها وفطنوا إلى ما فيها من مُلك وسلطان فكتموها ثم حرفوها وأخرجوا نسخة تناقض الموثيق الإلهية وواجهوا الإسلام مواجهة نكرة ماكرة خفية، وتاريخهم حافل بالمعصية والاعتداء فقد عاندوا الأنبياء وحاولوهم على كتم المواعظ وآذوا موسى عليه السلام وكذبوا عيسى عليه السلام وعارضوا دعوة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام وصدّوا الناس عن الإسلام!

والقرآن يربط بين قصة استخلافهم وبين قصة آدم مع إبليس في سياق واحد واضح واتساق عجيب في الأداء كما يربط بين قصة رفع قواعد البيت العتيق

وبين تمكين الله هذا البيت لهم ليحكموا من هذه البقعة كما جاءت في وصية أبيهم يعقوب الذي يخفون نسبتهم إليه ويحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على البيت الحرام وسقاية الحاج وعمارة الحرمين مستمدين من ذلك سلطانهم الديني على المسلمين.

وفي سؤال جبريل عليه السلام: [متى الساعة؟] وجواب النبي ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» دليل على أن الله عز وجل أخفاها كما حكى تعالى (إن الساعة آتية أكاد أخفيها).

وحين نتأمل في حديث جبريل لا نجد ذكراً للأشراط الأخرى! حيث لم يرد ذكر طلوع الشمس من مغربها أو الدجال أو الدابة أو غيرها... وإنما كشف حقيقة الحفاة العراة لأهميتهم البالغة في فهم واقع الحكم الجبري وفهم حقيقة بني إسرائيل وهذا يستدعي الوقوف والبحث والنظر والسؤال، ولا يخفى أن أحاديث الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها لم تستدع نزول جبريل عليه السلام في تلك الصورة.

«ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأحدثك عن أشراطها» انتقل الجواب إلى القضية الأساسية التي نزل جبريل عليه السلام للتنبيه عليها... وفي سورة سيدنا محمد ﷺ بيان وتوكيد (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم فاعلم أنه لا إله إلا الله) والكلام تفريع على ما مضى من وصف أحوال أئمة الكفر والنفاق والتحريض على قتالهم من أول السورة (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم

وأصلح بالهم، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم، فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) ومقصود السورة التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين بإدامة قتال المنافقين حتى يلزموهم الصغار أو ييطلوا ضلالهم كما أضل الله أعمالهم بعد أن فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين إلى أن تضع الحرب أوزارها بإسلام أهل الأرض كلهم بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام وعلى ذلك دل اسمها "القتال" لأن من المعلوم أن من صدك عن سبيلك قاتلته وأنت إن لم تقاتله كنت مثله، والقتال موضوعها بل العنصر البارز فيها وهو في جرسها وإيقاعها، واسمها "سيدنا محمد" واضح في ذلك لأن الجهاد كان خلقه عليه أفضل الصلاة والسلام إلى أن توفاه الله تعالى وهو نبي الرحمة بالملحمة. والسورة نزلت بالمدينة وقد بدت نفاق المنافقين، وهي إعلان حرب من الله على المستهزئين بدينه في صيغة قوية تبشر بالنصر وتنذر بهلاكهم وإحباط صلاتهم وصيامهم وأعمالهم (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) والسورة تجذب المقلدين بقوة لتخرجهم من الشرك إلى التوحيد ومن حكم الطاغوت إلى حكم الله، وفيها إنذار للأمم القرى "العاصمة المقدسة" (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض والسورة الكريمة تفضح الحفاة العراة في توليهم الشيطان وتأميرهم مع شركائهم وتهدهم بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت، وفي السورة تحذير للمؤمنين أن يصيبهم ما أصاب أعداءهم من إحباط العمل نتيجة الشرك (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله

وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) والسورة في فواصلها وإيقاعها وجرسها وألفاظها من أولها إلى آخرها تحمل قذائف على المشركين "أعمالهم، أمثالهم، أمعاءهم، فتعسا لهم، دمر الله عليهم..." وفي مطلع السورة هجوم عنيف سافر على الكفار (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) وسبيل الله المصدود عنها هي الإسلام، ومعنى أضل أعمالهم: أي أبطلها إبطالاً عظيماً يزيل العين والأثر... ومن جملة أعمالهم ما يكيدونكم به... فأذهبوا أنتم أرواحهم الحسنة بأن تبطلوا صورهم وأشباحهم بأن تقطعوا أوصالهم وأنتم في غاية الاجترار عليهم فإن ربهم الذي أوجدهم قد أبطلهم وأذن لكم في إبطالهم فإنه قد علم أن لا صلاح لهم والمؤذي طبعاً يقتل شرعاً فمن قدرتم على قتله فهو محكوم بكفره محتوم بخيئته وخسره. قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من كذب وافترى وكفر وفجر وافتتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريرهم وتوبيخهم فقال تعالى (ألم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى) أي لو اعتبروا بالبداة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) الآية بعد ابتداء السورة بقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) فنبه على أن أصل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيده فنبه على الطريقتين بقوله (أضل أعمالهم) وقوله في الآخر (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) ثم بين أنه

تعالى لو شاء لانتصر منهم ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختباراً ثم حض المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك فقال **(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)** ثم التحمت الآي. انتهى. ولما كان بعضهم كحبي بن أخطب وأشياعه قد طعن في القرآن بنزوله منجماً مع أن التوراة ما نزلت إلا كذلك، وليس أحد منهم يقدر أن ينكره قال **(بما نزل على محمد)** أي ممن لا منزل إلا هو منجماً مفزقاً ليجددوا بعد الإيمان به إجمالاً الإيمان بكل نجم منه على سيدنا محمد النبي الأمي العربي القرشي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﷺ، ولما كان هذا معلماً بأن كل إيمان لم يقترن بالإيمان به ﷺ لم يعتد به، اعترض بين المبتدأ وجوابه بما يفهم علته حثاً عليه وتأكيذاً له فقال تعالى **(وهو الحق من ربهم)** أي هذا الذي نزل عليه ﷺ مختص بأنه الحق أي الكامل في الحقية لأن ينسخ ولا يُنسخ، والعطف لاتحاد الجامع إذ الآية الأولى مسوقة لذكر جزاء الأشرار، والثانية لبيان ثواب الأخيار مع ما فيهما من الترصيع والتقابل وقد عد التضاد وشبهه جامعاً يقتضي العطف لأن الوهم ينزل المتضادين منزلة المتضايين فيجتهد في الجمع بينهما في الذهن حتى قيل: إن الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد من الأمثال. روى الشيخان عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» والمثل إذا ورد في الكلام فإنه يكسبه رشاقة وبلاغة ويصير كالشامة

في الوجنة... وفي الحديث استعارة تمثيلية بتشبيه حال الكتاب والسنة في هداية التائهين الشاردين بحال الغيث في إحيائه الأرض الميتة، والمقصود - والله ورسوله أعلم - الإرشاد إلى التذكير بالإقبال على كلام الله وتدبره، وكلام رسوله ﷺ وتعليمه وأن في اللجأ إلى الكتاب والسنة نجاة وفي المفزع إليهما عصمة، وكلام الله لا يحظى بإحالة النظر فيه والغوص في حقائقه إلا من حرص على استيضاح معجزة رسوله الأكرم ولزم الهيبة وكمال الأدب معه ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره... وقد نزل الله محمداً أربع منازل لم ينزل فيها غيره من الأنبياء وهي أنه أعطاه علم إحياء الأموات، وأعطاه ضروب الوحي كلها من وحي المبشرات، وأعطاه علم الشرائع المتقدمة كلها، وأعطاه إفاء علم الأحوال كلها لأنه أرسله إلى الناس كافة وأحوالهم مختلفة بلا شك فلا بد أن تكون رسالته تعم العلم بجميع الأحوال. قال تعالى **(إنا أعطيناك الكوثر)** وقد افتتح الله تعالى السورة الكريمة بقوله "إنا" إعلاماً بالعظمة والعزة الإلهية وإعلاناً بالمنة الكبرى على رسوله بالعطية العظيمة وفسر الكوثر بالمناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بخذايرها. وقيل: الكوثر هو القرآن الحاوي لخيري الدنيا والدين لأن من ظفر بمعرفته فقد حاز الخير كله، وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه» ومن هذا الخير الكثير تتدفق الخيرات والبركات على جميع أهل الجنة على حسب مراتبهم ويفيض عليهم على وجه متواصل لا ينقطع أبداً. وروى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون ما الكوثر؟»** فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه**

خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم» واعلم أن لكل نبي حوضاً وجميع حياض الأنبياء مستمدة من حوض النبي ﷺ فحوضه هو الأصل الفيض الممد وهو أوسع الحياض وأعظمها وله الخصائص الكبرى والأوصاف العظمى التي لا توجد في غيره ومن هنا تعلم أنه ﷺ هو مصدر جميع الخيرات والرحمات والبركات في جميع العوالم. وقيل: الكوثر علماء أمته، ولا ريب أنهم من الخير الكثير فعلماء أمته كأنباء بني إسرائيل، فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العظيمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة. وسورة الكوثر كالمقابلة للتي قبلها لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بالكذب بالدين والبخل وترك الصلاة والزكاة والرياء فيهما، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل ﴿إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وفي مقابلة ترك الصلاة والزكاة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ وفي مقابلة الكذب ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة! وفي سورة سيدنا محمد ﷺ إرشاد إلى التعلم، فالعلم أشرف منقبة وأجل مرتبة، وأهى مفخر وأربح متجر، به يتوصل إلى توحيد رب العالمين وتصديق عباده المرسلين ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وفي الآية دليل على وجوب العلم بالوحدانية، فلا يجوز تقليد الحفاة العراة لثلا يقع المقلد في الشبه والضلال لأن المطلوب اليقين، ولا يتم العلم إلا بحصول اليقين بعد النظر، وذلك لا يحصل بالتقليد لأن ديدن أهل الكتاب إضلال المسلمين والتلبس عليهم. وفي السورة توجيه وجيه إلى أشراط الساعة على نحو ما ورد في الصحيحين: «إِذَا كَانَتِ الْحَفَاةُ الْعَرَاةَ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا» وفي الحديث تنبيه على التبصر في دعوتهم وأفعالهم والتحقق في أنسابهم وأحوالهم فإنه تعالى لما قال ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أردف بقوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ومعنى

الآية يرجع إلى تعلم كتاب الله وتعظيمه وتلاوته حق تلاوته والتصديق بما فيه وجهاد المنافقين والكافرين والمستهزئين به، والإيمان برسوله ﷺ وأتباعه بعد بلوغه دعوته صحيحة خالية من التشويه، ومحبتة ونصرته حياً وميتاً وإعظام حقه وتعلم سنته وتعليمها للناس، ومعرفة عداوة الشيطان حتى يحذر منه المسلم ويتخذ عدواً. والكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن قصد اتباع الحق. وإذا علم المؤمن حقيقة الأمر ما وسعه إلا الإخبات والخضوع والخشوع والاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات حتى تطيب النفوس وتحصل الألفة وتثبت المحبة ويرتفع الخلاف كما دلّ على ذلك قوله ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وذلك يتضمن الدعاء لهم وحفظ حرمتهم ونصيحتهم والتماس المعاذير لهم وإكرامهم والتواضع لهم والشفقة عليهم وإن كانوا عصاة فاسقين. وقد اشتهر بالسلسل بالأولية حديث الرحمة أخرجه الترمذي وأبو داود والطبراني والحاكم وأحمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ولما أرشد الله المؤمنين إلى دلائل التوحيد، أتبع بوصف حال المؤمنين في جدّهم في دين الله وحرصهم على ظهوره ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم﴾ وكان ذلك يبعث المؤمنين على تمني ظهور الإسلام وفضيحة المنافقين وتمني قتلهم، والله تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروبة وأوقات لا تتعدى، والمعنى - والله أعلم - لولا أنزلت سورة بيّنة واضحة لا احتمال فيها لشيء آخر أي غير متشابهة لا تحتل إلا وجوب الجهاد

تتضمن إظهارنا وتكشف لنا أئمة النفاق ورؤوس الكفر وتحضنا على قتالهم... فمدح الله المؤمنين بحرصهم، وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم، فبهذه المناسبة حُكي تمني المؤمنين نزول بيان شافٍ يلوح به تمييز حال المنافقين الذين بدت قرون نفاقهم، ومقال الذين آمنوا هذا كان سبباً في نزول قوله سبحانه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ فالمقصود من السورة التي ذكر فيها القتال هذه السورة التي نحن بصددنا والله تعالى أعلم. والأحاديث الواردة في فضائل الجهاد أكثر من أن تحصى فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد يعني سوطه خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولما لته ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم» وفي الحديث عند النسائي: «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار عضواً بعضو» قال العلائي والثعلبي والقرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿طه﴾ الطاء: طبول الغزاة في سبيل الله والهاء: هيبته في قلوب الكافرين. ولما كان الجهاد سبب إعلاء كلمة الله وحفظ شريعة رسول الله ﷺ وبه الرهبة للمنافقين والباغين والمعاندين، والوقاية لحقوق الضعفاء والمساكين، كانت فضائله أجل من أن

تخصي، وأعظم من أن تستقصى، ومزية شرفه من القضايا البديهة الشهيرة،
وصنفوا له التصانيف الكثيرة.

ووصف السورة بـ **(محكمة)** باعتبار وصف آياتها بالإحكام وعدم التشابه
وانتفاء الاحتمال أي لا تحتل آيات السورة المتعلقة بالقتال إلا وجوب قتال
المنافقين وعدم الهوادة فيه، فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه
(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة) الآية قال: كل
سورة أنزل فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين. وذكر
صاحب البحر المديد في تفسير القرآن المجيد عن قتادة قال: كل سورة فيها ذكر
القتال فهي محكمة لأن النسخ لا يرد عليها لأن القتال نسخ ما كان قبل من
الصلح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. اهـ. ووصف الله حال
المنافقين عند نزول أمر القتال بأنهم ينظرون نظر المحتضر الذي لا يطرف بصره.
ومعنى قوله **(فأولى لهم)** أي أولاهم الله تعالى ما يكرهون أو أدنى الهلاك لهم وهو
الموت الذي يكرهونه ويفرون منه، وهي كلمة تقال على جهة الزجر والتوعد،
ويحتمل أن يكون المعنى: أولى لهم أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولاً معروفاً لا
خديعة فيه، ويناسبه التعقيب بقوله **(طاعة وقول معروف)** وهذا خبر من الله
تعالى ذكره عن قيل هؤلاء المنافقين من قبل أن تنزل سورة محكمة ويذكر فيها
القتال وأنهم إذا قيل لهم: إن الله مفترض عليكم الجهاد قالوا: سمع وطاعة فإذا
عزم الأمر كرهتموه وشق عليكم! والطاعة تقتضي التوبة والرجوع إلى أمر الله
والقول المعروف يعبر عن طهارة القلب واستقامة الفطرة وموافقة القلب للوجه
(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) يعني إذا قيل لهم تعالوا قاتلوا في
سبيل الله أو ادفعوا، ناقضوا وتعاصوا، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم من المعصية

والمخالفة، وهم إنما كذبوا إذ أظهروا للمؤمنين خلاف ما في نفوسهم، وجعل الكذب على المؤمنين كذباً على الله تفضيلاً له وهويلاً لمغبته، ولما كان هذا تبكيتاً لهم من أجل فتورهم عن أمر الله، سبب عن ذلك الفتور بيان ما يحصل منه من عظيم الفساد ويتأثر به من خراب البلاد وشتات العباد في معرض سؤال فقال ملتفتاً عن ذكرهم إلى خطاب المؤمنين مخوفاً ومحدراً ومهدداً من الإعراض عن قتال المفسدين واتباع أهوائهم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ فتكونوا بذلك أعزة على المؤمنين كما كنتم أذلة على الكافرين وأقل ما في إعراضكم عن قتال المفسدين خذلانكم للمؤمنين المجاهدين بما قد يكون سبباً لظهور المنافقين عليهم فتكونوا بذلك قد جمعت بين الفساد وعزائم الأنكاد وسوء الصنعة والقطيعة! وفي الحديث المتفق عليه: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائد من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت: بلى قال: فذاك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» وقرئ ﴿توليتم﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام أي إن ولّوكم ولاية الجور ملتم إلى دنياهم وخرجتم معهم في الفتنة وعاونتموهم وصرتم آمرين بالإفساد وقطع الأرحام... وقرئ ﴿وتقطعوا﴾ من القطع اعتباراً بقوله تعالى ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وقرأ نافع ﴿عسيتم﴾ بكسر السين ووجه الكسر أن فعله: عسي مثل رضي ولم ينطقوا به إلا إذا أسند هذا الفعل إلى ضمير، ثم بين سبحانه حال المفسدين فقال ملتفتاً عنهم إيذاناً بالغضب عليهم وإعلاماً بتحقيق شقائهم ﴿أولئك الذين لعنهم

الله فأصمهم وأعمى أبصارهم واستعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ السنة كما استعير العمى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل لأن حال الأعمى أن يكون مضطرباً فيما يحيط به لا يدري نفعه من ضارّه إلا بمعونة من يرشده، وكثر أن يقال: أعمى الله بصره مراداً به أنه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب (وأعمى أبصارهم) مخالفاً لتركيب (فأصمهم) إذ لم يقل: وأعماهم! وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشراط الساعة فقال: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعتت؟ قال: «هم العرب» ولما كان مما أخبر الله ورسوله عنهم بذلك وكان ربما سأل من لا يعي الكلام حق وعيه عن السبب الموجب للعن المسبب للصم والعمى، أجاب الحق بقوله منكرأ موبخاً ملوحاً مهدداً مقررأ (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) والمعنى أن الله خلقهم بعقول غير منتفعة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب! والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه! وحرف "أم" للإضراب الانتقالي والمعنى: بل على قلوبهم أقفال، وإضافة "أقفال" إلى ضمير "قلوب" نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بقلوب المنافقين، ولما أخبر سبحانه وتعالى بأقفال قلوبهم، بين منشأ ذلك فقال منبهاً على أولياء الشيطان الذين وُصفوا فيما تقدّم بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) وقوله "ارتدوا على أدبارهم" هو كقوله ﷺ: «لا يرجعون إلى الإسلام حتى يترد السهم إلى فوقه» وهو من

التعليق بالمحال، علق رجوعهم إلى الدين بما يعد من المستحيلات مبالغة في إصرارهم على ما هم عليه وحسماً للطمع في رجوعهم إلى الدين. وقوله "وأُملي لهم" الإملاء: المدّ والتمديد في الزمان ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيراً أي أراهم الشيطان الارتداد حسناً، وقُرئ بضم الهمزة وكسر اللام ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ بصيغة المبني إلى المجهول على أنه مسند إلى المتكلم فالضمير عائد إلى الله تعالى، أي الشيطان سَوَّلَ لهم وأنا أُمْلِي لهم فيكون الكلام وعيداً أي أنا أُوخرهم قليلاً وأرزقهم وأمكن لهم على نحو قوله ﷺ: «إِنْ هَذَا الْأَمْرُ بِدَأْ رَحْمَةً وَنُبُوءَةً ثُمَّ يَكُونُ رَحْمَةً وَخِلَافَةً ثُمَّ كَائِنٌ مُلْكًا عَضُوضًا ثُمَّ كَائِنٌ عَتَوًا وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الْأَرْضِ يَسْتَحْلُونَ الْحَرِيرَ وَالْفُرُوجَ وَالْخُمُورَ وَيَرْزُقُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَنْصُرُونَ حَتَّى يَلْقُوا اللَّهَ» ونظيره في التنزيل العزيز ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ والمراد من الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى - والله أعلم - منافقوا بني إسرائيل الذين قالوا لشیاطينهم: سنطيعكم في التظاهر على عداوة الله ورسوله كما يرشد إليه قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ والأمر هو شأن الكفر وما يلائم أهله، والمعنى: سنطيعكم في بعض الكفر ولا نطيعكم في جميع الشؤون والقرارات لأن ذلك يفضح نفاقهم وإنما كانوا يقولون لهم ذلك سراً كما ينبئ عنه قوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي جميع أسرارهم التي من جملتها قولهم هذا، وقُرئ بفتح الهمزة ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ جمع سرّ. والفاء في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف حيلتهم إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم بسبب اتباع ما أسخط الله من تسويل الشيطان وكراهة رضوان الله وهو التعويل على البرهان والقرآن؟ ثم انتقل من التهديد

والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله على ما يضمه المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أن أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنهم يكدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم فقال ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ واستعير المرض إلى النفاق بجامع الإضرار بصاحبه ولكون النفاق مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحاً للاستعارة لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي، والإخراج أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة لأن الإخراج استدلال شيء من مكنه فاستعير للإعلام بخبر خفي، والأضغان: الأحقاد، وإخراجها: إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم فإن صدورهم تغلي حنقاً عليهم، ولما علم من ذلك إحاطة علمه سبحانه وشمول قدرته وباهر عظمته؛ قال عاطفاً على ما تقديره: خابت ظنونهم وفالت آراؤهم فلنخرجن ما يبالغون في تستره حتى لا ندع منه شيئاً يريدون إخفائه إلا كشفناه وأبديناه للناس وأوضحناه حتى يعرفهم الناس أجمعون ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فُلُوعَرْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ وروى البيهقي في شعب الإيمان عن سيدنا عثمان بن عفان عن النبي العدنان المبين للقرآن أنه قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ سَرِيرَةٌ صَالِحَةٌ أَوْ سَيِّئَةٌ أَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا رَدَاءً يُعْرَفُ بِهِ» ثم كلف الله تعالى المسلمين بقتال المنافقين وأطلق على ذلك التكليف ابتلاءً مجازاً فإنه يظهر به المجاهد والقاعد، والصابر والجزع فقال ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ولما كان التكليف مبيناً لأحوال نفوس الناس في الامتثال ومحصاً لدعاويهم كان مشتملاً على ما يشبه الابتلاء وإلا فإن الله تعالى يعلم تفاصيل أحوالهم ولكنها لا تظهر

للعيان للناس إلا عند تلقي التكاليف فأشبهت الاختبار، ثم استأنف قوله مؤكداً
 أنهم هم الغالبون على أعدائهم وأنه تعالى مبطل أعمال الكافرين ومكايدهم التي
 نصبوها في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ثم نادى سبحانه عموم المؤمنين نداء تحريك وتحريض على
 قتال الكافرين وتحذير من فتنهم ونهي عن موالاتهم فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا تبطلوا أعمالكم بما
 أبطلوا به أعمالهم من الشرك والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها، ثم
 استأنف استئنافاً ابتدائياً مبيناً إصرارهم على الكفر وعدم انتفاعهم لمغفرة الله
 فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
 لَهُمْ﴾ ولما قدم سبحانه ذمهم وتعنيفهم وأنه يبطل أعمالهم وختم بأن عداوته لهم
 متحتمة لا انكفak لها وكان ذلك موجباً للاجترأ عليهم سبب عنه قوله مرغباً
 في لزوم قتالهم محذراً من تركه ﴿فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ
 مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ وإنما خص الدعاء إلى السلم بالذكر لئلا يظن
 المسلمون أنهم إن تداعوا مع الكفار للسلم أمنوا منهم فعرفهم الله أن ذلك يعود
 عليهم بالمضرة لأنه يحط من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم
 عن ضعف فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة
 وتوقع البأس، ثم وعدهم تعالى بتسديد الأعمال ونجاحها وحرّضهم على الجهاد
 بالوعد بأجره كاملاً مشيراً إلى من وقع في فخاخ أهل الكتاب، ثم أخبر سبحانه
 أن الحياة الدنيا عند أهل الكتاب ليست إلا هو ولعب ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ
 وَهُوَ﴾ إذ سخروا بالعباد يتصرفون بهم تصرف اللاعب واستهزؤا بالدين

يتصرفون به تصرف اللاهي! وقوله ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم أي إنما يسألكم ما لا يحفف بكم فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم أي لا يسألكم إنفاق جميع الأموال فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق وما يأتي بعده من قوله ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ الآية.

قال: «أن تلد الأمة ربتها» والرب: المالك والسيد ورب كل شيء مالكة والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للمالك، ومعنى الحديث أن الإمام تلدن الملوك فيحمل اللفظ على الحقيقة فإن الحفاة العراة لا يستنكفون من وطء الإمام فإذا ملك أحدهم الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربتها وقد جاء في رواية مسلم: «إذا ولدت الأمة بعلمها» يعني السراري، فحمل على هذه الصورة وقد اشتهر عنهم التسري كما اشتهر عنهم نكاح المحارم والعقوق فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الوطء وغيره وحكي عن أحد ملوكهم أنه أتى أمه والعياذ بالله تعالى من الحوب الكبير! قال تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أَرْضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ الآيات إلى قوله ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم،

والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) أي يريد الله أن يبين لكم شرائع من قبلكم في تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنها كانت محرمة على من قبلكم ويعرفكم كيف كانت سنته في إهلاك من عاند منهم واستتصال من استأصلهم بتكذيب رسلهم. روى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: الميل العظيم أن اليهود يزعمون أن نكاح الأخت من الأب حلال من الله. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي "ويريد الذين يتبعون الشهوات" قال: هم اليهود والنصارى. ونحوه قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال الكلبي: هم أهل الكتاب. وفي الحديث عند الطبراني: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل لتركبن طريقتهم حذو القذة بالقذة حتى لا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله حتى إن القوم لتمر عليهم المرأة فيقوم إليها بعضهم فيجامعها ثم يرجع إلى أصحابه يضحك إليهم ويضحكون إليه» وفي رواية للبخاري: «وحتى لو أن أحدهم ضاحك أمه بالطريق لفعلتم» وخُصَّ في حديث سيدنا جبريل المتقدم بولد الأمة لأن العقوق فيه أغلب، وفي رواية: «أن تلد الأمة ربتها» ليشمل الذكور والإناث! وفيه إشارة إلى نقض العلم والاعتقاد كما جاء في الصحيحين: «من أشرط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل» ويمكن حمل ولادة الأمة ربتها على المجاز فيكون المراد الإخبار عن تبدل الحال وانعكاسه وتغيره وانقلاب الأمور - والله أعلم - وبذلك تصير الأعزة أذلة كما دلت القرينة الثانية وهي أن الأذلة ينقلبون أعزة فيتلاءم المعطوفان وهذا إخبار بتغير الزمان وانقلاب أحوال الناس بحيث لا يشاهد قبله، يؤيد ذلك قول سيد الأنام عليه الصلاة والسلام: «إذا ضيعت الأمانة ووسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» والذي ينبغي اعتماده أن يحمل

المشترك على المعنيين جمعاً بين الحقيقة والمجاز فإنه يجوز أن يراد بالكلمة الواحدة الحقيقة والمجاز في آن واحد فإن هناك ما يعرف بعموم المجاز كقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي إبل الأرض وإبل السماء أما إبل الأرض فهي الجمال التي تحمل الأثقال وتطوي المسافات الشاسعة وتصبر على العطش والجوع وأما الإبل السماوية فهي السحب والعرب تشبه السحب المليئة بالأمطار بالإبل وهذا ما قاله سبحانه ﴿فَالْحَامِلَاتِ وَقرًا﴾ وهذا من حيث لوئها واجتماعها إلى بعضها وما تحمله من أثقال قال تعالى ﴿وَيَنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

«وَإِذَا رَأَيْتَ الْحَفَاةَ الصَّمَّ الْبِكْمَ مَلُوكَ الْأَرْضِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا» فيه إشارة إلى نقض الحكم والاقتصاد! والوصف بالحفاة العراة هو الأبلغ في الدلالة على حقارتهم! ولذلك يتوجب على المسلم دراسة واقعهم ومعرفة أحوالهم والوقوف على أخبارهم حتى يفهم حقيقتهم ويتنبه لهم ويحذر فتنتهم! روى ابن أبي حاتم بإسناده عن عروة بن الزبير قال ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبِكْمَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي المنافقين لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النقرة والتباعة. وقال قتادة في قوله ﴿صَّمَّ بَكْمَ عَمِي فَهْمَ لَا يَرْجِعُونَ﴾ صَّمٌّ عن استماع الحق، بَكْمٌ عن التكلم به، عَمِيٌّ عن الإبصار له. قال الإمام القرطبي: وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي ﷺ ولأخرة الزمان في حديث جبريل: «وَإِذَا رَأَيْتَ الْحَفَاةَ الْعَرَاةَ الصَّمَّ الْبِكْمَ مَلُوكَ الْأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا» والله أعلم. انتهى. وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي: «وَأَنْ تَرَى الصَّمَّ الْبِكْمَ الْعَمِيَّ الْحَفَاةَ رِعَاءَ الشَّاةِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبِنَاءِ مَلُوكَ النَّاسِ» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هَمَّ الْعَرَبِ» ويؤيده أن الآية وردت في سياق الحديث عن الكفار والمنافقين من الآية ﴿إِنْ الَّذِينَ

كفروا سواء عليهم ءأندرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ إلى آخر الآية ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ وهذه الإطالة في شرح أحوالهم تكشف عن طبيعة نفوسهم المتنوية المريضة المعقدة وتوحي بضخامة الدور الذي يقومون به للإيقاع بالمسلمين ومدى الفتنة والاضطراب الذي يحدثونه بالمؤمنين، وقد قررت الآيات أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم مخادعون، ولما كانت مخادعتهم المؤمنين لأجل الدين كان خداعهم راجعاً لشارع ذلك الدين. والمقصود من وصفهم بالصم البكم بيان أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل وأنها أخس المنازل لديه، وهذا المعنى - والله أعلم - هو المراد في الآية ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: نزلت في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت. وفي الآية تشنيع على الحاضرين الذين وقفوا من الدعوة المحمدية موقف المحادة والخلاف والمكر كما وقف أسلافهم من قبل مع سيدنا محمد صلوات الله عليه ومع أنبيائهم فما أشبه الأبناء بالآباء والخلف بالسلف في المكر بآيات الله والزيف عن الهدى والإعنات للأنبياء ومخالفة المواثيق ونقض العهود! ولما لم يستعملوا أسماعهم ولا كلامهم في شيء من أمر دينهم، أطلق ذلك عليهم مع أنهم كانت لهم أسماع وألسنة سليمة ولكنهم لما لم تحصل لهم ثمرات تلك الإدراكات صاروا كأنهم عدموا أصلها. وفي التعبير بالصم البكم تشبيه بليغ إذ شبه إعراضهم عن هدي الله ورسوله بالأصم الأبكم كما قال تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ روى ابن جرير عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم "إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب" إلى قوله "فما أصبرهم على

النار". اهـ. ومن اعتراه هذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب، والإنسان الذي دَلَّى بنفسه إلى حَضِيض تعطيل انتفاعه بمواهبه السامية يصير أخط من البهائم والعجماوات، والمشبّهون بالصم البكم هم الذين قالوا **(اسمعنا وهم لا يسمعون)** وشبهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا لأنه مما يكفي سماعه في قبوله والعمل به، وشبهوا بالبكم في انقطاع الحجة والعجز عن ردّ ما جاءهم به القرآن فهم ما قبلوا ولا أظهروا عذراً عن عدم قبوله، وإنما وصفهم بشر الدواب لأن الخطاب الموجه إليهم في القرآن ظاهر واضح بيّن، والدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له! ولفظ الدواب بمجرد إطلاقه يتجه إلى صورة البهيمة في الحس والخيال، وهؤلاء كذلك بل هم شر الدواب فالدواب مهتدية بفطرتها أما هؤلاء فقد عطلوا وسائل الإدراك التي منحها الله لهم وخالفوا المواثيق ونقضوا العهود **(الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون)** وهم بنو قريظة ونظراؤهم من بني إسرائيل فإنهم عاهدوا النبي أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوه، ثم نقضوا عهدهم فأمدوا كفار قريش بالسلاح والعدة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب وأمدوهم بالسلاح والأدراع... روى ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في الخطبة: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»** وهم شر الدواب عند الله لجهلهم برهم وعصيانهم له فهم لا يؤمنون لغلبة شقاوتهم ومزيد عتوهم وغيرهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات المعاهدة لأن ذلك شنشنة فيهم مع مولاهم ألا ترى كيف نقضوا عهد التوحيد الذي أخذ منهم في منزل ألسنت

بربكم وهم لا يتقون العار ولا النار! قال الإمام القرطبي: والمعنيّ بهم قريظة
 والنضير في قول مجاهد وغيره نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح ثم
 اعتذروا فقالوا: نسينا فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق. اهـ. والتعبير
 في جانب نقضهم العهد بصيغة المضارع للدلالة على أن ذلك يتجدد منهم
 ويتكرر بعد نزول هذه الآية وأنهم لا ينتهون عنه فهو تعريض بالتأيس من
 وفائهم بعهدهم ولذلك فرع عليه **(فإما تثقنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم
 لعلهم يذكرون)** والخلف هنا مستعار للاقتداء بجامع الاتباع، وكلمة "تثقنهم"
 تشي بفرط تأنقهم وتصنعهم في مراعاة التقية والتحامي عن مواقع التهم! وديدن
 الدجالين إظهار العون والعطف لمن يحاربونهم من المسلمين! وأفعالهم في الشام
 واليمن اليوم خير شاهد...وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بإخراجهم من جزيرة العرب
 فأنفذه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم عادوا إليها رؤوساً كما أشار حديث
 سيدنا جبريل عليه السلام: **«وعاد العالة الحفاة رؤوس الناس»** رواه الإمام أحمد. وفي
 الآية أمرٌ من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يجعلهم نكالا لغيرهم متى ظفر بهم في حرب
 يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوه عبر حرب الوكالة! والمعنى فاجعلهم مثلاً
 وعبرة لأتباعهم الذين يترقبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض عهدهم فيفعلون مثل
 فعلهم، ولأجل هذا الأمر نكّل النبي صلى الله عليه وسلم بيني قريظة حين حاصرهم ونزلوا على
 حكم سعد بن معاذ فحكم بأن تقتل المقاتلة وتُسبى الذرية، فقتلهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل، وقد أمر الله بالإغلاظ عليهم لما في
 ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه فإنهم ما زالوا يستضعفون المسلمين فكان في
 هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم.

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ لما أمر تعالى بنبذ العهد للناقضين كان ذلك سبيلاً
للأخذ في قتلهم والتمالي عليهم وإعداد العدة وتحصيلها، ومعظم القوة وأنكاهها
للعُدو الرمي كما روى الإمام مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ
وهو على المنبر يقول: «وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي،
أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي» وفي صحيح الإمام البخاري: «ارموا
بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً» ورباط الخيل: حبسها في سبيل الله كما
ورد في صحيح الإمام البخاري: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله
وتصديقاً بوعده فإن شعبه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» والإرهاب
جعل العدو خائفاً، فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه ولم يجرأ عليه
وتجنّب إعانة الأعداء ومظاهرتهم عليه، وقُرئ بفتح الراء وتشديد الهاء في كلمة
﴿تُرْهَبُونَ﴾ وإذا عرفنا الذئب وجب أن نُعدَّ له العصا، فالحقوق والمقدسات لا
تُستجدي، وما أخذ مكرراً وخديعة ودغلاً وغشاً وخيانة لن يعود إلا غلاباً،
وقوله تعالى "وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" أي لا تعلمونهم كما
هم عليه من العداوة، واختار بعضهم أن المعنى: لا تعلمونهم فازعين راهبين أو
معادين محاربين لكم ولا تظنون ذلك بهم بل الله تعالى يعلمهم كذلك وهو مثل
قوله "لا تعلمهم نحن نعلمهم" ويبدو أن هؤلاء شياطينهم وكهنتهم الذين إذا
حلوا إليهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. وبالجملة فإن أولياء الشيطان قد
بلغوا من المهارة في النفاق والتنوّق في مراعاة التقية والتحامي عن مواقع التهم
إلى مبلغ يخفى على المؤمن حالهم. وأخرج سعد والحارث بن أبي أسامة وأبو

يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والرويانى في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: في قوله "وآخرين من دولهم لا تعلموهم الله يعلمهم" قال: «هم الجن ولا يخل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق» ولما كان الإنفاق مبنًى إعداد القوة، رغب فيه وندب إليه وحث عليه بقوله "وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون".

«الحفاة العراء» الروايات التي ورد فيها ذكر الحج تشير إلى نشأة الدولة الوهابية السعودية - والله ورسوله أعلم - بينما الروايات التي لم يرد فيها ذكر الحج تشير إلى سقوط الحرمين الشريفين وبداية الظهور في الأرض أو العلو الكبير ثم ظهرت أمور عظام حيث أعلنت الحرب العالمية الأولى التي تمخض عنها إعلان عصبة الأمم المتحدة ثم سقوط مكة المكرمة عام 1924 في الوقت الذي أعلن فيه سقوط الدولة العثمانية، ثم سقوط المدينة المنورة عام 1925، ثم إعلان المملكة العربية السعودية عام 1932، وتم خداع المسلمين بتهجير لقطاع الأمم إلى فلسطين وإعلان دولة الشركاء التي أطلقوا عليها: دولة إسرائيل! وفي الصحيحين: «إذا ولدت الأمة ربّها» وتأويله: إذا توجت وملكت العجم العرب من بني إسرائيل الذين نقضوا العلم وجعلوا لله شركاء كما قال تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل﴾ والكلام في الآية تفريع على قوله ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ واعلم أن قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات تظاهروا بالإيمان على سبيل

الاستهزاء بينما قلوبهم منطوية على الكفر! والكفر لا يجتمع مع الإيمان كما لا
يجتمع الشرك مع التوحيد والشك مع اليقين في وقت واحد وحالة واحدة.

الفصل الثالث: الإسلام

جبريل عليه السلام يسأل عن الإسلام! والإسلام كان معلوماً للصحابة رضوان الله عليهم، والحديث رواه ابن منده في كتاب الإيمان بإسناده الذي على شرط مسلم من طريق سليمان التيمي في حديث عمر أوله أن رجلاً في آخر عمر النبي ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله، وآخر عمره يحتمل أن يكون بعد حجة الوداع فإنها آخر سفراته ثم بعد قدومه بقليل دون ثلاثة أشهر مات، فتعيّن أن يتضمّن الحديث مرحلة استخلاف الحفّة العراء الذين تظاهروا بالإسلام وحصروه في أشخاصهم وأوضاعهم!

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وفي رواية: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً» والإسلام لغة: هو الاستسلام والانقياد والإذعان ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ لَمْ تَوْفَنِي وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا﴾ وشرعاً: الانقياد للأفعال الشرعية الظاهرة، ومما ينبغي أن يُعلم أن الإسلام بدون إيمان لا ينفع صاحبه في الآخرة وإن عصم ماله ودمه في الدنيا فإن من أقر بلسانه بالشهادتين وأظهر الإسلام وانقاد لما شرعه الرسول من الأحكام وعنده في قلبه أدنى شبهة أو أقل شك في صدق ما جاء به الرسول مما علم ثبوته ضرورة فهو منافق مخلد في جهنم لا يقبل الله منه عملاً ولا يغفر له زللاً وهو أشد من الكافر الصريح وأما من آمن بقلبه ولم يتكلم بالشهادتين في لسانه ومات على ذلك فقد اختلفوا فيه، ومنشأ الخلاف أن النطق بالشهادتين هل هو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من النكاح والتوارث ونحوها غير داخل في مسمى الإيمان أو جزء داخل في مسماه؟ قولان مشهوران، ومن قال بالأول: العلامة

الشيخ أبو منصور من الماتريدية والقاضي أبو بكر الباقلاني والأستاذ أبو إسحاق بن مهران من الأشاعرة وروي ذلك أيضاً عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في أحد قوليّه، وممن صرح بالقول الثاني: العلامة السعد في التلويح والقاضي عياض في الشفاء. وبقيت هنا فوائد: منها: أن مفتاح الإسلام الشهادة بالإنسانية والوحدانية للملك العلام، وبالرسالة لسيد الرسل العظام بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فلو أتى شخص بألفاظ أخرى توازي هذا المعنى كأن قال: أعترف بأن الله معبود بحق لا رب سواه وأصدق بأن محمداً مبعوث من عند الله هل يكفيه ذلك أم لا بد من الشهادتين بلفظيهما؟ ذهب ابن عرفة المالكي إلى الثاني وحزم بمثله بعض متأخري الشافعية معنيين بأن الشارع ﷺ تعبدنا بلفظ "أشهد" فلا بد منه ولا يجزئ لفظ آخر عنه، ونص كثير من الثقات على أنه لا يتعين النفي والإثبات. ومن البديهي أن كلمة الشهادة الشريفة مثبتة الألوهية لله، نافية لها عن جميع ما سواه، مؤكدة في ذلك غاية التأكيد، متضمنة لعقائد التوحيد، ودليل هذه الكلمة وشواهداها من العقل والنقل لا يحصرها إنسان، ولا يحيط بها لسان، كيف لا وكل شيء لو تأملته لوجدته ناطقاً بلسان الحال، بوحدانية الملك المتعال، كما قال القائل:

في كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فوجود ذي الجلال وتفردّه في الأقوال والأفعال غني في نفسه عن الاستدلال حتى أن لسان حال الجمادات تشهد بوحدانيته تعالى وتدل أحوالها على ربوبيته وعظمته، تعالى عن أن يحتاج وجوده إلى دليل وبرهان، كيف لا وهو الباقي وما سواه فان، وهنا ذكر تبركاً وتيمناً ما قاله الغوث الأعظم والشيخ المكرم حجة

الصوفية ومقتدى علماء الشريعة الأحمدية سيدنا السيد الشيخ محي الدين "عبد
القادر الجيلي" نفعا الله به في كتابه الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل في باب
معرفة الصانع عز وجل ليعلم ما وجب عند العلماء رضي الله عنهم من معرفته
تعالى وفي ذلك من أسرار التوحيد ما ينور العقيدة ويصلح القلب ويقمع
الشيطان ويزهق الباطل وهذا ما قاله الشيخ قدس سره: أما معرفة الصانع عز
وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أنه واحد
أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ليس كمثله شيء وهو
السميع البصير لا شبيه له ولا نظير ولا عون ولا شريك ولا ظهير ولا وزير ولا
ند ولا مشير له ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس ولا عرض فيقضى ولا ذي
تركيب أو آلة وتأليف وماهية وتحديد وهو الله للسماء رافع وللأرض واضع لا
طبيعة من الطبائع ولا طالع من الطوائع ولا ظلمة تظهر ولا نور يزهو حاضر
الأشياء علماً شاهد لها من غير مماسة عزيز قاهر حاكم قادر راحم غافر سائر
معز ناصر رؤوف خالق فاطر أول آخر ظاهر باطن فرد معبود حي لا يموت
أزلي لا يموت أبدي الملكوت سرمدي الجبروت قيوم لا ينام عزيز لا يضام منيع
لا يرام فله الأسماء العظام والمواهب الكرام قضى بالفناء على جميع الأنام فقال "
كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" وقال "إليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه" خلق الخلائق وأفعالهم وقدر أرزاقهم
وآجالهم لا مقدم لما آخر ولا مؤخر لما قدم أراد العالم وما هم فاعلوه ولو
عصمهم لما خالفوه ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه يعلم السر وأخفى عليم
بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير هو المحرك هو المسكن لم
تتصوره الأوهام ولا تقدره الأذهان ولا يقاس بالناس جل أن يشبه بما صنعه أو

يضاف إلى ما اخترعه وابتدعه محصي الأنفاس القائم على كل نفس بما كسبت منفرد بالقدرة على اختراع الأعيان وكشف الضر والبلوى وتقليب الأعيان وتغيير الأحوال كل يوم هو في شأن يسوق ما قدر إلى ما وقت... إلى غير ذلك مما قاله رضي الله عنه. وذكر الإمام العلامة والبحر الفهامة شيخ الشيوخ جلال الدين السيوطي في كتابه "الكنز المدفون والفلك المشحون" صانع العالم قادر والدليل عليه: استحالة وجود العقل ممن ليس بقادر، ثم هو على كل مقدور قادر كما هو بكل معلوم عالم لأن فعله محكم متقن والفعل المحكم يدل على أن فاعله عالم، صانع العالم يريد لأن فعله مترتب فلا بد أن يكون قاصداً إلى تقديم ما قدم وتأخير ما أخر وهو سبحانه حي لأن من شرط القادر العالم المريد أن يكون حياً فإن الموت ينافي هذه الصفات والدليل على أنه سميع بصير أن السمع والبصر صفتا مدح وفي نفيهما نقص لا يرتفع ذلك النقص إلا بشبوهما والنقص في صفاته تعالى محال، علم القديم سبحانه وتعالى ليس بكسب ولا ضرورة لأن ذلك من سمات المحدث والدليل على أنه متكلم أنه ملك والمملك يصح منه الأمر والنهي والوعد والوعيد وكلامه قديم لو لم يكن له في الأزل كلام لكان بضد الكلام موصوفاً ولو كان ضد كلامه قديماً لم يجوز أن يكون له في الأزل كلام وذلك محال لما ذكرناه، كلام الباري جل وعلا ليس بعربي ولا بسرياني ولا عبري لأن هذه أوصاف اللفظ المركب من الحروف وكلامه ليس بحروف، قراءة أحدنا للقرآن ولفظه وأصواته كلها مخلوقة والمقروء غير مخلوق فالمقروء كلام الله القائم بذاته والقراءة مرة تكون طاعة ومرة تكون معصية إذا كان القارئ جنباً ومرة تطيب ومرة لا تطيب ومرة تزيد ومرة تنقص، كلام الله سبحانه وتعالى يشتمل على أمر ونهي وخبر واستخبار وخطاب ونداء ووعد ووعيد وقصص

وأمثال وناسخ ومنسوخ ووعظ ووصية وتنبيه وتهذيب، لا يقال صفات الباري سبحانه وتعالى القائمة بذاته تخالفه ولا يقال إنها توافقه لأن الموافقة والمخالفة فرع للغيرية والتغاير بينه وبين صفاته محال ولا يقال لصفاته القديمة إنها مع الله بل هي مختصة بذاته سبحانه وتعالى قائمة به، الباري سبحانه وتعالى قادر على إعادة ما عدم من الموجودات جواهرها وأعراضها لأن الإعادة في معنى الابتداء من حيث إنه موجود عن عدم لا فرق بين الإرادة والمشيئة فكل ما شاءه الباري فقد أراده وما أراده فقد شاءه دليله أنه لا يقال أردت وما شئت وشئت وما أردت وهو سبحانه وتعالى مريد لجميع ما يجري في سلطانه من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية وسفه وحكمة ولأنه لو حدث حادث في ملكه من غير إرادته لحقه النقص وذلك محال في حقه سبحانه وتعالى، العبد مستطيع لأكسابه بدليل أنه يجد الفرق بين ما هو عاجز عنه وقادر عليه بالضرورة، لا واجب على الله بوجه لأن الواجب يقتضي موجباً والموجب فوق الموجب عليه وليس أحد فوق الباري سبحانه وه جل وعلا يجوز له أن يفعل في ملكه ما يشاء لأنه مالك على الإطلاق، الطاعات علامات الثواب لا عللها والمعاصي أمارات العقوبة لا عللها لأن القديم سبحانه وتعالى يستحيل أن يستحق عليه شيء، الحسن ما لفاعله أن يفعله والقبیح ما ليس لفاعله أن يفعله والظلم وضع الشيء في غير محله ودليل هذه الجملة: اطراد هذه المعاني وانعكاسها في معانيها، الواجبات كلها سمعية ليس فيها شيء عقلي، دليله أن العقل عرض ويستحيل أن يقال: إنه موجب، انتهى بحروفه. واعلم أن كلمة لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد وهي الشاهدة بوحدانية الحميد المجيد وهي كلمة الإيمان بالله والجامعة للقلب مع الله والنافية لغير الله والمزكية لنفوس أهل الله والمخلصة لأسرار أحباب الله والمطهرة

لقلوب أولياء الله والقامعة لعدو الله إبليس لعنه الله ولذلك ورد أنها تجعل في جنب إبليس مثل الأكلة في جنب بني آدم، ولهذه الكلمة الشريفة آثار عجيبة وأسرار غريبة، منها: أن جميع حروفها جوفية وفي ذلك إشارة إلى أنه ينبغي للذاكر أن يأتي بها من خالص جوفه ليشهد حلاوة مبانيها ولذة معانيها، ومنها: أنها مجردة عن جميع الحروف المعجمة إشارة إلى أنه ينبغي للذاكر بها أن يكون مجرداً عن الأغيار مراقباً للفاعل المختار، ومنها: أنه هذه الكلمة المنوه بذكرها والمشار إلى علو قدرها جاءت على اثني عشر حرفاً وشهور السنة اثنا عشر شهراً وأفضل حروفها أربعة وهي حروف لفظ الجلالة وكذلك أفضل الشهور أربعة والإشارة في ذلك إلى أن من قالها كفرت عنه ذنوب العام وغفر الله تعالى لقائلها ما أوقعه فيه من الذنوب والآثام ولأجل ما لها من علو الشأن نطق بها القرآن، وقد قدم ذكر التوحيد على الأمر بالعبادة لأنه الأساس الذي تنبني عليه العبادة فإن غير الموحد لا تصح له عبادة ولئلا يتوهم متوهم وجود شيء معه يعبد أو يرجى ويقصد وأنه تقدست أسماؤه هو الإله الفرد الباقي الذي يلتجأ إليه ويُعول في كل الأحوال عليه لم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل فيوقن أنه ينبغي لكل موحد أن يكبره تكبيراً، وكان القصد من قوله عليه الصلاة والسلام "شهادة أن لا إله إلا الله" التبري مما قاله أهل الشرك بالكلية والعلم المحض بأنه هو الإله الدائم الأبدي الأزلي لا سواه، شهادة مرئية شمس برهانها ببصر البصيرة لا يدنس لوث الأغيار لها سريرة، واعلم أَرانا الله وإياك رشدنا أن كلمة لا إله إلا الله تقتضي أن محمداً رسول الله، وذلك أن بيان كلمة التوحيد إنما يكون بواسطة رسول من الله، فإرسال محمد ﷺ هو المقتضى المحتم من كلمة لا إله إلا الله، كما أشار الحديث المتفق عليه: «أمرت أن أقاتل الناس

حتى يقولوا لا إله إلا الله» ولم يقل هاهنا: وأن محمداً رسول الله لتضمن هذا القول الشهادة له ﷺ بالرسالة لأن قول العبد: لا إله إلا الله هو عين إثبات رسالته. وتحقيق قوله ﷺ: «الإسلام أن تعبد الله» إنما يكون ببيانه ﷺ وإرشاده، والعبادة مردودة إذا لم تكن من بابه، وكل قادم لا يقدم من طريقه محروم فإن الأعمال معروضة عليه كما جاء في مسند البزار: «تُعَرِّضُ عَلَيَّ أَعْمَالَكُمْ فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرِ حَمْدَتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرِّ اسْتِغْفَرَتِ اللَّهُ لَكُمْ» وروى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشيّاً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم. وإذا كان الإسلام أن تعبد الله فإن الجهاد هو السعي لإيقاف كل واحد عند حد العبودية واتباع سيد البشرية وإرجاع كل متجاوز أدبه إلى ما شرعه له صاحب الشريعة المحمدية، واعلم أن في قول "لا إله إلا الله" نفي الأغيار فإذا ذاق قائل هذه الكلمة كأس حكمتها رجع عن غرور نفسه وعلم أنه كغيره وأن الفناء مرجعه وإليه مآله فلا يعلو في الأرض ولا يتكبر ولا يفسد...وفي قول "محمد رسول الله" سر الشكر والاعتراف بحقه عليه الصلاة والسلام على أن هدانا بأمر الله وأنقذنا برسالته المحمدية وشريعته الغراء الأحمدية من الظلمات إلى النور وجعلنا شهداء على العرب من بني إسرائيل ألا ترى أنه لما اجتمع أشراف قريش قال لهم رسول الله ﷺ: «كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه» فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجب! وقوله "تملكون بها العرب" أراد بني إسرائيل وإلا فإن غيرهم من العرب كانوا تبعاً لقريش. لقد عرف القوم أن كلمة التوحيد

تعني الانقياد لرسوله ﷺ وتقرير سلطان الله وحكمه في الأرض، هكذا أدرك من قبل فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة! وكذلك يدركها الفراعنة الجدد! وقد قال الرجل العربي بفطرته وسليقته حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى التوحيد: هذا أمر تكرهه الملوك! وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: إذن تحاربك العرب والعجم! لقد أدرك وفهم مدلول كلمة التوحيد، وأنها ثورة على الحاكمين الظالمين! ومن هنا كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها في حسّ العرب لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً! وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يبلغ دعوة الإسلام حتى تكونت العصبة المؤمنة التي صبرت على إسلامها وهاجرت فراراً بدينها وجاهدت بالمال والنفس لإقامة دولة الإسلام ثم دخل الناس في دين الله أفواجاً، فكلمة التوحيد تعني زوال حكم وإقامة حكم جديد، زوال وضع سلطوي جاهلي وقيام وضع سلطوي تكون فيه السلطة العليا لله تعالى وحده، وهنا لا بد من الربط بين شهادة أن لا إله إلا الله وبين دولة الحفاة العراة التي قامت على اتخاذ الشركاء في الأرض. روى الواقدي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل: لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجداً، قال: باب بيت المقدس، فدخلوا من قبل أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة» وهذه أفعال المستهزئين فإن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو الإصرار على خلافه أو بدل منه!

لقد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأخذ سبحانه عليهم العهد بتوحيده فقال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وهذا أول نداء علوي لبني إسرائيل في ترتيب المصحف، والمراد بالعهد هاهنا - والله أعلم - العهد

المأخوذ عليهم بالإقرار بوحدانية الله في الحكم والعبادة والإقرار بربوبيته والاعتراف بإلهيته والتصديق برسله واتباع السيد الأعظم محمد ﷺ، وهذا هو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعاً وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار تاريخ البشرية، وهذه هي الأحادية المطلقة في أعرض خطوطها الرئيسية، فقد أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله**» وفي رواية: «**على أن يعبد الله ويكفر بما دونه**» الحديث. والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب وأفسدت عقيدتهم وفطرتهم وحياتهم؛ نشأت أول ما نشأت عن انطماس هذه الصورة وتحريفها. وفي حديث جبريل من رواية أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**لا تشرك بالله شيئاً**» وإذا أردنا أن نفهم طبيعة الشرك بشكل واضح فلا بد من استقراء النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة ولا نخلط بين دلالاتها. لقد خاطب القرآن طبقتين من الناس وهما: طبقة الملاء وطبقة الشعب، ومشكلة الرسل والأنبياء لم تكن ابتداء مع الشعب بل كانت مع الملاء والحكام كما بيناه سالفاً، وعليه فإن الشرك الذي يخص الحكام هو الشرك في الحكم، قال تعالى ﴿**ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم**﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء يمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**» وقُرئ بكسر النون ﴿**تشاقون**﴾ أي تنازعون فيهم الحكم في الأرض، والمعنى أنه في مشهد يوم القيامة يقف الملوك موقف الخزي أمام مالك الملك يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب ﴿**أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم**﴾ وقد اتخذ بنو إسرائيل شركاء في الحكم يستنصرون بهم ويتغنون عندهم العزة والغلبة كما حكى تعالى ﴿**بشر المنافقين بأن لهم عذاباً**

أليما، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً) وقال سبحانه (وجعلوا لله شركاء الجن) وفي الصحيحين: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وقرن الشيطان: حزبه وأوليأؤه وهم بنو إسرائيل وهذا معلوم بطريق الاستبصار في شواهد البرهان ودلائل القرآن، وقد بين ﷺ أمرهم البيان الجزل في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن الفقيه الأعظم العدل ابن العدل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا» قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا» قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: «هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان» أي: هناك البلايا والأمور العظام... هناك أولياء الشيطان... هناك رؤوس الكفر... هناك صنديد الشرك... هناك قادة النفاق... هناك أئمة الضلال... هناك تُسطّر الأديان الباطلة... هناك تُدوّن العقائد الزائغة والمناهج المنحرفة... هناك تكتب المواثيق الجائرة... هناك تُدبر المصائب لأمة الإسلام... هناك تعقد المؤامرات... هناك ترم الصفقات... هناك تنصب الشبكات... وفي خطة مأكرة تم إقامة خمس دول خليجية مأجورة على أطراف جزيرة العرب لصرف الأنظار عن أصل الداء والعلة وذرّ الرماد في العيون والعقول وإخفاء الحقيقة عن مقر الكفر والنفاق ومعقل الفتن والشقاق فما من فتنة إلا ولها جذور نجدية. روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: قام النبي ﷺ خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: «هنا الفتنة - ثلاثاً - من حيث يطلع قرن الشيطان» وقرنه: أمتة والمتبعون لرأيه وانتشاره وتسليطه. وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «رأس الكفر من

هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» يعني المشرق. وفي الصحيحين: «رأس الكفر نحو المشرق» والمعنى أن رئاسة الكفر ومنشأ اليهودية والنصرانية في أمة تطلع نحو المشرق، أراد نجداً وهي مشرق المدينة وبها تسعة أعشار السحر وبها مردة الجن وكل داء عضال. وروى الترمذي عن ابن عمر قال: قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «هاهنا أرض الفتن - وأشار إلى المشرق - حيث يطلع جذل الشيطان أو قال: قرن الشيطان» والجذل: أصل الشيء، والجاذل: المنتصب مكانه لا يبرح.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

وردت هذه العبارة في آيتين من سورة النساء، الأولى: تشير إلى إشراكهم في العبادة، والأخرى: تشير إلى إشراكهم في الحكم وهذا من الدقائق فتنه له، وذُلت الآية الأولى بقوله (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) تنبيهاً على عظم الفرية وتفضيلاً لجنسها، وذُلت الآية الثانية بقوله (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) تنبيهاً على استجابتهم لدعوة الشيطان الذي أضلهم. وبين الآيتين تحريض على قتالهم واستنكار لانقسام المؤمنين في أمرهم إلى فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم وفرقة تقول: لا نقتلهم! مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جليلة (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَركَسُهُمْ بَمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا، ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) قال الزجاج: تأويل أركسهم: نكسهم وردّهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار والسبي والقتل "بما كسبوا". بما أظهروا من الارتداد. وهذه شهادة من الله حاسمة في أمرهم إذ حكم بشركهم وردّهم إلى أحكام الكفر الأصلية

ووصفهم بالضلال بما كان في قلوبهم من الشك والنفاق والشحناء وكشف سبحانه ما تكنه صدورهم من الحقد والحسد والبغضاء فقال ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ ونظيره قوله سبحانه ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ فتقسيم الأمة إلى اثنتين وسبعين فرقة هدفه تغييب الوحي عن الوعي وطي آثاره من المجتمع المسلم من أجل إيجاد عالم فاسد يمتطونه ويسوقونه إلى الكفر والإلحاد.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تشرك بالله شيئاً» تضمن نفي الإشراك في الحكم والعبادة، وقد ربطت سورة الكهف شرك الحكم بشرك العبادة، وتسميتها بسورة الكهف يدل على أهمية قصة أصحاب الكهف الذين واجهوا ملوكاً ينكرون الساعة ويشركون بالعبادة والحكم ﴿ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ والسورة استهلّت بإنذار المشركين الذين أشركوا بالعبادة ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ ثم ذُيِّلَت بذات الإيقاع رداً للمقطع على المطلع ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ إشارة إلى الدجاجلة الذين أشركوا الملائكة والنبين بالعبادة وزعموا أنهم أهل الحسنى والزيادة! فجاء النظم بطريقة بدیعة في إثبات البعث ونفي التشريك في الحكم والعبادة، وإفادة انحصار وصفه تعالى بالوحدانية المطلقة. وفي الحديث عند البيهقي عن أبي سعيد الخدري موقوفاً ومرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق» وعنه أيضاً: «من قرأها كما أنزلت كان له نور من مقامه إلى مكة» وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال» وفي

رواية لأحمد: «من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عُصم من فتنة الدجال» وسبب ذلك ما في أولها من عجائب الذين قالوا اتخذ الله ولداً وهم المنافقون المستهزون الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وهذا في آخرها فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال. ومن فتنته أن يُظهر العدل والتوحيد في أول أمره كما روى نعيم بن حماد عن الهيثم بن مالك الطائي رفع الحديث قال: «يلي الدجال بالعراق سنتين يُحمد فيها عدله وتشرئب الناس إليه، فيصعد يوماً المنبر فيخطب بها ثم يقبل عليهم فيقول لهم: ما آن لكم أن تعرفوا ربكم؟ فيقول له قائل: ومن ربنا؟ فيقول: أنا فينكر منكر من الناس من عباد الله قوله فيأخذه فيقتله وينزل عليه ملكاً من السماء فيقول أحدهما له حين يقول أنا ربكم: كذب، ويقول له صاحبه: صدق مصداقاً لصاحبه، فمن أراد الله به الهدى ثبته وعلم أن الملك إنما يصدق صاحبه ومن أراد الله ضلالته شبه عليه، فقال: إن الملك حين يصدق صاحبه إنما يصدق الدجال ترتيباً لضلالته» وفي رواية عن عبيد بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: «ليصحبن الدجال أقوام يقولون: إنا لنصحبه وإنا لنعلم أنه كافر ولكننا نصحبه نأكل من الطعام ونرعى الشجر فإذا نزل غضب الله تعالى نزل عليهم كلهم» وفي مسند الروياني: «وإن من فتنته أن معه شياطين تمثل له على صور الناس» وروى الهيثمي في مجمع الزوائد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون قبل خروج الدجال نيف وسبعون دجالاً» وفي "المختارة" للحافظ الضياء المقدسي عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة وإن خرج الدجال عُصم منه» وفي سنن النسائي: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم أدرك الدجال لم يسلط عليه أو لم يكن له عليه سبيل، ومن قرأ سورة الكهف كان له

نوراً من حيث قرأها ما بينه وبين مكة» والعلاقة بين الدجال وبين بني إسرائيل تتضح من الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن نافع قال عبد الله: ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهري الناس المسيح الدجال فقال: «إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمتة بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا فقالوا هذا المسيح ابن مريم ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبهه من رأيت بابل قطن واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال» ويبدو أن الرجلين اللذين مع عيسى ابن مريم هما يحيى وإدريس كما جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور عن مجاهد أنه قال: رُفِعَ إدريس كما رُفِعَ عيسى ولم يمت. وإدريس هو إلياس كما روى ابن أبي حاتم بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إدريس هو إلياس. وروى الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إدريس هو إلياس، وإسرائيل هو يعقوب.

وشرك العبادة هو الأساس الذي قام عليه الشرك في الحكم، وبنو إسرائيل أشركوا بالعبادة - بعد النجاة من فرعون - باتخاذهم العجل الذي صنعه لهم السامري الذي كان يظهر الإيمان ويطن الكفر، وأشركوا في الحكم بتوليهم الجبارين فثبطوا قومهم عن دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وقالوا لنبيهم (يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وقد قرن المولى سبحانه العمل الصالح بتوحيد العبادة فقال (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ورأس

العمل الصالح جهاد أعداء الله كما قال سبحانه ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ ولما أمر الحق تعالى داود عليه السلام بصناعة آلة الحرب أعقب بالأمر بالقتال ونبه على أنه تعالى مطلع على نية من يقاتل للمغرم ومن يقاتل ليرى مكانه ومن يقاتل في سبيل الله ﴿أن تعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾ وقال عز وجل ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ووجه التناسب بين الجملة ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ والجملة ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ تنبيه بني إسرائيل إلى قتال الأمم التي تبتعثهم في شرك العبادة كما قال تعالى ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ فإنه لما قال: لن تخرجوا معي أبداً وقال: لن تتبعونا اختبرهم لإظهار كذبهم... روى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما "استدعون إلى قوم أولي بأس شديد" قال: فارس والروم. وذكر الإمام القرطبي عن أبي هريرة أنه قال: لم تأت هذه الآية بعد. وقد افتتحت الآية الكريمة ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ بالإرشاد إلى توحيد الإلهية أي أوحى إلي أفراد الله بالإلهية، وفرّغ عليه التذكير بالبعث والأمر بالعمل الصالح والنهي عن الإشراك بالعبادة، فجاء النظم بطريقة بديعة. وقد تضمن قوله عز وجل ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ نفي الإشراك في الحكم والعبادة، وهذا هو دين الإسلام كما بينه يوسف عليه السلام ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ إلى قوله ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ روى أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للإسلام صُوىً بيناً كمنار الطريق، فمن ذلك أن يُعبد الله لا يشرك به شيئاً»

أراد أن للإسلام طرائق وأعلاماً يهتدى بها وهي واضحة الظاهر، وأما معرفة حقائقه وأسراره فإنما يدركها أولو الأبواب والبصائر، الذين أشرق نور اليقين على قلوبهم فصار كالمصباح، فانجلي لهم حقيقة الحق ولاح، فلا تضلنكم الأهواء عما صار شهيراً، فإنه ليس كل ماء نيراً. وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: أوصاني خليلي ﷺ أن «لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطعت وحرقت».

(إلهمكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) لما أثبت لنفسه تعالى كمال القدرة وتمام العلم وأنه المنفرد بالخلق وأقام الأدلة على بُعد ما يشركونه به من الإلهية وبين أنهم لا يخلقون شيئاً ليتحقق نفي الألوهية عنهم ضرورة ثم علل عجزهم وعدم استحقاقهم للألوهية ببيان أنهم مخلوقون مفتقرون في وجودهم إلى التخليق والإله لا بد أن يكون واجب الوجود ونفى عنهم الحياة الأبدية وإن اتصفوا بالحياة لأن حياتهم زائلة يعقبها الموت ومن كان كذلك كان بعيداً عن صفة الإلهية ولما كانت آلهتهم تسترق السمع وتخبرهم بالأكاذيب نفى عنهم مطلق الشعور الذي هو أعم من العلم فينتفي كل ما هو أحص منه (وما يشعرون أيان يبعثون) أي بوقت الساعة إذ تعيين وقتها من جملة الغيوب التي قد استأثر الله بها ونفى الشعور أبلغ من نفي العلم فإذا قلت: فلان لا يشعر فقد نفيت عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ألبتة! والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب قادراً على الجزاء لمن عبده وفيه إيذان بأن البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لا بد منه في الألوهية، ولما اتضح بذلك كله عجز آلهتهم أشار إلى أن منشأ العجز قبول تعدد الآلهة إرشاداً إلى برهان التمانع واتصالاً بما افتتحت به السورة "أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن

أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" والظاهر أن قوله سبحانه "إلهم إله واحد" تصريح بالمدعى وتلخيص للنتيجة عقب إقامة الحجة فالذين لا يؤمنون بالآخرة وأحوالها التي من جملتها البعث وما يعقبه من الجزاء قلوبهم منكرة للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها وهم مستكبرون عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها وقد عرفوا بالنفاق واشتهروا به كما في قوله "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين" أي ليسوا بمؤمنين بالله ولا بيوم البعث الذي ثبت قيامه واتضحت أعلامه وعلا مناره وانتشرت أنواره! والفاء في قوله "فالذين لا يؤمنون بالآخرة" للإيذان بأن إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين القطعية فهي للسببية والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الدلائل والحجج اختصاص الإلهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار، وبناء الحكم على الموصول للإشعار بعلية ما في حيز الصلة له فإن الكفر بالآخرة يؤدي إلى قصر النظر على العاجل والاستكبار عن اتباع الرسول الفاضل ﷺ. ولما ادَّعوا أنهم أهل التوحيد، قال على طريق الإنتاج مما مضى متوعداً للمنافقين مبيناً استكبارهم **(لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين)** قال الإمام القشيري: فيفضحهم ويبيِّن نفاقهم ويعلن للمؤمنين كفرهم وشقاقهم. وقد بين ﷺ أن الكبر في الفدادين كما جاء في الحديث عند الإمام أحمد: **«رأس الكفر المشرق والكبر والفخر في الفدادين أصحاب الوبر»** وهم أولياء الشيطان وباعتبار أن للشيطان في عالم الإنسان تدخل مباشر فلا غرو أن بث مفهوم الكبر والفخر في صدور أوليائه لإيقاعهم

فيما وقع فيه حين أمره الحق بالسجود لآدم فأبى واستكبر وعبر عن مبدأ التفاخر بشرف العنصر!

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) لما ذكر تعالى أنه مكن للمستخلفين حرماً آمناً يجيئ إليه ثمرات كل شيء وأنه ما كانت عادته أن يهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يعرفهم صحة التوحيد والنبوة وبطلان ما هم عليه لإلزام الحجة وقطع المَعذرة مع علمه أنهم لا يؤمنون، أردف ذلك ببيان حالهم مع شركائهم في الآخرة... وقد وردت الآية في موضعين من سورة القصص، والقول في التفرقة بين الآيتين أن الأولى تشير إلى إشراكهم آلهة من الجن، والثانية تشير إلى إشراكهم آلهة من الإنس، وبذلك يظهر الفرق بين الآيتين ولا يلزم التكرار والله تعالى أعلم وأحكم وأقدر وأعظم. وقد ذُيل سياق الآية الأولى بقوله (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) كما ذُيل سياق الآية الثانية بقوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) وذكر بين الآيتين بشارته ﷺ آخرًا بالظفر والعودة إلى الحرم بعد أن قدم لذلك بتنظير حال بني إسرائيل مع الرسول الأعظم وأمته بحال فرعون وملئه مع موسى وقومه! وبين الآيتين استطراد بالاستدلال على الملك العليم والصانع الحكيم إذ أقام دليلاً دالاً على قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر وعجز شركائهم على مثل ذلك، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عمّ وجوده ولا ضد له عسر إدراكه فلو كان الضياء سرمداً لكنا نظن أنه لا هيئة لليل ولكن لما غاب النهار وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين وكذلك من رأى ضلال الجاهلية ونور الإسلام أمكنه أن يميز بينهما... ولما كان شركاء بني إسرائيل من الجن هم

الذين حملوهم على الشرك قدّم الكلام عليهم، ثم قدّم إجابتهم لسؤاله ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة (قال الذين حق عليهم القول - يعني شياطين الجن - ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون، وقيل ادعوا شركاءكم - يعني يقال لأئمة الكفر ادعوا شركاءكم لينصروكم وينقذوكم من العذاب - فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) وقد حُكي نظير ذلك في سورة الصافات (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم، وقفوهم إنهم مسئولون، مالكم لا تنصرون، بل هم اليوم مستسلمون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون، فأغويناكم إنا كنا غاوين) روى الإمام الطبري عن ابن عباس في قوله "احشروا الذين ظلموا وأزواجهم" قال: أزواجهم يعني أتباعهم ومن أشبههم من الظلّة. وقوله "وما كانوا يعبدون من دون الله" أي من الآلهة وفي الحديث القدسي عند الدارقطني يقول الله تعالى: «يا عبدي ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع؟ قال: بلى يا رب، قال: أفظننت أنك ملاقي؟ قال: لا يا رب، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، قال: ثم يلقي الثاني فيقول: ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، قال: أفظننت أنك ملاقي، قال: لا يا رب، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، قال: ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت وبنيت بخير ما استطاع، فيقال له:

ألا نبعث عليك شاهدا؟ فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ، قال: فيختم على فيه ويقال لفخذه: انطقي، قال: فتنتطق فخذة ولحمه وعظامه بما كان يعمل وذلك المنافق وذلك يعذر من نفسه وذلك الذي يسخط الله عليه، ثم ينادي مناد: ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قال: فيتبع أولياء الشيطان الشيطان، قال: واتبعت اليهود والنصارى أولياءهم إلى جهنم» ونحو هذا ما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» والطواغيت جمع طاغوت وهو الشيطان كما جاء في رواية ابن حبان: «فيتبع عبدة الصليب الصليب، وعبدة النار النار، وعبدة الأوثان الأوثان، وعبدة الشيطان الشيطان» ولما كان الشيطان هو الداعي إلى التلبس بتلك المعبودات والمغري بها أفرد بالذكر في التنزيل العزيز تنبيهاً على خطورته... فقلوه "وما كانوا يعبدون" متصل بالنهي عن عبادة الشيطان في السورة التي قبلها اتصال توضيح وتفسير عبرت عنه الآية الكريمة ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وناسب هذا أنه ذكر الشيطان وقذفه من كل جانب في مطلع سورة الصافات. ومعنى قولهم للشياطين ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن الناحية التي كان منها الحق فتصرفوننا عنها وتخدعوننا بأقوى الوجوه والأسباب وتزينون لنا ضلالتنا، واليمين: الجارحة وليست مرادة هنا وإنما استعيرت لجهة التمويه والإغواء وإظهار أنها رشد! والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ويجعلونه من دلائل الخير ويسمونه السانح، وتتطير بما جاء عن الشمال ويجعلونه من دلائل الشر ويسمونه البارح. ومن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين ولبس عليه الحق،

ومن أتاه من قبل الشمال أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوَّفه الفقر على نفسه. قال صاحب التحرير والتنوير: وكان حق فعل "تأتوننا" أن يُعدَّى إلى جهة اليمين بحرف "من" فلما عُدي بحرف "عن" الذي هو للمجاوزة تعين تضمين تأتوننا معنى "تصدوننا" ليلائم معنى المجاوزة أي تأتوننا صاديننا عن اليمين أي عن الخير. وقد ابتدئت الجملة ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم﴾ بضمير الغائب ليعود إلى المتحدث عنه بما تقدم من قوله ﴿وورك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ ثم ذكر سبحانه اطلاعه على نفاق المنافقين الذي هو أبطن الأشياء ﴿وورك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي الموصوف بتلك الصفات العظيمة والفاعل لتلك الأفعال الجليلة والمذكور بالربوبية المستأثر بالإلهية الذي لا سميَّ له ولا يحيط الوصف من عظمته بأكثر من أنه عظيم ثم شرح معنى الاسم الأعظم بقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ وفي ذلك زيادة تقرير لدلول الخبر الأول فإن اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحق إلا أن المشركين حرفوا الإلهية فكان هذا إبطالاً للشرك الذي قرروه في ميثاقهم الأممي وقام عليه ملكهم، وقد ورد في معرض إبطاله بحكاية تلاشيهِ يوم القيامة بقوله ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ وجملة ﴿له الحكم﴾ بيان لجملة ﴿لا إله إلا هو﴾ وأدمج بينهما استحقاقه للحمد والثناء على وجه الإجمال ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ كما أدمج في الآية الأخيرة ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ قال الإمام البخاري في صحيحه: إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله. ومذهبنا إثبات صفة الوجه لله تعالى وعدم الاشتغال بكيفيتها وتفويض تأويلها إلى الله تعالى بعد تنزيهه عز وجل عن

الجارحة، وفي قوله ﴿وإليه ترجعون﴾ إبطال لما عليه المشركون من إنكار البعث. وبين قوله ﴿وله الحكم وإليه ترجعون﴾ وقوله ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾ آية مُعلِّمة بغيب قد ظهر للأمة ومؤنسة بفتح عظيم ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ يعني إلى مكة ظافراً ظاهراً على المشركين وهذا أقرب لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لا يليق إلا بمكة وهذا الخبر يدل على نبوته لأنه أخبر عن أمور غيبية، ووجه ارتباط الآية بما تقدمها أنه تعالى لما ذكر من قصة موسى وفرعون واستطالته عليه وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه ذكرَ جل شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأُمته مع بني إسرائيل واستطالتهم عليها وإخراجهم إياها ثم إعزازها بالإعادة إلى مكة وفتحها إياها منصوراً مكرمة، ولما وعد تعالى رسوله الردّ إلى معاد حسنَ الاتصال بقوله تعالى ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين﴾ فيكون علم الله بالمهتدي والضال مكفى به عن اتضاح الأمر بلا ريب، لظهور أن المبلِّغ لهذا الكلام لا يفرض في حقه أن يكون هو الشق الضال فيتعين أن الضال من خالفه. وفي ثانياً البشارة أمرٌ للمسلم بمشاركة المغضوب عليهم والضالين متاركة المستيقن من ضلالهم ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ كما حكى تعالى عن موسى عليه السلام ﴿قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ يعني لا أكون معهم ولا أنتظم في نظامهم ولا أكثر سوادهم فإنه عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم في دينه ودين آبائه، رأى فراق فرعون وقومه فتكلم بالحق وعاب دينهم حتى أخافوه وخافهم.

قوله: «وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ» وكان الظاهر أن يقول: وأني رسوله فيعبر عن ذاته الشريفة بضمير المتكلم وعن الاسم الكريم بالضمير البارز وهو الهاء لكنه عدل ﷺ عن ذلك وأتى في المحلين بالإظهار في مقام الإضمار تأسيساً بقوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ليوافق نظم الحديث الشريف نظم القرآن المنيف وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين فرسالته عامة ودعوته تامة ومزاياه كاملة ورحمته شاملة ونعمه متواصلة وكل من تقدم من الأنبياء الكرام والرسل العظام عليهم الصلاة والسلام فهم نواب عنه وهو أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً فإنه ﷺ خلقت أنواره قبل خلق آدم فهو سابق عليه في الوجود لأن آدم كان في عالم الغيب وهو ﷺ في عالم الشهود وفي ذلك يقول الإمام السيد أبو الهدى الصيادي قدس الله سره:

لك الفخار انجلي قدماً وآدم في ... مهد التكون شكلاً كان فخّاراً

وقبل نشأته الأولى وصبغته ... نورت في الملاء القدسي أبصاراً

وقرن الرسالة بشهادته ﷺ بالشهادة بوحدانية الله لأنه لا يتم الإيمان والإسلام إلا بالتصديق والإقرار بهما جميعاً ولذلك كانت الشهادتان الشريفتان في حكم شيء واحد فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها مستحضراً لما احتوت عليه من عقائد الإيمان حتى تمتزج مع معناها بلحمه ودمه فإنه يرى لها من الأسرار والعجائب ما لا يدخل تحت حصر كما ذكر صاحب السنوسية. وإتباع شهادة أن لا إله إلا الله بشهادة أن محمداً رسول الله هو تأكيد لما تضمنته كلمة التوحيد من نفي الأغيار وإثباتاً لعبوديته ﷺ واعتزافاً بشكر نعمة الله برسالته عليه الصلاة والسلام فإذا قام قائم لهدم هذا المنار العالي وأراد إلباس الحق

بالباطل وأخذ بالزيغ وتصدر لسلب النعمة التي وهبها الله بواسطة رسوله المؤيد
 المكرم ﷺ للعالمين وسعى بالفساد لما أصلحه الشارع العظيم وتكرم به الرب
 الكريم فقد وجب كل مسلم جهاده ومن ذلك يدرك ما للجهاد من
 الوجوب ومن المحل المطلوب... وقد أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بأشياء كثيرة لا
 تحصر بالعد ولا يحيط بها الحد ومن أعظمها وأعلاها وأجلها وأبهاها: أن جعل
 اسمه الشريف مقروناً باسمه المنيف كما قالوه في تفسير قوله تعالى ﴿ورفعنا لك
 ذكرك﴾ قال العلامة الرازي في تفسيره: واعلم أنه عام في كل ما ذكره من
 النبوة وشهرته في الأرض والسموات اسمه مكتوب على العرش وأنه يذكر معه
 في الشهادة والتشهد وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة وانتشار ذكره في
 الآفاق وأنه ختمت به النبوة وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل
 وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره ﴿والله ورسوله أحق أن
 يرضوه﴾ ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ويناديه باسم
 الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى وأيضاً جعله في
 القلوب بحيث يستطيعون ذكره وهو معنى قوله تعالى ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾
 كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك
 ويحفظون سنتك بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمثلون
 في الفريضة أمري وفي السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿من
 يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ لا تأنف
 السلاطين من أتباعك بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك
 فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك والمفسرون يفسرون معاني فرقانك والوعاظ
 يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ويسلمون من وراء

الباب عليك ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ويرجون شفاعتك فشفرك
 باق إلى يوم القيامة. اهـ. وكما أن صفات الله تعالى واجبها وجائزها
 ومستحيلها داخل تحت هذه الكلمة الشريفة "لا إله إلا الله" كذلك الشهادة
 للرسول ﷺ بقولنا: محمد رسول الله جامعة لما يجب له عليه الصلاة والسلام وما
 يجوز عليه وما يستحيل في حقه وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين
 والآخرين فرسالته عامة ودعوته تامة ومزاياه كاملة ورحمته شاملة ونعمه
 متواصلة وكل من تقدم الأنبياء الكرام والرسل العظام عليهم الصلاة والسلام
 فهم نواب عنه ﷺ وهو أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً فإنه ﷺ خلقت أنواره قبل
 خلق آدم فهو سابق عليه في الوجود لأن آدم كان في عالم الغيب وهو ﷺ في
 عالم الشهود كيف لا وهو ﷺ الواسطة العظمى لإيجاد هذه الأمم بعد سبق
 العدم ولولاه لم يخلق الله آدم ولا غيره فهو الواسطة لإيجادنا بل ولوصول كل
 نعمة إلينا ولزيد فضل الله علينا لأنه باب الله الأعظم وحببيه الأجد الأكرم وجمع
 العلماء والأولياء والأقطاب والأنجاب والأوتاد وأئمة أهل الرشاد الذين فاضت
 بركاتهم على العباد وملاً ذكرهم البلاد ملتمسون من رسول الله ومستمدون من
 إمداداته ومستفيضون من فيوضاته ومشمولون بإحساناته ومنعمون بإنعاماته
 فيجب على كل منصف وصاحب طبع سليم تجردت نفسه عن الأغراض
 السقيمة واندرجت طبيعته في سلك الطباع السليمة أن يقتدي به عليه الصلاة
 والسلام ويتابعه في جميع حالاته قولاً وفعلاً وتقريراً وقد بعثه الله تعالى بهذه
 الرسالة وهو عليه الصلاة والسلام الواسطة بين الله وبين عباده والحاكم بأمر الله
 تعالى كما قال عز وجل ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ يعني
 حاكماً كما جاء في الخبر الأطهر: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء» أي

يتولون أمورهم ويحملونهم على طريق الحق كما تفعل الحكام بالرعية فالرسل يبعثون بكتاب يدعو وسيف يدفع لتقرير حكم الله في الأرض، ولا تنحصر مهمتهم في الدعوة على المنابر. ولو أن أهل الكتاب آمنوا برسول الله ﷺ أن يكونوا تحت أمره ونهيهِ لأن النبوة تحتها كل مُلك ورياسة، وقد أشار ﷺ إلى نفاقهم في رسالته المضمرة في قلوبهم كما جاء في الصحيحين: «وأوحى إليّ أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نعم صالحاً فقد علمنا إن كنت لموقناً، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته» والشهادة بأن محمداً رسول الله تتطلب الاعتقاد الجازم بأن الله أرسله بالوحدانية كما قال عز وجل ﴿وَمَالِكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ والخطاب هنا للمنافقين كما دلّ المقام، وقد سد سبحانه الطريق إلى نفسه على الكافة إلا بعد الانقياد لحبيبه ﷺ فمن لم يمش تحت قبابه فليس من الله في شيء فإن الله تعالى جعل محبته مشروطة بمحبته وطاعته منوطة بطاعته وذكره مقروناً بذكره وبيعته معقودة ببيعته، ولو أن الحفاة العراة آمنوا لزمتهم أن يكونوا تحت أمر رسوله ﷺ ونهيهِ ولكنهم كفروا، وقد أشار إلى ذلك المعنى صاحب البيان النبوي في الحديث عند البيهقي: «وأما الكافر فتنزل الملائكة فيسبطون أيديهم والبسط هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت، فإذا دخل قبره أقعد، فقليل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل له: من رسولك الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً، يقول الله: كذلك يضل الله الكافرين» وهذه هي فتنة

الممات أعادنا الله منها بمَنِّه وكرمه، وأما فتنة الحيا فهي فتنة الحفاة العراة وإليها الإشارة بقوله ﷺ: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» والله ورسوله أعلم. وقد علم المحظوظون المحفوظون المخلصون أن العصمة من فتنة الدجاجة تكمن في التعلق بجناب الرسول المعظم والنبي المكرم ﷺ ألا ترى أن الملكان الفتانان منكراً ونكيراً لا يسألان إلا عنه ﷺ كما في الحديث المتفق عليه: «ما من شيء لم أكن أريته إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار وإنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور مثل - أو قريباً من - فتنة المسيح الدجال يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟» يعني النبي ﷺ، وفي رواية أخرى: «العبد إذا وضع في قبره وتولى وأذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأكعدها فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك في النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة» فدل ذلك على جلالة قدره الرفيع وعلو شأنه الشامخ المنيع ﷺ. وأهل الكتاب لم يروا رسول الله ﷺ رسولاً إنما رأوه بشراً ولسان حالهم (أبعث الله بشراً رسولاً) ورسول الله ﷺ ببشريته مع الناس يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة وهو بسرّه مع الله متصل بالله دائماً فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه كما جاء في مسند البزار: «إني لست مثلكم إني أبيت عند ربي» وفي الصحيحين أنه ﷺ نهي عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني» وقد نبه تعالى على أن الناس متساوون في البشرية غير متفاضلين في الإنسانية وإنما يتفاضلون بما يتخصصون به من المعارف الجليلة فقال (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ)

تنبيهاً على الجهة التي حصل بها الفضل عليهم أي تميزت عليكم وخصصت من بينكم بالوحي والرسالة. ولله در الأبوصيري حيث قال:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

فهذه البشرية في إطار **(يوحى إليّ)** وفي إطار: **«تنام عيني ولا ينام قلبي»** وبهذا ظهر أن وصفه ﷺ بالبشرية يجب أن يقتصر بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة وهذا عام في حق جميع رسل الله تعالى لتكون نظرنا إليهم لاثقة بمقامهم إذ أن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك ومنها: قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم **(فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً)** وقول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم **(ما أنت إلا بشر مثلاً)** ونحوه قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم **(وما أنت إلا بشر مثلاً)** وقول فرعون وملئه لموسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم **(فقالوا أنؤمن لبشرين مثلاً)** وحيي بن أخطب وأضربه لم يروا الرسول ﷺ إنما رأوا محمداً ولو رأوه ﷺ بالتعظيم والإكرام والأسوة واعتقدوا أنه رسول الله لم تحرقهم النار، ألا تراه يقول: **«طوبى لمن رآني وآمن بي»** وإنما يتسلل الإثم إلى بعض الجهلة في صورة لا شعورية، فيتحدثون عن البشرية، ويعتبرون أنفسهم على التوحيد والحنيفية، وفاتهم أن هذه النظرة إنما هي النظرة التي يتبناها أهل الكتاب ليقولوا من شأن الرسول الجليل الأعظم والبحر الخضم المطلسم ﷺ وكل من يركز على بشرية الرسول من الدعاة المسلمين إنما هو بذلك يتابع أهل الكتاب في هذه النزعة، فهناك طرفان يمثلان فريقين من الناس: الأول **(قل إنما أنا**

بشر مثلكم) والآخر (يوحى إليّ) وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين انخفاضاً وسموّاً، والسبب الذي يحمل الحفاة العراة على عدم الإيمان برسول الله ﷺ عدة أشياء: أولها: بغضهم وعداوتهم لسيدنا وسيد الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات، وأمارات العداوة ظاهرة في فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم وسقطات أفعالهم وفحوى رسائلهم وتقلبات أحوالهم. وثانيها: أنه ﷺ يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من شرائعهم الباطلة ومناهجهم الزائفة وذلك شاق شديد على طباعهم المتمردة. وثالثها: أنه ﷺ متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم المشي تحت قبابه والانقياد له لأن النبوة تحتها كل مُلك ورياسة وذلك يشق على نفوسهم الخبيثة. ورابعها: أنه ﷺ قد لا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فيما يظهر فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم اتّباع من يكون بهذه الصفة. وخامسها: خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، نعوذ بالله من الحرمان ونسأله حبه وحب روح الأعيان وكنز النجاح والأمان سيدنا سيد ولد عدنان ﷺ.

قوله: «وتقيم الصلاة» وإقامة الصلاة إرشاد إلى ترك الراحة البدنية وإتباع الآلات الجسدية وهي أم العبادات التي إذا وجدت لم يتأخر عنها البواقي ولذا استغنى عن عدّها وترك السيئات فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وإنما نبّه على إقام الصلاة دون قوله "وتصلي" تأسيّاً بالقرآن الكريم (وأقيموا الصلاة) ولأن في لفظ "تقيم" فوائد جميلة ومعاني جزيلة فإن معنى إقام الصلاة: تقويمها أي تعديلها مأخوذ من أقام العود إذا قوّمه، ويحتمل أن إقام الصلاة عبارة عن مداومة عليها كما قال تعالى (والذين هم على صلاتهم دائمون) ويحتمل أن ذلك عبارة عن التجرد لأدائها وأن لا يكون فيمن أداها مراعاة ولا فتور ولا

تعاون ولا قصور لأن الله تعالى توعد المرائين الساهين عن صلاتهم فقال **(فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون)** والمراعاة في اللغة أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ووجه المفاعلة فيها أنه يرى الناس من ظاهر أمره ما يروونه موضع ثناء وهذا عام في التظاهر بالإيمان وإضمار نقيضه وهو عين النفاق مما يدل على أن السورة تتحدث عن أهل الكتاب إذ النفاق لم يظهر في مكة وإنما ظهر في المدينة! واعلم أن في إقام الصلاة من سر العبودية الموجبة لحفظ شرف الفرقة الآدمية ورعاية حقوقهم ما لا يخفى وسميت الصلاة صلاة لأن المصلي يسعى في تعديل باطنه وظاهره، وإقام الصلاة يعني إقامة أصل الدين وقاعدته، وخلع الشرك الذي يحبط العمل، وقد سَوَّلَ الشيطان لبني إسرائيل الجمع بين الشرك والصلاة تمويهاً على أهل الإسلام وسعيّاً بالتحريش بينهم كما روى الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن الشيطان قد آيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»** قال الإمام المظهري في شرح المصابيح: "المصلون" أي: المسلمون. وقال القاضي البيضاوي في تحفة الأبرار: "المصلون" المؤمنون كما في قوله **عليه السلام**: **«تهيتكم عن قتل المصلين»** وإنما سمي المؤمن لأن الصلاة أشرف الأعمال وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان. وقال العلامة علي القاري في مرقاة المفاتيح: فالأولى أن يقال المراد أن المصلين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان كما فعلته اليهود والنصارى. اهـ. وعبادتهم الشيطان باعتبار اتخاذه ولياً وشريكاً في الحكم ويرشد إلى هذا ما ورد في الصحيحين: **«ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»** فلا يجمع بين الصلاة والإشراك إلا أولياء الشيطان في جزيرة العرب! وهذا من معجزات النبوة فإنه قد ظهر كما أخبر.

أول صلاة ظهرت في الإسلام

أول صلاة ظهرت في الإسلام: صلاة الظهر وفي ذلك إشارة إلى أن دينه ﷺ سيظهر على سائر الأديان كظهور هذه الصلاة على سائر الصلوات ولا شك أن هذه الصلوات الخمس ثوابها بخمسين صلاة كما يشهد له قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وقوله ﷺ حكاية عن ربه عز وجل: «هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي» قال بعض شراح هذا الحديث: هي خمس بحسب الفعل وخمسون بحسب الثواب. قلت: وفي ذلك إغاية لأهل الكتاب وكمد لمقاصدهم وحسرة وحزازة في نفوسهم وغيظ في قلوبهم بأن هذا التخفيف جاء من طريق رسولهم موسى الكليم عليه السلام. وأفضل الصلوات صلاة الجمعة ثم عصرها ثم عصر غيرها ثم صبحها ثم صبح غيرها ثم العشاء ثم الظهر ثم المغرب وأفضل الجماعات جماعة الجمعة ثم جماعة صبحها ثم جماعة صبح غيرها ثم جماعة العشاء ثم جماعة العصر ثم جماعة الظهر ثم جماعة المغرب، وروى الطبراني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصلاة في المسجد الجامع تعدل الفريضة حجة مبرورة، والنافلة كحجة متقبلة، وفضلت الصلاة في المسجد الجامع على ما سواه من المساجد بخمسمائة صلاة» وروى الديلمي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة تسود وجه الشيطان والصدقة تكسر ظهره والتحاب في الله والتودد في العمل يقطع دابره فإذا فعلتم ذلك تباعد منكم كمطلع الشمس من مغربها» وينبغي للمصلي أن يكون خاشعاً خاضعاً حاضراً بقلبه ولبه مع ربه ليلبغ مقام الإحسان، روى ابن النجار عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده قال: «ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم» وقد عدَّ العلامة الغزالي من شروط الصلاة الخشوع وكان

ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه ولا يتمايل كما تتمايل اليهود فإن تسكين الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة».

قوله: «وتؤتي الزكاة» الزكاة تأتي في اللغة لمعان متعددة فمنها: النماء، ومنها: البركة، ومنها: كثرة الخير، ومنها: المدح، ومنها: التطهير، وفي الشرع: تمليك جزء من المال معين شرعاً من مستحق غير هاشمي ولا مولاه مع قطع المنفعة عن المملك من كل وجه لله تعالى. وإيتاء الزكاة هو الإعراض عن الفضول المالية بل عن كل موجود وهمي بالموجود الحقيقي وبذل المال الذي هو شقيق الروح لاستفتاح أبواب الفتوح... وللزكاة صبغة نورانية في المزكي تخليه عن النقائص والبخل والرزائل وتحليه بالفلاح والكمالات والفضائل... وإنما ذكر إيتاء الزكاة دون قوله "وتزكي" تأسيساً بالقرآن الكريم ﴿وآتوا الزكاة﴾ ولمناسبة ما قبله وهو إقام الصلاة وقد ورد في حق المانعين قوله سبحانه ﴿الذين هم يراؤون، ويمنعون الماعون﴾ وقوله تعالى ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ وذكر الحق تعالى عدم قبول صدقات المنافقين لأنهم ما أتوا بها خالصة لوجه الله تعالى بل أتوا بها على وجه الرياء والسمعة، والصدقة إذا لم تكن خالصة لله عارية عن شوائب الرياء فشأنها أن لا تقبل لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصالحة إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ وقد نزل في حقهم ﴿فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ نعوذ بالله من جملة المنافقين الذين ذمهم الله في جملة آيات قرآنية وبينات فرقانية ولعنهم على لسان سيد

البشر والشفيع يوم المحشر وقال في حقهم ﴿إِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جَبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وليتدبر ما في هذه الآية من التخويف والتهديد، والوعيد الشديد، وما تضمنته من الأهوال، التي تذهل الأبواب وتذك الجبال، ولما كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أوضحت لهم ما هو كائن لا محالة في عقابهم فأثروا أنفسهم وهواهم وقدموا رضاهم على رضا مولاهم لا جرم استحقوا التهكم وذلك قوله تعالى بصيغة التهكم ﴿فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولما نزلت هذه الآية كُبر ذلك على المسلمين فقالوا: ما يستطيع أحدنا يدع لولده مالا يبقى بعده فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرج عنكم فانطلقوا وانطلق عمر رضي الله عنه واتبعه ثوبان حتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَفْرُضْ عَلَيْكُمُ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيَّبَ بِهَا مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ فِي أَمْوَالِ تَبْقَى بَعْدَكُمْ» قال: فكبر عمر رضي الله عنه. وقال تعالى في حق المنافقين من أهل الكتاب ﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالِهِ شَجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبَيَّتَانِ يَطْوِقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ يَعْنِي بِشَدْقِيهِ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: "وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ" إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» وروى الهيثمي في مجمع

الزوائد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ظهرت لهم الصلاة فصلوها وخفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون» وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تُدِيَّهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلّصت وأخذت كل حلقة بمكانها» قال أبو هريرة: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه «هكذا في جيبه فلو رأيته يوسعها ولا تتوسع».

قوله: «وتصوم رمضان» والصوم من شرائع أهل الكتاب وأما بهذه الكيفية فمن خصوصيات الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية، والتشبيه في الآية (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) عائد إلى أصل إيجاب الصوم يعني أن هذه العبادة كانت مكتوبة ومفروضة على أهل الكتاب وقد أورد الإمام الطبري في الآية بعض الأقوال ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى الآية "يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم" من أهل الكتاب. اهـ. وروى الحسن الخلال بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «أيها الناس هل تدرون ما تستقبلونه؟ وهل تدرون ما يستقبلكم؟» قلنا: يا رسول الله نزل وحي أو حضر عدو أو حدث أمر؟ قال: «هذا شهر رمضان يستقبلكم وتستقبلونه، ألا وإن الله عز وجل ليس بتارك صبيحة الصوم أحداً من أهل القبلة إلا غفر له» فنأدى رجل من أقصى الناس فقال: طوبى للمنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «عليّ بالرجل»

فأُتي به فقال: «ما لي أراك ضاق ذرعك؟» فقال: يا رسول الله ذكرت أهل القبلة، والمنافقون من أهل القبلة، فقال: «ألا إن النفاق حال بينهم وبين القبلة، ألا وإن المنافقين ليس لهم ها هنا نصيب وليس هم منا ولا نحن منهم، ألا إن المنافقين هم الكاذبون» وكانوا ينسؤون الصيام من فصل إلى آخر ثم يزدون عشرين يوماً يُكفرون بها ما صنعوا... ولما كان لهذه الأمة تميزٌ عن غيرها إذ هي متعبدة بمخالفة أهل الكتاب كما حصل في تحويل القبلة، جاء التوجيه هنا في الصيام فقال ﴿أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ وسماء الفرقان بما فيه من التفرقة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبما فيه من الفصل بين المحقين والمبطلين، وبما فيه من التفرقة بين منهاج أهل الإسلام ومنهاج أهل الكتاب، وبما فيه من التمايز بين معسكر أهل الإيمان ومعسكر أهل الإشراك، فالقرآن يضع منهجاً واضحاً للأمة المسلمة في صيامها، منهجاً لا يختلط بمنهاج أهل الكتاب، منهجاً في حياة الأمة المحمدية لا يختلط بكل ما كان قبله، فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير، فلا يكون هناك اجتماع أو انتظام في نظام واحد، والتشبيه في قوله "كما كتب على الذين من قبلكم" إنما هو في حصول أصل الصيام لا في كيفيته وفضيلته فإن مما لا شك فيه أن صيام الأمة المحمدية أفضل من صيام الأمة الإسرائيلية والأمم المتقدمين فقد روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أكرمتني بالتكليم فهل أعطيت أحداً مثل ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن لي عباداً أخرجهم في آخر الزمان وأكرمهم بشهر رمضان فأكون أقرب لأحدهم منك لأنك كلمتني وبيني

وبينك سبعون ألف حجاب فإذا صامت أمة محمد ﷺ حتى ابيضت شفاههم واصفرت ألوانهم أرفع الحجب بيني وبينهم وقت إفطارهم، يا موسى طوبى لمن عطش كبده وأجاع بطنه في رمضان. اهـ. وفي الحديث: «إذا استيقظ المؤمن في شهر رمضان وتقلب من جنب إلى جنب وذكر الله تعالى يقول له الملك: قم يرحمك الله، فإذا قام يدعو له الفراش: اللهم أعطه الفرش المرفوعة في الجنة، وإذا لبس ثوبه يدعو له: اللهم أعطه حلل الجنة، وإذا لبس نعله يدعو له: اللهم ثبت قدمه على الصراط، وإذا تناول الإناء يدعو له: اللهم أعطه أكواب الجنة، وإذا توضأ يدعو له الماء: اللهم طهره من الذنوب والخطايا، وإن قام بين يدي الله تعالى يدعو له البيت: اللهم نور لحده ووسع عليه قبره، وينظر الله إليه ويقول: عبدي منك الدعاء ومنا الإجابة» ورؤي عن ابن عباس أن يهودياً سأل: لم سمي رمضان؟ فقال: لأن الذنوب ترمض فيه إرماضاً. وفي رمضان ليلة شرفها الله وكرمها وأعلى منارها بإنزال القرآن فيها حيث قال تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي أنزله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في الليلة المذكورة ثم أنزله إلى الأرض نجوماً، قال مجاهد: "في ليلة القدر" في ليلة الحكم. وبعد أن بين تعالى عظيم قدرها بكونه اختارها من بين سائر الليالي لنزول القرآن نوه بشرفها فقال ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ والاستفهام على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة والتشويق إلى خيرها وتنويه بطريق الإبهام المراد به أن إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمة ثم بيّن فضلها من وجوه ثلاثة: الأول: قوله ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قال مجاهد: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله ﷺ والمسلمون من ذلك فأنزل الله هذه الآية أي ليلة القدر لأمتك خير من ألف

شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر. وقال مالك بن أنس: أرى رسول الله ﷺ أعمار الناس فاستقصر أعمار أمته وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم. ولا يخفى أن ألف شهر تبلغ بحساب السنين نيفاً وثمانين سنة فمن أحيا هذه الليلة فكأنما عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ومن أحيا الشهر لينالها ييقن فكأنما أحيا ثلاثين قدراً. ويروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيلي الذي عبد الله أربعمئة سنة ويجاء برجل من هذه الأمة وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر، فيقول الإسرائيلي: أنت العدل وأرى ثوابه أكثر، فيقول: لأنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" ثم إنهم كانوا يعبدون فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً. الوجه الثاني: من فضائل هذه الليلة قوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ والروح هو جبريل عليه السلام وخصه بالذكر لمزيد شرفه وعلو قدره فكأنه تعالى جعل الملائكة كلهم في كفة وجبريل عليه السلام في كفة، وقوله "بإذن ربهم" يفيد تشوقهم إلينا ورغبتهم لزيارتنا وحبهم للقاءنا فيستأذنون ربهم لأجل ذلك فيأذن لهم. الوجه الثالث: قوله تعالى ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي هي ليلة سلام تسلم الملائكة فيها على المؤمنين أو أنها سلامة من الشرور والآفات فإن الملائكة تنزل فيها بأجزل الخيرات وأعظم السعادات ولا ينزلون فيها بشيء من المضرات. ومن بدائع القرآن الكريم في قضية الصيام أن الله عز وجل ذكر ما كتب على المسلمين من الصيام الذي كُتب على الذين من قبلهم من أهل الكتاب ثم قال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ فنوّه بهذا الشهر الذين أنزل فيه القرآن، ثم بيّن أنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان أي فيه هدى للناس

إلى مقام الإسلام، وبينات أي حججاً واضحة تهدي إلى تحقق الإيمان، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل وهو ما سوى الله فيتحقق مقام الإحسان، ولما أتم ما في ذكر الشهر من الترغيب إثر التعيين ذكر ما فيه من عزيمة ورخصة فقال ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ أي على هذه الطريق القويمة المستقيمة الواضحة التي تعني أولاً مجانية أهل الكتاب ومتاركتهم ومفارقتهم فإنهم يريدون بالمؤمنين العسر! والله سبحانه يريد بهم اليسر وبذلك بُعث صاحب الرسالة وإمام أهل الدلالة ﷺ كما جاء في المعجم الكبير للطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة» ولما أثبت الحق سبحانه كتاب الصيام لعباده ورفّعهم إلى خبء جزائه وأنهم إلى التكبير على عظيم ما هداهم إليه من توحيده واستخلفهم في شكر نعمته بما حولهم من عظيم فضله؛ تهيؤوا إلى رتبة الإحسان فبشرهم بمطالعة قربه فقال ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والقرب صفة لله لا يستشعرها العبد إلا إذا اتبع النبي واقتفى أثره وتأسى وتوسل به كما يدل على ذلك كاف الخطاب له ﷺ وهو معنى الدعاء المأثور: «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي» فيحصل توجه من رسول الله ﷺ فترفع المسألة وقوله "وإذا" ظرفية تفيد الحتمية أي إذا سألك فإني قريب أجيب... ونحوه قوله تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ والسين والتاء تدل على الطلب، والطلب هنا يفسر بالتوسل بالنبي ﷺ طلباً للإجابة... وهذا الربط يساعدنا على فهم أبعاد الإيحاء الذي تعطيه دلالة الآيات، فالإسلام رسالة سماوية تقف وراءه قوة تقرر ربوبية

الله المطلقة في الأرض وتدمر السلطات التي تقاوم المنهج الرباني وتحطم ربوبية العبيد! وورود ذكر ربوبية الله في الآية يدل على أنه من أعظم ما يُطلب به إجابة الدعاء كما روى البزار من حديث عائشة مرفوعاً: «إذا قال العبد: يا رب أربعاً، قال الله تبارك وتعالى: لبيك عبدي سل تعطه» قال العلامة الألوسي في تفسيره: وفي بعض الآثار أن موسى عليه السلام قال مرة: يا رب، فأجابه الله تعالى لبيك يا موسى، فعجب موسى عليه السلام من ذلك فقال: يا رب أهذا لي خاصة؟ فقال: لا ولكن لكل من يدعوني بالربوبية. اهـ. والدعاء مخ العبادة وذلك باعتبار أن الداعي يدعو الله تعالى عند انقطاع أمله عما سواه وفي ذلك حقيقة التوحيد والإخلاص كما أن في الدعاء إظهار الافتقار لسلطان العزيز الجبار وفيه التبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية واستشعار التذلل لعزة الربوبية. واعلم أيها العبد أن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنحك لطفاً بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك، وقد يكون أجابك وعيّن لذلك وقتاً هو أصلح لك وأنفع فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة وهو خير لك وأبقى، فلا تيأس من نوال الله ورفده فإنه تعالى كريم على الدوام ونعمه سحاء على مرّ الليالي والأيام، واسمه سبحانه الكريم وهو الذي لا تتخطاه الآمال ويجب أن يُسأل فيجيب السؤال وإذا سئل أعطى ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، فهذا من كمال كرمه وتمام إحسانه وإنعامه، فإذا أنزل الله بك حاجة فأنزلها بالله، واجعلها تحت مشيئة الله، وغب عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه. قال بعض العارفين: قيل لي في النوم: إنما ابتليتك بالفاقة لتفرغ منها إليّ، وتتضرع بها لديّ، وتتوكل فيها عليّ، وسمّتك

بالفاقة وحكمتُ لنفسي بالغنى، فإن وصلَّتها بي وصلَّتكَ بالغنى وإن وصلَّتها
بغيري قطعْتُ عنكَ معونتي، وحسمتُ أسبابك من أسبابي، طرداً لك عن بابي.

قوله: «**وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» الحج بفتح الحاء وكسرهما بمعنى
واحد، والفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد، قال تعالى **(ولله على الناس حج**
البيت من استطاع إليه سبيلاً) وقد حجَّه آدم ثم الأنبياء، ما من نبي إلا حجَّه،
والحج تعتريه الأحكام الخمس فيكون: فرضاً وواجباً وحراماً ومكروهاً وسنة.
وهو الركن الخامس من أركان الإسلام وقد ورد ذكره في بعض الروايات، قال
تعالى **(وأتموا الحج والعمرة لله)** والآية نزلت في السنة السادسة للهجرة وقت أن
كان المسجد الحرام تحت حكم المشركين، والحج لم يكن قد وجب يومئذ، إذ
كان الحج بيد المشركين ففي ذكره بشارة بأنه يوشك أن يصير في قبضة
المسلمين، ومثل هذا الأمر المتعلق بوصف فعل يقع في كلام العرب على
وجهين: الأول: أن يجيء الأمر بوصف الفعل مراداً به تحصيل الفعل من أول
وهلة على تلك الصفة نظير قوله تعالى **(ولأتم نعمتي عليكم)** أي أعطيتها وافرة
من أول الأمر لا إتمامها بعد أن كانت ناقصة وهذا ضرب من ضروب التعبير
ليس بكناية ولا مجاز، والإتمام عند السادة الشافعية مراد منه إيجاب الشروع إذ
لا يصح أن يؤمروا بإتمام الحج ولم يدخلوا فيه فعلم أنه أراد إنشاءه وابتدائه،
والثاني: إكمال الشيء، ويكون معنى إكمال الحج والعمرة ألا يكون حجاً
وعمرة مشويين بشرك وفتنة وهذا أنسب بالآيات التي قبلها والتي تلوَّح إلى
جوب إزالة الشرك، ومن طرق إزالته القتال المشار إليه بالآيات السابقة فكان
التهييج والتحريض من الله عز وجل لتحرير هذا البيت وتطهيره من أهل الكتاب
وهذا من معجزات القرآن، ومعلوم أن الدولة الوهابية حاولت السيطرة على

المشاعر المقدسة عبر السطو الوحشي على الحجاج إلا أنه لم تقم للحفاة العراة دولة في الحرمين إلا بعد نقض قرار الحكم الإسلامي العام بإعلان سقوط الدولة العثمانية! وحديث جبريل عليه السلام بمثابة تحديد للدين في مرحلة استخلاف بني إسرائيل في الأرض وهو على وجازته اشتمل على فوائد كثيرة وعوائد وفيرة حتى اعتبر أصلاً لعلوم الشريعة، ونحوه ما رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله من أهل نجد نائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم واليلة**» فقال: هل عليّ غيرهن؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع وصيام شهر رمضان**» فقال: هل عليّ غيره؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**» وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**» قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**» ومثله حديث وفد عبد القيس الذي ذكر فيه: «**وأن تعطوا الخمس من المغنم**» وقال في آخر الحديث: «**احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم**» وقوله "وراءكم" يشمل هذه المرحلة باعتبار الزمان تحريضاً على قتال الحفاة العراة ولذلك خص ذكر الخمس من المغنم. والروايات التي لم يرد فيها ذكر الحج تشير إلى الفترة التي سقطت فيها قبلة المسلمين تحت حكم المشركين - والله ورسوله أعلم - وعليه فإن المسلم الذي لا يملك القدرة على متاركة المشركين في مناسك الحج يمتنع وجوب الحج عليه. روى الإمام الترمذي عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن**

يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتأ المسجد وتعدّوا على الشُّرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيّده فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثّل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثّل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم» فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله».

بشارات

ذكر الشبلي والنسفي أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة جلس مع أهله فبكى ودعا وقال: اللهم من حج هذا البيت من شيوخ أمة محمد ﷺ فشفعني فيه فقال أهل بيته: آمين، ثم قال إسحاق عليه السلام: اللهم من حج هذا البيت من كهول أمة محمد ﷺ فشفعني فيه فقال أهل بيته: آمين، ثم دعا إسماعيل عليه السلام وقال: اللهم من حج هذا البيت من شباب أمة محمد ﷺ فشفعني فيه فقالوا: آمين، ثم دعت سارة فقالت: اللهم من حج هذا البيت من نساء أمة محمد ﷺ فشفعني فيه فقالوا: آمين، ثم دعت هاجر فقالت: اللهم من حج هذا البيت من الموالي والمواليات من أمة محمد ﷺ فشفعني فيه فقالوا: آمين. فلذلك أمرنا بذكرهم في التشهد.

الفصل الرابع: الإيمان

لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله» والإيمان لغة: التصديق، وشرعاً: التصديق بما علم من الدين بالضرورة وإن شئت قلت: تصديق القلب واعتقاده القاطع الجازم بكل ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه. وقد ذهب علماء الأمة في ماهية الإيمان إلى ثلاثة أقوال: الأول: قول جمهور المحققين أن الإيمان هو التصديق لا مسمى له غير ذلك واحتجوا بعدة أدلة منها حديث سعد أنه قال: يا رسول الله: مالك عن فلان فإني لأراه مؤمناً فقال: «أو مسلماً» الثاني: جمهور الفقهاء والمتكلمين أن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان بالشهادتين للإقرار بذلك الاعتقاد فيكون الإيمان منقولاً شرعاً لهذا المعنى فلا يعتد بالاعتقاد شرعاً إلا إذا انضم إليه النطق واحتجوا بإطلاق الإيمان على الإسلام والعكس في مواضع عديدة كقوله تعالى ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ الثالث: قول جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ذلك أنهم لكمال حالهم ومجيئهم في فاتحة انبثاق أنوار الدين لم يكونوا يفرضون في الإيمان أحوالاً تقصر في الامتثال ونسب ذلك إلى ابن مسعود وحذيفة ومالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والحسن وغيرهم وتمسك به أهل الحديث لأخذهم بظاهر ألفاظ الأحاديث وبذلك أثبتوا الزيادة والنقص في الإيمان بزيادة الأعمال ونقصها. وقد ورد إطلاق الإيمان على ما يعم الإسلام كما روى ابن ماجه عن سيدنا علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان» والدليل على

أن محل الإيمان "القلب" آيات كثيرة وأحاديث شهيرة فمن الآيات قوله عز شأنه ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ ومن الأحاديث النبوية قوله عليه الصلاة والسلام لسيدنا أسامة رضي الله عنه حين قتل من قال لا إله إلا الله: «هلا شققت عن قلبه؟» ومذهب أهل السنة والجماعة أن الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان فمن صدق بقلبه وأقر بلسانه فهو مسلم مؤمن موحد وينفعه إيمانه يوم القيامة وإن كان يعذب على ترك الطاعات وإهمال العبادات لكنه لا يخلد في العذاب ومآبه إلى جنة النعيم وهذا ما عليه الأئمة الأنحاب وأما المعتزلة فإنهم ضلوا عن طريق الصواب وقالوا بأن الإيمان هو التصديق والنطق وسائر الطاعات والأعمال الصالحات وترك المعاصي والمنكرات وزعموا بأن من صدق في قلبه وأذعن باللسان فليس من أهل الإيمان حتى يفعل جميع المأمورات وينتهي عن جميع المنهيات وزعموا أن من فعل كبيرة فهو كافر مخلد في النيران باق في دار الهوان وهذا زعم باطل وكلام بلا طائل، نعم لا ريب في أن كمال الإيمان إنما يكون بالاعتقاد بالجنان والنطق باللسان والعمل بالأركان وعليه يحمل كلام السلف المتقدمين فيوافق ما صرح به أكابر المتأخرين، وقد أجمع علماء هذا الدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين على أن شرط صحة العبادات وجود الإيمان ولا ريب في أن الشرط غير المشروط فإن الطهارة مثلاً شرط في صحة الصلاة ولا شك أن الطهارة غير الصلاة بل كون العبادات أمراً آخر غير الإيمان مستفاد من صريح الآيات فإنه تعالى عطف الأعمال على الإيمان فقال ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ والإيمان بالله: ما قام بالقلب من الاعتقاد الجازم بأن الله حق واجب الوجود وأنه سبحانه متصف بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها منزّه عن الآفات والنقائص وتحقيق التصديق والانقياد لأمره والدينونة له تعالى والاعتراف بربوبيته

وألوهيته. فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله» والحفاة العراة نازعوا الله تعالى في ربوبيته وألوهيته ثم ادعوا الإيمان به على وجه الاستهزاء! وهذا من أغلظ الكفر والعياذ بالله! والحق الذي نزل به القرآن أن من أطلق عليهم النبي العدنان: «قرن الشيطان» لا يؤمنون بالله الديان وسورة البقرة أوعب لأحوال أولياء الشيطان ابتداء من قول القدوس الرحمن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ قال الإمام أبو السعود أعلى الله سعوده: "ومن الناس" شروع في بيان أن بعض من حُكِيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد بل يضمون إليه فنوناً آخر من الشر والفساد وتعديداً لجناياتهم الشنيعة المستتبعة لأحوال هائلة عاجلة وآجلة. اهـ. فهم رؤوس الكفر وقادة النفاق وصناديد الشرك الذين قال تعالى فيهم ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الناس وأبغضهم إلى الله وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً وبالشرك استهزاء وخداعاً ولذلك أنزل فيهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ووصف حالهم في آيات عديدة نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وسفاههم وضرب لهم الأمثال الشنيعة! واختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ليكشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة لأن القوم كانوا يهوداً وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان لقولهم بالتشبيه والتجسيم والجهة والاتحاد والحلول! وكذلك إيمانهم باليوم الآخر لأنهم لا يعتقدونه فكان قولهم هذا خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً لأن

قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم فهو كفر لا إيمان فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي، كان خبثاً إلى خبث وكفراً إلى كفر وأيضاً فقد أوهموا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان من جانبيه واكتنفوه من قطريه وأحاطوا بأوله وآخره! وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانيين على صفة الصحة والاستحكام! وفي قوله "وما هم بمؤمنين" من التوكيد والمبالغة ما لا يخفى إذ أخرج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان! وأطلق اللفظ للدلالة على أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ولا من الإيمان بغيرهما إذ لا يدينون دين الحق كما حكى عنهم في قوله ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾ وقال سبحانه ﴿والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ وقال تعالى ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ وقال أيضاً فيهم ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وقال عز وجل ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ وقال جل شأنه ﴿وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ وقال جل وعلا ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ قال الإمام القرطبي: والمعني بهم قريظة والنضير في قول مجاهد وغيره.

«وملائكته» يحمل الإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى خلق عالماً أسماه بالملائكة وهم أرواح قائمة في أجسام لطيفة نورانية قادرة على التمثيل

بأمثلة مختلفة بإذنه تعالى لا يوصفون بأنوثة ولا ذكورة فهم عالم حقيقي الوجود غيبي عن العيان المشهود كرام بررة وسطاء سفرة أنقياء أقوياء مبعوثون من الله عز وجل إلى البشر أذن لهم في تدبير المكونات بأمره تعالى إظهاراً لسلطان ربوبيته وعظمة ملكه، والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان، وأفضل الإيمان هو الإيمان بالغيب، وما آمن مؤمن أفضل من إيمانه بالغيب، وكان أول ثناء على المتقين في القرآن المبين أنهم يصدقون بما أخبرت به الشرائع من المغيبات وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة، وأول ما يجب على الإنسان أن يعلم أن عليه ملكاً رقيباً يراقبه عتيداً حاضر العتاد لا يتركه متلقياً عنه ما يصدر منه يدوّن عليه كتابه ويجمعه ثم يسطه له يوم القيامة وينشره ليقراه... وقد قص الله تعالى نبأ الملائكة في أول سورة نزلت في تبليغ الرسالة! وانصباب الكلام فيها إلى أهل الكتاب ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ وأهل الكتاب اتخذوا الملائكة أرباباً في العبادة ونسبوههم إلى الضعف ووصفوههم بالأنوثة وهم يتعبدون بأبي الإناث! ثم اتخذوا شركاء من الجن في الحكم ونسبوا القوة إليهم كما حكى تعالى مستنكراً عليهم ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً﴾ وزعموا أن الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن كما حكى تعالى ﴿فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون، ألا إنهم من إفكهم ليقولون، ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين، ما لكم كيف تحكمون، أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لحضرون، سبحان الله عما يصفون﴾ والكلام متصل بمطلع السورة ﴿والصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات

ذكرنا، إن إلهكم لواحد، رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، إنا
زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظنا من كل شيطان مارد، لا يسمعون
إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحورا ولهم عذاب واصل، إلا من
خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا؟
وكون الملائكة تتلقف شياطين الجن بالشهب وتقذفهم من كل جانب
وتدحرهم دحراً يقتضي إبطال دعاوى المشركين الكاذبة وسقوط قوى
شياطينهم الزائفة. وقال سبحانه ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء
إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن
أكثرهم بهم مؤمنون﴾ وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في
التعريض بالمشركين على طريقة المثل «إياك أعني واسمعي يا جارة» والمعنى أنا
منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها ولكنهم عبدوا شياطين الجن فسوّلوا لهم
عبادتنا، والمقصد من المحاورة والله أعلم إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات الله!
والإشارة بهؤلاء إلى أئمة الشرك الحاضرين الذين أشركوا الملائكة والنبیین بعبادة
ربهم وزعموا أن الله هو المسيح ابن مريم وأن عزيزاً ابن الله والمسيح ابن الله وأن
الله ثالث ثلاثة وجعلوا له من عباده بنتاً ووضعوا هذا الخليط العجيب من
العقائد الباطلة التي تحار فيها العقول! والأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت
عقائدها غروراً ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل واجتمعت في
عقائدها المتناقضات، وقد أدّى هذا التناقض إلى خروج المجتمعات الغربية اليوم
من الأديان جملة إلى الإلحاد! ومراد بني إسرائيل أن يحولّوهم إلى عبادتهم على
مبدأ "كونوا عباداً لنا من دون الله" وطابعهم الأصيل هو تحريف نصوص الكتب
السماوية عن صورتها التي أنزلها الله، وتبديل كل ما يقف في طريقهم من هذه

النصوص، وحين يلبسون لباس الإسلام يلوون أعناق هذه النصوص لتوافق أهواءهم ومصالحهم ويبدلون جهداً لاهثاً في تصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول نص من الكتاب وهوى من أهوائهم، فيتلمسون الآيات التي تحذر من الشرك فيلوون ألسنتهم ويقلبونها بالتحريف والتأويل والتبديل ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات هي مراد الله! ولما ذكر سبحانه ليّ ألسنتهم بالكتاب وهو ضرب من التحريف ونسبوا إلى الرسل أنهم أمروهم بالضلالات أردف ذلك بقوله ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ والمعنى ما كان لبشر أن يؤتيه الله تعالى ذلك ويرسله للدعوة إلى اختصاصه بالعبادة وترك الشركاء ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمرهم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، وإن شئت قلت أنه لا يقع من بشر موصوف بما وصف به أن يجعل نفسه رباً فيعبد ولا هو أيضاً يأمر باتخاذ غيره من ملائكة وأنبياء أرباباً فانتفى أن يدعو لنفسه ولغيره والمقصود أنه سبحانه لا يصطفي لنبوته الكذبة ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله آيات النبوة وعلاماتها ولا يجتمع لني إتيان النبوة وقوله كونوا عباداً لي من دون الله ولكن جائز أن يكون النبي يقول لهم كونوا ربانيين والله أعلم وأحكم.

«وكتبه» يحمل الإيمان بكتب الله تعالى هو الاعتقاد الجازم بأن الله أنزل على رسله كتباً مشتملة على هدي العباد وبيان ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم بالحكم البالغة والحجج الدامغة والبراهين الساطعة اللامعة يتعهد عباده بالإسعاد والإرشاد ويحسن تربيتهم بإنزال التعاليم الإلهية والأنظمة الشرعية والتوجيهات الأدبية الخلقية ليفوزوا بالسعادات الأبدية، والقرآن الكريم مشتمل على جميع

الكتب الإلهية كما أشارت الرواية الأخرى: «وكتابه» أي القرآن الذي هو زبدة الكتب الإلهية المتقدمة ومجمع ثمرتها، وفيه إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل يرشدنا في كل أمر إلى صواب المخرج منه فمن أعرض خاب ومن تردد كاد ومن أجاب اتقى وأجاد. وقال تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه﴾ وقد دخل الإيمان بالقضاء والقدر تحت قوله سبحانه ﴿وكتبه﴾ ودخل الإيمان بالآخرة في قوله تعالى ﴿وإليك المصير﴾ وفي قراءة أخرى ﴿وكتابه﴾ واستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، والمعنى والمؤمنون آمنوا تبعاً للرسول ﷺ تصديقاً وعملاً وقولاً ولم يكن إيمان المؤمنين بالله عن عاطفة واندفاع دون علم وتعقل بل تعقلوا وتفهموا وظهر لهم الحق فلم يسعهم إلا أن يؤمنوا فآمنوا لأن الإيمان لا يكون إلا عن علم كما قال تعالى مخبراً عن قوم صالح الذين لم يؤمنوا به في خطابهم لمن آمن به ﷺ ﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ يعني هل علمتم أن صالحاً مرسل من ربه علم يقين حتى آمنتم؟ ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ أي علمنا وجزمنا فآمننا وبعد أن ذكر سبحانه صفة أهل الإيمان بقوله ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ وبين أن هذا اعتقادهم ودينهم بعد هذا ذكر سبحانه موقفهم مع أحكام الله تعالى والأوامر والمناهي فقال جل وعلا ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا لما أمرنا الله ﴿وأطعنا﴾ أي قبلنا فما جاءنا من أوامر الله ائتمرنا بها وما جاءنا من مناه انتهيينا عنها وهذا شأن المؤمن أن يستسلم لأوامر الله تعالى سواء أدرك الحكمة منها أم لم يدرك لأن الذي شرعها هو الله الحكيم العليم بالحكمة المطلقة والعلم الذي لا يتناهى قال تعالى في بيان موقف المؤمنين تجاه شرعه ﴿إنما

كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) فيجب أن يعتقد المؤمن أن أحكام الله تعالى محكمة أي مبنية على حكم عالية وقد يدرك المؤمن بعضاً منها وقد يخفى عليه الآخر إلا أن عليه التسليم والإذعان قال تعالى ﴿ويسلموا تسليمًا﴾ فالعلم الجازم القاطع - وهو ما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ - يلزم أن يتبعه الإنسان إذا كنت عاقلاً مؤمناً وأما المنافق المرتاب فتراه يذعن إلى الحق إن وافق هواه ويعرض عنه إن خالفه ويكفر به وهذا الكفر كفرٌ بالكتب المنزلة كما حكى تعالى ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ وفي قوله تعالى ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ إشارة إلى ما أخذه الله عليهم من توحيده وعدم الإشراف به تعالى وهو موافق لما في كتبهم ومصدق لها، قال الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ بإبلاغ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة يقول تعالى ذكره له: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: "يا أهل الكتاب" التوراة والإنجيل، لستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى عليه الصلاة والسلام معشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى عليه الصلاة والسلام معشر النصارى حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان فتعملوا بذلك كله وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه وتقروا بأن كل ذلك من عند الله فلا تكذبوا بشيء منه ولا تفرقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض فإن الكفر بواحد من ذلك كفر بجميعه لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً فمن كذب ببعضها فقد كذب

بجميعها، وبنحو ما قلنا في ذلك جاء الأثر: حدثنا هناد بن السري وأبو كريب قالوا: حدثنا يونس بن بكير قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء رسول الله ﷺ رافع بن حارثة - من بني قينقاع - وسلام بن مشكم - من بني النضير - ومالك بن الصيف - من بني قينقاع - ورافع بن حريملة - من بني قينقاع - فقالوا: يا محمد ألت ترعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى ولكنكم أحدثتم وحدثتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس وأنا بريء من أحداثكم» قالوا: فإننا نأخذ بما في أيدينا فإننا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولا نتبعك. فأنزل الله الآية. ومعنى قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) أي القرآن الذي جاءهم به السيد الأعظم محمد ﷺ، وهذا ما دلّت عليه الآية المتقدمة (وما أنزل إليهم من ربهم) وتأكيداً لهذا المعنى الكريم روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "وما أنزل إليهم من ربهم" يعني: ما أنزل إليهم من الفرقان. اهـ. وهذا الفرقان يجاههم بحقيقة موقفهم ويصفهم بصفتهم التي يدارونها بمظهر الإسلام! بينما هم في حقيقتهم كفار، يكفرون بالربوبية، وهذا كفر بالكتاب كله، فحقيقة الدين واحدة، من عرفها عرف ما جاءت به الرسل والرسالات وأوجب على نفسه الإسلام لله وهي حقيقة من شأنها أن تهزمهم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه.

«ورسله» يحمل الإيمان بالرسل عليهم السلام: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً يدهم على كل خير ويحذرهم من كل شر في دنياهم وآخرتهم كما ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً:

«إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم» والرسل هم البشر الذين أرسلهم الله تعالى إلى الخلق بالإسلام والدعوة إلى التوحيد وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ شرائعه، وهم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام ولم يتفرقوا في أصول الدين حسبما يحكيه قوله سبحانه ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي في الإيمان أنهم أنبياء ورسول لا في الفضل لأن الله تعالى يقول ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ والتفريق بين الرسل من عوائد أهل الكتاب إذ كفر اليهود بالمسيح وأنكروا رسالته، وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر! وهذا في معنى الآية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ والأسباط ذرية إسرائيل مأخوذ من السبط وهو شجرة كثيرة الأغصان فكأنهم سموا بذلك لكثرتهم وقد بعث منهم عدة رسل فيجوز أن يكون أراد سبحانه بالوحي إليهم الوحي إلى الأنبياء منهم، وفي تخصيص موسى وعيسى بالذكر ما لا يخفى من الدلالة على معالجتهم بني إسرائيل أشد المعالجة لتقرير توحيد الله وإفراده في الوجدانية المطلقة، وفي الآية تعريض بأهل الكتاب الذين حكى الله عنهم بقوله ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ وإيراد صيغة المضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك ثم إن أسلافهم كانوا في الكفر إلى هذا الحد فكيف هؤلاء الأخلاف الأجلاف؟ روى الإمام الطبري عن قتادة أنه قال: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل

وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ فاتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رسله.

«ولقائه» اللقاء المذكور في هذا الحديث هو لقاء الله عز وجل فقد أفرد البعث بالذكر وقال في حديث جرير بن عبد الله: «أما إنكم ستعرضون على ربكم عز وجل فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» وهو بفتح التاء وتشديد الميم يريد لا تجتمعون لرؤيته من جهته ولا يضم بعضكم إلى بعض لذلك فإنه عز وجل لا يرى في جهة كما يرى المخلوق في جهة ومعناه بضم التاء لا تضامون لرؤيته مثل معناه بفتحها لا تضامون في رؤيته بالاجتماع في جهة وهو بضم التاء وتخفيف الميم من الضيم معناه: لا تظلمون في رؤيته برؤية بعضكم دون بعض وأنكم ترونه في جهاتكم كلها وهو يتعالى عن جهة، والتشبيه برؤية القمر ليقين الرؤية دون تشبيه المرئي تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وروى الإمام البيهقي عن عبد الله بن المبارك أنه سئل عن قوله عز وجل ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فقال: من أراد النظر إلى وجه خالقه فليعمل عملاً صالحاً ولا يخبر به أحداً. اهـ. وهو معنى قوله عز وجل ﴿وَجْهَ يُومِئذٍ نَاصِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾.

«واليوم الآخر» قضية اليوم الآخر هي القضية المفصلية التي يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ويواجه بها المنافقين المخادعين بين الحين والحين ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا قد ألصقوا به تخیلات تنافي حقيقة الجزاء كقولهم ﴿لَنُتِمِّنَنَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وهذا القول في حقيقته كفرٌ في صورة السخرية والاستهزاء! وفي سورة الأحزاب لما بيّن تعالى

أنهم أينما ثقفوا أخذوا ملعونين أتبع بيان إنكارهم لليوم الآخر وسؤالهم عن الساعة على وجه السخرية ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ عن وقت قيامها إنكاراً وتعنتاً واستهزاء! ونظيره قوله تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ولما ذكر تعالى أحوال بني إسرائيل الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، ذكر تكذيبهم باليوم الآخر فقال ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكأ ثم تلقى حتفها، إذ تنتفخ؛ وأصحابها يحسبونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار، فيظهر حُبوط عملهم وخيبة أملهم وخسة قدرهم وعظيم مكر الله بهم إذ جعل إيمانهم بالله واليوم الآخر كلا إيمان وإن كتبوا مئات الرسائل والفتاوى ليخادعوا أهل الإيمان... يقولون بألسنتهم: آمنا بالله واليوم الآخر! وأفعالهم وقلوبهم تقول ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ والكلام متصل بما تقدم من ذكر وقوفهم على النار وتمنيهم الرد وعدم التكذيب بالآيات الدالة على الربوبية، ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أينا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا برهم﴾ والخطاب لأهل الكتاب وأضرابهم الذين كفروا بالآيات الدالة على الربوبية حسبما يرشد إليه السياق والسباق واللاحق من ذكر قصصهم - ويتلقفه أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة - وقال تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ والآية نزلت في اليهود والنصارى، وفائدة ذكر ﴿أوتوا الكتاب﴾ التنديد عليهم بأنهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاءت به الكتب السماوية وتشنيع حالهم وتبيين حقيقتهم وفضح أمرهم وكشف واقعهم وإنما دانوا بما حَرَّفُوا منها، وما أنكروا منها، وما ألصقوا بها،

ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام المنزل من الحكيم العلام. ولما استدل تعالى في سورة الأنبياء على الساعة بما وهب لرسله من خرق العادة، تلاه بذكر عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة وختم به الأنبياء المذكورين لأنه خاتم المجددين لهذا الدين المحمدي وهو دليل الساعة لينبه بني إسرائيل على أن الله القدرة الباهرة والقوة البالغة الشاملة للبعث فكان إثباته فذلكه هذه القصص وما تقدمها من هذه السورة ولذلك قال جل شأنه ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض والمعنى دعواهم باطلة في عدم رجوعهم وبعثهم من قبورهم يعني فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم فيكون إثباتاً للبعث بنفي ضده وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنه إثبات بطريق الملازمة فكأنه إثبات الشيء بحجة وتأكيد لقوله قبله ﴿كُلُّ إِلَهٍ لَّهُمْ قَوْمٌ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ حِينَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ والآية وإن كانت عامة فإنها في وعيد الكافرين المنكرين لليوم الآخر! والاستفهام يراد منه الحمل على الإقرار بما دخلت عليه وقد علم أنهم يقولون: نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه فيقال لهم: فالذي أوجدكم بعد أن لم تكونوا كيف يمتنع عليه إحياءكم بعد موتكم؟ وبالجملة فقد أخبر الحق عن أحوال ثلاثة متلبسين بها ﴿بَلْ أَدَارِكْهُمْ فِي الْأَخِرَةِ فِي الْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ أي تدارك علمهم في الآخرة لوصول الرسل والنذر إليهم وتحقيق الموعد به، بل هم في شك من وقوعها، بل هم منها عمون عمي قلب وبصيرة! وقد جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أحزل وأهيج وأروع وأدل على أن كلاً من هذه الأحوال المترتبة جدير بأن يعتبر فيه الاعتبار باستقلاله لا بكونه متفرعاً على ما قبله وبالجملة فإنهم كما

أخبر الحق تعالى لا يؤمنون باليوم الآخر وإن كانوا يحلفون ويقولون آمنا بالله وبرسوله وباليوم الآخر! فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن سلمة بن سلامة قال: «كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته وذلك قبل مبعث النبي ﷺ بيسير حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنأ عليّ بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار قال: ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت فقالوا: ويحك وتكون دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم والذي أحلف به ولودّ أن حظّه من تلك النار أعظم من التنور في هذه الدار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبّقون عليه ثم ينجو من تلك النار غداً قالوا: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن قالوا: فمتى نراه؟ فرمى بطرفه فرآني مضطجعاً بفناء باب أهلي وأنا أحدث القوم سنأ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله عز وجل نبيه وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً فقلنا له: ويلك يا فلان أأنت الذي قلت لنا ما قلت: قال: بلى ولكن ليس به وكان يقال له يوشع».

«وتؤمن بالبعث» وفي رواية: «وتؤمن بالبعث الآخر» لما ذكر الله تعالى في سورة الجاثية إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وحذّر من اتّباع أهوائهم وأخبر عنهم بأنهم اتخذوا إلههم هواهم، أعقب ذلك ببيان أنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء فقال ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ ولما حكى سبحانه في سورة السجدة إنكارهم البعث أعقب بقوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مريّة من

لقائه﴾ قال صاحب الهداية: أي من لقاء البعث والرجوع إلى الحياة بعد الموت فهو خطاب للنبي ﷺ والمراد به من ينكر البعث. اهـ. ويؤيده السياق المكتنف بالسباق واللاحق ابتداء من قوله ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾ إلى آخر السورة ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ وفي سورة بني إسرائيل حكى تعالى في موضعين قولهم في تعجب وإنكار واستبعاد ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ والجملة الأولى معطوفة على جملة ﴿وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾ والمناجاة المسارة بالكلام قال الراغب: وأصله أن يخلو في نجوة من الأرض. والموضع الآخر ورد في سياق ما اقترحوا من الآيات على سبيل العناد ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا، ذلك جزاؤهم بأثم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ وقد أشار ﷺ إليهم في حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» وحكى تعالى قولهم في ذلك اليوم على سبيل التوبيخ والتوقيف ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ وخاطبهم ابتداء في سورة الحج من قوله تعالى ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ إلى قوله ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ وحكى عز وجل شدة توغلهم في النفاق وأثم سيحلفون يوم القيامة كذبا كما يحلفون لأوليائه في الدنيا ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم

الكاذبون) وحكى تعالى زعمهم الكاذب ووجه المؤمن إلى تأكيد أمر البعث بأوثق تأكيد (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) كما حكى تعالى قول أوليائهم من الجن (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً) وجعل سبحانه في أول سورة نزلت بعد فتور الوحي الإنذار آية اختبار فيما يتعلق بعدة أصحاب النار ليكون ذلك مدخلاً لاستيقان أهل التوراة والإنجيل إن كانوا أهلاً لتقبل الحق واليقين وليكون فتنة لهم إن كانوا منافقين كافرين (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر) ولما حصر أمرها في الذكرى تأكيداً للكلام إشارة إلى ما لأهل الكتاب من الشكاسة والعوج إيقاظاً مما هم فيه من التكذيب بالنقر في الناقور والنفخ في الصور قال رادعاً لهم ولمن مشى ممشاهم (كلا والقمر، والليل إذ أدبر، والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر) أي القيامة لإحدى العظائم! قاله الإمام السمعاني في تفسيره. ثم بين تعالى إقرارهم على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم (وكننا نكذب بيوم الدين) ولما نهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، قال مهذباً به أهل الكتاب مقررأ لما ابتدأ به السورة من أمر الإحياء (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) وقال سبحانه (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) وقال جل شأنه (وأما إن كان من المكذبين

الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، إن هذا هو حق اليقين) وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رجلاً قال: يارسول الله فما اليقين؟ قال: «التصديق بالقيامة» ونحوه قوله سبحانه (أهلأكم التكأثر، حتى زرتم المقابر، كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين) والحق الذي نزل به القرآن أن من أطلق عليهم النبي العدنان: «قرن الشيطان» لا يؤمنون بالبعث والقيامة وموضع الآية الكريمة (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) بين مفتتح السورة وبين قوله (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) موضع تأمل لا يخفى على عالم بطريق النظم! وقد ورد الإيمان بالبعث الآخر في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» وفي هذا إيماء إلى البعث الأول المتعلق بزوال ملك الحفاة العراة، قال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) أي يقول الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان به: لقد لبثتم فيما كتب الله لكم من الآجال في الدنيا إلى زوال ملككم وانقضاء آجالكم وهذا معنى قوله (إلى يوم البعث) أي يوم الوعد وهو وعد في الدنيا بالنصر - والله أعلم - ثم وعدٌ وبعث يوم القيامة أشار إليه قوله بعده (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) وسمي يوم الوعد في الدنيا بيوم البعث لأن الله يبعث عبداً له ليتبروا دولة الباطل ويسيروا دولة الحق... فتأويل الآية: أن الذين أوتوا العلم والإيمان يندرون أهل الباطل بنزول العذاب عليهم في الدنيا فإذا جاء أجلهم

وزالت دولتهم قالوا: لقد لبثتم ما كتبه الله لكم من الأجل المضروب لكم في الدنيا، ثم يقولون لهم في الآخرة حين يكشف الله عنهم غطاءهم: فهذا يوم البعث - يعني البعث الآخر - ولكنكم كنتم لا تعلمون، ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله جل شأنه وعز سلطانه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَتَّبَعْنَا عَلَيْهِم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ - أَي فِي الدُّنْيَا - وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ والاستدراك في ﴿وَلَكِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ استدراك على ما تضمنته جملة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تتصدوا للعلم وتؤمنوا ولكنكم كنتم لا تعلمون، أي: لا تتصدون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن كلام الله، وفي التعبير بنفي العلم وقصد نفي الاهتمام به والعناية بتلقيه إشارة إلى أن التصدي للتعلم وسيلة لحصوله، وقد ختمت السورة بالتبنيث بهذا الوعد الصادق الذي لا يخون حاملاً معه الصبر على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يَوقِنُونَ﴾ والله در القائل:

اصبر ففي الصبر خير لو علمت به ... لنلت فضلاً ولم تجزع من الألم
واعلم بأنك إن لم تصطبر كرمًا ... صبرت رغماً على ما خط بالقلم
والصابرون مبشرون بالمعية موعودون بها ثم إن الدنيا المؤقتة الكاذبة لا الغلبة فيها
غلبة ولا المغلوبة مغلوبة وإنما كلاهما يظهر في الآخرة الباقية بين يدي من يعلم
السر والعلانية، ومن انتصار الله تعالى لأهل الحق أن التأيد معهم في فقرهم
وانكسارهم وعجزهم، وأهل الباطل الخزي معهم في غناهم وشوكتهم
وقدرتهم، وفقه ذلك أن كل القلوب نيرها ومظلماً منفك عن استحسان باطل

أهل الباطل مرتبط باستحسان حق أهل الحق وإن انفكت القوالب أو ارتبطت بكلا الطائفتين، وكل من أبطن كلمات أهل الحق قياماً مع زفرة نفسه، واتباعاً لثورة غرضه وحظه، واستخف بوعده النبي لأهل الحق، وكذب علمهم برهم عنه تعالى فهو في باطن الحقيقة كافر.

«وتؤمن بالقدر خيره وشره» وفي رواية أخرى: «وتؤمن بالقدر كله» وهو الإيمان بأن الله سبحانه قدر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه؛ كما نص عليه القرآن والسنة، قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم ذوقوا مس سقرٍ، إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهم الحفاة العراة المتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالنقمة، القائلون بأن الأمر أنف وأن أفعال العبد من قبله، قال ابن عباس: إني أجد في كتاب الله قوماً يسحبون في النار على وجوههم لأنهم كانوا يكذبون بالقدر ويقولون: المرء يخلق أفعاله وإني لا أراهم فلا أدري شيء مضى قبلنا أم شيء بقي؟ وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى

جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: **يا محمد أخبرني عن الإسلام...** الحديث. وهذه لفظة هامة لا بد من الوقوف عندها لفهم واقع الحفاة العراة الذين حكى تعالى عنهم بقوله **(وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)** والآية نزلت على ما روي عن الحسن وابن زيد في اليهود وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي ﷺ المدينة فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل. فالمعنى إن تصبهم نعمة أو رخاء نسبوها إلى الله تعالى وإن تصبهم بلية من جذب وغلاء أضافوها إليك متشائمين كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى **(وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)** وقال عز وجل **(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن)** أي أنه يظن أنه من الله تعالى بمنزلة وأنه مستوجب للإنعام وأنه إذا بلي بضيق العيش وأصابته شدة أصابه ذلك من عند محمد عليه الصلاة والسلام فيتشاءمون به... وقد حكى تعالى عنهم في هذه الآية خصلة قبيحة دالة على كفرهم بالقدر، وروى ابن حبان في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمسلط بالجبروت ليدل بذلك من أعز الله وليعز به من أذل الله، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك لسنتي»** ولا يخفى على ذي لب أن هذه الخصال في هؤلاء الأخابث. وروى الطبراني عن محمد بن كعب القرظي قال: ذكر القدر عند عبد الله بن عمر فقال عبد الله: **«لعنت القدرية على لسان**

سبعين نبياً منهم نبينا محمد ﷺ وإذا كان يوم القيامة وجمع الله الناس في صعيد واحد نادى مناد يسمع الأولين والآخرين، أين خصماء الله؟ فيقوم القدرية» وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» وفي رواية لابن أبي عاصم: «يكون مكذبون بالقدر ألا إنهم مجوس هذه الأمة وما هلكت أمة بعد نبيا إلا بشرکها ولا يكون بدء شرکها بعد إيمانها إلا التكذيب بالقدر» وروى الطبراني عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس ولكل أمة نصارى ولكل أمة يهود، وإن مجوس أمي القدرية ونصاراهم الخشبية ويهودهم المرجئة» وروى الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية» ونسبتهم إلى أمتهم باعتبار أنهم كانوا آمنوا به في زعمهم الباطل، والمرجئة يقولون: الإيمان قول بلا عمل وأنه لا يضر مع الإيمان معصية ولذلك قالوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ووجه النظم أنه تعالى لما ذكر تولى وإعراض الذين أوتوا الكتاب قال في هذه الآية: ذلك إنما حصل بسبب اجترائهم على الله واستهانتهم بالعذاب.

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أن الذين يشهدون مشاعر الحج فريقان: منافق وهو الذي يقول: "ربنا آتنا في الدنيا" ومسلم وهو الذي يقول: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة" ذكر المنافق هاهنا وشرح صفاته وأفعاله... والمعنى: ومن الناس المجهولين على البغض والنفاق المستمرين عليه دائماً بلا تصفية ووفاق من

يعجبك قوله بجلاوته وفصاحته ويوقعك في التعجب المحير العارض لنفسك بلا علمك بموجبه وسببه في الحياة الدنيا لا في الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه، ومع إغرائه وتغريه إياك بقوله يشهد الله على ما في قلبه ويدعي الإيمان كما جاء في الرسالة الأولى لابن عبد الوهاب حيث قال: **أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أي اعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة: من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره... إلخ.** روى الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس»** ثم بين تعالى أنه هو في نفسه ألد الخصام وأشد العداوة والجدال مع المؤمنين وإذا تولى أي أعرض بقلبه أو قاله عمن خدعه بكلامه أسرع في إيقاع الفتنة بغاية الجهد وإفساد ذات البين وإهلاك الزرع والنسل! وحكى بعضهم أن الحرث: النساء، والنسل: الأولاد، وذكروا في معنى إهلاكه للحرث والنسل أنه إهلاك ذلك بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك. وإذا قيل لذلك المفسد إحماضاً للنصح اتق الله عن أمثال هذه الفظائع واستح منه سبحانه هيجته وحركته العزة والحمية الجاهلية المرتكزة في نفسه لما فيها من الكبرياء بالإثم الذي نُهي عنه عناداً وبالجمل فحسبه وحسب أمثاله النيران وأنواع الخذلان والحرمان وأصناف الخيبة والخسران. قال الإمام القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وفي هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا واستبراء أحوال الشهود والقضاة وأن الحاكم لا يعمل على ظاهر أحوال الناس وما يبدو من إيمانهم وصلاتهم حتى يبحث عن باطنهم لأن الله تعالى بين أحوال الناس وأن منهم من يظهر قولاً جميلاً وهو ينوي قبيحاً، فإن قيل: هذا يعارضه قوله **عليه السلام**:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» الحديث، وقوله: «فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه» فالجواب أن هذا كان في صدر الإسلام حيث كان إسلامهم سلامتهم وأما وقد عم الفساد فلا، قاله ابن العربي. قلت: والصحيح أن الظاهر يعمل عليه حتى يتبين خلافه لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صحيح البخاري: «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمناً وقريناه وليس إلينا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال: إن سريره حسنة». اهـ.

وقد أخبر تعالى أن المنافقين تطبعوا على الكذب **(يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم)** وأمر ﷺ بقتال من كفر بعد إسلامه كما في الحديث عند الطبراني في الأوسط: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» قيل: وما حقها؟ قال: «زنى بعد إحصان أو كفر بعد إسلام أو قتل نفس فيقتل به» قال الإمام البغوي في تفسير الآية الكريمة: أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. وفي الحديث عند الإمام مسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به» أي يقرؤا بألسنتهم ويدعنوا بقلوبهم أن لا إله إلا الله ويصدقوا برسالي وبما جئت به من القرآن... وكلمة الكفر هي جنس لكل كلام فيه تكذيب أو استهزاء بالله ورسوله، وقد أضاف سبحانه الإسلام إلى ضميرهم دون تعريف الإسلام باللام المفيدة للحقيقة أي بعد إسلام هو من شأنهم وهذا تعريض بأنه الإسلام الصوري غير الحق ونظيره قوله تعالى **(لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)** والمقصود كون باطنهم على خلاف ظاهرهم والله أعلم. قال

صاحب المرقاة: والتحقيق أن يقال: الشهادة إشارة إلى تخلية لوح القلب عن الشرك الجلي والخفي وسائر النقوش الفاسدة الردية، ثم تحليله بالمعارف اليقينية والحكم الإلهية والاعتقادات الحقية وأحوال المعاد وما يتعلق بالأمور الغيبية والأحوال الأخروية لأن من أثبت الله بجميع أسمائه وصفاته التي دل عليها اسم الله ونفى غيره وصدق رسالة النبي بنعت الصدق والأمانة فقد وفى بعهده عهد، وبذل غاية جهده في بداية جهده، وآمن بجميع ما وجب من الكتب والرسل والمعاد ولذا لم يتعرض لأعداد سائر الأعداد.

الفصل الخامس: الإحسان

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وحاصله راجع إلى رعاية حقوق الله تعالى ومراقبته واستحضار عظيمته وجلاله، وهو على مرتبتين: إحداهما: أن يعبد الله أي يوحده ويحفظ حدوده ويفي بعهوده وقد استغرق في بحار المكاشفة حتى كأنه يرى الله تعالى لحصول الاستلذاذ بالطاعة والراحة بالعبادة وانسداد مسالك الالتفات إلى الغير باستيلاء أنوار الكشف عليه وهو ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب واشتغال السرّ به ونتيجته نسيان الأحوال من المعلوم واضمحلال الرسوم وقد بينه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» والثانية: من لا ينتهي إلى تلك الحالة لكن يغلب عليه أن الله تعالى يشاهده وهذا هو مقام المراقبة في الإجلال وحصول الحياء من العلم باطلاع ذي الجلال وقد بينه بقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي أن غفلت عن تلك المشاهدة المحصلة لغاية الكمال فلا تغفل عما يجعل لك أصل الكمال فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله، بل استمر على إحسان العبادة مهما أمكن فإنه يراك فاستحضر ذلك لتستحيي منه حتى لا تغفل عن مراقبته ولا تقصر في إحسان طاعته. قال شيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام قطب الأولياء الكرام ونادرة الزهاد الوافر في روعة السهام المجتهد في الصيام والقيام والقائم بخدمة الملك العلام محيي الدين النووي رحمته الله ورضي عنا به: معناه أنك إنما تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك لكونه يراك لا لكونك تراه فهو دائماً يراك فأحسن عبادته وإن لم تره، فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك، قال: وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين

وكنز العارفين ودأب الصالحين وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه في سره وعلايته. انتهى. وثمرة هذه الحالة خشية الله وقد عبر في رواية الإمام مسلم بقوله: «أن تخشى الله كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك» قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذلك جزاء أهل مقام الإحسان، الذين يعبدونه على العيان. وفي مسند الشاميين للطبراني: قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعمل لله كأنك تراه فإن تك لا تراه فإنه يراك» قال: فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت؟ قال: «نعم» وذلك مما أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً يتضمن الإحسان، والإسلام والإيمان مقدمتا الإحسان، فالإيمان تصديق ولا يكون إلا عن مشاهدة الخبر وذلك من معنى الإحسان، كما أن الإسلام انقياد ولا يكون الانقياد إلا لمن انقاد طوعاً وليس ذلك إلا لمن أحسّ بأن الحق آخذ بناصيته وهو من جملة الإحسان، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي أمرهم أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بالإحسان وتحقيق التوحيد، ونظيره قوله تعالى ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي تماماً للنعمة على الذي اتصف بالإحسان وحقق الوحدةانية. ولما نادى تعالى على اليهود والنصارى بالكذب ونفى أن يكون لهم برهان، أردف ذلك بقوله ﴿بَلَىٰ مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال صاحب لطائف

الإشارات: أسلم وجهه أي أخلص لله قصده وأفرد لله وجهه وطهر عن الشوائب عقله "وهو محسن" عالم بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله وهو محسن في المال كما أنه مسلم في الحال ويقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك مشاهداً بسرائرك في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود، ويقال "أسلم وجهه" بالتزام الطاعات "وهو محسن" قائم بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر ولا يلحقهم خفي المكر فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية. اهـ. وفي معنى الإحسان روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وإذا كان الإسلام علانية والإيمان في القلب فإن الإحسان موافقة العلانية للقلب بأن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور، فالإحسان يتضمن المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم والمجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق فيه النور وانقشع عن وجهه حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية وانكشف له سر الملكوت وانشرح الصدر فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار المهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه تعالى من الرحمة، قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي العلماء بالله، قال خاتمة الفقهاء والمحدثين الإمام ابن حجر الهيتمي: والعلم بالله وبصفاته أفضل من العلم بكل معلوم من جهة أن

متعلقه أفضل وأشرف المعلومات وأكملها وثمراته أفضل الثمرات وأجلها إذ معرفة كل صفة من الصفات توجب حالاً عليه وعنهما تنشأ ملابسة كل خلق سني والتجرد عن كل خلق ديني فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء ومن عرف شدة النعمة أثمرت معرفته شدة الخوف وأثمر خوفه الكف عن كل معصية مع البكاء والخوف والورع وحسن الانقياد والإذعان ومن شهد أن جميع النعم منه تعالى أحبه وأثمرت المحبة أثارها المحمودة المعروفة وكذلك من شهد تفردَه بالنفع والضر لم يعتمد إلا عليه ولم يفوض أمره إلا إليه ومن شهد تفردَه بالعظمة والجلال هابه وعامله بعظيم الانقياد والتذلل وغيرهما فهذه بعض آثار شهود الصفات. اهـ. وعلى حسب مقدار العلم تقوى الخشية، وفي الحديث المتفق عليه: «فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية» وفي شعب الإيمان للبيهقي: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ورؤي عن موسى أنه قال: يا رب أي عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمهم بي. والهداية: الدلالة على طريق توحيد الربوبية الموصل إلى المطلوب، كقوله (ذلك لمن خشي ربه) وهذا يدل على علو مقام الخشية من الله تعالى وعلى عظيم كرامة أهل الخشية منه جلّت عظمتها وعلت قدرته فإن التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية للإشعار بعلّة الخشية، وفيه إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلاً إلى أقصى المراتب ورضوان من الله أكبر بل الموصل له خشية الله تعالى ولذا قال الجنيد قدس سره الغالي: الرضا على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة. وقال مولاي وسيدي وقرّة عيني الإمام الرواس قدس الله أسرارَه ورضي عنه وأرضاه: العالم التقى هو الذي يرجى له سانه الإحسان بتحقيقه في درجة الخشية، والشاهد (واتقوا الله

ويعلمكم الله) فحال التقوى يوصله إلى فهم حكمة العلم بمحض الفضل وهنالك يخشى الله... وكذلك قال تعالى لحبيبه عليه الصلاة والسلام (فذكر إن نفعت الذكرى، سيدكر من يخشى، ويتجنبها الأشقى) على أن الذكرى طارق من طوارق الحق يفرغ له القلب الوجل الخائف من الله الذي أخذته خشية الله عن غلظته فأنزلته منازل المتقين المقربين وإلا فأهل الشقاوة مجانبون لهذه المرتبة متجنبون عنها والعارفون كلما نهضت بهم العناية فرفعتهم في منازل المعرفة وازدادوا قرباً ازدادوا تدبراً وتفكيراً بأسرار الله وآثاره. اهـ. وفي صحيح مسلم: قال - جبريل - يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: «أن تخشى الله كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك» فترحل أيها اللبيب من الدليل والبرهان إلى رتبة أهل السلوك والعرفان وهي للسابقين المقربين، وأما أصحاب اليمين فإنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة ولا حقيقة، وقفوا مع الدليل والبرهان ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعيان. وفي معجم الطبراني: «اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك» والخشية من الله تكون على حسب علم المؤمن بالله تعالى وصفاته وكمالاته وجلاله وعظيم سلطانه وعزة مقام ربوبيته، وقد فرّع على قوله (وأهديك إلى ربك فتخشى) إرشاده إلى العلامة والحجة الكبرى التي أنكرها فرعون ولم يتمهل حتى ينظر في دلالتها بل بادر إلى التكذيب والعصيان، وليس هذا فحسب بل ادّعى الربوبية لنفسه (فقال أنا ربكم الأعلى) وصيغة الحصر في (أنا ربكم) لردّ دعوة موسى، لأن فرعون بذل حرصه ليقنع رعيته بأنه صاحب السلطة العليا خشية شيوع دعوة موسى إلى ربوبية رب العالمين، فأراد الحيلة لدفعها والاجتهاد في أمره الناس بعدم الإصغاء لها، وجمع السحرة لمعارضتها وإرهاب الناس وتحذيرهم منها، وفي القصة تعريض بني إسرائيل

بتنظيرهم بفرعون وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر. وفي سورة يونس لما حذر تعالى من أنواع الآفات وبيّن أن الدنيا دار المصائب ومعدن الهلكات، ذكر أن الدار التي دعا إليها دار الظفر بأجلّ الطلبات فقال ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ والصراط المستقيم كما ذكر الإمام القشيري طريق المسلمين فهذا للعوام بشرط علم اليقين ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ثم طريق المحسنين الذين يعبدون الله ويشاهدونه بلوائح المعرفة وطوالع المحبة وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين، فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وروى مسلم والترمذي والنسائي عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» ثم تلا هذه الآية ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وروى الحكيم الترمذي عن بريدة الأسلمي عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقرأ أعينهم قط كما تقرأ بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد» وروى السّجزي في الإبانة عن أنس مرفوعاً: «كأن الناس لم يسمعوا القرآن حين يتلوه الله تعالى عليهم في الجنة» ولما ذكر تعالى في سورة آل عمران فريق

الرضوان وفريق السخط وأنهم درجات عند الله وفصل أحوال أهل السخط الذين خلصوا في النفاق بما نص عليه تعالى، ذكر ما امتن به على المؤمنين من بعث الرسول إليهم تالياً لآيات الله ومبيناً لهم طريق الهدى ومزكياً لهم (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) أي يقرأ عليهم الآيات التي تبين سيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية حسبما يرشد إليه السياق والسباق وتقلباتهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل حتى يصبح! والمراد بالمؤمنين: أبناء بني إسماعيل من العترة والأنصار والعرب كما جاء في الحديث عند البيهقي: «من لم يعرف حق عترتي والأنصار والعرب فهو لإحدى ثلاث: إما منافق، وإما لِرَنية، وإما امرؤ حملت به أمه في غير طهر» فذكر الحق تعالى ما من به على الأمة الإسماعيلية من تعليمهم فهم معاني القرآن والسنة وتزكيتهم، والتزكية: نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم وتحليتها بالفضائل والحسنات وتطهيرها من النقائص والسيئات والمعنى أنه يطهر قلوبهم من الأهواء المضلة المنافية لدين الإسلام فترتقي بصفائها ولطفها إلى المشاهدة وبذلك يتحقق مقام الإحسان، وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجنيد: هي وجود الحق مع فقدانك. وقال عمرو بن عثمان المكي: المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع كما لو قدر اتصال البروق في الليلة الظلماء فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار فكذلك القلب إذا دام له التجلي مع النهار فلا ليل.

الباب الثاني

بنو إسرائيل أهل الخوارج

التأمل لتاريخ بني إسرائيل يأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم ومن الجحود المنكر الذي قابلوا فيه هذا الفيض المدرار! كما يتعجب من تصنع كهنتهم رجال الدين الذين اتخذوا الدين حرفة وصناعة! يدعون إلى الخير ويهملونه! يتكلمون بالعلم ويعملون بالكفر! يتظاهرون بالدعوة إلى توحيد العبادة في جانب علاقتهم مع أمة الإسلام، وفي الجانب الآخر مع أمم الكفر قرّروا شرك العبادة وهو الأساس الذي قام عليه شرك الحكم! يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً! انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين، وإلى آيات نزلت في المؤمنين فحملوها على أنفسهم وزعموا أن من تولاهم فقد تولى المؤمنين وأن من عاداهم فقد عادى الله ورسوله والذين آمنوا، وهم أعداء الله وأعداء جميع رسله، بل وأعداء البشرية جمعاء، وإن من جليل حكمة سيد الأنام، التي أفرغها بلسان النصح العام، قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما أخاف على هذه الأمة كل منافق يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور**» رواه البيهقي. وفي رواية له عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: «إياكم والمنافق العالم» قالوا: وكيف يكون المنافق عالماً؟ قال: «يتكلم بالحق ويعمل بالمنكر» وروى الإمام مسلم بإسناده عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم**» وقوله: "دجالون" من الدجل وهو التلبس جمع الدجال وهو كثير المكر والتلبس أي خداعون يعني سيكون جماعة يقولون للناس: نحن علماء ومشايخ ندعوكم إلى الدين وهم كذابون في ذلك يتحدثون

بالأحاديث المزخرفة المضلة ويبتدعون أحكاماً باطلة واعتقادات فاسدة وتلبسات منافية للتوحيد! وها هم قد أفسدوا اعتقاد الناس وابتدعوا للتوحيد تثليثاً لم يرد في كتاب ولا سنة ولا قال به الصحابة والتابعون والأئمة وأحدثوا في دين الله ما أحدثوا باسم الإمام أحمد بن حنبل وهو مبرأ منهم! انتحلوا الشر بخذافيره ومروقوا من الإسلام بزوبره كما يمرق السهم من الرمية كما ورد في الحديث عند الإمام مسلم: «يُخرج في هذه الأمة - ولم يقل: منها - قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم فيقرؤون القرآن لا يجاوز حلقهم - أو حناجرهم - يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فينظر الرامي إلى سهمه إلى نصله إلى رصافه فيتمارى في الفُوقة هل علق بها من الدم شيء» وقوله: "ولم يقل منها" من أدل الدلائل على دقيق نظر الصحابة رضوان الله عليهم وتحريرهم الألفاظ وسعة علمهم في اللغة والوقوف على معانيها الغامضة إذ لفظة "في" تقتضي أنهم ليسوا من الأمة المسلمة، ونظير هذا من كلامه ﷺ: «وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين» أما رواية البيهقي: «يُخرج من أمي» فتشير إلى من تبعهم من أمته ﷺ وهؤلاء بغاة وليسوا بكفار، وقد سئل عنهم سيدنا علي رضي الله عنه: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. وهنا يبرز الفرق بينهم وبين أهل التزكية فإن الآخذ للكتاب والسنة مجردين عن التزكية وأخلاق النبوة يُضرب له مضرب المثل في هؤلاء الخوارج ولما كان لهم كثرة صلاة وعبادات مَيَّز تعالى أهل التزكية عنهم فقال (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) فقدم جانب الإحسان المتمثل بالتزكية تنبيهاً عليه. وأما رواية الإمام مسلم فإنها تشير إلى بني إسرائيل الذين

قادوا حملات الخوارج ونصبوا أنفسهم أوصياء على الأمة وأصقوا بالمسلمين صفات المشركين القُدَامَى ففتنوا المؤمنين وقتلوا بسيف الشرك والبدعة الصالحين وكذبوا الصادقين، وهم أكذب الناس على الإطلاق وأعظمهم غلوّاً وكفراً وشركاً، وقد حكى الحق سبحانه عنهم أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق أي لم يكن حقّاً باعتقادهم وإنما حملهم عليه الغلو في العصيان والاعتداء ويقتلون الذين يأمرهم بالقسط من الناس وأما أتباعهم الذين انخدعوا بعقائدهم الزائغة فإنهم يقتلون الصالحين بحق باعتقادهم الزائغ! روى الهيثمي في مجمع الزوائد والطبراني في الكبير عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) قال: «هم الخوارج». وقد قرّن بنو إسرائيل بالشيطان - كما جاء في الآثار الصحاح المتواترة - وطلعوا بأرض نجد ومُسخوا ضباباً على نحو ما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله إنا بأرض مضبة فما تأمرنا؟ أو فما نُفتينا؟ قال: «ذكر لي أن أمة من بني إسرائيل مسخت» والنبي ﷺ ماثلهم بالمستخلفين الغابرين عاد وثمود كما ذكره أبو سعيد الخدري رحمه الله مما رواه الشيخان قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذهبة في تربتها إلى رسول الله ﷺ فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس الحنظلي وعيينة بن بدر الفزاري وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب وزيد الخير الطائي ثم أحد بني نبهان، قال: فغضبت قريش فقالوا: أتعطي صنديد نجد وتدعنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني إنما فعلت ذلك لأتألفهم» فجاء رجل كثر اللحية مشرف الوجنتين غائر العينين ناتئ الجبين مخلوق الرأس فقال: اتق الله يا محمد، قال:

فقال رسول الله ﷺ: «فمن يطع الله إن عصيته أيامني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟» قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله - يرون أنه خالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ: «إن من ضئضى هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لمن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» ومعنى قوله "من ضئضى هذا" أي من مثاله وعلى ذات طينته. وروى النسائي عن شريك بن شهاب قال: كنت أتمنى أن ألقى رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أسأله عن الخوارج فلقيت أبا برزة في يوم عيد في نفر من أصحابه فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ بأذني ورأيت به عيني أتى رسول الله ﷺ بمال فقسمه فأعطى من عن يمينه ومن عن شماله ولم يعط من ورائه شيئاً فقام رجل من ورائه فقال: يا محمد، ما عدلت في القسمة رجل أسود مظموم الشعر عليه ثوبان أبيضان، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً وقال: «والله لا تجدون بعدي رجلاً هو أعدل مني» ثم قال: «يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق، لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال فإذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخلقة» وشر الخلق والخلقة هم الذين لُعِنوا على لسان الأنبياء والمرسلين وفي التوراة والإنجيل والقرآن المبين، وكون آخرهم يخرج مع الدجال ظاهر لا خفاء فيه، وقوله "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان" هذا ظاهر في اختصاص ذلك بهم فقد ذكر عبد الله بن داود الزبيري الحنبلي في الصواعق والرمود أن محمد بن عبد الوهاب مفتون بحب قتل المسلمين بل ما سمعنا أحداً من المبتدعة أحب منه

لقتل مسلم وسبب ذلك أن جميع أهل القبلة عنده كفار إلا من وافقه في كل ما يقول وترك المنقول والمعقول... وأتاه النصراني بلا عهد وأكرمه وكذا من قدم عليه من الرافضة وهم كثير لا يحصون، فذكرت له ما يفعل الروافض عند مشهد الإمام علي كرم الله وجهه من الشرك الذي منه أني سمعت رافضياً يقول: يا علي أنت الله، يا علي أنت المعبود، يا علي أنت الموجود، إلى غير ذلك فقال: دعهم أنتم شرُّهم مع أن بلدنا لا يوجد فيها شيء من جميع الأمور التي هو ينكر إلا أنه يتهمنا بالبغضاء لما ابتدعه باطلاً فانظر قوله: دعهم، فإن هذا دأبه يمدح أهل الأوثان ويترك معائبهم ويذم أهل الإيمان ويسيء إليهم. انتهى. وفي الحديث المتفق عليه: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود» والمراد استئصالهم بالكلية كاستئصال عاد وثمود والله أعلم، وقد منع ﷺ قتل أتباعهم من أمته حتى يمتنعوا بالسلاح ويستعرضوا للناس فلما نجم ذلك في زمان علي رضي الله عنه قاتلهم حتى قتل كثيراً منهم وكانوا امتداداً لتلك الطباع والعوائد والعقائد التي بذرتها الأمة المسوخة فاستحكم غرسها وتمهّد أسسها... والرجل المذكور في الحديث هو ابن ذي الخويصرة حرقوص بن زهير أصل الخوارج وأصله من نجد التي مسخت فيها أمة من بني إسرائيل ضباباً، ومدار الحديث على هذا الرجل القائل: اتق الله يا محمد! وقد ذكر شيخ الإسلام ابن حجر في الفتح: أن علياً رضي الله عنه أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج فالتمسوه فلم يجدوه حتى جاء رجل فبشره فقال: وجدناه تحت فتيلين في ساقية، فقال: والله ما كذبت ولا كذبت، وفي رواية أفلح فقال علي: أيكم يعرف هذا؟ فقال رجل من القوم: نحن نعرفه هذا حرقوص وأمه هاهنا، قال: فأرسل علي إلى أمه فقالت: كنت أرعى غنماً في الجاهلية فغشيتني كهية الظلة فحملت منه فولدت هذا. اهـ. يعني أنه غشيتها شيطان فولدت حرقوص

هذا، وأصله من نجد مطلع قرن الشيطان وهو المعروف بذي الشدية، وبذلك يتضح لنا في تحقيق الاستدلال أن حرقوص وكفرة بني إسرائيل - المعبر عنهم بقرن الشيطان - يشتركان في اختصاصهم بالشيطان ويطلوعهم من نجد ويؤيده ما رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف عن يزيد الرقاشي قال: بينا النبي ﷺ جالس مع أصحابه فأشرف عليهم رجل فأتنوا عليه خيراً فقال النبي ﷺ: «**إن في وجهه سفة شيطان**» فجاء فسلم، فقال النبي ﷺ: «**أحدثت نفسك آناً أنه ليس في القوم رجل أفضل منك؟**» قال: نعم، ثم ولى فقال النبي ﷺ: «**أفيكم رجل يضرب عنقه؟**» فقال أبو بكر: أنا، فقام فرجع فقال: انتهيت إليه فوجدته قد خط عليه خطأ وهو يصلي فيه فلم تشاييني نفسي على قتله، فقال النبي ﷺ: «**أيكم له؟**» فقال عمر بن الخطاب: أنا، فقام إليه ثم رجع فقال: يا رسول الله وجدته ساجداً فلم تشاييني نفسي على قتله، فقال النبي ﷺ: «**أيكم له؟**» فقال علي: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**أنت له إن أدركته ولا أراك أن تدركه**» فقام ثم رجع فقال: والذي نفسي بيده لو وجدته لجئت بك برأسه، فقال النبي ﷺ: «**هذا أول قرن من الشيطان طلع في أمي أو أول قرن طلع من أمي أما إنكم لو قتلتموه ما اختلف منكم رجالان، إن بني إسرائيل اختلفوا على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وإنكم ستختلفون مثلهم أو أكثر ليس منها صواب إلا واحدة**» قيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: «**الجماعة وآخرها في النار**» وأراد بآخرها - والله أعلم - قادة النفاق من بني إسرائيل الذين يزعمون أنهم الفرقة الناجية وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه وهذا ظاهر معنى قول النبي ﷺ للرجل "أحدثت نفسك آناً أنه ليس في القوم رجل أفضل منك؟" قال: نعم! ولا يخفى وجه المناسبة بين صدر الحديث وعجزه.

وعُلم من قوله "لو قتلتموه ما اختلف منكم رجلان" أنهم أصل الخوارج. قال ابن الأثير: ذو الثدية أحد الخوارج الذين قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بجروراء من جانب الكوفة وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: وآية ذلك أن فيهم رجلاً أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ومثل البضعة تدردر. وقال الذهبي: ذو الخويصرة يقال هو: حرقوص بن زهير رأس الخوارج قتل في الخوارج يوم النهر. وقال الإمام القسطلاني في إرشاد الساري: وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج. اهـ. وكان الخوارج قد اتفقوا على كفر علي ومعاوية معاً ونزلوا حروراء فلما فرغ منهم علي ﷺ قال رجل: الحمد لله الذي أبادهم وأراحنا منهم، فقال الإمام علي ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن منهم لمن في أصلاب الرجال لم تحمله النساء بعد وليكونن آخرهم لُصَّاصاً جرَّادين» أي لصوصاً يجردون الناس ثيابهم وينهبونها. وروى الإمام مسلم عن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي ﷺ الذين ساروا إلى الخوارج فقال علي ﷺ: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تكلوا عن العمل «وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض» فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرائعكم وأموالكم والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا في سرح الناس فسيروا على اسم الله، قال

سلمة بن كهيل: فنزلي زيد بن وهب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي فقال: لهم ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحشوا برماحهم وسلوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم قال: وقتل بعضهم على بعض وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان فقال علي عليه السلام: التمسوا فيهم المخدج فالتمسوه فلم يجدوه فقام علي عليه السلام بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض قال: أخروهم، فوجدوه مما يلي الأرض فكبر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله، قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين، الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو، حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له. انتهى. وقوله "وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد" دون قوله "منهم" يقتضي أنه ليس من المسلمين. وروى ابن أبي شيبه عن أبي بركة قال: لما قتل علي ذا الثدية قال سعد: «لقد قتل ابن أبي طالب جان الردهة» وفي رواية عن سعد بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر ذا الثدية الذي كان مع أصحاب النهر فقال: «**شيطان الردهة** يحتدره رجل من بجيلة يقال له الأشهب أو ابن الأشهب علامة سوء في قوم ظلمة» قال في الفردوس: أراد به ذا الثدية. وروى الطبراني عن سيدنا علي قال: «الأسود ذو الثدية ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم» وروى البزار عن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**شيطان الردهة راعي إبل أو ابن راعي إبل** يحتدره رجل من بجيلة يدعى الأشهب أو ابن الأشهب علامة في قوم ظلمة» وروى البيهقي في الدلائل عن سعد بن أبي وقاص قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الثدية فقال: «**شيطان الردهة راعي الخيل أو للخيل** يحتدره رجل من بجيلة يقال له

الأشهب أو ابن الأشهب علامة في قوم ظلمة» والملاحظ هنا وصفه بأنه راعي خيل وإبل وقد ذكر ﷺ أن القسوة وغلظ القلوب والفخر والخيلاء في الفدادين أهل الخيل والإبل وهم الذين نقضوا عهد الله وميثاقه وزعموا أنهم يعملون بالكتاب والسنة! وهم أبعد الناس عن الكتاب والسنة، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون! تسللوا إلى القبائل النجدية - متسترين بالإسلام - وتسموا بأسمائها حتى صاروا كأنهم جزء من نسيجها! لا تلوح لهم فرصة إلا طاروا إليها ولا فتنة إلا أكبوا عليها! جعلوا المتبوع تابعاً والتابع متبوعاً فعكسوا ما هو معتبر موضوعاً ومشروعاً! دأبهم الكذب ودينهم التكفير وديدهم الوقعة في المسلمين! يَسْمُونَ الخَلِيَّ بِسْمَةِ الْوَلِيِّ وَيَسْمُونَ الْقَاتِلَ لِبَاسِ النَّاسِكِ وَيُؤْزَوْنَ أَبْنَاءَ الْحَرَامِ بِإِزَارِ الْإِحْرَامِ! مَنْ نَجَا مِنْ فَتْنَتِهِمْ نَجَا مِنْ فَتْنَةِ الدَّجَالِ كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، وفي حديث أبي الدرداء مرفوعاً: «أنزل الله في بعض كتبه وأوحى إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مُسُوكَ الْكِبَاشِ، قلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلَى من العسل، وقلوبهم أَمَرٌ من الصبر: إِيَّاي يَخْدَعُونَ أو بي يستهزئون، في حلفت: لأتِيحنَّ لهم فتنة تدع الحليم حيران» وفي الخبر عن النبي الصادق الأبر فيما رواه الإمام مسلم: «يتيه قوم قَبْلَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّةَ رُؤُوسِهِمْ» وروى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْرِجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامَ وَجُوهِهِمُ الْآدَمِيُّونَ وَقُلُوبُهُمُ الشَّيَاطِينُ، وَمِثَالُ كَمِثَالِ الذَّنَابِ الضُّوَارِي، لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، سَفَاكُونُ لِلدَّمَاءِ، لَا يَعْرِوُونَ عَنْ قَبِيحٍ، إِنْ بَايَعْتَهُمْ خَانُوكَ، وَإِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ آذُوكَ، وَإِنْ حَدَّثُوكَ كَذَبُوكَ، وَإِنْ ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوكَ، صَبِيهِمْ غَارِمٌ، وَشَاهِبُهُمْ شَاطِرٌ، وَشَيْخُهُمْ

فاجر، لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، الاعتزاز بهم ذل، وطلب ما في أيديهم فقر، الحكيم فيهم عاجز، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر فيهم متهم، السنة فيهم بدعة والبدعة فيهم سنة، فعند ذلك يسلط عليهم شرارهم ويدعو خيارهم فلا يستجاب لهم» وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية» وفي سنن أبي داود من أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسئون الفعل يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم» وفي لفظ أورده الخطيب التبريزي في المشكاة: «يدعون إلى كتاب الله وليسوا منا في شيء» أي يدعون الناس إلى ظاهر كتاب الله ويتركون هدي رسول الله ﷺ وأحاديثه المبينة بقوله تعالى "لتبين للناس ما نزل إليهم" وفيه دلالة على أنهم ليسوا من عداد المسلمين ولا لهم نصيب من الإسلام وهو ينظر إلى معنى قوله يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. وفي الخبر الأطهر: «أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه غير مواضعه» وهذه صفة هؤلاء الأخابث الذين قطعوا لأنفسهم بالجنة وحكموا لمن عاداهم بعكس ذلك كما حكى تعالى ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهذا فحوى أقوالهم المنكوسة

وقواعدهم المعكوسة! ومن تدبر أقوالهم وأفعالهم بعلم وإنصاف رأى ذلك يقيناً. قال العلامة القاري في المرقاة: قال القاضي: هم شر الخلق لأنهم جمعوا بين الكفر والمرءاة فاستبطنوا الكفر وزعموا أنهم أعرف الناس في الإيمان وأشد تمسكاً بالقرآن فضلوا وأضلوا، ومعنى قوله "من قتلهم" أي من أمي "كان أولى بالله منهم" أي من باقي أمي ويحتمل أن تكون من تعليلية أي من أجل قتلهم، قال الأشرف: الضمير فيه راجع إلى الأمة أي من قاتلهم من أمي أولى بالله من باقي أمي. قال الطيبي: هذا على تأويل الوجه الأول في قوله "سيكون في أمي اختلاف وفرقة" أي أهل اختلاف، وأما على الوجه الثاني فالضمير راجع إلى الفرقة الباطلة ويكون أفعل كما في قوله تعالى "أي الفريقين خير مقاماً" وقولهم: العسل أحلى من الخل فمعناه أن المقاتل أبلغ في الولاية منهم في العدوان. انتهى. وروى البخاري في صحيحه عن سيدنا علي عليه السلام قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة» قال الطيبي في شرح المشكاة: قوله "من خير قول البرية" هو الكتيبة، وفي المصابيح "من قول خير البرية" والمراد بخير البرية هو الكتيبة، وبتقديم الخير على القول أراد بخير قول البرية: القرآن، وهذا أولى لأن "يقولون" معناها هنا: يتحدثون أو يأخذون من خير يتكلم به البرية، وينصره ما روي أن ابن عمر رضي الله عنهما يرى الخوارج شرار خلق الله وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين، وما ورد في حديث أبي سعيد: «يدعون إلى كتاب الله وليسوا منا في شيء». اهـ. وروى ابن أبي شيبه أن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام خطب

يوم الجمعة في فتنة الخوارج وبعد أن حمد الله وأثنى عليه جاء رجل فقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله، ثم قاموا في نواحي المسجد يحكمون الله فأشار عليهم بيده: اجلسوا، نعم لا حكم إلا لله كلمة حق يبتغي بها باطل! حُكم الله أنتظر فيكم، فقام رجل منهم واضعاً أصبعيه في أذنيه ويقول "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" فردّ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بقوله تعالى "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون". وقد برز اليوم من محيط الوهابية مَنْ رمى السلف الصالح بالشرك والضلالة - والعياذ بالله - وغفل علماء المسلمين عن تشخيص الحالة الكائنة وقصر باع الكثير عن استيعاب القراءة النصية لحديث جبريل "أم السنة" وربط الركن الرابع بالأركان الثلاثة وظل بعض العلماء يؤيدون الدولة الوهابية السعودية أو يصمتون حيالها ويتأقلمون جيلاً بعد آخر على استيعاب مخرجاتها طوعاً وكرهاً... وأمرُ الله في عباده كائن والقضاء والقدر لا مفر منه ولكن فهم الأمور على مقتضاها الشرعي خير من العماية فإن الشيطان حاذق فطن يخرب البيوت بأيدي أهلها ويث روح الفرقة والبغضاء بين المصلين كما بثها من قبل بين الإسرائيليين بدليل النصوص النبوية المخبرة عن إصابة الأمة المحمدية بما أصيبت به الأمة الإسرائيلية من أثر الطباع الشيطانية.

المبحث الثالث: أبعاد المعركة

الفصل الأول: البحث المتعلق بالزما

هذه المرحلة لها صلة وثيقة بأحداث آخر الزمان المتسارعة، وأهم ما يميز مرحلة الحكم الجبري أنها مرحلة يكثر فيها الخداع والتلبيس على أمة سيدنا محمد ﷺ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن فتنة هذه المرحلة تعدل فتنة الدجال وذلك لالتباس الحق بالباطل على عقول كثير من الخلق وارتباك الأمور وانبهام المقاصد واختلاط المنافقين بالمؤمنين. روى ابن أبي شيبة عن عامر قال: سئل حذيفة: أي الفتنة أشد؟ قال: «أن يُعرض عليك الخير والشر لا تدري أيهما تتبع» وفي رواية أنه قال لأبي مسعود: «أما تعرف دينك يا أبا مسعود» قال: بلى، قال: «فإنها لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل فلم تدري أيهما تتبع فتلك الفتنة».

والحكم الجبري مقرون بالفساد على نحو ما روى نعيم بن حماد عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول هذه الأمة نبوة ورحمة، ثم خلافة ورحمة، ثم ملك عضوض، ثم تصوير جبرية وعبثاً» وفي مسند الدارمي: «أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك أعفر، ثم ملك وجبروت يستحل فيها الخمر والحرير» وروى البغوي عن أبي عبيدة ومعاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم ملكاً عضوضاً، ثم كائن جبرية وعتواً وفساداً في الأرض» وهو حكم مقرون بإفساد بني إسرائيل وعلوهم الكبير ومقرون بوعد الآخرة وأحداث آخر الزمان حسبما ينبي عنه قوله سبحانه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء

وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا» ووعد الآخرة هو وعد انتصار الأمة المسلمة على بني إسرائيل وتطهير المقدسات من رجسهم أي فإذا جاء وعد المرة الآخرة في إفسادكم وعلوكم، وجواب إذا محذوف يدل عليه جواب إذا الأولى تقديره: بعثناهم عليكم.

والعنوان الذي عليه مدار الآثار المتعلقة بآخر الزمان: «أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون» وهو إichاء من الرسول الكريم أن الدين سيعود غريباً كما بدأ وسيأتي عليه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين الذين حرفوا الديانة الموسوية والعيسوية ولا يزالون يحاولون مع هذا الدين بصفة متجددة إلا أن الله تعالى حفظه بالدولة والسلطان في القرون الماضية ثم بجهود الأئمة المحققين والأعلام المنافحين عن الدين في كل وقت وحين.

الفصل الثاني: البحث المتعلق بالأشخاص

1- لمحة عن تاريخ بني إسرائيل

أمة بني إسرائيل أمة بارزة في التاريخ البشري ينبغي دراسة تاريخها وخصائصها بدقة لما لها من دور محوري في معادلة الصراع بين الحق والباطل، وهي أمة عريقة وقديمة يصل تاريخها إلى أكثر من 3500 سنة وتسمى بهذا الاسم نسبة إلى يعقوب عليه السلام - إسرائيل - بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام، وتاريخ بني إسرائيل لا يدرس كدراسة أحوال الأمم الغابرة فحسب وإنما هو تاريخ حيّ يدرس بعناية وتدبر بهدف فهم الواقع وتوصيفه واستخراج الحق وتحقيقه.

وقصة بني إسرائيل مرتبطة بقصة إبراهيم مع نمرود حيث جرت بينهما مناظرة شهيرة حكاها الله عز وجل في سورة البقرة **(ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)** وقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجة الدامغة على نمرود وبيّن له أن الرب الذي يستحق أن تكون له السلطة العليا في الأرض هو خالق السماوات والأرض، ولفظ "حاج" يفيد الخصام بالباطل أي: خاصمه في الربوبية ثم استدل على التوحيد بالبعث والنشور فقال **(ربي الذي يحيي ويميت)** ونظيره قول المسيح لبني إسرائيل **(وأحيي الموتى بإذن الله)** فأنكر نمرود وزعم أن الربوبية له من دون الله يقتل من يشاء ويستحيي من يشاء مستعيناً بالشياطين كفعل الدجال في آخر الزمان على حد قوله ﷺ في الحديث عند الإمام أحمد:

«ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك أأست تعلم أي ربك؟ فيقول: بلى فتمثل له الشياطين نحو أبيه ونحو أخيه» وأراد نمروذ بذلك المشاغبة والمواربة في المناظرة والتلبيس على قومه ليوهم أنه المتصرف! فانتقل إبراهيم عليه السلام من الاستدلال على ربوبية الله في الأرض إلى الاستدلال على ربوبية الله في العوالم العلوية التي يقر بها نمروذ **(قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب)** أي إذا كنت كما تدعي تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود كله في خلق ذواته وفي تسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق فإن كنت متصرفاً كما ادّعت فأت بها من المغرب فلما علم عجزه وانقطعت دعواه وفشلت مكابرتة بُهت وأخرس! وهذا برهان ودليل ناهض مبكت للمخالف وهي حجة موسى لفرعون **(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون)**.

وكان إبراهيم عليه السلام يعيش في أرض الكلدانيين بالعراق برفقة زوجته سارة، فهاجرا إلى الشام وكانت عاقراً، ولما نزلا بديار مصر أكرمهم الله بهاجر وأنجبت إسماعيل، ثم خرج بها إلى البلد الأمين، ووضعها وطفلها في واد محاط بجبال فاران، وقفل راجعاً فنظرت إليه والدهشة تأخذها والحيرة تنتابها وهي تقول: الله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً: نعم، فردّت وهي قريرة العين: إذن فاذهب فإن الله لا يضيعنا. وقد جاءت البشارة بوصف إسماعيل عليه السلام بقوله عز وجل **(فبشرناه بغلام حليم)** والحليم الموصوف بالحلم وهذا الوصف موجود في حق ذريته كما جاء في حديث سويد بن الحارث: **«أدباء حلماء عقلاء فقهاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»** وما نعت الله الأنبياء بأقل مما نعتهم بالحلم

أي بالعقل والأناة والطمأنينة عند الغضب وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق وقد ورد الثناء عليهم في الكتب السابقة نحو ما في الانجيل: «أمة محمد حلماء رحماء علماء كأنهم في الفقه أنبياء» وأما إسحاق فقد وُصف بالغلام العليم **(قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم)** أي بشروه بأنه عليم بالدين كما ذكره الفخر الرازي، وقال ابن عطية: أي عالم في حال تكليفه وتحصيله أي سيكون عليمًا و"عليم" بناء مبالغة. وهذا الوصف موجود في حق ذريته ويبدو أن الله تعالى أطلعه على أحوال بني إسرائيل وأوقفه على تعيينهم فحملة ذلك على القلق والاضطراب فقال متأوهاً مستفهماً على سبيل الاستبعاد والتعجب **(أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون)** وقرأ المكي بكسر النون مشددة مع المد المشبع! والكلام وقع بين قصة إبليس اللعين نحو آدم عليه السلام وقصة إهلاك الشواذ - قوم لوط - وفيه وعيد لبني إسرائيل وتهديد واتعاض، ولما كانت هذه من الدلائل على تعرضهم لعقاب شديد ذيلها بقوله **(إن في ذلك لآيات للمتوسمين)** والإشارة في ذلك إلى جميع ما تضمنته القصة المبدوءة بالكلام عن خلق آدم وإبليس ثم ضيف إبراهيم وبشارته بغلام عليم وإعلام الله إياه بما سيحل بالشواذ وآية غضب الله عليهم في عمايتهم عن دلائل الإنابة واسترسالهم في عصيان الرسل. ورؤي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: اتقوا فراسة العلماء لا يشهدوا عليكم بشهادة فيكذبكم الله بها يوم القيامة على مناخركم في النار فوالله إنه لحق يقذفه الله في قلوبهم ويجعله على أبصارهم. ونظيره ما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: إن في ذلك لآيات للمتوسمين»** ولما امتنع الأضياف من الأكل أنكر عليهم وخشي أن يكون ذلك إنما هو لشر يريدونه **(فأوحس منهم خيفة قالوا لا**

تخف وبشروه بـغلامٍ عليم، فأقبلت امرأته في صرة) والصاد والراء تدلان على الشدة والضجة والصخب (فصكت وجهها) هول المفاجأة!!! كما أشارت الآية الأخرى (وامراته قائمة فضحكت) ونظم الكلام: وامراته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت، والضحك ردة فعل نتيجة انتقال من درجة التخوف والتأهب والتحسب إلى دهشة المفاجأة ثم قالت (يا ويلتاه) وهي كلمة تحسّر بطريق نداء الويل، وتستعمل في مقام التعجب! وأي شعور بعد الشيخوخة أعظم من هول ما أطلعهما الله عليه من هذا الأمر العظيم ومن الكيد والمكر بأبناء الغلام الحليم إسماعيل الذي جاءت البشارة به عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له ولداً من الصالحين (فبشرناه بـغلامٍ حليم) وروي أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم أن يكون أباكم للفضل الذي ذكره الله عنه فهم يحقدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوه. فانظر أيها الخليل ما في هذه القصة من السر الجليل وهو أن الله تعالى يرى عباده الجبر بعد الكسر واللفظ بعد الشدة فإنه كان عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم لذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواضع أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم الدين، وهذه سنة الله تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه بعد استضعافه وذله وانكساره وصبره... إنها آية عجيبة في تاريخ الرسالات! وإنه وعد بعد تلك الحقب يتحقق! يهاجر إبراهيم من العراق إلى الشام بعد صراعه مع قومه ثم يحلّ بديار مصر وهو يحمل رسالة التوحيد فأكرمه الله بهاجر وأنجبت إسماعيل، ثم خرج بها إلى البلد الأمين، ووضعها وطفلها في

واد محاط بجبال فاران... ثم جاءت البشرية لسارة بإسحاق! سارة وهاجر... إسماعيل وإسحاق... العراق والشام ومصر وجزيرة العرب... أحداث تتوالى لتنشأ من ورائها قضايا وأحداث يعيش العالم فيها اليوم بكليته وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه... إنه قدر الله النافذ الشامل الدقيق العميق... إنه الحدث الأكبر في تاريخ البشرية العام... إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد، وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد! وأحياناً يتناول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير فتخفى عليهم حكمة التدبير.

وهنا تبرز قصة الكعبة والبيت العتيق بعد الكلام عن بني إسرائيل وبعد النداء العلوي لهم وتذكيره تعالى لهم بنعمه ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ فإنه تعالى نعى على أهل الكتاب مخالفتهم لأبيهم إبراهيم عليه السلام وتركهم دينه موطناً لأمر استخلافهم في البيت محرصاً بني إسماعيل على تطهيره مشيراً إلى الصراع الأزلي الذي سوف ينشأ بين أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق والذي نشهد فصوله اليوم ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين العاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة

مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) أي يتلو عليهم ما توحى إليه من الدلائل المشتملة على سيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية وتقبلاتهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية على حد قوله ﴿تلك آيات الكتاب المبين، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل حتى يصبح ويعلمهم فهم معاني القرآن والسنة ويزكيهم، ثم انتقل الكلام إلى التعريض ببني إسرائيل ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم أكد الوصية في استفهام يدعو إلى توحيد العليم العلام ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ ويعود الكلام إلى تقريعهم ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ وينتقل إلى حكاية طعنهم واستهزائهم ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ ويتكرر ذكر التولية شطر المسجد الحرام ثلاث مرار ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ لأنه مدار الصراع وهو قلب العالم ومهوى الأفئدة. وهنا تقف صورة المكان ثابتة في مكائنها في المسجد الحرام وتتوالى الحقب لتربط الماضي البعيد بالحاضر القريب ويحيى موعدهم العلو الكبير لبني إسرائيل ليحكموا الأرض من

ذلك المقام، ثم تُبعث إشارات وبشارات للأمة المسلمة تنبئ بوعد الآخرة ودخول المسجد الحرام...

ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إليه يرجع نسب بني إسرائيل، عاش في الشام في أرض الكنعانيين منعزلاً عن النظام العالمي القائم آنذاك والذي كانت مركزيته في مصر، ووهبه الله اثني عشر ولداً ومن بينهم يوسف عليه السلام الذي اصطفاه الله بالرسالة وصار بمكانة من أبيه مما أثار حفيظة إخوانه فتآمروا عليه...

يوسف عليه السلام وتوحيد الملك العلام

سورة يوسف تسطر تاريخ نشأة بني إسرائيل وتروي قصة يوسف وإخوته وفيها الكثير من العبر والدلالات والتذكيرات والرموز والإشارات **(الر تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)** فالقرآن المبين يخاطبهم في إطار العقل ومحيط الفكر ليعقلوا ما نزل به من الأوامر المعقولة المحكمة المدلل على حقيقتها بالأدلة القاطعة فإذا عقلوا ما جاء به القرآن الكريم صار عندهم علم جازم بحقية ما جاء به وما فيه من مصالحهم وسعادتهم فيدخلون في دائرة العلم الجازم الذي ينتهي بصاحبه إلى كل خير ويبيعه عن كل شر... والمخاطب هنا بنو إسرائيل ابتداء رجاء أن يعقلوا أي يصيروا ذوي عقول لأن الإعراض عن آيات الله ينبئ عن حساسة عقل بحيث ينزل منكروها منزلة من لا يعقل، وعبر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حدّاً أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له وأنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء، والعقل كما قال سيدنا علي المرتضى كرم الله وجهه: لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية. ولفظ **(قرآنًا)**

يدل على كونه مقروءاً في تراكييه الدالة على المعاني المفيدة، وكونه عربياً يفيد إبانة ألفاظه للذين خوطبوا به ابتداء وهم العرب دون غيرهم فكأنه لم يُنزل إلا لهم، فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم قوم لا يعقلون! وقد سلك المولى سبحانه في خطابه إياهم وبيانه لهم خطاب بعضهم بعضاً وبيانه المستعمل بينهم، فلما كان حُسن التعريض والكناية والرمز والإشارة أملح من التصريح وأنفذ في أعماق القلوب، وفيه من الفضل والمزية والحُسن والرونق ما لا يكون في التصريح؛ خاطبهم بالذي هو في منطقهم من الكلام فقال ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ أي أخلصها في إسلام الوجه لله وإفراده تعالى بالوحدانية المطلقة! فهذا إعلان من الله تعالى لهم يعلمهم أن ما جاء به هذا القرآن هو الحق المحكم والمعقول المبرم ليس فيه مصادمة للعقول السليمة ولا يستطيع العقلاء أن ينقضوا الحق الذي جاء به أو يردوه وفيها تخصيص للناس على تعلم هذه القصص المشتملة على الحكم المتكاثرة والمنافع العظيمة والآيات النيرة كما حكى تعالى ﴿آيات للسائلين﴾ إذ كل أحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص لأنها مقر العبر والعظات وفيها دلائل واضحات وشواهد لائحات دالة على سرائر التوحيد وأسرار العرفان للسائلين عن دقائق المعارف الحسان ورقائق الإيمان لو تأملوا في رموزها وإشاراتها واعتبروا بها، وهذه القصة مقتصة في كتب الأولين ولا ترى اقتصاصها في كتاب منها مقارباً لاقتصاصها في القرآن لما تتضمن من العبر والحكم والنكت والعجائب التي ليس في غيره، قال صاحب البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ما نزل القرآن بلسان عربي مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية والأفكار المنورة في الغوص على درر معانيه فحينئذ

نطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد وعلى أنوار الصفات وأسرار الذات وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات، قال تعالى "ما فرطنا في الكتاب من شيء" لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد الذين صفت عقولهم من الأكدار وتظهرت من الأغيار وملئت بالمعارف والأسرار، قال تعالى "ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" وهم أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس والله تعالى أعلم. اهـ. ولما رأى يوسف الشمس والقمر والكواكب سجوداً له قصها على أبيه فقال له: لا تقصها على إخوتك فيبغوا لك الغوائل (قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيذا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ذكر ابن منظور في اللسان: كِدَت الرجل أكيدته، والكيد: المكر والخبث وهو الاحتيال، وكاده: أراحه بسوء، قال صاحب كتاب "التضمين في الكتاب المبين": إخوة يوسف عليه السلام جمعوا إلى الكيد - وهو الاحتيال في خفاء -: "الإساءة" ولعلم يعقوب بما تكنه صدور أولاده لأخيهم يوسف وما تُخفي قصدوهم قال له "لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا" ليكون أكد في التخويف من إساءتهم له وأبلغ، فتضمن "كاد" معنى "أساء" يجمع إلى الكيد وهو إرادة السوء إيقاع الإساءة، فهم يحتالون في توجيه الأذى إليه، وإيقاعه في شرِّه مما زينه الشيطان لهم، أما الذين ضمَّنوا الكيد معنى الاحتيال فما أضافوا جديداً لأن الكيد معناه الاحتيال في خفاء كما جاء في لسان العرب ولا يتعدى باللام فزَمَ التضمين شوارد خفيات النفوس فأوعى. اهـ. وقال ابن عطية: تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يحس من بنيه حسد يوسف وبغضته فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يُشعل بذلك غل صدورهم فيعملوا الحيلة على هلاكه ومن هنا ومن فعلهم بيوسف يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في

ذلك الوقت ووقع في كتاب الطبري لابن زيد: أنهم كانوا أنبياء وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي وعن عقوق الأبناء وتعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله ثم أعلمه "إن الشيطان للإنسان عدو مبين" أي هو يدخلهم في ذلك ويحضهم عليه. اهـ. قلت: مناسبة ذكر الشيطان هنا ظاهرة فإن يعقوب عليه السلام توسم أحوال أبنائه فحذرهم منهم وبين له أن الشيطان ظاهر العداوة محيل عظيم يعاديهم في لباس الصداقة ويزين لهم ويحملهم على الكيد بعداوته القديمة ويفسدهم في صورة الإصلاح والسبب في هذا الكلام أنهم أقدموا على الكيد فكان ذلك مضافاً إلى الشيطان وقد أرشد إلى هذا يوسف عليه السلام بقوله **(من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي)** وكان يعقوب دلتة رؤيا يوسف على أن الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه **(وكذلك يجتبيك ربك)** وذلك الاجتباء هو ما أراه من تلك الرؤيا التي دلت على جليل قدره وشريف منصبه ومآله إلى النبوّة والرسالة والملك **(ويعلمك من تأويل الأحاديث)** أي معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله وقال الرسول كذا وكذا... وما كان من إخوة يوسف إلا أن كادوا له وتآمروا عليه وجعلوه في غيابات الحب فأدركته عناية الله ونشأ في بيت العزيز ليبدأ مسلسل الابتلاء من جديد مع امرأة العزيز حتى أدخلته السجن - وكان ذلك تمهيداً لعودته ملكاً لمصر وحاكماً لها - ودخل معه السجن فتيان فسألاه تأويل رؤياهما قائلين **(إنا نراك من المحسنين)** ثم ذكر نتيجة مقام الإحسان وهو التوحيد الخالص فقال **(ما كان لنا أن نشرك بالله من**

شيء) إلى قوله (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) وقد خفي ملك يوسف على يعقوب كما خفي ملك الحفاة العراة على الأمة المسلمة لحكمة إلهية. وفي ثنايا السورة إعلام بتأمر بني إسرائيل على أخيهم والحق أن كل ما يدبرونه من الكيد للبشرية يتوارثون فيه ثلاثة أمور: أولها: أنهم في كل تدبير يُبيتون معه الدم الكذب الذي يلقي تبعة ما يفعلونه على أتباعهم كما يشير إليه قوله (وجاؤوا على قميصه بدم كذب) والثاني: أن أول ما يفعلونه بعد الجريمة هو البكاء بحيث لا يفتن أحد إلى حقيقة فعلهم كما يشير إليه قوله (وجاؤوا أباهم عشاء يبكون) والثالث: أنهم يتخذون أحط الوسائل وأخس الأساليب يحلوها لأنفسهم ويعملونها بالتوبة كما يشير إليه قوله (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) وهذه هي طبيعة بني إسرائيل وما طويت عليه نفوسهم، والظاهر أن إخوة يوسف كان للشيطان عليهم سبيل ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء وهو الذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً ويدل عليه القرآن واللغة والاعتبار، ولا يطلق عليهم لفظ الأسباط، قال العلامة الألوسي أمدنا الله بمده: تخصيص الأسباط ببنيه عليه السلام لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ بيناً والصواب أيضاً أنهم إنما سموا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام ومن حينئذ كانت فيهم النبوة فإنه لم يعرف فيهم نبي قبله إلا يوسف ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، الآيات فذكر يوسف ومن معه ولم يذكر الأسباط ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبئ لذكروا كما ذكر وأيضاً إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها، وجاء في الحديث: «أكرم الناس يوسف

بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي» فلو كانت إخوته أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم، وهو سبحانه لما قص قصتهم وما فعلوا بأخيهام ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة وإن كان قبلها بل ولا ذكر عنهم توبة باهرة كما ذكر عمن ذنبه دون ذنبهم ولم يذكر سبحانه عن أحد من الأنبياء قبل النبوة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وإرقاق المسلم وبيعه إلى بلاد الكفر والكذب البين إلى غير ذلك مما حكاه عنهم بل لو لم يكن دليل على عدم نبوتهم سوى صدور هذه العظائم منهم لكفى لأن الأنبياء معصومون عن صدور مثل ذلك قبل النبوة وبعدها عند الأكثرين وهي أيضاً أمور لا يطيقها من هو دون البلوغ فلا يصح الاعتذار بأنها صدرت منهم قبله وهو لا يمنع الاستنباء بعد وأيضاً ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر وهو أيضاً مات بها لكن أوصى بنقله إلى الشام فنقله موسى عليه السلام ولم يذكر في القرآن أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى غير يوسف ولو كان منهم نبي لذكر وهذا دون ما قبله في الدلالة كما لا يخفى والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم إنما جاء من ظن أنهم هم الأسباط وليس كذلك إنما الأسباط أمة عظيمة ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال سبحانه: ويعقوب وبنيه فإنه آيين وأوجز لكنه عبر سبحانه بذلك إشارة إلى أن النبوة حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى عليه السلام فليحفظ. اهـ. ومقصود سورة يوسف وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى لما ثبت فيما مضى ويأتي من تمام علم منزله غيباً وشهادة، وشمول قدرته قولاً وفعلاً. وفيها من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والمملوك وأسرار النشأتين ما لا يخفى... وأهم أغراضها: بيان قصة يوسف

عليه السلام مع إخوته وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة، وفيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات، وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحى عباده كما حصل ليوسف عليه السلام لما بلغ أشده واكتهل وأرسل ودعا إلى الإسلام المشتمل على توحيد الله في الحكم والعبادة، ثم تولى إدارة الملك وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة مع أبيه وإخوته، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين، وما قصه في الكتاب المبين من نشأة بني إسرائيل وانتقالهم إلى مصر وعودة يوسف على سرير الملك بعد أن كان أميناً على خزائن الأرض حسبما نطق به قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقوله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي مُلْك الأرض وأعطيني العز والجاه والسلطان وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ومنصب الرسل والفضلاء فإن منصب النبوة والرسالة عظيم شريف لا ينبغي أن يكون فوقه شيء، وبعد موته عليه السلام بدأت قصة بني إسرائيل مع الفراعنة حتى بعث الله تعالى موسى عليه السلام.

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لقد هزَّ يوسف عليه السلام كل قوائم الشرك والجاهلية الخداعة هزاً عنيفاً، واستمال صاحبيه بحسن حديثه ونبله، فسألاه أن يعبر لهما رؤياهما فأنبأهما بأمور غيبية وأخبرهما أن ذلك العلم هو فضل إلهي يؤتاه من يشاء ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وجعل ذلك تخلصاً إلى ذكر التوحيد وتقبيح الشرك إليهما، وبدأ بمتاركة الكفار ليعلمهما نهج

التوحيد ومقام التجريد فيتبعاه ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وعبر بالترك مع أنه لم يتلوث بتلك الملة قط استجلاباً لهما لأن يتركا ملة الملك وأتباعه، ومن هذا القبيل عامة ما وقع في التنزيل من قوله سبحانه ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ وقوله تعالى ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وقوله جل وعلا ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى الله لهم البشري﴾ إذ لا لقاء بين الحق والباطل، إما شرك وإما إسلام، إما جاهلية وإما إيمان ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين﴾ ثم مضى يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليبين معالم ملة الإسلام والإيمان التي يتبعها ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ ولما أقام لهما الدليل على ما هو عليه من الدين الحنيفي من مفارقة الشرك في الحكم والعبادة ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ أتبعه بإرشادهم إلى البرهان الأعظم الدالّ على فساد كل ملة غير الإسلام تأييداً لأدلة النقل بقاطع العقل، فقال منادياً لهما باسم الصحبة بالأداة التي تقال عند ما له وقع عظيم في النفوس ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ وكان قومهما يظهران التوحيد ويطنون الشرك، وقد أثبت بعض المؤرخين المصريين اعتراف القبط بإله واحد! وعامة الناس لا يتصورون تعدد الأرباب والآلهة على غير الأصنام والكواكب وأمثالها، وذلك هو شأن سائر أديان الشعوب فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح تعدد الآلهة والأرباب محصوراً فيها. والأمم الجاهلة تتخيل هذه الاعتقادات من تخيلات نظام

ملوكها المستخلفين! ولما ذكر يوسف ما هو عليه من الدين الحنيفي تلتطف في حسن الاستدلال على فساد ما هم عليه وأخذَ ييسر الحجة قبل كثيرها، فمن الحكمة في محاجة الجهلة أن يؤخذوا بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلونها، فإذا قبلوها لزمتهم درجة أخرى فوقها ثم كذلك أبداً حتى يصلوا إلى الحق، لتفاوت درجاتهم في الفهم فإنهم إن أخذوا بجميع الفكرة الذي يساقوا إليها دفعة عاندوها، وبعد أن أثار لصاحبيه الشك في صحة إلهية الأرباب المتعدين انتقل إلى إبطال تأثيرها بقوله ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني أن تلك الأرباب لا تحقق نصراً ولا تدفع ضرراً ولا تزيد قوة ولا تجلب سلطاناً وغلبة كما حكى تعالى ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ فهذه الأرباب ليست من الربوبية في شيء وليس لها من حقيقة الربوبية شيء، فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القهار الذي يخلق ويقهر كل شيء، ولكن الفراعنة يسمون من عند أنفسهم أسماء ويخلعون عليها صفات! والله لم يجعل لها سلطاناً ولم ينزل بها من سلطان، فالحكم والسلطان لا يكون إلا لله، وهو مقصور عليه سبحانه بحكم ربوبيته وألوهيته، إذ الحكمية من خصائص الربوبية والإلهية، ومن ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ربوبيته وألوهيته! وقد بين يوسف ﷺ أنه لا يمكن تحقيق توحيد العبادة إذا كان الحكم لغير الله ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وأشار صاحب البيان إلى نقض الحكم والعبادة كما في صحيح ابن حبان: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً: الحكم، وآخرهن: الصلاة» وفي الآية

الكرامة إشارة إليهما ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ والسجود المأمور به هنا هو أفراد الله في الحكم وهو شعار الإسلام وعطف عليه الأمر بالعبادة. والمعنى اللغوي للعبادة هو الدينونة والخضوع والذل، وأما المعنى الشرعي فهو الإتيان للأعمال والأقوال بنية العبادة لمن يعتقد فيه شيئاً من صفات الربوبية أو خصائصها. وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم، ونفهم تحريف أهل الكتاب الذين عكسوا هذه القضية الثابتة كما جاء في الأجوبة النجدية: **أن الله تعالى هو الذي حكم على عباده أن يعبدوه وحده بأنواع العبادة كلها، قال الله تعالى ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فالتوحيد دينه الذي حكم به على عباده وخلقهم له وهذه حكمته الشرعية الدينية! اهـ.** نعوذ بالله من فتنة المغضوب عليهم وضلال الضالين. إن منازعة الله في الحكم تخرج المنازع من دين الله - حكماً معلوماً من الدين بالضرورة - لأنها تخرجه من عبادة الله وحده وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الإسلام قطعاً، وتحديد معنى العبادة بأنها الخضوع والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيم بأنه أفراد الله سبحانه في الحكم والعبادة فهما متلازمان ولذلك جاء التعبير بصفة الربوبية في قوله ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ دون قوله: ولا يشرك بعبادة الله أحداً، إفحاماً لمن يزعمون أن توحيد الكفار توحيد الربوبية، فأخبر تعالى أن العبادة لا تقوم إذا كانت الربوبية لغير الله، وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها، ويقرر يوسف عليه السلام أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة هو وحده الدين القيم ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وهو تعبير يفيد القصر، فدين الإسلام لا يكون إلا بالانقياد والاستسلام لله وإفراده في

الحكم والعبادة كما ما جاء في وصية يعقوب لبنيه ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ومن هذا القبيل قوله تعالى ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والتوكل لبّ العبادة وهو ما تضمنه قوله ﴿أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وهذا الدين القيم الذي به قوام الناس هو دين الفطرة كما جاء في التنزيل العزيز ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ وقد بيّن تعالى أن الحكم أصل التوحيد وأساس الدين وقاعدته وقوام دعوة الرسل وجميع الشرائع جاءت لحفظه وتحقيقه وصيانيته، فقال سبحانه بعد أن ذكر ثمانية عشر نبياً ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ﴾ أي آتيناها العلم والحكم إشارة إلى أنه تعالى جعلهم حكماً على الناس نافذي الحكم فيهم ثم أردف بذكر النبوة وهي الدرجة العالية الرفيعة الشريفة التي يتفرع على حصولها حصول مرتبة الحكم والعلم كما حكى تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَكَلَّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وموسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ويوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولما رأى الملك رؤياه وأعضل على الملائكة تأويلها، تذكّر الناجي من القتل تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه وذكره عند الملك فرأى الملك نبل التعبير وحسن الرأي فعظم في نفسه وقال ﴿إِنِّي نَبِيٌّ مِنْ رَبِّي﴾ به أستخلصه لنفسه فلما كلمه قال ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فإن قيل: بماذا كلمه؟ قلنا: بما كلم به صاحبيه في السجن من الدعوة إلى توحيد الله، وما وقع في الكلام الأول يغني عن التكرار

(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبع ملة
آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) إلى قوله
(إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) فآمن الملك وقال
(إنك اليوم لدينا مكين أمين) وهذا ما يقتضيه كمال التوحيد وجزالة النظم
الكريم، فجعله الملك في أرفع مكان في الدولة - مكان العزيز - فاحتفظ يوسف
عليه السلام أديباً منه المكانة للعزيز الذي نشأ في قصره وقال للملك (اجعلي على
خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فأنقذ الله به شعب مصر من الشرك والجوع
والظلم فكان مثلاً للحاكم المسلم العادل، ثم ضم إليه أخاه في الوزارة بكيد
وحيلة كما حكى سبحانه (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين
الملك إلا أن يشاء الله) أي ما كان ليأخذ أخاه ويضمه إليه في سلطان الملك إلا
بحيلة أو حاشاها الله إليه (كذلك كدنا ليوسف) وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه
فهو مسببه، إذ جعل يوسف السقاية في متاع أخيه ثم أخبرهم بفقد صواع الملك
أي مكياه المرصع بالجواهر، والصواع غير السقاية، وفي معارض الكلام
لمندوحة عن الكذب.

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله
ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الفاء فصيحة والتقدير: إذا
علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق فأقم وجهك للدين، والأمر مستعمل في
طلب الدوام والمقصود أن لا تهتم بإعراضهم كقوله تعالى "فإن حاجوك فقل
أسلمت وجهي لله ومن اتبعن" فالمعنى: فأقم وجهك للدين والمؤمنون معك كما
يؤذن به قوله بعده (مبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين)
و"حنيفاً" يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر في فعل أقم كما قال صاحب

التحرير والتنوير فيكون حالاً للنبي ﷺ كما كان وصفاً لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً" وهذا هو الأظهر في تفسيره ويجوز كونه حالاً من الدين على ما فسر به الزجاج فيكون استعارة بتشبيه الدين برجل حنيف في خلوه من شوائب الشرك فيكون الحنيف تمثيلية وفي إثباته للدين استعارة تصريحية، وحنيف: صيغة مبالغة في الاتصاف بالحنف وهو الميل وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق أي عادلاً ومنقطعاً عن الشرك كقوله تعالى "قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" و"فطرت الله" بدل من "حنيفاً" بدل اشتمال فهو في معنى الحال من الدين أيضاً وهو حال ثانية فإن الحال كالخير تتعدد بدون عطف على التحقيق عند النحاة وهذا أحسن لأنه أصرح في إفادة أن هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك وموافقته الفطرة فيفيد أنه دين سمح سهل لا عنت فيه، والفطرة اسم هيئة من الفطر وهو الخلق مثل الخلقة كما بينه قوله "التي فطر الناس عليها" أي جبل الناس وخلقهم عليها أي متمكنين منها فحرف الاستعلاء مستعار لتمكن ملابسة الصفة بالموصوف تمكناً يشبه تمكن المعتلي على شيء والمعنى أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين الحنيف وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها غير نائين عنه ولا منكرين له مثل إثبات الوجدانية لله لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح حتى لو ترك الإنسان وتفكيره ولم يلحق اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته واعلم أن ما كتبه أهل الكتاب من معاني التوحيد فيه تلبيس للحق على الناس ومعلوم أن المعاني الفطرية إذا التبتت بغيرها فالمضطلعون بتمييزها وكشفها هم العلماء الحكماء الذين تمرسوا بحقائق الأشياء والتفريق بين متشابهاتها وسبروا أحوال البشر

وتعرضت أفهامهم زماناً لتصاريف الشريعة وتوسموا مراميها وغاياتها وعصموا أنفسهم بوازع الحق عن أن يميلوا مع الأهواء فافهم ولا تغفل، وفي قوله "التي فطر الناس عليها" بيان لمعنى الإضافة في قوله "فطرت الله" وتصريح بأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقي والتعود كما روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول: فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم» وفي رواية: «حتى تكونوا أئمة تجدعوها» فجعل ﷺ اليهودية والنصرانية والوثنية مخالفةً للفطرة، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» وجملة "لا تبديل لخلق الله" مبينة لمعنى "فطرت الله التي فطر الناس عليها" فهي جارية مجرى حال ثالثة من الدين على تقدير رابط محذوف والتقدير: لا تبديل لخلق الله في هذا الدين أي أنه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله خلاف دين أهل الشرك كما حكى تعالى عن الشيطان "ولأمرهم فليغيرن خلق الله" ويجوز أن تكون جملة "لا تبديل لخلق الله" خبراً مستعملاً في معنى النهي على وجه المبالغة واسم الإشارة لزيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه وإطلاق القيم على الدين تشبيه انتفاء الخطأ عنه باستقامة العود وهو من تشبيه المعقول بالحسوس ويطلق أيضاً على الرعاية والمراقبة والكفالة بالشيء لأنها تستلزم القيام والتعهد كما يطلق القيم على المهيمن

والحافظ والمعاني كلها صالحة للحمل عليها هنا والاستدراك في قوله "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" لدفع توهم واهم يقول: إذا كان هو دين الفطرة وهو القيم فكيف أعرض كثير من الناس عنه بعد تبليغه فاستدرك ذلك بأنهم جهلوا معانيه لإعراضهم عن التأمل فهم في شك وحيرة والمراد بأكثر الناس أهل الكتاب ابتداء إذ أبوا اتباع الرسول ﷺ ومفارقة أديانهم بعد إبطالها لانتهاه صلاحية تفاريحها بانقضاء الأحوال التي شرعت لها انقضاء لا مطمع بعده لأن تعود! وفي الآية الكريمة إشارة خطيرة عن مستقبل الزمان واستحواذ الشيطان على الأمم والشعوب وإسهامه في تشكيل مفاهيمهم وأفكارهم وعواطفهم وفق التسييس العالمي.

(ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) لما عبر يوسف الرؤيا، أمر الملك بإحضاره ليستعين به فيما إليه من الملك، فتأتى السليخة وقدم سؤال النسوة معرضاً بامرأة العزيز أدباً منه مع ما صنعت به، فلما حضرن وبالغن في نفى جنس السوء عنه، أقرت المرأة بما صنعت وعرفت أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيماً لجانبها وإخفاء للأمر عليها، فأزالت الوطاء والغطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها، وقد تناهى الخبر عنها في قوله (ولقد همت به) ثم ابتدئ الخبر عن يوسف فقيل (وهم بما لولا أن رأى برهان ربه) والجملة مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها، والتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهم بما، فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به، وبذلك يظهر أن يوسف لم يخالطه همُّ بما لأن الأنبياء معصومون، ويؤكد قوله بعده (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) والآيات دالة على طهارته من وجوه عديدة، أولها: طلبه من الملك أن يتفحص عن تلك

الواقعة، وثانيها: شهادة النسوة بطهرته ونزاهته، وثالثها: قول المرأة ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ ورابعها: قولها ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ أي لم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وذلك قولها ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ وخامسها: قولها ﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي مع ذلك فإني قد قرفته وقلت ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - ثم قالت ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة وهم الأنبياء فإنَّهم بالمعصية يقتضي الجهل به سبحانه، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته والتشكيك في شيء من ذلك وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا كما ذكره الإمام أبو الفضل اليحصبى في الشفاء. واستدلَّ على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقاً فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية. وقد نسب أهل الكتاب إلى يوسف أشياء تنافي العصمة ولا تليق بأحد من العقلاء وتُخالف أقاويل أكابر العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم، ودسوا في كتب التفسير روايات لا يثبت إسنادها وجأؤوا بأعظم وجوه الخيانة. وقومٌ حرفوا الكتب الإلهية لا يستغرب عنهم التلاعب بالمخطوطات وبعثرة التحريفات في المطبوعات وتحريف كتب علماء الإسلام ونسبة أقوال باطلة إليهم كابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

استعباد فرعون لبني إسرائيل ومشابھتهم لفرعون بعد ذلك

استقر بنو إسرائيل في مصر وكانت مصر في عهد يوسف عليه السلام دار إسلام لكنها رجعت إلى الكفر بعد موته وظن القبط أن الله تعالى لن يبعث من بعده رسولاً ورجعوا إلى الطغيان في الأرض والاستكبار والعلو ومعاندة الرب تعالى كما حكى سبحانه على لسان الرجل المؤمن **(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب)** وصار بنو إسرائيل مضطهدين في مصر وقابعين تحت رحمة الملا الذين أصدروا عليهم أحكاما قاسية وأعملوا فيهم سنن الفراعنة وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة وقد حكى القرآن كلام موسى عليه السلام من ذكر العذاب الأعم والأخص **(وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)** والمراد بالعذاب هاهنا غير المراد به في سورة البقرة والأعراف لأنه مفسر في سورة البقرة بالتذبيح وفي سورة الأعراف بالتقتيل، وكان مضمون جملة "ويذبحون" هنا مقصوداً بالعد كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماماً بشأنه فالعلة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب كاستعبادهم بالأعمال القذرة والاستخفاف بعقولهم وإيقاع الفتنة بينهم وبالتذبيح، وحكى تعالى علو فرعون بملكه وسلطانه ودعواه الربوبية وبغيه في استعباد بني إسرائيل وإضلالهم وجعلهم شيعاً وإفساده في الأرض **(إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين)**

ويعيد التاريخ نفسه ويتجلى بنو إسرائيل أساليب الفراعنة وينسون حوادث الماضي وتغلب على مخيلاتهم الحالة الحاضرة ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾ والفساد في الأرض: التفاتن وذلك لبس الحق بالباطل حتى يضيع الحق وينتج من ذلك التهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطّل المزارع والمكاسب والمعاش ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً... ودأب بني إسرائيل في الفساد والعلو كدأب فرعون، وأبلغ المثل هو المثل الذي يضرب للمرء في نفسه حين يُذكر بماضيه في حال استضعافه، قال تعالى ﴿كدأب آل فرعون﴾ والدأب: السيرة والعادة والعمل الذي يدأب عليه عامله ويلزمه ويكرره، وموقع كاف التشبيه موقع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبه به، والتقدير: دأب بني إسرائيل كدأب آل فرعون أي عادتهم وشأنهم كشأن آل فرعون، كما حكى تعالى في آل فرعون ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي أن شأن بني إسرائيل الآخرين كمثّل أسلافهم قوم فرعون أي ألحقوا بآل فرعون في كل ما لهم من صفات... قال تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ وفي الحديث عند أحمد وأبي داود: «فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار» وروى الدارمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلين» ودأبهم في الخداع والنفاق وطاعة الشيطان كدأب آل فرعون والذين من قبلهم من الغابرين وكانت عادة فرعون الخداع وإذا ظهرت حجة موسى تعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه! واعلم أن التظاهر بالإسلام أمر مطرد في الأمم الغابرة فقد حكى تعالى عن فرعون قوله ﴿وما أهديكم إلا سبيلاً الرشاد﴾ وذلك حين خادع قومه فاتبعوه

وما أمره برشيد وسديد وإنما هو غي وشر عتيد! ولما كانت القضية في الاتباع نبه الحق تعالى قائلاً عليماً ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وهو نظير قول الرجل المؤمن حين رد على فرعون مبيناً أن سبيل التوحيد إنما ينجع في اتّباعه ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ثم حث على محاسن الأعمال وترك السيئ من الخلال مبيناً أن عمل المنافقين لا يصح بدون الإيمان موضحاً شرطه واصلاً بذلك على طريق البيان للبيان ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وإذا فهمنا قوله عز وجل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أدركنا حكمة مجيئها بين قوله ﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وبين قوله ﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لأنه يداخل هذا الخبر طاعتهم للشيطان وإظهارهم الإسلام وإبطائهم النفاق والكفر الذي يوجب عقابهم كما دل عليه قوله قبله ﴿وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ كما دل على يهوديتهم ونصرانيتهم قوله بعده ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الإمام القرطبي: والمعني بهم قريظة والنضير في قول مجاهد وغيره. ومعنى قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لكل ما يقع من نفاقهم وخداعهم، عليم بسرهم وجهرهم،

ونظيره في سورة الرعد ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ وأشار في الآية الأولى ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله﴾ إلى إنكارهم دلائل الإلهية، وفي الثانية ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ إلى إنكارهم دلائل الربوبية.

وقد بلغ الحفاة العراة مبلغ فرعون واتخذوا شركاء في الأرض! فإذا أفرد الله وحده كفروا وإذا ذكر الشيطان وجنوده سكنت نفوسهم ولذلك أنزل فيهم ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرک به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ ولعل التشابه بين النظام الفرعوني والنظام الإسرائيلي كبير يصل إلى حد التطابق، فقد كان الشيطان والسحر عماد ملك فرعون وهو عماد حكم بني إسرائيل اليوم إذ جعلوا الأمم دويلات متصارعة وسحروا أعين الناس وطمسوا عقولهم عبر أجهزة الإعلام وحرفوا دين الإسلام، ثم استضعفهم فقتلوا أبناءهم في الفتن الداخلية والحروب السياسية المصطنعة...

قصة موسى ﷺ مع بني إسرائيل

قصة موسى ﷺ مع بني إسرائيل من أعجب القصص وفيها من العبر الكثير حيث كشف عز وجل فيها صفات بني إسرائيل وشدة جحودهم وصفافة وجوههم وعنادهم وتجبرهم! وفي ذلك درس للأمة المسلمة لتعرف حقيقة القوم وأساليبهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب، واستهزاءهم بالله عز وجل وبأنبيائه

إذ قالوا لنبيهم: أرنا الله جهرة، وقالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا، واتخذوا العجل، وتعنتوا في ذبح البقرة، وزعموا أنهم شعب الله المختار، وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة وهذا القول في حقيقته إنكار للآخرة... وقد نصح موسى لقومه ولقي في ذلك أشد العناء ولم تؤمن له ابتداء إلا ذرية من قومه ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ ولما جاوز الله بهم البحر وأغرق فرعون أمام أعينهم اقترحوا على رسولهم من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالأعلى عليهم كقولهم: اجعل لنا إلها، وقولهم أرنا الله جهرة، وأبوا دخول الأرض المقدسة وارتدوا على أدبارهم ووقعوا في الكفر وصدر منهم الخداع والمكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وأسرفوا في التعنت والعناد والاعتراض والإعراض وأنكروا البعث ويوم التلاق كما قال تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أي من لقاء البعث والرجوع إلى الحياة بعد الموت فهو خطاب للنبي ﷺ والمراد به من ينكر البعث كما قال صاحب الهداية. ولم يقتصر بنو إسرائيل على الخيانة والكفر بموسى ﷺ بل زادوا على ذلك بالاستهزاء والاستهبال حتى قالوا لرسولهم ﴿أتتخذنا هزوا﴾ وكانوا أبداً في التعنت واللجاج واقتراح الأباطيل ووقع في قصة البقرة تقديم ذكر الأمر بذبحها على ذكر القتل الذي هو أول القصة للدلالة على كمال سوء حالهم بتعدد جناياهم المتنوعة وتثنية التقرع عليهم بكل نوع على حدة فقد قالوا لنبيهم تمادياً في الفضاظة والغلظة والقسوة ﴿ادع لنا ربك﴾ وكان تعبيرهم بوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره غاية في الجفاء وإمعاناً في الاستهزاء! ولما أمرهم بامتنال ما أمروا به دون تعنت وتكرير للسؤال ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ زادوا في الاستفسار عن التعيين مكابرة وعناداً وتعنتاً وتسويفاً فشد الله عليهم،

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: «لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت
 عنهم ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى عليه السلام فشدد الله عليهم فقالوا: ادع الله لنا
 ربك يبين لنا ما هي» وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «ولو أنهم
 اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم» وفي
 الحديث عند الإمام مسلم: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم
 واختلافهم على أنبيائهم» وقولهم **(الآن جئت بالحق)** كُفرٌ لا محالة لأنه يدل أن
 ما جاء به من قبل كان باطلاً وقد تسبب عما تقدم كله أنهم ذبحوها **(وما
 كادوا يفعلون)** وأصل كاد أن يكون نفيها لنفي الفعل بالأولى كما قال
 الجمهور إلا أنها قد يستعمل نفيها للدلالة على وقوع الفعل بعد بقاء وجهه
 وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يقع وأشار الجرجاني إلى أن ذلك استعمال
 جرى في العرف وهو يريد بذلك أنها مجاز تمثيلي بأن تشبه حالة من فعل الأمر
 بعد عناء بحالة من بعد عن الفعل فاستعمل المركب الدال على حالة المشبه به في
 حالة المشبه وقال في "التسهيل": وتُنْفَى كاد إعلماً بوقوع الفعل عسيراً أو
 بعدمه وعدم مقاربتة. وذهب قوم إلى أن نفيها في معنى الإثبات وذلك لأنهم لما
 وجدوها في حالة الإثبات مفيدة معنى النفي جعلوا نفيها بالعكس كما فعلوا في
 لو ولولا ويشهد لذلك مواضع استعمال نفيها فإنك تجد جميعها بمعنى مقاربة
 النفي لا نفي المقاربة ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد فيكون قولهم ما كاد
 يفعل ولم يكد يفعل بمعنى كاد ما يفعل ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال من
 بقايا لغة قديمة من العربية تجعل حرف النفي الذي حقه التأخير مقدماً. والمعنى
 أنهم ذبحوها مكرهين أو كالمكرهين لما أظهروا من المماثلة وبذلك يكون وقت
 الذبح ووقت الاتصاف بمقاربة انتفائه وقتاً متحداً اتحاداً عرفياً بحسب المقامات

الخطابية للإشارة إلى أن مماطلتهم قارنت أول أزمنة الذبح. قاله صاحب التحرير والتنوير. وإنما كادوا أن لا يفعلوا خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل! وقد قالوا لنبيهم تعنتاً وتشكيكاً في نبوته: أرنا الجاني وهم يكتمون العلم به ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي من أمر الجاني الذي يسترون عليه لأنهم لا يقيمون الحد على شرفائهم، فكانوا يخافون أن تظهر المعجزة على يد النبي فتقام عليهم الحجة بنبوته وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه ليضعف يقينهم برسولهم، والخطاب هنا مبني على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم لحمل تبعثهم عليهم بناء على أن خُلِقَ السلف يسري إلى الخلف! روى الحاكم في المستدرک بإسناده عن النبي العدنان المبيّن للقرآن أنه قال: «لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان» ثم أمرهم تعالى بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة احتجاجاً عليهم في صحة الإعادة لأنهم لم يكونوا مؤمنين باليوم الآخر وكانوا مع إقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض وبأنه قادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين للبعث ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ وفي الكلام حذف تقديره: فقلنا اضربوه ببعضها فضرِبوه ببعضها فحيي وظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم فكان ذلك دالاً على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له وكأنه تعالى يقول لهم: كالذي أحياء في الدنيا يحيي في الآخرة وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها ويريكم تلك الآيات رجاء أن يحصل لكم عقل فيرشدكم إلى اعتقاد البعث الذي كانت قصة البقرة دليلاً عليه.

يوشع بن نون ودخول القدس

لما احتضر موسى عليه السلام استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل وجعلهم أمناء عليها واستخلف يوشع بن نون فنهض ببني إسرائيل وقادهم إلى دخول بيت المقدس وأقام فيهم شريعة التوراة، وجعل في كل سبط قاضياً، وسمي هذا العهد بعهد القضاة، ثم طلب بنو إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله فبعث الله لهم طالوت (ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله) وجاء بعد طالوت داود ثم خلفه سليمان وكان هذا أزهى عصورهم على الإطلاق.

(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) لما وعد سبحانه بإمامة بني إسرائيل وقص القصص حتى ختم بإمامة آل فرعون في الدعاء إلى النار إعلماً بأن ما كانوا عليه تجب مجانbته ومنابدته ومباعدته وكان من المعلوم أنه لا بد لكل إمامة من دعامة، تشوفت النفس إلى أساس إمامة بني إسرائيل التي يجب العكوف في ذلك الزمان عليها والتمسك بها والمبادرة إليها فذكر سبحانه ما وقع من المنة على بني إسرائيل بإنقاذهم من يد فرعون وتمكينهم بعده وإنزال التوراة عليهم بعد إهلاك الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين... ضياء لبني إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم وهدى أي بياناً لهم ورحمة لمن عمل بها منهم ليتذكروا نعم الله بذلك عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا، ولما بين سبحانه من غرائب أمر موسى عليه الصلاة والسلام وخفيّ أحواله ما يستحق البيان وكانت هذه الأخبار لا يقدر أهل الكتاب على إنكارها نوعاً من الإنكار وكان من

المشهور أي اشتهار أن النبي ﷺ لم يقف عليها إلا بوحي من الواحد القهار، أشار إلى المكان الذي وقع فيه ميقات موسى ﷺ من الطور وكتب الله له في الألواح فقال ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين﴾ والمعنى وما كنت بناحية جبل طور سيناء - في شق الغرب على يمين الطريق للمتجه من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام - في عالم الظهور حاضراً المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى ﷺ الأمر أي أمر إرساله إلى فرعون وقومه وما نريد أن نفعل من ذلك في أوله وأثنائه وآخره مجملاً فكان كل ما أخبرنا به مطابقاً تفصيله لإجماله وما كنت لتفاصيل ذلك الأمر الذي أجهلناه لموسى في ذلك المكان في أوقاته مع من شاهده منه من أهل ذلك العصر من السبعين الذين اختارهم أو غيرهم ممن تبعه أو صد عنه وأنت تخبر الآن عن تلك الأحوال إخبار مشاهدة وعيان بإيجائنا معجزة لك ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ ومعناه ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك أجيالاً كثيرة فتطاول على آخرهم - وهو القرن الذي ظهرت فيه - العمر أي أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين﴾ أي وما كنت ثاوياً في أهل مدين مع موسى ولكننا أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار المنسية تتلوها عليهم ولولاك ما أخبرتهم بما لم يشاهدوه ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ وهذه تخلصات من ذكر موسى إلى إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وإلزام الحجة على المعاندين من أهل الكتاب يعني إنك تخبر عن هذه الغيوب بحيث لم تخرم حرفاً وهم عالمون أنك أُمي لم تقرأ ولم تأخذ منهم ولم يكن ذلك إلا من

طريق الوحي. قال الإمام النسفي: "التنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك" في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة. وروى أبو نعيم عن عمرو بن عبسة قال سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى "وما كنت بجانب الطور إذ نادينا" ما كان النداء وما كانت الرحمة؟ قال: «كتاب الله كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي أدخلته الجنة» ومصدق ذلك فيما أخبر عنه جل جلاله وتعالى علاؤه أنه قال في أزلية أحديته في الحديث القدسي: «أنا الله لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي» وروى ابن أبي عاصم بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى بن عمران ﷺ كان يمشي ذات يوم في طريق فناده الجبار تبارك وتعالى: يا موسى فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً ثم ناداه الثانية: يا موسى بن عمران، فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فارتعدت فرائصه، ثم نودي الثالثة: يا موسى بن عمران إني أنا الله لا إله إلا أنا، فقال: لبيك وخر لله ساجداً، فقال: ارفع رأسك يا موسى بن عمران، فرفع رأسه، فقال: يا موسى إني أحببت أن تسكن في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي يا موسى فكن لليتيم كالأب الرحيم وكن للأرملة كالزوج العطوف، يا موسى ارحم ترحم، يا موسى كما تدين تدان، يا موسى نبئ بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد لمحمد أدخلته النار ولو كان خليلي إبراهيم وموسى كليمي، فقال: إلهي ومن أحمد؟ فقال: يا موسى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منه، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض والشمس والقمر بألفي ألف سنة، وعزتي وجلالي إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها

محمد وأمته، قال موسى: ومن أمة محمد؟ قال: أمته الحمادون يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل حال يشدون أوساطهم ويظهرون أطرافهم صائمون بالنهار رهبان بالليل أقبل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله، قال: إلهي اجعلي نبي تلك الأمة، قال: نبيها منهم، قال: اجعلي من أمة ذلك النبي، قال: استقدمت واستأخروا يا موسى ولكن يا موسى سأجمع بينك وبينه في دار الجلال» وروى الإمام الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نودوا يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني» وذكر الإمام القشيري في التحبير أن موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم قال: إني أرى في التوراة أمة أناجيلهم في صدورهم من هم؟ قال: تلك أمة محمد صلی الله علیه وسلم وأخذ يعدد فيهم الصفات الجميلة حتى اشتاق موسى إلى لقاءهم فقال له: لا تلقاهم ولكن إن شئت أسمعك أصواتهم فنأدى سبحانه أمة محمد صلی الله علیه وسلم وهم في أصلاب آبائهم فقالوا لبيك يا ربنا فقال تعالى: أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني. وفي المواهب عن ابن عباس رفعه قال موسى: يا رب فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي ظللت عليهم الغمام وأنزلت عليهم المن والسلوى فقال سبحانه وتعالى: يا موسى أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم كفضلي على جميع خلقي؟ قال: يا رب فأرينيهم، قال: لن تراهم ولكن أسمعك كلامهم فنأدهم الله تعالى فأجابوا كلهم بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك، وهم في أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم فقال سبحانه: صلاتي عليكم ورحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق عذابي أستجيب لكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله غفرت له ذنوبه. الظالم مغفور له والمقتصد في الجنات عند الله والسابق بالخيرات في

الدرجات عند الله. وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وإغاظه لهم ونكاية بهم فإنهم أنكروا أن تكون الأمة المحمدية أمة مرحومة!

عهد سليمان

{بسم الله الرحمن الرحيم}

البسملة أول آية في المصحف افتتح الله بها كتابه الكريم، وهذا الاستفتاح شريف بارع المعنى مبدوء به في جميع الكتب السماوية، وروى الرهاوي عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتَر» وفي رواية: «لا يبدأ فيه بالحمد لله» على أن الابتداء بالحمدلة إضافي سبقت البسملة، وروى الإمام الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يفتح صلاته بـ{بسم الله الرحمن الرحيم} وروي عن ابن عباس أن أول ما نزل به جبريل {بسم الله الرحمن الرحيم} وفي بعض طرق حديث خديجة وحملها رسول الله ﷺ إلى ورقة، أن جبريل قال للنبي ﷺ: قل {بسم الله الرحمن الرحيم} فقالها: فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»... الحديث. وذكر الإمام الغزالي في شرح جنة الأسماء أن الخزنة لجهنم تسعة عشر على عدد حروف آية الرحمة وهي تسعة عشر حرفاً جعلها الله تعالى برحمته جنة وستراً من عذاب الخزنة، فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم فقد تستر بجنة الرحمة ودخل في حصن الأمان، كذا قاله في خواتم الحاكم. وقال ابن برجان في تفسيره: فقوله {بسم الله الرحمن الرحيم} جمع القرآن كله، وقوله {الحمد لله رب العالمين} إلى آخرها شارح له كما القرآن كله شارح لسورة أم القرآن ولهذا سميت بأم القرآن. وروى الحاكم

عن سيدنا عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب» والاسم مشتق عند البصريين من السُمُو وهو العُلُوّ لأنه يعلو مسماه كما قال شارح الجوهرة، وعند الكوفيين مشتق من الوسم بمعنى العلامة. والباء للاستعانة، وعلى قدر درجة العبد في الاستعانة بالله تكون معرفته لمولاه. والله هو اسم علم دال على ذات الله تعالى الإله المعبود حقاً المتصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى والمنزه عن جميع العيوب والآفات المتفرد بوجوب الوجود ولم ولن يتسم بهذا الاسم غيره وهذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية الظاهرة والباطنة على الوجه الذي لانهاية له كما هو أهله سبحانه لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية فأسماءه ما لها نهاية، وجميع الأسماء الإلهية داخلية في دائرة هذا الاسم ولهذا يقال له: الاسم الأعظم كما روى ابن مردويه وغيره عن ابن عباس قال: «اسم الله الأعظم هو الله» وهذا الاسم الجليل تعلق به جميع العوالم وهو المتبوع وجميع الأسماء تابعة له...والابتداء بهذا الاسم العظيم فيه من التوكل وحسن التدبر ما لا يخفى، قال سيدي عبد القادر الجيلاني قدس سره النوراني: "بسم الله" راحة الأرواح "بسم الله" نور الصدور "بسم الله" نظام الأمور "بسم الله" تاج الوثائق "بسم الله" سراج الواصلين، من قالها بلسانه شهد الدنيا ومن قالها بقلبه شهد العقبى ومن قالها بسرّه شهد المولى، وقوله "الرحمن الرحيم" كلمة جمعت بين قدرة ورحمة فالقدرة جمعت طاعة المطيعين والرحمة محقت ذنوب المذنبين. اهـ. والرسالة التي بعثها سليمان إلى حكومة سبأ والمختومة بخاتمه؛ دلّت دلالة تامة على التوحيد والنبوة، وقد اقتصرنا في تسع كلمات على

المقصود واشتملت في أوجز عبارة على تمام المقصود حيث أثبت فيها الصانع سبحانه وأمر بالانقياد لحكمه وسلطانه، فختم على عنوان الكتاب ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ وفي داخل الكتاب أقام الحجة في غاية الإيجاز ونهاية الإعجاز ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ و"أَنْ" خبر لمبتدأ مضمرة يليق بالمقام أي مضمونه أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُدْعِنِينَ طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ. والجملة الأولى أي البسملة تضمنت الإقرار له تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، والجملة الثانية تضمنت الإذعان للرسول المرسل والأمر بطاعته والافتداء به، وكل رسول أرسله الله تعالى إلى أمة من الأمم إنما كان قوله لأمتة ما معناه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وأطيعوني. ووصف الكتاب بالكریم لتصديره باسم الله وإقامة الدلالة على توحيده ولما تضمن من تعريف معنى الإسلام والدعوة إلى ربوبية الله عز وجل، وقد نال سليمان مملكة الدنيا والآخرة بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الملك الأعظم الذي أقام جنده للذب عن حمائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذي عم سلطانه تارة بالبيان وأخرى بالسيف والسنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي خص حزبه بالحفظ في طريق الجنان. وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله حُكماً يصادف حُكمه، وكان يسوق بني إسرائيل إلى الجهاد بالسياط ويضع الأغلال في أعناقهم كما جاء في سفر الملوك وسفر الأيام فلما مات قال بنو إسرائيل لابنه رحبعام: فك الأغلال من أعناقنا، فقال لهم: إذا كان أبي أدبكم بالسياط فسوف أؤدّبكم بالعقارب! ومملكة سبأ اتخذت شركاء في الحكم وأغرقت قومها في شرك العبادة كما حكى تعالى عن الهدهد أنه قال ﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزِينُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أن الشيطان زين لهم شرك العبادة فصدهم عن الحكمة، قال الإمام القرطبي: أي

عن طريق التوحيد وبين بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق. والسجود المقصود في قوله ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ سجدود الاعتراف له تعالى بالوحدانية والإقرار له سبحانه بالسلطة والحكم وهو شعار الإسلام وأما سجدود الصلاة فلا فائدة في تكليفهم به قبل أن يُسلموا، ونظيره قوله تعالى ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي أسلموا لله الذي خلق الشمس والقمر وانقادوا لأمره واخضعوا له بالدين الحنيفي. قال الإمام أبو حيان: وخفي ملك هذه المرأة ومكانها على سليمان وإن كانت المسافة بينهما قريبة كما خفي ملك يوسف على يعقوب وذلك لأمر أَرَادَهُ اللهُ تعالى. وتقلد بلقيس للإسلام بعد ذلك كان في خاصة نفسها دون قومها... وفي قوله ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ إشارة إلى ما استدل به إبراهيم في قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ بِاللَّهِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وذلك لأنه تعالى قادر على إخراج الشمس من المشرق بعد أفولها من المغرب فهذا هو إخراج الخبء في السماوات وهو المراد من قول موسى ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كما هو المراد من إنكار إبراهيم ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ والله أعلم، وأما إخراج الخبء من الأرض فهذا دليل على البعث والنشور وأن الرب يجب أن يكون علمه المحيط بالخفي والعلن واحداً على أبلغ وجه وأكده فإن سوق نفاقهم غير نافق عنده سبحانه وهذا يقتضي توبيخهم وهو ما استدل به إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ واستدل به موسى عليه السلام في قوله ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ وذكر الثعلبي والسمعاني والكرماني والبغوي أن فرعون وقومه كانوا يعبدون الشمس.

وكانت مملكة سبأ آية في القوة والحضارة! وحال سبأ مع شياطين الجن أشبه ما يكون بحال هؤلاء اليوم.

والعهد الذهبي لمملكة بني إسرائيل هو العهد الذي حكم فيه طالوت ثم داود ثم سليمان، وكان داود وسليمان أنبياء وملوكاً فأخضعوا بني إسرائيل وظلت دولتهم قوية مستقرة تسيطر على الأرض، وبعد موت سليمان انقسم بنو إسرائيل إلى دولتين دولة في الشمال تضم عشرة أسباط ملكها يربعام وعاصمتها نابلس ودولة في الجنوب تضم سبطين وهما يهوذا وبنيامين وعاصمتها القدس وملكها رحبعام فعهد هذا الأخير إلى اتخاذ الآلهة وتبديل دين الإسلام فتصدعت مملكته وعرفت بالقلق وكثرة تغيير الملوك حتى قضى عليهم الآشوريون وأجلوهم إلى ما وراء النهر وعاشوا رقيقاً وهكذا جرت سنة الله تعالى في المفسدين وهكذا يتحقق الوعد الرباني في كل مرة ﴿وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيُعَذِّبَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وأما مملكة يهوذا ومملكة بنيامين فقد سيموا بنار الفرس تارة ومطرقة الروم أخرى ثم تسللوا إلى الامبراطورية الرومانية بحيل إبليسية ودعوة شيطانية تطمس على عقولهم وتُخَفِّ بأحلامهم حتى بعث الله المسيح عيسى ابن مريم ليكشف أحوالهم وضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد من جديد، وكل نبي من أنبيائهم بعد موسى ﷺ إنما بُعث ليعيدهم إلى خطة الإصلاح الشاملة التي جاءت في التوراة ويكشف ما كتموه أو حرفوه منها كما يبيّن تعالى على لسان الجن ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فكل ما كان بعد التوراة هو تذكير بها وإعادة إليها وبيان لها مثل زبور داود وإنجيل عيسى وكأنه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة حتى نزل القرآن المهيمن على جميع الكتب

يخاطب البشرية كلها فأهّى الله به حضور التوراة وغير مسار الوحي وريادة البشر من الأمة الإسرائيلية إلى الأمة الحمدية.

عقيدة التثليث ومؤتمر نيقية

ابتدع أحبار بني إسرائيل عقيدة التثليث بعد عقيدة الحلول ورفع المسيح عليه السلام! وكانت دعوته عليه السلام إلى توحيد الربوبية وإقامة حكم الله في الأرض وإثبات ملكيته تعالى ومالكيته لهذا الوجود وما فيه ومطلق تصرفه وشمول قدرته كما دل على ذلك قوله تعالى بعد حكاية مقاتلتهم الشنيعة الدالة على كفرهم **(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير)** ولما أخبر تعالى عما صدر من أسلافهم من نقض الميثاق وذكر أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون أردف ذلك بيان قصتهم مع آخر رسلهم قبل البعثة الحمدية **(وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا)** أي وظنوا أن الله لا يصيبهم بفتنة ولا ينزل بهم العذاب في الدنيا جزاء على ما عاملوا به أنبياءهم فأعرضوا عن دلائل الرشاد من رسلهم وكتبهم وأسأؤوا وأفسدوا! واستفيد من قوله **(ثم تاب الله عليهم)** أنهم قد أصابهم القتل والتشريد بعد موسى عليه السلام وأن توبة الله عليهم كان مظهرها حين رفع عنهم العذاب وبعث إليهم المسيح عليه السلام وفي هذه الحملة لم يسند المولى عز وجل التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم تحافياً عن التصريح بنسبة الخير إليهم ويّين تعالى نقضهم ميثاقهم بقوله **(ثم عموا وصموا كثير منهم)** وقد وقف الكلام عند هذا

العمى والصمم الثاني ولم يُذكر أن الله تاب عليهم بعده فدل على شدة كفرهم حين تآمروا على قتل المسيح فأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها وأضلهم الله في شأن عيسى عليه السلام وأشار إلى ضلالهم بقوله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ ومقاتلتهم هذه جاءت بعد محاولة قتله إذ شُبّه لهم مُشَبَّه به وهو زعيمهم فقتلوه فاشتبه عليهم الأمر وقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ يعنون الذي دخل في طلبه فاحتاروا وضلوا فنعتهم الله تعالى بالضالين وبيّن الحق تعالى أن هذه النهاية في التمرد جاءت ردّاً على قول المسيح لهم منبهاً على موضع الدلالة على الوحداية ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ ثم بين تعالى صنفاً آخر من ضلالهم وحيرتهم بسبب تآمرهم على قتل نبيهم وأبطل دعوى التثليث بقوله مبدلاً من تلك النتيجة نتيجة أخرى وهو قولهم بالأقانيم ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ فأقنوم الأب وأقنوم الابن، وأقنوم الحياة، ويسمونها روح القدس، وقالوا: إن الابن لم يزل مولوداً من الأب ولم يزل الأب والدّاً للابن، ولم تنزل الروح منبثقة، بين الأب والابن والمسيح لاهوت وناسوت، أي إله وإنسان! ثم بين تعالى أن سبب إضلاله إياهم هو اعتداءهم على رسولهم ونقضهم العهد الوثيق في التوحيد ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ ولما أخبر أنهم كفروا وأشار إلى نقض قولهم، كان أنسب الأشياء بعده أن يعطف عليه ترهيبهم ثم ترغيبهم فقال سبحانه ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ثم تسبب عن هذا الإنذار بعد بيان العوار، الإنكارُ عليهم في عدم المبادرة إلى التوبة إيضاحاً لأن معنى كفروا: داموا عليه فقال ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله

غفور رحيم) ولما أبطل الكفر وأثبت التوحيد على وجه عام، أتبع ذلك تخصيص ما كفر به الضالون بالإبطال فكان ذلك دليلاً على حيرتهم وضلالهم مع وضوح الأمر في شأن المسيح وشأن أمه فقال تعالى على وجه الحصر في الرسالة رداً على من يعتقد فيه الإلهية (وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) ولما أوضح ما هو الحق في أمرهما حتى ظهر كالشمس بُعدهما عما أدعوه فيهما، أتبعه التعجب من تمام قدرته على إضلالهم فقال (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) ولما نفى عن المسيح وأمه الصلاحية لرتبة الإلهية للذات، أتبعها نفى ذلك من حيث الصفات مبيناً ضلالهم في شأن المسيح فقال (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا والله هو السميع العليم) ولما قامت الأدلة على بطلان قول اليهود والنصارى ولم يبق لهما علة، أمر تعالى حبيبه ﷺ أن ينهى الفريقين عن الغلو بالباطل وعن اتباع أهواء من قد أشرك من أسلافهم ورؤسائهم الذين كفروا ثم ازدادوا كفراً بتأمرهم على قتل المسيح فأضلهم الله تعالى ونعتهم بالضالين بسبب حيرتهم في أمر المسيح وأضلوا كثيراً من الروم والفرس والعرب بتماديهم في التشبيه والحلول والتجسيم والتثليث وضلوا بعد البعثة المحمدية بالإعراض عن السبيل الحمدي الذي لا سبيل في الحقيقة غيره (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) ولما نهاهم عن ذلك وقبحه عليهم علله محذراً منه مبيناً جزاء ذلك بقوله (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ إلا لأجل العصيان الذي هو تعمد الشرك والاحتيال في وجوهه واعتدائهم على

أنبيائهم وتعديهم حدود ربهم وأمره بجرأة ثم فسر ذلك بقوله **(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)** ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه مع ادعاء التنزيه! روى ابن جرير عن مجاهد قال: لعنوا على لسان داود فصاروا قردة ولعنوا على لسان عيسى فصاروا خنازير. وقال آخرون: مرّ داود على نفر منهم وهم في بيت فقال من في البيت؟ قالوا: خنازير، قال: اللهم اجعلهم خنازير فكانوا خنازير ثم أصابتهم لعنته ودعا عليهم عيسى فقال: اللهم العن من افتري عليّ وعلى أمي واجعلهم قردة خاسئين. وروى أبو يعلى في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على ذنب نهاه تعذيراً فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»** ثم وصف الحق الحاضرين بأنهم مستمرون على ذلك المنكر فقال مبيناً لما ترتب عليه معجباً من وقاحتهم واحترائهم عليه موجهاً الخطاب لأصدق الناس فراسة وأوفرهم علماً وأثبتهم توسماً وفهماً تسلياً له ﷺ وإيداناً بأنه الرئيس المعتنى بشؤونه **(ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون)** والمراد بالآية منافقوا أهل الكتاب الذين يوالون المشركين ويصافونهم وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهم على هذه الموالاة إنما يتبعون أسلافهم الذين ضلوا من قبل وأضلوا أتباعهم وضلوا عن السبيل الحمدي وليس أحد من أحبارهم ينهاهم عن ذلك ولا يقبحه عليهم مع شهادتهم عليهم بالضلال وكانوا يدعون الإيمان بالنبي ﷺ ثم خالفوه فمنهم من استمر على المخالفة ظاهراً وباطناً ومنهم من ادعى أنه

تابع واستمر على المخالفة باطناً، وحالهم اليوم بل وغداً مثل حالهم بالأمس، وموالاتهم للأمريكان ولأمم الكفر ظاهرة! ولما كانت الموالاة دليلاً على خروجهم عن حكمه تعالى أتبعها بقوله ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي ولو كانوا يؤمنون إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين أولياء يعنى أن موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم وأن إيمانهم ليس بإيمان ولكن كثيراً منهم فاسقون متمردون في كفرهم ونفاقهم! وإن شئت قلت: ولو آمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل إليه كما هو الواجب عليهم ما اتخذوا الكفار أولياء، وقد ذكر الحق تعالى في الآيات ثلاث خصال وجعلها سبباً للعن والطرده وموجبة للسخط والمقت، أولها: الانهماك في الإشراك والعدوان والإصرار على الكبائر والطغيان. وثانيها: عدم الإنكار على المحادين لله عز وجل والسكوت عنهم والرضا بفعلهم، وثالثها: موالاة الكفار والمودة معهم واتخاذ أخلاء منهم.

ثم بين تعالى انقسام بني إسرائيل إلى فرقتين: الأولى: اليهود والذين أشركوا من النصارى ﴿ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ والتعبير عن النصارى بالذين أشركوا أوفق لمقصود الآيات المتقدمة ولتمييز أنصار الله عن الصليبيين الذين انتظموا في سلك الإشراك بعد رفع المسيح، وعُطفوا هنا كما عُطفوا في قوله ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ والفرقة الأخرى: الذين أسلموا وهو معنى قولهم ﴿إنا نصارى﴾ أي إنا أنصار الله، وهذا في معنى قوله سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ وقرئ ﴿كونوا أنصاراً لله﴾ وكان القسيسون وهم العلماء، والرهبان وهم العباد

يجوبون الأرض المقدسة مع المسيح في دعوته ويتصدّون للكهنة الفاسدين والأئمة المضلين أحبار اليهود المخادعين الذين حرفوا التوراة وتأمروا على الإيقاع بالمؤمنين! وظل القسيسون والرهبان بعد رفع المسيح فارين بدينهم يطاهم الاعتداء والتضييق من ملئهم ولم يقف مكر اليهود عند حد الاضطهاد فحسب بل تعداه إلى العبث بالعقيدة النصرانية وإدخال ما ليس فيها وإحداث قضية جدلية يتيه فيها الناس وتلهيهم عن حقيقة الربوبية التي تمثل أصل الإسلام ومدار الصراع الأزلي بين الرسل والملأ، فظهرت عقائد التثليث والتجسيد وجاء العبقرى الإسرائيلي المدعو بولس وزعم أن المسيح يأتيه في المنام وأثبت الحلول والاتحاد في حق ابن مريم! وكان من تلامذته لوقا ومرقس... وهكذا تمكن بنو إسرائيل من تحريف الديانة المسيحية وتفريغها من جوهرها وجعلها مزيجاً من الوثنية الشركية ومن الطقوس الفارغة التي لا تصلح إلا لتعبيد الناس للملوك والسلاطين.

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني النضير يستعينهم في الدية فقالوا: نعم يا أبا القاسم انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك، فنزل ﷺ في ظل جدار فتأمروا بينهم في قتله وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه اليوم، فقال بعضهم لبعض: من رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش! وجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ فقام من المكان وتوجه إلى المدينة. وفعلتهم هذه مع الحبيب الأعظم ﷺ هي عين ما فعلوه مع رسولهم المسيح ﷺ حين تأمروا على قتله فإن دأبهم الفتك بالأنبياء والرسل

والمكر والغدر بهم ونبد العهود ونقض المواثيق وعبادة الشيطان والكفران كما
يصرح به قوله بعده ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر
نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتם الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتُم برسلي
وعزرتُمهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم
جنان تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾
ولما ذكر سبحانه ما أخذ عليهم من الميثاق ووعدهم لهم إن كفروا بعد ذلك،
ذكر أنهم نقضوا مرة بعد مرة إذ كفروا بموسى وتآمروا على قتل عيسى ثم
تآمروا على قتل النبي الأعظم عليه وعليهما الصلاة والسلام فأضلهم الله تعالى
عن سواء السبيل ونعتهم بالضالين بسبب اعتدائهم على أنبيائهم وكفرهم وسوء
أفعالهم وقد صرح تعالى في الآية الكريمة أن الضلال إنما يكون بعد الكفر لأن
الكافر يعظم قبحه ويفحش أمره بإخفاء الحق فإذا زاد قبح الكفر بلغ في الضلالة
النهاية القصوى وتاه في تيه الهوى وتردى في مهاوي الردى واستحق اللعنة على
أثر اللعنة ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن
مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم
فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا
ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة
وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ ونظيره قوله تعالى ﴿فبما نقضهم ميثاقهم
وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله
عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتنا عظيمًا،
وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن

وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) أي الذين اختلفوا في قتله شاكون في صفته على مقالات باطلة وذلك حين اشتبه عليهم أمره فاحتاروا وضلوا فنعتهم الله تعالى بالضالين.

بنو إسرائيل في جزيرة العرب

قبل نحو ثلاث مائة سنة من بعثة رسول الله ﷺ نزل بنو إسرائيل جزيرة العرب وفق النبوءات الموجودة في كتبهم منتظرين نبي آخر الزمان واستوطنوا نجداً والحجاز، ثم مُسَخ من كان في نجد وبقي من كان في الحجاز وعُرفوا ببني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، ثم أذن الله ببعثة سيد المرسلين وخاتم النبيين الذي جعله الله من ولد إسماعيل على خلاف العادة التي جرت في بني إسرائيل حيث كان الأنبياء من نسل يعقوب عليه السلام، لكن هذه المرة بُعث النبي من نسل الغلام الحليم وأُرسل إلى الناس كافة. وقد اعتاد بنو إسرائيل أن يكون أنبيأؤهم من نسلهم وأن تكون الرسالة فيهم، فلما نزلت في بني إسماعيل شرعوا في الكيد للنبي ﷺ وأُمته، ولكن أنى لهم أن يعاندوا قدر الله النافذ وأن ينالوا من الرسالة المحمدية التي تعهد الله بحفظ كتابها وسنة نبينا ﷺ من التحريف والدسائس، وقد حفظ الله تعالى هذا الدين منذ نشأته بقيام الدولة فلم يتركه لأهواء الأباطرة والحكام وملتهم، وهذا الأمر لم يتيسر لغيره فالمسيحية لم تقم لها دولة منذ نشأتها ولم يقم لها سلطان يحفظها ويمنع علماءها ويصون كتابها من التحريف، فحاربها أباطرة الروم وشردوا أهلها ونالتها دسائس اليهود وهي فتية لم يشتد عودها بعد، وكذلك الأمر بالنسبة لدعوة موسى عليه السلام فبعد عهد سليمان رجع بنو إسرائيل إلى عهدهم القديم في الشقاق والنزاع والكفر بآيات الله فضاعت دولتهم وضاع

معها الدين وصار ألعبوبة بيد الحكام والأخبار يحلون للناس ما وافق أهواءهم ويحرمون عليهم ما خالف أهواءهم، وأما دعوة الإسلام فقد قامت بها نبوة وخلافة راشدة وبعدها ملك عاض من الأمويين إلى العثمانيين وكل هؤلاء حفظوا الكتاب والسنة وجاهدوا في سبيل الله، ولم يتجرأ أحد منهم على تحريف كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ بل كانوا يحرسونهما كما يحرسون ملكهم فحفظ الله الدين بالسلطان حتى أذن عز وجل بالعلو الكبير لبني إسرائيل.

2- صفات بني إسرائيل

الصفة الأولى: العروبة

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً

الكلام في الآية معطوف على قوله ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ يريد بالمثل الإنجيل والضمير عائد في هذا التأويل على القرآن أي جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى، وقوله "فأمن" على هذا التأويل يعني به تصديق عيسى عليه السلام بأمر محمد ﷺ وتبشيره به فذلك إيمان به، وقوله "ومن قبله" أي من قبل الشاهد كتاب موسى عليه السلام. ومن معجزات القرآن أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أخبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانهم والاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه والحكم فجاء القرآن صادعاً بما لا يعلمه غير خاصتهم مما يقصون منه العجب! قال تعالى ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي

مبين، وإنه لفي زبر الأولين، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) والكلام متصل بما تقدم في أول السورة من قصة بني إسرائيل ولعله إشارة إلى خلاصهم بما سمعه موسى عليه السلام من الكلام القديم وبإتمام أمرهم بتهيئتهم للملك بإغراق فرعون وجنوده ونصرهم على من ناوهم في ذلك الزمان بعد تطهيرهم بطول البلاء الذي أوصلهم إلى ذل العبودية وذلك كله إشارة إلى تهديدهم اليوم بأنهم إن لم يتركوا لدهم فعل بهم ما فعل بفرعون وجنوده من الإهلاك الذي هو سنة قوم إبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المكذبين المستخلفين بتذليل واحد هو قوله **(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)** تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثرهم لا يؤمنون. ومعنى قوله **(وإنه لفي زبر الأولين)** أي أن ذكر القرآن وارد في كتب الأولين، وكلها بالعربية كما تقدم بيانه... وأما السريانية أو العبرانية فهذه ألسنة شركاء بني إسرائيل وقد ترجموا لهم الكتب الإلهية وفرّقوها عليهم ثم فسروها بالعربية لأهل الإسلام تشغيلاً كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»** الآية. يؤيد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت في ورقة بن نوفل: **«وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب»** وفي رواية: **«وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»** وذلك أن الكتب نزلت بالعربية ثم ترجمها أهل الكتاب إلى العبرانية فكان ورقة يكتب الكتاب

العربي والكتاب العبراني لتمكنه من الكتابين واللسانين، ولذلك أمر ﷺ زيد بن ثابت بتعلم السريانية معللاً ذلك بأنه لا يأمن اليهود على كتابه. والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غرضان: أحدهما: التنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة في أعلى طبقات اللسان العربي وأبعدها عن التكليف مع فخامة الألفاظ وجلالة المعاني وعلو النظم ورفافة السبك ووجازة العبارة ودقة الإشارة مع سهولة الفهم وقرب المتناول، وثانيهما: التورّك على المعاندين من العرب حين لم ينتفعوا بهديه فكانوا كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته، وفيه تقبيح لهم حين أهملوا التدبر فيه، وأن كماله في البيان والإفصاح يستأهل العناية به لا الإعراض عنه والله أعلم. ثم أخبر تعالى أن علم علماء بني إسرائيل آية بينة وأن تأمل ذلك كاف واعتباره شاف فقال **(أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل؟)** والضمير في "يكن" عائد إلى القرآن الكريم، وفي الاستفهام تنويه بالقرآن وحجة على التنويه السابق **(وإنه لفي زبر الأولين)** ففي سفر التثنية من كتب موسى ﷺ في الإصحاح الثامن عشر قول موسى: «قال لي الرب: أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» فدل هذا على أمرين؛ الأول: أن بني إسرائيل من العرب لقوله: «فيكلمهم بكل ما أوصيه به» ولا يستقيم أن يكلمهم بغير لغتهم، والثاني: أن هذا النبي من غير بني إسرائيل لقوله: «من وسط إخوتك» فإن الخطاب لبني إسرائيل ولا يكونون إخوة لأنفسهم، وإخوتهم هم أبناء أخي أيهم: إسماعيل أخي إسحاق وهم جميعاً من العرب، وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن العربي الموحى به إليه وهو يتلوه... وهذا دليل على أن بني إسرائيل من العرب على نحو ما ورد في الحديث عند البزار: **«إذا رأيت الحفاة العراة، يعني العرب**

أحسبه قال يتناولون في البنيان» وفي السنن الصغير للبيهقي: «إذا رأيت العالة الحفاة العراة يتناولون في البناء وكانوا ملوكاً» قال: ما العالة الحفاة العراة؟ قال: «العرب» والحق لائح لمن أبصر الدليل، والطريق واضح لمن طلب السبيل. وفي إنجيل يوحنا قول المسيح في الإصحاح الرابع عشر: «وأنا أطلب من الأب - أي الرب - فيعطيكُم مُعْزِياً - أي رسولاً - آخرَ ليُمكثَ معكم إلى الأبد...» ثم قال: فهو يُعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» وهذا دليل على أنهم من العرب فلو نزلّه باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر التذكير به، وهذا التعليم لكل شيء هو تنزيله بلسانهم، ومعلوم أن لسان بني النضير وقينقاع وقريظة كان عربياً وكان لهم في المدينة وخير من الفصاحة والبلاغة والعلم ما لا يحتاج من طالع السيرة فيه إلى توقف وكان منهم الشعراء المبرزون ومع ذلك لم يقدر أحد منهم على الطعن في القرآن ولا عارضه منهم إنسان. وقرأ الشامي بتاء التأنيث ورفع التاء (أو لم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) والتأنيث محمول على محذوف تقديره: "قصة الاستخلاف" والمعنى: أو لم تكن لهم القصة علم علماء بني إسرائيل به آية؟ والاستفهام إنكاري توبيخي تقريري. ونظم الآيات وسياقها يقتضي أنهم من العرب، والسياق لُجّة لا ساحل له، يمرُّ به الكثير ممن لا يحسن العوم فيه ساهين عنه، وهذا الباب لمن يستفتح من أنفع فواتح الفهم في القرآن. قال الإمام الحق أبو الفضل محمد المشدالي سقى الله عهده سحائب الرضوان وأسكنه أعلى الجنان: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار

الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوامز التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة والله الهادي. اهـ. ولغة العرب أفصح اللغات وأوسعها لاحتمال المعاني الدقيقة الشريفة مع الاختصار فإن ما في أساليب نظم كلام العرب من التعريض والرمز والإشارة، والتقديم والتأخير، والحقيقة والحجاز والكناية، وما في سعة اللغة من الترادف، وأسماء المعاني المقيدة، وما فيها من المحسنات، ما يلج بالمعاني إلى العقول سهلةً متمكنة. والتعرض لكون القرآن عربياً للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد الموافقة للكتب السابقة كما جاء في الحديث المتقدم، ويشير إليه شبه سيدنا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبيهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم» وشنوءة وثقيف قبيلتان شهيرتان من العرب، ويعضد ذلك قوله تعالى ﴿لتكون من المنذرين، بلسان عربي﴾ أي لتكون من الذين أنذروا باللسان العربي على نحو ما ورد في قوله سبحانه ﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ والتصديق يجزم بأن القرآن حاكم على ما اختلف فيه، فإنه بلغة العرب التي جاءت بها صحف إبراهيم وموسى واللغة التي تكلم بها عيسى

وأتباعه أصحاب الإنجيل، والمصدق: المخبر بصدق غيره، وحُذف مفعول المصدق ليشمل جميع الكتب السماوية. وفي مطلع سورة يوسف إشارة إلى أن بني إسرائيل من العرب **(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)** وتنزيل القرآن بالعربية التي هي لسان بني قينقاع وقريظة والنضير، هو تنزيل له على قلب سيدنا محمد ﷺ لأنه يفهمه ويفهمه قومه، إذ لو كان أعجمياً فلا يكادون يفطنون للمعاني والألفاظ كيف جرت... واستشكل بعضهم خبر ابن عباس رضي الله عنهما: «أول من نطق بالعربية إسماعيل» وأجاب شيخ الإسلام ابن حجر بما رواه الزبير بن بكار في النسب من حديث علي بإسناد حسن قال: «أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل» وبهذا القيد يجمع بين الخبرين فتكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان لا الأولوية المطلقة فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقي بن قطامي: إن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم. اهـ. قال النحاس: عربية إسماعيل هي التي نزل بها القرآن وأما عربية بقايا حمير فغير هذه العربية وليست بفصيحة وإلى هذا مال جماعة من الأئمة. فالعربية المبينة الفصيحة لغة إسماعيل عليه السلام وورثها عنه بنوه وأفصحهم هذا الحي من قريش كما جاء في الحديث: **«أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»** أي من أجل أني من قريش ثم صار لفظ العرب علماً بالغلبة عليهم كما جاء في الخبر الأطهر: **«حب العرب إيمان وبغضهم نفاق»** وهذا لا يعني أن غيرهم من العجم إنما أراد حياً من أحياء العرب ويؤيده قول البراء أن معناه في الأنصار وبالجملة فإن قريشاً ارتفعت في الفصاحة عن عننة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضعج قيس وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء. وعلى هذا

تكون لغة العرب على قسمين: قسم يرجع إلى ما قبل إسماعيل، والقسم الآخر العربية الفصيحة المبينة التي بها نزل القرآن وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهبٍ أوسع منحى وأوضح دلالة وأبين معنى وأجود فصاحة. وبهذا يتبين أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً وهي اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة وهي لسان عاد وثمود وجديس وحمير وجهرهم وقحطان والعماليق ولسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبنيه والأمم المستخلقة التي كانت قبل الخليل عليه السلام. وقد نزل القرآن الكريم ليصحح البناء الذهني للبشر ويكشف ويفضح المنافقين الذين يجيدون المداورة ويتقنون المراوغة وينفذون من الأسوار ويتبادلون المهام ويؤين مداخلهم ومسارهم ويقطع الطريق عليهم من خلال رسم خريطة عامة تُبين مسار انحرافهم واختلافهم وتفرقهم إلى فرق عديدة وضالهم في عقائدهم وانعكاس ذلك على الأمم التي سارت بسيرهم... وقد بين المولى سبحانه عنادهم وأقام الحجة عليهم ودعاهم إلى التفكير وكأنه يقول: إن هذا القرآن أنزلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم، فأزاح عنهم العلة ودمغهم بالحجة، وأخبر أنه لو نزل على الأعاجم لم يفهموه وكانوا أجهل الناس به **(ولو نزلناه على بعض الأعجمين)** قال الإمام القرطبي: أي على رجل ليس بعربي اللسان **(فقرأه عليهم)** بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا: لا نفقه. نظيره **(ولو جعلناه قرآنا أعجمياً)** الآية. وقال الإمام النسفي: جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وكذلك الأعجمي إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين والعجمي الذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح. اهـ. ثم أخبر سبحانه عن معرفة علماء بني إسرائيل به، وتمكّنه في

قلوبهم أشد التمكّن، وأخبر عن سابق حُكمه بالشقاوة عليهم، وصادق علمه بهم وأنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب يوم القيامة، حين لا ينفعهم إيمان ولا ندامة، فقال **(كذلك سلكناه في قلوب المجرمين)** أي هكذا نولج القرآن في قلوبهم لتقوم الحجة عليهم، فإنهم يعرفونه ويفهمونه ويدركون خصائصه إذ هو بلغتهم وإنما يكابرون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل، ثم بيّن تعالى أن هذه عادته فيهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم... ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك أحداً من المستخلفين إلا بعد إرسال من ينذرهم عذابه عز وجل ذكرى لهم وتبصرة **(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون، ذكرى وما كنا ظالمين)** والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض، ثم نفى سبحانه اللبس عن القرآن بقوله **(وما تنزل به الشياطين)** أي ليكون سحراً أو كهانة أو أضغاث أحلام **(وما ينبغي لهم وما يستطيعون)** أي لا يصح ولا يستقيم لهم تلقي كلام الله تعالى الذي الشأن أن يتلقاه الروح الأمين، وما يستطيعون تلقيه **(إنهم عن السمع لمعزولون)** لأنهم مادة الشر والهلكة فبينهما تمام التباين، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب أبطل دين الشرك الذي تقلدته أخبار بني إسرائيل وناضلت عليه بالأكاذيب وابتدأ بخطاب الرأس ليكون ذلك أدعى لقبول الأتباع فقال **(فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين)** وهذا الكلام لكل من سمع القرآن في الحث على تدبره معناه ومقصده ومغزاه ليعلم أنه في غاية المباشرة للشياطين وضلالهم والملاءمة للمقربين وأحوالهم وليعطف عليه قوله **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** قال الإمام البقاعي: المقصود الأعظم به النذارة لكف الخلائق عما يثمر الهلاك من اتباع الشياطين الذين اجتالوهم عن دينهم بعد أن كانوا حنفاء كلهم، وإنذار الأقربين يفهم الإنذار لغيرهم من باب الأولى ويكسر

من أنفة الأبعد للمواجهة بما يكره لأنه سلك به مسلك الأقرب ولقد قام ﷺ بهذه الآية حق القيام. اهـ. ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالتواضع ولين الكلمة وبسط الوجه والبر على سبيل الاستعارة وأمره بالتوكل عليه في كل أموره ثم جاء بالصفات التي تؤنس المتوكل وهي العزة والرحمة، ولما ذكر تعالى أن الوحي تنزيل من رب العالمين وأنه ما تنزلت به الشياطين؛ تشوفت النفس إلى معرفة أحوال الذين تنزل عليهم فقال ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ ومناسبة ذكر الشعراء أنهم لما كانوا يزعمون أن للشاعر شيطانا؛ حسن أن يقارن بين القرآن وبين ما نظموه في كتبهم من الكذب والتمويه والخداع للطعن في القرآن! وتسمية السورة بالشعراء أدل دليل على ذلك، فالشعراء هم كهنة بني إسرائيل يتبعهم الشياطين. روى ابن جرير عن قتادة في قوله "يتبعهم الغاؤون" قال: يتبعهم الشياطين. وعن عكرمة قال: عصاة الجن. وفي قول: الغاؤون: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر. والغاوي: المتصف بالغواية وهي الضلالة. وقرئ ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ على التخفيف. وذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في الأديان المتخالفة والمذاهب المتصادمة والتيارات الفكرية الهدامة وتقييحهم الحسن وتحسينهم القبيح بأفانين الكلام، ففي كل شعب من شعاب الفسوق والجدال يهيمون، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يسلكون، وفي سباسب الطغيان والسفاهة يعمهون، وفي تيه الصلف والوقاحة يتيهون، ديدهم القدح في الدين، وتمزيق المسلمين! ثم بين الحق أنهم يقولون ما لا يفعلون وذلك من علامات النفاق فإنهم يُرغبون في التوحيد ويرغبون عنه، ويُنفرون عن الشرك ويصرون عليه! ثم إن الله تعالى لما

وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بياناً لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: أحدها: الإيمان ظاهراً وباطناً وهو قوله **(إِلا الذين آمنوا)** وثانيها: العمل الصالح من أقوال الشكر وأفعاله تصديقاً لدعواهم الإيمان وهو قوله **(وعملوا الصالحات)** وثالثها: أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق وهو قوله **(وذكروا الله كثيراً)** ورابعها: الرد على المشركين وقتالهم انتقاماً منهم ونصرة للمؤمنين وهو قوله **(وانتصروا من بعد ما ظلموا)** ثم انتقل إلى وعيد الظالمين وختم السورة بإنذارهم وتهديدهم وترهيبهم من التماذي في ضلالهم **(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)** لفرط تكذيبهم وتكبرهم عن قبول ما أرسل به ﷺ وأهم إنما كذبوه لأنه جاء بتوحيد الله تعالى ولأنه اختص بالرسالة من دونهم... وقد انعطف آخر السورة على أولها واتصل بعدها في وصف القرآن والكتاب المبين فسبحان من أنزله على النبي الأمين هدى للعالمين وآية بينة للخالق أجمعين باقية إلى يوم الدين مختصاً من بين الكتب بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق، وونت عنها خطا الجياد القرح، فكان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف، حتى يكون صدر يقينه أثلج، وسهم احتجاجه أفلج، قال تعالى في سورة يوسف **(إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)** وورد في سورة الزخرف **(إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)** ولسائل أن يسأل عن موجب هذا التخصيص لاتفاق الوارد في الآيتين لفظاً ومعنى في غير ما ذكر؟ والجواب عنه والله أعلم: أن آية سورة يوسف لما كانت توطئة لذكر قصصه عليه السلام ولم تتضمن السورة غير ذلك إلا ما أعقب به في آخرها مما يعرف بعجيب ما تضمنته ما كان غيباً، أنزل الله هذه السورة موفية من ذلك أتمه، ومعرفة من قصصه ومؤدية أكمله وأعمه، ليعلم

الجميع أن نبينا محمداً ﷺ لم يتلق ذلك القصص من أحد من أهل الكتاب إذ لم يكن عندهم منه نبأ، فكان قصصاً وآية معلماً بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام، وإظهار مزيد اللطف والعناية به، فالتعبير بالإنزال هنا بين، وأما آية الزخرف فلم تبين على أخبار بل أعقبت بآي الاعتبار والتلطف في التنبيه والتذكير قال تعالى ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ وهذا أعظم التلطف، ثم مضت أكثر آي السورة على نحو هذا الاعتبار وما يناسبه، وقد ذكر سيبويه رحمه الله في أقسام "جعل" كونها بمعنى "صير" فقوله تعالى "إنا جعلناه" أي صيرناه فالجعل هنا ليس بالجعل التكويني فإن القرآن العظيم كلام الله تعالى وليس بمخلوق فالمراد بالآية - والله أعلم - جعل الكتاب معتبراً هدى ونوراً والمنبهون به والمعتبرون بآياته المخاطبون به مخلوقون تقدمهم العدم وإنما صح خطابهم به مشاهدة بعد وجودهم، فصح بانتقال حالهم التصيير، وجل عن التغيير والحدوث كلام الحكيم الخبير، فكلامه سبحانه قديم ليس بمخلوق فيبدي ولا صفة لمخلوق فينفد، وبذلك وضح معنى الجعل هنا ومسوغه وأنه لا يناسب هنا غير ذلك ولا يناسب الآية الأخرى غير الإنزال فجاء كل على ما يجب. وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مشعر بأن أهل الكتاب لم يعقلوا أي ليسوا من أهل العقل. والعقل قوام الملك وأساسه، وزمام مقود الخير ومراسه، وفي الحديث عند الحارث: «أفضل الناس أعقل الناس» وفي رواية عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال له: «يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً» والعقل محله القلب وشعاعه متصل بالدماع، ولكون العقل سر الله الأعظم، وعالم الجمع الأكرم، والمدار الذي تدور عليه شؤون الدنيا والدين، والمنار الأوضح الذي يفرق به الشك عن

اليقين، ولعظم شأنه روي عن الأمير الكرار، ابن عم الحبيب المختار، سيدنا الإمام علي المرتضى عليه السلام أنه قال:

دواؤك فيك وما تبصر ... ودأؤك منك وما تشعر

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد بعث الله تعالى إمام العقلاء وسيد العلماء النبي الأعظم والرسول الأكرم من العرب، وجعل لسانه عربياً، وأنزل عليه قرآناً عربياً... فشرّف المولى سبحانه العرب على غيرهم من الأمم إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم وأنزل كتابه بلسانهم ولم يزل حباء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم مملكتهم الدنيا على الدهر، وجعل خلافته بين برهم وفاجرهم إلى يوم الحشر، فالأمم لهم تبع، تصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم... أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان» يعني أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لغيرهم على نحو ما ورد في الصحيحين: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن» ويدل له قوله في مسند البزار: «قدموا قريشاً ولا تقدّموها» وعلى هذا انعقد إجماع الصحابة ومن بعدهم. وفي صحيح الإمام مسلم: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» وفي رواية عند الإمام أحمد: «اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل».

ءأعجمي وعربي؟

افتتحت سورة فصلت بذكر كتاب عربي مفصل لقوم من العرب لم يخرج عن نمط كلامهم ﴿كتاب فصلت آياته قرءاناً عربياً لقوم يعلمون﴾ وفرّع عليه ذم الذين أعرضوا عنه ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ والآية تخلص لمعاني الشرع المفصلة باللسان العربي أي ما يقال لك من الوحي وتخطب به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرسل من قبلك الموحى إليهم بلسان عربي على نحو ما جاء في الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله وحياً قط على نبي بينه وبينه إلا بالعربية» وكما أشار قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ ثم فسر ذلك الذي قيل لجميعهم في استفهام على وجه الإنكار ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي﴾ والمعنى: كيف يلتقي أعجمي وعربي أي كيف يكون اللفظ أعجمياً والمخاطب عربياً وكيف يُلقى لفظ عربي إلى مخاطب أعجمي؟ وكيف يكون آية على قوم وهو شيء لا يعرفونه ولا يقفون على جنسه ليمتحنوا قواهم في معارضته؟ إذ أن مبنى الإنكار على تنافر حالي الكتاب والمكتوب إليه! فلو جعله الله قرآناً أعجمياً لاعترضوا عليه وقالوا: لولا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً حتى نفهمه، وكذلك لو جعل بعضه أعجمياً وبعضه عربياً لاعترضوا وقالوا: ءأعجمي وعربي؟ وكذلك الكتب السابقة لو نزلت بلسان أعجمي أو إلى أعاجم لكان منافياً لهذا المقصود ويؤدي إلى أشد الفرقة ويكون فهمهم لأحكامها ووقوفهم على حقائقها أصعب، ويكونون إلى الغلط والخطأ أقرب، وتؤدي بهم التراجمة إلى التنازع والتحريف، وربما قالوا لرسولهم عند اختلاف الألسنة: لا نفهم ما نزل، إذ قالوا ذلك مع

اتفاق اللغات فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ما نفقه كثيراً مما تقول! هذا هو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك؟ فانتفض الدليل على المنكرين، وظهر أن نزول الكتب بالعربية أقرب وأقطع لعذر الإسرائيليين. وحاصل معنى الآية: أنها تؤذن بكلام مقدر داخل في صفات القرآن، وهو أنه بلسان عربي بلغة من استخلفهم الله في الأرض إتماماً لهديهم فتعنتوا وتعللوا بالتعللات الباطلة، ومن إعجاز القرآن أنه يعالج رواسب الجاهلية في كل عصر بنفس اللفظ القرآني ثم تتكرر مواقف المشركين، فكما اعترض المشركون القدامى على هذا الكتاب الذي خاطبهم بلسانهم، فكذلك يقف المشركون الجدد موقفهم العنيد! فالآية تبين طريقتهم في التعنت والمراء والجدل...والحقيقة التي تخلص من وراء هذا الجدل هي أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هي التي تدرك حقيقته فتتهدي به وتشتفي، أما أهل القسوة والجفاء والكبر وغلظ القلوب فيثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم فلا تخاطبها بشاشة هذا الكتاب ونداءاته وهوائه كما تقدم في حكاية قولهم ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم نعوذ بالله من إسدال الحجاب وحسرة العتاب - ثم إنهم يخافون منه لأنه يذكرهم ويذكر آلهتهم ويخاطب فطرتهم ويكشف تأمرهم فيقولون ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ لأنه مشتمل على شتمهم، ونظير هذا قوله تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ وقد جاء هذا الاعتراض منهم تعقياً على ذكر الاستخلاف في مكان الأمم الغابرة لأنهم يريدون قرآناً لا يتعرض لهم ولا يكشف إجرامهم ولا ينال من آلهتهم وشركائهم...وقد أنذرهم

تعالى بصاعقة كصاعقة عاد وثمود تناسب شناعة جرمهم وقبح ذنبهم، ثم أتبعه بتبيان أنه تعالى هيأ لهم أخذاناً وأصحاباً من غواة الجن يستولون عليهم ولما ذكر كفرهم بالربوبية، أتبعه ذكر المؤمنين الذين أقروا له تعالى بالربوبية وبشرهم بنزول الملائكة عليهم بالتثبيت والمدد والتأييد (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) روى الترمذي في نوادر الأصول عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله ما ذكرك بهذه الآية؟ قال: «إِنَّ الْيَهُودَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ فَلَمْ يَسْتَقِيمُوا فَقَالُوا فِي عَزِيرِ النَّبِيِّ عليه السلام مَا قَالُوا، وَإِنَّ النَّصَارَى قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ فَلَمْ يَسْتَقِيمُوا فَقَالُوا فِي الْمَسِيحِ مَا قَالُوا، وَإِنْ أُمِّي قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَمْ يَشْرِكُوا» وروى ابن المبارك عن الزهري أن عمر بن الخطاب تلا هذه الآية "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا" قال: «استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب» وعن أبي بكر الصديق أنه قال: «استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره ولم يلبسوا إيمانهم بشرك» وعن ابن عباس أنه قال: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله» والربُّ: هو السيد المالك التام الملك والمَلِكُ المنفرد بالملك، استحق ذلك لأنه سبحانه خلق العباد وسوَّاهم وقام على تربيتهم ورعايتهم، ووجوه تربية الله لعباده كثيرة غير متناهية من حين أخرجهم من العدم إلى حين رجوعهم إليه، فسبحانه من رب لا يُضاهى، ومنان لا يحصى كرمه ولا يُستقصى، ونحن في تيار بحر جوده ساجدون، وعن إقامة مراسم شكره قاصرون. أخرج ابن ماجه والترمذي والدارمي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قُلْ رَبِّي اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ» وقد تضمنت هذه السورة الكريمة من بيان عظيم القرآن العربي وجلالة قدره ما لا يوجد في غيرها من

أقرأها كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة! فلا يحول في وهم العربي الفصيح إلى معارضة بعض آيها أدنى تشوّف.

تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة

تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة لا يوجد له ذكر في الكتب الإلهية والآثار النبوية ولم يرد في أشعار العرب الذين كانوا يفتخرون بأنسابهم وعرييتهم فالمستعرب هو الداخل في العروبة من بعد عجمة وهذا عيب وشين وسبة عند العرب! ولازم هذا التقسيم أن إسماعيل عليه السلام وقريشاً وعرب اليمن مستعربون! والأعجب من هذا أن يجعل بعضهم تعلّم إسماعيل العربية من جرهم دليل على عجمة إبراهيم! وهو قول مردود بشواهد الآثار وبدلائل القرآن قصد به أهل الكتاب ترويج مزاعمهم أن كتبهم لم تنزل بالعربية! والحق أن إبراهيم عليه السلام كان عربياً فإنه عليه السلام لما جاء يطالع تركته في البلد الأمين ولم يجد إسماعيل سأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغي لنا ثم سأها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى... ثم لما جاء في المرة الأخيرة قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما

حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو بيني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" والقصة رواها البخاري بطولها في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما... وروى البخاري أيضاً من حديث سلمة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً» وأسلم قبيلة عربية يمانية قحطانية، وقد بَوَّب الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله: "باب نسبة اليمن إلى إسماعيل" وهذا ظاهر قول أبي هريرة في قصة هاجر حيث قال وهو يخاطب الأنصار: «قتلك أمكم يا بني ماء السماء» وأما حديث أبي ذر رضي الله عنه: «وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك» ففي إسناده إبراهيم بن هشام وقد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل، ويعارضه ما هو أقوى منه وهو عموم الآيات والأخبار السابقة... والحق أن مصدر تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة مأخوذ عن أهل الكتاب وقد اختلف البعض في صحة هذا التقسيم لكنهم غفلوا عن الغاية الأساسية من هذه المكيدة التي تتعلق بعروبة بني إسرائيل واتهام قريش بأنهم مستعربون ليثبت في الأذهان أن إبراهيم لم يكن عربياً وبالتالي بنو إسرائيل ليسوا من العرب! وقد حرص بنو إسرائيل أشد الحرص على صرف أنظار المسلمين عنهم وتوجيهها إلى الأعاجم من الروم والفرس وأخلاق الأمم المتهوددة ثم رَوَّجوا لمصطلح الصراع العربي الإسرائيلي! وكأن بني إسرائيل لا علاقة لهم بالعرب! والحق أنه صراع إسماعيلي إسرائيلي حول الاستخلاف في الأرض، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً

إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا
فأنزل الله فيهما "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم" الآية.

عقيدة التجسيم والتشبيه والحلول والاتحاد

ذكر العلامة الألوسي عن محمد بن كعب القرظي أنه لما رفع عيسى عليه الصلاة
السلام اجتمع طائفة من علماء بني إسرائيل فقالوا: ما تقولون في عيسى؟ فقال
أحدهم: أتعلمون أحداً يحيي الموتى إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال: أتعلمون أن
أحداً يعلم الغيب إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال: أتعلمون أن أحداً يرى
الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ قالوا: لا، قال: فما الله تعالى إلا من هذا وصفه
أي حقيقة الإلهية فيه. وعلى هذا قوله تعالى **(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو
المسيح ابن مريم)** وذلك جار على حكاية حال عقيدة بني إسرائيل من تشبيههم
الخالق بالمخلوق فلذلك كانوا يرتكبون التحيل في نصوص الشرع ويتبعون
الآيات والأخبار التي توهم التشبيه عند أهل العقول الضعيفة، وكتبهم ملاءم
بالقول بالتجسيم والتشبيه وأن الله جالس على عرشه بذاته! كقولهم في كتاب
فتح المجيد: - حاكين الإجماع كما هو عادتهم في التحريف والكذب على علماء
الإسلام والكذب في النقل - : **أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى
على عرشه بذاته. وكقولهم في سفر التكوين: وقال الرب هو ذا الإنسان قد
صار كواحد منا يعرف الخير والشر.** ولورد عليهم نذكر جملة من أقوال علماء
الإسلام توضح سفه القوم وخيانتهم وافتراءهم وكذبهم وجراؤهم على ربهم
وثبت أن من زعم أن الله تعالى استوى بذاته على العرش فهو مشبه محدد مجسم
مخالف لمنهج السلف في الآيات التي توهم بظاهرها المشابهة فقاعدة السلف في

ذلك مشهورة مستفيضة وهي: "أمروها كما جاءت" ولذا قال الإمام أحمد: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر. أي لا كما يخطر للبشر أن يستوي بذاته على عرشه. وقال الإمام مالك: "الرحمن على العرش استوى" كما وصف به نفسه، ولا يقال: كيف، وكيف عنه مرفوع. وقال ابن عساكر الدمشقي في كتابه تبين كذب المفترى في حق الله تعالى: كان ولا مكان فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه. وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك لأنه لو كان على شيء لكان محمولاً ولو كان في شيء لكان محصوراً ولو كان من شيء لكان محدثاً والله يتعالى عن جميع ذلك. وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: تعالى الله عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات. وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأيسر: كان الله تعالى ولا مكان قبل أن يخلق الخلق وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء وهو خالق كل شيء. وقال عليه السلام: من قال لا أعرف الله أفي السماء هو أم في الأرض فقد كفر! لأن هذا القول يوهم أن للحق مكاناً، ومن توهم أن للحق مكاناً فهو مشبه. وقال الإمام الغزالي في قواعد العقائد: تعالى الله عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان. وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: إن الله تعالى ليس كمثله شيء وإنه منزّه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق. وقال الإمام الشافعي: إنه تعالى كان ولا مكان فخلق المكان وهو على صفة الأزلية كما كان قبل خلقه المكان لا يجوز عليه التغيير في ذاته ولا التبديل في صفاته. وقال

الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي الحاتمي: إذا أردت أن تتحقق أن فوقيته ليست فوقية مكانية وإنما هي الفوقية الحقيقية بقهر الربوبية للعبودية فتفكر في حديث: «كان الله ولا شيء معه» ولم يتجدد له بخلقه للسموات علو ولا بخلقه للأرض نزول ولا بخلقه للعرش استواء. اهـ. وزعمهم أن الله استوى بذاته على عرشه يفيد بدلالة الالتزام:

١ - كون الله تعالى محدوداً لأن حده العرش الذي استوى عليه بذاته.

٢ - كون الله تعالى محصوراً في شيء وهذا الشيء أسفله العرش.

٣ - كون الله تعالى محمولاً لأنه استوى بذاته على عرشه ومن استوى بذاته على شيء كان الشيء حاملاً له بدهاة.

٤ - كون الله تعالى جسماً لأن الجسم ما له طول وعرض وعمق.

ولا شك أن قولهم "بذاته" يفيد القياس فهو إما بقياس العرش أو أقل منه أو أطول منه! وكل هذا يفيد الطول والجسمية جل الله تعالى عن ذلك كله. وبالمقارنة بين قولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقولهم: إن الله استوى بذاته على عرشه، نجد أن قولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم أفاد التجسيم والتشبيه والحد والحصر بدلالة المطابقة، وقولهم: إن الله استوى بذاته على عرشه أفاد ذلك بدلالة الالتزام، والمؤدَّى واحد والعياذ بالله تعالى وهو تصوير الخالق وتشبيهه بالمخلوق! وهذا هو عين اعتقاد المشركين الأوائل إذ كانوا يثبتون الإله إلا أنهم يعتقدون أنه تعالى جسم وذو صورة إلا أنه محتجب بالسموات وهذا ما حملهم على اتخاذ الصور والأصنام! فهذه عقيدتهم - والعياذ بالله - ثم بعد هذا

كله يرون أنهم أهل الكتاب والسنة! ويكفرون غالب علماء الأمة ثم يعتزون إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهو منهم بريء. واستدل أبو علي الفارسي في التذكرة بقوله رحمه الله: «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون» على تكفير المشبهة فحمل الحديث عليهم وأنهم المراد بقوله "المصورون" أي الذين يعتقدون أن لله صورة. قلت: ويلحق بذلك نحتهم الصور ومضاهاهم الله عز وجل في خلقه كما لا يخفى.

والحرب بيننا وبين أهل الكتاب إنما هي حرب على العقيدة والمنهج وصراع بين الحق والباطل! فلا بد أن تكون هناك أمة تقف في مواجهة الأئمة المضلين تثبت الثواب وتعيد راية التوحيد، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه، ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه. قال الإمام العز بن عبد السلام في كتابه ملحة الاعتقاد: ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه ولذلك جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف... ولم تزل هذه الطائفة المبتدعة قد ضربت عليها الذلة أينما ثقفوا ﴿كَلِمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا تلوح لهم فرصة إلا طاروا إليها ولا فتنة إلا أكبوا عليها، وأحمد بن حنبل وفضلاء أصحابه وسائر علماء السلف برآء إلى الله مما نسبوه إليهم واختلقوه عليهم. اهـ. روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال أناس: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئاً

فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه» والمعنى أنه تعالى يُجري الامتحان فيمتحنهم في العقيدة فيأتيهم الله في صورة أي يأتيهم بصورة ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة: أنا ربكم صدّقه المنافقون ورأى المؤمنون عليه من علامات المخلوق ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم ويستعيذون بالله منه، وقد أنكر القاضي عياض على الخطابي في احتمال أن تكون هذه الاستعاذة من المنافقين وقال لا يصح أن تكون من قول المنافقين ولا يستقيم الكلام به. قال الإمام النووي: وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب ولفظ الحديث مصرح به أو ظاهر فيه وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا سمات المخلوق، وأما قوله ﷺ: "فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون" فالمراد بالصورة هنا - والله أعلم - الصفة ومعناه فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونها بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا وإنما عبر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إيها ولجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة وأما قوله ﷺ: "فيتبعونه" فمعناه يتبعون أمره إياهم بذهابهم إلى الجنة أو يتبعون ملائكته الذين يذهبون بهم إلى الجنة والله أعلم. وذكر ابن حجر في الفتح عن القرطبي أنه قال: هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب

وذلك أنه لما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنهم منهم ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت كما جاز في الدنيا امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع أنا ربكم فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه وأنه منزّه عن صفات هذه الصورة فلماذا قالوا نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب أي يزل فيوافق المنافقين قال: وهؤلاء طائفة لم يكن لهم رسوخ بين العلماء ولعلمهم الذين اعتقدوا الحق وحوموا عليه من غير بصيرة قال: ثم يقال بعد ذلك للمؤمنين: هل بينكم وبينه علامة؟ قلت: وهذه الزيادة أيضاً من حديث أبي سعيد ولفظه "آية تعرفونها" فيقولون: الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيصير ظهره طبقاً واحداً أي يستوي فقار ظهره فلا ينثني للسجود وفي لفظ لمسلم: "فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له في السجود" أي سهل له وهون عليه ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقاً واحداً كلما أراد أن يسجد خر لقفاه وفي حديث ابن مسعود نحوه لكن قال: فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه قال: "فيكشف عن ساق فيقعون سجوداً وتبقى أصلاب المنافقين كأها صياصي البقر" وفي رواية أبي الزعراء عنه عند الحاكم: "وتبقى ظهور المنافقين طبقاً واحداً كأنما فيها السفافيد" وهي بمهملة وفاءين جمع سفود بتشديد الفاء وهو الذي يدخل في الشاة إذا أريد أن تشوى ووقع في رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عند ابن منده: "فيوضع الصراط ويتمثل لهم ربهم" فذكر نحو ما تقدم وفيه: إذا تعرف لنا عرفناه وفي رواية العلاء بن عبد الرحمن: "ثم يطلع عز وجل عليهم فيعرفهم نفسه ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني فيتبعه المسلمون" وقوله في هذه

الرواية: فيعرفهم نفسه أي يلقي في قلوبهم علماً قطعياً يعرفون به أنه ربهم سبحانه وتعالى وقال الكلاباذي في معاني الأخبار: عرفوه بأن أحدث فيهم لطائف عرفهم بها نفسه ومعنى كشف الساق: زوال الخوف والهول الذي غيرهم حتى غابوا عن رؤية عوراتهم ووقع في رواية هشام بن سعد: "ثم نرفع رؤوسنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم فنقول: نعم أنت ربنا" وهذا فيه إشعار بأنهم رأوه في أول ما حشروا والعلم عند الله. وفي لفظ للبخاري: «ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم وأصحاب الأوثان مع أوثانهم وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغيرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتهم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتهم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يجبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم وإنما سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا، قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان

يسجد لله رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم» الحديث.

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم) اعلم أيها المجبول على الفطرة القويمة أنه قد دل الدليل استحالة حصر الحق في أينية ولكن الشارع ﷺ لما قال للجارية: «أين الله؟» وعلم أنها ليس في قوتها أن تعقل موجدتها إلا على ما صورته في نفسها خاطبها بذلك فكان من حكمته ﷺ أن سأل الجارية بمثل هذا السؤال ولذلك لما أشارت إلى السماء قال فيها إنها مؤمنة ولم يقل إنها عالمة ولو كانت عالمة لم تقيده في السماء فعلم أن للعالم أن يصحب الجاهل في جهله تنزلاً لعقله، والجاهل لا يقدر على صحبة العالم بغير تنزل، وإيضاح ما قررناه أن الشرائع كلها إنما نزلت بحسب ما وقع عليه التواطؤ في لسان المرسل إليهم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فاحفظ نظرك من مصيبة التجسيم والتشبيه والفوقية والتحتية، وأجر الصفات مجراها، وحكم النص في اعتقادك ورد تأويله إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، ولتحقق في نظرك أن القدرة المخلوقة في المخلوقين التي تنتج عنها أفعالهم هي خلقه سبحانه (والله خلقكم وما تعملون) له التصرف المطلق والحكم الأعم الأتم، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإذا ثبت هذا ثبت أن الحدث لا يحيط إلا بالحدث فكل ما خطر ببالك هالك، وقد عرفنا القرآن العظيم حقيقة ذلك، ففي كتاب الله (ليس كمثله شيء) ونفي المثلية قطع الأفكار عن الخوض بلجة التشبيه، وقال جلت عظمتة (وهو بكل شيء محيط) وإثبات الإحاطة المطلقة بالأشياء قطع وهم الفوقية والتحتية، وقال تبارك اسمه (وهو على كل شيء قدير) والتفرد بالقدرة محق قدرة الغير، وقال سبحانه (كل شيء هالك إلا وجهه) والبقاء المطلق قطع

مجانسة الحدث الهالك بحال من الأحوال وشأن من الشؤون (ألا إلى الله تصير الأمور) وقد ورد على لسان المحدث الكبير صاحب الروايات بالأسانيد العالية والإجازات الكثيرة المتتالية، سيد الأولياء وسلطان الأدلاء، السيد أحمد الرفاعي رحمته الله: أن التوحيد وجدان تعظيم في القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه... أي سادة! نزهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحلول تعالى الله عن ذلك وإياكم والقول بالفوقية والسفلية والمكان واليد والعين بالجارحة والنزول بالإتيان والانتقال فإن كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يدل ظاهره على ما ذكر فقد جاء في الكتاب والسنة مثله مما يؤيد المقصود فما بقي إلا ما قاله صلحاء السلف وهو الإيمان بظاهر كل ذلك ورد علم المراد إلى الله ورسوله مع تنزيه الباري تعالى عن الكيف وسمات الحدوث وعلى ذلك درج الأئمة، وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله، ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم لأنه أصل الكتاب، والمتشابه لا يعارض المحكم، أي سادة! اطلبوا الله بقلوبكم هو "أقرب إليكم من حبل الوريد"، "أحاط بكل شيء علماً" الدين النصيحة، إذا قلتم لا إله إلا الله فقولوها بالإخلاص الخالص من الغيرية ومن خطورات التشبيه والكيفية والتحتية والفوقية والبعدية والقريبة وخذوا نتائج الأعمال بخالص النية فقد قال سيد البرية عليه أفضل الصلاة والسلام والتحية: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وصونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما

تشابه من الكتاب والسنة لأن ذلك من أصول الكفر. اهـ. قال الإمام المازري في شرحه على صحيح الإمام مسلم المسمى "المعلم بفوائد مسلم" عند حديث الجارية منزهاً الله عن الأين المشير للمكان ما نصه: إنما أراد النبي ﷺ أن يطلب دليلاً على أنها موحدة فخطبها بما يفهم قصدًا إذ علامة الموحدين التوجه إلى الله إلى السماء عند الدعاء وطلب الحوائج لأن العرب التي تعبد الأصنام تطلب حوائجها من الأصنام والعجم من النيران فأراد ﷺ الكشف عن معتقدها: هل هي ممن آمن؟ فأشارت إلى السماء وهي الجهة المقصودة عند الموحدين كما ذكرنا، وقيل: إنما السؤال بـ(أين) هاهنا سؤال عما تعتقده من جلالة الباري سبحانه وعظمته، وإشارتها إلى السماء إخبار عن جلالته تعالى في نفسها، والسماء قبلة الداعين كما أن الكعبة قبلة المصلين فكما لم يدل استقبال الكعبة على أن الله جلت قدرته فيها لم يدل التوجه إلى السماء والإشارة إلى السماء على أن الله سبحانه فيها. اهـ. فالسؤال بـ(أين) أراد به المنزلة والرتبة في صدرها كما يقال أين فلان من فلان؟ وأين زيد منك؟ توسعاً في الكلام ولا يراد بذلك إلا الرتبة والمنزلة. قال القاضي عياض في كتابه "إكمال المعلم بفوائد مسلم": لا خلاف بين المسلمين قاطبة محدثهم وفقههم ومتكلمهم ومقلدهم ونظارهم أن الظواهر الواردة بذكر الله في السماء كقوله **(ءأنتم من في السماء)** أنها ليست على ظاهرها وأنها متأولة عند جميعهم. اهـ. وقال الإمام النووي في كتابه "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" نقلاً عن القاضي عياض ما نصه: وهل بين التكييف وإثبات الجهة فرق؟ وهذا استفهام إنكاري من القاضي عياض وإقرار من الإمام النووي يريدان بذلك أن من قال بالجهة فقد كيّفه! وقال الإمام بدر الدين بن جماعة في كتابه "إيضاح الدليل في قطع حجج أهل

التعطيل": فإن قيل: نفي الجهة عن الموجود يوجب نفيه لاستحالة موجود في غير جهة، قلنا: الموجود قسمان: موجود لا يتصرف فيه الوهم والحس والخيال والانفصال، وموجود يتصرف ذلك فيه ويقبله، فالأول ممنوع لاستحالته، والرب لا يتصرف فيه ذلك إذ ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر فصح وجوده عقلاً من غير جهة ولا حيز كما دل الدليل العقلي فيه فوجب تصديقه عقلاً وكما دل الدليل العقلي على وجوده مع نفي الجسمية والعرضية مع بعد الفهم الحسي له فكذلك دل على نفي الجهة والحيز مع بعد فهم الحس له...ومن انتحل قول السلف وقال بتشبيهه أو تكيف أو حمل اللفظ على ظاهره مما يتعالى الله عنه من صفات المحدثين فهو كاذب في انتحاله بريء من قول السلف واعتداله. اهـ. وبهذا يتبين أن حمل المتشابهات في الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين وإنما هو رأي لليهود والنصارى ومن تبعهم من أهل النحل الضالة كالمشبهة والجسمة. وكذلك كان في هذه الأمة من زعم أن الله تعالى جسم مصور في السماء وهذا تصديق للحديث الشريف: «لتبعن سنن بني إسرائيل» فإنه لما مضت الخلافة الراشدة تراكمت الفتن كما أخبر رسول الله ﷺ وظهرت طوائف المشبهة والجسمة فهؤلاء وزان أولئك. وقضية سيدنا عمر رضي الله عنه مع صبيغ العراقي وضربه إياه المرة بعد المرة حتى ترك ظهره دبرة لسؤاله عن المتشابه مشهورة حتى قال له: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برأت. قال الإمام أبو العباس القرطبي في كتابه "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم": وقوله ﷺ للجارية: «أين الله؟» هذا السؤال من النبي ﷺ تنزل مع هذه الجارية على قدر فهمها إذ أراد أن يظهر منها ما يدل على أنها ليست ممن يعبد

الأصنام ولا الحجارة التي في الأرض فأجابت بذلك وكأنها قالت: إن الله ليس من جنس ما يكون في الأرض و"أين" ظرفٌ يُسأل به عن المكان كما أن "متى" ظرفٌ يسأل به عن الزمان... وهو لا يصح إطلاقه على الله بالحقيقة إذ الله تعالى منزّه عن المكان كما هو منزّه عن الزمان بل هو خالق الزمان والمكان ولم يزل موجوداً ولا زماناً ولا مكاناً وهو الآن على ما عليه كان ولو كان قابلاً للمكان لكان مختصاً به ويحتاج إلى مخصّص ولكان فيه إما متحركاً أو ساكناً وهما أمران حادثان وما يتصف بالحوادث حادث. ونقل عنه تلميذه الإمام أبو عبد الله القرطبي في تفسيره فقال ما نصه: قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعوا المتشابه لا يخلون أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وإصبع تعالى الله عن ذلك أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه السؤال، فهذه أربعة أقسام :

الأول: لا شك في كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

الثاني: الصحيح القول بتكفيرهم إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور ويستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا كما يُفعل بمن ارتد.

الثالث: اختلفوا في جواز ذلك بناء على الخلاف في جواز تأويلها وقد عُرف أن مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها فيقولون:

"أمروها كما جاءت" وذهب بعضهم إلى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله في اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها.

الرابع: الحكم فيه الأدب البليغ كما فعله عمر بصيغ. اهـ.

وهنا مسألة لا بد منها وهي أنه ليس دين عبدة الأصنام كون الصنم خالقاً للسماء والأرض وإنما كان لهم فيه تأويل وقد ذكر الإمام الرازي عن أبي معشر أن السبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان! وبنو إسرائيل عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الأصنام. واعلم أن لحديث الجارية روايات أخرى منها ما رواه الإمام أحمد في المسند عن الشريد: أن أمه أوصت أن يعتق عنها رقبة مؤمنة، فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: عندي جارية سوداء نوبية فأعتقها؟ فقال: «أنت بها» فدعوتها فجاءت، فقال لها: «من ربك؟» قالت: الله، قال: «من أنا؟» فقالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» وروى الدارمي بإسناد حسن عن الشريد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: إن على أمي رقبة وإن عندي جارية سوداء نوبية أفتجزئ عنها؟ قال: «ادع بها» فقال: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». واعلم أيها الموقن أن فرعون لما طلب حقيقة الإله تعالى من موسى الكليم لم يزد موسى الكليم على ذكر صفة الربوبية ثلاث مرات فإنه لما قال ﴿وما رب العالمين﴾ ففي المرة الأولى ﴿قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ وفي الثانية ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ وفي المرة الثالثة ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وكل ذلك إشارة إلى الربوبية وأما فرعون لعنه الله فإنه قال ﴿يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب

أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى) فطلب الإله في السماء فعلمنا أن وصف الإله بالربوبية وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى وسائر جميع الأنبياء، وأما وصفه تعالى بكونه في السماء فذلك دين فرعون وأشياعه.

وقال جمع من السلف والخلف: إن من اعتقد أن الله في جهة فهو كافر كما صرح به العراقي وبه قال أبو حنيفة ومالك والشافعي وأبو الحسن الأشعري. وقال الإمام النووي في كتابه "روضة الطالبين" نقلاً عن المتولي ما نصه: وأما التفصيل فقال المتولي: من اعتقد قدم العالم أو حدوث الصانع أو نفى ما هو ثابت للقديم بالإجماع أو أثبت ما هو منفي بالإجماع كالألوان أو أثبت له الاتصال أو الانفصال كان كافراً. وقد جمع إمامنا الشافعي رحمته الله جميع ما قيل في التوحيد بقوله: من انتهض لمعرفة مدبره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبه، وإن اطمأن إلى عدم الصرف فهو معطل، وإن اطمأن لموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد. واعلم أن علماء الإسلام ما صنفوا كتب العقائد ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله تعالى وإنما وضعوها إرادعاً للخصوم الذين ألدوا وجسموا وشبهوا وجاؤوا بكل تليس فطلب علماء الإسلام إقامة الأدلة القطعية عليهم ليرجعوا إلى ما جاءت به الرسل عن ربهم عز وجل لا غير، وكان السلف في القرن الأول ومنتصف القرن الثاني يمسكون عن التأويل فلما حدث قول الناس في معاني الدين بما لا يلائم الحق لم يجد أهل العلم بداً من توسيع أساليب التأويل الصحيح لإفهام المسلم وكبت الملحد فقام الدين بصنيعهم على قواعده وتميز المخلص له عن ما كره وجاحده، وكلٌ فيما صنعوا على هدى. ثم لا يخفى أن الشخص إذا أراد حفظ عقيدته من الزيغ والفساد والشبه والضلالات فليأخذه من القرآن العظيم والسنة الصحيحة، وليترك العوام على ما هم عليه من

الإيمان على قدر فطرته فإن عقائد العوام صحيحة ولو لم ينظروا في كتب العقائد لأن الله أبقاهم على معرفة الحق وتنزيهه بالفطرة.

الصفة الثانية: النفاق والاستهزاء

استقرّ في أفهام الناس أن مفهوم النفاق بعيد عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد ساعد على ذلك تصوّر شخصية عبد الله بن أبيّ بن سلول التي غدت تلازم خيال المسلم حين يتلو الآيات الناطقة بأحوال المنافقين، والحقيقة أننا التفتنا إلى الفرع وغاب عنا الأصل! فأصل النفاق هو نفاق أحبار بني إسرائيل الذين تظاهروا بالإسلام عند مقدمه عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وغرّروا أتباعهم ليصنعوا صنيعهم! وهم أصل الشرور في كل زمان وهم أصحاب الخبرة الطويلة في النفاق والطعن في الدين وإدخال العقائد الباطلة فيه كما تشير الآيات التالية:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿وَقَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَلَكِنْ هُمْ مُنْكَرُونَ﴾

﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنُوا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾

وكان غرض كبار منافقي أهل الكتاب أن يشكّلوا جيشاً لتخذيل المؤمنين في الشدائد كما حصل يوم أحد حين تخلف المنافقون عن الغزوة فدعا رسول الله ﷺ على أهل الكتاب وقال: «اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق» رواه الإمام أحمد.

ومن كبراء منافقي بني إسرائيل: زيد بن اللصيت، وكنانة بن صوريّا، ورافع بن حريملة وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك. ومنهم رفاعة بن زيد بن التابوت: وهو الذي بُعث لموته ريح شديدة عند مرجع رسول الله ﷺ من تبوك فقال: «بُعثت هذه الريح لموت منافق» فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة قد مات في ذلك اليوم. وغير هؤلاء نفر من بني إسرائيل امتنعوا النفاق بعد عصر النبوة ليدسوا سمومهم في دين الإسلام متبعين خطوات وليّهم إبليس! ومعنى استهزاؤهم: إيمانهم ثم كفرهم وإظهارهم خلاف ما يظنون كما أخبر الله عنهم أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وأما استهزاء أتباعهم وشركائهم فبتضاحكهم وتغامزهم وتعرضهم للمسلمين بالألفاظ المؤذية في الوجه. ولما ذكر تعالى في سورة الرعد كفرهم بالموحي وما أوحاه إليه وما اشتد تعلقه به، عطف على ذلك تأسية بالموحي إليه ﷺ لأن الحاث على تميز الإجابة إلى الآيات المقترحات استهزاء الكفار فقال (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذهم

فكيف كان عقاب) وقد دلت الآيات المحكمات على أن قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات كانوا أهل نفاق وأهل هزء حسبما يقتضيه النظم الكريم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين، المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم، كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون، ألم يأتهم نبال الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ومعنى قوله (وخضتم كالذي خاضوا) أي وخضتم في النفاق والاستهزاء بآيات الله ورسله كالخوض الذي خاضوه! وقد ذكر علماء الآثار عن الفراعنة أنهم موحدون وأن ديانتهم كانت توحيدية وأن الأهرامات مكتوب على متونها بالفرعونية: واحد أحد ليس له ثاني! فحصلت المشابهة بين الفريقين في النفاق والمكر والخديعة وادّعاء الإيمان والاهتداء وحقية ما هم عليه والاستهزاء بالوحي والموحي والموحي إليه. ونظيره ما جاء على لسان موسى عليه السلام (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله

لغني حميد، ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) وردُّ الأيدي في الأفواه تمثيل لحال المنافقين وقت افتضاحهم، قال ابن عطية: ويحتمل أن يتجوز في لفظة الأيدي أي أنهم ردوا قوتهم ومدافعتهم ومكافحتهم فيما قالوا بأفواههم من التكذيب فكان المعنى: ردوا جميع مدافعتهم في أفواههم أي في أقوالهم، وعبر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضع أشد المدافعة والمرادة ويحتمل أن يكون المعنى أنهم ردوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم إشارة على الأنبياء بالسكوت واستبشاعاً لما قالوا من دعوى النبوة ومما ذكر أن يكون المعنى ردوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسل تسكيناً لهم ودفعاً في صدر قولهم - قاله الحسن - وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

هم العدو فاحذرهم

هذا الوصف يكشف لنا حقيقة النفس الملتوية المريضة المعقدة ويوحى بضخامة الدور الذي يقومون به للإيقاع بالمسلمين ومدى الفتنة والاضطراب الذي يحدثونه بالمؤمنين! والعجيب أن لفظ **(العدو)** لم يأت معروفاً بالألف واللام سوى في هذه الآية التي تشخصهم بصورة فاضحة ساحرة توجب أخذ الحذر من هذا الصنف المطموس الفارغ الجبان الفزع الحاقد الماكر الكامن المختبئ في الصف. والتعريف في العدو يفيد تأكيد قصر صفة العداوة عليهم وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل عداوة غيرهم في جانب عداوتهم منزلة العدم، فإن أعدى الأعادي العدو المُداري وتحت ضلوعه الداء الدوي! وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر

بالحذر منهم، والمراد - والله أعلم - الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد، والآية تصورهم أبداً مقنعين يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف، يتوجسون من كل صوت وهاتف يحسبونه يطلبهم **(يحبسون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم)** والعدو المكاتم أشد من العدو المجاهر المراغم **(قاتلهم الله)** وهذا الدعاء من الله يفيد نزول اللعنة عليهم، وهو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، وقول الله قضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه، فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا.

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت

في الآية استنهاض للهمم، واستجاشة للعزائم، وتحديد للقيم والغايات والأهداف التي يعمل لها كل فريق! والطاغوت: الشيطان، ويفسره قوله بعده **(فقاتلوا أوليائه)** الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً **(فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: والذين كفروا يقاتلون في سبيل الشيطان؟ والجواب: أنه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب على عادة العرب في استثقالها تكرار اللفظ الواحد بعينه فيما تقارب من الكلام، زيادة على ما في ضمن الطاغوت من الطغيان وهو في الأصل كل ما يُطغي الإنسان فجاء ذلك على ما يجب والله أعلم، ومن الوارد على هذا الرعي قوله تعالى **(يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)** وسبيل الطاغوت: الشرك، وسبيل الله: الإسلام، والمراد بكيد الشيطان: تدبيره**

وهو ما يظهر على حربه من الكيد للمسلمين والتدبير لتأليب بعضهم على بعض، ولذلك جاء الأمر بقتال أوليائه المعبر عنهم في الآثار المتواترة الصحاح بـ«**قرن الشيطان**» فإذا قوتلوا ضعف كيد الشيطان لأن عاقبته الذلة والهزيمة، ألا ترى أنه يخذل أوليائه وينكص على عقبه حين تتراءى الفتتان ويتدانى الفريقان؟ ورصفُ الآيات يستتبع حملة استنهاض ضخمة للأمة يتم خلالها كشف الأعداء المختبئين في الصف المستهزئين بالله ورسوله ورسم مواقعهم واستجاشة العزائم لقتالهم، حتى تعرف الأمة أعداءها الذين ركبهم الشيطان ليفتح بهم في بنائها كُوأً ومنافذ، وتعرف وسائلهم وطرائقهم ومدى وقوفهم لأنبياء الله وأوليائه وللهدى وحملته في كل الأجيال والأزمان لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته، قاسية قلوبهم غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ولا يدعون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم... وقوام هذا الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر فإن افترقا تحول السيف إلى رقاب الأمة يضرب بعضها بعضاً.

ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون

هذه الآية معطوفة على ما قبلها من أخبار أهل النفاق، وضمائر الجمع عائدة إليهم، قصد منها إبطال ما يموّهون به على المسلمين من تأكيد كونهم مؤمنين بالقسم على أنهم منهم! والفرق: الخوف الشديد، واختيار صيغة المضارع للدلالة على التجدد وأن ذلك دأبهم، ومقتضى الاستدراك في قوله **(ولكنهم قوم يفرقون)** أنهم ليسوا منكم أي كافرون، فحذف المستدرك استغناءً بأداة الإستدراك، وذكر ما هو كالجواب عن ظاهر حالهم من الإيمان بأنه تظاهر باطل

وبأن الذي دعاهم إلى التظاهر بالإسلام: أنهم متصفون بصفة الجبن فيفرون من المؤمنين، فحصل إنجاز بديع في الكلام إذ استغني بالذكور عن جملتين محذوفتين، وحذف متعلق **(يفرون)** لظهوره أي يخافون من عداوة المسلمين لهم وقتالهم إياهم أو إخراجهم ولذلك يدسون أنفسهم في الصف، لا عن إيمان واعتقاد ولكن عن خوف وتقية وعن طمع ورهب ثم يحلفون أنهم من المسلمين، وهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم فهي الفاضحة التي تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق! وقوله **(لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمحون)** بيان للجملة **(ولكنهم قوم يفرون)** والمُدْخَلُ المخبأ، وقُرئ بفتح الميم وسكون الدال، فهم متطلعون أبداً إلى مخبأ يحتمون به ويأمنون فيه، حصناً أو مغارة أو نفقاً، مذعورون مطاردون، يطاردتهم الفرع الداخلي والجبن الروحي، والجموح: حقيقته النفور، واستعمل هنا تمثيلاً للسرعة مع الخوف وإثباتاً لصورة مزرية للجناء المرائين، لا يرسمها إلا هذا الأسلوب القرآني العجيب الذي يبرز حركات الأبالسة شاخصة للحس. وقد أخبر تعالى أنهم يبادرون إلى الحلف على نفي قولهم كذباً لأنهم تطبعوا على الكذب فقال **(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم)** والآية صادقة على بني إسرائيل وهم داخلون فيها دخولاً أولياً ولا ينافيها خصوص سبب النزول، وكلمة الكفر: الكلام الدال عليه، وإن شئت قلت: هي جنس لكل كلام فيه تكذيب أو استهزاء بالله ورسوله، والمراد بقوله "بعد إسلامهم" إظهارهم الإسلام لا وقوع حقيقته أي بعد أن أظهروه في الصورة والله أعلم، وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإسلام إلى ضميرهم دون تعريف الإسلام باللام المفيدة للحقيقة أي بعد إسلام هو من شأنهم وهذا تعريض بأنه الإسلام الصوري غير الحق ونظيره قوله

تعالى ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقريب منهما قوله سبحانه ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا قَوْلًا أَسْلَمْنَا﴾ والمقصود إظهارهم الإسلام وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم والله أعلم، والكفار يضطرون إلى الاستسلام عند الهزائم والشدائد وعند نزول البلاء بهم كرهاً ثم يعودون إلى شركهم عند زوال ذلك كله كما أخبر تعالى عنهم بذلك في مواضع كثيرة من القرآن. ونَبَّه سبحانه على أنهم لا يراعون عن الكذب ومخادعة المسلمين فقال ﴿سِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لتعرضوا إعراضاً رضا، ولما أرادوا ذلك الإعراض إذا بهم يواجهون بالإعراض عن مجالستهم وذلك أشد مما حلفوا للتفادي عنه ﴿فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ أي فأعرضوا إعراضاً اجتناباً ومتاركة كما جاء في الخبر عن النبي الصادق الأبرار عليه السلام: «لَا تَجَالِسُوهُمْ وَلَا تَكَلِّمُوهُمْ» وينبئ عنه التعليل بقوله ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جُزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإنه صريح في أن المراد بالإعراض الاجتناب عنهم لما يفهم من القذارة والخبائث، والله أعلم. ثم بيّن تعالى أنهم يحلفون ترويحاً لخداعهم ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال كعب بن مالك: إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد.

وليُعلم الذين نافقوا

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ الكلام متصل بقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي وأنزل ما يفرق به

بين الحق والباطل، وقيل: الفرقان: النصر. ثم انتقل عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوجدانية ومحاجة أهل الكتاب فيها، وتسلسل البيان إلى موقفهم من دعوة المسيح، وتفنّن الحديث عن كشف مكائدهم ودحض شبهاتهم وإزالة تلبيسهم، وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم، وتحذير المؤمنين من مخالطتهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وأخذ الكلام بعضه بـجُجز بعض حتى انتهى إلى قوله (وليعلم الذين نافقوا) والآية تكشف عن حقيقة أساسية كبيرة تظهر في القتال وتبين في المعركة! فالحقيقة التي تمخضت عنها معركة أحد هي انكشاف العصابة اللعينة التي كانت تتوارى خلف ابن سلول كما تتوارى اليوم خلف شركائها، روى الطبراني في الأوسط عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة جيش فقال: «من هؤلاء؟» قالوا: هذا عبد الله بن أبي في ستمائة من مواليه من اليهود من بني قينقاع قال: «وقد أسلموا؟» قالوا: لا يا رسول الله قال: «مروهم فليرجعوا فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وروى الإمام أحمد عن رفاعه الزُرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربي» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق» هذه هي الحقيقة الكبيرة التي انجلت عنها معركة أحد، وبين كل معركة تخوضها الأمة مع أعدائها في أي ميدان تنكشف الأمة الملعونة، فهذه المعارك ليست كما يريد الحفاة العراة بل هي حرب مقدسة تتميز فيها الفتتان... فيها دروس وتجارب تؤهل للنصر الموعود

والنمو والارتقاء للأمة حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض وتنتهي بالخير والبركة، وهذا ما أراد الله سبحانه أن يعلمه للأمة الإسماعيلية وهو يريها بالأحداث في معركة أحد وبالتعقيب على هذه الأحداث... ألا ترى أنه ﷺ لما دعا على بعض كفار قريش نزلت الآية **(ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم)** فتاب الله عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم، وهذا بخلاف الذين أوتوا الكتاب فإنهم رأس كل شر وفتنة ومنهم تتشعب فنون الكفر والضلال... ولما قيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا - يعني إن كان في قلبكم حب الإسلام فقاتلوا للإسلام، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم - أجابوا بقولهم **(لو نعلم قتلاً لا تبغناكم)** وغرضهم التلبس والاستهزاء! وهو جواب يدل على غاية الخزي والنفاق، ثم إن رجوعهم عن القتال تحت راية المسلمين دالٌّ على كفرهم المصرح به في قوله **(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان)** وهذا تنصيص من الله تعالى على أنهم كفار، والمعنى أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم وظهر كفرهم! وقد صور نفاقهم بقوله **(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)** والجملة زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد إثر بيان خلوهم عما يوافقها، ولما حكى عنهم ما لا يقوله ذو إيمان أتبعه ما لا يتخيله ذو مروءة ولا عرفان فقال مبيناً لليهود الذين نافقوا **(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)** فقد روى البيهقي في دلائل النبوة من حديث موسى بن عقبة قال: «وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق فور الرجل وأظهروا النفاق والغش عند بكاء المسلمين ما

كانوا مستخفين وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهوروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب ولكنه طالب ملك تكون له الدولة مرة وعليه مرة وكذلك أهل طلب الدنيا بغير نبوة وقال المنافقون نحو قولهم وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابوا الذي أصابوا منكم».

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم﴾ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سبب نزول هذه الآية أن قوماً صافوا جماعة من اليهود فنهاهم الله تعالى عن ذلك. وقال قتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين نهي الله المؤمنين عنهم. قلت: اليهود هم الذين ابتدعوا فكرة النفاق منذ وجودهم يتحركون دائماً مع الريح المواتية لأهوائهم المشبعة لنهمهم دون التزام بمبدأ أو خلق ودون رعاية لشريعة أو دين! وفي السنن من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستضيئوا بنار المشركين» وقال الإمام القرطبي في تفسير قوله "لا يألونكم خبالاً" يعني لا يتركون الجهد في فسادكم يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة. وقال ابن جريج في قوله "ودوا ما عنتم" المعنى: ودوا أن تعتنوا في دينكم. وقال الألوسي: أي أحبوا عنتم أي مشقتكم الشديدة وضرركم. وقال السدي: تمنوا ضلالتكم عن دينكم. والآيات نزلت في رجال من المسلمين كانوا يواصلون منافقي اليهود لما بينهم من الصداقة والحلف والحوار فنهاهم تعالى عن مبايعتهم خوف الفتنة عليهم. والآيات تكشف عن

عمق الشر في نفوسهم وأصالة العدوان في نيتهم، وما هم اليوم إلا من عرفناهم بالأمس... يقاتلوننا بشتى الوسائل وأمكر الطرق... وكم انخدع المسلمون بهم فمنحوهم الود والثقة؟ وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم، والكيد لهم والدس ما واتتهم الفرصة في ليل أو نهار، لا يقلون عشرة، ولا يسترون عورة، ويحاسبون على النكير والقطمير، ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون، قلوبهم تتلظى بنيران الغيظ والكراهة والحسد والحقد، يغرون الإخوان على الإخوان، بالنميمة والبهتان، فموالاتهم خسران، وقطيعتهم رجحان، إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق، لا يؤمنون في حقهم، ولا يرجون في ملقهم، ظاهرهم ثياب، وباطنهم ذئاب، يقطعون بالظنون، ويتغامزون وراء المؤمنين بالعيون، ويتدربصون بهم من الحسد ريب المنون... صورة ناطقة للغيظ الكظيم والشر الدفين واضحة الملامح تكشف عن دحيثهم بفعل قاصر ألوت في الأمر عداه العليم إلى مفعولين لا يمنعونكم سوءاً "لا يألونكم خبالاً" ليفضح كل خالجة من أهل الكتاب في إعنات المسلمين والكيد والدس لهم ونثر الشوك في كل سبيل... فهل ينخدع بعدها المسلمون فيمنحوهم الود أو الثقة أو الولاء؟! فالفعل هنا قاصر عداه الجليل ليكون المسلم حصيفاً عاقلاً فلا يأمنهم، ولم يرد هذا التحذير مقصوراً على فترة تاريخية معينة، لا... ولكنها حقيقة مكشوفة نجدها في واقعنا اليوم بشكل ملموس حين تبلغ بنا الهزيمة الروحية إلى أن نجاملهم على حساب عقيدتنا بل نطيعهم فنلقى العنت الذي يتمنونه لنا ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا فنضعف ونستخذي! أجل... لقد شارفنا هذا المعنى وتلوح لنا بعضه من حيث إن الحال والتمييز فضلة قد يستغنى عنهما أما المفعول

فعمدة لا يصح معنى الفعل بدونه...فإن قيل: لم جاء العليم سبحانه بالفعل القاصر "ألو" ثم عداه ولم يأت بالفعل المتعدي "منع" وهو في معناه؟ قلنا: إن نفي الألو عنهم إثبات لصدده فيهم، فهم لا يفترون ولا يضعفون ولا يقصرون في إيذاء المؤمنين بل يجتهدون في إيذائهم! أما "منع" ففيه موقف سلبي لهذه البطانة...فالتضمين فتح كلا السبيلين على المؤمنين من هذه العصابة الجرمية...فإن تباعد عنك شيء من أسرار هذه اللغة فصره إليك بالتأني وحسن التأويل لأنه دقيق المسلك يسفر عن وجهه عند الفحص عن كنهه **(قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)** واعلم أن من الأدب أن تمشي حيث مشى بك الشرع وتقف حيث وقف بك، فتعقل فيما قال لك فيه: اعقل، وتؤمن فيما قال لك فيه: آمن، وتنظر فيما قال لك فيه: انظر...ولا تتعدّ إلى غير ما ذكر لك ونزل كل آية موضعها تكن ممن جُمع له القرآن وأُعطي الفرقان.

(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) أنزل الله تعالى هذه الآية توبيخاً لأهل الكتاب وأفرد ذكر هذين الملكين لكونهما وزيرَي رسول الله ﷺ كما جاء في المستدرک من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وزيراي من السماء: جبريل وميكائيل»** قال العلامة القرطبي: في الحديث دليل على أن المصطفى ﷺ هو أفضل من جبريل وميكائيل. اهـ. وهذا استنباط حسن وكلام سديد لأنه حيث كانا في المنزلة عنده ﷺ منزلة الوزيرين فمنزلة ﷺ عندهما منزلة الرئيس النبيل والامر الأصيل ﷺ وإن شأن الوزير أن يشد الأزر عند احتدام الأمر...ومن أجل هذا المنصب الوزاري نزل جبريل وميكائيل عليهما السلام يوم أحد يقاتلان إلى جانبي رسول الله ﷺ كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رأيت عن

يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام» ومعركة أحد كانت ابتداء مع أهل الكتاب وإن كانت صورتها مع كفار مكة الذين جرحوا وجهه وقتلوا عمه وكثيراً من أصحابه ألا ترى إلى دعائه ﷺ لقومه يوم أحد: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وأما كفر أهل الكتاب فقد دعا عليهم بعد المعركة قائلاً: «اللهم قاتل كفر أهل الكتاب» وكذلك معركة بدر فقد روى البيهقي في دلائل النبوة بسنده من حديث موسى بن عقبة قال: «وَأَذَلَّ بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين فلم يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله تعالى بين الشرك والإيمان وقالت اليهود: تيقنا أنه النبي الذي نجد نعته في التوراة والله لا يرفع راية بعد اليوم إلا ظهرت» وهذا ما يقتضيه سياق النظم الكريم ولحاقه فإنه تعالى بعد أن بيّن ضرب الذلة والمسكنة عليهم وإحلاله غضبه بهم وكشفَ عن نفاقهم وميل المؤمنين إليهم بالطباع لموضع إظهارهم الإسلام، أعقب ببيان ما منّ به على المؤمنين من التأييد والنصر فقال ﴿ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ والآيات السالفة والتي تليها دالة أوضح الدلالة على أن قصتها كلها في أهل الكتاب بالأصالة وإن دخل كفار مكة بالصورة فإن سياق الآيات هنا وفي سورة الأنفال التي نزلت في صدد غزوة بدر يوجب أن تكون في أهل الكتاب الذين نعتهم الله بصممهم عن سماع الحق وبكمهم عن القيل به وبيّن سبحانه أنهم ينقضون عهدهم في كل مرة فإنهم عاهدوا النبي ﷺ أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوه ثم نقضوا عهدهم فأمدوا

المشركين بالسلاح والعدة يوم بدر واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم أحد ثم نكثوا عهدهم يوم الخندق ومالوا مع الأحزاب وأمدوهم بالسلاح والأدراع! فتخصيص الآيات بكفار قريش تعطيل للقرآن وتحكم بلا برهان واتباع لأهواء أولياء الشيطان! إذ لم يبق على الأرض بعد حجة الوداع قرشي كافر. وقال ﷺ يوم فتح مكة: «اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشاً» وروى الطبراني في الأوسط والبخاري في البحر الزخار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «حب قريش إيمان، وبغضهم كفر» لأن من علامة صدق الحب حب كل ما ينسب إلى المحبوب فإن من يحب إنساناً يجب كلب محله فالحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحسوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ذلك وليس شركة في حب الله فإن من أحب رسول المحبوب لكونه رسوله وكلامه لكونه كلامه ومن ينتمي إليه لكونه من حزبه لم يجاوز حبه إلى غيره بل هو كمال حبه...وقد وقف أهل الكتاب من آيات القرآن موقف المكر والزيف والتعطيل حيث طرحوا كتاب الله وراء ظهورهم وتعلقوا بالمتشابه من آياته ليفتنوا الناس ويضلّوهم! وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا الموقف الذي يصل حاضرهم بماضيهم مبيناً عداوتهم لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال مبتدئاً بإفراد جبريل بالذكر أولاً اهتماماً بشأنه وتعظيماً لمقامه وإشادة بمكانته عند الله (قل من كان عدوا لجبريل) الآية. وثبت في الصحيح أنه ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب».

(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر فقد ضل ضللاً بعيداً) مناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما توعّد أهل الكتاب بالاستئصال والاستبدال بقوم آخرين وأمرهم أن يكونوا قوالين بالصدق شهداء لله بالوحدانية وذلك ببيان الكتاب واجتناب كتمانته وبيان حقيقة حالهم بياناً تاماً شافياً لا إشكال فيه ولو كانت الشهادة وبالأعلى على أنفسهم أو والديهم وذوي قرابتهم، أردف ذلك بآية أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات وهي أمره سبحانه بالإيمان بالشارع والمبلغ والكتاب الناهج لشرائعه المبين لسرائره الذي افتتح القصة بحقيقته وبيان فائدته، والخطاب لمنافقي أهل الكتاب الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم والتقدير: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب، قال صاحب الكشف والبيان عن تفسير القرآن: والمعنى: يا أيها الذين آمنوا في وجه النهار آمنوا في آخر النهار، وذلك قوله تعالى "وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار" الآية. اهـ.

ونحوه قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والإيمان بالله: الإقرار بوحدانيته وصمديته وجلالته وعزته وكبريائه وبكونه إلهاً ربّاً حكماً معبوداً ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بواسطة رسوله ﷺ إذ لولا الوسطة لذهب - كما قيل - المتوسط، فالإيمان به ﷺ واجب متعين، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام ولا توحيد إلا معه، وإذا أطلق الإيمان وأُفرد بالذكر فإنه يشمل التصديق العملي والقولي فيكون مفهوم الإسلام والإيمان عند إطلاقهما وإفرادهما بالذكر سواء، وإن اجتمعا كان بينهما فرق ظاهر ولذلك قال ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان في القلب» والدليل على أن محل الإيمان "القلب" قوله عز شأنه لأهل الإيمان (ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في

قلوبكم) والإيمان هنا يشمل الإيمان الاعتقادي القلبي والإيمان العملي والإيمان
 القولي أي الأقوال والأعمال والعقائد بدليل أنه تعالى قابله بأمور ثلاثة **(وكره**
إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أراد الكفر الاعتقادي والفسوق القولي
 والعصيان العملي... والمراد بالكتاب الأول: القرآن، والمراد من الكتاب الثاني:
 الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية والله أعلم، ويدل عليه قوله تعالى فيما بعد
(وكتبه) أي الإيمان بها في ضمن الإيمان بالكتاب المنزل على الرسول ﷺ على
 معنى أن الإيمان بكل واحد منها مندرج تحت الإيمان بذلك الكتاب، وهو ما
 ورد في حديث جبريل عليه السلام لما نزل على النبي ﷺ يسأله عن الإيمان فقال: **«أن**
تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» ولما كان التقدير: فمن آمن
 بذلك فقد اهتدى، عطف عليه قوله **(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله**
واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب
 الكفر لما أن كفرهم بهما كان مبنياً على الحسد المبني على طمع المنزول عليهم
 وبيان مكانتهم في الآخرة! وتقديم الملائكة على الكتب والرسول للتنبيه على
 عداوتهم لجبريل لأن الإضرار جار عليهم. ولما كان المتماذي بعد نزول هذا
 الهدى مارداً على النفاق موحداً للكفر نبه على إغراقه في البعد بغضبه سبحانه
 لمتماذيه مصوراً له بأقبح صورة **(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم**
ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) قال الحسن بن أبي
 الحسن: الآية في الطائفة من أهل الكتاب التي قالت: آمنوا بالذي أنزل على
 الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره. وذكر الإمام الطبري في الآية أقوالاً
 عديدة ثم قال: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عني بذلك أهل
 الكتاب الذين أقرؤا بحكم التوراة ثم كذبوا بخلافهم إياه ثم أقر من أقر منهم

بعيسى والإنجيل ثم كَذَّب به بخلافه إياه ثم كَذَّب بمحمد ﷺ والفرقان فازداد بتكذيبه به كفراً على كفره وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في تأويل هذه الآية لأن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين أعني قوله "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله" ولا دلالة تدل على أن قوله "إن الذين آمنوا ثم كفروا" منقطع معناه من معنى ما قبله فإلحاقه بما قبله أولى حتى تأتي دلالة دالة على انقطاعه منه وأما قوله "لم يكن الله ليغفر لهم" فإنه يعني لم يكن الله ليستر عليهم كفرهم وذنوبهم بعفوه عن العقوبة لهم عليه ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد "ولا ليهديهم سبيلاً" يقول: ولم يكن ليسددهم لإصابة طريق الحق فيوفقهم لها ولكنه يخذلهم عنها عقوبة لهم على عظيم جرمهم وجرائمهم على ربهم. قلت: الأولى ذكر ما هم عليه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها وهو الذي يلتزم مع قوله بعده ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وجاء عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الإمام البخاري: «هنا الفتنة - ثلاثاً - من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي الإعادة ثلاثاً إيماء إلى دولتهم الأولى المشار إليها بقوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ والثانية المشار إليها بقوله تعالى ﴿ثم آمنوا ثم كفروا﴾ والثالثة المشار إليها بقوله تعالى ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ كما في رواية الإمام مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو مستقبل المشرق: «ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وهؤلاء - والله أعلم - هم أهل الكتاب الذين قالوا: "آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره" قصدوا تشكيك المسلمين وبلغوا في كفرهم إلى حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام! فإن قيل: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم فما معنى قوله "آمنوا"؟ قلنا: أريد به إظهارهم الإسلام

وأريد بكفرهم: نفاقهم وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم وهو بمنزلة قوله ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والله أعلم وأحكم. وجاء التعبير بقوله "ولكن قولوا أسلمنا" ولم يقل: ولكن أسلمتم، ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم آمنا كذلك، إذ لا يتعد بالإسلام إلا إذا قارنه الإيمان فلا يغني أحدهما بدون الآخر، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به، قال الإمام الصاوي رحمه الله تعالى: المنفي هنا الإيمان بالقلب والمثبت الانقياد ظاهراً فهما متغايران بهذا الاعتبار وأما الإسلام والإيمان الشرعيان المعتبران متحدان ما صدقا وإن كان مفهومهما مختلفاً إذ الإيمان هو التصديق القلبي الباطن بشرط النطق بالشهادين ظاهراً والإسلام هو الانقياد الظاهر الناشئ عن التصديق القلبي الباطن. اهـ. وقد أفاد النظم تكذيب دعواهم أولاً ودفع ما انتحلوه إذ الإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، وهؤلاء لم يعرفوا الإيمان أصلاً كما دل عليه قوله "ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" وفيه إشارة إلى اليأس من إيمانهم، كأنه قيل لهم: لم تُحصّلوا الإيمان ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم... وهو أليق بقوله بعده ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه تعالى يمنّ عليكم بما وقّقكم على الشرائع بإنزال الكتب وإرسال الرسل وبما أظهر لكم من الدلائل والآيات البينات فاستحببتكم العمى على الهدى وأعرضتم وكذّبتكم وكان إسلامكم ضلالاً حيث كان نفاقاً ولما كان كذلك لم يكن الله ليغفر لكم ولا ليهديكم

سبيلاً... وتأمل قوله تعالى "لم يكن الله ليغفر لهم" فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم! وليست هذه العبارة مثل أن يقول "لا يغفر الله لهم" بل هي أشد وهي مشيرة إلى استدراج من هذه حاله وإهلاكه فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى. ولما كانت جميع صور الآيات منبطقة على النفاق بعضها حقيقة وبعضها مجازاً، قال جواباً لمن كأنه سأل عن جزائهم متهمكماً بهم ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وهي بشارة بالعذابات الأبدية والعقوبات السرمدية. ثم وصفهم بما يدل على أنهم المساترون بالكفر بقوله ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ وعزة الله ينالُ حزبه وأوليائه حظ منها وهي العزة الدائمة، أما عزة الكافرين فيعقبها ذل الانهزام والقتل والأسر في الدنيا وذل الخزي والعذاب في الآخرة، وعزة المؤمنين في تزايد الدنيا ولها درجات كمال في الآخرة، وفي الآية إيماء إلى أن المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز بالعبيد، وفي ذلك استخذاء وذلة ونهاية في التجهيل والذم، والآية تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون، والاستفهام إنكار وتوبيخ وفيه تهكم بالفريقين ﴿أيتنون عندهم العزة﴾ أي أيتنون العزة ممن هم في ذل القهر وأسر القبضة؟ ومن اعتصم بمخلوق فقد سقط في مهواةٍ بعيد قعرها شديد مكرها، ولذلك صح التفريع عنه بقوله ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ أي لا عزة إلا به، لأن الاعتزاز بغيره باطل، وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية. ثم جاء التهديد الذي يرتجف له كيان المسلم والوعيد الذي لا يبقى بعده بقية من تردد لكل من يقعد مع المستهزئين ويستنصح علماءهم ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات

الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) والنهي غايته أن يكفوا عن الخوض في الكفر بالآيات والاستهزاء بها، ومدار متاركتهم هو العلم بخوضهم فيها ولذلك عبر عن ذلك بالسماع والمماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف والمراد بعدم القعود معهم - والله أعلم - إظهار المخالفة لهم والبعد عن مجالسهم ومشاركة مناهجهم لأن من خالطهم ونظر إلى عقائدهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في الكفر والاستهزاء ولذلك قال سبحانه في الآية الأخرى مبيناً جهلهم بالعلم بالله المقارن للهزء (فلا تكونن من الجاهلين) أي المستهزئين والهزء قد يُسمَّى جهلاً ثم كشف تعالى صورة مزرية منفرة وهم يتلونون كالحيات والثعابين...

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين

والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي المؤمن على أنه عدوه وإنما يأتيه على أنه صديقه ويظن أن يتخلص للمخادعة! يحسب التلون قوة، والمكر السيئ براعة، وهو في حقيقته ضعف وخسة! وهذه الصفة (الذين يتربصون بكم) للمنافقين وحدهم بدليل قوله (وإن كان للكافرين نصيب) والمراد بالكافرين - والله أعلم - شركاؤهم إذ لا حظ لبني إسرائيل في الحرب، والتربص: انتظار حصول شيء لغير المنتظر وترقب ما يحدث له، وتفصيله قوله (فإن كان لكم فتح من الله...) وجعل ما يحصل للمسلمين فتحاً، ونُسب إلى الله لأنه مُقدِّره ومريده بأسباب خفية ومعجزات بينة، وجعل ما يحصل لهم من الفوز في القتال

نصيباً تحقيراً له. ومعنى **(ونمنعكم من المؤمنين)** أي نمنعكم من أن ينالكم بأس المؤمنين من خلال تشكيل معسكرات بين صفوفهم لإمساك العصا من الوسط والتجسس عليهم وإلقاء الأراجيف والفتن بين جيوشهم ومحاولة التحكم بقادتهم! روى أحمد والبخاري والبيهقي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تجد شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بجديث هؤلاء وهؤلاء بجديث هؤلاء»** وما هم اليوم إلا من عرفناهم بالأمس وإن غيروا خيلهم والحوّل، فعبد الخنا، نفس عبد الخنا، وإن غيّر الشكل واسم الحلّ... وقوله **(فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة)** إنذار للمنافقين وكفاية لهم المؤمنين بأن فوّض أمر جزاء المنافقين على مكائدهم إليه تعالى. وقوله **(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)** تثبيت للمؤمنين لأن مثل هذه الأخبار عن دخائل الأعداء وتآلبهم من عدوّ مجاهر بكفره وعدو مصانع مظهر للأخوة، وبيان هذه الأفعال الشيطانية البالغة أقصى المكر والحيلة يثير مخاوف في نفوس المؤمنين وقد يُخيّل لهم مهاوي الخيبة واليأس في مستقبلهم، فكان من شأن التلطف بهم أن يعقّب ذلك التحذير بالشد على العضد، والوعد بحسن العاقبة، فوعدهم الله بأن لا يجعل للكافرين وإن تآلبت عصابتهم واختلفت مناحي كفرهم سبيلاً على المؤمنين، والمراد بالسبيل - والله أعلم - طريق الوصول إلى المؤمنين بالهزيمة والغلبة بقرينة تعديته بعلّى، ولأن سبيل العدو إلى عدوه هو السعي إلى مضرتّه، فإن قيل: إذا كان وعداً لم يجز تخلفه ونحن نرى الكافرين ينتصرون على المؤمنين انتصاراً بيّناً وربما تملكوا بلادهم، فكيف تأويل هذا الوعد؟ قلنا: المقصود من المؤمنين: الذين عقلوا كتاب ربهم وكلام نبيهم ولم يستعينوا بعدوهم وتوكلوا على ربهم، ولو استقام المؤمنون على ذلك لما نال

الكافرون منهم منالاً ولدفعوا عن أنفسهم خيبة وخبالاً والله أعلم... ومعنى قول المنافقين لأتباعهم الكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نتولّ شؤونكم ونحيط بكم إحاطة السلطة، فالاستحواذ هنا استحواذ سُلطويّ يشير إلى استخلافهم في الأرض كما ثبت بالنصوص الصريحة والأخبار الصحيحة، فاللوبي الصليبي الصهيوني في تل أبيب وروما وواشنطن... يخضع لهم بشكل تام، بخلاف ما يظهر في إعلامهم العالمي القائم على الخدعة!

﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾

لما بين المولى سبحانه حال الذين نافقوا وتفضل على المؤمنين بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوؤهم مع إصابة النفع الجليل أردف ذلك ببيان أنه ليس للشيطان سبيل على المؤمنين فقال ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ قال الإمام النسفي: يخوف أولياءه أي المنافقين وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته. واعلم أنه ليس شيئاً أشد على الشيطان من أن ينكشف حاله ويفتضح عمله فإنه حينئذ ينتقم من أوليائه ولو تطفن الناس لهم لاندفع شر مستطير وفساد كثير، ولما كان المعنى أن الناس قد جمعوا لكم، تسبب عنه النهي عن خوفهم فقال ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ يعني أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس أو هو تذكير وإحماء لإيمانهم وتوكلهم عليه تعالى خاصة.

الصفة الثالثة: الخداع والمكر

لُعْنَتُمْ لِعَنَّا تَخْدَعُونَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا

وقعت اللعنة على يهود ونصارى بني إسرائيل في جميع الأجيال، ونصوص الكتب السماوية طافحة بإعلان اللعنة عليهم، فهم ملعونون مطرودون منبوذون من العباد ومن رب العباد في الأرض وفي الملا الأعلى على السواء، وقد لعنهم أنبياءهم كما جاء في تلمودهم في سفر ملاخي: (لُعْنَتُمْ لِعَنَّا تَخْدَعُونَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا) وروى الحكيم الترمذي بإسناده عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به**» وروى البزار بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المكر والخديعة في النار**» ولما أكد تعالى أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، أردف بذكر ما ينشأ عن الكفر من الأمراض الأخلاقية والآفات الخلقية فقال جل شأنه **(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً)** وأصل الخداع في اللغة هو الستر يقال للبيت الذي يخزن فيه المال: مخدع، والعرب تقول: انخدعت الضب في جحرها، فكان المنافقون يظهرون التوحيد والإيمان ويسترون نفاقهم وكفرهم! وجاء النعت بالانخداع ترجمة عن معتقدتهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعاً! وخداعهم: إظهار الوفاق في الطريقة واستشعار الشرك في الحقيقة، وخداع الحق إياهم: ما توهموه من الخلاص وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص، فإذا كشف الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سراباً، روى

الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً» وتلك صلاة المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويطنون في نفق قلوبهم الإنكار والكفر فصلاتهم لم تزدهم من الله إلا بعداً، وهم إنما يراؤون الناس ليحسبوهم مؤمنين، يفعلون ذلك حال كونهم (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) روى الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» وفي رواية للبيهقي: «مثل المنافق كمثل الشاة بين الربيضين إن جاءت إلى هذه نطحتها وإن جاءت إلى هذه نطحتها» قال العلامة ابن منظور: وأراد النبي ﷺ بهذا المثل قول الله عز وجل "مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء" ثم بين سبحانه على لسان نبيه ﷺ مثل ما أنزل في كتابه وحكم فيهم سبحانه بعلمه من أسرار خلقه مما أطلع عليه رسوله ﷺ من أنهم كاذبون بإيمانهم وصرح بكفرهم تقبيحاً لحالهم ونهى المؤمنين عن موالاتهم فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) ثم استأنف مؤكداً نفاقهم، كاشفاً خداعهم وتكذيبهم واستهزاءهم، مبيناً جزاءهم عنده بقوله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) ونظيره قوله سبحانه (ثم رددناه أسفل سافلين) روى البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال: «إن الله تعالى أوحى في الزبور يا داود من لقيني وقد كذب محمدًا وكذب بما جاء به واستهزأ بكتابي صببت عليه من قبره العذاب صباً وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار» وروى ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود قال: «أي أهل النار أشد

عذاباً؟» فقال رجل: المنافقون، قال: «صدقت فهل تدري كيف يعذبون؟» قال: لا، قال: «يجعلون في توابيت من حديد تصمد عليهم ثم يجعلون في الدرك الأسفل من النار في تنانير أضيق من زج يقال له جب الحزن تطبق على أقوام بأعمالهم آخر الأبد» ولما أعلم الله رسوله ﷺ أنهم في الدرك الأسفل من النار، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا وأخلصوا الدين لله وحده وتبرؤوا من الآلهة والأنداد وصدقوا رسوله ووعدهم جل ثناؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، وأخبرهم أنهم إن شكروا وآمنوا فلا حاجة إلى تعذيبهم بل يشكر لهم ما يكون منهم من طاعة له وشكر، ثم أتبع ذلك سبحانه بالإذن في الجهر بالسوء لمن أصر على نفاقه منهم مبيناً طرائق كفرهم وفنون مكرهم في إبعاد الرسل سبيلاً إلى الرياسة فقال **(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً) وجيء بالمضارع للدلالة على أن هذا أمر متجدد فيهم مستمر وكفرهم هذا كفر بوحدانية الله وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية فدين الله لا يتغير في أساسه ولا في مصدره، ومعنى التفريق بين الله ورسله أنهم ينكرون صدق بعض الرسل الذين أرسلهم الله ويعترفون بصدق بعض الرسل دون بعض ويزعمون أنهم يؤمنون بالله فقد فرقوا بين الله ورسله إذ نفوا رسالتهم فأبعدوهم منه وهذا استعارة تمثيلية شبه الأمر المتخيل في نفوسهم بما يضره مريد التفريق بين الأولياء والأحباب فهي تشبيه هيئة معقولة بهيئة معقولة والغرض من التشبيه تشويه المشبه إذ قد علم الناس أن التفرقة بين المتصلين ذميمة وهذه الآية في معنى قوله تعالى في سورة البقرة "لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" وقوله "لا نفرق بين أحد من رسله" وفي سورة آل عمران "لا نفرق بين أحد منهم ونحن**

له مسلمون" إلا أن تلك الآيات في التحذير من التفريق بين الرسل والآية هذه في التحذير من التفريق بين الله وبعض رسله ومآل الجميع واحد لأن التفريق بين الرسل يستلزم التفريق بين الله وبعض رسله، وإضافة الجمع إلى الضمير هنا للعهد لا للعموم بالقرينة وهي قوله "ويقولون نؤمن ببعض" وجملة "ويقولون نؤمن ببعض" واقعة في معنى الاستئناف البياني للتفريق بين الله ورسله ولكنها عطفت لأنها شأن خاص من شؤونهم إذ مدلولها قول من أقوالهم الشنيعة ومدلول يريدون هيئة حاصلة من كفرهم فلذلك حسن العطف باعتبار المغايرة ولو في الجملة ولو فصلت لكان صحيحاً، والإرادة في قوله "ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً" إرادة حقيقية، والسبيل يحتمل أن يراد به سبيل بين دينين وهذا يناسبه انتقاهم من الكفر الظاهر إلى النفاق فكأنه تهمة للنفاق وهذا التفسير جار على ظاهر نظم الكلام وهو أن يكون حرف العطف مشرّكاً بين المتعاطفات في حكم المعطوف عليه وإذ قد كان المعطوف عليه الأول صلة للذين كان ما عطف عليه صلوات لذلك الموصول وكان ذلك الموصول صاحب تلك الصلوات كلها التي هي صفات للمنافقين المترددين الذين لم يثبتوا على إيمان ولا على كفر بل كانوا بين الحالين، وقوله **(أولئك هم الكافرون حقاً)** الجملة خبر "إن" والإشارة إلى أصحاب تلك الصلة الماضية وموقع الإشارة هنا لقصد التنبيه على أن المشار إليهم لاستحضارهم بتلك الأوصاف أحرى بما سيحكم عليهم من الحكم المعاقب لاسم الإشارة - كما قال صاحب التحرير والتنوير - وأفاد تعريف جزأي الجملة والإتيان بضمير الفصل تأكيد قصر صفة الكفر عليهم وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل كفر غيرهم في جانب كفرهم منزلة العدم كقوله تعالى في المنافقين "هم العدو" ومثل هذا القصر يدل على كمال الموصوف في

تلك الصفة المقصورة ووجه هذه المبالغة أن كفرهم قد اشتمل على أحوال عديدة من الكفر وعلى سفالة في الخلق أو سفاهة في الرأي. بمجموع ما حكي عنهم من تلك الصلوات فإن كل خصلة منها إذا انفردت هي كفر فكيف بها إذا اجتمعت؟ ثم ذكر الحق أحوالهم مع موسى عليه السلام وأردف ذلك بذكر أحوالهم مع عيسى عليه السلام وأن إخبارهم بقتله وصلبه ليس مستنداً إلا إلى شك حتى انتهى إلى قوله **(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً)** والذي حملهم على ذلك الشيطان وجههم للملك والرياسة واستتباع الناس مع فرط أنفتهم واستنكافهم ونهاية استكبارهم عن الإذعان لله بالعبودية كما دل عليه قوله بعده مشيراً إلى حقيقة دعوة المسيح وأنه لم يستنكف أن يكون عبداً له تعالى داخلاً تحت ملكه وملكه ولا الملائكة المقربون **(لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً)** ولما أزاح شبه أهل الكتاب المنافقين وأورد الحجة على المخادعين؛ نبّه أتباعهم الغافلين وعمّ في الإرشاد لطفاً منه بالسامعين ودعا الناس أجمعين إلى التصديق بأنباء سيد المعصومين المؤيد بالمعجزات والبراهين المنزل إليه النور المبين فقال **(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبيناً)** قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالبرهان هنا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله. وروى ابن عساكر ذلك عن سفيان الثوري. وإنما وصفه سبحانه بأنه برهان لأنه حجة الله تعالى على خلقه كلهم وهو حجة نيرة ظاهرة واضحة لكثرة ما معه من الآيات

والمعجزات النفسية والآفاقية والإخبارات الغيبية الشاهدة بحقية ما جاء به... وسورة البقرة أوعب لأحوال المنافقين المخادعين وكان ممن تعوذ بالإسلام وأظهره من أحبار بني إسرائيل: رافع بن رُميلة من بني قريظة قال أبو العباس الحسيني في إمتاع الأسماع: وكان متعوذاً بالإسلام وهو الذي قال النبي ﷺ فيه يوم مات: «لقد مات اليوم منافق عظيم النفاق» وجبل بن عمرو بن سكينه والنحام بن زيد ونافع بن أبي نافع وأبو نافع وكردم بن زيد وأسامة بن حبيب وجبل بن أبي قشير ووهب بن يهودا ومنهم سعد بن حُنيف ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى وزيد بن اللصيت قال الواقدي: "كان يهودياً فأسلم فنافق وكان فيه خبث اليهود وغشهم وكان مظاهراً لأهل النفاق" وهو الذي قال في غزوة تبوك: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقلته. ومنهم رافع بن حريملة وسلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا، فأنزل الله تعالى فيهم سورة البقرة وابتدئت قصتهم بالتنبيه على كفرهم وبيان ترامي أمرهم في الغواية والضلال إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتبشير، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير، فهم ناكبون في تيه الغي والفساد عن منهاج العقول، وراكبون في مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿ثُمَّ يَبَيِّنْ لَهُمْ أَلَسُوا بِمُقْتَصِرِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ مُحْضِ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ بَلْ يَضْمُونَ إِلَيْهِ صِفَةَ النِّفَاقِ الْمُسْتَتَبِعَةِ لِلْعَنَةِ وَالْغَضَبِ فَنَعَى عَلَيْهِمْ خَبْثَهُمْ وَمَكْرَهُمْ وَخَدَاعَهُمْ وَدَعَاهُمْ صَمًّا بِكَمًّا عَمِيًّا وَسَفَهَهُمْ وَاسْتَجْهَلَهُمْ وَاسْتَهْزَأَ بِهِمْ وَتَهَكَّمَ بِفَعْلِهِمْ وَعَمَهُمْ وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ الشَّنِيعَةَ لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ خَدَاعِهِمْ عَلَى حَذَرٍ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا) قال الإمام السجستاني: "يخادعون الله" أي يفسدون ما يظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر كما أفسد الله عليهم نعمهم في الدنيا بما صاروا إليه من عذاب الآخرة. وقيل: اجترؤوا على الله حتى ظنوا أنهم يخادعون الله وهذا من جهلهم وسوء ظنهم بالله تعالى! وقد يطلق الحكم على المعنى عبارة على حسب اعتقاد المخاطب كما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام في قوله "وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفا" قال الإمام الفخر الرازي: وأصل هذه اللفظة الإخفاء، وسميت الخزانة: المخدع، والأخدعان: عرقان في العنق لأنهما خفيان، وقالوا: خدع الضب خدعاً إذا توارى في جحره فلم يظهر إلا قليلاً، وطريق خيدع وخداع إذا كان مخالفاً للمقصد بحيث لا يفطن له، ومنه المخدع وأما حدها فهو إظهار ما يوهم السلامة والسداد وإبطان ما يقتضي الإضرار بالغير والتخلص منه فهو بمنزلة النفاق في الكفر والرياء في الأفعال الحسنة وكل ذلك بخلاف ما يقتضيه الدين لأن الدين يوجب الاستقامة والعدول عن الغرور والإساءة كما يوجب المخالصة لله تعالى في العبادة. وقال أبو الحسن الحرّالي: جاء بصيغة المفاعلة لمكان إحاطة علم الله بخداعهم ولم يُقرأ غيره ولا ينبغي، والخداع إظهار خير يتوسل به إلى إبطان شر، يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر. اهـ. والغرض من الخداع أنهم ظنوا أن يدفعوا عن أنفسهم أحكام الكفار وأن يتبعهم المؤمنون ويجروهم في التعظيم والإكرام مجرى إخوانهم إذا أظهروا لهم الإيمان وإن أسروا خلافه فمقصودهم من الخداع هذا، والعطف على الذين كفروا من عطف صفة موصوف واحد، وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في الكيفية فإنهم كانوا مداومين على الخداع وإيهام المؤمنين خلاف ما يريدون!

ومنه قيل للضب خادع وذلك إذا أمر الحارث يده على باب حجره يوهمه الإقبال عليه فيخرج من بابه الآخر. ومعنى صدور الخداع من جانبهم لله: أنهم قصدوا التمويه على الله تعالى! مع أن ذلك لا يقصده عاقل يعلم أن الله مطلع على الضمائر، ولما كانت مخادعتهم المؤمنين لأجل الدين كان خداعهم راجعاً لشارع ذلك الدين، وقُرى **(وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون)** فالخداع هنا هو الخداع الأول والحصر باعتبار أن ضرره عائد إلى أنفسهم فتكون العبارة الدالة عليه مجازاً أو كناية عن انحصار ضررها فيهم، وبعضهم يجعل التعبير هنا بالمخادعة للمشاكلة مع كون كل من المشاكل والمشاكل مجازاً وكل يعمل على شاكلته والله أعلم. وقوله **(وما يشعرون)** عطف على جملة **(وما يخدعون)** والشعور يطلق على العلم بالأشياء الخفية، ومنه سمي الشاعر شاعراً لعلمه بالمعاني التي لا يهتدي إليها كل أحد، ولا يحسن لذلك كل أحد، وقولهم: هو لا يشعر وصف بعدم الفطنة لا بعدم الدراية فلا يغيظهم أن يوصفوا بعدمها وإنما الذي يغيظهم أن يوصفوا بالحماسة والبلادة والبله، وهو أبلغ في الذم لأن الذم بالوصف الممكن الحصول أنكى من الذم بما يتحقق عدمه، ثم بين سبحانه أن سبب فعلهم هذا من الخداع وعدم الشعور كون آلة إدراكهم مريضة **(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)** أي: في قلوبهم خلل تزايد إلى أن بلغ حد الأفن، وهذا الخلل وذلك النفاق تزايد فيهم بتزايد الأيام حتى صار ملكات، ولما كانت ظاهرة النفاق خارجة عن أصل التكوين الفطري وصفها الله بالمرض ولذلك كانت العقوبة المعجلة لها **(فزادهم الله مرضاً)** والعقوبة المؤجلة **(ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)** وفي الآيات تهديد رعيب للمنافقين بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هي مع الله القوي الجبار

وأهم إنما يحاربون الله حين يحاربون أوليائه، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللثيمة... يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء ولكن يا للسخرية!

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أي ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة شركهم ولا أرسلنا إليهم نذيراً يدعوهم إليه، قال الإمام القرطبي: أي لم يقرؤوا في كتاب أوتوه بطلان ما جئت به ولا سمعوه من رسول بعث إليهم كما قال (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون). اهـ. والمعنى أنهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى إذ يقولون بآرائهم في كتب الله ولا يستندون إلى علم معتبر من كلام الله أو خبر من رسول الله كما جاء في التنزيل العزيز (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) فالله سبحانه لم ينزل بما يشركون كتاباً ينطق بصحة شركهم ولا أرسل به رسولاً وإنما هو شيء افتعلوه واختلقوه اتباعاً منهم لأهوائهم، وفي الآية إنكار فطيع واستبعاد لأقوالهم شديد، واستفهام ناطق بتسفيه أحلامهم وتجهيل نفوسهم واستركاك عقولهم مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر خطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً فضلاً أن يجعله معتقداً! فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبهة متعلق - وإن كانوا يطلقون على أنفسهم: أهل الكتاب والسنة والعقائد السلفية انتحالاً ودعوى! يزكون أنفسهم وقد نص البيان النبوي على دخولهم في أشرار الساعة وظواهر مضلات الفتن - وإنما كذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، والبراهين والآيات البينات لا تعارض بالشبه، فليس لديهم سوى التقليد، وهو ظاهر رصف آي السورة (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا

ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) فقابلوا الحق بتقاليد لا تقوم على أساس واضح ولا يُفلح من تشبث بذيل التقليد.

حقيقة المعركة!

إن حقيقة المعركة مع بني إسرائيل: اللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام والشرك، وأشق ما تعانيه الأمة هو عدم وضوح الرايات واختلاط المسلمين بالمشركين، فجاء القرآن الكريم ليحسم هذا الغموض والغش ويفضح المبطلين ويكشف أقنعة المستخلفين. ولن ينتصر على هؤلاء المخادعين في معركة السلاح واستعادة الأرض إلا من تفتن إلى المعركة الأصلية الحقيقية التي يخوضونها وهي معركة الوحي وإعادته إلى مساره الصحيح وفهم كل شيء من خلاله، وإنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية... لقد انخدع كثير من المسلمين بلوثات الجاهلية الوهاية وظنوا أنها قامت بتجديد الإسلام في جزيرة العرب ونسوا أنها جحدت ربوبية الله تعالى، ثم خدعتهم أجهزة الإعلام الموجهة وأفهمتهم أن الدولة السعودية تواجه الصليبية والصهيونية وتدافع عن الإسلام وقضايا المسلمين! وإمعاناً في الخداع والإضلال وإمعاناً من الحفاة العراء في التخفي فإنهم يثيرون حروباً وعداوات مصطنعة في شتى الصور بينهم وبين الأنظمة والأوضاع التي أقاموها والتي يمدونها بالمساعدات المادية، ويجرسونها بالقوى الظاهرة والخفية كي تزيد من عمق الخدعة وتبعد الشبهة عنهم وعن عملائهم ليطفئوا شعلة الإسلام! بينما السذج السطحيون والبسطاء المغفلون يحسبون أنها معركة سياسية لا علاقة لها بالمعركة المشوبة مع هذا الدين! وفي المقابل يشتغل من تأخذه الحمية للدين

بالتنبيه على مخالقات جزئية ومنكرات صغيرة ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة بينما الدين يُبطل من أصله ويُجث من أساسه! روى ابن وضاح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال: إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه، ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كما دفنت هذه الحصاة وليسلكن طريق الذين كانوا قبلهم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل. واعلم أيها الحنيف المائل عن عموم الأديان المنكشف بحقية القرآن أن من أهم خطوات النصر الإعراض عن أولياء الشيطان والفرار إلى الله والتوكل عليه، والحنفاء يتوكلون عليه وحده في نصرته دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وهؤلاء ليس للشيطان وأوليائه عليهم سلطان كما قال تعالى ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وفي التعرض لوصف الربوبية تأكيد لنفي السلطان عن المؤمنين المتوكلين، وسلطان أولياء الشيطان إنما ينقطع بقدر الإعراض عن علائقهم وقوة التوكل على الله، ألا ترى إلى قول شعيب لموسى عليه السلام لما خرج من علائق فرعون ﴿لا تحف نجوت من القوم الظالمين﴾ فإن فرعون لا سلطان له على من تاركه في شرعته ومنهاجه وتنظيماته وأحزابه وجماعاته...

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم
إنا نحن مستهزون

هذا نوع آخر من أفعالهم القبيحة، وقوله ﴿وإذا لقوا﴾ دال على أن ذلك في وقت مخصوص، وقوله ﴿وإذا خلوا﴾ تضمن معنى الاستكانة والراحة والخلوص وقد

عدي هنا إلى ليشير إلى أن الخلوة كانت في مواضع مآبهم ومرجعهم وأن لقاءهم للمؤمنين إنما هو لمحات قليلة، وهذا من بديع فصاحة الكلمات، والتعبير بقوله **(اخلوا)** يكشف حسرة المنافقين وقذارة نفوسهم الدنية واستكانتهم وراحتهم وخلوصهم إلى رؤسائهم وكبار كهنتهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم وعتوهم، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له، ولذلك سماوا شياطين لشبههم بالشياطين في غرورهم ووسوستهم وتقبيحهم للحسن وتحسينهم للفواحش! والكهنة هم الأصل في التحريف والتبديل والكتمان وهم المتبوعون في الأمة الإسرائيلية القائلون **(أتحدثوهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم)** ولعل تضمين "خلوا" معنى: ارتاحوا وسكنوا واطمأنوا أقرب إلى السياق ففي خلواتهم هذه ما شئت من وسائل الكيد والفتنة... يدعون المؤمنين إلى توحيد العبادة فإذا فارقوهم وخلصوا إلى شياطينهم خلعوا ثوب التستر وصرحوا بما يبطنون وقالوا على وجه المبالغة والتأكيد قلعاً لما اعتقدوا من ظاهر حالهم وتحقيقاً لمؤاخاتهم **(إنا معكم)** وقد أتوا بالجملة الإسمية المصدرة بأن تحقيقاً واهتماماً ثم أكدوا ثباتهم على الكفر بقولهم **(إنما نحن مستهزون)** مستخفون بهم تجهيلاً وتسفيهاً وتغريراً لهم بمجرد القول الكاذب! والمقصود أنهم يقولون للمؤمنين آمنا في حال استهزاء يصريحون بقصده إذا خلوا إلى شياطينهم والله أعلم. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف وإنزال الهوان والحقارة بالناس لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة عليه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»** وقد تولى تعالى الاستهزاء بالمنافقين انتقاماً للمؤمنين **(الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم**

يعمهمون) وقد كثر التهكم في كلام الله بهم والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن دعوتهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون ويضحك الضاحكون.

الكفر والفخر

لما خوف الله تعالى المنذرون باليوم الكبير وأن مرجعهم إلى الحكيم الخبير الذي يعلم ما يسرون وما يعلنون حين يكتمون ما في صدورهم ويستترون ويظهرون الموافقة ثم الخلاف والعداوة يضمرون ولئن قيل إنكم من بعد الموت مبعوثون ليقولن إن هذا إلا سحر وإنا به كافرون فلحق بهم ما كانوا بجبالهم وسيئ طبائعهم يستهزئون وبالقيامة يستعجلون، أعقب بذكر بعض طبائعهم الرديئة وخصالهم الدنيئة فقال **(ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور)** وقد ختمت الآية الأولى بذكر صفة الكفر والثانية بذكر صفة الفخر وإلى ذلك أشار المفسر الأعظم رحمه الله في الحديث عند الإمام أحمد: «**ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب الشعر والوبر الذين يغتالهم الشياطين على أعجاز الإبل**» وفي رواية للترمذي: «**والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل وأهل الوبر، يأتي المسيح إذا جاء دُبرَ أحدٍ صرَفَتِ الملائكة وجهه قبلَ الشام وهنالك يهلك**» والرياء هو النفاق لأن المنافق هو الذي يُسرّ خلاف ما يُظهر ويصف المحاسن بلسانه ويخالفها بفعله ويقول ما يُعرف ويأتي ما يُنكر ويتدبر الغفلات لانتهاز الهفوات.

إن رسلنا يكتبون ما تمكرون

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ المراد بالناس - والله أعلم - المستخلفون في الأرض بقرينة السياق المتقدم في قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فإن الحديث مسوق للمستخلفين وهو ما يقتضيه المقام، وعنى سبحانه بالرحمة: نعمته عليهم بالملك والاستخلاف كما في قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ اللَّهُ آتِدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ، وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنْ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ وقوله عز وجل ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً فَرحَ بِهَا وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ وقوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وقوله ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنْ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنُبَشِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم وفيه تعريض بتذكيرهم بحال حلول المصائب بهم لعلمهم يتذكرون فيعدوا عدة الخوف من حلول النعمة التي أنذرهم بها في قوله ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ومعنى المكر في الآيات:

تحريفها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها وصرف الناس عنها، وقرأ بياء الغائب **(يذكرون)** وعبر بالمضارع للدلالة على التكرار! وقد مكروا في آيات الله الداعية إلى التوحيد كما روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ: **«أن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون»** وهم الذين يسلكون منهج التضليل والصراع والتصعيد وإثارة الاختلاف بين المصلين فقد روى أبو داود عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: **«إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين»** ومعلوم أن مكونات وزارة الدفاع والجيش ووزارة الداخلية في الحكومة السعودية من هذه القبائل العربية: عتبية ومطير وحرب وشمر وقحطان والدواسر والعجمان وبني خالد ويام وهاجر ومرة... وغيرهم، والتي تشكل القاعدة الأساسية الداخلية لحكم بني إسرائيل في جزيرة العرب، وعلى الرغم من أن هذه القبائل قاومت الدعوة السعودية الوهابية في مهدها واثارت عليها إلا أن الفراعنة تمكنوا من تطويعها لوثنيتهم! قال تعالى **(وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً)** وإنما جعل جميع المكر لله بتنزيل مكر غيره منزلة العدم. وقد شهد التاريخ مكرهم للإسلام وأهله منذ بزوغ فجر الرسالة المحمدية، فقد ألبوا المشركين على حرب النبي ﷺ في غزوة الأحزاب، وكانوا خلف حادثة الإفك، وكانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها عثمان بن عفان رضي الله عنه وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير، وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد، وأما في التاريخ

الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق هذا الدين...

الصفة الرابعة: الإفساد في الأرض وإيقاد الحروب

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون

هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض القلب الذي هو أعضل من مرض البدن وعلاجه أعسر وأشكل ودواؤه أعز وأندر، وشأن الفساد أن لا يخفى ولئن خفي فالعناد والتصلب فيه واعتقاد أنه صلاح إفراط في المكابرة، وهذه شنشنة المفسدين ونشنة السفهاء المخادعين أن يدعوا الإصلاح والتوحيد ويرموا المصلحين بالمذمات والموحدين بالبدع والشركيات بمتاناً ووقاحة ويعمدوا إلى التشغيب بتخييل استبعاد البينات والحجج الواضحات لتسخير العامة إليهم وإخضاعهم بالخدع والمغالطات! وهو في معنى قول فرعون ﴿إني أخاف أن بيدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ وقول الملا من قومه ﴿أتأذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ وقول ملكة سبأ منكرة دين نبي الله سليمان الملك ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ والفساد في الأرض: الكفر والعمل بالمعصية - قال به جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم - ومن ضروب الفساد: تهيج الحروب وإثارة الفتن والإخلال بالمعاش وإنكار المعاد! ولما قابلوا النهي عن الإفساد بدعوى الإصلاح العام أكذبهم الله بقوله ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ وقد أفادت الآية قصر الإفساد عليهم ونفي الإفساد عن غيرهم إذ أن غيرهم أدوات لهم، وأكد قصر الإفساد عليهم بضمير الفصل ودخول (إن) على الجملة وقرنها بألا المفيدة

للتنبية، وذلك من الاهتمام بالخبر وتقويته وإعلانه وإشاعته دلالة على سخط الله تعالى عليهم ولذلك أنزل فيهم ﴿ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ وقال جل شأنه ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾ وقد أشار موسى عليه السلام إليهم في قوله لأخيه هارون ﴿ولا تتبع المفسدين﴾ واليوم يظهرون فسادهم بدعوتهم الوهابية التي لبسوا بها على الناس الحق بالباطل، فظهروا في مظهر الدعاة إلى الإسلام وهم في الحقيقة أعداؤه، وأعمالهم التي يبتهجون بها ويزعمون أنها في الإصلاح ومحاربة الفساد آيلة إلى فساد عام لا محالة، إلا أنهم لم يهتدوا إلى ذلك للغشاة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق! والآية تشخص الدولة السعودية تشخيصاً دقيقاً عميقاً جامعاً وتحكي واقعاً ملحوظاً يشهد أن ما أنزل الله لنبيه هو الحق كما حكى سبحانه عن فرعون ﴿إنه كان من المفسدين﴾ وإفسادهم يبدأ بالشرك بالله والجور وإفساد الأنظمة والمجتمعات وتمييع الحق وإلباسه بالباطل وتحسين الكفر ومناوأة الصالحين وتسعير الفتن والعداوات وقتل الأبرياء وتأليب الأحزاب على المسلمين وإحداث العقبات في طريق المصلحين، ثم إفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساوئهم، ومن أعظم الإفساد تحريف الكتب الإلهية وإحداث مناهج ونظريات وفلسفات يُغيّرون بها أذهان البشر وتنتهي إلى الإلحاد وإزاحة الإله بقانون التطور ليكون هو إطار الفهم والتفسير ومنبع التنظير بدلاً عن الوحي الإلهي، ومن ثم يمكن إدراك الصلة بين التوراة والأنجيل التي تم إخراجها لأتباعهم مختلطة بمناهج المعرفة في كل فروعها وبين خطة الإفساد النجدية فهذه كلها ليست سوى نتائج لما كافح بنو إسرائيل عبر القرون من أجل الوصول إليه وهو تحطيم الدين وتحويل البشر إلى عبيد لهم من دون الله... ثم

ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي إذا دعوا إلى الإيمان الذي هو رأس كل صلاح سَمَّوه سفهاً واصفين المراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان! وفي الحديث عند الحاكم أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: «أعاذك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء» قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون من بعدي لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون علي حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون علي حوضي» ولما ذكر السَّفه وهو جهل مطبق كان ذكر العلم أكثر ملازمة فقال ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ والوقوف على النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى اشتجار الفتنة واستبحار الفساد في الأرض أمر يحتاج إلى قصد قويم وتوفيق من العزيز العليم. والمراد من الناس: المؤمنون من الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية والله أعلم، ولما وصفوهم بالسفه ردَّ سبحانه قولهم بحصر السفه فيهم فقال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ والسفهاء هم أولياء الشيطان وحزبه، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن الجن ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ والله در الأبوصيري حيث يقول:

قتلوا الأنبياء واتخذوا العجـ ... لـ ألا إنهم هم السفهاءُ

وسفيهٌ مَن ساءه المن والسلـ ... سوى وأرضاه الفوم والقثاءُ

ملئت بالخبيث منهم بطون ... فهي نار طباقها الأمعاءُ

والسفه في الأصل: الخفة والطيش وقلة العقل، وسفه فلان رأيه: إذا كان مضطرباً بلا استقامة، وجميع ذلك موجود فيهم بحيث يعرفهم المتأمل في كتبهم

وأقوالهم ووجوههم فإنهم لا يثبتون على قول واحد بل يحولون ويضطربون ويتناقض كلامهم مرات... ولما بين تعالى نفاقهم وسيرتهم عند دعاء الداعي إلى الحق أردف ببيان سيرتهم في أقوالهم وطريقتهم في خداعهم بقوله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ والاستهزاء: التظاهر بالإسلام على وجه السخرية والاستخفاف وإنزال الهوان والحقارة بالناس لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة عليه، وقد تولى تعالى الاستهزاء بالمنافقين انتقاماً للمؤمنين ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ والإتيان بصيغة المضارع لإفادة حدوث الاستهزاء وتجددته وقتاً بعد وقت وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم، وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تكشف أسرار وتهتك أستار، ولما بين تعالى حقيقة صفات المنافقين عقبها بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ والغرض من ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد والمتخيل في صورة المحقق وفيه تبكيت للخصم الألد والضمير عائد على المستهزئين وقد شُبِّهت قصتهم بقصة المستوقد ناراً لا يرضاها الله ليتوصل بها إلى خداع المؤمنين فلما أضاءت نار الإسلام وظهر الحق ذهب الله بنورهم، والتعبير بنورهم أنسب في اصطلاحهم. ثم شُبِّه حالهم بالأصم الذي لا يسمع وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب فلذلك جعله بمنزلة الأبكم وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم ييصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى فهو لا يرجع ﴿صَمُّكُمْ بَكْمٌ عَمِي فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا في مكائهم لا يرجعون بعد انكشاف حالهم! ونحوه قوله تعالى ﴿صَمُّكُمْ بَكْمٌ عَمِي فَهَمْ

لا يعقلون» روى ابن جرير عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم "إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب" إلى قوله "فما أصبرهم على النار". اهـ. وقد أشار إليهم المفسر الأعظم رحمه الله في حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً بعد كشف وإيضاحاً لحال الذين تفيؤوا ظلال النفاق وتفننوا في الاستهزاء فحقيق أن تضرب في بيداء بيان أفعالهم الوخيمة خيمة الأمثال (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) فشبه تعالى القرآن بالصيّب، وشبه ما أشكل عليهم بالظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر بالرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة بالبرق، وشبه تخوّفهم بجعل أصابعهم في آذانهم، وشبه ما يصيبهم من الفضائح والبلايا بالصواعق. ثم شبه جزع هؤلاء المنافقين من آيات الوعيد بما يعترى القائم تحت السماء حين البرق فيعشيه حين يلمع بإضاءة شديدة ويعمي عليه الطريق بعد انقطاع لمعانه (يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) وهذا المثل في غاية الحسن والمضاء، والمثل إذا ورد في الكلام فإنه يكسبه قبولاً وبلاغة ويزيده وضوحاً ونضارة. وفي الحديث المتفق عليه: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعاها مرة واحدة» وفي رواية: «ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة

على أصلها لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة» والكفر والنفاق صفتان لموصوف واحد له أحوال متعددة، ولما فرغ الحق جل جلاله من هتك أستار المستخلفين وبيان عوارهم وكانت عبادتهم المختلة بشرك ساقطة، خاطبهم فقال مبيناً أنه خلقهم وخلق المستخلفين من قبلهم ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد والمراد بالناس خصوص بني إسرائيل الذين جعلوا لله أنداداً يدعونهم من دون الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ والأغلب أنه إذا كان الخطاب والنداء بيا أيها الناس أعقب بدلائل الوجدانية والربوبية لينبه أهل الكتاب إلى النظر في أنفسهم وفي عجائب الكون.

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ لما ذكر الحق تعالى ما هم به أهل الكتاب من بسط أيديهم إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه بالقتل وذكر نقضهم الميثاق وشدة إصرارهم على كفرهم بمحمد ﷺ حسداً، أخبرهم الله تعالى بخبر ابن آدم وأن الحسد أوقعه في سوء العاقبة وكل هذه القصص دالة على أن كل ذي نعمة محسود فلما كانت نعم الله على حبيبه ﷺ أعظم النعم لا جرم لم يبعد اتفاق الأعداء على استخراج أنواع المكر والكيد في حقه فكان ذكر هذه القصص تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين. وقد ورد في معنى قوله ﴿إنما

يتقبل الله من المتقين) عن صاحب البيان النبوي في الحديث القدسي عند الدارمي: «إني لست كل كلام الحكيم أتقبل ولكني أتقبل همه وهواه فإن كان همه وهواه في طاعتي جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإن لم يتكلم».

(من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلماً شددنا وغلظنا على بني إسرائيل... من أجل ذلك كتبنا مُشابهة قتل نفس بغير نفس بقتل الناس أجمعين في عظيم الجرم، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس أجمعين، وجعلنا جريمة القتل ابتغاء الشرك كبيرة كبيرة... وتعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر وذلك أنه تعالى ذكرَ نقض بني إسرائيل للميثاق حتى وقعوا في اللعن والقساوة وذكرَ قبلها إيقاعهم البلاء والحنة بالمسلمين حين هموا بقتل الرسول الجليل الأعظم ﷺ، وذكر بعد ذلك إصرارهم على التمرد والعصيان في محاربة الجبارين وأعقبها بذكر قصة ابني آدم التي انطوت على مجموع ما تقدم من الحسد وبسط اليد، فاشتبهت القصتان من حيث الحسد والإقدام على القتل ومن حيث الإفساد، وتسنين الفساد أشد مذمة من التقليد فيه كما أنبأ عنه الحديث المتفق عليه: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل» ولما كانت نعم الله على سيدنا محمد ﷺ أعظم النعم لا حرم لم يبعد اتفاقهم على استخراج أنواع المكر والكيد في حقه وحق أمته، والمقصود من الآية - والله أعلم - بيان إصرار بني إسرائيل أبداً من قديم الدهر على التمرد وأن الحسد دأب قديم فيهم وأنهم مع علمهم بهذا التشديد والتغليظ أقدموا على

قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة ربهم، وخصهم الله تعالى بالذكر وقد تقدمتهم أمم كان قتل النفس فيهم محظوراً لوجوه، أحدها: أنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب وغلظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء، والثاني: لتلوح مذمتهم في أن هذا كتب عليهم وهم مع ذلك لا يراعون ولا ينتهون بل قتلوا أنبياءهم وهمّوا بقتل النبي ﷺ! والثالث: لأنهم سيكونون في فترة من الزمن مستخلفين في الأرض... ولكنهم تجاوزوا حدود القتل... فقتلوا في الحريين العالميتين قرابة المائة مليون اعتداء على سلطان ربوبيته تعالى! وليس هذا فحسب بل تجاوزا حدود الله وتعدوا على كلامه بالتغيير والتحريف والتبديل، ثم تظاهروا بتحكيم شرعه على وجه السخرية والاستهزاء بينما قلوبهم منطوية على الكفر! والكفر لا يجتمع مع الإيمان كما لا يجتمع الشرك مع التوحيد! والآية التالية تقرر الحسم والشدة والصرامة مع هؤلاء المفسدين ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ والنفي من الأرض محمول على الإخراج من جزيرة العرب، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وقد نزلت الآية في قوم من أهل الكتاب كما روى الإمام الطبراني عن ابن عباس قال: «قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض» وها هم يعودون اليوم إلى نقض الميثاق ويتخذون آيات الله هزوا فيجعلون من هذه الآية ستاراً لأعمالهم الإجرامية متظاهرين بتطبيق الشرع! ورؤية الموقف على هذا النحو من الحسم والوضوح ضروري لأمة الإسلام التي

تعاني من مواجهة المنافقين في هذه السنين الخدّاعة من حياة البشرية، وبدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز الأمة عن أداء واجبها في هذه المرحلة الحرجة وتتأرجح أمام الأمة الملعونة في القرآن - وهي تحسبها مسلمة - فتفقد تحديد أهدافها الحقيقية بفقدانها تحديد عدوها المتظاهر بالإسلام... وأعداء الأمة من بني إسرائيل هم أعداؤها، تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال... يسعون أبداً إلى إيقاد الحرب والإفساد في الأرض ليتسنى ذروة الاستبداد والجبروت سراً وعلانية ويقهروا من حولهم من الناس ويتحكموا في رقابهم على أن يذعنوا لأمرهم وينقادوا لجبروتهم، مستغلين جهل الدهماء وسفاههم، فاستبدوا بمنايع الثروة وخيرات الأرض وجعلوا الناس عالة عليهم، أكلوا أموالهم بالباطل وقدموها عربون مودة لحلفائهم، يلعبون بعقول الناس ويستعبدوهم لأغراضهم وشهواتهم وهم غافلون، ولما ذكر تعالى حسدهم للنبي ﷺ وتحريفهم الكلم عن مواضعه وإفسادهم في الأرض، أتبع ذلك الأمر بجهادهم وقدم عليه الأمر بالتوسل بالنبي ﷺ إغاضة لأهل الكتاب وإثارة لحسرتهم وكمداً لمقاصدهم وحسرة وحزاة في نفوسهم وإظهاراً لكمال العناية بشأنه عليه الصلاة والسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والأمر بالتقوى فيه تحذير وتنبيه للمؤمنين وهذا السيد العظيم والرسول الكريم وسيلة الوسائل وقد أعلم تعالى أهل الكتاب بأن محمداً ﷺ وسيلة الملائكة والنبیین الذين يدعوهم من دونه سبحانه فقال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ يَتَّبِعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يعني ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى وأعلى جاهاً فيتوسلون به ويستشفعون به إلى ربهم فهم محتاجون إلى السيد السند العظيم حبيب رب العالمين يشفع لهم بطلبهم منه

وابتغائهم فكيف تجعلوهم أرباباً وهم عبيد مفتقرون إلى ربهم ومتوسلون بمن هو أعلى مقاماً منهم إليه؟ وهل الحشر برمته والساعة بشدتها وبأهوالها إلا إثبات لمقام الوسيلة والوسيلة لرسول الله ﷺ فمن الأولى أن يتعلق المؤمن بجانبه ويعتكف على بابه، ولا يخفى أن جعل الوسيلة لله إنما هو من إعظام جانب التوحيد فإن العبد يشهد سوء حاله وكثرة ذنوبه فلا يجد له وجهاً ولا سبيلاً للسؤال من ربه الفعال المطلق فتجتمع همته على جعل وسيلة لله من أحبابه وأوليائه اعترافاً بالذنوب وانكساراً للرب وإعظاماً لقدرته وإيماناً بأنه هو الفعال لا غيره، وأحبابه الوسائل المرضية عنده لا تبايعهم نبيه الكريم ولوقوفهم عند أمره العظيم. ولما كانت السرقة من جملة المحاربة والسعي بالفساد وكان المفسدون قد سرقوا أموال البشر وجاوزوا الحد إلى الشجر والحجر، عقب بقوله **(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم)** ولما كان هذا حكمه تعالى في ملوك الأرض فمن دونهم، أعقب مقررّاً لذلك بتفرده في الملك **(ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض)** أي الملك الخالص عن جميع الموانع والعوارض والشوائب، ولما كان إيقاع النعمة أدل على القدرة وكان النظم لها لما تقدم من خيانة أهل الكتاب وكفرهم، قدم قوله معللاً لفعل ما يشاء بتمام الملك **(يعذب من يشاء)** أي من بني إسرائيل الذين ادعوا النبوة والحبّة **(ويغفر لمن يشاء)** أي وإن كان عمله موبقاً لأنه لا يتصور منه ظلم ولا يسوغ عليه اعتراض، ولما كان التقدير: لأنه قادر على ذلك، عطف عليه قوله **(والله على كل شيء قدير)** أي ليس هو كغيره من الملوك الذين قد يعجز أحدهم عن حماية أحب أحبابه وقتل أعدى أعدائه فإنه لا يعجزه شيء مهما عظم ولا

يصعب عليه شيء مهما كبر! وهذه القضية الضرورية ختم بها ما دعت المناسبة
إلى ذكره من الأحكام وكرّر بها على أتم انتظام إلى أوائل نقوض دعواهم في قوله
(بل أنتم بشر ممن خلق) فسبحان الملك مجبروته والأحد في ملكوته! تبارك الله ما
أعظم شأنه وما أعجب بيانه وأعز سلطانه.

الفصل الثالث: البهجة المتعلق بالمكاج

مركزية مكة المكرمة

اعلم أن الرب جل جلاله ذكر فضل مكة في غير موضع من كتابه ومن أعظم فضلها أنه جل جلاله فرض على عباده حجها وألزمهم قصدها ولم يقبل من أحد صلاة إلا باستقبالها وهي قبلة أهل دينه أحياء وأمواتاً كما ذكر العلامة السراج ابن الملحق، وذكر صاحب "الروض" أن أول من بنى الكعبة شيث وكانت قبل أن يبنها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت من الجنة وكان قد حج إلى موضعها من الهند، وقد قيل إن آدم هو أول من بناها، ذكره ابن إسحاق في غير رواية البكائي، وفي الخبر أن موضعها كان غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض فلما بدأ الله بخلق الأشياء خلق التربة قبل السماء فلما خلق السماء وقضاهن سبع سموات دحا الأرض أي بسطها وذلك قوله سبحانه "والأرض بعد ذلك دحاها" وإنما دحاها من تحت مكة ولذلك سميت أم القرى، وفي التفسير أن الله سبحانه حين قال للسموات والأرض "أتينا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين" لم تجبه بهذه المقالة من الأرض إلا أرض الحرم فلذلك حرمها، وفي الحديث أن الله حرم مكة قبل أن يخلق السموات والأرض فصارت حرمتها كحرمة المؤمن لأن المؤمن إنما حرم دمه وعرضه وماله بطاعته لربه وأرض الحرم لما قالت: أتينا طائعين حرم صيدها وشجرها وخلها إلا الإذخر فلا حرمة إلا لذي طاعة جعلنا الله ممن أطاعه. اهـ. ومكة المكرمة هي الصّدفة الطيبة التي تنفس باطنها عن درة الكونين وعن نخبة الثقلين وعن بؤبؤ عين الكونين وروح حياة الدارين رسول السلام وسيد

الأنام عليه الصلاة والسلام ولما كانت مكة هي خير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله وأفضل بلاد الله من بلاد الله اختار تبارك وتعالى أن يولد فيها أحب الخلق إليه وخير الخلق وأفضلهم على الإطلاق وبذلك كانت سرّة الأرض وواسطة عقد نظام الأرض ومهوى الأفئدة وموضع البيت العتيق سرّة سرّة الأرض كما قال سبحانه ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي قياماً وصلاًحاً لدينهم وقوام أمرهم وموضعاً لإقامة العبادات من نحو الحج والطواف والصلاة وإراقة الدماء والهدايا فهي عمود الحُكم في الأرض وهي بمنزلة الرئيس الذي يقوم به أمرُ تَبَّاعه، يطوف الناس بها كما يطوفون بيوت ملوكهم، وهي سرّة الأرض ووسطها، وحُكم هذه البقعة يعدّ حُكماً لجميع الأرض وهي تمثل قوام الدين فهو يبقى ببقائها ويذهب بذهابها، والقيام في الأصل مصدر قام إذا استقل على رجله ويستعار للسياسة والإصلاح لأن شأن من يعمل عملاً مهماً أن ينهض له، وقُرئ ﴿قِيَمًا﴾ جمع قيمة والمعنى أنها تقويم عظيم لأحوال الناس، وقوله ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ بيان للكعبة قصد من هذا البيان التنويه والتعظيم إذ شأن البيان أن يكون موضحاً للمبَيّن وإنما كانت الكعبة قياماً للناس لأن الله لما أمر إبراهيم بأن يُنزل زوجته وابنه إسماعيل في مكة أراد إنشاء أمة مسلمة من بني إسماعيل وقدّر أن تكون تلك الأمة هي أول من يتلقّى الدين الذي أراد أن يكون أفضل الأديان وأن يكون منه انبثاث الإيمان الحق فأقام لهم بلداً بعيداً عن حضارات المشركين فنشأ بنو إسماعيل على الإسلام وتلقّوا سيرة صالحة نشؤوا بها على توحيد الله تعالى والدعوة إليه وأقام لهم البيت معلماً لتوحيده عز وجل ووضع في نفوسهم ونفوس جبرتهم تعظيمه حرمة ودعا مجاورهم إلى حجّه ما استطاعوا وسخّر الناس لإجابة تلك الدعوة ولما دخلهم الشرك بعث الله فيهم

رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم القرآن والسنة ويزكيهم، فصار وجود الكعبة عائداً على بني إسماعيل، وكانت الكعبة قياماً لهم وهذا قيام خاص بأهله، ثم استخلف الله بني إسرائيل وأخذ عليهم الميثاق أن لا يعبدوا إلا الله، والكتب الإلهية طافحة بوصايا الرب ووصايا الأنبياء، فلم يحافظوا على تلك الوصايا! ولما أمر تعالى المؤمنين في مطلع السورة بالإيفاء بالعهود معروضاً ببني إسرائيل الناكثين للعهود الهاتكين حرمة البيت الحرام وأخبر بغيوب كثيرة من أخبارهم وما سيكون من تمكينه لهم في حرمة وبسطه لهم من نعمه وأطلع على أشياء من أحوالهم الدالة على نفاقهم جاء بالتعقيب العجيب في هذا الموضع فقال **(ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم)** وذكر الإمام الماتريدي أن قوله "ذلك" أي ما سبق ذكره من تحريف الكتب وتغييرها وتبديل نعته ﷺ وصفته. وذكر الزجاج أن "ذلك" مردود على ما أنبأ الله به على لسان نبيه في هذه السورة من قوله "من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم" فأخبر بنفاقهم الذي كان مستتراً عن المسلمين وما أخبر به أنهم "سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك" فأظهر الله عز وجل نبيه والمؤمنين على جميع ما ستروا عنهم فالمعنى - والله أعلم - ذلك لتعلموا الغيب الذي أنبأتكم به عن الله يدلكم على أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض ودليل هذا القول قوله تعالى "ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون". اهـ. ثم نهي الله تعالى المؤمنين أن يسألوا سؤال تعلل وتعت ولكن يسألوا سؤال هداية واسترشاد **(يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلِيم، قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)** فإن بني إسرائيل لما

سألوا المائدة كفروا بها فكأنه تعالى يقول: أولئك سألوا الخوارق والمعجزات فلما أعطوا سؤلهم ساءهم ذلك فلا تكونوا مثلهم... وقد جاء العطف في قوله **(والشهر الحرام والهدي والقلائد)** على **(الكعبة البيت الحرام)** وهو شبه عطف الخاص على العام باعتبار كون الكعبة أريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها، فالأشهر الحرم ما اكتسبت الحرمة إلا من حيث هي أشهر الحج والعمرة للكعبة، وكون الهدي قياماً للناس ظاهر لأنه ينتفع ببيعه للحاج أصحاب المواشي ويتنفع الفقراء بلحومه، وكذلك القلائد قيام للفقراء، ووجه تخصيصها بالذكر هنا التنبيه على أن جميع علائق الكعبة فيها قيام للناس حتى أدنى العلائق... وقد نهي تعالى في مطلع السورة عن استحلال شعائره أي استباحتها والتهاون بحرماتها والإخلال بأحكامها والحيلولة بينها وبين المتنسكين بها وفي ذلك تعريض بالحفاة العراة المستحلين لشعائر الله ومعالم حدوده الغارقين في لجة الفساد المجاوزين الحد في العناد!

والبيت الحرام يمثل حُكم الأرض ولذلك سميت مكة المكرمة أم القرى لأن الأرض دُحيت منها فهي وسط الأرض وكان النقطة للقرى وما تقرت القرى إلا بعدها وهي قبلة أهل القرى ومحجهم ومكان أول بيت وضع للناس وأعظم القرى شأناً فغيرها تبع لها كما يتبع الفرع الأصل، ولهذا جاءت نصوص الكتاب مستفيضة تحرض المؤمنين على تطهيرها من المشركين، قال تعالى **(ووقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)** والمعنى قاتلوهم حتى يكون الحكم خالصاً لله لا حظ للإشراك فيه والله تعالى أعلم. والكعبة عَلم على البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكة بأمر الله تعالى ليكون آية للتوحيد. والملاحظ ورود لفظ الكعبة في معرض الحديث عن المسيح ابن مريم عليه السلام وقد رآه النور الأعظم

ﷺ في المنام يطوف بالبيت كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «أراني الليلة في المنام عند الكعبة فإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لمتة بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو بينهما يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا المسيح ابن مريم، ورأيت وراءه رجلاً جعداً قوطاً أعور عين اليمنى كأشبهه من رأيت من الناس بابتن قطن واضعاً يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا المسيح الدجال» ومعلوم أن المسيح الدجال لا يدخل مكة خلافاً لحزبيه المستخلفين صاحبي ميثاق الدرعية اللذين يعاونانه على باطله ويوطئان ويمهدان لخروجه! وهذه الآية (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد) تُعتبر واسطة عقد السورة محاولة لمفتتحها بالوصاية بالوفاء بالعقود وحفظ شعائر الله في الشهر الحرام والهدي والقلائد والآمين البيت الحرام والتحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب في استحلال المحرم وتحريم المحلل، وما بين ذلك اعتراض نشأ بالمقاولات استدعاه تناسب المعاني وأخذ بعضها بحجز بعض تفنناً في الغرض الجاري فيه الكلام والذي نشأ عنه ذكر الميثاق الذي أخذه تعالى على بني إسرائيل ونقضهم إياه وتحريفهم الكلم وقولهم في المسيح أنه الله وأعقبه بذكر قضية التيه ونباً ابني آدم وربطه بإفسادهم في الأرض وتحريفهم الكلم وأردفه بالحكم بينهم والخشية من ولايتهم أن تفضي إلى ارتداد المسلم عن دينه، وذكر نفاقهم واستهزاءهم ووقوع اللعنة عليهم وأبطل عقائدهم، وتخلل ذلك الأمر بتخلق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحل لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس والتعريض بأن أهل الكتاب ليسوا أهلاً للقيام بها حين جمعوا بين نقض الميثاق والتوغل في الكفر وقتل الأنبياء والتعدي على

المسيح وأمه وتحريم البحيرة وأخواتها وفي آخر السورة عاد الكلام إلى ذكر المسيح ابن مريم وكفرهم به وتعنتهم في طلب الآيات الخوارق، فحصل بذلك نسج بديع وإيجاز جليل.

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) نص الشعبي وغيره أن المفتريين هم المبتدعون وأن الذين لا يعقلون هم الأتباع على نحو ما رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون" قال: الذين لا يعقلون هم الأتباع وأما الذين افتروا فعقلوا أنهم افتروا. وروى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن أبي موسى "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب" قال: أهل الكتاب. وقال في قوله "وأكثرهم لا يعقلون" هم أهل الأوثان. وقال ابن جزي في تفسيره: الذين يفترون على الله الكذب هم الذين اخترعوا تحريم تلك الأشياء، والذين لا يعقلون هم أتباعهم المقلدون لهم. ونظيره قوله تعالى (قل) الذكـرين حرم أم الأنتيين أما اشتملت عليه أرحام الأنتيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) يريد أهل الكتاب لأنهم هم الذين كذبوا على الله تعالى وغيروا شريعة الأنبياء والرسـل وأضلوا الناس بغير دليل ولا حجة بل بشبهات وأباطيل! والكلام متصل لاحقه بسابقه ابتداء من قوله سبحانه (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون) إلى قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم

يوح إليه شيء ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ﴿ ونظيره قوله سبحانه ﴾ ﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فمن أظلم ممن افتري على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ وقوله جل شأنه ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ومن أظلم ممن افتري على الله كذباً ﴾ قال المحققون: إذا ثبت أن من افتري على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد فمن افتري على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق.

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ لما ذكر تعالى أن سبب استحقاق المؤمنين النعيم هو اتباعهم صراط الله أعقبه بذكر سبب استحقاق المشركين العذاب وهو كفرهم وصدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلص بديع إلى ما بعده من بيان حق المسلمين في المسجد الحرام وتهويل أمر الإلحاد فيه والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان، وخبر "إن" محذوف تقديره "نافقوا" وإيراد الصد بصيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك من أهل الكتاب وأنه دأبهم في الماضي والحاضر ففي الماضي ظاهروا كفار قريش على ذلك الصد ووافقوهم، واليوم منعوا الناس عن سبيل الله بجميع وجوه المكر والخداع وقطعوا

طريق الحق عليهم في صورة النصيحة وسعوا في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق وحاولوا تقبيح صفته بشتى الوسائل والحيل وأوّلوا القرآن والسنة بأهوائهم بما يؤيد منهجهم ومعتقدهم الفاسد وهذا النوع من التحريف ألبسوه ثوباً لماعاً لم يأذن به الله زاعمين أنهم جددوا التوحيد وأعادوا نشأة الإسلام كما كانت! وهي خدعة انطلت على ضعاف العقول والبسطاء وضعاف العلم وقاصري الفكر والنظر! يضاف إلى هذا كله استهزاؤهم بعلماء الأمة والطعن بهم وتعييرهم ورميهم بالشرك والخرافات والبدع والضلالات! وفُسرّ قوله "ويصدون عن سبيل الله" بصد الناس عن دين الإسلام والمسلك المقرر في الكتب المنزلة على الرسل الكرام إلى ما افتروه وابتدعوه واختلقوه! والأحسن قول السدي: أما سبيل الله: فمحمد ﷺ. قلت: الصدّ عنه ﷺ هو صد عن المسجد الحرام وإنما خُصَّ ﷺ بالذكر معبراً عنه بسبيل الله للاهتمام بشأنه والعناية به ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام الذي هو قبلة المساجد كما أنه ﷺ قبلة الأنبياء، والمسجد الحرام: اسم جعل علماً بالغلبة على المكان المحيط بالكعبة المحصور ذي الأبواب وهو اسم يومئ إلى السجود والخضوع لله تعالى، وسماه الله حراماً لحرمة حيث لم يوطأ قط إلا بإذنه ولم يدخل إلا دخول تعبد وذلة فكان حراماً على من يدخله دخول متكبر، ووصفه بالحرام يقتضي التنويه به وتعظيمه ومهابته وتهوين أمر الإلحاد فيه وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك وذلك يستتبع تحجير وقوع المظالم، ووصفه بقوله (الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والبادي) للإيماء إلى علة مؤاخذه أهل الكتاب بصدّهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه فإنه جعله للناس كلهم، منطقة محرمة ودار أمان للمسلمين لا يُنفر صيدها ولا يُقطع شجرها ولا تُبوّب دورها، مفتوحة لكل قادم من حاضر

وبادي. قال الزجاج: معنى الإلحاد في اللغة العدول عن القصد. وقال الماوردي: الإلحاد: الميل عن الحق. والآية تفيد أن من أراد أن ينحرف عن نهج التوحيد مجرد الإرادة فله عذاب عظيم، فكيف بمن أشرك؟ ولعل تضمين (يُرد) معنى "يطمع" يستنيم إليه نظام الكلام، فالطمع نزوع النفس إلى شيء ترجوه لا وجود له في الواقع، بخلاف الإرادة فإن فيها سعياً لتحقيق ما ترغب، إنه يهدد على مجرد الطمع! ثم الإرادة زيادة في التحذير ومبالغة في التوكيد، والسبب في ذلك أن الإلحاد في المسجد الحرام هو إلحاد في كل بقعة من الأرض وفي جميع المساجد إذ هو قبلتها، وفي حديث ابن عمر: «والإلحاد في البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً من الكبائر» وروى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «الكبائر تسع» وذكر منها: «استحلال البيت الحرام» أراد الإلحاد فيه. وقد أتوا أصنافاً من الظلم العظيم: ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالإلحاد في أسمائه والإشراك به! وتحالفوا مع إبليس وجنوده لاحتلال هذا المسجد المعظم وهذا لعمرى أفحش الظلم وأعظمه! وظلم الاعتداء على حرمة الرسول المعظم ﷺ بتكذيبه والتقليل من شأنه ثم ادعاء متابعتة وهذا لعمرى أشد الاستهزاء وأصرخه! وظلم القرآن بتحريف معانيه! وظلم المؤمنين بالخداع والأذى! وظلم الحقائق بقلبها وإفسادها! وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الأليم. ولا يخفى إلحادهم وظلمهم على ذي ذوق سليم وطبع مستقيم فإنهم أيام دولتهم الأولى والثانية وضعوا المنافذ ورصدوا الشعاب ودخلوا مكة وحاصروا المدينة وسدوا المسالك وصدوا القاصد والسالك وتعرضوا لأذى العمار والحجاج وقعدوا على أذنان الأودية ومراصد الجبال وعدوا على المسافرين ونهبوا البغال والجمال وكلما نفرت إليهم عساكر العثمانيين فروا إلى الجبال وتباعدها وإذا عادت عادوا

كعادتهم للأذية وتمردوا ولم يزل الحال على ذلك مدة منتظمين في سلك الطغيان ومنتسقين! وكان قد تجرأ على هذه العظيمة في مبدأ الأمر سعود الكبير حين استولى بالقهر على أقطار الحجاز سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف ثم أراد الله هتكه وإنزال النعمة به وبجزبه فسافر إلى الدرعية فأنشبت المنية فيه أظفارها وخلفه ولده عبد الله بن سعود فلم يفطن إلا وقد أحاطت به جيوش القاهرة من كل جانب فضاقت عليه وعلى ركنه الوجوه والمذاهب ولم يكن إلا قدر فواق حتى صاروا كأمس الزاهب فأسروا وحملوا مقيدين إلى القاهرة ثم بعثوا إلى الأستانة العلية فقتلوا هنالك بعد أن صدوا القاصد عن الحرم والسالك وقد أشار إلى ذلك صاحب البيان النبوي في الحديث عند البيهقي والدارقطني: «**حجوا قبل أن لا تحجوا**» قيل: فما شأن الحج؟ قال: «**يقعد أعراهما على أذنان أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد**» ثم عادوا بعد ذلك وأحكموا السيطرة على البلاد وبلغوا أقصى النهايات في المكر والخبث والفساد ونشر العقائد الزائفة الضالة بين العباد!

وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي

للطائفين والقائمين والركع السجود

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر حال المستخلفين وصدهم عن المسجد الحرام وتوعد من أراد فيه بإلحاد؛ حرّض على قتالهم وتطهيره منهم مذكراً أمر إبراهيم عليه السلام، ولعل تضمين بوأنا معنى اخترنا أسوغ للسياق لأن الله اختار لإبراهيم مكان البيت واصطفاه من بين أنبيائه - وخار يتعدى باللام - والغرض من إقامة البيت منذ اللحظة الأولى هو أن لا تشرك بي شيئاً، إنه

التوحيد الخالص فهو بيت الله وحده دون سواه، يطهره للطائفين والقائمين والركع السجود وهؤلاء أنشأ البيت، وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت، ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للتنصيص على هذه الأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية إذ اجتماع هذه الأركان ليس إلا في صلاتهم، ولم يعطف السجود لأنه من جنس الركوع في الخضوع، فإذا فرغ من إقامته على قاعدة التوحيد الخالص كُلف بأن يؤذن في الناس بالحج، فالله خار له هذا المكان ليقيم البيت على أصله، والذين حكموا بزيادة اللام انصرفوا عن ديباجته ولم يكثرثوا بعبارته ولا للسياق الذي ينتظم فيه ولا للقرينة التي وجهت مساره ونهت على أسبابه لقد وقفوا على اللفظ منفرداً فعدلوا عن الصواب، ويبقى للحرف دوره في إدراك المطلب والإبانة عن الغرض، وللسياق حكمه في توجيه المعنى والدلالة على القصد، فإن قيل: لم جاء التعبير "بأننا لإبراهيم" ولم يأت اخترنا لإبراهيم؟ فالجواب: لو قال: اخترنا لضاع علينا معنى النزول ولو قال: بأننا إبراهيم لضاع علينا معنى الاختيار، فتعدية الفعل بغير حرفه جمعت المعنيين النزول والاختيار، وفعل أشرك يتعدى بـ(في) يقال: أشركه في الأمر أي أدخله معه فيه فضمن لا تشرك معنى لا تعدل، والعدل: التسوية أي لا تسوِّ بالله شيئاً وذلك يتضمن نفي الإشراف في الحكم والعبادة على نحو ما ورد في حديث جبريل عليه السلام من رواية أبي هريرة في الصحيحين: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً» وعند الإمام مسلم: «لا تشرك بالله شيئاً» ولم يذكر الحج لتبعيته للمشركين ولذلك يمتنع وجوب الحج قبل تطهير البيت فإن قوله "أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي" أن مفسرة فتكون هي وما بعدها مفسرة للتبوءة أي جعلنا البيت مرجعاً لإبراهيم بأن يأتي

إليه متبرئاً من الشرك مشتغلاً بتطهيره من المشركين ليكون محلاً لطواف الطائفين والقائمين والركع السجود. وروى الترمذي عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإذا أن تأمرهم وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتألاً المسجد وتعدوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيّده فأيكّم يرضى أن يكون عبده كذلك؟» الحديث. ولما أمر تعالى بتطهيره من المشركين سبّب عنه قوله (وأذن في الناس بالحج) أي: نادٍ فيهم ليحجوا، وفيه إشارة إلى أن من إكرام الزائر تطهير البيت وأن ذلك يكون قبل نزول الزائر بالمكان، والتأذين إنما يكون بعد تطهير البيت من دنس الشرك، ومن حكمة مشروعية الحج تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة حتى يرسخ معنى التوحيد في النفوس (يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وفي تعليق فعل يأتوك بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام يُعلم الناس التوحيد وقواعد الحنيفية (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) أي ليحضرُوا منافع لهم فهو علة لإتيانهم الذي هو مسبب على التأذين بالحج، والمقصود من الآيات تكوين مجتمع إنساني مسلم تتوحد فيه العقائد والشعائر والمنافع، فالعقيدة

والشعيرة والمنفعة كلها مزيج واحد لا يكون نوال بعضها إلا بنوالها كلها والله أعلم، وكفى سبحانه وتعالى عن الذبح والنحر بالذكر لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكره تعالى إذا ذبحوا أو نحروا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي من ذبح ما يتقرب به إلى الله تعالى مخالفة أهل الأوثان الذين يقدمون القربان للشيطان، وفي سورة البقرة أمر تعالى المؤمنين أن يذكروه في أيام معدودات وهي أيام منى وذلك بعد الأمر بذكره عند المشعر الحرام على إثر الإفاضة من عرفات ثم كرر الأمر بذكره فقال ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ ففي الآيات السابقة أمر تعالى بذكره مطلقاً وفي هذه الآية أمر بذكره مقابل الهداية، فالأول على حد قوله ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ والثاني على حد قوله ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ والمراد من الهداية: إرشادنا إلى سنن أهل الكتاب وسيرتهم التي سلكوها بما لها من العواقب الوخيمة لنعتبر بحالهم ونتعظ من الوقوع في أهوائهم وننزجر عن أن نتشبه بهم، وقوله تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ المراد بالناس كما ذكر العلامة الرازي: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. والذي أختاره أن هذه الآية متقدمة على ما قبلها والتقدير: فاتقون يا أولي الألباب ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام... والآية وإن نزلت في الحرس إلا أنها تتناول أهل الكتاب تناولاً أولاً وأولياً وهو ما يتفق مع ظاهر النظم السابق واللاحق المصرح بيني إسرائيل، ثم أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالذكر بعد قضاء المناسك لأن من فرغ من العبادة كان بصدد أن يستريح فيفتر عن الذكر إلى غيره فقال ﴿فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذاكم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ وقد أورد الإمام

الطبري أقوالاً عديدة في تأويل الآية ثم قال: والصواب من القول عندي في تأويل ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر عباده المؤمنين بذكره بالطاعة له في الخضوع لأمره والعبادة له بعد قضاء مناسكهم وذلك الذكر جائز أن يكون هو التكبير الذي أمر به جل ثناؤه بقوله "واذكروا الله في أيام معدودات" الذي أوجبه على من قضى نسكه بعد قضائه نسكه فألزمه حينئذ من ذكره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك وحث على المحافظة عليه محافظة الأبناء على ذكر الآباء في الإكثار منه بالاستكانة له والتضرع إليه بالرغبة منهم إليه في حوائجهم كتضرع الولد لوالده والصبي لأمه وأبيه أو أشد من ذلك.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ لما حذر الحق فيما مضى من أهل الكتاب بقوله سبحانه وتعالى "ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً" وقطع ببيان بعض أحوالهم وذم مقارنتهم للشيطان واتباعهم طريقه بقوله "ومن يكن الشيطان له قريناً" وأظهر شهادة الرسل الذين جعلهم الله حجة على الخلق لتكون الحجة على المشركين أبلغ والتبكييت لهم أعظم وحسرتهم أشد، عرّض سبحانه بهم موجهاً الخطاب إلى المؤمنين مظهراً نفاق المنافقين المرائين الذين يُصلّون حال الجنابة والحدث وقد أشار إليهم في حديث سيدنا جبريل عليه السلام عند ابن حبان وابن خزيمة والدارقطني والبيهقي واللفظ له عن ابن عمر أنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلّى الله عليه وآله إذ جاء رجل عليه سحناء سفر وليس من أهل البلد يتخطى حتى ورك بين يدي

رسول الله ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة ثم وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ما الإسلام؟ قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتعتمر وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان» قال: فإن قلت هذا فأنا مسلم؟ قال: «نعم» قال: صدقت. وذكر الحديث... ثم ذكر المولى سبحانه ما خص به الأمة الحمديّة وهو التيمم وجاء ذلك في الخبر عن النبي الصادق الأبر: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» فيكون ذلك أنكى لمن شدد عليهم وأغيط. ولما أفهم سياق الكلام وترتيبه هكذا أن النفاق والرياء من صفات قرناء الشيطان قرر ذلك بحال أهل الكتاب ليكون الكلام مبنياً على تبين بعد إهمام وليصير بهجاً بتفصيل نظمه تارة بأحكام وتارة بأقاصيص عظام فقال (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً) إلى آخر الآيات في شأن أهل الكتاب.

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس وقتادة والحسن والسدي قالوا: حتى لا يكون شرك. وقال ابن زيد: حتى لا يكون كفر. قال الإمام الماتريدي: الدين: الحكم. ونظيره قول الإمام الجرجاني: الدين: الحكم ولذلك يقال للحاكم: الديان. وفي الحديث: «عليّ ديان هذه الأمة» أي حاكمها. ومنه سُمي الله تعالى: الديان أي الحاكم القهار الذي دانت له الموجودات واستكانت لعظمته الكائنات وانقادت لحكمه البريات، وقد أشار إليهم المفسر الأعظم ﷺ في

الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي الآية أمرٌ صريح بقتل أئمة الشرك واستئصال شأفتهم بحيث يأمن المسلمون مضرتهم ويكفون بالكلية فتنهم حتى يكون الحكم خالصاً ليس للشیطان فيه نصيب، وحيّة الوادي لا تؤمن ما دامت تبقى فيها حركة، كذلك العدو إذا قهر فحقه أن تقتلع جميع عروقه، وقد ذكر تعالى هذا في آية الأنفال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فالآية الأولى: تخص جزيرة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» والآية الثانية: تعني العالم كله - والله أعلم وأحكم - والملاحظ أن الآيتين وردتا في سياق التحريض على تخليص البيت الحرام من أرجاس المشركين والإعداد لهم وتهيئة طائفة عظيمة لحمل هذا الدين وحماية بيضته، وحاصل معنى الفتنة يرجع إلى إقرار الشرك ومداهنة المشركين، وفي الحديث عند الإمام أحمد: «إن الشر إذا فشا في الأرض فلم يُتناه عنه أرسل الله عز وجل بأسه على أهل الأرض» وعند الترمذي وابن ماجه: «إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» وقد نزلت سورة الأنفال موجهة إلى كفار قريش الذين لم يحفظوا حرمة البيت الحرام وكانوا الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس وبين الدخول في سلطان الله وحده، فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت قبل أن يناجز فارس والروم، واليوم يعود الطاغوت إلى البيت العتيق بوجهٍ مقتعٍ ماكرٍ لئيم! والنصوص القرآنية ليست قاصرة على الواقع التاريخي الذي نزلت فيه وإنما تدرك بالحياة في جوها الحركي وفي واقعيتها الإيجابية وتعاملها مع الواقع الحي ولا تتكشف إلا في ضوء البيان النبوي والإرث الأبوي

ليبقى لها إبحاؤها الدائم وفعاليتها المستمرة للذين يتحركون بهذا الدين ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان أولئك يواجهون، والذي لا يسلم بهذه الحقيقة لا تنقصه الآيات والبراهين إنما تكمن العلة في نفسه وطبعه لأنه يلهث خلف الأئمة المضلين الذين يصفون القرآن الذي يعالج أوضاع الحياة وأحوال البشر وسلوك الناس بأنه لا يتعدى مرحلة النبوة التي نزل فيها وهم يشنون حرب دعاية منظمة مأكرة لئيمة خبيثة يديرونها على القرآن... والنظم الكريم يكشف هذه الحرب المأكرة ويعرض نهاية الماكرين ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ لقد وقف النبي ﷺ في حجة الوداع موقفاً عظيماً حرّم فيه دماء المسلمين وأموالهم ووضع تحت قدميه كل شيء من أمر الجاهلية ثم قال: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله» ثم أردف قائلاً: «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدبت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات! فهل تعي الأمة هذه الوصية؟؟؟

الصراع الإسماعيلي الإسرائيلي على البيت الحرام

وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع

السجود

العهد بمعنى الوصية المؤكّد على الموصى العمل بها، وقرائن الآيات دالة على أن ذرية إسماعيل هي المكلفة بتطهير البيت من أهل الشرك والنفاق الناقضين الميثاق، فالعهد جاء لإبراهيم وإسماعيل - وهو في ذريته - بتطهير البيت من مشركي ذرية إسحاق ويعقوب ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ وإعادته إلى المكانة التي جعله الله لها، وهذا معنى ﴿مثابة للناس﴾ إذ أن الناس يقصدونه بالتعظيم ويلوذون به، وقد أمر الله أن يُجعل أمناً للناس يصد القوي عن أن يتناول فيه الضعيف ﴿وأمناً﴾ وهو خبر مراد به الأمر وهذا يخالف ما أوقع فيه الكتايبون أهل الدرعية من تخويف المستضعفين وإيصال الضرر إليهم وفرض المكوس عليهم ومنعهم من العمل والعلاج! وإذا مات ذلك المسكين يضطر أهله أن يذهبوا به ليلاً إلى خارج مكة لدفنه بعيداً عن أعين الناس! وقد لعن الله ورسوله من يفعل في الحرم ما يحرم فعله فيه كما روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ستة لعنهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمسلط بالجيروت ليدل بذلك من أعز الله وليعز به من أذل الله، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك لسنتي» وقوله "المستحل لحرم الله" أي مكة وهو الذي يفعل في الحرم ما يحرم فعله فيه... وعند الشافعية: المدينة أيضاً حرم تجري أحكام الحرم فيه، وعند مالك: هي حرم بمعنى رعاية الاحترام

لا جريان الأحكام وتصح إضافته إلى الله لأنه بتحريمه صار حراماً وقد نهي النبي ﷺ عن ترويع الطير وتغير الصيد فيه فضلاً عن ترويع الآمنين على نحو ما ورد في صحيح الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله لا يعصده شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها» فكيف بمن روع الناس وتستر متفاخراً بعمارة البيت وسقاية الحاج (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) ومنطوق الآية نفي المشابهة بين الفريقين! وقرئ (سُقَاةُ الْحَاجِّ وَعَمَرَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) واعلم أن ورثة إسماعيل هم أشد الناس على الدجال كما روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث سمعت من رسول الله ﷺ يقول فيهم، سمعته يقول: «هم أشد أمي على الدجال» قال: وجاءت صدقاتهم فقال رسول الله ﷺ: «هذه صدقات قومنا» وكانت سبية منهم عند عائشة فقال: «أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل» وفي رواية للإمام مسلم: «هم أشد الناس قتالاً في الملاحم» وفي مسند الإمام أحمد: قال رجل يوماً: أبطأ هؤلاء القوم من تميم بصدقاتهم قال: فأقبلت نَعْمٌ حمر وسود لبني تميم فقال النبي ﷺ: «هذه نعم قومي» ونال رجل من بني تميم عند رسول الله ﷺ يوماً فقال: «لا تقل لبني تميم إلا خيراً فإنهم أطول الناس رماً على الدجال» وأخص تبع الدجال: اليهود والنصارى وقد أخبر الله تعالى أنهم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم ما حكاه عنهم في قوله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير، الذين آتيناهم الكتاب يتلونه

حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون، يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ والآيات في مقام التوبيخ والتقريع إذ كفروا النعمة ووجدوا المنعم ثم زعموا أنهم يتعلقون بملة إبراهيم فكان النظم أنسب بالتغليط في ذمهم كما دل عليه قوله بعده ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ فإنه تعالى أمر إبراهيم عليه السلام ببعض التكاليف فوفى بها وخرج عن عهدهما فنال النبوة والإمامة ثم طلبها لأولاده من بني إسرائيل فقال الله تعالى ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين أي الكافرين على حد قوله تعالى "والكافرون هم الظالمون" فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك الكفر والنفاق والتمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه وهذا يوجب عليهم أن يتشبهوا بأبيهم في ذلك ويسلكوا طريقته في مجانبة الحسد والحمية وكرهة الانقياد لسيد الوجودات وفخر الكائنات سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات، وكانوا قد وُخزوا بجانب من التعريض في خلال الآيات السابقة من حسد المسلمين على ما أنزل عليهم من خير وأثم ليسوا على شيء! ومن قولهم ﴿اتخذ الله ولداً﴾ فلما أخذوا حظهم من الإنذار، تهيأ المقام للتوجه إليهم لإعطائهم حظهم من الموعدة كاملاً فيما احتصوا به، فمناسبة ذكر فضائل إبراهيم ومنزلته عند ربه ودعوته لعقبه إسماعيل عقب ذكر أحوال بني إسرائيل هي تذكيرهم وتحريضهم على الإنصاف في تلقي دعوة الإسلام وترك المخادعة والتجرد من الحسد والمكابرة.

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحج كله مقام إبراهيم. وقال مجاهد: الحرم كله. وقيل: المقام هو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه البيت لوضع الحجارة التي كان ولده إسماعيل يناوله إياها، وصار ذلك الحجر تحت قدميه في رطوبة الطين معجزة له فغاصت فيه رجلاه، وكان لزيق البيت إلى أن أخره عمر رضي الله تعالى عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن. والأمر في قوله **(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)** للنبي ﷺ وأمته أي وقلنا اتخذوا - كما ذكره أبو حيان في تفسيره - يؤيد ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت **(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)**. وهذا أصل كبير في تتبع آثار الأنبياء والصالحين والتبرك بها والعبادة فيها، لا كما قرره الأئمة المضلون. وقد ركع ﷺ في ذلك الموضع ركعتين بعد طواف القدوم. وروى الإمام الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»** وقرأ بصيغة الماضي **(واتخذوا)** إخباراً عن استخلاف بني إسرائيل بدليل العطف على قوله **(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين)** وإخبار الله تعالى بالمتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع إذ لا خلف فيه فيجري المستقبل مجرى المحقق الماضي، وأما صيغة الأمر فموجهة للأمة الإسماعيلية المسلمة بدليل قوله بعده **(ووعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)** وتطهير

البيت لمن قصده حاجاً أو معتمراً أو معتكفاً أو مجاوراً وإبعاد يهود ونصارى بني إسرائيل منه - كما هو مقتضى السياق - أولى من مشركي قريش الذين أمرهم الحق في سورة قريش بقوله ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ والآيات لا تقتصر على الزمن الذي نزلت فيه فإن سبب النزول لا يخصص، ويدل على صواب ذلك قوله ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وذلك يقتضي إخراجهم من البيت بطريق الأولى، والله ورسوله أعلم. ولما ذكر سبحانه أمر البيت الشريف فيما تكفل به سبحانه وفيما أمر به الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام من تطهيره ذكر باهتمامه بأهله ودعائه لهم مبكثاً لمن عقه من بني إسرائيل بالتصريح بكفرهم بيوم الجزاء الأمر بكل خير الزاجر عن كل ضير فقال ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ومقصد إبراهيم عليه السلام من دعوته هذه أن يكون أبناؤه دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال، فإن قيل: ما الفرق بين قوله في هذه السورة ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ وقوله في سورة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾؟ فالجواب: أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن البيت في حوزة المشركين، والدعوة الثانية وقعت وهو في حوزتهم فسأل الله أن يخرجهم من صفة هو عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هذا البلد صار مخوفاً فاجعله آمناً والله أعلم... ولما أعلمه الله أن من بنيه قوماً مشركين بقوله ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ خصص دعاءه للمؤمنين دون الظالمين فقال ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ فأعلمه الحق أن الرزق لا يختص بالمسلم ولا يقبح إيصاله إلى الكافر وإنما يمل

للكافر ويعطيه على وجه الاستدراج ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ والواو في قوله ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ عاطفة على قوله ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ وهذا نص صريح في إثبات النعمة في حق الكفار إذ المخاطب بذلك هم أهل الكتاب الذين فضّلهم على بني نوعهم من الأمم. قال سهل التستري: نعمته: محمد ﷺ. قال تعالى ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ يعني يعرفون أن محمداً نبي ثم يكذبونه، وهذا مروي عن مجاهد والسدي وقال به الزجاج. وهذا العهد ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية بني إسرائيل... قاطع في تنحية من يسمون أنفسهم أئمة التوحيد عن القيادة والإمامة بما أشركوا وبما عتوا عن أمر الله وبما انحرفوا عن عقيدة أبيهم إبراهيم ﷺ... ودعواهم الإسلام دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله... ولما عدّد تعالى وجوه نعمته عليهم في سابقة الخطاب وذكر بما مهده من أمر البيت؛ أتبعه بذكر بنائه تعديداً لوجوه النعم على بني إسماعيل ليظهر بذلك التفاوت ما بين التفضيل والاجتباء ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وإن آية الله الكبرى ونعمة الله العظمى نبينا الشارع الكريم ورسولنا الدليل العظيم جمع لنا بشريعته الخير كله وألبسنا من سندس طريقته النبوية أشرف حلة فهو أفصح البشر لساناً وأحسنهم خلقاً وأعذبهم بياناً وأعلى النبيين همماً وأثبت المرسلين

قدماً وأرفعهم معراجاً وأقربهم منهاجاً فأنعم به من حبيب حضائر القدس بطيب
 ذكره معطرة ودوائر الأكوان بشموس عدله منورة فالناجي من اقتدى به عليه
 الصلاة والسلام وتشرف باتباعه والأخذ بكل ما أوضحه من أحكام الدين.
 روى الإمام الترمذي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله
 اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة،
 واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من
 بني هاشم» وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قلت: يا نبي الله ما كان أول
 بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها
 نور أضاءت منه قصور الشام» فإن إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يبعث في بني
 إسماعيل رسولاً منهم يحدثهم عن علامات الساعة وتحولات الأمم ويبلغهم ما
 يوحي إليه من دلائل التوحيد والنبوة ويعلمهم الكتاب المشتمل على جميع
 الكتب المنزلة ويعلمهم الحكمة أي السنة الظاهرة في أفعاله ﷺ وأقواله وأحواله
 وإقراره وقد نزلت بالوحي من عند الله كما روى أبو داود والدارمي عن حسان
 قال: «كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن
 ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن» وفي الحديث عند أبي داود: «ألا إني أوتيت
 الكتاب ومثله معه» ومعنى قوله (ويزكيهم) أي يطهر قلوبهم من الأهواء المضلة
 المنافية لدين الإسلام فترتقي بصفائها ولطفها من ذروة الدين إلى محل يؤمن
 عليها فيه من القسوة والانحراف اللذين وقعا فيمن تقدمها، وبذلك يتحقق مقام
 الإحسان المشار إليه بقول سيد الأكوان: «اعبد الله كأنك تراه» وما أحسن
 قول الإمام مالك بن أنس: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق. والتركية نماء
 النفس بما يفهمه الثاقب من دقائق الإشارات وبواطن العبارات وهي بمنزلة الغذاء

للجسم، وكانت تزكيتة ﷺ لصحابته بنظره الشريف إليهم وتلاوته عليهم وتعليمه لهم وربما نظر إلى أحدهم نظرة محبة فزكاه الله بها وربما سرت تلك النظرة إلى ثان فأشرقت أنوارها عليه على حسب القابلية، وأما من بعدهم فتزكيتهم لهم بآثاره بحسب القابليات والأمور التي قضى الله أن يكون مهياً فمن كان له أعشق كان لاتباعه ألزم فكان في كتاب الله وسنته أرسخ علماً وعملاً فكان أشد زكاء ومن انقطع إلى الله عز وجل وخلصت روحه أفيض على قلبه أنوار إلهية تهيأت بها لإدراك العلوم الربانية والمعارف اللدنية، وقد قدم المولى سبحانه في الآية الأولى "ويعلمهم الكتاب والحكمة" وآخر "ويزكيهم" وورد في الآية الثانية وفي سورتي آل عمران والجمعة بعد على العكس من ذلك وللأسئلة أن يسأل عن وجه هذا الترتيب؟ والجواب عنه - والله أعلم - أنه لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها، آخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل فجاء على الترتيب من بناء المسبب على سببه، ولما كان مقصود الآيات الأخرى إنما هو ذكر الامتنان عليهم أولاً بتزكيتهم ﷺ لهم بنظره الشريف إليهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم، قدّم ذكر التزكية لإحراز هذا المعنى المقصود هنا وهو أنه إذا وقع الضلال لا بد من التزكية قبل التعليم، والله أعلم.

واعلم أنه لا بد للسالك من ولي مرشد أخذ التزكية ممن أخذوا من الشارع الأعظم ﷺ قرناً بعد قرن وهم ورثة أمتهم وكُمّل أهل دينه وملته ولعمري إنهم اليوم أعز من الكبريت الأحمر. وذكر بعضهم أن قوله تعالى "ويزكيهم" بعد قوله سبحانه "يتلوا عليهم آياته" إشارة إلى الإفاضة القلبية بعد الإشارة إلى الإفاضة اللفظية اللسانية وقال بحصولها للأولياء المرشدين فيكون مريدوهم بإفاضة الأنوار

على قلوبهم حتى تخلص قلوبهم وتركو نفوسهم. قال الإمام الجنيد رضي الله تعالى عنه وأرضاه: سبق في علم الله القديم ألا يدخل أحد لحضرته إلا على يد عبد من عباده، لا بد لك من شيخ عارف بالله يرشدك ويقيك المهالك أيها السالك قال الله تبارك وتعالى في سورة الكهف ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾. وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي قدس الله سره العزيز: عليك أيها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك فإنك لو علمت ما انطوى عليه الشيوخ ما برحت عن أبوابهم ولأيتهم سعيًا على الوجه. وقال ابن عجيبة رضي الله تعالى عنه: صلينا كثيرًا وصمنا كثيرًا واعتزلنا كثيرًا وذكرنا كثيرًا وقرأنا القرآن كثيرًا والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني فأخرجونا من التعب إلى الراحة ومن التخليط إلى الصفاء ومن الإنكار إلى المعرفة. وقال خاتمة الفقهاء والمحدثين الشيخ أحمد شهاب الدين بن حجر الهيتمي نفعا الله به: يتعين على من يريد التربية والسلوك على مصطلح القوم السالمين من المحذور واللوم حشرنا الله في زمركم أن لا يبتدئ إلا بمن جذبه إليه حاله قهراً عليه بحيث اضمحلت نفسه لباهر حال ذلك الشيخ المحق وتخلت له عن شهواتها وإرادتها فحينئذ يتعين عليه الاستمساك بهديه والدخول تحت جميع أوامره ونواهيه ورسومه حتى يصير كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء فإن لم يجذبه حال الشيخ كذلك فليتحر أروع المشايخ وأعرفهم بقوانين الشريعة والحقيقة ويدخل تحت إشارته ورسومه كذلك ومن ظفر بشيخ بالوصف الأول أو الثاني فحرام عليه عندهم أن يتركه وينتقل إلى غيره وإن سولت له نفسه أن غيره أكمل فإنه قد يضر من حق ذلك الشيخ فتريد النفس أن تنقل صاحبها إلى باطل غيره وإنما محل اختيار الأعرف الأعلم

الأورع الأصلح في الابتداء وأما بعد الدخول تحت حيلة عارف أهل فلا رخصة عن الخروج عنه بل ولا رخصة عندهم للشيخ الثاني إذا علم أن لمريد الأخذ عنه أستاذاً كاملاً أن يسلكه بل يأمره بالرجوع لأستاذه ويعلمه أن ذلك الأستاذ لولا أنه على حق ما نفرت النفس عنه ولما أحببت فراقه إلى غيره فهذا أدل دليل على كماله وحقيقة طريقته وكثير من النفوس التي يراد لها عدم التوفيق إذا رأت من أستاذ شدة في التربية تنفر عنه وترميه بالقبائح والنقائص مما هو عنه بريء فليحذر الموفق من ذلك لأن النفس لا تريد إلا هلاك صاحبها فلا يطعها في الإعراض عن شيخه وإن رآه على أدنى حال حيث أمكنه أن يخرج أفعاله عن تأويل صحيح ومقصد مقبول شرعاً ومن فتح باب التأويل للمشايخ وأغضى عن أحوالهم ووكل أمورهم إلى الله واعتنى بحال نفسه وجاهدتها بحسب طاقته فإنه يرجي له الوصول إلى مقاصده والظفر بمراده في أسرع زمن ومن فتح باب الاعتراض على المشايخ والنظر في أحوالهم وأفعالهم والبحث عنها فإن ذلك علامة حرمانه وسوء عاقبته وأنه لا ينجح قط ومن ثم قالوا: من قال لشيخه لم؟ لم يفلح أبداً أي لشيخه في السلوك والتربية لما تقرر أن شأن السالك أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل حتى لو كانت له علوم أو رسوم أو أعمال فليعرض عنها ولا يلتفت إليها فإن نار حق الأستاذ العارف تطهر الخبث وتزيله ويبقى الطيب وتبين صفاء جوهره ونفاسة جنسه والمراد بالإرادة والتحكيم ونحوهما أن من أراد السلوك إلى الله على يد بعض الواصلين ويسر الله له من هو كذلك أن يلزم نفسه طاعته والدخول تحت أوامره ونواهيه. اهـ.

ودعوة إبراهيم دعوة لا تكافئها دعوة، وإنعام لا يكافئه إنعام، واصطفاء وتكريم لا يعادله تكريم أن تكون الرسالة فينا وأن يختار الرسول الأخير منا، وقد كان

بنو إسرائيل يستفتحون به على أعدائهم! وقد وصفهم المولى سبحانه بالسَّفَه،
والسفه نقيض الرشد ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ونظيره قول موسى ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْسَفَهَاءُ مِنَّا﴾ وسُمِّي شركهم سفهاً لأنه شرك مشوب بخسة عقل! ثم
كشف المولى عن حقيقة الإسلام الخالص الصريح الصحيح ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ
لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسَلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا مقام التوحيد. ثم استطرد بذكر
الوصية ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ وهو تعبير عجيب حافل بالإشارات الموحية والوقفات
العميقة والنبوءات المحققة الحاضرة التي نراها تقع بعد تلك الحقب حية شاخصة
متحركة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ النافلة: الزيادة غير
الموعودة فإن إبراهيم عليه السلام سأل ربه فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
أراد الولد فولد له إسماعيل عليه السلام ثم ولد له إسحاق ويعقوب عليهما
السلام فكانا نافلة ففي الكلام إضمار واختصار تقديره: وهبنا له إسماعيل أصلاً
إذ كان في صلبه أصل الخليفة وسيد الوجودات وفخر الكائنات وروح الأرواح
والمقصود من خلق النوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده كما جاء
في الحديث - الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه - عن جابر
مرفوعاً: «يَا جَابِرُ إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ» ويسمى النور
المحمدي والحقيقة المحمدية والكلية الجامعة ولها أسماء وقد ورد أيضاً بالسند عن
بعض المحدثين عن سيدنا علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُنْتُ

نوراً بين ربي عز وجل قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام» وفي رواية لأبي نعيم وغيره: «أنا أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث» أي أولهم في عالم الحقيقة النورانية وآخرهم بعثاً وهو ﷺ أول الأرواح إذ الأرواح خلقت بعد الحقائق النورانية والدليل على ذلك أن عدداً من الصحابة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام في عدة مناسبات فقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه متى كنت يا رسول الله نبياً؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وسأله آخر فقال: متى استنبتت يا رسول الله؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وسأله آخر فقال: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» فهو ﷺ أول الأرواح خلقاً صلى الله وسلم عليه وزاده فضلاً وشرفاً لديه.

رب اجعل هذا البلد آمناً

لما ذكر الحق تعالى نجاته قوم موسى من آل فرعون وأردف ذلك بتنظيرهم بالأمم الغابرة وقصتهم مع الشيطان وتبديلهم النعمة ظلماً منهم وكفراً وجعلهم لله أنداداً، قال ناعياً عليهم مع المخالفة لصريح العقل وقاطع النقل عقوب أبيهم الأعظم عطفاً على "وإذ قال موسى لقومه" (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً) وإبراهيم عليه السلام هو النموذج الكامل للمسلم الحنيف الشاكر الذاكر... وتجيء الآيات في هذه السورة التي تحمل سمة الخليل الحنيف في مشهد خاشع يكسوه الشكر ويتجاوب فيه الدعاء في موقف خاشع إلى جوار البيت العتيق لابنه إسماعيل عليه السلام وذريته الذين كان في أصلاهم صفوة الخلق ﷺ ويكشف عن صراع بين ذرية إسماعيل وإسحاق ليرد أولياء الشيطان الذين زينوا لقريش عبادة الأصنام إلى الاعتراف بربوبية الرحمن ويردهم إلى الإيمان وإلى سيرة

أبيهم خليل الرحمن لعلهم به يقتدون ويهتدون وإلى الذكر الحكيم يرجعون...وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة في موقف جيرة البيت لمن يناون عنه ويعرضون وليس هذا فحسب بل يستهزئون عبر مكر تكاد تزول منه الجبال كما أرشد النظم المعجز ﴿وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ والكلام في نسبة المكر إليه تعالى وأنه إما باعتبار المشاكلة أو الاستعارة مشهور، وقرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية ﴿لتزول﴾ وهذا على أن تكون "إن" مخففة من الثقيلة ومعنى الآية تعظيم مكروهم وشدته أي أنه مما يشقى به ويزيل الجبال عن مستقراتها لقوته. وقيل: المراد بالجبال آيات الله تعالى وشرائعه وعليه فإن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكروهم وعظمه! والجبال لا تزول وهذا من باب الغلو والإيغال والمبالغة في ذم مكروهم وهو كقوله تعالى ﴿ومكروا مكرا كبارا﴾ وروى الطبري عن ابن عباس "وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال" يقول: شركهم، كقوله "تكاد السموات يتفطرن منه".

قلت: ومن أنواع مكروهم: إقرارهم للعرب بعبادة الأصنام في الزمن الأول ثم في هذا الزمن ادّعاؤهم التوحيد والاتصاف بما هم متصفون بنقيضه! والأشنع من هذا اتهامهم أهل الإسلام بالشرك! وهذا ديدن الفراعنة والملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يعكسوا الأمور كما قال فرعون ﴿إن هذا لمر مكروهم في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ وهو نوع من التمويه والتلبيس على قومه لئلا يؤمنوا كما آمن السحرة وهذا كما قال اللعين في الابتداء ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ فعكس اللعين الأمر وقلب القضية ونسب السحر إلى موسى عليه السلام كما في قوله ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ والله أعلم.

(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار، وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نعمة الله هو سيدنا محمد ﷺ. والآيات وإن نزلت في كفار قريش إلا أنها تتناول أهل الكتاب تناولاً أولاً وهو ما يتفق مع سباق النظم ولحاظه.

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً) قالوا ذلك على وجه السخرية لأنهم يكفرون بالرحمن أي المستوي على عروش عموم الأكوان وهذا أعظم الإشراك وأقبح المسبة لرب العالمين! وحاصل المعنى أنهم اجترأوا على الله وتجاسروا على هذه العظيمة! قال الإمام القرطبي: وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم قولان: أحدهما: جبال الأرض، الثاني: الإسلام والقرآن لأنه لثبوتهم ورسوخه كالجبال. وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن الحسن رضي الله عنه قال: خمسة أحرف في القرآن "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" معناه وما كان مكرهم لتزول منه الجبال "لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين" معناه ما كنا فاعلين "قل إن كان للرحمن ولد" معناه ما كان للرحمن ولد "ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه" معناه في الذي ما مكناكم فيه "فإن كنت في شك مما أنزلنا" معناه فما كنت في شك. قال العلامة الألوسي: والمراد أنه سبحانه مجازيهم على مكرهم ومبطله إن لم يكن في هذه الشدة وإن كان فيها ولا بد على هذا الوجه من ملاحظة الإبطال وإلا فالجزاء المجرد عن ذلك لا يكاد يتأتى معه النكتة التي يدور عليها ما في إن الوصلية من التأكيد المعنوي وجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يقابلهم بمكرهم ولا يمنع من ذلك كون مكرهم

في غاية الشدة فهو سبحانه وتعالى أشد مكرراً ولا حاجة حينئذ إلى ملاحظة الإبطال فتدبر. اهـ. فهو صراع خفي بين ذرية إسماعيل وإسحاق... تبرز الآيات من خلاله هدف السكنى بجوار البيت الحرام ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ إنه إقامة الصلاة على أصول توحيد الربوبية كاملة لله... ليست مراعاة وأدعية وتصدية ومكاء! ولهجان لسان إبراهيم بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده أدق وأبعد مغزى... وبذلك يتضح مسار الرسائل السماوية، وإنها لنعمة أن يخرج الإنسان من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور التوحيد، ويخرج من الضلال والشروء والحيرة والدينونة المذلة لشتى الأرباب إلى النور واليقين والدينونة العزيزة لرب الأرباب... يدعو إبراهيم عليه السلام دعوته هذه لما أعلمه الله من ضلوا من ذريته بإغراء الشياطين ﴿رب إهني أضللن كثيرا من الناس﴾ وإنما جعلن مضلات لأن الناس ضلوا بسببهن تماماً كما أغرت الشياطين الناس قبل البعثة بعبادة الأصنام، روى ابن أبي حاتم عن سفيان أنه قال: ليس من صنم إلا فيه شيطان. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مع كل صنم شيطانة. والتأنيث في الآية للضعف والإغواء والإغراء كقوله سبحانه ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال "الطاغوت" الشيطان. وروى عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: الشيطان. وقوله ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾ أراد بنيه من صلب إسماعيل عليه السلام أجداد النبي ﷺ ومما يدل على أن آباء النبي ﷺ لم يعبدوا الأصنام قوله عليه الصلاة والسلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» فوجب أن لا يكون أحد من آبائه من عبد الأصنام، قال الإمام السيوطي في الحاوي: أخرج ابن جرير في تفسيره عن مجاهد في هذه الآية قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم

يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله من الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه: أن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش، فذكر الحديث بطوله في قصة البيت الحرام، وفيه من قول الله لآدم في حق إبراهيم عليهما السلام: وأجعلهما أمة واحداً قانتاً بأمرى داعياً إلى سبيلي أجتبه وأهديه إلى صراط مستقيم أستجيب دعوته في ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته، الحديث. هذا الأثر موافق لقول مجاهد المذكور آنفاً ولا شك أن ولاية البيت كانت معروفة بأجداد النبي ﷺ خاصة دون سائر ذرية إبراهيم إلى أن انتزعها منهم عمرو الخزاعي إثر دخول بني إسرائيل جزيرة العرب ثم عادت إلى قريش فعرف أن كل ما ذكر عن ذرية إبراهيم فإن أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة الذين خصوا بالاصطفاء وانتقل إليهم نور النبوة واحداً بعد واحد فهم أولى بأن يكونوا هم البعض المشار إليهم في قوله "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي". اهـ. وفي قوله (وَمِنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دليل على أن عصاة أهل القبلة مغفور لهم كما ثبت ذلك بالنصوص الصريحة والأخبار الصحيحة ففي الحديث عند الإمام مسلم: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك» فتأمل ولا تغفل.

مقدمة الباب الثاني

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون
قرآنًا عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون

لما تواعد الحق القاسية قلوبهم وأنحى عليهم بالويل، ذكر في هذه الآيات أنه تعالى ضرب لهم في هذا القرآن من كل مثل ليكون حالهم بعد ضربه حال من يرجى تذكره بما ضرب له ما يعرفه تذكراً واضحاً مكشوفاً وذكر أنه أنزله عربياً جارياً على قوانين لسانهم في جمعه باتساعه ووضوحه... وتنوين "مثَلٍ" للتعظيم والشرف أي من كل أشرف الأمثال فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالاً هي بعض من كل أنفع الأمثال وأشرفها والمراد: شرف نفعها والله أعلم، وانتصب "قرآنًا" على الحال من اسم الإشارة، والمقصود من هذه الحال التورك على المشركين حيث تلقوا القرآن تلقي من سمع كلاماً لم يفهمه كأنه بلغة غير لغته لا يُعيره بالاً، وفيه تعريض بتسفيه أحلامهم إذ كذبوا به وأعرضوا عن الاهتداء بهديه، وسدّوا بمحض الغفلة طرق الاستدلال والنظر، ولم يتدبروا جلال المؤثر استدلالاً بالأثر! ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسلُ إلى إيقاع "عوج" وهو نكرة في سياق ما هو بمعنى النفي وهو كلمة "غير" فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النفي أي ليس فيه عوج قط بل هو قيم كما وصفه تعالى في مطلع سورة الكهف "قيماً" لأنه قيم على سائر كتب الله تعالى يصدقها وينفي الباطل عنها وهو المعتمد عليه والمرجوع إليه وهو القيم بالإرشاد إلى الحق، وقال بعضهم في تأويل قوله عز وجل "ولم يجعل له عوجاً" أي لم يجعله مخلوقاً كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى "قرآنًا عربياً

غير ذي عوج" قال: غير مخلوق. اهـ. والجعل في قوله **(إنا جعلناه قرآنا عربيا)** ليس تخليقياً بل هو جعل التقدير والتصيير فإن القرآن غير مخلوق أصلاً ووصفاً... والعوج: الاختلال والاختلاف والتناقض والزيغ والعيب والميل عن الاستقامة والعدول عن طريق الصواب، وفي المستدرک من حديث ابن مسعود مرفوعاً: **«إن هذا القرآن حبل الله والنور المبین والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعَب ولا يعوج فيقوم»** ولغة القرآن تتطلب معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، فقد روى ابن أبي شيبه عن عمر أنه كتب إلى أبي موسى: «أما بعد، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي» ولما كان العرب أفصح الأمم كثر في كلامهم: المجاز والاستعارة والتمثيل والكناية والتعريض والاشتراك والأمثال والتلميح والتلميح واستعمال الاستفهام في التقرير أو الإنكار... وكان الإيجاز والمثل عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين، والمثل يزيد الكلام الجليل بهجة وت فخيماً ويكسبه قبولاً ويجعل له قدراً في النفوس وحلاوة في الصدور ويدعو القلوب إلى وعيه ويبعثها على الاستظهار به أوان المحاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلقات المفاولة... ونقل صورة حية إلى ألفاظ وتراكيب هو الصنعة البيانية وفيها يتفاوت البلغاء... واللفظة المفردة في يد المصور البارع تتحول إلى صورة واضحة المعالم ظاهرة القسّمات بيّنة الغرض تموج بحياة تستمدّها من بيانه حين يلقي فيها سره مشخّصاً بصورة مؤيداً. يمثل ليكشف بها عن حقيقة... وستبقى كل حقيقة بحاجة إلى مصور يتجاوز بألفاظه الحقيقة العرفية المجردة لأنها قاصرة عن الوفاء بمطالب التعبير اللغوي إلى صور وألوان شاخصة للعيان ينسجها بكلماته يفرغ عليها من وحيه يتمها

بحكمته.. وكيف لا يكون شخوص العيان أبلغ في التأثير وأدنى للفهم وأرجى لبلوغ الأمل من شخوص الخيال؟! يعدل بها المصور عن التعبير المجرد إلى رسم مجسد ومن معنى ذهني صامت إلى صورة ناطقة كسّته أهبّة وأكسبته منقبة ورفعت من قدره وضاعفت في تحريك النفوس له حين تزينت بحليها فهي زجاء برجاء لا تبرح تدعو القلوب إلى محبتها لتكون أزهى للنفس وأهض لتحقيق المراد... فإذا كان للأدب قدرة متصرفة في صورة التعبير فإن للفن قدرة متصرفة في جماله... هذا مناطه البصيرة الشفافة وذاك مرجعه الذائقة الصافية تختلط معهما الحواس فيسمع المرئي ويصير المسموع وتتسع معهما الروح بإدراك المطلق وما نسميه الإلهام... شأن النحل تجني عسلتها وتبني خليتها ويبقى التصوير هو الأداة المفضلة في إنعاش غراس قتلها الظمأ... فالصورة إن تنظر إليها بعين صافية ومرآة مجلوة تحس بإحساسها تدرك أفكارها تسمع تسبيحها وخفقات قلبها وتبصر أسارير وجهها ودموع عينيها: حزناً أو فرحاً... للنفس بها إعجاب، وللرغبة إليها انصباب، تكشف أسرار فضائلها أو رذائلها ضعفها أو قوتها سموها أو انحطاطها ما خفي منها واستتر أو ما ظهر وانتشر لا لتشهر بل لتطهر، ولتنزه لا لتلوث... وما كل صاحب لسان يملك القدرة على استيعاب هذه الملامح يجمع بعضها إلى بعض بالرفق لاستشفاف خفاياها من دفين العواطف والنوازع والأهواء إلا إذا كان على ذائقة من البيان ومعرفة بأسرار البلاغة يصرف فيها لسانه في الحزن والممتنع فلو زعمت أنه من شجرها لما أبعدت ولو قلت أنه عرق منها لكان عسى... والآيات تنمة للتبويه بالقرآن (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) قال العلامة الطاهر بن عاشور أفاض الله

عليه سجل رحمة ورضوانه: ومضمون هذه الجملة هو أن القرآن يلين قلوب الذين يخشون ربهم لأن مضمون الجملة السابقة يثير سؤال سائل عن وجه قسوة قلوب الضالين من ذكر الله فكانت جملة "الله نزل أحسن الحديث" إلى قوله "من هاد" مبينة أن قسوة قلوب الضالين من سماع القرآن إنما هي لرين في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته. اهـ. والقرآن ميزابٌ هاطلٌ لا ينقطع أبداً ولا واسطة لأخذه من مقره والوقوف على سرّه إلا سيدنا وسيد العالمين عليه أكمل الصلوات والتسليمات، جبل الله الذي من تمسك به نجا وأمن وسلم، وباب النجاة الذي من دخل منه إلى الله قبل ورُحم. وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم جي ... فلم هجرت كتابي

أما تأملت ما في ... ه من لذيذ خطابي

روى البخاري أنه ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليّ» قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعك من غيري» فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال: «حسبك» فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرّفان من البكاء. وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، ويروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله وكيف يشبع الحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه. قال صاحب عوارف المعارف قدس الله تربته: هذا السماع هو السماع

الحق الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان محكوم لصاحبه بالهداية، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع لأنه تارة يثير حزناً والحزن حار، وتارة يثير شوقاً والشوق حار، وتارة يورث ندماً والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين بكى وأبكى لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف إمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجاً ويكاد يضيق عنه نطاق القلب فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال. وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً. فلمحي السماع القرآني من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحي السماع الشيطاني فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجدته وطربه ونشأته في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله، أدام الله لنا حلاوة محبته، ولا سلك بنا في غير سبيل سنته بمنه ورحمته.

(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)

لما أخبر سبحانه بانفراده بالملك وكان العلم أعظم شروط الملك أتبع ذلك بطريق الإشارة لأولي البصارة أنه يهب لمن يشاء علم الظاهر ويهب لمن يشاء

علم الباطن ومنهم من يهب له تعالى هذا وهذا ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لا علم له أصلاً فتمت الدلالة على تمام علمه وقدرته ثم أتبعه القسم الآخر الأعلى الذي العلم فيه أظهر وهو الوحي بأنواعه الثلاثة، واختتام السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ فيه محسن ردّ العجز على الصدر، وفي الآية امتنان على الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية، وإن من أقوى البينات على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر وأنه كلام رب العالمين أنزله على رسوله الصادق الأمين أنه جاء بروح من أمر الله ليسري في قلوب العباد فيشعرون بتأثيره وفعاليته وذوق حلاوته وطلاوته فأمر هذا الروح القرآني أعظم من الروح الإنساني وشأنه أكبر ولذلك جاء ذكره غير معرف تعظيماً وتفخيماً ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي روحاً عظيماً قوي التأثير والفعالية وهو ما أوحى إليه من القرآن وسماه روحاً لأن الخلق يحيون به من موت الجهل كما يحيى الجسد بالروح، فالروح الإنساني تحيا به الأجسام، والروح القرآني تحيا به القلوب، وأطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأن الوحي إذا وعته العقول حلت بها الحياة الحقيقية والسعادة السرمدية وتهيأت للعلوم والمعارف الدنية والفضائل والكمالات العلية، وكذلك إذا سمع الإنسان العاقل هذا القرآن وأنصت له وأنصف معه أشرق قلبه واستنار عقله وتجلّت له أنوار الحكمة الإلهية وأسرار المعارف الربانية وهذا مما يحمله على الإذعان للحق الذي جاء به والاهتداء بنوره إلى السلوك على الصراط المستقيم فيمشي عليه سوياً وهو على بصيرة من أمره وبينه من سيره، وسمي جبريل عليه السلام روحاً لأنه روحٌ كله لا كالناس الذين في أبدانهم أرواح ولأنه روح عظيمة قوية التأثير في الأحياء ولذا كان من الحكمة أنه يرسل إلى مريم فينفخ فيها فيخلق عيسى عليه السلام

وَيُعْطَى قُوَّةٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ صِفَاتِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ وَاسْمُهُ بِذَلِكَ لِقُدْسِيَّةِ نَفْسِهِ وَطَهَارَتِهَا مِنَ الْأَدْنَسِ وَلَأنَّهُ يَنْزِلُ بِالتَّقْدِيسِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَيُّ يَنْزِلُ بِمَا يَطْهَرُ النَّفُوسَ وَيَقْدَسُ الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْفَيُوضَاتُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْقُدُسُ مَعْنَاهُ الطَّهَارَةُ وَالْبَرَكَةُ، وَالتَّقْدِيسُ مَعْنَاهُ التَّطْهِيرُ وَالْمُبَارَكَةُ فَجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو قُدَاسَةٍ وَتَقْدِيسٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلُهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَهْمَ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ، وَالْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ، فَلِلرُّوحِ مَدْرَكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، كَمَا أَنَّ لِلْفَهْمِ مَدْرَكَاً لَا يَنْالُهُ الْعِلْمُ، لِتَوَجُّهِ الرُّوحِ إِلَى أَعْلَى الْوُجُودِ، وَوُجُوهَةِ النَّفْسِ إِلَى ظَاهِرِ الشُّهُودِ. رَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَبْرِيلَ بْنِ مَطْعَمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) الْآيَاتِ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ. وَالْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ (مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) لِأَمْتِهِ ﷺ أَيُّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كَانَ قَوْمُكَ يَدْرُونَ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) قَالَ الْإِمَامُ الْقُسْطَلَانِيُّ فِي الْمَوَاهِبِ: قَدْ يَخَاطَبُ السَّيِّدَ وَالْمُرَادُ قَوْمُهُ أَيُّ وَجَدَ قَوْمُكَ ضَالِّينَ فَهَدَاهُمْ بِكَ وَبِشْرَعِكَ. قُلْتُ: وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ) فَإِنَّهُ ﷺ - أَرْوَاهُنَا لَهُ الْفِدَاءُ - لَمْ يَزَلْ مُوْحَى إِلَيْهِ وَإِذَا كَانَ عَيْسَى وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَدْ أُوتِيَا الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ فِي الصَّبَا فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلَى بِأَنْ يُوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ النُّوعُ مِنَ الْإِيحَاءِ صَبِيحاً فَإِنَّهُ كَانَ نَبِيّاً وَآدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَهُوَ ﷺ أَبُو

الأرواح إذ الوجود كله ممتد من نوره وهو ﷺ أبو الأشباح باعتبار أنه السابق نوره فأول ما ظهر نوره عليه الصلاة والسلام ومنه امتدت الكائنات فهو بذرة الوجود وهذا معنى دقيق لطيف شريف وليس من يفهم الإشارة كمن لا يفهمها. وسُئل مولانا وملاذنا السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس الله نفسه الزاكية وقيل له: أي سيدي سمعنا أن رسول الله ﷺ كان يسبق جبريل ﷺ وقت نزوله بالوحي فهل كان يعرف القرآن قبل ذلك أم لا؟ فقال ﷺ: تكلم الحق سبحانه وتعالى بالقرآن المجيد قبل خلق السماوات والأرض وكتبه في اللوح المحفوظ فلما خلق الله تعالى روح محمد ﷺ عرض القرآن المجيد على روحه فتمثل على قلبه فلما ظهر إلى الدنيا وبعث بالرسالة ونزل عليه الوحي على لسان جبريل ﷺ وتذكرت روحه الكريمة ﷺ ذلك العرض السابق فجرى القرآن على لسانه فنطق به فأنزل عليه ﴿الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ أي ذلك الكتاب الذي عرضناه على روحك الشريفة وعلمنا سابقاً أنك ستذكره ولا تنساه ثم أدبه جل وعلا بقوله تعالى ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾. اهـ. وأما كون القرآن نوراً فلما فيه من الآيات التي تطرد الشبه المضلة. ولما سأل أهل الكتاب عن ماهية الكائن الخفي المنتشر في الجسد، أُجيبوا على خلاف مرادهم ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ والمعنى أن الروح الإنساني من عالم الأمر الرباني اللطيف الذي به حياة جسم الإنسان... وأراد بالروح: القرآن - كما ذكره بعض المفسرين - وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده، وتسمية الله القرآن بالروح تدل عليه الآية المتقدمة إذ بالقرآن تحيا الأرواح الإنسانية وبه تحيا القلوب التي هي أبواب الاتصال بين الأرواح

والأشباح فتحصل حياة الأرواح والعقول وتحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف وعليه فإن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن عوداً ناظراً إلى قوله ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وما بعده ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ إلى قوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ فلما كان النظم في وصف القرآن وجب أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة - والله أعلم - قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي أن الرسول جاءكم بالروح القرآني الذي به حياتكم السعيدة فإذا سرى روح القرآن في قلب الإنسان دبت فيه الحياة الإيمانية ما لم يتبع أهواء أهل الكتاب فحينذاك يحجب ويزيغ وينغمس في الغفلات الشيطانية فلا تسري فيه الحياة القرآنية! قال الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني قدس الله روحه: المراد بالروح هنا الروح الإنساني والمعنى - والله أعلم - أن الروح من عالم الأمر الرباني اللطيف وذلك أن هناك عالماً يسمى عالم الأمر وعالماً يسمى عالم الخلق وذلك ثابت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية فعالم الخلق هو خُلِقَ بأمر من الله تعالى له "كن فيكون" ولكن من مادة ويجري عليها التركيب والتطوير والتوالد وذلك كجسم الإنسان المخلوق من تراب وأما عالم الأمر فهو ما خُلِقَ بمجرد قول الله تعالى له "كن" دون أن يكون له مادة ولا تطوير ولا توالد ومن ذلك هذا الروح الإنساني فالإنسان فيه مَجْمَعُ الْعَالَمِينَ: فجسمه من عالم الخلق الكثيف المادي وروحه من عالم الأمر اللطيف... ثم إن عالم الأمر الذي ألحنا إليه هو داخل في عالم الملكوت الذي جاء ذكره في الآيات القرآنية والأحاديث

النبوية كما أن عالم الخلق داخل في جملة عالم الملك وكل من العالمين المذكورين الملك والملكوت بيد الله تعالى يتصرف فيهما كما يشاء كما هو مقتضى حكمته الموافقة لعلمه سبحانه قال تعالى "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير" وقال تعالى "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون" فكل شيء كائن في عالم الخلق ما قام إلا بالملكوت وهو الأمر الرباني الذي قامت به الأشياء فملكوت الأجسام الإنسانية هو روحها وفي السنن عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في الليل وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وقد كثرت أقوال العلماء في الفرق بين هذه العوالم الثلاثة والحق ما قاله محققوا العارفين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين: أن عالم الأمر ويسمى عالم الملكوت هو عالم الأرواح والروحانيات والنفوس سمي بذلك لأنه يوجد بأمر الحق سبحانه بلا واسطة مادة ومُدّة وأن عالم الملك ويسمى عالم الشهادة هو عالم الأجسام والجسمانيات وهو ما يوجد بعد الأمر بمادة ومُدّة ويجري عليه التركيب والتوالد وأما عالم الجبروت فقال بعضهم هو مشتق من الجبر وهو القهر فيشمل عالم البرزخ بعد الموت وعالم موقف الحشر لأن فيهما حكم القهر الإلهي وقد حث الله تعالى عباده أن ينظروا في العالمين: عالم الملك وعالم الملكوت ولكن فرق بين النظيرين لافتراق العالمين: فقال تعالى في عالم الملك "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج" الآيات. وقال تعالى "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت" فالنظر في هذه الآيات متعدد لما بعده ب(إلى) لأن المنظور إليه يرى بحاسة البصر وهي العين ويشهد حساً، وأما عالم الملكوت فقال تعالى فيه "أولم ينظروا في ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شيء" الآية. فأمر سبحانه بالنظر فيه والمراد بذلك نظر التفكير والاعتبار والتعقل والاستبصار في الملكوت الذي أقام الله تعالى به الأشياء وأمسك به عليها قواها وقوامها وهذا من الأمور الغيبية التي لا يراها إلا من أطلعه الله تعالى على ما شاء منها وأشهده ذلك، قال تعالى "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وليكون من الموقنين" وأعظم من أراه الله تعالى ذلك وأطلعه على جميع ما هنالك السيد الأكرم سيدنا محمد ﷺ حيث قال مخبراً عن ذلك المشهد: «فتجلى لي كل شيء وعرفت، ثم قرأ (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين)» كما جاء في سنن الترمذي ومسنند أحمد وغيرهما، وفي رواية الترمذي: «فعلمت ما في السموات وما في الأرض» وفي رواية الطبراني: «فعلمني كل شيء» ثانياً: إن الروح الإنسانية هي شريفة كريمة قدسية عالية أعلن الله تعالى شرافتها وكرامتها بإضافتها إليه حيث قال سبحانه "إذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" فأخبر سبحانه عن شرف الإنسان جسماً وروحاً، أما شرف جسمه فقد سواه هو سبحانه وأكملته وعدله وأحسنه كما أخبر عن ذلك بقوله سبحانه "إذا سويته" وهذا نظير قوله تعالى "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" فجسم الإنسان ليس كبقية الأجسام البهيمية الحيوانية بل هو مشرف بتسوية الله تعالى له وتعديله وإحسان تقويمه وأما شرف روحه فقد أضافها الله تعالى إليه حيث قال "ونفخت فيه من روحي" والنفخ هنا كناية عن إيصال الروح بالجسم وإفاضتها على ذراته كلها بالحياة بعد أن صار مسوياً ومستعداً للروح (ومن) التي في قوله تعالى "من روحي" هي للابتداء أي من روح بدء خلقها وإيجادها من الله سبحانه، وفي هذا بيان أن الروح الإنسانية ليست كغيرها من أرواح

البهائم والحيوانات بل هي في أوج الشرف والكرامة والاستعداد للفيوضات والمعارف الإلهية والقضايا الإيمانية وفيها الأهلية الكاملة لأن تكون موضع الخطابات الإلهية الشرعية بالأوامر والمناهي والآداب والأخلاق العالية فيخطبه الله تعالى بقوله "يا بني آدم" وبقوله "يا أيها الناس" وبقوله "يا عبادي" ونحو ذلك، والروح هي من العالم الملكوتي العلوي هبطت إليك من المحل الأرفع وقرنت بهذا الجسم الإنساني فإذا أجاع الإنسان بدنه وشغله بالعبادة وأقامه في خدمة مولاه تعالى بالعمل فيما أمره به ربه سبحانه وجدت روحه خفة ولطافة وشعرت باللذة والراحة فتاقت إلى المستوى الذي هبطت منه واشتاقت إلى عالمها العلوي المقدس وإذا أثقل الإنسان بدنه بالماكل والمشارب وأخلد إلى الشهوات وكثرة النوم والراحة وانهمك في اللذائذ الجسمية ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية ولذلك ترى الرجل الصالح في العمل الصادق في عبادته لربه المخلص لله تعالى دينه ترى بدنه عندك في الأرض ولكن روحه وقلبه في العالم العلوي يجول كما ورد أن رسول الله ﷺ قال لحارثة الذي عزفت نفسه عن الدنيا قال له: «كيف أصبحت يا حارثة بن مالك؟» فقال: أصبحت مؤمناً حقاً، فقال ﷺ: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهارى فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً للحساب ولكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ولكأني أسمع عواء أهل النار فقال ﷺ: «عبد نور الله الإيمان في قلبه عرفت فالزم» وعلى العكس فإن الكفار والفجار لما أخلدوا إلى الأرض وعموا وضموا في شهواتهم البهيمية وأهوائهم السفلية فإن أرواحهم هبطت من عليائها وصارت أرضية دنية قال الله تعالى "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها" أي لم يتحقق

بمواجبها ولم يتلبس بمعانيها بل انخلع منها "فأتبعه الشيطان" فاصطاده وافترسه.
 "فكان من الغاوين" بعد أن كان من الراشدين "ولو شئنا لرفعناه بها" بتلك
 الآيات الكريمة العالية فإنها بها يعلو عالي المهمة "ولكنه أخلد إلى الأرض" أي مال
 إلى ملاذها وزخارفها كل الميل حباً فيها وهياماً بها "واتبع هواه" وفي ذلك دليل
 على دناءة همته وخسة بغيته حيث إنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف
 الأعلى فهو في ذلك "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"
 أي شأن الكلب أن يلهث إن تركته أو حملت عليه وطردته وكذلك من كفر
 وأخلد إلى الأرض فهو يلهث على الدنيا متكالباً عليها فهو إن تركته يلهث على
 الدنيا وإن حملت عليه بالوعظ والتذكير والحجة والبيّنات يلهث على الدنيا ولا
 يعلو عنها بهمته وعزيمته "ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص
 لعلهم يتفكرون" ثالثاً: ذهب جمهور العلماء إلى أن الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل
 الأجساد واستدلوا على ذلك بما جاء في حديث المعراج المروي في الصحيحين
 أن النبي ﷺ قال في حديثه عن المعراج: «فلما فتح - أي فتح خازن السماء
 الدنيا الباب لنا - علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى
 يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً
 بالنبي الصالح والابن الصالح؛ قال ﷺ: قلت لجبريل من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه
 الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه - أي أرواح بنيه - فأهل اليمين هم أهل
 الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن
 شماله بكى» الحديث. فهذا دليل على أن الأرواح مخلوقة ومودعة هناك في
 السماء فإذا كمل للجسم استعداداً لتقبل هذه الروح بأن مضى عليه أربعة أشهر
 في رحم أمه أمر الله تعالى الملك أن يأتي بهذه الروح فينفخها في الجنين فيحيا

حياة روحية فوق الحياة النامية التي كان عليها قبل أن تمضي عليه أربعة أشهر وهو في الرحم فما يظهر للجنين من حركة قبل أربعة أشهر فتلك حركة نمو كما تتحرك الناميات من الزروع ونحوها وأما الحركة الروحية فهي بعد أربعة أشهر، واستدل العلماء على تقدم خلق الأرواح على الأجسام بما ثبت من قضية عالم الذر وذلك أن الله تعالى بعد أن خلق آدم ﷺ استخرج منه الذراري التي سيخلقها منه إلى يوم القيامة وأفاض عليها الأرواح وأخذ عليهم العهد وأشهدهم على ذلك، قال تعالى "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى - أي أنت ربنا - شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا هذا غافلين" جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: جمعهم الله تعالى فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم ﷺ أن تقولوا لم نعلم بذلك، اعلّموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي - أي هذا العهد والميثاق الذي أخذ عليكم الآن - وأنزل عليكم كتيبي، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك فأقروا بذلك. ورواه الحاكم وصححه إسناده وأقره الذهبي ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه وغيرهم وقد جاء ذلك المعنى في عدة أحاديث مرفوعة ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب

من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك» الحديث. قال الترمذي فيه حسن صحيح. ومن الأدلة على تقدم خلق الأرواح على الأجسام ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ورواه البخاري معلقاً. فالأرواح التي تقوم بها الأجساد هي جموع متجمعة وأصناف مصنفة وهي في عالم الأمر قبل عالم الخلق الجسماني فما تعارف منها في ذلك العالم إلى بعضها ائتلف ههنا في هذا العالم الجسماني وما تناكر منها هناك اختلف ههنا، قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى حول هذا الحديث: فالائتلاف والاختلاف للقلوب والأرواح البشرية التي هي النفوس الناطقة مجبولة على ضرائب مختلفة وشواكل متباينة فكل ما تشاكل منها في عالم الأمر تعارف في عالم الخلق وكل ما كان في غير ذلك في عالم الأمر تناكر في عالم الخلق. ومن الأدلة على تقدم خلق الأرواح ما رواه ابن منده مرفوعاً قال: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام» وأول الأرواح البشرية خلقاً هو روح السيد الأعظم ﷺ كما أخبر عن ذلك بقوله: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه ابن سعد مرسلًا بإسناد صحيح ورواه أبو نعيم وابن أبي حاتم في تفسيره وابن لال والديلمي كلهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» وهذه الرواية تفسر رواية ابن سعد وأن المراد من الناس الأنبياء فهو ﷺ أولهم في عالم الأرواح وخاتمهم في عالم الأشباح ﷺ وقد نبأه الله تعالى في عالم الأرواح قبل الأنبياء كلهم فبه فتحت النبوة في عالم الأرواح وبه ختمت في عالم الأشباح ﷺ فهو الفاتح وهو الخاتم، روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال:

«وآدم بين الروح والجسد» وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب ورواه أبو نعيم والبيهقي والحاكم وصححه ورواه البزار والطبراني وأبو نعيم أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما، وعن ميسرة الفخر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» رواه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ والطبراني والحاكم وصححه وقال الحافظ الهيثمي في رجال أحمد والطبراني: رجالهما رجال الصحيح. اهـ.

وقد تساوقت فاتحة الرعد (المر تلك آيات الكتاب) وخاتمتها (ومن عنده علم الكتاب) كما تساوقت خاتمة الرعد (ومن عنده علم الكتاب) وفاتحة إبراهيم (الر كتاب أنزلناه إليك) وفي هذا التوافق تنويه بشأن هذا الكتاب الذي حوى فحواه بدائع أصناف العلوم وعلا نظمه كل منثور ومنظوم، وكشف عن أسرار الغيب المكنون ونطق بأخبار ما قد كان وما سيكون.

أمّ الكتاب

روى الإمام البخاري وأحمد وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». قال شيخ الإسلام والمسلمين وموئل كُمَلِّ الواصلين وملاذ العجزة والمساكين وأستاذ أعيان المقربين، تاج صدور الأقطاب

وملجأ أكابر الأنجاء، الشارب من كأس الصفا والمُشرف عام حجّه بتقيل يد النبي المصطفى، الغوث الأوحّد والقطب الفرد الأجمد، الشريف الخاشع والسيد الخاضع والإمام المتواضع مولانا أحمد الكبير الرفاعي قدس الله أسرارهِ وشيد بفضلهِ العميم مناره: فاتحة الكتاب عروس القرآن العظيم، وبرهان الكلام القديم، بما تقوم أركان الطريقة، وتشيد مراسم الحقيقة، وهي محل الأسرار، ومدار اندلاعات الأنوار... فيها حال من أحوال القدرة، وشأن من شؤون العظمة، ونور من أنوار السلطان، ودهشة من دهشات الجبروتية، وهيبة من هيبات الربوبية... نار الله الموقدة على الأعداء، تريق السلامة للأولياء. انتهى كلامه العالي. وقيل لها "أم الكتاب" أي اللوح المحفوظ لأن اللوح المحفوظ يؤم بالكتب جملة وتفصيلاً ما جاء فيها. وإن شئت قلت: سميت بذلك لتضمّنها جميع علومه وانطوائها على المثل السامية، وقد استهلّت بالتعريف بالله بما تضمنه قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وتنزيهه سبحانه والثناء عليه والاعتراف بربوبيته بما تضمنه قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإفراده تعالى بالرحمانية المقرونة بالرحمية بما تضمنه قوله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وتوحيده عز وجل في الحكم والمُلْك والإيمان باليوم الآخر بما تضمنه قوله ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإجلاله تعالى وعدم الإشراك به بما تضمنه قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وطلب الهداية مع الحاجة إليه سبحانه بما تضمنه قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والصراط المستقيم هو رسول الله ﷺ الداعي إلى الإسلام وقد قال ﷺ: «وإن خير الهدى هدي محمد» فعلم الله عباده أن يسألوه سبحانه هدايتهم إلى هذا الصراط المستقيم في أكمل قرباتهم وأفضل عباداتهم، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بالاحتياج إلى العلم وأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مشوب بشبه أهل الكتاب، ومن عرف هذين الأمرين

طلب أن يكون في مرتبة أولئك المنعم عليهم **(صراط الذين أنعمت عليهم)** قهماً بالافتداء بهم وتعوداً وتبرؤاً من أحوال اليهود والنصارى الذين ذيلت السورة بالبراءة منهم وذلك بما تضمنه قوله **(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)** وقد انعطف المنتهى على المبتدأ بمراقبة القسم الأول اسم الله فحازوا ثمرة الرحمة وخالف هذان القسمان فكانوا من حزب الشيطان فأخذتهم النقمة، وعلم أن نظم القرآن على ما هو عليه معجز ومن ثم اشترط في الفاتحة في الصلاة لكونها واجبة في الترتيب فلو قدم فيها أو أخر لم تصح الصلاة وكذا لو أدرج فيها ما ليس منها للإخلال بالنظم فإن القرآن معجز والركن الأيمن الإعجاز يتعلق بالنظم والترتيب. قال سيدنا علي عليه السلام: «لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرت سبعين بعيراً» وروى الإمام مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» وروى الترمذي عن أبي بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبيد ولعبيد ما سأل» ونكتة عدم وجود مثلها في التوراة والإنجيل إبطال دين أهل الكتاب، وهي أم القرآن لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً كما تضمن حديث جبريل عليه السلام علوم السنة إجمالاً. وروى الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» وفي رواية للطبراني أنه صلى الله عليه وسلم أعطيتها من كنز تحت العرش. وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى: حمدي عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثني علي عبدي، وإذا قال: (مالك يوم الدين) قال: مجدي عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال: هذا لعبدي ولعبي ما سأل» ولعل هذا ثناء من الله تعالى على عبده الكلي الذاكر له بالحمد وثناء الرحمانية والرحمة والتمجيد والتفويض له والتعبد له وطلب المعونة... فذكرَ عز وجل أنه يذكره عبده عندما حمده وعندما أثني عليه وعندما مجده وعندما فوض إليه وعندما توجه إليه بالعبادة وطلب المعونة ثم لما وصل إليه بالمواجهة في الخطاب أعطاه سؤله وقضى مآربه، فذكره لما ذكره وقضى حوائجه واستجاب له دعاءه لما وصل إليه وسأله. واعلم أنه لما كانت الصلاة محلاً لمناجاة الله تعالى بقراءة الفاتحة تعين القول بفرضيتها على المصلي في الصلاة فإنه تعالى لم يقل: قسمت الفاتحة، وإنما قال: «قسمت الصلاة» فلما فصل الصلاة المعهودة بالتقسيم المذكور في الحديث جعل محل القسمة قراءة الفاتحة، وهذا أقوى دليل على فرض قراءتها في الصلاة. ومن فضائلها ما رواه أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في فوائده بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلی الله علیه وسلم أنه قال: «من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهاكم التكاثر ثم قال: جعلت ثواب ما قرأت لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله تعالى» نقل ذلك صاحب المرقاة وغيره، وفي المرقاة عن محمد بن أحمد المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم

المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم.

ألا لله الدين الخالص

لَمَّا بَيَّنَّ سبحانه أنه أنزل الكتاب بالحق ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ تسبب عن ذلك توجيه الأمر بالعبادة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه والواجب لوجوبه فيأتي بالفعل لوجهه مخلصاً لربه لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر، والإخلاص: نفي الرياء والشرك الخفي، وقيل: إخراج الخلق من معاملة الحق، أو تقول: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال، أو تقول: إفراد القلب لعبادة الرب، وسرّه عند العارفين ألحقنا الله بهم ونظمنا في سلوكهم: نفي العجب وملاحظة النفس، والرياء قاذح في صحة العمل، والعجب قاذح في كماله. روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَوْمَ تَحَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاوُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عَنْدهُمْ جَزَاءً» وفي المسلسلات أن النبي ﷺ سئل عن الإخلاص، فقال: «حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيلَ» فلما سأله قال: حتى أسأل رب العزة، فلما سأله قال: «سر من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي» قال بعضهم: هو مقام الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وهذا التوحيد الذي تتفجر في القلوب أنواره وتظهر آثاره وتبدو أسرارهِ فليجتهد العابد في دوام الحضور مع

المعبود فإن لم يستطع الحضور على الوجه المسطور فلا يئأس وليجتهد فلعل الله تعالى يمن عليه برفع النقاب وكشف الحجاب وفتح الباب ويُحسن له المآب. واعلم أن الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية مرجعها إلى أمرين: الأول: تعلق القلب بأخلاق البهائم وهي شهوة البطن والفرج وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية. والثاني: تخلق القلب بأخلاق الشياطين كالكبر والحسد والحقد والقسوة والجاه والعجب وغيرها... فإذا خرج العبد من تلك الأخلاق وتخلق بالزهد والورع والتواضع وسلامة الصدر والشفقة وتعظيم الفقراء والمساكين والإخلاص والكرم والصدق والمراقبة وتحقيق بها ذوقاً بعد التخلص من أضدادها كان عبداً خالصاً لمولاه حراً مما سواه، وكان لندائه مجيئاً ومن حضرته قريباً. وبعد أن أمر تعالى بالإخلاص في العبادة نادى باستحقاقه الحكم وأن ذلك لا يتصور أن يكون لغيره فقال ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ أي ألا هو سبحانه الذي يجب أن يُخص بإخلاص الحكم له تعالى، وبذلك يكون الكلام مشتملاً على أفراد الله سبحانه بالعبادة والحكم، بطريق الإخبار من الله تعالى بقوله ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره، وقال سبحانه ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وعليه فإن هذه الجملة ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ليست تأكيداً للأولى عند من له معرفة بأساليب الكلام وصياغات المعاني ففيها ما ينبو عنه مقام التأكيد، وإنما أراد الملك والحكم الخالص على نحو قوله تعالى ﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون﴾ وسورة الغرف المسماة بسورة الزمر متضمنة بيان الوحدانية ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ في حنيفة ومبينة واضحة بينة كما قال سبحانه ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي قاتلوهم قصداً منكم

إلى زوال الشرك حتى يكون الحكم خالصاً لله توحيداً ليس للشيطان فيه نصيب. ومطلع السورة يربط بين توحيد العبادة وتوحيد الحكم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي أن الكتاب مشتمل على أفراد الله سبحانه بالعبادة والحكم وهو دين الإسلام المأمور به من الملك العلام ويظهر هذا بقوله بعده ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ كما حكى تعالى ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي اعبدوه جاعلين الحكم خالصاً له تعالى. وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رجلاً قال: يا رسول الله فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص». واعلم أنه تعالى لما بين حقيقة الوحداية أردفها بدم طريقة المشركين في صد الناس عن الحكمة وإيقاعهم في شرك العبادة بإلقاء الشبهات والتمويهات وإيراد الضلالات والجهالات ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وتقدير الكلام: والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي ليشفعوا لنا إلى الله وذلك التقريب هو الشفاعة، والزلفى: القربى وهو اسم أقيم مقام المصدر، وأهل الكتاب يقولونه للملائكة ولعزير ولعيسى بن مريم. والسورة تكشف طريقتهم في الجدال والتلبيس والقتل وكتمان البينات وتحريف النصوص... وأسوق بعض ما كتبه حرهم ابن عبد الوهاب في رسالته الثامنة: **فيا عباد الله تفكروا في كتاب ربكم تبارك وتعالى إذا كان ذكر عن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أن دينهم الذي كفرهم به هو الاعتقاد في الصالحين وإلا فالكفار يخافون الله ويرجونه ويحجون ويتصدقون ولكنهم كفروا بالاعتقاد في الصالحين وهم يقولون إنما اعتقدنا فيهم ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا**

ليقربونا إلى الله زلفى)... إلخ. وهذا الكلام من صنوف المخادعة والمغالطة مؤلف على طرائق المستهزئين إذ يعززون الحق بالتلبيس ويستبلمهون الناس! قال محدث الحرمين السيد محمد علوي المالكي قدس الله روحه ونور ضريحه: يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة الواسطة، فيطلقون الحكم هكذا جزافاً بأن الواسطة شرك، وأن من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله، وأن شأنه في هذا شأن المشركين القائلين "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" وهذا كلام مردود، والاستدلال بالآية في غير محله، وذلك لأن هذه الآية الكريمة صريحة في الإنكار على المشركين عبادتهم واتخاذهم آلهة من دونه تعالى وإشراكهم إياهم في الربوبية والألوهية وأن عبادتهم لهم تقرهم إلى الله زلفى فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لهم ومن حيث اعتقادهم أنهم أرباب وآلهة من دون الله، وهنا مهمة لا بد من بيانها؛ وهي أن هذه الآية تشهد بأن أولئك المشركين ما كانوا جادين فيما يحكي ربنا عنهم من قولهم مسوِّغين عبادة الآلهة: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فإنهم لو كانوا صادقين في ذلك لكان الله أجل عندهم من تلك الآلهة فلم يعبدوا غيره فليعرف هذا حق المعرفة؛ فإن كثيراً من الناس لا يفهمونه ويننون عليه ما يننون، ألا ترى أن الله لما أمر المسلمين باستقبال الكعبة في صلاتهم، توجهوا بعبادتهم إليها واتخذوها قبلة؟ وليست العبادة لها وتقبيل الحجر الأسود إنما هو عبودية لله تعالى واقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ولو أن أحداً من المسلمين نوى العبادة لهما؛ لكان مشركاً كعبدة الأوثان فالواسطة لا بد منها وهي ليست شركاً وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركاً وإلا لكان البشر كلهم مشركين بالله لأن أمورهم جميعاً تبني على الواسطة فالنبي ﷺ تلقى القرآن بواسطة جبريل فجبريل واسطة للنبي

ﷺ وهو ﷺ الواسطة العظمى للصحابة رضي الله تعالى عنهم فقد كانوا يفرعون إليه في الشدائد فيشكون إليه حالهم ويتوسلون به إلى الله ويطلبون منه الدعاء؛ فما كان يقول لهم: أشركتم وكفرتم؛ فإنه لا يجوز الشكوى إلى ولا الطلب مني بل عليكم أن تذهبوا وتدعوا وتسالوا بأنفسكم فإن الله أقرب إليكم مني، لا، بل يقف ويسأل مع أنهم يعلمون كل العلم أن المعطي حقيقة هو الله وأن المانع والباسط والرازق هو الله وأنه ﷺ يعطي بإذن الله وفضله وهو الذي يقول: «إنا أنا قاسم والله يعطي» وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أي بشر عادي بأنه فرج الكربة وقضى الحاجة؛ أي كان واسطة فيهما فكيف بالسيد الكريم والنبى العظيم أشرف الكونين وسيد الثقلين وأفضل خلق الله على الإطلاق؟ ألم يقل النبي ﷺ كما جاء في الصحيح: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا» إلخ؟ فالمؤمن مُفَرِّجُ الكربات. ألم يقل ﷺ: «من قضى لأخيه حاجة؛ كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له»؟ فالمؤمن قاض للحاجات. ألم يقل في الصحيح: «من ستر مسلماً» الحديث؟ ألم يقل النبي ﷺ: «إن الله عز وجل خلقا يُفَرِّع إليهم في الحوائج»؟ ألم يقل في الصحيح: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»؟ ألم يقل في الحديث: «من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وتسعين حسنة»؟ رواه أبو يعلى والبخاري. فالمؤمن هنا فرج وأعان وأغاث وقضى وستر وفُزِعَ إليه، مع أن المفرج والقاضي والستار والمعين حقيقة هو الله عز وجل ولكنه لما كان واسطة في ذلك؛ صح نسبة الفعل إليه. انتهى.

وقول أهل الكتاب "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" هو في حقيقته كفرٌ في صورة السخرية والاستهزاء! وهذه طريقة المبطلين وأولياء الشيطان المستهزئين الذين يجادلون في توحيد الله تعالى وفي دفع آياته وقلب معانيها والمنع عن فهم ما

فيها والظعن فيها وإيقاع اللبس بها معاجزين مشاqqين معاندين مجتهدين في
 صرف الناس عنها وإبطالها معجّزين الناس عن الإيمان بها يموهون بمجادلتهم على
 ضعفة العقول والأفهام! ولم يزل أحبارهم يطعنون في آيات الله تعالى ويدفعونها
 يريدون التمويه والتلبيس على العوام لتكون لهم الرياسة والشرف ويبطلوا الحق
 ويطفئوا نوره! وهم - قاتلهم الله - أبناء الأمس حين تحالفوا مع الامبراطورية
 الوثنية وتآمروا على قتل المسيح ثم خدعوا الناس ووافقوا الوثنية في عقيدة الاتحاد
 وحلول اللاهوت بالناسوت ثم قرروا عقيدة التثليث، وأشركوا الجن في الحكم
 فحملتهم على إشراك الملائكة بالعبادة زاعمين أن الملائكة بنات الله من أمهات
 سروات الجن! فقد روى ابن جرير عن قتادة في قوله "وجعلوا بينه وبين الجنة
 نسبا" قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن فخرج منهما الملائكة،
 قال: سبحانه سبح نفسه. وروى عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال: قالوا
 الملائكة بنات الله. وروى ابن أبي حاتم عن عطية رضي الله عنه قال: قالوا صاهر إلى كرام
 الجن. واليوم يعود المبطلون كما بدؤوا يخادعون! والمخادع المبطل لا يستطيع
 تقرير باطله إلا أن يحتال بحيلة تصرف أذهان الناس عن أسلوبه الشيطاني! فيورد
 الشبهات المظلمة والاعتراضات المشوشة حتى تصير مشتبهة على أهل البداية ثم
 يقول مراد الله من الآيات ما ذكرته! ولذلك أعقب المولى سبحانه بعد كشف
 أساليبهم الشيطانية في إضلال الناس بقوله **(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه**
يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) ومعنى الحكم بينهم أنه يبين لهم
 ضلالهم جميعاً وأفاد النظم أن الاختلاف ثابت لهم وأنه متكرر متجدد، والآية
 وصفتهم بوصفين من أوصاف الذم في صيغة مبالغة تدل على خبث سرائرهم
 وفساد فطرتهم والتواء عقيدتهم: الأول: الكذب، والثاني: الكفر، وذلك كفرهم

بالله وبالرسول ﷺ وبالقرآن بإعراضهم عن تلقيه والتجرد عن الموانع للتدبر فيه وعلم من مقارنة وصفهم بالكذب بوصفهم بالأبلغية في الكفر أنهم متبالغون في الكذب أيضاً لأن كذبهم المذموم إنما هو كذبهم في كفریاتهم فلزم من مبالغة الكفر مبالغة الكذب فيه ولا جرم أنه كلما توغل العبد في الكذب على الله وفي الكفر به ازداد غضب الله عليه فازداد بُعد الهداية الإلهية عنه. ولما أخبر سبحانه بالحكم بينهم بإبطال دعوى جميعهم، أقام الحجة البالغة على كونه منزهاً عن الولد وأخبر أنه لو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع ذلك لاستلزامه ما ينافي الوحداية ولكنه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ولما كان واحداً قاهراً لا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي لو أراد أن يتخذ ولداً كما زعمتم لاختار الأفضل أي الذكور لا الأنقص وهن الإناث! والآيات تربط بين شرك الحكم وشرك العبادة وتكشف اتخاذهم الملائكة والنبين أرباباً، إذ نسبوا لله ولداً من الإنس واتخذوه من النبين إبطالاً للحق، ونسبوا لله ولداً من الجن واتخذوه من الملائكة إبطالاً لما تنزل من الحق حسبما يحكيه قوله سبحانه ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ وهذا القول لا يصدر إلا عن فطر خبيثة! نعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور، وجاء التعبير بذكر "الرحمن" تشنيعاً عليهم لأنهم ذكروا الرحمن المستوي على عروش عموم الأكوان في صورة السخرية والاستهزاء! وقد حُكي نظير ذلك في قوله تعالى ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدتهم وهو أنهم بنات الله! فإذا تبين بطلان ذلك علموا أن جعلهم

الملائكة أرباباً يعادل جعلهم النبيين أرباباً، وهكذا يلتئم السياق القرآني في ترتيب الدليل على أقوم نهج وأوضح سبيل. ولما نفى تعالى ضروب الإشراف في الحكم والعبادة وأثبت سبحانه كمال وحدانيته بدلائل تفرد به إيجاد العوالم العلوية والسفلية والخلق العجيب في أطوار تكون الإنسان، قال مستأنفاً ما أنتجه الكلام السابق ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والآية تُبيِّن الوشيجة بين الربوبية والإلهية والمُلْك غاية البيان، فالربوبية حقيقة بدهية للمُلْك، والمُلْك حقيقة بدهية للألوهية، وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الإنقسام والتجزئة لأنها أرجحة واضطراب بين الهدى والهوى وهما نقيضان لا يجتمعان أبداً على المدى... وقد بين المولى جل شأنه في خاتمة كتابه هذه الحقيقة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وفي هذه الآيات أدلة مشهودة على حقيقة ربوبيته سبحانه وعلى حقيقة ملكه وعلى حقيقة إلهيته وكمال حكمته في تصرفه بعباده فإن الناظر يعلم بادئ ذي بدء بأن له رباً غير خارج عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم ثم زيد بياناً بوصف إلهيته له ليتبين أن ربوبيته له ليست كربوبية الخلق بعضهم في بعض فيشعر بأن ربه هو الملك الحق والإله الغني عن الخلق... وبالجملة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول السورة ثلاثة أسماء من أعظم أسمائه سبحانه وأجمعها وهي الرب والملك والإله أما اسم الإله فله عدة معان في لغة العرب وكل هذه المعاني الكاملة الفاضلة موجودة في هذا الاسم الذي اتصف به سبحانه يقال في اللغة: أله فلان فلاناً: إذا عبده واتخذها إلهاً أي معبوداً فالله سبحانه هو الإله أي هو المعبود بحق ويقال: أله - بكسر اللام - إلى الشيء إذا احتار فيه، ويقال: أله وولاه، وعلى هذا يكون معنى الإله: هو

الذي تتحير فيه العقول فالله سبحانه تتحير فيه العقول حيرة إثبات لا حيرة إنكار وشك، ويقال: إله من الوله أي هو الموله به والمولع به فجميع ذرات العالم مولهة ومولعة بحبه سبحانه وتعالى، ويقال: لاه فهو إله بمعنى تستر واحتجب فلا تدرك حقيقته قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وروى الدارقطني وغيره أنه ﷺ لما قرأ مرة ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ قال ﷺ في بيان معنى من معاني الآية: «لَا فِكْرَةَ فِي الرَّبِّ» وقال سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي العلو المنزه عن أن تدركه الإدراكات فلما تقول: لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ويلزم من هذا أنه سبحانه محبوب موله ومولع به ويلزم من هذا أنه تختار فيه العقول وأنه سبحانه احتجب عن خلقه فلا يمكن إدراك حقيقة ذاته سبحانه وكثيراً ما يذكر الله سبحانه اسمه الإله ويصف نفسه بالألوهية - وهي استحقاق العبادة له جل وعلا - ويقرن هذا باسم الرب ويبين أن من كان رباً حقاً فهو إله حقاً ومن لم يكن له حظ من الربوبية فلا حظ له من الألوهية ولذلك قال تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي بآرائهم وممدهم وهذا باعتراف الناس كلهم والدليل في ذلك ظاهر بين فكل إنسان يعلم أنه عبد وأنه مريبوب وأنه متصرف فيه وما دام أنه سبحانه رب الناس فهو ملك الناس أي المتصرف فيهم بيده الأمر والنهي والخفض والرفع والسلب والمنع والإعزاز والإذلال وكلهم عبيده ومماليكه وهو المدير أمورهم كما يشاء النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان الأعظم عليهم فهو سبحانه المالك والملك ومالك الملك والمليك وذو الملك والملكوت وكل اسم له دلالة وإن كانت معاني الأسماء متلازمة وما دام أنه سبحانه رب الناس وملك الناس فهو إله الناس أي معبودهم ويجب أن يعبدوه ولا يعبدوا معه غيره لأن غيره لا

حظ له في الربوبية فلا حظ له في الملك والألوهية، فالواجب عليهم أن يستعينوا
 بالله تعالى من شر رؤوس الجنة والناس الذين يفسدون عليهم أعظم وأرجى ما
 عندهم وهو تحقيق التوحيد لله سبحانه وتعالى وسمي الوسواس بذلك لأنه إلقاء
 شطاني خفي يلقي وسوسته في الصدر الذي هو ساحة القلب فإذا استحكمت
 الوسوسة وتمكنت دخلت بيت القلب فالصدر كساحة الدار والبيت في الدار
 هو القلب وقد أمر صاحب البيان عن القرآن بالتعوذ من شر شياطين الجنة
 والناس كما جاء في مسند أحمد أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر تعوذ بالله
 من شر شياطين الإنس والجن» ومن المناسبات العظيمة مناسبة معنى سورة الناس
 لسورة الفاتحة ليرجع مقطع القرآن على مطلعته ويلتحم مبدؤه بمرجعه على
 أحسن وجه! فالفاتحة اشتملت على ثلاثة أسماء: الله والرب والملك، ومقصودها
 الاعتصام بالتوحيد الخالص، والمراد بالناس في قوله "من الجنة والناس" خصوص
 اليهود والنصارى المعبر عنهم في الفاتحة بالمغضوب عليهم والضالين كما تفيد
 الكلمة الأخيرة في المصحف وفق سياقاتها فإنهم مطبوعون على الشر وأكثر
 شرهم بالمكر والخداع - وسميت الجنة بذلك لاستتارهم عن أعين الناس -
 ومقصود سورة الناس معلول لمقصود الفاتحة التي هي موالاة الرحمن ومعاداة
 الشيطان وأوليائه الشيطان ببراءة الختام وفذلكة النظام على نهج براءة
 الاستهلال، ورعاية الجلال والجمال، فقد اتصل الآخر بالأول اتصال العلة
 بالمعلول، والدليل بالمدلول والمثل بالمشول، والله المسؤول في إجابة السؤال
 وتحقيق المأمول، وبه يستعان، وعليه التكلان، وقد ندب ﷺ إلى افتتاح القرآن
 بعد ختمه وسمى ذلك الحال المرتحل، وكأنه قيل: استعذ يا من ختم القرآن
 العظيم لتفتحه ببسم الله أي بما له من الاسم الذي لم يسامه فيه أحد لكونه

جامعاً لجميع الأسماء الحسنى أي الصفات التي لا يشوبها نقص... قال ابن برجان في تفسيره: اسمه (الله) جل ذكره جامع لجميع الأسماء وكلها شارحة لمعانيه معبرة عنه... ضَمَّنَ جل جلاله هذا الاسمَ العالم كله - علوّه وسفله - بما فيه من عجائبه وغرائب. اهـ. ثم نبّه تعالى في سورة الزمر على استحقاقه للشكر وعلى أن الكفر به قبيح، ولما كان في سياق الحكم والقهر وكانت عادة القهارين أن يكفؤا بعض الناس ببعض ويأخذوهم بجوارئهم لينتظم لهم العلو على الكل لعدم إحاطة علمهم بكل مخالف لأمرهم، بين أنه سبحانه على غير ذلك فقال ﴿ولا ترزوا رزاةً رزواً أخرى﴾ بل وزر كل نفس عليها لا يتعدها، ثم قال مهدداً لظنهم أن لا بعث ولا حساب ولا حشر ولا نشر ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ ثم أشار إلى نفاقهم وعظيم حرمانهم في قولهم بألستهم مما لم تنطو عليه قلوبهم بقوله ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ وأثبت وحدانيته بدليل من أحوال هؤلاء المستخلفين المفسدين فإنهم إذا مسهم الضر لجؤوا إليه وحده وإذا مكنتهم جعلوا له شركاء ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ والمراد بالإنسان: المستخلف الكاذب الكفار الذي تقدم ذكره وعن سبحانه بالنعمة نعمته عليه بالملك والاستخلاف - والله أعلم - ولما شرح الله تعالى صفاتهم ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله فقال ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ وهذه الآية دالة على أسرار عجيبة، أولها: أنه بدأ فيها

بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً وأما العلم فقوله "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية، وثانيها: أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واطب عليه الإنسان، وقوله "ساجداً وقائماً" إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله "يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه" إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله "يحذر الآخرة" ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله "ويرجو رحمة ربه" ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" وثالثها: أنه قال في مقام الخوف "يحذر الآخرة" فما أضاف الحذر إلى نفسه وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأبقى بحضرة الله تعالى والرجاء والخوف جناحاً من يطير إلى حضرة القدس وروضة الأنس ومن عطل أحدهما تعطل عن الطيران... وقد أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء أن لي عباداً يحبوني وأحبهم ويشتاقون إليّ وأشتاق لهم ويذكروني وأذكروهم وينظرون لي وأنظر إليهم فإن حذوتَ طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك قال: يارب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جنهم الليل أي سترهم واختلط الظلام وفرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا إليّ وجوههم وناجوني بكلامي وتلهفوا لي بإنعامي فمنهم صارخ وباكي ومنهم متأوه وشاكي ومنهم قائم وقاعد ومنهم راع

وساجد فأول ما أعطاهم ثلاث خصال، الأولى: أن أقذف في قلوبهم من نوري، الثانية: أقبل بوجهي الكريم عليهم أفترى من أقبلت عليه بوجهي أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ الثالثة: لو كانت الأرض والسموات في موازينهم لاستقللتها لهم. لما أُجري الشاء على المؤمنين بإقبالهم على عبادة الله في أشد الآناء وبشدة مراقبتهم إياه بالخوف والرجاء وبتميزهم بصفة العلم والعقل والتذكر، أتبع ذلك بأمر السيد الأعظم عليه السلام بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم وحثهم على الهجرة ومفارقة المشركين **(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)** وقد أضافهم إليه بقوله "يا عباد" تشريفاً وتكريماً فإن العبودية لله فيها الشرف الأكبر والفخر الأوفر كما قال القاضي عياض:

ومما زادني فخراً وتيهاً ... وكدت بأخصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وجعلك خير خلقتك لي نبيا

وتقوى الله تعالى هي توقي غضبه وعقابه وعذابه وعتابه وحجابه كما جاء في خطبته عليه السلام: **«وإن تقوى الله تقي مقتته وتقي عقوبته وتقي سخطه وإن تقوى الله تبيض الوجه وترفع الدرجة»** وأولى مراتب التقوى: تقوى الكفر والشرك فقد روى أصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية **(هو أهل التقوى وأهل المغفرة)** فقال عليه السلام: **«قال ربكم: أنا أهل أن أتقى فمن لم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له»** وفي رواية: **«فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له»** ثم عاد الكلام ليقرر تلك الحقيقة الضخمة التي افتتحت بها السورة **(قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين)** وينوع عرض الحقيقة في نظم معجز وإيقاع

مؤثر يتكرر في تسبيحة ندية رحية تلمس أعماق الفطرة في مكان التوحيد؛
توحيد كامل شامل مجرد خالص لا تشوبه شائبة ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ ثم
تصور الآيات التوحيد في ماء عذب خالص ينزل من السماء تتلقاه القلوب الحية
فتشرق وتستنير وتنشرح له كما تهتز وتربو الأرض الطيبة إذا ما مسها المطر
﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ وفي المقابل تتلقاه
القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله
أولئك في ضلال مبين﴾ أي الذين طابت بالكفر نفوسهم واعتقدوه غضب الله
عليهم وأضلهم ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم
عذاب عظيم، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي
القوم الكافرين، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ وهم
المنعوتون بالصم البكم العمي في الآثار الصحاح المتواترة... والآية الكريمة ﴿أفمن
شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ تنبه إلى قوة ذلك النور
الكاشف للأمور فإنه من نور الله تعالى وهذا يدل على شرف المسلم وكرامته
عند الله تعالى بسبب النور الإيماني الذي أودعه الله في قلبه وكتبه فيه فاستنار به
قلبه وعقله وسمعته وبصره وجميع مداركه وحواسه وفكره وفهمه وبهذا النور
صار يعرف حقائق الأمور بدون ريب ولا التباس، روى البيهقي عن عبد الله بن
مسعود قال: تلا نبى الله ﷺ هذه الآية فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟
قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» والنور يكشف عن حقائق الأمور
ويميز الحسن من القبيح ويفرق بين الحق والباطل كما حكى تعالى ﴿يا أيها الذين
آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ أي يجعل لكم نوراً تفرقون به بين الحق
والباطل وهو المسمى بالفراصة. والأنوار ثلاثة: أولها نور الانقياد والإذعان وهو

نور الإسلام، وثانيها نور البصيرة والبيان وهو نور الإيمان، وثالثها إلهام يجري بعد العيان وهو نور الإحسان. وإن شئت قلت هو نور الطالبين والسائرين والواصلين، وإن شئت قلت هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة. ومعنى قوله ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ أي لا يستوي هو ومن طمس الله على قلبه فصار كالصخرة أو أشد قسوة يتخبط في الظلمات لا يفرق بين الحق والباطل! والحذف في الكلام مع الدلالة على المراد أبلغ، واللطائف فيه أكثر وما يظهر بسببه من الحسن أظهر، إذ النفس تذهب فيه كل مذهب.

وقد أخبر تعالى عن أئمة الكفر أنهم إذا دخلوا النار يتذكرون قوماً من مستضعفي المؤمنين فيقولون كنا نحسبهم أشقياء قد خسروا لذة الدنيا باتباعهم الإسلام ورضاهم بشظف العيش ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار، اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ والهمزة للاستفهام على جهة التوبيخ، وقرئ بوصل الهمزة وإسقاطها في الدرج والابتداء بها مكسورة أي وقد اتخذناهم سخرياً على حد قوله سبحانه ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا﴾ والسخري: اسم مصدر سخر منه إذا استهزأ به وهو دال على شدة الاستهزاء لأن ياءه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف. وقوله ﴿أم﴾ إن كان اتخذناهم استفهاماً مصرحاً بهمزته أو مؤولاً بالاستفهام فالظاهر أنها متصلة لتقدم الهمزة، والمعنى: أي الفعلين فعلنا بهم، الاستسخرار أم الازدراء والتحقير؟ أي أن أبصارنا كانت تعلقو عنهم وتقتحمهم! أو على أنها منقطعة والمعنى اتخذناهم سخرياً بل زاغت عنهم أبصارنا على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخرار، وفي الآية الأخرى على نحو هذا ﴿فاتخذوهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ أي

كنتم تستهزئون بهم غاية الاستهزاء واستمر ذلك منكم حتى نسيتم ذكرى بالكلية ولم تخافوا عقابي، قال صاحب التحرير والتنوير: ومعنى "حتى" الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية شُبّه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه "حتى" والمعنى: أنكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر، لأنهم سخروا منهم لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان اتباعهم إياه سبب السخرية بهم فكيف يرجى من هؤلاء التذكر بذلك الذكر وهو من دواعي السخرية بأهله. اهـ. وُقُرئ بضم السين في لفظ **(سُخْرِيَا)** في الآيتين وذكر بعضهم أنه ما كان من جهة التسخير والاستعباد فهو بالضم وما كان من الاستهزاء فهو بالكسر وهذا هو الذي يرشد إليه المقام **(وكنتم منهم تضحكون)** والله أعلم، وقد حُكي نظير ذلك في سورة المطففين **(إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون)** والكلام متصل بقوله تعالى **(ويل للمطففين)** وذلك أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً فرأى إيقاظهم لذلك فكانت مقدمة لتشنيع أحوال أهل الكتاب الذين سنوا التطفيف ثم ذكر مساوئهم فقال **(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين)** ولما أنهى سبحانه ما أراد من تعظيم ذلك اليوم وكان مع ما فيه من التفریع مفهماً للتقرير نفى بأداة الرجوع للمبالغة في النفي مضمون ما وقع الاستفهام عنه فقال **(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وما أدراك ما سجين، كتاب مرقوم، ويل يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالوا**

الجحيم، ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون) ثم قابل حالهم بضده من حال الأبرار أهل الإيمان وذكر رفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقرين وانتقل من ذلك إلى وصف حال المجرمين الضاحكين الساحرين من المؤمنين (وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أي يجمعون بين الأذى بالإشارات في وسائل الإعلام وفي الخلوات سخرية بالمؤمنين، قائلين بلسان الحال والمقال: إن هؤلاء المؤمنين لضالون لم يتنبهوا لسياساتنا ولم يتفطنوا لتحريفاتنا... قال ابن جرير في تفسيره: قرأه بعض قراء الحجاز وبعض أهل البصرة والكوفة "فاتخذتموهم سخرى" بكسر السين ويتأولون في كسرهما أن معنى ذلك الهزاء ويقولون: إنها إذا ضمت فمعنى الكلمة: السخرة والاستعباد، فمعنى الكلام على مذهب هؤلاء: فاتخذتم أهل الإيمان بي في الدنيا هزؤاً ولعباً تهزؤن بهم حتى أنسوكم ذكري. اهـ. وهذه السخرية وذلك الاستعباد والتسخير وإن كان في عامة المؤمنين إلا أنه في شركائهم الكافرين أمكن وأمتن فإنه تعالى لما نفى أن يكون للمستخلفين شيء من القسم أردفه ببيان رئاستهم على أتباعهم من أهل الكفر فقال "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً" والسخري نسبة إلى السخرة وهي التذليل قال الراغب: السخري هو الذي يقهر أن يتسخر بإرادته. اهـ. والسخري أيضاً من السخر بمعنى الهزاء أي ليهزؤوا من أتباعهم أهل الأديان المتخالفة، وقد فسر هنا بالمعنيين كما قال القرطبي، وإيثار لفظ "سخرياً" في الآية دون غيره لتحمله للمعنيين وهو اختيار من وجوه الإعجاز.

والأمة المسلمة أمة مرحومة خصها المولى سبحانه بشفاعة سيدنا ومولانا محمد ﷺ على نحو ما ورد في الحديث عند الترمذي وأبوداود وأحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» وعند ابن ماجه: قلنا: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها قال: «**هي لكل مسلم**» وهي بشرى عظيمة لزوال كل صفة توجب الشقاء على أحد من عصاة المسلمين. وروى الهيثمي في مجمع الزوائد عن عائشة أنها قالت: لما رأيت من النبي ﷺ طيب نفس، قلت: يا رسول الله! ادع الله لي، قال: «**اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرت وما أعلنت**» فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجر رسول الله ﷺ من الضحك، فقال: «**أيسرك دعائي؟**» فقالت: وما لي لا يسرنى دعاؤك، فقال: «**والله إنها لدعوتي لأمتي في كل صلاة**» وبه فُسر قوله تعالى **(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)** أراد ذنوب أمته فإنه ﷺ معصوم من الذنوب، وهذا كقوله **(ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك)** وكقوله **(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار)** وهو حث للمؤمنين على التوبة على سبيل التعريض لأنه إذا وصف بها المستغني عنها ﷺ كان باعثاً للمؤمنين عليها وإبانة لفضلها، ويجوز أن يكون ذكرُ النبي لأجل تعظيم شأن المهاجرين والأنصار لا لأنه صدر عنه ذنب، وقيل: هو مفتاح كلام وذلك أنه لما كان ﷺ سببَ توبتهم ذكرَ معهم. روى أبو نعيم عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى **(عليه السلام)** في التوراة: «يا موسى أجعل جميع رحمتي لأحمد وأمتي، قال: إلهي من عليّ، قال: لا أحجب التوبة عن أحد منهم ما دام يقول لا إله إلا الله بقلبه ولسانه، فخر موسى ساجداً وقال: رب اجعلني من أمة محمد، فقيل له: لا تدركها» وكان المسيح ابن مريم **(عليه السلام)** قد دعا الله عز وجل أن يجعله من

أمة محمد ﷺ لما وجد في الإنجيل فضلها فاستجاب الله تعالى دعاءه ورفعها إلى أن ينزل آخر الزمان ليكون منها.

(بل عجبت ويسخرون، وإذا ذكروا لا يذكرون، وإذا رأوا آية يستسخرون) لما أقسم تعالى في مطلع السورة بالملائكة وأثبت وحدانيته وساق الدلائل على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكانها من الملائكة وأعقب بذكر قذف الشياطين عن السماوات وأنه لا قبل للجن أن يتطرقوا في ذلك ناسب أتم مناسبة الإخبار باستسخارهم مسنداً العجب إلى أجل الموجودات أو أجل المخلوقات تعظيماً لصاحب المعجزات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات والمعنى بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به! وقرئ بتاء المتكلم والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب في الله تعالى بمعنى يليق لذاته عز وجل هو سبحانه أعلم به فلا يعينون المراد.

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) من عادة القرآن أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتذكير حين يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا وتفكر فيما بعد الموت وتغير آذانها لداعي الهدى فتتهياً لقبول الحق في مظان ذلك على تفاوت في استعدادها وكم كان مثل هذا الانتهاز سبباً في إيمان قلوب قاسية فإذا أظهر الله الآيات على يد رسوله ﷺ لتأييد صدقه شفع ذلك بإعادة التذكير، والآية نزلت شاهدة على أهل الكتاب ومن كان في حالهم من كفار قريش بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي ﷺ وهي معجزة انشقاق القمر فقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال النبي ﷺ: «اشهدوا» قال الخطابي انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها

شيء من آيات الأنبياء وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر.

﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ المعنى أن الملائكة طلبوا للمؤمنين أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن الشرك الموجب لعذاب الجحيم بقولهم **﴿وقهم السيئات﴾** أي وقهم الإشراك ووقايتهم منه حفظهم عن الوقوع فيه ثم قالوا **﴿ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾** أي نالته الرحمة، وفعل رحمته مراد به تعظيم مصدره وقد دل على هذا قوله **﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾** إذ أشير إلى المذكور من وقاية الإشراك إشارة للتنويه والتعظيم وبعد الدرجة وعلو الرتبة، اللهم يا سميع يا قريب يا مجيب اجعلنا منهم بجاه رسولك الحبيب ﷺ الذي من توسل به إليك لا يخيب.

المبحث الرابع: ولتستبين سبيل المجرمين

الفصل الأول: اقرأ

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلِ هَٰذَا هَدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أراد بالكتاب القرآن الذي هو زبدة الكتب الإلهية وعبر عنه باسم الجنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمي التوراة والإنجيل، والمراد بالناس في قوله ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلِ هَٰذَا هَدَىٰ لِلنَّاسِ﴾ بنو إسرائيل ونحوه ما ورد في صحيح الإمام مسلم: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ» الحديث. ولما كان مدار القرآن على المفارقة لهم والتبرء منهم أتبعه بقوله ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي القرآن، وكرر ذكره بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله. وذكر الفرقان بعد قوله ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ لِيُوصَلَ الْكَلَامُ بِهِ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي كفروا بآيات الله الناطقة بتوحيده. وسماه الفرقان بما فيه من فارق بين الغي والرشاد والصلاح والفساد والخير والشر والإيمان والكفر والنور والظلمة والهدى والضلالة والهوى والحجة وبما فيه من تفرقة بين شرعة ومنهاج أهل الكتاب وبين شرعة ومنهاج الأمة المسلمة، فالقرآن يرسم منهجاً واضحاً للأمة المسلمة لا يختلط بأي منهج آخر...يمثل عهداً جديداً في مشاعرهما وفي واقعها لا يختلط بكل ما كان قبله، فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير...فرقان تنتهي به فترة التيه وتبدأ به مرحلة البينة والبرهان والحجة والبصيرة...فرقان ينتهي به عهد العُقد الشيطانية ويبدأ به عهد المعجزات القرآنية. كان رسول الله ﷺ يخلو بغار حراء يتحنث فيه كما جاء في الصحيحين

فجاءه الملك فقال: «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: «اقرأ» فقلت: ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: «اقرأ» فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. وبهذه الآيات بدأت مرحلة القراءة الإنسانية المحمدية حضارةً وديانةً وصار الإسلام قانون الدول ورائد العلوم وأساس الحضارات ومهيماً على الأرض وانقطع الكفر الإسرائيلي علماً وتطبيقاً وحادثة (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) والرسول العظيم الذي أنزل عليه القرآن الكريم مجدد ومصحح لكل ما أشكل على أهل الكتاب في شأن تفسيرهم البدعي العقيم وفهمهم السقيم ومبينٌ لتحريفاتهم وكفرهم ونفاقهم ومروقههم عن الدين منذ العهود السابقة وحتى هذا الوعد الذي تُكشف فيه أفتنتهم وتنتفي لعبتهم ويُمحق دجلهم وما سيليه من نزول رسولهم عيسى عليه السلام فتنتفي به هيمنة الدجال وسياسة الصليبان ويُقتل أهل النفاق والكفران.

وهذه الآيات الخمس على تأويل البسمة فكان معنى الكلام معنى قوله "بسم الله الرحمن الرحيم" قال الإمام السيوطي: أول ما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ قال: يا محمد استعذ بالله ثم قل: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال أيضاً: أول آية نزلت من اللوح المحفوظ بسم الله الرحمن الرحيم. وقال في الأوليات: أول من تكلم بهذه الكلمات حملة العرش حيث أمروا بحمله ولا يزالون يقولون تلك إلى يوم القيامة. اهـ. وهذا الأمر «اقرأ» مجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقي

عليه، وفي تكرير الغط الإشارة إلى الشدائد الثلاث التي وقعت له فالأولى: حين همّ بنو النضير بالمكر به وتآمروا بينهم في قتله وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه اليوم فقال بعضهم لبعض: من رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدّحه؟ والثانية: ما وقع له يوم أحد حين انخدل عميلهم بثلاث الجيش فدعا النبي ﷺ عليهم وقال: «اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق» والثالثة: حين نكثوا عهدهم يوم الخندق وحزبوا الأحزاب وأمدوهم بالسلاح والأدراع. وفي الإرسالات الثلاث إشارة إلى حصول النصر والفتح له عقب الثلاث المذكورة في الدنيا والآخرة. وقيل في تلك الغطات الثلاث: إشارة إلى ثلاث أمور عظام وخطوب حسام تُبتلى بها أمته، وفيها إفاضات وإفراغات أسرار وأنوار إلهية وعلوم ومعارف ربانية. والعجيب أن كلمة ﴿اقرأ﴾ وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم! قال في شرح الزرقاني: ولعل الحكمة في تكرير اقرأ الإشارة إلى انحصار الإيمان الذي ينشأ عنه الوحي بسببه في ثلاث: القول والعمل والنية وأن الوحي يشتمل على ثلاث التوحيد والأحكام والقصص. وقوله: «حتى بلغ مني الجهد» أي من ثقل الوحي الذي أنزل عليه، قال الإمام الطيبي: ويجوز نصب الدال ورفعها فعلى نصب بلغ جبريل في الجهد، وعلى الرفع بلغ الجهد مني مبلغه وغايته. وقوله ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي فإنه هو الذي يقرئك وإن كنت أمياً فقد تكفل له تعالى أن يقرئه إياه كما أنزله عليه وأن يجمعه ويبينه له ويحفظه في صدره ﷺ كما حكى تعالى ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ أي علينا جمعه في صدرك محفوظاً ويحققه قوله ﷺ كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان»

ومعنى قوله: «ما أنا بقارئ» أي كتب أهل الكتاب وهذا على حد قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُهِ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمَبْطُلُونَ﴾ وفي رواية أبي الأسود عن عروة: «كيف أقرأ» وفي رواية ابن إسحاق عن عبيد بن عمير: «ماذا أقرأ» فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي خلق من نور الكائنات. قال في شرح المشكاة: أخذه وغطه مراراً ليخرجه عن حكم سائر الناس ويستفرغ منه البشرية ويفرغ فيه من صفات الملكية. وموضع باسم ربك النصب على الحال أي اقرأ مفتتحاً باسم ربك أي قل بسم الله الرحمن الرحيم وهذا يدل على أن البسملة مأمور بها في ابتداء كل قراءة. وهذه الآيات الخمس هي أول ما أنزل على النبي ﷺ في غار حراء. وفي المرشد: أول ما نزل من القرآن هذه السورة في نمط فلما بلغ جبريل هذا الموضع "ما لم يعلم" طوى النمط. قال الإمام ابن حجر: والحكمة في هذه الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن ففيها براءة الاستهلال وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله وهذا بخلاف الفن البديعي المسمى العنوان فإنهم عرفوه بأن يأخذ المتكلم في فن فيؤكده بذكر مثال سابق وبيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنها تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار وقد اشتملت على الأمر بالقراءة والبدء فيها بسم الله وفي هذه الإشارة إلى الأحكام وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل وفي هذا إشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله علم الإنسان ما لم يعلم. اهـ. وقدم الفعل العامل في الجار والمجرور لأنه أوقع في النفس لكونها أول ما نزل فكان الأمر بالقراءة أهم، وحذف مفعوله إشارة إلى أنه لا قراءة إلا بما أمره به،

والمعنى: أوجد القراءة لما لا مقروء غيره وهو القرآن الجامع لكل خير وأفصح له بأنه لا يقدر على ذلك إلا بمعونة ربه فقال ما أرشد المعنى إلى أن تقديره: حال كونك مفتتحاً القراءة باسم ربك أي مستعيناً بالرب لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى بذكر اسمه وعبر به لأنه يلزم من حسن الاسم حسن مدلوله ومن تعظيم الاسم تعظيم المسمى وجميع ما يتصف به وينسب إليه، ولما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام كان مقتضياً لذكر أدلّ الأوصاف على وحدانية الله حيث عدل عن اسم الله العَلَم إلى ما هو من عظيم صفاته **(ربك)** مع ما يتأتى من إضافته إلى ضمير النبي ﷺ إضافة مؤذنة بضخامة الرسالة التي يحملها رداً على الذين اتخذوا أرباباً من دون الله فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام. ووصف الرب بقوله تعالى **(الذي خلق)** لإبطال الأرباب فإن أهل الكتاب أشركوا أرباباً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون! ولذلك جاء بالصفة التي لا شركة فيها لأربابهم وهي الخالقية أي خلق الإنسان ويقصد بتحريده عن المفهوم الإبهام ثم التفسير روماً لتفخيم الفطرة فإن الله تعالى لما أراد أن يبعث رسوله ﷺ قدم في ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به وهو أنه خلقهم ولا يمكنهم إنكاره ثم يقول لهم لا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك الفعل إلى الأرباب لعلمهم بأنهم عاجزون في هذا التدرج يقرون بأي أنا المستحق للربوبية لأن الربوبية موقوفة على الخالقية ومن لم يخلق شيئاً كيف يكون رباً يُعبد؟ فالسورة على هذا تضمنت الإشارة إلى حال من أشير إليه من لدن قوله تعالى **(كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى، أرايت الذي ينهى، عبداً إذا صلى)** إلى قوله **(كلا لا تطعه)** فإن المقصود أولاً ليس نهيهم عن الصلاة بل نهيهم عن التوحيد الذي أتى به سيدنا

محمد ﷺ لأن المنهي عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها بل عن شرطها المقارن - والله أعلم - ويؤيد هذا القصد التعقيب بالآية **(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ)** وصيغة المضارع في قوله **(يُنْهَىٰ)** لاستحضار حالة بني إسرائيل العجيبة على ما هو عادة القرآن من بيان أحوالهم وسوق قصصهم وإلا فإن نهي أبي جهل قد مضى وسبب النزول لا يُخصَّص وقد أعلم المولى سبحانه أن المنافقين يصلون رياء وأخبر صاحب البيان عن القرآن أنهم نقضوا الصلاة كما جاء في مسند أحمد: **«لَتَنْقُضَنَّ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةَ عُرْوَةٍ فَكَلِمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالنَّيِّ تَلِيهَا وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ»** وهذا النقض المتتابع في العرى تجلّى في حكم الأئمة المضلين حتى تمكنوا بالشراكة مع الشيطان من نقض الصلاة في كافة شؤونها فقهاً وروحاً... وهذه الآيات أنزلت بعد زمان من نزول الآيات الأولى الخمس ومعلوم أن ترتيب الآيات وتأليف آيات السور بعضها إلى بعض ذلك بأمر من الله تعالى موجه إلى رسول الله ﷺ كما ثبت في الأحاديث الصحاح ثم إن هذه السورة أنزلت مرتين: مرة في مكة جواباً لمشركي قريش، ومرة في المدينة جواباً لمشركي بني إسرائيل. والأكرم: الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، يُنعم على عباده النعم التي لا تحصى، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، ودلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من الجهل إلى العلم الذي هو النهاية في الشرف فقوله **(وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)** أي ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا شريك له، ووصف الأكرم مصوغ للدلالة على صفات الكمال والتنزيه عن النقائص وليس مصوغاً للمفاضلة فالأكرم صفة لا يشاركه تعالى في إطلاقها أحد، وفي هذه الآية الكريمة يبين تعالى كرمه العظيم وفضله العميم على النبي

الكريم فجاء بصيغة الأكرم الدالة على عظمة كرمه على حبيبه المعظم ﷺ والمعنى أن ربك الأكرم قد خصك يا حبيب الله بخصائص من أعظم الإكرام لك وأفضل الإنعام عليك على وجه لم ينله غيرك فأرسلك إلى جميع العالمين وخصك بهذا القرآن المبين ووصفك بالنبى الأمي إكباراً وتعظيماً وبياناً لرفعة شانك ومنزلتك على غيرك فإنه سبحانه هو الذي يتولى إقراءك لهذا القرآن على أكمل الوجوه... وقد أدمج تعالى التنبيه على فضل علم القلم لما فيه من المنافع العظيمة ونيل الرتب الفخيمة، وما دونت العلوم والكتب المنزلة إلا بذلك العلم، ولولاه لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم لكفى به. وفي سورة اقرأ إيماء إلى أن أمة الحبيب الأكرم ﷺ ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم، وخص خلق الإنسان بالذكر من بين بقية المخلوقات لأنه المستخلف في الأرض، وفيه تعريض بتحقيق المشركين الذين ضلوا عن جادة التوحيد بمتابعة الشيطان المريد مع أن دليل الوحداية قائم في أنفسهم... وافتتاح السورة بكلمة **(اقرأ)** إيذان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئاً أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتب أهل الكتاب، بطريق الإخبار من الله تعالى بقوله **(وما كنت تتلوا من قبله من كتاب)** أي من قبل نزول القرآن ولهذا قال النبي ﷺ لجبريل حين قال له اقرأ: **«ما أنا بقارئ»** والأصل في هذه اللفظة الجمع وكل شيء جمعته فقد قرأته، وكُرِّرَ لفظ **(اقرأ)** مرتين في سورة العلق لقراءته في الصدر والسطر كما قال تعالى **(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ورتلناه ترتيلاً)** والقرآن عِلْمٌ أصلي لهذا الكتاب الخاتم وسُمي مجموعته بمصدره، والترتيل نطق على سَنَنِ الترسُّل ونسق لوضع على نهج التسلسل، فالقرآن مرتل في الصفتين، وُجِّعَ بإشرافه ﷺ في رعاية رسمه وفواصله وطواله

كما روى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل» فهذه مقاسات أقسام الكتاب جاءت على لسان رسول الله ﷺ وكان من مهامه المضنية أن يرتله على هذا النحو ليكون هكذا كما أراده الله. وسمي قرآنًا لأنه يجمع الحروف والكلمات والصور فيضمها كما حكى تعالى ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَهُ وَقْرَانَهُ﴾ وهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب، وفرقان، وقرآن، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه هذه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام، وإنما سمي القرآن كتاباً لأن الله أمر رسوله أن يكتب كل ما أنزل عليه منه ليكون حجة على المعاندين، وفي هذه التسمية معجزة للرسول ﷺ بأن ما أوحى إليه سيكتب في المصاحف كما في الآية ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد للقرآن أن يكتب، ومن أجل ذلك اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام كتاباً للوحي من مبدأ بعثته، قال تعالى ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي يملي على الكتبة ما يصير مكتوباً في صحائف... وقد افتُتحت سورة العلق بالأمر بقراءة القرآن وختمت بالصلاة التي هي أعظم الأركان فكانت دلالتها عليه دلالة هي في غاية الوضوح فكان كأنه قال: واقترب بقراءة القرآن في الصلاة، فكان إضماره أدل على العظمة الباهرة من إظهاره لدلالة الإضمار على أنه ما تم شيء ينزل غيره فهو بحيث لا يحتاج إلى التصريح به، ثم قال مفخماً للقرآن بإضماره وإسناد إنزاله إليه وجعل ذلك في مظهر العظمة المتضمن لعظمة البلد الذي أنزل فيه والنبي الذي أنزل عليه والوقت الذي اختار إنزاله فيه ليكون طالعه سعيداً لما كان أثره حميداً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي الليلة التي لها قدر عظيم وشرف كبير والأعمال فيها

ذات قدر وشرف فكانت بذلك كأنها مختصة بالقدر فلا قدر لغيرها، ثم أخبر أن أهل الكتاب لم يكن في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ وهو الرسول النافذ الأمر الجليل القدر المنزل عليه سورة القدر والقرآن المذكور في سورة القدر...

وحديث سيدنا جبريل الذي طالما قرأناه، ثم مررنا به وتركناه، أو وقفنا عنده قليلا ثم جاوزناه؛ عظيمة دلالاته، ضخمة إيجاءاته، واللحظة التي مر بها هذا الحادث هي أعظم لحظة مرت في تاريخ الرسل والرسالات، وحين يتصور المؤمن حقيقة التوحيد وهو يحمل أمانة هذه الرسالة الكبرى، تتكشف له جوانب من عظمة هذه اللحظة التي غط فيها جبريل رسولنا عليه الصلاة والسلام ثلاث مرار، ثم نزل عليه مرة أخرى أمام الصحابة ليعلم الناس دينهم حيث كشف لهم قضية غيبية تتعلق بالمرحلة الجبرية ومسألة الحكم والحكمة.

﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها سيد الكونين ﷺ وحجة على المبطلين فإنه لو كان ﷺ ممن يتصل بهم ويتلق عنهم ويخالطهم ويخط كتبهم لكان لهم وجه ارتياب، ولما لم يحصل شيء من ذلك فلا وجه للارتياب وذلك أدخل في الإبطال، وكان أول ما نزل عليه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اقرأ بتعليم ربك لا بتعليم المعلمين ولا بإرشاد المرشدين فإنه ﷺ أمي لم يقرأ كتب أهل الكتاب،

ويحققه قوله تعالى ﴿سَنَقَرُّكَ﴾ والمبطلون وصف أطلقه القرآن على أهل الكتاب والملبسين الحق بالباطل والإيمان بالكفر والتوحيد بالشرك!

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتُهَا﴾ ومقاتلتهم هذه تكشف عن مدى عنادهم ومكابرتهم واستهزائهم حين أعرضوا عن القرآن طالبين أن يسأل رسول الله ربه أن يعطيه آية خارقة، وهذا من الضلال الذي يعتري أهل العقول السخيفة في فهم الأشياء على خلاف حقائقها، والجواب الذي أمر رسول الله بأن يجيب به ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ والإشارة بـ "هذا" إلى القرآن المعجز، ويعضده الحديث المتفق عليه: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» ولا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر من جميع الأنبياء وأكثر وأبقى وأقوى وأبهر، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين، وتأمل حديث الشفاعة في المحشر وانتهائها إليه وتحميده بها وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد مشاهد الأنبياء والمرسلين، وانفراده هناك بالسؤدد في مجمع مجامع الأولين والآخرين، وترقيه في جنة عدن أرقى مدارج السعادة، وتعالیه في يوم المزيد أعلى معالي الحسنی وزيادة.

وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل الجرمين

التفصيل: التوضيح والتبيين، مشتق من الفصل وهو تفرق الشيء عن الشيء، ولما كانت الأشياء المختلطة إذا فصلت يتبين بعضها من بعض أطلق التفصيل

على التبيين بعلاقة الزوم وشاع ذلك حتى صار حقيقة، والمعنى: نفصل ونبين آياتنا ودلائلنا وحججنا لكشف المجرمين واستيضاح سبيلهم، والتعبير عنهم بالمجرمين لتخويفهم وتقريعهم وإبانة أفعالهم وإيضاح خفيّ أحوالهم للمسلمين، وقوله ﴿ولتستبين﴾ عطف على علة مقدرة دل عليها قوله ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ والتقدير: وكذلك التفصيل نفصل الآيات لتعلم بتفصيلها كونها ولتستبين سبيل المجرمين. والمجرمون هم أولياء الشيطان، وُضِعَ الظاهرُ موضع المضمَر للتنصيص على أنهم المراد وإجراء وصف الإجماع عليهم كما في قوله تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون، ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ وخص المجرمين لأنهم المقصود من هذه الآيات كلها لإيضاح خفي أحوالهم للمسلمين. وإن أشق ما تعانيه الأمة اليوم مع الحفاة العراة هو الغبش واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الوحدانية والشرك، ومدلول الجاهلية والإسلام، ومدلول الضلال والهداية، وكشف الإلباس فيما اختلط على الناس، وعدم استبانة طريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات ومرية العناوين والتباس الأسماء... إن المياعة في المنهج وفي معرفة السبيل أضاعت الكثير ولا تزال... فعلى الدعاة إلى الله أن يستوضحوا مخططات المجرمين ويجدوا في معرفتها والبحث عنها ويبينوها ولا تأخذهم في كلمة الحق هواده ولا مدهانة ولا منفعة ولا خوف ولا استعجاب ولا يقعدهم عنها صيحة مرجف غوي أو تشبّطهم لومة خائر فزع أو خديعة منافق لئيم في وجهه الودّ مائل والسخيمة تأكل كبده، وأن يهتموا متاعب هذا المقام الزلخ والطريق اللاحبة كي لا تتكرر المأساة عند اجتياز العقبة وتدخل الأمة في التيه مرة بعد مرة... وإنه لمن مصلحة الإسلام أن تُهتَكَ الأستار وتكشف الولايج وتعرف المداخل فيمتاز الموحدون

الصادقون وينكشف المخادعون المجرمون ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته، وكذلك جرت سنة الله بالابتلاء ليظهر الخبيء وتتميز الصفوف وتتمحص القلوب ولا يكون ذلك إلا بالتكاليف والشدائد والفتن، وقوله ﴿سبيل﴾ بالرفع على أن تاء المضارعة تاء المؤنثة لأن السبيل يجوز فيها التأنيث، والمعنى: لتتضح سبيلهم لك وللمؤمنين، وقرأ بنصب لام ﴿سبيل﴾ على أنه مفعول ﴿تستبين﴾ والسين والتاء للطلب، وفي قراءة أخرى بالياء ورفع لام سبيل على أنه فاعل، والسين والتاء في هذه القراءة ليسا للطلب بل للمبالغة. ونحن في حاجة إلى تضمين استبان المعنيين معاً "وضح واستوضح" أي إلى القراءتين معاً الرفع والنصب لتتضح لنا سبيل المجرمين ولنوضح للناس سبيلها لمن لم تتضح له من المسلمين، واستبانة سبيل المجرمين وخططهم هدف من أهداف المنهج الإلهي لأن أي غبش أو شبهة من موقف المجرمين تنعكس سوءاً على المؤمنين فلا بد من الاستبانة والتبيين لئلا تلتبس الملامح ويخدع الزيف، ومن لم يعرف الوحداية لم يعرف الإسلام. والمجرمون اليوم يعكفون على التلبس على الأمة لتدخل في التيه ويصبح مرجع الحكم في أمر الإسلام إليهم! أجل يجب أن تحتاز الأمة هذه العقبة كي تنطلق طاقاتها فلا يعوقها غبش ولا يعييبها لبس وأن تبدأ دعوتها إلى الله باستبانة سبيل المجرمين وإساءة وجوههم وتعرية الباطل وفضح أهله فذلك من أعز مقاصد التشريع. وهذه القراءات في استبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الإلهي لآيات القرآن الكريم، ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشاً وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم! فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقتان... وحيث أن الدولة السعودية قامت على دعوة دينية في صورة الإسلام؛ استدعت حملة ضخمة متنوعة الإيماءات

والإشارات في القرآن والسنة تُنبّه إلى مدى خطورتها في نظام الإسلام والمسلمين... إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين الله ألزم وأشد ضرورة من بيان حال شركائهم الصريحين في كفرهم، ذلك أن نفوس المسلمين لا تنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماماً وجه الجاهلية، ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالفرس والروم وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب في جزيرة العرب فهؤلاء عداوتهم باطنة قد تخفى على كثير من ذوى النوايا الطيبة، ولذلك جاء البيان المفصل الكامل في آيات القرآن.

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه

وجه هذا القول أنهم لما قالوا في الآية المتقدمة **(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)** وادعوا أن المسيح منهم فكأنهم قالوا: نحن أبناء الله! فرد الله منطقهم ذلك بقوله **(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)** قال الربيع بن أنس: لم مسخكم؟ وقال سعيد بن المسيب: أرادوا بقولهم "نحن أبناء الله وأحباؤه" أن منا عزيزاً وهو ابن الله على زعمهم، ومنا المسيح وهو كذلك عندهم. وروى البيهقي وابن جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعيمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشأس بن عدي فكلّموه فكلّمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نغمته فقالوا: ما نخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله جل وعز فيهم **(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه)** إلى آخر الآية. وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله "وخرقوا له بنين وبنات" قال: كذبوا له أما اليهود والنصارى فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل: إنهم تأولوا

قول عيسى: أذهب إلى أبي وأبيكم، وقوله: إذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك. أي تأولوه بمعنى التجسيم والولادة وكابروا في المحسوس بلا شبهة وجعلوا الخالق مساو للمخلوق في كونه يلد ويولد! ويحتمل أنهم قالوا ذلك على معنى زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، قال الإمام القشيري: البنية تقتضي المجانسة والحق عنها منزّه، والمحبة بين المتجانسين تقتضي الاحتفاظ والمؤانسة والحق سبحانه عن ذلك مقدس، فردّ الله سبحانه عليهم فقال تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾ والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم فالقديم لا بعض له لأن الأحدية حقه فإذا لم يكن له عدد لم يجوز أن يكون له ولد وإذا لم يجوز له ولد لم تجز على الوجه الذي اعتقدوه بينهم وبينه محبة. والآية عطفٌ على ما قبلها من ذكر فضائحتهم وبيان طامة من طوامهم حملهم عليها العوض على الكفر والإقدام على البهت بقليلهم إن الله هو المسيح ابن مريم! والمراد باليهود والنصارى في خصوص القرآن: بنو إسرائيل أما أخلاط اليهود والنصارى من غير ذرية إسرائيل فليس معهم من عقولهم إلا حصة الغريزة ونصيب التركيب، وما ذاك إلا لقرب منزلتهم من رتبة البهائم... قطع ليس له غاية ولا يقصد إلى هدف ولا يفطن إلى المسار الذي يمشي فيه ولا يحتاج إلى أكثر من علف يبرزه وعصاً يتبعها أنى أُشير له بها، وقد ذكر السادة الشافعية - نفعنا الله بهم - أن غير بني إسرائيل ممن دخلوا في اليهودية والنصرانية بعد التبديل، لم يكونوا على حق ولا تمسكوا بكتاب صحيح فصاروا كعبدة الأوثان... وقد وصفهم بنو إسرائيل في التلمود بأنهم: «جوييم ليسوا من جوهر الله» أي: دواب!!! وجاء في سفر المكابيين الثاني: «سأل إسرائيل ربه: لماذا خلقت خلقاً سوى شعبك المختار؟ فأجابه: لتركبوا ظهورهم وتسفكوا دماءهم

وتنتهكوا أعراضهم» وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على عتو بني إسرائيل واستكبارهم وكذبهم على أنبيائهم! والأمم التي اتبعتهم في الديانة اليهودية والنصرانية قامت على بذور الفوضى التي حرفها بنو إسرائيل في قصة الخلق حيث جعلوا حيازة العلم خطيئة وأن المسيح جاء ليُصلب تكفيراً عن هذه الخطيئة! حتى وصل الأمر بالقساوسة إلى تحريم القراءة والاطلاع! ثم أقام لهم أبناء إسرائيل النهضة - بواسطة شياطينهم - على الرؤية البصرية والرصد واستخدام الحواس وزعموا أن حركة الأفلاك السماوية لا تتفق مع الكتب الإلهية التي تقول بأن الأرض سطح ثابتة والأفلاك تدور حولها، ووضعوا لهم أنموذجاً معكوساً يصور الأرض كرة تدور حول الشمس، وهي فكرة مستوحاة من عقيدة وثنية قديمة لقوم سبأ تقضي بأن الشمس هي مركز الكون وعليها تدور الأفلاك! وزعموا أن الرياح تتأرجح بين مناطق الضغط المرتفع ومناطق الضغط المنخفض وأن الأمطار إنما تتولد من أبخرة ترتفع من الأرض، ليخالفوا صريح ما جاءت به الكتب الإلهية الناطقة بنزول المطر من السماء، القائلة بأن خالق العالم قادر على خلق الأجسام كيف شاء، وكلامهم مبني على معتقد أن الأجسام قديمة وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذرات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى فلهذا السبب احتالوا في تكوين كل شي عن مادة معينة وجعلوا لكل ظاهرة تفسيراً علمياً مبنياً على الكذب والخداع، وبعد ما قلبوا المفاهيم وسيطروا على عقول الجيل شرعوا في إهلاك الحرث والنسل وقاموا بتهجين الزروع والثمار والحيوانات فانخفضت نسبة المناعة وتفشيت الأمراض المعضلة ثم أفسدوا الطب وابتكروا علوماً تعتمد أكثر ما تعتمد على علاج أعراض الأمراض بواسطة أدوية وعقاقير غالباً ما

تكون لها أضرار ليصبح التأمين الصحي من ضروريات الحياة...وبذلك أطاح التراكم العلمي والكشوف الجغرافية بالكتب الإلهية وحلت الحضارة المزيفة محلها لتصبح محور ارتكاز الإنسان ومصدر إلهامه ومعارفه وليصير كل ما يتصل بالمجتمعات البشرية تحت سيطرة بني إسرائيل.

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يئت أحداً من العالمين﴾ مناسبة موقع الآية هنا أن القصة مشتملة على التذكير بنعم الله تعالى عليهم والحثّ على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الطاعة تمهيداً لطلب امتثالهم بدخول الأرض المقدسة، والآية مسوقة مساق الامتنان، وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها إذ جعل الله فيهم أنبياء يرشدونهم ويهدونهم إلى طريق التوحيد وأما كثرة أنبيائهم فهذا شيء ينفردون به دون سائر الأمم ولا تعليل له إلا السوء العريق في دخائلهم المنكوسة ولولا هذا السوء لما احتاجوا إلى معشار هذا العدد من الأنبياء ولكنهم لمسخ طبائعهم العريق كانوا على الدوام أهل سوء فكلما حسنت حالهم على يد نبي ارتدوا إلى عصيانهم فاحتاجوا سريعاً إلى غيره وهكذا دواليك...والمولى عز وجل أنقذهم من استعباد الفراعنة وخلصهم من العبودية التي كانت عليهم للقبط فصاروا ملوكاً وسادة على الأمم وقد يقال لمن حصل فيهم الملوك: أنتم ملوك على سبيل الاستعارة، وبالجملة فإنهم قد عادوا ملوكاً متصرفين في أقطار الأرض كما أشار الحديث عند الإمام مسلم: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض» وعبر بصيغة الماضي "وجعلكم" للدلالة على تحقق وقوعه وتحتّمه حسبما هو المعهود في إخباره تعالى، قال صاحب التحرير والتنوير: استعمل فعل جعلكم في معنى الاستقبال مثل "أتى أمر الله" قصداً لتحقيق الخبر فيكون الخبر

بشارة لهم بما سيكون لهم. اهـ. والامتنان عليهم بقوله ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ هو المراد بالتقرير السالف في قولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ والقائلون هم بنو إسرائيل كما تقدم والله أعلم وأحكم.

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ هذا خبر يخبر عما أنعم عليهم يُذكر هؤلاء بنعمه عندهم وأياديه لديهم بما منَّ على أوائلهم وآبائهم في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور - الذي على أيماهم في توجههم من بيت المقدس إلى بيت أبيهم إبراهيم عليه السلام وهو جانبه الذي يلي البحر - وكتب التوراة في الألواح وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا يستهم واتصلت بهم حيث كانت لنيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه ثم إن تخصيص ذكر الأيمن للتنبيه على بركة وشرف الشام كما قال صاحب محاسن التأويل: الأيمن أي المبارك يقال: يمن فهو ميمون وأيمن. اهـ. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿قد أنجيتكم من عدوكم ووعدتكم﴾ بقاء المتكلم وهو الباري تعالى وفي ذلك ما لا يخفى من إظهار العناية ومزيد اللطف... ولما كانت إزالة المضرة متقدمة على إيصال المنفعة وإيصال المنفعة الدينية أعظم من إيصال المنفعة الدنيوية؛ بدأ الله تعالى بذكر إزالة المضرة فإن فرعون كان يستهزئ بهم ويضلهم ويلبس لهم الحق بالباطل ويسعى بالتحريش بينهم حتى يبغي بعضهم على بعض ويضرب بعضهم رقاب بعض فيوقع بهم القتل والإذلال والإخراج، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية حيث أنزل في ذلك الوقت عليهم كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي إنزال المن والسلوى عليهم.

نبوءة التوراة وتصديق القرآن

(قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) التعريف في الأرض للاستغراق فيشمل الأرض كلها وهو عموم عرفي مبني على مراعاة الغالب الأغلب، قال تعالى (فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً، وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) أي خلفاء فيها وهو في معنى قوله (ويستخلفكم في الأرض) أي يجعلكم خلفاء عنه في تدبير شؤون عباده. وكان مقر الخلافة والسكنى لبني إسرائيل في الشام بعد هلاك عدوهم فرعون وحزبه ثم انتقل قبيل البعثة إلى جزيرة العرب وكان بنو إسرائيل يحكمون مشارق الأرض المقدسة ومغارها بعد خروجهم من مصر التي أورثهم الله إياها كما حكى تعالى (كذلك وأورثناها بني إسرائيل) وليس المراد أنه أسكن بني إسرائيل مصر وجناتها ولا صحة لما يقال من أن بني إسرائيل رجعوا فسكنوا مصر بعد ذلك والله أعلم، وأما قوله (اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم) فإن لفظ مصر لم يرد في القرآن منوَّناً سوى في هذا الموضع وإنما صرفه لأنه أراد الأرض المقدسة بدلالة قوله (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) وذلك يقتضي المنع من العودة إلى أرض مصر التي كان فيها فرعون ولذلك فإن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد خروجهم منها سائر الدهر وإنما كان لهم فيها وُلاة كما وقع في الآية الأخرى (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وهؤلاء القوم كانوا تبعاً لسلطان بني إسرائيل ولذلك أغفلهم إذ لا يصلح الاستخلاف أن يكون ببقعة محدودة من الأرض، روى عبد الرزاق عن الحسن في الآية (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغارها

التي باركنا فيها قال: «مشارك الشام ومغارها» والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين: أولاهما: الإيماء إلى علة الخبر أي أن الله ملكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة جزاء لهم على صبرهم في تلك الحقبة، والثانية: التعريض ببشارة الأمة المسلمة بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، والمشارك والمغرب جُمع باعتبار تعدد الجهات، لأن الجهة أمر نسبي تتعدد بتعدد الأمكنة المفروضة، والمراد بهما إحاطة الأمكنة والله أعلم، ونظم الكلام: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض التي باركنا فيها ومغارها، وقوله ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على الاستعباد وذبح الأولاد وما حصل بعد ذلك من طويل الأنكاد ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرَشُونَ﴾ أي ما كانوا يبنون من الآلهة والدول لتكون لهم عزاً يعتزون بها ويستنصرونها وبذلك يكون "يعرشون" استعارة لقوة الملك والدولة ويكون "دمرنا" ترشيحاً للاستعارة... وفعل كان في الصلتين دال على أن ذلك دأب فرعون وهجّيراه أي ما عني به من اتخاذ الأرباب والشركاء وبناء التنظيمات والدول! وصيغة المضارع في الخبرين عن "كان" للدلالة على التجدد والتكرار. قال الإمام الماتريدي: وهو من العرش الذي يتخذه الملوك.

وكفى بهذه الآية حادثة على الصبر وضامنة على كل حائر للأجر بالتفريع عن المظلوم ونصره وإهلاك الظلوم وقهره.

﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ لما بيّن الله تعالى أنواع نعمه على بني إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وجاوز بهم بحر القلزم مع السلامة أتبع ذلك ببيان أنهم لما شاهدوا قوماً يعكفون على عبادة أصنامهم جهلوا وارتدوا وأشركوا بالعبادة فكانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف! وعبادة الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الأمر بذلك، والأصنام في هذه الآية كانت تماثيل بقر كما روى الإمام الطبري عن ابن جريج وكما هو مشار إليه في النظم الجليل ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾ وكان إبليس يدخل في جوف العجل فيصيح فيه فيسمع له خوار كما ذكر صاحب التسهيل لعلوم التنزيل وكانوا معترفين بأن الله خلقهم لكنهم عبدوا العجل على تأويل الحلول وجوّزوا حلول الإله في العجل بعد استبصارهم بالوحدانية، ونظير هذا في سورة البقرة ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون، وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون، وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ وذلك حين صاغ لهم السامري عجلاً جسداً من حلي آل فرعون له خوار بعد انطلاق موسى عليه السلام إلى الجبل فأشرب في قلوبهم حُبّه وينتظم ذلك مع قوله تعالى ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ وإنما جعل حُبهم العجل إشرباً لهم للإشارة إلى أنه بلغ حُبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه

كأن غيرهم أشربهم إياه كقولهم أولع بكذا وشغف وإنما شغفوا به استحساناً
 لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبهم الذهب حتى صار إلهاً وهذا
 يرجع إلى تعلقهم بالدنيا وزينتها وإعراضهم عن الآخرة ولعل انفهام ذلك من
 المقام وما بعده من الكلام **(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من**
دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم
والله عليم بالظالمين، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود
أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما
يعملون) ولما بدل القوم قول ربهم وطلبوا من نبيهم إلهاً ردّ عليهم بما يناسب
 حالهم **(قال إنكم قوم تجهلون)** أي تسخرون في سؤالكم الدال على سفاهتكم
 ووقاحتكم واستهزائكم، لأن قولهم **(اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)** هو في حقيقته
 كفرٌ في صورة السخرية والاستهزاء! وهذا على نحو قولهم لموسى **(اتخذنا**
هزواً) فذكرهم بما رأوا منه من العلم بالله المنافي للهزء **(قال أعوذ بالله أن أكون**
من الجاهلين) أي المستهزئين والهزاء قد يُسمّى جهلاً وهذا القول من موسى
 عليه السلام يدل على أن الاستهزاء من الكبائر العظام! ومن الدلالة على عظيم رتبة
 النبي ﷺ ومن لطيف أمداح القرآن له قوله تعالى **(فلا تكونن من الجاهلين)** كما
 يبين عند قوله سبحانه **(عفا الله عنك)** وسؤالهم موسى أن يجعل لهم آلهة يدل
 على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن الإسلام لأنهم لما كانوا
 في حال ذل واستعباد ذهب مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين الذين غسلوا
 عقولهم بمنهج التوحيد الفرعوني حتى كفر بعضهم بعضاً وضرب بعضهم رقاب
 بعض كما يشير إليه قوله بعده **(وإذ أجبناكم من آل فرعون يسومونكم سوء**
العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم

خدمة وعبيد! وقد بلغ سوء أدب القوم مع نبيهم أن ينكروا وحدة الإلهية وينسفوا في لحظة تعاليم الكتاب وهدى النبوة! جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التثنية ما يلي: «فاحترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى» ولكنها نفوسهم هي هي في زيغها وكيدها وإصرارها على الاستهزاء بالله وآياته ورسله، والتمرد واللجاجة والفسوق والكيد العظيم. روى الترمذي بإسناده عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى "اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم» قال صاحب مرقاة المفاتيح: وكأنهم أرادوا به الضدية والمخالفة العرفية وغفلوا عن القاعدة الشرعية فقال رسول الله ﷺ: "سبحان الله" تنزيهاً وتعجباً. اهـ. والناس اليوم قد اتخذوا من قبيل ذات الأنواط شيئاً كثيراً لا يحيط به نطاق الحصر والأمر بالمعروف أعز من بَيْض الأئوق، والامتنال بفرض الأمر منوط بالعيوق والأمر لله الواحد القهار. وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذُو النَعْلِ بِالنَعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلةً وَاحِدَةً» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وَأَصْحَابِي» ورواه الحاكم عن ابن عباس: «لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» وذلك ناشئ عن اتباع أهويتهم

ووساوسهم الشيطانية! نعوذ بالله من إرسال الرسن في اتباع الهوى. وقوله: "كلهم في النار" محمول على المبالغة في الزجر والتغليظ. وقد خشي سيد الأنام عليه الصلاة والسلام على أمته أن تبسط الدنيا عليهم كما بسطت على من كان قبلهم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلكهم كما أهلكتهم! وروى ابن أبي شيبه في المصنف عن حذيفة رضي الله عنه قال: «لتركبن سنة بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة غير أني لا أدري تعبدون العجل أم لا؟» وعبادة العجل يمكن تفسيرها بصنمية المادة وبيع الدين بالدنيا وقد نحت في الآونة الأخيرة منحى خطيراً وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يأتي على الناس زمان همُّهم بطونهم وشرفهم متاعهم وقبلتهم نساؤهم ودينهم دراهمهم ودنانيرهم أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله» وقد أبرز النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأحوال في جملة من الأحاديث منها ما رواه أحمد: «يأتي على الناس زمان عَضُوض يعرض الموسر على ما في يديه» وفي رواية للدليمي: «إذا تعلم علماً أو كرم العلم ليحلبوا به دنائركم ودراهمكم واتخذتم القرآن تجارة» وفي مسند البزار: «يكون قوم يأكلون بالستهم كما تأكل البقر بالستها» وكأي هذه الأحاديث وأمثالها تحكي اتباع الأمة المسلمة سنن الأمة الإسرائيلية!

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله "ولما سقط في أيديهم" عن قوله "ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا" لأنهم ما سقط في أيديهم إلا بعد أن رجع موسى إليهم وهددهم ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه

وإياهم وأحرق العجل - كما ذكر في سورة طه وأوجز هنا - وإنما خولف مقتضى الترتيب موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحول عن سنتهم حتى يتبينوا عواقب ما هم متحولون إليه إذ من المعلوم أن بني إسرائيل ما سقط في أيديهم ورأوا أنهم ضلوا بعد تصميمهم وتصلبهم في عبادة العجل وقولهم "لن نبرح عليه عاكفين" إلا بسبب حادث حدث ينكشف لهم بسببه ضلالهم فطفي ذلك من قبيل الإيجاز ليبني عليه أن ضلالهم لم يلبث أن انكشف لهم ولذلك قرن بهذا حكاية اتخاذهم العجل للمبادرة ببيان انكشاف ضلالهم مع بيان سرعة ارتدادهم عن دينهم وكفرهم برهم وقولهم لرسولهم "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة".

قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين

الغرض من الآية التذكير بنعم الله عليهم وأن شكر النعمة يقتضي زجرهم عن اتخاذ الآلهة وعبادة غير المنعم، والاستفهام للإنكار والتعجب ومحل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلهاً. ووصايا الكتب السماوية مليئة بالتحذير من اتخاذ الآلهة ففي سفر التثنية من الإصحاح السادس: «لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الرب إلهكم غيور». وعبر بصيغة الماضي "فضلكم" للتنبيه على تحقق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره. روى الطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده قال: غزونا مع رسول الله ﷺ عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله لنا مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف أبصر شجرة كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله ﷺ انصرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو

أذن منها فقال رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهؤلاء ذات أنواط، فقال له رسول الله ﷺ: «إنها السنن، قلتُم والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال: أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين» والرجل السائل لم يقصد بمقالته فساداً ولم يخالف الرشد عناداً ولم يميل إلى الغيِّ اعتماداً وأما بنو إسرائيل فقد صدر ذلك منهم سخرية وكفراً وفساداً كما تقتضي لفظة الإله! قال العلامة الألوسي في تفسيره: وفي هذا الخبر تصريح بأن القائل رجل واحد ولعل ذلك كان عن جهل يعذر به ولا يكون به كافراً وإلا لأمره ﷺ بتجديد الإسلام ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه.

الفصل الثاني: قصة الاستخلاف

إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها

ضربُ المثل في كتاب الله يصور لنا الطبيعة الحركية لهذا القرآن وهو يواجه - في معركة حاسمة تقرر سلطان الله - أولئك الذين تعطلت وسائل الإدراك لديهم فهم لا يبصرون، لا يسمعون، لا يفهمون إعجاز الكتاب الحكيم في إشاراتهِ وإيجاءاته ولفقاتهِ وإيقاعاتهِ، والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم، والمثل: هو المثل والمشابه وغلب على مماثلة هيئة بهيئة، وقد شبه سبحانه حال القتلة - سافكي الدماء - بهيئة محسوسة إلحاقاً للأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة لأن النفس إلى المحسوس أميل، ولضرب العرب الأمثال شأن ليس بالخفي في إبراز الخبيات وكشف الخفيات حتى تُريك الغائب كالمشاهد، والمتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، وتشبيه الحفاة العراة بالبعوضة يومئ إلى أخذ الحذر من هذا الصنف الحقير التافه الذي لا يؤبه له ولا يُفطن إليه، وما أحسن قول القائل:

فاحذر عدوك وهو أهون هين ... إن البعوضة أردت النمروذا

والآية واقعة من الآيات الماضية في تمثيل حال المنافقين موقع البيان والتقدير، وبينها وبين ما قبلها كمال الاتصال، وفي هذا المثل تشبيه بليغ؛ فهذه الحشرة تتغذى إناثها على دم الإنسان بينما الذكر يتغذى على عصارة النباتات، والأنثى أكثر الحشرات الماصة للدماء، وتقوم بنقل الأمراض والأوبئة، وهي السبب في نقل طفيلي الملاريا إلى ملايين البشر فقتلت بهذه الطريقة أكثر من الذين قُتلوا بسبب الحروب! وقوله (فما فوقها) أي في الصغر إشارة إلى الوباء الذي

تحمله... وهذا شأن بني إسرائيل الذين نقضوا الميثاق وأشعلوا الحروب لتقرير حكمهم في الأرض! ثم جاء التعقيب العجيب **(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)** قال الإمام الطبري: إنما نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم وإياهم عني الله جل ذكره بقوله "إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم" ويقول "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر" فكل ما في هذه الآيات فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم قالوا: فعهد الله الذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتماهم علم ذلك الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً. وروى الإمام الطبري عن الربيع أنه قال: فهي ست خلال في أهل النفاق إذا كانت لهم الظهرة أظهروا هذه خلال الست جميعاً: إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا أؤتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت عليهم الظهرة أظهروا خلال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا أؤتمنوا خانوا. وعهد الله هو ما أخذه عليهم في الكتب المنزلة من الإقرار بتوحيده والاعتراف بنعمه والتصديق بأنبيائه ورسله، والميثاق: العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة والمعاهدة وهي الشدة في العقد والربط ونحوه. والذي أمر الله تعالى به أن يوصل هو رسوله ﷺ فقطعوه بالكذب والعصيان قاله الماوردي، وقال صاحب روح البيان: يقطعون الأرحام وموالاة المؤمنين وما بين

الأنبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق حيث آمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم. قلت: قطع الأرحام بقتلهم أو إضلالهم وحملهم على اتباعهم في الكفر طوعاً وكرهاً. وأما الفساد في الأرض فعبادة الشيطان وطاعته فيما يدعوهم إليه من الشرك بالله وتكذيب الرسل وتحريف الآيات وتسعير الحروب وسفك الدماء والتستر بالإسلام وهذا غاية الفساد والله أعلم، ونظير هذا قوله تعالى ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ وقال سبحانه ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾.

لقد عرض القرآن أمر بني إسرائيل مكشوفاً كله وعرض وسائلهم كلها مكشوفة، ذلك أن بني إسرائيل هم موضع المعركة ومعتك الأحدث، وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ووقع منهم النقص المتكرر لميثاق الله كما وقع في حياتهم آثار هذا النقص والانحراف، فافتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة الكتب الربانية بحملتها بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ وتعرف مزلق الطريق وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم لتضم هذه التجربة إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بهذا الرصيد، ولتتقي مزلق الطريق ومداخل الشيطان وبوادر الانحراف... وتجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل، وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها وتنحرف أجيال منها وأن الأمة المسلمة التي سيتمد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات مع بني إسرائيل تشتد فيها أزر المصاع وتقدح نار المصادمة والقراع وتدور رحى الحرب وتستحر جمة الطعن والضرب تارة بالحشد والمكاثرة وأخرى بألوان

الخداع والمماكرة، فجعل أمام الأمة وقادتها ومجدي الدعوة في أجيالها نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم المقصوص عنها يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته، ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها وينفض عنها الركام لجذته عليها وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرقتها لأول مرة، أمّا القلوب التي نوديت من قبل فالنداء الآخر لا تكون له جذته ولا تكون له هزته ولا يقع فيها الإحساس بضخامته ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف والصبر الطويل!

إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا

هذه الآية عُدت من مشكلات القرآن وتردد المفسرون في تأويلها تردداً دل على الحيرة في تقويم معناها واختلفوا فيها على عشرين قولاً وبعضها متداخل في بعض! والحق أن موقع الآية مع ما قبلها وما بعدها يصلح عوناً لاكتشاف دقيق معناها وإزالة ستور الرمز عن المراد منها وهو حمل معنى الأمانة على خلافة الله تعالى في الأرض ففي الكلام استعارة تمثيلية وفائدة هذا التمثيل تعظيم أمر هذه الخلافة إذ بلغت ألا يطيق تحملها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات، وعطفُ الجبال على الأرض وهي منها لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها، والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله لغرابة شأنه منزلة ما قد ينكره السامع، وافتتاح الآية بمادة العرض وصوغها في صيغة الماضي وجعل متعلقها السماوات والأرض

والجبال والإنسان يشير إلى عظم الخلافة! وقوله **(إنه كان ظلوما جهولا)** أي كان من شأنه الشرك والاستهزاء! وإن من أشراط الساعة كاذب يخون المسلمين بأقواله وأفعاله ويسلب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى في جميع أحواله كما روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: **«أين - أراه - السائل عن الساعة»** قال: ها أنا يا رسول الله، قال: **«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»** قال: كيف إضاعتها؟ قال: **«إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»** فإنه إذا ضيعت الخلافة وأسند أمر الحكم والعلم إلى الحفاة العراة وصاروا قادة الناس فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا! ففي الحديث عند ابن بطّة: **«وتصير الحفاة العراة على رقاب الناس»** وهم الذين أشاعوا التحريش والتفرقة والعداوة والبغضاء بين المصلين وتداعوا بدول الاستعمار على الأمة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وقد نهي سبحانه في مطلع السورة عن طاعة المخالفين وذيلها بتهديدهم ووعدهم ليرجع مقطع السورة على مطلعها ويلتحم مبدؤها بمرجعها على أحسن وجه، واختتام الكلام بالعلة من قوله **(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات)** يقتضي أن للأمانة المذكورة في الآية مزيد اختصاص بالعبارة في أحوال المنافقين والمشركين من بين نوع الإنسان في رعي الأمانة وإضاعتها، وهذا الربط بين الآيات جدير بأن يوقظ الغافلين إلى القدرة التي تورث الملك، وتديل الدول، وتدير الأعمار، وتقلب الصولجان، وتجعل من الجيل خليفة لآخر، ومن كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل يعقبه من بعده

ليرى ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه في يوم يقف فيه شاهد ومشهود... من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثوائه القليل، ويتنبه إلى ضخامة التبعة التي حملها على عاتقه... إلى حمله للأمانة التي أشفت منها السماوات والأرض والجبال.

يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف
بعهدكم وإياي فارهبون

اعلم أيها الشاهد أنه سبحانه لما أقام دلائل التوحيد واستطرد بقصة الاستخلاف وقصة آدم وإبليس؛ ذَكَرَ الإنعامات على بني إسرائيل كسراً لعنادهم واستمالة لقلوبهم فقال **(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون)** وهذا أول نداء علوي لبني إسرائيل في ترتيب المصحف، والوفاء بالعهد هو توحيدته تعالى في الحكم والعبادة والإقرار بربوبيته والاعتراف بإلهيته والتصديق برسله واتباع النبي الجليل الأكرم سيدنا محمد ﷺ، والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب وأفسدت عقيدتهم وفطرتهم وحياتهم؛ نشأت أول ما نشأت عن انطماس هذه الصورة وتحريفها. وخطبوا بالرهبة لتضمنها معنى التهديد واستبطانها فيما يختص لمخالفة العلم جرياً على جدال العالم الجاحد وخطاب المنكر المعاند، والرهب حذر النفس مما شأنها منه الهرب لأذى تتوقعه، وجاء التعبير بقصر الرهبة التامة منه سبحانه عليه لأن الآية تأمرهم بالوفاء بالعهد فناسبها أن يخوفوا من نكته. ومناسبة الكلام معهم هنا ظاهرة وذلك أن السورة افتتحت بذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ومن ذلك المغيبات التي أعلم الله بوقوعها ثم أردف تعالى بالتعريض بكفر

بني إسرائيل ونفاقهم وذكرَ سبحانه جملاً من أحوالهم ثم أمرهم تعالى بعبادته مبيناً أنه تعالى خلقهم وخلق المستخلفين من قبلهم ونهاهم عن اتخاذ الأنداد واستطرد بذكر إعجاز القرآن ثم انتقل إلى ذكر إفسادهم ونقضهم عهد الله من بعد ميثاقه وأتبعه بذكر استخلافهم في الأرض وأشار إلى علاقتهم بإبليس وأنه أغواهم كما فعل بأبويهم فأخرجهم عن جنة حضرة جلال الذات وأهبطهم إلى أرض الحظوظ والشهوات وتعرضت لهم الكلمات فصموا عن سماع الآيات ففات منهم ما فات ثم أقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد من المأمورات والمنهيات ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدي﴾ وقد ناداهم بهذا الوصف لكونه اسماً للقبيلة، أما وصف اليهود والنصارى فاسمٌ للنحلة والديانة، وبمثل ذلك ذكر الحق الأمم المستخلفة الغابرة ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ وأسند الفعل بعلامة التأنيث من حيث أراد القبيلة. واعلم أيها المؤيد بالوحي الإلهي والنور القدسي أن القرآن هو بيان الإله النهائي الخالد إلى البشر وقد أنزله عز وجل فيصلاً بين أهل الحق والباطل وفرقاً بين أهل الهداية والضلالة وضياء يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة فكل خطاب في بيان الإله النهائي لبني إسرائيل هو خطاب لهم اليوم كما كان بالأمس ولو لم يكن كذلك لزم تعطيل القرآن. قال الإمام الحارلي ﴿اذكروا نعمتي﴾ من الذكر وهو استحضار ما سبقه النسيان، وتلك النعمة الشريفة هي الإتيان بالهدى من الكتب والرسل الذي استنقذتكم به من هوان الدنيا والآخرة، وأوفوا بعهدي الذي أخذته عليكم في لزوم ما أنزل إليكم من متابعة نبيكم ومن أمركم باتباعه من بعده، والعهد التقدم في الشيء خفية اختصاصاً لمن يتقدم له فيه ثم خوطبوا بالرهبة ﴿وإياي فارهبون﴾ لاستبطائها فيما

يختص لمخالفة العلم، والرهب حذر النفس مما شأها منه الهرب لأذى تتوقعه، وأطال سبحانه في حجاجهم جرياً على قانون النظر في جدال العالم الجاحد وخطاب المنكر المعاند. ثم أمرهم تعالى بالإيمان بكتابه فقال ﴿وآمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ والذي أنزل تعالى هو القرآن والذي معهم هو التوراة والإنجيل، وهذا الإيمان يقتضي الاتباع وامتنال أمر الله والعمل بجميع ما جاء به والاجتهاد في إقامة أحكامه والجهاد في سبيل الله وتحقيق ذلك في قوله تعالى ﴿إِنِ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَن لَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ ولما كانت المخالفة مع عظيم النعمة أقبح وأشد وأفحش، حذرهم أن يكونوا أئمة في الكفر فيقتدي بهم تُباعهم فيكونوا لأوزارهم حاملين ووزر المبتدئين فيما يسنون أعظم من وزر المقتدين فيما يتبعون وذلك قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ ولما نهاهم عن الكفر بالآيات، نهاهم عن الحامل عليه لقوله ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ﴾ وقد أمرهم قبل ذلك بالرهبة لأجل أن جواز العقاب قائم ثم أمرهم بالتقوى لأن تعين العقاب قائم، ثم أردف بالنهي عن لبس الحق بالباطل ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تلبسوا الحق المنزل في الكتب السماوية مشتبهاً بباطلكم ولا تخطوا التوحيد بالباطل الذي اخترعتموه وتكتموا الحكمة وأنتم تعلمون ذلك أي لبسكم الحق بالباطل وهو أبلغ في النهي لأن صدور ذلك من العالم أشد، والمقصود من تقييد النهي بالعلم - والله أعلم - زيادة تقبيح حالهم وهذا اللبس المقارن لكتم الحق جريمة في الدين فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق كتأويلهم الآيات على خلاف تأويلها ليظهر منها للعوام خلاف ما هي عليه. ولما كان اللبس قد

يفارق الكتمان بأن يسأل شخص عن شيء فييديه ملتبساً بغيره أو يكتمه وهو عالم به قال **(وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)** واعلم أن الساعي في كتمان الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من أحد وجهين: إما بإلقاء شبهة تدل على الباطل، وإما بكتمان الدليل الذي يدل على الحق ككتمان الدلالات التي وردت في التوراة والإنجيل على نبوة سيدنا محمد عليه أكمل الصلوات والتسليمات، فقوله "ولا تلبسوا الحق بالباطل" إشارة إلى المقام الأول وقوله "وتكتموا الحق" إشارة إلى المقام الثاني، وفي هذه الآية أعظم زاجر لأهل الكتاب عما أظهروا فيه من العناد، ثم ذكر تعالى بعد ذلك بيان ما لزمهم من الشرائع **(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين)** وجاء الأمر بأداء شعائر الإسلام عقب الأمر باعتقاد عقيدة الإسلام في قوله "وآمنوا بما أنزلت" والأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يتعلق بأعظم قواعد الإسلام بعد الشهادتين، إذ أن إقام الصلاة عمل يدل على توحيد الخالق وتعظيمه وخلع الآلهة، وإيتاء الزكاة عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي لا سيما إذا كان ذلك المال ينفق في الجهاد في سبيل الله، والأمر بالركوع مع الراكعين يعني الانقياد للأمة المحمدية فقد روى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أمرهم أن يركعوا مع أمة محمد ﷺ يقول: كونوا منهم ومعهم. أي اخضعوا لهم لأن الركوع والخضوع في اللغة سواء فيكون أمراً باتباعهم ونهياً عن الاستكبار المذموم. ثم إنه تعالى لما أمرهم بفعل الخير شكراً لما خصهم به من نعمه وآلائه حرّضهم على ذلك من مأخذ آخر بقوله **(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)** والهمزة للتقرير مع توبيخ وتقريع وتعجيب! روى الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة كان الرجل

منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين: اثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل - يعنون به محمداً - فإن أمره حق وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه. ولييان قباحة هؤلاء القوم؛ نورد ما كتبه ابن عبد الوهاب في الرسالة السادسة: اعلم رحمك الله تعالى أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله... ثم قال: والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة: الأول: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله والدليل قوله تعالى ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾... إلخ. فانظر إلى هذا التناقض والتمويه الذي لا يصدر إلا من قوم لا يعقلون. وجاء في رسائل سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قوله: اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداواة لهم ومداينة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك فكيف إذا كان في دار منعة واستدعى بهم ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل وأعانهم عليه بالنصرة والمال والوالاهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين وصار من جنود الشرك والقباب وأهلها بعد ما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر من أشد الناس عداوة لله ورسوله ﷺ... إلخ. وقد لا يتنبه المسلم إلى طريقة المخادعين الذين تظاهروا بالإسلام تعجلاً في الإبطال وتمويهاً على الإغفال ودفعاً لأنفسهم من قهمة الشرك والكفر، فقبلوا المعركة إلى صف المسلمين ليضرب بعضهم رقاب بعض، وحملوا النصوص على المؤمنين وسدّدوا سهامهم إلى العثمانيين، فكان الرد الحاسم آنذاك بإعلان الحرب على هؤلاء المستهزئين. قال الإمام المرشد الكامل المتحلي بأزكى

الخصائل السيد أبو الهدى الصيادي الشريف قدس الله سره اللطيف: يجب على المؤمن المتحلي بالآداب المرضية أن يُبغض أهل الزيغ والضلالة وأرباب الظلم والفساد والبغي والعناد والطغاة وأهل الأضرار المؤذين للخلق وأن يبغض شياطين الإنس والجن فيكون بعيداً عنهم وهذا أفضل الإيمان وأوثق عرى الإيمان كما جاء عن صاحب البيان عليه شرائف التحية والسلام: «**إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وأن تبغض في الله**» ومن انخرط في هذا الإرشاد ووادّ من حادّ الله ورسوله فقد انخرط في سلكهم وصار منهم ففي الخبر الأطهر: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» وفي خبر آخر: «**المرء مع من أحب**» ومن الذين يجب بغضهم في الله قوم من سفهاء الناس قاموا في هذه الأيام يخطبون بالأحكام الشرعية ويضلون الناس يريدون بذلك الشهرة ولو بالمكفرات ويزعمون أنهم على شيء وقد أشار إليهم رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين بقوله عليه الصلاة والسلام: «**يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من أفعال خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة**» وأرباب النميمة والغيبة والانحراف عن الطريق الشرعي المرضي الذي أمر الله عباده بسلوكه والمراؤون والكذابون والمرتكبون للكبائر والمستخفون بأهل الدين والمحقرّون للصالحين والذين يحرفون الكلم عن مواضعه والذين يخيفون الناس ويخشاهم الناس لشهرهم وكفار النعم قلّت أو جلّت والذين يستهزئون بالناس ويستخفون بالأحكام وقلوبهم مَشوبة بالأمراض يرمون المسلمين بسهام الطعونات ويريدون مؤاخذه الخلق بالشبهات وهم أشرُّ الناس قليلاً وأسوأهم سبيلاً فبغضهم وأمثالهم من البغض في الله والموعدُ الله ولا إله إلا

الله. انتهى. والمسلم الذي لم يعرف تاريخهم يسمع قولاً جميلاً ويشهد فعلاً قبيحاً، فتملكه الحيرة بين القول والفعل وتخبو في قلبه الشعلة التي توقدها العقيدة وينطفئ في قلبه النور الذي يشعه الإيمان، ولا يعود يثق في الدين بعد ما فقد ثقته برجال الدين، وقد ترتب على فتاوى الحفاة العراة تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، والتاريخ يشهد على أفعال هذه الفئة اللعينة في القديم والحديث...ولمّا سُئل علماء بني إسرائيل عن خرج من الدولة السعودية إلى الدولة العثمانية - كما جاء في كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية - أجابوا: هؤلاء الذين ذكرهم السائل وهم العجمان والدويش ومن تبعهم لا شك في كفرهم وردّهم لأنهم انحازوا إلى أعداء الله ورسوله وطلبوا الدخول تحت ولايتهم واستعانوا بهم فجمعوا بين الخروج من ديار المسلمين واللحوق بأعداء الملة والدين وتكفيرهم لأهل الإسلام واستحلال دمائهم وأموالهم...وأما قول السائل: إنهم يدعون أنهم رعية الأتراك ومن الأتراك السابقين وأنهم لم يدخلوا تحت أمر ابن سعود وطاعته إلا مغضوبين فهذا أيضاً من أعظم الأدلة على ردّهم وكفرهم. انتهى. وقال عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ في رسالة طويلة جاء في ثناياها: وهذه الدولة التي تنتسب إلى الإسلام هم الذين أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم استسلموا للنصرانية واتحدت كلمتهم معهم وصار ضررهم وشرهم على أهل الإسلام!!! ولمّا أخذ الإخوان بكلام ابن عبد الوهاب وقاموا بتكفير أهل البادية، تصدّى لهم ابن سحمان ليمدّ الحمأة بماء وقال: إن كلام الشيخ الذي تقرؤونه على الناس في قوم كفار ليس معهم من الاسلام شيء، وذلك قبل أن يدخلوا في الإسلام، ويلتزموا شرائعه!!! ويبدو أن هذا الأخير تجاهل بعد علم وتناكر بعد معرفة أن ابن عبد الوهاب أفتى بردة وكفر

أهالي بلدة العيينة وتم تدمير العيينة تدميراً شاملاً، ولما دخلوا الطائف قتلوا الناس قتلاً عاماً وذبحوا الطفل الرضيع على صدر أمه، ووجدوا جماعة يقرؤون القرآن فقتلوهم عن آخرهم، وخرجوا إلى الحوانيت والمساجد فقتلوا من فيها، وبعد دخولهم إلى الحرمين أتلّفوا المكتبات التي حوت آلاف الكتب والمخطوطات، وتاريخهم الوحشي غني عن التعريف...وعلى الرغم من مقاومة المصلحين في نجد للدعوة السعودية الوهابية وتعريتهم لها في العارض وبريدة وعنيزة وشقرا ووادي الدواسر والزلفي والرس والمجمعة وسدير وغيرها إلا أن الفراعنة الجدد تمكنوا من تطويع أهالي نجد بعد هلاك الجيل الأول وبعد تَنسُخ العلم...وفي رسالة أرسلها إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب قبل هلاكه إلى المنتسبين إلى السنة والإيمان يقول فيها: **وقد لاح في أوائل هذا القرن علم التوحيد وأغمدت سيوف الجهاد في هامات من حاد عنه من شيع الكفر والتنديد وأقيمت الحدود الشرعية في كافة بلدان المسلمين وحصل القيام التام بواجبات الدين وذلك أمر لا يخفى وحصل لأسلافنا وأسلافكم من التعاون على ذلك ما أرغم الله به أنوف الأعداء حتى صارت دياركم معقل الإسلام...إلخ.** وهذه السخرية بالإسلام والمخالفة في الأقوال والأفعال يُراد منها إحداث البلبلة والشك في نفوس المسلمين من دعوة الإسلام تحت ستار الحيل والمكر والأساليب الملتوية، وقد زاول أحبار اليهود هذا التلبيس والتخليط منذ الصدر الأول وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبل في المجتمع الإسلامي وعامل اضطراب وخلخلة بين المسلمين، وما نشروا اليوم نواقض الإسلام في قطر من أقطار الإسلام إلا دبّت الفرقة والخلاف بين المسلمين حتى كفر بعضهم بعضاً، وما دخلت دعوتهم الوهابية في حركة جهادية إلا حولتها من حرب على الأعداء إلى

حرب داخلية بين صفوف المجاهدين يضرب بعضهم رقاب بعض! ولما أمر تعالى بني إسرائيل بالإيمان وبترك الإضلال وبالتزام الشرائع وهي الصلاة والزكاة وكان ذلك شاقاً عليهم لما فيه من ترك الرياسات والإعراض عن المال والجاه لا جرم عاج سبحانه هذا المرض بقوله ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ فكأنه قيل: واستعينوا على ترك ما تحبون من الدنيا والدخول فيما تستثقله طباعكم من اتباع الحمديين والتهمم بالاقتراء بهم بالصبر أي حبس النفس عن اللذات والاشتغال بالصلاة لكونها مقطعة عن المخلوقين إلى قبة خدمة الخالق ولأنها تمنع عن الاشتغال بالدنيا وتخضع القلب ويحصل بسببها تلاوة الكتاب والوقوف على ما فيه من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب الجميلة وذكر مصير الخلق إلى دار الثواب أو دار العقاب فيهن عليهم حينئذ ترك الدنيا الدنية ومتابعة الحمديين الذين يوقنون أنهم يحشرون إلى ربهم وأنهم مجزيون محاسبون... وفي الآية تبيكت لأهل الكتاب بأنهم ينكرون البعث كما أخبر عنهم العليم الحكيم في مواضع عديدة من القرآن الكريم.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ اعلم أيها الشاهد السالك في طريق التصديق والتحقيق أنه تعالى لما دعاهم إلى الوفاء بالعهد تُني النداء بالتنبيه على نعمة التفضيل الموقوت فأعلمهم الله تعالى بأنه فضلهم أي قدره لهم في المستقبل وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه وقد تضمن ذلك تقريراً ووعيداً لهم بدلالة ما قبله وما بعده فإنه تعالى وبخهم على لبسهم الحق بالباطل وكنتمهم الحق عن عمد ونعى عليهم قبيح ما ارتكبوه من أمر غيرهم بالبر ونسيان أنفسهم عنه ثم أردف التذكير بالترغيب مقروناً

بالترهيب البالغ ثم شرع بعد ذلك في تعديد تلك النعم على سبيل التفصيل ﴿وَإِذْ
نَجِينَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ...﴾، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ
مَوْتِكُمْ...﴾، ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى...﴾ فاستحقوا
بكفرهم أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة وأن ييؤؤوا بغضب من الله، وبهذا
تتضح أسرار اللعنة السماوية النازلة بهم، فقد كانت خيانتهم كبيرة! إذ كفروا
النعمة ووجدوا المنعم وتكفروا لفضل الخالق سبحانه؛ فكان الحكم العادل هو
ما نصّت عليه الآيات ﴿وَضَرَبْنَا عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ﴾
ومن خلال النظم الكريم نقول وبالله التوفيق: إن الآية الكريمة ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ من أشد الآيات
ذمّاً لبني إسرائيل وخيانتهم، وصيغتها صيغة تقرير وهي من المغيبات التي وافقها
الواقع إذ وعدهم سبحانه بأن يقيم لهم مملكة تظهر على جميع الممالك وتتبعها
الأمم في كل المسالك! والآية وردت في موضعين - وليس في القرآن فضول ولا
تكرار بل كله أصول وإحكام - ويبدو أن الآية الأولى تشير إلى التفضيل في
العلم، والآية الثانية تشير إلى التفضيل في الحكم، وبين الآيتين يستعرض الحق
تاريخهم ويذكر ما أنعم به عليهم وما صدر منهم من الكذب والمخالفات
والتعنتات والانحرافات! ما يكاد حلمه تعالى يردهم عن واحدة منها حتى يعودوا
إلى أخرى وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة وما يكادون
ينجون من عشرة حتى يقعوا في حفرة! ونفوسهم ندلة خبيثة ظلمانية شريرة
مُصَرَّة على محادة الله تعالى مستمرة على ما هي عليه من النكول عن الأمانة
والضعف عن حمل التكاليف والتعنت في طلب الآيات والإقدام على نكث
العهود ونقض المواثيق وتبديل الكلم وقتل الأنبياء وعبادة العجل! وأخير تعالى بما

أعد لهم في الآخرة محشواً بين التذكيرين ومجمعولاً بين الوعظين والتخويفين، كما أخبر في مواضع أخر عن موالاتهم الشيطان واجترائهم على جناب الله ووصفه بما لا يليق بجنابه كقولهم: يد الله مغلولة! وقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء! وقولهم: الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله! وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة! واقتراحهم الأباطيل كقولهم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة! وقولهم: أرنا الله جهرة! وهذا كله مع الإدعاء العريض أن الله خلق الأمم لخدمتهم وأنهم وحدهم المهتدون وأنهم قد حازوا التوحيد من قطريه وأحاطوا به من طرفيه حتى زعموا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وأن الجنة لا يدخلها غيرهم! وهذا ما يبطله القرآن وهو يكشف كيدهم ويحطم دعاواهم ويبين حقيقتهم ويظهر طريقة كيدهم للخللة صف المسلمين وإشاعة الفتنة فيهم. وقوله تعالى ﴿وَأَيُّ فَضْلَتِكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هذا عام دخله التخصيص في مواضع كقوله عز وجل ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي على بني إسرائيل على وجه الخصوص ودخل معهم من تحتهم من الأمم. ولما ذكرهم الله تعالى بالفضل وكانوا لا يؤمنون باليوم الآخر حذرهم أشد التحذير فقال ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ والنفس الأولى تشمل النصير أي الشريك في الحكم وتشمل الشفيع وهو الشريك في العبادة، والنفس الثانية نفس الكافر، والمعنى: اتقوا يوماً لا يغني عنكم نصير وحميم وخليل كقوله تعالى "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو" وكما لا تغني عنكم نصرة شركائكم في الحكم كذلك لا تغني عنكم شفاعة الملائكة والنبين كقوله سبحانه "ولا خلة ولا شفاعة" أي حرمت الكفار النصرة من الأخلاء، والشفاعة من الملائكة والأنبياء، ويصحح هذا قوله عز وجل "ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع"

والضمير في قوله "ولا يقبل منها" راجع إلى النفس الأولى، والشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين وكان بنو إسرائيل يعتمدون على أنهم أبناء أنبياء الله وأنهم يشفعون لهم فأياهم الله عز وجل من ذلك وأعلمهم أن من لم يتبع النبي الأمي وأمته فليس ينجيه من عذاب الله شيء، والضمير في قوله "ولا يؤخذ منها" راجع إلى النفس الثانية والعدل هنا البيع والفدية فلا تقدر على ابتياع ما ينجيها ولو جاءت بملء الأرض ذهباً فتفدي به ما تقبل منها، وقدم الشفاعة في هذه الآية وأخر العدل لأن الشفاعة من مقتضيات العلم وسياق الآية في ذكر التفضيل في العلم كما سيأتي بيانه، وقدم العدل وأخر الشفاعة في الآية الأخرى ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ لأن العدل من مقتضيات الحكم والسياق في ذكر التفضيل في الحكم، وبدأ هناك بالقبول لأنه أصل للشيء المترتب عليه فأعطى المتقدم ذكر المتقدم وجوداً وأخر هنا النفع إعطاء للمتأخر ذكر المتأخر وجوداً. وبعد أن أيأسهم من نصير يدفع وولي يشفع وبيع ينفع أردفه بتأييس خلاهم فقال "ولا هم ينصرون" أي لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وهذا يستتبع تحقير من أشركوهم مع الله تعالى في الحكم. قال الإمام الطبري: يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ قال الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد بعين قلبك إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما الدار العاجلة وإياها يطلب ولها يعمل، والآخر الذي يريد الدار الآخرة ولها

يسعى موقناً بثواب الله على سعيه، كيف فضلنا أحد الفريقين على الآخر بأن
 بصرنا هذا رشده وهديناه للسبيل التي هي أقوم ويسرناه للذي هو أهدى
 وأرشد، وخذلنا هذا الآخر فأضللناه عن طريق الحق وأغشيناه بصره عن سبيل
 الرشـد ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ يقول: وفريق مريد الآخرة أكبر
 في الدار الآخرة درجاتٍ بعضُهم على بعض لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة
 وأكبر تفضيلاً بتفضيل الله بعضهم على بعض من هؤلاء الفريق الآخرين في
 الدنيا فيما بسطنا لهم فيها.

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا
 وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب
 العالمين

لما ذكر الله أمر إبراهيم وما أجراه على يده من شرائف شرائعه التي ابتلاه بها،
 ومن بناء بيته مع إسماعيل ودعوتهما أن يكونا مسلمين لله وأن يجعل الله من
 ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من بني إسماعيل؛ وبخ بني
 إسرائيل فقال ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ وهم يفتخرون به
 ويتصلون بنسبه، وقد أعرضوا عن ملته وفارقوا دعوة الإسلام بعد أن بين لهم
 المولى سبحانه أن الإسلام مُقام على أساس الربوبية! والاستفهام للإنكار
 والاستبعاد، وموقع الآية من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل، فإنه لما بين
 فضائل إبراهيم علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلا
 سفية طيَّاش وأحمق فحاش! والآية تواجه الذين نازعوا الأمة المسلمة الإمامة
 ونازعوا الرسول ﷺ النبوة والرسالة وأعرضوا عن متابعة القرآن وجادلوا في

حقيقة التوحيد والإسلام! وفي قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنويه بحنيفة إبراهيم التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ وإبطال لزعمهم أن أحداً من أنبيائهم كان على اليهودية أو النصرانية! وقد تضمنت كلمة ﴿أَسْلَمَ﴾ جماع معاني التوحيد، وإنما قال ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليأتي بالإسلام وبدليله حسبما يحكيه قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿وَأَمَرْنَا لِنَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحكى عن سيد المعصومين عليه صلوات رب العالمين قوله ﴿وَبِذَلِكَ - أي التوحيد - أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والاستفهام إنكار على من استخلفهم الله في الأرض باتخاذهم أرباباً من دون الله، وجملة ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في موضع الحال وهو حال معلّل للإنكار عليهم، وهذه العبارة تحمل في طياتها تسيحة التوحيد المطلق، توحيد الرب القوام المهيمن المتصرف الموجّه الحاكم، عبارة تنقّص السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن وتشمل كل شيء، كلمات تظللها ربوبية الله المطلقة، عبارة فيها تعجب وإنكار على الذين أشركوا بالربوبية ولذلك نبه سبحانه إلى هذه الحجة الباهرة فقال ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ولفظ "لكنّا" مركب من "لكن" بسكون النون الذي هو حرف استدراك ومن ضمير المتكلم "أنا" وتقدير الكلام: لكن أنا أعترف بأنه ربي ولا أشرك بربي أحداً. ونحوه قول إلياس عليه السلام بعد أن عاب قومه على اتخاذهم رباً من دون الله ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ والبعل: الرب والسيد والمالك، والمعنى: أَدْعُونَ بعض الأرباب وتتركون ربوبية الله؟ ونظيره في صحيح الإمام مسلم: «إِذَا

ولدت الأمة بعلمها» وقال تعالى ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين﴾ وهذا أمرٌ بالدعوة إلى توحيد الربوبية ومتاركة المشركين، والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي مع الإضافة إلى ضميره ﷺ إرشادٌ إلى أساس الإسلام. وقد دلت الآيات على دعوة الرسل لأقوامهم إلى توحيد الربوبية فتبين بذلك بطلان زعم الوهابية. قال جل شأنه ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلکم الله ربکم فبإرک الله رب العالمین﴾ أي ذلکم الموصوف بتلك الأوصاف المقتضية لاستحقاق ما أخبر به عنه هو الله الذي تحقّق له الربوبية، وفرّع على ما ذكر من بدائع صنعه الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الجلال والجمال والكمال فقال ﴿فتبارک الله رب العالمین﴾ أي تعاضم وتقدس بكثرة أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي لا نهاية لها وبكثرة نعمائه وآلائه وإفاضة بره وإحسانه وخيراته على عباده ورحماته على جميع مخلوقاته على وجه لا يعد ولا يحصى ولا يحد ولا يستقصى وهذا الوصف من تمام الإنشاء لأن في ذكر ربوبيته للعالمين وهم أشرف أجناس الموجودات استحضاراً لما أفاضه عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد. قال تعالى ﴿وإلى ربك فارغب﴾ وتعديّة فعل ﴿فارغب﴾ بحرف ﴿إلى﴾ لتضمينه معنى الدعوة أي فادع إلى توحيد الربوبية، والتضمين طريق معروف عند العرب في كلامها، نشرها ونظمها. وتقديم ﴿إلى ربك﴾ على ﴿فارغب﴾ لإفادة الاختصاص. والمشركون من بني إسرائيل يفتخرون بإبراهيم ويعترفون بحسن طريقته ويقرون بوجوب الاقتداء به ولذلك ذكره الله وحكى طريقته في التوحيد ليكون ذلك حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك... وينتقل التاريخ وينتقل المستخلفون

الجُدُّ أساليب الفراعنة القدامى وينسون الوصايا! ولما كان من شأن أهل الحق أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مكملات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متَّبِعاً مشهوراً فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفاً عنهم في الناس بأن لا يجيدوا عن طريق الحق ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه، والضمير المجرور بالباء في قوله **(ووصى بها)** عائد على كلمة إبراهيم التي هي أصل الإسلام **(أسلمت لرب العالمين)** ولما كان إبراهيم هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة خصّ أبناءه بهذه الوصية، وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بني إسرائيل إذ أنهم موعودون بالاستخلاف في الأرض.

ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون لما حكى تعالى عن إبراهيم أنه بالغ في وصية بنيه، ذكرَ عَقِيه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة في البيان، والمقصود بعثهم على الإسلام والدوام عليه وذلك أن المرء يخشى أن تعاجله المنية فيفوته الظفر بالنجاة، وكون النداء بلفظ البنين مضافين إليه تلطف غريب وترجئة للقبول وتحريك لما يلقي إليهم، وفي الكلام إيجاز بليغ ووعظ وتذكير. ثم بين أنه تعالى اصطفى لهم الدين وأراد بـ"الدين" المجاز فيكون قد كنى به عن الاستخلاف في البيت الحرام كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة. والنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة وهو الدين الكامل الذي تعبّد الله به الأنبياء والرسل عليهم السلام، والوصية دالة على أن شفقة الأنبياء على أبنائهم كانت في باب الإسلام وهمتهم مصروفة

إليه دون غيره، وقد وقع النهي في ظاهر الكلام على الموت ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وإنما نھوا في الحقيقة عن ترك الإسلام لئلا يصادفهم الموت عليه والمعنى: الزموا الإسلام بلا تذبذب وتلوين حتى إذا أدرككم الموت صادفكم مسلمون مؤمنون محسنون فالإسلام هنا يشمل الإسلام والإيمان والإحسان كما في الآية الكريمة ﴿وإني من المسلمين﴾ أي المستسلمين لك اعتقاداً وعملاً وقولاً... وقد ذكر تعالى سؤال يعقوب لبنيه عما يعبدون بعد موته فأجابوه بما قرت به عينه من موافقته وموافقة آبائه الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ وحكمة هذا السؤال هي تقرير وتوبيخ هؤلاء المستخلفين بأنهم لم يحضروا وصية يعقوب إذ فاجأه مقدمات الموت، فدعواهم الإسلام باطلة إذ لم تنبئهم بها الكتب الإلهية فبطل قولهم لأنه لم يتحصل عن عيان أو نقل.

لقد جاءت وصية يعقوب في معرض تذكير بني إسرائيل بتفضيلهم على العالمين، ثم تخلل النظم ذكر قصة إبراهيم ورفع لقواعد البيت مع إسماعيل، وأشار إلى صراع بين ذرية إسماعيل وإسحاق حول هذا البيت، ونوّه بطلب إبراهيم وإسماعيل أن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة له وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله التي فيها بيان ما في التوراة والإنجيل ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ومن هنا ابتدئ التعريض ببني إسرائيل الذين اتبعوا الشرك وأعرضوا عن الحنيفية التي هي أصل الإسلام وقد وصفهم بالسّفَه، ثم طوي بالانتقال إلى ذكر وصية يعقوب لبنيه ليفضي إلى قوله ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ فجاءت الآيات

من ابتداء ذكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه على اختلاف معانيه وتعدد مبانيه كأنها جملة واحدة في حسن مساقها ونظم اتساقها مرتقية في الفصاحة إلى ذروة الإحسان مفصحة أن بلاغتها خارجة عن طبع الإنسان، جارية على أسلوب واحد على أبدع وجه وأحكم نظم، والسياق في كتاب الله يكاد يكون مغفولاً عنه، غير مأبوه له. قال الأصبهاني: فإن القرآن معجز والركن الأيمن الإعجاز يتعلق بالنظم والترتيب.

لقد ترك يعقوب لأبنائه وصية سجلتها الكتب السماوية وحفظتها، لم تشغله عنها صرعات الموت، نَبَّههم إلى استخلافهم في الأرض ﴿يَا بَنِي إِنْ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ وأمرهم بالإسلام والدوام عليه ﴿فَلَا تَمُوتُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثم أكد الوصية في استفهام يُعد النفوس ويهيئ الأسماع لتَلْقَى الوحي...

ما تعبدون من بعدي؟

استفهام توبيخي تبكيته... استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالاستسلام لله والسلامة من الشرك... استفهام يفيد: أن الحَكَمية لله وحده والتبعية لله وحده والهيمنة لله وحده والدينونة لله وحده... استفهام لا جواب عليه إلا أن يكون هناك رب واحد وإله واحد هو الله وحده المالك التام المُلْك، والمملك المطاع المنفرد بالملك... استفهام يحمل أمانة ذات أعباء وحقيقة ذات تكاليف ناءت بحملها السماوات والأرض والجبال... ولعل بني إسرائيل في هذه المرحلة أحوج إلى مراجعة وصية أبيهم وتدبرها! وهذا الاستفهام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ من الإيجاز والإكمال إذ جمع الإنكار عليهم في النقول على من لم يشهدوه، وتعليمهم ما جهلوه، ولأجل

التنبية على هذا الجمع البديع أعيدت ﴿إِذ﴾ في قوله ﴿إِذ قَالَ لِبْنِيهِ﴾ ليكون كالبدل من ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ فهذه هي تركة يعقوب وهذا هو الذخر، وهو مشهد عظيم الدلالة عميق التأثير قوي الإيحاء في لحظة رهيبة جليلة... لحظة الموت والاحتضار لبني كريم في سكرات الموت يترك لأبنائه وصية يُسلمها لهم في ميثاق يسجل فيه ذلك الأمر الجلل! والقرآن الكريم إذ يكشف طريقة أهل الكتاب في الإضلال والتمويه، يقطع تلك التركة عنهم ويُقيي النسب ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولما أوضح تعالى سفههم وتركهم تهذيب أنفسهم بالاقتداء في الاهتداء بالأصفياء، قال مبيناً أنهم يدعون إلى اتباع أهوائهم ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ هذا منطوق ميثاقهم ومسطور أفعالهم إذ أحدثوا الأديان الباطلة والعقائد الضالة والنحل العجيبة والأفكار الغريبة كالديمقراطية التي غزوا ببهرجها أذهان الروم وساقوهم بها ليغزوا أذهان المسلمين! كما أحدثوا الليبرالية والشيوعية والإلحاد والمذهب الإنساني والعقد الاجتماعي ونظرية التطور والعلمانية التي توحدت بجهودها كل الأديان في دين عالمي واحد، وصاغوا فرقاً وأحزاباً إسلامية تجتمع وتفترق على وفق أهوائهم ومصالحهم لزرع القلق في الواقع المتناقض وزيادة التحريش والإثارة في المجتمع المتباغض... وقد أنبأ ﷺ بأن أمته ستتبع اليهود والنصارى وأنها ستفترق على اثنتين أو ثلاث وسبعين فرقة وأنذر بحدوث فتنة عظيمة، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق والقيام بالمنهج القويم في دين الله. روى الترمذي في السنن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي

على ثلاث وسبعين فرقة» والمقصود يهود ونصارى بني إسرائيل كما في المعجم الكبير للطبراني: «لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبراً وإن ذراعاً فذراعاً وإن باعاً فباعاً حتى لو دخلوا في جحر ضب دخلتم فيه إلا أن بني إسرائيل افترقت على موسى سبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم ثم إنها افترقت على عيسى ابن مريم على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة الإسلام وجماعتهم ثم إنكم تكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة الإسلام وجماعتهم» وروى ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي: الجماعة» وقد شهدت الأمة الإسلامية في مراحلها المتقلبة نماذج الفرقة والاختلاف والتنازع منذ عهد الملك العضوض حتى عهد الملك الجبري وحشدت كل فرقة ضد الأخرى ولم يسلم من هذه العلل المدمرة إلا الأثبات العدول وقد أشار ﷺ إلى استفحال الداء الناصر في الأمة على قضايا العلم والاعتقاد في الحديث المتفق عليه: «من أشار الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل» وروى ابن عبد البر بإسناده عن أبي أمية الجمحي قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشار الساعة فقال: «إن من أشارها أن يُلمس العلم عند الأصغر» أي أهل البدع الذين يقولون برأيهم! وعن ابن مسعود قال: «لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرههم فإذا أتاهم من أصغرهم هلكوا» وإنما ينقض العلم بمخاصمة ومغالبة العلماء الأثبات العدول وبتشكيك الجهال ضعاف العقول كما جاء في الحديث عند الترمذي: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف

به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» والمرية: الشك على حد قوله تعالى "فلا تك في مرية منه" كما أشار ﷺ إلى استفحال الداء الناصر في الأمة على قضايا الحكم والاقتصاد في الحديث عند أحمد وابن ماجه والترمذي «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتحتلدوا بأسيا فكم ويرث دنياكم شراركم» وهذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ حيث قتلوا عثمان رضي الله عنه ثم سلط الله بني أمية على بني هاشم وهكذا توارثت الأمة الصراع جيلاً بعد جيل حتى سقطت القرار العالمي العلن بسقوط الخليفة العثماني وفق المخرج الشيطاني النجدي المبرمج الذي تناول في البناء والحضارة والسيطرة وعلا في الأرض علواً كبيراً. وفي الحديث عند الآجري: «وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها على الضلالة إلا السواد الأعظم من كان على ما أنا عليه وأصحابي، من لم يمار في الدين دين الله ولم يكفر أحداً من أهل التوحيد بذنب» وفي ذلك دلالة على أن تلك الفرق متكررة بكليتها في هذه الأمة بنحو مما وقع في بني إسرائيل وهو مضمون الحديث الجامع: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» والحديث من أعلام النبوة فقد وقع مصداق ما أخبر به ﷺ وذلك أن بني إسرائيل لما تم إجلأؤهم من جزيرة العرب إلى الشام عمدوا إلى العراق مظهرين الإسلام مبطنين الكفر فأنشؤوا الفرق الباطنية وفرّقوا المسلمين إلى فرق شتى ورسخوا في عقولهم العقائد الزائغة ثم عادوا إلى جزيرة العرب أيام الدولة العثمانية وأسسوا عبر ميثاق الدرعية دولتهم الأولى والثانية والثالثة... والحديث ينبئ عن اتباع الأئمة المضلين وقد شاهدناه عياناً، أعاذنا الله من شر المنقلب وختم أعمالنا بالسعادة والنجاة من الفتن. وما أروع هذا التشبيه الذي صدق

معجزة رسول الله ﷺ في تبعية الأمة لبني إسرائيل؟ والضرب معروف في نجد! والتشبيه بحجره لشدة ضيقه وردائه وتنن ريجه وخبثه ونفاقه فيدخل من حجر ظاهر ثم إذا شعر بالخطر خرج من باب آخر تتعذر رؤيته وكذلك يفعل المنافق يدخل في الإسلام من باب ظاهر فينطق الشهادتين ويصلي مع الناس مع أنه يكتُم خلاف الإسلام ويستتر اعتقاده أو عمله ويخفيه ويضمّره ويتربص بالمسلمين الدوائر! وقد عافه النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين أن حفيدة بنت الحارث قدّمت بضبّ من نجد فقُدّمت الضب لرسول الله ﷺ وكان قلما يقدم يده لطعام حتى يُحدّث به ويُسمّى له فأهوى رسول الله ﷺ يده إلى الضب فقالت امرأة من النسوة الحضور: أخبرن رسول الله ﷺ ما قدمتن له، هو الضب يا رسول الله فرفع رسول الله ﷺ يده عن الضب فقال خالد بن الوليد: أحرام الضب يا رسول الله؟ قال: «لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدي أعافه» أي لم يكن بأرض قحمة الحجاز وكذا أنكر ابن عبد البر ومن تبعه أن يكون ببلاد الحجاز شيء من الضباب وإنما حدثت بعد ذلك وروى أبو يعلى والطبراني والهيثمى من حديث ميمونة مرفوعاً: «إنكم أهل نجد تأكلونها وإنا أهل قحمة نعاها» وروى الإمام مسلم في صحيحه أن خالد بن الوليد دخل مع رسول الله ﷺ على ميمونة بنت الحارث وهي خالته فقُدّم إلى رسول الله ﷺ لحم ضبّ جاءت به أم حُفيدة بنتُ الحارث من نجد. وفي رواية له عن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله ﷺ بضبّ فأبى أن يأكل منه وقال: «لا أدري لعله من القرون التي مسخت» وفي رواية له أيضاً عن أبي سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله إنا بأرض مَضَبّة فما تأمرنا؟ أو فما تفتينا؟ قال: «ذكر لي أن أمة من بني إسرائيل مسخت» وفي رواية أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني في

غائط مضبة وإنه عامة طعام أهلي؟ قال: فلم يجبه، فقلنا: عاوده، فعاوده فلم يجبه ثلاثاً ثم ناداه رسول الله ﷺ في الثالثة فقال: «يا أعرابي، إن الله لعن - أو غضب - على سبط من بني إسرائيل فمسحهم دواب يدبون في الأرض فلا أدري لعل هذا منها فلست أكلها ولا أنهى عنها» ويبدو أن ذلك السبط مُسَخَّ إثر دخولهم جزيرة العرب قبل البعثة بنحو ثلاثة قرون! وآل أمرهم إلى قريظة والنضير وقينقاع! ثم استأصل النبي ﷺ بني قريظة وبقي بنو النضير وبنو قينقاع. ويُروى عن أحد الفقهاء أنه قال لرجل كان يأكل الضب: اعلم أنك أكلت شيخاً من مشيخة بني إسرائيل يعني أنه مسخ. وقال أحد بني سليم وقد جاء لزوجته بضب فأبت أن تأكله:

قالت وكنت رجلاً فطيناً ... هذا لعمر الله إسرائينا

والضب يوصف بالخديعة والمكر والنفاق فيدخل من جحر ظاهر ثم إذا شعر بالخطر خرج من باب آخر تتعذر رؤيته...والعرب تذكر الضب في مجاري كلامها من طريق الاستعارة، فيقولون: فلان خبُّ ضبٍّ، فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي يسري ضرره بخدع الضب في جحره، كما قيل في المثل السائر: أخدع من ضب، وخداعه إنما يكون من شدة حذرهِ، وأما صفة خدعه فأن يعتمد بذنبه باب جحره فيجيء المتحرش فإن كان الضب مجرباً أخرج ذنبه إلى نصف الجحر فإن دخل عليه شيء ضربه، قال الشاعر:

وأخدع من ضب إذا جاء حارِشٌ ... أعدَّ له عند الذنابة عقرباً

وذلك أن بين الضب والعقرب ألفة فتأوي إلى جحره فمن مدَّ يده إليه لسعته. وأنشد ابن علقمة:

ترى الشرّ قد أفنى دوائر وجهه ... كضبّ الكدى أفنى برائينه الحفر

وأنشد الفارسي:

ومحتريشٍ ضبّ العداوة منهم ... بحلو الخلا حرش الضباب الخوادم

وحلو الخلا: حلو الكلام وضب خدع أي مراوغ، وقال ابن الأعرابي: يقال أخذع من ضب إذا كان لا يُقدر عليه من "الخدع" قال ومثله:

جَعَلَ الْمَخَادِعَ لِلْخَدَاعِ يُعِدُّهَا ... مِمَّا تُطِيفُ بِبَابِهِ الطَّلَابُ

والعرب تقول: إنه لضبُّ كَلْدَةٌ لا يدرك حفرًا ولا يُؤَخَذُ مذنبًا. يُضْرَبُ للرجل الداهية الذي لا يُدْرِك ما عنده، ومن أمثالهم فيه أيضاً: أعقّ من ضب يريدون الأنثى، وعقوقها أنها تأكل أولادها وذلك أن الضبة إذا باضت حرسَت بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية وغير ذلك فإذا نقت أولادها وخرجت من البيض ظنتها شيئاً يريد بيضها فوثبت عليها تقتلها فلا ينجو منها إلا الشريد! وقالوا: أعقد من ذنب الضب، ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة، والعرب تُشَبِّه كَفَ البخيل إذا قصر عن العطاء بكف الضب، ومنه قول الشاعر:

مَنَاتَيْنُ أَبْرَامَ كَأَن أَكْفَهُم ... أَكْفَ ضِيَابِ أُنْشِقَتْ فِي الْحَبَائِلِ

والضب يُكَنَّى أبا الحِسل، وتقول العرب إنه لقاضي الدواب والطيور، ومما يحقق ذلك قول النعمان بن بشير وهو يخطب على المنبر: يا أيها الناس، إني ما وجدت لي ولكم مثلاً إلا الضبع والثعلب أتيا الضب في جحره فقالا: أبا الحسل قال: أجتتما؟ قالوا: جئناك نحتكم، قال: في بيته يؤتى الحكم. قال ابن العربي في عارضة الأحوذى: تفكرت برهة في وجه ضرب المثل بالضب فعرضت لي في

الخاطر معان أشبهها الآن أن الضب عند العرب يضرب به المثل للحاكم من الإنس والحاكم تأتي إليه الخلق بأجمعهم فيما يعرض من الأمور لهم فلا يتأخر أحد عنه فكان المعنى مصيرهم لذلك. ومن أمثالهم: أجبن من ضب، وأبلد من ضب، وأحيا من ضب أي أطول عمراً، ويقال: إنه يتطوق في كل مئة سنة طوقاً أبيض، قال ابن خالويه: يعيش سبعمائة سنة فصاعداً. وفي طبعه النسيان وعدم الهداية وبه يضرب المثل في الحيرة ولذلك لا يحفر حجره إلا عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه إذا خرج لطلب الطعام، ومن طبعه أنه يرجع في قيئه كالكلب ويأكل رجيعة، وهو طويل الدم بعد الذبح إذ يمكث بعد الذبح ليلة ويلقى في النار فيتحرك.

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) لما نبّه تعالى على إعظام رسوله وجلالة محله عند ربه عز وجل ومزيد اختصاصه به سبحانه إذ قرن اسمه باسمه وذكره بذكره في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أعقب ذلك بالنهي عن رفع الصوت والجهر له بالقول لأن في الجهر عدم تذلل لمن اختاره تعالى لرسالته واصطفاه لخلته وهو الوسيلة الموصلة لعباد الله إلى الله وهو الهادي المرشد لهم إلى طريق التوحيد لذلك أوصى سبحانه بخلص عباده بمحافظة الأدب معه ﷺ، فكان الأول بساطاً للثاني ثم أردفه بما هو ثناء على الذين غضوا أصواتهم دلالة على عظم موقعه عند الله تعالى، وجعل صدر السورة مقدمة على توبيخ الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات وصنيعهم معه من المنكر المتفاحش. ثم أمر تعالى بالتثبت في نقل الخبر ومجانبة أخلاق الفاسقين، وتطرّق إلى ما يحدث من الاقتتال بين المسلمين بسبب الأفكار

الزائغة والوشايات الخاطئة والأنباء الكاذبة التي يشيعها أهل الخدع والنفاق، وأعقب ذلك بالأمر بالإصلاح بين المؤمنين، ثم أمر بجملة من آداب حسن المعاملة بين المسلمين، وتخلص من ذلك إلى بيان حال الأعراب الجفاة الحفاة الذين مردوا على النفاق فكان باطنهم على خلاف ظاهرهم! روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ هذا المنبر فنادى بصوت رفيع وقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثرتهم، فإنه من يطلب عورة المسلم يطلب الله عورته ومن يطلب الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته» وقد اشتملت السورة على جوامع من الحقوق الأدبية وتضمنت تشريفات للرسول الأعظم والنبى الأفخم ﷺ، وبيان ما يتميز به المؤمن عن المنافق... وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به، وفي السورة حجرات جامعة لمجامع الخيرات وتوجيهات وإرشادات للفضائل والكمالات، وتحذير من المفاصد والضلالات وعادات الأعراب الجفاة العراة من الجفاء وعلو الصوت. وقد نهى تعالى المؤمنين أن يقدموا أو يتقدموا بأمر من الأمور بين يدي الله ورسوله، فلا يجوز اتباع الآراء المخالفة والنظريات المناقضة والأخبار المعارضة لما جاء عن الله ورسوله، وحذر تعالى من الوقوع في ذلك فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا الأمر يشمل تقوى القلوب وتقوى الجوارح والمدارك عامة أي توقوا غضبه سبحانه وعقابه بالانتهاء عما نهاكم عنه فالله سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم، وقد فسر الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه التقوى بأنها: ترك الإصرار على المعصية وترك

الاغترار بالطاعة. وقال الحسن عليه السلام: أن لا تختار على الله سوى الله وتعلم أن الأمور كلها بيد الله. وقال إبراهيم بن أدهم قدس سره: التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً ولا الملائكة في أفعالك عيباً ولا ملك العرش في شرك عيباً. وقال الواقدي: التقوى أن تزين شرك للحق كما زينت ظاهره للخلق. وقال الحسن البصري: المتقي هو الذي يقول لكل من رآه هذا خير مني. وقال بعضهم: التقوى أن لا يراك مولاك حيث هناك ولا يفقدك حيث أمرك. ويقال: التقي من سلك سبيل المصطفى ونبت الدنيا وراء القفا وكلف نفسه الإخلاص والوفا. روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى **(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)** قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. والآية عامة لأن خصوص سبب النزول لا يمنع عموم الكلام، وفي النظم الكريم بيان لوجوب الأدب مع النبي الأعظم إذ أن الله رفع ذكره وعظم شأنه وأكرم مقامه وشرف منزلته، فلا يسع العاقل إلا اتباعه والتسليم له من غير اعتراض ولا انتقاد ولا توقف، ولا يُحكّم المؤمن عقله ولا رأيه ولا يقول عن الحفاة العراة خلاف ما قاله عليه السلام بعد أن آمن أنه جاء بالحكمة من عند الله تعالى فهو مجمعها ومنبعها، فالمؤمن يُسلم التسليم المطلق للرسول الكريم السيد العظيم، وقد عصمه الله عن الخطأ فما ينطق عن الهوى، آتاه الله الحكمة فأقواله وأفعاله كلها حكمة، وذلك ثابت بالأدلة القطعية والإخبارات الغيبية، وهو تمهيد لقوله **(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)** لأن من خصه الله بهذه الخطوة، تحقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه، وفي الآية نهي وتحذير شديد ووعيد وتهديد للمسيء الأدب بحبوط عمله مهما عظم وكثر.

فعظم أيها الوارث شأن نبيك واستغرق كلك بمحبته، وأشغل لسانك بعد ذكر الله تعالى بذكره، وبالصلاة والسلام عليه، فهو روح الصديقين، ونبراس قلوب العارفين، وحياة المهيمين، ونور الواصلين، ومطاف قلوب الموفقين، ومحبوب المقبولين، ونجاة المحبين كما روى أبو نعيم في الحلية والسيوطي في الجامع الصغير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما اختلط حي بقلب عبد فأحبني إلا حرم الله جسده على النار» وقد نادى سبحانه جميع الأنبياء بأسمائهم ونادى حبيبه الأعظم بألقاب التكريم بالنبوة والرسالة ونحوهما، كرامة له وتشريفاً وربثاً بمحله وتنوياً بفضلله، والله در القائل:

ودعا جميع الرسل كلاً باسمه ... ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي

وإن الالتزام بكمال الأدب معه ﷺ من أهم الواجبات الإيمانية فهو ليس كغيره في علو المنزلة ورفعة الدرجة. قال الإمام القسطلاني قدس سره النوراني: إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته ﷺ وعلى ما جاء به. وبعد ما تقدم من التهيب يجيء الترغيب بغض الأصوات عنده ﷺ (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) وفي الآية دليل ساطع وبرهان قاطع على عظيم رتبته ﷺ وكرامة منزلته عند الله تعالى ومن ثم كان غض الصوت عنده ﷺ والتمزام الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها ومراقبة إلى العلم والفهم، فعندية الرسول الأفخم لها شرفها الأعلى ومجدها الأرفع كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على

فرشكم وفي طرقكم» وما ذاك إلا لقوة أنواره الساطعة وبوارقه اللامعة وإفاضاته بالمعارف الهامعة والعلوم النافعة، وفي الآية تنبيه إلى أن المؤمن مهما بلغ من أعلى درجات العمل لا يتحقق بالتقوى والعلم إلا أن يتحقق بالأدب مع سيد الأكوان عليه صلوات الرحمن فإذا تحقق له ذلك عَظُم فهمه وعلت درجته كما نصَّ عليه التنزيل العزيز **(أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)** فهؤلاء استخلص الله قلوبهم من الكدورات والشوائب وصفها حتى خلصت لتقواه تعالى كما خلص إبريز الذهب بعد دخول النار في البودقة فخرج خالصاً من الخبث، وتحققوا بمقام التوقير كما جاء في الآية **(لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً)** وقرئ بياء الغيبة في الأفعال الأربعة، روى الإمام الطبري عن الضحاك قال: كل هذا تعظيم وإجلال. وعن قتادة قال: أمر الله بتسويده وتفخيمه. وعن عكرمة في قوله "وتعزروه" قال: يقاتلون معه بالسيف. اهـ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما "وتعزروه" قال: تعظموه. وقوله "وتسبحوه" أي تنزهوه عن النقائص في الخلق والخلق جملة في كل وقت وكل حال فإنه ليس من وقت ولا من حال إلا وله على أمته فضل ومنة... وإنما خص البكرة والأصيل لما فيهما من تشويهاات العيب والنقص وقد صح عن أبي بن كعب أنه قال للحبيب الأعظم ﷺ: أجعل لك صلاتي كلها؟ أي: أجعل مجالسي كلها ودعائي كله صلاة عليك؟ فإن مجالس الصلاة عليه وتعظيمه وتوقيره ومدحه وذكره بالأوصاف الجميلة من أحسن ما تنهض إليه عقول العارفين وأفهام الصديقين. قال الإمام الماتريدي: والتسبيح هو التنزيه في الأفعال والأقوال فجائز نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ لأنه كان بريئاً من العيوب في أفعاله وأقواله لا يدخل في أفعاله وأقواله عيب. وقال صاحب بحر العلوم: وتعزروه يعني لكي

تعينوه وتنصروه على عدوه بالسيف، وتوقروه أي تعظموا النبي ﷺ وتسبحوه يعني تصلوا لله تبارك وتعالى بكرة وأصيلاً يعني غدوة وعشيّاً فكأنه قال: لتؤمنوا بالله وتسبحوه وتؤمنوا برسوله وتعزروه وتوقروه. اهـ. قلت: وإنما قدّم تعظيم الرسول على تنزيه الجناح الأقدس لبيان فضل رسول الله ﷺ وعُلوّ مقامه وعظمة كرامته على الله تعالى، ومن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر، وأما من بالغ في تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل فقد أصاب الحق، ولا شك أنه ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين وأولهم في الخلق وأعظمهم وأشرفهم وسيدهم وأكملهم في التربية والإرشاد وله السلطنة والغلبة عليهم وقد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره تقصر العقول عن إدراك أدنى شيء مما أوتيته من المعارف والأنوار والقرب من الله تعالى والآيات العظيمة الظاهرة ولهذا لما شم الأولياء من هذه الرائحة طرفاً حصل لهم من العرفان بقدر ما شم كل طالب منهم وظهرت لهم كرامات من ذلك القدر الذي حصل بخلوص الاتباع. قال صاحب تفسير روح البيان: فمعنى تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره حقيقة اتباع سنته في الظاهر والباطن والعلم بأنه زبدة الموجودات وخلاصتها وهو المحبوب الأزلي وما سواه تبع له ولذا أرسله تعالى شاهداً فإنه لما كان أول مخلوق خلقه الله كان شاهداً بوحدانية الحق وربوبيته وشاهداً بما أخرج من العدم إلى الوجود من الأرواح والنفوس والأجرام والأركان والأجسام والأجساد والمعادن والنبات والحيوان والملك والجن والشيطان والإنسان وغير ذلك لئلا يشذ عنه ما يمكن للمخلوق دركه من أسرار أفعاله وعجائب صنعه وغرائب قدرته بحيث لا يشاركه فيه غيره ولهذا قال العليّ عليه السلام: «علمت ما كان وما سيكون» لأنه شاهد الكل وما غاب لحظة

وشاهد خلق آدم ﷺ ولأجله قال: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» أي كنت مخلوقاً وعالمًا بأني نبي وحكم لي بالنبوة وآدم بين أن يخلق له جسد وروح ولم يخلق بعد واحد منهما فشاهد خلقه وما جرى عليه من الإكرام والإخراج من الجنة بسبب المخالفة وما تاب الله عليه إلى آخر ما جرى عليه وشاهد خلق إبليس وما جرى عليه من امتناع السجود لآدم والطرده واللعن بعد طول عبادته ووفور علمه بمخالفة أمر واحد فحصل له بكل حادث جرى على الأنبياء والرسل والأمم فهومٌ وعلومٌ ثم أنزل روحه في قلبه ليزداد له نور على نور فوجود كل موجود من وجوده وعلوم كل نبي وولي من علومه حتى صحف آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم من أهل الكتب الإلهية. اهـ. والله در القائل:

هو فرد في الملك ذاتاً وشأنًا ... ما لعالي جنبه نظراء

أبرز الله مفرداً نوره الفيض ... والمرسلون طين وماء

هو إخوانه النبيون لكن ... من سناه قبل الكيان استضاءوا

وعليهم له شريف أياد ... ولهم من فيوضه استجداء

أصلهم آدم ولما دعا الله ... تعالى به استجيب الدعاء

وغداً حين يذهل الكل طراً ... ترجيه الشفاعة الشفعاء

وقال بعضهم في قوله **(وتعزروه)** أي تمنعوا أعداءه من التليل منه، ويجوز حمله على معنى الثناء عليه ومدحه، ولا عجب! فهو مورد الأنبياء ومصدر الأولياء وهاطل الفيض الإلهي الذي جل قدر ساكبه عن التناهي وقد اختصه الله بإنزال الكتاب واستخلصه بوجوه الاختصاص والإيجاب، ولم يمنّ عليه بشيء يمثل ما

منّ به على ما خصّه به من العلم فقال ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحد نور إلا مقتبساً من نورك، ومن لم يمش تحت رايتك لا يصل إلى كرامتنا ولا يحظى بقربنا ووصلنا، وأنّ أحداً لا يصل إلى مرضاتنا إلا بمقدار طلبه لمرضاتك، والحكمة هي السنة الظاهرة في أفعاله وأقواله وأحواله وإقراره، وجيء بـ﴿ما﴾ التي هي للعموم والشمول لتعمّ جميع العلوم التي علّمها الله لرسله وأنبيائه ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله سبحانه عليه، فقد روى الحافظ أبو بكر بن عائد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما ولد النبي ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان: «أبشر يا محمد فما بقي لنيّ علم إلا وقد أعطيته فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً» وروى الإمام مسلم عن عمرو بن أخطب قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا» وفي الصحيحين: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم» فوضح من هذا الخبر وغيره من الأخبار، وسنح من خواطر الأبرار الأخيار، أنه عليه الصلاة والسلام عرفهم بما يقع في حياته وبعد موته، وما قد انحتم وقوعه فلا سبيل إلى فوته. قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً. ولا شك أن الله تعالى قد أطلعه على أزيد من ذلك، وألقى عليه علم الأولين والآخرين، وأما علم عوارف المعارف الإلهية فتلك لا يتناهى عددها، وإليه عليه الصلاة والسلام ينتهي مددها، وإن أحداً من الخلق لا يستطيع أن يحيط بأبواب علوم رسول الله ﷺ ﴿وَكَانَ

فضل الله عليك عظيمًا) ولا يزال يرقيه الله تعالى في مراقبي العلوم والمعارف الغلمية التي لا يتحملها غيره ويزيده علوماً إلى ما لا يتناهى كما قال سبحانه (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فهو ﷻ لا يزال يترقى في علوم لا إله إلا الله فإن العلم بلا إله إلا الله وما تضمنته وما دلت عليه من كمالات الله تعالى وأسمائه الحسنی وصفاته العليا ذلك علم لا نهاية له... قال مولاي وسيدي وقره عيني الإمام النحرير السيد الرواس قدس سره الأطهر: نقطة النبوة بحر، وذرتها برّ. وما أحسن قول صاحب البردة:

فإنّ من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

واعلم أنه لا سبيل لأحد إلى الإحاطة بنقطة من بحار معارفه، أو قطرة مما أفاضه الله عليه من سحاب عوارفه، وإذا تأملت ما منحه الله تعالى به من جوامع الكلم، وخصه به من بدائع الحكم وحسن سيره، وحكم حديثه، وإنبائه بأنباء القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى مع الخضر وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وبدء الخلق وأخبار الدار الآخرة، وإظهار أحوال بني إسرائيل وأخبارهم، وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم، وإعلامه بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم وغير ذلك مما صدقه فيه علماؤهم بها، ولم يقدرُوا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك فضلاً عما أضافه من العلم ومحاسن الآداب والشيم، والمواعظ والحكم، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والرد على فرق الأمم ببراهين الأدلة الواضحات، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشاراته حجة كاللغة والمعاني والبيان والعربية، وقوانين الأحكام الشرعية،

والسياسات العقلية، ومعارف عوارف الحقائق القلبية، وضروب العلوم وفنون المعارف كالطب والعبارة والحساب وغير ذلك مما لا يعد ولا يحد، قضيت بأن مجال هذا الباب في حقه عليه الصلاة والسلام ممتد، تنقطع دون نفاذه الأدلاء، وأن بحر علمه ومعارفه زاخر لا تكدره الدلاء، وأن جميع ما عرفه العارفون وتكلم به الوارثون المحمديون إنما هو رشاشات من بحره وقبسات من أنواره وإشراقات من أسرارهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ رسائله ﷺ وكتبه التي أرسلها إلى همدان وغيرها علم حقاً أنه أحاط باللغات العربية خيراً وقد كان يخاطب قوماً من العرب وآخرون من قبيلة أخرى يسمعون كلامه ولا يفهمون مرامه حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ونظامه، ولا عجب فقد تجلّى الله تعالى عليه بالعلم والمعرفة والكشف كما روى الإمام الدارمي عن عبد الرحمن بن عائش قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَن صُورَةٍ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ، قَالَ: فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتَ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وتلا ﴿وَكَذَلِكَ نَرِي إِبْرَاهِيمَ مُلْكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. وقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته وتعظيم قدره وعلو منصبه ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم في قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾ قال الإمام الزرقاني قدس سره النوراني: فقدم ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ دعامة تقصد بها الملاطفة إذ هو خير معناه: لا عُهْدَةٌ عليك، وليس المعنى أن الإذن ذنب يتعلق به العقوبة لأن مسامحته لهم مع أذاهم إسقاط للحظوظ فهو عَتَبٌ بلطف لا ملامة فيه أي: قد بلغت في الامتثال والاحتمال الغاية وزدت في طاعة الله ومحبته والرفق بالبر والفاجر ما أححف

بك، فهو من عتب الحبيب في حيفه على نفسه - أي فهذا من أجل ما يكون من إعظام الحبيب لحبيبه - وتخفيف لا تعنيف، ومدح لا قدح، ويأتي بسط هذا إن شاء الله. اهـ. ويكفي تقديم ذكره على الأنبياء تعظيماً له مع تأخره عنهم في الزمان وتنبههاً على أنه الأب الأكبر لجميع الموجودات من حيث أن الجميع خلقوا من نوره **(ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)** والمتقرر في الكتاب العزيز أنه إذا ورد اسم نبينا ﷺ مع غيره من الرسل عليهم السلام مفصلاً بأسمائهم في آية واحدة فإنه يتقدم اسمه ظاهراً كان أو مضمراً ثم يذكر بعده من تضمنته الآية منهم كقوله سبحانه **(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)** وهذا بحر لا ينفد وقطر لا يُعد. وكان ﷺ حسن العشرة كثير الأدب، قال جابر رضي الله عنه: ما رأيت رسول الله ماداً رجله بين أصحابه. وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يهابون إطالة النظر إليه حتى قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملاً عيني منه، وقال شهيد الحياء والأدب بشر بن البراء رضي الله عنه لما ازدرد ﷺ أكلته يوم خير: قد والله يا رسول الله وجدت ذلك من أكلتي التي أكلتها فما منعتني أن ألفظها إلا كراهية أنغص إليك طعامك فلما تسوغت ما في يدك لم أرغب بنفسني عن نفسك ورجوت ألا تكون ازدردتاً وفيها نعي، فلم يرم من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان وماطله وجعه سنة لا يتحول إلا ما حوّل ثم مات منه. وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلّكوا بها وجوههم وأجسادهم ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا

أمرهم بأمر ابتدروا أمره وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له فلما رجع إلى قریش قال: يا معشر قریش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه. وفي رواية: إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمداً أصحابه وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً. وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله صلی الله علیه وآله عن الأمر فأؤخر سنين من هيئته. ومعلوم أن حرمة بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته وذلك عند ذكره صلی الله علیه وآله وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملته آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته، وينبغي على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به، وكان الإمام مالك إذا ذكر النبي صلی الله علیه وآله يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقل له يوماً في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم علي ما ترون ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد سألته عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي صلی الله علیه وآله فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله صلی الله علیه وآله. قال الإمام مالك: ولقد كنت أرى السيد جعفر الصادق عليه السلام إذا ذكر عنده النبي صلی الله علیه وآله اصفرَّ لونه وتغير حاله. وسئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكرم الله وجهه: كيف كان حبكم لرسول الله صلی الله علیه وآله؟ قال: «كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ» ويحكى أنه كرم الله وجهه وقف عند قبر رسول الله صلی الله علیه وآله وبكى جهده حتى كادت ترهق نفسه الكريمة وأنشد:

كنت السواد لناظري ... فبكى عليك الناظر

من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

وبكت السيدة فاطمة رضي الله عنها عند قبر أبيها صلوات الله وسلامه عليه
وعليها بكاء شديداً وأنشدت:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت عليّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حباً
ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله» اللهم حققنا بذلك الحب
العظيم للنبي الكريم والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم المانح لنا
جوامع المكارم والفضل العميم واخلع علينا خلع القرب والفضل الجسيم واجمع
بيننا وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً يقظة ومناماً واجعله
روحاً لذواتنا في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم واجعلنا سامعين مطيعين وأولياء
مخلصين ورفقاء مصاحبين بجاهه الشريف وقدره المنيف آمين آمين آمين.

(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

استئناف للتصريح بإبطال ما يلقيه المنافقون والذين في قلوبهم مرض في صدور
الناس والغرض من هذا العموم نفي أن يكون ﷺ أباً أحدكم في حرمة حلائل
الأبناء عليه بالتبني وإن كان بينكم وبينه من جهة مطلق الرسالة أبوة وبنوة
مجازية أما من جهته فبالرأفة والرحمة والتربية والنصيحة وأما من جهتهم
فبوجوب التعظيم والتوفير والطاعة وحرمة أزواجه "ولكن رسول الله" فعاملوه

معاملة الرسل في التعظيم له والتبجيل والإكرام ولا تعاملوه معاملته آبائكم ولا تصاحبوه صحبة غيره، وإن شئت قلت: لم يكن زيد ابن محمد ﷺ هذا مقصود هذه الجملة وليس المقصود أنه لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنيه وقد جاء في الحديث عند أحمد في الفضائل: «كل ولد أب فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإنني أنا أبوهم وعصبتهم» وإضافة رجالكم إلى ضمير المخاطبين يخرج من كان من بنيه، والنبي ﷺ أبو المؤمنين في التبجيل والتعظيم، ولما لم يكن مطلق النبوة ولا مطلق الرسالة منافياً لأبوة الرجال قال ﴿وَحَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ وقرئ بكسر التاء ومعناه ختم النبيين، ومن قرأ بفتح التاء فمعناه آخر النبيين لا نبي بعده ﷺ، وقد سدَّ الله باب الرسالة والنبوة عن كل مخلوق بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة ولو قضى أن يكون بعده ﷺ نبي لما كان إلا من نسله إكراماً له لأنه أعلى النبيين رتبة وأعظم شرفاً وليس لأحد من الأنبياء كرامة إلا وله مثلها أو أعظم منها وقد قضى الله ألا يكون بعده نبي إكراماً له، وأما تبليغ ما خفي وتحديد ما اندرس بما أحدثه المبطلون فعلماء أمته وعترته ونواب ملته كافون فيه لوقوع التحقق والقطع بأن هذا القرآن المعجز محفوظ فيعود الاستبصار كما روي في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ولما كان سبحانه يعلم من يليق بالختم ومن يليق بالبدء ختم الآية بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ واختصاصه ﷺ بالأحمدية والحمدية علماً وصفة برهان جلي على ختمه إذ الحمد مقرون بانقضاء الأمور مشروع عنده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي جميع أهل السماوات وأهل الأرض يسألون الله تعالى بحقائقهم الذاتية وذراتهم الوجودية أن

يمدّهم بجميع ما يحتاجون إليه في ذاتهم وذراتهم وغذائهم وقواتهم وأسماعهم وأبصارهم حتى الجمادات والنباتات تسأله الإمداد بالوجود في كل يوم شأنه واليوم الشّاني عند العارفين أقل من لمح البصر كما قال جل وعلا ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ أي أسرع من لمح البصر ولا يمكن الوقوف على تحديده وهذا سؤال الحقيقة الذاتية فوق السؤال الحالي والقالي والله سبحانه كل يوم هو في شأن يحدث في خلقه ما يشاء مما لا يعلمه إلا هو فيوجد ويعدم ويحيي ويميت ويعز ويذل ويرفع ويخفض وييسط ويقبض ويمد الأرواح والأشباح والمدارك والأسماع والأبصار ويمد جميع ذرات العالم بما هي محتاجة إليه، روى ابن ماجه بإسناده عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله تعالى "كل يوم هو في شأن" قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويخفض آخرين» والمعنى أن هذا كله من شأنه وليس جميع شأنه فالشؤون الإلهية لا تُعد ولا تُحد ولا يحيط بعلمها إلا الله تعالى فجميع العوالم تسأله تعالى حاجاتها على الدوام، قال العلامة الباجوري في حاشيته على الجوهرة: حُكي أن ابن الشجري كان في مجلس وعظه وإرشاده يقرر قول الله تعالى "كل يوم هو في شأن" فسأله سائل وقال له: ما شأن ربك؟ فأطرق رأسه وقام متحيراً فنام فرأى النبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال ﷺ: «السائل لك هو الخضر فإذا أتاك وسألك فقل له: شؤون يديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين» فلما أصبح أتاه وسأله فأجابه بما ذكر، فقال الخضر عليه السلام: صل على من علّمك ومشى مسرعاً. فهي شؤون يديها ولا يبتديها أي يُظهرها في العوالم على امتدادها وتعاقبها وتنوعها وهي معلومة عنده تعالى بالعلم القديم الذي لا أول له ولا نهاية له كما قال سبحانه ﴿وكان الله بكل شيء عليم﴾ أي كان في القدم الذي لا أول له ولا

يزال كان بكل شيء عليمًا فعلمه سبحانه محيط بكل شيء على وجه لا بداية له ولا انتهاء.

(قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)

سورة الإخلاص متصلة بسورة الكافرون في المعنى فهما بمنزلة كلمة التوحيد في النفي والإثبات ولذا يسميان المقشقتين فسورة الإخلاص إثبات وتقرير للتوحيد المطلق كما أن سورة الكافرون نفي لأي تشابه أو التقاء بين التوحيد والشرك، وسُنَّ للمسلم قراءتهما في ركعتي الفجر ليظفر بمعرفة ربه ومن عرف ربه كان جديرًا بأن ينال ما أشارت إليه السورتان اللتان بين الكافرون والإخلاص من الفتح والنصر له، والخيبة والحسرة لعدوه. روى ابن حبان في صحيحه عن يحيى بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت طلحة بن خراش يحدث عن جابر بن عبد الله أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر فقرأ في الركعة الأولى "قل يا أيها الكافرون" حتى انقضت السورة فقال النبي ﷺ: «هذا عبد عرف ربه» وقرأ في الآخرة "قل هو الله أحد" حتى انقضت السورة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عبد آمن بربه» وقد نزلت سورة الإخلاص مرتين: مرة في مكة ومرة في المدينة فقد روى البيهقي عن ابن عباس أن اليهود جاءت النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا: "يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك" فأنزل الله هذه السورة "الإخلاص" ومقصودها بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالاتصاف بأقصى الكمال للدلالة على صحيح الاعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال ونفي شوائب النقص والاختلال المثمر لحسن الأقوال والأفعال وثبات اللجوء والاعتماد في جميع الأحوال وعلى ذلك

دل اسمها الإخلاص لما فيها من التوحيد وسميت أيضاً بالأساس لأن التوحيد أصل لسائر أصول الدين وتسمى أيضاً سورة قل هو الله كما هو مشهور وسورة التوحيد وسورة التفريد وسورة التجريد وسورة النجاة وسورة الجمال وسورة النور وسورة الإيمان وسورة المذكرة وسورة الولاية وسورة المعرفة وسورة النسبة وسورة المنفرة - لأن الشيطان ينفر عند قراءتها - وسورة البراءة وسورة المعوذة وسورة المانعة... وفيها نفي المشابهة بينه تعالى وبين جميع الخلق لأن الخلق لا يخلو إما أن يكون مولوداً من آخر أو يولد آخر منه وإما أن يكون له شريك فيما يملكه أو يكون هو شريك غيره فيكون البعض شبيهاً ببعض فمن أثبت لله شريكاً وولداً فقد جعله شبيهاً بالخلق ولهذا تبرأ الله تعالى من الولد والشريك تبرؤاً واحداً بقوله تعالى ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ فنفى الأولاد والأنداد عن نفسه نفياً واحداً وبراءة واحدة. روى الهيثمي في مجمع الزوائد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ في ليلة: قل هو الله أحد فإنها تعدل القرآن كله» وقوله ﴿قل هو الله أحد﴾ أي هو سبحانه كما هو لا يعلم حقيقة ذاته إلا هو ولا يحيط علماً بذاته إلا هو وروى عن الصديق الأنور عليه رضوان الله الأكبر أنه قال:

العجز عن درك الإدراك إدراك ... والبحث عن سرّ ذات الرب إشراك

واسم الجلال "الله" أجمع الأسماء الإلهية الدال على ذات الخالق المتصف بجميع صفات الكمالات العليا اللاتقة به التي ما لها نهاية وهذا الاسم تعلقت به جميع العوالم بذاتها وذراتها وأنواعها والله سبحانه هو الأحد الذي لا أحد قبله بل هو قبل كل شيء وهو الأول الذي لا مبدءاً لأوليته والباقي الذي لا آخر له والأحد

القديم الذي لا أول له فليس قبل الأحد أحد واعلم أن الموحّد للإله والمعدّد
 متفقون على وجود الإله الواحد بيد أن الموحّد ينزه الله تعالى عن التركيب
 والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمماثلة في الذات والصفات.
 وقوله **(الله الصمد)** أي السيد المقصود في جميع الحاجات والمهمات على نحو ما
 ورد في الحديث عند الإمام أحمد: **«السيد الله»** أي الحَكَم الذي تحق له السيادة
 المطلقة أي سيادة الربوبية والألوهية على جميع الخلائق فحقيقة السؤدد ليست
 إلا له إذ الخلق كلهم عبيده فقراء إليه في كل شيء يسألونه في كل يوم شأني أن
 يمدّهم بجميع ما يحتاجون إليه فهو سبحانه يجود عليهم بالعطاء الجزيل كما جاء
 في الصحيحين: **«يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما
 أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما في يده وكان عرشه على
 الماء ويده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»** ولما ذكر الحق تعالى إفراده في الحكم
 أعقب بذكر إفراد بالعبادة فقال **(لم يلد ولم يولد)** إذ الولادة والمولودية من
 صفات الحوادث والله منزّه عن ذلك كما جاء عن صاحب البيان النبوي في
 الحديث عند البخاري: **«قال الله: كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم
 يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدّاني، وليس أول الخلق
 بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد
 الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفأ أحد»** وقوله **(ولم يكن له كفوا أحد)**
 أي لا شيء يماثله ولا ضد يكافئه إذ تنزه عن الحد والجهة والأشكال وتعالى عن
 الأنداد والأشباه والأمثال فلم يشابهه أحد ولم يشاكلة أحد إذ كل ما سواه تعالى
 مخلوق له سبحانه فكيف يُتصور أن يكون له شبهة أو نظير وهو سبحانه القائل
(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) والكاف هنا تقوية لنفي المشابهة له

سبحانه. ولما سئل الإمام الجنيد عن التوحيد قال: التوحيد تمييز القديم عن الحادث. فهو سبحانه لا يشبه الحوادث بل هو منزّه عن الشبه بالحوادث. وسورة الإخلاص سورة التوحيد والتفريد والتجريد مَنْ تَعَلَّمَهَا وقال بها فقد أخلص التوحيد لله عز وجل، لأنّ منتهى التقديس أن لا يكون معه تعالى شريك في الحكم كما دل عليه قوله **(الله الصمد)** وأن لا يكون معه سبحانه شريك في العبادة كما دل عليه قوله **(لم يلد ولم يولد)** وأن لا يكون له كُفء كما دل عليه قوله **(ولم يكن له كفوا أحد)** ويجمع جميع ذلك قوله **(قل هو الله أحد)** وجملته تفصيل قول **(لا إله إلا الله)** فانطبق آخرها على أولها، والتحم أيّ التحام مفصلها بموصلها. ووصفه تعالى بالأحادية والصمدية والتنزيه عن الولد وال ضد والصاحبة والند هو مقام الإسلام، وإقامة البرهان هو مقام الإيمان، وشهود العيان هو مقام الإحسان.

(قل أتجادوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) بعد أن بين تعالى حقيقة أهل الكتاب ذيل بهذا التذييل الجامع لمعان سامية طيّاً لبساط المجادلة معهم إذ لا مجال للجدل في توحيد الله عز وجل ومحاجتهم هي ما يلبسوه به على الناس بسبب الشبهات التي يوردونها لإدخال الشك عليهم في الوحدانية! ثم استفهمهم على جهة التوبيخ والتفريع عن مقالاتهم في إبراهيم ومن ذكر معه من أنهم كانوا هوداً أو نصارى، وذكر أن دأبهم المجادلة بغير حق فتارة في الله وتارة في أنبياء الله، ويبيّن أنهم لا علم عندهم وأن مقالاتهم لم تكن عن دليل ولا شبهة بل مجرد عناد وأنهم كاتمون للحق دافعون له وأنه لا أحد أظلم من كاتم شهادة استودعه الله إياها **(أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل عأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من**

الله وما الله بغافل عما تعملون) وفي الآية تهديد وتخويف لأن القادر إذا لم يكن غافلاً لم يكن له مانع من العمل بمقتضى علمه، وقد استفيد من التقرير في قوله (قل ءأنتم أعلم أم الله) أنه أعلمهم بأمر جهلته عامتهم وكتمته خاصتهم ولذلك قال (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) وهذا الاستفهام التقريري يشير إلى خاصة كهنتهم الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته وظنت جهالتها علماً فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون... وقد أمرنا المولى أن نواجههم بكلمة واحدة نرجع فيها جميعاً إلى أبينا وأبيهم إبراهيم الذي وفى، فجعله الله إماماً للناس وقد شهد الله له في تسعة مواضع من كتابه أنه مسلم قانت حنيف وما كان من المشركين، والحنيف مشتق من الحنف وهو الميل في الرجل، والمراد الميل في المذهب أن الذي به حنف يميل في مشيه عن الطريق المعتاد والله أعلم وأحكم، وإنما كان هذا مدحاً للملة لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء فجاء دين إبراهيم مائلاً عنهم فلعب بالحنيف ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة، والحنيفية تتلخص في قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) ودين الإسلام يتجلى في توحيد العبادة والحكم ويظهر باتباع الرسول المعظم ﷺ. روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للإسلام ضوءاً ومناراً كمنار الطريق» وهو من جهة القلب أن يسلم العبد لربه مقاليد أمره في ظاهره وباطنه وجماع ذلك وأصله الذل والانكسار والبراءة من الترفع والفخر على سائر الخلق والتحقق بالضعة دونهم وبذلك ينتهي حسن التخلق مع الخلق وصدق التعبد للحق، وأما من جهة العمل فتصرف الجوارح

وإسلامها لله قولاً وفعلاً وبذلاً، ومسألة الخلق لساناً ويداً وهو تمام الإسلام وثبته. والآية اشتملت على معالم الدين وهي أربعة: إسلام وإيمان وإحسان وإدراك لفتن الزمان كما ورد في حديث سيدنا جبريل عليه السلام فقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أسئلة ثم قال صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» فديننا أربعة مقامات إذا تحقق بها المسلم كمل دينه، والإنسان مكون من جسد ونفس وروح، وقد تعبد الله الجسد بالإسلام وهو الشريعة، وتعبد النفس التي محلها القلب بالإيمان، وتعبد الروح التي هي سر التشريف الأعظم بالإحسان، وتعبد الكل بإدراك فتنة الحفاة العراة حتى لا يتأثر الإنسان بها...

وعبادة الأصنام التي دعا إبراهيم ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي يصورها الحفاة العراة! إن الصنم لم يكن ينطق بشيء، إنما كان الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائه يُتمتم بالرقى والتعاويذ ثم ينطق باسمه لتعبيد الناس، ولكل صنم شيطان يعبر عنه فيغتر به الناس، فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من العقائد والمواثيق والشرائع واللوائح... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها، ودون ذلك نفي الرقاد وخرط القتاد.

قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون

لما أخبر تعالى عن سفه بني إسرائيل ونفاقهم وبيّن دعوتهم إلى ما هم عليه ووعدوا بالهداية الصائرة إليه وهو قولهم لإثبات التبعية لهم "كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا" أمرهم سبحانه أن يكونوا تبعاً لسيد البرية وأمه المرضية فقال جل شأنه وعز سلطانه ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ ولما كان ذلك عين الهدى سبّب عنه قوله مشيراً إلى نفاقهم إذ يقولون آمنا بالله وليسوا بمؤمنين في الحقيقة لأن قولهم "آمنا" مخادعة لم يصدر عن صميم قلب ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم﴾ أي فإن اقتفوا أثركم وكانوا تبعاً لكم فقد اهتدوا فالمراد بالمثلية هنا مطلق الاتباع فهي مجاز في لازم المعنى وقد أخبر سبحانه على شدة حرصهم على مخادعة المؤمنين ليتبعوهم على ما وصف قبل في الآية المتقدمة ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ وهو معنى قوله في سورة العنكبوت ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ والعطف هنا على جملة ﴿وليعلمن المنافقين﴾ عطف بيان لكشف حالهم ففي حكاية وصفهم بالكفر تورّك عليهم - والله تعالى أعلم - فقولهم "كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا" مستعمل في مطلق الاتباع ومن ذلك تلقينهم الناس الكتاب والسنة وكلمة التوحيد وفي ذلك التلقين تلبيسات لا

تتناهى يُضلون بها أصناف الخلق ويأتون بشيخهم إبليس الذي تمثل لعيسى عليه السلام فقال: قل: لا إله إلا الله، فقال: كلمة حق أقولها لا لقولك. وذلك أن حال الملقن يسري في الملقن فإن من أخذ بعقائد العدو النجدي انقلب على أصحاب المنهج الحمدي وهذا مشاهد معلوم لكل أحد لا ينكره عاقل ولا جاهل ولا مقصر ولا كامل، وقد حذر ﷺ من قراءة كتبهم وسماع أحاديثهم وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أتاه وقال: إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟» وحرص ﷺ على تلقين أصحابه كما جاء في الحديث عند أحمد والنسائي والطبراني والبخاري والبيهقي عن علي بن شداد قال: حدثني أبي شداد وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «هل فيكم غريب؟» يعني: أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله فأمر بغلاق الباب وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع ﷺ يده ثم قال: «الحمد لله اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم» وفي هذا إرشاد إلى أن هذا أمر خاص لا يشرع فيه بحضور كتابي منكر بل يسان عمن هو غريب عن هذا الأمر، أولاً بطلب خلو المجلس عنه، وأخراً بغلاق الباب المانع لحضوره وذلك أن الإلقاء الإلهي المنزل على القلب يترتب عليه تنور القلب القابل باستعداده المشتمل على المناسبة التي هي الحبل الإلهي الحاصل في القلب المنتزل عليه الإلقاء، والتلقين من صور الإلقاء في مراتب التنزلات فإذا كان ثمة يهودي يماكر ونصراني يُعَكِّرُ حدثاً بسبب انحراف قصده اختلاف في القلب وتشتت في النيات وطُبِعَتْ في الروح الأغلاط وأفاضت إلى العقل الأوهام

واختلف على العقل الرأي وضاع الحزم واختلف الفهم وحصل التشويش فتضعف المناسبة المهيئة لقبول أنوار التوحيد على الكمال، فتخلى المجلس من الغريب الكتابي سعي في تقوية المناسبة القلبية لقبول أنوار التوحيد وفي الحديث عند البزار والنسائي عن عبد الله بن أنيس الأسلمي أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال له: «قل» فلم أدر ما أقول، ثم قال له: «قل: قل هو الله أحد» ثم قال لي: «قل قل أعوذ برب الفلق» حتى فرغت منها ثم قال لي: «قل: قل أعوذ برب الناس» حتى فرغت منها فقال لي رسول الله ﷺ: «هكذا فتعوذ فما تعوذ المتعوذون بمثلهن» وقد كان رسول الله ﷺ يبالي في مفارقة ومزايلة أهل الكتاب ويأمر بها... ولما كان اللازم لمشاقتهم على هذا الحال المكيدة والمماكرة وكان ذلك على وجه العناد لم يكل سبحانه كفاية أوليائه إلى غيره فسبب ذلك قوله ﴿فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾ والكفاية إغناء المقاوم عن مقاومة عدوه بما لا يحوجه إلى دفع له كإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم أو جعل حجاب مستور بحيث لا يرونه حسبما يفيد قوله تعالى ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾ واعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن أفراد الضمير في الآيتين؛ السابقة ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفا﴾ واللاحقة ﴿قل أتحتاجوننا في الله﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام فيهما مزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم، وجمع الضمير ﴿قولوا آمنا بالله﴾ إعلام بشمول الأمة المسلمة مع نبيها وتنويه بشأنها إذ أنها مكلفة بالقيام بدعوته ﷺ، فبعد أن أفرد الضمير في ﴿قل﴾ جمع الضمائر في ﴿أتحتاجوننا في الله﴾ وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ فانظر بدائع

النظم في هاته الآيات ودلائل إعجازها...وقد بين القرآن حقيقتهم بلسان الحال
﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ قالوا ذلك جميعاً لما أرادوا أن يُرغبوا
الناس في ملتهم وينفروا عن ملة الإسلام لأن "قالوا" كلام خبري مشتمل على
الواو العائدة على اليهود والنصارى فذكر الفريقين على الإجمال بالضمير العائد
إليهما ثم فصل ما قاله كل فريق وقد أفادت "أو" التخيير والتفريق والمقصود أن
كل فريق يتظاهر بعداوته للآخر فكلمة "أو" من كلام المحكي كما هو معلوم
من حال الفريقين فإنهم يد واحدة على المسلمين كما أخبر تعالى عنهم في قوله
"بعضهم أولياء بعض" والنظم الجليل يدعوهم إلى الإيمان بهذا الدين الواحد الذي
أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - وهو دين الإسلام
الذي أنزل إلينا وأنزل إليهم - والأنبياء جعلهم الله قدوة سلوكية ونماذج تطبيقية
في الأرض، إذ كانوا أمناء وحيه، وألسنة أمره ونهيه، وسفراءه إلى خلقه، وفي
الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك
نبي خلفه نبي**» والسياسة هي الرياسة والتأديب على الرعية والمعنى أنهم كانوا إذا
ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من
أحكام...وفي تخصيص موسى وعيسى بالذكر ما لا يخفى من الدلالة على
معالجتهم بني إسرائيل أشد المعالجة لتقرير وحدانية الله. وقد وردت الآية ﴿قولوا
آمنوا بالله وما أنزل إلينا﴾ في سياق قصة العهد مع إبراهيم وقصة رفعه لقواعد
البيت الحرام مع إسماعيل ووراثته بني إسماعيل من قريش البيت الحرام، وكشف
النظم ادعاءات أهل الكتاب وأردف معرضاً بهم ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم
إلا من سفه نفسه﴾ وأورد وصية يعقوب لبنيه مشيراً إلى الاستخلاف في البيت
الحرام ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم ذكر

تعالى ما هم عليه من دعوى الباطل والدعاء إليه وزعمهم أن الهداية في اتباعهم كاشفاً حقيقة من خانوا الوصية **(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا)** ولما زعموا أنهم على ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام، أمر تعالى حبيبه ﷺ بأن يجيبهم أنهم حالوا عن بنيات طريق الحنيفية وصاروا إلى العبادة الشركية فقال موجهاً الخطاب إلى أشرف خلقه نبي الأمة الأمية منبهاً على أن اتباعه ﷺ هو عين اتباع الملة الإبراهيمية **(قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)** وبعد هذا الكشف والبيان يجيء الأمر الإلهي للأمة الإسرائيلية باتباع الأمة المحمدية **(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط...)** ثم تكرر الأمر أخرى في السورة التي تليها في سياق الميثاق الذي أخذه الله على النبيين بالإيمان بالسيد الأعظم محمد ﷺ ونصرته في مشهد عجيب يُظهر التعظيم العظيم له من ربه ويُبدي رفيع منزلته وعلو مكانته **(لَتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين... قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط...)** والله عز وجل يقرر في الآيتين حقيقة التبعية لسيد البرية ﷺ وأمتة المرضية، وعُدّي الإنزال في الآية الأولى بحرف الانتهاء وفي الآية الثانية بحرف الاستعلاء لوجود المعنيين: العلوّ والوصول جميعاً، وقد خص الله تعالى موسى وعيسى بالذكر **(وما أوتي موسى وعيسى)** لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ثم عمّم جميع النبيين **(وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)** أي لا نقول: إنهم متفرون في أصول الدين بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، وإقرارنا بنبوّتهم لكوننا منقادين لله مستسلمين لحكمه وأمره. روى الإمام الطبري عن ابن عباس أنه

قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وعازر وخالد وزيد وآزار بن أبي آزار وأشيع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: «أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به. ولا يستشكل هذا بقول فريق منهم "أما" حيث يظهرون التوحيد والإيمان وييطنون الشرك والكفران صنعوا صنع المخادعين! والتفريق بين النبيين يستلزم التفريق بينهم وبين الله تعالى، وفي الحديث عند النسائي: قال: **يا محمد أخبرني ما الإيمان؟** قال: «**الإيمان بالله وملائكته والكتاب والنبيين وتؤمن بالقدر**» وفي هذا تعريض بأهل الكتاب الذين فرقوا الدين ورفقوا بين النبيين وأضلوا أتباعهم عن الإيمان ببعضهم ورفقوا بين الله ورسله وزعموا أنهم أهل الإيمان والعرفان! وجمع الضمير في الآية الأولى **(قولوا آمنا بالله)** إعلام بشمول الأمة المسلمة مع نبيها إذ أنها مكلفة بالقيام بدعوته، وإفراد الضمير في الآية الثانية **(قل آمنا بالله)** فيه مزيد اختصاص بالنبي ﷺ بتشريف الله إياه حيث أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه وحبيه ومصطفاه، أي قل يا أكمل الرسل لليهود والنصارى قولاً في توحيد الذات وكمالات الأسماء والصفات ناشئاً عن محض النصح والإرشاد خالياً عن المكابرة والعناد قالاً عرق التقليدات.

(وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) الضمير في قالوا عائد على بني إسرائيل قالوا ذلك بهتاً ودفعاً لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البينات وأعجزتهم عن مدافعة الحق المعجزات نزلوا عن رتبة الإنسانية إلى

رتبة البهيمية، ويحتمل أن يكون المعنى: أن قلوبهم غلف على ما فيها من عقائدهم وهي لصلابتها وقوتها تمنع أن يصل إليها غير ما فيها كالغلاف الذي يصون المغلف أن يصل إليه ما بغيره كما تقدم في حكاية قولهم ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فأخبر تعالى أنه جازاهم بالطرد الذي هو اللعن المتسبب عن الكفر ﴿فقليل ما يؤمنون﴾ أي فما يؤمنون أصلاً و(ما) للنفي أي لا يؤمنون إيماناً قليلاً كما في قوله ﴿قليل ما تؤمنون﴾ وكذلك قوله ﴿قليل ما تذكرون﴾ وقوله ﴿قليل ما تشكرون﴾ وهذا على لغة العرب يقولون: قلما رأيت مثل هذا الرجل وهم يريدون ما رأيت مثله.

كأنهم لا يعلمون!

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ اعلم أيها الشاهد أنه لما منَّ الله على البرية بوصول نوبة البعثة إلى رسولنا المعظم ﷺ انطمس شهاب نار الكفر، ولمع شعاع نور الذكر، وتم ببركته عليه الصلاة والسلام ما نقص من مكارم الأخلاق، وانتشر بهمته الحمدية علم العدل والصلاح في الآفاق، لكونه جمع ما تفرق في إخوانه النبيين والمرسلين من الهمم والشيم والأخلاق العلية الزكية، والأوصاف الحميدة المرضية، فلم يبق خصلة محمودة إلا أوصل إليها ودل عليها، ولم يترك خصلة مذمومة إلا نهي عنها وحذر منها، وجمعت شرعته الطاهرة شتات الأحكام الصالحة، فصارت تجارة الخلق ببركة رسالته رابحة، وسرى سر خلافته في العوالم وعلم الثقلان أنه عليه الصلاة والسلام أشرف نائب عن الربوبية، وأعدل حاكم عن الألوهية، فإذا فهمت ذلك علمت ما

للنوع الإنساني من التكرمة عند الله وأدركت أن أشرف أنواع الخلق الإنسان، وأعلى مراتب الإنسان خلافة الله، وأعلى مراتب خلافة الله الرسالة، وأعلى مراتب الرسالة مرتبة أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعلى مراتبهم وأجمعها دعوة وأعظمها شرفاً وأجلها قدراً وأرفعها ذكراً وأطولها سناماً وأشمخها مقاماً الرسالة المحمدية التي اختص بها سيد البرية ﷺ فهو قطب الدائرة، ومفتاح باب سعادة الدنيا والآخرة، وهو ختم الختم، ومحل الإفشاء والكتم، فكمال غيره كمال عن نقص وكماله كمال عن كمال، أوتي جوامع الكلم وانقطعت به نبوة التشريع وقد أرسل وكان نبياً وآدم بين الماء والطين، وغيره ما كان رسولاً إلا بعد تحصيل شرائط الرسالة، فجميع الرسالات والنبوات والولايات مندرجة في رسالته ونبوته وولايته ﷺ وقد تبين لك أن الإنسان ثمرة العالم وأن عين الإنسان وعين إنسانه رسولنا المعظم ﷺ وهو رسول الله إلى الخلق كافة، فمن ذلك يُعلم لديك أنه ﷺ لما كانت رسالته الرسالة الجامعة، وشريعته الشريعة الناسخة، حسدته اليهود والنصارى وتجاهلوا وتغافلوا عنه وتعاموا وتصامموا ونبذوا كتاب الله - المخبر بأوصافه ﷺ البهية ونعوته السنية وأخلاقه الرضية وأنواره الجلية ومراتبه العلية - وراء ظهورهم! وهؤلاء يجيئون يوم القيامة فيقال للواحد منهم: خذ كتابك من وراء ظهرك أي من الموضع الذي نبذته فيه في الدنيا، والنبد وراء الظهر: تمثيل للكتمان والإهمال، وذكر هنا الكتاب والرسول كما في الآية السابقة غير أنه صرح هنا بما طواه هناك، وقد عدل عن أن يقال: فلما جاءهم كتاب من عند الله ليكون اللفظ أشمل، فيشمل الكتاب والرسول الذي جاء به فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول، ووقع التعبير بما الموصولة دون من لأجل هذا الشمول، ونحو هذا قوله

تعالى ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لِيَحْكُمَ الْكِتَابَ، وَقُرْءُ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ فَيَكُونَ الْحُكْمُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا يَخْفَى أَنْ خَلْفَاءَهُ وَعُتْرَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَقُومُونَ مَقَامَهُ فَيَتَنَاوَلُهُمُ الْحُكْمُ الْوَاردُ لَهُ ﷺ، وَالْمَقْصُودُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَرَفُوا الْقُرْآنَ بِالصِّفَةِ الْمُتَحَقِّقَةِ وَكَفَرُوا بِهِ وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ فِيهِمْ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي كَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ بِهَذَا الْكِتَابِ وَيَسْتَنْصِرُونَ بِمَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَيَفْتَخِرُونَ بِهِ عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ لِقَصْدِ الزِّيَادَةِ فِي الْإِنْجَاءِ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبِيخِ فَإِنَّهُمْ لَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضاً مُجَرِّداً عَنِ الْأَدْلَةِ لَكَانَ فِي إِعْرَاضِهِمْ مَعْدَرَةٌ مَا، وَلَكِنَّهُمْ أَعْرَضُوا وَكَفَرُوا بِالْكِتَابِ وَبِالرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ كِتَابٌ إِلَّا مَعَ رَسُولٍ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ ﷺ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَظُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَأَظْهَرُوا التَّكْذِيبَ وَكَفَرُوا حَسْداً وَخَوْفاً عَلَى الرِّيَاسَةِ وَهَذَا مُنْتَهَى الْخِذْلَانِ. فَكَفَرَهُمْ بِهِ لِأَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: لِكَوْنِهِ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ عَلَى نَحْوِ مَا وَرَدَ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِلْبِيهَقِيِّ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ قَالَ لِعَيْنَةَ بْنِ حَصْنٍ: «أَشْهَدُ لِسَمْعَتِ أَبِي رَافِعٍ سَلَامٍ مِنْ أَبِي الْحَقِيقِ يَقُولُ: إِنَّا نَحْسُدُ مُحَمَّدًا عَلَى النُّبُوَّةِ حَيْثُ خَرَجْتَ مِنْ بَنِي هَارُونَ وَهُوَ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ وَيَهُودٌ لَا تَطَاوَعَنِي عَلَى هَذَا وَلَنَا مِنْهُ ذِبْحَانٌ: وَاحِدٌ يِثْرِبُ وَآخَرٌ بَجِيرٌ قَالَ الْحَارِثُ: قُلْتُ لِسَلَامٍ: يَمْلِكُ الْأَرْضَ جَمِيعاً؟ قَالَ: نَعَمْ وَالتَّوَارَةُ الَّتِي أَنْزَلْتَ عَلَى مُوسَى وَمَا أَحَبُّ أَنْ تَعْلَمَ يَهُودٌ بِقَوْلِي فِيهِ» وَالْأَمْرُ الْآخَرُ وَهُوَ الْأَهَمُّ: مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَلِهَذَا الْأَمْرُ عَادُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَمَّرُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فَهُوَ مُرْحَبٌ بِهِ وَإِلَّا فَالِدَسَائِسُ الْمَاكِرَةِ الَّتِي يَتَقَنُونَهَا، وَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مَنَاصِبَتِنَا الْعِدَاءَ جَهْرَةً فِي

ميادين القتال دخلوا في ديننا وتسموا باسم نبينا مؤملين كرة على الإسلام مجهزه ونصرة لمواعيد الشيطان مستنجزة، والقرآن ينه على أن الكفر بالسيد الأعظم ﷺ يعني كفر بالكتاب كله وكفر بالتوحيد وإخفاء هذه المسألة - التي هي أساس الدين - وطرحها يعني طرح الكتاب كله! قال صاحب التحرير والتنوير: كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل. اهـ. والمراد أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً، وإن شئت قلت: تمسكوا به ظاهراً ونبذوه خفية عالين بالحال بغياً وعناداً وإنما حملهم على ذلك حسد وعداوة الرسول المعظم ﷺ! وقد جاء وصفه في التوراة والإنجيل مشتملاً على التفصيل التام وذلك بتعيين الزمان والمكان والصفة والخلقة والنسب وما خصه الله من الأخلاق العلية والمراتب السنية والمنازل الحظية والחסن المرضية والأوصاف البهية وقد شبه تعالى علمهم برسوله وصحة ما جاء به بأشخاص أبنائهم وذواتهم فكما أن الأب يعرف شخص ابنه معرفة لا يشتبه هو عنده بغيره فكذا معرفتهم به ﷺ، فقد روى البيهقي في الدلائل عن صفية بنت حيي أنها قالت: لم يكن من ولد أبي وعمي أحد أحب إليهما مني لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاًني دونه فلما قدم رسول الله ﷺ قباء نزل قرية بني عمرو بن عوف غداً إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين فوالله ما جاءنا إلا مع مغيب الشمس فجاءنا فاترين كسلانين ساقطين بمشيان الهويني فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما نظر إلي واحد منهما فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. ولما كانت سنة الله جارية بأنه ما أمت أحد سنة إلا زاد في خذلانه بأن

أحيا على يده بدعة أعقبهم نبذهم لكلامه تعالى وكتماهم صفة رسوله إقبالهم على كلام الشياطين الذين هم أعدى الأعداء وأخذهم بالأباطيل والسحر وإشراكهم الشياطين مع الله وتنفيذ أغراضهم من إضلال البشرية وقهرها على الكفر والشرك وإرهاقها واستعبادها! مثلهم في ذلك كمثل الشيطان المارد الذي يعرض على الساحر خدماته مقابل قيام الساحر بطقوس كفرية شركية فيحقق المارد هدفه المزدوج، فهو من جهة يدفع الساحرَ إلى الكفر، ومن جهة أخرى يستعمله في إيذاء من سلطه عليهم من البشر، ويظن الساحر أنه هو من يستخدم المارد والحقيقة أنه هو المستعمل! وهذا السحر والشرك مخالف لرسائلهم وفتاواهم التي تنهى عن ذلك!

يعلمون الناس السحر

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) معنى الآية متفرع على ما تقدم من نبذ بني إسرائيل الكتاب وتعريض أنفسهم للهلكة واتباعهم ما تفتريه الشياطين على ملك سليمان أي على شرعه ونبوته كقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) أي إذا تلا الآيات ألقى الشيطان في تلاوته ما يجادلون به المؤمنين فيشبهون بذلك على ضعفة المسلمين ويلبسون

عليهم دينهم وقد عبّر عنهم ﷺ في الآثار المتواترة الصحاح بـ«**قرن الشيطان**» فنفى القرآن عنه ما ينسبونه اليه افتراء من دراسة ورواية وعمل الشياطين **(وما كفر سليمان)** وقدم نفي كفر سليمان لأنه الأهم تعجيلاً بإثبات نزاهته وعصمته لأن القوم نسبوه إلى وحي وتشريع الشياطين! وقد جعل المولى ذلك كفراً **(ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)** يتلونه: من تلا الشيء الشيء إذا تبعه فالفرية تتبع الفرية إلى النهاية فهي سلسلة متتالية من افتراءات الشياطين وليست قولة تقولوها على لسانه ﷺ من أجل هذا جاء التعبير بالتلاوة بدلاً من القول والافتراء، والساحر والذي يأتيه ليسخر الناس! وأهل الكتاب نسبوا شرع سليمان وما أنزل على الملكين إلى تلاوة الشيطان وأشركوا الشيطان مع الله في الحكم! وأخذوا يوقرون في قلوب الناس حقية ما وضعوه لهم من الملة لتطويعهم وإرهابهم وإخضاعهم تحت حكمهم بالمكائد وإلقاء العداوات بينهم وسفك دمائهم والتفرقة بين طرفي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما على قاعدة: فرق تسد. وهنا تظهر مقدرة السحرة الفكرية وتكثر أضرارهم وأخطارهم على الناس وجراحتهم عليهم بتسخيرهم، وإزهاق النفوس التي تعاصت عن امتثال أوامرهم، وكان كبراء بابل قد اتبعوا الشيطان لتسخير العامة لهم ثم تطلعوا منه إلى تأسيس دولة تحكم الأرض وزعموا أنهم مترجمون عن الله وناطقون بإرادته فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة، فأراد الله على معتاد حكمته إنقاذ الخلق من ذلك فأرسل هاروت وماروت لكشف شبهات الأئمة المضلين والأخبار السحرة المتبوعين لأنهم كانوا يزعمون أنهم على دين الله فكانوا يُسخرون الأتباع والعوام ويفرقون ما أمر الله به أن يجمع فأراد الله تكذيب السحرة ذباً عن مقام النبوة وإيقاع الفرقة بين أعدائه وأوليائه، ولما كان

هذا العلم يختلف ثبات الناس فيه بحسب اختلاف رجاحة عقولهم وصبرهم ومقدرتهم على فهمه واستيعابه وحسن المخارج منه كان من لوازمه الابتلاء والاختبار فكان ذلك من المعاني التي يكنى بالفتنة عنها كثيراً، فكان الملكان يبينان للمتعلم خطورة العلم المنزل عليهما والداعي إلى الخير وأنه ربما يظهر كأنه سحر وفتنة وشرّ، فيقولان: لا تكفر به ولا تنسبه لسحر الشياطين فإنك إذا تحققت فيه انكشف لك خداع السحرة واندفعت الفتنة ورجع الناس إلى صلاح الحال. روى الإمام النسائي في السنن عن ابن عباس قال: كان آصف كاتب سليمان بن داود عليه السلام وكان يعلم الاسم الأعظم كان يكتب كل شيء يأمره به سليمان عليه السلام ويدفنه تحت كرسیه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطر من سحر وكذب وكفر فقالوا: هذا الذي كان يعمل سليمان بها فأكفره جهال الناس وسفهاؤهم وسبوه ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونهم حتى أنزل الله جل وعز **(واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)**. ومعنى قوله **(يعلمون الناس السحر)** أي أن الشياطين يُعلمون أولياءهم السحر الذي يزيل الحق عن موضعه ويقلب الأعيان ويقلب القلوب ويطوّع لهم كل ذي عقل ضعيف وذهن سخيّف، وقوله **(وما أنزل على الملكين)** معطوف على ملك سليمان أي وما تتلوا الشياطين تلاوة كذب على ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل، وقوله **(وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)** أي إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره فأما من دفع الله عنه ضره وحفظه من مكروه سحر الشياطين وأوليائهم فإن ذلك غير ضاره ولا نائله أذاه وقد صح أنه قدّم رجلاً من نجد فخطباً فعجب الناس لبيانهما فقال النبي ﷺ: **«إن من البيان لسحراً»** فشبه كلامهما بالسحر لما

فيه من التلبيس وإزالة الحق عن موضعه! وعقائد أهل الكتاب فيها حق وفيها سحر شيطاني وكذلك مناهجهم وأفكارهم وأحزابهم وأهواؤهم من وقع فيها وقع في حبائل الشيطان فكان له عليه سلطان ولا مخرج إلا بمجانبة سياسة الخطوات ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ وأهل الكتاب فرقهم الأهواء فوقعوا في كل مطرح من مطارح الغفلة وطالت بهم الغيبة فصاروا للناس أئمة ضلال وقادة فتنة فمن اقتدى بهم في غيهم انخرط في سلكهم والتحق بجنسهم فإن قدمهم قدم خداع وتلبيس وإظهار دعوى بتدليس، وزيهم زي أهل الإسلام وسيرتهم سيرة أهل الرياء والنفاق والجهالات والكفر والشرك والضلالات ولم تزل عادتهم التمويه والتلبيس... يستهونون من اتباعهم ويلقونهم في دركات الجحيم... ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيلهم تهتك أستاره وظهر لذوي البصائر عواره.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب

أليم﴾

قصود الأعداء في جميع أحوالهم من أعمالهم وأقوالهم قصود خبيثة، فهم على مناهجهم يبنون فيما يأتون ويذرون... وسبيل الأولياء التحرز عن مشابھتهم والأخذ في طريق غير طريقهم. ومناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ عن ذمه أن السحر راجع إلى التمويه وأن من ضروب السحر تمويه الألفاظ والكلمات، ولما كانت عقائدهم ومناهجهم ظاهرها التوحيد وباطنها الكفر كان هذا شبيهاً ببعض ضروب السحر، وهذه المناسبة هي موجب التعقيب في الذكر، وإنما فصلت هذه الآية عما قبلها لاختلاف الغرضين

لأن هذه في تأديب المؤمنين ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم وتحريفهم الكلام عن مواضعه والإشعار لهم بأن كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه، وقد كانوا يعدون تفتن المسحور للسحر يطل أثره فأشبهه التفتن للنوايا الخبيثة، وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية المنافية لأصول دينهم، وقد أبدل الله المؤمنين بقولهم **(راعنا)** كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز **(انظرنا)** فالأمر بـ"راعنا" استعمال في الظاهر بالمراعاة وذلك يخرج على التكبر! والأمر بالإنظار يقع موقع التشفع في النظرة بالخضوع والتواضع... وفي ذلك إلزام تصحيح المنهج لتطابق تصحيح المقصد وليقع الفرق بينهما فهي آية فصل وفرقان... واليهود أهل خداع وسخرية واستهزاء، يستهزئون بالدين حين يظهرون قولاً حسناً ويطنون خلافه، ويقلبون الحقائق وهذا واضح في كتبهم ورسائلهم وأما في إعلامهم فأكثر وأشهر من أن تذكر إذ يلعبون في الصورة والكلمة والإخراج ويحسمون المعارك قبل أن تحسمها البنادق على نحو ما صنعوا في ألعابهم السياسية كأحداث سبتمبر 2001 لدفع الشباب إلى التوهب! ومسرحية تموز 2006 لتلميع التشيع والرفض! وهكذا يصنعون البطولات ثم يقاتلوها! ينسجون الشبكات ثم ينقضونها أنكاثاً! ينون الأصنام ثم يهدموها! يريدون تغسيل الدم النجس بالدم!

عليهم وجوه أراق النفاق ... معالمها وأضاع الأنوف

وهذه الطريق لا يسلكها إلا السفهاء، وهي تشي بسوء الأدب وانحطاط السلوك وخسة الوسيلة! وما هم اليوم إلا من عرفناهم بالأمس أهل غدر وخيانة وأهل غش وزور وخداع وبغت إذ قال حبرهم عبد الله بن سلام لما أسلم: يا رسول

الله إن اليهود قوم بهت فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: «أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعاده الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: شرُّنا وابن شرِّنا وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله...

﴿وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ اعلم أيها الشاهد أنه تعالى لما ذكر دعوى اختصاصهم بالجنة في قوله ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وأن كلاً من الفريقين يتظاهر بمعاداته وتضليله للآخر كما تفيد "أو" أكد ذلك في هذه الآية مبيناً أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لإثارة الفتنة والافتتال والتفريق بين الرسل وتكذيب الإرسال على حد قول الله الملك المتعال ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ قال ابن جريج: اليهود والنصارى آمنت اليهود بعزير وكفرت بعبسى وآمنت النصراني بعبسى وكفرت بعزير وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر. وقد نبّه سبحانه على مكرهم وخبثهم وكيدهم وحكى سوء صنيعهم وفساد طريقتهم وكيفية اقتسامهم للأدوار السياسية والشرائع الدينية وقول كل فريق منهم في الآخر! إشاعة الدين البروتستانتى يعني معاداة الدين الكاثوليكي، وإشاعة الدين الكاثوليكي يعني معاداة الدين الأرثوذكسي! وهلم جراً... وإذا

أقام أحبارهم ديانة، قام ملوكهم بشن حرب عليها، وإذا أقام ملوكهم فرقة، قام أحبارهم بشن حرب عليها، بحيث يختلط الأمر ولا يُفهم شيء على الإطلاق! وهذا نظير ما حكاه الله سبحانه عن قوم صالح بقوله "فإذا هم فريقان يختصمون" وتخاصمهم أن كل فرقة تدعي أن الحق معها وتعادي الأخرى وتقول: إنها ليست على شيء! ولو تأملنا الواقع لوجدنا هذه الثنائية في اليهود والنصارى ومن تبعهم وتدين بدينهم وانتظم في سياستهم في جميع الدول والأحزاب... ثم عجب سبحانه من أهل الكتاب سفول أعمالهم وأفعالهم وقبح أقوالهم وأحوالهم فقال **(وهم يتلون الكتاب)** أي قالوا ذلك وهم عالمون بما في الكتاب وهذا نعي عليهم في مقالاتهم تلك إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه! قال أنس بن مالك: رُب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه. ثم بين تعالى استركاك عقول أتباعهم وضعف أحلام مقلديهم الذين تدينوا بدينهم فقال **(وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم)** أي أن الأتباع الجهلة قالوا مثل قولهم! ووقع الأتباع فريسة لاضطهاد بعضهم بعضاً اضطهاداً فظيعاً وسفك بعضهم دماء بعض ودارت رحى الحروب الدموية بينهم بصورة وحشية فظيعة وقسوة عجيبة قُتل فيها ألوف الألوف وخربت بطاح واسعات، وبلاد شاسعات، والله في خلقه أسرار، تتصرف بها دوائر الليل والنهار، وتذلّلها مجاري الأقدار، وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وله الحكم وإليه يستقر القرار. ولما كشف سبحانه خفايا أهل الكتاب وفضّح مكرهم أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في الصد عن مساجده مشيراً إلى قبلتها وهو بيته الذي جعله معلماً لتوحيده فقال **(ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم)** والمراد من قوله

"يذكر فيها اسمه" أي يُعظم ويوحّد فيها اسمه والله أعلم، والمعنى أنه لا أحد أظلم من حال بينها وبين تبعيتها لحكم وسلطان الإسلام وسعى في خرابها، والشرك أعظم أنواع الظلم وأشد صور الخراب، ولا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده عز وجل. ثم التفت من ضمير الغيبة إلى الخطاب واستدار الكلام على سبيل التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ والمعنى أن هؤلاء الذين ظلموا بمنع مساجدي أن يذكر فيها اسمي وسعوا في خرابها أولئك لهم كذا وكذا ثم إنهم أينما ولوا هارين عني وعن سلطاني فإن سلطاني يلحقهم وقدرتي تسبقهم وأنا عليم بهم لا يخفى عليّ مكانهم، قاله الفخر. وقال بعضهم: ما من شيء صغير أو كبير في هذا العالم السماوي أو الأرضي إلا ويدل على الله وعلى قدرته وتفرد سلطانه وقيوميته سبحانه وإن آيات الله ومشاهد قدرته وعظمته تتجلى وتظهر لمن تدبر وتفكر فإن هو أنصف آمن وأذعن وإن هو تكبر وجحد أعرض واتبع هواه. وروى الإمام الطبري عن مجاهد "فثم وجه الله" قال: قبله الله. وفي رواية من طريق آخر عن مجاهد قال: حيثما كنتم فلکم قبله تستقبلونها قال: الكعبة. وقال الإمام النسفي: "وجه الله" أي قبله الله فإن الوجه والوجهة والجهة بمعنى والقبلة تسمى بذلك لورود الأمر بالتوجه إليها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت رداً على اليهود لما استنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة. قلت: وفي هذا ما لا يخفى من التحريض على تحريرها وتطهيرها منهم اليوم ومن شديد الوعيد والتهديد لهؤلاء المحتلين الماكرين... ثم كشف تعالى عن الأصل الذي أقام عليه دينهم وسلطانهم في الأرض وهو إشراكهم بالعبادة ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ والقول بالولدية يلزمه

القول بالمولودية وذلك على ما تضمنته كتبهم أنهم يقولون الأب هو الأقنوم الأول من الثالوث، والابن هو الثاني الصادر منه صدوراً أزلياً مساوياً بالأزلية له، وروح القدس هو الثالث الصادر عنهما كذلك، ولذلك جاءت الآية ﴿لم يلد ولم يولد﴾ بنفي الولدية والمولودية عنه سبحانه. ولما كان العطف على مقالات أهل الكتاب، أردف سبحانه بالتنبيه على بطلان إشراكهم منزهاً تعالى نفسه بأبلغ صيغة مبطلاً لما زعموه مُضرباً عما تقتضيه مقالاتهم الباطلة ﴿سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون﴾ وقد أقام سبحانه الدليل على الإبطال بملكه تعالى لمجموع العوالم العلوية والسفلية... ولما كشف تعالى طريقتهم في اقتسام الشرائع وأظهر زورهم وبيّن فجورهم وهتك أستارهم، ناسب كل المناسبة أن يذكر استكبارهم وعتوهم حكايةً لطرف آخر من جهلهم بما يجب لله تعالى من التعظيم ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ أي حجة تدل على صدقك! بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك! ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات! وإنما وصفوا بعدم العلم إيداناً بخروجهم في الكفر عن الحدود والنهايات فإن الجاهل في الكتاب إذا طلب أن يكلمه الله أو تأتيه آية إذا كان في تلك الغاية من الكفر فما الظن بعالم الكتاب ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ أي كذلك قال المستخلفون الغابرون مثل قولهم! تشابهت قلوبهم في القسوة والتعنت والسخرية والاستهزاء...

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم

لما صَبَّرَ اللهُ تعالى رسوله بما تقدم من الآية وبيّن أن العلة قد انزاحت من قبله لا من قبلهم وأنه لا عذر لهم في الثبات على التكذيب به عقب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم ولا يرضون منه بأن يكلمهم الله أو تأتيهم آية بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه فيبين بذلك شدة عداوتهم وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم والخطاب وإن كان ظاهراً للنبي ﷺ إلا أن المقصود منه أتمته لأن المخاطب لا يمكن ما خوطب به أن يقع منه فيصرف ذلك إلى من يمكن ذلك منه ويكون تنبيهاً من الله على أن اليهود والنصارى يخادعونكم بما يظهرون من الإسلام ولا يقع رضاهم إلا باتباع ملتهم وسياستهم، وقد جاء هذا الكلام المؤيس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية لسيد الوجودات وفخر الكائنات عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأتم التسليمات وهذا من كرامة الله تعالى لنبيه ﷺ، وروي أن سبب هذه الآية أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله ﷺ الهدنة ووعدوه أن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم فأعلمه الله تعالى أن إعطاء الهدنة لا ينفع عندهم وأطلعه على سر خداعهم، وفيه بيانٌ لكمال شدة شكيمة هذين الفريقين، والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف في قوله **(ولا النصارى)** لبيان ما أفادته الآي المتقدمة من تظاهر كلا الفريقين بعداوة الآخر ولتقرير اتفاقهما على مطلق الاتفاق على عداوة المسلمين وتساويهما في استحالة الرضى عنهم، ومن الوارد على هذا الرعي قوله **(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)** وفُسِّرَت الملة بالقبلة كما سيأتي في قوله تعالى **(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها)** كما فُسِّرَت بالسرعة والطريقة أي عقيدتهم وطريقتهم وسياستهم

وآراءهم الباطلة الصادرة عن أهوائهم ومشتهايقهم! وعبر عنها بالملة لأن واضعها يُعلّمها للناس ويعليها عليهم كما سميت ديناً باعتبار قبول الناس لها وطاعتهم وانقيادهم لواضعيها الذين خادعوا المؤمنين عبر سياسة إبليسية حكموا العالم من خلالها ومنشورات من الكتب والفتاوى المضلّة تجذب العامة في أذيالها، ولفقوا نتفاً سطحية تفسد أحوال الأمة بعد انتظامها باختلالها وجمعوا رسائل لا تثبت على محك العلم الصحيح ثم أشاعوها وإلى الله ودينه نسبوها... وهذه شنيعة إخوة القردة والخنازير ونشئة عبدة الطاغوت! ووحدت الملة لأنهما يجمعهما الكفر وهو ملة واحدة ثم إن هذا حكاية لمعنى كلام قالوه بطريق التكلم ليطابقه قوله سبحانه **(قل إن هدى الله هو الهدى)** فإنه على طريقة الجواب لمقاتلتهم بأن ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال فأجيبوا بأن دين الله تعالى هو الحق ودينكم هو الباطل. واليهود والنصارى قسمان: قسم لا علم له من جهة كتاب وهؤلاء كما قال الإمام الشافعي في كتابه الأم: لا يقع عليهم أهل الكتاب بأن آباءهم كانوا غير أهل الكتاب ومن غير نسب بني إسرائيل. وقسم له كتاب يعلم الحق منه وهم بنو إسرائيل. وقد عبر تعالى عن مناهجهم بالأهواء لأن الهوى رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل فقال **(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير)** ولهذا لم يؤت بالضمير الراجع للملة وعبر عنها بالاسم الظاهر فشملت أهواؤهم: السياسات المعاصرة والمناهج التي وضعوها بتغريرات عقولهم القاصرة وتزويرات أوهامهم الخاسرة! وفسّر العلم هنا بالقرآن وبالعلم بضلال القوم، والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى لأن أكثره من الباطل، وتأكيد الجملة بضمير الفصل وتعريف الجزأين يدلّ على الاختصاص والحصص، وأضاف الأهواء إليهم لأنها

بدعهم وضلالاتهم، ولذلك سمي أصحاب البدع: أرباب الأهواء. ولا يخفى على ذي لب وعقل أن من اتبع أهواءهم سرى حالهم في حاله فصادروا روحه وعقله وخلقه وغرسوا فيه التوحش والانتقام فنمت أنيابه ومخالبه وتحول إلى مسخ غريب منفر مشوه للإسلام! وفي صيغة الجمع ﴿أهواءهم﴾ إشارة إلى تناقض سياساتهم وكثرة اختلاف فرقهم وأن الموافق لسياساتهم يحارب الآخر والمتبع لأهوائهم ينكر على الآخر بل يكفر الآخر! وهذا يعني أن ملتهم مبدلة مشوبة بالضلالات وأن ما هم عليه شيء حرفوه ووضعوه، والواقع يشهد أن سياساتهم محل لإيقاد الحرب ومناهجهم منطلق لتحويل المجتمع إلى أحزاب متنافرة وطبقات متباغضة وطوائف متحاقدة تفتت المجتمع وهي تتوهم أنها على الحق! وقوله ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ يدل على بطلان التقليد كما يدل على أنه لا يجوز إجراء الأحكام على من تبعهم من أهل القبلة إلا بعد بلوغ العلم أولاً فثبت بذلك العذر بالجهل.

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ موقع هذه الآية بين الآية ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ والآية ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ يقتضي إزالة ستور الرمز عن يهود ونصارى بني إسرائيل في أخطر مرحلة تمر بها البشرية التائهة التي طُبع في أذهانها أنهم يهود الكنيست ونصارى الفاتيكان والمعركة مع هؤلاء الدُمر لا شأن لها بالعقائد وهي بعيدة عن عالم الوحي ومن ثم كان غياب تشخيص بني إسرائيل عاقبته وخيمة قاصمة جسيمة أفضت إلى إضلال أمم وأجيال بأكملها فإن آثار بني إسرائيل في البشرية هي بقدر ما أفرد لهم الإله في بيانه وخطابه!!! والتلاوة تعني

تخري المطابقة والسير على الغرار بتتبع مقاصد الكلام المتلوّ وبيانه للناس فإن الكلام يراد منه إفهام السامع، فإذا تلاه القارئ ولم يبين ما أراده قائله كانت تلاوته غامضة، فحق التلاوة هو العلم بما في المتلو واتباعه وبيانه للناس، وجيء باسم الإشارة **(أولئك يؤمنون به)** في تعريف المؤمنين الذين آتاهم الله القرآن دون الضمير للتنبيه على أن الأوصاف المتقدمة التي استحضروا بواسطتها الإيمان بالكتاب تتضمن اتباعه وبيانه للناس، ثم استدار الكلام مهدداً كفرة بني إسرائيل مقرأً بسوء العاقبة **(ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون)** وها هم الأعداء العريقون يوجهون المعركة إلى حلفائهم ويلصقون نصوص الكتاب بشركائهم لغرض في نفوسهم دفين، فغيروا أعلام المعركة ولوّنوها بألوان شتى ورفعوا عليها أعلاماً شتى في خبث ومكر وتورية لإيقاد حرب شاملة في كل بقعة من الأرض لا تنطفئ... وكلما أوقدوا ناراً بها احترقوا... وأحدثوا الحربَ فيهم يحدثُ الحربُ... يستخدمون كل سلاح ولا يتورعون عن سلاح، يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه من وسائل الإعلام ودور النشر في تحريف الكتاب عن وجهته وفي تميع حقائقه وفي تدوير معانيه، ويستخدمون السذج من أمتنا في نهش بعضهم بعضاً، وقد يبلغ بهم المكر أحياناً أن يتظاهروا بالحرب على المحوس ليعبدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة! فحاربوا آل البيت بأكذوبة نصره آل البيت تماماً كما حاربوا مذاهب السلف بأكذوبة نصره مذهب السلف! لا يكفون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله لأنّ حقدهم على الإسلام أضخم من أن يداروه ولو للخداع والتمويه...

(وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) المراد المسجد الحرام والله أعلم لأنه لما كان قبلة المساجد فإن كل قبلة متوجهة نحوه جعل كأنه جميع المساجد وفرع

على اختصاص كون المساجد لله النهي عن أن يدعوا مع الله أحدا وهذا إلزام لهم بالتوحيد بطريق القول بالموجب. وقيل المراد بالمساجد: المواضع التي بنيت للصلاة ويدخل فيها الكنائس والبيع. أخرج الإمام الطبري عن قتادة في الآية ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه أن يوحد الله وحده. والكلام في الآية متصل بقوله ﴿وَلَنْ نَشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي لن نشرك في حكمه تعالى وربوبيته أحدا، وهم الجن المسلمون الذين أدركوا حقيقة التوحيد وأفردوا الله في الحكم والعبادة، وتأثروا بالقرآن أشد التأثر وعرفوا الحق فاستجابوا له مذعنين معلنين هذا الإذعان غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين، ثم قال سبحانه معجبا من القاسطين من الجن والإنس ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي لما قام يوحد الله مخالفاً للمشركين في عبادتهم الآلهة تلبّدوا وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به، ولما استشرفت نفس السامع إلى قوله ﷺ لمن تراكموا عليه من ذلك، استأنف الجواب بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي لا أدعو غيره ولا أشرك به أحداً في حكمه وعبادته، وعُطف عليه تأكيداً لمفهوم القصر، وأصله أن لا يعطف فعطفه لجرد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ. ثم نبه تعالى أن رسوله ﷺ لا يملك هدايتهم ولا إضلالهم استقلالاً من دون الله ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رَشَدًا﴾ أي لا يملكه من ذاته عليه الصلاة والسلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه. ولما قالوا له: أترك ما ندعو إليه ونحن نجيرك، قيل له ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ولما كان من المعلوم أن هذا شيء لا مثوية فيه وكانت الرتب التي دون شريف رتبته سبحانه

كثيرة جداً لما له من العلو المطلق وكان ما يليها له حكم شرفها وحقيقتها وكان أول ذلك النور الأعظم ﷺ ثم خلفاءه المبلغين عنه ﷺ، أردف ذلك بقوله (إلا بلاغا من الله ورسالاته) قال الحسن: هو استثناء منقطع أي لن يجبرني أحد لكن إن بلغت رحمي بذلك. والإجارة للبلاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته، وقيل على هذا المعنى: هو استثناء متصل أي لن يجبرني في أحد لكن لم أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجبرني الله فيجوز نصبه على الاستثناء من ملتحداً وعلى البدل وهو الوجه لأن ما قبله نفيّاً وعلى البدل خروجه الزجاج، وقال أبو عبد الله الرازي: هذا الاستثناء منقطع لأنه لم يقل: ولم أجد ملتحداً بل قال "من دونه" والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله "من دونه ملتحداً" لأنه لا يكون من دون الله بل يكون من الله وبإعانتة وتوقيقه.

واقتلوهم حيث ثقفتموهم

لما أتم سبحانه بيان ما شرعه في شهر رمضان من الصيام وحبس النفس عما تعودته من الأكل والشرب والمباشرة بالنهار أعقب بالتنبيه على أن يكون المطعم والمشرب من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن أكل الحرام الذي يمضي به إلى عدم قبول عبادته من صيام وحج، بيّن بعض أحوال الحكام الظلمة فقال (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) أي لا تدلوا بعمال إخوانكم إلى حكام السوء ليحكموا لكم به ولا ترشوها إليهم ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إليهم لتأكلوا طائفة من أموال بعضكم بالإثم! والإدلاء: إرسال الدلو في البئر واستعير للتوصل

إلى الشيء، وفي الآية فهي عن أكل الربا والرشا والسحت والتحاكم إلى من وصفهم رسول الله ﷺ بالصم البكم ملوك الأرض! ويدخل في الآية الخداع والغصب وجحد الحقائق وخلط الصدق بالكذب ولبس الحق بالباطل وأخذ الأموال من الحجاج والمعتمرين بغير حق إذ الآية واردة في أهل الكتاب - وحمل الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها وما بعدها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وكلام الله منزّه عنه - ثم أردف سبحانه بيان أحوال الأهلة المتعلقة بما قبلها من أحكام الصوم وما بعدها من أحكام الحج فقال تعالى مقبحاً أفعال أهل الكتاب منبهاً على مخادعتهم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَى وَآتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ودل المقام على كراهة هذا السؤال وذكر الحراي أن أكثر ما يقع فيه سؤال يكون مما ألبس فتنة أو شرب محنة أو أعقب بعقوبة ولذلك قال ﷺ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ سَوَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَلَكِنْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهَوْا وَمَا أَمَرْتُمْ بِهِ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» رواه الإمام أحمد. والأهلة مَوَاقِيتُ للناس والحج ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار، وإتيان البيوت من ظهورها مخالفة الواجب في أهلة رمضان والحج واستحلال أشهر الحرام وتحريم الحلال المفسر بقوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وعن أبي مسلم: أن هذا إشارة إلى ما كانوا يفعلونه من النسِيء وكان يقع الحج في غير وقته فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلاً لمخالفتهم الواجب في الحج وشهوره. وكانوا ينسئون الأشهر الحرم ويحسبونها على زمن الشتاء لعسر السفر ويفرغون سائر السنة

للخروج في أسفارهم! فهى الله المؤمنين أن يفعلوا ما فعل أهل الكتاب من ظلمهم بالنسيء، وروى أنه كتب عليهم رمضان وكتب عليهم أن لا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم ولا ينكحوا في شهر رمضان فاشتد عليهم صيام رمضان فاجتمعوا فجعلوا صياماً في الفصل بين الشتاء والصيف وقالوا: نزيد عشرين يوماً نكفّر بها ما صنعنا. وهذا يدل على أن النساء كانت في أهل الكتاب حتى كان من أمر قريش ما كان، وقرأ حفص والأخوان وخلف "يُضِلُّ" بضم الياء وفتح الضاد على المفعول الذي لم يسم فاعله، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد على معنى يُضِلُّ به الذين كفروا أتباعهم، وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد على معنى يُضِلُّ الذين كفروا أي أنهم يكتسبون الضلال به أو يقعون في الضلال بما يفعلون، فلفظ الآية يعم كفرة أهل الكتاب وأتباعهم لكن كفرة أهل الكتاب داخلون في هذا العام دخولاً قصدياً لأن الكلام سيق بالأصالة فيهم وهم الذين أضلوا كفرة قريش، يؤيد ذلك اختيار المضارع لهذه الأفعال "يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً" الدال على التجدد والاستمرار. وسبب نزول الآية **(يسألونك عن الأهلة)** أن الأنصار كانوا إذا حجوا أو اعتمروا يلتزمون تشريعاً أن لا يحول بينهم وبين السماء حائل فكانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحاً يدخلون منها ولا يدخلون من الأبواب وذلك مما شرعه لهم أهل الكتاب إذ كانوا بين أظهرهم، وروى الواحدي أنها نزلت بسبب أن أحد اليهود سأل أنصارياً عن الأهلة فسأل الأنصاري رسول الله ﷺ فنزلت الآية. والسؤال إن كان من أهل الكتاب فهو على سبيل الاستهزاء والتلبيس والسخرية والتدليس، وإن كان من غيرهم فهو سؤال استعلام عن فائدة محاق الأهلة وكمالها ومخالفتها لحال الشمس فقيل لهم: اتركوا السؤال عن اختلاف حال الأهلة الذي لا

يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم وهو قتال المستهزئين الذين يقاتلونكم...وفي الآية إشارة إلى أن إتيان البيوت من أبوابها علم والتقوى عمل فأمر سبحانه عباده بالتقوى التي تتضمن العمل بإرادة أن يظفروا بالمطالب الدينية والدنيوية وليس التكليف إلا في العلم والعمل. ولما كان القتال في الأشهر الحرم وفي الحرم في غاية المنع فكيف عند المسجد وكان سبحانه قد ذكر العبادات المؤقتة، أتبعها بغير المؤقتة وهي الجهاد الذي لا سلامة لها بدونه التفاتاً إلى المستهزئين، فأمر بأن يفعل معهم مثل ما فعلوا من القتال والإخراج فعل الحكيم الذي يوصي بالشيء العظيم فهو يلقيه بالتدريج في أساليب البلاغة وأفانين البيان تشويقاً إليه وتحريضاً عليه بعد أن أشار لأهل هذا الدين أولاً بأنه يجزي أعداءهم وثانياً بأن المقتول منهم حي يرزق وثالثاً بمدحهم على الصبر في بواطن البأس بأنهم الذين صدقوا وأنهم المتقون فلما شوقهم إلى جهاد أهل السخرية والبغي والعناد ألزمهم القتال بصيغة الأمر لتيسير باب الحج الذي افترضه وسبيله ممنوع بأهل الحرب فقال تعالى منبهاً على أن الدفع عن الإسلام أمر لا يقيده وقت بل أيان طرق الضر لبناء الإسلام دفع عنه فكان الجهاد لمطلق الميقات حيث ما وقع من مكان وزمان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي وقاتلوا في سبيل الله من شأنهم قتالكم وهم منافقوا أهل الكتاب ابتداء نظراً إلى ما دل عليه المضارع من معنى التجدد المقتضي أن قتالهم يتكرر في كل زمان وصيغة المضارع لم يقصد بها إلا صدور الفعل من غير نظر إلى زمان مخصوص، ولا تعتدوا بقتال من نهيتم عن قتاله من أهل القبلة، ولما حرم الله الاعتداء صرح بإباحة أصل القتال فقال آمراً بقتل من يعثر عليه من الكافرين وإن لم يكن في ساحة القتال ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ

أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) قال الإمام الراغب الأصفهاني: الثقف: الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً ومنه قيل: رجل ثقف لقف إذا كان له حذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً ومنه قيل: رجل ثقف لقف إذا كان له خدمة في إدراك الشيء. وقال الإمام الثعلبي: وأصل الثقافة: الحذق والبصر بالأمر. والمراد افعلوا كل ما ييسر لكم من القتل والإخراج في حقهم، وكان آخر كلام تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وذلك يقتضي إخراجهم من البيت بطريق الأولى، وأما قوله تعالى "من حيث أخرجوكم" فمعناه: أنهم بالغوا في تخويفكم وتشديد الأمر عليكم حتى اضطروكم إلى الخروج. وصيغة "حيث" تشمل أمرين أحدهما: أخرجوهم من الموضع الذي أخرجوكم وهو مكة، والثاني: أخرجوهم من ديارهم، ولهذا السبب أجلاهم رسول الله ﷺ من جزيرة العرب وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» والأمر في الآية الكريمة صريح بقتلهم فبعد أن أمر الحق بقتال المباشرين عمم المواقع والبقاع زيادة في أحوال القتل لإخوة القردة والخنازير وتصريحاً بتعميم الأماكن فإن أهمية هذا الغرض تبعث على عدم الاكتفاء باقتضاء عموم الأشخاص تعميم الأمكنة ليكون المسلمون مأذونين بذلك فكل مكان يحلون فهو موضع قتال، وعطفت الحملة على التي قبلها وإن كانت هي مكملتها باعتبار أن ما تضمنته قتل خاص غير قتال الوغى فحصلت المغايرة المقتضية العطف، ولذلك قال هنا (واقتلوهم) ولم يقل "وقاتلوهم" مثل الآية قبلها تنبيهاً على قتل المحارب ولو كان وقت العثور عليه غير مباشر للقتال وأنه من خرج محارباً فهو قاتل وإن لم

يَقْتُلُ لأن شركه في الحرم أشد قبحاً فلا تبالوا بقتاله فيه **(والفتنة أشد من القتل)** أي الكفر والشرك الذي هم فيه أشد في الحرم وأعظم جرماً من القتل الذي أبيض لكم أيها المؤمنون أن توقعوه بهم، ويحتمل أن يكون المعنى: والفتنة التي حملوكم عليها وراموكم بها على الردة عن دينكم أشد من القتل وقد أشار إليهم المفسر الأعظم رحمته الله في الحديث المتفق عليه بقوله: **«ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»** وقرئ **(ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوهم)** وهذه القراءة تقتضي أن المنهي عنه القتل فيشمل القتل باشتباك حرب والقتل بدون اشتباك، وقد دلت الآية بالنص على إباحة قتل المحارب إذا حارب في الحرم أو استولى عليه لأن الاستيلاء مقاتلة؛ فلو استولى على مكة عدو وقال: لا أقاتلكم لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال. قال الإمام الماتريدي: الأصل عندنا أن الابتلاء إذا كان من وجهين يختار الأيسر منهما والأخف فلذلك قلنا: إنه يختار القتل في الحرم على بقاء الفتنة وهو الشرك إذ هو أكبر وأعظم والله أعلم. اهـ. والكلام معطوف على جملة **(واقتلوهم حيث ثقتموهم)** التي أفادت الأمر بتتبع المحاربين بالتقتيل حيثما حلّوا سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين أم لا، لأن أحوال المحارب لا تنضبط وليست في الوقت سعة للنظر في نواياه والتوسم في أغراضه، إذ قد يبادره إلى اغتيال عدوه في حال تردده وتفكره، وجاء التعبير بلفظ **(ثقتموهم)** إشارة إلى نفاقهم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء عملاً كان أو علماً ويستعمل كثيراً في مطلق الإدراك... وخص المكان الذي عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة لأنه موضع استخلافهم، وجعلت غاية النهي بقوله **(حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم)** أي فإن قاتلوكم - وذلك يشمل سائر أنواع القتال - عند المسجد

الحرام فاقتلوهم عنده لأنهم خرقوا حرمة المسجد الحرام فلو تركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين، فإن قاتلوا المسلمين عند المسجد الحرام عاد أمر المسلمين بمقاتلتهم إلى ما كان قبل هذا النهي فوجب على المسلمين قتالهم عند المسجد الحرام، وهي بشارة عظيمة بالغلبة عليهم، وفي قوله تعالى **(فاقتلوهم)** تنبيه على الإذن بقتلهم حينئذ ولو في غير اشتباك معهم بقتال، لأنهم لا يؤمنون من أن يتخذوا حرمة المسجد الحرام وسيلة لقتال المسلمين، ولأجل ذلك جاء التعبير بصيغة تشمل القتل بدون قتال والقتل بقتال، وقتل الواحد من أولياء الشيطان أفضل من قتل مائة كافر لأن ضررهم بالدين أعظم وأشد إذ الكافر تجتنبه العامة لعلمهم بقبح حاله فلا يقدر على غواية أحد منهم وأما هؤلاء فيظهرون للناس بزي الموحدين المصلحين والعلماء الصالحين مع انطوائهم على العقائد الفاسدة والبدع القبيحة فليس للعامة إلا ظاهرهم الذي بالغوا في تحسينه وأما باطنهم المملوء من تلك القبائح والخبائث فلا يحيطون به ولا يطلعون عليه لقصورهم عن إدراك المخايل الدالة عليه فيغتروا بظواهرهم ويعتقدون بسببها فيهم الخير فيقبلون ما يسمعون منهم ويعتقدون ظانين أنه الحق فيكون ذلك سبباً لإضلالهم وغوايتهم وقد ذكرنا من الأحاديث المتواترة المصرحة بكفر هؤلاء وعظم فتنهم ما فيه مقنع وكفاية لمن تدبره... وفي الآية الكريمة إذن للمسلمين بقتالهم عند المسجد الحرام ولم يعبأ المولى سبحانه بما جعله لهذا المسجد من الحرمه؛ لأن حرمة حرمة نسبته إلى الله تعالى فلما كان قتال الكفار عنده قتالاً للإلحاد فيه ومناوأة لدينه فقد صاروا غير محترمين له ولذلك أمرنا بقتالهم هنالك تأييداً لحرمة المسجد الحرام، والآية وإن نزلت لسبب خاص فهي عامة في كل حال يبادئ المشركون فيه المسلمين بالقتال لأن السبب لا

يخصص. وقد وردت الآيات في معرض الحديث عن أحكام الحج ثم أردف بذكر المنافقين الساعين في إهلاك الحرث والنسل الذين يتناقض ظاهرهم وباطنهم ويتنافر مظهرهم ومخبرهم محذراً من الاغترار بقولهم وإغرائهم وعذوبة لسانهم وحلاوة بياهم ثم التفت ليكشف موقف التلكؤ وعدم الاستجابة **(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)** قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في أهل الكتاب. ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم في الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان أي آثار تزيينه وغروره في الإقامة على النفاق وتعضية الكتاب، وذكر بعضهم أن الخطاب للمؤمنين فيكون السلم بمعنى الصلح وهو الإسلام أيضاً عند أبي علي الفارسي - كما في البحر المحيط - إذ الإسلام هو الصلح الحقيقي فلا قتال بين أهله وأنهم يد واحدة على من سواهم وفي الآية تحذير من الوقوع في حبائل الشيطان وأوليائه... ثم ذكر الحق تعنت أهل الكتاب واقتراحهم الخوارق واغترارهم بالدنيا وسخريتهم من المؤمنين... وانتقل إلى قصة اختلافهم في الكتاب ومعاناة المؤمنين معهم وما يجره هذا الخلاف من محن، ويتوجه إليهم بأن هذه هي سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين حتى إذا ثبتوا ولم يهنوا تحت مطارق الحنة والفتنة استحقوا نصر الله، لأنهم أمناء على دين الله مأمونون على كتاب الله صالحون لصيانتهم والذود عنه... ثم عرّج على فريضة قتال أهل الكتاب **(كتب عليكم القتال وهو كره لكم)** وعالج الأمر من جانب آخر، وقرّر أن وراءه حكمة تهون مشقته وتسيغ مرارته وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر القصير... ثم أردف بكشف الحملات الكيدية التي يشنها الماكرون في أسئلتهم، ليستيقن المؤمن من حقيقتها، ولا يتأثر بالحملات والدعايات المسمومة، فالقرآن

يتنزل فيها بالقول الفصل حتى يثوب المسلمون فيها إلى اليقين وتبطل الدسائس وتموت الفتن ويرتد كيد الكائدين إلى نحورهم، وقد نزلت الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في شأن سرية عبد الله بن جحش لإرهاب المشركين إلا أن مضمونها صادق على أهل الكتاب حسبما يرشد إليه السياق المكتنف بالسباق واللاحق، وهذا السؤال إنما صدر منهم على وجه التعنت والسخرية، والجواب إيكات! ولا ينافي صدور السؤال من أتباعهم على وجه الاستعلام أو الإنكار! والأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والحرم وهي زمن للحج ومقدماته وخواتمه، وشهر رجب وهو زمن للعمرة، ومعنى الآية: أن القتال الذي سألتهم عنه وإن كان كبيراً إلا أن ما تفعلون أنتم من الصد عن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ومن كفركم به وإخراجكم إياه وإخراج أتباعه أكبر جرماً عند الله... واعلم أن مشركي قريش اجتمع رأيهم في دار الندوة على قتله ﷺ فبيتوه خلافاً لبني إسرائيل الذين هموا بإخراجه بشتى وسائل الكيد والمكر! ولما كان كل ما تقدم من أمر الكفار فتنة كان كأنه قيل: أكبر، لأن ذلك فتنة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ولو كان في الشهر الحرام لأن همه يزول وغمها يطول... والفتنة إذا أطلقت فإنما يراد بها غالباً الكفر والشرك ومعنى الآية أن الكفر والإشراك بالله والتشغيب بالمسلمين وخداعهم وإيقاعهم في الحيرة والاضطراب وردهم عن دينهم والتعرض لهم بالأذى ومظاهرة الأمم عليهم والسخرية منهم أكبر إثماً عند الله من إثم القتال في الشهر الحرام - والله أعلم - وقد أشار إليهم المبيّن الأكرم ﷺ في الحديث المتفق عليه بقوله: «أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ» يعني بالفتنة: الكفر

والشرك. واعلم أن تحريم القتال في الشهر الحرام قد خصص بعد هذه الآية ثم نسخ فأما تخصيصه بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ إلى قوله ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ﴾ وأما نسخه بقوله تعالى ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فَأَجْلَهُمْ أَجْلاً وَهُوَ انْقِضَاءُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ وَهُوَ تِسْعَةٌ مِنَ الْمَهْجَرَةِ فِي حُجَّةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ وَقَدْ خَرَجَ الْمُشْرِكُونَ لِلْحَجِّ فَقَالَ لَهُمْ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أَي تِلْكَ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فَنَسَخَ تَحْرِيمَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَلِذَلِكَ قَاتَلَ النَّبِيُّ ﷺ ثَقِيفًا فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ عَقِبَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأَغْزَى أَبَا عَامِرٍ إِلَى أُوطَاسَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَشْرُوعِيَةِ الْغَزْوِ فِي جَمِيعِ أَشْهُرِ السَّنَةِ يَغْزُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَهُمْ أَوْلَى بِالْحُرْمَةِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَإِنْ قَالُوا: إِذَا نُسَخَ تَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ فَمَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْوُدَاعِ: «إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» فَإِنَّ التَّشْبِيهَ يَقْتَضِي تَقْرِيرَ حُرْمَةِ الْأَشْهُرِ؟ قُلْنَا: إِنْ تَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِيهَا تَبَعٌ لِعَظِيمِهَا وَحُرْمَتِهَا وَتَنْزِيهِهَا عَنْ وَقُوعِ الْجَرَائِمِ وَالْمَظَالِمِ فِيهَا فَالْجَرِيمَةُ فِيهَا تَعَدُّ أَعْظَمَ مِنْهَا لَوْ كَانَتْ فِي غَيْرِهَا، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْخُطَابَ النَّبَوِيَّ: «إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ» يَخْصُ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ، أَمَا قِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَجْلِ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ فَهُوَ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَاتِ، وَقَدْ أَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَجَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَامِ حُجَّةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ وَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ يَقْصِدُ الْحَجَّ؛ إِذْ قَدْ صَارَتْ مَكَّةُ بَيْدَ الْمُسْلِمِينَ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مَعْظَمُ قِبَائِلِ الْعَرَبِ

والبقية منعوا من زيارة مكة، واليوم يعود الأمر كما بدأ ويعود المشركون بوجه ماكر خبيث لهدم قرار الإسلام وتحريف دلالات النصوص واستثمارها من خلال التحريش والتفريق والتمزيق... وقد أشار ﷺ إلى قادة الفتنة والنفاق الذين فرقوا الأمة إلى ثنتين وسبعين وأخبر عن تلبسهم بالدين وأمر بقتلهم كما جاء في مسند أبي يعلى ومجمع الزوائد عن أنس بن مالك أن رجلاً كان يغزو مع رسول الله ﷺ فإذا رجع وحط عن رحله عمد المسجد فجعل يصلي فيه فيطيل الصلاة حتى جعل أصحاب النبي ﷺ يرون له فضلاً عليهم فمر يوماً والنبي ﷺ قاعد في أصحابه، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله هو ذاك الرجل فيما أرسل إليه وإما جاء من قبل نفسه فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «والذي نفسي بيده إن بين عينيه سفعة من الشيطان» فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ: «أقلت في نفسك حين وقفت على المجلس: ليس في القوم خير مني؟» قال: نعم، ثم انصرف فأتى ناحية من المسجد فخط خطاً برجله ثم صفّ كعبيه فقام يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟» فقام أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «أقلت الرجل؟» فقال: وجدته يصلي فهبته، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟» فقال عمر: أنا، وأخذ السيف فوجده يصلي فرجع، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «أقلت الرجل؟» فقال: يا رسول الله وجدته يصلي فهبته، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يقوم إلى هذا يقتله؟» قال علي: أنا، قال رسول الله ﷺ: «أنت له إن أدركته» فذهب علي فلم يجده فقال رسول الله ﷺ: «أقلت الرجل؟» قال: لم أدر أين سلك من الأرض! فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا أول قرن خرج في أمي لو قتلته ما اختلف في أمي اثنان إن بني إسرائيل تفرقوا على واحد وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة

كلها في النار إلا فرقة واحدة» فقلنا: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة» والمراد بالجماعة: السواد الأعظم وما عليه الجمهور من الصحابة والتابعين والسلف الصالح أهل المذاهب الفقهية والعقدية! ولما كان التقدير: وقد فتنوكم وقتلوكم وكان الله سبحانه وتعالى عالماً بأن أشد الأعداء من إذا تركته لم يتركك قال تعالى عاطفاً على ما قدرته ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وفي الآية إشارة إلى ما وقع من الردة بعد موت النبي ﷺ فإن القتال على الدين لا يزال حتى يفرغ من أمرهم ويدل الحجر والشجر عليهم! وكانوا أول من احتضن النفاق والمنافقين في الدولة المسلمة الناشئة في المدينة المنورة وأمدوا الناس بوسائل الكيد لرسول الله ﷺ... ثم ألّبوا الأحزاب على دولة النبي ﷺ وحرصوا عليها قبائل العرب المشركة في الجزيرة العربية وواعدوها وتآمروا معها وتولّوا حرب الإشاعات والكيد والدس وبث الشبهات والتحريفات والشكوك حول القيادة... وكانوا اليد التي ركّبت في خنجر أبي لؤلؤة المحوسي... ثم ألّبوا العوام وجمعوا الشراذم وأطلقوا الشائعات في فتنة مقتل سيدنا عثمان وما تلاها كما جاء في مسند الإمام أحمد: «يا عثمان إن الله عز وجل عسى أن يلبسك قميصاً فإن أَرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني، يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً فإن أَرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثاً.

والحكم الصادر من لسان النبي ﷺ على من أراد الخلع بالنفاق، مسألة أوسع من تصوّر العقل المسلم للأحداث! فإن النظر إلى فتنة مقتل سيدنا عثمان من وجهة الإسلام العالمية لا يُفسّر القضية بما يفسره المؤرخون المشتغلون بجزئيات المواقف

وإنما تُفسَّر الحوادث بإعادة قراءة النصوص النبوية وربطها بمسيرة الأحداث! والأمر الأكثر خطراً في المسألة: الربط بين مقتل عثمان وفتنة المسيح الدجال وهنا مربط الفرس في كشف الوحي لحقائق المواقف وجعل الفتنة واسعة المدى تخرج من دائرة الصراع بين الخليفة والخارجين عليه إلى إدانة من كان خلف الدوافع والمسببات للخروج ذاته وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «أول الفتن قتل عثمان، وآخر الفتن خروج الدجال، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من حب قتل عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره» وفي رواية لأحمد والحاكم: «من نجا من ثلاث فقد نجا» قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال: «موتي، وقتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه، والدجال» والرباط بين المنافقين وبين الدجال أحداث وعد الآخرة وإساءة وجوه المفسدين ساسة الحكم والعلم المشار إليهم في الحديث عند الإمام أحمد: «لغير الدجال أخوفني على أمتي» قالها ثلاثاً، قال: قلت: يا رسول الله ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك؟ قال: «أئمة مضلين» وهم الواضعون بصمات الانحراف والمهيئون أسبابه في المجتمعات والراسمون سياسة الدجل والنقض والقبض! وهنا مسألة دقيقة جداً لا يدركها القارئ المتعجل ولا المنافع المستعجل فإن الفتنة التي عصفت بمقتل عثمان ﷺ مهّدت لمقتل علي ﷺ وهكذا دواليك فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله سيفاً مغموداً في غمده ما دام عثمان حياً فإذا قتل عثمان جرد ذلك السيف فلم يغمد إلى يوم القيامة» إنها سياسة الشيطان وأوليائه الذين أنشؤوا حملات الخوارج وعمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين! ثم حزبوا الجوس ووضعوها لهم المذاهب الفاسدة وألبوهم على المسلمين وحاربوا آل البيت

بأكذوبة نصره آل البيت! فبعد أن أُجّلوا من جزيرة العرب إلى الشام عمدوا إلى أهل العراق مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر فجعلوا المسلمين فرقاً وشيعاً وأثاروا الفتن والاختلاف والتفرق والافتتال وخلطوا الأوراق السياسية وحولوا الدين إلى فرق عقائدية معقدة وكتل فكرية ومذهبية متباينة وكانوا خلف مقتل سيدنا علي والحسين رضي الله عنهما ولعل هذا ما فهمه سالم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن ابن فضيل عن أبيه قال: سمعت سالم بن عبد الله بن عمر يقول: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأوماً بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل له: وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً» وأخيراً كانوا وراء الانقلابات التي انتهت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال الدستور في الدولة العثمانية... وقاموا بتهجير المتهودين إلى فلسطين ووعدوهم بإقامة دولة أطلقوا عليها "دولة إسرائيل" بدم كذب... حتى انتهى بهم المطاف إلى جمع أمم الأرض ليقودوا أمكر تحالف عرفته البشرية من قلب جزيرة العرب... يستخدمون الماسونية والصهيونية والصليبية والجوسية في هذه الحرب الماكرة ويقىمون الأوضاع ويرسمون السياسات ويضعون التشريعات ويصنعون الأبطال ويشنونها حرباً على كل جذر من جذور هذا الدين ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ وقد بين تعالى أن فتنة الناس وإدخالهم في الشرك وإضلالهم وإفسادهم وخداعهم وإلقاء الشبهات وإيقاد الحرب بينهم وإبعادهم عن منهج الله وتشريع ما لم يشرعه الله ثم تحسينه بكلام

الله وسنة رسوله ﷺ أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة ﴿والفتنة
أشد من القتل﴾ فالشرك اعتداء على أقدس ما في الحياة، وآل سعود يعملون في
حقل واحد مع أحبارهم آل الشيخ الذين جعلوا الشيطان شريكاً لله وشرعوا
ميثاق الأمم المتحدة وفرضوه نظاماً على الناس في صلاتهم ونسكهم وأعمالهم
وأحدوا في بيت الله وحرفوا كتاب الله وقتلوا إحياءاته في حس المسلمين وارتشوا
في الحكم وسعوا في الأرض فساداً وأمنوا انبعاث دين الفطرة الذي لم يستطيعوا
مواجهته في ميدان القتال - وأخبت هؤلاء الأحبار في تاريخ الدولة السعودية
الثالثة محمد بن إبراهيم آل الشيخ وجاء في رسائله وفتاويه ما يدل على استهزائه
وسخريته بآيات الله حيث قال: **الذي نص عليه العلماء أن الكفار يُمنعون من
دخول حرم مكة المكرمة ومن الإقامة فيه وهو ما أدخلته الأميال لقوله تعالى
(إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ولأنه محل
المناسك والمشاعر المفضلة فوجب أن يمنع منه من لا يؤمن بها، ومن دخله منهم
عزر وأخرج ولو مريضاً أو ميتاً وينبش إن دفن به - وليت شعري ما لهؤلاء
المخادعين خلاق ولا مروءة ولا دين بل يحاسبهم الله سبحانه وتعالى إن شاء بما
يستحقونه من تجرئهم على الله سبحانه وتعالى وعلى دينه عافانا الله سبحانه
وتعالى من هؤلاء الكفرة الفجرة وأفعالهم القبيحة الشنيعة الدالة على سواد
قلوبهم وفساد أعمالهم ونياتهم! قال تعالى ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة
أو من وراء جدر﴾ وقرئ بالإنفراد "من وراء جدار" والمعنى: لا يقاتلونكم مباشرة
وإنما يقاتلونكم من وراء ستار الدين أو يُظاهرون شركاءهم عليكم، وإن
قاتلتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يدافعونكم في قصور كبيرة محصنة. وكان
عدو الله عبد العزيز آل سعود مثلاً في الغدر والخيانة واللؤم والخسة**

واللصوصية...كتب إلى السلطان عبد الحميد رسالة جاء فيها: أقدم عبودي
وطاعتي ودخالي إلى الأعتاب السامية المقدسة ممثلاً كل إرادة وفرمان لست
بعاص ولا خارج عن دائرة الأمر بل أنا العبد الصادق في خدمة دولتي وجلالة
متبوعي الأعظم أريد الإصلاح ما استطعت قد ابتلاني الله سبحانه وتعالى
بشرذمة يحسدون ويفسدون ولا يصلحون قاموا يشوشون أفكار دولة دلالة ولي
النعم ويدخلون على فكره الشريف الأوهام الواهية يريدون تفريق الكلمة
الإسلامية وتقسيم الجامعة المقدسة العثمانية وإلجائي إلى الاحتماء بالدول
الأجانب فحاشا ثم حاشا عبد جلالكم عثماني صرف أفدي السدة العثمانية
بعزيز روعي أجمع كلمة بادية الخطة النجدية بما آتاني الله ومنحتني دولتي العلية
من النفوذ تحت راية مولانا أمير المؤمنين سلطان المسلمين السلطان عبد الحميد
الثاني نصره الله...إلخ. ثم سار أبناؤه من بعده على نهجه - تاريخ حافل
بالمخازي والفري - وكان أحبهم فيصل لعنه الله وأشعل قبره ناراً، وأمه حفيذة
اللعين ابن عبد الوهاب فجمع بين خبث المستقر والمستودع، وهو صاحب
المسرحيات الدولية، والبنوك الربوية، ومنظر النظام العالمي...خدع أهل الشام
وأحمد ثورتهم التي كادت أن تُنهي تهويد فلسطين عام 1936 ثم قال أتمنى أن
أقتل شهيداً لتحرير الأقصى! فقتله الله - وليس يحقُّ المكرُّ إلا بأهله، وحافرُ بئرِ
الغدرِ يسقط في البئرِ - وانتفخت جثته عبرة للمعتبر...

له ألفُ وجهٍ بعد ما ضاع وجهه فلم تدرِ فيها أيَّ وجهٍ تُصدِّقُ

أدار عمليات القتل في فلسطين، وأشرف على عملية إحراق المسجد الأقصى!
ووضع خطة عمليات التعذيب الوحشية في سجون الشام والعراق ومصر وبلاد

المغرب... حرر العبيد ثم استرق الأحرار والعبيد، فأذلَّ شعبه وأضلَّ قومه وما هدى... أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «ضاف ضيف رجلاً من بني إسرائيل، وفي داره كلبه مُجِحٌ فقالت الكلبة: والله لا أنبح ضيف أهلي، قال: فعوى جراًؤها في بطنها، قال: قيل: ما هذا؟ قال: فأوحى الله عز وجل إلى رجل منهم هذا مثل أمة تكون من بعدكم يقهر سفهاؤها أحلامها» ولما كان هؤلاء أعرق في النفاق وأشد في الكفر والعناد وأعظم في الخبث والفساد أمر تعالى بقتلهم حيث وجدوا في الحل والحرم وأمر بمجانبتهم مجانبية كلية فقال (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) ومما ينبغي على المجاهد في سبيل الله أن يخاطبهم بلسان الحجة وإلزام الدليل ولا يكلمهم على نوازع النفس والعادة ويضع نصب عينيه وصية رسول الله ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وقد أدرك الحفاة العراة أن السيطرة على المسلمين تبدأ بصناعة الأفكار والمناهج وإزاحة حقيقة الوحدانية من أذهانهم وتحويل التوحيد إلى أوعية مجوفة في أدمغتهم يسوقوهم بزخرف القول الذي ينفثونه فيهم فيقاومون ويقاثلون على وفق ما يُرسم لهم! ولما تساهل بعض أبناء الإسلام في التحذيرات الإلهية وقعوا في فخاخ الأمة الملعونة فنفتت سمومها في أذهانهم وزرعت بذورها فيهم حتى كَفَر بعضهم بعضاً وعدا بعضهم على بعض وصاروا أجساداً بلا عقول! أخرج ابن حبان في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رثيت بهجته عليه وكان ردءاً للإسلام غيرَه إلى ما شاء الله فانسلك منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف

ورماه بالشرك» قال: قلت يا نبي الله: أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: «بل الرامي» وأخرج ابن ماجه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة لهرجاً» قال: قلت: يا رسول الله، ما الهرج؟ قال: «القتل» فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، إنا نقتل الآن في العام الواحد من المشركين كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ليس يقتل المشركين ولكن يقتل بعضهم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره وابن عمه وذا قرابته» فقال بعض القوم: يا رسول الله، ومعنا عقولنا ذلك اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، تنزع عقول أكثر ذلك الزمان، ويخلف له هباءً من الناس لا عقول لهم» وكفى بالمرء خسة عقل أن يتخذ منهج عدوه قدوة له وأن يعد القبيح حسناً وأن ينخلع عن كماله في اتباع نقائص غيره... وكم من الناس على شكل الناس ولكنهم كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «ذهب الناس وبقي النسناس» قيل له: وما النسناس؟ قال: «الذين يشبهون الناس وليسوا بالناس» انظره في الزهد الكبير للبيهقي والزهد لأبي داود وهو في الحلية معزو لابن عباس رضي الله عنهما. وروى الديلمي عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تتناكر القلوب وتختلف الأقاويل ويختلف الأخوان من الأب والأم في الدين» وهذا النموذج مستشر وظاهر في مرحلتنا المعاصرة! وروى الحارث في المسند وابن حجر في المطالب العالية بإسنادهما عن أنس بن مالك قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى أبلغوا في الشاء في خلال الخير قال رسول الله ﷺ: «كيف عقل الرجل؟» قالوا: يا رسول الله نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسلأنا عن عقله؟ قال رسول الله ﷺ: «إن الأحق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنما يرفع العباد غدا في الدرجات وينالون الزلفى من

ربهـم على قدر عقولهم» وعن أبي هريرة قال: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة
 أحد سمع الناس يقولون: كان فلان أشجع من فلان وكان فلان أجراً من فلان
 وفلان أبلى ما لم يبل غيره ونحو هذا يطروهم فقال النبي ﷺ: «أما هذا فلا علم
 لكم به» قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «كلهم قاتل على قدر ما قسم
 الله لهم من العقل فكان نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من
 أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم
 وعقولهم» اللهم ارزقنا عقولاً راجحة وأفكاراً واضحة وأنظراً صائبة وأفهاماً
 ثاقبة وعيوناً باصرة ويداً ناصرة اللهم آمين. لقد حذر النبي ﷺ في خطبة الوداع
 من طريقة التضليل والتكفير التي ينشرها أصحاب نواقض الإسلام الذين يسعون
 إلى إيقاع الفتنة والشر بين المسلمين، وجاء في صحيح الإمام البخاري: «فإن
 دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا
 في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي
 ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليلغ الشاهد الغائب» ثم ذكر المسيح
 الدجال فأتى في ذكره. وقوله: «ضللاً» توضيح للرواية الأخرى: «لا ترتدوا
 بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» فجعل القتال شعار التكفير، قال
 صاحب إرشاد الساري: أي لا تكن أفعالكم تشبه أفعال الكفار في ضرب
 رقاب المسلمين. وقال الإمام العيني: فيه وجوه: أحدها: أن يكون صفة لكفار
 أي لا ترجعوا بعدي كفاراً متصفين بهذه الصفة القبيحة يعني ضرب بعضكم
 رقاب آخرين، والثاني: أن يكون حالاً من ضمير لا ترجعوا أي لا ترجعوا
 بعدي كفاراً حال ضرب بعضكم رقاب بعض، والثالث: أن يكون جملة
 استئنافية كأنه قيل: كيف يكون الرجوع كفاراً؟ فقال: يضرب بعضكم رقاب

بعض، فعلى الوجه الأول: يجوز أن يكون معناه: لا ترجعوا عن الدين بعدي فتصيروا مرتدين مقاتلين يضرب بعضكم رقاب بعض بغير حق على وجه التحقيق وأن يكون لا ترجعوا كالكفار المقاتل بعضكم بعضاً على وجه التشبيه بحذف أداته هو على الثاني يجوز أن يكون معناه: لا تكفروا حال ضرب بعضكم رقاب بعض لأمر يعرض بينكم لاستحلال القتل بغير حق وأن يكون لا ترجعوا حال المقاتلة لذلك كالكفار في الإهمالك في تهيج الشر وإثارة الفتن بغير إشفاق منكم بعضكم على بعض في ضرب الرقاب، وعلى الثالث: يجوز أن يكون معناه: لا يضرب بعضكم رقاب بعض بغير حق فإنه فعل الكفار وأن يكون لا يضرب بعضكم رقاب بعض كفعل الكفار على ما تقدم. اهـ. وقد صمّ المسلمون عن هذه النصيحة الجليلة! وهذا الذي خافه ﷺ على أمته كما جاء في صحيح ابن حبان: «لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال» وروى الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما» والسلامة من ذلك حفظ اللسان من الدم واليد من الدم كما روى أبو داود عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً القاعد فيها خير من القائم والماشي فيها خير من الساعي فكسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة فإن دُخل - يعني - على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم» وفي الحديث عند أحمد: «ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينكم» وقد حصل ذلك نتيجة فقدان الحكم ونقصان العلم وتسلب اليهود والنصارى الذين فككوا الأمة المسلمة

وحطموا وحدتها وقرارها وحرشوا بينها ولم يعد قرار السلم والحرب بيدها... ومعنى "المصلون" أي المؤمنون لأن الصلاة أشرف الأعمال وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان، قال العلامة القاري في المرقاة: فالأولى أن يقال المراد أن المصلين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان كما فعلته اليهود والنصارى. وروى ابن ماجه من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمة شهركم هذا في بلدكم هذا في يومكم هذا، ألا وإني فرطكم على الحوض وأكثر بكم الأمم فلا تُسودوا وجهي، ألا وإني مستنقذ أناساً ومستنقذ مني أناس فأقول: يا رب أصيحابي؟ فيقول: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك» والذين أحدثوا هم المنافقون أولياء الشيطان وفي الحديث عند ابن ماجه: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ولكن ستكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها» قال العلامة علي القاري في المرقاة: أي قنط أن يعبد أي من أن يُطاع في عبادة غير الله تعالى لأنه لم يعرف أنه عبده أحد من الكفار في بلدكم هذا أي مكة أبداً أي علانية إذ قد يأتي الكفار مكة خفية ولكن ستكون له طاعة أي انقياد أو إطاعة فيما تحتقرون من أعمالكم أي من القتل والنهب ونحوهما من الكبائر وتحقير الصغائر فسيرضى بصيغة المعلوم وفي نسخة بالجھول أي الشيطان به أي بالمحتقر حيث لم يحصل له الذنب الأكبر ولهذا ترى المعاصي من الكذب والخيانة ونحوهما توجد كثيراً في المسلمين وقليلاً في الكافرين لأنه قد رضي من الكفار بالكفر فلا يوسوس لهم في الجزئيات وحيث لا يرضى عن المسلمين بالكفر فيرميهم في المعاصي. اهـ. وفي الحديث الذي رواه أحمد تحريض على قتال أمة الشراد والجحد والعناد وتحذير من قتال أمة الإجابة والرشاد: «روحة في سبيل

الله خير من الدنيا وما عليها وغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وإن المؤمن على المؤمن حرام عرضه وماله ونفسه حرمة كحرمة هذا اليوم» ثم يعود المقام أمراً للمرة الثالثة بقتالهم، وهم من احتلوا ذلك الرمز الذي أمر الله بتعظيمه وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، ويتخلل ذلك دعوتهم إلى الانتهاء عن محادة الله تعالى ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ ثم إنه تعالى أمر بقتالهم وبين العلة التي بها أوجب قتالهم فقال ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الشرك بالكلية ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ والانتفاء يحصل بقتل أنفسهم أي بقتل النائب منهم المجرم أو بالخروج من جزيرة العرب لقتال شركائهم - كما سيأتي بيانه - وسمي ما يصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان إذ الظلم يتضمن العدوان والظالمون هم أئمة الكفر والنفاق الذين بدؤوا بقتال وبقوا على كفر وفتنة... وفي الآية أمر صريح بقتالهم حتى لا يكون إشراك وتزول الفتنة بقتلهم وظهور المسلمين عليهم ويكون الحكم والسلطان لله فإذا حصل قتالهم وتم قتلهم خلص الإسلام وزالت الفتنة بالكلية، قال تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ والمعنى - والله أعلم - كما اجتمعوا على قتالكم اجتمعوا على قتالهم ولا تفرقوا وتختلفوا في مقاتلتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قاتلوهم بكليتهم ولا تحابوا بعضهم بترك القتال كما أنهم يستحلون قتال جميعكم. وقال العلامة الألوسي: لا يتخلف أحد منكم عن قتالهم أو لا تتركوا قتال واحد منهم. اهـ. فلا سبيل إلى القعود معهم وإنما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم لأن في قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية ولا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم

كما لا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به في كتابه فإن هذا من النصح للمسلمين ومن أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. روى الإمام البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال: أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ: «والنصح لكل مسلم» ومن قاتل أئمة الكفر مستبصراً في قتالهم، عالماً بما قص الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، مستيقناً من ضلالهم يقينه من هداه، عارفاً للحق الذي هو عليه؛ له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله... روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: «اهج المشركين فإن جبريل معك» وفي رواية لمسلم: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» واعلم أن تلك المعية وهذا التأيد لا يخص سيدنا حسان رضي الله عنه بل يشمل أنصار رسول الله ومؤيديه وهذا من وظائف جبريل عليه السلام كما قال تعالى (وأيدهم بروح منه) أي أيدهم بجبريل عليه السلام. وقال بعضهم: أيدهم بالقرآن وحجته. وقال بعضهم: أيدهم بنور إيمان وهدى وبرهان. وفي الحديث عند أبي داود والنسائي والدارمي أن رسول الله ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» أي ادفعوا الأموال إلى من يحاربهم ويستأصلهم وقتلوهم بأنفسكم وأسمعوهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه من هجو وكلام غليظ ونحو ذلك من إغراء الناس على دفع فسادهم. واعلم أيها المجبول على فطرة الخلافة الإلهية والنيابة الربانية أن سقوط الآلهة والشركاء إنما يكون بسقوط رأس الأفعى - أعني بني إسرائيل - ومتى قبضت على رأس الأفعى فالخطب فيها يسير... وإن قبضت على الذنب نهشتك ولا تنهش إلا للأكل والابتلاع، وليس في الأرض شيء جسمه مثل جسم الحية إلا والحية أقوى بدنًا منه أضعافاً، ومن

قوّتها أنّها إذا أدخلت رأسها في جحرها لم يستطع أقوى الناس وهو قابض على ذنبها بكتلتا يديه أن يخرجها لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها وربما انقطعت في يدي الجاذب لها مع أنّها لدنة ملساء علكة، فأما أذنان الأفاعي فإنها تنبت...ومن ظن بجهله أن رأس الكفر فارس أو الروم فإنما يتعسف طريقاً مظلماً ويعتقد أمراً مبهماً ولا يعيش واقع الكتاب والسنة، إنما هو أسير بيت العنكبوت الذي اتخذته للقتل! أخرج أبو داود والنسائي عن سعيد بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ فذكر فتنة فعظم أمرها، فقلنا: يا رسول الله لئن أدركتنا هذه لتهلكنا، فقال رسول الله ﷺ: «**محسبكم القتل**» وهذا التهديد النبوي من شأنه أن يهز كل من يألف واقع الجاهلية الخداعة بسلبياتها وينفر من كل تغيير، فيجيء الإشعار بالخطر ليحدث صدمة التهديد والوعيد من أجل الخروج عن مألوف العادات والتقاليد الجاهلية وإسقاط الحواجز والحجب. أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال: «**اعدد ستاً بين يدي الساعة** - وذكر منها - **فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته**» وفي رواية لأحمد: «**فتنة تكون في أمي وعظمها**» والأمة الحمديّة بالجملة أمة مرحومة كما روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة جعل الله عذابها في الدنيا القتل والزلازل والفتن**».

الفصل الثالث: ميثاق أهل الكتاب

هكذا تلقت الأمة الملعونة ميثاق السماء!

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ يعرض القرآن قصص بني إسرائيل عرضاً حياً ناطقاً موحياً مؤثراً لاستخلاص القيم الكامنة وراء الأحداث وتصوير الجو الذي صاحبها والسنن الكونية التي تحكمها والمبادئ الباقية التي تقررهما، وبذلك تستحيل الحوادث محوراً أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من الاستدلالات، وحين يعرض القرآن قصص القوم يذكرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد أنبيائهم وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال متحدة الجبل، كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور، ويعاود القرآن تذكيرهم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض، ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم من فرعون وملئه كأنه حاضر ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ وأمام هذا المشهد الشاهد بقدرة الله وألوهيته الحاكمة يبدو عناد المعاندين واستهزاء المستهزئين، وتظهر طبيعة القوم وجبلتهم الموروثة في تنكرهم لمنعمهم ومحادثهم ربهم ومقابلتهم النعمة بالكفر، فيجتمع كبيرهم اللعين عبد العزيز آل سعود بالرئيس الأمريكي روزفلت على متن البارجة الأمريكية كوينسي في البحيرات المرة التي أغرق الله تعالى فيها فرعون وجنوده!!! كما اجتمع مع رئيس وزراء بريطانيا وينستون

تشرشل في نفس السنة 1945 على بحيرة قارون في موضع الحسف، وتم إعلان ميثاق الأمم المتحدة بصيغته الأخيرة! وهكذا تلقت الأمة الملعونة ميثاق السماء **(وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله)** أي أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم، والتولي الإعراض وإبطال ما التزموه، وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه أي توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقتلتم للناس أفحش القول وراءيتم الناس في الصلاة والزكاة، ثم توليتم عن تعمد وجرة وقلة اكتراث بالوصايا وحاربتم الله سبحانه. وسياق الآية يجول مع بني إسرائيل جولة واسعة طويلة تخللتها دعوتهم للوفاء بعهد الله مع تذكيرهم بعثرتهم وخطاياهم والتوائهم وتلييسهم منذ أيام موسى...وقد ظهر منهم النقض بعد ما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح، فخادعوا المؤمنين بإظهار الإسلام في ميثاق الدرعية، وحادّوا الله تعالى بميثاق الأمم المتحدة! وهم اليوم تماماً كما كانوا بالأمس حين قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام وحرفوا كتبهم وتركوا شرائعها، ووقفوا من خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام موقفاً لئماً ماكرأً عنيداً وخانوه وخانوا موثيقهم معه، فباؤوا بالطرد واللعن والتباعد عن طريق التوحيد، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى! وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم من تاريخهم القديم مع رسل الله ومن موقفهم الجديد منها ومن رسولها ودينها القويم، فهم أعداء منهج الله الصحيح دائماً، وهم لا يريدون رؤية الحق كما أنهم لا يريدون ترك العداء المستحكم في قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد. والمولى سبحانه يُبَصِّرُ الأمة المسلمة بأساليب بني إسرائيل ووسائلهم في الكيد والفتنة

ويحذرهما كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم فلا تنخدع بأقوالهم ودعائهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والإضلال، ويدل طول هذا الخطاب في سورة البقرة وتنوع أساليبه على ضخامة ما تلقاه أمة الإسلام من الكيد المنسوب لها والمرصود لدينها منهم، وكان من أول أغراض هذه السورة تصفية الأمة المسلمة من أن تختلط بالأمة المفسدة، وبين أن وآخر يلتفت النظم إلى بني إسرائيل ليواجههم على مشهد من المسلمين بما أخذ عليهم من المواثيق وبما نقضوا من هذه المواثيق وبما وقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم وقتلهم الأنبياء لكونهم لا يطاوعونهم على هواهم، والتوائهم وجدالهم بالباطل وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص، وتوليهم عن توحيد الله وهم معرضون، واتخاذهم شركاء يشاقون الله فيهم. وقد تضمن الميثاق في الآية ثمانية أوامر ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ فإنه تعالى أمرهم بوحدانيته وبرأته عن الأضداد والأنداد وعن الصاحبة والأولاد ولما أوصى بأول واجب للمنعم الأول الموجد من العدم أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب في الوجود وكفى دلالة على تعظيم أمر الوالدين إذ جعل برهما قرين الأمر بتوحيده سبحانه ثم أردف بحق ذي القربى وهو تابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين ثم أعقب بحق اليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس صدقاً في شأن التوحيد والكتاب والنبوة ليستقيم ظاهريهم مع باطنيهم ثم إذا قالوا للناس حسناً فقد أضمرُوا لهم خيراً وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق، وقرئ بفتح الحاء والسين على معنى الوصف للقول ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ثم أمرهم بإقام الصلاة

وإيتاء الزكاة ولما كان بنو إسرائيل قد عبدوا العجل والشيطان وجعلوا أنداداً للرحمن هان عليهم عقوبتهم لوالديهم وقطيعة أرحامهم وظلمهم لليتامى والمساكين ومخادعة المسلمين وإضاعة الصلاة والزكاة...

وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

الحق تعالى ما شرع العبادات لمجرد إقامة نشأة صورتها الظاهرة فقط وإنما شرعها لما تدل عليه وتعطيه من المعرفة به سبحانه، وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالإطاعة العامة إشارة إلى علو شأنهما وإنافه قدرهما فإن الصلاة رئيس الأعمال البدنية جامعة لجميع أنواع العبادات ومن عبد الله تعالى بها فهو محفوظ بعبادة العابدين من أهل السموات والأرضين ومن تركها فهو محروم منها، واعلم أنها تحصل تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة لأن فيها تكليفاً للنفوس شاقاً عليها إذ تأتي في أوقات ملاذ العباد وأشغالهم فتطالبهم بالخروج عن ذلك كله إلى القيام بين يديه والفراغ عما سوى الله فلذلك قال ﴿واصطبر عليها﴾ ومما يدل على أن في القيام بالصلاة تكاليف العبودية وأن القيام بها على خلاف ما تقتضيه البشرية قوله تعالى لبني إسرائيل ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ فجعل الصبر والصلاة مقترنين إشارة إلى أنه يحتاج في الصلاة إلى الصبر؛ صبر على ملازمة أوقاتها وصبر يمنع القلوب فيها عن غفلاتها ولذلك قال بعد ذلك ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ فأفرد الصلاة بالذكر ولم يفرد الصبر به. وإذا كانت الصلاة رئيس الأعمال البدنية فإن الزكاة هي أم الأعمال المالية بها يطهر القلب من دنس البخل والمال من خبث الحرمة فعلى هذا هي بمعنى الطهارة وسُميت زكاة لأنها

تركي صاحبها وتشهد بصحة إيمانه كما سميت الصدقة صدقة لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة إيمانه بظاهره وباطنه، وبالزكاة ينمو المال في الدنيا بنفسه لأنه يحق الله الربا ويربي الصدقات وفي الآخرة بأجره لأنه تعالى يضاعف لمن يشاء، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يعني إقامة أصل الدين وقاعدته وخلع الشرك بالله الذي يحبط العمل، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال عز وجل ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وقال سبحانه ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وعُدي سهوهم بحرف ﴿عَنْ﴾ لإفادة أنهم أشركوا بالله فأحبط صلاتهم والمعنى: أنهم ساهون عن إقامتها وأطلق عليهم ﴿سَاهُونَ﴾ تحكماً لأنهم لا يصلون إلا رياء فإذا خلوا تركوا الصلاة، ونحوه قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ قال التستري في تفسيره: هم المنافقون ومن تخلق بأخلاقهم يطففون في صلاتهم كما قال سلمان رضي الله عنه: الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله تعالى في حق المطففين "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" وتغمزوهم على ما عثروا عليه من عيوب الناس وترتكبون مثلها وأفطع منها ولا يطلع على عثرات الخلق إلا مخطئ جاهل ولا يهتك سر ما اطلع عليه إلا ملعون. اهـ. والاستفهام في الآية ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالدينِ﴾ مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالحكمة! روى الطبري عن ابن عباس قال: «الذي يكذب بحكم الله عز وجل» وهذا يعني ابتداء التكذيب باليوم الآخر كما هو حال أهل الكتاب، ولما ذكر الله تعالى في سورة قريش "الذي أطعمهم من جوع" ذم بعدها في سورة الماعون من لم يحض على طعام المسكين، ولما قال هناك "فليعبدوا رب هذا البيت" ذكر هنا من سها عن صلاته!

ووصفهم بـ **(المصلين)** تهكم والمراد أنهم ليسوا بمسلمين كقوله تعالى **(قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين)** والمراد أن الله أحبط صلاتهم وزكاهم بسبب إشراكهم والله أعلم. ونحوه قوله سبحانه **(فلا صدق ولا صلى)** أي فلا صدق ماله يعني فلا زكاه ولا أقام صلاته. ولما كان هذا التوحيد الإلهي مضاعفاً في المستخلفين تردد ذكره في القرآن، ألا ترى إلى قول قوم شعيب لنبيهم مستهزئين به **(أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء)** وكان قد حذر قومه أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح من العذاب الذي نزل بهم جزاء هذا الشرك. قال تعالى آمراً عبده موسى **(إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري)** أي أقم الصلاة لتوحيدي أو لذكري خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل: لتذكركني فيها وأذكرك فخاطب رسوله بالتعريف ليفشو ذلك في عرفان الوحي ومعلوم النبوة. والآية مفرعة عن تعليم الكليم اسم الله وانفراده بالربوبية **(إني أنا ربك)** والألوهية **(إني أنا الله لا إله إلا أنا)** وفي هذا النظم البديع تظهر حكمة إقامة الصلاة، فإن أُقيمت على هذا الأساس وإلا كانت عوجاء باطلة يُراد بها مراعاة الناس كما حكى تعالى عن المنافقين **(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس)** والصلاة في هذا الوجه مسلوبة عنهم وكذلك الزكاة ولذلك أنزل فيهم **(والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس)** ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى **(فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، ويمنعون الماعون)** روى الطبري عن الحسن قال: "هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله فإن صلى رأى" وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله **(هم يراؤون)** لتأكيد الحكم. وهذا نظير ما جاء في صحيح الإمام مسلم: **«والفخر والرياء في**

الفدادين أهل الخيل والوبر» ولما وصف تعالى المنافقين في سورة الماعون بقبائح الأعمال ذكر في سورة الكوثر التي تليها ما يقابلها من كريم السجايا والفعال فقال سبحانه لحبيبه ومصطفاه (فصل لربك وانحر) ونحر البدن الأولى حملة على الزكاة لأن الله تعالى قرن بين هاتين الشعيرتين في التنزيل العزيز كما في قوله (قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى) أي أفلح من وحّد الله في ربوبيته وسلطانه فاستقامت صلاته وأوتيت زكاته، وقدم الزكاة لأن المال إذا طهر تطهرت النفس وأشرقت فيها أنوار الهداية، وحكى تعالى عن المسيح قوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً) وقال جل شأنه (قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن الغلو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون) وفي الصحيحين من حديث عبد الله: «التحيات لله والصلوات والطيبات» أي كل التحايا وهي العبادات القولية والصلوات وهي العبادات البدنية والطيبات وهي العبادات المالية جميعها لله تعالى لا يستحقها غيره. وجماع القول في آية البينة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله ﷺ قال: «سلوني عما شئتم» فنادى رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة» قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» قال: فما اليقين؟ قال: «التصديق بالقيامة» وحتى لا تكون الصلاة مجرد حركات تعبدية فإن المولى عز وجل يؤكد آثارها السلوكية (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال المفسر الأعظم ﷺ في تفسير هذه الآية: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً» رواه الطبراني. والمنكر هو الشرك، ألا ترى إلى قوله تعالى (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) فإن

المقصود أولاً ليس النهي عن الصلاة بل النهي عن التوحيد الذي أتى به سيدنا محمد ﷺ لأن النهي عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها بل عن شرطها المقارن والله أعلم، ويؤيد هذا القصد التعقيب بالآية ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ وصيغة المضارع في قوله ﴿يَنْهَى﴾ لاستحضار حالة بني إسرائيل العجيبة وإلا فإن نهي أبي جهل قد مضى وسبب النزول لا يُخصَّص. وقد أنبأنا المولى سبحانه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ أن المنافقين سيدعون في موقف القيامة إلى السجود فلا يستطيعون!

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِعَدْلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الآية الكريمة متصلة بقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو خطاب لليهود بحفظ ما أُخذَ عليهم في التوراة - كما ذكر الإمام القرطبي - وقد أخذ الله تعالى على الأمة الإسرائيلية أن يلتزموا شرائع الإسلام ويحافظوا على مراسم الإيمان ويجاهدوا نفوسهم في تحصيل مقام الإحسان وهو دين أعلم الأنبياء وسيد الحكماء وعين العقلاء الذي كشف ظلمات الشك والشرك ولقي من بني إسرائيل الغدرات كما أشارت الآية المتقدمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وسبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني النضير يستعينهم في الدية فقالوا: نعم يا أبا القاسم انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك،

فنزل ﷺ في ظل جدار فتآمروا بينهم في قتله وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه اليوم، فقال بعضهم لبعض: من رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش! وجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ فقام من المكان وتوجه إلى المدينة. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله وأصحابه طعاماً ليقتلوه إذا أتى الطعام فأوحى الله إليه بشأنهم فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فلم يأتوه. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن دأبهم الفتك بالأنبياء والرسل والمكر والغدر بهم ونبد العهود ونقض المواثيق ولذلك صرح تعالى بلعنهم فقال ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وأخر الإيمان بالرسول عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة للتنبيه على أدائهما على ما أمرهم الله تعالى به من توحيده فذكر أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مبني عليه حتى يحصل المقصود وإلا سقط البناء وحبط العمل ولم يكن لهاتين الشعيرتين تأثير في حصول النجاة وأعقب بما شرط عليهم من نصرة الرسل والإنفاق في الجهاد ووصف ذلك بإقراض الله قرضاً حسناً - والله أعلم - ومن مراعاة هذا المقصد قوله تعالى ﴿لكن الراسخون في العلم منهم يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ وقد جاء اللفظ "والمقيمين" منصوباً على المدح لبيان أهمية الصلاة! والاستعانة بالصبر على إقامة الصلاة لمواجهة مشقة النزول عن القيادة والرياسة والمصالح اعترافاً بربوبية الله

أمر كبير إلا على الخاشعين ومتى استقام هذا الميزان بدت الدنيا كلها ثمناً قليلاً وعرضاً هزياً وبدت الآخرة على حقيقتها التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها.

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون) هذا خبر عن أسلاف بني إسرائيل وهو خطاب للأخلاف ينهاهم الحق عن نقض عهد الله وميثاقه بالإشراك به وعصيان رسله والمعنى لا تسفكون دماءكم بالتسبب في عبادة غير الله ونقض عهده وميثاقه فقتلوا أنفسكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم بالجناية على غيركم ونصب المكاييد لهم بالخدعة والتلبس فتجلبوا عن أوطانكم وهذا مبني على المجاز التبعي في تسفكون وتخرجون بعلاقة التسبب. وقوله "ثم أقررتم وأنتم تشهدون" مرتب ترتيباً ترتيباً أي أخذ عليكم العهد وأقررتموه أي عملتم به وشهدتم عليه فالضميران في "أقررتم وأنتم تشهدون" راجعان لما رجع له ضمير ميثاقكم وما بعده لتكون الضمائر على سنن واحد في النظم...وجملة "وأنتم تشهدون" حالية أي لا تنكروا إقراركم بذلك إذ قد تقلدتموه والتزمتم التدين به! وقد بين الحق تبديلهم أمره وركوبهم معاصيه بقوله (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا) وكانوا قد دخلوا في حروب بعث فكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه وإذا أسر إسرائيلي من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فسجل الله عليهم مخالفتهم لأحكام كتابهم! والمراد من الخزي: ما لحق بهم من

المذلة بإجلاء قينقاع والنضير عن ديارهم وقتل قريظة وفتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيما ومقنا وغيرها، وما سيلحقهم من القتل والإجلاء والتشريد والذل بين الأمم والله أعلم.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين﴾ الألواح التي أعطيها موسى كانت من حجارة صماء كما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج. وقوله ﴿من كل شيء﴾ عام عموماً عرفياً يراد به أعظم الأشياء أي كل شيء تحتاج إليه الأمة في مسألة التوحيد والاستخلاف، ولما قرّر ذلك أتبعه بالتفصيل فقال ﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ والموعظة اسم مصدر الوعظ وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير، والتفصيل يُبينه علم الإحصاء العددي ولذلك أسندت الكتابة إلى الله تعالى لأن الألواح كانت مكتوبة نقشاً في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى، ولهذا سُميت بالألواح إيماء إلى الكتاب كما وقع في الآية الأخرى ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ والخطاب الموجه إلى موسى ﴿فخذها بقوة﴾ أبلغ في تمثيل حالة العزم على الإيفاء بالميثاق والعمل بألواح التوراة بمنتهى الجِدِّ دون تساهل ولا تلاعب كما جاء في التنزيل العزيز ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقد قرّر هذا المعنى وأكده بقوله ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ وقرأ البصري بضمير الغيبة ﴿يقولوا﴾ عوداً على قوله ﴿من بني آدم﴾ فعموم الموعظة تابع لعموم العظة، وعنى ببني آدم:

المستخلفون منهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وأسلاف بني إسرائيل الذين أشركوا بالله وأخلافهم المقتدين بآبائهم حسبما يرشد إليه السياق المكتنف بالسباق واللاحق، وقد أمر بنو إسرائيل أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بالإحسان والإيتيان بما أمر الله به على الوجه اللائق **(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)** ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى **(تماما على الذي أحسن)** أي تماماً للنعمة على الذي اتصف بالإحسان وحقّق التوحيد، فافهم فهّمك الله سبيل أوليائه ومنّ عليك بمتابعة أحبائه. وجيء بضمير الخطاب دون ضمير الغيبة في قوله **(سأوريكم دار الفاسقين)** بشارة للأمة المسلمة، والإراءة: الإدخال بطريق الإيراث أي سأورثكم دار الفاسقين. وقال السدي: هي مصارع الكفار. وقيل: دار الفاسقين: ما دارَ إليه أمرهم وذلك لا يُعلم إلا بالإخبار والإعلام. ثم ذكر ما به يعامل الفاسقين المتكبرين فقال **(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين)** قال صاحب التحرير والتنوير: وقوله "بغير الحق" زيادة لتشنيع التكبر بذكر ما هو صفة لازمة له وهو مغايرة الحق أي باطل وهي حال لازمة للتكبر كاشفة لوصفه إذ التكبر لا يكون بحق في جانب الخلق وإنما هو وصف لله بحق لأنه العظيم على كل موجود وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه هنا حتى يجعل القيد بغير الحق للاحتراز عنه كما في الكشف ومن المفسرين من حاول جعل قوله "بغير الحق" قيداً للتكبر وجعل من التكبر ما هو حق لأن للمحق أن يتكبر على المبطل. اهـ. والأوصاف التي تضمنتها الآية تنطبق أتم الانطباق - والله أعلم - على من وصفهم السيد

الأعظم ﷺ بقوله: «رأس الكفر المشرق والكبر والفخر في الفدادين أصحاب الوبر» رواه الإمام أحمد. وروى الإمام البيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود قال: «إن المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توايت من نار تطبق عليهم ثم يجعلون في الدرك الأسفل من النار» ومعنى صرفهم عن آيات الله: منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر أي ساطع على قلوب الذين يعدّون أنفسهم كبراء ويرون أن لهم مزية على الخلق فلا ينتفعون بآياتي ولا يغتنمون مغام آثارها كقوله سبحانه ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ روى أبو جعفر الطحاوي عن سفيان بن عيينة في قوله تعالى ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أمنعهم فهم كتابي.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ قصة هؤلاء فيما قال الضحاك هي أنهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالجهاد فخافوا الموت بالقتل في الجهاد فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك فأماهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد والدليل على أنه تعالى ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد: ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ وهذا تشجيع لهم على التوبة والقتال والتعرض للشهادة وأن الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله، ثم حضهم على الإنفاق في سبيله فقال جل شأنه ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ولما سمعوا ذلك قالوا: إن إله محمد فقير! ومرة قالوا لما رأوا الشدة على بعض الناس فقالوا: إنما يفعل

ذلك ببخله! فرأوا المنع إما للبخل وإما للفقر فأكذبهم الله في قولهم ذلك فقال
(والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) وإنما ذكرهم بالرجوع إليه سبحانه لكونهم
لا يؤمنون باليوم الآخر وينكرون البعث والنشور.

(ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا
نقاتل في سبيل الله) روى الإمام الطبري عن ابن عباس أنه قال: هذا حين رفعت
التوراة واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبارة قد أخرجتهم من ديارهم
وأبنائهم فلما كتب عليهم القتال وذلك حين أتاهم التابوت قال: وكان من بني
إسرائيل سبطان: سبط نبوة وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة
ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة، فقال لهم نبيهم (إن الله قد بعث لكم
طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه) وليس من
أحد السبطين، لا من سبط النبوة ولا سبط الخلافة (قال إن الله اصطفاه عليكم)
الآية. وفي رواية: أما ذكر طالوت إذ قالوا (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق
بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) فإنهم لم يقولوا ذلك إلا أنه كان في بني
إسرائيل سبطان: كان في أحدهما النبوة وكان في الآخر الملك، فلا يبعث إلا من
كان من سبط النبوة، ولا يملك على الأرض أحد إلا من كان من سبط الملك،
وأنه ابتعث طالوت حين ابتعثه وليس من أحد السبطين واختاره عليهم وزاده
بسطة في العلم والجسم ومن أجل ذلك قالوا (أنى يكون له الملك علينا ونحن
أحق بالملك منه) وليس من واحد من السبطين، قال (إن الله اصطفاه عليكم)
إلى (والله واسع عليم) ولما كان أغلبهم واقفاً مع المشاهدات غير ثابت القدم في
الإيمان بالغيب أراد أن يعلمهم بآية تقع على وجه يكون خارقاً للعادة وهي تدل
على اعتناء القرآن بآثار الأنبياء (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت

فيه سكينه من ربكم وبقيه مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) وهذه البقيه هي عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح. رواه الطبري عن عطيه بن سعد. وهذا التابوت شأنه عظيم ومقامه كريم وكانوا يقدمونه بين أيديهم في حروبهم فيحصل لهم النصر ببركة التوسل إلى الله تعالى به وبما فيه، وعناية النبي ﷺ بالآثار المباركة السابقة التي هي مواطن الرحمت ومنازل البركات ومهابط الوحي وموالد الأنبياء ظاهرة ومشهورة فقد روى الإمام مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال لابن عمر: «إذا كنت بين الأخشيين من منى - ونفخ بيده نحو المشرق - فإن هناك وادياً يقال له السَّرَر به شجرة سُرَّ تحتها سبعون نبياً» قال الزرقاني: أي ولدوا تحتها فقطع سُرَّهم. وقال ابن حبيب: هو من السرور أي تنبؤوا تحتها واحداً بعد واحد فسُروا بذلك. وقال ابن عبد البر: وفي هذا الحديث دليل على التبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقاماتهم ومساكنهم وإلى هذا قصد عبد الله بن عمر بحديثه هذا والله أعلم. والمحافظة على الآثار النبوية أصل عظيم وتراث كريم ولذلك عمل أهل الكتاب على إزالة آثار الحرمين ومحو ما تبقى من تراثنا النبوي...

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) التعريف في الألواح للعهد أي الألواح التي وضعها وإنما أخذها حفظاً لها للعمل بها لئلا يضيع ما فيها من الكتابة، والنسخة بمعنى المنسوخ والمكتوب في لوح أو صحيفة أخرى وهذا يقتضي أن هذه الألواح أخذت منها نسخة، لأن النسخة أضيفت إلى ضمير الألواح وهذا من الإيجاز، إذ التقدير: أخذ الألواح فجعلت منها نسخة وفي نسختها هدى ورحمة، ولما فرغ سبحانه من ذكر الألواح، ردَّ الكلام على ذكر ما فعله موسى في المناجاة وما

وقع من بني إسرائيل من العصيان بطلب ما لا ينبغي لهم من الرؤية على وجه التعنت فقال ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ وهذا الميقات غير الميقات الأول ويؤيده ما نقل من أن هارون عليه السلام كان معهم وكأنهم لما سمعوا كلام الله طلب بعضهم الرؤية جاعليها شرطاً لإيمانهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة - كما فعل النقباء الاثنا عشر حين أرسلهم لجس أحوال الجبارين - فأخذتهم الرجفة فماتوا فخشى موسى عليه السلام أن يتهمة بنو إسرائيل في موتهم فلما أخذتهم الرجفة أي التي سببتها الصاعقة التي تقدمت في البقرة فزلزلت قلوبهم فأماتتهم لما رأوا عند سماع الكلام من جلال الله وعظيم هيئته من الغمام الذي تغطى الجبل والقتار والبروق وأصوات القرون وغير ذلك بحيث كادت تفرق أوصالهم بعضها من بعض قال موسى رب لو شئت أهلكتهم وإياي من قبل أن نقرب من هذه الحضرة المقدسة أهلكنا بما فعل السفهاء منا أي حين اتخذوا العجل إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فإن كل العوالم خرجت من علم الله إلى الوجود بالرحمة وهي صفة من صفات الله تعالى لما أراد سبحانه أن يجعل لها ظهوراً وتعيناً خلق سيدنا محمداً عليه السلام رحمة للعالمين الذي وسع كل شيء

وهو عين الرحمة المتعينة في الأكوان لما ورد أن الأنبياء خلقوا من الرحمة وبنينا عين الرحمة كما في الحديث: «**إنما أنا رحمة مهداة**» وقد قسم الله تعالى الرحمة مائة جزء فأظهر منها جزءاً واحداً في الدنيا ورحمات النبي ﷺ التسعة والتسعون ادخرها للآخرة...

والذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم آصارهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) لما ذكر سبحانه الألواح، أردف بذكر ما فعله موسى في المناجاة، وقد روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) قال: دعا موسى فبعث الله سبعين فجعل دعاءه حين دعاه لمن آمن بمحمد ﷺ واتبعه قوله (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) والذين يتبعون محمداً ﷺ. اهـ. وهم القائمون الذين يؤمنون بأنوار شواهد الآيات لا بالتقليد بل بالتحقيق كما عرف أحوالهم وصرح أعمالهم ووصفهم بأنهم يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالعدل والإحسان وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم حظوا بمتابعته الأثقال والأغلال التي فرضت عليهم كقطع الأعضاء الخاطئة وتعين القصاص من غير شرع الدية وإحراق الغنائم وتحريم طيبات كانت حلاً لهم وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وتحريم مجالسة الحائض وتحريم السبت وروى أن موسى رأى رجلاً يحمل قصباً في ذلك اليوم فضرب

عنقه وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعاً لله وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها على السارية، وكانوا يُؤاخذون على الخطأ والنسيان وما استكروها عليه ولم يُنصروا بالرعب ولم يُعطوا الشفاعة ولم تُجعل لهم الأرض مسجداً وطهوراً، وأشد ما في شريعة التوراة من الآصار أنها أوجبت قتل النفس في التوبة من الذنوب، وبذلك نفهم خاتمة سورة البقرة التي أُعطيها ﷺ من كنز تحت العرش لم يُعطها نبي قبله يشير ﷺ إلى ما حطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به ورفع الخطأ والنسيان. روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: "الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير" قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا بل قولوا: "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" قالوا: "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" قال: نعم "ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا"

قال: نعم "ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" قال: نعم "واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" قال: نعم» وفي وصفه ﷺ بالأمي إشارة إلى أنه منسوب إلى أم القرى وهي مكة كما قال الإمام الرضا عليه السلام لما سئل عن ذلك: سُمي الأمي ﷺ لأنه كان من أهل مكة، ومكة أم القرى. ثم أخبر تعالى أن الذين آمنوا به ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا القرآن الذي أنزل معه هم الفائزون بالسعادة الكبرى والنعمة العظمى فإن ما جاء به رسول الله ﷺ هو للعقول السليمة كالشمس المضيئة لأولي الأبصار السليمة فإن حاسة البصر وحدها لا تنفع صاحبها شيئاً ولا تظهر له من الخفايا شيئاً ما لم يكن ثمة نور خارجي آخر يلتقي معه نور البصر كما أن ضياء الشمس وجميع النيران لا تنفع من فقد نور البصر فإذا مشى نور البصر على نور الشمس أو غيرها من النيران اهتدى البصير إلى مصالح الأمور وهكذا فإن من فقد نور العقل لا ينفعه نور الوحي الحمدي كما أن نور العقل إذا لم يستضيئ بنور الشرع الحمدي فإنه يتخبط في المتاهات ويتقلب في الضلالات وإلى هذا يرشد الله أهل الكتاب ابتداء فيقول "فالذين آمنوا به" أي بسيدنا محمد ﷺ الذي بعثه الله تعالى إلى العالمين ومعه الكتاب المبين يضيئ للعقول طرق التفكير والتذكر والتبصر فيه يعلمون الحق علماً جازماً وتستنير به قلوبهم. روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله "وعزروه" يعني عظموه ووقروه. وقال الإمام الطبري "ونصروه" يعني وأعانوه على أعداء الله وأعدائه بجهادهم ونصب الحرب لهم. والتاريخ يشهد أن هؤلاء القوم حسدوا النبي ﷺ واعتبروه كسائر البشر ولم يحاربوا الإنجليز وغيرهم من كفار الروم والفرس بل تولوهم فأنى يكون هؤلاء قد آمنوا؟ ولما حضّهم الله تعالى على متابعة النبي الأمي وكان

سائر الأنبياء مبعوثين إلى قومهم خاصة التفت الخطاب إليه ﷺ يأمره بإعلان
دعوته إلى كافة الأمم وعامة البرايا إشعاراً بمزيد خصوصيته والاعتناء بشأنه (قل
يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله
إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته
واتبعوه لعلمكم تهتدون) وفي الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقليين
بإفراد الله بالإلهية ممثلة في المُلْك، فيكون الله وحده هو الإله الأعظم المالك التام
المِلْك والمِلْك المنفرد بالمُلْك، وإيراد نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام بعنوان
الرسالة على طريق الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال، ولو أن أهل
الكتاب آمنوا برسول الله لزمهم أن يكونوا تحت أمره ونهيه لأن النبوة تحتها كل
مُلْك ورئاسة، ووصف الرسول بالنبي الأمي لمدحه ولزيادة تقرير أمره، ولو بالغ
الأولون والآخرين في إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم به من
مواهبه، ولكن الملمّ بساحل بحرهما مقصراً عن حصر بعض فخرها، والله در إمام
العارفين سيدي محمد وفا فلقد كفى وشفى بقوله:

ما شئت قل فيه فأنت مصدق ... فالحب يقضي والحاسن تشهد

وبالرغم من كل الفيوضات التي نفذت من كثرتها المحابر والأوراق وفاخر من
جملها وعلو مقامها أهل الأرض أهل السماء قد عجز الواصفون أن يحيطوا بكل
جوانب العظمة لحضرته ﷺ، ورضي الله عن سيدي ابن الفارض فقد قال:

وعلى تفننٍ واصفيه بمدحه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ

وهو ﷺ كونه خاتم النبيين فهو ممد لجميع الخلق أولاً وآخراً وهو ممد لكل نبي
وولي سابق على ظهوره حال كونه موجوداً في عالم الشهادة وفي حال كونه

منتقلاً إلى البرزخ والدار الآخرة فإن أنواره ﷺ غير منقطعة، يقول القطب الأعظم الرواس عليه رضوان رب الناس: وإنا لنعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام في قبره الكريم حيُّ الحياة البرزخية يفيض بفيض الله ويحسن بإحسان الله ويعطي بالله ويمنع بالله وله اليد على كل ذرة مخلوقة في ملك الله. ويقول شيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام أبو الهدى الصيادي: ولا يخفى أن كثيراً من الأولياء يرونه ﷺ ويسمعون خطابه الكريم الذي ورد فيه الحديث وعليه جماهير الأمة سلفاً وخلفاً أنه يردّ على من يسلم ﷺ والفرق بين الولي وغيره سماع خطابه المبارك وعدمه. ويقول السيد عبد الرحمن العيدروس: سيدنا محمد ﷺ هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى بعثه الله بجسمه ﷺ فالأنبياء الذين سلفوا أخذوا منه ﷺ وأولياؤهم ومتبعوهم أخذوا منهم رضي الله عنهم. ويقول الإمام الشاذلي رَحِمَهُ اللهُ: كل نبي وولي مادته من رسول الله ﷺ. ويحكى أن ابن الفارض رؤي في النوم فقيل له: لم لا مدحت النبي ﷺ فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن أكثر المثني عليه وأكثر

إذا الله أثني بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الوري

ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه ﷺ، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير فيضيق على البليغ مجال النظم وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة إلى من فرضت له وجدتها صادقة في حق النبي ﷺ حتى كان الشعراء على صفاته يعتمدون وإلى مدحه كانوا يقصدون. وقد جعل تعالى رجاء الاهتداء أثر الإيمان بالرسول

واتباعه تنبيهاً على أن من صدّقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، ثم ذيل الكلام بتخصيص المتبع له بالهداية والرحمة المسببة عنها، والآية تنطوي على مجامع الرسالة الحمديد الشاملة، وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة وبعث سيدنا محمد ﷺ إلى الإنس والجن كافة، وجاءت رسالته كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً، ومن ثم حملها النبي الأمي في مواجهة المزورين من أهل الكتاب الزاعمين أنهم على دينه!

﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ تفريع على قوله ﴿وقطعناهم في الأرض أماناً﴾ والظاهر في المشار إليهم هنا أنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ قال الإمام الطبري: وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وقبل كفرهم برهم وذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، وقوله ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ الخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن وفيه ذم لهؤلاء الحاضرين الذين ورثوا الكتاب أي القرآن الذي هو زبدة الكتب الإلهية التي بقيت في أيديهم بعد سلفهم، يعرفونه ولا يعملون به، وعرض هذا الأدنى هو ما يأخذونه من الرشا في الحكومات والمكاسب الخبيثة، وفي اللفظ تخسيس لما يأخذونه وتحقير له، ثم أردف بقوله ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ إخباراً عنهم بأنهم ما كانهم في المحرمات التي لم يتوقفوا عن أخذها ثانية، فهم

مصريون عليها غير مكترئين بالوعيد. روى الطبراني عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر يحق بها الحق ويبطل الباطل، أيها الناس كونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء دنيا فإن كل أم يتبعها ولدها» والاستفهام في الآية للتقرير المقصود منه توبيخ هؤلاء الذين تحللت لديهم مقومات فضائل النفس البشرية وغرست فيها طباع العبيد! وهذا التقرير لا يسعهم إلا الاعتراف به، وهم عالمون بذلك الميثاق الذي أخذه المولى عليهم أن لا يقولوا على الله إلا الحق ولا يشركوا به شيئاً، وقد نُزِّلوا في تخييرهم عرض الدنيا بمنزلة من لا عقول لهم، ووقفهم الله على جهة التوبيخ بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ورماهم بفقد التعقل، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة، وقرئ بياء الغيبة فيكون توبيخهم تعريضاً، وقوله تعالى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يكشف نفاق علمائهم الذين درسوا الكتاب وعرفوا ما فيه ثم وقفوا في وجه هذا الدين وقفة العداء والكيد والإضلال، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم، حاربوه بالتعطيل والاقحام وحاربوه بالدس والوقعة من الداخل، وحاربوه بالتآمر مع شركائهم من الخارج، وحاربوه بتشكيل معسكرات عمّية خدّاعة ترفع شعار الإسلام، وحاربوه بالإشاعات الباطلة، وحاربوه من قبل بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسّوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير حين عجزوا عن تحريف القرآن الكريم، وصنعوا أبطالاً يعملون لهم في تنفيذ أجنداتهم ومكائدهم ليقيموا مكان الإسلام عصبية جاهلية أو راية تضليلية! والقرآن يكشف عن طبيعة بني إسرائيل التي تمتلئ بالذل والجن من ناحية، وبالقسوة من ناحية، وبالضعف عن حمل تبعات أمانة الاستخلاف

من ناحية أخرى، وفي التجاذب بين هذه النزعات جميعاً؛ تعيش في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء، وهي تخطط وتتآمر وتتحرك في الظلام مع الذعر الدائم، والتوقع الدائم للبلاء والقتل، وليس أفسد للنفس البشرية من هذا العذاب! ثم تعكس الآيات جانباً آخر وتُصور مدلولاً يكاد يحس في صورة القبض على الكتاب بجد وقوة وصرامة كما يجب تعالى، وذلك ينافي القتل والخداع والتميع والاستهزاء والاستهتار واللامبالاة **(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة)** وقد أكد العطف على ضرورة إقامة الصلاة بعيدة عن تبعية الشرك، ثم ذكرهم بنفس الطريقة التي أخذ عليهم فيها الميثاق **(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلمكم تتقون)** ولكن القوم من كمال شقاوتهم قابلوا الأمر بالرد والعناد وزادوا في الضلال والفساد فاستعصوا على أنبيائهم ونقضوا ميثاقهم ولجوا في المعصية وخلعوا شارة التكریم وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وقبلوا النعمة بالكفر! وفي الآية التي تليها نبَّههم إلى ما أخذه عليهم من الميثاق وهم في عالم الذر وأودعه في فطرتهم **(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم)** والخطاب ابتداء لمناقشي أهل الكتاب الذين أبطنوا الكفر... قال الإمام الماوردي: وفيمن عناه الله تعالى بهذا الخطاب ثلاثة أقاويل: أحدها: المنافقون. والثاني: أهل الكتاب. والثالث: جميع الكفار. وذكر الإمام القرطبي أن الآية مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء. وهو الميثاق الذي في قوله عز وجل **(وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله)** وفي قوله سبحانه **(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور)** والربوبية في قوله "ألست بربكم"

جامعة لمعاني الإسلام وأصوله أُلقيت إلى الناس ليتدبروا مطاوبها والقرآن كله إنما يدور على تبين هذا العهد والميثاق مع عهد وميثاق النبوة المقارنة للاقتداء والتسليم وحسن الاتباع للرسول الأعظم والنبى الأكرم ﷺ كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أخرج الإمام أحمد عن أبي بن كعب: في قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية، قال: جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهادهم على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أبائكم آدم: أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتي، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، فأقروا بذلك ورفع عليهم آدم ينظر إليهم فرأى الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال: رب لولا سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى الأنبياء فيهم مثل السرج عليهم النور خُصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وروى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» والرضا بربوبية الله يتضمن الرضا بالإسلام ديناً إذ يرضى مما رضى به المولى، ولازم من رضى بمحمد نبياً تحكيمه ﷺ وتصديقه

بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانسراح وأن يكون له ولياً وأن يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه ويتحقق بمتابعته قولاً وفعللاً وأخذاً وتركاً وحباً وبغضاً، فمن رضي بالله استسلم له وانقاد ومن رضي بالإسلام عمل له ومن رضي بمحمد ﷺ تابعه ولا يكون واحد منها إلا بكلها إذ محال أن يرضى بالله رباً ولا يرضى بالإسلام ديناً أو يرضى بالإسلام ديناً ولا يرضى بمحمد نبياً وتلازم ذلك بين لا خفاء فيه.

قال صاحب الكشف: عني ببني آدم أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله تعالى حيث قالوا "عزير ابن الله" وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله تعالى "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل" والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطف عليها هي والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها. اهـ. ويمكن القول بأنهم المستخلفون المفسدون الذين أشركوا بالله وأخلافهم المقتدين بآبائهم ومن تبعهم من الضعفاء الذين أغووههم وزينوا لهم شبهاتهم الواهية فاستنوا بهم واقتحموا معهم الضلالة حسبما يرشد إليه السياق والسباق ابتداء من قوله (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) إلى قوله (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أي قالت الأتباع والضعفاء لسادتهم وكبرائهم المستخلفين ربنا هؤلاء أغوونا وكنا لهم تبعاً فضعف لهم العذاب، قال لكل ضعف لأن

المتبوع وإن كان سبباً لضلال التابع فالتابع أيضاً كان سبباً لتمادى المتبوع في ضلاله وشدة شكيمة فيه بتقويته بالاتباع وتأييده بالمناضله عنه والدفاع! ولما ذكر الحق ملام الأتباع على المتبوعين عطف عليه جواب المتبوعين فقال ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ والغرض في السورة - والله أعلم - بنو إسرائيل وقد وصفهم الله بقوله ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ ثم أعقب سبحانه معرضاً بهم إذ تعطلت لديهم أجهزة الاستقبال الفطرية ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ والمبطلون هم السحرة أبناء الغلام العليم الذين يبطلون الحق ويزينون الباطل وهذا دليل على أن تقليدهم في التوحيد كفر! ولما كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالة هذه الآيات: انظر كيف فصلنا هذه الآيات هذه التفاصيل الفائقة وأبرزناها في هذه الأساليب الرائقة، قال ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع نفصل الآيات كلها ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن الضلال إلى ما تدعو إليه الهداة من الكمال، والتفصيل: التبيين والتوضيح مشتق من الفصل وهو تفرق الشيء عن الشيء، ولما كانت الأشياء المختلطة إذا فُصلت يتبين بعضها من بعض، أطلق التفصيل على التبيين بعلاقة اللزوم وشاع ذلك حتى صار حقيقة.

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ الغاوي هو الذي عَلم الحق فكتمه وقصد غيره، والكلمات تصور أولياء الشيطان في مشهد حسي عجيب: إنسان يأخذ الله عليه الميثاق في توحيده وتقرير ربوبيته ويشهده على نفسه ويذكره إقراره بذلك ويؤتية آياته ويكسوه

من علمه ويفضله بالاستخلاف في الأرض ولكنه ينسلخ من هذا كله بعنف ومشقة وجهد انسلاخ الحي من أديمه اللاصق به فينحرف عن الهدى ويتبع الهوى فيصبح غرضاً للشيطان يتبعه فيلزمه ويستحوذ عليه فإذا هو مسحٌ في هيئة الكلب إن طاردته يلهث وإن تركته يلهث! فالشهوة والهوى يتملكان كل وقته **(ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)** وهو مثل يشخص علماء بني إسرائيل في إعراضهم عن آيات الله وابتغائهم الحق في غيرها بمقتضى أهويتهم فأخطؤوا في اختيار بغيتهم وسول لهم الشيطان وأغواهم وزين له هواهم، وسلّكهم سبيل الضلالة، وأرداهم في مهاوي الهلكة! ومن تفكر في هذا المثل في حقهم تحقق له سوء صنيعهم وقبح سيرتهم وفساد سريرتهم فما أنعاه من مثل عليهم وما هم فيه من التهلك في الدنيا والركون إلى شهواتها من متابعة الهوى والنفس الأمارة وإرخاء زمامها في مرامها وتكذيبهم بالكتاب واستكبارهم عن قبول الحق! ثم يقرر المقام قضية ضخمة من قضايا العقائد يواجه بها أرباب التلبيس والتدليس الذين ألدوا في أسماء الله الحسنى! ومعنى الإلحاد في أسماء الله جعلها مظهراً من مظاهر الكفر وذلك بتسمية الله بما لا يجوز تسميته به كقولهم أب وابن وروح القدس أو بتسميته سبحانه بما لم يسم به نفسه ولم ينطق به كتاب سماوي ولا ورد فيه نص نبوي أو بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له وهو الأحق بكمال مدلولها فإنهم أنكروا الرحمان وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع، والمراد من تركهم: الإمساك عن الاسترسال في محاجتهم أو ترك الإصغاء لكلامهم لئلا يفتنوا عامة المؤمنين بشبهاتهم والله أعلم، والمعنى:

اتركوهم ولا تغلبوا أنفسكم في مجادلهم فإني سأجزئهم ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ والأسماء هي الألفاظ المجمولة أعلاماً على الذات بالتخصيص أو بالغلبة، والحسنى مؤنث الأحسن وهو المتصف بالحسن الكامل في ذاته، والمعنى أنها أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، ويحتمل أن يكون معنى الأسماء الحسنى: العلامات الرفيعة الدالة على كمال ربوبية الله وتقديسه وتمجيده، وانصباب نظم الكلام في الآية على قوله تعالى ﴿ألست بربكم﴾ وفي حديث أنس مرفوعاً: «ما من عبد يقول يا رب يا رب يا رب إلا قال له ربه ليك ليك» ونحوه قوله تعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاماً تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ والدعاء لا يتأتى إلا بمعرفة الأسماء الشريفة المقدسة لا بتقليد المستهزئين، فإذا عرفها المسلم بالدليل فحينئذ يحسن أن يدعو ربه بها، ثم إن لتلك الدعوة شرائط عديدة أهمها أن يكون مستحضرّاً لعزة الربوبية والألوهية، فهناك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر، كمن أراد أن يقول في تحريمة صلاته: الله أكبر فإنه يجب أن يستحضر في النية جميع ما أمكنه من معرفة آثار قدرة الله، ويشير بقوله: الله أكبر إلى أنه سبحانه أكبر وأنزه وأجلّ من كل شيء ولا يشبه لكبريائه وجبروته وعلوه وصمديته شيء وهو سبحانه أكبر من معرفة العبد كنه ذات الحق وأكبر من أن يكبره غيره بالتكبير الحادث وأكبر من كل ما يخطر على البال من أفكار فهي أكبرية مطلقة ولذا قال عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فهو المكبر والمثني لذاته بذاته بتكبير وثناء قديم من الأزل إلى الأبد وكلما صعد المؤمن درجة في المعرفة ارتقى إلى مفهوم جديد واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فتصبح

سلوكه وأخلاقه وهذا ما يصنعه الإسلام في النفس يصفوها بالأذكار ويطهرها من آثار الأغيار وييسرها بدوام الوصال، وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من أهل الكتاب؟ فإذا عرفت هذا المثال الواحد فقس الذكر الحاصل مع العرفان، وعند هذا تنفتح لك من الأسرار المودعة تحت قوله سبحانه (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) وفي الحديث المتفق عليه: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قال بعض العارفين: الجنان مقسمة على حسب أسماء الله الحسنى فبقدر التعلق والتحقيق والتخلق بأي اسم أو أي منزلة أنت فيها تنتهي إلى تلك المنزلة والأسماء التسعة والتسعون سارية في القرآن الكريم ولذلك ضرب النبي المثل بالقرآن الكريم كما في الحديث عند أبي داود: «يَقَالُ لَصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتَلَ كَمَا كُنْتَ تَرْتَلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنْ مَنَزَلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا» لأن مضمار الجنة على قدر هذه الأسماء فالكامل من تحقق بالقرآن الكريم تعلقاً وتحققاً وتخلقاً وذلك في المنزلة العليا ومفهومه في الحديث الآخر: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ اسْتَدْرَجَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ» ومعناه أن الجنة مقابلة للنبوة الحمديدية والقرآن الكريم هو النبوة الحمديدية التي هي مقابلة لقلبه الشريف ﷺ فبقدر تعلقك وتحققك وتخلقك بالقرآن الكريم تكون منزلتك في الجنة ومفهومه أن بقدر منزلتك منه تكون منزلتك في الجنة فالجنة إنما هي انعكاس أنواره ﷺ... والعدد التسعة والتسعون لا يدل على الحصر إذ ثبت في الكتاب الرب المولى النصير المحيط الكافي العلام وغير ذلك، وفي السنة الحنان المنان الدائم الجميل، وتخصيصها بالذكر لكونها أشهر لفظاً وأظهر معنى ولأنها غُررُ أسمائه وأمهاتها المشتملة على معاني غيرها.

ثم تقرر الآيات الإنصاف للقلة المؤمنة من بني إسرائيل ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ويدلون على الحق ويتحركون بالحق، ولفظ الأمة يطلق على الجماعة ويطلق على الرجل الجامع للخير وذكر بلفظ الجمع لأنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه، وهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين على نحو ما ورد في صحيح الإمام مسلم: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فأمن به واتبعه وصدقته فله أجران» وهذه شهادة لهم لما آمنوا إيماناً صادقاً كاملاً شاملاً وبيّنوا كتاب ربهم وجاهدوا قومهم وصبروا على ما أصابهم من أذى ونهضوا بتكاليف الرسالة وسارعوا في الخيرات كما وصفهم سبحانه في سورة القصص ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ قَبْلَهُ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ وكما أخبر المولى سبحانه ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وقال سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُم قَبْلَهُ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار تعالى إلى بعض أهل الكتاب في حسن تلقيهم للقرآن وتصديقهم به وسرورهم بنزوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُم قَبْلَهُ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم دون العشرة كما أشار الحديث الوارد في صحيح الإمام مسلم: «لو تابعتني عشرة من اليهود، لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم» وهذه المتابعة هي المقصودة بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ أَصَابَهُمُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويحققه قوله

بعده ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ وبذلك يتحقق الإيمان به ﷺ وهو معنى الرواية الأخرى في صحيح البخاري: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود» قال ابن الجوزي في كشف المشكل من حديث الصحيحين: كأنه عليه السلام أشار إلى أن القوم يقلدون أبحارهم لا بالدليل كقوله تعالى "ومنهم أमीون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى" فإن قيل: فقد أسلم أكثر من عشرة فالجواب: أن بعض العلماء يقول: ما أسلم منهم عشرة بل أقل فإن كان كذلك فلا إشكال وإلا فالحديث على أمرين: أحدهما: أن تكون الإشارة إلى الرؤساء الكبار، والثاني: إلى اجتماع عشرة في الإسلام في وقت واحد. اهـ. وفي ذلك تنبيه على اتباعهم التقليد لأبحارهم وعدم اتباعهم الدليل كما قال صاحب الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله: «لو أسلم الزبير وذووه من رؤساء اليهود، إنما هم له تبع» وروى أبو نعيم في الدلائل من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو آمن بي الزبير بن باطا وذووه من رؤساء يهود لأسلموا كلهم» وذلك يقتضي إثبات التبعية له ﷺ وإلا فقد ذكر ابن إسحاق كثيرين ممن نافقوا من اليهود الذين أظهروا الإسلام وأخفوا عقيدتهم وأكنوا الأذى للمسلمين والكيد للنبي ﷺ. ولما ذكر تعالى حال الأمة الهادية العادلة، أعاد ذكر المكذبين بآيات الله تعالى الذين يضعون للمسلمين عقائد تأخذ شكل العقيدة والدين لتحل محل دين الله القويم، وهذه المعركة لا يحسبون حسابها بل لا يتصورون استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون لأنهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون كما حكى تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا

أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) أي فلما غفلوا عما ذكروا به من العقوبة فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية ثم أخذناهم بالهلاك فجأة فإذا هم آيسون، وهذه سنة الله مع المكذبين، يرخي لهم العنان ويملي لهم في العصيان والطغيان استدرجاً لهم في طريق الهلكة وإمعاناً في الكيد والتدبير... وفي الوقت الذي يحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمحرون؛ تظهر المباغطة الحاسمة القاضية والتدبير الذي يقع في الماكرين المستعزين بشركائهم! ومن الذي يكيد؟ إنه الكبير المتعال... والقرآن الكريم يدعوهم إلى التفكير ويوقظهم من غفلتهم ويستنفذ مشاعرهم ولكنهم أغبياء منقوصين وحمقى معاندين! حالهم كحال النعام الذي عظم بطنه ودق رأسه وصارت حدقتاه أكبر من دماغه حتى إذا باغته السبع هرب محركاً رأسه ثم دسه في الأرض وقد أخذته نشوة الأمن (فسينغضون إليك رؤوسهم) والنغض هو ذكر النعام، وهذا المثل في سورة بني إسرائيل يشخص حال هؤلاء النوكى المنكرين البعث! تماماً كما يحرك النغض رأسه يحركون رؤوسهم وهم في غاية الغباوة والجهالة وإفراط العماية والبلادة! عطلوا أجهزة الاستقبال التي وهبها فصاروا كالأنعام بل هم أضل ولذلك أنزل فيهم (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقد خاطبهم موسى عليه السلام كما جاء في تلمودهم: «أيها الشعب الأحق الخالي من الحكمة» وكانوا أبدأ في التعنت والتمرد على الأنبياء إذ قتلوا الشبهة المسلم نبي الله زكريا وتآمروا على قتل عيسى ثم خدعوا الناس بعقيدة التجسيد ثم أضلوهم بعقيدة التثليث ثم حزبوا الأحزاب على حرب سيد الأولين والآخرين ودسوا له السم كما جاء في صحيح الإمام البخاري عن عائشة رضي

الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم» وما هم يعودون فيتسمون بالسلفية لهوى في أنفسهم ويأتون بصور الطاعات مع فساد النيات وهم أهل إرادات فاسدة، اتبعوا أهواءهم وأخذوا في تسوية نصوص الكتاب والسنة عليها؛ غياً مع العلم بالحق! يتخذون منابر الإسلام والتوحيد والجهاد ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ويحلفون إن أردنا إلا الحسنى! يعتقدون رايات جهادية عمية هنا وهناك يضربون بها رقاب المجاهدين بعضهم ببعض، ويقتسمون المهام والوظائف فينصب آل الشيخ شياكهم العقدية، وفي المقابل ينصب آل سعود شياكهم السياسية، ويضربون الأمة بعضها ببعض! ثم يقدمون المساعدات والصدقات بالمن مشوبة وبالأذى مصحوبة وقد جعل الله تعالى المن والأذى مبطلاً للصدقة ثم نهى عن الإبطال بهما معرضاً بالكافرين مبكراً لهم ليقوي اجتناب المؤمن لهما فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ وفي المقابل ينفقون أموالهم لأصحاب الأديان والمذاهب الباطلة التي أنشئوها إيقاداً للحروب، وهم مصدر الفتن والدسائس، ومورد السحر والتمويه، وأصحاب الخديعة والمماكرة، ومصدر أفعال التدليس والتليس، وإن شئت قلت عروس إبليس. روى الإمام البخاري في صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريره حسنة».

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ لما ذكر تعالى قصود المنافقين الخبيثة وأفعالهم القبيحة فيما يبيتونه من المكائد

باستجلابهم لبعض من يخدعونه من المؤمنين وتفريق كلمتهم وإغراء بعضهم على
 بعض وإلقاء العداوات والحروب بينهم، أبطل سبحانه القيام في أماكنهم لكونها
 مبنية على أغراض فاسدة فقال ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ
 أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾
 والمقام في أوطان أهل الجحود والطغيان من علامات الممالة مع أربابها وقطانها
 أصحاب النفاق والعصيان، والتباعد عنهم وهجران من جنح إلى مسالكهم
 ومناهجهم علم لمن أشرب قلبه مخالفتهم وباشرت سرّه عداوتهم، والمسجد
 المؤسس على التقوى هو المسجد النبوي، وقيل: مسجد قباء، والأولى حمله على
 مسجده ﷺ لما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على
 رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي
 أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصاء فضرب به الأرض ثم قال: «هو
 مسجدكم هذا» لمسجد المدينة. والأحقية في الاستحقاق المتناول ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ
 فِيهِ﴾ ما يكون باعتبار مقصد الباني ومن يتابعه في شرعته ومنهاجه وهو الأنسب
 فإنه ﷺ بنى مسجده على التقوى وحقيقة التقوى التحرز عن متوعدات العقاب
 والاجتناب عن عموم المنهيات وأولها اتباع أهواء أهل الكتاب، وفُسِّرَ التطهير
 بالتخلص من لوث مناهجهم المضلة وهو معنى مجازي له، فالنفس تتأثر بالمناهج
 الزائغة الواردة عليها بالكدورة والقسوة بخلاف ما إذا كانت مبنية على التقوى
 فإنها تتأثر بالأنوار الباهرة والإشراقات الظاهرة، ألا ترى الكعبة كيف شرفت
 وعظمت وجعلت محلاً للتبرك لما كانت مبنية بيد الخليل عليه الصلاة والسلام
 بنية صادقة ونفس شريفة، وضد ذلك في أصحاب مسجد الضرار، ثم بين تعالى
 أن الذي ضيّع الأصول في ابتدائه حرم الوصول في انتهائه والذي لم يحكم

الأساس في بنائه سقط السقف على جدرانه ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من
 الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم
 والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وحاصل الكلام أن أحد البنائين قصد بانيه اتباع
 السنة المحمدية فكان شريفاً واجب الإبقاء، والآخر قصد ببنائه اتباع السبل
 الشيطانية فكان خسيساً واجب الهدم والإفناء ثم بين تعالى أن هدمه لا يزال
 سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا
 يضمحل أثره إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء إما بالموت وإما بالسيف
 فحينئذ يسلمون عنه وذلك قوله ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن
 تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ وقد يسمى ريبة فساد المعتقد واضطرابه
 والاعتراض في الشيء والتحفظ فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكاً فقد
 يرتاب من لا يشك ولكنها في معتاد اللغة تجري مع الشك كما فسرهما ابن
 عباس وفسرها السدي بالكفر، والمقصود أنها تبقى في قلوبهم أبداً ويموتون على
 النفاق والله أعلم، قال في الكشف: يجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال
 زوال الريبة عنها ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في
 القبور أو في النار. اهـ. ولما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم وذكر أقسامهم
 وفرع على كل قسم ما كان لائقاً به، أتبعه بالتحريض على قتالهم مبيناً فضيلة
 الجهاد مرغباً فيه مذكراً ما أمر به في قوله ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ وقوله ﴿قاتلوا
 الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ وقوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فقال ﴿إن
 الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله
 فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده
 من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ قال الإمام

القرطبي: نزلت الآية في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين وكان أصغرهم سنّاً عقبة بن عمرو وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع لا نقيّل ولا نستقيّل، فنزلت الآية. وعلى هذا تكون الآية تهيئةً للمسلمين لأن يغزوا أهل الكتاب. وفي الحديث عند ابن أبي شيبه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على أحب عباد الله إلى الله بعد النبيين والصديقين والشهداء؟ قال: عبد مؤمن معتقل رحمه على فرسه يميل به النعاس يميناً وشمالاً في سبيل الله يستغفر الرحمن ويلعن الشيطان قال: وتفتح أبواب السماء فيقول الله للملائكة انظروا إلى عبيدي قال: فيستغفرون له قال: ثم قرأ: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله» إلى آخر الآية. وفي ذكر التوراة والإنجيل والقرآن تنبيه على أن كل معركة يخوضها المؤمنون إنما هي مع كفر أهل الكتاب وإن لم يكونوا بارزين فإنهم وراء كل فرقة ضالة وديانة باطلة وجماعة باغية ظالمة! وفي الآية تهييج لمؤمني أهل الكتاب إلى قتال مشركيهم كما تشير القراءة الأخرى "فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتَلُونَ" وفيها اهتمام بسبب الشهادة التي هي أدخل في قبول التوبة على حد قوله تعالى "فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم" ولما ثبتت المعاهدة وأحكامها، وصف المعاقدين على طريق المدح للحث على أوصافهم فقال (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود

الله وبشر المؤمنين ﴿﴾ ولما كثرت في هذه السورة الأوامر بالبراءة من المنافقين، وقع
 التصريح هنا بذكر الرأس ليكون ذلك أدعى لقبول الأتباع فقال ﴿وما كان للنبي
 والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم
 أنهم أصحاب الجحيم﴾ وهذا التصريح لقطع المذرة عن المخالف وبيان لنفاق
 آزر - كما تقدم الكلام عليه - ولذلك عقبه بقوله ﴿وما كان استغفار إبراهيم
 لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه
 حليم﴾ وأما ما ذكر من نزول الآيات في أبي طالب والأبوين الكريمين فيعارضها
 ويخالفها ما ورد من الأخبار في نجاتهم وفُسرَّ قوله ﷺ: «استأذنت ربي أن
 أستغفر لأمي فلم يأذن لي» بأنها لم تقترف ذنباً يستحق أن يطلب عنه
 الغفران... والله در القائل:

لله أحشاء توسد أحمد ... جنباتها فحنت عليه جنينا

لله أصلاب تقلب أحمد ... فيها فسادت أظهرأ وبطونا

يا من كسيت الدهر أشرف حلة ... وجعلت درة تاجه الإثينا

جهلوا مقامك حين قالوا قولة ... ولقد أسأؤوا للنبي ظنونا

ترجوه أمته وتيأس أمه ... حاشاه وهو ببرها يوصينا

ولسوف يعطيه الإله فهل ترى ... يرضى لآمنة تذوق الهونا

إن كان أشرف بقعة تلك التي ... أضحى بها خير الأنام دفينا

فلكونها ضمت عظام المصطفى ... لكن بيطنك كونت تكويننا

وقوله ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ﴾ الأواه الخاشع المتضرع المكثّر من قول "آه" والحليم صاحب الحلم وهي صفة في النفس تدل على راحة العقل ورصانته مع الانتصار للحق والتباعد عن القسوة والعدوان. ولما أثبت تعالى الحجة للمنافقين وقطع عذرهم بإنزال الكتب الإلهية ناسب تعقيب ذلك بقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يكون منهم الأمر الذي به يستحق العقاب. قاله الإمام الرازي.

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة

اعلم أيها المجبول على فطرة الإيمان والعرفان والمترصّد لانكشاف سرائر التوحيد والإيقان أن هذا إبطال ثالث لتصلهم من متابعة الإسلام بعلّة أنهم لا يتركون ما هم عليه حتّى تأتيهم البينة وزعمهم أن البينة لم تأتهم والآية اشتملت على أصول الإسلام ودين الملة القيمة بإفراد الله سبحانه بالعبادة والحكم فهما متلازمان، أي وما أمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل والقرآن إلا ليفردوا الله بالعبادة جاعلين الحكم خالصاً له تعالى فإن كتبهم أكّدت عليهم تجنب عبادة الشيطان... ومعنى حنفاء أي مائلين عن الأديان الزائغة التي أقاموها إلى دين الإسلام كما جاء في توراتهم وإنجيلهم وهذا الوصف تأكيد لمعنى مخلصين له الدين مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت كتبهم بتمجيده واتباع هديه وقد جاء على لسان يوسف عليه السلام ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ

الدين الخالص) وتخصيص ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة للتنبيه على أن أحبارهم ورهبانهم أظنوا فيها من غير إحكام الأصول فأتعبوا أنفسهم في الطاعات وما حصلوا الدين الحق وأضاعوا الملة القيمة ملة إبراهيم قال تعالى (قل إني هداي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) والمقصود إقامة الحجة على أهل الكتاب بأنهم أعرضوا عما هم يتطلبونه فإنهم مقرّون بأن الحنيفية هي الحق الذي أقيمت عليه الموسوية والعيسوية والحمدية والله أعلم، وفي الآية إلزام لهم بأحقية الإسلام، واسم الإشارة في قوله "وذلك دين القيمة" متوجه إلى ما بعد حرف الاستثناء فإنه مقترن باللام المسماة لام أن المصدرية فهو في تأويل مفرد أي إلا بعبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أي والمذكور دين القيمة والمراد به دين الإسلام والقيمة: الشديدة الاستقامة. وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله ﷺ قال: «سلوني عما شئتم» فنادى رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة» قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» قال: فما اليقين؟ قال: «التصديق بالقيامة». وسورة البينة تُسمى بسورة أهل الكتاب كما تُسمى بسورة القيمة والبرية والانفكاك. والمراد بالبينة في الآية الأولى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) الرسول ﷺ وهو البينة الجامع لكل بينة والذي جاء بكل بينة فقد جمع الله له أنواع البينات القاطعات التي تثبت أنه رسول الله ﷺ حتى إن الله تعالى سماه البينة لأنه مَجْمَع كل بينة وهذا أسعد بقوله بعده (رسول من الله) ولا يخفى أن نور سره باق بين عترته وورثته يقومون مقامه، وأما البينة في الآية الأخرى (وما تفرق الذين أوتوا

الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة) فالمراد بها القرآن المعبر عنه بالصحف المطهرة المشتملة على الكتب القيمة أي على ما تضمنته كتب الرسل السابقين - والله أعلم - فالقرآن جامع لما في الكتب المتقدمة وهو زبدتها ومجمع ثمرتها. قال الإمام الصالح الزاهد القدوة عبد الله سراج الدين الحسيني قدس الله نفسه الزاكية ومتعنا بعلومه الإلهية ووارداته الربانية: لقد كان أعظم الرسل بينة وأجمع الرسل معجزة وبرهاناً هو سيدنا محمد ﷺ الذي قال الله فيه (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) فسماه سبحانه: البينة وهي ما كان ظاهر الصدق والحق بنفسه وفي غيره، فهو ﷺ بينة الله الكبرى وحجة الله العظمى على العالمين ظهر ذلك وتجلي في خلقه ﷺ وخلق العظيم وسيره وسيرته وشمائله وخصاله وفي طلعتة البهية وأنواره الزهية حتى قال فيه سيدنا عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

وظهرت آيات صدقة ﷺ في المعجزات المتنوعة التي أجزاها الله على يديه ﷺ وفيما جاء به من القرآن العظيم الذي أعجز الجن والإنس عن الإتيان ولو بسورة مثله في نصها أو بيانها أو بلاغتها أو أخبارها الغيبية أو في الأحكام والتشريع، والحق أن كل ما تقرر من المعجزات وتحرر من آياته البينات وما له من خوارق العادات فهي قطرة من بحرٍ مما وقع له ﷺ فإن استيعاب ما له من المعجزات يحتاج إلى عدة مجلدات إن كان ممكناً وأنى يمكن حصرها والقرآن العظيم يجمع ألفاً كثيرة منها ولولا خوف الإطالة لبسطنا المقالة. قال الإمام

البقاعي: وقد تقرر أن كل شيء ثبت لمن قبل نبينا ﷺ من الأنبياء من الخوارق ثبت له مثله أو أعظم منه إما له نفسه أو لأحد من أمته.

ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون

قوله ﴿ولقد جئناهم﴾ عطفٌ على جملة ﴿ونادى أصحاب النار﴾ عطف الغرض على الغرض، انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى الغرض الذي استوجب ما سيلاقونه فيها كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ وهذا يقتضي أنه حديث عن إعراضهم عن القرآن في الدنيا، والضمير في قوله ﴿جئناهم﴾ عائد إلى الذين كذبوا في قوله ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ وتنكير ﴿كتاب﴾ وهو معروفٌ قُصِدَ به تعظيم الكتاب، وكذلك تنكير ﴿علم﴾ للتعظيم أي عالين أعظم العلم، وهو العلم الذي لا يحتمل الخطأ ولا الخفاء، وإن شئت قلت: فصلناه حال كونه مشتملاً على علم كثير، ويحتمل أن تكون ﴿على﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿جئناهم﴾ أي جئناهم بذلك حال كونهم من ذوي العلم القابلين لفهم ما جئناهم به فتأمل. وبعد أن ذكر تعالى حال الجاحدين؛ خصَّ المؤمنين بالهداية والرحمة ووصف الكتاب بالمصدرين فقال ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وهم المغتتمون لآثاره، المقتبسون من أنواره، الواصلون إلى طريق التوحيد المنجي عن غياهب التقليد، وإنما كان القرآن هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده، وكان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس في الدنيا لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم، وفي الآخرة سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي.

هل ينظرون إلا تأويله

اعلم أيها الشاهد نورَ الله قلبي وقلبك أنه تعالى لما أزاح العلة بسبب إنزال الكتاب المُفصّل الموجِب للهداية والرحمة، تشوّقت النفس إلى تأويله وتفسير ما خفي من مقاصده وظهور الأخبار الدالة على صدقه. والاستفهام كالجواب عن سؤالٍ من يسأل: فماذا يؤخرهم عن التصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؟ وهل أعظم منه آية على صدق الرسول عليه أكمل الصلوات والتسليمات؟ قال الإمام الطبري رحمه الله: إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته؟ والتأويل في هذه الجملة **(هل ينظرون إلا تأويله)** هو الذي ظهر في الدنيا فيما أخبر عنه القرآن من مغيبات، وأما قوله **(يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل)** فهذا التأويل الذي سيظهر يوم القيامة إذ يجيء يقين ما أخبرتهم به الرسل في الدنيا مما يؤول إليه أمرهم من العقاب، فيقول الذين أعرضوا وصدوا عن القرآن: صدقت الرسل وجاؤوا بالحق. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة» يعني ما عندنا غير ما في القرآن لكن الناس متفاوتون في الفهم والإدراك واستنباط المعاني ثم ذكر ما في الصحيفة التي كانت معلقة بحمالة سيفه تورعاً واحتياطاً في يمينه، وفي الحديث المتفق عليه: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله»** فهو صلوات الله عليه الفياض بالخيرات والبركات والرحمات المتدفقة عليه من رب الأرض والسموات كما أنه صلوات الله عليه هو المرآة

الأولى الكبرى والمجلى الأعظم التي تجلى فيها نور الله تعالى ثم عكست النور على مرايا القلوب القابلة المستمدة فأشرق منها النور في كل مرآة على حسبها وسعتها واستعدادها وكمال توجهها إلى مرآته ﷺ فلا يصل إلى مخلوق خير إلا بواسطته ﷺ. وفي رواية لأحمد والطبراني: «إِنَّمَا أَنَا مَبْلَغُ اللَّهِ يَهْدِي، وَقَاسَمَ اللَّهُ **يُعْطِي**» يعني أَنَا مَبْلَغُ للوحي والله يوفق من يشاء منكم لفهمه، وأقسم المال بينكم والله يعطي من يشاء، قال الإمام الطيبي في شرح المشكاة: ولقد كان بعض الصحابة يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا الظاهر الجلي، ويسمعه آخر منهم أو من القرن الذي يليهم أو ممن أتى بعدهم فيستنبط منه مسائل كثيرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. اهـ. ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**رَبِّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**» وروى الطبراني أيضاً عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَمُوداً أَبْيَضَ كَأَنَّهُ لَوَاءٌ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ فَقُلْتُ: مَا تَحْمِلُونَ؟ قَالُوا: عَمُودُ الْكِتَابِ أَمَرْنَا أَنْ نَضْعَهُ بِالشَّامِ، قَالَ: وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ اخْتَلَسَ مِنْ تَحْتِ وَسَادَتِي فَظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ تَخَلَّى عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَاتَّبَعْتُهُ بِصُرِي فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ حَتَّى وَضَعَ بِالشَّامِ**» وروى الترمذي عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع فقال رسول الله ﷺ: «**طَوْبٌ لِلشَّامِ**» فقلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأن ملائكة الرحمن** باسطة أجنحتها عليها».

اليوم نضربكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويُذهل الخليل عن خليله

لأن الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد

ما جاءهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه
 والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿اعلم يا ذا العقل السليم المتصف
 بأوصاف الكمال والتميم وفقني الله وإياك بالهداية إلى الصراط المستقيم أنه
 سبحانه لما ذكر في الآية التي تقدمتها أن سبب إصرار أهل الكتاب على كفرهم
 هو تزيين الحياة الدنيا في نفوسهم بدعوة شيطانية وارتياضهم على الانكباب
 على اللذات والاسترسال فيها دون كبح لأزمة الشهوات والتناهي في الغرور
 والسخرية بمن لم ينسج على منوالهم من المؤمنين ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا
 ويسخرون من الذين آمنوا﴾ ذكر في هذه الآية أن سبب اختلافهم هو البغي
 وتفريق الناس وهذا ما حمل أهل الكتاب على تحريف النصوص وتبديلها وحملها
 على غير محاملها، وقد صدرت الآية بقوله ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ دلالة على
 أن بني إسرائيل كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا وغيروا وبدلوا
 بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا فبعث الله لهم النبيين وهم الذين
 جاؤوا بعد موسى ﷺ إلى القرن الذي أعقبته بعثة سيدنا محمد ﷺ، وهذا
 القول مطابق لنظم الآية وموافق لما قبلها ولما بعدها، وقد أشارت الآية إلى أن
 أهل الكتاب قد أوقعوا التغيير في كتبهم واختلفوا على أنبيائهم فبعث الله حبيبه
 محمداً ﷺ وأنزل معه القرآن الكريم ليحكم فيما اختلفوا فيه، فكان المقصود بيان
 مزية القرآن وفضله على سائر الكتب بما اختص به من الحفظ والهيمنة والبيان
 والحجة والبرهان حسبما يفيدته قوله تعالى ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم
 بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ أي ليحكم الكتاب بينهم، وقرئ ﴿ليحكم﴾ فيكون
 الحكم من الرسول ﷺ - ولا يخفى أن خلفاءه وعترته من بعده يقومون مقامه
 فيتناولهم الحكم الوارد له ﷺ - وقوله ﴿وما اختلف فيه﴾ أي في الكتاب المنزل

ملتبساً بالحق بأن حرفوه وأولوه بتأويلات زائغة! والذين أوتوه أرباب العلم به والدراسة له وخصصهم بالذكر تنبيهاً منه على شناعة فعلهم وقبيح ما فعلوه من الاختلاف ولأن غيرهم تبع لهم في الاختلاف فهم أصل الشر، والمعنى تشنيع حال الذين أوتوه بأن كانوا أسوأ حالاً من المختلفين فيه قبل مجيء البينات الموجبة الاتفاق وعدم الاختلاف، فجعلوا مجيء الآيات البينات سبباً لاختلافهم كما قال سبحانه ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ وذلك أشنع عليهم حيث رتبوا على الشيء خلاف مقتضاه! ونظيره اختلافهم في التوراة كما حكى تعالى في سورة هود ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ والآية مُرتبة على قوله ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ والمعنى أنهم عبدوا الشيطان وأشركوا آلهة مع الله اقتداء بآبائهم من قبل متوارثينها عنهم، وقد أشارت هذه الآية إلى اختلاف هؤلاء فيما قصه القرآن من الدعوة إلى توحيد الله كاختلافهم في التوراة! وأشارت آية فصلت إلى اختلافهم فيما قصه القرآن من نزوله بلغتهم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ والكلام مرتب على قوله ﴿ولو جعناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي﴾ أي لما أنزلنا القرآن بلغتهم العربية اختلفوا فيه كاختلافهم في كتاب موسى والمقصود - والله أعلم - أنهم لا يخلون من الطعن على كل تقدير! هذا من جهة السياق، وأما من جهة مسالك عموم الأدلة فالاختلاف كان على أنواع: منها: الاختلاف في التوراة بين مؤمن بها وكافر فقد كفر بدعوة موسى بعض بني إسرائيل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة وعبدوا الآلهة عقيب دخول القرية، ومنها: اختلاف بين المؤمنين بها من بني إسرائيل اختلافاً عطلوا به بعض أحكامها،

ومنها: الاختلاف في تقرير بعضها وإبطال بعض وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض، ومنها: الاختلاف فيما قصّته من المغيّبات والنبوءات، ومنها: الاختلاف في تأويل بعضها على هواهم وفي إلحاق أشياء بها على أنها منها... وجميعها موضع عبرة وأسوة لاختلافهم في القرآن! أخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**» ولما ذكر تعالى إنزال الكتاب وسببه ذكر ما تسبب عنه فقال **(فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)** وفي صيغة المضارع بشرى لهذه الأمة بدوام هداهم إلى ختم اليوم المحمدي ثم ذكر بعد ذلك تفضيل الرسول الأعظم ﷺ واختلاف الفرع الإسرائيلي في الكتاب فقال **(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد)** وطراً ذكر تعلق المشيئة بالاقتيال ليتلوه عموم تعلق المشيئة ليتناسب الكلام ويقرن كل بشكله وهذا سر ينشرح لبيانه الصدر ويرتاح له السر.

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) لما وعظ تعالى المؤمنين بما أقبل بأسماعهم وقلوبهم إلى حبيبه ﷺ وكان هواهم تبعاً لما جاء به ﷺ، أقبل واصفاً الأنبياء من قبله ﷺ الذين آمنوا به ونوابه الذين جاؤوا من بعده أنهم لا يخافون لائمة المغرّرين ولا تمنعهم سطوة المنافقين عن إبلاغ رسالات الله المعين "وكفى بالله حسيباً" أي كافياً وناصرراً وحافظاً ودافعاً.

﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾

اعلم أيها الشاهد أنه تعالى لما ذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض وما يأتي منهما من خير للناس وكيفية خلق الأرض وما على وجهها منها وانتقل إلى الاستدلال على بني إسرائيل بذكر استخلافهم في قوله ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وسخر لهم التصرف بوجوه التصارييف المعينة على هذه الخلافة وختم ذلك بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد وفي مطاويها جوامع التمكن في الأرض وذكرهم بدلائل إمكان البعث وبيّن إنكارهم إياه واستعجالهم به تمكماً وأظهر تفضله عليهم ومقابلتهم النعمة بإضمار المكر وإعلان الاستهزاء، ذكر سبحانه بعد ذلك اشتمال علمه الأزلي على كل غائبة تنبيهاً على اطلاعه على نفاق المنافقين الذي هو أبطن الأشياء وما تكن صدورهم وما يعلنون من المكر السيئ الذي يتفننون فيه والخداع والصد عن السبيل والكيد لرسول الله وإلحاق الأذى به وبأمته والطعن فيه وعداوته والاعتقاد الباطل والإعراض عن الحق وأردف بذكر أثر من آثار علمه تعالى وهو القرآن الذي تضمن أخباراً عن مغيبات ماضية ومستقبلية لبني إسرائيل في سائر الأعصار لا يُهتدى إليها إلا بهذا الكتاب وهي تثبت نبوة هذا النبي الأمي الذي لم يتلو قبله كتاباً ولا خالط عالماً فقص على بني إسرائيل أخبارهم المضبوطة في كتبهم وذكر لهم من الدقائق التي قل من يعلمها من حذاقهم وخاصة أخبارهم وبيّن لهم أمر الاستخلاف وحقيقة التوحيد والمعاد والنبوة والكتاب ونعوت جلال الله تعالى وما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلات كتبهم السابقة وذلك مما يقتضي إسلامهم لو تأملوا وأنصفوا لكنهم بالغوا في كتم الكتاب ولو أخذوا بالقرآن لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم

ومن جملته ما اختلفوا في شأن يوم الدين وشأن الملائكة والنبين والروح الأمين وإخراج صفة النبي الكريم من التوراة والإنجيل وركوب متن العتو والغلو والإفراط والتفريط والتجسيم والتشبيه والتليس على الناس فوق بينهم التناكد ولما كان أمر بني إسرائيل في غاية الغيوبة أشار تعالى إلى ذلك بقوله ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ وقد نزل القرآن الكريم ببيان حقيقتهم وفضح دسائسهم وكشف عوارهم وما حرفوا من كتاب الله وما كتبوا بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله وما اختلف فيه أوائلهم وبيان كنه الأمر لو كانوا في حيز الإنصاف، قال ابن عباس: "أكثر الذي هم فيه يختلفون" كل الذي هم فيه في الدين يخالفون. ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من بيان أمورهم وشرائعهم مما خبطت فيه كتبهم - المكتوبة لأتباعهم - خبطاً عظيماً من جراء ما طرأ عليها من التحريف والتبديل والتلاشي في عصور انحطاطهم، ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من أصول صريحة تكشف كتمهم وسوء تأويلهم للقرآن! وإنما قص عليهم أكثر ما اختلفوا لما في بيان الحق منه نفع للمؤمنين فموقع هذه الآية استكمال نواحي هدي القرآن للأمة المحمدية وأن بني إسرائيل الذين لا يؤمنون بالآخرة يعمهون في ضلالهم فلم ينتفعوا بهديه، فاستكملت هذه الآية ما جاء به القرآن من إرشاد المسلمين إلى هدي بني إسرائيل مما اختلفوا فيه وإبطال أنهم على التوحيد! وقوله تعالى ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ يفيد تشريف الأمة المسلمة، ولما ذكر تعالى دليل فضله أتبعه دليل عدله فقال مستأنفاً ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ وتوجيه الخطاب إلى جناب الرسول عليه أكمل الصلوات والتسليمات بتخصيص ذكر صفة الربوبية للاستدلال على التصور الصحيح الذي تضمنته رسالة القرآن، والمعنى أنه عز

شأنه المتفرد بالربوبية يقضي بينهم بحكميته، وبذلك يظهر حسن موقع الاسمين الجليلين في تذييله بقوله **(وهو العزيز العليم)** فإن العزيز لا يغلب قدرته شيء، والعليم لا يخفى عليه شيء، وفي الحديث عند الدارمي: **«ومن ولي هذا الأمر من جبار فحكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل»** ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالتوكل عليه والثقة به سبحانه وبأنه على الحق أي إنك الجدير بالنصرة والظهور **(فتوكل على الله إنك على الحق المبين)** والفاء للتفريع على الإخبار بأن صاحب الربوبية يقضي بين المختلفين في شأن القرآن أمراً للمؤمن بأن يطمئن بالاً ويتوكل على ربه فإنه يمنعه ويجرسه ويقضي على معانده بما يستحقه، وفي هذا دعوة إلى الحنيفية الحقة والعبادة الخالصة، والتوكل: انفعال قلبي عملي يتوجه به المؤمن إلى جناب القدس وحضرة الأنس ويكل الأمر إليه ويفوض إليه تدبيره ويسند إليه مباشرته راجياً الإعانة مستعيذاً من الخيبة، ولا يتم حال التوكل إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، كما جاء على لسان يعقوب **عليه السلام (إن الحكم إلا لله عليه توكلت)** والتوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات المقربين ومن أعلى مراتب الإحسان وهو شاق من حيث العمل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع لا يقوى عليه إلا أكابر العلماء الذين استناروا بهدي أحكم الحاكمين فصرفوا أعينهم عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ورفع همهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل

على الواحد القهار، وبالجملة فإنه لا يدخل أحدٌ مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء ولا يستند إلى شيء إلا على من بيده ملكوت كل شيء فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب حتى لا يبقى في نظره إلا الكريم الوهاب، ومن حققه فقد تبرأ من الشرك الخفي، وأما الشرك الجلي فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان. وقد أودع الله في كتابه غرسة التوحيد في صورتها الناصعة الرفيعة المجردة حين نزل بها جبريل على رسولنا ﷺ فكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة، كما هي غريبة على حس جاهلية اليوم، وهي نقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المشوهة التي يستمسك بخيوط حائلة منها شرار بني إسرائيل ويلصقون بها عقيدتهم الواهية وبين الصورة الباهرة العظيمة المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة التي جاءنا بها رسولنا عليه الصلاة والسلام متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى وبالغة نهاية الكمال لتكون الرسالة الأخيرة للأرض. ثم استأنف الحق مسلماً رسوله ﷺ عن بني إسرائيل فشبههم مرة بالموتى ومرة بالصم وثالثة بالعمى فقال **(إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ)** ولما كان ربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة، أزال هذا الاحتمال بقوله **(إِذَا وَلَوْ أَدْبَرِينَ)** فهذه الحالة لا تقبل سماعاً ولا رؤية لتحصل الإشارة وهذا نهاية الإعراض وغاية العمه ولذلك قال **(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ)** والأعمى هو الذي قد عمى عن حجج الله فلا يتبينها فيتبعها، والأصم هو من قام به الصمم وهو ذهاب السمع يعني ما سمع الهدى ولا عمل به، والميت من الأحياء هو الذي يلقي الله بكفره. وقد أشار ﷺ إلى بني إسرائيل في حديث سيدنا جبريل ﷺ من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: **«أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الصَّمَّ الْبِكْمَ الْعَمَى الْحَفَاةَ**

رعاء الشاة يتناولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» والحديث ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم بلفظ: «هم العريب» وقد تقدم بيان هذه الألفاظ. ولما فرغ الحق من عظيم زجرهم بذكر أشرار الساعة، عطف عليه ذكر أشرارها الكبرى فقال محققاً بأداة التحقيق (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أي إذا وقع القول عليهم في الدنيا حين لا تنفع التوبة أخرجنا لهم دابة تسمهم بالكفر... ثم يحشرهم الحق إلى الحساب الذي يكذبون به كما كذبوا بالآيات وذلك قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون، حتى إذا جاؤوا قال أكذبتُم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أما ذا كنتم تعملون، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) روى الإمام البيهقي في البعث والنشور عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً».

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) لما ذكر سبحانه من جلافتهم ما ختمه بلعنهم وكان قد قدم ذكر كتابهم مراراً وأشار إلى الإنجيل بإيتاء عيسى عليه السلام البينات ذكر سبحانه كفرهم بهذا الكتاب الذي مقصود السورة وصفه بالهدى وبهذا الرسول الآتي به دليلاً على إغراقهم في الكفر! وقد عدل عن أن يقال: ولما جاءهم رسول ليكون اللفظ أشمل فيشمل الكتاب والرسول الذي جاء به فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول، وكانوا من

قبل يستفتحون بهذا الكتاب ويستنصرون. فمن ينزل عليه ويفتخرون به على من حولهم من الكفار. روى الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هُزمت يهود خيبر فعادت اليهود بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموهم غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ بك يا محمد على الكافرين. وأضيفت اللعنة إلى الله على سبيل المبالغة لأن من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقة ثم إنه لم يكتف باللعنة حتى جعلها مستعلية عليهم كأنه شيء جاءهم من أعلاهم فجللهم بها، ثم نبه على علة اللعنة وسببها وهي الكفر وستر ما سبق لهم عرفانه والاستهانة بالمرسل والمرسل به.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ هذا الفريق من الناس هم المنافقون وهو المعروف من أحوالهم بما حُكي من آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ والمراد بكتاب الله: القرآن دعوا إليه لأن ما فيه موافق لما في كتبهم من أصول الديانة وهم يعرفون أنه كتاب الله تعالى المنزل على خاتم أنبيائه ورسله، والخطاب للنبي ولكل من يتأتى منه الرؤية وفيه تعجب من حال أهل الكتاب وأنهم إذا ﷺ عضت لهم الحجة فروا إلى الضجة وأعرضوا عن المحجة، وقرئ ﴿لِيُحْكَمْ﴾ فيكون وورثته من بعده، وقد عبر بقوله ﴿أوتوا نصيباً من﴾ ﷺ الحكم من الرسول الكتاب باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به كتابهم، فالذي لم

يعملوا به منه كأنهم لم يُؤثَرُوهُ، وقد أوتوا الكتاب كله حقيقة باعتبار كونه بين أيديهم وجاءهم تأويله، وفيه تقرير لما سبق من أن اختلافهم إنما كان بعد مجيء العلم. وذكر الحكم على الوصف المناسب مشعر بإيتاء الملك للأميين ونزعه من الكتائبين كما دل عليه قوله بعده

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) ولا ينافي نزول هذه الآية في الأمور الحسية المادية نزولها في الأمور المعنوية الروحية فقد يكون للآية الواحدة عدة أسباب في نزولها... روى الإمام الطبراني في الكبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران».

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) أي ما يأتيهم من ذكر مُتجدد يُرشدُهم إلى التوحيد إلا أعرضوا عن تأمل برهانه وقابلوه بالتكذيب! والرحمانية صفة للرب المالك المتصرف بالتدبير ويدل على ذلك قوله تعالى في الآية الأخرى (وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) وجيء بهذين الوصفين لبيان أن رحمانيته تعالى ملازمة لربوبيته كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى، والإعراض واللعب من سمات الأمة الملعونة في القرآن.

(ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) ردُّ الأيدي في الأفواه تمثيل لحال المنافقين وقت افتضاحهم، والمعنى وضعوها على أفواههم يقولون

لرسلهم: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردّوها في أفواههم يشيرون لهم إلى السكوت، فالكلام في الآية تمثيل للحالة وليس المراد حقيقته لأن وقوعه خبراً عن الأمم مع اختلاف عوائدهم قرينة على أنه أريد به بيان عربي يصف حال العرب المستخلفين! وكم من أناس توهّموا ألباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنّها على ظواهرها أي على الحقيقة فأفسدوا المعنى بذلك وأبطلوا الغرض ومنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف.

(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) هذا دأب المقلدين المردودين وديدن المعاندين المبعودين فإن مدار ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتیاد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم! وإنما أرسل الله الرسل للدلالة على طريق الحق وسبيل التوحيد. وفي الحديث: «ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين» رواه البخاري، وفي رواية لمسلم: «وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل» وقد أوضح الله الحجة بخلق العقول، ثم قطع الأعذار بالإنذار على ألسنة الرسل، ومن بلغ المحمود حق له العذر.

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) الكلام جار مجرى البيان للآية المتقدمة (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أي بعثنا في كل أمة مستخلفة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله ويرشدهم إلى توحيدهم وينهاهم عن عبادة الشيطان وينبهم على الإيمان باليوم الآخر - لأن من لم يكن مؤمناً بالبعث لم ينزجر

عما نهي الله عنه - فكانوا يكذبونه ويصدون الناس عنه بالتشغيب عليه والطعن فيما أنزل إليه كحال هؤلاء الذين إذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: كتب الأولين أي يدرسها النبي ﷺ ويتعلم ويقتبس منها! فيصفون القرآن الذي يعالج أوضاع الحياة وأحوال البشر وسلوك الناس بأنه لا يتعدى مرحلة النبوة التي نزل فيها! ومعنى الزبر أي الأخبار عن الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلهم. ونحوه قوله تعالى ﴿جاءهم رسلكم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ أي بالمعجزات وبأخبار الأولين الذين من قبلهم وبالكتاب المنزل إليهم وهو معنى قوله ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي ما أنزله الله على نبيه ﷺ هو ذكرٌ يكشف واقعهم وينبئهم بما في قلوبهم ويؤشّر بمجيء وعد الآخرة ليقراءه الناس ويتذكروا ما أخبر عنه من النبوءات وما اشتمل عليه من حلٍّ للمشكلات وليس خرافات - والله أعلم - فردّ الحق مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخللاً بما أدمج في السياق من الكلام عن الشرك والشركاء، ثم أقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم واحتجّ عليهم بقوله ﴿فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وفي ذلك إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لإضلال الدهماء! وذكر الإمام الطبري عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: «نحن أهل الذكر» وروى الحاكم والطبراني عن أم سلمة قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «عليٌّ مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يرده عليّ الحوض» وفي رواية لهما عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بإهما فمن أراد العلم فليأتته من بابه» وفي لفظ: «فمن أراد المدينة فليأت الباب» ثم فرّع على ما أنزله تعالى من الكتاب الموجب للذكر المعلي للقدر الموصل إلى منازل الشرف تهديدهم بعذاب عظيم بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في تدبير المكر ﴿أفأمن الذين

مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) ومكرهم السيئات: إشراكهم وسمي ذلك مكرًا لأن المكر في اللغة عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الخفية، و"مكر" فعل لازم عداه الحكيم سبحانه توصيلاً إلى إدراك أنحائه ومراميه بتضمينه معنى "حاكوا" أي حاكوا خيوطها احتيالاً في إبطال الإسلام وإهلاك الأنبياء سيما أكمل الرسل وإطفاء نور الله الذي أرسله به ولبس الحق بالباطل وإبطان الشر وإيذاء المؤمنين وخداعهم، وأهل الكتاب راموا أن يفتنوا المؤمنين ويحرفوا الكلم إذ قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أقاصيص كفار قريش فحسب! صداً منهم عن واقعهم الذميم! والاستفهام مستعمل في التعجب المشوب بالتوبيخ!

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب) اعلم أنه تعالى لما ذكر تمام قيوميته وما أوصله لطفه من مضمون توحيده ردّاً على أهل الكتاب وذكر إنزال القرآن المصدق لتوراتهم وإنجيلهم وأنذرهم بالعذاب وقرر سبحانه شمول علمه وأتبعه دليله من تمام قدرته، أعقب بإخبارٍ عن شأن من شأنه تعالى متعلق بالغرض المسوق له الكلام وهو تحقيق إنزاله القرآن والكتابين من قبله تمهيداً لقوله "منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات" لأن الآيات صدرت بإبطال عقيدتهم ثم بين سبحانه حال الذين في قلوبهم زيغ والذي يقتضيه النظم الكريم أنهم أهل الكتاب وأما غيرهم فمندرج بالتبع وقد بين تعالى أن لهم غرضين في اتباع المتشابه: الأول: هو ابتغاء الفتنة وذكر المفسرون في تفسير هذه الفتنة وجوهاً:

أولها: الكفر والشرك. وثانيها: أنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفاً للبعض في الدين وذلك يفضي إلى التقاتل والهرج والمرج فذاك هو الفتنة. وثالثها: أن التمسك بذلك المتشابه يقرر البدعة والباطل في قلبه فيصير مفتوناً بذلك الباطل عاكفاً عليه لا ينقطع عنه بحيلة البتة. ورابعها: أن الفتنة في الدين هو الضلال عنه ومعلوم أنه لا فتنة ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه. وأما الغرض الثاني لهم: فهو ابتغاء تأويله أي على غير ما أريد به حسبما تدعو إليه نفوسهم المائلة وأهويتهم الباطلة، قال الإمام النسفي في قوله تعالى "وابتغاء تأويله" أي وليبتغوا من الضعفة أن يخبروهم بتأويل هذا المتشابه وليس ذلك على معنى طلبهم تأويله على سبيل التعرف والتعلم لكن على سبيل الاستزلال وإنما جعله مبتغى التأويل لأن الطاعن يخرج كلامه مخرج السؤال ويقصد به ضعيفاً لا بصر له فيه يوقع في قلبه شبهة وهي عادة الملحدة والمبطلّة من أهل الأهواء. اهـ. ثم أعقب ذلك بأن التأويل الحق مخصوص به سبحانه وبمن وفقه عز شأنه من عباده الراسخين في العلم الذين ردوا شبه الزائعين، والرسوخ في كلام العرب: الثبات والتمكن في المكان واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضلّله الشبه ولا تتطرقه الأخطاء غالباً، والراسخون في العلم هم الموقعون عن الملك الجليل، المترجمون للوحي والتنزيل، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله من كلامه فحملوه على أحسن محامله، وفي هذا العطف "والراسخون" على اسم الجلالة تشريف عظيم كقوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ ويؤيد هذا أن الله أثبت للراسخين في العلم فضيلةً ووصفهم بالرسوخ وحكّمهم في أهل الكتاب فأذن بأن لهم مزية في فهم المتشابه: لأن المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام، فتأمل ذلك واعلم

أنه تعالى ما أمرنا بسؤال العلماء إلا لينقلوا لنا حُكم الله تعالى وهذا لا يقف في فهمه أقل العوام. والوجه الذي ذكرناه مروى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وأكثر المتكلمين وروى الطبري عن ابن عباس أنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. وذكر الإمام القرطبي عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه قال: المحكمات هي التي فيها حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات لهن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد. وقال فريق من أهل التأويل: الكلام إنما يتم عند قوله "وما يعلم تأويله إلا الله" ثم الواو في قوله "والراسخون في العلم" واو الابتداء وعلى هذا القول: لا يعلم المتشابه إلا الله، وهذا قول ابن مسعود وأبي بن كعب وروى الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب) قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» وقد قال الله تعالى في حقهم (هم العدو فاحذروهم) وقال سبحانه (واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم) وليبيان قباحة هؤلاء الزائغين نورد بعض ما كتبه إمامهم ابن عبد الوهاب في كتاب كشف الشبهات حيث قال: إذا قال بعض المشركين (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وأن الشفاعة حق أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره فجأوبه بقولك: إن الله ذكر في كتابه أن الذين في

قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه. اهـ.

﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن إذ هو ذكر للعالمين، وقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار فغاصوا في لججه وخاضوا في ثبجه ونظموا فرائده وأبرزوا فوائده وصنفوا أسفاراً جليلة الأقدار وألفوا زبراً جميلة الآثار فيها أشعة حكم دقيقة وأساليب أسرار محمدية رقيقة تفصح لأهل الفهم الحاذق والعقل البارق عن معان أضمرت في الشريعة الإسلامية والديانة المباركة المحمدية يذعن لها بالطبع قلب الحاسد ويعترف بأحقيتها فهم الجاحد مأخوذة من لباب حكمة سيد الأنبياء وأشرف أهل الأرض والسماء.

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي وما أنزلنا عليك يا أشرف المرسلين القرآن إلا لتبين لأهل الكتاب أمر التوحيد والمعاد الذي اختلفوا فيه، وهدى من الحيرة ورحمة من الحزن والحسرة لمن آمن به واتبعه... قال أهل المعرفة: لا يتصل أحد بالله حتى يتصل بالقرآن ولا يتصل بالقرآن حتى يتصل بالنبى العدنان ولا يتصل بالنبى صاحب الرءاء حتى يتصل بورثته العلماء، فتبين القرآن إنما هو لرسول ﷺ بالأصالة والاستقلال ولورثته بعده قرناً بعد قرن بالفرعية والتبعية، فعلماء الظواهر يخلصون الناس من الاختلاف فيما يتعلق بالظواهر بالبيان الصريح، وعلماء البواطن يخلصونهم من الاختلاف فيما يتعلق بالبواطن بالكشف الصحيح، ولكل

منهم مشرب لا يخيب وارده ولا يضيع قاصده وهم أساطين الدين وسلاطين المسلمين... ولما ذكر تعالى إنزال الكتاب للتبيين، دل دلالة واضحة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم فقال ﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ وفي الآية إشارة إلى إحياء القلوب بالقرآن فكما تصير الأرض خضرة نضرة بعد همودها كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل ولملاحظة هذا المعنى ذيل الآية بالسماع دون الإبصار لأنه يحتاج إلى سماع تدبر أما إنزال المطر فهو مما يبصر ويشاهد، ولذلك خص كونها آية لقوم يتدبرون فيها ويعقلون وجه دلالتها ويقبلون مدلولها، ونظيره قوله تعالى ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾ وكما أن الرياح تثير سحاباً فتري الماء ينزل من خلاله، كذلك الوحي النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت فتغرقه سحائب الرحمة وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة فتملاً منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ الكلام منعطف إلى الغرض المفتتح بقوله ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ وعلى هذا يكون الخطاب لبني إسرائيل بناء على الأكثر في خطاب القرآن بـ ﴿يا أيها الناس﴾ ويكون ذكر الثناء على القرآن بأنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين إدماجاً وتسجيلاً على المشركين بأنهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن! روى الطبراني والبيهقي عن البراء قال: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله. وقال الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني

ﷺ: أما فضل الله تعالى عليهم فهو الهداية للإيمان، وأما قوله تعالى ﴿وَبَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الرحمة هنا هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ القرآن الكريم يهيب بالعقلاء أن يُهمَلوا عقولهم ويُعرضوا عن التفكير فيها والتعقل، والآية جوابٌ عن قولهم ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون وتجهيلاً لألباهم التي لم تُدرك عظم الآية التي جاءتهم، ولقصد هذا الإيقاظ صُدِّرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم نظراً إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم، ولما كان الكتاب يذكُرهم جيء بلفظ ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ معرباً بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاماً موجهاً مشتملاً على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم كقوله سبحانه ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ والذكر يجوز أن يكون مصدرأ بمعنى التذكير ويجوز أن يكون اسماً للكلام الذي يذكر سامعه بما غفل عنه كما تقدم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي متعت هؤلاء المستأخرين وآباءهم المستقدمين حتى جاءهم القرآن ورسول مبين للتوحيد بالدلائل البينات والحجج القاطعات، وشبهة هذه الآية ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ولما ذكر تعالى اشتغالهم بالاستمتاع عن القرآن وما تضمنه من التوحيد ومقتضياته أردفه بقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أي

لما جاءهم القرآن نسبوه إلى السحر وكفروا به، ثم أخذوا يتعللون بأنه لم ينزل على رجل من إحدى الفرقتين عظيم!

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) أعظم الكبر أن يتعاضم العبيد عن قبول رسالة ربهم بعد تبينها واستيضاحها، والفراغة الجدد كالقمامي يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً، واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجة الذي قهرته الحجة وبهره سلطان الحق فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمهيص ولا تثبت في محك النقد، وقد نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحراً وارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجه تحقيراً لهم (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) وإنما يكشف الله زيف السحرة فلا يسمى عملهم صالحاً لأنه لم يصادف فيه خيراً، ولما أنكر عليهم ﷺ ما ظهر به الفرق الجلي بين ما أتى به وبين السحر، عدلوا عن جوابه إلى الإخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيقته وأوهموا الضعفاء أن مراده ﷺ صرفهم عن التوحيد الذي وجدوا عليه آباءهم والملك في الأرض فقال تعالى حكاية عنهم (قالوا أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) والمراد بالكبرياء في هذا الموضع "الملك" وكذلك قال فيه أكثر المتأولين والله أعلم وأحكم، واعلم أن القوم لما ذكروا هذه المعاني أرادوا بعد ذلك الزيادة في التلبس بما يوهم أن ما أتى به سحر تُمكن معارضته إيقافاً للناس عن تباعه فخطب فرعون ملاًه وخاصته الذين بيدهم تنفيذ أمره (وقال فرعون اتتوني بكل ساحر عليم) ولم يكن فرعون وملؤه يظهرون عبادة إبليس وجنوده وإنما كانوا

يظهرون الإسلام! ولما امتثل السحرة أمر فرعون أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم ليظهر للخلق أن ما ألقوا عمل فاسد وسعي باطل ولتظهر قوة حجته لأن شأن المتأخر بالعمل المتباري فيه أن يبطل مباريه ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أن السحرة خيروا موسى بين أن يبتدئ هو بإظهار معجزته وبين أن يبتدئوا وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ ولما أذن لهم بادروا إلى ذلك كما أفهمه العطف بالفاء في قوله ﴿فلما ألقوا﴾ أي وقع منهم الإلقاء على إثر مقالاته وخیلوا بسحرهم لعيون الناس ما زلزل عقولهم كما زلزلوا عقول الناس اليوم بأفعالهم مع شركائهم وأتباعهم! فقال لهم موسى غير مكترث بهم بما صنعوا كما حكاه الله عنه ﴿قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ و"ما" في موضع رفع على الابتداء وهي بمعنى "الذي" وصلتها قوله "جئتم به" والعائد الضمير في "به" وخبرها "السحر" أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سميتموه سحراً، قال صاحب المحرر الوجيز: ويجوز أن تكون ما استفهاماً في موضع رفع بالابتداء و"جئتم به" الخبر و"السحر" خبر ابتداء مضمر تقديره هو السحر إن الله سيبيطله، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ. قال الفراء: وإنما قال: السحر بالألف واللام لأنه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا: لما جاءهم موسى هذا سحر، فقال لهم موسى: بل ما جئتم به السحر، فوجب دخول الألف واللام لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة. وقال صاحب التحرير والتنوير: ونظم الكلام على هذا الأسلوب بجعل "ما جئتم" مسنداً إليه دون أن يجعل مفعولاً لفعل "سيبيطله" ويجعله اسماً مبهماً ثم تفسيره بجملة "جئتم به" ثم بيانه بعطف البيان لقصد

الاهتمام بذكره والتشويق إلى معرفة الخبر وهو جملة "إن الله سيبطله" ثم مجيء ضمير "السحر" مفعولاً لفعل "سيبطله" كل ذلك إطناب وتخريج على خلاف مقتضى الظاهر ليتقرر الإخبار بثبوت حقيقة في السحر له ويتمكن في أذهان السامعين فضلُ تمكنٍ ويقع الرعب في نفوسهم. اهـ. وقرئ "السحر" بالاستفهام وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء، و"جئتم به" في موضع الخبر كأنه قيل: أي شيء جئتم به؟ ثم قال على وجه التوبيخ والتفريع: السحر. وقوله "إن الله سيبطله" إيجاب عن عدة من الله تعالى أي سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه، وقوله "إن الله لا يصلح عمل المفسدين" يصح أن يكون من كلام موسى عليه السلام، ويصح أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى. والفعل "يصلح" بصيغته في الماضي "أصلح" على وزن أفعل يفيد: مصادفة الشيء على صفة من الصفات تقول: أحمدت سعيداً: صادفته محموداً وعلى هذا لما كانوا يقولون: "إنما نحن مصلحون" رد الله عليهم في غرورهم بأنه تعالى لم يصادف صلاحاً في عملهم ولم يطالع فيه فلاحاً ولم يلق فيه خيراً قط ومن معاني "أفعل" التسمية فتقول: أصلحت عملك: سميت صالحاً وعليه فإن معنى "لا يصلح عمل المفسدين" أي لا يسميه تعالى صالحاً، وإضافة عمل إلى المفسدين يؤذن بأنه عمل فاسد لأنه فعلٌ من شأنهم الإفساد فيكون نسجاً على منوالهم وسيرة على معتادهم ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل، وإنما كان السحرة مفسدين لأن قصدهم تضليل عقول الناس ليكونوا مسخرين للملوك ولا يعلموا أسباب الأشياء فيبقوا آلة فيما يأمرهم به الملوك ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً! أما سحر الأحبار فإفساده أظهر وضرره أكبر لأن الأحبار يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم باسم الشرع والطاعة للولاة

وترويح البدع والضلالات باسم التوحيد والعبادات! وقد ورد لفظ الفساد في القرآن في حق المنافقين خاصة كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولما كان ربما وقع في الذهن أنهم يفسدون وقد يصلحون، أزال هذا الوهم بقوله ﴿وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ أي لا خير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم. وقد علل موسى ﷺ ما قال ببيان سنن الله تعالى في تنازع الحق والباطل والصالح والفساد فقال ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي يثبت الله الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته التشريعية التي يوحىها إلى رسله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي المتصفون بالإجرام المستلزم للانتقام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ المراد بالناس خصوص بني إسرائيل كما هو غالب اصطلاح القرآن - والله أعلم - فالألف واللام للعهد أي التي عهد المخاطب مدلول مصحوبها قبل ذكره أي يجري ذكره مقدماً، ونظيره قوله تعالى ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ والموجه إليه الخطاب هنا هم المستخلفون المخلدون في العذاب، وإنما كرهوا الحق لأنه يرمي إلى زوالهم واستخلاف غيرهم حسبما يحكيه قوله تعالى ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلَفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أي رقيب محيط بالأشياء علماً فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم فالحفظ كناية عن المجازاة ويجوز أن

يكون الحفيظ بمعنى الحافظ. بمعنى الحاكم المستولي أي إنه سبحانه حافظ مستول على كل شيء، ومن شأنه ذلك كيف يضره شيء؟

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) روى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون فيما أنزلت هذه الآية: "إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً" ونحشره يوم القيامة أعمى" أتدرون ما المعيشة الضنكة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تَنِيناً، أتدرون ما التَّين؟ سبعون حية لكل حية سبع رءوس يلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة» وروى الطبري عن مجاهد في قوله: "كذلك أتتك آياتنا فنسيتها" قال: فتركها "وكذلك اليوم تنسى" وكذلك اليوم تترك في النار. (فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) الآية تفريع على قوله (وإدعوا من استطعتم) وكونهم عجزوا فقد ظهر أن من استنصروهم لا يستطيعون نصرهم بدلالة المقام، ومن جملة ما يستنصروهم طلب الإعانة على معارضة القرآن الكريم فدل ذلك على انتفاء الإلهية عنهم، وجيء بالجملة الاسمية (فهل أنتم مسلمون) الدالة على دوام الفعل وثباته ولم يقل فهل تسلمون؟ لأن حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحة الإسلام ففتتضي تمكنه من النفوس وذلك التمكن تدل عليه الجملة الاسمية.

(أليس الله بأحكم الحاكمين) المعنى أنه تعالى أشدهم وأنفذهم حكماً، واسم التفضيل يتعلق بماهية الفعل فيفيد أن حكمه لا يبطله أحد، وهو تعالى أحكم

الحكام لشمول علمه وسعة قدرته وخلوّ حكمه عن الجور والحيث، يؤتي الحكم من يشاء وينزعه ممن يشاء، وفي الآيتين وعيد للحاكمين وأنه تعالى يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) قال الإمام الرازي: حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجدد تلك الحجة عليهم. ولا يخفى أن ورثة الرسول عليه الصلاة والسلام يقومون مقامه فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له ﷺ. وزيادة الجار في قوله "من قبلك" تدل على الزمن القريب كقوله تعالى (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) والندارة تتضمن زمن الفترة بينه ﷺ وبين استخلافهم فإن علماء أمته ونواب ملته ﷺ كافون في تبليغ ما أخفاه المبطلون وتصحيح ما حرفه الباطلون ونحوه قوله سبحانه (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ) أريد آبائهم الأذنون دون الأباعد، قال العلامة أبو السعود: أي لم ينذر آبائهم الأقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذي أنذره أو شيئاً أنذره آبائهم الأبعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو إنذار آبائهم الأقدمين على أنها مصدرية فيكون نعتاً لمصدر مؤكد أي لتنذر إنذاراً كائناً مثل إنذارهم. اهـ. وهذه الندارة المنفية هي ندارة إقامة الحجة حسبما ينطق به قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ومعنى الأمة هنا: الأمة المستخلفة وإلا فدعوة الله لم تنقطع قط.

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) أي آتيناك من عندنا من الأمر الشريف بمزيد خصوصيته بنا ولطيف اتصاله بحضرتنا من غيب ذكراً عظيماً جليلاً جامعاً لما

أظهرناه من أمرنا في التوراة وما أبطنّاه من سرنا في الإنجيل وما أودعناه من سكينتنا في الزبور مع ما خصصناه به من لطائف المزايا وعظائم الأسرار فيما سبق من الكتب والأخبار، يُعرف بمجرد تلاوته أنه من عندنا لما يُشهد له من الروح ويُذاق له من الإخبات ويُرى له من الجلالة في الصدور، مع القطع بأن أحداً لا يقدر أن يعارضه، وضمّنّاه تلك القصص والمواعظ والأحكام ودقائق الإشارات.

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) الكلام هنا متصل بمطلع السورة فإنه ينطوي على ما حكاه من نظم الكتاب نظماً رضيعاً محكماً لا يطرأ عليه اختلال ولا نقص، وما يشهد به إعجازه ببديع نظمه وباهر حُكمه وحِكمه وزاجر غرائبهِ ووافر علمه، فإن تحت كل كلمة بل كل حرف منه أسراراً ورموزاً وعلوماً كثيرة، وآية جملة في القرآن فضلاً عما تجاوز تحتوي على معجزات جمّة.

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) لما وصف سبحانه هذا القرآن بما وصفه في مطلع السورة من العظمة ونُبّه إلى إعجازه ونوّه بشأنه وأنه أعلاه فأنزله وأغلاه بدُرّ المعاني وفضله لإخراج الناس من الضلالات إلى النور الذي هو توحيد الله وأقام الحجة على تفردّه تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته وذكر البعث وحذر الكفار من كيد الشيطان وكيف يتبرؤون منه يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ وذكر فضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر ثم عجب من حال كفرهم نعمة الله وإيقاع من تبعهم في دار البوار بالإشراك وعدّ بعض نعمه عليهم تفضيلاً ثم جمعها إجمالاً ثم ذكّر الفريقين بحال إبراهيم عليه السلام ليعلم من هو سالك سبيل إبراهيم عليه السلام ومن

هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام وحذرهم من كفران النعمة وأنذرهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل ووعد المؤمنين بالنصر؛ ختم السورة بما به ابتدأها فله دره من آخر عائق الأول ومقطع رد إلى مطلع تنزل **(وليدكر أولوا الألباب)** وهم علماء الحقيقة وأساطين المعرفة وعشاق الحضرة وأمناء خزائن المملكة، جعلنا الله تعالى ممن ذكر فتذكر وتحقق في مقر التوحيد وتقرر ووفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته بمنه وكرمه.

سورة طه

نوه المولى في مطلع السورة بأن القرآن تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية ونوه بعظمته تعالى وأثبت رسالة رسوله محمد ﷺ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في بني إسرائيل فضرب المثل لنزول القرآن على سيد الأنام بكلام الله موسى ﷺ وبسط نشأته وتأيد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن بني إسرائيل وغرق فرعون وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط وذكر قصة رأس أهل النفاق والضلال السامري نحو بني إسرائيل في مغيب موسى ﷺ وخاطبه بقوله بعد قبول عذر أخيه هارون **(قال فما خطبك يا سامري)** فأجابه **(قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي)** والمراد بالرسول - والله أعلم - موسى ﷺ وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمثل رسمه والتقدير أن موسى ﷺ لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل فقال "بصرت بما لم يبصروا به" أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي شيئاً من

سنتك ودينك فقدفته أي طرحته فعند ذلك أطلع الله موسى على نفاقه - مثل المنافقين الذين أطلع الله سيدنا محمداً ﷺ على نفاقهم وكان النبي ﷺ أعلم حذيفة بن اليمان بهم - فأعلمه موسى ﷺ بما له من الإمهال ثم العذاب في الدنيا والآخرة... وكانت صورة الإمهال في التحرز عن القتل فإن المس يطلق على القتل **(قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس)** أراد والله أعلم لمن كان جاهلاً بحالك فإن المنافق يتلون في المذاهب ويروغ كالثعالب ويتشكل كل برهة شكلاً متأثراً بالأهواء والمطامع نتيجة بعده عن الحق في الدعوة إلى الباطل ليأمن جميع الناس **(وإن لك موعداً لن تخلفه)** أي وعداً في الدنيا وفي الآخرة بالعقاب على الشرك والإفساد لن تخلفه أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه البتة... وتخلل ذلك إثبات البعث وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال ورجع إلى التنويه بشأن القرآن العربي معروضاً ببني إسرائيل باعتبار كونهم المقصود بإنزاله في الجملة وانتقل إلى وعيدهم بسبب إعراضهم عنه وعدم انتفاعهم بأمثاله ومواعظه بعد تذكيرهم بعداوة الشيطان بما تضمنته قصة خلق آدم ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة وسوء العقاب في الدنيا إذ جعلوا مقادتهم بيد الشيطان ثم ذيل السورة ببيان كفرهم بدين الإسلام وبسيد الأنام عليه الصلاة والسلام إذ جعلوا إيمانهم متوقفاً على أن يأتيهم بآية من ربه فأجاب عنه بقوله **(قل كل متربص فتربصوا)** وصيغة الأمر فيه مستعملة في الإنذار ويسمى المتاركة أي تترككم وتربصكم لأننا مؤمنون بسوء مصيركم وفي معناه قوله تعالى **(فارتقب إنهم مرتقبون)** ونحوه قوله **(فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون)** وفي ما يقرب من هذا جاء قوله **(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا**

إننا معكم متربصون) وفرع على المتاركة إعلامهم بأنهم يعلمون في المستقبل من
من الفريقين أهل التوحيد ومن هم المهتدون (فستعلمون من أصحاب الصراط
السوي ومن اهتدى) وهذا تعريض بأن المحمدين هم أصحاب الصراط المستقيم
المهتدون لأن مثل هذا الكلام لا يقوله في مقام المحاجة والمتاركة إلا الموقن بأنه
الحق.

الفصل الرابع: توصيف المهرجة

الأمة المفضلة والأمة المحتبأة

اعلم أيها الشاهد أنه سبحانه لما ذكر تفضيل بني إسرائيل على العالمين؛ آل الأمر إلى أمة محمد ﷺ فجعلها في الرتبة الأسمى والمقام الأرفع فقال ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «الوسط: العدل» فدلّ ذلك على احتباء الأمة المحمدية المأمورة بجهاد الأمة الإسرائيلية وإقامة الحجّة والبرهان عليها كما جاء في سورة الحج ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ أي يا أمة محمد ﷺ اختاركم واصطفاكم وشرفكم وخصكم بعظيم كرامته وجعلكم أنموذج مخلوقاته ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ قال قتادة: الله سماكم المسلمين من قبل وفي هذا. وقال ابن زيد: هذا قول إبراهيم "هو سماكم المسلمين" ألا ترى قول إبراهيم "واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" ولم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة. اهـ. وهذا التأويل يدل على أن الخطاب لبني إسماعيل وقد قرر الحق ارتباطهم الأبوي بإبراهيم ﷺ وجعل شرط الأبوة الشرعية اتباع المنهج فالاتصال المسند للعلم يتسلسل إلى إبراهيم ﷺ ومداره ومحوره الرسول العظيم محمد عليه صلوات رب العالمين الشهيد علينا والشفيع لنا لنكون شهداء على غيرنا كما في قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي خياراً عدولاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ أي على أمة بني إسرائيل والأمم

قبلها مبلغين عن الله مكلفين بقيادة البشرية إلى الله ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ أي وصياً ورقياً عليكم يزكيكم ويشهد بعدالتكم كما قال تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي شاهداً لأمتك المتبعين لك بالعدالة والتزكية كما روى البخاري وأصحاب السنن والإمام أحمد واللفظ له عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح النُّوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير أو ما أتانا من أحد، قال: فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته قال: فذلك قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال: الوسط العدل، قال: فيدعون، فيشهدون له بالبلاغ، قال: ثم أشهد عليكم» أي أشهد عليكم بالعدالة وأزكيكم قال الإمام السيد عبد الله سراج الدين الحسيني: وعُدت الشهادة بعلى لأنها متضمنة معنى الحكم. اهـ. وقد أُخِّرَت صلة الشهادة أولاً وقُدِّمَت آخرأً لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم وفي الآخر الاختصاص بكون الرسول شهيداً عليهم والمعنى أنه ﷺ يزكي أمته المتبعين له ويعدهم ويشهد لهم بالثقة والعدالة وإنما جيء بكلمة "عليكم" لتضمن شهادته ﷺ معنى الحكم. وهذا المنصب أعني منصب شهادة الأمة المحمدية على الأمة الإسرائيلية والأمم قبلها هو منصب شريف ورتبة عالية خصت به الأمة المحمدية المتبعة لرسولها الأكرم ﷺ حيث تقف يوم القيامة في مكان عال مشرف على جميع الخلائق كما روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه» جعلنا الله تعالى منهم بفضله وعافيته - آمين - فالآية الكريمة ثناء على هذه الأمة بأن الله قد ادَّخر لها

الفضل وجعلها وسطاً بما هيأ لها من أسبابه في بيان شرائع من قبلها بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تروج عليهم الضلالات التي راجت على أهل الكتاب، وقد دلت الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها وأنها مرتبة عظيمة في الدين حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضي إلا بعد حصولها، ويؤخذ من الآية أن التزكية أصل عظيم في الشهادة، وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكى، وأن المزكي لا يحتاج للتزكية، وفي هذا تشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وهذه الشهادة دنيوية وأخروية، فأما الدنيوية فهي حكم الأمة المسلمة على السفهاء من بني إسرائيل المكابرين في العكوف على الحق بعد ظهوره، وأما الشهادة الأخروية فهي على جميع الأمم كما روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم يا رب فتسأل أمته هل بلغكم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير، فيقول من شهودك؟ فيقول محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا - قَالَ عَدْلًا - لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومعنى شهداء على الناس أي لتكونوا محتجين عليهم بتعليمهم الوحي والدين، وعُدَّت الشهادة بحرف (على) لتضمنها معنى الرقابة والهيمنة لأن الحرف يفيد الاستعلاء والاستيلاء وهذه نكتة شريفة، وقد عَنَوَ الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله: باب قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة وهم أهل العلم. ولما كان هذا المقام شريفاً منيفاً له شأنه الكبير، كان حقيقاً أن يُدعى به كما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ

يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي فاكتبنا مع محمد ﷺ وأمته فهم الشاهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ وللرسل أنهم قد بلغوا» اللهم اجعلنا بجاهه ﷺ منهم - آمين - وكونهم شهداء لأنهم يشهدون بصحة دين الله تعالى تارة بالحجة والبيان، وأخرى بالسيف والسنان. وهم أهل المعرفة المعبر عنهم في التنزيل العزيز بأصحاب الأعراف يعرفون كلاً بسيماهم أي يميزون أهل الخير والرشاد من أهل النفاق والفساد كما كانوا يعرفونهم في الدنيا فهو تعالى يجلسهم على الأعراف وهي الأمكنة العالية الرفيعة ليكونوا مطلعين على الكل يشهدون على كل أحد بما يليق به. أخرج الإمام الحاكم وأحمد عن أبي الدرداء قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله قال: يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، فقال: يا رب كيف يكون هذا لهم ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيتهم من حلمي وعلمي» والمراد أنهم لا يتعلمون ولا يتعرفون الحلم بل يجعل الله فطرتهم وعقولهم راجحة مهتدية إلى الخير بغير واسطة فيكون عامة الأمة كعلماء من قبلهم في علمهم وحلمهم وهو يناسبه أن علماء هذه الأمة كأنبيا بني إسرائيل بطريق المقابلة كما دل قوله: «أعطيتهم من حلمي وعلمي» فإن هذه الصفات لا تكون إلا للعلماء الحلماء على نحو ما ورد في بعض الآثار: «علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل» يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب ولا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى حين الحساب. وقد ذكر الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد مهدي بهاء الدين الصيادي الرفاعي قدس الله سره عن نبي الله يوشع عليه السلام أنه قال: الغوث نبي العصر والرجال أصحابه وكلهم نواب نبيكم ﷺ وإنه لني الأنبياء في مقام مرتبته

ونبيكم في مقام ظهوره فمن قبله إلى آدم عليه وعليهم السلام أصحابه في مقامه ونوابه في منزلته، والمواترة التي تقع بين الأنبياء فالحكم فيها لروح صاحب المقام والمنزلة محمد ﷺ، وكل من جاء بعده فهو نائب عنه بحكم أمره ووارثه بحكم سره وشريعته. اهـ. ولما كان أمر هذه الأمة أنه يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله اكتفى بعلمائها عما كان من توالي أنبياء بني إسرائيل. ومن شرف علماء هذه الأمة أن الله تعالى أنزلهم منزلة خلفاء رسول الله ﷺ ومنزلة أنبياء بني إسرائيل حيث أمرهم بالحكم بين الناس فلحقوا بمقامات الأنبياء عليهم السلام في ذلك وجعلهم ورثة لهم لتقدمهم عليهم فإن المتأخر يرث المتقدم بالضرورة، وأعطاهم الاجتهاد في نصب الأحكام فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم ويحكمون على بني إسرائيل، فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أممهم، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم كما كمل لنبيهم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، كما كمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله وكذلك في شريعته، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله بالبيان والسيف فهم المجتوبون كما قال إلههم **(وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)** أي اختاركم لنصرته واصطفاكم، وهذا مدح رفيع اختصت به الأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، فكان المعنى: أني فضلت بني إسرائيل على العالمين، واجتبيتكم واخترتكم لنصرتي وجعلتكم فوق بني إسرائيل، وقد أشار رسول الله ﷺ في أول خطبة خطبها بالمدينة إلى ذلك بقوله: **«قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا قوة إلا بالله فأكثرُوا ذكر الله واعملوا**

لما بعد الموت فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» والفرق بين مفهوم الخيرية ومفهوم الأفضلية، أن الأفضلية تتضمن العطاء الدنيوي، وفيها ذم لبني إسرائيل إذ قابلوا النعمة بالكفر وتمادوا في غيهم وتنكروا لفضل الخالق سبحانه فكان الحكم العادل هو ما نصّت عليه الآيات باللعة والغضب والذلة والمسكنة والفرقة والتشريد وفقدان النصير... أما الخيرية فتتعلق بالاجتناء الدنيوي بغلبة العدو ووراثه الأرض، والأخروي بالثواب ورضوان الله، ومن هنا كان الحكم الربّاني الذي صدر في حق الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية ﴿كُتِمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولا شك أن خيرية الأمة بحسب كمالهم في الدين وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه، فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، ومنّ علينا بما عمنا به من الفضائل الجمّة، ونوّه بنا في الكتب الإلهية، فينبغي لمن هو من هذه الأمة المحمدية أن يتخلق بالأخلاق الزكية، ليثبت له ما لهذه الأمة الشريفة من الأوصاف المرضية، ويتأهل لما لها من الخيرية، فإنها محبوبّة بالكرامات، مقربة بالهدايا، محفوظة من الولايات، تولى الله هداية مَنْ سَمَّاهم المسلمين وتأديهم، يُسمّون في التوراة: صفوة الرحمن، وفي الإنجيل: حلماء علماء أبرار أتقياء كأهم من الفقه أنبياء، وفي القرآن: خير أمة أخرجت للناس. والخيرية أصلها لخير الخلق ﷺ على نحو ما ورد في الحديث عند الترمذي: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» وهذا دليل على تمجيد النسب المحمدي فإنه ﷺ لما كان في

964

نسب تحسب العلاء بجلاء ... قلدها نجومها
الجوزاء

حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء

وروى البزار عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَتَقْلِبُكُ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: «من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبياً» وروى الترمذي وأحمد وابن أبي شيبة عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» وروى الديلمي عن جابر قال: خطبنا النبي ﷺ فقال في خطبته: «أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر، وأكرم الناس قدراً ولا فخر» واعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتفاء صفوئهما إليه، وقصور نسبهما عليه، ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية ولتمام الشرف نهاية، وأنت إذا اختبرت حال نسبه، وعلمت طهارة مولده، تيقنت أنها سلالة آباء كرام، وأسلاف عظام، فهو ﷺ النبي العربي الأبطحي الحرمي الهاشمي القرشي نخبة بني هاشم المختار المنتخب من خير بطون العرب وأشرفها في الحسب وأعرقها في النسب وأنضرها عوداً وأطولها عموداً وأطيبها أرومة وأعزها جرثومة وأحسنها ذكراً وأجلها قدراً وأفصحها لساناً وأوضحها بياناً وأرححها ميزاناً وأصحها إيماناً وأعزها نفراً وأكرمها معشراً من قبل أبيه وأمه، فهو الدر النضيد، والجوهر الثمين الفريد، المستخرج من أصداف البطون الطاهرة، والأصلاب العلية الفاخرة، وهو صفوة العالمين كلهم والمصطفى على جميع الأنبياء والمرسلين،

وأتمته المصطفاة على الأمم. قال الإمام التفتازاني: لا شك أن خيرية الأمم بحسب كما لهم في الدين وذلك تابع لكمال نبهم الذي يتبعونه. وروى البيهقي والبخاري والحافظ الشامي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وعرج به كلمه ربه فقال: «أرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلت أمتك لا تجوز عليهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم مبعثاً، وآتيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وجعلتك فاتحاً وخاتماً» وروى الخطيب عن أنس مرفوعاً: «فأقرأ أمتك مني السلام وأخبرهم أي جعلتهم آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم ولا أفضحهم عند الأمم» وروى الإمام أحمد من حديث ابن عباس مرفوعاً: «فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها» وفي رواية عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنكم توفون يوم القيامة سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» وروى الطبراني عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الجنة حُرمت على الأنبياء حتى أدخلها، وحُرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «طوبى لمن رآني، وطوبى سبع مرار لمن آمن بي ولم يرني» وروى البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ قال: هم

أمة محمد ﷺ أورثهم الله سبحانه كل كتاب أنزله فظالمهم يُغفر له ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة» وفي رواية للبيهقي أن عمر رضي الله عنه تلا هذه الآية فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم، أبان بها فضلهم، ومنها: أنهم أقل الأمم عملاً وأكثرهم أجراً، وأوتوا العلم الأول والآخر، وهم آخر الأمم فافتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا، ومنها: أنهم أوتوا الإسناد وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة وسنة بالغة من السنن المؤكدة إذ أخذوا الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عدداً فهذا من فضل الله على هذه الأمة فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه، ولم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله تعالى آدم أمناً يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، ومنها: أنهم لا يجتمعون على ضلالة، وأن إجماعهم حجة، وأن اختلافهم رحمة وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، ومنها: أن لهم ما سعوا وما يسعى لهم وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، ومنها: أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم، وأن فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً مثل إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً. وبالجملة: فقد اختصت هذه الأمة بما لم يعطه غيرها من الأمم تكرامة لنبينا عليه الصلاة والسلام وزيادة في شرفه، وتعداد خصائصها

يستدعي سفرأ بل أسفارأ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين

لما تضمنت سورة الدخان المقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه والمنة على بني إسرائيل بإنقاذهم من يد فرعون وتمكينهم بعده واختيارهم على علم على العالمين، أتبع ذلك تعالى في سورة الجاثية بذكر إيتائهم الكتاب والحكم والنبوة واختلافهم بعد مجيء العلم عن عمد ومكابرة تنبيهاً على نهاية كفرهم واتخاذهم آيات الله هزواً وتعتتهم في مواجهة حقائقها وإصرارهم على الضلالة ومكابرتهم في الحق وسوء أدبهم في حق الله وحق كلامه، والسورة تُواجههم بما يستحقون من الترديل والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم، ومقصودها إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل الصنعة من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها وإدماج ما فيها مع ذلك من تسخير الفلك وتسخير ما في السموات والأرض وغيرها من نعم يحق على بني إسرائيل شكرها لا كفرها ووصف أحوالهم إذ أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها وخالفوا رسولهم ﷺ والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والاستهزاء بها، والتنديد عليهم إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم وفي النظم الجليل أمرٌ للمسلمين بالإعراض عنهم فإنهم لا يرجون نعم الله الدائمة التي وعدّها في الآخرة لأهل الإيمان ولا يحذرون نقمته وعقوبته ولا يؤمنون بالرجوع إليه إذ أنكروا البعث! وقد وصف تعالى أهوال البعث وما أعد فيه من العذاب لهم ومن

رحمة للمؤمنين وذلك تثبيت للرسول ﷺ بأن لا يعبأ بهم إذ لا وزن لهم عند الله، والسورة كلها في التنفير عنهم والتحذير من طاعتهم وغوايتهم واتباع أهوائهم وقبول وسواسهم، وقد أشارت الآية إلى إيتائهم ثلاثة أمور ذكرها المولى على ترتيب في غاية الحسن **(الكتاب والحكم والنبوة)** ومعنى إيتائهم النبوة: أنها كثرت فيهم ما لم تكثر في غيرهم وهذا شيء ينفردون به دون سائر الأمم ولا تعليل له إلا السوء العريق في دخائلهم المنكوسة ولولا هذا السوء لما احتاجوا إلى معشار هذا العدد من الأنبياء ولكنهم لمسخ طبائعهم العريق كانوا على الدوام أهل سوء فكلما حسنت حالهم على يد نبي ارتدوا إلى عصيانهم فاحتاجوا سريعاً إلى غيره وهكذا دواليك فكثر أنبيائهم مخزاة من مخازيهم وليست مفخرة من مفاخرهم، وسوق خبر بني إسرائيل هنا توطئة وتمهيداً لقوله بعده **(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها)** أي جعلناك على طريقة إحسانية من الدين مخالفة لطريقتهم وقد أثار ذلك ما تقدم من الآيات في مطلع السورة فكان المقصد اتباع القرآن وروح الأعيان سيدنا سيد ولد عدنان ﷺ ولذلك عطفت الجملة بحرف ثم الدال على التراخي الرتبي أي على أهمية ما عطف بها... روى البغوي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها فقال: **«أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»** ومعنى قوله "أمتهوكون" أي متحIRON أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى. ومعنى قوله **(وآتيناهم بينات من الأمر)** أي علمناهم بواسطة الكتب والرسل حجج الحق والهدى التي من شأنها ألا تترك للشك والخطأ إلى نفوسهم سبلاً إلا سدّتها فلم يحافظوا على وصايا الرسل!

وقوله ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي أن اختلافهم عن عمد ومكابرة وليس عن جهل أو غفلة أو تأويل، وجاء اللفظ على سبيل التعجب والتهكم إذ أن من كسب العلم لزمه الثبات عليه واتحاد الكلمة وليس الاختلاف، والمقصود هو التعجب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنة للاختلاف إذ كان الاختلاف بينهم بعد ما جاءهم العلم! ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف والله أعلم، وهذا كقوله تعالى ﴿وَأُضِلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ ولما كان القصد في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ﴾ هو الاعتبار بأحوال بني إسرائيل؛ حسن تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق، ومصب هذا التحقيق هو التفريع الذي في قوله ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي ما اختلفوا إلا حرصاً على الرياسة وبغياً على القرآن لا لقصد البرهان ومنشأ ذلك العتو والاستكبار وهذا فعل الملوك مع أتباعهم. ثم أمر المولى سبحانه باتباع القرآن ومتاركة الذين أوتوا الكتاب وحذر من اتباع أهوائهم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و"ثم" للتراخي الرتي، وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوءة والبينات من الأمر، فنبوءة سيدنا محمد ﷺ وكتابه وحكمه وبياناته أفضل وأهدى مما أوتيته بنو إسرائيل من مثل ذلك، و﴿عَلَى﴾ للاستعلاء المجازي أي التمكن والثبات على حد قوله تعالى ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والشرعية: الطريقة المتبعة مشتقة من الشرع وهو جعل طريق للسير، وقد بلغت هذه الآية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الإيجاز مبلغاً عظيماً إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى وأنها شريعة عظيمة وأن

الرسول ﷺ متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله **(فَاتَّبِعْهَا)** أي دُم على اتباعها فالأمر لطلب الدوام، وبين قوله **(فَاتَّبِعْهَا)** وقوله **(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** محسن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع بني إسرائيل المعبر عنهم بـ **(الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** أي لا يعلمون توحيد الله ونفى عنهم العلم لانتفاء ثمرته وهو الاتباع له والعمل بمقتضاه، وحذر تعالى من اتباع أهوائهم لأن أهواءهم دين الشرك، والهوى: المحبة والميل، والمقصود أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين والله أعلم، والخطاب لأمته ﷺ ليحذروا من أهواء أهل الكتاب، فالزم أي أcha الصدق هذه الشريعة واستمسك بهذا المنهاج فما له والله من هاج، ولا تلتفت لقول مفتر كذاب، لا يؤمن بيوم الحساب، راح يكذب على الله ورسوله، وهو عيبة الزور والبهتان، والله در القائل:

أَبْنَى حُلٍّ أُولَى النِّفَاقِ بَغْيِهِمْ ... هَمَلًا وَدَعِ بَيْنَ الْأَنَامِ أَذَاهُمْ

أترؤم منهم غيرة؟ وقديهم ... رأوا النبي ونوره أعماهم

وقد أشار ﷺ إلى تخلي أمته عن هذه الأوامر الجليلة وسيرها بسير بني إسرائيل كما جاء في الحديث عند الإمام أحمد: **«إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثَنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلةً يَعْنِي الْأَهْوَاءَ كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامَ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»** وفي الحديث تشبيهه لحال الزائغين من أهل البدع في استيلاء تلك الأهواء عليهم وفي سراية الضلالة إليهم ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله حتى

يهلكوا جهلاً، بحال صاحب الكلب وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله. ومعنى قوله: «وهي الجماعة» أي الذين يجتمعون على طاعة الخليفة أي السلطان الأعظم ويسلكون النهج الأقوم ويهتدون بسنة النبي الأكرم وسنة خلفائه في أمر الشورى والخلافة وسياسة الأمة فإن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام يعتزلون تلك الفرق كلها ويتبعون أعظم العلماء وإن قل عددهم ويقاثلون على أمر الله. وإن من جليل حكمة سيد الأنام، التي أفرغها بلسان النصح العام، قوله عليه الصلاة والسلام: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأطيعوا من ولاة الله أمركم ولا تنازعوا الأمر أهله وإن كان عبداً أسود وعليكم بما تعرفون من سنة نبيكم والخلفاء الراشدين المهديين وعضوا عليها بالنواجذ» وقوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وإذا تأملنا معاني الحديث نجد أن الخطاب هنا يقتضي الحكم والخلافة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا علاقة له بسنة الأحكام والحلال والحرام حسبما ينبئ عنه قوله ﷺ في الرواية الأخرى: «وإن تأمر عليكم عبد» إذ ليس للخلفاء سنة غير سنته ﷺ، وهذا الأمر التبس على كثير من العلماء واختلط عليهم مفهوم الولاء والبراء ومفهوم الخلفاء الراشدين والخلفاء المفسدين الناقضين واضطربت الأمور وعاث الشيطان بخيله ورجله لاستثمار المراحل واستخدام الدين في مشاريعه الإبلسية وظهر أولياؤه في صورة الناصحين ولباس الموحيين! ثم إن مفهوم السنة لا يقف عند معناه اللغوي ولا معناه الاصطلاحي لدى علماء الأصول بل يتعداه إلى معان أخرى تتلقى مشروعيتها من أقوال

صاحب السنة ﷺ إذ جعل الإحداث الحسن الذي أحدثه الأئمة المهديون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين سنة من السنن الحسنة واعتبر الإحداث السيئ الذي أحدثه الأئمة المضلون والدجاجلة المخادعون سنة من السنن السيئة كما جاء في الحديث عند ابن ماجه: «من استنَّ خيراً فاستنَّ به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استنَّ به ولا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن استنَّ سنة سيئة فاستنَّ به فعليه وزره كاملاً ومن أوزار الذي استنَّ به ولا ينقص من أوزارهم شيئاً» وفي رواية لمسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجرهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» والله در المحدث الأكبر والعارف الأشهر شيخ مشايخ العرب والعجم وصاحب النوبة والعلم سيدي أحمد الرفاعي عطر الله مرقدته حيث يقول: لو تكلمت السنة لفضحت أمة تدعي العمل بها وهي على البدعة. وفي الحديث عند الحاكم والبيهقي وأحمد: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي بعدها كفارة لما بينهما ثم قال بعد ذلك: «إلا من ثلاث» قال: فعرفت أن ذلك الأمر حدث: إلا من الإشراف بالله، ونكت الصفة، وترك السنة، قال: أما نكت الصفة أن تباع رجلاً ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة» وينبغي التنبيه على بطلان أمر أولياء الشيطان والحذر من مخادعتهم وعظم فتنهم، فقد روى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن يزيد الرقاشي قال: بينا النبي ﷺ جالس مع أصحابه فأشرف عليهم رجل فأتوا عليه خيراً فقال النبي ﷺ: «إن في وجهه سفعة شيطان» فجاء فسلم، فقال النبي ﷺ: «أحدثت نفسك أنفاً أنه ليس في القوم رجل أفضل منك؟» قال: نعم، ثم ولى فقال النبي

ﷺ: «أفيكم رجل يضرب عنقه؟» فقال أبو بكر: أنا، فقام فرجع فقال: انتهيت إليه فوجدته قد خط عليه خطأ وهو يصلي فيه فلم تشاييني نفسي على قتله، فقال النبي ﷺ: «أيكم له؟» فقال عمر بن الخطاب: أنا، فقام إليه ثم رجع فقال: يا رسول الله وجدته ساجداً فلم تشاييني نفسي على قتله، فقال النبي ﷺ: «أيكم له؟» فقال علي: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أنت له إن أدركته ولا أراك أن تدركه» فقام ثم رجع فقال: والذي نفسي بيده لو وجدته لجنتك برأسه، فقال النبي ﷺ: «هذا أول قرن من الشيطان طلع في أمي أو أول قرن طلع من أمي أما إنكم لو قتلتموه ما اختلف منكم رجلان، إن بني إسرائيل اختلفوا على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وإنكم ستختلفون مثلهم أو أكثر ليس منها صواب إلا واحدة» قيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: «الجماعة وآخرها في النار» وأراد بآخرها - والله أعلم - قادة النفاق من أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم الفرقة الناجية وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأنهم أبناء الله وأحباءه! وهذا ظاهر معنى قول النبي ﷺ للرجل: "أحدثت نفسك آثماً أنه ليس في القوم رجل أفضل منك؟" قال: نعم! وعلم من قوله "لو قتلتموه ما اختلف منكم رجلان" أنهم أصل الشرور والقبايح والمفاسد، ووجه المناسبة بين صدر الحديث وعجزه ظاهر لا يخفى. قال عبد الله بن داود الزيري الحنبلي في الصواعق والرمود: وهذا الرجل - يعني ابن عبد الوهاب - لم يخرج إلا ليفرق بين الأمة فإنه كثيراً ما يقول: ما دام أهل البلد فرقة واحدة فهم لا يعرفوا هذا الدين ولا هذا التوحيد ويكتب لذلك إلى من قرره من أهل نجد ويقول في مكاتباته لهم: إن رأيناكم حزينين علمنا أنكم عرفتم التوحيد وقبلتموه وإن رأيناكم حزباً واحداً علمنا أنكم لم تعرفوه ولم تقبلوه. فتأمل. اهـ. وقد حذر

تعالى من اتباع أهوائهم ويُنْهَى عنهم يخادعون المؤمنين بما يظهرون من الميل وطلب
المهادنة والوعد بالموافقة ولا يقع رضاهم إلا باتباع ملتهم، والشُّبُهَة خطّافة
والقلوب ضعيفة، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَلَّا يَكُونَ لِلدُّنْيَا طَافٌ﴾، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون
الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان
ضعيفاً) وإذا أدرك الإنسان ضعفه أصبح هدفه الأعلى الذي يسعى إليه هو
مخالفة نفسه ومخالفة الشيطان وأوليائه... وما أحسن قول الأبوصيري في برده:

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاهم

وأحد مكان النفس الإنسانية التي يدركها المفسد العليم أن صلاح الإنسان
يحتاج إلى جهاد و طاقة وضبط بينما الفساد لا يحتاج إلى أكثر من ترك النفس
لأهوائها ورغبتها وشهواتها دون غاية ولا معيار ولا ضابط... فالمرابي إذا أراد أن
يصلح جماعة يحتاج إلى خطة ومنهج وضبط ورعاية وغرس وتعهّد وتقويم، أما
المفسد فلا يحتاج إلى أكثر من أن يوهّم الشخص أنه حر ثم يطلقه وقد أطلق
نفسه الأمانة بالسوء لتتكفل هي بكل شيء حتى تتقرب إلى الله بما يُباعدها
وتتجنب إليه بما يغضبه عليها، وفي مسند الحارث من حديث أنس أن رسول الله
ﷺ قال: «إِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحِمَقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فَجْورِ الْفَاجِرِ» واعلم أيها الرائي
المعتبر المستبصر أن الأحق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا
يُدْرِي ولذلك قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أحبا الجهل وإياك وإياه ... فكم من جاهل أُرْدِيَ حليماً حين آخاه

وقال الثوري النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وأحمق الناس رجل انحط في هوى أهل الكتاب فباع آخرته بدنياه غيره، وأعظمهم أقوام يسفكون الدم الحرام ليتم الملك لأعداء الله ورسوله! أخرج ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنياه غيره» لأنه كان معيناً للمضاد لله المستهزئ بشرعه الغالب لنهيه ولأمره فلا غرو أن يخسر الدارين. روى الإمام الدارمي عن يحيى بن جعدة قال: أتي النبي ﷺ بكتف فيه كتاب فقال: «كفى بقوم ضلالاً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم» فأنزل الله عز وجل (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) الآية... وأخرج الإمام الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنما أهلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وتركوا كتاب ربهم» ولا يزال أهل الكتاب إلى اليوم ينشرون فساد معتقدهم بما أوتوا من جهد تنفق عليه الأموال الطائلة، كل ذلك تحت شعار كاذب من دعوى التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة! والحق أنه لا كتاب ولا سنة ولا سلف إنما كتابهم هو ما يكتبه أهل الكتاب من أباطيل، وستتهم هي ما درج عليه أتباعهم المسترشدين منهم عوج السبيل! وما ينبغي للضب أن يُرشد القطا، وما يستوي الخريتُ والمتحيرُ... ومن ينزُ في أرض تسوخ فإنه... على قدر ما ينزو يغوص ويغرق... وحيثما أطل المسلم الواعي في هذه المرحلة على الأمة سيجد تسييس الشيطان وأوليائه قد احتضنها وأطلق لها حرية الحركة الفاعلة في الحكم والعلم باسم الإسلام! قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور وثبتت الحجة وانقطع العذر» وذلك أن الكتاب والسنة قد أحكما أمر

الدين كله، والدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعلمه عند الله وعند رسوله، فمن اتبع شيئاً بهواه فقد مرق من الدين... ولا كرامة ولا تحرر في مجتمع يحكمه مبطلون مشرّعون... فميثاق الأمم المتحدة تشريع... والأنظمة واللوائح والرسائل والفتاوى التي كتبها علماء بني إسرائيل تشريع... وكم أوقعوا في سجونهم من أبناء المسلمين فريسة لتلك الدعوة الهدامة والفتاوى والرسائل المعتلة؟ روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه» فشبهه ﷺ منهاج أهل الكتاب باستيقاد رجل ناراً لا يرضاها الله وهي نار الفتنة والفساد، أوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى خداع المؤمنين، وشبهه ﷺ ببياناته الشافية الكافية بمنع أمته بأخذ حجزها، وكما أن غرض المستوقد هو استتباع الناس، كذلك كان القصد بأخذ حجز أمته منعه إياها عما هو سبب هلاكها، والمقصود - والله أعلم - أن أمته لا تأتي ما يجرها إلى النار على قصد الهلكة وإنما تأتيه على قصد المنفعة واتباع الأهواء كما أن الفراش يقتحم النار لا ليهلك فيها بل لما يعجبه من الضياء. وروى الطبراني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على أمي زمان يكثر القراء ويقل الفقهاء ويقبض العلم ويكثر الهرج» قالوا: وما الهرج؟ قال: «القتل بينكم ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم ثم يأتي زمان يجادل المنافق المشرك المؤمن» وفي رواية لأبي يعلى: «ألا إن بين يدي الساعة الهرج» قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ قال: «القتل والكذب» مرتين، قالوا: يا رسول الله ﷺ فوالله إنا لنقتل في العام الواحد أكثر من كذا وكذا، قال: «ليس بقتلكم المشركين ولكن قتلاً يكون بينكم معاشر الإسلام

حتى إن الرجل ليقتل أخاه حتى إن الرجل ليقتل أباه» قالوا: وفيما كتاب الله؟ قال: «وفيكُم كتاب الله» قالوا: ومعنا عقولنا؟ قال: «تحتلج عقول عامة أهل ذلك الزمان، ويخلف لها هباء من الناس يحسبون أنهم على شيء وليس هم على شيء» وروى نعيم في الفتن عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «إذا رأيتم الدم يسفك بغير حقه والمال يعطى على الكذب وظهر الشك والتلاعن وكانت الردة فمن استطاع أن يموت فليمت» وفي الجامع عن قتادة أن ابن مسعود قال: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ويُتخذ سنة فإن غُيِّرَ يوماً قيل: هذا منكر» قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: «إذا قلت أمناؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت فقهاؤكم وكثرت قراؤكم وتفقه لغير الدين والتمست الدنيا بعمل الآخرة» وفي صحيح ابن حبان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت» قالوا: يا رسول الله وما الوعول والتحوت؟ قال: «الوعول: وجوه الناس وأشرافهم، والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم» وروى ابن أبي عاصم عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثرُوا منهما فإن إبليس قال: أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون» وقد أعلم ﷺ أنه سيأتي على أمته ما أتى على بني إسرائيل، فقد روى الإمام الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين

وسبعين ملة وتفترق أمي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» وروى الطبراني عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل، لتركبن طريقتهن حذو القذة بالقذة، حتى لا يكون فيهن شيء إلا كان فيكم مثله» وفي رواية عند البزار: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وسمّة وهدياً» وفيه إشارة إلى عروبتهم. وروى الإمام الترمذي عن أبي الدرداء: قال كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرُوا منه على شيء» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأه ولنقرئه نساءنا وأبنائنا، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟» قال العلامة علي القاري: أي علم الوحي حتى لا يقدرُوا على شيء من العلم. اهـ. وروى أبو نعيم في الحلية عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يخلق القرآن في صدور أقوام من هذه الأمة كما تخلق الثياب ويكون ما سواه أعجب إليهم» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن مسعود وأبي موسى قالاً: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم» واعلم أيها المتفطن للحق أن الطريق إلى النجاة لا يتم إلا باتباع منهج أهل العترة العدول والثبات على كل معقول ومنقول حتى يتنور القلب بأنوار الذكر والمعرفة، ويحدث فيه هيئة عادلة مسنونة من آثار الفضل، يستعد لقبول المعارف والحقائق، ويصلح أن يُنفخ فيه روحُ الله المخصوصُ بسلوك أحسن الطرائق. وقد أمر تعالى باتباع الشريعة الحمديدية الثابتة بالدلائل والحجج، والعدول عن طريقة أهل

الكتاب ومتاركة ما لا حجة عليه من أهوائهم ودينهم المبني على ما أحدثوه من البدع فقال ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون التوحيد وهم الذين اختلفوا في الكتاب وهذا التأويل يظهره موقع الآية عقب ذكرهم، ولما اغتروا بعلمهم حُجبوا عن الله، والعلم الذي يَحُجُّبُ عن الله جهل على الحقيقة كما أن الجهل الذي يوصل إلى الله علمٌ على الحقيقة، وفي الآية إرشاد إلى متاركتهم ومفارقة منهجهم كما روى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن أبي قلابة أن عمر بن الخطاب مرَّ برجل يقرأ كتاباً سمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل: أتكتب من هذا الكتاب؟ قال: نعم، فاشترى أديماً لنفسه ثم جاء به إليه فنسخه في بطنه وظهره ثم أتى به النبي ﷺ فجعل يقرأه عليه وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلوّن فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى إلى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ هذا الكتاب؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفوائحه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون» والتهوك هو التحير! والشرعية الحمدية لا تحير فيها ولا التباس ولا شك ولا وهم كلها حقائق وبصائر مبصرة لكل عاقل فلا يميل إلى أهواء فاسدة وآراء ضالة وعقائد زائغة فإنه لا يزيع عن الطريقة الحمدية إلا هالك، وكان بعد ذلك الفاروق الأعظم سيدنا عمر رضي الله عنه يعلو بالدرة من يقرأ كتبهم على نحو ما رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف والعسكري في المواعظ وابن الضريس في فضائل القرآن عن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة رجل يطلب كتب دانيال وذاك الضرب فجاء فيه كتاب من عمر بن الخطاب أن يُرفع إليه فلما قدم على عمر علاه بالدرة ثم جعل يقرأ عليه "الر تلك آيات الكتاب

المبين" حتى بلغ "الغافلين" قال: فعرفت ما يريد، فقلت: يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما أدع عندي شيئاً من تلك الكتب إلا حرقته، قال: ثم تركه. والأثر أخرجه المتقي الهندي في الكنز في "صفات المنافقين" ثم علّل الله تعالى النهي عن اتباع أهوائهم بقوله **(إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)** وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه الكلمات الصادقة، فقد ولي بعضهم بعضاً في حرب سيدنا محمد ﷺ في المدينة الشريفة وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض على مدار التاريخ، ولم يقع في الأرض إلا ما قرره القرآن الحكيم في صيغة الوصف المستديم. وبعد أن أوصل سبحانه إلى هذا الحد من البيان، الفاتت لقوى الإنسان، قال مترجماً عن القرآن **(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ)** والمراد بالناس بنو إسرائيل جرياً على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالباً والله أعلم، ولما بيّن ما هو لأهل السفول، بيّن ما هو لأهل العلو فقال **(وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)** أي لقوم كمل إيمانهم وإيقانهم بالأمور الغيبية، ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين الموقنين من الوجه الذي تقدم، بين الفرق بينهما من وجه آخر فقال **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّاهُمْ وَمِمَّا هُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)** وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه قرأ بهذه الآية ذات ليلة يرددّها يسجد ويبكي حتى أصبح. ولما أنكر تعالى التسوية ودمهم على الحكم بها، أتبع ذلك الدليل القطعي على أن الفريقين لا يستويان وإلا لما كان الخالق لهذا الوجود عزيزاً ولا حكيماً فقال دالاً على إنكار التسوية وسوء حكمهم بها **(وَوَخَّلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مِّمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة

وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقّين وبين المبطلين، ولو كان ذلك من غير بعث ومجازاة بحسب الأعمال لما كان هذا الخلق العظيم بالحق بل بالباطل الذي تعالى عنه الحكيم فكيف وهو أحكم الحاكمين؟ والله أعلم وأحكم، ثم عاد الحق إلى شرح أحوال بني إسرائيل وقبائح أحبارهم فقال كاشفاً عن حجاجهم المسلمين بأنه مركز على اتباع الهوى والشيطان ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم عطف عليه ما تسبب عنه من إنكارهم البعث فقال ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ولما كان هذا من قولهم عجباً، زاده عجباً بحالهم عند سماعهم للبراهين القطعية فقال ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولما كان سبحانه إنما يقبل الإيمان عند إمكان تصوره وذلك إذا كان بالغيب لم يجبههم إلى إحياء آبائهم إكراماً لهذه الأمة لشرف نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام لأن سنته الإلهية جرت بأن من لم يؤمن بعد كشف الأمر بإيجاد الآيات المقترحات أهلكه كما فعل بالأمم الماضية فرفعهم عن الحس إلى التدريب على الحجج العقلية فقال آمراً له ﷺ بالجواب بقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يتجدد لهم علم لما لهم من السفول عن أوج العقل إلى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات! ولما دل على قدرته على الإعادة بهذا الدليل الخاص، عطف عليه ذليلاً آخر جامعاً فقال ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَخْسِرُ الْمَبْطُلُونَ﴾ والمبطلون هم المستهزون الذين يغطّون وجه الحق ويسترونه بدخان الباطل

والضلال فيشتبه على الناس وجه الحق وتتفرق بهم السبل إليه! ولما كان ذلك من شأن اليوم مهولاً، عم في الهول بقوله مصوراً لحاله ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ ولما أخبر بالجزاء، بين كيفية ما به يطبق بين كتاب الإنزال وكتاب الأعمال فما حكم به كتاب الإنزال أنفذه الكبير المتعال فقال مشيراً إلى كتاب الإنزال بأداة القريب لقربه وسهولة فهمه ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إن كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ ثم صرح بما لوح به من أمر المحقين وعطف عليهم أضدادهم فقال بادئاً بهم على طريق النشر المشوش مفصلاً ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين، وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ وهذا لا ينافي الآية المتقدمة "ما هي إلا حياتنا الدنيا" لأن آخرها مثبت للظن فكأنهم كانوا تارة يقوى عندهم ما في جبالهم وفطرتهم الأولى من أمرها فيظنونها وتارة تقوى عليهم الحظوظ مع ما يقترن بها من الشبهة المبنية على الجهل فيظنون عدمها فيقطعون به لما للنفس إليه من الميل، وبالجملة فإنه قد عصفت على قلوبهم أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدتها وأضاعت مفاتيحها وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل فلم تصغ بعد إلى الملام ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام وما لجرح بميت إيلام كما أخبر الملك العلام معجباً من حال هؤلاء الأنام ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا

كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) واعلم أن الهوى أعظم ما عُبد من دون الله ولولا قوة سلطانه في الإنسان ما أثر مثل هذا الأثر فيمن هو على علم، روى الطبراني بإسناده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع» والله در القائل:

وإذا ضلت العقول على علم ... فماذا تقوله الفصحاء

وإسناد الختم المستعمل مجازاً إلى الله تعالى للدلالة على تمكن معنى الختم من سمعهم وقلوبهم وأن لا يرجى زواله ولذلك أنزل فيهم سورة البقرة التي حكى أحوالهم وحددت صفاتهم وذواتهم ابتداء من قوله (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم فإنهم لما عاندوا الحق صارت أسماعهم وقلوبهم كالمختوم عليها في عدم الانتفاع بالمواعظ ونفوذها إليها، وصارت أبصارهم كالمغطاة بغشاوات فلا تنتفع بمشاهدة المصنوعات الإلهية الدالة على توحيده تعالى.

ولقد اخترناهم على علم على العالمين

لما ذكر الحق ما من به على بني إسرائيل من النجاة من العذاب المهين، أعقب ذلك ببيان أنه اختارهم بسبب علم لم يؤت بالجملة سوى أهل الحقيقة من المكملين المحمدين لتظهر فضيلة العلم على العالمين وشرفه... فأخبر الحق سبحانه أنه اختار بني إسرائيل للإيحاء. بمكان الاستخلاف في الأرض على الوجه الذي وقع وهو كونهم عالمين. بمكان الخيرة وبالكتب السماوية والأوامر الإلهية من القيام بحمل الأمانة والنهوض بالتكاليف فعقلوها ثم بدّلوا وكتّموا وخدعوا

الأجيال الناشئة وأفسدوها بالعلوم والمبادئ والنظريات الزائفة والديانات المنحرفة فسارت في كل اتجاه وتحولت إلى آلة يديرها الشيطان كيفما شاء، ويحتمل أن يكون المعنى: اخترناهم على علم منا بما يقع منهم من ضروب الجنايات والانحرافات وما يقتربون من أنواع المخالفات والمنهيات واللغو واللعب بالديانات والطعن في النبوات واستعباد البشر وزرع الخلافات، على قاعدة "فرّق تسد" وعلى حد قوله جل شأنه ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض﴾ ونقول بعبارة أخرى: عَلِمْنَا ما يَحْمِلُونَ من أوزارهم فرفعنا باختيارنا من أقدارهم ما وضعه فعلهم بأوضاعهم، وهم يحسبون أن ادّخار العلم وانتقاله من بيت إلى بيت ومن أسرة إلى أسرة كافٍ في التبحر به، وقد ظهر من آثاره أن كفار قريش وهم صريح ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام صاروا يسألونهم عما ينوبهم ويضربون إليهم أكباد الإبل ويجعلونهم قدوتهم، وافتتان المغرورين بهم في هذا الزمان يغني عن الحاجة إلى البرهان. وحرف ﴿على﴾ للاستعلاء المجازي وفيه تشبيه العالم بالمستعلي المتمكن ممن لا يعلم، وقوله ﴿على العالمين﴾ هذا عام دخله التخصيص في مواضع كقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وكقوله ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ أي على بني إسرائيل على وجه الخصوص ودخل معهم من تحتهم من الأمم، وهذا مدح رفيع اختص به خلفاء الرسول الأعظم ﷺ كما حكى تعالى في الآية الأخرى ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ والمراد: اجتباء واصطفاء طبقة علماء هذه الأمة على الطبقة المماثلة لها من بني إسرائيل - والله أعلم - ونحن حملة العلم

الأبوي المسند المتسلسل شهداء على الناس وبهذا تكمل الحلقة الأبوية الشرعية، واعلم أن علماء الحقيقة وأساطين الشريعة وأمناء خزائن المملكة وعشاق الحضرة أجلُّ خطراً وقدرًا، وأعدل رأياً وعقلاً، وأسنى مجداً وفخراً، وأوسع خاطراً وفكراً، وبالغون في العلم ما لم يبلغه علماء بني إسرائيل كما قال سيد البشر والجان وشرف نوع الإنسان ﷺ في كل وقت وآن: «نحن الأولون السابقون بيْد أنهم أوتوا الكتاب من قَبْلنا» أي نحن الأولون في غايات الهدى وإن تأخرنا ظهوراً إلا أننا أعلم بالكتاب منهم بقوة أعطاناها الله وفضلنا بها لقبول ما آتانا والتزام طاعته. وفي الآية دلالة على أنه يتأتى بالعلم ما لا يتأتى بالقوة وأن العلم مكتسب وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تهتدي إلا أن تُهْدَى! وقد ذكر الله في قصة سليمان عليه السلام مثلاً لتغلب العلم على القوة (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإنما عدل عن ذكر سليمان عليه السلام للدلالة على أن الأمر غير مقصور عليه. وأوثر تقديم (على علم) تنوياً بشأن العلم! ولفظ "اخترناهم" يشير إلى إيجاده سبحانه خيراً بسببهم، واللفظ القرآني تضمن قاعدة الحكم التي قامت على أساس من العلم إذ لا يستقيم ذلك إلا أن يستقيم هذا الأساس الذي تم من خلاله حكم الأرض. وطبيعة المعركة مع هؤلاء الذين اختارهم المولى سبحانه للاستخلاف في الأرض في هذه الفترات الزمنية وابتلاهم بالنعمة والسلطان والتمكين في الأرض والإملاء في الرخاء وأسباب الثراء والاستعلاء؛ ليست معركة عسكرية تقليدية! وإنما هي حرب فكرية معرفية على العقول! وغزو يقوم عليه ساحر عليم من كل أمة وملة وحزب وجماعة ودولة... ولا لقاء بين الأمم والأديان والأحزاب والجماعات والدول إلا على منهج فرعون وطريق فرعون الذي جعل العالم شيعاً ليتسنم

ذروة الربوبية! وإن إفساد العقول أكثر خطورة على الأمة من إزهاق الروح وقتل النفس كما قال الحق سبحانه **(والفتنة أشد من القتل)** وإن الذين يفسدون الدين والعقل ويفرقون الوحدة ويشتتون الصف ويضربون الأمة ببعضها ويحملونها على الردة والإلحاد هم أبناء العليم الذين تتبعهم حذو القذة بالقذة! وقد تناست قول رسولها ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أتاه وقال: إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: **«أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»** رواه البيهقي. وفي زوائد أبي يعلى: **«فلا تهوكون ولا يغرنكم المتهوكون»** والأهوك: الأحمق والأهوج، والتهووك: التحير والسقوط في هوة الردى. وكم وقع في حبالهم من أبناء المسلمين فريسة لتلك الأحزاب والمناهج!!! لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يحب مخالفة أهل الكتاب حتى قالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! وكان يخاف على أمته اتباعهم، فلا يكن حرج في صدر كل مسلم أنها حرب على الفكر والعقيدة والمنهج أشد ضراوة من الحرب الأمنية العسكرية! ولا بد أن تكون هناك أمة تقف في مواجهة الأئمة المضلين تثبت الثوابت وتعيد راية التوحيد... نحن أشد حاجة لليقظة والانتباه من المراحل السابقة، لقد كان أسلافنا يعيشون في مجتمع كان الحكم فيه لله وحده أما اليوم فإن المبطلين قد جعلوا العقيدة مسمومة مزخرفة تتسلق وتتسلل إلى أعماق القلوب الجوفاء! فانثر كنانتك أيها المسلم والزم نبك الصافي... فوالذي أكرمك بالدين إنهم ما قاتلوك بالحديد إلا ما يوازي ساعة من نهار... لكنهم قاتلوك في الوقت كله بالكلمة التي تزرع الشك! بالشبهة التي تزين لك الباطل في وهم أنه الحق! بالإمام الضال

الذي يفسد الفكر! بالمتكلم الذي ينقل الناس من الإرجاف على وجل إلى الإلحاد بلا وجل ولا خجل! فإن شئت أن تذيب هذه الأسلحة كلها في أيدي أصحابها فما أمرك إلا واحدة: أن تصوم عن هذه المشارب والمنابع النتنة كلها وتغمض عينيك على كتاب الله وعترته رسوله ثم تفتحها لرؤية الحق والهدى تُبصر... دع عنك ما يقوله المسوخ، فما لهم في شرف رسوخ... إن القوم تجار سوء، صم آذانك عنهم تنتصر عليهم... قابل أسلحتهم بسلاح واحد: لا جمعة معكم حتى يأتي الله بالنصر... وعندها ترى الشيخ إبليس ذا علة فلا برئ الشيخ من علته! ماذا يصنع المرابي في بلدة لا يجد فيها من يتعامل بالربا؟ إن أول خطوات الانتصار على بني إسرائيل هي صناعة الوعي، وأول خطوات هذا الوعي أن تعي الأمة رسالتها وتعرف عدوها وتقطع ارتباطها بالشاشات فتدرك أنها أسيرة منظومة وهم عالمية يديرها الفراعنة الجدد الحفاة العراة الحُسد! ولما أعلم تعالى باختيارهم، بين ما يترتب على العلم من الحكم فقال ﴿وَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ والإبلاء: الإنعام والإحسان أي آتيناهم من الملك ما يُعلم به إنعامي عليهم ظاهراً ثم انتقل إلى بيان جحودهم للنعم وإنكارهم البعث والنشور ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ولفظ "هؤلاء" حيثما ذكر في القرآن غير مسبوق بما يصلح أن يشار إليه مراداً به "بنو إسرائيل" ابتداءً وأما غيرهم فبالتبعية وقد تفصيت مواقع آي القرآن فوجدته يعبر عن بني إسرائيل كثيراً بكلمة "هؤلاء" وذكر قصة فرعون وقومه استطرادي للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم، وفي اسم الإشارة تحقير لهم. ثم أعقب في استفهام على سبيل الإنكار والتهديد ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تَبَعِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وسمي بتبع لأن أمم الأرض

كانت تبعاً له في الحكم والسلطان. وقد وردت الآيات في معرض تذكير الله لهم بالنجاة من فرعون الذي أذاقهم العذاب المهين، ثم تعرضوا اليوم للاختبار والبلاء بالاستخلاف في الأرض، فإذا بهم يأخذوا دور ذلك العالي المسرف الذي نزع الله ملكه مع ملئه المماليء له على الظلم والطغيان بهذا المشهد المهين — الغرق — لهوانه على الله، حتى إذا انتهت فترة استخلافهم أهلكهم الله كما أهلك الذين من قبلهم...

الربا... والحرب المشبوبة

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لعن آكل الربا وموكله.

إن نظام بني إسرائيل الاقتصادي الربوي العالمي ينتهي إلى تركيز السلطة في أيديهم، وهؤلاء هم الذين يداينون الحكومات والشعوب في داخل بلادهم وفي خارجها وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، ويعود إليهم كدُّ الآدميين وعرقهم في صورة فوائد ربوية لم يبدلوا فيها جهداً، وهم لا يملكون المال أو منابع النفط والغاز أو البنك الدولي وحده إنما يملكون النفوذ، وإنما تم مخادعة الناس بالنفط السعودي لصرفهم عن مكان الأمة الملعونة في التحكم بالأمم المتحدة! ولما لم تكن لتلك الأمة مبادئ ولا تحجبها أخلاق ولم تكن على دين منسوب إلى الله تعالى، بل لما كانت تسخر من الدين والأخلاق والمبادئ فإنها بطبيعة الحال تستخدم هذا النفوذ الهائل الذي تملكه في اختراق الأمم

وإنشاء الأفكار العقدية والأحزاب الدينية والأوضاع السياسية التي تمكنها من زيادة السيطرة، وما أشبه الغادية بالرائحة حين أجلى النبي ﷺ بني النضير فرفع سلام بن أبي الحقيق مسك جمل من الذهب والفضة وقال: هذا مما نعدّه لحفض الأرض ورفعها!!! ولا يقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم شيء، وأهم الوسائل هي إيقاد الحروب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء نظامهم الربوي المقيت، وأيسر ما يقع إن لم يقع هذا كله هو خراب النفوس وانهيار الأخلاق وانطلاق سعار الشهوات وتحطم الكيان البشري من أساسه وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعية... إنها الحرب المشبوبة دائماً وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا، وهي مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج الذي تخرجه المصانع من منبع الربا الملوث... ركام يخنق أنفاس البشرية ويسحقها سحقاً تجلس فوقه شرذمة ملعونة من الأعراب الحفاة العراة الذين نسبوا الفقر إلى الله والغنى إلى أنفسهم! وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما موقفاً يُشخص طبيعة القوم حيث قال: قال أبو بكر ﷺ لفنحاص وكان من علماء اليهود وأحبارهم: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما سألنا الله من فقر، وإنه لإلينا فقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا لأغنياء ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهانا عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر ﷺ فضرب وجه فنحاص، فأخبر فنحاص رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فأخبره، فجحد ذلك فنحاص وقال: ما

قلت ذلك! فأنزل الله عز وجل ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ وقد وردت الآية عقب ذكر البخل إذ أنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات... ونحوه قوله تعالى ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ ثم انتقل الخطاب إلى المؤمنين ليحولوا حياتهم عن النظام الربوي الدنس المقيت وإلا فهي الحرب المعلنة من الله ورسوله بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ وقرأ ﴿فأذنوا﴾ فهي حرب معلنة في صورتها الشاملة الداهية الغامرة... حرب يسلط الله فيها الأعراب الحفاة العراة العصاة الطغاة الغواة... حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول! وقد أشار النبي ﷺ إلى سيادة الاقتصاد الربوي الكافر حيث مهد الحفاة العراة إلى إدخال سياسة البنوك والمصارف الربوية إلى جميع البلاد وشجعوا على الاستثمار الربوي وقد كشف ﷺ زيف هذه المرحلة فيما رواه الإمام النسائي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان يأكلون الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره» والحديث الشريف يكشف عن سيطرة الأسواق العالمية ومحركي مسيرة الاقتصاد والسياسة! وروى الديلمي عن حذيفة مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى يُعزَّ الله فيه ثلاثاً: درهماً من حلال وعلماً مستفاداً وأخاً في الله» وفي الحلية لأبي نعيم والزهد للبيهقي: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر فإذا كان ذلك الزمان لم تُنل المعيشة إلا بسخط الله فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يدي زوجته وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد كان هلاكه على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران يعبرونه بضيق المعيشة فعند

ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها» وفي هذا إشارة واضحة إلى الانحراف الاقتصادي وسيادة الشبهات والحرام في المجتمع المسلم من خلال الارتباط بسياسة المال في السوق العالمية المصرفية! وقد ترتب على ذلك الكساد وقلة الربح وسوء الدخل كما جاء في الإشاعة لأشراط الساعة قال ﷺ: «من أشراط الساعة تقارب الأسواق» قلت: ما تقارب الأسواق؟ قال: «أن يشكو الناس بعضهم إلى بعض قلة الإصابة» أي الربح! ومن حديث سلمان: «وتشارك المرأة زوجها في التجارة وتتقارب الأسواق» قال: وما تقاربها؟ قال: «كسادها وقلة أرباحها» وقد قرن الله قضية الشرك بقضية الربا، وإذا كان دعاء العبد يحبس عن السماء بسبب سوء المطعم فإن فتية أهل الكهف كانوا أولى بهذا الأمر (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) والورق: الفضة، بخلاف المعادن المضروبة عديمة القيمة. واعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة يهيئ لقبول أنوار المعرفة والتجليات اللطيفة، ولما شرب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه جرعة لبن من شبهة استقاءها فأجهده ذلك حتى تقيأها، فقيل له: أكل ذلك في شربة؟ فقال: والله لو لم تخرج إلا بنفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به» واعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة يهيئ لقبول أنوار المعرفة والتجليات اللطيفة، والطعام حينما يكون حلالاً ينبت الجسم شفافاً كنور السراج، وقد قرّر هذا المعنى في التعقيب على قصة الرجلين؛ أما أحدهما فوقف موقف المراي المتكبر المستهزئ (وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) وأما الآخر فإنه معتز

بإسلامه وإيمانه يذكره بمنشئه المهين ويوجهه إلى توحيد رب العالمين وينذره عاقبة المشركين المرابين ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا﴾ روى البيهقي والطبراني وأبو يعلى وأحمد في مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا، الناجي منهم يومئذ الذي يصيبه غباره» وقصة أصحاب الكهف تشير إلى فتية حنفاء آثروا دينهم على دنيا قومهم فتركوا زينتها، وجاهدوا قومهم المستخلفين المنافقين المشركين المرابين ثم أووا إلى الكهف بعد ملاحقتهم، فتداركتهم عناية الله عز وجل... وقد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، ووصف تعالى الزهد في الدنيا بأنه من أحسن الأعمال فقال في مستهل قصة أصحاب الكهف ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهـم أيهم أحسن عملاً﴾ ثم ذيلت القصة بذات الإيقاع داعية إلى نبذ القيم الأرضية التي تبهر الأنظار ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ واعلم أن كل خطاب خاطب الله تعالى به نبيه ﷺ مؤدباً له فنحن مقصودون بالناسي به. فينبغي على المؤمن أن لا يغتر بزخارف أهل الكتاب الدنيوية ولا يزاحمهم على تلك الجيفة، فإن من زاحمهم نجسته الكلاب وعضته وخربشته وكدرت حياته. أخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري في حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا أسير إذ دعاني داع عن يميني يا محمد انظري أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه، قال جبريل: ذاك داعي اليهود أما أنك لو أجبته أو وقفت عليه لتهودت أمّتك، قال: وبينما أنا أسير إذ دعاني داع عن يساري فقال: يا محمد انظري أسألك فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه، قال

جبريل: **ذاك داعي النصارى إما إنك لو أجبتَه لتنصّرت أمّتك**» واعلم أن اليهود والنصارى تكبروا وتعاضموا حين اختاروا الدنيا وجعلوها سُلماً للتوصل للرئاسة والشهوات واقتراف الذبوب والسيئات حتى نسوا الموت والقبر وأنكروا الحشر والنشر فقست قلوبهم وتمكنت فيها صفات الكبر والطغيان والعناد والعصيان، والمسلم مطالب بمخالفتهم ومفارقتهم ليكي لا ييؤء بأعظم الخسران ويصل إلى دار الهوان فلأجل صرف قلبه عن دنياه ومخالفة نفسه وهواه واستجلاباً لرضاء الرحمن ودفعاً لمكر الشيطان أمر بترك زينة الدنيا المذمومة الملعونة كما روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»** قال المحدث الأكبر والغوث الأكبر والكبريت الأحمر والقمر الفاطمي الأزهر عروس المملكة الأحمدية سيدي وقرة عيني أحمد الرفاعي قدس الله سره الغالي: من عبد الدرهم ما عبد الله، ومن طمحت همته لجمع المال، من حرام وحلال، فهو أسير الزيادة لا يقف إلا معها، ومن كان كذلك فلا نخوة له، ولا وفاء له، بينة المدعي الأعمال، ودفتر حال الحكام العمال، وخلوة العبد بربه عند جمع قلبه تظهر له إذا اعتبر نقصانه وكماله، وتبرز لعيانه إذا تفكر عمله وحاله **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)** من أطاف إنصافه على طرق أعماله أمن من عواقب فعاله، ومن لم يحاسب نفسه على كل نفس لم يُكتب عندنا في ديوان الرجال. اهـ. وقد أخبر ﷺ أن صلاح أول هذه الأمة بالزهد والتقوى، ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا مُلك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً. روى ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: **«ألفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده**

لْتُصَبَّنَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يُزَيِّغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيَه» وَرَوَى
الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال: قال رجل للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ إِنِّي
لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ لَهُ: «انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ» قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،
فَقَالَ: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدِّ لِلْفَقْرِ تَحْفَافًا فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يَحِبُّنِي مِنَ
السَّيْلِ إِلَى مَنْتَهَاهُ» وَقَالَ الْجَنِيدُ - أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ سَجَالِ مَعَارِفِهِ وَحَقَائِقِهِ،
وَتَعَطَّفَ عَلَيْنَا بِعَوَاطِفِهِ -: كَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُرِيدِينَ النَّاطِقِينَ بِلِسَانِ
الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَعَظَّ أَخَاهُ لَهُ فِي اللَّهِ وَخَوْفَهُ بِاللَّهِ فَقَالَ: يَا أَخِي إِنَّ الدُّنْيَا دَحْضُ
مِزْلَةٍ، وَدَارُ مِزْلَةٍ، عِمْرَانُهَا إِلَى الْخَرَابِ صَائِرٌ، وَسَاكِنُهَا إِلَى الْقُبُورِ زَائِرٌ، شَمْلُهَا
عَلَى الْفَرْقَةِ مَوْقُوفٌ، وَغَنَاهَا إِلَى الْفَقْرِ مَصْرُوفٌ، الْإِكْثَارُ فِيهَا إِعْسَارٌ، وَالْإِعْسَارُ
فِيهَا يَسَارٌ، فَافْزَعْ إِلَى اللَّهِ وَارْضَ بِرِزْقِ اللَّهِ، لَا تَتَسَلَّفَ مِنْ دَارِ بَقَائِكَ إِلَى دَارِ
فَنَائِكَ، فَإِنَّ عَيْشَتَكَ فِيءُ زَائِلٍ وَجِدَارُ مَائِلٍ، أَكْثَرُ مِنْ عَمَلِكَ وَأَقْصَرُ مِنْ أَمَلِكَ.
وَذَكَرَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ أَبُو حَنِيفَةَ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ فَقَالَ: أَتَذْكُرُونَ رَجُلًا عَرَضَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا فَفَرَّ مِنْهَا. وَجَاءَ فِي سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ
زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» وَلَمَّا كَانَتْ الدُّنْيَا دَارَ
نَفَازٍ لَا دَارَ إِخْلَادٍ، وَدَارَ عُبُورٍ لَا دَارَ حُبُورٍ، وَدَارَ فَنَاءٍ لَا دَارَ بَقَاءٍ، وَدَارَ انْصِرَامٍ
لَا دَارَ دَوَامٍ، جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهَا وَالْإِغْتِرَارِ بِهَا
وَالْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَعْرَفُ مِنْ أَنْ يَذْكَرَ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يَشْهَرَ، وَكَذَلِكَ
جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ وَالْآثَارُ الْحَكْمِيَّةُ، فَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «إِنِّي فَرَطُ
لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي أُعْطِيتُ مِفْتَاحَ
خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مِفْتَاحَ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بَعْدِي
وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» وَفِي صَحِيحِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ الدُّنْيَا

حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا
 النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» أي الزوجات لدوام فتنتهن
 وابتلاء أكثر الناس بهن. ورؤي عن عيسى عليه السلام أنه قال: لا تجالسوا الموتى
 فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها.
 وفي بعض الأخبار أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم والناس يتعبدون فقال له: قم
 فتعبد مع الناس، فقال: تعبدت يا روح الله، فقال له: وما عبادتك؟ قال: تركت
 الدنيا لأهلها، فقال له: نعم، نعمت العبادة هذه. وقال بعضهم: عبادة الزاهد
 متصلة على الدوام، وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام، إذ لا عبادة بحركة الأشباح
 وإنما العبادة بخضوع الأرواح. وقال أحد العارفين: الزاهد في الدنيا ذاكراً على
 الدوام ولو قلّ ذكره باللسان، والراغب في الدنيا غافل ولو ذكر الله بلسانه على
 الدوام. وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي مع الغفلة
 والرغبة في الدنيا. ورؤي ابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً: «لا تزال لا إله إلا الله
 تمنع العباد من سخط الله تعالى ما لم يؤثروا دنياهم على صفقة دينهم، فإذا آثروا
 دنياهم على صفقة دينهم ثم قالوا: لا إله إلا الله ردّها الله تعالى عليهم وقال:
 كذبتهم» وروى الديلمي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس إن
 هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح
 لرخائها ولم يحزن لشقائها، ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبي
 فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبيلاً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً
 فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، وإنما لسريعة التّوى وشيكة الانقلاب فاحذروا
 حلاوة رضاعها لمرارة فطامها واحذروا لذيق عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا
 في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد منكم اجتنبها

فتكونوا لسُخْطه متعرضين ولعقوبته مستحقين» ورؤي عن عيسى عليه السلام أنه قال: حب الدنيا رأس كل خطيئة. وإذا علم ما ذكرناه وتقرر ما وصفناه كان حقاً على الانسان أن يسلك طريق العقلاء ويذهب مذهب البصراء، فنسأل الله الكريم الرؤوف الرحيم أن يمن علينا بذلك ويهدينا إلى أرشد المسالك.

﴿تلبون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ قال الإمام الطبري "ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم" يعني: من اليهود كقولهم "إن الله فقير ونحن أغنياء" وقولهم "يد الله مغلولة" وما أشبه ذلك من افتراءهم على الله "ومن الذين أشركوا" يعني النصارى "أذى كثيراً" والأذى من اليهود ما ذكرناه، ومن النصارى قولهم: "المسيح ابن الله" وما أشبه ذلك من كفرهم بالله. وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال "ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً" يعني: اليهود والنصارى، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم: عزير ابن الله، والنصارى قولهم: المسيح ابن الله، وكان المسلمون ينصبون لهم الحرب ويسمعون إشراكهم بالله. والتعبير عنهم بـ"الذين أوتوا الكتاب" للإشعار بمدار الشقاق وللإشارة إلى عظم صدور ذلك المسموع منهم وشدة وقعه على الأسماع حيث إنه كلام صدر ممن لا يتوقع صدوره منه لوجود زاجر عنه معه وهو إيتاؤه الكتاب كما قيل والتصريح بالأذى الكثير لتأكيد الإشعار وتقوية المدار وللمبالغة في أمر الزاجر عن صدور ذلك المسموع من أولئك المسمعين! وتخصيص قوله "من قبلكم" للإيدان بحقيقة الكتب المنزلة على الأمة الإسرائيلية خاصة على أن من دان الكتاب من غيرهم خرج عن وصف إيتاء الكتاب. والآية متصلة تمام الاتصال بما

قبلها وما بعدها في ذمهم وتشير إلى ما وقع وما سيقع من الامتحان في الأموال والأنفس من الابتلاء والأذى ويشمل ذلك أقوالهم في الله تعالى وأنبيائه والمطاعن في الدين وتخطئة المجاهدين وتثييط المسلمين، وما أحسن ذكر هذه الآية إثر قصة أحد التي وقع فيها ما وقع من المصائب الكبار التي هي من شعائر الأخيار في دار الأكدار المعلية لهم في دار القرار، وسبب نزول الآية: ما جرى بين أبي بكر رضي الله عنه وفنحاص على نحو ما تقدم في الآية السابقة من قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء! وفي ذلك تسلية للمؤمنين ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى عند وقوعه ويستعدوا للقاءه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فإن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب.

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترُونَ) اعلم أن في كيفية النظم وجهين: الأول: أنه تعالى لما قدّم أنه أخذ على النبيين الميثاق في شأن محمد عليه الصلاة والسلام وأخبر أهل الكتاب أنه من تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وحكى عنهم كفرهم وابتغاءهم غير دين الإسلام وقولهم في الله سبحانه ما لا يليق، أتبعه بهذه الآية وذلك لأنه تعالى أوجب عليهم في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دين سيد البشر والشفيع يوم المحشر وصدق نبوته ورسالته والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه؟ الثاني: أنه تعالى لما أوجب في الآية المتقدمة على الأمة المحمدية احتمال الأذى من اليهود والنصارى وكان من جملة إيدائهم لها أنهم

كانوا يكتُمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على الوحدانية ونبوة سيد البشرية فكانوا يحرفون كتبهم ويذكرون لها تأويلات فاسدة فيبن أن هذا من تلك الحملة التي يجب فيها الصبر في قوله تعالى "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه" وقرأ بياء الغيبة "ليبينه للناس ولا يكتُمونه" على طريقة الحكاية بالمعنى حيث كان المأخوذ عليهم هذا العهد غائبين في وقت الإخبار عنهم، وقد أخذ عليهم الميثاق بأمرين: الأول: بيان الكتاب أي عدم إجمال معانيه أو تحريف تأويله، والثاني: عدم كتمانهم أي إخفاء شيء منه، فقله "ولا تكتمونه" عطف على "لتبينه للناس" ولم يقرن بنون التوكيد لأنها لا تقارن الفعل المنفي لتنافي مقتضاهما، وقوله "فنبذوه" عطف بالفاء الدالة على التعقيب للإشارة إلى مسارعتهن إلى ذلك ومبادرتهم بالنبذ عقب الوقت الذي تحققوا فيه أثر أخذ الميثاق وهو وقت تأهلهم لتبيين الكتاب وإعلانه فهم إذا أنسوا من أنفسهم المقدرة على فهم الكتاب والتصرف في معانيه بادرُوا باتخاذ تلك المقدرة وسيلة لسوء التأويل والتحريف والكتمان وأضلوا أتباعهم ونقضوا أسباب الذمام لغرض من أغراض الدنيا الفاسدة وطمع في عرض من الأعراض الفانية الكاسدة! وفي جزالة النظم وجلالة الأسلوب ونبل التعبير وحسن التشبيه ما لا يخفى، والآية الكريمة مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الديني الحقيق على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً... والكلام في الآية متصل بمطلع السورة ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل﴾ وأفضى إلى ذكر الميثاق الذي أخذه على النبيين وأخبر تعالى أنه من تولى بعد ذلك فهو الفاسق ثم بين بقوله ﴿قد جاءكم رسل من قبلي﴾ أن النبيين وفوا بالميثاق، وأردف بقوله ﴿فإن كذبوك﴾

فقد كذب رسل من قبلك» مخبراً عن خيانة الذين أوتوا الكتاب ونقضهم ميثاقهم وذلك أنه تعالى أوجب عليهم أن يشرحوا ما في هذه الكتب الإلهية من الدلائل الدالة على حقيقة التوحيد والنبوات وأصول الشرائع وإقامة الدين وعدم التفرق فيه ونصرة الرسول الصادق الأمين، فكانوا يحرفونها ويخفون شيئاً منها ويذكرون لها تأويلات فاسدة وشبهات معطلة! روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كتم علماً يعلمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دعا يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ حتى قوله ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيَجِبُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

كما أنزلنا على المقتسمين

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، لَا تَمْدَنُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَادْخُلْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ، كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ، فَوَارَبَكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ السبع المثاني هي الفاتحة وهي أم القرآن وإنما قيل لها "أم القرآن" لأن القرآن كله من أوله إلى آخره يؤم ما فيها، وهي سبعة فصول وسبعة أسماء فالسبعة الفصول مثاني والسبعة الأسماء مثاني وآي القرآن كلها مثاني من المثاني كما ذكر ابن برجان في

تفسيره. وفي الخبر عند البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم» وفي رواية للترمذي من حديث أبي بن كعب قال: قال النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبي ولعبي ما سأل» وسميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة، وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين. وقيل: لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة. وقيل: لما فيها من أنواع ثناء العبد على الله تعالى بالذكر والحمد والتمجيد والتوحيد لله وفيها ثناء الله على العبد الذي يتلوها وينال فضل قراءتها. وقال مجاهد: لأن الله استثنىها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم. وكان علم الأئمة وناصر السنة مولانا الإمام السيد أحمد الكبير الرفاعي - لاثم اليد الشريفة النبوية، في موسم الزيارة للحضرة الحمديّة، عليه أفضل الصلاة والسلام والتحية، على مشهد جمهور من الأمة الإسلامية - يكثر من قراءتها ويقول: إن الله قد دلنا عليها فوضعها لنا في أول صفحة من القرآن الكريم، وهي السر الفياض والمدد المغطى والسيف القاطع والبركة الجارية فيها حال من أحوال القدرة وشأن من شؤون العظمة ونور من أنوار السلطان ودهشة من دهشات الجبروتية وهيبة من هيبات الربوبية. اهـ.

وقد افتتحت بالبسملة التي وُصف اسم الذات "الله" فيها بالرحمانية المتجلية بالسلطنة الكاملة والبسطة المحيطة الغالبة، المقرونة بالرحيمية المتجلية بالرحمة العامة الشاملة، وذيلت بتحقيق الغيرية بالمتاركة والمزايلة والمباعدة والمخالفة والمفارقة والمعاداة والمقاطعة والبراءة من المغضوب عليهم والضالين يعني اليهود والنصارى. قال ابن برجان في تفسيره: "بسم الله الرحمن الرحيم" أم للكتاب المبين وأم لسورة الحمد لله رب العالمين وأم القرآن كله وهو المعني بقوله وهو

أعلم: «أُكْتُبُ علمي في خلقي» علمه في خلقه: أسماؤه، ومقتضاها: موجود خلقه وأمره. وفي ثانيا الآية الكريمة ﴿لَا تَمْدَن عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعَنَا بِهِ أَزْوَاجُ مِنْهُمْ﴾ لفظة عظيمة تحمل تحذيراً من الالتفات إلى ما لديهم من متاع الحياة الرخيص على نحو ما ورد في صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسكّ ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدْرُهُمْ؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «أَتَحِبُّونَ أَنْهُ لَكُمْ؟» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ» فخذ أيها المسلم بوصية نبيك ولا ترتع في روض المشركين ولا تكرر من حوضهم وذرههم في حوضهم.

إِنَّ السَّلَامَةَ مِنْ سَلَمَى وَجَارَتَهَا... أَلَا تَمُرُّ بِوَادِيهَا عَلَى حَالٍ

وفي قوله ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ دلالة على شدة حبه ﷺ هدايتهم وحرصه على إسلامهم ودلالة على شدة حزنه وأسفه وضيق صدره لإعراضهم وتكذيبهم بعد ما تبين لهم الحق! وفي معنى الآية ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض، اليهود والنصارى. وروى الإمام الطبري عن مجاهد قال: أهل الكتاب فرقوه وبدلوه. وقال عكرمة: سماهم مقتسمين لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به. وقال قتادة: قسموا كتبهم ففرقوه وبددوه وحرفوه. والتشبيه الذي أفاده الكاف "كما أنزلنا" تشبيه بالذي أنزل على المقتسمين و"ما" موصولة أو مصدرية وهي المشبه به، وأما المشبه فهو الإنذار المأخوذ من قوله تعالى "إني أنا النذير المبين" أي

الإنذار بالعقاب والمعنى: أنذر المقتسمين الجدد مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين القدامى أصحاب الحجر - لأنهم أقرب مذكور - وقد حكى الله تعالى في سورة النمل محاورتهم بقوله "قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون" ويبدو أن هذا قول فريق منهم لفريق آخر كما تشير القراءة الأخرى "قالوا تقاسموا بالله لتبيته وأهله ثم لتقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله" أي قال فريق منهم احلفوا لتفعلن فكأنهم أخرجوا أنفسهم في اللفظ، وقرأ الجمهور "مهلك" بضم الميم وفتح اللام من أهلك، وقرأ حفص "مهلك" وقرأ شعبة بفتح الميم واللام. قال الإمام أبو حيان: فأما القراءة الأولى فتحتمل المصدر والزمان والمكان أي ما شهدنا إهلاك أهله أو زمان إهلاكهم أو مكان إهلاكهم ويلزم من هذين أنهم إذا لم يشهدوا الزمان ولا المكان أن لا يشهدوا الإهلاك، وأما القراءة الثانية فالقياس يقتضي أن يكون للزمان والمكان أي ما شهدنا زمان هلاكهم ولا مكانه، والثالثة: تقتضي القياس أن يكون مصدراً أي ما شهدنا هلاكه. انتهى. ولما كانوا قد تبادلوا المهام وظنوا أنفسهم على المبالغة في التعمية على الناس قالوا "إنا لصادقون" وهذا القول جارٍ على لسان الناس الذين كانوا بحضرة الفريق الذي لم يشهد هلاك صالح عليه السلام أو الفريق الذي لم يشهد هلاك أهله لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً، وقد نهاهم نبيهم عن طاعة رؤسائهم الذين أسرفوا في الكفر والنفاق ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ والإفساد في الأرض ورد في القرآن في حق المنافقين خاصة كما تقدم... ثم وصف تعالى المقتسمين فقال ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ قال الإمام القرطبي: وواحد العضين عضة من عضيت الشيء تعضية أي فرقته وكل فرقة عضة. وقال ابن

السكيت: العضة بأن يَعِضَهُ الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه وهذا قول الخليل
فيما روى الليث عنه. وقال الكسائي: العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون
مثل عزة وعزون. ثم أقسم تعالى بذاته وربوبيته مضافاً إلى رسوله على جهة
التشريف ليسألنهم سؤال تفرغ وتوبخ ﴿فَوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا
يعملون﴾ ثم أمر تعالى سيد الوجود أن يجهر بالحجة بعلو وشدة فارقاً بين الحق
والباطل بسبب ذلك ﴿فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ والإعراض عنهم
يستلزم التوكل على الله وحده ولذلك أردف تعالى بكفائته للحنفاء المتوكلين
عليه ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ وهذا وعد من الله قاطع وحكم من المولى جامع
أنه متى استقرت الحنيفية في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم في كل
خاطرة وحركة فالمولى عز وجل كافهم كيد وتبييت المستهزئين، وكل من حاد
عن أمر الله فسيقع في حبال أهل الكتاب العريقين في الاستهزاء، واستهزأؤهم:
بإظهار الإسلام وإخفاء الكفر وبقولهم للمسلمين: تعلموا التوحيد! وقول
بعضهم لبعض: لعنا ببقولهم وضحكنا عليهم! وقد تأكد ذلك بوصفهم
بالإشراك ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ والشيطان هو
المقصود بالإله الآخر ابتداء وقد عبّر سيد الوجود وحبیب الرب المعبود عن
هؤلاء المشركين بـ«**قرن الشيطان**» فإنهم اقتسموا الأدوار لإقامة ما يُسمى
بدولة إسرائيل! وتبادلوا المهام السياسية، والوظائف الدينية، وصنعوا العقائد التي
ما زالت تُوجه حركة البشرية، وتستترّوا بالإسلام نفاقاً وتقية، فضبح محمد بن
عبد الوهاب بالسلفية ضبحة الثعلب وقبّع أخوه سليمان قبعة القنفذ متظاهراً
بالإنكار عليه - على عادة اليهود والنصارى في اقتسام المهام والوظائف وإعمال
الحيل والخدع والزخارف - وادّعى الأب أنه ساحط على ولده ونهض ابن

سعود بنصرة دعوته في قصة مجبوكة الأطراف متماسكة الحلقات...وكما انخدع أقوام من المسلمين بدعوة محمد بن عبد الوهاب كذلك انخدع آخرون بمواقف ورسائل أخيه سليمان الذي أخفى يهوديتهم ونصرانيتهم وأنسابهم...وبعد اشتداد شوكتهم واستحكام أمرهم وإحكام غلبتهم صدّروا شيوخاً تعايشوا في سلطان الطاغوت ولم يعرفوا الجاهلية فأضاعوا الإسلام، وصنع بنو إسرائيل لهم أحزاباً وحلّبات للصراع ليتصاولوا داخل حدودها؛ يلقون بينهم الفرية والشبهة في أحابيل ومصائد مأكرة ويدفعوهم بالتيارات العقديّة والقبلية والقومية وجميع ما أوتوا من سياسة التحريش الشيطانية حتى يضرب بعضهم رقاب بعض! وهذا تصديق للحديث الشريف: «لتتبع سنن بني إسرائيل» وفي المقابل يتظاهرون في كيد خفيّ بإعلان الحرب على الجحوس ويرسلونهم إلى الشام واليمن لإدارة عملية القتل الممنهج مثلما فعلوا في العراق هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقومون بإضلال المجاهدين وإفسادهم عبر رايات عميّة، وفي الصف الآخر يجرضون الفصائل المجاهدة على قتال بعضها من خلال المناهج والأموال والمباهج...ويَسْخَرُونَ منها فيدعوونها إلى وحدة الصف وربما يُحْلِفُونَهَا على ذلك عند البيت الحرام كما حصل مع الفصائل الفلسطينية ثم ينفردون بكل طرف على حدة فيفككون الروابط ويحلون العُرى ويضعون في الفُرقة ويهتبلون كل فرصة ويوقدونها فتنة لا تهدأ، ويجعلون من الحكم والدين سخرة لاهين به لاعبين عابثين كما حكى المولى عنهم ذلك آمراً بمتاركتهم وعدم الاكتراث بهم (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا) حيث سخروا بالعباد يتصرفون بهم تصرف اللاعب، واستهزؤا بالدين يتصرفون به تصرف اللاهي، ولما كان مطمح نظر المستخلفين التحكم بالعباد قدّم اللعب الدال على ذلك

وتم باللهو، وأما في آية الأعراف فالمقام مقام سخرية بالدين ﴿الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرقهم الحياة الدنيا﴾ ومما يشاكل هذا قوله تعالى ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ وفي الكلام حذفٌ تقديره: وما الحياة الدنيا عند المستخلفين إلا لهو ولعب! وفي آية الأنعام عكسَ هذا الترتيب ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ ففي الوقت الذي اجتمع أحد أفراد آل سعود مع خمسة عشر مقاتلاً من قادة الفصائل السورية في مدينة أنطاكية لتقديم المال والسلاح متهدداً مرعداً مزبداً آمراً بتحويل القتال إلى إخوانهم المجاهدين؛ كان في المقابل أحد أفراد آل الشيخ "المسؤول الشرعي في الدولة الإسلامية في العراق والشام" يقول: قتال المرتدين - ويعني بهم من لم يبايع دولته من المجاهدين - أولى من قتال اليهود والنصارى!!! وحتى يدفعوا عن أنفسهم هذه الأعمال الإجرامية يقومون بإرسال المساعدات إلى المنكوبين مطبوع عليها (هدية من الشعب السعودي) ويا خزي وعار من أتيت الأمة من قبله، وفي الحديث عند الترمذي: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم» وفي سخرية ماكرة يبعثون الجوس إلى الفلسطينيين لتدريبهم في إيران، وهم يديرون عمليات التهجير والإبادة الوحشية! يندسون المقدسات ويهلكون الحرث والنسل ويهدمون المنازل على رؤوس ساكنيها ثم يقومون بإعادة إعمارها ففي الحديث عند الطبراني: «يا ابن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراتها أن يُعمَّرَ خراب الدنيا ويُخرَّبَ عمرانها» وهذه الازدواجية في التعامل مع جميع الأطراف يراد منها تمييع الدين وتقليب الأمور وإيقاد الحرب لتقرير حكمهم في الأرض فإن كان للمسلمين فتح من الله قالوا ألم نكن معكم؟ وإن كان لشركائهم نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ ثم تُتَوَجَّع الحرب بمؤتمرات ومفاوضات يعلن فيها الفراعنة سلطتهم

العليا...يقتلون أهل الإسلام في شتى بقاع العالم، ثم تنطلق وسائل الإعلام السعودية بحملات التبرع لإغاثة المنكوبين، وتوجيه المجاهدين خدمة لمصالحهم السياسية، ولم تنزل بصمات أسود الوجه خالد بن عبد العزيز، والأعور الكذاب فهد، والأصم الأبكم عبد الله، وعمدتهم سلمان عليه لعائن الله، موجودة إلى الآن في كل بقعة تنزف من بقاع الإسلام، ولسان حالهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون! يتسللون إلى المسلمين ويتلونون كالحيات والثعابين، في قلوبهم السم، وعلى ألسنتهم الدهان، وهذا يدل على فساد فطرته التي تطبعت بطباع العبيد استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنهم السوط، وتبطراً حين يتاح لهم شيء من النعمة والقوة، لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة، ولا يخضعون إلا إذا كان السيف مصلتاً على رقابهم...ولذلك كانت الحنيفة بالإعراض عنهم وعدم الركون إليهم ومجانبتهم هي الخطة التي اتبعها رسول الله ﷺ بتوجيه من ربه لمواجهة هذا الرقيق المتلون، وتصفية هذا المعسكر اللعين الذي يجيد اقتسام المهام والوظائف، ففي الوقت الذي كانت الوحدات الجوية السورية تقوم بقصف الآمنين؛ كان الممثل السعودي في مجلس الأمن الدولي يحمل دور المدافع عن المظلومين في سخرية لاذعة. جاء في المادة 45 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

رغبة في تمكين الأمم المتحدة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يكون لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القمع الدولية المشتركة ويحدد مجلس الأمن قوى هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط

لأعمالها المشتركة وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفي الحدود الواردة في الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة 43.

وقد صدر من قوم صالح نحو هذا المكر ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾ أي هؤلاء التسعة الرهط تواتقوا أن يقتسموا المهام والوظائف فبعضهم يعقر الناقة وبعضهم يبيت صالحاً ويقتله وأهله والفريق الآخر يعتزل ولا يشهد الهلاك فإن خوصم في ذلك ليقولن وليقسمن "ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون" أي ما حضرنا في هلاكهم وذلك قوله ﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أي دمرنا القنلة وقومهم المتآمرين معهم - والله أعلم - وفي سورة الشمس ذكر الحق تعالى أن ما أصابهم كان من خبيثتهم لأنهم دسوا أنفسهم بالطغوى! وكأنّ المنافق الفاجر بارتكاب الفواحش دسّ نفسه وقمعها والمؤمن الصادق شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى وأيفاع الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين وتوقد النيران في الليل للطارقين وكانت اللثام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخفي أماكنها على الطالبين فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها والمنافق أبداً خفيّ المكان زمر المروءة غامض الشخص ناكس الرأس قد أخفى نفسه وأغواها بالنفاق والفسوق والجلافة والعقوق ودنسها وقذرها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال وقبائح النيات والأحوال! وأصل دسّ: وهو مبالغة في دسّ والتدسيس: إخفاء الشيء والمعنى: أخفى محلها بالنفاق!

(قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) بعد الفراغ من بيان خطأ من يوالي عدو الله بما يجر إلى أصحابه من مضار في الدنيا وفي الآخرة تحذيراً لهم من ذلك، انتقل إلى تمثيل الحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوة، وافتتاح الكلام بكلمتي "كانت" لتأكيد الخبر فإن قد مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل، وإبراهيم عليه السلام مثل في اليقين بالله والغضب به، وعطف "والذين معه" ليلم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه أي أن يكون المسلمون تابعين لرضى رسولهم صلى الله عليه وسلم كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام، والمراد من التبرؤ أي من مخالطتهم وملاستهم فإنهم كاشفوا قومهم بالمنافرة وصرحوا لهم بالبغضاء ولم يصانعوهم ويغضوا عن كفرهم ونفاقهم وفي الآية الكريمة تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم بمقتضاه وهذا لب التوحيد من أخذ به كفاه الله المستهزئين، قال تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) وهذا تلقين وتعليم من الله لعباده أن يقولوا ذلك بعد أن وقفوا موقف الذاكرين له بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم) وموقف الحامدين له بقوله (الحمد لله رب العالمين) وموقف المثنين عليه بقوله (الرحمن الرحيم) وموقف الممجدين له بقوله (مالك يوم الدين) فقدموا تلك المقدمات وارتقوا في القرب فقال لهم قولوا (إياك نعبد وإياك نستعين) وهذه الآية أصل فلاح العبد، وبقدر نصيبه من (إياك نستعين) يكون نصيبه من

﴿إياك نعبد﴾ كما قال سبحانه ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وبقدر توكله على مولاه تكون كفاية الله له من المستهزئين. وفي الحديث عند الترمذي: «رب أعني ولا تُعن عليّ» وفي رواية: «وإذا استعنت فاستعن بالله» وكلمة "إياك" مركبة من أربعة أحرف هن حروف المعرفة: الهمزة والياء والألف والكاف، والهمزة صادرة من ذات المخاطب إلى الكاف التي هي لمواجهة الخطاب، والياء والألف سبيل إلى ذلك وعماد له، أشار بها السر المخاطب بالتزام العبودية والإقرار له بالحكمية المأخوذ عليه من أجلها الميثاق في العهد الأول مع إظهار الفقر والفاقة إليه وهنا حسنت حالة العبد عند ربه فأذن له بالسؤال بقوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهذا الصراط هو المنهج الذي جاء رسول الله ﷺ يدعو إليه ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ وهو المعني في قوله تعالى ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله﴾ أي فمن أراد أن يسير على الطريق الموصل إلى الله تعالى فعليه سلوك هذا الصراط متبعاً لك يا رسول الله ﷺ والهادي من شأنه أن يكون إماماً وأن يمشي أماماً... وتتمام النعمة في الهداية اتباع رسول الدلالة كما جاء في الآية ﴿واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ وبه فُسر الصراط المستقيم، وأما صراط الذين أنعم الله عليهم فهو هدى النبيين والمرسلين من لدن آدم إلى ابن مريم وهدى الصديقين والأولياء والصالحين والشهداء الذين استعملهم بمحابه وختم لهم برضوانه وقد ذيلت السورة بذكرهم تهنئاً بالاقتداء بهم وتعوذاً وتبرؤاً من أحوال اليهود والنصارى المعبر عنهم بقربي الشيطان في الآثار الصحاح المتواترة.

﴿وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت﴾ أي النفوس الموءودة، والوَادُ أفضع أعمال المشركين، ومنه: هدم المنازل على رؤوس ساكنيها ودفنهم تحت الأنقاض وهم أحياء، ومنه: دفن الناس في الأحاديث وهم أحياء كما فعلوا في

صحراء نجد...وسؤال النفوس الموعودة سؤال تعريضي مراد منه تهديد الوائد ورُعبه بالعذاب، وظاهر الآية أن سؤال النفس الموعودة وعقوبة من وأدها أول ما يُقضى فيه يوم القيامة، وفي توجيه السؤال إليها يوم الحشر إدخال الروح على من وأدها، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجب قتلها ليكون عذابه أشد وأظهر، والاستفهام في **(بأي ذنب)** تقرير، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون أن تُسأل عن قاتلها لزيادة التهديد لأن السؤال عن تعيين الذنب مع تحقق الوائد الذي يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها إشعار للوائد بفظاعة جريمته...

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) ظاهر مذهب اليهود لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم وتشبيه الله تعالى بالمخلوقات وتمثيله بالمحدثات مع ما حكي عنهم قولهم: إن رب محمد فقير وبخيل! وإنما خصص اليهود ههنا بالذكر لأنهم ابتدعوا هذه المقالة وابتدؤوا بها، ولما نطقوا بهذه الكلمة الشنعاء وفأهوا بتلك الداهية الدهيئة؛ أخبر عما جازاهم به سبحانه على صورة ما كان العرب يقابلون به من يستحق الهلاك من الدعاء فقال معبراً بالمبني للمفعول إفادة لتحتم الوقوع وتعليماً لنا كيف ندعوا عليهم **(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)** ولما كان الغل كناية عن البخل وعدم الإنفاق وكان الدعاء عليهم متضمناً أن الأمر ليس كما قالوا؛ أثبت سعة فضله تعالى وترجمه بقوله **(بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء)** وإنما ثبّت اليدان هنا وأفردت في قولهم ليكون أبلغ في رد كلام القوم لعنهم الله وليكون مبالغة في وصفه تعالى بالجلود والكرم، ونص القرآن ناطق بإثبات اليد تارة وإثبات اليدين أخرى وإثبات الأيدي وهو من المتشابه الذي أريد به الحجاز وتفويض تأويله إلى الله تعالى هو الأسلم. ولما كان قولهم هذا غاية

في العجب! قال سبحانه مؤكداً لمضمون ما تقدم بأنه جعل سبب هذا القول منهم ما أتاهم من الهدى الأكمل في هذا الكتاب المعجز الكريم على لسان الرسول الأُمي العظيم ﴿وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ وهذا إعلام بأن علماءهم ورؤساءهم من العتو والبعد عن الحق بحيث إذا رأوا بسط نعماء الله وتواتر آلائه على نبيه ﷺ وسمعوا الأسرار التي لهم والأقوال التي لا يعلمها غيرهم تنزل في القرآن وتفضحهم طغوا وتمادوا على الكفر وازدادوا غيظاً وحنقاً على ربهم سبحانه فضموا إلى طغيانهم الأول طغياناً وإلى كفرهم كفراً فالآية على هذا تبشير لنبيه ﷺ والمؤمنين، والضمير في قوله ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ لليهود والنصارى كما روي عن قتادة ومجاهد والسدي وغيرهم لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه ﴿ولا تتخذوا اليهود والنصارى﴾ ولشمول قوله عز وجل ﴿يا أهل الكتاب﴾ للفريقين، وإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب وإظهار الحقد والمكر بالمؤمنين ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ وإطفائها صرف الله عنهم ذلك فهم لا يريدون محاربة المؤمنين إلا ألزمهم الله خزيهم وعارهم وجعل الدائرة عليهم وساق جيش المنون على أيدي المؤمنين إليهم وأوقع المخالفة والعدوان بينهم وخبب قصدهم، ثم بين تعالى إفسادهم بأن يخدعوا ضعيفاً ويستخرجوا نوعاً من الكيد على سبيل الخفية ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ والسعي هو العدو إلى الشيء أو القصد إليه والتعبير بصيغة المضارع لإفادة الاستمرار والتجدد، والتعريف في الأرض للاستغراق فيشمل الأرض كلها، والصيغة التي أوردها المولى سبحانه فريدة لم تأت في بيانه سوى في موضعين أحدهما هاهنا والثاني في آية الحراة في وصف المحاربين لله ورسوله، فالفساد والإفساد ملازم لهم! وها هم يجتهدون في الكيد للإسلام

وأهله وإثار الشر والفتنة فيما بين الناس مما يُغايّر ما عبّر عنه بإيقاد نار الحرب كإدخال الشُّبه على ضعفاء المسلمين والمشي بالنميمة والعداوة وتسعير الفتن على نحو ما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إن الفتنة تجيء من هاهنا من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض» والفساد يكون بإثارة الفتن والحروب والاجتهاد في الحيل والخدع للمسلمين... وفي سنن أبي داود: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» وفي هذا المعنى أو نحوه قوله ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» رواه مسلم. وقد عُرف يهود يثرب بالإفساد وإثارة الفتن وبث الوسوس والدسائس حتى كانت الأنصار وغيرهم من القبائل في غاية التنافر والتقاطع لما أوقعوا بينهم من الحروب حتى هلك كثير من صناديدهم وأشرفهم! وذكر أهل السير أن شاس بن قيس - من يهود بني قينقاع - مر يوماً على الأنصار الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع بنو قيلة والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار فأمر فتى شاباً من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعثت وما كان فيه وأنشدكم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وألفكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم؟» فعرف

القوم أنها نزعَة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس
الرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى في شاس بن
قيس (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم
شهداء وما الله بغافل عما تعملون) والمعنى لم تطلبون الزيف والميل عن دين محمد
ﷺ الذي هو سبيل الله بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء لتصدوهم وأنتم تشهدون
بما قد ثبت في نفوسكم أن هذه السبيل هي الحق؟ والعوج ما يدرك بالفكر من
الاعوجاج، والعوج ما يدرك بالطرف.

المبحث الخامس:
بنو إسرائيل والمسيح عليه السلام

الفصل الأول: رسالة المسيح إلى بني إسرائيل

أرسل الله عز وجل عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بعد مضي ألف وأربعمائة سنة ونيف على نزول تورا موسى في فترة زمنية أشبه ما تكون بهذه الفترة حيث كان بنو إسرائيل حلفاء للدولة الرومانية الوثنية التي كانت تهيمن على العالم، فالحكم والقضاء بيد بني إسرائيل، يتحكمون في الإمبراطور الروماني كما يتحكمون اليوم في أعضاء مجلس الأمن، يديروهم كما شاؤوا ويريدونهم على ما شاؤوا، والآيات تحكي القصة في واقعيتها الكاملة وفي مساحات متناسبة من معيار الزمن، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع متماثلة في نماذج متنوعة... ففي الوقت الذي انقسم بنو إسرائيل إلى فرق ومذاهب ومدارس عديدة يديرها أئمة مضلون وكهنة مشركون، لكل حبر حلقة يدرس فيها التوراة على هواه؛ كان نبي الله زكريا من كبار الربانيين الذين يخدمون في بيت المقدس، وكان عمران إمامهم ورئيسهم ومن الأئمة الأتقياء فيهم، وقد استجاب الله لدعاء زوجته حنة بعد أن لبثت عاقراً ثلاثين سنة فحملت ونذرت أن تهب ولدها لخدمة بيت المقدس وكانت ترجو أن يكون ذكراً إلا أنها رزقت بأنثى سميتها مريم وحملتها وقدمتها إلى بيت المقدس ودفعتها إلى العباد والربانيين فتنافسوا في كفالة ابنة إمامهم ومعلمهم، وحصل الخصام بينهم أيهم يكفل مريم، ثم لجؤوا إلى القرعة فكانت كفالتها من حظ زكريا زوج خالتها، وكان هذا من رحمة الله بمريم ورعايته لها، فنشأت عابدة قانتة في خلوة المسجد تحيي ليلها بالذكر والعبادة والصلاة والصوم، وكانت قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واعتزلت بيئة الطبقة المترفة وتأثيراتها وميوعتها ومغرياتها والتي تشبه البيئة التي عاشتها امرأة فرعون وعاشها موسى في بلاط الملوك كما تشبه البيئة التي عاشها

يوسف في كنف العزيز والتي تُصور بيئة القصور الملكية السعودية... وأثناء ذلك رزق الله زكريا ببيحي رغم تقدم سنّه وسنّ زوجته، ثم جاءت البشرية إلى مريم أن الله اصطفاها على نساء العالمين في زمانها وأنها ستحمل بني اسمه المسيح عيسى ابن مريم، والمراد اسمه الذي يتميز به عن غيره وهو لا يتميز إلا بمجموع الثلاثة من حيث المعنى لا كلّ واحد منها على حiale وإنما نسبه الله تعالى إلى الأم إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته، وسُمي بالمسيح لأنه ما مسح بيده ذا عاهة إلا برأ أو لمسحه بالبركة. وكونه المسيح المنتظر يعني أنه سيكشف ألعيب اليهود ويُتبر سلطاهم ويُذهب مصالحهم كما أشارت توراتهم، فلم يكن للشعالب الشيطانية التي تخادع الإنسانية - وخاصةً الأخبار والكهنة المعادين لزكريا ولعمران وأتباعهم - أن يتركوا هذا الأمر يمرّ بسلام، فقاموا بالطعن في شرف مريم واتهموها بالزنا والفاحشة! ورغم المعجزة التي حدثت ودفاع الرضيع عن أمه، إلا أن اليهود لم يناسبهم هذا الأمر... وكانت العناية الإلهية تلاحظ المسيح عيسى عليه السلام حتى كبر وأصبح معلماً للتوراة، مبيّناً لما جرى عليها من تحريف الأخبار المضلين والكهنة الفاسدين فأصبح في عدااء واضح معهم، وكان يغلظ عليهم القول ويكشف فسادهم أمام الناس ويلعنهم ويصفهم بأولاد الأفاعي والشعابين ويكشف إيمانهم بأنه محض نفاق، وجرت بينه وبينهم مناظرات ومشكلات عديدة، ظهر من خلالها عليهم بمعجزاته، وكانت دعوته محصورة في بني إسرائيل إلا أنها بمثابة إعلان حرب على الأخبار المخادعين الذين كانوا يكيدون ليلاً ونهاراً للإيقاع به والتقليل من شأنه، بل وقتله! ويعملون على تشويه دعوته ويصفونه بالساحر والكذاب، وأن معجزاته بمساعدة الجن والشياطين... وكان المسيح يحب

الأرض المقدسة شرقاً وغرباً ومن ورائه القساوسة والرهبان والجموع الكبيرة صانعاً المعجزات والخوارق حتى بلغ صيته عاصمة الدولة الرومانية الوثنية روما مما زاد من حقد اليهود عليه فأخذوا يكيدون للإيقاع بينه وبين شركائهم الرومان بحجة أنه يخطط لثورة عليهم! وكان هذا إعلاناً لكفرهم وحلول غضب الله عليهم... ورسالة المسيح عيسى إلى بني إسرائيل تتلخص في الدعوة إلى التوحيد الذي هو الإسلام بكلماته الملقاة من عنده سبحانه، وقد حرّفه أحبارهم بالأمس كما حرّفه هؤلاء اليوم ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ ونورد بعض ما كتبه المفسد العليم ابن عبد الوهاب كما جاء في الأجوبة النجدية: والتوحيد نوعان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية: فهو الذي أقرت الكفار به ولم يكونوا به مسلمين وهو الإقرار بأن الله الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، والدليل قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وأما توحيد الألوهية: فهو إخلاص العبادة كلها بأنواعها لله؛ فلا يدعى إلا الله ولا يرجى إلا هو ولا يستغاث إلا به ولا يتوكل إلا عليه، والدليل عليه: الآيات الكريمات، ولا ينذر إلا له ولا يذبح ذبح القربات إلا له وحده لا شريك له، والدليل على ذلك: الآيات الكريمات وهذا: هو معنى لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه والمعبود فمن جعل الله إلهه وحده وعبدته دون من سواه من المخلوقين فهو المهتدي، ومن قاسه بغيره وعبدته وجعل له شيئاً مما تقدم من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر والتوكل والاستغاثة والإنابة فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى

وأشرك مع الله إلها غيره فصار من المشركين الذين قال الله فيهم ﴿إِنْ اللَّه لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾!!!. وكلام عدو الله افتراء بين من زخرف القول وتحريف عن مواضعه، فمعنى الربوبية: سيادة العالم وتصريف شؤونه وهناك آيات عديدة تثبت هذا المعنى عند تأملها قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ والجملة صلة الموصول "الذي خلقكم" علة للتوحيد في الربوبية فالمعنى: إن الذي خلقكم هو سيدكم وحاكمكم والمتصرف فيكم. ثم إن توحيد الربوبية والألوهية متلازمان يقع كل منهما موقع الآخر كما حكى تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ذلكم الجامع لأوصاف الربوبية والألوهية بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الصنع هو الحقيق بالعبادة، وروى الإمام الطبراني عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ نهاراً فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله ﷺ فبت عنده فلا أزال أسمعنه يقول: «سبحان الله سبحان ربي» حتى أملّ أو تغلبنى عيني فأنام. وقال سبحانه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فأنى تصرفون عن ربوبيته وألوهيته وتُفرقون بين تلك الأوصاف وتقبلون عن وجوه الأدلة إلى أقفائها؟ وهذا التحريف يأتي على أصل الدين من القواعد كما سبق... وفي فاتحة الكتاب إخبار باستحقاق الحمد للمتفرد بالألوهية والربوبية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه الجملة قد فاتت موجودات الدنيا والآخرة إذ مدائح عز وجل لا تبید وحمده لا ينفد وإنما أخرج إلى الوجود علمه في خلقه لا علمه بذاته جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه وهو القرآن العظيم الذي أعطيه ﷺ، وقوله "رب العالمين" جميع ما خلق وذراً وبرأ من شيء وقد عبر عنه بالجملة

المسمى بالعبد الكلي. وأما اسمه تعالى (الله) تقدست أسماؤه فهو اسم لمرتبة ذاتية جامعة وفلك محيط بالحقائق وهو مشير إلى الألوهية...والإله هو الذي تختار فيه العقول حيرة إثبات لا حيرة ارتياب وشك وهذا هو الله تعالى الذي أدهش العقول وأعجزها أن تدرك حقيقة ذاته سبحانه! والإله: من لاه إذا احتجب فهو سبحانه كما قال **(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)** والإله هو الذي يوله به، والعالم كله موله - مولع - بحب الله سبحانه أما معنى الإله المعبود: فقد قال سبحانه **(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)** أي ومعبودكم هو إله واحد - وهو المعبود بحق - "لا إله إلا هو" لا معبود بحق إلا هو "الرحمن الرحيم" ثم ذكر سبحانه آياته التكوينية النفسية والآفاقية السماوية والأرضية الدالة على ألوهيته ووجوب وجوده ووحدانيته وكمال صفاته وأنه المعبود بحق وحده وأنه هو الذي يجب أن يعبد وحده وأن عبادة غيره لا تجوز لا شرعاً ولا عقلاً ولا ذوقاً ولا فطرة فقال تعالى **(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)** أي إن فيما ذكره الله تعالى من التدابير الكونية المشهودة للخلق فيه براهين وأدلة معقولة عند من يعقل وينصف على أنه لا رب إلا الله تعالى وما دام لا رب إلا الله فلا إله إلا الله لأن الإله المعبود بحق هو الرب الحق ومن كان رباً فهو إله فهو سبحانه ربك: بيده أمرك خلقاً وإمداداً وتديراً فهذا الرب هو الذي يجب أن تعبدته ومن لم يكن رباً فلا يجوز أن يعبد كما جاء في الآيات المتقدمة...فإن هذا كله من تربية الله لكم وإمداده لكم وأنتم عاجزون عن

خلقها وتديرها فلا بد إذًا من رب خالق لها مدبر لشؤونها وهذا الخالق يجب أن تعبدوه وحده إن كنتم تعقلون في هذا الكون فتنتهون إلى المكوّن وتتعقلون في هذا العالم فتنتهون إلى المسبّب وتتعقلون في هذه الأشياء فتنتهون إلى خالقها قال تعالى ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ فكل شيء تعقلت وتفكرت فيه يوصلك إلى الله وينتهي بك إلى الله وينتهي أمره إلى الله. وقال عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ أي وهو المعبود بحق في السماء وفي الأرض وذكر السماء لأن آيات ألوهيته سبحانه مشهودة في السماء وآيات ألوهيته مشهودة في الأرض أيضاً فانظروا في السماء وانظروا في الأرض تروا آيات ألوهيته وحكميته ووحدته سبحانه وآيات وجوده وقدرته وربوبيته شاملة للسموات والأرض قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي فترون فيها آثار أسماء الله تعالى وصفاته وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي صغير دقيق ولو كان ذبابة أو غيرها فإذا تأملت فيها انتهيت إلى خالقها ومالكها وهو الله تعالى وهو سبحانه الإله الذي احتجب عن البصائر والأبصار أن تدرك حقيقة ذاته فهي ترى أنواره ولكنها لا تدرك حقيقة ذاته... وبالجملة فإن المعنى الحقيقي لتوحيد الألوهية والربوبية ابتداء هو الإقرار بالسلطة العليا لله الواحد القهار وقد وقع الأمر بالعبادة مرتباً على ذكر وصف الألوهية والربوبية فدلّ على أنه إنما تلزمنا عبادته لكونه صاحب الألوهية والربوبية وليس ذلك التقسيم الذي قسّمه أهل الكتاب... وقد ورد خطاب المسيح في معرض الحديث عن الميثاق الذي أخذه الله عليهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وهذا إخبار بما صدر من أسلافهم من نقض الميثاق

وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم من نقض العهود إذ ذاك شنيئة من أسلافهم، ولما ذكر غدرهم وخيانتهم أردف ذلك بقوله ﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصرموا﴾ وحسبناهم سببه اغترارهم بإمهال الله حين قتلوا أنبياءهم بسيف البدعة والشرك! وقُرئ ﴿تكون﴾ بالرفع وأصله أنه لا تكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله في صدورهم منزلة العلم. واستفيد من قوله ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ أنهم قد أصابهم القتل والتشريد بعد موسى عليه السلام ﴿ثم عموا وصرموا كثير منهم﴾ وقد وقف الكلام عند هذا العمى والصمم الثاني ولم يذكر أن الله تاب عليهم بعده فدل على شدة كفرهم حين تأمروا على قتل المسيح فأضلهم الله وأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها! وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشرار الساعة فقال: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» وقد دلّ ظاهر رصف الآي على أن الغاية من قولهم "إن الله هو المسيح ابن مريم" الإشرار بعبادته تعالى ومنازعته في حكمه! والمقام يُبين ذلك ولا ترتيب أفضل ولا أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن حيث أخبر المولى أنهم لعنوا في الزبور والإنجيل ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وفي هذا دليل على تواردهم على الاحتيال والاستهزاء والتكذيب في جميع عصورهم وأجيالهم فقد مُسخوا قردة في أزهى عصورهم أيام داود عليه السلام بعد نقضهم عهدهم واحتيالهم واعتدائهم في السبت واتخاذهم الملائكة أرباباً، ومسخوا خنازير في أشنع

عصورهم أيام عيسى عليه السلام بعد استهزائهم وأكلهم من المائدة وكفرهم بالآيات البينة! وقد جعل الله تعالى للقردة والخنازير في صدور الناس من القبح والتشويه ونذالة النفس ما لم يجعله لشيء غيرهما من الحيوان. روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لُعِنُوا بكل لسان، لُعِنُوا على عهد موسى في التوراة، ولُعِنُوا على عهد داود في الزبور، ولُعِنُوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولُعِنُوا على عهد محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن» وروى البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال: «إن الله تعالى أوحى في الزبور يا داود من لقيني وقد كذب محمداً وكذب بما جاء به واستهزأ بكتابي صبيت عليه من قبره العذاب صباً وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار» والمؤمن يدعو عليهم بلعنة الله كما ورد في الحديث عند الحاكم وصححه: «وما لَعَنْتُ مِنْ لَعْنٍ فَعَلَى مِنْ لَعْنَتٍ» وروى الإمام عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في السنن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول في القنوت: «اللهم العن كفره أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك اللهم خالف بين كلمتهم وزلزل أقدامهم وأنزل بهم بأسك الذي لا تدره عن القوم المجرمين» قال جل شأنه وعز سلطانه **(والشجرة الملعونة في القرآن)** والشجرة لُعِنَتْ حيث لُعِن طاعموها لأنها لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وإنما وصفت بلعن أصحابها على الحجاز. ويبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الشرك والكفر واللعنة عريق، وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردتهم من هداية الله فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل فمسخوا قردة في زمن داود ومسخوا خنازير في زمن عيسى ابن مريم، وروى عن مجاهد الذي تلقى التفسير عن ترجمان القرآن ابن عباس أن المراد

بمسحهم قرده وخنازير مسخ قلوبهم فصاروا في نزواتهم واستيلاء الشهوات على نفوسهم وعبتهم بكل مقدرات القيم الخلقية كالقرده كما صاروا في قذارات نفوسهم وتطلبهم للقذر من المكاسب كالخنازير إذا يطلبون القذارات يأكلونها وتنمو أجسامهم عليها. ولما علل تعالى لعنهم بإشراكهم وعصيانهم وغلوهم في الباطل، بينه مخصصاً للعلماء منهم بزيادة تهديد لأنهم أجدر من غيرهم بالنهي وسكوته عن النهي مغو لأهل الفساد ومغر لهم ولغيرهم على الدخول فيه فقال تعالى ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ وأهل الكتاب لم يبينوا معنى الآية ولم يعرجوا على ربط المناسبة بين ما يفسر به المنكر وبين السياق المسوق له الكلام وهو الشرك في الحكم - المنكر الأكبر الذي تنبع منه كل المنكرات، منكر الجرأة على الله، منكر رفض ربوبية الله تعالى ووجد ألوهيته عز وجل - حتى كأنهم بصدد تفسير آية ليست واقعة في كلام يجب التثامه ويحق وثامه! وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار قبل الدخول في المنكرات الجزئية التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر وعرض له، وإن من الاستهزاء بالدين أن تُقرر فروعه وتُهدم أصوله! والآية مفسرة لما قبلها من معصية الشرك والاعتداء على ربوبية الله وألوهيته عز وجل، وقوله سبحانه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسوء فعلهم وتعجيب منه! والقسم لتأكيد التعجيب! وفي الآية زجر شديد لمن يسكت عن تعريف حالهم. روى الطبراني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ مِنْهُمْ بِالْخَطِيئَةِ نَهَاہُ النَّاهِي تَعْذِيرًا حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ جَالِسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارِبَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَرِهِ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ،

والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم» وروى الإمام مسلم عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وعقد سفيان بيده عشرة، قلت: يا رسول الله: أهلك فينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» ثم نفى تعالى عنهم الإيمان فقال ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ وهم اليوم أبناء الذين تولوا الكفار واستجاشوهم على الرسول الأكرم ﷺ.

لقد أخبرنا المولى عز وجل عن أمر عظيم ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ وقد وردت هذه العبارة في آيتين، ويبدو أن الآية الأولى في بيان إشراكهم بالعبادة والأخرى للدلالة على إشراكهم في الحكم، والمقام يبين ذلك ويعالج مسألة الحكم ويوضح انحرافات أهل الكتاب ومشابهمهم لأساطير الوثنية الحاكمة في ذلك الوقت وتصوراتها واندفاعاتها في الحيرة والتذبذب واضطراب العقيدة بين التجسيد والحلول والتثليث... ويعرض حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل... وهو يربطهم بآبائهم الأولين الذين أضلوا البشرية واقتسموا المهام السياسية والشرائع الإلهية ووضعوا هذا الخليط العجيب من العقائد الباطلة التي تحار فيها العقول، وهو في الوقت ذاته يرددهم إلى أحكامهم الأصلية ويحذر من توليهم ويكشف جزءاً من استهزائهم بالدين واتخاذ فرائضه وشعائره هزواً ولعباً، لتعرف الأمة حقيقة الذين احتلوا عقولها قبل احتلال مقدساتها وتداعوا عليها أي دعوا شركاءهم من الروم والفرس

ليقاتلوها وقاموا بحرب الإشاعات والدس والكيد في صفها وبثوا الشبهات والشكوك والتحريفات في عقيدتها وقاموا بالوقعة بينها ليضرب بعضها بعضاً، فلم يكن بد من كشفهم وقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله...

الفصل الثاني: وثنية بني إسرائيل

السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي حمل كفرة بني إسرائيل على أن يقولوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؟ ومتى كان ذلك؟ يخبرنا المولى سبحانه أن الذي حداهم إلى الإشراف بالعبادة هو دعوة المسيح إلى إفراد الله في الحكم، وإنما كرهوا دعوته لأنها ترمي إلى زوال سلطانهم وذهاب مصالحهم، وكانوا ينتظرون مسيحاً يعيد لهم الملك والسيادة والسلطان في الأرض، فلما ناههم عن موالاة الذين كفروا، وعن التحالف مع الإمبراطورية الرومانية، تأمروا على قتله فلما شُبه عليهم وأضلهم الله تعالى قاموا بإشراكه بالعبادة وبلغوا من الكفر غاية ما وراءها غاية وأدّعوا أنه الله وابن الله وثالث ثلاثة على طريقة الدعوة المضادة - وهي طريقة صاحبهم إبليس الذي أغواه الله وأضله فأقسم بعزة الله ليغوين البشرية - وهذا هو عين العصيان الوارد في القرآن ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ إذ لبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل وأدخلوا الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة بقصد بلبلة الأفكار وإشاعة الشك وإيقاع الاضطراب وخاضوا في أمر تكوين المسيح لصرف الناس عن الرؤية الصحيحة لرسالته التي تدور حول محور تحقيق الحكمة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ وإنه لمن الواجب أن نعرف التوحيد بمدلوله الواسع لنذكر أبعاد دعوة الرسول عيسى عليه السلام، وحين نفهم القرآن على هذا النحو، نفهم الأسباب التي أدت إلى تحوير دعوته والانحراف عن جادة التوحيد ونفهم طبيعة القوم الذين خالفوا رسولهم وعاندوه من أجل الإبقاء على مراكزهم ومصالحهم السلطوية! وكفرة بني إسرائيل أصحاب سلطة وأهواء

وأصحاب مصالح، ولما جاءهم المسيح بالإسلام والبراءة من الكفار؛ كذبوه ورموه بالسحر واتهموا أمّه بمثل ما اتهموا به أمّا عائشة رضي الله عنها ولذلك أنزل فيهم ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ أي بكفرهم برسالة عيسى عليه السلام ورميهم أمه بالزنا ثم أخذوا يكيدون له ويمكرون وكان مكرهم الذي وصفهم الله به مواطاة بعضهم بعضاً على الفتك به وقتله إذ أصدرُوا فرماناً من قبل الإمبراطور الروماني لجلبه للمحكمة تمهيداً للحكم عليه بالإعدام من خلال خطة خبيثة أظهروا للناس براءتهم وهم لغير ما أظهروا مستبطنون كما تشير الآية ﴿ومكروا ومكر الله﴾ بعد قوله تعالى ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال الإمام الماتريدي: يحتمل أن يكونوا أظهروا الإسلام له وكانوا في الحقيقة على خلاف ذلك. وقال الإمام أبو حيان: وفي هذه الآية من ضروب البلاغة: الاستعارة في "أحس" إذ لا يحس إلا ما كان متجسداً والكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به ولا يدرك بالحس...قلت: وهذا يؤذن بنفاقهم إذ فلتات ألسنتهم وكبوات أفعالهم وهفواتهم دالة جميعها على نفاقهم وكفى بذلك دليلاً على إظهارهم الإيمان وإبطائهم الكفر، وضمير منهم عائد إلى معلوم من المقام يفسره وصف الكفر أي وجد الكفر منهم ورأى تمالؤهم عليه! وكلمة "أحس" تبين حقيقة الخبث والخديعة والحيلة والمكر من خلال الصك الذي صدر بقتله!!! فرفعه الله إليه وأضلهم فحاروا في أمره فلم يهتدوا وعقدوا مؤتمراً في مجمع نيقية أعلنوا فيه عقيدة التجسيد بأن الله هو المسيح ابن مريم وبعد ذلك عقد مؤتمراً آخر في القسطنطينية اكتملت فيه عقيدة التثليث ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ ويعود الحفاة العراة اليوم ليشابهوا قول آبائهم من قبل كما حكى تعالى ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ والمولى عز وجل إذ

يصدر حكم الكفر على هؤلاء المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام ليتنبه المسلم على خطرهم! وهل القرآن يعيد تلك اللفات ويكرر هذه الأحكام (لقد كفر...لقد كفر...لقد كفر...) ليعرف المسلم كفر بابا الفاتيكان وأشياعه فحسب؟؟؟ إن هذا الكتاب المعجز انقلاب شامل على العقول المتبلدة والأفهام المستنسخة والأذهان الجامدة والقلوب الميتة، إنه غيث وكاف ساقه الله إلى الأمة الجرز لتتهز وتربو وتنشط وتنهض بالمهمة الضخمة لتقطع دابر الذين تسنموا ذروة الربوبية والإلهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة وتبوؤوا مناصب السدنة والكهانة واستهزؤوا بالكتاب والسنة واتخذوا المسيح لعبة للوصول إلى الرياسة والحكم! وعلاقة الحفاة العراة مع الكنيسة استُغلت لتدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية كي لا يبقى على وجه الأرض من يحكم غيرهم، ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره عقيدة الكنيسة بعد القيام بالثورة على رجال الكنيسة الذين صاروا لعبة في أيديهم! وفي جانب علاقتهم مع المسلمين عملوا في حقل آخر وهو تحويل الدين إلى مجرد رسوم وشعارات وطرده من واقع الحياة...وقد أدركوا أن السر في صلابة المسلمين يكمن في علمائهم أهل السند والمدد، ولذا حولوا ميدان الصراع إلى اتهام العلماء العدول الأتقياء والطعن في عقيدتهم والقدح في عدالتهم إضعافاً لشأنهم وصرفاً للأمة عنهم وبهذا تغيرت ملامح المعركة فلم يعد ميدانها الرئيسي الأرض بل الأدمغة والعقول، ولم تعد وسيلتها السيف بل الفكر، ولم يعد نظام الحرب الأساطيل والمدافع بل العقائد والمناهج والأحزاب والجماعات والتنظيمات والأفكار الدينية واللا دينية! وشياطين الدرعية يستهدفون الإسلام قبل أي دين لأنهم يعرفون من

تاريخهم كله أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة، وأنهم غالبوا المسلمين ما داموا سائرين على عقيدتهم مندجين في منهاجهم! يخدروهم بشعارات جوفاء! وهذا التخدير بما يُسمى: تحكيم الشرع وهو غير موجود أصلاً؛ ضروري لتنجح المؤامرة، أو يأذن الله فيصحو الناس! إن إخوان القردة والخنازير يخادعون أمة الإسلام لأنهم يؤسوا من تحويلها إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير وغيره، ذلك أن فطرة المسلم ترفض اليهودية والنصرانية وبالتالي لا يجرؤ الحفاة العراة على اقتحام قلب عرف الإسلام أو حتى ورث الإسلام! ولذلك لجؤوا إلى صياغة مناهج وإقامة أوضاع تنزياً بزي الإسلام وترفع شعار التوحيد وتمسح بعقيدة السلف، ثم هي تحت هذا الستار الخداع تُنفذ جميع المشاريع التي عجزت عن تنفيذها في المدى الطويل! توحى بأنها الحصن الحصين للإسلام والمسلمين بينما هي تدمر أصول الإسلام وتسلب أجهزة الإعلام العالمية لتشويه الإسلام، وتُسخر الكم الهائل من عملائها لسحق أخلاق الإسلام! كل ذلك وهي تزعم أنها راعية التوحيد والإسلام! وكيف يأمن رعيان وإن جَهدوا...إذا تردى ثياب الشاء سرحان؟ لقد جاء التعقيب على الآية **(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً)** بذكر قصة أصحاب الكهف دلالة على الشرك في الحكم وهي القضية الكبرى التي حملت المشركين على إلباس الحق بالباطل والكذب على الله باتخاذ الولد **(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)** وهذا اللبس هو مبدأ الإضلال والإلحاد في أمور الدين فإن المزاويل لذلك لا يروج عليهم قصد إبطائها فشان من يريد إبطائها أن يعمد إلى خلط الحق بالباطل حتى يوهم أنه يريد الحق وأكثر أنواع الضلال الذي أدخلوه في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل! فأنشؤوا الفرق الضالة كالقدرية

والمرجئة والباطنية... ولما أعلنوا إمارة الدرعية قاموا بالرد على تلك الفرق لمخادعة المسلمين بدولتهم الناشئة! وأخذوا بعض الأحاديث فأشاعوها وكتبوا ما يقيدها نحو قوله ﷺ: «تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع» وعدلوا بالسنة النبوية عن مواضعها وساروا بها في غير مسالكها فحرفوا معاني الأحاديث المتعلقة بمفهوم السنة والبدعة وبمفهوم التوحيد والشرك تحريف الغالين وأولوا النصوص تأويل الجاهلين وانتحلوا إرث النبي ﷺ انتحال المبطلين، وتكلموا في أحاديث الصفات فألحدوا وجسموا وشبهوا وجأؤوا بكل تخليط... وموقع الآية الأولى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا) في معرض نقضهم ميثاقهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه وإخفائهم الإسلام وصفات رسول الأنام وبعدهم عن الهداية إلى الصراط المستقيم يُبين سبب ادّعائهم إلهية المسيح، وينبه الأتباع على الخطأ ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال بأسلوب عميق التأثير يخاطب فطرتهم ويوقظ ضميرهم كي يستفيقوا من غفلتهم ويثوبوا إلى رشدهم ويثوروا على المتبوعين الذين أغرقهم في وحل شرك العبادة، والخطاب للمتبوعين على هذا النحو أزجر للأتباع، وأهز للقلوب منهم والأسماع. وحكاية القول عن بني إسرائيل ظاهرة في أن هذا قالوه صراحة إذ سرى لهم القول باتّحاد اللاهوت بناسوت عيسى إلى حدّ المبالغة في اعتقاد الحلول وأن الله سبحانه قد امتزج وجوده بوجود عيسى، وجاء الجواب بأن إهلاك المسيح أي موته وموت أمه وموت من في الأرض كلهم حقيقة مسلمة عند من ادّعوا الحلول والاتحاد، فأبطل ادّعاءهم وأقام البرهان عليهم ثم ذيل بقوله (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على

كل شيء قدير) وفي هذا ردّ آخر عليهم بأن الله مَلَكٌ ما في السماوات والأرض قبل أن يظهر المسيح وهو الذي خلق المسيح خلقاً غير معتاد وهو سبحانه يخلق ما يشاء وقدرة الله تعالى لا يعجزها ممكن ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة وهذا يقتضي إفراده تعالى بالربوبية ومن ثم كان الحق كل الحق ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة أن الذي يخلق هو الذي يحكم لا غيره كما قال جل شأنه **(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)** وقد أنطق تعالى عيسى عليه السلام بالحجة فأقر على نفسه بالعبودية له عز وجل حتى قال **(إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً)** ليقال لبني إسرائيل بطل قولكم في إلهية ابن مريم... ومفاد العبارة الأولى إقرار العبودية لله **(قال إني عبد الله)** لكيلا يشركوه بالعبادة ويتقولوا عليه الباطل، ومفاد العبارة الثانية **(آتاني الكتاب وجعلني نبياً)** إقرار الحكمة لله، ومفهوم الحكم لا يتأتى إلا بعلم الكتاب والنبوة.

وقد أشارت الآية **(قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)** إلى نهي أهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغلاة من أسلافهم الذين تأمروا على قتل المسيح فأضلهم الله ونعتهم بالضالين وأضلوا كثيراً من الأمم وضلوا عن سواء السبيل وهو مشرب الرسالة الحمديّة وتوحيد الربوبية... ودلّت الآيات على أن سبب إشراكهم بالعبادة وقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم وثالث ثلاثة: هو حيرتهم في أمر المسيح بعد محاولة قتله والمكر بدعوته وتبليسها بالباطل لأنه إذا تقرر التوحيد وتحقق سلطان الله في الأرض تزول عروش الظالمين وتنقشع الظلمات ويشرق النور ويتحقق العدل بين العباد وتنظم مصالح العالم وتنصلح

أحوال الأمم ويتلاشى الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد. روى الإمام أحمد عن سمرة بن جندب: أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إن الدجال خارج وهو أعور عين الشمال عليها ظفرة غليظة، وإنه يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، ويقول للناس: أنا ربكم، فمن قال: أنت ربي فقد فتن، ومن قال: ربي الله حتى يموت فقد عصم من فتنه ولا فتنة بعده عليه ولا عذاب، فليبت في الأرض ما شاء الله، ثم يجيء عيسى ابن مريم عليهما السلام من قبل المغرب مصداقاً بمحمد ﷺ وعلى ملته، فيقتل الدجال ثم إنما هو قيام الساعة» وروى أبو داود عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربع إلى الحمرة والبياض بين مُمَصَّرَتَيْن كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون» وفي سنن أبي داود عن عمران بن حصين مرفوعاً: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال» وفي صحيح الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» ووقع في بعض طرق الحديث: «أهل المغرب» قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: وهم أهل الشام. وروى الترمذي عن قرّة مرفوعاً: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» قال معاوية بن حيدة: يا رسول الله أين تأمرني؟ قال: «هاهنا» ونحنا بيده نحو الشام. وروى الطبراني عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «بيننا أنا نائم

رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فأتبعت به بصري فإذا هو قد عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا كانت الفتن بالشام» ثلاث مرات. وفي مسند الشاميين عن عبد الله بن حوالة عن النبي ﷺ قال: «تكون أجناد، جند بالشام وجند باليمن وجند بالعراق - والله أعلم بأيها بدأ - فعليكم بالشام - ثلاث مرات - فمن كره فعليه يمينه فليستق من غدره فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله» وفي المعجم الكبير للطبراني من حديث معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبرح عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يبالون من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله على ذلك» ثم نزع بهذه الآية (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة). والذين اتبعوه هم الذين اتبعوا الرسول النبي الأمي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل... وقد ذكر سبحانه في سورة يونس حال الفريقين ثم ثنى بإظهار نصرته لأوليائه فقال (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهؤلاء حملة منهج السلامة من الأنام وأمثلة الالتزام، همتهم مشغولة بأمر الآخرة، إن تبوؤوا منصباً فللخدمة وإن طلبوا علماً فإبراء للذمة وإن سعوا في مناكب الأرض فشكراً للنعمة، يصرفون الأموال والأوقات والجاهات لإصلاح ما فسد وإنقاذ ما تبدد. أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن وهب قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً وفرحهم بما أصابوا منها حزناً وما عارضهم من

نائلهما رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم
فليس يجدونها وخربت بينهم فليس يعمرونها وماتت في صدورهم فليس يحبوها
يهدمونها فينبون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ويرفضونها فكانوا
برفضها هم الفرحين وباعوها فكانوا يبيعها هم المربحين ونظروا إلى أهلها صرعى
قد خلت فيهم المثالات فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة يحبون الله تعالى
ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب! وعندهم الخبر العجيب! بهم قام
الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا
وليس يرون نائلاً مع ما نالوا ولا أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما
يخذرون. وفي سورة مريم ذكر تعالى وصية المسيح لبني إسرائيل في آيات بينات
ذيلها بقوله ﴿وَإِنْ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وقرأ بفصح الهمزة ﴿وَأَنْ﴾ والجملة
عطفٌ على قوله ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾، ما كان لله
أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ للدلالة على
أن القضية التي حملتهم على هذا الحال الفظيع في نسبتهم الولد لله هي أن المسيح
دعاهم إلى إفراء الله بالألوهية والربوبية فحاولوا قتله والفتك به فأحس بذلك
حسبما يفيد قوله ﴿وَجِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبِّي
وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ الآيات.
فمكر الله بهم وأضلهم وكانوا قد اتخذوا من أمر تكوين المسيح ذريعة إلى ترويح
باطلهم فأخبرهم تعالى أن مثله كمثل آدم ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ
خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾
والمخاطب الرسول ﷺ والمقصود من الكلام أهل الكتاب الممترون على طريقة
التعريض كما يقال «إياك أعني واسمعي يا جارة» ويحتمل أن يكون خطاباً

للمؤمن أي فلا تكن أيها المؤمن من الشاكين فيما اعتقدوه من أمر المسيح وإن زاد إخفاؤهم له وإظهارهم لما يوههم خلافه وإذا حاربتهم في ذلك وأنت أفطن الناس وأعرفهم تحققت ما قلناه وإن اجتهدوا في الكتمان! والمقصود من الكلام - والله أعلم - هو الإعلام بإنكارهم لهذه المعجزة وتلييسهم الحق بالباطل وتبديلهم التوحيد الذي تقدم بقوله ﴿إِن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ وما يأتي بقوله ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ وما بينهما استدلال على طريقة أهل الكتاب في الإضلال ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ فالكلام ينتقل منه إلى لازمه وهو توبيخ الذين جعلوا من أمر تكوين المسيح ابن مريم أن يبدلوا رسالته بعقيدة التجسيد والحلول والتثليث ويفسدوا عقائد المسلمين بزعمهم أن ذات الله تعالى في السماء! والمسيح يعلل القول بتوحيد الألوهية والربوبية ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ ولا نفهم هذا التعليل إلا حين ندرك معنى العبادة التي يخص بها الله وحده، وجملة ﴿فاعبدوه﴾ متفرعة عن الجملة الأولى على وجه تكميل التعليل للأمر بعبادته دون غيره، إذ لا يمكن تحقيق توحيد العبادة إذا كانت الألوهية والربوبية لغير الله، وموقع العبادة موقع النتيجة من الدليل، والمعنى: الله ربي لا غيره، وهذا إعلان بحقيقة الوجدانية، وقد وقع الأمر بالعبادة مرتباً على ذكر وصف الألوهية والربوبية فدلّ على أنه إنما تلزمنا عبادته لكونه صاحب الألوهية والربوبية كما وقع في الآية الأخرى ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ والإشارة بقوله هذا أي القول هو الطريق المستقيم الذي يفضي بقائله ومعتقده إلى النجاة كما حكى تعالى قول يوسف عليه السلام ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفَعِي يَدَيْكَ وَأَمْشِي عَلَى الْمَدِينَةِ وَاصْرُفِي عَنْكَ الصَّلَاةَ إِنَّكَ رَافِعٌ يَدَيْكَ وَأَمْشِي عَلَى الْمَدِينَةِ وَاصْرُفِي عَنْكَ الصَّلَاةَ إِنَّكَ رَافِعٌ يَدَيْكَ وَأَمْشِي عَلَى الْمَدِينَةِ﴾
وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ في الآية تقديم وتأخير
تقديره: "إني رافعك إليّ - أي إلى محل كرامتي - ومطهرك من الذين كفروا
ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا" والواو لا تقتضي الترتيب ومثله من التقديم
والتأخير كثير في القرآن الكريم وإنما قدم ذكر الوفاة لنفي إلهيته ﷻ وإثبات
بشريته والله تعالى أعلم وأحكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ مفاد قوله ﴿رَبِّي﴾ إظهار
العبودية لله لكيلا يشركوه بالعبادة ويجعلوه مربوباً ويتقوّلوا عليه الباطل
فيقولون: هو الله وابن الله وثالث ثلاثة، ومفاد قوله ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ إظهار الحكمية لله
لكيلا يشركوا في الحكم، ولما كان ذلك التوحيد مما أجمع الرسل على حقيقته
ودعوا الناس إليه كان آية دالة على رسالته، إذ أن بيان الوجدانية والاهتداء
للطريق المستقيم عن نشأ بين قوم غيروا دينهم وحرفوا كتب الله المنزلة وقتلوا
أنبياءهم، ولم يكن ممن تعلم من بقايا أخبارهم من أعظم المعجزات. روى الإمام
مسلم عن عبد الله بن قيس قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدَاءً وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ
وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ» وروى الشيخان عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله:
قال رجل يا رسول الله: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أَنْ تَدْعُو اللَّهَ نِدَاءً وَهُوَ
خَلْقُكَ». وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى عن فهم دعوة المسيح ﴿اعْبُدُوا
اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وعبادة الله وحده في التاريخ البشري كله، قامت على حقائق
أساسية واحدة: هي الحكم لله وحده بلا شريك، والسلطان له وحده بلا
منازع، والتلقي عن رسل الله وحدهم، والبشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي

يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يعبدوا الله وحده، والعبادة لا تتحقق إلا إذا عُرِفَت الوجدانية، ولذلك لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً ﷺ إلى اليمن قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم...» الحديث. وهذه الرسالة حملها المرسلون كما وردت في سورة يس ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ وقد بينها المولى سبحانه على لسان رجل جاء من أقصى المدينة إشارة إلى أن الحنيفية في أهل ربض المدينة إذ أن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأخبارها وهم أبعد عن الحنيفية والنظر في صحة دعوة الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائهم لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الفطرة ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون، ءأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون، إني إذاً لفي ضلال مبين، إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ ومثل هذا الرجل الصالح كمثل عروة بن مسعود الثقفي الذي هو أشبه الناس بسيدنا عيسى عليه السلام فقد روى الطبراني والحاكم عن عروة بن الزبير قال: لما أتى الناس الحج سنة تسع قدم عروة بن مسعود الثقفي عم المغيرة بن شعبة على رسول الله ﷺ فاستأذن رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك» قال: لو وجدوني نائماً أيقظوني فأذن له رسول الله ﷺ فرجع إلى قومه مسلماً فقدم عشاء فجاءته ثقيف فدعاهم إلى الإسلام فاقهموه وعصوه وأسمعوه ما لم يكن يحتسب ثم خرجوا من عنده حتى إذا أسحروا وطلع الفجر قام عروة في داره فأذن بالصلاة وتشهد فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله فقال رسول الله ﷺ: «مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه» وروى ابن جرير

عن قتادة قال: ذكر لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية مدينة بالروم فكذبوهما فأعزهما بثالث. وقصة أصحاب القرية واسطة عقد يس وعليها مدار آياتها بل هي قلب يس، ويس قلب القرآن كما جاء في مسند الشهاب مرفوعاً: «**إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس فمن قرأ يس كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرار**» وروى الدارمي في سننه عن عطاء بن أبي رباح قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ يس في صدر النهار قضيت حوائجه**».

(**إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون**) الضمير عائد إلى المذكور السابق وهو قوله "بالمجرمين" الذين اتخذوا مردة الشياطين آلهة مع الله في الحكم، والكلام متصل بقوله تعالى (**إن إلهكم لواحد**) إلى قوله (**ما لكم لا تنصرون**) ولما أخبر أنهم استكبروا على توحيد الإله، أتبعه الإخبار بأنهم تكلموا في رسوله ﷺ بما لا يرضاه فقال (**ويقولون أننا لتأركوا آلهتنا لشاعر مجنون**) ومرادهم بذلك أن كلامه باطل فإن أكثر كلام الشاعر غلو وكذب وتخليط! وحتى يعلم المسلم تحريف أهل الكتاب لتوحيد الإلهية نورد بعض ما جاء في الأجوبة النجدية: فقولك: لا إله إلا الله نفي وإثبات فتنفي الألوهية كلها وتثبتها لله وحده فمعنى الإله في زماننا: الشيخ والسيد الذي يقال فيهما أو غيرهما: سر من يعتقد فيهم أنهم يجلبون منفعة أو يدفعون مضرة فمن اعتقد في هؤلاء أو غيرهم نبيا كان أو غيره فقد اتخذها إلهاً من دون الله. وجاء في الرسالة الرابعة: فإذا قيل لك: إيش الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؟ فقل: توحيد الربوبية فعل الرب مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات النبات وتدبير الأمور، وتوحيد الألوهية فعلك أيها العبد مثل الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والإنابة

والرغبة والرغبة والنذر والاستغاثة وغير ذلك من أنواع العبادة. وجاء في الأجوبة النجدية: وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله تعالى بهم هو الذي أحل دماءهم وأموالهم عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله! ثم نقضوا ما غزلوا وعادوا ليقولوا في موضع آخر: بل الظاهر عندنا وعند غيرنا أن شركهم اليوم أعظم من ذلك الزمان بل قبل هذا كله أنه مكث أهل الأرض عشرة قرون على التوحيد حتى حدث فيهم الغلو في الصالحين فدعواهم مع الله فكفروا فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد فتأمل ما قص الله عنهم وكذلك ما ذكر الله عن هود: أنه دعاهم إلى إخلاص العبادة لله لأنهم لم ينازعوه في أصل العبادة وكذلك إبراهيم دعا قومه إلى إخلاص التوحيد وإلا فقد أقروا لله بالإلهية! وجاء في الرسالة المفيدة: والأصل الثاني: وهو توحيد الألوهية، فهو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه، وهو: توحيد الله بأفعال العباد كالدعاء والرجاء والخوف والخشية والاستعانة والاستعاذة والمحبة والإنابة والنذر والذبح والرغبة والرغبة والخشوع والتذلل والتعظيم. وقال عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: وأما توحيد الإلهية الذي جحده مشركوا قريش والعرب ابتداء فما عرفوا التوحيد وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم فلهذا وقع الأكثر في الشرك الأكبر المنافي لهذا التوحيد بدعوتهم الأموات في الرغبات والرهبات والاستغاثة بهم في المهمات فإذا لم ينكر العلماء هذا الشرك ولا عرفوا الإخلاص الذي هو الدين الذي شرعه الله للأنبياء والمرسلين وقعوا في الشرك وتبعهم على ذلك الخلق الكثير والجم الغفير. انتهى.

وهذا أسلوب الأئمة المضلين في مقاومة الحق! يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، نعوذ بالله من استحقاق المقت. إن أهل الكتاب لا يقفون عند حد التكذيب بتوحيد الإلهية وفق المفهوم الصحيح، إنما هم كذلك يسعون إلى إضلال الناس عن هذا التوحيد الذي يصوغ على وفقه حياة البشر، وقد أخبر الحق بكفرهم بالآيات الدالة على وحدة الألوهية فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ومن هذا القبيل عامة ما وقع في التنزيل من قوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقوله عز وجل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ إلى غير ذلك من النظائر. وكشف الحق عن استهزائهم ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأخبر سبحانه عن حرمانهم الهداية بسبب كفرهم بالآيات الدالة على وحدة الألوهية ثم أردف بذكر افتراءهم الكذب ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) والمفسد العليم غايته أن يحو العقيدة من أذهان المسلمين وأن ينتزع منهم نور الوجدانية ودلائلها ليحل محلها الإلحاد.

الفصل الثالث:

وما من إله إلا إله واحد

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) لما بين تعالى في الآية المحكية أنفاً صنفاً من ضلالهم في أمر المسيح بعد تأمرهم على قتله وتحريفهم توحيد ربهم وجدالهم في دعوة منقذهم القائل (اعبدوا الله ربي وربكم) ذكر هنا صنفاً آخر من ضلالهم وتحريفهم توحيد الإلهية وكتماهم حقيقتها فقال (وما من إله إلا إله واحد) وتوحيد الإلهية هو الأصل الذي يتفرع عنه توحيد العبادة كما حكى تعالى (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) وقال سبحانه (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) أي فيما أوحى إلي أفراد الله بالإلهية وفرّع عليه الاشتغال بالعمل الصالح والنهي عن الإشراف بالعبادة. وسوق عقيدة التثليث تدل على ضلالهم إذ نعتهم الله تعالى بالضالين بسبب محاولتهم قتل رسولهم المسيح وإنكارهم دعوة الحق ومعارضتهم توحيد الإلهية فادّعوا هذه المقالة العظيمة واتخذوا من أمر تكوين المسيح ذريعة إلى ترويج باطلهم وتلبس توحيد الربوبية والألوهية بشرك العبادة! والله در الأبوصيري حيث يقول:

حَبْرُونَا أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ مِنْ أَيْ... مَنْ أَتَاكُمْ تَنْثِلِيكُمْ وَالْبَدَاءُ

مَا أَتَى بِالْعَقِيدَتَيْنِ كِتَابٌ... وَاعْتِقَادٌ لَا نَصَ فِيهِ ادِّعَاءُ

وَالدَّعَاوَى مَا لَمْ تَقِيمُوا عَلَيْهَا... بَيْنَاتُ أُنْبَاؤِهَا أَدْعِيَاءُ

ليت شعري ذكر الثلاثة والوا ... حد نقص في عدكم أم نماء

كيف وحّدتم إلهاً نفى التو ... حيد عنه الآباء والأبناء

أإله مركب ما سمعنا ... بإله لذاته أجزاء

ألكلٍ منهم نصيبٌ من المُلـ ... لك فهلاًّ تميّز الأنصباء

أم هم حللوا بها شركة الأب ... —دان أم هم لبعضهم كفلاء

أتراهم لحاجة واضطرار ... خلطوها وما بغى الخلطاء

إن قولاً أطلقتموه على اللـ ... —ه تعالى ذكراً لقول هراء

وعقيدة التثليث هذه لم تكن في زمن المسيح البتة وإنما شرعها الذين جاؤوا من بعده أتباعاً لأهوائهم وتخديراً لأتباعهم وسلماً لمحادّة ربّهم، وقد وُصف المسيح في الإنجيل بثلاث صفات: صفة الرسالة أي أنه رسول الله، وأنه كلمة الله، وأنه روح الله، فأساووا الفهم في هذه العبارات وتسرّب الضلال إليهم وتجاوزوا الحدّ فجعلوا الرسالة البنوّة، وجعلوا الكلمة اتحاد اللاهوت بعيسى، وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس اللاهوت، وقالوا: هو جوهر واحد وثلاثة أقانيم، فالأقنوم الأول أقنوم الذات وهو الآب، والأقنوم الثاني أقنوم العلم وهو الابن، والأقنوم الثالث أقنوم الروح القدس وهو صفة الحياة، وهذا أصل التثليث عندهم وعنه تفرعت المذاهب الثلاثة المشار إليها في الآية... وقد حكى القرآن أن المسيح رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ومعنى (كلمته) أنه أثر كلمة الله، والكلمة هي التكوين المعبر عنه في الاصطلاح بـ(كن) التي ألقاها الله إلى مريم، ونُسبت الروح إلى الله لأنها وصلت إلى مريم بدون تكوّن في نقطة، وقد تأوّل القوم هذه العبارات وحرّفوها

وبثوا الخلاف في شرك العبادات وأقاموا حكمهم على ذلك. روى الشيخان عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» ولما أبطل تعالى الشرك كله وأثبت التوحيد على وجه عام، أتبع ذلك تخصيص ما كفر به المخاطبون بالإبطال فقال سبحانه على وجه الحصر في الرسالة رداً على من حرّف الحكمية واعتقد في المسيح الإلهية ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله جاء بما جاءت به من التوحيد، وأرسل لتقرير حكم الله وجاء بآية عظيمة دالة على توحيد الله وإفراده بالسلطة العليا والطاعة المطلقة، والكلام مسوق للرد على الذين أنكروا رسالته مثلما أنكروا رسالة سيدنا محمد ﷺ وزعموا أن الكفار في زمنه أقرّوا توحيد الربوبية! وقد بين القرآن أن سيد الرسل ليس بدعاً من الرسل بل جاء بما جاءت به الرسل ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ وكلهم مجمعون على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته كقوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي نفرّ بأنهم على دين واحد في الدعوة إلى توحيد الله تحقيقاً للحق وتخطئة لأهل الكتاب المفرقين بين الرسل، وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بالرسل. ولما أظهر تعالى رسالة المسيح، أردف بإيضاح سبيل المجرمين في المكابرة وقلب الحقائق وصرفها عن جهة الصواب، وبيّن أن أكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح وأمه الصديقة وهي دليل على بشرية المسيح وأمه، فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مرأى فيها ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش، ونظراً لوضوح هذا

المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها عاقل فإنه يعقب عليه بإنكار موقفهم الذي ساقهم إلى منازعة سلطان الله والتعجب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين **(انظر كيف نبين لهم الآيات)** وقد كرر الأمر في قوله **(ثم انظر أني يؤفكون)** بالنظر لاختلاف المتعلق لأن الأول: أثر بالنظر في كونه تعالى أوضح لهم الآيات وبينها بحيث لا يقع معها لبس، والأمر الثاني: هو بالنظر في كونهم يصرفون عن استماع الحق وتأمله ويقبلون ما يُبَيِّن لهم إلى الضد منه وهذان أمران تعجب! ودخلت ثم لتراخي ما بين العجيب وكأنه يقتضي العجب من توضيح الآيات وتبيينها، ثم ينظر في حال من بُيِّن له فيرى إعراضهم عن الآيات أعجب من توضيحها لأنه يلزم من تبيينها تبيينها لهم والرجوع إليها، فكأنهم أفكوا عنها أعجب! ولما نفى تعالى عن المسيح وأمه الصلاحية لرتبة الإلهية للذات، أتبعها نفى ذلك من حيث الصفات فقال **(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا)** قال صاحب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: الموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وإيثاره على كلمة من لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزل من الألوهية رأساً ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه لكنه لا يملكه من ذاته. اهـ. ويمكن أن يكون المراد الترقى من توبيخهم على عبادة المسيح وأمه إلى توبيخهم على عبادة إبليس وجنوده والله أعلم، وتقديم الضر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير، وذكر النيسابوري أن أكثر ما جاء في القرآن إذ يؤتى بالضر والنفع معاً تقديم لفظ الضر على النفع وهو الأصل لأن العابد إنما يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم يعبد طمعاً في ثوابه كما يشير إلى ذلك قوله

تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وحيث تقدم النفع على الضر كان ذلك لسبق لفظ تضمن معنى نفع كما في سورة الأعراف حيث تقدم لفظ الهداية على الضلال في قوله تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وفي الرعد تقدم ذكر الطوع في قوله سبحانه ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وهو نفع، وفي الفرقان تقدم العذب في قوله جل وعلا ﴿هَذَا عَذَابٌ فَرَاتٍ﴾ وهو نفع، وفي سبأ تقدم البسط في قوله تبارك اسمه ﴿رَبِّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ وليقس على هذا غيره، وابن جريح يفسر النفع في قوله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بالهدى والضر بالضلال، وبه تقوى نكتة التقديم التي اعتبرها هذا الفاضل فيما نحن فيه كما لا يخفى. انتهى. وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ حال من فاعل أتعبدون مؤكد للإنكار والتوبيخ ومقرر للإلزام والتبكيك والرباط هو الواو أي تشركون بالله تعالى ما لا يقدر على شيء من ضرركم ونفعكم والحال أن الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائغة والأعمال السيئة وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التي من جملتها مضاركم ومنافعكم في الدنيا والآخرة.

الفصل الرابع:

فلما جاءهم بالبينات قالوا هَذَا سِحْرٌ مبين

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) الآية تتضمن رسالة التوحيد في التوراة والإنجيل والقرآن، وتتضمن الإسلام الذي دُعُوا إليه في أحص خصائصه ومعانيه، وكلام المسيح صريح في أنه تعالى لم يرسله إلى الأمم من الروم والفرس العجم وإنما أرسله إلى الأمة الإسرائيلية التي تخادع الإنسانية وأن دينه التصديق بالتوراة والبشارة بالسيد الممجد أحمد ﷺ وهو من الدواعي إلى تصديقه لأن بشارته به ﷺ واقعة في التوراة أي أرسلت إليكم في حال تصديقي للتوراة وفي حال بشارتي برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد أي أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه من تقدم ومن تأخر، قال الإمام القشيري قدس سره: كل نبي بشر قومه نبينا ﷺ وأفرد الله عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهى إلى عيسى ﷺ. وفي زبور داود ﷺ من مزمور أربعة وأربعين: «فاضت النعمة من شفئك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرجون تحتك» فهذا المزمور يبشر بمحمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنّها، ومعنى قوله: "الجبار" أي الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبراً. وفي اسمه أحمد إشارة إلى كونه فاتحاً وخاتماً لأن الحمد مشروع عند افتتاح الأمور واختتامها وتمامها. وفي إنجيل يوحنا قول المسيح في الإصحاح الرابع عشر: «فهو يُعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما

قلته لكم» أي يعلمهم ويذكرهم كل ما قاله المسيح ﷺ لهم وكل ما أمرهم به من توحيد الله ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ وهذا دليل على إلزام بني إسرائيل الزيف والمعنى فلما جاءهم عيسى أو محمد ﷺ بالبينات أي من المعجزات العظيمة التي لا يسوغ لعقل إلا التسليم لها ومن الكتاب المبين قالوا عند مجيئها من غير نظرة لتأمل ولا غيره هذا المأتي به من البينات أو الآتي بها على المبالغة كما دل عليه القراءة الأخرى ﴿ساحر مبين﴾ وفي هذا اعتراف بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ولكنهم يسمونه بما قالوا تمادياً في العناد كما هو دأب المكابر اللجوج وديدن المفحم المحجوج! ولما وصفوه ﷺ بالساحر بعد قيام الدليل على كونه فاتحاً لهم وخاتماً عليهم، عطف عليه قوله ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ أي لا أحد أظلم من هؤلاء، وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم تظاهروا بالإسلام استهزاء وسمّوا الآيات وحججها سحراً، وظلموا الناس بحملهم على الشرك وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن! فالرسالة واحدة والتكذيب واحد والاتهامات واحدة، وفي قوله ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تأسيس لهم من الإقلاع عن هذا الشرك، أي أن الذين بلغوا هذا المبلغ من الشرك لا طمع في صلاحهم لتمكّن الكفر منهم حتى خالط سجاياهم... وقد دلت الآية ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ على وحدة رسالة التوراة والإنجيل والقرآن في الدعوة إلى توحيد رب البرية واتباع سيد البشرية كما قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول

الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله) وقد جاء التعبير بصيغة الجمع في كلمة (ورسله) دون قوله: ورسوله، رداً على أهل الكتاب الذين فرّقوا بين الرسل، والمعنى: لا تكفروا بواحد من رسله وهذا بمنزلة الاحتراس عن أن يتوهم متوهم أن رسالة المسيح تختلف عن رسالة غيره من الرسل. روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» والمعنى أن الأنبياء كلهم متساوون فيما بعثوا لأجله من أصول التوحيد وليس لأحد اختصاص منه، لكنه ﷺ أخص الناس بعيسى لأنه كان مبشراً به قبل بعثته وممهداً لقواعد ملته ثم في آخر الزمان متابع شريعته وناصر لدينه فكأنهما واحد، والدنيا والآخرة يحتمل أن يراد بهما الحالة الأولى وهي كونه مبشراً، والحالة الآخرة وهو كونه ناصراً مقوياً لدينه بعد نزوله، ويحتمل أن يراد بالآخرة: حين يجمع الله الرسل فيقول ماذا أحببتم؟ كما حكى تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أحببتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) والغرض بالسؤال تبكيك وتوبيخ المكذبين الذين لبسوا الحق بالباطل وتعدى طعنهم إلى جلال الله وكبريائه ووصفه تعالى بما لا يليق بعاقل أن يصفه به، فالرسل يكلون الأمر إلى علم الله وإحاطته بما كابدوا من المكذبين وما أحدثوا بعدهم، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي رسله عليهم، والخطاب وإن كان لجميع الرسل إلا أن المراد ابن مريم ابتداء حيث عدّد تعالى نعمه عليه بحضرة الرسل واحدة فواحدة، والمقصود منه توبيخ بني إسرائيل والله أعلم. وفي الحديث السابق دليل على كون المسيح مبشراً به ﷺ قبل بعثته، مؤيداً لمضمون رسالته، ممهداً لحكمه

في آخر الزمان، تابعاً لشريعته، ناصراً لدينه، يراه الناس في المرأة المحمدية التي هي أكمل المرايا. روى الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» فهل يرجع أصحاب ميثاق الدرعية إلى دين سيدنا محمد ﷺ؟ روى أبو نعيم في الحلية عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ في التوراة: «أبلغ جميع بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد لأحمد سلطت عليه الزبانية في الموقف وجعلت بيني وبينه حجاباً لا يراني ولا كتاب يبصره ولا شفاعة تناله ولا ملك يرحمه حتى تسجبه الملائكة فيدخلوه ناري، يا موسى بلغ بني إسرائيل أنه من آمن بأحمد فإنه أكرم الخلق عليّ، يا موسى بلغ بني إسرائيل أنه من صدق بأحمد وكتابه نظرت إليه يوم القيامة، يا موسى بلغ بني إسرائيل أنه من رد على أحمد شيئاً مما جاء به وإن كان حرفاً واحداً أدخلته النار مسحوباً» وروى ابن أبي شيبة عن مغيث قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ توراة محدثة، فيها نور الحكمة وينابيع العلم لتفتح بها أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً، وهي أحدث الكتب بالرحمن» وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: «مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه» قال: فقال أبو مودود: وقد بقي في البيت موضع قبر. وروى أبو يعلى وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن عيسى ابن مريم ثم لنن قام على قبري فقال: يا محمد لأجيبنه» وروى الحاكم وصححه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليهبطن عيسى ابن مريم حكماً وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً فجاً حاجاً أو معتمراً وليأتين قبري حتى يُسلم عليّ ولأردن عليه» وهذا كله يبين أنه ﷺ حي

في قبره الشريف حياة أعظم وأكبر من حياة الدنيا والشواهد على ذلك كثيرة وشهيرة. وفي صحيح الإمام البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن هذه الآية التي في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأمين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً. وعند ابن إسحاق: ولا سخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخناء، أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس. ومعنى قوله: "وأسمي به بعد النكرة" أي أعرفهم ما جهلوه من التوحيد. وهذه الآيات والآثار تثبت حقيقة الدين الذي جاء به أنبياء بني إسرائيل، كما تثبت تحريف النصوص التي يدلي بها أصحاب الدعوة الوهابية! ووصية المسيح في الآية ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداق لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ وردت عقب شكاية موسى أذاهم من انتقاصه وتكذيبه والاستهزاء به وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه وشكايته

إشراكهم في الحكم والعبادة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا تَدْعُونَ اللَّهَ بِهِ لَا يَتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ مَا تَشَاءُونَ﴾ (البقرة: 175) تعلمون أي رسول الله إليكم فلما زاعغوا أزاع الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿وَالكَلَامُ لِلْمَنَّافِقِينَ﴾ (البقرة: 205) بقريضة قوله قبله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: 213) وروى عن الحسن وابن زيد أنها نزلت في المنافقين وتقدير الكلام: يا من آمنتم بظاهر أحوالكم لم تخالفون بقلوبكم وأفعالكم؟ ولما ادَّعوا التوحيد كذبهم سبحانه في دعواهم فقال كاشفاً الستر الذي أرخاه كشفاً واضحاً وهاتكاً بعضهم البيان هتكاً فاضحاً مبيناً تحريفهم ومخالفتهم أمر المسيح ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (البقرة: 256) جاء في الرسالة التاسعة والعشرين ما نصه: من محمد بن عبد الوهاب إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فاعلموا رحمكم الله أن الله بعث محمداً ﷺ إلى الناس بشيراً ونذيراً مبشراً لمن اتبعه بالجنة ومنذراً لمن لا يتبعه بالنار وقد علمتم إقرار كل من له معرفة أن التوحيد الذي بينا للناس هو الذي أرسل الله به رسله حتى كل مطوع معاند يشهد بذلك وأن الذي عليه غالب الناس من الاعتقادات في الصالحين وفي غيرهم هو الشرك الذي قال الله فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾!!! ولا ندري متى صار إبليس مذكراً؟ ومن الرزية عاهرٌ مُتَوَهِّمٌ في الناسكين وناسكٌ في العُهَرِ... والملاحظ أن عدو الله ساق آية المسيح نفسها وهذه طريقة أحبار بني إسرائيل في قتل وقلب وليّ نصوص الكتب السماوية! فتارة يقلبون الآيات التي نزلت فيهم ويجعلونها في حق المسلمين وتارة يكتمون وتارة يحرفون وتارة يأمرون الناس بالرّ و ينسون أنفسهم وتارة يلبسون

الحق بالباطل وهذا واضح في دروسهم ورسائلهم وفتاواهم، وهي طريقتهم في تلقي أوامر الله سبحانه! يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً! يزينون العبارات ويطلقون ألسنتهم بالكذب تليساً على العوام وترويحاً على الأغمار وأهل البداية، ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، لكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين! دأبهم إكفار المسلمين وإبعادهم عن سيد المرسلين والطعن في الصالحين! وهل كان أهل الكتاب أحرص على الأمة المسلمة من رسول الله ﷺ وهو القائل كما جاء في الصحيحين: «**وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي**» وروى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: «سألت أبا جعفر هل في هذه الأمة كفر؟ قال: لا أعلمه، ولا شرك، قال: قلت: فماذا؟ قال: بغي» والحق أن أهل الكتاب لم يتسلطوا على الأمة إلا بعد إبعادها عن الصالحين وعن جناب سيد الحكماء الربانيين واستبعادها بدعوى توحيد رب العالمين! روى الإمام الطبراني عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن يضعه على غير موضعه**» وهذا الحديث صادق عليهم، وكلمات الله تفضحهم وترجمهم كالشهب المحرقة، قال تعالى **(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)** أي لا يأتونك بدليل يريدون صرفه عن معناه إلا جئناك في مقابلته بالجواب الثابت الذي ينحي عليه بالإبطال واستحضارنا لك الحق، ومعنى كونه **(أحسن)** أنه أحق في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجتهم حُسن أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفستهم وشبههم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعاً في نفوس السامعين

من مغالطاتهم فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته، فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل. ولما كان المقصود من القرآن دعوة العباد إلى المعبود وكانت أمة بني إسرائيل أعتى الأمم على ربها وأشدّها تدليساً وبهتاً وكذباً وفسقاً، أشبع سبحانه الكلام في تعريفه في القرآن وأنهى البيان في سورة الإخلاص إلى حدٍّ لا مزيد عليه في إثباتٍ وتنزيهٍ ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ وهما ركنان في توحيده تعالى كما في الآية ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وهو سبحانه لا مثل له يساهمه ويساويه، ولا ضد له فينازعه ويناويه، ليس بجسم مُصَوَّر، ولا جوهر محدد مقدّر، ولا يُشبهه شيئاً، ولا يُشبهه شيء، ولا يحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات، كان قبل أن كَوَّن الأكوان، ودبّر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان وإن الله تعالى الذي ليس كمثله شيء هو الظاهر وهو الذي أظهر جميع الظواهر كالشمس والقمر والذي أظهرها أشد ظهوراً منها ولذلك فإن العقل يختار لما يبحث في حقيقة الله تعالى وذاته لا أنه اعتراه الشك في وجود الله تعالى وقد نهي الله تعالى عن التفكير في ذات الله تعالى فقال ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ولا يمكن للعقول والإدراكات أن تنتهي إلى إدراك حقيقة ذات الله تعالى لأنه سبحانه لا نهاية له في ذاته وصفاته وأنه إليه المنتهى وأنه بكل شيء محيط وأن للمحاط أن يخرج من حیطة الله تعالى ليحيط به ولذلك قال تعالى ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ أي ولا يحيطون بعلم اسم من أسمائه أو صفة من صفاته سبحانه وتعالى ولم تعرف الخلائق عن صفات ربها وأسمائه إلا ما علمها وعلى حسب ما يتسعون لعلمه ولكنه سبحانه أجل وأعظم وأعلى من ذلك قال تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ والمعنى ما عرفوا مقتضى مقام الألوهية كما هو ولم

يعظموه بمقتضى ذلك المقام ولا أحد قدر أن يعظم ما يقتضيه مقام الألوهية منه ولذلك لم يكلفهم سبحانه أن يقوموا بمقتضى مقام الألوهية من العبادة بل كلفهم بالعمل بما يطيقون...

(إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) مناسبة هذه الآية لما قبلها أن في خيانة الأمانة إبطالاً للعهد، والكلام استئناف قصد منه ذكر الخلق الجامع لشتات مساوئ أهل الكتاب دعا إليه قوله "ودت طائفة من أهل الكتاب" وما بعده... وقد جرت أمثال هذه الأوصاف عليهم مفرقة في سورة البقرة التي حكّت أحوالهم وحددت صفاتهم... وعهد الله هو ما عهد به أي ما أوصى برعيه وحفاظه وفسر بالعهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً وكتبهم قد صرحت بعهود الله تعالى لهم وأنحت عليهم نقضهم لها وجعلت ذلك إنذاراً بما يحل بهم من العذاب... ومعنى "ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة" غضبه عليهم إذ قد شاع نفي الكلام في الكناية عن الغضب وشاع استعمال النظر في الإقبال والعناية ونفي النظر في الغضب فالنظر المنفي هنا نظر خاص وهاتان الكنيتان يجوز معهما إرادة المعنى الحقيقي، وقوله "ولا يزكيهم" أي لا يطهرهم من الذنوب ولا يقلعون عن آثامهم لأن من بلغ من رقة الديانة إلى حد أن يشتري بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً فقد بلغ الغاية القصوى في الجرأة على الله فكيف يرجى له صلاح بعد ذلك. قاله صاحب التحرير والتنوير. قلت: وما هم اليوم إلا من عرفناهم بالأمس فقد كتموا ما عهده الله إليهم وحادوا عن الطريق السوي وحرفوا معاني القرآن بالتأويلات الفاسدة وأوقعوا في كتبهم

التبديل في الألفاظ والمعاني فصار فيهما من كثرة التناقض في الأخبار ونسبة أشياء إلى الله تعالى وإلى أنبيائه ما ينزه العاقل نفسه عن أن يتصف بشيء منها فضلاً عن منصب النبوة! وحلفوا أنها من عند الله لطلب الرياسة واستتباع الأمم! ومن بلغ من رقة الديانة إلى حد أن يشتري بعهد الله وإيمانه ثمناً قليلاً فقد بلغ الغاية القصوى في الجرأة على الله! وأهل الكتاب أشد الناس مقاومة لهدي كتاب الله! حرفوا معاني القرآن وغيروا ألفاظ التوراة والإنجيل بأقلامهم المعوجة وألحقوا بها ما ليس منها كما قال جل وعلا ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ والكلام هنا عائد على المنافقين والفاء للترتيب فيكون ما بعدها مترتباً على ما قبلها من قوله ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد فرتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة وزيادة استفظاع حالهم، ومعنى ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أنهم يكتبون شيئاً لم يأثم من رسلهم بل يضعونه ويتكبرونه كما يرشد إليه قوله ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ إذ يكذبون على الله ويضمون إلى الكذب الإضلال، ويضمون إليهما حب الدنيا وتحصيلها بالاحتيال، ويضمون إلى ذلك الاستهزاء والجدال، ويمهدون طريقاً في الكفر، باقياً على وجه الدهر... والإتيان بفعل ﴿يكتبون﴾ مضارعاً للدلالة على أن ذلك متكرر من آبائهم ومتجدد منهم وأنهم لا يفترون عنه، وقد مكث أولياء الشيطان في الدرعية عشرات السنين يكتبون بأيديهم قراطيس وأناجيل يحرفونها اقتداءً بأفعال آبائهم ويرسلونها إلى أتباعهم، كما كتبوا رسائل وفتاوى يبدلون فيها معاني القرآن ويخادعون بها أهل الإسلام!

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «سنة لعنتهم
 ولعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمسَلَط
 بالجبروت ليدل بذلك من أعز الله وليعز به من أذل الله، والمستحل لحرم الله،
 والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك لسنتي» والمراد بالزائد في كتاب الله:
 من يدخل في كتاب الله ما ليس منه أو من يحرف معناه أو لفظه كأهل الكتاب
 الذين حرفوا كتابهم... وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي
 الله عنهما قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على
 رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب
 بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله
 ليشتروا به ثمنا قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما
 رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وفي رواية للإمام عبد الرزاق
 عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزل
 عليكم بين أظهركم محض ولم يشب؟ فهو أحدث الأخبار بالله وقد أخبركم الله
 عن أهل الكتاب أنهم كتبوا بأيديهم كتباً ثم قالوا: هذا من عند الله ليشتروا به
 ثمناً قليلاً فبدلوها وحرفوها عن مواضعها أفما ينهاكم ما جاءكم من الله عن
 مسألتهم؟ فوالله ما رأينا أحداً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم. وفي رواية له
 عن عبد الله أنه قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد
 ضلوا فتكذبوا بحق وتصدقوا الباطل وإنه ليس من أحد من أهل الكتاب إلا في
 قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه كتالية المال.

وفي فاتحة سورة الصف تعريض بأهل الكتاب الذين ناقضت أفعالهم أقوالهم
 وتحريض على قتالهم، وأشار المقام إلى مكائدهم في إبطال أمر الله وإطفاء نور

الحق ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يحتالون أن يطفئوه بأسباب يتكلفونها ويحتالونها وهذا دأب المنافقين المعادين لرسول الأنام ودين الإسلام فإنهم فتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس عن مناقضة المحكم بالمتشابه وحرّفوا معاني الكتاب والسنة عن مواضعها إلى مقاصدهم الفاسدة واعتمدوا على شبهات من وسواس الشيطان وخيالاته يقذفها في القلوب وقابلوا الحجة بالحجة لطلب المغالبة بالباطل فغلبوا بزخرفتهم وتوجيههم عقائدهم الزائفة على بعض العقول القاصرة فأضلّوها وحملوا الآيات والأحاديث التي نزلت فيهم على المؤمنين، والكلام في الآية الكريمة تمثيل لحالهم في اجتهادهم في إبطال دين الملك الأعلى الذي له الإحاطة العظمى بكلامهم ورسائلهم الزائفة المزخرفة الموهبة في محاولة إطفاء شعاعه في قلوب المؤمنين بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها، ولا تزال بحمد الله إلى قيام الساعة طائفة على الحق في زيادة الإيمان تحت أشعة أنواره وفي بركة لمعان أسرارهم المستفادة من أخباره والمستفاد من آثاره ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ وقرئ ﴿مُتَمَّ نوره﴾ والمراد بنور الله دينه الحق على سبيل الاستعارة التصريحية والله أعلم، وتمام النور: حصول أقوى شعاعه، وإتمامه: إمداد آله بما يقوى شعاعه كزيادة الزيت في المصباح وإزالة ما يغشاه، والله در الأبوصيري حيث يقول:

أَوْ نَورُ الإِلهِ تَطفئُهُ الأَفْ ... —واهُ وَهُوَ الَّذِي بِهِ يَستَضاءُ

أَوَّلًا يَنكَرُونَ مَنْ طَحَنَتْهُم ... بِرَحاها عَن أَمْرِهِ الهِجاءُ

وَكَساهِم ثُوبَ الصَّغارِ وَقَدْ ... طَلَّتْ دَمًا مِنْهُمْ وَصَيَّنَتْ دَمًا

كَيْفَ يَهْدِي الإِلهُ مِنْهُمْ قُلُوبًا ... حَشَوُها مِنْ حَبِييهِ البَغْضاءُ

وجائز أن يكون النور هو النبي ﷺ لأنه المرشد والمبين والناقل عن الله ما هو نير كما قال تعالى "قد جاءكم من الله نور" فإن النور عبارة عن الظهور وقد انكشف به الحقائق الإلهية والأسرار الأحدية والأستار الصمدية وبه أشرقت الكائنات وخرجت عن حيز الظلمات، ويؤيده قوله بعده **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)** ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محقةً كان سياقها في صورة الأمر المفروض تهماً، وإضافة النور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي نوراً أوجده الله وقدره ثم أظهره وأكمّله، وبالتالي فإن محاولة إطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم... وقد ذكر النور وإطفاءه واللائق به الكفر **(ولو كره الكافرون)** لأنه الستر والتغطية لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، والمبالغة بكراهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بآثار تلك الكراهية، وهي التألب والتظاهر على مقاومة الدين وإبطاله وإحداث العراقيل وإضلال المتصدين للاهتداء وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والكيد والإضرار، وهذه المحاولة بئسة داعية للسخرية بالمنافقين وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل، وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الأرض كلها تحقيقاً لوعده الله، لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل... وجاء التعبير في سورة الصف بقوله **(يريدون ليطفئوا)** دلالة على كيدهم للمسلمين خفية وفي لين وتملق، والإرادة هي النية وتعتديتها باللام تضمنت معنى السعي والعمل، وقد ثبت بالمشاهدة أن من مال إليهم وسمع دروسهم وأخذ بمنهاجهم طُفئت شعلة الإيمان في قلبه وفقد نور العناية وعُدِم نور البصيرة واحتجب عن نور التوحيد... وحيء في سورة

التوبة بهذا التركيب **(يريدون أن يطفئوا)** في سياق الآية **(وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله)** لشدة محاكمة أهل الكتاب وتصميمهم على محاربة الله، ومثل الله حالهم بحال نفر يبتغون الظلام فلاحت لهم ذبالة مصباح تضيء للناس فكرهوا ذلك وخشوا أن يُشعَّ نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطفئ، وقد وصفوا القرآن بأنه سحر، وأرادوا إبطال آيات القرآن بزعم أنها من أقوال السحر! ولما حكى تعالى عنهم أنهم يحاولون إبطال أمر رسوله ﷺ، أخبر سبحانه أنه يأبى ذلك الإبطال وأنه يتم أمره ويُظهر سلطانه بالحجة وبالغلبة والاستيلاء فقال **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)** والآية تكشف عن كراهِيتهم لدين الإسلام وتلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إضلال المتصدين للاهتداء وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والكيد والإضرار حتى يكون الدين لهم من دون الله، وعبر عن الإسلام بالهدى ودين الحق تنويهاً بفضله وتعريضاً بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق، وذكر المشركون هنا لأن ظهور دين الإسلام أشد حسرة عليهم من كل أمة لأنهم الذين ابتدأوا بمعارضته وعداوته ودعوا الأمم للتألب عليه واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئاً ولأن أتم مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار أصحاب ميثاق الدرعية وقد قال رسول الله ﷺ: **«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»** فلذلك كانت كراهية المشركين ظهوره محل المبالغة في أحوال إظهاره على نظامهم العالمي كله كما يظهر بالتأمل، وفي الآية إعلام بأن الله أراد ظهور دين الإسلام وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع والخفت في أول أمره واستمر زماناً طويلاً حتى تنصّر الناس وتهودوا، فلما أخبر الله بأنه أراد إظهار

سلطانه على سلطانهم عُلِمَ أن أمره لا يزال في ازدياد حتى يتمّ المراد، والإظهار: النصر أي لينصر هذا الدين الحق على جميع الأديان التي أقامها بنو إسرائيل. وسورة الصف تحرض على قتال بني إسرائيل الذين آذوا رسولهم موسى واستهزؤوا به، وتأمروا على قتل عيسى، وحزبوا الأحزاب على أعلم الأنبياء والمرسلين عليه صلوات رب العالمين. روى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أوحى الله إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمِنْ بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولاً محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن» وقد أكرم الله عز وجل نبيّه وصفيّه باسمين مشتقين من اسمه تعالى: محمد وأحمد عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين أكمل صلوات رب العالمين... ومحمد هو المستغرق بجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجه إلا الكامل، والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولي على الأمد في الكمال، وأحمد الرسول الذي تحمده جميع الأمم في الأرض، ورسالته تتعلق أحكامها بجميع الأحوال البشرية، وهي مما تشمله الكلمة التي جاءت على لسان عيسى عليه السلام (اسمه أحمد) فكانت من الرموز الإلهية، ولكونها مرادة لذلك ذكرها الله تعالى في القرآن تذكيراً وإعلاناً، أي مسماه أحمد، وذكره أحمد، وعلمه أحمد

هو الأحمد المعروف في كل مشهدٍ... على فضله جُلُّ البرية تشهدُ

والحمد يعني كمال التقديس والتنزيه والتوحيد لله وهو أي الحمد جماع المدائح كلها والألف واللام للتعريف وللعهد فالعهد لتعريف الحمد الذي ينبغي لعز

جلاله وعليّ شأنه والعهد معهود حمده في كتابه الأزلي قبل البدء الأول في الدهر
 الدهر حيث لا حامد ولا محمود سواه ثم أظهر عز وجل خلقه فأظهر في ذلك
 حمده وحمد الحامدين له في الأولى والآخرة فالمفهوم الأول بالأول في هذه الحياة
 الدنيا والمفهوم الأعظم أولية لا أولية لها متصل بآخريّة لا آخريّة لها. والأنبياء
 كلّهم حمّادون لله سبحانه ونبيّنا ﷺ أحمد أي أكثر حمداً، وكلّهم محمودون لما
 فيهم جميل الأخلاق وهو أكثرهم خلافاً حميدة، وفي الحديث عند الترمذي:
 «وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر» وفي رواية: «لواء الحمد يومئذ
 بيدي» أي لواء التوحيد والحمد والتعظيم لله، وهذا من معاني العبارة (اسمه
 أحمد) أي علّمه تعظيم الله وحمّده فهو أحمد الحامدين لرب العالمين كما دل عليه
 الحديث: «فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي وليس يحمده بها أحد
 بعدي» وأمتة الحمّادون فهم في أعلى مقام الحامدين. روى الطبراني عن عبد الله
 بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صفتي أحمد المتوكل ليس بفظ ولا غليظ،
 يجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافئ السيئة، مولده بمكة ومهاجره طيبة، وأمتة
 الحمادون يأتزرون على أنصافهم ويُطهرون أطرافهم، أناجيلهم في صدورهم
 يصفون للصلاة كما يصفون للقتال، قربانهم الذي يتقربون به إلي دماؤهم،
 رهبان بالليل ليوث بالنهار» وفي رواية عن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ
 قال: «إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمادون، ثم لا تزال طائفة من أمتي
 يقاتلون من ناوهم من أهل الشرك حتى يقاتلوا الدجال» واعلم أن أفضل الحماد
 كما قاله العلامة الباجوري: الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده. وأما
 أسماء النبي ﷺ فكثيرة شهيرة حتى نقل عن بعضهم أن له ألف اسم وقد ألف
 العلامة السيوطي رسالة مخصوصة في بيان أسمائه ﷺ وسماها "البهجة السنية في

الأسماء النبوية" والقاعدة: أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد سمي الله تعالى نبيه في القرآن بأسماء كثيرة وذكر له أسماء أخرى في كتبه السماوية وورد كثير من أسمائه العظام في الأحاديث الشريفة وعلى ألسنة من سلف من الأنبياء الكرام وكلها باعتبار اشتقاقها أو صاف مدح دالة على علو قدره وسمو مكانته ومزيد شرفه وعظم مقامه، وإذا كان هادي الأنعام إلى دين الإسلام وشفيع الخلق يوم الزحام وموضح الأحكام ومبين الحلال والحرام وحبيب الله الملك العلام أوصافه الحسنى لا تحيط بها الأقلام ونعوته الحسنى لا تصل لضبطها الألباب والأفهام فكيف لا يتكرر حمده على مر الليالي والأيام عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام ما كررت العصور والدهور والأعوام.

(دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) يعني يفتتحون كلامهم بتوحيد الله وتنزيهه مما أضاف إليه أهل الشرك به من الكذب والفرية والسوء، ويختتمون كلامهم بالتوجه إلى الله بالحمد ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين، وبهذا الحمد يبدأ كل أمر وبه يختتم، ويقال عند قطع دابر الإشرار وانتهاء فصل القضاء حسبما يحكيه قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) أي إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه. والأنبياء كلهم محمودون ونبينا أحمد أي: أكثر مناقب وأجمع للفضائل والحاسن التي يحمد بها، وهذا ما أشار إليه المولى على لسان عيسى عليه السلام (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) أي مسماه: أحمد مني، وأحمد من موسى، أي أفضل في رسالته وشريعته، إذ أن الجملة عطف على ما تضمنه خطاب موسى وعيسى... وهذا صريح بأن الله تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه، فينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة

خلقه منابه، وتكون شريعته باقية خالدة. روى الإمام الطبراني عن أبي أمامة قال: قيل: يا رسول الله ما كان أول بُدوءٍ أمرك؟ فقال: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل ولقد بشر بك ابن البتول. وروى أبو نعيم عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في التوراة: «يا موسى احمدي إذا مننت عليك مع كلامي إياك بالإيمان بأحمد، فوعزتي لو لم تقبل الإيمان بأحمد ما جاورتني في داري ولا تنعمت في جنبي، يا موسى جميع المرسلين آمنوا بأحمد وصدقوه واشتاقوا إليه وكذلك من يجيء من المرسلين بعدك، يا موسى من لم يؤمن بأحمد من جميع المرسلين ولم يصدقوه ولم يشتاقوا إليه كانت حسناته مردودة عليه ومنعته حفظ الحكمة ولا أدخل قبره نور الهدى وأمحو اسمه من النبوة، يا موسى أحب أحمد كما تحب نفسك وأحب الخير لأمته كما تحبه لأمتك أجعل لك ولأمتك في شفاعته نصيباً» والله در القائل:

هذا النبي محمد جاءت له ... توراة موسى للأنام تبشر

وكذاك إنجيل المسيح موافق ... ذكراً لأحمد معرب ومذكر

ثم يدعو المولى عباده المؤمنين إلى إبرام صفقة تجارية رابحة بأسلوب تشويقي عجيب إذا أراد مفسّر أن يشرحها أذهب بهاءها وأكسفها إشراقها ولكنها كلمات القرآن تعبر عن نفسها، كل كلمة جوهرة تحتها كنز دفين (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون

يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في
جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر
المؤمنين ﴿ وهذا النداء الجليل إنما يليق لمن وصل الى ذروة مسالك التوحيد وتحقق
بنهاية مراتب التجريد والتفريد.

الفصل الخامس:

وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

من إعجاز القرآن أنه يصف بني إسرائيل بالصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا باعتبارهم جبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل! وهذا القول الصادر منهم يُراد به إبراز هذا الإثم في مفاخر أسلافهم الراجعة إلى نكث العهد والتبجح بقتل وصلب من وصفوه بالمسيح أي: الحاكم وبأنه "رسول الله" على طريقة التهكم والاستهزاء بدعواه حاكماً رسولاً! واستهزأؤهم يستتبع تكرار ذلك منهم! وكانت تلك الحادثة في رفع المسيح وقتل الشبه قد أحدثت ضجة في المجتمع في تلك الفترة، فلبس بنو إسرائيل على الناس الحق بالباطل ووضعوا عقيدة التجسيد والتثليث حفاظاً على سلطتهم ومراكزهم الدينية والسياسية! ولما زاد قُبْح كفرهم وبلغ في الضلالة النهاية القصوى وحاولوا قتل المسيح، شُبّه لهم مُشَبَّه به فقتلوه وهو زعيم منافقي أصحاب المسيح وكان قد وشى به فألقى الله عليه شبه المسيح وَنَجَّى الله المسيح من إهانة القتل فاشتبه عليهم أمره فاحتاروا وضلوا فنعتهم الله تعالى بالضالين وأخبر أنهم لم يقتلوه **(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)** وذلك أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ يعنون الذي دخل في طلبه فاشتبه عليهم الكذب بالصدق، واللام على هذا لام الأجل: أي لبس لأجل إضلالهم وكان مما زاد الحنق على المسيح حين دارت الدائرة عليهم أنهم قتلوا زعيمهم بأيديهم وهم يظنون أنه المسيح فاختلق كبراًؤهم أمر القتل والصلب ليبرّدوا غليلهم من الحنق على عيسى إذ جاء بإبطال ضلالاتهم! ونكتة العدول عن حرف "على" تضمنين فعل شُبّه معنى صُنِع أي صَنَعَ الله ذلك

لإضلال كبرائهم وأحبارهم وبيّن ذلك بقوله ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ أي الذين اختلفوا في قتله شاكون في صفته على مقالات باطلة: أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ والاستثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم أي ولكنهم يتبعون الظن! وقوله ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ تأكيد لانتفاء قتلهم إياه، ويصح أن يكون المعنى: أنهم ما قتلوه متيقّنين قتله للاضطراب الذي حصل في شخصه حين إمساك من أمسكوه، ولذلك كله أعقب بالإبطال بقوله ﴿بل رفعه الله إليه﴾ أي فلم يظفروا به، والرفع: إبعاده عن هذا العالم إلى عالم السماوات، وقوله ﴿إليه﴾ أفاد معنى التشريف أي رفعه الله رفع قرب وزلفى. ومعنى قوله ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام حين ينزل لقتل مسيحهم الكذاب وقتل من بقي منهم، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» ولما شرح تعالى فضائح أعمالهم وقبائح أفعالهم ذكر عقبيه تشديده عليهم فقال ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد هؤوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ والمعنى ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلمٍ عظيم ارتكبوه من الكفر والكبائر، فحرّم تعالى عليهم ما ذكره في آية الأنعام من الشحوم وكل ذي ظفر كما حرم عليهم الألبان وكلما أتوا بذنب حرّم عليهم نوعاً من أنواع الطعام، وبقي ذلك التحريم مستمراً حتى جاء عيسى ورفع عن المؤمنين بعض تلك الأغلال ثم بعث

الله الرحمة المهداة فوضع عن الذين اتبعوه جميع الآصار والأغلال التي كانت عليهم، ثم هي اليوم لم توضع على من لم يؤمن به ﷺ وبقي تحريم الطيبات مستمراً على الطائفة الكافرة. وقد أشار المولى سبحانه في آخر سورة الصف إلى انقسام بني إسرائيل إلى طائفتين ﴿فَأَمَّت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ﴾ أي صدقت طائفة من بني إسرائيل، وأبطنت طائفة الكفر نفاقاً ومكرت حين ادّعت نصرة الله تعالى وأفعالها اقتضت نصرة الشيطان كما في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرُوهٌ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي فريقاً هداه الله لوحدانيته وفريقاً لازم الشرك وائتمر بأمر الشياطين واتخذهم أولياء فاستوجب الضلال، وعليه فإن قوله ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يحمل على الفريقين، ويكون الضمير في قوله ﴿وَمَكْرُوهٌ﴾ عائداً إلى الفرقة الكافرة التي تظاهرت بالإيمان واحتالت في قتله والله تعالى أعلم بأسرار كلامه، وجاء نظير ذلك في معرض الآيات التي أعقبت تحذيره ﷺ قومه من الشرك حيث أشار المولى تعالى إلى انقسام بني إسرائيل بعده إلى فرقتين: الأولى: اليهود والذين أشركوا من النصارى وهو قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والفرقة الأخرى: الذين أسلموا وهو معنى قولهم ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ أي مبالغون في نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق المبين، والضمير في قوله ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ

بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) لمن آمن من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم واقتفى أثرهم من أتباعهم وقد نزلت في النجاشي وأصحابه وفي قصة إسلام سلمان كما رواه الحاكم في المستدرک أن النبي ﷺ قال: «يا سلمان إن أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى إنما كانوا مسلمين» والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه بالليل سموا به لمبالغتهم في تتبع العلم. قاله الراغب، والرهبان جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة. فقوله تعالى ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ ليس مدحاً للنصارى وإخباراً بأنهم خير من اليهود وإنما هو صفة قوم آمنوا بالله ورسوله يدل عليه ما ذكره في نسق التلاوة من إخبارهم عن أنفسهم بالإيمان بالله وبالرسول ﷺ، وقد وصفهم الله تعالى بركة القلوب وأنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق ولا يطلبون الرفعة على غيرهم، ودلت نصوص القرآن على أن الكبر صفة لمن ينازعون الله في حكمه، وصحَّ عن رسول الله ﷺ فيما يحكيه عن ربه عز وجل قال: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» وروى أبو نعيم عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في التوراة: «يا موسى إياك والكبر فإنه لو لقيني جميع خلقي بمثقال حبة من خردل من كبر أدخلتهم ناري» وفي الصحيحين: «والخيلاء في الفدادين» أي الكبر في أهل الإبل أراد كفرة بني إسرائيل - والله ورسوله أعلم - وقد نوّه المولى بشأن أتباع المسيح وذلك يقتضي أنهم وصلوا إلى مرتبة التوحيد ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين﴾ أي في زمرة المحمدين الذين شهدوا لله بالوحدانية والفردانية، وشهدوا بحقية الرسالة الخاتمية الحاوية لمراتب عموم رسل الحضرة

الإلهية، وشهدوا بحقية القرآن المهيمن على الكتب السماوية، وسُمّوا بالشاهدين لأنهم شهداء على الأمم يشهدون للرسول بالتبليغ ولكونهم أثبتوا الحق وكل من عرف شيئاً وكشف عنه كان شاهداً وحاكماً عليه وكما هي الشهادة في الدنيا كذلك في الآخرة فتجري الشهادة مجرى التحمل لأنهم إذا بينوا للناس الحق وأثبتوه عرفوا عنده مَنْ صدّقه وَمَنْ كذّبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهدون محمد ﷺ وأُمته. ولما مدح سبحانه القسيسين والرهبان وكان ذلك داعياً إلى الترهّب وكانت الرهبانية من أفعال أهل الكتاب فإنها مبنية على الشدة والاجتهاد في الطاعات والتورع عن أكثر المباحات والدين الحمدي مبني على السهولة والفسحة واليسر والحنيفية السمحة ومخالفة أهل الكتاب، عقب ذلك بالنهاي عنها رحمة للأمة الوسط ولطفاً بها وتشريعاً لنييها ﷺ فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) روى ابن أبي شيبة عن أبي عبد الرحمن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً» وقوله "ولا تعتدوا" أي ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. ثم سلى تعالى رسوله عن نفاق المنافقين وذكر الإيمان وكفارتها إغاطة للذين شدّد الله تعالى عليهم وأشار إلى بعض أفعالهم الذميمة التي أملاها الشيطان عليهم من تعاطي الخمر والميسر وحذر من مصائبهم وبيّن أحكام الصيد ونوّه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس وعرض بما وقع فيه أهل الكتاب من كفران نعمة الاستخلاف ونبذ ما أمروا به والتهاون فيه وأبطل عقائدهم الضالة التي قرروها لأتباعهم وأشار إلى خيانتهم في الأمانة بعد بيان خيانتهم في الدين مبيناً سريان حالهم على ذرائر عموم أتباعهم ابتداء من قوله تعالى (وإذا قيل لهم

تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان
آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ إلى قوله سبحانه في المنتصرين ﴿فإن عشر
على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان
فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين، ذلك
أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ ثم عاد إلى
بيان تمام نفوذ الحجة على المتبوعين في مشهد يوم القيامة وجاء هذا مناسباً
للتذكير بقوله تعالى ﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ولمناسبة
هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم في هذه السورة عشر مرات تعريضاً
بإبطال دعوى أنه ابن الله سبحانه وتخلص من ذلك إلى شهادته عليهم بأنه لم
يأمرهم بتأليهه وعبادته وذكر بيوم الجمع وتحتّم وقوعه وصوّر عظيم تحقّقه ونبّه
على قوة قربهِ ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ والغرض من الاستفهام
توبيخ أولياء الشيطان الملاعين الذين اتخذوا المسيح وأمه إلهين! وقد تعدى طعنهم
إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به وهو
اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم عدّد تعالى أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل
واحدة فواحدة لتوبيخ وتقريع أهل الكتاب على سوء مقاتلتهم فإن كل واحدة
من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في
هذه الحكاية المبالغة في تحقيق فضيحة المنافقين وتبكيّتهم والله أعلم، قال ابن
جريح: معنى قوله "ماذا أجبتم" أي ما عملوا وأحدثوا بعدكم؟ فيقولون "لا علم
لنا". اهـ. قصدوا بذلك إحالة الأمر إلى حبيب الله وأمته حسبما يفيد قوله
سبحانه "لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" والله أعلم.
وقيل: محوا أنفسهم من ديوان العلم بالكلية ﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علام

(الغيوب) وهذا أحسن أدباً لأن كل علم يتلاشى إذا نسب إلى علمه تعالى ويضمحل مهما قرن بصفته أو اسمه. ولما كان سؤاله سبحانه للرسول عن الإجابة متضمناً لتبكيك وتوبيخ المبطلين وكان أشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ أهل الكتاب لأن تمردهم تعدى إلى رتبة الجلال بما وصفوه سبحانه به من اتخاذ صاحبة والولد ومن ادعاء الإلهية لعيسى عليه السلام لما أظهر من الخوارق التي دعا بها إلى الله واقتراها بما يدل على عبوديته ورسالته مع إضلالهم غيرهم، ذكر أمر عيسى عليه السلام ليتبصروا فيرجعوا عن كفرهم به بالتقصير في أمره والغلو في شأنه وقدره فقال منبهاً على ما خفي من أحوالهم مكرراً قوله "يا ذني" أربع مرات لئلا يلبسوا الحق بالباطل (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهية الطير يا ذني فتنفخ فيها فتكون طيراً يا ذني وتبرئ الأكمه والأبرص يا ذني وإذ تخرج الموتى يا ذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) أي لما جاءهم بهذه المعجزات العجيبة نسبوها إلى السحر وقصدوا قتله فخلصه الله تعالى منهم، وقد جاءهم عليه السلام بنظام حكم موافق للفطرة يدحض منظومتهم العلمية والطبية والمعيشية... ولما أمرهم تعالى بالإيمان به وبرسوله (وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي) أظهروا الإيمان والإسلام وأبطنوا النفاق والكفر (قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) والخواريين فرقتان: مؤمنون وهم خالصة عيسى عليه الصلاة والسلام، ومنافقون وهم أصحاب المائدة، قال صاحب الكشاف: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله "إذ قال" فإذن إن دعواهم كانت باطلة وإنهم

كانوا شاكين وقوله "هل يستطيع ربك" كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين
لربهم وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره
واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا
عصيتموه بعدها "إن كنتم مؤمنين" إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. انتهى.
وقد أعقب سبحانه بذكر شيء من اقتراحهم الدال على تعنتهم وجهلهم بما
يجب لله ورسوله من التعظيم والتوقير **(إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل
يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء)** فدل ذلك على نفاقهم ثم إنهم
نادوا رسولهم باسمه واسم أمه ولم يقولوا: يا رسول الله ولا يا روح الله ونحو
هذا من التبجيل! وقُرئ **(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء)**
وهذه القراءة توجب استهزاءهم وشكهم في استطاعة عيسى عليه السلام! والقراءة
الأخرى توجب شكهم في استطاعة الله واستهزاءهم به تعالى! ولذلك حذرهم
عليه السلام عقاب الله **(قال اتقوا الله)** أي اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم
وقاية تمنعكم عن الاستهزاء، ثم أورد مضمون دعواهم بأداة الشك فقال **(إن
كنتم مؤمنين)** إشعاراً بأن مثل ذلك السؤال لا يصدر من متلبس بالإيمان، ثم
عادوا يسألونه في استهزاء وتكذيب **(قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا
ونعلم أن قد صدقتنا)** فسأل ربه أن ينزل عليهم المائدة التي طلبوها **(قال عيسى
ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا
وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)** أي يكون اليوم الموافق لنزولها من كل
سنة عيداً، فأجابه الله **(قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني
أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين)** فعذبوا بالمسخ ومسحهم الله خنازير
وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون - نعوذ بالله من سطواته ومن الإصرار على ما

يوجب نقماته - ويبدو أن هذا العيد هو عيد الفصح، ورؤي أن عيسى عليه السلام
أكل مع الحواريين على مائدة ليلة عيد الفصح، وهي الليلة التي رُفع من صباحها
كما دل سياق الآيتين، فلعل معنى كونها عيداً أنها صيّرت يوم الفصح عيداً في
المسيحية كما كان عيداً في اليهودية، ولذلك قال (لأولنا وآخرنا) وقد بلغ
اجتراء بني إسرائيل واستخفافهم برسولهم أن يتظاهروا بالإيمان ويستسخروا
بطلب المائدة في الليلة التي بيّتوا فيها إعدام رسولهم!!! وليان قباحة الأبالسة
المستهزئين بالدين نورد بعض ما جاء في الأجوبة النجدية: **ولا ينبغي لأحد من**
الناس العدول عن طريقة آل الشيخ ومخالفة ما استمروا عليه في أصول الدين فإنه
الصراط المستقيم الذي من حاد عنه فقد سلك طريق أصحاب الجحيم وكذلك
في مسائل الأحكام والفتوى لا ينبغي العدول عما استقاموا عليه واستمرت عليه
الفتوى منهم فمن خالف في شيء من ذلك واتخذ سبيلاً يخالف ما كان معلوماً
عندهم ومفتى به عندهم مستقرة به الفتوى بينهم فهو أهل للإنكار عليه والرد
لقوله. وجاء في موضع آخر بقلم الإمام عبد العزيز مؤسس الدولة الوهابية
الثالثة: من عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل إلى من يراه من علماء المسلمين
وإخوانهم المنتسبين وفقنا الله وإياهم لما يحبه ويرضاه آمين سلام عليكم ورحمة
الله وبركاته. وبعد: هذا كتاب إخوانكم المشايخ تشرفون عليه والعمل إن شاء
الله على ما فيه ثم بعد ذلك ما هو بخافيكم أول منشأ هذا الأمر وتقويمه أنه من
الله ثم أسباب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأوائلنا وما جرى على المسلمين من
اختلاف ولايتهم مراراً وكلما اختلف الأمر وشارف الناس لنقض دين الله
وإطفاء نوره أبي الله وأخرج من هالمولتين - يعني آل الشيخ وآل سعود -
من يقوم بذلك... إلخ. فهذه بعض الكلمات التي تصور حقيقة هؤلاء المستهزئين

الذين نزل فيهم قرآن حكيم يكشف خباياهم ويفضح أسرارهم ويبين للمسلمين خداعهم. وما أبأس من يستهزئ به جبار السماوات والأرض وما أشقاه؟ وأي مشهد مفزع رعب ينتظره هؤلاء؟ وأي طريق يتخبطون فيه لا يعرفون غايته فتتلففهم في نهايته اليد الجبارة، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ غافلة عن المقبض المكين. ومصير المستهزئين بالرسول معروف جرت به النواميس الإلهية التي لا تتخلف وشهدت به مصارع الغابرين، قال تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾ وجملة ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ بيان لجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ والافتراء مرادف الاختلاق، مأخوذ من الفري وهو قطع الجلد قطعاً ليصلح به، يقال: افترى الجلد كأنه اشتد في تقطيعه أو قطعه تقطيع إفساد، وهو خبر مستعمل في التعريض بالمستهزئين الذين اتخذوا آلهة في الحكم والعبادة وأنكروا البعث والنشور وكذبوا أشنع الكذب في دعواهم توحيد العبادة ليضلوا الناس بغير علم! وما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول لأن التظاهر بالدين أمرٌ مطرد عند المستخلفين الغابرين، وما من رسول ولا نبي إلا ألقى الشياطين في تلاوته الشُّبه والتأويلات الفاسدة لإضلال الناس قال تعالى ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي إذا أحب أن يهتدي قومه أو تلا الآيات أو حدث ألقى الشيطان في قلوب أوليائه الشبهات ليجادلوا الناس فيشبهون بذلك على الأتباع ليتبعوهم ويصرفوا قلوبهم عن الاستجابة بما جاءهم به رسولهم ونبيهم! ونظير هذا المعنى ما ذكره الحق سبحانه عن بني إسرائيل اتُّباعهم ما تفتريه الشياطين على ملك سليمان ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ والشياطين

دأبها الإفساد وتعطيل الخير وإدخال ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد! فإن لكل نبي عدواً من الشياطين كما قال تعالى ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً! أي يتعاونون ويتعاقدون في نفاقهم فيخادعون أهل الإسلام ويغرون ضعفاء الأنام! والمقصود من الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أولياء الشيطان الذين أضلهم الله على علم فتحيلوا وحرفوا الكتب الإلهية والآيات الكونية، والكلام تمثيلٌ لهيئة تفننهم في الإبطال والطعن بهيئة الساعي في طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول، وإن شئت قلت: معنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول: إلقاء ما يضادها بأسلوب الكلام المضاد كمن يكرر فيدس السم في الدسم ويتمثل بالدعوة إلى الله ويدعي متابعة الرسل والأنبياء كما قال الحق مخاطباً المنافقين الحاضرين منبهاً على خوضهم في النفاق كما خاض الذين من قبلهم ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ فخدعوا الناس بزخرف قولهم وألقوا ضلالات وتحريفات وشبهات وأبعدوا الناس من خلاها عن الحق والنظر والتذكر في الأدلة والبراهين على نحو قوله ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي ابتغاء الصد عن الحق وابتغاء تأويله على غير الوجه المراد منه! والله تعالى يعيد الإرشاد ويكرر الهدى على لسان النبي، وينسخ ما يلقي الشيطان بالقول الفاضح ويكشف أولياء الشيطان بالبيان الواضح ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾ وهم بنو إسرائيل الموصوفون بغلظ الأكباد وجلافة الطباع وقساوة القلوب وهذا معلوم بطريق الاستبصار في شواهد الآثار، ولما بين سبحانه

القلوب التي قبلت الإلقاءات الشيطانية أردف ببيان القلوب التي أختبت للآيات القرآنية ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ وفي تأويل الآية وجوه؛ أحسنها: ينسخ الله تعالى ما يلقيه الشيطان ويرده ليحمله بسبب الرد وظهور فساد التمسك به عذاباً للمنافقين والكافرين أي سبباً لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهور فساده أو اختباراً لهم هل يرجعون عنه لإرادة أن يعلم الذين أوتوا العلم أن القرآن هو الحق حيث بطل ما أورد عليه من شبه الذين بذلوا جهدهم في إبطال آياته معاجزين ولم يبطل هو كما في قوله تعالى ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ وقد حكى تعالى احتقار قوم عاد لدعوة رسولهم واستهزاءهم به ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ وورد في جواب قوم نوح مثل هذا ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ وحكى سبحانه عن ثمود ﴿فحقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ وورد في جواب مدين ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لآنت الحليم الرشيد﴾ يستهزئون به! ولما خاضوا في النفاق سأل شعيب ربه أن يميز الحق من المبطل فقال ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت الفتاح العليم﴾ وحال بني إسرائيل كحال الذين من قبلهم ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في النفاق والاستهزاء بآيات الله ورسوله

كالخوض الذي خاضوه في ذلك وهو ناظر إلى قولهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقد ذكر علماء الآثار عن الفراعنة أنهم كانوا يعبدون الإله الواحد الأحد وكان لهم صلاة وكانت هناك غرف مخصصة للوضوء! فحصلت المشابهة بين الفريقين في النفاق والمكر والخديعة والتمثل بدين الله والاستهزاء به تعالى وبآياته ورسله، والقرآن الكريم يصور استهزاء الأمم الغابرين برسولهم، ويعرض مشاهد المستهزئين، وقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عطف على جملة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ باعتبار أن تلك جواب عن استهزائهم في قولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وجملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الغابرين، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأن هذه شنشنة المستخلفين الهالكين مع المرسلين، وحيث كان الرسول مصحوباً بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب، ولا يخفى على الفطن أن التظاهر بالإسلام لأجل إبطاله وهدمه وعيبه هو من أعظم الاستهزاء وذلك هو المعبر عنه بقوله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ وقد قابل بنو إسرائيل رسولهم بالاستهزاء كما فعل الأولون ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وكذلك قابلوا ما جاءهم به سيد المرسلين وإمام النبيين وسيد الحكماء الربانيين عليه صلوات رب العالمين، ثم بين الحق تعالى قوة سريان القرآن في قلوبهم وفعاليته وتأثيره في قلوبهم التي لا تحسن أن تتلقاه إلا على العناد والكبر ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فقد أخبر سبحانه أنه يُدخل روح هذا

القرآن في قلوب المجرمين فهي تتحرك وتمتز له فيعرفون حقيقته ويذوقون حلاوته
ويطعمون طلاوته ولكن يجحدون ولا يؤمنون ويعرفون ولا يعترفون عناداً
وكبراً واتباعاً لأهوائهم الفاسدة وجحوداً للحق بعد ما عاينوه وأبصروه جلياً
ساطعاً.

﴿ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخله، كلا لينبذن
في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، إنها
عليهم مؤصدة، في عمد ممددة﴾ الهمز واللمز متقاربان في المعنى فإذا اجتماعا
خُص كل منهما بمعنى وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر، قال ابن جرير: اللمز باليد
والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. وروى الحكيم الترمذي
في نوادر الأصول من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المنافق همزة لمزة
حطمة كحاطب ليل لا يبالي من أين كسب وفيه أنفق» وقد نهي القرآن عن
الهمز والسخرية واللمز والعيب في مواضع شتى إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع
والتقبيح مع الوعيد والتهديد يوحى بضخامة جرم الهمازين تجاه رب العالمين
والقرآن المبين والرسول الأمين وتجاه المؤمنين، فجاء الرد عليها في صورة
الإغلاظ والردع الشديد والتهديد المفزع الرعيب، والآيات تكشف استهزاء
المستخلفين وتُظهر خسة المستهزين... يأمر الناس بالبر وينسون أنفسهم،
يدعون الخلق إلى حضرة الرحمن ويهلكون أنفسهم بمتابعة الشيطان، وهؤلاء هم
الذين يُبدأ بعذابهم قبل عبدة الأوثان، ويعظم ما يلحقهم يوم لا حاكم إلا الملك
الديان... ومن خلال فتاواهم ورسائلهم يتضح الكفر والسفاهة والاستهزاء
والتناقض العجيب كما جاء في الرسالة التاسعة لمحمد بن عبد الوهاب: من
استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثواب الله أو عقابه كفر، والدليل قوله

تعالى ﴿قُلْ أَبِاللّٰهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾!!! وهذا تسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجرأة والجسارة وكمال الخبث والفظاظة والقساوة فإنهم ما قالوه إلا على وجه الخداع والنفاق والتمويه على المسلمين والاستهزاء بهم فكان خبثاً الى خبث وكفراً الى كفر! نعوذ بالله من خبائث الآثام وأدناس الكفر والعصيان.

﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ السؤال تضمن معنى الاستعجال، وهو مستعمل في الاستهزاء والتهكم والتعجيز، وقد قصَّ القرآن استهزاءهم برسلمهم في آيات عديدة. وفي قصصهم اعتبار للمعتبر واستبصار للمستبصر وموعظة للباحث المستكثر.

﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ هذه قصة المسيح ومكانها التاريخي تجيء اليوم لتكشف عن مدى الارتباط بين شرك الحكم وشرك العبادة! وتُسفر عن كذب الحفاة العراة والتوائهم وخبائثة طينتهم ودنائة طبعهم وتُبرز إصرارهم على الكفر وتحريفهم لكلام ربهم وتبجحهم وافتراءهم على رسلهم وترفع الحُجب عن دخيلة القوم وتعنتهم مع نبيهم وقائدهم المسيح! فمن حاجنا فيه بعد هذه البيّنات ندعوه بدعوة القرآن فنجعل لعنة الله على الكاذبين - والكاذبون هم المنافقون وقد لزمهم هذا الوصف وعلق بهم في آيات كثيرة - والمعنى: فإن استمرّوا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق ومعاندة في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة، ذلك أن تصميمهم على معتقدتهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم

وبيّن لهم، فلم يبق أوضح مما حاجتهم به وإنما يحاجونك عن مكابرة وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا، والخطاب لبني إسرائيل والدليل على ذلك أن الآية نزلت يوم خيبر كما جاء في صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدي» وسمّعه يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال: فتناولنا لها، فقال: «ادعوا لي علياً» فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفع الراية إليه ففتح الله عليه، وأنزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» ودعاء النساء والأبناء للملاعنة أهرز للنفوس وأدعى لغضب الله على المبطلين ولعنته على الكاذبين وكان مما حذرنا منه قوله ﷺ كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إن بين يدي الساعة كذاين فاحذروهم» وفي رواية أخرى: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم» والكلام في الآية متصل بقوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) إلى قوله تعالى (فلما أحس عيسى منهم الكفر) وقد صح أن عيسى عليه السلام لقي من المنافقين - قاتلهم الله تعالى - شذائد كثيرة، ومضى شرح الآية بما يغني عن إعادته هنا. ولما كان العلم الأزلي حاصلاً بأن المجادلين في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام يكفون عن المباهلة بعد المجادلة خوفاً من الاستئصال

في العاجلة مع الخزي الدائم في الآجلة وكان كفهم عن ذلك موجباً للقطع بإبطاهم في دعواهم لكل من يشاهدهم أو يتصل به خبرهم، حسن كل الحسن تعقيب ذلك بقوله ﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولما أثبت تعالى وحدانيته وأنه الملك الأعظم الأعز الأكرم سبب عنه تهديدهم على الإعراض بقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وقد ورد لفظ الفساد في القرآن في حق المنافقين خاصة كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وحكى تعالى قول موسى لأخيه هارون ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولما نكصوا عن المباهلة بعد أن أورد عليهم أنواع الحجج فانقطعوا ولم تبق لهم شبهة، اقتضى ذلك دعوتهم إلى ما اجتمعت عليه الكتب واتفقت عليه الرسل فقال سبحانه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وقد بينا معنى الإسلام فيما مضى ودلنا عليه بما أغنى عن إعادته.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لما بيّن الحق سبحانه أحوال المستخلفين وبيّن كفرهم بالبعث وإجرامهم بافتراء الكذب على الله تعالى والتكذيب بآياته، شرح في هذه الآية الكريمة قبائحهم وسخريتهم الراسخة في طبيعتهم وشقاوتهم الأزلية وغباوتهم الجبلية وحكى واقهم إذ يعبدون الجن أي يطيعوهم ويتبعوهم مع كونهم لا يضرّوهم إن عصوهم وتركوا عبادتهم ولا ينفعوهم إن عبدوهم! وقولهم "هؤلاء

شفعاؤنا عند الله" هو في حقيقته كفرٌ في صورة السخرية والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر! أرادوا إثبات شفاعة آلهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الإلهية فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعته عند نده، والشفيع بمعنى الناصر كما جاء في المعجم الوسيط: استشفع: طلب الناصر والشفيع ويقال استشفع فلاناً وبه واستشفع إلى فلان واستشفع في الأمر وعليه. اهـ. وقد بين تعالى أن أحداً من الشافعين لا ينصر إلا بإذن الله وهذا متصل بقوله ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ والشفيع يطلق على الناصر فإن الشفيع ينصر من يشفع له ونظيره قوله عز وجل ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وأنكر عز وجل على أهل الكتاب عبادة آلهة مخلوقة فقال ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ وإثارة الموصول "ما" على كلمة "من" لتحقيق ما هو المراد من كونهم بمعزل من الألوهية رأساً ببيان انتظامهم في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً وإن كانوا يملكون ذلك بتمليكه تعالى إياهم لكنهم لا يملكونه من ذاتهم... وبين الله تعالى أن المشركين لما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعونا﴾ ولما بين تعالى ما هم عليه من الاستهزاء خاطبهم بسوط التقرير لهم والتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذي لا يكاد يدخل تحت الصحة والإمكان ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ أي أخبرونه سبحانه بما لا وجود له ولا تحقق أصلاً؟ فإن ما لا يعلمه علام الغيوب المحيط علمه بالكيلات والجزئيات لا يكون له تحقق بالكلية وهذا تقرير لهم وتهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة ونصرة آلهتهم، والكلام في الآية عطفٌ على جملة ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ عطف القصة على القصة فهذه قصة أخرى من قصص أحوال كفرهم أن قالوا ﴿أنت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ حين تتلى

عليهم آيات القرآن، والمناسبة بين القصتين أن في كليهما كفرةً أظهروه في صورة السخرية والاستهزاء! والتفريع في قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ تفريع على ما تقدم قبله مما تضمن أنهم أشركوا بالله وكذبوا بالقرآن! واختيار صيغة المضارع في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على الإشراك تعجباً من التصميم على الضلال وتعجباً من قولهم ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إذ اعترفوا بأن المتصرف هو الله! ونكتة تقديم نفي الضرر للإشارة إلى شياطينهم الذين استحوذوا عليهم وكانوا يُخَوِّفُونَ عبدَهم بأنهم يلحقون بهم الضرر، فأريد الابتداء بنفي الضرر لإزالة أوهام المشركين الصادة لهم عن نبذ عبادتهم، بينما تقدم نفي النفع في آية الفرقان لانتفاء شفاعة الملائكة والنبیین ابتداء ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ثم بيّن الحق أن الكافر يظاهر شركاءه على ربه بالعداوة والشرك فقال ﴿كَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ والظهير: المعين وهو مشتق من ظاهر عليه إذا أعان من يغالبه على غلبه، وأصله الأصيل مشتق من اسم جامد وهو اسم الظاهر لأن المعاون أحداً على غلب غيره كأنه يحمل الغالب على المغلوب كما يحمل على ظهر الحامل، جعلَ المشركَ في إشراكه مع وضوح دلالة عدم استئصال الشركاء للإلهية كأنه ينصر الشركاء على ربه الحق. وذكر ابن عطية عن مجاهد والحسن وابن زيد: "الظهير" المعين فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة والشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه. ولما بين تعالى شرارتهم بعبادة غير الله وختم بتنزيهه وكماله، أوضح أن هذا الدين الباطل حادث وأن أهل الكتاب كانوا أولاً مجتمعين على الإقرار برسالة النبي ﷺ يستفتحون به على أعدائهم فلما جاءهم بالبينات تفرقوا واختلَفوا

وخالفوا ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ يعني ولو لا عظمة لا يمكن تغييرها لأنها من كلام الملك الأعظم سبقت منه سبحانه وهي إمهاله لهم مع تماديهم في سوء أعمالهم لقضى باستئصالهم.

﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ لما ذكر عز وجل في مطلع السورة أنه سميع لما يقال خبير بحال عباده إذ سمع شكاية المرأة وتحاورها مع رسوله فأنزل فيها ما فرّج كربتها وأرجع إلى كنفها صبيتها، أتبع ذلك بيان حال المحادين أولياء الشياطين المنافقين الأئمة المضلين الذين يغالبون الملك الأعلى ورسوله المجتبي ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ويتسارّون مع شركائهم ويكيدون بالمسلمين ويقولون في أنفسهم - على وجه الاسخفاف والسخرية - لولا يعذبنا الله بما نقول ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم، ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ ونجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة مأخوذة من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلون بنجوة من الأرض أو لأن السر يُصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: «سام عليك» ثم يقولون في أنفسهم "لولا

يعذبنا الله بما نقول" فنزلت هذه الآية "وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله" إلى آخر الآية. وفي الحديث المتفق عليه: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» وروى البيهقي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهب، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجرًا، ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا، مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صخب بالنهار» ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ ولما شدد سبحانه في أمر النجوى وكان لا يفعلها إلا أهل الخدع والنفاق فكان ربما ظن ظان أنه يحدث عنها ضرر لأهل الدين، قال سارًا للمخلصين وغامًا للمنافقين ومبينًا أن ضررها إنما يعود عليهم ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وفي الآيات الكريمات لطائف أنيقة ورموز دقيقة وأسرار جزيلة وحكم جليلة... وما بعدها متصل بها وفيه حضٌّ على طلب العلم وتفصيلٌ أودع عند العلماء وفيه تنويه بشأنهم ودلالة على وجوب طاعتهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ والخطاب في قوله "منكم" في حق الأمة الوسط، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما خص الله تعالى العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية. وقد أوصى الله صفوته من خلقه كيف يستزيد من خزائن علمه فقال ﴿وقل رب زدني علمًا﴾ ولو كان في خزائنه أشرف من العلم لبنهه تعالى إليه. قال مولاي

وسيدي وقرة عيني الإمام الرواس قدس الله روحه العزيز: شأن العلم شأن عظيم، كيف لا، وهو يوصل إلى حضرة تلقي خلعة محبة الله للعبد عليه فيها، بشاهد ما جاء في الخبر عن الصادق الأمين الأبرار عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم - يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» اهـ. ثم بين الله تعالى عظم قدر رسوله عليه السلام والخصوصية له فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ قال الإمام السيوطي في الخصائص: ومن خصائصه أن الله فرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ولم يعهد ذلك لأحد من الأنبياء. وقال ابن زيد: ضيق الله عليهم في المناجاة لئلا يناجي أهل الباطل رسول الله عليه السلام، فشق ذلك على أهل الحق فقالوا يا رسول الله لا نستطيع ذلك ولا نطيعه فنزل التخفيف ﴿ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون﴾ ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه السورة من وصف حال المنافقين المعاندين المحادين المخالفين الكاذبين المكذبين ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم﴾ وجملة "غضب الله عليهم" معترضة بين كلامين لبيان وعيد نفاق اليهود المغضوب عليهم فهؤلاء المنافقون ليسوا من المسلمين في الحقيقة كما أنهم ليسوا من القوم الذين تولوهم في العلانية كما جاء في الخبر عند البيهقي: «فأما من دخل فيهم من الناس فليسوا منهم» وهذا كقوله تعالى ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله عليه السلام: «يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعين شيطان» قال: فدخل رجل أزرق، فقال: يا محمد علام سببتي أو شتمتني أو نحو هذا؟ قال: وجعل

يخلف، قال: فنزلت هذه الآية في المجادلة ﴿وَيُحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
وحكى عز وجل شدة توغلهم في النفاق وأثم سيحلفون يوم القيامة كذباً كما
يخلفون لأوليائه في الدنيا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وهذا متصل في الغرض بما تقدم
من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وهذا تهديد بفضح نفاقهم يوم البعث الذي كذبوا به!
وروى معمر عن قتادة قال: المنافق يخلف لله تعالى يوم القيامة كما كان حلف
لأوليائه في الدنيا! وحلفهم في الآخرة ما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَاللَّهُ
رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ولما كان هذا الانهماك فيما لا يغني مما يحصل لسامعه غاية
العجب من وقوع عاقل فيه مرة من الدهر فضلاً عن ملازمته، أخبر عن الحامل
لهم عليه وهو استحواذ الشيطان واستيلاؤه عليهم وامتلاكه زمام أنفسهم
يصرفها كيف يريد ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ والنسيان مراد
منه لازمه وهو الإضاعة وترك المنسي لقوله تعالى "كذلك أتتك آياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى" والذكر يطلق على نطق اللسان باسم أو كلام ويطلق على
التذكر بالعقل وقد يُخص هذا الثاني بضم الذال وهو هنا مستعمل في صريحه
وكنايته أي مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة لأن المعنى أنه أنساهم توحيد
الله والتوجه إليه بالعبادة، وجملة ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ نتيجة وفذلكة لقوله
"استحوذ عليهم الشيطان" فإن الاستحواذ يقتضي أنه صيرهم من أتباعه، واسم
الإشارة لزيادة تمييزهم لئلا يتردد في أنهم حزب الشيطان، وجملة ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ واقعة موقع التفرع والتسبب على جملة أولئك حزب
الشيطان فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فإن حزب الشيطان هم الخاسرون،

ولذلك عدل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيها على أهمية مضمونها وأنه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة وزيد هذا التحذير اهتماماً بتأكيد الخبر بحرف إن وبصيغة القصر إذ لا يتردد أحد في أن حزب الشيطان خاسرون فإن ذلك من القضايا المسلمة بين البشر فلذلك لم تكن هذه المؤكدات لرد الإنكار لتحذير المسلمين أن تغرهم حبائل الشيطان وتروق في أنظارهم بزة المنافقين وتخدعهم أيمانهم الكاذبة، وإظهار كلمة حزب الشيطان دون الضمير لزيادة التصريح ولتكون الجملة صالحة للتمثل به مستقلة بدلالاتها، وضمير الفصل أفاد القصر وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسارتهم وأنه لا خسران أشد منه فكأن كل خسران غيره عدم فيدعى أن وصف الخاسر مقصور عليهم! وحزب المرء: أنصاره وجنده وجماعته وطائفته والمحدثون به والمتحيزون إليه والموالون له وقد عبّر عنهم صاحب الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله بـ«**قرن الشيطان**» وها هم اليوم قد شنوا حرباً على الله عز وجل وصوروه بصورة تتفق مع عقائدهم الحلولية في أنبيائهم وحصروه في السماء! وذلك ضمن كيد ومكر متكامل استخدموا فيه جميع الوسائل الممكنة في حربهم معه تعالى! كل ذلك تحت شعار التوحيد! ثم أقاموا المراكز الإسلامية في أقطار الأرض لنشر عقائدهم الباطلة وترجموا القرآن إلى أربع وسبعين لغة وفسروه بما شاءت لهم انحرافاتهم أن يقرروه وأعطوا من ظفروا به من معتنقي الإسلام مفاهيم خاطئة ضالة وزجوا بهم في حروب العراق والشام وغيرها وأفسدوا عقول الناشئة والعوام وزينوا لهم الباطل ولبسوه بالحق وأوقدوا نار الشهوات وفتن الشبهات! ثم بين تعالى ما أوصلهم إليه الشيطان فقال معللاً الخسار والنسيان والتحزب **(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في**

الأذلين) والمحادون المذكورون في هذه الآية هم قادة النفاق المسرون للمحاداة المتظاهرون بالموالاة المتقدم ذكرهم في قوله (إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين) والمحاداة: المشاققة والمعاداة والمراد بهم الذين يحادون الرسول الأعظم ﷺ المرسل بدين الله فمحاداته محادة لله، والكبت: الخزي والإذلال والفعل مستعمل في الوعيد أي سيكتبون فعبر عنه بالمضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه لصدوره عن لا خلاف في خبره، وجملة "أولئك في الأذلين" بينت شيئاً من الخسران الذي قضى به على حزب الشيطان الذي هم في مقدمته وبهذا تكتسب معنى بدل البعض من مضمون جملة "ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" لأن الخسران يكون في الدنيا والآخرة وخسران الدنيا أنواع أشدها على الناس المذلة والهزيمة، والمعنى: أن حزب الشيطان في الأذلين والمغلوبين، واستحضارهم بصلة "إن الذين يحادون الله ورسوله" إظهار في مقام الإضمار فمقتضى الظاهر أن يقال: إنهم في الأذلين فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر إلى الموصولية لإفادة مدلول الصلة أنهم أعداء لله تعالى ورسوله ﷺ وإفادة الموصول تعليل الحكم الوارد بعده وهو كونهم أذلين لأنهم أعداء رسول الله ﷺ فهم أعداء الله القادر على كل شيء فعدوه لا يكون عزيزاً ومفاد حرف الظرفية أنهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنهم أذلون أي شديدو المذلة ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنهم أذلون فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال: أولئك هم الأذلون، واسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبل اسم الإشارة وجملة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) علة لجملة أولئك في الأذلين أي لأن الله أراد أن يكون رسوله ﷺ غالباً لأعدائه

وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبيها شيء وقد كتب لجميع رسله الغلبة على أعدائهم فغلبتهم من غلبة الله إذ قدرة الله تتعلق بالأشياء على وفق إرادته وإرادة الله لا يغيرها شيء، فثبت لرسوله ﷺ الغلبة لشمول ما كتبه الله لرسله إياه وهذا إثبات لغلبة رسوله أقواما يحادونه بطريق برهاني، فجملة لأغلبن مصوغة صيغة القول ترشيحاً لاستعارة كتب إلى معنى قضى وقدر أي قضى بالغلبة لله ورسوله ﷺ فكأن هذه الجملة هي المكتوبة من الله والمراد: الغلبة بالسيف والسنان لأن الكلام مسوق مساق التهديد وأما الغلبة بالحجة والبرهان فأمر معلوم، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل لجملة لأغلبن لأن الذي يغالب الغالب مغلوب، قال حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أي قد جئكم بآية من ربكم أي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ لما ذكر تعالى الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام حسن ذكر إرساله إلى بني إسرائيل معدداً خمسة أنواع من المعجزات الدالة على انفراد الله بالربوبية

وكمال القدرة مكرراً قوله "ياذن الله" دفعاً لتوهم من اعتقد فيه الإلهية وتأكيدها
لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى لا بقدرة عبده عيسى. قال سيد العارفين
وتاج المتقين لثيم يمين سيد المرسلين عليه صلوات رب العالمين الإمام أحمد
الرفاعي قدس الله سره وروحه ونور بنور الأنس والرحمة مرقده وضريحه: شأن
الربوبية القدرة في الشؤون كلها وشأن العبدية العجز في الشؤون كلها فالخالق
قادر والمخلوق عاجز فإن ظهر على يد العبد شأن من شؤون القدرة فهو بتقدير
الله له وإلا فهو دون أن يقدر على عينه الضعيفة فيمنعها أن تنام وهي أضعف
أجزاء إنسانيته. اهـ. والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم
إلى طريق الإسلام. وكان الأخبار قد حرقوا التوحيد ووضعوا عقائد باطلة
ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن
موسى، فكفروا بعيسى وعزموا على قتله! والحواريون: اسم أطلقه القرآن على
أصحاب عيسى عليه السلام وعبر عنهم بهذا الاسم إشارة إلى أصل من أصوله وهو أن
يكون أتباعه قد استخلصوا نفوسهم في نصرة من تحق نصرته من إثارة على
أنفسهم بإخلاص وصفاء لا شوب فيه ولا كدر... وقد افترقوا فرقتين؛ فرقة
أمنت ونصرت، وفرقة نافقت وكفرت ومكرت كما أشارت آية الصف
(فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة) والذين كفروا أظهروا الإسلام
وأبطنوا الكفر وقالوا للمسيح عليه السلام: نحن أنصار الله وكانوا بالحقيقة أنصار
الشیطان حيث اختلفوا وخالفوا الحق ومكروا برسولهم كما أرشد المقام
(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي
تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله! والمعنى أن المسيح أحس بطائفة من الحواريين
الكفر وتنبه إلى مكربهم فقال (من أنصاري إلى الله) وضمن النصرة معنى الولاء

أو التوجه والقصد، قال صاحب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: قوله "من أنصاري إلى الله" عبارة عن حال عيسى في طلبه من يقوم بالدين ويؤمن بالشرع ويحميه كما كان محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويتعرض للأحياء في المواسم وهذه الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر عنها يقال من أنصاري إلى الله؟ ولا شك أن هذه الألفاظ كانت في جملة أقواله للناس، والأنصار جمع نصير كشهيد وأشهد وغير ذلك وقيل جمع ناصر كصاحب وأصحاب وقوله "إلى الله" يحتمل معنيين أحدهما: من ينصرنى في السبيل إلى الله؟ فتكون إلى دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها والمعنى الثاني أن يكون التقدير: من يضيف نصرته إلى نصرة الله لي؟ وقال الإمام الرازي: قوله "إلى الله" فيه وجوه الأول: التقدير: من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله، والثاني: التقدير: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى هاهنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي ويظهر أمر الله تعالى. وقال صاحب كتاب التضمين في الكتاب المبين: وفي تضمين المشتق "نصير" معنى "مساند" والمتعدي بـ"إلى" منتهى الوضوح في المعنى وأكشف عن وجه التأويل وأنصع لجلاء الصورة إذ لا بد لكل صاحب عقيدة من أنصار يحملون عبأها ينهضون معه ويحامون عنه ويلغون دعوته فيكِل إلى الله أمره ويعهد إليه شأنه ويسند إليه ظهره ويُبدي الحواريون استعدادهم لنصرة دين الله ومعاضدة رسول الله ﷺ فهم مساندوه إلى الله، والله هو النصير وهو السند والظهير فيتوجهون إلى ربهم قائلين ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ومعناه عقدوا بيعة مع الله على اتباع منهجه والافتداء برسوله وتحقيق هذا المنهج وإثارة الموت في سبيله وهذا خير من حياة لا يتحقق في ظلها

منهج الله فشهادتهم خير من حياتهم، والشهادة في سبيل الله أعز ما يحرص عليه المؤمن فحين سأل من مسانديَّ إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. اهـ. ونكتة إضافة أنصار للرسول دون قوله: من أنصار الله؟ لقصد التنصيص على أن نصرة الله تعالى لا تتحقق إلا بالانقياد التام لرسله. وروى الإمام الطبري عن إبراهيم النخعي في قوله **(فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)** قال: أيدوا بمحمد ﷺ فصدقهم وأخبر بمجنتهم. وقال: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه. وقال الإمام ابن عطية: قيل ذلك بمحمد ﷺ أصبح المؤمن بعيسى ظاهراً لإيمانه بمحمد ﷺ وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى إلا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد لأنه بشر به وحرص عليه، وقيل كان المؤمنون به قديماً ظاهرين بالحجة وإن كانوا مفرقين في البلاد مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا. اهـ. والمكر الذي مكره اليهود برسولهم عيسى ﷺ مكر طويل عريض! فقد قذفوه **الصلابة** وقذفوا أمه الطاهرة، واقتمموه بالكذب والشعوذة ووشوا به إلى الحاكم الروماني، وادعوا أنه يدعو الجماهير للانتفاض على الحكومة! وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الناس! حتى سلم لهم الحاكم الروماني بأن يتولوا عقابه بأيديهم، لأنه لم يجزؤ على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة! وقد أشارت سورة الكهف إلى هذا المكر والاستهزاء بآيات الله ورسله **(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً)** والمراد بالذين كفروا: أهل النفاق وكان تظاهرهم بالإيمان ضرباً من التهكم والاستهزاء بالمرسلين! ومن لطف الله ورحمته أن أرسل الرسل ليعينوا للناس ما نزل إليهم إذ ببيانهم يضمحل ظلم الشبه وينحل عقد الشكوك

وبإرشادهم يحصل كمال الاهتداء ويتم أمر السلوك. ومعنى الجدل بالباطل: إيراد الشُّبه واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق وإبطاله وإزالته بتمويهاتهم وأباطيلهم، والمراد من الآيات: جنس الآيات القولية والفعلية التي أُيدت بها الرسل ويدخل القرآن العظيم دخولاً أولياً والله أعلم، فالكفار اتخذوا جميع ما اشتملت عليه الآيات موضع استهزاء! والاستهزاء بها يتمثل في تحريف معانيها تارة والتظاهر بها مع مخالفتها تارة أخرى! وعطف الإنذار على الآيات عطف خاص على عام وهو أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم لأنهم نازعوا الله في سلطانه وتظاهروا بكلامه تعالى وكلام رسله على وجه الاستهزاء كما قال عز وجل ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ وذلك حين أضافوا إلى كفرهم الاستهزاء بالكتاب والسنة، وخلعوا على أنفسهم ألقاب المجددين والمصلحين! ونورد ما كتبه قاضي الدرعية ومفتي الدولة الوهابية الثانية عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في الرسالة الثانية من رسائله وفتاويه: فاعلم أن لا إله إلا الله هي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام وهي العروة الوثقى وكلمة التقوى وهي الكلمة التي جعلها إبراهيم الخليل باقية في عقبه لعلهم يرجعون ومعناها نفي الشرك في الألوهية عما سوى الله وإفراد الله تعالى بالألوهية، والألوهية هي تأله القلب بأنواع العبادة كالحبة والخضوع... وكل فرد من أفراد العبادة لا يستحق أن يقصد به إلا الله وحده فمن صرفه لغير الله فقد أشركه في حق الله الذي لا يصلح لغيره وجعل له ندا وقد عمت البلوى بهذا الشرك الأكبر بأرباب القبور والأشجار والأحجار واتخذوا ذلك ديناً زعموا أن الله تعالى يحب ذلك ويرضاه وهو الشرك الذي لا يغفره الله كما قال تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

(يشاء) وقال تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)... إلخ. وقد سلك هذا اللعين مسلك أبيه وساق خطاب المسيح ابن مريم لبني إسرائيل وبدّله، وهذا تمحلّ المبطلين وتحريف المكابرين وتأويل الجاهلين. أخرج ابن أبي شيبة عن سيدنا عمر أنه قال: «أخوف ما أتخوف على هذه الأمة قوم يتأولون القرآن على غير تأويله» تكلّموا في البدع وقد عقدوا ألويتها، وكتبوا في الفتنة بعد أن أطلقوا عقابها، مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب! يصدفون عن آيات الله ويقولون على الله الكذب ويتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، وهذا شأن أولياء الشيطان وأهل الشرك والكفران! نعوذ بالله من زيغ الزائغين وإضلال الضالين المضلين... وهذه طريقة علماء بني إسرائيل الذين حكى عنهم رب العزة (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها - يعني صد الناس عنها وصرفهم عن حقيقتها ومال عن استقامتها - سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) ومن سُخريات علماء الدولة الوهابية الثالثة ما جاء على لسان صالح آل الشيخ في شرح كشف الشبهات حيث قال: **والنوع الثاني من الأدلة الذي فيه الأمر بالإخلاص بيان أن المشرك الذي لم يخلص لله جل وعلا أنه كافر وأنه من أهل النار، كقول الله جل وعلا (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وكقول الله جل وعلا (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)** ونحو ذلك من الآيات التي فيها بيان مصير المشرك الذي جعل مع الله في العبادة غيره، يعني لم يخلص دينه لله، وأشباه ذلك من الأدلة! انتهى. وما قرّره هذا المحرم يقطع بافتراءه على الله

سبحانه واستهزائه بآياته العظام، نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته. والمتتبع لرسائل أهل الكتاب يتعجب من كثرة ذكّرهم للإخلاص! وهذا لعمرى من الاستهزاء. مكان! فضلاً عن السفاهة والوقاحة والقساوة والفسادة على الطعن في الدين! وأفعالهم تنادي على كذبهم بأعلى صوت، فلعنة الله على الكاذبين.

الفصل السادس:

ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون

الكلام في الآية عطفٌ على ذكر رسالة موسى عليه السلام ودعوته إلى ربوبية الله تعالى **(فقال إني رسول رب العالمين)** وتمهيد بين يدي قوله تعالى **(ولما جاء عيسى بالبينات)** وضربُ المثل: سَوِّقُهُ أَطْلُقُ عَلَيْهِ الضَّرْبَ. بمعنى الجعل والوضع كما يقال: "ضرب خيمة" والمراد بالمثل: الممثل به والمشبه به - والله أعلم - لأن القرآن نظَّرَ إشراكهم الملائكة بإشراكهم عيسى بالعبادة، والمعنى: ولما جعل عيسى ابن مريم شبيهاً لله تعالى - أي قالوا: إنه الله وابن الله وثالث ثلاثة - إذا قومك منه يصدون أي من أجله عن التوحيد يعرضون، وهذا على قراءة ضم الصاد، ومن قرأ بكسرهما فمعناه: أن القرآن لما حكى عن بني إسرائيل إشراكهم ابن مريم بالعبادة لصرف الناس عن إشراكهم في الحكم وبيّن دعوة المسيح إلى التوحيد **(إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه)** إذا هم يضحجون ويصخبون ويجزعون ويمتعضون ويقولون: ءآلهتنا خير أم هو؟ وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم - والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل، وكلمة "قومك" تعني العرب على وجه الخصوص، والآيات وإن نزلت في مشركي قريش إلا أن المقصود منها أهل الكتاب - والله أعلم - لأن مشركي قريش لا علم لهم بالكتاب ولا بابن مريم سوى ما بلغهم عن أهل الكتاب. والآيات تكشف عن التوائهم في جدل يبتغون به صرف الناس عن الحقيقة **(وقالوا ءآلهتنا خير أم هو)** يعنون عيسى ابن مريم الذي أشركوه بالعبادة وهو استفهام بمعنى التقرير منهم أي: الملائكة من أهل السماء وعيسى أرضي فكان عندهم الملائكة خيراً من البشر فإذا جازت عبادة أهل الأرض جازت

عبادة أهل السماء! وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم من الملائكة: السخرية والاستهزاء! وقولهم هذا تمهيد لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء، فأبطل الله تعالى قولهم بأنه مقايضة باطل بباطل وأنهم في اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثل اتخاذهم الملائكة وهم عباد مكرمون! ويرشح لهذا المعنى رصف الآيات في صدد أسطورتهم عن الملائكة في مطلع السورة ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون﴾ ثم حكى قولهم المنبئ عن سخريتهم ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فكشف ما استبطنوه من كلامهم، وأنكر عليهم سبحانه في صيغة الاستهزاء بهم والتجهيل أن يتخذ البنات ويصطفي لهم البنين، مع اعتقادهم أن البنات أخط قدراً من الذكور، فجمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر: الإشراك والتنقيص والاستهزاء! وقوله سبحانه ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ هو ردُّ لقولهم ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي ما لهم بذلك من علم قاطع مستند إلى الوحي ولكنهم يكذبون! قال بعض الأجلة: إن كفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء! وبعد أن نفى أن يكون هذا القول مستنداً إلى حجة العقل، انتقل إلى نفى أن يكون مستنداً إلى حجة النقل ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ وقد بلغ من سوء أدب بني إسرائيل وعظيم وقاحتهم وجلافة قلوبهم أن يقولوا كلمة أشد جراءة وتهجماً وكفراً ترتجف وتنفطر من سماعها السماوات وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ... وذيلت السورة بالتعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وبين اتخاذهم آلهة

يعبدونها شركاء لله حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم! وعرج على إبطال حججهم ومعاذيرهم وسفه تخیلاتهم وترهاقهم، وخص سبحانه إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه كما خص بالذكر رسالة موسى وعيسى، وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم وأنذرهم بمثل عواقبهم وحذرهم من الاغترار بإمهال الله وتوعدهم بعذاب الآخرة ومثلهم بفرعون في استهزائه بالملائكة واقتترانه بالشياطين وتعززه بهم إذ قال ﴿أنا خير - أي بل أنا خير - من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين - أي ولا يكاد يفهم - فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب - أي هلا سورّ بأسورة من ذهب علامة لسيادته - أو جاء معه الملائكة مقترنين - أي يقارن بعضهم بعضاً في المعونة يعينونه على من خالفه ويحمونه ويقيمون حجته - فاستخف قومه - أي استفزهم بالقول - فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين، فلما آسفونا - أي أسخطونا - انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي فجعلناهم قدوة للآخرين من كفرة بني إسرائيل يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم ومثلاً يحدثون به. وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضاها المقام وتحديد نشاط السامع لقبول ما يلقي إليه، وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والقوارع شيء عجيب مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم، وقد جرت آيات هذه السورة على إيجاز فائق ونمط رائع وأسلوب لائق. وفي ختام السورة أمر الله رسوله أن ينتقل إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ جمعاً

بين الرد عليهم في عبادة الملائكة، وعبادة ابن مريم، أي قل لهم إفحاماً في صرفهم الناس من توحيد الحكم إلى شرك العبادة: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدّين. وقوله ﴿ما ضربه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ الضرب مستعمل مجازاً في الوضع والجعل من قولهم: ضرب له سهماً أي لم يضربوا لك هذا المثل إلا إظهاراً للغلبة في المجادلة دون طلب الحق بالمباحثة وما أرادوا إلا التمويه بصرف الناس عن إشراكهم في الحكم، حيث حرّفوا التوحيد الواضح البيّن واتخذوا من ابن مريم مادة للجدل ابتغاء تعبيد الناس، والجدال عند العرب: المحاوراة بمغالطة! ومن خلال رسائلهم يتضح الالتواء في الجدل والمراء في المناقشة ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول بأنهم ذوو لد في الخصومة ومهارة في التمويه، فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم، فيلوونه عن استقامته ويتلمسون شبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحيكات الجدلية التي يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص وفقد الاستقامة، وقد أشار إليهم النبي ﷺ بقوله: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا هذه الآية ﴿ما ضربه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم. ومعنى قوله ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي إسرائيل﴾ أي ما هو إلا عبد مُكْرَم مُنْعَمٌ عليه بالنبوة مرفوع المنزلة والذكر جعلناه عبرة وآية يتمثل بها في الاستدلال على قدرة الله تعالى وقُدوة لبي إسرائيل مجدداً للإسلام بينهم وميرهاً بمعجزاته على وحدانية الله تعالى، ونحوه قوله تعالى في موسى ﷺ ﴿وجعلناه هدى لبي إسرائيل﴾ وأشار إلى توالي الأنبياء بقوله ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ يعني أنبياء... وفي قوله ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ إبطال لشبهة الذين ألّهوه وعبدوه ليصرفوا الناس عن إشراكهم في الحكم، فدلت

الآية على أن الله بعث عيسى مجدداً للإسلام ومعيداً لتشريف الله بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سبباً لتوحيدهم وإسلامهم ومُظهراً لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به ولعناد الذين منعهم الدفع عن حرمتهم من الاعتراف برسالته ومعجزاته فناصره العداة وسَعَوْا للتكيل به وقتله فعصمه الله منهم ورفعَه من بينهم فاهتدى به أقوام وافتن به آخرون. وقد قُصِرَ عيسى على العبودية على طريقة قصر القلب للرد على الذين زعموه إلهاً أي ما هو إلا عبد كما خلقنا آدم خلقناه وأيدناه بروح القدس من الملائكة وجعلنا له من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك حجة على دعوته إلى التوحيد والإسلام، وفي قوله **(لبي إسرائيل)** إشارة إلى أن عيسى لم يُبعث إلا إلى بني إسرائيل، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في عصور الكفر والشرك فإنما تقلدوا دعوته لأنها تنقذهم من ظلمات الشرك! ولما أشار تعالى إلى إبطال ضلالة الذين أشركوا عيسى بالعبادة وزعموه ابناً لله تعالى؛ أتبع ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة وهي ضلالتهم بإشراكهم الملائكة بالعبادة على وجه السخرية وادعائهم بنوة الملائكة لله تعالى المتقدم حكايتها في قوله **(وجعلوا له من عباده جزءاً)** فأشير في الآية **(ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يَخْلِفُونَ)** إلى أن الملائكة عباد لله تعالى جعل مكانهم العوالم العليا وأنه لو شاء لاستخلف الملائكة في الأرض بدلاً عنكم كما كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته فليس تشريف الله إياهم بسكنى العوالم العليا بموجب بُنوتهم لله، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا تمييزه بالتكوّن من دون أب مقتضياً بنوته لله تعالى! ويحتمل أن يكون المعنى: ولو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة بأن نُخلقهم على صورة الإنس وإن كان خلاف العادة كخلق عيسى من غير أب خلاف العادة

في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، وإن شئت قلت: لو نشاء لقلبنا بعضكم أو جميعكم ملائكة يخلفونكم في الأرض كما جعلنا هؤلاء الملائكة الذين تعبدوهم سكان السماوات فليس إسكانهم في السماء يوجب لهم إلهية.

ثم ثني العنان إلى نزول ابن مريم **(وإنه لعلم للساعة)** أي نزوله علامة على قرب الساعة، ويحتمل أن يكون الضمير مراداً به تأويل القرآن موَّجه من جانب الله تعالى إلى المنكرين فيكون هذا ثناء آخر على القرآن فالثناء عليه استمرّ متصلاً من أول السورة آخذاً بعضه بـمُحْز بعض متخللاً بالمعترضات والمستطردات ومتخلصاً إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة، ويفسره ما تقدم من قوله **(بالذي أوحى إليك)** ويبيّنه قوله بعده **(إنك على صراط مستقيم)** ومعنى أنه علم للساعة: أنه لم يبق بعد مجيئه إلا انتظار الساعة، وناسب هذا التفرّيع في قوله **(فلا تترنّ بها)** لأن القرآن لم يُبق لهم مِرية في وقوعها. ولما أُبلغت أسماعهم أفانين المواعظ وأخذَ ذلك حظه من البيان انتقل الكلام إلى قول سيد الكائنات مأموراً به من جهته تعالى **(واتبعون)** للتأكيد على وجوب اتباعه في كل ما يدعو إليه واعلم أنه لا يتوصل لذلك إلا بعد شدة الاعتناء به ﷺ ولا يتوصل لشدة الاعتناء به إلا بالمبالغة في حبه وقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»** وأما عيسى عليه السلام فإنه ينزل في آخر الزمان متبعاً له ﷺ **(هذا صراط مستقيم)** أي اتّباعي الذي أدعوكم إليه صراط مستقيم، ولما حثهم على اتباع الرسول الهادي المرشد الرشيد، حذرهم من العدو المحترق البعيد مشيراً إلى الوصلة بينهم وبين ذلك المبعد الطريد فقال **(ولا يصدنكم الشيطان)** وقد صيغ النهي عن طاعة الشيطان في صدّه إياهم بصيغة نهي الشيطان عن أن يصدّهم للإشارة إلى أن في مكنتهم

الاحتفاظ من العلوق في حبال الشيطان، وجملة **(إنه لكم عدو مبین)** تعليل للنهي عن أن يصددهم فإن شأن العاقل أن يحذر من مكائد عدوه، وقد أذكى تلك العداوة حدثٌ قارنٌ نشأة نوع الإنسان عند تكوينه في قصته مع آدم كما قصه القرآن غير مرة...والقرآن لا يفتأ يذكرهم بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان، ولكن أوليائه يصرون على اتباع هذا العدو الصريح! وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر! وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائمة التي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان فينتصر على الشرك والخبث والرجس ويثبت في الأرض قوائم التوحيد والخير والنصح.

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) لما ذكر الحق أنه جعل مريم وابنها آية للعالمين أعقب بذكر خروج يأجوج ومأجوج وجعل ذلك من أشراط الساعة التي كذب بها المكذبون! ونظير هذا قوله تعالى **(إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض)** إلى قوله **(فإذا جاء وعد ربي)** يعني فإذا دنا مجيء الساعة جعل السد دكاً...وفي الحديث عند الترمذي: **«ويحاصر عيسى ابن مريم وأصحابه حتى يكون رأس الثور يومئذ خيراً لأحدهم من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب عيسى ابن مريم إلى الله وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى موتى كموت نفس واحدة»** الحديث.

فتنة الدجال

ظهر الدجال لم يقتصر على الصورة التي ظهر بها لتميم الداري في الجزيرة بل ظهر في صورة ابن صياد - من أجل أهداف أخرى - كما يدل على ذلك حلف الصحابة رضوان الله عليهم... ومعلوم أن القوى الغيبية تتعدد صورها فقد ظهر جبريل عليه السلام في صورة دحية وفي صورة أعرابي وفي صورة شاب... وفي الحديث عند الإمام أحمد: «يَمُكُثُ أَبُو الدَّجَالِ ثَلَاثِينَ عَامًا لَا يُولَدُ لَهَا ثُمَّ يُولَدُ لَهَا غُلَامٌ أَعُورٌ أَضْرَ شَيْءٍ وَأَقْلَهُ نَفْعًا تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ» ثم نعت أبويه فقال: «أَبُوهُ رَجُلٌ طَوَالَ مَضْطَرَبِ اللَّحْمِ طَوِيلِ الْأَنْفِ كَأَنَّ أَنْفَهُ مَنْقَارٌ وَأُمُّهُ امْرَأَةٌ فَرِضَاحِيَّةٌ عَظِيمَةُ الثَّنَدِينَ» قال: فبلغنا أن مولوداً من اليهود ولد بالمدينة قال: «فانطلقت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه فرأينا فيهما نعت رسول الله ﷺ وإذا هو منجدل في الشمس في قطيفة له همهمة فسألنا أبويه فقالا: مكثنا ثلاثين عاماً لا يولد لنا ثم ولد لنا غلام أعور أضر شيء وأقله نفعاً، فلما خرجنا مررنا به فقال: ما كنتما فيه؟ قلنا: وسمعت؟ قال: نعم، إنه تنام عيناى ولا ينام قلبي فإذا هو ابن صياد» وفي رواية أن النبي ﷺ أتى داراً قوراء فقال: «افتحوا هذا الباب» ففتح ودخل النبي ﷺ ودخلت معه فإذا قطيفة في وسط البيت فقال: «ارفعوا هذه القطيفة» فرفعوا القطيفة فإذا غلام أعور تحت القطيفة فقال: «قم يا غلام» فقام الغلام فقال: «يا غلام أتشهد أني رسول الله؟» قال الغلام: أتشهد أني رسول الله؟ قال: «أتشهد أني رسول الله؟» قال الغلام: أتشهد أني رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من شر هذا» مرتين. والنبي ﷺ أمرهم بالتعوذ من الظهور الأول والتعوذ من الظهور الثاني إنذاراً وتخويفاً وتعليماً وأخذاً بالأسباب رغم علمه بالحدث... والاختلاف في

شأن الدجال له حكمة بالغة في إخفاء حقيقته حتى لا يُعرف ولا يُمَيَّز كما هو الحال في كثير من قضايا الغيب التي مَوَّه الشارع ﷺ فيها الأمر ولم يفصح فيه ببيان مجمع عليه والمتأمل للنصوص بروية وتحقيق يستطيع أن يتفهم سر العلاقة بين الدجال ويهود بني إسرائيل فإن دائرة العنصر الإسرائيلي عبر التاريخ هي المعنية بترويج وإشاعة الدجل في تاريخ الشعوب! واليهود منذ عهد موسى عليه السلام وهم يعملون على تلبس الحق بالباطل وإفساد منهج الرسل والأنبياء وتحريف ما أمكن تحريفه واحتواؤه وهذا ما فعلوه مع كافة أنبيائهم حتى بُعث الحبيب الأعظم سيدنا محمد ﷺ فكان من وقائع نفاقهم ومكرهم وخداعهم وتآمرهم ما هو معلوم وكانوا هم القائمين على محاولة قتله ﷺ لولا أن الله عصمه منهم والمتتبع لهذه الفئة على مدى تاريخها يلاحظ الشراكة بينها وبين الشيطان واندراج حيلها وتمويهها ووسائلها في الأمة الإسلامية والإنسانية وتجنيد الشعوب لتنفيذ برامج الدجل والظلم والفساد في كافة شؤون الحياة وذكر صاحب الكشاف في تفسير الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح ابن داود - يريدون الدجال - ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك! فسمى الله تمنيهم ذلك كبراً ونفى أن يبلغوا متمناهاهم. اهـ. وفي حديث ابن عمر عند الطبراني: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الدَّجَالَ وَبَيْنَ يَدَيِ الدَّجَالِ كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ أَوْ أَكْثَرُ» قلنا: ما آيتهم؟ قال: «أَنْ يَأْتُوَكُمْ بَسَنَةٌ لَمْ تَكُونُوا عَلَيْهَا يَغَيِّرُونَ بِهَا سَنَتَكُمْ وَدِينَكُمْ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَاجْتَنِبُوهُمْ وَعَادُوهُمْ» ولا يخفى على ذي لب ما

أحدثوا من تغيير السنة وتفريق الكلمة وتكفير الأمة! ولا شك أن إكفار المسلم
بأمر أو بشبهة تتسع لها الشريعة بتأويلاتها واعتباراتها يعد إلزاماً بما لا يلزم.

الفصل السابع:

مسيح الهداية هُوَ يُدْ بِالْمَلَأَكَةِ...ومسيح الخلافة مقروء بالشياطين

روى الإمام مسلم عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفيها فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً

كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله...» الحديث. وفي رواية لابن ماجه: «وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرايت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني أثبعه فإنه ربك...» الحديث. وفي رواية لأحمد: «وإنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، ويقول للناس: أنا ربكم...» الحديث. وقال تعالى في حق ابن مريم (ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله) وقال عز وجل (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) فأيده الله تعالى بجبريل عليه السلام منذ صباه إلى حال كبره وبهذا التأييد حفظه الله تعالى من أعدائه اليهود فقد ثمالاً اثنا عشر ألف يهودي لقتله فلم يتمكنوا منه ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين! وفي صحيح الإمام البخاري: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى» والمراد بالبطانتين: الملك والشیطان، والله ورسوله أعلم.

الفصل الثامن: حكمة المسيح

لما قدّم سبحانه أنه أنعم على ابن مريم وجعله مثلاً لبني إسرائيل ولوّح إلى استهزائهم وأمر باتباع الهادي ونهى عن اتباع الشيطان؛ أوصل إلى المقصود من ذكر عيسى فقال عاطفاً على ما تقدم مبيناً كيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا من بعده ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ وحذف جواب "لما" لدلالة بقية الكلام عليه، وموقع "لما" هنا أن مجيء عيسى بالبينات صار معلوماً للسامع مما تقدم في قوله ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ أي لما جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به، فحذف الجواب لأن المقصود والله أعلم هو قوله ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ فتم التشابه بين تكذيبهم لرسولهم وبين تكذيبهم لسيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ وقد جادل بنو إسرائيل في دعوة المسيح وخلطوها بالباطل كما في قوله ﴿ما ضربه لك إلا جدلاً﴾ أي ليّاً وفتلاً، والجدل هنا الذي يوجب تقرير الباطل، فإشراكهم الملائكة والنبين بالعبادة انحرافٌ عن التوحيد وصرفٌ عن الربوبية وصدٌّ عن الإسلام، وقوله ﴿بل هم قوم خصمون﴾ إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويهاً على عامتهم، والخصم بكسر الصاد: شديد التمسك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده، فهو يُظهر أن ذلك ليس بحق. ولما ذكر قصة جدالهم وكان سببه هو إلباس الحق بالباطل، لم يترك الكلام ينقضي دون أن يردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة إظهاراً لخطأ رأي

الذين ادَّعوا إلهيته وعبدوه حرصاً على الاستدلال للحق لأن الإلهية تنافي العبودية، أخرج الترمذي عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإذا أن تأمرهم وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتألوا المسجد وتعدَّوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيّده فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟» الحديث. ومعنى قوله ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ أي بالإنجيل والنبوة المبيّنة له فاعسى ﷺ جاء ليبين لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة وأصول الدين وجاء ليكشف عن حقيقة التوحيد الموصل إلى اليقين ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي أدلة الوحدانية التي تضمنتها التوراة فحرفها أحبارهم وهذا التحريف يكون بالكتمان وبسوء التأويل اتباعاً للهوى، وجملة ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ بيان وتفسير لجملة ﴿قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ وهذه هي دعوة عيسى التي بيّنها لهم، حيث دعاهم إلى كلمة التوحيد التي لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض، وأكد ذلك بقوله ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي أن اتباع الرسول في عبادة الله وإفراده بالوحدانية لا التواء فيه ولا اعوجاج ولا زلل فيه ولا ضلال ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ قال مجاهد: «الأحزاب هم أهل الكتاب من

اليهود والنصارى» والمعنى أنهم ضلوا في أمر المسيح وتفرقوا بعد محاولتهم الفتك به فزعموا أنه الله وثالث ثلاثة وابن الله مع بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله أرسله الله بالحق يدعوهم إلى الصراط المستقيم وضلوا في وصف جبريل والملائكة الكرام كما تقدم وقد سبب عن اختلافهم قوله ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ ثم أتبعه ما هو كالتعليل مبرزاً له في سياق الاستفهام لأنه أهول فقال ﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ ولما كانت الساعة تطلق على الحبس بالموت وعلى النشر بالحياة، بين ما يكون في البعث والنشور الذي هم له منكرون من أحوالهم مع الأنداد الذين كانوا يوادونهم ويحبونهم فقال ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ أي يعادي بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً إلا المتقين فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة.

﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ في الآية الكريمة من التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائق ما لا يخفى، ومن هذا القبيل عامة ما وقع في التنزيل من قوله تعالى ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي الحكمة البالغة والعدل القويم ويسمى هذا صراط الربوبية وهو صراط الحق والحكمة الإلهية التي يدبر بها أمور الخلائق ويتصرف فيهم، ونحوه قوله سبحانه ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾ إلى غير ذلك من النظائر... وجاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية ما نصه: «وراء الرب إلهكم تسبرون وإياه تتقون ووصاياهم تحفظون وصوته تسمعون وإياه تعبدون» وقد سطر المولى سبحانه في سورة مريم وصية عيسى لبني إسرائيل في آيات

بينات ذيلها بقوله ﴿وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ فهل يرجع أصحاب ميثاق الدرعية إلى وصية المسيح بعد ظهور الحجة ووضوح الحجة؟ وقد ذكر الله تعالى في آية الكهف اختصاصه بما غاب في السماوات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها وأنه وحده العالم به، وجاء بصيغة التعجب ما يدل على إدراكه المسموعات والمبصرات ﴿له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ أي ما لهم من ولي أشركوه بعبادته يشفع وينفع ولا يشرك في حكمه أحداً فينصر ويدفع، وهي أوضح آية في الإرشاد إلى التوحيد الذي حرّف المبطلون ومن كان على شاكلتهم معناه فأفسدوا الدين من مبناه! وموقع الجملة ﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ بين قوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ وبين قوله ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك﴾ يفيد وحدة العلاقة بين مفهوم الربوبية والحكمة، وفي ذكر الرب ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ دون أن يقال "ذلك لمن خشي الله" تعريض بأن الكفار لم يراعوا حق الربوبية إذ لم يخشوا ربهم فهم عبيد سوء! ودعوة المسيح إلى توحيد الربوبية جاءت تنفيذاً لأمر إلهي ﴿أمرتني به﴾ فبدّلها بنو إسرائيل بشرك العبادة واتخذوه وأمه إلهين من دون الله! وهذا ما أشار إليه المولى سبحانه في سؤاله المسيح ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ وفي الآيات دلالة إلى أن الله عرفه أفعال القوم وتبديلهم مقالته بعد رفعه إليه ﴿قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ روى ابن جرير وابن المنذر عن عامر الشعبي قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس وعيسى ابن مريم فأما إبليس

فيقوم في حربه فيقول "ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما
 أشركتمون من قبل" وأما عيسى عليه السلام فيقول "ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن
 اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت
 أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد" ومعنى قوله **(وكنتم عليهم
 شهيداً ما دمت فيهم)** أي كنت عليهم حاكماً ورقياً، ونحوه قوله تعالى
(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) ولما كان
 الشاهد على الشيء والعارف به جارياً مجرى الحاكم عليه سمي ذلك الشاهد
 حاكماً. ومعنى قوله **(فلما توفيتني)** يعني رفعتني إلى السماء. ويؤيده ما أورده
 السيوطي في الدر المنثور عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لليهود: **«إن عيسى
 لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»** وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على
 حقيقة الصراع الذي تعانیه الأمة معهم اليوم، فإن عيسى بُعث إليهم قبل أن
 يقولوا: المسيح ابن الله وإنما كانت فيهم نحلة الإشراك في الحكم، وضمير الفصل
 في قوله **(إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه)** أفاد القصر، أي الله ربي لا غيره،
 وهذا إعلان بحقيقة الوحداية التي فرّع عليها الأمر بعبادته، فإن المنفرد بالعبادة
 حقيق بأن ينفرد بالألوهية والربوبية، وزيد هذا الإعلان اهتماماً بتأكيد بحرف
(إن) لتحقيق الربوبية وتحقيق نسبتها وإبطال تردد المتردد، مع تعريف المسند
 والمسند إليه **(الله ربي وربكم)** المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم
 والمخاطب قصراً إضافياً، وفي معنى الربوبية ما ورد في الحديث عند الإمام
 مسلم: **«فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب
 غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام»**
 الحديث... وقوله "ولك رب غيري" أي سيد ومالك ونظير هذا مارواه البزار في

مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي مررت برائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ماشطة امرأة فرعون سقط مشطها من يدها فقالت: باسم الله فقالت ابنة فرعون: أبي؟ فقالت: ربي ورب أبيك، قالت: أخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم فأخبرته فدعا بها فقال: ولك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك، فأتى ببقرة من نحاس فأحميت ثم قالت: إن لي إليك حاجة تجمع عظامي وعظام أولادي قال: إن لك علينا من الحق كذا فألقاها وأولادها حتى بلغ إلى صبي رضيع فيهم فقال: اصبري يا أمه فإنك على الحق، فألقيت هي وأولادها في البقرة، فتكلم أربعة وهم صغار شاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى» وقوله ﴿وَلَا يَنْبَغُ لَكُمْ﴾ عطف على ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ لأن كليهما متعلق بفعل ﴿جِئْتَكُمْ﴾ واللام للتعليل، والتبيين: تجلية المعاني الخفية لغموض أو سوء تأويل، والمراد ما بينه عيسى في التوحيد الذي اختلفت فيه أفهامهم ثم حرفوه! والفاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ للتفريع وقد ظهر حُسن موقع هذا التفريع بعد التقدم ببيان انفراد الله بالربوبية وذلك أصل الإسلام كما جاء على لسان الخليل ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ومن هذا القبيل عامة ما وقع في التنزيل من قوله جل شأنه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ وقوله سبحانه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ إلى غير ذلك من النظائر لأنه إذا ثبت تفرد الله بالربوبية توجّه الأمر بعبادته إذ لا يُعبد الله إلا من اعترف بربوبيته، ولهذا حُسِّن تذييل الحجة بقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ونحوه قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ولما أشهد تعالى بني آدم على أنفسهم أَلست بربكم؟ اقتضى ذلك

توجيه الرغبات إليه بالسؤال تلقيناً لأهل لطفه وتنبههاً على محل السلوك الذي لا وصول بدونه فقال في سورة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وقد فسرهُ النبي ﷺ بقوله: «**الصراط هو الإسلام**» ويشمل قضايا الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية، ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وفي وصف الصراط بالمستقيم إيماء إلى أن دين الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يَهْوِي أهله إلى هُوَّة الضلالة، والصراط المستقيم هو اتباع سيد الأنام، والهداية إلى مقام الإسلام، وتحقيق مقام الإيمان، والترقي إلى مقام الإحسان، وهذا هو الدين القائم على الإقرار بالوحدانية التي حاد عنها الأحزاب ونشأ الاختلاف من بينهم دون أن يدخله عليهم غيرهم ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ كما أخبر تعالى عنهم في معرض الكلام على مريم وابنها ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين، إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ ونظيره قوله سبحانه ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين، يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ والزبر جمع زبور وهو الكتاب واستعير اسم الكتاب للدين لأن شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، أي اتخذوا لأنفسهم أدياناً وعقائد لو سجلت لكانت زبراً، وقد تفرَّعَ على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم فنقضوا وصايا رسلهم وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وفرقوا الأمة الواحدة إلى أمم مختلفة وأحزاب متخالفة وملل متعددة، وابتدعوا قضية الشرك بالعبادة بعد رفع المسيح وزعموا أنه تعالى اتخذ ولداً كما حكى سبحانه في سورة مريم ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى

أمرنا فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم،
فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) والمراد
بالأحزاب: أحزاب يهود ونصارى بني إسرائيل - والله أعلم - وكان اختلافهم
بعد رفعه إذ أضلهم الله بسبب محاولة الفتك به! وكانوا قد ناصبوا الملائكة
العداء وجبريل منزل الوحي بصفة خاصة فعوقبوا بالحيرة والضلال إذ وصفوا
الملائكة بالإناث ووصفوا حلفاءهم من الجن بالبنيين وجعلوا له من عباده بنتاً
بزعمهم أن الله سبحانه وتعالى صاهر سادات الجن فولد منهم البنات فالملائكة
بنات الله من سروات بنات الجن - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً -
وهكذا تمكن بنو إسرائيل من تحريف رسالة المسيح وتفريغها من جوهرها
وجعلها مزيجاً من الوثنية والطقوس الفارغة التي لا تصلح إلا لتعبيد الناس
للملوك! أخرج الحاكم والبيهقي والطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود
قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن مسعود» قلت: لبيك يا رسول
الله، قال: «تدري أي الناس أعلم؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «إن أعلم
الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل وإن كان
يزحف على استه زحفاً، واختلف من كان قبلي على ثنتين وسبعين فرقة نجا منا
ثلاث وهلك سائرهما، فرقة وازت الملوك وقتلتهم على دين الله ودين عيسى ابن
مريم حتى قتلوا، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهري قومهم
فدعوههم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلتهم الملوك ونشروهم بالمنشير،
وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرائهم يدعونهم إلى
دين الله عز وجل ودين عيسى ابن مريم ﷺ فساحوا في الأرض وترهبوا» قال:
وهم الذين قال الله (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) الآية فقال النبي ﷺ:

«من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يتبعني فأولئك هم الهالكون».

قوله تعالى: مخبراً عن عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وفي سورة مريم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فعطف الآية على ما قبلها بواو النسق وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بغير حرف النسق مع زيادة الفصل بالضمير من قوله "هو" ولم يقع ذلك في الآيتين قبل كما لم يقع العطف في الأولى والثالثة فانفردت كل آية من الثلاث بما وردت عليه مع اتحاد المقصد فيما أعطته كل واحدة منها فللسائل أن يسأل عن ذلك؟ والجواب والله أعلم: أن آية مريم لما تضمنت مقالة عيسى عليه السلام وآية كلامه في المهد مخبراً عن حاله النبوية وما منحه الله من الخصائص الاصطفائية فقال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا﴾ إلى ما أعقب به هذا من الخصائص الجليلة منسوقاً بعضها على بعض لبيان تعداد تلك النعم إلى قوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ فذكر ما حفظ الله عليه من كرامته في هذه الأحوال الثلاثة البشرية وهي: حال الولادة وحال الموت وحال البعث بعده وهذه أحوال تنزه الربوبية عنها وتتعالى عن تجويزها عليه سبحانه وإذا صحبتها العادة لم تكن نقصاً في البشرية إذ بها امتيازها وهي من حيث الحيوانية الحادثة فصلها، ثم لما كان من تمام إخبار عيسى عليه السلام وتعريفه بما عرف به وتكميل ما قصد به إقراره لله سبحانه بالربوبية للكل في قوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وكان متصلاً بما تقدم وكأنه قال: إني عبد الله ومخصوص منه بكذا وكذا ومعترف بانفراد خالقي بملك الكل وقهرهم وخلقهم فهو ربهم ومالكهم والمعبود الحق فلما كان الكلام من حيث معناه متصلاً وقد ورد أثناءه ما يعطي

بظاهره حين أخبر تعالى عنه بقوله **عليه السلام** **(والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً)** كان كلام عيسى **عليه السلام** قد تم وانقضى وشرع في قضية أخرى من التعريف بحقيقة أمر عيسى **عليه السلام** فقال تعالى **(ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)** فورد هنا مورد الجمل التي كأنها مفصولة مما قبلها مع الحاجة إليها واتصال ما بعدها بما قبلها لم يكن بد من حرف النسق ليحصل منه أنه كلام غير منقطع بعضه من بعض ولا مستأنف بل هو معطوف على ما تقدمه من كلام عيسى **عليه السلام** فلم يكن بد من حرف النسق لإحراز هذا الالتحام إذ لم يكن ليحصل دون حرف النسق حصوله معه ف قيل **(وإن الله ربي وربكم)** وهو حكاية قول عيسى متصلاً من حيث معناه بقوله **(والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً)** فالوجه عطفه عليه مع الحاجة إلى ما توسط الكلامين فهذا وجه ورود الواو هنا ولم يعرض في آية آل عمران فصل بين الآية وما قبلها يوهم انقطاعاً فيحتاج إلى الواو فهذا وجه دخولها في هذه الآية والله أعلم، وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحزر بمفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله وذلك ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى **(ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون)** إلى ما يتلو هذه ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى **(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)** الآية تعلق بها الكفار وقالوا قد عُبِدَت الملائكة وعُبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضىنا وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى **(إن الذين سبقتم من الحسن أولئك عنها مبعدون)** وهذا مبسوط في كتب التفسير فلما كان قد تقدم في سورة الزخرف ذكر

آلهتهم وقولهم ﴿ءآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون المسيح ناسبه ما أعقبه به من قوله تعالى حاكياً عن المسيح ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فكأن قد قيل: هؤلاء غيره فأحرز "هو" هذا المعنى ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرناه. قاله الإمام العلامة أبو جعفر الغرناطي رحمه الله ونفعنا بعلمه بمنه وكرمه.

قلت: فرَّع الله تعالى في آية مريم الإخبار بأن هذا صراط مستقيم قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ وأشار في سورة آل عمران إلى سبب هذا الاختلاف وهو أنهم حاولوا قتل رسولهم والفتك به فرفعه الله تعالى وعاقبهم على ذلك بالحيرة في أمره والاختلاف في شأنه وأضلهم عن الهدى حسبا يفيد قوله سبحانه ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ وذلك أنهم أظهروا له الإسلام ومكروا ودبروا الحيل في قتله! ومكر الله بهم حيث استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم! وفرَّع سبحانه في آية الزخرف الإخبار بأن هذا صراط مستقيم قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ وأشار في آيات عديدة إلى اختلافهم في كتابهم بعد مجيء العلم إليهم وبيان الطريق واضحة لديهم وأن الباعث لهم على الاختلاف هو البغي والحسد لا الشبهة وخفاء الأمر!

﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ الخطاب في الآية للمستخلفين، وقوله ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أي التوراة والإنجيل النازلة قبل القرآن، وقد علم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب

الإلهية على المنع من اتخاذ الشركاء، ثم وسَّع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لدعواهم فقال ﴿أو أثارة من علم﴾ ويبدو أنه علم الخط كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال سفيان: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ ﴿أو أثارة من علم﴾ قال: «الخط» وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء. ثم بيّن تعالى عجز شركائهم فقال ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ ودعائهم إياهم المراد منه نصرتهم - والله أعلم - والمقصود من عدم استجابتهم لهم: منع الله إياهم من المؤمنين وعبر بالغفلة لأن الشركاء لا يعلمون بعبادة أسيادهم ودعاء أئمتهم فإن أئمة الكفر يمدونهم بالمال ويمنونهم بالأمانى الباطلة الناشئة عن تسويل الشيطان ووسوسته فهم عن طاعة أسيادهم غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وهو كقوله سبحانه "وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين" وقد صدقوا في ذلك لأن من أعظم أسباب الغفلة الجهل، ولما تكلم تعالى في تقرير التوحيد ونفي الشركاء نبّه على جلاله النبوة وأن محمداً ﷺ كلما تلا عليهم القرآن زعموا أنه سحر وأنه افتراه واختلقه من عند نفسه ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ فبيّن تعالى بطلان زعمهم وأمرَ رسوله بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم﴾ ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه: أن الله لا يقر أحداً على أن يبلغ إلى الناس شيئاً عن الله لم يأمره بتبليغه لأن ذلك يفضي إلى فساد عظيم، قال صاحب بحر العلوم في قوله "هو أعلم بما

تفيضون فيه" يعني تخوضون فيه من الكذب في القرآن. ثم ارتقى في الرد عليهم وبين أن جميع الرسل بعثوا بطريق التوحيد **(قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين)** أي لست مبتدعاً لدعوة تخالف دعوتهم بل جئت بما جاؤوا به من الدعوة إلى إثبات الأحدية واتباع سيد البرية فإن كل الرسل إنما بُعثوا بهذا الطريق، وهذه الآية حجة على الوهابية الذين كتبوا رسائل لا منشأ لها غير التضليل والتمويه على الناس وجعلوا كلام الله في قراطيس ييدونها ويخفون كثيرا.

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)

روى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الكتاب: القرآن. وروى ابن جرير عن قتادة قال: الحكمة: السنة. وهذا واضح فإنه **الكتاب** ينزل في آخر الزمان حاكماً بالقرآن والسنة مجدداً لأمر الإسلام متبعاً سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام مُقرأً لشريعته ناصراً لدينه يراه الناس في المرأة المحمدية التي هي أكمل المرايا حتى يدخل جميع أهل الملل في دين الإسلام. واعلم أن الكتب الإلهية فيها أسرار عظيمة لا يمكن الخوض في البحث عن حقائقها إلا بتوفيق من الله تعالى، وإدراك الأسرار مفتاحه المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بحسب التعرض وبحسب طهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله، واعلم أنه لا يؤخذ من الأوراق وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، ولا ينال بالقليل والقال وإنما ينال بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، ألا ترى إلى قول عبد الله بن مسعود **عليه السلام**: إني لأعلمهم بكتاب

الله. وما ذاك إلا لأنه كان خادماً نعل رسول الله ﷺ وخادماً السواك والوساد. وقد قال له رسول الله ﷺ: «سَلْ تُعْطِه، سَلْ تُعْطِه، سَلْ تُعْطِه» وقال ﷺ: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» وقال ﷺ: «لو كنت مستخلفاً أحداً من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد» وقال ﷺ: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد، وسخطت لأمتي ما سخط لها ابن أم عبد» وقال ﷺ: «تمسكوا بعهد ابن أم عبد» وقال ﷺ: «إذا حدثكم ابن أم عبد فصدقوه» وقال حذيفة رضي الله عنه وهو يحلف بالله: ما أعلم أحداً أشبه دلاً وهدياً برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه من عبد الله بن مسعود، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنه من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة.

المبحث السادس:
سورة بني إسرائيل

الفصل الأول: الإسراء

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) لما كان مقصود سورة النحل التنزه عن الاستعجال وغيره من صفات النقص والاتصاف بالكمال والأمر بالتأني والإحسان وإثبات معية الله ونصره لأوليائه على الماكرين - خرقاً للعادات ونقضاً للمطردات - افتتح هذه السورة بتحقيق ما أشار الختم إليه بما حرقه من العادة في الإسراء وتنزيه ذاته الشريفة من توهم استبعاد ذلك تنبيهاً على أنه قادر على أن يفعل الأمور العظيمة الكثيرة الشاقة في أسرع وقت دفعاً لما قد يتوهم أو يتعنت به من يسمع نهيهِ عن الاستعجال وأمره بالصبر وبياناً لأنه مع المتقي المحسن تنوياً بأمر سيد الكائنات ﷺ وإعلاماً بأنه رأس المحسنين وأعلامهم رتبة وأعظمهم منزلة وأقربهم زلفى بما آتاه من الخصائص التي منها المقام المحمود وهذا هو العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة، وتسمى "سورة سبحان" لأنها افتتحت بهذه الكلمة. قال العارف بالحقيقة المحمدية المتحقق بمقام الأحدية الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني أفاض الله علينا من سجل معارفه وحقائقه ونفعنا بعلمه وبركته: هذا التسبيح فيه تنزيه الله تعالى عن أن يكون إسراؤه بالنبي ﷺ إليه قرب مكان أو في السماوات حتى يقرب إليه رسوله قرب مكان، فهذا الإسراء بقطع المسافات الشاسعة بين مكة وبيت المقدس ثم ما هنالك إلى السماوات السبع وسدرة المنتهى في مدة قصيرة من الليل هذا لا يقدر عليه أحد إلا من له القدرة التي لا تتناهى فسبحانه وتعالى بإسرائهِ بالنبي ﷺ فهذا التسبيح فيه معنى التعجب، ولقد بدأ تعالى سورة الإسراء بالتسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من الآفات والنقائص والعيوب

وختم هذه السورة بالحمد الذي هو ثبوت المحامد والمحسن كلها لله تعالى فقال سبحانه ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا﴾ فهذا يدل على أن الإسراء والمعراج قام على أصول ثلاث: التسبيح، والتحميد، والتكبير، وهي أسس الصلاة التي فرضها الله تعالى ليلة الإسراء والمعراج... ثم إن من أسرار افتتاحه سبحانه لأمر الإسراء بالتسبيح: ليعين للسالك الطريق إلى الله تعالى وإلى التقرب منه سبحانه أن يصحب التسبيح دوماً لأن الإسراء الذي ابتدأ ذكره سبحانه بالتسبيح كان مقدمة للمعراج وكان نهاية المعراج أن رفع سبحانه الحجب لرسول الله ﷺ وقرّبه إلى مقام كلمه فيه وتجلّى عليه ﷺ بالرؤيا. اهـ. والله تعالى متصف بجميع صفات الكمال المطلق منزّه عن كل نقص وسوءٍ وشبيهٍ وشريك وله الحمد الجامع المطلق الذي انفرد به عز وجل، فالتسبيح والحمد ركنان في توحيده تعالى، وعلى هذا التوحيد فطرت جميع المخلوقات كما حكى تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به سبحانه، وفيه معنى التعظيم بكمال قدرته تعالى، وقد يكون فيه معنى التحميد كقوله ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ والتحميد: إثبات المحامد له والكمالات اللاتقة به تعالى، وفي الحديث عند الإمام مسلم: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده» فالتسبيح داخل في التحميد دون العكس فإن الأول يدل على كونه سبحانه وتعالى مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص والثاني يشير إلى كونه محسناً إلى العباد ولا يكون محسناً إليهم إلا إذا كان عالماً قادراً غنياً ليعلم مواقع الحاجات فيقدر على تحصيل ما يحتاجون إليه ولا يشغله حاجة نفسه عن حاجة غيره، وإضافة سبحانه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فإن ذلك

من أدلة كمال قدرته وشمول مُلكه وغاية تنزهه عما ادّعوه من الشرك غاية التنزه. والإسراء من السُّرى وهو السير ليلاً أي ليل دنا فيه الحب إلى المحبوب وفاز في مقام الشهود بالمطلوب، فالكلمة تحمل معها زمانها إذ الليل محل السر والنجوى ما يدل على رفيع منزلة المتحدث عنه ﷺ وفيه تمكين للتخصيص بمقام الحبة لأنه تعالى اتخذه حبيباً وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل، قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنهم إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال: ولعله لو عرج به نهاراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد. اهـ. واعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم والرسول العظيم أن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء إلا لنبينا ﷺ وإنما قال سبحانه (أسرى بعبد) إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به ليعلم أن الإسراء من عبده هبة إلهية وعناية ربانية سبقت له ﷺ مما لم يخطر بصره ولا اختلج في ضميره، وأدخل باء المصاحبة ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه بالألطف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم أنت الصاحب في السفر» وقرن سبحانه وتعالى التسبيح بهذا الإسراء لينفي عن قلب من يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق سبحانه من الجهة والحد والمكان، وإيثار لفظة العبد للإيدان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه، والعبودية على ما نص عليه العارفون أشرف الأوصاف وأعلى المراتب وبها يفخر المحبون فعلى قدر تحققهم بها يكون قربهم من حضرة الربوبية

لأن فيه سر الوقوف عند حد المخلوقية والثبوت تحت نفوذ الأوامر الإلهية والانقياد الكامل لمراسم الشريعة الربانية وفي العبودية تشريف لبنينا عليه الصلاة والسلام إذ سماه تعالى بهذا الاسم لتحقيقه ﷺ بالاسم الأعظم واتصافه بجميع صفاته فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له عليه الصلاة والسلام، وللاقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة وإن أطلق على غيره مجازاً، ولذا قال في حديث ابن عباس: «أنا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك بخلق الجنة ولا فخر، فيفتح الله فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر» أي لا أقول ذلك افتخاراً على الناس وتعالى عليهم بل تحدثاً بنعمة الله تعالى حامداً وشاكراً له سبحانه. قال العلامة الرازي في تفسير الآية الكريمة ما نصه: وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال: لما وصل محمد صلوات الله عليه إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في العارج أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: «رب بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية» فأنزل الله فيه "سبحان الذي أسرى بعبده". اهـ. ولما كان ﷺ سيد من تحقق بمقام العبودية وأعظم من عُرف بهذه الرتبة العلية وفتح الله عليه البلدة المشرفة البهية ودخل المسجد الحرام بجيوش المسلمين وعساكر الموحدين طأطأ رأسه الشريف على رحله حتى كاد يمس قادمته تحقّقاً بمقام العبودية وتادباً مع الربوبية، وإنما صرح تعالى بقوله "ليلاً" مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً لا نهاراً ليدفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه فقط، والتنكير للتقليل أي في مدة يسيرة من الليل، ولما كان الإسراء

والمعراج دخولاً في عالم الغيب ناسب ذلك أن يكون في الليل لأن الليل بالنسبة للنهار كالغيب بالنسبة لعالم الشهادة! وهذه الرحلة العجيبة تربط بين الأماكن المقدسة التي نزلت فيها رسالات السماء وتعلن وراثته رسولنا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً... وقوله **(من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)** وهو موضع مهبط النبوات ففي طيّ هذه المسافات طيّ لمقامات الأنبياء مجتمعين له عليه الصلاة والسلام وزاد عليهم بالمقام الحمدي الخاص به ﷺ. والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان وتشمل آفاقاً أوسع من الزمان والمكان وتتضمن معاني أكبر من المعاني القرينة التي تتكشف عنها النظرة الأولى، ووصف المسجد الأقصى بـ**(الذي باركنا حوله)** يجعل البركة حافة بالأقصى فائضة على بلاد الشام وهو وصف لم يكن ليلقيه تعبير آخر مثل: باركناه أو للذي بالمقدس مباركاً إذ أن حسم التحديات بين معسكر الشرك ومعسكر الإسلام، وبين معسكر الإيمان ومعسكر النفاق، سيكون في أرجاء الشام المباركة... والبركة في مكة للبيت **(الذي بيكة مباركاً)** وهي في الشام حول المسجد الأقصى، ولفظ البركة المراد منه ابتداء: الدين والإسلام - والله أعلم - كما جاء في حديث عبد الله بن حوالة الأزدي قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام، وبيننا أنا نائم إذ رأيت الكتاب اختلس من تحت وسادتي فظننت أن الله قد تخلى من أهل الأرض فأتبعته بصري فإذا هو نور بين يديّ حتى وضع بالشام» وسورة الإسراء تتضمن نهاية بني إسرائيل، وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها

وفاقاً لسنة الله الكونية، وفي معرض السورة إنذار لبني إسرائيل وهذا الإنذار مصداق لوعده الله ألا يعذب الله قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويذكرهم... والإسراء آية صاحبها آيات **(لنريه من آياتنا)** حيث أتى ﷺ بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم من جنة الفردوس وهو كالسلم ذو مراق يُرقى فيها مرقاة من ذهب وورقة من فضة منضد بالؤلؤ وعن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة فصعد النبي ﷺ إلى السماوات العلى ورأى من آيات ربه الكبرى التي ذكرت في سورة النجم وجاء فيها النص على المعراج صراحة وسمع صريف الأقلام أي سماع فهم وإطلاع ودراية وتلذذ حيث أعطاه الله قوة في سمعه وقوة في بصره حتى سمع وأبصر تلك الآيات العُلوية... قال العلامة الطاهر بن عاشور في قوله تعالى **(إنه هو السميع البصير)** الأظهر أن الضميرين عائداً إلى النبي ﷺ وقاله بعض المفسرين واستقر به الطيبي ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى ولعل احتمالاً للمعنيين مقصود وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان واحتمالها مقصود كثيراً لمعاني القرآن ليأخذ كل منه على مقدار فهمه... ثم قال: والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبي ﷺ أوقع إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى لأنه محقق معلوم وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له ومن يحسبون أنه لا يطيقها مثله. اهـ. وقد سجل سبحانه هذه المعجزة الكبيرة "حادثة الإسراء والمعراج" في القرآن حتى تكون حجة على جميع الأمم إلى يوم الدين لأنه ﷺ رسول الله إلى الأمم كلها. وهذه الحادثة في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ آية من آيات الله تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وهي نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر! والمسجد الحرام هو مركز

الأرض التي استخلف الله فيها بني إسرائيل، والمسجد الأقصى هو سر الرحلة... أخرج الإمام الدارمي عن ابن عباس أنه سأل كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ فقال كعب: نجده محمد بن عبد الله، يولد بمكة، ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام... وفي الصحيحين من حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ رُفعت له سدرة المنتهى وقال: «هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» وهذا موقع الشام. وجاء عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الطبراني: «ورأت أُمِّي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» فهو إشارة إلى ما خصت الشام من نور نبوته فإنها دار ملكه. وقد بدأت سورة الإسراء بتسييحه التوحيد وهذا من سنن الله في إخباراته عن القضايا العظام التي فيها مظاهر القدرة ومشاهد الإبداع والقوة فإنه سبحانه يبدوها بالتسييح تنزيهاً لمقامه وإجلالاً لعظمته أن يعجزه شيء، وختمت السورة بتحميدة التوحيد مذكرة بني إسرائيل ما مرَّ عليهم من نكبة وهلاك وتشريد بسبب إشراكهم وإفسادهم وطغيانهم وتبين ما قضاه الله لهم من علو في الأرض وفساد كبير يعقبه هلاك ودمار. ولفظ الأقصى بهذه الصيغة يشير إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد رسولنا عليه الصلاة والسلام الذي هو قصي عن المسجد الحرام فكان مسجد إيلياء أقصى منه حينئذ، والأقصى بمعنى الأبعد، والعرب في الجاهلية لا يعرفون الأقصى بهذا الاسم وإنما يُعرف عندهم بمسجد إيلياء فلما سمعوا هذه الآية فهموا أنه ذلك المسجد الذي ببيت المقدس، وقد سار جبريل وميكائيل وفي رواية إسرافيل وهم سادة الملائكة برسولنا عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء حتى إذا بلغوا

أرضاً ذات نخل قال له جبريل: **انزل فصل هنا**، ففعل ثم ركب، فقال له جبريل: **أتدري أين صليت؟** فقال: **لا**، قال: **صليت بطيبة وإليها المهاجرة**، ثم صلى في المسجد الأقصى حين كانت الأماكن الثلاثة تحت حكم المشركين. ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر تعالى به عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة على كل ما يريد وما حباه به ﷺ من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير، أتبعه بذكر ما منح موسى في المسير إلى الأرض المقدسة من الآيات فقال **(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً)** والكتاب هنا التوراة، والظاهر عود الضمير من وجعلناه على الكتاب، ويحتمل أن يعود على موسى، و"أن" تفسيرية أي أن لا تتخذوا من دوني رباً وشريكاً، ويجوز أن تكون مصدرية تعليلاً أي لأن لا تتخذوا، وقرئ **(ألا يتخذوا)** على اعتبار حكاية القول بالمعنى، والوكيل: الذي تفوض إليه الأمور والمراد به الرب والله أعلم. ثم أتبعه ما يدل على شرف أبيهم وأنه لم ينفعهم إدلائهم إليه عند إرادة الانتقام بما ارتكبوا من الإجماع فقال مذكراً بنعمة الإنجاء من الغرق منبهاً على الاهتمام بالتوحيد مشيراً إلى النسب والنسل **(ذرية من حملنا مع نوح)** وكانوا مستخلفين في البيت الحرام إذ جبل الجودي يقع في منطقة مكة المكرمة شرق الليث وفيه إشارة إلى المستخلفين الجدد من بني إسرائيل! وكلمة "حملنا" فيها تشريف وتكريم لأولئك القوم وفيها إطماع وتذكير لهؤلاء اليوم حسبما يحكيه قوله تعالى **ممتناً عليهم (إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية)** وقوم نوح ضلوا وأضلوا ومكروا مكرراً كباراً ووضعوا نظريات علمية مزورة في خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض واتخذوا من دون الله شركاء! فوقف نوح موقف المتبصر المتوكل على مولاه **(فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم)** أي فأجمعوا

كيدكم وادعوا شركاءكم في الحكم وهذا الشرك الذي تلبطت فيه البشرية على مر القرون! ولما أهبط المولى سبحانه نوحاً وقال ﴿أهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ أردف ذلك بالتعريض ببني إسرائيل ﴿وأمم سمنتهم ثم يمسه من عذاب أليم﴾ وقد جاء الإلماع إلى هذا في سورة بني إسرائيل من قوله ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين﴾ إلى قوله ﴿وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض ولا بد أن تكون عاقبتهم أحد أمرين: إما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الإهلاك، أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية - والله أعلم - ثم بين تعالى أن هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ والكتاب لا ينسخ فكان لا بد من أن نخيفكم بعد طول أمنكم وفهلك كثيراً من أعزائكم على يد الرسول الأعظم ﷺ الذي أنتم كلكم متمثلون عليه ولا بد أن ندخله إلى دياركم بجنود أولي بأس شديد بعد إفسادكم ثم يعودون في المرة الأخرى ليسوؤوا وجوهكم وليتبروا ملككم كما فعلوا بكم في المرة الأولى.

سورة النجم

ذكر تعالى في سورة النجم وهن عقيدة الشرك وتهاافت أساسها الوهمي الموهون، والسورة تتلاقى مع سورة الإسراء في الحديث عن الإسراء والمعراج وهذه الحادثة من أشهر المعجزات وأظهر البراهين البينات وأقوى الحجج المحكمات وأصدق الأنباء وأعظم الآيات وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه عليه الصلاة

والسلام بعموم الكرامات، وأول أغراض السورة: تحقيق معراج الرسول ﷺ وأنه صادق فيما أخبر به، وإبطال إلهية الجن، وإبطال قولهم في الملائكة أنهم إناث، وإبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة، وتذكيرهم بما حل بالأمم ذات الشرك من قبلهم، وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريباً، وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين. واختلف المتأولون في تعيين النجم المقسم به بأقاول، منها: القرآن لأنه نزل نجوماً على رسول الله ﷺ فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبرأته وأنه ما ضل ولا غوى. وقيل: هو النبي ﷺ وهو به نزوله من السماء ليلة المعراج، وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه. وقيل: النجوم إذا انقضت في إثر الشياطين آلهة المشركين. والخطاب لبني إسرائيل فإن كفار قريش قد مضوا وأسباب النزول لا تخصص، وإن شئت قلت: الخطاب لبني إسرائيل ابتداء وللمقتفين أثرهم تبعاً، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على ما بشرت به كتبهم باتصافه بغاية الهدى والرشاد فإنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ثم نزه سبحانه نطق رسوله ﷺ أن يصدر عن هوى (وما ينطق عن الهوى) وأخبر بأن جميع ما ينطق به وحي (إن هو إلا وحي يوحى) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أي ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإن نطقه بالقرآن والسنة وأن كليهما وحي، ولما كان الوحي بواسطة جبريل عليه السلام، تشوف السامع إلى بيان ذلك فقال مبيناً له بأوصاف تقتضي رفعة شأنه تذريراً من ذلك إلى إغاطة أعدائه فقال (علمه شديد القوى، ذو مرة) أي له قدرة عظيمة خصه الله بها فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة (فاستوى) أي ظهر لصفوة

صفوة الخلق في الأفق العالي ثم دنا وتقرّب منه فكان مقدار مسافة قرّبه مثل قارب قوسين أو أدنى، فأوحى الله بواسطة جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات **(فأوحى إلى عبده ما أوحى)** والإيهام للتعظيم، وقيل: للعموم والمراد كل ما جاء به والله أعلم، ولما أثبت هذا الكلام ما أثبت من القرب من النبي ﷺ من أوحى إليه، قرّره على وجه أفاد الرؤية فقال **(ما كذب الفؤاد ما رأى)** أي ما كذب فؤاد النبي ﷺ ما رأت عيناه بل واطّاه ووافقه وقد رأى جبريل على الصورة الحقيقية مرة في الأرض في بدء النبوة في بطحاء مكة وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سدّ ما بين السماء والأرض، ومرة في السماء وذلك قوله **(ولقد رآه نزلة أخرى)** أي ليلة المعراج حين وصل إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى فرآه على صورته الجبريلية، ثم امتلأت السدرة بالملائكة حتى صار على كل ورقة من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكلهم يتطلعون إلى النظر إلى صاحب الطلعة البهية وإلى ذلك الجمال الحمدي، ثم أشارت الآيات إلى تجلي الحق سبحانه على رسوله ﷺ بالرؤيا **(إذ يغشى السدرة ما يغشى)** يعني واذكر يا رسول الله لما تجلّى الحق عليك بالرؤية والمكاملة وغشيتها أنوار رب العالمين وشاهدت من الجمال والجلال الإلهي ما يعجز أن يصفه واصف كما جاء في صحيح الإمام مسلم: **«فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها»** وهذا هو التجلي النوراني الأعظم وهو معنى قوله ﷺ لأبي ذر حين سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: **«رأيت نوراً»** أي تجلّى عليّ بالنور الأعظم وهناك نال من القرب والإكرام ما لم ينله أحد من خلق الله تعالى، وروى الإمام مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: **«نور أنى أراه»** وفي رواية:

«نور إني أراه» يعني على طريق الإيجاب قال عفان - أحد رواة الحديث - :
وبلغني عن ابن هشام يعني معاذاً أنه رواه عن أبيه كما قال همام: «قد رأيته»
وفي هذه الروايات إثبات لرؤيته ﷺ لربه ونفي عن إمكان إدراك حقيقته سبحانه
بالرؤية وهي قوله ﷺ: «نور أني أراه» أي: أني أدرك حقيقته والذي رواه مسلم
في صحيحه أنها قالت لمسروق رضى الله عنه: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم
على الله الفرية أو لم تسمع أن الله يقول ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فقد أرادت السيدة عائشة رضي الله عنها من الرؤية رؤية
الإحاطة وإدراك الحقيقة وهذا لا يمكن كما تقدم فافهم مراد السيدة عائشة
رضي الله عنها فليس مرادها أن تنفي رؤية الظهور فقد رأى رسول الله ﷺ ربه
ليلة الإسراء والمعراج كما دلت عليه الأحاديث وذكر لي بعض أشياخي - وهو
العلامة المحدث الفقيه حبيب الله بن قربان علي المظاهري نزيل المدينة المعظمة
النبوية على ساكنها ألف ألف صلاة وسلام وتحية - أنه جاء في بعض الطرق:
«نوراني أراه» أي بنوره رآه سبحانه لم يزغ بصره ﷺ ولم يطغ بل قام مقام
العبد الذي أوجب أدبه إطراره وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون
تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وهذا غاية الكمال والأدب
مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه أحد سواه فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام
عال رفيع أن تطلع إلى ما هو أعلى منه ألا ترى أن موسى الكليم لما أقيم مقام
التكليم طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه ولم
يلتفت إلى غير ما أقيم فيه البتة ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه
الطرف فيضع خطوه عند منتهى طرفه مشاكلاً لحال راكبه وبعد شأوه الذي
سبق به العالم أجمع في سيره، ما عاقه عائق ولا وقف به مراد حتى جاوز السبع

الطباقي وجاوز سدره المنتهى ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين فانصبت له هناك أقسام القرب انصباباً وانقشعت له سحائب الحجب حجاباً حجاباً وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون، وشاهد ربه بعيني رأسه فكان كل وجوده الشريف عيناً لأنه تجاوز في تلك الليلة عن عالم العناصر ثم عن عالم الطبيعة ثم عن عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر فانسلك عن الكل ورأى ربه بالكل، وهذه المكرمة والمنزلة خاصة به ﷺ، والأصل في الباب حديث ابن عباس: «رأيت ربي تبارك وتعالى» إذ هو حبر الأمة والمرجوع إليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر فأخبره أنه رآه، وأمّا اعتراض أم المؤمنين فمقصوده نفي رؤية الإدراك والإحاطة بالبصر وهو واضح من استدلالها بالآية ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، وقد اتفق العلماء على أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معاً ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ والعبد حقيقة هو الروح والجسد ويدل عليه قوله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فأضاف الأمر إلى البصر وهو لا يكون إلا يقظة بجسده وقد تجلّى عليه رب العزة بالرؤية وهو ما يلتئم مع قوله بعده ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به لبعده عن ساحة العادة إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر؛ بل إن تكذيبهم هو أقوى دليل على أنهم فهموا أن الخبر إنما كان عن رحلة بالجسم حال اليقظة التامة. قال العلامة الطيبي نفعا الله تعالى بركات علومه: الذي يقتضيه النظم إجراء الكلام إلى قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ على أمر الوحي وتلقيه من الملك ورفع شبه الخصوم، ومن قوله سبحانه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ إلى قوله سبحانه

﴿من آيات ربه الكبرى﴾ على أمر العروج إلى الجنب الأقدس، ثم قال: ولا يخفى على كل ذي لب إباء مقام ﴿فأوحى﴾ الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله ما أوحى إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغة بين المتسارين وما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم، وكلمة ﴿ثم﴾ على هذا للتراخي الرتي والفرق بين الوحيين أن أحدهما وحي بواسطة وتعليم، والآخر بغير واسطة بجهة التكرم فيحصل عنه عنده الترقى من مقام ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ إلى مخدع ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾. ويؤيد هذا القول ما ورد في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا للجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى» وهذا هو مقتضى مكانته العلية ومقامه الأسنى فرأى الذات العلية المنزهة عن الكمية والكيفية وسائر الجهات، وسمع الكلام المنزه عن اللحن والحروف والأصوات. وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن محمداً صلوات الله عليه رأى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده» وروي عن جعفر الصادق عليه رضوان الله وسلامه أنه قال: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف وذلك قوله جل جلاله ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي كان ما كان وجرى ما جرى وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب وألطف به ألطف الحبيب بالحبيب فخفي السر ولم يطلع عليه أحد ولم يعلم أحد ما أوحى إلا الذي أوحى. فيا لها من ساعة سعادة لا يتصور فوقها زيادة! وأنشد لسان الحال:

بين المحبين سرٌ ليس يفشيه ... قول ولا قلم في الكون يحكيه

سرٌّ يمازجه أنسٌ يقابله ... نور تحيّر في بحر من التيه

وقيل: الآية الكبرى هي أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس
المملكة، وقيل: هي أنه رأى حقيقته الحمديّة، فإذا هي محيطّة بجميع العوالم
العلوية والسفلية، وأعظم آية وأبهرها، وأتم علامة وأفخرها، وإليه يشير
الأبوصيري في برده بقوله:

يا خير من يَمّم العافون ساحته ... سعيّاً وفوق متون الأينقِ الرُّسُم

ومن هو الآية الكبرى لمعتبرٍ ... ومن هو النعمة العظمى لمغتنيهم
سريتَ من حرم ليلاً إلى حرم ... كما سرى البدر في داج من الظُّلُم
وبتَ ترقى إلى أن نلتَ منزلة ... من قاب قوسين لم تُدرَك ولم تُرَم

لقد خصَّ الله ﷻ بالمعراج الجسماني والروحاني وأعطاه قوة في ذاته وذراته
وروحه وعقله ومداركه وسمعه وبصره حتى أراه تلك الآيات الكبرى من الأمور
والعوالم الغيبية فقد رأى السماوات وما فيها والجنة والنار واطلع على عذاب
أهل النار من العصاة والزناة وأكلة الربا والناممين والمغتنيين والمفسدين... واطلع
على حال أهل البرزخ وألوان النعيم في الجنة ورأى البيت المعمور ورأى عالم
الأقلام التي تجري بأحكام القضاء والقدر وسمع صريفها وشاهد حملة العرش
والملا الأعلى فشخصت أبصار بصائرهم لجلال جماله وتلفتت لفتات أنفسهم
إلى نفائس نفحاته، فأطلعه الله على السر الأنفس بعد العروج إلى المستوى
الأقدس، فوقفت أشخاص الأنبياء في حرم الحرمة على أقدام الخدمة، وقامت
أشباه الملائكة في معارج الجلال على أرجل الإجلال... والمعاريح ليلة الإسراء

عشرة: سبع إلى السموات، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرُفرف والرؤية والكشف الحقيقي وسماع الخطاب بالمكافحة. وقد وقع له ﷺ في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة بهذه المعاريح العشرة ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة وهي لقاء الحق جل جلاله والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة، كما ختمت معاريح الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس. واعلم أنه من واجبات الإيمان: الاعتقاد الجازم بإسراء النبي ﷺ ومعرجه لثبوتهما بنص الكتاب والسنة، ففي صحيح الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه» قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس» قال: «فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء» قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل ﷺ بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟» أي وقد بُعث إليه بالعروج؟ وفي رواية للبخاري: «وقد أرسل إليه؟» أي للعروج به إلى السماوات، أو أن سؤالهم للاستعجاب بما أنعم الله عليه! أو للاستبشار بعروجه إليه إذ كان من البين عندهم أن أحداً من البشر لا يترقى إلى أسباب السماوات، وليس المراد الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فإن أمر نبوته كان مشهوراً في الملكوت الأعلى، وهذا المعنى أوفق للاستفتاح والاستئذان ولذلك تكرر معه وكان الجواب بمرحباً المشعر بالتنزل الرحامي

والاستقبال الصمداني والإقبال الفرداني، وعلو المقام وحصول المرام على آبائه الكرام وإخوانه العظام في تلك المشاهد الفخام، ولما ربط ﷺ البراق بالحلقة التي يربط به الأنبياء قبله، أتى به جبريل الصخرة متيمناً بها فخرقها بأصبعه وشده بخرقها كأنه يقول: أنت أعلى وأعلى من أن يكون مركوبك بالباب، بل لا يكون إلا في الداخل ومحل الاقتراب. وتحت هذه الكلمات ونظائرها أسرار يتفطن لها من فتحت بصيرته واشتعلت قريحته. والبراق من عالم البرزخ ليس من عالم الشهادة ولا من عالم الغيب وإنما له حكم العالمين أرسله تعالى لنبيه ﷺ المخصوص بقاب قوسين وروح جسد الكونين إجلالاً وتعظيماً على عادة الملوك إذا استدعوا عظيماً بعثوا إليه بمركوب سنيّ مخصوص فريد متميز يحملونه عليه في وفادته إليهم مع أعزّ خواصهم. وكانت الأنبياء قبله إنما تركبه عرياً فأُتي به مسرجاً ملجماً فاستصعب عليه فرقاً من هيئته وجلالته، وقيل: تيهاً وزُهواً بركوبه فقال له جبريل: أمحمد تفعل هذا فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، فاستحيا حتى ارفض عرقاً ثم قرّ حتى ركبه وأخذ بركابه جبريل وبزمame ميكائيل ثم ساروا فكان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وفي رواية: أن جبريل حمله بين يديه، وفي أخرى: أنه كان على البراق رديفاً لديه، ولعله مشى أولاً عن يمينه تأديباً معه وخدمة له وتعظيماً، ثم ركب معه ثانياً وحمله بين يديه تأنساً به وتيمناً بجناحه وإعزازاً لمقامه وتقديماً، ثم جعله وراءه ليقوم عنه بأخذ اللجام وما يلزم من حث الدابة على السير ترفقاً به وتكريماً، والله أعلم. وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون وسر معنى كلمة "كن" أرسل إليه أعزّ خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادماً، وافاه على فراشه نائماً، فقال له: "قم يا نائم فقد هيئت لك الغنائم، قال: "يا جبريل إلى أين؟"

قال: يا محمد ارفع "الأين" من البين، إنما أنا رسول للقدم أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدف، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما رَوّق كأس المحبة إلا لشربك، ثم قال جبريل: يا محمد إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادماً دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمرکوب إليك لإظهار كرامتك؛ لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيباً، أو استدعوا قريباً وأرادوا ظهور كرامته واحترامه أرسلوا أخص خدامهم وأعز قوامهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه يصل إليه بالخطأ فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا. اهـ. وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً: «لما عرج بي إلى السماء ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي مكتوباً فيها: محمد رسول الله» وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: «ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله» وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت لك ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذُكرتُ ذكرتَ معي» ولا عجب في ذلك فقد أعلن تعالى بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصانع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق وعند المستوى وصريف الأقلام والعرش والكرسي وعند سائر الملائكة المقربين من

الكروبيين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيعون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم:

وإذا ذكرتكم أميل كأني ... من طيب ذكركم سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يشنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم متمسكون في الفريضة بأمرى، وفي السنة بأمرى، وجعلت طاعتي طاعتك، ويبيعي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين. واعلم أن الله أمر خُزَّانَ وأُمَنَاءَ السماوات أن يحتفلوا بقُدوم رسول الله ﷺ حتى إذا جاء فتحو له واستقبلوه بقولهم: «مرحباً به ولنعم المجيء جاء» وهذا أعظم مهابة فيما لو فُتحت أبواب السماء ودخلها دونما مراسم التعظيم والتبجيل والتوقير والتكريم. وقد أظهرت حادثة الإسراء والمعراج منزلة سيد الحكماء وعين العقلاء وأعلم الأنبياء في رحلة انتهت إليها صحبة جبريل له عليه الصلاة والسلام حيث تأخر جبريل العَلِيَّةُ وعُرج بالمصطفى الأعظم ﷺ لمستوى أي مُعتلى سمع فيه صريف الأقلام، والأقلام أرواح ملكية تكتب بأمر الله تعالى، ثم دُلِّي له الرفرف وهو بساط أخضر قد سد الأفق تغلب خضرته ضوء الشمس فصعد عليه، إلى أن انتهى إلى المكان الأقدس واستقر لديه، فأبصر هناك أمراً عظيماً لا تناله الألسن، ولا تدرك حقيقته الأعين، وهذا المكان هو الذي أعده الله للخطاب وفرض

الصلوات، وفيه وقع الدنو والتخصيص بما لا يُدرك ولا يُعرف من الآيات والكرامات، فكان نهاية المعراج أن رَفَعَ سبحانه الحُجُبَ لرسوله وقرَّبَه إلى مقام كَلَمَهِ فيه وتجلَّى عليه بالرؤيا فخرَّ النبي ﷺ ساجداً. وأخرج ابن عساكر في حديث المعراج مرفوعاً: «هبط جبريل فقال: إن ربك يقول: لقد وطئت في السماء موطئاً لم يطأه أحد قبلك ولا يطأه أحد بعدك» وأثبت بعض الأكابر وطأه للعرش وما تحته بالنعال، وقال: إنهما ليستا من نعال الدنيا بل إن أصلهما عرقٌ حصل له من هبة المتعال، فتنازل الجزء البشري من ذاته المعظمة، فصار كالنعلين في قدمه المكرمة، فهمَّ بخلعهما أدباً وتكريماً، فنودي لا تخلعهما لتشرف السماء بهما وتثيلهما فخراً عميماً وفضلاً جسيماً. وروى الحافظ الشامي من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلني ربي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وألقى في قلب عدوي الرعب من مسيرة شهر وأحل لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه وعرضت عليّ أمي فلم يخف عليّ التابع والمتبوع» الحديث. وليس المراد حصر خصائصه عليه الصلاة والسلام في هذه الخصال المذكورة فقد ذكر بعض العلماء أنه ﷺ أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصة. قال سيدنا عليُّ الخوَّاص قدس سره ما حاصله: كل ما ظهر من معجزات سيدنا محمد ﷺ في الدنيا إنما هي معجزات عامة شورك في جنسها أما المعجزات الحمدية الخاصة بمقامه الشريف فستظهر في الآخرة فلا يسعها ضيق عالم الدنيا. وفي قوله ﷺ "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" إشارة إلى أن جميع الأرض بيت الله ليلازم العبد الأدب حيثما حل كما يؤمر به في المسجد فأهل الأدب من هذه الأمة جلساء الله على الدوام لأنهم في مسجد. ولما صعد

ﷺ مع جبريل ﷺ إلى السماء السادسة مرّ بسواد عظيم سد الأفق فقال: «من هذا الجمع؟» قيل: موسى وقومه، ولكن ارفع رأسك فإذا هو بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب، فقيل له: هؤلاء أمتك وسوى هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، فلما خلاصا فإذا هو بموسى بن عمران فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير، وقال: يزعم الناس أني أكرم بني آدم على الله من هذا، بل هو أكرم على الله مني فلما جاوزه النبي ﷺ بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتي يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله وهذا رجل من بني آدم خلفني في دنيا وأنا في أخرى فلو أنه في نفسه لم أبال ولكن معه أمته. وفي بعض الأخبار: قال موسى: سبحانك وتقدسست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي الكريم وشرفته، قال الله: يا موسى إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، مثل كتابه الذي يجيء به كمثل السقاء المملوء لبناً يُمخَض فيخرج زبداً فاعقلوه يا بني إسرائيل. وفي صحيح الإمام البخاري من حديث أنس مرفوعاً: «ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديّ» وفيه اعتبار عظيم بشرف الصلوات، ومزيتها على غيرها من سائر الطاعات، وقد قلل سبحانه عددها،

وكثر فضلاً منه مددها. ثم لقي ﷺ إبراهيم - الذي بنى الكعبة وأسس بيت
 التوحيد - في السماء السابعة، وقد رآه ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور
 المسامت تماماً للكعبة وهو قبلة أهل السماء - وحقّ لمن بنى بيت التوحيد في
 الأرض أن يستند إلى البيت المعمور، فمَنْزل التوحيد هو البيت المعمور وسُمي
 بذلك لأنه معمور بتوحيد الموحّدين - ولما لقي ﷺ إبراهيم قال: يا محمد أقرئ
 أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان
 الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.
 فأول ما يُطلب من الإنسان في العقيدة أن ينزه الله عما لا يليق به وهو التسبيح،
 ثم يحمده بأن يصفه بالكمالات اللائقة به، ثم يوحدّه ويفرده في ذلك فلا شبهة
 ولا شريك له في نزهته أو محامده كما لا شريك له في حكمه وعبادته فيقول:
 لا إله إلا الله، لكن أمر الله أعظم من ذلك وأكبر من معرفتي بذلك فيقول: الله
 أكبر، ثم يُظهر الأدب والاستكانة والعبودية وينفي الحول والقوة عن نفسه
 وينقطع بالكلية إليه تعالى عن سواه. ومراتب التوحيد قائمة على هذه الأصول
 الخمسة. والملاحظ أن الأنبياء الذين لقيهم بين آدم وإبراهيم كلهم من بني
 إسرائيل والحكمة في ذلك أن الملاحم ستقع بين أمته ﷺ وبين الأمة الإسرائيلية
 وأتباعها فإن أمته ﷺ يقاتلونهم في أقطار الأرض على تعاقب الأعصار حتى
 يقاتلون الأعور الدجال، والحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء
 وأول الآباء وهو الأصل ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة، وأما إبراهيم فإنما كان في
 السماء السابعة لأنه الخليل والأب الأخير ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب
 الذي علا ذلك المقام - إلى سدرة المنتهى فغشيته سحابة فيها من كل لون -
 وارتفع فوق الكل لأجل ما اختص مما زاد به عليهم. والله در القائل:

متى ذكر الخليل فذا حبيبٌ ... عليه الله في التوراة أثنى
وإن ذكروا نجىَّ الطور فاذا ذكر ... نجىَّ العرش مفتقراً لتغنى
فإن الله كلم ذاك وحيّاً ... وكلم ذا مخاطبة وأدنى
ولو قابلت لفظة لن تراني ... بما كذب الفؤاد فهتَمَ معني
فموسى خراً مغشياً عليه ... وأحمد لم يكن ليزيغ ذهنها
وإن ذكروا سليماناً بملك ... فذا كره الكنوز وقد عَرَضنا
وبطحا مكة ذهباً أباهما ... يبيد الملك واللذات تفنى
وإن يك درع داود لبوساً ... يقيه من اتقاء البأس حصنا
فدرع محمد القرآن لما ... تلا والله يعصمك اطمأنا
وكل المرسلين يقول نفسي ... وأحمد أمي إنساً وجنّاً
وكل الأنبياء بدور هدي ... وأنت الشمس أشرقهم وأسنى

قال الشيخ أبو علي الدقاق قدس الله سره: كان موسى عليه السلام صاحب تلوين
فرجع من سماع الكلام واحتاج إلى ستر وجهه لأنه أثر فيه الحال، ونبينا صلى الله عليه وآله
كان صاحب تمكين فرجع كما ذهب لأنه لم يؤثر فيه ما شاهده تلك الليلة.
وقد خص المولى سبحانه نبينا صلى الله عليه وآله بأشياء لم يعطها لني قبله، وما خص نبي بشيء
إلا وقد كان لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله مثله وأعجب! ويرحم الله القائل:

وكل معجزة للرسول قد سلفت ... وافى بأعجب منها عند إظهار

فما العصا حية تسعى بأعجب من ... شكوى البعير ولا من مشي أشجارٍ

ولا انفجار معين الماء من حجر ... أشد من سلسل من كفه جارٍ

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة» ورواه الطبراني بزيادة فيه قال: «فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك» وهذه خصوصية أخرى له ﷺ وهي أن خازن الجنة لا يقوم لأحد غيره ﷺ فقيامه له فيه إظهار لمزيته ومرتبته، ولا يقوم لأحد بعده بل خزنة الجنة يقومون لخدمته، أي: رضوان وهو كالمملك عليهم وقد أقامه الله تعالى في خدمة عبده ورسوله حتى مشى وفتح له الباب زيادة في إكرامه. ولما سار جبريل برسولنا ﷺ إلى المسجد الأقصى ودخله أذن جبريل ونزلت الملائكة من السماء وحشر الله جميع المرسلين والأنبياء وأقيمت الصلاة فقاموا صفوفاً ينتظرون من يؤمهم فأخذ جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين بالاعتدال والطمأنينة والترتيل، وفي رواية: فأمهم (إن الدين عند الله الإسلام) وفي بعض الطرق والروايات أنه ﷺ صلى بالأنبياء والملائكة إماماً في السماوات، فإن ثبت كانت صلاته بهم متعددة ببيت المقدس ابتداء، ثم في السماء انتهاء، وليعلم أنه رسول الرسل وإمام الكل في جميع الأمكنة والحضرات، وسائر الأزمنة وكل الحالات، وقد اختص بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء، كما روى الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ

الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد هاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى ابن مريم فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبياً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول

عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد فيأتون محمداً فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحته على أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمي يا رب أمي يا رب أمي يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى» وقد صنف المروزي كتاباً في فضيلة النبي ﷺ وذكر فيه إقاعده على العرش، وهو قول ابن عباس ومجاهد وابن جرير الطبري وأبي داود وأبي الحسن الدارقطني ومن شعره فيه:

حديث الشفاعة عن أحمدٍ ... إلى أحمد المصطفى مسنده

وجاء حديث بإقاعده ... على العرش أيضاً فلا نجده

أمروا الحديث على وجهه ... ولا تدخلوا فيه ما يفسده

ولا تُنكروا أنه قاعد ... ولا تُنكروا أنه يُقعد

وروى البيهقي في الدلائل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الناس وخطيبهم وصاحب شفاعتهم

ولا فخر» ولله در شيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام أبي الهدى الصيادي حيث يقول:

موسى وعيسى والنبون الألى ... لاذوا بذيل بساطه الممدود
هو خيرهم ذاتاً وأكرمهم يداً ... وأعزهم في الطارقات السود
سبقت شفاعته فكل موحد ... في طي نشر ضماها المعهود

وفي حديث أبي هريرة عند الحاكم وصححه والبيهقي: فلقني أرواح الأنبياء فأنثوا على رهم فقال رسولنا عليه الصلاة والسلام: «كلكم أثنى على ربه وأنا مشن على ربي ثم شرع يقول: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء وجعل أمي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمي وسطاً وجعل أمي هم الأولون والآخرون وشرح لي صدري ووضعتني ووزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً خاتماً» فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد. اهـ. عطرّ اللهم مجالسنا بذكره وطيب رياه، ومنّ علينا بلثم راحته الكريمة وتقيل مُحيّاه، وصل وسلم وبارك وأسعد وأنعم به وعليه، صلاة تقربنا منه وإليه، وتزيدنا فيه محبة وشوقاً، وتُكسبنا تعلقاً بجناحه العظيم وعشقاً، وعلى صحابته وآله، وكل من له تعلقٌ بأذياله.

وقد أفادت الآية (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) أن مراتبهم متفاوتة، قال العلامة الألوسي نفعا الله بعلمه وبركته: المراد ببعضهم هنا النبي صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه الأخبار بكونه صلى الله عليه وسلم منهم فإنه قد خص بمزايا تقف دونها الأماني حسرى، وامتاز بخواص علمية وعملية لا يستطيع لسان الدهر لها حصراً، ورقى

أعلام فضل رفعت له على كواهلہ الأعلام، وطأطأت له رؤوس شرفات الشرف فقبلت منه الأقدام، فهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين، والمنزل عليه قرآن مجيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والمؤيد دينه بالمعجزات المستمرة الباهرة، والفائز بالمقام الحمود والشفاعة العظمى في الآخرة، والإيهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغني عن التعيين. اهـ. والله در القائل:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سناً منك دونهم وسناء

قال شيخ الإسلام عبد الله سراج الدين قدس الله سره: البحث في الحكم والفوائد التي تعود على الأمة المحمدية من خلال إسرائه ومعراجہ ﷺ هو أصل من أصول الدين ولهذا ذكر ذلك سبحانه في القرآن الكريم حتى تكون فوائدها وما فيها تعم هذه الأمة من أولها إلى آخرها. وقال في فضيلة ليلة الإسراء والمعراج: يحسن بالمؤمن أن يكثر من عبادة الله تعالى وأن يكثر من تلاوة القرآن الكريم تلك الليلة ويقرأ سورة الإسراء لعل الله ينفعه بأنوار وأسرار الإسراء والمعراج المحمدي ببركته ﷺ وقد قال حبيب القلوب ومفتاح خزائن الغيوب ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبدا» واعلم أن النفحة تحيي الروح كما يحيا الجسد بالروح فمن أصابته نفحة من هذه انجذب قلبه إلى الله تعالى واتصل ووصل. اهـ. وكما كان جبريل عليه السلام هو صاحب رسول الله ﷺ في إسرائه إلى المسجد الأقصى يقوم بواجب تكريم النبي ﷺ وحفاوته وإظهار فضل مقامه ورتبته

وتقديمه ﷺ إماماً بالأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين كان كذلك هو صاحب رسول الله ﷺ في معراجهِ كما صح في أحاديث المعراج فكان يمشي في ركاب عزيز الجناب ويفتح له الأبواب ويفتح له الخطاب عند التقائه ﷺ بالأحباب أي عند التقائه ﷺ بإخوانه الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام فكان جبريل عليه السلام يفعل ذلك قياماً بواجب التعظيم والاحترام والتكريم لمقام هذا الرسول الكريم إمام الأنبياء والمرسلين وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين صلوات الله تعالى عليه وعلى جميع إخوانه النبيين... وفي سياق الحديث عن الرحلة الواقعية الجازمة المؤكدة بكل تفاصيلها ومراجعتها والتي تبين عظمة الله سبحانه وتعالى وتقرر توحيده وإفراده في ربوبيته وألوهيته، يأتي الاستفهام التهكمي الإنكاري لبني إسرائيل في اتخاذهم شركاء يشاقون فيهم القوي العزيز سبحانه (أفرايتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى) والمعنى أي كيف ترون آلهتكم من الجن المقترنة بآلهتكم من الإنس لما تقدم من عظمة آيات الله الكبرى ونفاذ أمره في الملا الأعلى؟ وهذا تهكم بهم وتحقير لآلهتهم الجن بطريق الفحوى إذ يزعمون عنصر الذكورة في الجن وأن الملائكة إناث وأنهم بنات الله حسبما ينطق به قوله تعالى بعده (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) أي ضعافاً عاجزين! ويكفي أن نعلم أن في اللات والعزى ومناة مرادة الشياطين تتراءى للسدنة وتكلمهم لندرك حقيقة الآلهة! ثم استقبح تعالى سوء فعلهم وحُكمهم واستفهمهم على جهة التوبيخ والتقريع والتسفيه والتهكم (ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى) وجاء التعبير بصيغة الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، والعرب تؤنث

للضعف والتحقير، كأنه قال: كيف جعلتم لله الضعف والنقص، ونسبتم إلى أنفسكم الكمال والعظمة؟ فهذه القسمة ضيزى أي: جائرة، وقُرئ بهمزة ساكنة بعد الضاد **(تلك إذا قسمة ضئزى)** والجملة تعليل للإنكار والتهكم المفاد من الاستفهام المتقدم، ونحوه قوله تعالى **(ألا إنهم من إفكهم ليقولون، ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين، مالكم كيف تحكمون، أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، سبحان الله عما يصفون)** وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم وجرأتهم على الله تعالى والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيب عقولهم مع استهزاء بهم وتعجيب من قسوة قلوبهم ما لا يخفى، حيث جعلوا الملائكة إناثاً وأشركوهم به تعالى في استحقاق العبادة، وأشركوا به تعالى الجن في استحقاق الحكم! وفي قوله **(أصطفى البنات على البنين)** ارتقاء في التجهيل، أي لو سلمنا ما ذكرتم فلماذا اصطفى البنات دون البنين؟ وهو استفهام توبيخ وتقريع على استهزائهم بالله تعالى حيث جعلوا له تعالى الإناث في قولهم: الملائكة بنات الله مع كراحتهم لهن واستكفاهم من ذكرهن! وقد أشارت الآية **(أصطفى البنات على البنين)** في تهكم ساخر إلى ما جعلوه لله سبحانه من النقص وما جعلوه لأنفسهم من الكمال! وحال الجاهليين الجدد كحال أسلافهم؛ يزعمون أن لله بنات من الملائكة أضعف من شركائهم من الجن على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات، وما كانت البنت هي المغبونة وحدها في مجتمع الجاهليين الجدد، إنما كانت الإنسانية في أخص معانيها فالأنثى نفس إنسانية إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم ووأدها قتل للنفس البشرية

وإهدار لشطر الحياة ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة، وكلما انخرفت البشرية عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها! ولما ذكر سبحانه في سورة الصافات ما نسبوه إليه بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه ختم السورة الكريمة بتنزيهه عن ما يصفه به المشركون مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته فقال ﴿سبحان رب العزة عما يصفون﴾ وأضاف الرب إلى نبيه تشریفاً له بإضافته وخطابه تذيلاً لخطابه المبتدأ بقوله تعالى ﴿فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون﴾ فإنه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله، ووصف المرسلين يشمل الملائكة فإن الملائكة مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله. وقد أشارت الآثار الصحاح إلى عظم شأن الملائكة كما جاء في صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه: «بيننا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر» وجلوسه عليه الصلاة والسلام على الكرسي فيه دلالة رمزية دقيقة على السُّلطة والغلبة، ولا يخفى ما في السورة من تحدي أهل الكتاب بالملائكة أي الزبانية التسعة عشر! ونظير ذلك في سورة العلق التي استهلّت بـ﴿اقرأ﴾ وذيلت بقوله ﴿سندع الزبانية﴾ وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك

فقال: اقرأ» وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: حبس الوحي عن رسول الله ﷺ في أول أمره وحبب إليه الخلاء فجعل يخلو في حراء فبينما هو مقبل من حراء: «إذا أنا بحس من فوقي فرفعت رأسي فإذا الذي أتاني بحراء فوق رأسي على كرسي قال: فلما رأيته جثت على الأرض فلما أفقت أتيت أهلي مسرعاً فقلت: دثروني دثروني فأتاني جبريل فقال: يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر» قال صاحب المواهب: وكان في نزول سورة "اقرأ" نبوته، وفي سورة "المدثر" إرساله بالندارة والبشارة والتشريع وهذا قطعاً متأخر عن الأول لأنه لما كانت سورة "اقرأ" متضمنة لذكر أطوار الآدمي: من الخلق والتعليم والإفهام ناسب أن تكون أول سورة أنزلت وهذا هو الترتيب الطبيعي وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام من العلم والفهم والحكمة والنبوة ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي والنطقي والخطي ثم يأمره سبحانه وتعالى أن يقوم فينذر عباده. اهـ. وقد افتتحت السورة بندائه ﷺ بوصفه بصفة ترملة وفيه زيادة ملاطفة وتأنيس، وأفرد الإنذار بالذكر مع أنه أرسل بشيراً أيضاً لأن الناس كانوا عاصين مستحقين للتخويف فكان أول الأمر هو الإنذار، وخصص "ربك" بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقاداً وقولاً وعظمة عما يقول فيه أهل الكتاب وحلفاؤهم، وتطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تدم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال، ثم أمره تعالى بهجران الرجز وهو الشرك والهجر هنا كناية عن متاركة المشركين والبراءة منهم ومن معبوداتهم... ومقصود السورة تكريم النبي ﷺ والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة وإعلان وحدانية الله وإنذار أهل الكتاب وحلفائهم بأهوال البعث وتهديدهم

بسقر "النار" لأجل استخفافهم بها وزعمهم قلة عدد حفظتها وتحديثهم بأنهم جهلوا ذلك العدد وتأييسهم من التخلص من العذاب وتمثيل ضلالهم في الدنيا ومقابلة حالهم بحال المؤمنين.

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) روى الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غلب أصحابك اليوم، قال: «وَمَغْلِبُوا؟» قال: سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: «فَمَا قَالُوا؟» قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا، قال: «أَيُغْلِبُ قَوْمٌ سَأَلُوا عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ فَقَالُوا: لَا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيْنَا؟ لَكِنِّهْم قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهْم فَقَالُوا: أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ إِنِّي سَأَلْتُهُمْ عَنْ تَرْبَةِ الْجَنَّةِ وَهِيَ الدَّرْمَكُ» فلما جاءوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال: هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسع، قالوا: نعم... الحديث. وليس في هذا ما يُلجىء إلى اعتبار هذه الآية نازلة بالمدينة كما روي عن قتادة لأن المراجعة بين كفار مكة واليهود في أخبار القرآن مألوفة من وقت كون النبي ﷺ في مكة، وكانت قريش ترجع في الأمور النقلية إلى بني إسرائيل ويسألونهم عنها ويقولون: هم أصحاب الكتب الإلهية. ولما قيل (عليها تسعة عشر) زيادة في تهويل أمر جهنم أردف بما يؤكد قوة الملائكة وتسلطهم وتباينهم بالشدة عن سائر المخلوقات. روى البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به فقال: «صعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ملك، وتلا هذه الآية: وما يعلم جنود ربك إلا هو» وإن

جبريل اقتلع خمس مدائن من مدائن قوم لوط بريشة واحدة من ستمائة جناح. وحدث ﷺ عن حملة العرش فقال: «أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام» وفي الأجرام العلوية جنود من جنود الله تعالى لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو عز وجل ودائرة ملك الله جل جلاله أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر أو يصل إلى مركزها طائر الفكر فأتى وهيئات ولو استغرقت القوى والأوقات.

(ولقد رآه بالأفق المبين) هذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافاً لقوم حقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام هي أصل الإيمان لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً. وقيل: إنه ﷺ رأى ربه عز وجل بالأفق المبين وهو معنى قول ابن مسعود رضي الله عنه. ثم نزه سبحانه وتعالى رسوله كليهما عليهما الصلاة والسلام: أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة فقال (وما هو على الغيب بضنين) فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: إذاعتها من غير كتمان وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان، والقراءتان كالأيتين، فتضمنت إحداها - وهي قراءة الضاد - تنزهه عن البخل فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت به أبخل ومعناه كما قال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضمن عليهم بما يعلم، والغيب ههنا: القرآن بالوحي، قال الفراء: يقول تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضمن به عليكم. وهذا معنى حسن جداً فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع

هذا فالرسول ﷺ لا ييخل عليكم بالوحي الذي هو أنفـس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتـم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً. وأما قراءة من قرأ بظنـين بالطاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه، وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال **(وما صاحبكم بمجنون)** ثم قال: وما هو أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

خشية جبريل عليه السلام من الله تعالى

روى الطبراني وابن أبي حاتم وغيرهما عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مرت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله»** ومصدق ذلك في التنزيل العزيز **(وهم من خشيته مشفقون)** وعن زرارة بن أوفى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: **«هل رأيت ربك؟»** فانتفض جبريل أي ارتعد ارتعاداً شديداً من الهيبة وقال: **«يا محمد إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو دنوت من بعضها لاحتقرت»** قال صاحب المشكاة: هكذا في المصاييح ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس إلا أنه لم يذكر فانتفض جبريل. قال الشارح: وفي الجامع برواية الطبراني في الأوسط عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«سألت جبريل:**

هل ترى ربك؟» فقال: «إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو رأيت أدناها لاحترقت».

(فلا أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون، إنه لقول رسول كريم) أي لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أو: فاقسم، و"لا" للتأكيد، أقسم تعالى بالأشياء ما يبصر منها وما لا يبصر، وهذا أعم قسم وقع في القرآن فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي واللوح والقلم وكل مخلوق، وذلك كله من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسول الله ﷺ وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق حسبما يحكيه قوله تعالى (فأورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إنه القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره "نفسه" ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله الله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لا تخالط بشاشة الإيمان قلبه، والمراد بالرسول الكريم هنا سيدنا محمد ﷺ لأنه لما قال (إنه لقول رسول كريم) ذكره بعده "إنه ليس بقول شاعر ولا كاهن" والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

الفصل الثاني:

وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدوا في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا

القضاء تضمن معنى الإيحاء وإنهاء الخبر إلى بني إسرائيل وإعلامهم عما سيفعلونه، فالتضمين جمع المعنيين عن طريق الحرف "إلى" وأعلن عن وجوده بقوتين: قوة القضاء المبتوت من عالم الأزل، وقوة البيان والتبليغ فيما أوحى. والكتاب هنا اسم جنس يشمل التوراة والقرآن فإن المفرد المعروف بلام الجنس يراد به المتعدد، والآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وبين أمة الإسلام، وهذه الحوادث تنقسم إلى وعدين: الأول: تندرج فيه حوادثهم مع سيد الأولين والآخرين وصحابته الطاهرين، والآخر: حوادثهم مع الأمة المحمدية في هذه المرحلة، بدليل عود الضمائر "ليسوؤوا وليدخلوا" إلى "عباداً لنا" وعبر عن الوعدين بمرتين، وعبر عن المرة الثانية بقوله ﴿ولتعلن علوا كبيرا﴾ وأما المرة الأولى فقد تهاوى كل علو بمولده الشريف ﷺ وانهار سلطان أئمة الكفر وتساقطت شرفات الأكاسرة وحل الويل بأصحاب الفيل... وآية العلو الكبير لبني إسرائيل هي طي خريطة القرآن وتوجيه أذهان المسلمين إلى المسجد الأقصى! والحق أن هذا العلو والعتو اليوم يُشبه علو فرعون ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ ومعنى العلو هنا: الكبر بأن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره ليس يساويه أحد، وأعظم ذلك الكبر استهزاؤه بدين الله وشرعية رسله، وقد صوّرت عظمة فرعون في الدنيا بقوله ﴿علا في الأرض﴾ لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر، وقوله ﴿إنه كان من المفسدين﴾ دال على شدة تمكن الإفساد من خلقه ولفعل ﴿كان﴾ إفادة تمكن خبر الفعل من اسمه فحصل تأكيد

لمعنى تمكن الإفساد من فرعون وذلك أن فعله هذا اشتمل على مفسد عظيمة، منها: التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفسد حجة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم وسوء ظنه بهم وأن لا يرقب فيهم سوى ما يرضي شهوته وحققه وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن يث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، ومنها: أنه استضعف طائفة على اعتبار العنصرية والقبلية فجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، وجعل أهل الأرض شيعاً وأحزاباً لكل أمة دينها ومعتقداتها وفرق أهل الدين الواحد إلى فرق وأحزاب، على منوال **(وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)** وعلى منوال **(كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا)** والله در القائل:

لكل جماعة فيهم إمام... ولكن الجميع بلا إمام!

وجعل منهم شيعاً مقرين منه ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة، ومنها: أنه خدع الناس وموّه عليهم وغسل أدمغتهم ولبس لهم الحق بالباطل واستفز أهل الإيمان وطوّعهم لخدمة مصالحه السياسية والاقتصادية ودفعهم بتيارات الطائفية والحزبية وغلاة الأفكار المذهبية والفتوية لإنجاح سياسة التحريش الشيطانية والمنافسة على السلطة واتخاذ فقه الصراع والمغالطات والمبررات في الاختلافات العقدية والفقهية لإشغال الفتنة المؤدية إلى الحقد

والبغضاء والحروب، ومنها: أنه **(يذبح أبناءهم)** وإنما فعل ذلك لأنه أُخبر أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهد في إهلاكهم، وبعد مبعث موسى عليه السلام أوقع الفتنة والحروب بينهم وكان يأمر بقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه والتجمع لإفساد أمره حسبما نطق به قوله **(قال سنقتل أبناءهم)** وقصده من ذلك أن يكون النفوذ في الأرض له خاصة... وقوله **(ويستحيي نساءهم)** أي يستبقي حياتهن ليصرن بغايا، وإذا كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة قتل الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق. وقوله **(لتفسدن في الأرض)** منشأ الإفساد: إشراك الشيطان في حكم الأرض وتنفيذ وصاياه بتحريف الكتب الإلهية وإضلال الناس وقهرهم على الكفر والشرك، وذروة الإفساد أن تخرق موجات التحريف الأمة المسلمة فترتسم بهذه التحريفات أفكار المسلمين ويفسد الميزان ويحصل بذلك التهارج والتنازع واختلاف الآراء والأهواء، وأهل الكتاب حرقوا الوحي والإرشاد الإلهي ووضعوا مناهجهم في فروع المعرفة كلها... مناهج تنقض مناهج... وأفكار تصطدم بأخرى... وأنشؤوا فرقاً وأحزاباً وحركات ومعاهد ومدارس وجامعات تقدم الدين والعلم والأدب... ولبسوا على ضعف العقول وسيئي الأذهان فصدوهم بتمويههم عن سبيل أهل الإيمان وزخرفوا لهم من القول غروراً كما صنع إمامهم الشيطان... ولعل واقع الحال يغني عن السؤال حيث صارت البشرية تعيش في شقاء وعناء وعنت نتيجة تسلط الشيطان وأولياء الشيطان، روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلی الله علیه وسلم قال: **«أخذ الذئب شاة فتبعها الراعي فقال الذئب: من لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري، قال:**

آمنت به أنا وأبو بكر وعمر» وفي الحديث تشبيه بديع حيث شبه الذئب بالشیطان وشبه الغنم بالإنسان كما روى الطبرانی عن معاذ بن جبل أن نبي الله ﷺ كان يقول: «الشیطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاردة والقاصية والناحية» والحديث ينبئ عن هذه المرحلة حيث صار الشیطان هو الراعي والحاكم المسيطر على الأرض بالشراكة مع أوليائه، إذ لا يمكنه ممارسة سلطانه بدونهم لأن ذلك يعارض السنن القدريّة الثابتة التي وضعها المولى تعالى، فلا بد للشیطان من أولياء في الأرض تتحقق فيهم نبوءة الاستخلاف، يسعى في إغوائهم ويستحوذ عليهم ويحكم من خلالهم، وهذا دأبه مع الأمم الغابرة التي أشركته في الأمر.

الفصل الثالث:

فإِذَا جَاء وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْهُولًا

قال الإمام الشعراوي في تفسيره: وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذي أعطاه رسول الله ﷺ ثم أجلاهم. اهـ. قلت: ويدل على ذلك أنه لم يرد في الآية لفظ المسجد، والمعنى أن الله تعالى بعث عباده المؤمنين وسلطهم على بني إسرائيل وهذا هو مفهوم العبارة (عِبَادًا لَنَا) إذ لا تطلق على غير المؤمنين، والقرآن يحدثنا عن معركة بين الحق والباطل أظهر فيها المولى سبحانه نصرته لعباده المؤمنين، وفاصل بين المحقين والمبطلين، وقد تحقق الوعد الأول المنبئ بعقابهم بعد إفسادهم في المرة الأولى إذ خالفوا أحكام الكتب الإلهية وحرفوها وقتلوا الأنبياء والمصلحين ونشروا التثليث والحلول والاتحاد والتجسيم والتشبيه ودخلوا جزيرة العرب وفق خطة مدروسة لحرب خاتم الأنبياء والمرسلين عليه صلوات رب العالمين حيث بدّلوا دين إسماعيل ونشروا عبادة الأوثان مستعينين بالشیطان فعبدت الأصنام في البلد الحرام وعقدوا مع قريش معاهدات دفاعية هجومية وأسسوا قواعدهم في يثرب وخيبر وقلبوا الحقائق وعكسوها ودبروا الحيل والمكايد ودوّروا الآراء في إبطال الحق - تماماً كما هو حالهم اليوم - وقالوا للأنصار في استهبال وصفاقة وجه: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم! وهم يعرفون حق المعرفة أن العكس هو الصحيح وأن الأنصار سيتبعونه ويقتلونهم معه كما جاء في دلائل النبوة للبيهقي على لسان حبرهم سلام بن أبي الحقيق حيث قال: ولنا منه ذبحان: واحد يثرب وآخر بخيبر! ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة نجم منهم

النفاق ونبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم وتعاملوا معه باستهبال وعدم مبالاة كما نعتهم الله تعالى بقوله **(كأنهم لا يعلمون)** والمتأمل في سيرتهم يعجب كل العجب من تناقض أحكامهم وأقوالهم! إذ كتموا أمر رسول الله ﷺ في كتبهم ونقضوا عهدهم معه في ميثاق الصحيفة الشهيرة وحزبوا الأحزاب على حربه وأرادوا استئصال الإسلام من جذوره بعد إشعال الحروب بين الأوس والخزرج حتى كاد أن يفني بعضهم بعضاً - وما أشبه الليلة بالبارحة - وكانوا أنفذ الناس قولاً في عامة العرب وكان المشركون في الجاهلية يدينون لهم بالولاء ويفزعون إليهم في التشاور في شأن نبوة سيدنا محمد ﷺ حيث كان بنو إسرائيل يفوقونهم بالعلم في الكتب الإلهية ومن أجل ذلك كانت قريش ومن حولها من قبائل العرب تسترشددهم في شؤونها فتتلقى منهم صوراً من الكذب والكيد والتشغب، وقد قهّود وتنصّر كثير من العرب لاعتقادهم في صحة دين بني إسرائيل! وشأن بني إسرائيل مشهور بمكة حيث كان لأهل مكة صلوات مع بني إسرائيل ومراجعة بينهم في مسألة النبوة، ووردت في السيرة حوادث دالة على سيطرة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي وأسوق منها صوراً؛ أحدها: ما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية» وفي رواية: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية» وفي رواية للبخاري: «وكان يوماً تستر فيه الكعبة» وفي رواية لمسلم: «إنه يومٌ تعظمه اليهود والنصارى» ومعلوم أنه يومٌ نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم. الثانية: ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس قال: «كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف لئن عاش لها ولد لتهودّنه فلما أُجليت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار فقالت الأنصار: يا رسول الله أبناؤنا، فأنزل الله هذه

الآية: لا إكراه في الدين» الثالثة: ما أخرجه الترمذي عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: - يعني بعض من دخل في الإسلام حديثاً ولم يتعلم من أدلة الأحكام آية ولا حديثاً - يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم» ووردت في كتب السير حوادث تشير إلى العلاقة بين بني إسرائيل وبين صاحبهم إبليس ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم وجعل مثلهم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها...ولما قدموا على كفار قريش دعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان ومن تبعهم من أهل نجد فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً ومن تبعهم من بني كنانة وأهل قحافة قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه! واعلم أيها الم لازم للاسترشاد من كتاب الله أن غزوة الأحزاب أم الغزوات لكونها من تخطيط وتنفيذ وتمويل بني إسرائيل حيث حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ولما بلغوا مكة قالوا لأبي سفيان: أخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل! ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاهدوا ثم قالت قريش لبعضها لبعض: قد جاءكم رؤساء أهل يثرب وأهل العلم والكتاب الأول فسلوهم عما نحن عليه ومحمد أينأ أهدي؟ قالت قريش: نعم فقال أبو

سفيان: يا معشر اليهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد ديننا خير أم دين محمد فنحن عمار البيت ونحرق الكوم ونسقي الحجيج ونعبد الأصنام، قالوا: اللهم أنتم أولى بالحق منه إنكم لتعظمون هذا البيت وتقومون على السقاية وتنحرون البدن وتعبدون ما كان عليه آباؤكم فأنتم أولى بالحق منه! وكان يهود بني قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد ثم تبعهم بنو النضير ثم بنو قريظة حين عمد إليهم حيي بن أخطب يغريهم بفتح الطريق أمام جيوش الأحزاب قائلاً لكعب بن أسد: ويلك يا كعب قد جئتكَ بعز الدهر وبيحر طام، جئتكَ بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نغمي إلى جانب أحد، قد عاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه! وذكر البيهقي في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ أخا بني عبد الأشهل وسعد بن عباد وعبد الله بن رواحة وخوان بن جبير إلى بني قريظة ليكلموهم ويناشدوهم في حلفهم فانطلقوا حتى أتوا باب حصن بني قريظة استفتحوا ففتح لهم فدخلوا عليهم فدعوهم إلى المودعة وتحديد الحلف فقالوا: الآن وقد كسروا جناحنا يريدون بجناحهم المكسورة بني النضير ثم أخرجوهم وشتموا النبي ﷺ شتماً فجعل سعد بن عباد يشاتمهم فأغضبوه فقال سعد ابن معاذ لسعد بن عباد: إنا والله ما جئنا لهذا ولما بيننا أكثر من المشاتمة، ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرٍ منه، فقالوا: أكلت أير أبيك! فقال: غير هذا من القول كان أجمل وأحسن منه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ حين يؤسوا مما عندهم فعرف رسول الله ﷺ في

وجوههم الكراهية لما جاءوا به فقال: «**ما وراءكم**» فقالوا: أتيناك من عند أخابث خلق الله وأعداه لله عز وجل ولرسوله ﷺ وأخبروه بالذي قالوا فأمرهم رسول الله ﷺ بكتمان خبرهم وانصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم في بلاء شديد يخافون أشد من يوم أحد فقالوا: حين رأوا رسول الله ﷺ مقبلاً: ما وراءك يا رسول الله؟ قال: «**خير فأبشروا**» ثم تقنع بثوبه فاضطجع ومكث طويلاً واشتد عليهم البلاء والخوف حين رأوا رسول الله ﷺ اضطجع وعرفوا أنه لم يأتهم من بني قريظة خير ثم إنه رفع رأسه فقال: «**أبشروا بفتح الله ونصره**» فلما أصبحوا دنا القوم بعضهم إلى بعض فكان بينهم رمي النبل والحجارة. اهـ. وكفى الله المؤمنين القتال بالملائكة والريح وبما أجراه بين المشركين من التخذيل والفرقة والشك حتى تفرقوا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**» قاله حين أجلى عنه الأحزاب وهذا من معجزاته ﷺ وقد كان كذلك حيث غزا بني قريظة ثم غزا خيبر ثم انساحت جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بعد استئصال الأمة الملعونة التي حاولت بكل ما تملك من قوى أن تعوق سير الرسالة وتوقف مد الإسلام! ولما انصرف رسول الله ﷺ عن الخندق راجعاً إلى المدينة أتاه جبريل ﷺ معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فأني عامد إليهم فمززل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر**

إلا في بني قريظة» وتخصيص نزول جبريل عليه السلام بهذه الصورة إلى بني إسرائيل دون الجموع الغفيرة من قريش وأحلافها ثم تخصيصهم بالذكر في سورة الأحزاب ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيتهم﴾ يدل على مدى خطورة هؤلاء القوم الذين لا يأبه لهم الناس مما اقتضى حملة ضخمة هائلة في القرآن الكريم منوعة الإيماءات والإيحاءات والإشارات والأساليب لكشف حجم القوم وعمق الشر المتأصل في نفوسهم ومدى خطورتهم على الأمة المسلمة والبشرية جمعاء! وقد أفاضت كتب السيرة عن مواقفهم وما ترتب على ذلك من أمور خاصة وعامة لم نتطرق إليها طلباً للاختصار ورغبة في تحديد شخوصهم وإساءة وجوههم ويمكن مراجعة تفاصيل أخبارهم في مظانها من كتب الأحاديث والسير... ففي الآية الكريمة ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ بين المولى عز وجل أنه بعث على بني إسرائيل عباداً له يعني رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم فجاسوا خلال ديار بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة فقتل من قتل وأجلى من بقي، والجوس: التخلل في الديار وطرقها ذهاباً وإياباً لتتبع ما فيها، وجيء بهم أرسالاً لضرب أعناقهم وفيهم عدو الله حيي بن أخطب بن النضير بن ناخوم من سبط لاوي بن يعقوب مجموعة يده إلى عنقه فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يُخذل ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه... وتم تطهير المدينة من رجسهم في العام الخامس من هجرة صاحب المجد والشرف ﷺ، والله در الأبوصيري حيث يقول:

وبيوم الأحزاب إذ زاغت الأب ... صار فيهم وضلت الآراء
وتعدّوا إلى النبي حدوداً ... كان فيها عليهم العدّاء
ونتهّم وما انتهت عنه قوم ... فأبىد الأمار والنّهاء
وتعاطوا في أحمد منكر القو ... ل ونطق الأراذل العوراء
كل رجس يزيده الخلق السو ... ء سفاهاً والملة العوجاء
فانظروا كيف كان عاقبة القو ... م وما ساق للبديّ البداء
صرعت قومه حباللُ بغي ... مدّها المكر منهم والدّهاء
فأتتهم خيل إلى الحرب تختا ... ل وللخيل في الوغى خيلاء

وقد أشارت سورة بني النضير إلى ما كتب الله عليهم من الجلاء (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) وقد أجلى آخرهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جزيرة العرب، ثم عادوا إليها كما أشار حديث جبريل عليه السلام في مسند أحمد: «وعاد العالة الحفاة رؤوس الناس» واللام في قوله (لأول الحشر) لام التوقيت، والمعنى هنا: حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها، أي جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء إذا كان الجلاء لجماعة عظيمة تُجمع من متفرق ديار البلاد وتتعاقب حتى يكمل إخراج جميعهم وذلك ما أوصى به الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته إذ قال: «لا يبقين دينان بأرض العرب» وقد أنفذه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهذا أول جلاء أصابهم، وفي قوله (لأول الحشر) إيماء إلى أن لهم حشراً

آخر وهو الجلاء الثاني المبثّر به المذكور في صحيح الإمام مسلم في باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله» فإن قيل: ينافي بعض ما تقرر ما ذكره المفسرون. قلنا: لا منافاة لأن أكثر ما ذكره المفسرون في هذه الآيات لم يصح فيه عن النبي ﷺ شيء وإنما يعتمدون في ذلك على نحو أخبار إسرائيلية لا تقوم بها حجة عند النزاع. وقوله (فاعتبروا) الاعتبار - كما قال القشيري - أحد قوانين الشرع ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره. ولما كان الاعتبار عظيم النفع لا يحصل إلا للكمل زاده تعظيماً بقوله تعالى (يا أولي الأبصار) بالنظر بأبصاركم وبصائرکم في غريب هذا الصنع لتحقيقوا به ما وعدكم على لسان رسوله ﷺ من إظهار دينه وإعزاز نبيه ولا تفعلوا شيئاً من قبيح أفعالهم لئلا يحصل لكم مثل نكالهم كما أحكمه قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلکم» الحديث.

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً) وذلك حين عادوا إلى جزيرة العرب بعبادة الإسلام ليأخذوا دور فرعون العالی المسرف في الأرض، وقد تحققت هذه الكرة فأخرج الله لهم كنوز الأرض وتحركت جنود إبليس لنصرتهم! وهذا كما قال جل شأنه (كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى) أي استغنى بماله وشركائه! وفي سورة المؤمنون بين الحق سبحانه أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم في المعاصي واستجراراً لهم في زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وهذا من مكر الحق بهم بتبليس المنهاج رأوا سراياً فظنوه سراياً ودس لهم في شهدهم صاباً فتوهموه عذاباً وحين لقوا عذاباً علموا أنهم لم يفعلوا صواباً. وقوله تعالى (وجعلناكم أكثر نفيراً)

النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل والحفاة العراة ليسوا قوة ذاتية بمفردهم ولكن وراءهم الدول الكبرى وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ قيام دولتهم الأولى...ولما عظمت فيهم الفجرات وكثرت فيهم الغدرات؛ ناسب تقرير قاعدة العمل والجزاء (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أي وإن أسأتم فالإساءة لها، واللام استعارة تهكمية فإن القوم يحملون ضرر إساءة أتباعهم كما جاء في الآيات والآثار فتأمل.

وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم

ذروة إفساد بني إسرائيل هي الوصول إلى المسجد الحرام وهذا هدفهم، ونهاية الإفساد تطهيرهم منه، وقد تم احتلاله عبر مؤامرة خبيثة مأكرة تبادلو خلالها المهام والوظائف مع شركائهم، وكان العنصر الحاسم آنذاك: المجاهدون من قبائل نجد الذين تم تأهيلهم فكرياً وعقدياً لقتال الدولة العثمانية المشتركة على حد زعمهم - وما أشبه الليلة بالبارحة - وعلى رأس هؤلاء الحمقى: سلطان بن بجاد العتيبي الذي اكتشف خدعة إمامه بعد فوات الأوان، وأرسل إلى عبد العزيز آل سعود رسالة يقول فيها: كنت إمامنا يا عبد العزيز ودعوتنا للجهاد ضد كل الكافرين والمنافقين...فإما أن تكون مفترياً علينا ولا يهملك سوى مصلحتك الخاصة أو أن القرآن الكريم ليس هو الكتاب الصحيح وعلى علماء نجد أن يختاروا بيننا وبينك!!! فقاتله إمامه وقتل مقاتلته ففر هارباً ثم سجنه ومات محبوساً في ظروف غامضة، وحاله:

تخادعنا وتوعدنا رويداً ... كدأب الذئب يأدو للغزال

وما أحسن قول القائل:

وأنت كذّبتُ السوء ليس بآلف ... أبي الذئب إلا أن يخون ويظلما

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «بيننا راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتى استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري» وفي الطرف الآخر: شركاء بني إسرائيل! وقد عملوا على أربعة محاور 1- بريطانيا "لورانس" 2- فرنسا "بريموند" 3- مصر "ماكماهون" 4- تركيا "الإتحاد والترقي" الذي يرأسه اللقيط المتهود أتاتورك وكان قبل ذلك متظاهراً بالتصوف! وقد زعم أناس سلوك هذا الطريق وأخذهم رأيهم للخوض في الذات والصفات وغلب عليهم مشهد الشطح والفساد وساروا في دروب الحلول والاتحاد فأساءوا إلى التصوف وشوهوا صورته وأفسدوا سيرته وتخطوا في الأباطيل وجمحوا وابتعدوا عن الخط الأصيل. وكان أمير مكة الشريف حسين - الحريص على الخلافة - الرجل المنشود، فتم استغلاله واستغفاله واستدراج أبنائه وخداعهم بالوعود الكاذبة لفك عرى الدولة العثمانية... وسقطت قبلة الإسلام مع سقوط الدولة العثمانية، بعد صرف أنظار المسلمين إلى سقوط الأقصى. أخرج أحمد وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فعوداً فذكر الفتن فأكثر ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي فتنة هرب وحرب، ثم فتنة السراء دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني إنما ولي المتقون، ثم يصطليح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمة فإذا قيل انقطعت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين فسطاط

إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد» قال الخطابي: إنما أضيفت إلى الحلاسة لرزانها وطول مكثها وإنما شبهت بالحلاسة لسواد لونها وظلمتها... وقد أمر ﷺ باعتزال الفرق والتمسك بأئمة وعلماء أهل بيته الكرام ومن سار في درهم وتأدب بآدابهم وانطوت محبته على الالتزام بهديهم.

(وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) الرؤيا هي رؤيا عين ويقظة رآها ﷺ ليلة الإسراء والمعراج كما روى الإمام البخاري في صحيحه، والشجرة الملعونة في القرآن مجاز عن يهود ونصارى بني إسرائيل، وجاءت عطفاً على الرؤيا فهي مندرجة في الحصر أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس! وأتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم وتمكينه من وسوسة ذريته وتسويله. وقد ذكر الحافظ الشامي والحافظ نجم الدين الغيطي في حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ: «بينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه يا محمد! انظري أسألك فلم يجبه، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود أما إنك لو أجبتَه لتهوّدت أمّتك، فبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شماله يا محمد! انظري أسألك فلم يجبه، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي النصارى أما إنك لو أجبتَه لتنصّرت أمّتك، وبينما هو يسير إذ هو بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت: يا محمد! انظري أسألك فلم يلتفت إليها، فقال من هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا أما إنك لو أجبتَها لاختارت أمّتك الدنيا على الآخرة، وبينما هو يسير إذ هو بشيخ يدعوه منتحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد! فقال جبريل: بل سر يا

محمد، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه» وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أراني الليلة في المنام عند الكعبة فإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لمتة بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو بينهما يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا المسيح ابن مريم، ورأيت وراءه رجلاً جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبهه من رأيت من الناس بابتن قطن واضعاً يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا المسيح الدجال» واستشكل بأن الدجال لا يدخل مكة وأجيب بأن المراد أتباعه من اليهود والنصارى اللذين يعاونانه على باطله ويوطئان ويمهدان لخروجه على نحو ما ورد عند الحاكم في المستدرک عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في الحطيم مع حذيفة فذكر حديثاً ثم قال: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، وليكونن أئمة مضلون، وليخرجن على أثر ذلك الدجالون الثلاثة» فقلت: يا أبا عبد الله، قد سمعت هذا الذي تقول من رسول الله ﷺ؟ نعم سمعته، وسمعته يقول: «يخرج الدجال من يهودية أصبهان، عينه اليمنى ممسوحة، والأخرى كأنها زهرة تشق الشمس شقاً ويتناول الطير من الجولة ثلاث صيحات يسمعهن أهل المشرق وأهل المغرب ومعه جبلان جبل من دخان ونار، وجبل من شجر وأثمار ويقول: هذه الجنة وهذه النار» وسمعته يقول: «يخرج من قبله كذاب» قال: قلت: فما الثالث؟ قال: «إنه أكذب الكذابين إنه يخرج من قبل المشرق يتبعه حشارة العرب وسفلة الموالي، أولهم ميثور وآخرهم ميثور، هلاكهم على قدر سلطانهم عليهم اللعنة من الله دائماً» قال: فقلت: العجب كل العجب، قال: «وأعجب من ذلك سيكون، فإذا سمعت به فالهرب الهرب»

قال: فقلت: كيف أصنع بمن خلفت؟ قال: «مرهم فليلحقوا برؤوس الجبال»
قال: فقلت: فإن لم يتركوا وذاك، قال: فقلت: «مرهم أن يكونوا أحلاساً من
أحلاس بيوتهم» قال: قلت: فإن لم يتركوا وذاك، قال: «يا ابن عمر زمان
خوف وهرج وسلب» قال: قلت: يا أبا عبد الله ما لهذا الهرج من فرج؟ قال:
«بلى إنه ليس من هرج إلا وله فرج، ولكن أين ما يبقى لها، إنها فتنة يقال لها
الجارفة، تأتي على صريح العرب وصريح الموالي وذوي الكنوز وبقية الناس ثم
تنجلي عن أقل من القليل» نعوذ بالله من فتنة الدجاجة ومن كل فتنة مضلة.
وأخرج أحمد والحاكم والطبراني وأبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمرو بن
العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرج ناس من قبل المشرق يقرؤون
القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يخرج في بقيتهم الدجال»
وسُمي بالدجال لتمويهه على الناس وتليسه - ويبدو أن أرض فارس ستكون
ملجأ لبني إسرائيل بعد تشريدهم كما أشار الحديث عند الإمام مسلم: «يتبع
الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة» وروى الإمام أحمد
والطبراني وأبو يعلى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرج الدجال
من يهودية أصبهان معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم السيجان» ويؤيده قول
الصدِّيق عليه السلام: «يُخرج من مرو بين يهود تيماء» ويهود تيماء هم امتداد يهود
يثرب وخيبر وفدك ووادي القرى حيث اجتمعوا في تيماء وهي آخر نقطة لهم
في جزيرة العرب ومنها خرجوا إلى الشام... قال ابن الملقن في "التوضيح لشرح
الجامع الصحيح": وأما مرو وأصبهان وشبههما فشيء واحد لأنه تارة عبر
بالإقليم وتارة بالبلد وتارة بالمكان فلا اختلاف. اهـ. وفي الحديث عند البزار:
«يتبع الدجال سبعون ألفاً من يهود أصبهان أو من يهودية أصبهان عليهم

الطيالسة» وروى الحكيم الترمذي بإسناده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان يمان، والكفر من قبل المشرق، والسكينة لأهل الغنم، والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل وأهل الوبر، يأتي المسيح إذا جاء دبر أحد صرفت الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك» والله ورسوله أعلم.

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ذكرهم الربّ بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التنصّل من شرك الربوبية، وقد كذبوا وحلفوا على الكذب تخلصاً من العقاب جرياً على سننهم في الدنيا حين ظنوا أنهم يموّهون على الله تعالى ويخادعون، وقُرئ بتذكير يكن ونصب فتنتهم باعتبار كان ناقصة، وفي قراءة أخرى بالتأنيث والنصب، وفي قراءة بنصب باء (ربّنا) على النداء بحذف حرفه. ومما مهّد لسقوط البيت الحرام: الرسائل الغادرة التي بعث بها مفتي السعودية محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ - كما جاء في الأجوبة النجدية - وهذا نصه: من محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ إلى من يراه من أهل القرى ورؤساء القبائل من أهل اليمن وعسير وحمّة وشهران وبني شهر وقحطان وغامد وزهران وكافة أهل الحجاز وغيرهم هداية الله وإياهم لدين الإسلام وجعلنا وإياهم من أتباع سيد الأنام آمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد: فإنه لما كان في هذه السنة وهي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية، بعثنا الإمام المقدم والرئيس المفضل المفخم صاحب السعادة والسيادة: عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أعلى الله سعوده وأدام للمسلمين وجوده لأجل تعليمكم ما أوجبه الله عليكم وتعبدكم به من دين الإسلام الذي معرفته والعمل به والبصيرة فيه سبب لدخول الجنة، والجهل به والإعراض عنه وعدم

قبوله والانقياد له سبب لدخول النار، فلما قدمنا بعض جهاتكم رأينا أهلها قد جال بهم الشيطان والهوى وتمادوا في الغي والطغيان والإعراض عن النور والهدى وفرقوا أمرهم وكانوا شيعة وغلب عليهم الجهل وإيثار الشهوات واستجابوا لداعي الشبهات فوقعوا في واد جهل خطير فهم على شفا حفرة من السعير وغلب على أكثرهم الاعتقاد في أهل القبور والأحجار والغيران وتعظيم أهل الصلاح من المقبورين وهذا هو دين أهل الجاهلية الأولين الذي بعث فيهم سيد المرسلين وإمام المتقين، فلما رأينا ذلك وجب علينا الدعوة إلى الله بالحجج والبراهين وهي طريقة النبي الأمين وسبيل من اتبعه من الصحابة والتابعين ومن سلك منهاجهم إلى يوم الدين كما قال تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وكتبنا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعقائد السلفية إلى القبائل والبلدان بعد ما سفت عليها السواقي وقل من يعرفها من أهل القرى والبوادي نصحا لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين، وصار بعض الناس يسمع بنا معاصر الوهابية ولا يعرف حقيقة ما نحن عليه وينسب إلينا ويضيف إلى ديننا ما لا ندعو إليه فبعضهم يقول علينا وينسب إلينا السفساف والأباطيل تنفيرا للناس عن قبول هذا الدين وصدا لهم عن توحيد رب العالمين... إلخ. وتم مخادعة المسلمين بمثل هذه الرسائل المزورة من علماء بني إسرائيل أخزاهم الله وأساء وجوههم... ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام هو خط المعركة الفاصل بين أبناء العليم وأبناء الحليم؛ جاءت نصوص الكتاب مستفيضة دقيقة عميقة في مكان التوحيد... أخرج ابن حبان في صحيحه عن ثوبان أن نبي الله ﷺ قال: «وإن من أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» وأخرج أحمد في المسند عن أبي ذر

قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «لغير الدجال أخوفني على أمتي» قالها ثلاثاً، قال: قلت: يا رسول الله ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك؟ قال: «أئمة مضلين» ومن مكائدهم ومصايدهم التي كادوا بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصادوا بها قلوب الجاهلين والغافلين: ادّعاءهم الإسلام والتوحيد واتهام المسلمين بالشرك ووصفهم بأشنع أوصاف التضليل والتفسيق والتبديع! أخرج الطبراني في مسند الشاميين عن كعب الأحبار عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أسرّ إليّ رسول الله ﷺ فقال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي أئمة مضلين» قال كعب: فقلت: والله ما أخاف على هذه الأمة غيرهم. وفي الحديث عند النسائي: «فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار» وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ وقد أمر الحق بقتالهم كما نطقت بذلك آية براءة ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ ولما ذكر النبي ﷺ فتنة الدجال قال: «فمن نجا من فتنة ما قبلها نجا منها» وهذا يعني أن من نجا من فتنة ما قبل الأعور الدجال نجا من أعظم فتنة على وجه الأرض منذ أن خلق الله ذرية آدم. روى ابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال: «إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أئمة الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة» وأخرج الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمام الدجال سنين خداعة» وسُمي بالدجال لتمويهه وتليسه الإسلام بالكفر كما دلت الروايات الأخرى كقوله ﷺ: «مكتوب بين عينيه كافر» إذ لو أعلن

مسيح الضلالة كُفّره وكشف عن نفاقه لما احتيج أن يُكتب الكفر بين عينيه، وفي حديث عمران بن حصين عند أبي داود: «فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتَّبِعُهُ مما يَبعث به من الشبهات» أي يحسب أن الدجال مؤمن فيتبعه...ولو كان أمر الدجال مكشوفاً لما كان للخضر عليه السلام مزيد اختصاص وعلو مرتبة، فقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا قال: «يأتي وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خير الناس - فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتل هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، قال فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن - قال: ف يريد الدجال - أن يقتله فلا يسلط عليه» قال أبو إسحاق: «يقال إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام».

(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون، وما كان صلاحهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) لما بيّن الحق أن الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما دام حُبّه في قلوبهم وسنته باقية فيهم مبتهلون إليه في استغفارهم، أردف بالطعن على المستخلفين المفسدين والمقصود - والله أعلم - أنهم يُصلّون لغير الله وعلى هذا يستقيم تعييرهم وتنقيصهم بأن صلاحهم لم تكن رهبة ولا رغبة وأنها غير رادة عليهم ثواباً إلا كما يجب الصدا الصائح أي لا جدوى لها ولا ثواب فجعلت كأنها أصوات الصدا حيث لها حقيقة. وقيل: مكأؤهم: أذاهم، وتصديتهم: إقامتهم، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله "مكاء

وتصدية" قال: تصدية عن سبيل الله وصدھم عن الصلاة وعن دين الله. وعن سعيد بن جبیر في قوله "وتصدية" قال: صدھم الناس. قال تاج القراء الكرمانی في تفسیره: معناه صلاتھم ودعاؤھم غیر رادین علیھم ثواباً إلا كما یجیب الصدی الصائح. اهـ. یمخرجون إلى بیت الله بأبدان نجسة وأیدٍ سفکوا بها الدماء وبطنون ملئت من الحرام ﴿وإذا تتلى علیھم آیاتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطیر الأولین، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وهذا القول صادر من منافقي أهل الكتاب - ویلتقفه أتباعهم الذین اقتحموا معهم السفه والجرأة على الله تعالى - ونظیر هذا قوله تعالى ﴿وقالوا لولا أنزل علیہ ملك﴾ أي بإھلاكنا. ولما عجزوا عن صرف الناس عن هذا القرآن حولوه إلى تراویل یترئم بها القراء ویطرب لها المستمعون! إنها مناورة النضر بن الحارث ولكن في صورة من الصور المعقدة التي عرفها تاریخ مكر بني إسرائيل على مدار القرون! والعجیب في شأن هذا القرآن أنه على طول المکر وتعقده وتطوره وترقیه لا یزال یغلب! إن لهذا الكتاب من الخصائص العجیبة ما یغلب به كید الجاهلیة وكید شیطین الدرعية! وها هو الیوم لا یزال یلوي أعناقهم لیجعلوه مادة إذاعية في جمیع محطات العالم الإعلامية! بعد أن حولوه في نفوس المسلمین إلى مجرد أنغام وتراویل وأبعدوه عن أن یكون مصدر التوجیه للحیة وأقاموا مصادر غیره للتوجیه في جمیع الشؤون! ولكن هذا الكتاب لا یزال یعمل من وراء هذا الكید وسیظل یعمل...ولا تزال في أنحاء في الأرض عصابة مسلمة تتجمع على جدیة هذا الكتاب وتتخذہ مصدر التوجیه وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمکین.

واعلم أيها المتحقق بمقام الخلافة والنيابة أن الصد عن المسجد الحرام محمول على الاستيلاء والتسلط والسيطرة والمنازعة في الأمر وإلا فإن أصحاب ميثاق الدرعية لا يمنعون أحداً من دخول الحرم ما دام تحت حكمهم ولا يحاربون من أقرّ بسيادتهم وانتمى بالولاء لهم وخير شاهد على ذلك ما وقع بينهم وبين الشريف غالب من معارك عديدة وحروب مديدة انتهت بتغلبهم عليه فاضطر إلى طلب الصلح على أن يكون تابعاً للدرعية فأبقوه في إمارته على مكة منتبهاً بالولاء لهم فدخلت مكة تحت الحكم السعودي عام 1221هـ ولذلك حذر المولى سبحانه في الآيات التي بعد هذه من التهاون في مسألة الحكم وأمر بقتالهم فقال جل شأنه وعز سلطانه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي حتى يكون الحكم خالصاً لله ليس للشيطان فيه نصيب، وأخبر سبحانه أنهم ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَموالهم لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ﴾ ولا يخفى على المتتبع أن ميزانية الحج والعمرة تُجمع لحرب المسلمين وإيقاع الفتنة بينهم وقد صرحت المواقع الرسمية للمملكة العربية السعودية في أول أيام عيد الفطر المبارك عام 1434هـ أن خادماً الحرمين الشريفين قدّم مائة مليون دولار للأمم المتحدة لمحاربة الإرهاب! ولذلك لم يرد ذكر الحج في بعض روايات حديث أمين الوحي جبريل عليه السلام، واعلم أيها اللبيب أن الإلحاد في المسجد الحرام هو في حقيقته صد عن المكانة التي جعلها الله لهذا المسجد ولأجل هذا جاء التهيج والتحريض على القتال لتحريره من رجس المشركين وتطهيره للطائفين والعاكفين، وسورة الأنفال من أولها إلى آخرها تهاجم أصحاب ميثاق الدرعية وتحرض على قتال أصحاب الطبائع الإبليلية وتحذر من أهوائهم الظلمانية وبدعهم الشيطانية

وتعطي المؤمنين المبررات التي ينطلقون منها في ثقة وطمأنينة لعون الله ومدده وتدييره، وسورة التوبة "البحوث" تكشفهم وتفضحهم وتصفهم بأئمة الكفر. ولما فوّض تعالى في مطلع سورة الأنفال قسمة الغنائم إليه سبحانه وإلى رسوله النائب عنه بإذنه وأمر عباده باجتنباب المشاجرة والاختلاف الموجب لسخطه تعالى أتبع ذلك بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ قال الإمام الحكيم والغوث العظيم، القمر الفاطمي الأزهر والبدر الكامل الأنور أبو الهدى الصيادي الرفاعي قدس الله روحه ونور ضريحه: المراد من ذكر الله في الآية: ذكره بما أعده لأهل الأوزار من عذاب النار وبئس القرار فإن ذكر اسمه تعالى لمن أعرض عن الطاعات واستغرق في المخالفات وانكب على تحصيل الشهوات موجب للوجل والخوف منه جلت عظمته وعلت قدرته.

الفصل الرابع:

فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم

اعلم أيها الشاهد أنه تعالى جعل لكل أمة أجلاً معدوداً وحداً محدوداً يظهره سبحانه في الأزمان الخاصة به والأوقات المؤجلة له، والعبارة تسلط الضوء على المنافقين وتكشف اللغز الذي حير الباحثين وترفع اللثام عن أعداء الأمة وأعداء الدين، فإساءة الوجوه كشفٌ لحقيقة حُجبت عنها الأمة وارتكس في معناها حملة الأمانة وذاق الغفلون على أيديهم الحيرة في الديانة! فعبر بإساءة الوجوه عن غاية الكشف والتفصيح، والتشهير والتقبيح، والإذلال والإهانة والشين والإذالة، وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وتحقير المقدار، وإبانة الفضائح وإظهار القبائح... وحين تجهل الأمة حقيقة عدوها المتربص بها تجيء الأحداث فتعلم ما لم تكن تعلمه قبل هذا المحك المرير، الذي لا يظهر إلا بتقدير العليم القدير، لتمحيص المؤمنين وتمييزهم وتخليصهم واصطفائهم واجتبائهم... وقد تظن الأمة أنها قادرة على التخلص من عدوها الأعجمي، ثم إذا هي تتفاجأ في مواجهة عدو عربي لم تنهياً لمواجهته... وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها الخلافة في الأرض، يري الله الأمة المختارة لقيادة البشرية، وكان يريد بها أمراً في هذه الأرض فيمحصها هذا التمحيص لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها... وتجيء النبوءة الصادقة والوعد المفعول في عبارة تواترت قراءتها وتعددت حروفها وتظاهرت معانيها، حيث قرأ الكسائي بالنون ونصب الهمزة على إسناد الفعل إلى الله تعالى ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم﴾ وقرأ الشامي وشعبة وحمزة وخلف بالياء ونصب الهمزة على إسناد الفعل إلى رسول الله ﷺ ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم﴾ وهو ﷺ حي في قبره المنيف حياة برزخية تليق بجنابه الشريف يفيض بفيض الله

ويحسن بإحسان الله ويعطي بالله ويمنع بالله وله اليد على كل ذرة مخلوقة في ملك الله. وقرأ الجمهور بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع على إسناد الفعل إلى المؤمنين **(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم)** والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوؤوا وجوهكم! أي ليجعل العباد المبعوثون آثار المساء والكآبة بادية في وجوهكم فإن الأعراض النفسانية تظهر فيها فيظهر بالفرح: النضارة والإشراق، وبالحزن والخوف: الصفرة والحمرة والكloch والسواد فالوجوه على حقيقتها...

فيا سحر فرعون ماذا تقول ... إذا جاء موسى وألقى العصا

وسوء الوجوه: جعل المساء عليها أي تسليط أسباب المساء والكآبة عليكم حتى تبدو آثارها على وجوهكم لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب من غم وحزن وخوف إنما تظهر على الوجه، يقال: ساء يسوؤه أي أحزنه والمعنى: ليدخلوا عليكم الحزن بما يفعلون من بيان أمركم وكشفكم وفضحكم وهتك ستركهم ثم قتلكم وسييكم وإخراجكم، وعُدت المساء إلى الوجوه والمراد بها أصحابها لما يبدو فيها من أثر الحزن والكآبة، والوجه أكرم ما في الجسد وأزهاه ألا ترى أن العباس لما وسم جماله في وجوها قال له رسول الله ﷺ: **«أكرموا الوجوه»** فالغرض هو فضيحتهم على رؤوس الأشهاد والتشهير بهم خزيًا ونكالًا والله أعلم وأحكم، وللمفسرين تأويلات أخرى ولعله يغنيك عنها ما ذكره العبد الفقير فتدبره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر.

وهكذا تعود الخلافة إلى الأمة الأمية ويخرج الوحي المخبوء وتظهر خطة الإصلاح الإلهية لتزيل رأس الأفعى وتحصر الذين أخفوا الوحي ووضعوه في غلاف من العقائد المزخرفة والمناهج المبهرجة ونقضوا العهد والميثاق وخادعوا أمة الإسلام! وكانوا قد أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله هذه الأمة كما حكى تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا القسم يُؤذِن بتهكمهم بالمسلمين بتنزيلهم منزلة الميت، فردّ الله عليهم وقرعهم بهذا القول وبيّن أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه ﴿بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والكلام في الآية ﴿لَيَبِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ تعليل لقوله تعالى ﴿بَلَىٰ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقصد بيان حكمة جعله وعداً لازماً لا يتخلف لأنه منوط بحكمة، ليبيّن للمشرّكين الذي يخْتَلَفُونَ فيه، والكلام يتضمن البعث الأول والبعث الآخر عند قيام الساعة، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والقسم في قوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ﴾ يؤذِن بتهكمهم بكتاب الله من أجل إخباره عن البعث الأول والآخر! والآيات بينائها التعبيري ومشهد العنيف ولذعها الحادّ تدير التهكم عليهم! وتشن عليهم حملة لا يثبت لها قلب ولا يتماسك لها كيان... ونظير هذا قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ والكلام جار على طريقة تمثيل حال الأمة المسلمة بحال من كان ميتاً فأُحيي، وتمثيل حال الأمة الملعونة بحال ميت باق في قبره! روى الإمام الطبري

عن ابن زيد قال: الهدى الذي هداه الله به ونور له هذا مثلُ ضربه الله لهذا المؤمن الذي يصير دينه وهذا الكافر الأعمى فجعل المؤمن حياً وجعل الكافر ميتاً ميت القلب.

(سنسمه على الخرطوم) لما نهى الحق سبحانه عن المداينة في الدين والطاعة لكل خلاف مهين استعبدته المعاني الشهوانية وأنا الإليسية والهمز والمشي بالنميمة والبخل والظلم والقسوة وتجسمت فيه العداوة كلها فاختلت موازينه ورجعت معانيه الإنسانية متعادية فذاته هي التي تأمر وتنهى تماكس وتساوم وتلبس في الفضائل وتزور في الحقائق فيقع في الخلط والخبط من هذيانه يتهوس في لججته يلصق به العار لا يفارقه، أخبر سبحانه معلماً أنه سيجعل لذلك المنافع من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق - والآيات لا تقتصر على الزمن الذي نزلت فيه فإن سبب النزول لا يصلح مخصصاً - ولعل الغرض هو التشهير به والتحذير منه ومن أمثاله من الدمي التي تعمل من ورائه في تهديم كيان الدين ونشر الفساد بشتى صوره الفكرية والأخلاقية! صورة تركته في هذه الحنة الشقية تتسلل إلى نفسه أشباح خفية وإن كان يظهر الاتزان! وهل أقوى من سلاح الكلمة حولته من عاقل متزن واسع النظر إلى خبل مكفوف البصر

إن كان يزهو بما يمتاز من شرف ... ومنزل حازه ما فوقه فخر

فرُّبه سامه في أنفه سمة ... كانت دواء لداء شانه الكبرُ

كل المشائم هانت غير مشأمة ... ليس لمصطبر عن حملها صبرُ

فكأس سُم سقاه من مرارتها ... وسُبة بقيت ما بقي الدهرُ

التعبير بالمحسوس أوقع وأعمق من التعبير بالمدرک فالصورة ترتسم في الحس مجسدة في أحد أعضائه والأنف أعز ما في الوجه تتملاه العين وتطيل فيه النظر إنه سر اللغة وجوهرها شاهدة بغرضه حافظة لنظامه ممسكة بمقاديره والعجب ممن عنده لغة تملك هذه القدرة الخارقة على التصوير كيف يسهو عن كنوز بياها المعجز؟ صورة رامزة تأتي في مسخ خنزير بأنفه وتركت حل الرمز وتفسيره للمتوسمين ينكشف لهم المستور من سره

توسمته لما رأيت مهانة ... عليه هو الخنزير في أنفه الشر

فالخرطوم ليس شتيمة لشخصه بقدر ما هو دفاع عن الرشد العقلي للبشرية وعن قداسة الدين وإعلاء شأنه وتقدير حرمة ألا يهان ويبتذل في تعدد الأرباب وليبقى في صورة صافية وضيئة جاءت في الكتاب المبين

قال الإمام أبو حيان: ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة وقالوا: حمي الأنف شامخ العرين وقالوا في الدليل: جدع أنفه ورغم أنفه وكان أيضاً مما تظهر السمات فيه لعلو قال "سنسمه على الخرطوم" وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبداد إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف وإذا كان الوسم في الوجه شيناً فكيف به على أكرم عضو فيه. اهـ. والمعنى سنبين أمركم بوضوح حتى يُعرف فلا يخفى على الناس كما لا تخفى السمة على الأنف! ونظير هذا المعنى قوله تعالى ﴿لنساء وجوهكم﴾ والوجه أكرم ما في الجسد، والأنف أرفع وأزهاه ولهذا جعله العرب رمز العزة والحمية واشتقوا منه الأنفة!

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) أي أحضروا أعوانكم وأنصاركم وآهتكم الذين يظاهرونكم وتشهدون بألوهيتهم وترجعون في الخطوب والملمات نحوهم وسُمّوا شهداء لأنهم يشاهدونهم عند المعاونة أي ادعوا من رجوتهم معونته إن كنتم صادقين أنه ﷺ افتراه وأن شهداءكم أنداد لله تعالى فتحداهم وأثبت عجزهم في حالهم وسجل عليهم عجزهم في مآلهم وعجز كل من يأتي بعدهم ثم أنذرهم عذابه لعلهم يرجعون إلى صوابهم واعترفهم بحقية كتاب ربهم... قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود، وسبب ذلك أنهم قالوا: هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي وإنا لفي شك منه. والكلام متصل بمطلع السورة (وذلك الكتاب لا ريب فيه) وقد نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) صارخاً بهم على رؤوس الأشهاد، فلم يستطع أحد منهم الإمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، وها هي معجزته بين أيدي العباد، حاضرة في كل ناد، تقمع أهل العناد، وتردع ذوي الزيغ والفساد، إلى أبد الآباد. قال تعالى في مقام التحدي (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وفي ذلك زيادة بيان وتثبيت للدليل فإن كل ظهير من سواهم دونهم في البلاغة فعجزهم عجز لغيرهم بطريق الأولى.

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) الآية معطوفة على مجموع ما تقدم عطف الغرض على الغرض والقصة على القصة، وهي مسوقة للتحدي بإعجاز القرآن ومفيدة للمبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله، ولما نفى

عن القرآن الافتراء أخبر عنه بأنه تصديق وتفصيل، فقله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ كونه مصداقاً لما قبله من الكتب السالفة ومبيناً للصادق منها ومميزاً له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها، وأيضاً هو مصداق لما بعده فيما يحكيه من المغيبات والنبوءات، وقله ﴿وتفصيل الكتاب﴾ يعني التبيين بأنواعه، وتعريف الكتاب يستغرق الكتب كلها، ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مبين لما جاء مجملًا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل... ثم استأنف بقوله ﴿لا ريب فيه﴾ لردّ مزاعم الذين زعموا أنه مفترى باقتلاع دعوى افتراءه وأنها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة.

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ يعني كذبوا بما لم يحيطوا بتأويله أي في الدنيا، ولما يأتهم تأويله في الآخرة، والتأويل: مشتق من آل إذا رجع إلى الشيء وهو يطلق على تفسير اللفظ الذي خفي معناه تفسيراً يظهر المعنى فيؤول واضحاً بعد أن كان خفياً، والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بتأويل القرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ويحيطوا بخبره وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعناد، لا عن اعتقاد كونه مكذوباً، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ والإضراب في قوله ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ آذن عما قبله، فإنهم لما ادّعوا أنه مفترى دعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة مثله ﴿أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فنكلوا عنه، وعجزوا عن الإتيان بشيء منه، وكانوا النهاية في فصاحة البشر، وبلاغة أهل الوبر منهم والمدر، فما أचारوا بينت شفة، ولا صدروا

هنالك عن موصوف ولا صفة، على أنهم كانوا الحراص على التسابق في صعود المنابر، والمتهاكين على ركوب الشطط في امتهان المفاخر ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي تكذيب هؤلاء وأفعالهم يشبه تكذيب آبائهم الأقدمين ومن سبقهم من الأقسام المتقدمين وأفعالهم! ثم وصف لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع فقال ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ ولما كانوا مدّعين الإيمان والإصلاح منكرين السعاية والإفساد حقق ذلك بقوله ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ وقد ورد لفظ الفساد في القرآن في حق المنافقين خاصة كقوله تعالى ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ ثم أمر سبحانه بالتبرؤ منهم وقطع المحادثة معهم...

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ لما تمت المفاصلة بين فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر، ورام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج واستحكم الكرب بالمؤمنين وأخذ الضيق بمخانتهم ولم تبق ذرة من الطاقة المدخرة! في هذه اللحظة جاء النصر فاصلاً وجاءت المعجزة حاسمة وحلاً بأس الله بالمرمين ماحقاً لا يقفون له ولا يصدّه عنهم ولي ولا نصير... تلك سنة الله في الرسالات! والرسالات لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً... إنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء والمستهزئين حتى تجيء اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف، وعندئذ تدخل الشعوب في دين الله أفواجا... وحين شدّ فرعون وجنوده للحاق ببني إسرائيل لردهم كرهاً كان في ذلك ظالماً معتدياً

لأن غرضه من ذلك إغراقهم في الشرك ومن ثم تسخيرهم! والبغي: الظلم، والعدو: تجاوز الحد في الظلم، وهو مسوق لتأكيد البغي وإنما عطف لما فيه من زيادة المعنى في الظلم... والمراد من قول فرعون ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ اعترافه بوحدانية الله في حكمه وسلطانه وتنزيهه تعالى عن المكان والزمان لأنه كان مجسماً يعتقد أن الله في السماء ثم أخبر تعالى في استفهام إنكاري أن فرعون لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مَنْكَرٌ وَيَزِيدُهُ إِنْكَارًا أَنَّهُ كَانَ عَاصِيًا لِلَّهِ وَمُفْسِدًا لِلدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَمُفْسِدًا فِي الْأَرْضِ بِالْجُورِ وَالظُّلْمِ وَالتَّمْوِيهِ وَالتَّلْبِيسِ عَلَى الْإِتْبَاعِ، وَصِيغَةُ "وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" أَبْلَغُ فِي الْوَصْفِ بِالْإِفْسَادِ مِنْ "وَكُنْتَ مُفْسِدًا" وَنَحْوَهُ مَا حَكَاهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَلَفْظُ الْفُسَادِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ خَاصَّةً كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وَقَدْ حَكَى تَعَالَى قِصَّةَ مُوسَى وَإِغْرَاقَ مَكْذِبِيهِ حِينَ انْفَلَقَ بَحْرُ الْقَلْزَمِ لِمُوسَى وَوَقَفَ الْمَاءُ سَاكِنًا كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ وَصَارَ كَالشَّرَاجِبِ وَالطِّيقَانِ فَدَخَلَ مُوسَى وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَخَرَجُوا سَالِمِينَ، وَكَانَ بَيْنَ مَوْضِعِ دُخُولِهِمْ وَمَوْضِعِ خُرُوجِهِمْ أَوْعَارٌ وَجِبَالٌ لَا تَسْلُكُ إِلَّا عَلَى تَخْلِيْقِ الْأَيَّامِ، وَلَمَّا لَحَقَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ انْطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ فَغَرَقُوا وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ وَفِي الْآيَةِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الْإِعْتِبَارِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِغْتِرَارِ.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرِزْقَانَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لَمَّا أَشَارَ

الحق إلى استخلاف بني إسرائيل في قوله **(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون)** وكشفَ باطلهم في تعللهم ومعاذيرهم الفاسدة ودحضَ مطاعنهم وتوركهم بمختلف الأدلة قياساً وتمثيلاً وأبطل أصول الشرك وشبهاتهم التي يتابعهم أتباعهم عليها وألقمهم أحجار الرد إلى لهواتهم وذكرَ حالهم مع شركائهم وأنذرهم بعواقب ما حل بالأمم التي كذبت بالرسول وما جرى لفرعون وأتباعه من الهلاك، عقَّبه بذكر ما امتن به عليهم، والمقصود من ذلك موعظة الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ من قريظة والنضير وبني قينقاع وأخلافهم في هذا الزمان بأحوال من سبقهم في مشابهة كفرهم بكفرهم وبما حل بهم من أنواع العذاب جزاء كفرهم، والمُبَوَّأ: مكان البؤء، أي الرجوع، والمراد: الاستخلاف والله أعلم، وإضافته إلى **(صدق)** من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأصل الصدق مطابقة الخبر للواقع ومصادقته للوعد، والمقصود من قوله **(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم)** التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنة للاختلاف إذ كان الاختلاف بينهم بعد ما جاءتهم الحجة، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف والله أعلم، فاختلافهم في دينهم ليس عن جهل بل بعد ما تبين لهم الحق وجاءهم القرآن فأنكروه وعاندوه وأولوه بتأويلات زائغة ونقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم! والجملة تحكي اختلافهم في الكتاب النازل على الرسول فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول وهو من وادي قوله **(بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين)** و"حتى" حرف غاية، أخبر تعالى بنفي اختلافهم مستصحباً إلى هذه الغاية ومفهومها أنهم لما جاءهم اختلفوا مع أنه كان المقصود من مجيئه أن لا يختلفوا وأن يرفعوا المنازعة ففي هذا غاية التعجيب! واعلم أن هذا يدل على شناعة فعلهم وقبيح ما فعلوه

من الاختلاف وهو تشنيع إثر تشنيع، ثم إن غيرهم تبع لهم في الاختلاف فهم أصل الشر. وجملة (إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن خبرهم العجيب يثير سؤالاً في نفس سامعه عن جزاء الله إياهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتحويل ما سيقضى به بينهم لأن الخلاف يقتضي محققاً ومبطلاً.

(فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) الخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته لأن الشك لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام لانكشاف الغطاء له، وأنشدوا في ذلك:

الله يعلم أنا لا نقول به ... ولو تقطّع أوصال وأركان

والله ما كان ذاك الحكم إلا لنا ... كالشك والشك يقضى فيه برهان

فإن قائله ذو عصمة وله ... على الذي قال في الله سلطان

وخصهم بقوله (من قبلك) للإشعار بأنهم من القوم الذين يرجع بنو إسرائيل إليهم بأنسابهم إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة. والعبرة من الآية: تكثير الدلائل وتقويتها لتزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس، وليس المراد حقيقة السؤال لأن ظاهر رصف الآية فيه تحذير من بني إسرائيل والسورة نزلت بعد سورة بني إسرائيل، والنبي لم يشك ولم يسأل كما روي عنه ﷺ، فالسؤال الواقع مجاز عن النظر في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية المهيمن على جميعها، والمقصود من ذكره - والله أعلم - أحد أشياء:

أولها: تقرير وتقريع أهل الكتاب فإنهم لو سئلوا ألقموا الحجر حتى لا يخيروا بنت شفة، والثاني: تثبيت المؤمن بعد شدة الموقف وتأزمه على إثر حادثة الإسرائء والمعراج وقد ارتد بعض من أسلموا ولم يصدقوا هذه الحادثة العظيمة، واليوم تجيء هذه المرحلة لتصدق أحداث وعد الآخرة وتواجه الأمة بنفس الأوضاع والملابسات التي واجه النبي ﷺ بها الناس. ثم أردف الحق محذراً من الميل إلى بني إسرائيل بعد مجيء العلم بقوله ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ ثم ذكر الحق ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية وآيس رسوله عن إيمانهم ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ فالكلمة أزلية والأحكام سابقة، والأفعال على موجب القضية لاحقة، والذين نصيبهم من القسمة الشقوة لا يؤمنون وإن شاهدوا كل حجة، وعاینوا كل محجة.

الفصل الخامس:

وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة

يعني دخول المسجد الحرام كما دخله رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في العام الثامن من الهجرة - عام فتح مكة - ويؤكد ما ذكرنا قوله ﷺ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله» فإن قيل: تحقق ذلك بزوال ملكهم وانقضاء دولتهم الأولى ثم الثانية على يد العثمانيين! قلنا: الدخول المذكور في الآية الكريمة يتقدمه بيان حقيقتهم وإساءة وجوههم وكشف أستارهم وهذا لم يحصل - والله ورسوله أعلم - والحق سبحانه أغفل ذكر الدخول الأول هنا وذكره في آية الفتح (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين) لنكتة حسنة ودقيقة مستحسنة وهي أن المسجد كانت تبعيته لكفار قريش بعد غزو خيبر وما حولها من ديار بني إسرائيل فلم يكن الدخول نكاية لهم فافهم هذه اللطيفة فإن الحق لم يصرح بذكر قريش إلا في معرض الامتنان والإفضال والإحسان إكراماً لحبيبه ﷺ وتطيباً لخاطره ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «اليوم يوم المرحمة، اليوم تستر فيه الحرمه، اليوم يعز الله قريشاً» ثم إنه تعالى أعقب آية الفتح بمدح أمته ﷺ وذكر نعمتهم في التوراة والإنجيل إثارة لحسرة أهل الكتاب... وقوله (فعلم ما لم تعلموا) أي علم ما وعد لكم من فتح جزيرة العرب وغنائمها أشياء لم تعلموها أنتم من إظهار ما أظهر من نفاق أهل النفاق وأهل الاضطراب لأمر دبرها وشؤون أحكمها وقدرها، ومعنى قوله (فجعل من دون ذلك فتحة قريباً) أي فتح وصلح يكون بالشام لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعد - والله ورسوله أعلم - والكلام متصل بأول السورة (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وهو فتح مكة ويتضمن فتح الإسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان. والمراد من قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أي ما

تقدم من ذنب آدم بجرمتك وما تأخر من ذنوب أمتك - والله أعلم - فيفهم من قوله "لك" أنها بمعنى لأجلك، ويفهم من قوله "ذنبك" أنه ذنب أيك أو ذنب أمتك، والمجاز بالحذف شهير وجاء في التنزيل العزيز في مواضع كثيرة، منها "واسأل القرية" وقال بعض المحققين: المغفرة هنا كناية عن العصمة وهذا القول في غاية الحسن، ويحتمل أن يكون المراد تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه تعالى أراد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم منه سبحانه عليه وهي لا تتناهى أشار إليها بقوله **(ويتم نعمته عليك)** وهي دينية أشار إليها بقوله **(ويهديك صراطاً مستقيماً)** ودنيوية أشار إليها بقوله **(وينصرك الله نصراً عزيزاً)** فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى عليه المتفرقة في غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه تعالى بنون العظمة وجعله خاصاً بالنبي ﷺ بقوله: لك، فلا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه ﷺ ذنب، وكيف يتخيل خلاف ذلك وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وأما الفعل: فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل أو كثير أو صغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها، علم بهم أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك. ولما أخبر تعالى بالفتح الأعظم وبالأمر الجليلة الدقيقة المبنية على إحاطة العلم، عللها سبحانه وبين الصدق فيها بقوله **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً)** فهذه شهادة منه تعالى لرسوله قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان بحيث أقام الحجة على أهل الكتاب بكونه سبحانه شاهداً لرسوله، فيظهر ظهورين: ظهوراً بالحجة

والبيان، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفه ويكون منصوراً. ومن شهادته تعالى أيضاً ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبه، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره، ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً و يقيناً جازماً أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، ولباشر قلبه حقائق القرآن، واستنار فيه مصابيح الإيمان، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. ولما بين المولى سبحانه صدق الرسول ﷺ في رؤياه وأن الله أرسله بالإسلام الذي عبّر عنه بالهدى ودين الحق ليظهره على نظام العالم كله؛ أردف ذلك بتنويه شأن الرسول ﷺ فقال **(محمد رسول الله)** والتقدير: هو محمد، والضمير المحذوف يعود على قوله **(لقد صدق الله رسوله)** وهذا من حذف المسند، ومنه قولهم بعد أن يذكروا رجلاً: فتى من شأنه كذا وكذا، وهذا المعنى هو الأظهر هنا إذ المقصود بيان رسول الله من هو بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله **(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق)** إلى قوله **(ليظهره على الدين كله)** فيعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان من هذا المتحدث عنه بهذه الأخبار والنبوءات؟ فيقال له: محمد رسول الله أي هو محمد رسول الله وفي هذا إعلان شهادته سبحانه وتسجيلها في جميع كتبه وآياته المتلوة التدوينية وصفحات آياته التكوينية السماوية والأرضية وجميع العوالم المرئية والغيبية والعرشية والعلوية بأنه رسول الله حقاً وهذا من العناية والاهتمام والتنويه بشأنه ﷺ فتعتبر الجملة

المخدوف مبتدؤها مستأنفةً استئنافاً بيانياً، وفي هذا نداء على إبطال جحود
المشركين الجدد رسالته حين أنكروا فتحاً آخر للبلد الحرام! والتعبير في قوله
(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة
التي يراها الرائي حيثما رآهم قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، والحالة الأصلية
لهم هي الركوع والسجود، وسيما الوضوء والإشراق والخشوع والخضوع أثره
في ملامح الوجه، وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه الكلمات ليست
مستحدثة إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في
التوراة (ذلك مثلهم في التوراة) ولما ذكر مثلهم في كتاب موسى أتبعه بكتاب
عيسى فقال (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى
على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) وذلك أنهم كانوا أول الأمر قليلاً
وكان الكفار طامعين في أن لا يتم لهم أمر، فكلما ازدادوا كثرة مع تمادي
الزمان زاد غيظ الكفار منهم! وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في
الزيادة حيث أن النبي ﷺ قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة
الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع، وذلك يتضمن
تشبيه عودة دين الإسلام غريباً ضعيفاً وتقويه يوماً فيوماً كما تنبت الحبة مائة
سنبلة حتى يستحكم أمره ويتغلب على أعدائه، فهذا المثل ليس تاريخاً مضى
وانقضى بل هو حقيقة ذات كينونة مستمرة ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي
قدره له بآرائه ثابت في صفحة القدر ثابت في التوراة والإنجيل في بشارته بمحمد
ومن معه، وبشارته بمن يجيئون بعده، والنصوص من القوة والحيوية بحيث
تستحضر صورة هذه الفترة وصورة الحياة التي تعيشها الأمة اليوم وهي تتلقى
هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم وترى نفسها هكذا في

كتاب الله حتي لكان قارئ الآيات يعيش هذه الأحداث ويعايش الأمة في هذا المهرجان العلوي الحاضر! ولكن أتى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه! والخطاب في **(تراهم)** متجدد لكل من تتأتى رؤيته إياهم ولو أبصر البصير فلربما تراءت له شخوص الأمة المحمدية رائحة غادية بسماتها الظاهرة على الوجوه، ومن حولها أعداؤها يتربصون بها ويبيتون لها ويلقون بينها بالفرية والشبهة ويجمعون لها... ثم ينهزمون أمامها، وكل ما يجري في المعركة من حركة هي في هذا الكتاب الخالد. فيا سرايا الجود لا تفزعني، ممن أذل الله أو تفرقي، ولتخفق الرايات من هاهنا، ويا شمس الجود فلتشرقي، ولترفعوا التكبير في قوة، يا أمي جئناك لن نغرق، سبتين يا قبلة المسلمين، مناراً لأمتنا الظاهرة، مكة هذا الظلام الفجور، سيرحل والطعمة الفاجرة، ويسفر صبحٌ بديع المحيا، يُذكر بالصحة الغابرة، مكة يا روضة الآمنين، لنا في ربك المني الطاهرة، وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه، وأول الغيث قطرٌ ثم ينسكب. والله در السيد الرواس حيث يقول:

أذوب لمكة الفيحاء حباً ... لأن حبيب أهل الحال مكّي

وأذكرها وتطربني المعاني ... فأضحك حين أذكرها وأبكي

ولما تقرر في قوله **(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً)** أن الكفار مغلوبون وإن قاتلوا وكان ذلك من خوارق العادات مع كثرتهم دائماً وقلة المؤمنين حتى يأتي أمر الله موقعاً للعلم القطعي بأنه ما دبره إلا الواحد القهار القادر المختار، عطف عليه أمر أتباعهم فقال **(وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما**

تعملون بصيراً) وعبر عن المضارع بالماضي لتحقيق وقوعه فيكون وعداً من الله تعالى والمعنى أنه تعالى كف أيدي أحلاف بني إسرائيل عنكم وأيديكم عنهم وهو غير الكف المراد من قوله (وكف أيدي الناس عنكم) فإن المراد بالناس: بنو إسرائيل جرياً على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالباً والله أعلم ولا يُردّ عليه ما جاء في الآثار لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والله تعالى أعلم. وقد أشارت الآيات (ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً) إلى ثلاثة أنواع من المغانم: نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم بيت المقدس وما حوله، ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة عظيمة وهي مغانم بني إسرائيل، ونوع هو مغانم قد أعدها الله للمسلمين وهي مغانم بلاد فارس والروم، وفي الآية إيماء إلى أن هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنه لم يأت في ذكره بضميرهم. والآيات تتسق بعضها ببعض، وتظهر الآية (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله) ما في ضمن الكلام عن أئمة الكفر وقد تقدم معنى صدودهم عن المسجد الحرام والهدي، ومعنى قوله (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء) أي لولا كراهة أن قتلوا ناساً مؤمنين بين الأحلاف غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف أيدي الأحلاف عنكم وأيديكم عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة أولئك الأحلاف بأن يعطفهم إلى الإسلام ويستنقذهم من الشرك على

أرفق وجه ويستأصل المستخلفين ولعل انفهام ذلك من المقام ومن أواخر الكلام ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾ أي لو تميز أهل القبلة لعذبنا الذين كفروا بالاستئصال بالخسف ونحوه، وتجمع الآية ما في تفصيل لاحقتها ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما﴾ وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تشنيعها ويعكس ذلك إضافة السكينة إلى ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأن السكينة موهبة إلهية وعطية ربانية. وكلمة التقوى: توحيد الله والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام فقد روى الإمام الترمذي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: «لا إله إلا الله» وفي رواية للبيهقي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ومعنى قوله ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي كانوا أحق بها من اليهود والنصارى في الدنيا - كما ذكره ابن جزري وابن عطية والسيوطي - لأن الله تعالى اختارهم لدينه واتباع نبيه وكانوا أهلاً لحفظها ورعايتها وفيهم الأهلية الكاملة والقابلية التامة على أكمل وجوها.

﴿وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ التتبير مستعار لسوء العاقبة! شبه حال بني إسرائيل المزخرف ظاهراً بحال الشيء البهيج الآيل إلى الدمار، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب و"ما" في موضع الحال أي في حال علو المسلمين عليكم، وهي صورة لتدمير ملك بني إسرائيل... ونحوه قول موسى لقومه إثر غرق فرعون ومجاورة البحر ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه﴾ ولما انقضى ذلك أطمعهم بقوله ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ وهذه الرحمة ليست برجوع دولتهم وإنما برفع

العذاب عنهم وتأمينهم في البلاد التي يلجؤون إليها، ثم أفرعهم مبيناً عودتهم مع الدجال...

(وإن عدم عدنا)

لما انقضى الحديث عن الكرتين أشار تعالى إلى عودتهم إلى الإفساد وذلك مع الدجال ولم يعدهم الله فيها برد الكرة إذ أنهم تبع للمسيح الدجال فكان إيماء إلى أنهم لا دولة لهم بعد وعد الآخرة... وقوله "عدنا" أي إلى الإدالة عليكم بالسي والقتل والاستغنام. وهذه العودة ستكون بعد فتح روما ولن يكون فيها دخول إلى المساجد الثلاثة حيث يُقتل الدجال عند باب لُدّ الشرقي وهو هارب من دمشق إلى بيت المقدس على يد ابن مريم ويُقتل أتباعه على نهر الأردن كما روى الطبراني في مسند الشاميين عن نَهيْكَ بن صُرَيْم السَّكُونِي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزالون تقاتلون حتى يقاتل بقيتكم الدجال بالأردن أنتم من غربيّه وهم من شرقيّه» أي لا تزالون تقاتلون الكفار والمشرّكين من أهل الكتاب حتى تقاتلوهم على نهر الأردن - كما في الروايات الأخرى - وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» وكسر الصليب كناية عن إبطال الدجل في دعوى صلب المسيح، وأراد بوضع الجزية: عموم الإسلام في أرجاء الأرض وأقطارها، وأطلق الخنزير على الدجال تشبيهاً له بالإفساد والغشم والختل والغدر وقبح المنظر، فإذا قُتل الدجال اختبأ أتباعه خلف الحجر والشجر فينطق الحجر والشجر كاشفاً منافقي بني إسرائيل وبعدها تضع الحرب أوزارها فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ثم يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله» وحرف العطف "ثم" يفيد الترتيب بمهلة زمنية وهي فترة عودتهم مع الدجال! وأما قوله: «فتسلطون عليهم» فذلك في جميع أحوال القتال حتى يفضحهم الحجر ويخبر عنهم الشجر في آخر أمرهم ويُظهر نفاقهم. وورد الحديث عند مسلم بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يحتبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» وحرف "حتى" يفيد انتهاء الغاية، وفي رواية عند ابن أبي شيبة: «هذا يهودي، هذا نصراني، فاقتله» أراد قادة النفاق من يهود ونصارى بني إسرائيل - والله ورسوله أعلم - وروى الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تَكْرِمَةُ الله هذه الأمة» وفي رواية لابن الأثير في جامع الأصول: «أبشروا وأبشروا إنما مثل أمتي مثل الغيث: لا يدرى آخره خير أم أوله؟ أو كحديقة أُطعم منها فوج عاماً ثم أُطعم منها فوج عاماً لعل آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً وأعمقها عمقاً وأحسنها حسناً كيف تهلك أمة أنا أولها والمهدي وسطها والمسيح آخرها ولكن بين ذلك فيج أعوج ليسوا مني ولا أنا منهم» ولما أشار تعالى إلى عودة بني إسرائيل مع الدجال ذيلها بقوله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) أي مهاداً أو حبساً تحصرهم وطولاً تقصرهم فتكون مهادهم لا يخرجون أبداً، واعلم أيها الشاهد أن جهنم عصمني الله وإياك منها من أعظم المخلوقات وهي سجن الله في الآخرة، ولما

شرح تعالى ما فعله في حق عباده المخلصين وما فعله في حق العصاة المتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، لا جرم أثنى على القرآن فيما أتى به من الوعود الصادقة والعقائد الحقّة والأحكام الفائقة والنظوم العذبة الرائقة فقال ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ فالقرآن جاء يهدي العالم لأقوم السبل النيرة وأرشد الطرق الخيرة كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ في الدعاء الذي علمه لسيدنا علي كرم الله وجهه: «قل: رب اغفر وارحم واهدني السبيل الأقوم» ثم بشر سبحانه المؤمنين بنوعين من البشارة: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ والكلام عن الذين لا يؤمنون بالآخرة وارد في شرح أحوال بني إسرائيل.

﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون، فما يكذبك بعد بالدين، أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أقسم سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلهية المباركة ومنازل الوحي بالكلام الإلهي النازل على رسله عليهم صلوات الله الزاكية؛ مهبط نزول الوحي على عيسى عليه السلام وإنزال الإنجيل عليه بالبقعة المشار إليها بما ينبت عليها من التين والزيتون، ثم أقسم بطور سيناء مهبط نزول التوراة على موسى عليه السلام، ثم أقسم بالبلد الأمين مهبط نزول النبوة والرسالة على سيدنا محمد ﷺ، وترتيب ذكر هذه المواضع جاء على طريق الترقّي فقد أقسم تعالى بمهابط الوحي على خلق هذا الإنسان وتعهّده بما يصلح شأنه في أمر التشريع ليحفظ عليه كماله الإنساني فمن أعرض عن الوصايا الربانية فقد نزل إلى مستوى البهيمية وحضيض الحيوانية

وذلك الذي يكذب بالدين أي بالجزاء المرتب على الحساب فإن الرد أسفل سافلين أشار إلى عصيان المنافقين المصرح بهم في قوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الموجب للعنهم في الكتب الإلهية - التوراة والإنجيل والقرآن - المشار إليها بقسم سورة التين...روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيانُ» أي هو سبحانه الملك والمالك ليوم الجزاء وهو المحاسب والمجازي لا غيره كما قال جل شأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهذا إقرار من العبد بالبعث بعد الموت وإيمان بالجزاء واليوم الآخر مع العلم بالجزاء العاجل، قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: مَجْدِي عَبْدِي» والمجد لا يكون إلا بالملك والسلطان والتمكين وسعة البسطة مع شدة البأس على الأعداء وعظيم الإحسان إلى الأولياء.

وفي سورة التين إشارة إلى تحرير البلد الأمين ولا تخفى دلالة الكلام بين الآية ﴿وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ﴾ وبين الآية ﴿اقْرَأْ﴾ التي نزلت في البلد الأمين، والاستفهام تقرير أي أنه تعالى على ما له من صفات الكمال أحكم الحاكمين علماً وقدرة، ولما أخبر تعالى بذلك علم دخول المستخلفين تحت حكمه تعالى وأن حكمه يفوق كل حكم في الخصائص والكمالات من قطع دابر المستخلفين المكذبين بيوم الدين! وقد اشتملت هذه السورة على وجازتها على جميع مقاصد التوراة والإنجيل والقرآن إجمالاً.

﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لما أذلَّ تعالى أعداءه على قوّتهم علَّل ذلك بما يدل على نصر أوليائه على ضعفهم، وأعظم غلبة الله سبحانه في

الابتداء غلبة يوم بدر، وأعظمها في الانتهاء الغلبة الخاتمة التي لا حرب وراءها التي تكون بالشام في آخر الزمان، أي: هذه الأحداث التي يليها نزول ابن مريم، إذ يتجدد دارس العهد وتطلع شمس السعد ويقترّب الوعد ويُهزم الجند ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾.

﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ أي اتبع نهج التوحيد واصبر حتى يحكم الله بالنصرة عليهم وهو الله الحاكم الأعظم الذي يوقع الحكم في أولى مواقعه وأحقها وأحسنها وأعدلها، وقد ختم سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب الحكيم وهذا بعينه هو أول التي بعدها فكان ختم هذه السورة وسطاً بين أولها وأول التي تليها وفيه رد المقطع على المطلع وتبع لما استتبع، ونحوه قول كبير إخوة يوسف ﴿أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾ وهذا رجوع إلى من له الحكم حقيقة لأن حكمه لا يستطيع أحد نقضه، والأخيرة من الحاكمين كناية عن معاقبة المستخلفين لأن الأمر بالصبر مشعر بأن الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا، وإذا كان الحاكمون مراتب فالله تعالى هو أفضل أهل هذا الوصف وهو الذي يتحقق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه فتبين وجه التفضيل في قوله ﴿وهو خير الحاكمين﴾ وكذلك القياس في قوله ﴿وهو خير الناصرين﴾ وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع. وجاء عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الطبراني والبيهقي: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» وقال تعالى حاكياً عن موسى ﷺ ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وعلامة الاستعانة بالله: الزهد في الدنيا والصبر على الشدائد والاشتغال بالله، وعلامة

الاستعانة بغيره: الحرص على الدنيا والعجلة في النصر والبطش إليه فإذا تعذر عليه انقبض وتغيّر عليه، فهذا ميزانٌ يُعرف به أهل العناية من أهل الخذلان.

(إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) سورة النصر إعلان بأنه تعالى منزّه عن النقائص التي منها إخلاف الوعد، وقد صُدّرت السورة بالنبأ العظيم والفتح المبين، وذيلت بالتسبيح والتحميد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب، والتسبيح والتحميد المصدّر بهما أفضل الصلوات استمطاراً من المسبّح المحمود للنصر على المكذّبين. روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتي معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون "إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون" حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له "إذا جاء نصر الله والفتح" فتح مكة، فذاك علامة أجلك "فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا" قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم» وروى الدارمي في مسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أن هذه السورة لما أنزلت على رسول الله ﷺ "إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا" قال رسول الله ﷺ: «ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا»

(وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) وقعت الآية عقب ذكر البلدة الذي حرمها، ولما تضمنت الآية ما أشير إليه، أردف بقصة فرعون وكأنه يقول: ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال من قصدتم فنتنهم في دينهم بدون حالكم حين كان فرعون يمتحنكم بذبح أبنائكم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتم أنهج الطريقين؟.

سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

السفهاء هم المنافقون من بني إسرائيل وقد سبق وصفهم بهذا في مطلع السورة، ووقوع هذه الآية هنا مناسبة بديعة وهي أن الآيات التي قبلها نوّهت بإبراهيم وملته وأن من يرغب عنها قد سفّه نفسه، وتخللت فيها وصية يعقوب، فكانت مثاراً لأن يتربط طعن الطاعنين في هذه التولية لِمَا هو معلوم من دأبهم من الترصد للطعن في تصرفات المسلمين، قائلين: ما ولاهم عن المسجد الأقصى ووجّههم شطر المسجد الحرام؟ وإلى هذا الغرض أشارت الآيات المتقدمة (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) واللاحقة (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وختمت بقوله (ولأتم نعمتي عليكم) فصار هذا الكلام أجدهم لأنوفهم، وقد علم الله ذلك منهم فأنبأ بقولهم وأتى فيه بهذا الموقع العجيب تنبيهاً على عظيم نعم الله على الأمة المسلمة، وسبباً لحصول العز والشرف في الدنيا، ودلالة على التخلص من تبعيّة السفهاء من يهود ونصارى بني إسرائيل... إن كشف العدو المختبئ في الصف وإساءة وجهه وتقبيح صورته وإبطال سحره أهم وأولى وأكد من تحرير وتطهير الأرض، فالعدو يريد إشراك الأمة في حروب سياسية موجّهة، ويديرها

إلى معارك جانبية محسوبة لمصلحته، ويصرف وجوه المسلمين من احتلال قبلتهم إلى حصر المشكلة في احتلال الأقصى فحسب، والله يقول ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرِّسُولَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وإذا كانت التولية من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في زمن البعثة لكبيرة إلا على الصادقين؛ فأمة الإسلام اليوم لا بد أن تفتن وتبتلى ليتأكد خلوصها وتجردها لله فالمولى سبحانه يريد لها أن تتخلص من ركام جاهلية بني إسرائيل وأن تتجرد من كافة مناهجهم وعقائدهم وطرائقهم...

ولما كانت الوجهة إلى المسجد الحرام كدرتها عقائد الجاهلية في نفوس مشركي العرب الأوائل؛ صرف الله أهل الإسلام عن بيته فترة ووجههم إلى المسجد الأقصى ليخلص قلوبهم من تلك الشوائب ويختبر طاعتهم لرسوله ﷺ ويميز الذين يتبعونه لكونه رسول الله والذين يتبعونه لكونه أبقى على المسجد الحرام قبله فاستراحت طباعهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير اعتزازهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة...

وتعود الأمة اليوم من حيث بدأت لتتعري من كل رداء لبسته في تلك الجاهلية الخداعة ومن كل منهج اتخذته وينفرد في حسها عقيدة الإسلام وحده لا يتلبس به نهج آخر ويتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر... وهذه معانٍ جدُّ دقيقة، فالإسلام لا يطبق له في القلب شريكاً ولا يقبل مشرباً غير المشرب الحمدي ولا يقبل موافقة بني إسرائيل في أي وجه من الوجوه... وهذا أمر شاق إلا أن يرتقي الإيمان إلى التسليم المطلق للشارع الحكيم... فجاهلية

اليوم لبست جلدة الأمة الإسماعلية وغُلفت بالديانة التوحيدية الإسلامية! وهي تستجمع اليوم كل قواها لتواجه الإسلام مواجهة لم يعهدها من قبل! إن عمق المعركة مع أعداء الدين يكمن في كشف العدو المتظاهر بالدين، فإذا لم ينكشف قد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس العوام الذين لم تنكشف لهم حقيقته، ولهذا الغرض قدم المولى سبحانه إساءة الوجوه على تطهير المسجد، وجعل التتير آخر الآية، فجاء الترتيب في غاية الحكمة... إن إساءة الوجوه هي الركيزة الرئيسية والقاعدة الأساسية في حرب المقدسات... بل سر قداستها في هذه العبارة التي تعددت قراءاتها **(لنساء وجوهكم)** **(ليسوا وجوهكم)** **(ليسوؤوا وجوهكم)** عبارة معيها لا ينضب... وقد تتبدد أو تُهدر إذا حُشرت في بيئة غير بيئتها، والذي لا يملك القدرة على استيعاب دلالات العبارة واستشفاف خفاياها فغير قادر البتة على أن يكون له نصيب في إرث هذا الكتاب وفي إدراك إعجازه، وتعدّد القراءات في هذه العبارة يكشف عن طبيعة المعركة مع المبطلين، ويُبين العقبة الكبرى التي لا بد أن تجتازها الأمة قبل تطهير قبلتها... والعبارة تكشف عن خطة المنهج القرآني في هذه الملحمة... فالخطة لا تُعنى بتحرير الأرض حتى يتبين الباطل وينكشف ويفتضح... إن استبانة طريق المجرمين ضرورية قبل تطهير البقعة المقدسة، وهذا هو المنهج الذي قرّره الله سبحانه، ليستقر في نفوس المؤمنين أن بني إسرائيل هم شياطين الدرعية... هم أئمة الكفر... هم الصليبيون... هم قتلة الأنبياء... عن ثقة وفي وضوح وعن يقين... وترتيب العبارة **(ليسوا وجوهكم)** من أول المصحف يساوي ترتيب العبارة التالية من آخر المصحف **(لعلك ترضى)** وقرئ بضم التاء، روى الإمام مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو أن

رسول الله ﷺ تلا قول الله عز وجل ﴿رب إهني أضلن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقال عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال: «اللهم أمي أمي» وبكى، فقال الله عز وجل: «يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك» وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: إن تعذبهم تميتهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم، هذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا. وعن أبي ذر قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً» وهذا الحديث عظيمة دلالاته، ضخمة إحياءاته... كل آية وكلمة فيه تحمل معنى وتومئ إلى معنى وتستتبع معنى... وهذا ليس لأحد إلا لمن أوتي جوامع الكلم، عليه كوامل الصلوات تترا... فلا ليلاً تطيش ولا نهاراً.

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس

ويكون الرسول عليكم شهيدا

المقصود من قوله ﴿وكذلك﴾ التنويه بالخبر فيجعل كأنه مما يروم المتكلم تشبيهه ثم لا يجد إلا أن يشبهه بنفسه وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع، وعلى

هذا تكون الكاف مقحمة لا تدل على تمثيل ولا تشبيه فيصير اسم الإشارة نائباً مناب مفعول مطلق لجعلناكم كأنه قيل: ذلك الجعل جعلناكم فعدل عن المصدر إلى اسم إشارته النائب عنه لإفادة عجاجة هذا الجعل بما مع اسم الإشارة من علامة البعد المتعين فيها لبعد المرتبة، فالتشبيه مقصود منه المبالغة بإيهام أنه لو أراد المشبه أن يشبه الأمة المحمدية في مرتبتها لما وجد لها إلا أن يشبهها بنفسها، والمعنى: جعلناكم في أعز وأشرف مرتبة بحيث لا يماثلها غيرها، والله تعالى أعلم. وموقع الجملة **(ووكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)** بين قوله **(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها)** وقوله **(وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)** موقع العناية والاهتمام والتشريف للأمة المحمدية الذي اقتضاه قوله **(قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)** تحقيقاً للاجتماع والاصطفاء لها وبياناً للحكمة في تحويل القبلة من امتحان الناس... وقد شرف الله هذه الأمة بالنبي الأمين والكتاب المبين ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول غيرهم من الأمم، ومن الاعتياد بتلقي الشريعة من طرق العدول وإثبات أحكامها بالاستدلال استنباطاً بالنسبة للعلماء وفهماً بالنسبة للعامة، فمن اهتدى لهذه النكتة ازداد بصره، ومن سفه واتبع الهوى وظواهر الأمور ثقلت عليه هذه المسألة...

قال الإمام أبو حيان في تفسير قوله تعالى **(وما كان الله ليضيع إيمانكم)** أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة فسواء غيّر أو قرر أو أثبت أو بدّل أو حقق أو حوّل فهم به له في جميع الأحوال، قال قائلهم:

حيثما دارت الزجاجة درنا ... يحسب الجاهلون أنا جننا

والتعبير بقوله "إيمانكم" دون التعبير بلفظ "صلاتكم" يرمز إلى أبعد من حدود الزمان الذي نزلت فيه الآية ويتضمن معاني أكبر من المعاني القرية ويشمل جميع الأعمال الإيمانية، ونظيره قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ وهذا أجدع لأنوف السفهاء! وقرئ ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم، ولذلك حَسُنَ التعقيب بقوله ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ لما أشعر الكلام السابق أهل البلاغة بإحداث أمر في القبلة فتوقعوا الخبر عن ذلك وبين رأفته ورحمته بالناس عموماً بين ذلك برسوله خصوصاً بأن تحويله إلى الكعبة رافة منه به ورحمة له مع ما تقدم من فوائده فقال "قد نرى تقلب وجهك" قال الحرالي: فيه نبأ إسماع لمن يرتقب أمراً أو خبراً يفيد مع المستقبل ندرة الوقوع ففيه إعلام بأن النبي ﷺ لما انطوى ضميره على إرادة التوجه للكعبة التي هي قيام للناس حين كان هو رسولاً لكافة الناس وكان ﷺ على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام يكتفي بعلم الله به عن مسأله لأن الدعاء للطالين قضاء حاجة وللمكتفين بعلم الله عبادة أجاب الله تقلب وجهه على قلة وقوع ذلك منه على ما تشعر به "قد" بالتقليل للتقلب وللرؤية "في السماء" فيه إعلام بما جعله من اختصاص السماء بوجه الداعي كما اختص غيب القلوب بوجهه المصلي فالمصلي يرجع إلى غيب قلبه ولا يرفع طرفه إلى السماء: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لتخطفن أبصارهم» والداعي يتوجه إلى السماء ويمد يديه كما قال:

«حتى رأينا عفرة إبطيه» "قبلة" نكرها لما كان من ورائها قبلة التوجه العام في تنقله فتلك هي القبلة التي هي توجه لوجه الله لا توجه لمنظر باد من خلق الله فكان متسع القبلة ما بين اختصاص القبلة الشامية إلى قيام القبلة الحجازية إلى إحاطة القبلة العامة الآفاقية وفي قوله "ترضاها" إنباء بإقراره للتوجه لهذه القبلة لأن الرضى وصف المقر لما يريد فكل واقع بإرادة لا يكون رضى إلى أن يستدركه الإقرار فإن تعقبه الرفع والتغيير فهو مراد غير مرضى. انتهى. قال الإمام القشيري: أي علمنا سؤلك عما لم تفصح عنه بلسان الدعاء فلقد غيرنا القبلة لأجلك وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب، كل العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك. وعبر بـ "ترضاها" للدلالة على شرف منزلة الرسول المكرم الأعظم والنبي الجليل الأفخم وأن ميله إلى قبلة إبراهيم عليه السلام أدعى إلى التوحيد فهي أحق بالاستقبال من الأقصى ولأن في تحريرها إيماء إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. والله در القائل:

أعث يا خير خلق الله قوماً ... ضعافاً ظلهم أبداً لواكا

وأسرع في إجابتنا فإننا ... نرى المولى يسارع في رضاكا

وقد جاء التوجيه الإلهي المتكرر **(قول وجهك شطر المسجد الحرام)** في تحويل القبلة يحمل في طياته التحريض على تطهيرها من رجس المشركين...

قول وجهك شطر المسجد الحرام

هذا المقام الخطابي يتضمن التحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب ويستلزم تطهير بيت الله الحرام حتى يكون الدين كله لله لأن شينشنة هؤلاء الأعراب هي تحرير

الأقصى فكل من يحصر المشكلة فيه يُشركونه معهم ويزيدونه خبالاً واضطراباً ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ والمعنى: ولئن أتيتهم بكل معجزة ما تبعوا دينك وجاء التعبير بالقبلة على وجه المشاكلة اللفظية، وقبلة الطائفتين اليهود والنصارى في الأصل بيت المقدس ثم بعد رفع المسيح عليه السلام شرع أشياخ بني إسرائيل لأتباعهم اليهود جانب الغربي قبلة لهم حيث كلم الله موسى عليه السلام، وشرعوا للنصارى الاستقبال إلى الشرق وزعموا أن المسيح فوّض إليهم تشريع الأحكام وقالوا: إن في الشرق أسراراً ليست في غيره لأنه مولد المسيح ومكان خلوة مريم عليها السلام حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، ثم أرسل لهم الشيطان رسن الدجل والدخل فزعموا أن المسيح ظهر لبعض كبارهم فقال: إن الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامي في كل يوم فمُرّ قومي ليتوجهوا إليها في صلاتهم. وهذا الاختلاف ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ مقرر بين الأتباع على حد قول اليهود: ليست النصارى على شيء! وقول النصارى: ليست اليهود على شيء! وفي قوله ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ بعثٌ على مخالفتهم وتحذير من اتباع أهوائهم ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ وإنما أُدخلت "من" على "بعد" لأن هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل فكان العلم الذي جاءه فيها هو جزئي من عموم العلم الذي جاء في الآية الأولى، ولما كان العلم في غرض الآية الأولى هو العلم المتعلق بالكلمة التي قام عليها دينهم وحكمهم ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾ فلا جرم

كان العلم الذي جاء في ذلك هو أصرح العلم وأقدمه وكان حقيقاً بأن يعبر عنه باسم الموصول "الذي" الصريح في التعريف، وروي عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ قال: هذا في القبله. وقد تكرر الأمر باستقبالها ثلاث مرات، وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، وتكرر التحذير من اتباع أهوائهم ﴿وَلَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ثلاث مرات متضمناً الحكم بينهم، وتكرر النهي عن اتباع أهوائهم في الحكم بينهم ثلاث مرات ﴿وَلَا تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ والقصد من ذلك كله التحذير من تطرق التساهل في اتباع أهواء أهل الكتاب تقريراً للحق في نفوس المسلمين وتحريضاً على تطهير قلوبهم، وأكد ذلك بقوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وبقوله ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وبقوله ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لأن الذي يكون على الحق لا يزيده إنكار المنكرين إلا تصميماً، والتصميم يستدعي إعادة الكلام الدال على ما صمم عليه لأن الإعادة تدل على التحقق في معنى الكلام، وقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه بل هو حث الأمة على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستعمالها. والاستثناء في قوله ﴿لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يقتضي تقدير لفظ "حجة" مستعملاً في معناه المجازي يعني: لئلا يكون لبني إسرائيل عليكم سلطان أي لأدحض سلطاهم عليكم، وبذلك يكون الاستثناء منقطعاً والمعنى: لكنهم يشغبون عليكم فلا تخشوا مخالفتهم واخشوا مخالفة أمري... قال العلامة الألوسي: وهو - أي الاستثناء المنقطع - من تأكيد الشيء

بضده وإثباته بنفيه والمعنى إن يكن لهم حجة فهي الظلم والظلم لا يمكن أن يكون حجة فحجتهم غير ممكنة أصلاً فهو إثبات بطريق البرهان على حد قوله:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم ... يلام بنسيان الأوبة والوطن

وصية الرسول الأعظم ﷺ

أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: «**اتنوني اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً**» فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما شأنه أهجر استفهموه؟ فذهبوا يردون عليه فقال: «**دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه**» وأوصاهم بثلاث قال: «**أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**» وسكت عن الثالثة أو قالها فنسيتها. قال الداودي وابن التين: هي الوصية بالقرآن. وفي الحديث دلالة على أن هؤلاء المشركين مصدر كل فتنة وضلالة، ومورد كل نزاع وبلية، وأن خفاء أشخاصهم وغموض حالهم أصل كل تيه وحيرة، وسبب كل فساد وفرقة... ويبدو أن هذا الكتاب الذي همّ أن يكتبه النبي ﷺ أراد أن ينص فيه على المشركين من بني إسرائيل ليرتفع النزاع في الأمة ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه وكان ﷺ همّ بالكتاب حين أوحى إليه بذلك أو ظهر أن المصلحة تركه، وكلام عمر رضي الله عنه في الرواية الأخرى من الدلائل على فقهه وفضائله ودقيق نظره حيث قال: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فعلم أن الله تعالى حفظ دينه في القرآن الكريم وأمن الضلال على الأمة، وفي تركه ﷺ الإنكار على عمر إشارةً إلى تصويبه. ولما أجمع سيدنا عمر على إخراجهم أتاها

أحد بني أبي الحقيق فقال: يا أمير المؤمنين أخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا، فقال عمر: أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا أخرجت من خير تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة» فقال: كانت هذه هزيمة من أبي القاسم، قال: كذبت يا عدو الله. وكان سيدنا عمر شديداً عليهم ويكفي فيه قول النبي ﷺ: «لو كان من بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» وكان ﷺ قد قال لهم: «انطلقوا إلى أرض المحشر فأنا في آثاركم» فسيرهم إليها مشيراً إلى حشرهم مع الدجال في الشام واستتصالحهم ثم بعثهم من قبورهم وهو ما ينكرونه.

وقد دلت الروايات الأخرى على أن المراد بالمشركين: يهود ونصارى بني إسرائيل ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس فقال: «أسلموا تسلموا واعلموا أن الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله» والخطاب هنا لبني إسرائيل. وفي المعجم الكبير للطبراني: «أخرجوا اليهود من جزيرة العرب» وفي مسند البزار: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وفي سنن الترمذي: «لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وفي صحيح مسلم: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً» وفي مسند أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان» وفي السنن الكبرى للبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر دعا يهود فقال: «نعطيكم نصف

الشر على أن تعملوها، أقركم ما أقركم الله عز وجل» ثم إن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان» فأجلاهم سيدنا عمر رضي الله عنه بعد زوال دولتهم في الوعد الأول، ثم عادوا إلى جزيرة العرب أيام الدولة العثمانية مستترين في ربيعة ومضر متكررين بثوب التوحيد! وفي النصوص الظاهرة بشارة بتحقيق الوعد الآخر بإخراجهم من جزيرة العرب. ولا يمكن تخصيص جزيرة العرب إلا على وجه قيام دولة تحكم الأرض، كما لا يمكن أن يكون الإخراج محصوراً في بقعة واحدة من ديار المسلمين إلا على وجه الخلافة والحكم. وحين نفهم الروايات على هذا النحو نفهم لماذا حرص الحفاة العراة على تثبيت شعار الإسلام ولافتة التوحيد على أوضاعهم وأشخاصهم!

إن طاعة رسول الله ﷺ وإنفاذ وصيته وتعزيزه ونصره وتوقيره وإجلاله وتعظيمه من أشرف العبادات، وقاتل أئمة الكفر المستهزئين بالله وآياته ورسوله من أعظم الجهاد في سبيل الله ومن أجل الطاعات لله ومن أهم الواجبات في سبيل الذب عن دين الله، فلقد شتموا رب السماوات والأرضين وليس أعظم من قولهم: إن لله ولداً وأنه بخیل وأنه فقير! وسخروا بالرسول الأمين عليه صلوات رب العالمين! وفتنوا المسلمين وتداعوا عليهم من كل أفق وسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وطعنوا في الدين وعارضوا نصوص الكتاب والسنة فحرّفوها ولو تركوها لهدت ولكن صالوا عليها صول المحاريين لله ولرسوله...

وعد الآخرة وغزو جزيرة العرب

أخبر ﷺ عن وعد الآخرة في حديث الإسراء والمعراج كما عند الترمذي من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «قد أتى رسول الله ﷺ بدابة طويلة الظهر ممدودة،

هكذا خطوه مد بصره، فما زايلاً ظهر البراق حتى رأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم رجعا عودهما على بدئهما» وقوله "ووعد الآخرة أجمع" اشتمل على أمرين: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة أشارت إليه آخر السورة (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفياً) قال الإمام الطبري: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة ليفياً أي مختلطين قد التف بعضهم على بعض لا تتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه من قولك: لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فاختلط الجميع وكذلك كل شيء خلط بشيء فقد لُف به. اهـ. وقد اشتمل القرآن على أحداث عظيمة أنبأت بها آيات كريمة أنزلها الله على حبيبه وأكرم خلقه ﷺ ليبشر المتقين وينذر الظالمين (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) وقدم التبشير لئلا يحصل اليأس، ويصدع القلوب خوف اليأس، لأن الأمة وقعت في شرك الكائدين، مما أوجد في تاريخها شرخاً عميقاً بسبب ما فهمته أو أفهمته من الدين، وبعد هذا آن لها أن تعود إلى كتاب ربها وعتره نبيها لتبدأ مرحلة الاستنفار التي عبر عنها المولى الكريم بوعد الآخرة وهو نبأ عظيم سطرته الكتب الإلهية والآثار النبوية يبشّر بغزو ديار بني إسرائيل في جزيرة العرب وتدمير ملكهم على نحو ما جاء في صحيح الإمام مسلم عن جابر بن سمرة عن نافع بن عتبة - وكان قد أسلم يوم فتح مكة - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبي ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة، فإهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: أتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلت: لعله نجى معهم، فأتيتهم فقم بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات أعدهنّ في يدي، قال: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها

الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله» قال: فقال نافع: يا جابر، لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم. وفي رواية عند الحاكم: «يظهر المسلمون على جزيرة العرب، ويظهر المسلمون على فارس، ويظهر المسلمون على الروم، ويظهر المسلمون على الأعور الدجال» وفي مسند أحمد: «تقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون فارس فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الروم فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الدجال فيفتحه الله لكم» وهذا الحديث يصرح بأن الباب لجميع الفتوحات هو فتح جزيرة العرب فلا تفتح فارس ولا الروم إلا بعد غزو جزيرة العرب وتطهيرها من أئمة الكفر، فبقاؤهم صمام الأمان لفارس والروم، وزوالهم إسفين الموت للفرس والروم. وفي سورة الأحزاب إشارة وبشارة ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ والفتح إن شاء الله يكون على إثر ظهور خليفة للمسلمين من الخلفاء المذكورين في صحيح الإمام مسلم: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» قال كعب الأحبار: يكون اثنا عشر مهدياً ثم ينزل روح الله فيقتل الدجال. وقال بعض المحققين: قد مضى منهم الخلفاء الأربعة ولا بد من تمام هذا العدد قبل قيام الساعة. وقيل: إنهم يكونوا في زمان واحد يفترق الناس عليهم. وقال التوربشتي: السبيل في هذا الحديث وما يعتقبه في هذا المعنى أن يحمل على المقسطين منهم فإنهم هم المستحقون لاسم الخليفة على الحقيقة ولا يلزم أن يكونوا على الولاء. اهـ. ويؤكد ما رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف عن ابن المسيب قال: «تكون فتنة بالشام كان أولها لعب الصبيان تطفو من جانب وتسكن من جانب

فلا تتناهى حتى ينادي مناد: إن الأمير فلان، قال: فيقبل ابن المسيب يديه حتى إنهما لينتفضان ثم يقول: ذاكم الأمير حقاً ذاكم الأمير حقاً» وفي رواية لنعيم بن حماد: «تكون فتنة بالشام كأن أولها لعب الصبيان ثم لا يستقيم أمر الناس على شيء ولا تكون لهم جماعة حتى ينادي مناد من السماء: عليكم بفلان وتطلع كف تشير» وفي رواية: «ينادي مناد من السماء: أميركم فلان»

وبعد فتح جزيرة العرب بفترة يكون اختلاف على إثر موت خليفة فيعود الظلم وال جور ويخرج السفياي ثم يأذن الله بزوال الظلم فيخرج سيدنا المهدي وعلامة خروجه خسفٌ ببذاء من الأرض على نحو ما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج رجل يقال له: السفياي في عمق دمشق وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يقرر بطون النساء ويقتل الصبيان فتجتمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرة فيبلغ السفياي فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم فيسير إليه السفياي بمن معه حتى إذا صار ببذاء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم» وفي صحيح الإمام مسلم: «سيعوذ بهذا البيت - يعني الكعبة - قوم ليست لهم منعة ولا عدد ولا عدة، يُبعث إليهم جيش حتى إذا كانوا ببذاء من الأرض خسف بهم» وذلك يكون على إثر موت خليفة قرشي لا كما يزعم الحفافة العراة أنه منهم إذ لا يستقيم غزو أمة بين أفرادها اختلاف واقتتال. أخرج ابن حبان في صحيحه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من قريش من أهل المدينة إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعثون إليه جيشاً من أهل الشام فإذا كانوا بالبذاء خسف بهم، فإذا بلغ الناس ذلك أتاه أبدال

أهل الشام وعصابة أهل العراق فيبايعونه، وينشأ رجل من قريش أحواله من كلب فيبعث إليهم جيشاً فيهزمونهم ويظهرون عليهم، فيقسم بين الناس فيأهم ويعمل فيهم بسنة نبيهم ﷺ ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، يمكث سبع سنين» والاختلاف عند موت الخليفة العادل يعود بالأمة إلى الاقتتال والفوضى والجور والظلم فيخرج السفياي ثم يظهر عليه المهدي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويحثو المال حثياً كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «من خلفائكم خليفة يحثو المال حثياً لا يعده عدداً» وفي رواية لأبي داود: «المهدي مني أحلى الجبهة أقى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين» وأسباب الجور والظلم ناشئة عن غياب الخليفة، ومعنى قوله "يملك سبع سنين" أي يملك الأرض كلها وهذا ردٌ لمن زعم أنه يكون في زمن الدجال لأن الدجال يخرج في خفقة من الدين وإدبار من العلم فوضح أنه غير الذي يكون في زمن مسيح الضلالة ومسيح الهداية، والصحيح والله أعلم أن المهدي عليه السلام يظهر على الأرض كلها ولا تُهزم له راية وتخضع له جميع الأمم وتجتمع له الخلافة المطلقة والولاية المطلقة ولعل هذا هو سرُّ تخصيص بيعة أبدال الشام وعصائب العراق وذلك معجزة للرسول المكرم الأعظم ﷺ. وروى ابن ماجه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم - ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال - فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي» وروى نعيم بن حماد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يبعث المهدي بعد إياس حتى يقول الناس لا مهدي وأنصاره من أهل الشام عددهم ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً عدد أصحاب بدر يسرون إليه من الشام

حتى يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا فيبايعوه كرهاً فيصلي بهم ركعتين عند المقام» وبعد موت سيدنا المهدي يكون إدبار من العلم وخفقة من الدين فيخرج الدجال ثم ينزل سيدنا عيسى عليه السلام حَكَمًا عدلاً، فإن قيل: كيف يكون حَكَمَان أو إمامان في وقت واحد وكيف نفهم ما ورد في الحديث المتفق عليه: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟» وفي صحيح مسلم: «فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة» قلنا: حالهما كحال موسى والخضر عليهما السلام فيكون المسيح ابن مريم خاتماً للخلافة العامة، وإمام المسلمين خاتماً للولاية العامة يختم الله به الدورة الحمدية تشريفاً لها بأن يكون الخليفة ابن مريم وهو نبي مرسل تابعاً لها ويكون على شريعتها ولا عجب فإن النور الحمدي سار في أصول الحبيب الأعظم عليه السلام وفروعه، أما الفروع فواضح من تبعية المسيح لذلك الفرع الحمدي وأما الأصول فاعلم أنه إذا كانت العلوم كلها قد استودعت في الخزانة الحمدية فإن الخضر عليه السلام نال ما نال من شرف العلم لما سارت فيه بركات الحقيقة الحمدية والأصول المصطفوية فكان من شأنه ما قصه الله في آياته القرآنية ولذلك راعى موسى الكليم أنواعاً كثيرة من الأدب والتعظيم حيث جعل نفسه تبعاً له واستأذن في إثبات هذا التبعية وطلب متابعتة مطلقاً في جميع الأمور الدينية والدنيوية! وهذا غيض من فيض وقطرة من نهر ووشل من بحر...والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) اعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله" وحكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا

سائر المعجزات وذكر ما من به عليهم من إهلاك عدوهم واستخلافهم وعاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته ووصفه بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبر فيهما وقد ذكر فعل النزول مرتين وذكر له في كل مرة متعلق متمثل اللفظ لكنه مختلف المعنى فعلق إنزال الله إياه بأنه بالحق فكان معنى الحق الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب، وعلق نزول القرآن أي بلوغه للناس بأنه بالحق فكان معنى الحق الثاني مقابل الباطل أي مشتملاً على الحق الذي به قوام صلاح الناس وفوزهم في الدنيا والآخرة، وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام والباء في الموضعين للمصاحبة لأنه مشتمل على الحق والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان الثاني مجرد تأكيد للأول وتقديم المجرور في الموضعين على عامله للقصر رداً على المنكرين الذين ادعوا أن محمداً أخذه من كتب الأولين أو سحر مبین أو نحو ذلك وبالجمله فإن القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لأنه مشتمل على إثبات الصانع وأصول الشرائع ودلائل التوحيد وشواهد التفريد وعلى الحشر والنشر والجنة والنار والوعد والوعيد وعلى أخبار الماضين وقصص الأولين وعلى أخبار الغيوب والنبوءات وقد تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين فكان هذا الكتاب حقاً من كل الوجوه...وجمله "وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً" معترضة بين جملة "وبالحق أنزلناه" وجملة "وقرآنًا فرقناه" وعلق النزول في الجملة الثانية على بلوغه لهم مفرقاً كما يقتضيه سياق انتظام الآي لتحقيق حقية رسالته ﷺ إثر تحقيق حقيقة القرآن العظيم الجليل الذي نزل متفرقاً ليجمعه على الناس على ترتيل وتؤدة شيئاً بعد شيء لتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل وللرد على الطاعنين المائلين عن حقيقته

وصدقه تعنتاً وعناداً كما قال سبحانه ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ وقد نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة كما حكى عن ابن عباس لأنه سبحانه يعلم الثقل في كل آية بل في كل كلمة كما قال عز وجل ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ ولذلك سُمِّي التشريع تكليفاً.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ لما أوضح الحق لبني إسرائيل الدلائل على أن مثل ذلك القرآن لا يكون إلا منزلاً من عند الله من قوله "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله" فعجزوا عن الإتيان بمثله ثم بيان فضائل ما اشتمل عليه بقول "ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل" ثم بالتعرض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات آخر ثم بكشف شبهتهم التي يموهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة بشر وبيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم ثم بالأمر بإقامة الله شهيداً بينه وبينهم ثم بتهديدهم بعذاب الآخرة جزاء كفرهم بآيات الله وإنكارهم البعث والنشور ثم بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وتذكيرهم نعمة الله باستخلافهم في الأرض وإثبات وعد البعث في الآخرة ثم بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن، أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بسيد الإنس والجان وما نزل من القرآن وعدم الإيمان! وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم، وفي قوله ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان أهل جاهلية! والجملة تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أي إنما كان إيمانكم بالرسول الذي أنزل عليه القرآن وعدمه سواء لأنه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل بعثته ونزول القرآن عليه

فهم أرجح منكم أحلاماً وأفضل مقاماً وهم الذين أوتوا العلم فإنهم إذا يسمعونهم يؤمنون به ويزيدهم إيماناً بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه، والكلام على حذف مضاف معلوم من المقام معهود الحذف، وعُطفت ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ على "يخرون" للإشارة إلى أنهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم! أي ويقولون في سجودهم: سبحان ربنا عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له شريكاً وعما يضيفون إليه من اتخاذ الأولاد والبنات وعن خلفه وعده الذي في كتبه وعلى لسان رسله بتحقيق البعث في الآخرة "إن" أي إن الشأن كان وعد ربنا لمفعولاً كائناً لا محالة واقعاً البتة لأن الخلف نقص وهو محال على الله تعالى، وتحقيق الوعد يستلزم تحقيق الموعود به فحصل التصديق بالوعد والموعود به، والله يفعل ما جاء في وعده أي يحققه وهو وعد البعث في الآخرة كما يقتضيه سباق النظم وسياقه والله تعالى أعلم. وقوله ﴿ويخرون للأذقان يكون﴾ تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بما أعيدت الجملة تمهيداً لذكر الحال وذكر "يكون" بصيغة المضارع لاستحضار الحالة والبكاء بكاء بهجة وفرح حاصل من انفعال باطني ناشئ عن شوق ﴿ويزيدهم خشوعاً﴾ أي ويزيدهم القرآن خشوعاً على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم.

﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ التعبير عن اسم الله بلفظ الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أن الحق في جانبه وأنه تأييد من ربه فإن الرب ينصر مربوبه ويؤيده، ولذلك حسن التعقيب بقوله ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾ وفي هذا تأكيد لما سبق فإن الحق قد جاء بنزول القرآن ودعوة الإسلام وزوال الشرك ودولة المشركين.

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) لما ذكر الحق أن دأبهم في الكفر والنفاق كدأب آل فرعون ومن قبلهم من المستخلفين، أردف ذلك بالتنبيه على أن أمرهم صائر إلى زوال وأن أمر الإسلام ستندك له صم الجبال، وجيء في هذا التهديد بأطنب عبارة وأبلغها لأن المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة والتذكير بوصف أسلافهم الذين قتل منهم رسول الله ﷺ في يوم واحد ستمائة، جمعهم في سوق بني قينقاع وأمر السياف بضرب أعناقهم وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها، والمعنى: لا تغتروا بمنعة حصونكم ومجالبكم لشركائكم فإن الله غالبكم، وقرئ بالياء **(سيغلبون ويحشرون)** والمعنى قل لهم سيغلبون أي شركاؤكم ويحشرون إلى جهنم معكم.

(والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) أقسم سبحانه بالعصر وهو الزمان والدهر المشتمل على عمر كل ذي عمر أقسم بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي لعمره المنطوي في العصر الذي يمر عليه ثم استثنى من ذلك الخسران أقواماً رجحوا أعمارهم ولم يخسروها بسبب صفات تحققوا بها أولها: الإيمان وهو التصديق الجازم بما علم بالضرورة مجيء النبي ﷺ به ثم ذكر الأعمال الصالحة لأنها هي الدليل والشاهد على صدق الإيمان في قلوبهم وكماله ثم ذكر ما تواصوا به بالتزام الحق في الأقوال والأعمال والنصح للعباد وحب الخير لهم ثم التواصي بالصبر على أداء العبادات والصبر عن المحرمات والصبر على المصائب والبلاء وقد شملت هذه السورة جميع علوم القرآن! ورؤي عن الإمام الشافعي أنه قال: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعته، ولو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم. وحسبك بمنزلة الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز.

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ سورة يونس انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، وقد وردت الآية بعد الكلام على فرعون وبني إسرائيل، ووجه التشابه بين القصتين لائح، فإن يونس بن متى من أنبياء بني إسرائيل من ولد بنيامين بن يعقوب وكانت بعثته بعد موسى ببضعة قرون، أرسله الله إلى أهل نينوى وكانت مدينة عظيمة من بلاد الآشوريين وكان بها أسرى بني إسرائيل وكانوا زهاء مائة ألف كما حكى تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، فنبذناه بالعراء وهو سقيم، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ والظاهر أن يونس عليه السلام بُعث إلى ملك نينوى بالدعوة إلى توحيد الربوبية وتخليص بني إسرائيل كما بُعث موسى عليه السلام إلى فرعون، فيحتمل أن المقدّرين بمائة ألف هم اليهود، وأن المعطوفين بقوله ﴿أو يزيدون﴾ هم الملك وملؤه، وبذلك يتضح التشابه بين دعوة موسى ويونس وإلى ذلك أشار ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟» فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: «كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الشية وله جوار إلى الله بالتلبية» ثم أتى على ثنية هرشى فقال: «أي ثنية هذه؟» قالوا: ثنية هرشى، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقه حمراء جعدة عليه جبة من صوف، خطام ناقته خُلْبَة وهو يلي» وفي رواية من حديث أبي هريرة: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في

السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى عليه السلام أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى عليه السلام وإنما خص يونس عليه السلام بالذكر من بين الرسل لما قص الله عليه في كتابه من أمره وتوليه عن قومه وضجرتهم عن تثبطهم في الإجابة وقلة الاحتمال عنهم والاحتفال بهم حين راموا التنصل فقال عز من قائل **(ولا تكن كصاحب الحوت)** وقد نهي عليه السلام أن يقول أحد أنه أفضل من يونس بن متى زجراً عن توهم حط مرتبته لما في هذه الآية، ورُوي أنه أقام في قومه يدعوهم إلى الله ثلاثاً وثلاثين سنة فلم يؤمن به إلا رجلان! وذكر الإمام الطرطوشي في كتابه "الدعاء المأثور وآدابه" في قول النبي ﷺ: **«لا تفضلوني على يونس بن متى»** معناه: لا تظنوا أنني لما عُرج بي علواً فعلوت من سماء إلى سماء حتى وصلت إلى سدرة المنتهى ثم صرت إلى حجاب من الذهب فتخلف جبريل عليه السلام فقلت: إلى أين؟ فقال: يا محمد! وما منا إلا له مقام معلوم إن هذا منتهى الخلائق وإنما أذن لي في الدنو من الحجاب لاحترامك وإجلالك، ولم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتى جاوزني سبعين حجاباً غلظ كل حجاب مسيرة خمس مائة عام ثم احتملني حتى وصل بي إلى العرش فلا تظنوا أنني في هذه الحال أقرب إلى الله سبحانه من يونس بن متى حين التقمه الحوت فذهب به سُفلاً فسفلاً حتى انتهى به إلى قرار الأرضين. اهـ. وبالجملة فإن النهي عن التفضيل بين الأنبياء في أصل النبوة لا في درجاتها فقد قال تعالى **(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)** والفاء في قوله **(فآمنوا)** للتعقيب العرفي لأن يونس لما أرسل إليهم ودعاهم امتنعوا في أول الأمر وتعتنوا فلم يصبر على تعنتهم وخرج من بين أظهرهم

وأخبرهم بوعيد هلاكهم فلما أغامت السماء ورأوا أسباب الهلاك خافوا وعجّوا حتى قام ملك نينوى عن كرسيه وخلع شركاءه وألقى رداءه ولبس مسحاً وأمر الناس بالإيمان، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم كما باشر فرعون بل كان قد دنا منهم وانعقد سببه عليهم، فكانوا كالمريض الذي يخاف الموت ويرجو العافية فأما الذي يباشره العذاب فلا ينفعه إيمان. وكان يهود بني إسرائيل قد وافقوا الجبارين ورضوا بالذل والقهر والخصاصة والاسترقاق وانحرفوا عن شريعتهم، ولما ذهب يونس مغاضباً قومه وشارف قلبه من الارتياح بمحبوبيته عند ربه حتى أخذه ذلك لاستحالة صدمة القدر بشأنه أراد سبحانه إرشاد همتته بالرجوع إليه مع التحقق في المقام الأول فركب سفينة فهال البحر عليها وثقلت وخيف غرقها فافترعوا فكان يونس ممن خاب في القرعة فرمي في البحر والتقمه حوت عظيم فنادى في مهد المحبوبة محمواً عن شهود رتبتها مُسَبَّحاً منزهاً ضريعاً فجיעاً مغموراً في الظلمات التي تراكمت عليه وناجى بسرّ الوحدة الإلهية المتجلية على صفحات الكائنات وصحائف المكونات فتفضل الله عليه بالنجاة وطرحه بساحل لا شجر فيه ولا نبات وأنبت عليه شجرة فيها جميع ما يحتاجه من طعام وشراب ولباس وظلٍّ وأرسله ثانياً إلى قومه ليقم فيهم شريعته... وفي تفصيل النظم (فأصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم، لولا أن تداركه نعمة من ربه) وجه بديع وهو أن يكون جواب (لولا) محذوفاً دل عليه قوله (وهو مكظوم) والكظم: الحبس، فتلك الحالة إذا استمرت لم يحصل نبذه بالعراء، ويكون الشرط بـ (لولا) لاحقاً لجملة (إذ نادى وهو مكظوم) أي لولا أن تداركه نعمة من ربه لبقى محبوساً في بطن الحوت ويميت الله الحوت حين ابتلاعه ويبقيهما في قعر البحر لأن الله تعالى

حفظ أجساد الأنبياء وهو معنى قوله ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ وتكون جملة ﴿لنبد بالعراء وهو مذموم﴾ استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الإجمال الحاصل من موقع ﴿لولا﴾ واللام فيها لام القسم للتحقيق لأنه خارق للعادة والمعنى: لقد نبد بالعراء وهو معيوب فيكون في معنى قوله ﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم﴾ فإن السقم عيب.

الفصل السادس:

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ

لما أراد فرعون أن يستفز بني إسرائيل بالتخويف والاستخفاف والتهيج والقتل أغرقه الله تعالى وأغرق من معه جميعاً واستخلف بعده بني إسرائيل ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي اسكنوا الأرض خلفاء فيها، وهو ما صرح به في الآية الأخرى ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وكان مقر خلافتهم في الأرض المقدسة ثم تحولوا بعد رفع المسيح إلى جزيرة العرب وآل أمرهم إلى أن صاروا ثلاث قبائل: قينقاع والنضير وقریظة فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة فجاس ﷺ خلال ديارهم واستأصل قریظة وسبى نساءهم وذريتهم وأمر بإجلاء النضير وقينقاع، ثم تحقق وعد الكرة بمجيئهم إلى جزيرة العرب ممدودين بجمع عظيم من أخلاط شتى من الأمم التي اتحدت لنصرتهم وقد جاءت النصوص النبوية بأحكام خاصة بجزيرة العرب كقوله عليه الصلاة والسلام: «أُخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» والتي تدلّ على قيام دولة لبني إسرائيل في جزيرة العرب، ولا يمكن تخصيص جزيرة العرب إلا على وجه قيام دولة تحكم الأرض، كما لا يمكن أن يكون الإخراج محصوراً في بقعة واحدة من ديار المسلمين إلا على وجه الخلافة والحكم. ولما كان القوم لا يؤمنون باليوم الآخر كما أخبر عنهم العليم الحكيم في مواضع عديدة من القرآن الكريم، قال عاطفاً ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ قال الإمام الطبري: فإذا جاءت الساعة وهي وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفاً أي مختلطين قد التف بعضهم على بعض لا تتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه من قولك: لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فاختلط الجميع وكذلك كل

شيء خلط بشيء فقد لُف به. وقال الإمام الفخر الرازي: والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى الحشر أخلاطاً يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر. وقال الإمام القرطبي: "إذا جاء وعد الآخرة" أي القيامة "جئنا بكم ليفي" أي من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهات شتى. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم أي وأخلطهم. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر مختلطين لا يتعارفون. ولما ثبت أمر الحشر بإثبات القدرة على كل ممكن تارة وبإعلام بني إسرائيل الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر القائلين بلسان الحال ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ ثبت أن هذا القرآن المخبر بذلك حق ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ ويشاكل هذه الآيات قوله عز وجل ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل

ممزق إنكم لفي خلق جديد، أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ويتضمن قوله تعالى ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ ما وعد الله به عباده بالنصر في الدنيا كما جاء في مطلع السورة في قوله ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾ وقوله ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ ونحو هذا قوله عز وجل ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾.

المبحث السابع:
موضع المؤمن
في هذا الصراع

الفصل الأول: عظم الخالق وحال الشركاء

(ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أي ذلكم الذي أرسل الرياح بالسحاب، وأحيا الأرض بعد موتها، وخلقكم من تراب، وجعلكم أزواجاً، وأحاط علمه ما تحمل من أنثى وما تضع، وما يُعمر من معمر وما ينقص من عمره، ومرج البحرين، وأولج الليل في النهار والنهار في الليل، وسخر الشمس والقمر... ذلكم هو الله الذي تحق له الربوبية وقد أعقب سبحانه بتقرير الربوبية وبطلان الشركاء وخسران عاقبة الشرك يوم القيامة في ظل تلك المشاهد المتنوعة العميقة الدلالة القوية السلطان، واسم الإشارة موجه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله (والله الذي أرسل الرياح) فكان اسمه حرياً بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات إذ بذكرها يتميز عند السامعين أكمل تمييز حتى كأنه مشاهد لأبصارهم مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه، ومع ما يقتضيه إيراد اسم الإشارة عقب أوصاف كثيرة من التنبيه على أنه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات فأخبر عنه بأنه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه، وأخبر عنه بأنه منفرد بالربوبية بعد أن سجل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنه الذي خلقهم خلقاً من بعد خلق، وقدر آجالهم وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية، وهذه المشاهد يدركها الإنسان في الصبا ثم تبدو فيه غريزة العقل وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة انطلق لسانه بالمعرفة فقال سبحانه الله! وهو يرى طول الوقت الليل والنهار وهي شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول

الأنس بها وانغماسه في شهواته التي سدت عليه سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الربوبية كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكباً دابته وهو يطلبها! ولذلك قيل:

فقد ظهرتَ فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمر

لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجبا ... فكيف يُعرف من بالعرف قد ستر

ومشاهد سلطان ملكه ومظاهر تصرفاته وعظمة قدرته النافذة في مخلوقاته كلها تدل قطعاً على أنه لا إله إلا الله وأنه سبحانه بيده الملك وحده وأنه المالك لكل شيء **(له الملك)** أي بيده التصرف التام المطلق النافذ في جميع مخلوقاته كما هو مقتضى إرادته سبحانه وحكمته وتديره على وجه لا شريك له في ذلك أي المُلْك لله لا لغيره وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه تعالى وتسليط وهو لنقصه وتعرضه للزوال بمنزلة العدم، وتقديم المجرور لإفادة الحصر الادعائي بتخصيصه بالملك أي قصر تعلق لام الاستحقاق بالملك عليه سبحانه فلا مُلْك لغيره وهو قصر ادعائي لإبطال ادعاء المشركين مبني على عدم الاعتداد بما لغير الله من مُلْك لنقصه وعدم خلوه عن الحاجة إلى غيره، بخلاف مُلكه تعالى فهو المُلْك المطلق الداخل في سلطانه كل ذي مُلْك كما ينبئ عنه قوله تعالى **(ملك الناس)** أي مَلِكهم الحق الذي له السلطان الأعظم عليهم فهو المتصرف والمدير شؤون رعيته يتصرف في شرائعهم وفي مراتبهم... وقال سبحانه **(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك)** أي الملك المتصرف وحده في كل شيء المالك وحده لكل شيء وكل ما سواه مملوك له وفي حديث القيامة: **«ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟»** وفرَّع على هذا التقرير بنفي ملكية الشركاء ولو

شيئاً حقيراً وهو الممثل بالقطمير أي: القشرة التي في شَقِّ النواة، ومن ثم كان الحق كل الحق ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة أن الذي يخلق له الملك كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي له الإيجاد والمُلْك، والمراد: قصر ذلك على الله قصر إضافي للردّ على المشركين أنه ليس لهم ولا لآلهتهم شيء من الخلق والمُلْك، ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى، وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ وقُرئ بالتخفيف ﴿قَدَرَ﴾ أي مَلَكَ فهدى إلى توحيده، وافتتحت الجملة ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ بحرف التنبيه لتعي النفوس هذا الكلام الجامع، واللام الجارة لضمير الجلالة لام المُلْك. وفي الحديث عند الإمام مسلم: «لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ» وفي صحيح الإمام البخاري: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» قال الطيبي: لفظة "كان" في الموضعين بحسب حال مدخولهما فالمراد بالأول الأزلية والقدم، وبالثاني الحدوث بعد العدم. وقال العسقلاني: ليس المراد بالماء ماء البحر بل هو ما تحت العرش كما شاء الله. وقيل: ذلك الماء هو القلم. وقيل: هو الماء المشتمل على جميع عناصر الحياة غير الماء المعروف فإنه أحد العناصر. وقد بيّن تعالى بالبرهان القاطع والدليل الساطع كمال مُلكه وأعلن عظمته في ربوبيته وكبريائه في ألوهيته ونزّه نفسه بمجمع التنزيه فقال ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ذلكم المتصف بالقدرة التامة والعلم الشامل والمنزه عن الصاحبة والولد هو الله الذي تحقّق له الربوبية والإلهية لأنه مقدر كل شيء وهذا أنه سبحانه قدر كل شيء قبل أن يخلقه على مكان معين وزمان معين ونسبة معينة

وجو معين وكيفية معينة وهكذا... فلا خالق للخلق سواه، وذلك ثابت بالشواهد البرهانية والمشاهد العيانة ولذلك ترى أنه تعالى كثيراً ما يأتي بمشاهد آيات قدرته وحكمته وعلمه ثم يأتي بالشهادة له بالوحدانية، وكذلك ترى أن النبي ﷺ كثيراً ما يأتي بآيات الله المشهودة التي يجريها الله على يده ثم يأتي بالشهادتين، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين لما نفدت أزواد أصحابه وأملقوا فجمع ما بقي منها ودعا وبرك عليها حتى ملئوها ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». والإتيان باسم الإشارة (ذلكم) لتمييزه أكمل تمييز لأن المشركين امتروا في الربوبية والإلهية وضلوا فيهما ضلالاً بعيداً فكانوا أحرىء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة وللتنبية على أن المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها فإن خالق العوالم ومالك أمرها ومدبر شؤونها مستحق للعبادة لاحتياج الكل إليه لاحتياج المطلق وغناه عنهم الغنى المطلق كما في الآية (الله الصمد) ولما اقتضت الإلهية الوحدة دل عليها بالأحد ودل على تحقيق معنى الإلهية والواحدة معاً بالصمدية لما لها من المعنيين: وجوب الوجود والسيادة المفيضة لكل وجود على كل موجود وجوداً لا يشبه وجوده سبحانه فهو المصمود وحده في الرغائب، المستعان به عند المصائب، المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات، يسأله من في السماوات والأرض، لم يستغن عنه شيء وهو غني عن كل شيء، العالم كله صامد إليه قاصده فقيرٌ إليه في كل شيء، وإلى الصمدانية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية. وقال جل شأنه وعز سلطانه (وله كل شيء) أي ملكاً وخلقاً، ودليل الخلق قوله سبحانه (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) وقال تعالى (ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل

شيء) وإذا أضيف إليه كلية الأشياء فما دونها مندرجة تحت مُلكه من باب أولى... وحيث أُجري على الشركاء موصول العاقل وضمائر العقلاء (والذين تدعون) إلى قوله (يكفرون بشرككم) فقد تعين أن المقصود شركاؤهم العقلاء والله أعلم، وهذه السورة أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد فهي تجول في كتاب الكون المفتوح للبحث عن أي أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله، وفي حنايا السورة تنويه بشأن العلماء... وتصدير السورة بذكر الملائكة وإصدار صفة الرسالة عليهم وأحوال التشكل الذي يتشكلون به؛ توطئة لقوله (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) والفتح: استعارة تمثيلية لإعطاء العلم والحكم إذ هو من النفائس التي تشبه المدخرات المتنافس فيها فكانت حالة إعطاء الله العلم والحكم شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء فأشير إلى هذا التمثيل بفعل الفتح، وهو فتح للأمة المجتابة، وإمساك عن الأمة الملعونة، والإمساك هنا مجاز عن الحبس والمنع ولذلك قبول به الفتح! ثم تختم الجولة مع المستخلفين في الأرض المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها، وقد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه... ولما نفى سبحانه ملكية الشركاء أتبع ذلك ببيان عجزهم عن رفع الضر أو جلب النفع (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) والخطاب صالح لشمول المشركين القدامى والجدد، ويتناول الأعيان على وجه التبليغ كما يتناول الأعوان على وجه الإرشاد، ونحوه قوله تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون، قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون،

أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) ولما كشف حال الشركاء في الدنيا كمل كشف أمرهم في الآخرة بأنهم يتبرؤون من ملوك الأرض، وزعيم الشركاء هو الشيطان كما أشار مطلع السورة... وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) تذييل لتحقيق هذه الأخبار بأن المخبر بها هو الخبير بها وبغيرها ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو، وعُبر بفعل الإنباء لأن النبأ هو الخبر عن حدث خطير مهم، و(خبير) صفة مشبهة مشتقة من خبر فلان الأمر إذا علمه علماً لا شك فيه، والمراد جنس الخبير، فلما أرسل هذا القول مثلاً وكان شأن الأمثال أن تكون موجزة صيغ على أسلوب الإيجاز فحذف منه متعلق فعل يُنبئ ومتعلق وصف خبير، ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام، وجعل خبير نكرة مع أن المراد به خبير معين وهو المتكلم فكان حقه التعريف فعدل إلى تنكيره لقصد التعميم في سياق النفي، والمعنى: ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر مثلي لأنني خبرته والله تعالى أعلم.

(فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) لما كان قد يقع في الذهن أنهم على حجة وبرهان فأبان بقوله "ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل" أنهم ضلال اقتدوا بمثلهم ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم وعلى يقين من منهجهم وربما يتوهم أيضاً أن الأليق ألا ييسط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله "وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب" والكلام في الآية "فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء" تفريع على قصص الأمم التي استخلفها الله في الأرض فخلعت سلطان لله الواحد القهار، واتخذت آلهة في الحكم والعبادة كما

قال قوم هود لنبههم ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا - أي في العبادة - عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا - أي في الحكم - بسوء﴾ وقد حُكي نظير ذلك في قوله تعالى ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أرادوا آلهتهم في الحكم والعبادة كما في الآية ﴿قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ للدلالة على استمرارهم على تلك العبادة أي: إلا كما اعتاد آباؤهم عبادة الشيطان الذي سول لهم اتخاذ آلهة في الحكم والعبادة، والمضاف إليه محذوف تقديره: من قبلهم، تنصيصاً على أنهم سلفهم في هذا الضلال.

﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾ في الاستفهام تعجيب من محاجة العدو اللعين الذي تجبر وادّعى الربوبية وزعم أن الربوبية له من دون الله يقتل من شاء ويستحيي من شاء وهذا دأب المحتالين! وفي جواب إبراهيم دليل على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة إلى توحيد الربوبية والإيمان بالإحياء بعد الإماتة، وقد سلك نمرود مع إبراهيم طريق المغالبة في الحجّة إذ جعل محاجته في الربوبية جزاء على أن آتاه ربه الملك! فالعلة تهكمية بمعنى أنه وضع المحاجة موضع الشكر! كما يقال: عاداني فلان لأني أحسنت إليه، وهذا لا يفعله إلا من انتكست فطرته وانحرفت طبيعته! وهذه عادة الدجالين وشنشنة المحتالين. روى الإمام أحمد عن

سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إنه لم يكن نبي قبلي إلا قد حذر الدجال أمته، هو أعور عينه اليسرى، بعينه اليمنى ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يخرج معه واديان أحدهما جنة والآخر نار فناره جنة وجنته نار، معه ملكان من الملائكة يشبهان نبيين من الأنبياء لو شئت سميتهما بأسمائهما وأسماء آبائهما، واحد منهما عن يمينه والآخر عن شماله وذلك فتنة، فيقول الدجال: أأست بربكم؟ أأست أحيي وأميت؟ فيقول له أحد الملكين: كذبت، ما يسمعه أحد من الناس إلا صاحبه، فيقول له: صدقت، فيسمعه الناس فيظنون إنما يصدق الدجال وذلك فتنة» ثم تحي قصة عزيز نبي بني إسرائيل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وهناك تشابه بينها وبين قصة أصحاب الكهف في الموضوع والعبارات ففي قصة الكهف جاء التنبيه إلى البعث والنشور بقوله ﴿وكذلك بعثناهم﴾ وتسميتها بسورة الكهف يدل على أهمية قصة أصحاب الكهف الذين واجهوا ملوكاً ينكرون البعث والساعة فأطلع الله نبأهم وخبرهم ليعلم من أنكر البعث أن من قدر على إبقاء الأنفس مدة مديدة طويلة بلا غذاء تغذي به لقادر على إحياء الموتى وبعثهم بعد الموت. وقصة عزيز عليه السلام وردت بعد قوله تعالى لبني إسرائيل ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ ليؤمنوا بالبعث والنشور! وفي هذه القصة يبعث الله تعالى عزيزاً بعد مائة عام ويأمره بالنظر إلى العظام وهي تُنشر! ويبعث أصحاب الكهف بعد ثلاثمائة وتسع سنين! وكان عزيز قد عاد ببني إسرائيل من سبي البابليين إلى بيت المقدس قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون، ولما بعثه الله جمع التوراة وبيّن لبني إسرائيل ما طرأ عليها من تحريف اليهود المضلين فلم تناسبهم دعوته ومكروا به ثم ادّعوا أنه ابن الله ليصدوا عن ربوبية الله مبتغين لسييله تعالى

زيغاً واعوجاجاً! أخرج الإمام البغوي عن قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أحيا الله تعالى عزيزاً بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنزله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفتة وعقلته فقال لها عزيز: يا هذه هذا منزل عزيز؟ قالت: نعم هذا منزل عزيز وبكت وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيزاً قال: فإني أنا عزيز، قالت: سبحان الله فإن عزيزاً قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال: فإني أنا عزيز كان الله أماتي مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عزيزاً كان رجلاً مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد لي بصري حتى أراك فإن كنت عزيزاً عرفتك، فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عزيز، فانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس فنادت هذا عزيز قد جاءكم فكذبوها فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزيز. وقال السدي والكلبي: لما رجع عزيز إلى قومه وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزيز على التوراة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبياً فقال: أنا عزيز فلم يصدقوه فقال:

إني عزيز قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا: أملها علينا، فأملهاها عليهم عن ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلا أنه ابنه، فقالوا: عزيز ابن الله. اهـ. وقد ورد لفظ ﴿انظر﴾ ثلاث مرار في قصة العزيز التي وردت بين الآية ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ وبين الآية ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ إشارة إلى تنبيه القوم على البعث والنشور! وسؤال إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى مسوق إلى قومه المنافقين قصد به موعظتهم بدون مواجهة خطاهم استنزالاً لطائرهم على طريقة التعريض من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» واستقصاء لتبليغ الحق إليهم وهذا هو الأظهر فكانت الآية ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ عطفاً على التشبيه السابق وتأكيداً للسؤال اللاحق... وقد لزم الخليل سنة التحقق في جميع مراحل حياته وجعلها وسيلة لمعالجة قومه، ولا تظن أن المقصود بقوله ﴿انظر﴾ مد البصر فإن البهائم تشاركك في هذا النظر، بل المقصود التدبر والتأمل والتفكير لحصول المعرفة المطلوبة للخروج من الشك إلى اليقين والله أعلم وهذا قد ينكره المقلد المتلقي عن أهل الكتاب ومن ثمة يستبعد ما ورد من الأسرار والحقائق! ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل... والآيات الثلاث جاءت تعقياً على آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ وعالم الكرسي: الجامع للعوالم كلها أو أنه إشارة لعالم الكرسي الذي جمع وتكرست فيه العوالم كلها فقد ورد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال: «يا أبا ذر

ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: كرسيه: علمه ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. ويسمى الكرسي: العالم الفرقاني إذ تنزل فيه الأمور مفرقة فالعرش منزل التدبير والكرسي منزل التفصيل قال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ "يدبر الأمر" في علم العرش "يفصل الآيات" في عالم الكرسي. فالتدابير الإلهية تتفصل في عالم الكرسي وتنزل فرقانية وإن ملائكة عالم الكرسي مهيمون في الله تعالى ولا يعرفون إلا الله تعالى... وبالجملة فإن آية الكرسي سيدة أي القرآن وهي متبوعة غير تابعة جمعت مراتب التوحيد ومتى تدبرنا آية الكرسي وتطلبنا المعنى الذي لأجله عظمت لم نجد إلا أنها وصف بصفة الله عز وجل ومن بالغ في البحث ألقاها مشتملة على الفصول السبعة التي جمعت الأسماء كلها فعظمت الآية لعظم قدر ذكر الله جل ذكره وعظم قدر أسمائه وصفاته، كما قال ابن برجان. وروى الإمام أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة» وروى الترمذي وغيره مرفوعاً: «لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة أي القرآن، هي آية الكرسي» وعلى هذا فالآيات القرآنية فيها سيدات وهناك السور التي جاء وصفها بأنها

قلب القرآن وهناك السنام وهناك سورة تعدل ثلث القرآن وفي القرآن العرائس والميادين والبساتين والديابيح والروضات كما جرى عليه السلف رضي الله عنهم إذ كانوا يسمون السور الطويلة بالميادين - وهي السبع الطوال - والمسبحات هي العرائس، والحواميم هي الديابيح، والمفصل هو الروضات وهكذا... وهذا كله لمن كان بصير القلب لأن الله تعالى قد تجلّى لعباده في كلامه ولا يشعر بهذا إلا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وإن تسمية سورة يس بقلب القرآن وآية الكرسي بسيدة آي القرآن وهكذا هذه الأوصاف لهذه السور والآيات لا يعرفها إلا من عرف حقائق القرآن وهو الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ. وآية الكرسي أعظم آية في كتاب الله وفيها بيان عن وحدانية الله، وقيامه على كل شيء وقيام كل شيء به، وسعة علمه المحيط بكل شيء، وهيمته الكاملة على كل شيء، وحفظه لكل شيء، لا شفاعة إلا بإذنه، ولا علم إلا ما يهبه جل شأنه، وفي رواية: «قراءة آية الكرسي تعدل قراءة ألف آية من القرآن» ولولا انتقاد ذوي الجهالة وبُعد أكثر الناس عن تأمل كلام الله لذكرنا هنا أسراراً تخرق عقول من لا اهتدى إليها ولا هجم به تنقيبه وبحته عليها، فهناك وعاء لا رخصة في بثّه وإن كان هو غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين ولم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال، والله در زين العابدين عليه رضوان الله وسلامه حيث يقول:

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وإن العالم إذا تلا الآية ثانياً وثالثاً وهكذا إلى مائة مرة وأكثر قد يفتح الله له في كل تلاوة علوماً جديدة لم تخطر له في كل مرة تقدمت على بال، فلا يتكلم فيها لكونها من علوم الأسرار، ولا تخفى قصة الخضر، فإن فيها كفاية لكل معتبر.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب، وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير، فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ لما ذكر الحق تعالى اختلاف قوم موسى في الكتاب ومخالفتهم أمر منزل الكتاب، أعقب بالأمر بالاستقامة على جادة الكتاب والنهي عن الطغيان والركون إلى أولياء الشيطان، قال الحسن البصري رحمته الله: جعل الله الدين بين لاءين "ولا تطغوا" "ولا تركنوا". والركون: الميل بالركن أي بالجانب من الجسد واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب، فبعد أن نهي تعالى المؤمنين عن الطغيان نهاهم عن التقارب من الظالمين لئلا يضلّوهم ويزلّوهم عن الإسلام، ودخل في الركون إلى الظالمين: المداينة والرضى بأقوالهم وأعمالهم والأخذ بمنهاجهم وتصحيح ما هم عليه من الاعتقادات الباطلة والآراء الفاسدة وتكثير سوادهم ومداينتهم ومد العين إلى زهرتهم الفانية وغبطتهم فيما أوتوا من القطوف الدانية والافتداء بهم والانضمام إليهم والتظلل معهم بالأقوال والتشبه بهم في الأفعال وتكثير سوادهم ورعي ودادهم والتزوي بزيتهم والدعاء لهم بالبقاء وتعظيم ذكرهم والمشى خلفهم والتقرب إلى من هو من حاشيتهم والتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم وترك مقاربتهم.

و"إن" عند نافع وابن كثير وشعبة عاملة مع تخفيفها من الثقيلة في قراءة غيرهم اعتباراً بأصلها "لما" هي في قراءة ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بالتشديد الجازمة حذف فعلها - قال ابن الحاجب: وهو شائع فصيح - وفي قراءة غيرهم بالتخفيف مركبة من لام الابتداء و"ما" المؤكدة بنفي نقيض ما أثبتته الكلام ليكون ثبوته مع نفي نقيضه على أبلغ وجه. فإذا علمت أن شأنك في أمتك شأن الرسل في أممهم وأنه لا بد من الاختلاف في شأن الرسول والكتاب كما جرت بذلك السنة الإلهية وأن الجزاء بالأعمال كلها لا بد منه فاستقم بغاية جهدك بسبب أنك لا تكلف إلا نفسك وأن الذي أرسلك لا يغفل عن شيء - ومن استقام استقيم له - ولما كان من المقطوع به أن الأمر له ﷺ من له الأمر كله، بني للمفعول قوله "كما أمرت" أي كما استقام إخوانك من الأنبياء في جميع الأصول والفروع سواء كان في نفسك أو في تبليغ غيرك معتدلاً بين الإفراط والتفريط ولا يضيق صدرك من استهزائهم وتعنتهم واقتراحهم للآيات وإرادتهم أن تترك بعض ما يوحى إليك من التشنيع عليهم والعيب لدينهم بل صارحهم بالأمر واتركهم وأهواءهم نحن ندبر الأمر كما نريد على حسب ما نعلم، وليستقم أيضاً من رجع إلى الله مخلصاً معك. والمؤمن يبحث عن نجاة نفسه، ومن تشبه بقوم فهو منهم كما روى الإمام أبو داود في السنن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» ومن سنن الله أن النصر لا يكون إلا بحسن التوكل على الله وإخلاص النية له فلا يستحق النصر من تنكر لهذه السنن وركن إلى أعداء الله، وهو تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وأراد بالإحسان الإخلاص لله وحده والخلاص من المشركين والخلوص من علائقهم، وهو شرط في صحة الإسلام والإيمان

معاً، والإيمان برزخ بين الإسلام والإحسان فله من الإسلام ما يطلبه عالم الأجسام وله من الإحسان ما يشهد به المحسان... لقد عرف رسولنا عليه الصلاة والسلام رهبة الموقف حتى قال ﷺ: «شيتني هود» كما عند الترمذي والحاكم، والاستقامة للمجاهد الذي يواجه الأئمة المضلين ومن تبعهم من الجاهلين المقلدين يعني تحقيق الوحدة التي بها مادة الحياة الحقيقية وعليها مدار السعادات والكمالات الدنيوية والأخروية وإذا استقام المؤمن فلن يضره خذلان غيره فقد روى أبو داود عن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» وزادني غيره قال: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم» والآية نزلت في اليهود والنصارى وإنما تأويلها آخر الزمان، فالحمد لله الذي جاء بنا في الزمن الأخير وجبر نقصنا بالتصديق وعدم الشك والتردد فيما وصلنا بالسند ووجدناه منقولاً في أوراق ولم نطلب على ذلك دليلاً ولا ظهور آية - والمنة لله ولرسوله - وفي الحديث عند الديلمي: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا الدنيا فإن خالطوا السلطان ودخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم واجتنبوهم» هذا إذا كان السلطان من الأمة المسلمة - لا من الأمة الملعونة - وكان العالم مجبوراً مطالباً بالاختلاط لأجل

الانتفاع الديني فلا بأس حينئذ بالمخالطة لأن المجبور المطالب مؤيد من عند الله تعالى خال عن الأغراض النفسانية بخلاف ما إذا كان مقارناً بالأغراض النفسانية فيكون موكولاً إلى نفسه فتختطفه الشياطين نعوذ بالله تعالى كما في الرواية الأخرى: «إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتى باب صاحب السلطان تلقاً إليه وطعماً لما في يديه خاض بقدر خطاه في نار جهنم» والحديث كأنه مأخوذ من الآية فهما متطابقان معنى كما لا يخفى... وروى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون: «إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم فقال: ما بال الأخيار؟ فقال: إنهم لم يغضبوا لغضبي فكانوا يؤاكلوهم ويشاربوهم» وبهذا تبين أن بغض الظلمة والغضب عليهم لله واجب وإنما ظهر الفساد في الرعايا وجميع أقطار الأرض براً وبحراً بفساد العلماء أولاً إذ لو اتفق العلماء على الحق مجتهدين في ذلك مستفرغين مجهودهم لزال دولة الظالمين من بينهم رأساً وبالكلية ومن ثم جاء في الخبر الذي رواه الداني في السنن الواردة في الفتن وابن المبارك في الزهد والرقائق: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم تمال قراؤها أمراءها وما لم يُعظَّم أبرارها فجّارها ويُداهن خيارها شرارها فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده ثم سلط عليهم جبارهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملاً قلوبهم رعباً» وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وما كان علمهم إلا بالقرآن ومعانيهم إلا بالسنة، وأما وجه وقوع ما غلب على هذه الأمة وفشا في أعمالها وأحوالها على نظير ما كان عليه بنو إسرائيل من النفاق فهو داهية القراء كما قال صاحب الرداء عليه السلام: «أكثر منافقي أمتي قراؤها» وقال بعض كبار التابعين: «أدركت سبعين ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه» ومن أظهر علامات المنافق تبرمه بأعمال

الصادق فإنه ما من مؤمن إلا وإلى جنبه منافق غماز لماز بخيل جبان مرتاع يكره عمله مستثقل في مجامع الخير مستخف في مواطن الشر طلق اللسان بالغيبة والبهتان ثقل اللسان عن مداومة ذكر المنان ناظر إلى الناس بكل وجه يصانعهم ولا يصادقهم يأخذ من الدين ما ينفعه في الدنيا ولا يأخذ ما ينفع في العقبى ويجنب في الدين ما يضر في الدنيا ولا يجنب ما يضر في العقبى مما لا يضر في الدنيا فهذا وجه من وقوع شياع النفاق في هذه الأمة! فلذلك من حق القارئ أن يستشعر مواقع آي القرآن من نفسه في ذات قلبه وفي أحوال نفسه وأعمال بدنه وفي سره مع ربه وفي علانيته مع خلقه فإنه بذلك يجد القرآن كله منطبقاً عليه خاصاً به فيستمع القرآن بلاغاً من الله سبحانه وتعالى إليه بلا واسطة بينه وبينه فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء ثم تلين له جلده وقلبه انتهاء وربما يجد من الله سبحانه وتعالى نفح رحمة يفتح له باباً إلى التخلق بالقرآن أسوة بالنبي العدنان ﷺ وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

الفصل الثاني: الشرك والشركاء

قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء!

هذا الموقف الهائل للمستخلفين في الأرض موقف مرهوب ترجف فيه الأوصال ويغشاها الدهول من الجلال... موقف يوحى بالإنكار والتوبيخ والتبكي والاستخفاف... أروني الشركاء الذين ألحقتهم بي! أروني شياطين الأمم المتحدة! أروني إياهم... ومن هم؟ وما قيمتهم؟ وأين قوتهم؟ وبأي شيء استحقوا هذه الدعوى؟ وهل شاركوا الله سبحانه في خلق ذرة من الأرض أم لهم شرك في السماوات؟ إنه التحدي في موقف فاصل... وماذا يملك الشركاء المزعومون من دون الله؟ وفي أي شيء يتصرفون تصرف المالك في هذا الكون العريض؟ وفي هذا الموقف العسير الواجب الخاشع تجيء إيقاعات عنيفة عميقة وفواصل متلاحقة وضربات كأنها المطارق، كل كلمة تدمغ بالحجة وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان، في مضطرب الحق والباطل وفي هيك الكون الهائل وفي أعماق النفوس وأغوار القلوب، يعقبها إنكار في ردع وتأنيب (كلام) فليسوا بشركاء، وما له سبحانه من شركاء، وليس له على الإطلاق شريك (بل هو الله العزيز الحكيم) والأمر في الآية مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم، والتعبير عن المرئي بطريق الموصولية لتنبية المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله تعالى وفي جعل الصلة (ألحقتهم) إيماء إلى أن الشركاء لم يكونوا موصوفين بالإلهية وصفاً ذاتياً حقاً ولكن المشركين ألحقوهم بالله تعالى، فتلك خلعة خلعوها عليهم، وضمير (به) عائد إلى اسم الجلالة من جملة (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله)

وليس أشد كُفراً وأعظم جرماً من هؤلاء السفهاء الذين قابلوا النعمة بالكفر ونازعوا الله سبحانه الحكم كما حكى سبحانه ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ وكلمة ﴿شركائي﴾ أوردتها سبحانه على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم... والمعنى أنه في مشهد يوم القيامة يقف المشركون موقف الخزي أمام مالك الملك يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب ﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي أين شركائي الذين كنتم تُعادون وتخاصمون فيهم المؤمنين المجاهدين؟ وقرئ ﴿تشاقون﴾ بكسر النون، والمعنى: أين شركائي الذين كنتم تنازعون فيهم الحكم والسلطان؟.

﴿ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد﴾ اعلم أنه سبحانه لما هددهم في الآية المتقدمة بأن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة، فكان سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فأخبر تعالى أنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله فكذلك العلم بما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، على نحو ما جاء في خاتمة لقمان، ثم إنه تعالى ذكر حال المشركين مع شركائهم، والكلام متصل بما وقع الابتداء به في أول السورة من الدلالة على شدة نفورهم عن استماع القرآن من أجل أن محمداً ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة من الشرك والشركاء ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ ثم ذيلت السورة بوعيدهم ﴿ويوم يناديهم أين شركائي﴾ أي الذين زعمتم أنهم شركاء لي، وفي ذلك تهكم بهم وتقريع ﴿قالوا آذناك ما منا من شهيد﴾ والمراد إحداث إيذان لا إخبار عن إيذان سابق أي أنهم في ذلك اليوم يتبرؤون من

إثبات الشريك لله إذ أن شركاءهم الذين يتناصرون بهم ضلوا عنهم فأيقنوا بدوام العذاب، روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «لمن الملك؟» فيقول: «الله الواحد القهار» فيرمي بالسموات والأرض ثم يرد فيها حتى لقد رأيت المنبر يهتز: «فأين الجبارون وأين المتكبرون؟ فنادوه من ناحية: آذناك ما منا من شهيد» ولما ذكر تعالى من حالهم أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء لله في الدنيا تبرؤوا عنهم في الآخرة، بين أنهم في جميع الأوقات متبدلوا الأحوال متغيروا المنهج، فإن أحسوا بخير تجبروا وإن أحسوا بمحنة يئسوا...

(أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) لما قرر تعالى في سورة الملك عجز شركائهم عن نصرتهم وبكتهم بنفي أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية في قوله (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور) وقفهم هاهنا على أمر الشركاء مع التهكم بهم، وقد ورد ذلك في سياق نفي وجود عهود مستمرة طول الدهر أن يكون الحكم لهم من دون المسلمين (مالكم كيف تحكمون) ولما كان الحكم الصحيح لا بد أن يكون مستنداً إلى عقل أو نقل، زاد بطلان حكمهم وضحاً بنفي الأمرين معاً فأتبع انتفاء دليل العقل بانتفاء دليل النقل (أم لكم كتاب فيه تدرسون، إن لكم فيه لما تخيرون) وفي هذا إدماج بالتعريض بتحريفهم الكتاب، ثم نفى تعالى أن يكون مستند زعمهم عهداً أخذوه على الله لأنفسهم أن يعاملهم بما يحكمون به لأنفسهم (أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) فلاستفهام اللازم تقديره بعد (أم لكم أيمان علينا بالغة) إنكاري أي أيمان مؤبدة لا تحلّ منها مستمرة إلى يوم القيامة؟ وجاء

التعبير بلفظ الزعيم في قوله **(سلهم أيهم بذلك زعيم)** تعريضاً بالمستخلفين زيادة في السخرية لعزتهم ومنافاتهم لكبرياء الله تعالى! ثم أضرب إضراباً ثالثاً انتقل به إلى انتفاء نفع شركائهم **(أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين)** والأمر أمر تعجيز، وإضافة شركاء إلى ضميرهم لإبطال صفة الشركة في الإلهية عنهم أي ليسوا شركاء في الإلهية إلا عند هؤلاء، ولما نفى جميع شبههم التي يمكن أن يتشبثوا بها مع البيان لقدرته على ما يريد من تفتيق الأدلة وتشقيق البراهين الدال على تمام العلم اللازم منه كمال القدرة فأوصلهم من وضوح الأمر إلى حد لم يبق معه إلا العناد، أتبع ذلك تهديدهم بما يثبت ذلك قدرته عليه من يوم الفصل فقال **(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون)** روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»** والكشف عن الساق الوارد في الآية والحديث يفسره ما رواه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى "يوم يكشف عن ساق" قال: **«عن نور عظيم فيخرون له سجداً»** وروى سعيد بن منصور وابن منده والبيهقي في الأسماء من طريق إبراهيم النخعي عن ابن عباس أنه قال: يكشف عن أمر عظيم ثم قال: يقال: قامت الحرب على ساق يعني إذا اشتدت وعظمت. وفي الآية إنذار للمشركين المرائين وفي الصحيحين واللفظ للبخاري: **«من سمع سمع الله به ومن يراني يراني الله به»** أي من عمل عملاً للسمعة بأن نوه بعمله وشهره لسمع الناس به ويمتدحوه شهره الله بين أهل العرصات وفضحه على رؤوس الأشهاد، ومن يعمل عملاً ليراه الناس في الدنيا

يجازيه الله تعالى به بأن يظهر رياءه على الخلق. وفي حنايا السورة أمر بالصبر حتى يجيء موعد النصر ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾ أي لا تعجل كما عجل ولا تغضب كما غاضب وانتظر حكم الله تعالى الذي وعدك بالنصر عليهم ولا يهمنك أمرهم ولا تبال بهم فإنه سبحانه حافظك ومتوليك ومؤيدك، وقد صُدّرت السورة بالآية ﴿إن والقلم وما يسطرون﴾ فأقسم سبحانه بنون مدده الفياض ثم بالقلم الأول المستفيض ويسمى القلم الأعلى ويسمى العقل الأول ويسمى بالحقيقة المحمدية النورانية التي هي أول الحقائق وهذا القلم هو الذي جاء في الحديث عند أبي داود والترمذي: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء إلى يوم القيامة» وهذا هو القلم الأعلى الأول الذي خط المقادير وجف بما خط، وهناك أقلام تكتب الوحي والأوامر الإلهية المستمرة، وهناك الأقلام القضائية تكتب وتستنسخ ما أمرت به من اللوح المحفوظ، وهناك الأقلام التي تجري بكتابة أعمال بني آدم... وأما العقل الأول فهو الوارد في الحديث الذي رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن الحسن يرفعه: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال سبحانه: ما خلقت خلقاً أحبُّ إليّ منك، فبك آخذ وبك أعطي» قال الحافظ السيوطي في الدر: وهذا مرسل جيد الإرسال، وهو موصول في معجم الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسنادين ضعيفين. ثم نفى سبحانه عن نبيه ورسوله ﷺ ما قالوه مما توقعوا به ونزّهه عن شنيع قولهم فقال ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ بل أنت مجمع العلم والحكمة وأنت البحر الطام والخير العام الذي اختصه الله بأعلى الدرجات والمقامات وأكبر المعجزات صاحب العقل الأكمل والفهم الأفضل، وكيف

يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلت عن مماثلته، وعرفهم عن الحق بما لا تقتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائفة مختارة! روى أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلا كحبة رمل من بين جميع رمال الدنيا وأن محمداً أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً. ثم أخبر تعالى عن كمال شريعة نبيه في دنياه وآخرته فقال ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي غير منقطع بل هو دائم عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير، ولما اجتمع فيه ﷺ من صفات الكمال ما لا يحيط به جد ولا يحصره عد، أثنى الله تعالى عليه بما منحه فقال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، قال الحرالي: ولما كان عرفان قلبه عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل كما قال: «بربي عرفت كل شيء» كانت أخلاقه أعظم خلق، فكَذلك بعثه الله إلى الناس كلهم ولم يقصر رسالته على الإنس حتى عمّت الجن ولم يقصرها على الثقلين حتى عمّت جميع العالمين، فكل من كان الله ربه فمحمد رسوله، فكما أن الربوبية تعم العالمين فالخلق المحمدي يشمل جميع العالمين. وقال صاحب عوارف المعارف: ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» فيه رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلفاً بأخلاق الله تعالى فعبرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترراً للحال بلطيف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها. اهـ. قال بعض العارفين: لما علمنا أن خلق

سيدنا النبي ﷺ القرآن، والقرآن لا تنقضي عجائبه... علمنا أن خلقه ﷻ وكمالاته لا تنقضي ولا تعد ولا تحصر. ولما نفى سبحانه عن رسوله ﷺ ما قالوه مما تواقحوا به ذيل السورة. مُحسّن رد العجز على الصدر فقال ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ أي من شدة عداوتهم وحسدتهم وغيظ قلوبهم يوجدون لك التنحية عما أنت فيه حتى يرموك من قامتك إلى الأرض كما يزلق الإنسان فينطرح لما يترأى في عيونهم حين تصويب النظر من شديد الحقد والحنق الدال على ما تُكنه صدورهم بعد سماع هذا الحديث، وإذا كانت الآية قد نزلت في كفرة قريش فإن كفرة أهل الكتاب أولى بهذا الوصف وأحق به. وقد أردف بإدماج ما يفيد الرد عليهم بأنه ذكر للعالمين وليس بكلام المجانين.

﴿وحاجه قومه قال أتحتاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾ في هذا الاستدراك "إلا أن يشاء ربي شيئاً" زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنه يخشى ربه المستحق للخشية وهذا مقام أدب مع الله تعالى وتفويض أمره إليه فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولهذا كان ﷻ أشد الناس خوفاً من ربه تعالى وأعظمهم له مهابة وإجلالاً وكذلك كان أصحابه الأطهار وأتباعهم الأبرار، ولما خوّفه قومه بما لدى شركائهم من الوسائل والإمكانات أجابهم بقوله ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ وفيه من الانقطاع إلى الله ما لا يخفى كما يُفصح عن تقرير ربوبية الله تعالى وكبريائه وبيان سعة علمه ومُلْكِهِ وشمول سلطانه، واستعبر فعل "وسع" لمعنى الإحاطة التامة وفيه إبطال لما أوهمه به قومه من علمهم وسيطرتهم على البشر. ولما أورد عليهم الحجة المذكورة في توحيد الربوبية

أوردوا عليه أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد وأخرى بالتخويف والتهديد من بطش آهتهم! وما أشبه الليلة بالبارحة...

جاء في المادة 23 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

يتألف مجلس الأمن من خمسة عشر عضواً من الأمم المتحدة وتكون جمهورية الصين وفرنسا واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية أعضاء دائمين فيه وتنتخب الجمعية العامة عشرة أعضاء آخرين من الأمم المتحدة ليكونوا أعضاء غير دائمين في المجلس...

وجاء في الفقرة الثانية من المادة 47 ما يلي:

تشكل لجنة أركان الحرب من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن أو من يقوم مقامهم، وعلى اللجنة أن تدعوا أي عضو في (الأمم المتحدة) من الأعضاء غير الممثلين فيها بصفة دائمة للإشراف على عملها إذا اقتضى حسن قيام اللجنة بمسؤوليتها أن يساهم هذا العضو في عملها.

(وإذا رءا الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أي: في ساحة الحشر يعترف الذين أشركوا من بني إسرائيل بشركائهم ويقولون في إقرار وخضوع (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) وقد حملهم على الاعتراف بإشراكهم ما يشاهدون من فظاعة العذاب! فيفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ويكذبونهم في إثبات هذه الشركة (فألقوا إليهم القول إنكم

لكاذبون) ويتجهون إلى الله مستسلمين (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) وإذا بالحفاة العراة لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وينتهي الموقف بتقرير مضاعفة العذاب لبني إسرائيل الذين حملوا البشرية على الشرك العظيم.

(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) هذه الصيغة في سؤالها التهكمي وهذا الاحتجاج وأساليبه البلاغية العجيبة في كشف إشراكهم بالله صادح بأنه ليس من كلام الخلق، وآية نفس لا ترتعد لهذا الأسلوب الذي يشخص الرقابة والسيطرة ويشخص العلم بخطرات النفس في صورة حسية ترتعد لها الفرائص؟ أفمن هو قائم رقيب على كل نفس بما عملت لا تفلت منه ولا تروغ، كمن ليس كذلك من الشركاء؟ والعرب لا تحذف شيئاً من الكلام إلا أبقّت دليلاً على المراد منه، والحذف في الكلام مع الدلالة على المراد أبلغ، وللعلماء في تصوير نظم الآية محامل مختلفة، ومرجع المتجه منها إلى أن في النظم حذفاً يدل عليه ما هو مذكور فيه أو يدل عليه المقام، والوجه في بيان النظم أن التفريع على قوله (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) وهذا الوجه لا ترهقه غيرة الإشكال ولا يعسر معه المنال، ويجوز أن يكون الكلام تفريعاً على قوله (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو) أي أن كفروهم بالرحمن الذي أشهدهم ربوبيته في ذاتهم وذراتهم وذرياتهم وإيمانك بأنه ربك المقصورة عليه الربوبية إله واحد يتفرع على مجموع ذلك استفهامهم استفهام إنكار عليهم تسويتهم من هو قائم على كل نفس بمن جعلوهم له

شركاء أي كيف يشركونهم وهم ليسوا سواء مع الله، ويجوز أن يكون الكلام تفريراً على الاستفهام المتقدم في قوله **(ولقد استهزئ برسل من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب)** وقد استهزأ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات برسلهم فانتقمنا منهم وعاد إليهم وبال نفاقهم وكيدهم، وفي وضع الاسم الجليل **(وجعلوا لله شركاء)** موضع المضمّر الراجع إلى "من" تنصيب على وحدانيته تعالى ذاتاً واسماً وتنبية على اختصاصه باستحقاق الحكم مع ما فيه من البيان بعد الإبهام، والعدول عن اسم الجلالة إلى الموصول تفخيم فخيم بواسطة الإبهام المضمّر في إirاده موصولاً مع تحقيق أن القيام كائن، كما أن في الصلة دليلاً على انتفاء المساواة وتخطئة للمشركين في تشريك آلهتهم لله سبحانه ودليلاً على غباوتهم إذ هم مقرون بأن الله خلقهم، وإقرارهم هو أصل إقامة الدليل عليهم، والقائم هو العليم بحال كل شيء لأن تمام القيومية يتوقف على إحاطة العلم، وعُدي بحرف **(على)** المفيد للاستعلاء المجازي لتضمنه معنى الرقيب، والمشركون لا ينكرون انفراد الله بهذا القيام، ومن أجل ذلك لزمتهم الحجة، ولما كان الكلام كافياً في هدم قاعدة الإشراك للتفرع السابق والتحقق بالوصف اللاحق مع ما ضمن من زيادات النكت وكان إبطالاً من طرف الحق وذيل باطاله من طرف النقيض على معنى وليتهم إذا أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به أشركوا من يتوهم فيه أدنى توهم وروعي فيه أنه لا أسماء للشركاء فضلاً عن المسمى على الكناية الإيمائية ثم بولغ فيه بأنه لا يستأهل السؤال عن حال شركائهم وسلك فيه مسلك الكناية التلويحية من نفي العلم بنفي المعلوم ثم منه بعدم الاستئصال، والهمزة المضمنة فيها تدل على التوبيخ وتقرير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السر والخفيات بما لا يعلمه

وهذا محال على محال، وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحته طائل حق لمن تأمل فيه حق التأمل أن يعترف بأنه كلام مصون عن العمل صادر عن خالق القوى والقدر تتضاءل عن بلوغ طرف من أسرارهِ إلهام البشر. والأمر في قوله **(قل سمّوهم)** مستعمل في معنى التحقير كناية عن قلة المبالاة بادعائهم أنهم شركاء أي اذكروا أسماءهم الحقيقية المعبرة عن حقيقتهم فإنهم عبيد لا أرباب ولكن أنتم سميتموهم شركاء كذباً وافتراء كما قال سبحانه **(إن هي - أي ما المذكورات - إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم)** وهذا إفحام لهم وتسفيه لأحلامهم بأنهم أشركوا ما لا يخلق شيئاً مع الله الذي خلق كل شيء، ولعل توجيه الوضع المذكور تبكيت إثر تبكيت أي سمّوهم من هم وماذا أسماؤهم؟ أو بينوا شركاءكم بأسمائهم وصفوهم بصفاتهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به الشركة؟ يشير إلى أن الأسماء مأخذها من الصفات فإن لم تروا منهم شيئاً من صفات الله فكيف تسموهم؟ ثم أضرب عن ذلك باستفهام توبيخي ساخر **(أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض)** أي أم تنبئون الله وهو عالم بما في السماوات وما في الأرض وعالم بكل شيء وهو لا يعلم في الأرض ما تقولون من الآلهة وما تصفونه بالشركاء؟! وذكر نفي العلم في الأرض لأنها مقر شركائهم، ثم أردف باستفهام تهكمي آخر وتقريع مبطن **(أم بظاهر من القول)** أي أتسموهم شركاء بظاهر من الكلام من غير أن يكون له حقيقة؟ كقوله **(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها)** وهذا الاحتجاج من أعاجيب الأساليب التي اختص بها القرآن الكريم المعجز ما ينادي بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر فله در شأن التنزيل! وحاصل الآية نفي الدليل العقلي والدليل السمعي على حقية اتخاذ شركاء، ولما كان التقدير: ليس على شيء من ذلك برهان

قاطع ولا دليل ظاهر؛ بنى عليه قوله ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ أي مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله، وهذا يُقارنه مكر الله بهم وهو سبحانه شديد المماكرة كما جاء في التنزيل العزيز ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد كيده ومكره في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره ومكر في دينه وكاد في إبطال أمره وإطفاء نوره ﴿ويعمرون ويمكر الله﴾ ﴿إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا﴾ وإطلاق المكر والكيد على استدراج الله إياهم استعارة تمثيلية لاستتصالحهم وحسنتها المشاكلة لأن المشاكلة لا تعدو أن تكون استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار. والعطف على جملة المكر بقوله ﴿وصدوا عن السبيل﴾ من المكر الذي حاق بهم، وفاعل الصد: الله تعالى بحتمه على قلوبهم أو الشيطان بإغوائه لهم، وقرئ ﴿وصدوا﴾ بفتح الصاد كما قال سبحانه ﴿ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا﴾ وسبيل الله: الإسلام، فالقراءة الأولى باعتبار كونهم مفعولين، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ، وناسب ذلك تذييل الآية بقوله ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ ثم لما قيل: فماذا لهم على ما فعلوا من ذلك؟ قيل ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق﴾.

﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر تعززه بالأموال والأنصار وإنكارهم البعث والقيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب وأورد قصة إبليس وتكبره على آدم وترفعه عليه وأنكر على الظالمين في أسلوب الخطاب اتخذهم إبليس وذريته أولياء من دون الله تعالى وأقام البرهان القاطع على بعد ربتهم عن المنزلة التي أحلوهم بها من الشرك أتبعه التعريف بأنهم مع عدم نفعهم لهم في الدنيا يتخلون عنهم في الآخرة أحوج ما يكونون

إليهم فينادي أهل الكتاب ويقول لهم: أين شركائي الذي زعمتم؟ لعلهم سبحانه أن إبليس هو الذي حملهم على الشرك ولذا قدم قصته إتماماً لذلك الغرض أي يقول تعالى لخلفاء الأرض الذين أشركوا به: نادُوا شركائي أي على وجه الاستغاثة بهم ليمنعوكم مني من عذابي! وقرئ بنون العظمة **(نقول)** والمراد من النداء: طلب النصر - والله أعلم - وأمره إياهم بمناداة شركائهم مستعمل في بطلان النصر بقرينة فعل الزعم ولذلك لم يسعهم إلا أن ينادوهم حيث قال **(فدعوهم)** لطمعهم في نصرهم فإذا نادوهم تبين لهم خذلانهم، ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب وأتى به في صيغة الماضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذٍ حتى كأنه قد انقضى، وقوله **(وجعلنا بينهم موبقاً)** أي حاجزاً حائلاً وذلك عند مجيء أمر الله في الموعد المحدد في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد إذ ينادي بنو إسرائيل شركاءهم الذين كانوا يتناصرون بهم في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات المدهمة فيجعل الله فيما بين مكائهم ومكان شركائهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء. وفي قوله "نادوا شركائي الذين زعمتم" تبكيت لهم والباءسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم "فدعوهم فلم يستجيبوا لهم" ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين فإذا دعوهم لم ينصروهم ولم ينجدوهم وحصل بذلك تشخيص حيلتهم ويأسهم من النجاة.

إني كفرت بما أشركتمون من قبل

(وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل

إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ الكلام مُرتب على الحوار السابق بين الضعفاء وسادتهم ﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ وذلك بعد ذكر قصة بني إسرائيل مع فرعون وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم الغابرة حيث أفضى إلى نطق الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم! والمقصود من وصف هذا الموقف والله أعلم إثارة بغض الشيطان في نفوس المشركين ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأن هذا الخطاب مليء بإضماره الشرّ لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيدهم لهم وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله وذلك أصل عظيم في الموعظة. وقوله ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ بيان لجملة النهي عن لومه لأن لومه فيه تعريض بأنهم يتطلبون منه حيلة لنجاتهم، فنفى ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه، ووقع كلام الشيطان من نفوس المشركين هو موقع الحسرة زيادة في عذاب النفس، والمراد من قول الشيطان ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ أي الوعد الذي وعده الله تعالى في الآخرة بالعذاب الخالد للمشركين والفوز بالجنة للمؤمنين، وفي الدنيا بهزيمة الباطل وزوال دولة المبطلين ونصر عباده المؤمنين، والله أعلم. وفي قوله ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ تصريح بتنصّل الشيطان من تبعات إشراكهم إياه قصد منه إظهار حقيقة العلاقة بينه وبينهم كما حكى تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ وقد عبّر عنهم بـ«**قرن الشيطان**» صاحب الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله... وقوله "كفرت بما أشركتمون" أي كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في تدبير هذا العالم! وفي الآيات تحتشد معان وإحاءات وقواعد

وتوجيهات تحرض على قتال أهل الفواحش والمقابح والضلالات وتشير إلى صراع أزلي بين أبناء إسماعيل وإسحاق حول البلد الحرام وتشخص مواقف من المعركة تشخيصاً فريداً كأنها حية واقعة... روى ابن جرير وابن المنذر عن عامر الشعبي في هذه الآية "ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل" قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس وعيسى ابن مريم فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول وأما عيسى عليه السلام فيقول "ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد".

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ اعلم أنه سبحانه لما عظم وحيه إلى أكرم خلقه بقوله ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ أتبعه ببيان كون ما اختلفوا فيه فحكمه إليه عز وجل ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب، فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير، له مقاليد السماوات والأرض ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ فأوضح على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة، وذلك أن الدين الذي شرعه الله هو ما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار وهو دين الإسلام المشتمل على توحيده تعالى في الحكم والعبادة، والتوصية في قوله ﴿ما وصى﴾ ﴿وما وصينا﴾ معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن الأمور به. والاقتصار على ذكر

دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى الناس، ودين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب فهو أشهر الأديان بين العرب، ودين موسى وعيسى دعوة للعرب من بني إسرائيل إلى دين الإسلام، فما شرعه الله لهم هو في عمومته ما وصى به نوحاً وإبراهيم، وهو أن يقيموا حكم الله وسلطانه ولا يتفرقوا فيه، وتعقيب ذكر دين نوح بما أُوحي إلى محمد عليهما السلام للإشارة إلى أن سيدنا محمداً ﷺ هو الخاتم، فكأن الله قال: شرع لكم دين الإسلام الذي بعث به أول الرسل وبعث به خاتم الرسل وبعث به من توسط بينهما وهذا نسج بديع من نظم الكلام، وأما آية الأحزاب فقد تقدم فيها ذكر النبي ﷺ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وذلك لبيان أفضليته لأن المقام لسرد من أخذ عليهم الميثاق، ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته وبذلك أخذ الله عليهم الميثاق. وإيثار الموحى به إلى النبي ﷺ باسم الموصول ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ للتنويه بشأن القرآن الذي عبّر عنه بقوله ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ليقع الاتصال بينه وبين قوله في صدر السورة ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وهذا من نكت الإعجاز المغفول عنها، والمقصود بإقامة الدين - والله أعلم - توطيد نظام الإسلام وتمكينه في الأرض، وفيه تعريض بالذين ييغونه عوجاً. وفي الحديث عند الترمذي: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ» ويعني بـ(الأمر) الدين الذي بُعث به وهو الإسلام. وعبّر عن دعوة الإسلام بـ﴿مَام﴾ الموصولة اعتباراً بتبرم أهل الكتاب ونكراهم لهذه الدعوة واستغرابهم إياها وعدّهم إياها من المحال الغريب! لقد

خانوا الوصية وكبر عليهم ترك الشرك الذي تقوم عليه مصالحهم السلطوية والاقتصادية، فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم كما كبر عليهم أن يقال: إن آباءهم ماتوا على شركٍ وضلالة وجاهلية فتشبثوا بالحماقة وأخذتهم العزة بالإثم واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم، ثم بيّن تعالى افتراقهم بقوله **(وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب)** أي وما تفرق قوم الرسل المذكورين في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدين أي أنهم تفرقوا عالمين بضلال وفساد التفرق غير معذورين بالجهل بأن الفرقة أمر متوعد عليه، وذكر سبب تفرقهم بقوله **(بغيا بينهم)** أي طلباً للدنيا والرياسة على أن البغي مصدر بغي بمعنى طلب وفيه تعريض بهم في إغراضهم عن دين الإسلام لعداوتهم للمؤمنين وقوله **(ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم)** هي عدته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب إلى أجل معلوم له سبحانه وهو أجل بقائهم وما قدره الله وأراده من إمهالهم "القضي بينهم" باستئصال المبطلين فالكلمة هنا مستعارة للإرادة والتقدير وسبقها تقدمها من قبل وقت تفرقهم وذلك سبق علم الله بها وإرادته إياها على وقف علمه وقدره، ثم حكى سبحانه استمرار هذا الشك بين أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وأخلافهم الحاضرين **(وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب)** أي كما تفرق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبي تفرق خلفهم مثلهم وزادوا تفرقاً ناشئاً عن التردد والشك فيما جاء به القرآن المهيم على كتبهم لكنهم لم يعذروا في شكهم لما تركوا النظر والتفكير في ذلك ولو نظروا في ذلك

وتفكروا فيه لوقع ذلك لهم وبان الحق فلم يعذروا في ذلك لأنه منهم كان ذلك الشك والريب ولو تفكروا ونظروا لتجلى لهم، وهذه الآية كمعنى قوله سبحانه ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يجتمعوا على تصديقه ويلزموا الثبات عليه ليعلمهم به فلما جاءهم ما عرفوا كان أمرهم على العكس، فقلوه ﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾ دليل على عنادهم وإصرارهم على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان، كقلوه ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ وإنما جعل العقاب مترتباً على التبديل الواقع بعد هذا التمكن للدلالة على أنه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أو غلط، ولا يكون تبديلها إلا لقصد مخالفتها، وإلا لكان تأييداً وتفسيراً وتأويلاً. وتأكيده الخبر بـ"إن" في قوله ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ للاهتمام وهذا الاهتمام كناية عن التحريض للحذر من مكرهم وعدم الركون إليهم لظهور عداوتهم لثلاثي يركن المؤمنون إليهم ولعل أهل الكتاب قد أخذوا يومئذ في تشكيك المسلمين واختلطوا بهم في مكة ليتطلعوا حال الدعوة الحمديّة كما ذكر صاحب التحرير والتنوير وهذا هو الوجه في تفسير الآية - والله أعلم - وهو الذي يلتئم مع ما قبله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك﴾ ومع ما بعده ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾ والفاء في قوله ﴿فلذلك﴾ للتفريع على قوله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ المفسّر بقوله ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ المخلّل بقوله ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ واللام للتعليل، والإشارة بـ(ذلك) إلى المذكور أي جميع ما تقدم من الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه وتلقي المشركين للدعوة بالتجهم

والشك، أي فلأجل جميع ما ذكر من التفرق وما حدث بسببه من تشعب الكفر فادع إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها، وفعل الأمر مستعمل في الدوام على الدعوة بقرينة قوله **(كما أمرت)** وفي هذا إبطال لجدهم ومحاجتهم في الله من بعد ما استجيب له، وقوله **(ولا تتبع أهواءهم)** بعد قوله **(فادع واستقم كما أمرت)** أمرٌ بمخالفتهم، والاتباع يطلق مجازاً على المجارة والموافقة وعلى المحاكاة والمماثلة في العمل، وقوله **(وأمرت لأعدل بينكم)** أي: أمرت لأحكم بينكم بالكتاب الذي أنزله الله، كما أشار موقع الجملة بين قوله **(وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب)** وبين قوله **(الله الذي أنزل الكتاب بالحق)** وفي هذا الحكم إعجاز بالغيب يدل على أنه ﷺ سيكون له النصر على أهل الكتاب، وجملة **(الله ربنا وربكم)** مقررة لمضمون دين الإسلام ولمضمون الكتاب، ولما احتج عليهم بما يثبت الربوبية ويحققها؛ أنتج عنه قوله **(لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)** ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى **(قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم)** ومفاد ذلك: إظهار المشاركة والمحاجة والبراءة التامة وتحقيق الغيرية المذكورة في خاتمة الفاتحة **(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)** وبعد ظهور هذه البينات لم يبق إلا المجادلة بالسيوف وإدارة كؤوس الختوف وهو معنى قوله **(لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير)** ولما كان التقدير: فالذين رجعوا إليه طوعاً في هذه الدار بعد هذا البيان والإظهار وتركوا الجدال حجتهم ثابتة ولهم الرضا والنعيم المقيم، عطف عليه قوله مبتدئاً بالموصول ليصله بما يفهم التجدد والاستمرار **(والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد)** قال ابن عباس ومجاهد: إن الآية نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت

برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله وقال: هم أهل الضلالة كان استحيب لهم على ضلالتهم وهم يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية. وها هم اليوم يخاصمون في توحيد الله بالإبطال والإلحاد من بعد ما استجاب الناس لربهم وأدعوا له وشهدوا له بالوحدانية ليردّوهم إلى دين البابوية، فمعنى محاجتهم في الله محاجتهم في دين الله أي إدخالهم على الناس الشك في صحة دين الإسلام وما يلبسوه به عليهم بسبب الشبهات التي يوردونها لإدخال الشك عليهم في اتباع الإسلام كتحرif معنى التوحيد والشرك والبدعة وتستترهم بالدعوة السلفية!!! وإطلاق اسم الحجة على شبهاتهم مجارة لهم بطريق التهكم، والقرينة قوله **(داحضة عند ربهم)** أي زاهقة باطلة عند من يحجهم بالوحدانية ويبيّن ما نزل من القرآن من الأدلة على نفاقهم وكذبهم وكفرهم وإشراكهم وأنهم من أهل التشبيه والتجسيم، وفي الآية محاجة لهم في بطلان دينهم وتزييف عقيدتهم وإبطال فتاوى كهّانهم وعرفائهم.

(قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) لما ذكر الحق ما كان من المفاصلة بين موسى وفرعون وإغراق هذا الأخير ثم ذكر قصة قوم يونس لما آمنوا وتركوا الشرك والشركاء أردف ذلك بإخبار أئمة الكفر والنفاق ومن تبعهم أنهم إن استمروا على الشك فيما جاء به ﷺ فإنه ثابت على ما جاء به وأن دلائل صحة دينه بينة للناظرين وأنه ﷺ على يقين من فساد دينهم فلا يتبعه ولا يعبد الذين يعبدونهم ولكن يعبد الله، وإن شئتَ قلت: إن كنتم في

شك من معرفة هذا الدين فخلاصته المتاركة والمزايلة والمباعدة والمخالفة والمفارقة والبراءة منكم فلا تقارب ولا إدهان فاقطعوا عني أطماعكم واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكني أعبد الله مخلصاً له الدين، فيكون في معنى قوله تعالى "قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين" ويؤكد قوله بعده **(وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** وتقديم ترك عبادة غير الله تعالى على عبادته سبحانه لتقدم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد والإيذان بالمخالفة من أول الأمر، وتخصيص التوفي من بين سائر صفات الأفعال بالذكر متعلقاً بهم تعريضاً بتذكيرهم وتخويفهم فإنه لا شيء أشد عليهم من الموت وفي هذا الوصف مع ما فيه من الترهيب إشارة إلى الدلالة على الإبداء والإعادة وهو من أمهات أصول الدين فكأنه قيل: الذي أوجدكم من عدم كما أنتم به مقرون بعدمكم بعد هذا الإيجاد وأنتم صاغرون فثبت قطعاً أنه قادر على إعادتكم بعد هذا الإعدام بطريق الأولى فاحذروه لتعبدوه كما أعبدته فإنه قد أمرني بذلك وأنتم تعرفون غائلة الملك إذا خولف، ولما قرر ذلك على هذا المنوال البديع أتبعه بقوله "وأمرت أن أكون من المؤمنين" وأريد بالمؤمنين عقائب هذا اللقب الذين آمنوا بالله وبرسوله ﷺ وبالقرآن والبعث فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتصفوا بالإسلام ولذلك لا يُقدَّر للمؤمنين متعلق وفي جعل النبي ﷺ من جملة المؤمنين تشريف لأمته وتنويه بها.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) اعلم أن الله تعالى لما ذكر ما شرع من الدين

مما وصى به جميع النبيين فبانت أصوله واتضحت فصوله وختم بالكتاب الإلهي
 والميزان الحمدي أردفه بالإنكار على أئمة الكفر وقادة الضلال في صيغة استفهام
 تقريري تهكمي... والشركاء في هذه الآية قسمان: الأول: شركاء الجن والضمير
 في شرعوا للشياطين أي شرع شياطين الجن لأوليائهم ما لم يرض به الله،
 والثاني: شركاء الإنس ويكون الضمير في شرعوا لأئمة الكفر أي شرعوا
 لشركائهم من الإنس ما لم يرض به الله، ومعنى شرعوا: أي أثبتوا وهجوا
 ووضعوا أوضاعاً ورسوموا أحكاماً وسنوا أدياناً وشرائع وعقائد وعوائد ومواثيق
 لم يأمر بها الله تعالى. والكلام في الآية متصل بقوله ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾
 ثم تسلسل الكلام إلى قوله ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ
 يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ والناصر: الذي يكون واسطة دفع ضر عن غيره،
 وهذا تصريح بنفي نصره أوليائهم من الجن والإنس وهو أوكد في التخليط. ولما
 شرح الحق تعالى الفصل بين الفريقين وكان الرسول الآتي بذلك أجل الأنبياء
 قدراً، وأعظم الرسل شرفاً وفخراً، أعلى ببركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة،
 ورفع من انطوى عليه نصره وصحة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة
 جملة أهل بيته المعظم وذريته، وأنزل الآيات القرآنية بتعظيم العترة النبوية وأمر
 الظالمين الذين ابتدعوا ديناً محدثاً يشاقون فيه رب البرية ومنهاجاً معادياً للأئمة
 الحمديّة بالسير على منهاج القراية الأحمدية فقال رب البرية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ
 شَاءِ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ واتخاذ السبيل إلى الله هي المودة في القربى التي
 تقربكم عند الله زلفى فذكر الوصاة بأهل البيت واحترامهم وإكرامهم إذ هم
 من ذرية أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً وأعظمهم

اتباعاً للسنة الصحيحة كما كان عليه سلفهم رضي الله عنهم ونفعنا بمحبتهم فمن تمسك بهم نجا من الفتن المضلة وقد روى الإمام الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» قال العلامة علي القاري في مرقاة المفاتيح: الأظهر هو أن أهل البيت غالباً يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحكمه وحكمته، ولهذا يصلح أن يكونوا مقابلاً لكتاب الله سبحانه كما قال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) ويؤيده ما أخرجه أحمد في المناقب عن حميد بن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ ذكر عنده قضاء قضى به علي بن أبي طالب فأعجبه وقال: «الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت» اهـ. والعرة النبوية هم المعنيون ابتداءً بجهاد الأمة الإسرائيلية كما قال ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال: فتناولنا لها، فقال: «ادعوا لي علياً» فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفعت الراية إليه ففتح الله عليه. وروى الطبري في ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى عن سيدنا عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «في كل خلف من أمي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا بمن تفيدون» وذلك أن أهل البيت أشد الناس اقتداءً بالنبي ﷺ واتباعاً وامثالاً لأمره وانظر ما قاله السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه: لو بلغنا أن رسول الله ﷺ أمرنا بقص الأعناق لقصصناها اتباعاً وامثالاً لأمره ﷺ وقال لولد بنته القطب المقرب أبي إسحاق السيد إبراهيم الأعزب الرفاعي: ما أخذ جدك طريقاً لله إلا

اتباع رسول الله ﷺ فإن من صحت صحبته مع سر رسول الله ﷺ اتبع آدابه وأخلاقه وشريعته وسنته ومن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين. اهـ. ومعنى التمسك بهم: محبتهم والاهتداء بهديهم وسيرتهم ومحافظة حرمتهم والسير على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتراء بهم والعمل بروايتهم والاعتماد على مقالتهم وأورادهم... ولا تزال طائفة منهم في كل عصر ظاهرين إلى قيام الساعة، قدس الله مراقدهم ونفعنا بأنوارهم ورزقنا من مددهم وأعاد علينا من بركتهم وسلك بنا مسالك طريقتهم. آمين. وقد نصت الآيات والأحاديث على شرف الآل وخصوصيتهم الشرعية ووجوب محبتهم وتقديمهم وهو ما ثبت أهليتهم الشرعية للإمامة وهي فهم يؤتاه أحدهم في كتاب الله وسنة نبيه يجمع الله به أمر المسلمين ويصلح به أمر الدنيا والدين.

(ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) لما ذكر تعالى جزاء الذي كسبوا السيئات وهي سيئة الإشرار وما أصابهم من الذلة والعذاب الخالد أردف بذكر حالهم مع شركائهم من الروم والفرس إذ يقفون موقفهم في الدنيا فيطلبون منهم النصرة فيفرق تعالى بينهم وبين شركائهم ويقطع ما كان بينهم في الدنيا وذلك يدل على نهاية الخزي والنكال في حق المستخلفين... ثم يقول الشركاء لأئمة الشرك: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين لا نشعر ولا نعلم بها وقد صدقوا في ذلك لأن من أعظم أسباب الغفلة الجهل، وقد أثبت تعالى أن هؤلاء الشركاء ضعاف مهازيل يطلبون البراءة من إثم ملوكهم ويجعلون الله وحده شهيداً (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) ويطلبون النجاة من جريمة

غفلوا عنها، وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع وما عداه باطل، وهنالك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم وأهتتهم فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وهكذا يتجلى المشهد الحي في ساحة الحشر بكل حقائقه ووقائعه ومؤثراته واستجاباته... هذه هي قصة الشفعاء والشركاء تعرضها تلك الكلمات القلائل فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد ولا براهين الجدل الطويل ولا خداع المخادعين في رسائل التوحيد!!! ومن جولة الحشر الذي تسقط فيه الدعاوى والأباطيل، يتجلى فيه أن المولى سبحانه هو الله المهيمن على الموقف وما فيه. والآيات التالية تصور حالة المشركين في الجحيم مع شركائهم من الجن والإنس كأنها واقعة وكأنما تشهدها الأبصار حين تتلى وتتملاها المشاعر وتهتز بها الوجدانات (وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ، فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ، قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نَسْوِيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) والغاؤون في الموضع الأول: الأئمة المضلون الأشقياء المستهزئون، وفي الموضع الثاني: شياطينهم، والمعنى أن النار أظهرت لأئمة الكفر والضلال وقيل لهم تبكيتاً وتوبيخاً: أين شركاؤكم من دون الله هل يدفعون عنكم أو عن أنفسهم؟ فدهوروا فيها هم وشياطينهم الغاؤون وجنود إبليس أجمعون! قال قتادة: الغاؤون في هذا الموضع: الشياطين. ويحتمل أن يكون الغاؤون: شياطين الإنس والجن، وجنود إبليس: سائر أتباعهم من الكفار، والله أعلم وأحكم. والاستفهام استفهام تهكمي توبيخي عن تعيين نصره الأمم

المتحدة بجنها وإنسها في ذلك الموقف تنزيلاً لعدم جدواها منزلةً العدم فيما كانوا يأملونه منها توبيخاً وتوقيفاً على الخطأ. والمراد من قوله ﴿فما لنا من شافعين﴾ نفي شفاعة الملائكة والنبين التي يشتها أهل الكتاب لأنفسهم - والله أعلم - كما حكى تعالى ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ فإن الشفيع لا يمكنه أن يشفع إلا بإذن الله كما قال تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ولفظة الصديق في الآية ﴿ولا صديق حميم﴾ تقتضي شدة مساهمة ونصرة إذ كان لهم في الدنيا أصدقاء وشركاء - يوادونهم ويحبونهم كحب الله - من الإنس والجن ويصحح هذا قوله عز وجل ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي ما لهم من حميم ينصر ويحارب ولا شفيع يشفع ويحارب، وأتبع شفيع بوصف يطاع لتلازمهما عرفاً فهو من إيراد نفي الصفة اللازمة للموصوف والمقصود نفي الموصوف بضرب من الكناية التلميحية كقول ابن أحرر: ولا ترى الضب بها ينحجر أي لا ضب فيها فينحجر وذلك يفيد مفاد التأكيد والمعنى أن الشفيع إذا لم يطع فليس بشفيع والله لا يجترئ أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا من يطاع. ولما كانوا يقولون "نحن أبناء الله وأحباؤه" كذبهم الله تعالى وقال في آية أخرى ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي ما لكم من دونه من ولي ينصر ويدفع ولا شفيع يشفع وينفع، وقد أفادت الآية أن كل ما سواه سبحانه ملك له وأن حكمه في الكل جار ليس لغيره في شيء من الأشياء حكم إلا بإذنه وأمره كما في آية الكرسي ﴿له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ومعنى قوله ﴿قلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ أي أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها؟ وما هو إلا التمني...

(ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) لما أرشد المقام إلى نفي الولدية من الملائكة والنبين أردفه ببيان أنهم لا يشفعون إلا لمن شهد بوحدانية الله تعالى لا يشفعون لمن ادّعى الولدية إنما يشفعون لمن ذكر وإن كانت لهم خصوصية عند الله تعالى لأن الله عز وجل نهي أولئك أن يعبدوا الملائكة والنبين لذلك لا يملكون الشفاعة لهم، وقيل: استثنى ممن عبد من دون الله النبين والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة بأن يملكها الله إياهم إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمونه في أحوالهم فلاستثناء على هذا متصل، وإن قلنا: لا يشفع الملائكة والنبين إلا فيمن شهد بالتوحيد وهو يعلمه فلاستثناء على هذا منفصل كأنه قال: لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون الاستثناء متصلاً لأنه يكون المستثنى منه محذوفاً كأنه قال: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق فهو استثناء من المفعول المحذوف، وإن جعلناه مستثنى من الذين يدعون فيكون منفصلاً والمعنى: ولا يملك آلهتهم في الحكم - أي إبليس وجنوده - الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاءهم عند الله ولكن من شهد بالوحدانية وهو يعلم ما شهد به هو الذي يملك الشفاعة، وإن أدرجنا الملائكة والنبين في الذين يدعون كان استثناء متصلاً، ويحتمل أن يكون المعنى: ولا يملك الأرباب المعبودون من دون الله الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم الملائكة والنبين فلهم الشفاعة في المؤمنين لا في الكفار وهم يشهدون بالحق بالوحدانية لله وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به، قال الإمام الرازي في قوله "وهم يعلمون" هذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع البتة بهذه الآية فقالوا بين الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم، والعلم عبارة

عن اليقين الذي لو شكك صاحبه فيه لم يتشكك وهذا لم يحصل إلا عند الدليل فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع البتة. اهـ. والشفيع إما أن يكون ذا جاه أو يكون ناصراً ألا ترى إلى قول صاحب يس ﴿اتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ والخلاصة أن الشفاعة معطاة لمن اتخذ عند الله عهداً ومقبولة لديه عز وجل في كل من شهد بالتوحيد ويصحح هذا قوله تعالى ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ والاستثناء هنا منقطع أي لكن يملك الشفاعة يومئذ من اتخذ عند الرحمن عهداً وهو التوحيد والإسلام بخلاف المجرمين من أهل الكتاب فإنهم أظهروا التوحيد بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم وأعمالهم إذ اعتقادهم خلاف ما يقولون وأفعالهم نقيض ما يُظهرون. قال صاحب لطائف الإشارات في تفسير الآية "ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون" أي شهد اليوم بالتوحيد فثبت له الحق حق الشفاعة وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة. والأمة المحمدية أمة مرحومة خصها المولى سبحانه بشفاعة الشفيع المعظم ﷺ على نحو ما ورد في الحديث المتقدم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهداً وهو التوحيد والإسلام. وفي الحديث عند ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «أُتَدْرُونَ مَا خَيْرُنِي رَبِّي اللَّيْلَةَ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة» قلنا: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها، قال: «هي لكل مسلم» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أما

ترى الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لست هناك ويذكر لهم خطيئته التي أصابها ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك ويذكر خطيئته التي أصاب ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناك ويذكر لهم خطاياهم التي أصابها ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه تكليماً فيأتون موسى فيقول: لست هناك ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول: لست هناك ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فأنتطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي: ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود، قال النبي ﷺ: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة» قال الإمام القسطلاني: "إلا من حبسه

القرآن" فيها ممن أشرك "ووجب عليه الخلود" بنحو قوله فيه "خالدين فيها أبدا". اهـ. وهو قوله عز وجل ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ الْكَافِرَاتُ وَالْكَافِرَاتُ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ والعطف هنا من عطف الصفات بعضها على بعض كقولك: هذا فعلٌ الشحيح والبخيل واللئيم.

أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟

هذا الاستفهام التوبيخي التهكمي الساخر من المولى سبحانه ليهود ونصارى بني إسرائيل يُراد منه تسفيه أحلامهم لأنهم شاقوا الله سبحانه واتخذوا شركاء ينازعون فيهم حكمه تعالى، وخادعوا المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر! فالمولى سبحانه يواجههم يوم الحشر في تبكيت وتوبيخ وتشهير وتعجيب وهم في رعب وفزع وفي روع وهول وفي تضعضع وذهول ﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أين شياطين الجن؟ أين الأمم المتحدة؟ أين أمريكا؟ أين بريطانيا؟ أين فرنسا؟ أين روسيا؟ أين الصين؟ وفي هذا المشهد الشاخص يفعل الهول فعله! هنا يتعرى المشركون! هنا ينعدم وجود الشركاء فيشعرون أنه لم يكن شرك ولم يكن شركاء! لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع! هنا يذهب الخبث ويتلاشى الباطل الكاذب ويسقط الركाम! هنا غاب عنهم ما كانوا يفترونه فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء! هنا يتهاوى الحفاة العراة متحسرين يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف الذي انتهى بهم إلى هذا المصير! هنا يكون الندم والحسرة! لقد فات الأوان، فالיום للجزاء لا للعمل، واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان! هنا يسكت القوم من خزي لتنتلق ألسنة الذين أوتوا العلم وقد أذن الله لهم أن يكونوا في

هذا اليوم متكلمين ظاهرين! وللذين أوتوا العلم موقف آخر في الدنيا... قال الإمام البخاري في الجامع الصحيح: باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» يقاتلون وهم أهل العلم. حدثنا إسماعيل، حدثنا ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، أخبرني حميد، قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو: حتى يأتي أمر الله» قال الإمام التوربشتي رحمه الله: أشار النبي ﷺ بقوله: "وإنما أنا قاسم" إلى ما يلقي إليهم من العلم والحكمة، وبقوله: "والله يعطي" إلى الفهم الذي يهتدى به إلى خفيات العلوم في كلمات الكتاب والسنة وذلك أنه لما ذكر الفقه في الدين وما فيه من الخير أعلمهم أنه لم يفضل في قسمة ما أوحى إليه أحداً من أمته على آخر بل سوى في البلاغ وعدل في القسمة وإنما التفاوت في الفهم وهو واقع من طريق العطاء ولقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا الظاهر الجلي ويسمعه آخر منهم أو من القرن الذي يليهم أو ممن أتى بعدهم فيستنبط منه مسائل كثيرة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. اهـ. وفي الحديث عند الطبراني: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما هن الأقسام ويعطي الله، ولن تزال في هذه الأمة أمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» وفي رواية لمسلم في باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة».

قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟

(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً) روى الطبري عن سعد بن أبي وقاص قال: هم اليهود والنصارى. وفي رواية عن سيدنا علي بن أبي طالب قال: هم كفرة أهل الكتاب. وفي رواية أنه قال: أنتم يا أهل حروراء. أراد السادات الذين أنشؤوا أمر الخوارج وإلا فإن علياً عليه السلام لما سئل عن الأتباع قال: إخواننا بغوا علينا - والله تعالى أعلم - والمراد بالأخسرين أعمالاً: قادة النفاق وكان تظاهروهم بالإيمان ضرباً من التهكم والاستهزاء بالإسلام وأهله! ومعنى قوله (كفروا بآيات ربهم ولقائه) أي جحدوا وحجبوا الآيات الدالة على الربوبية وأنكروا البعث والقيامة كما في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه) أي من لقاء البعث والرجوع إلى الحياة بعد الموت فهو خطاب للنبي عليه السلام والمراد به من ينكر البعث كما قال صاحب الهداية. والمقول لهم: قادة الشرك والنفاق توبيخاً لهم وتنبيهاً على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم، وقد شبه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة! وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصاً على معرفة الموصوفين باتخاذهم الكتاب والسنة هزواً... وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلاء ثم تلقى حتفها إذ تنتفخ؛ وأصحابها يحسبونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار، وهو وصف بليغ ونظيره قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وفي هذا

دلالة على عظيم مكر الله هؤلاء المهازيل، إذ أبطل أعمالهم وجعل إيمانهم كلاً
إيمان، وإن كتبوا مئات الرسائل والفتاوى ليخادعوا المؤمنين... يقولون بألسنتهم:
أما بالله واليوم الآخر! وقلوبهم تقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين!
وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد حكى سبحانه في موضعين من
سورة بني إسرائيل قولهم في تعجب وإنكار واستبعاد ﴿وقالوا أنذا كنا عظاما
ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ وهذا القول صادر من أهل الكتاب - ويتلقفه
أتباعهم الذين أغووههم وأضلوههم - وفي سورة الواقعة لما ذكر تعالى إصرارهم
على الشرك ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ أردفه ببيان تكذيبهم بالبعث
والنشور ﴿وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون﴾ وأهل
الكتاب وإن كانوا يقرون بألسنتهم الإيمان بالبعث لكنهم لما لم يجروا على
موجب إقرارهم عملاً يوافقه وقلباً يصدقه نُزلوا منزلة المنكر للبعث، فكأنهم
جعلوا إقرارهم سبباً في تحصيل نقيضه! ثم ذكر تفضيع حالهم في جزائهم على ما
كانوا عليه من الترف في الدنيا بملء بطونهم بشجر الزقوم وشراب من حميم، ثم
زيد تفضيعاً بالتشبيه في قوله ﴿فشاربون شرب الهيم﴾ وهو البعير الذي أصابه داء
الهيام فلا يزال يشرب ولا يروى، أي شاربون من الحميم شرباً لا ينقطع فهو
مستمرة آلامه، ثم التفت إلى خطابهم بطريقة التحضيض على التصديق ﴿نحن
خلقناكم فلولا تصدقون﴾ ونحوه في سورة المؤمنون ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾
وهذه السورة تدور أيها حول محور تحقيق الوحدانية وإثبات البعث بعد الممات،
حيث أعقب ذلك بالتذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى الإيمان باليوم
الآخر وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتكذيب قائلين ﴿إن هي إلا
حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ وانتقل إلى بيان حال المستخلفين

الجدد وأنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ وهم كفرة أهل الكتاب ابتداء على ما أفاده العطف على ما تقدم من قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون، وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ ثم بين الحق تعالى أنهم أنكروا البعث تقليداً للأولين وأن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة ﴿قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ثم ذكروا بتندمهم عند ما يحضرهم الموت ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ وتسلسل الكلام آخذاً بعضه بحجز بعض متخلصاً إلى قوله ﴿أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ وهذا كما قال الحق تعالى ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ ولما قرره تعالى على أن من سموه إلهاً لا أثر له أصلاً، نبه بالقدرة على بدء الخلق على القدرة على إعادته وذيل ذلك بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم ﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ أي يعدلون الخلق بخالقهم ويجعلون للخالق نظيراً من الجن وشبيهاً من الإنس ثم تسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الاستدلال إلى أن أفضى إلى قوله ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ وهو المطلوب الذي قدم له في قوله معرضاً بالمنكرين ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ وهم كفرة قوم موسى عليه السلام بدلالة التعقيب بذكر قصته عليه السلام... وفي سورة العنكبوت لما أشار سبحانه إلى العلم الأنفسي أردفه بالآفاقي فقال ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾ قال صاحب التحرير والتنوير: وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يهدي إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف

الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها
فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها فإذا شاهد ذلك جال نظر
فكره في تكوينها بعد العدم جولاناً لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد
أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده
قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها
حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائباً عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال،
فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا
الغرض من جوامع الحكمة وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي لأن السائر
ليس له من قرار في طريقه فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات ولكنه يشهد
مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم
تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها.
اهـ. ولما كانت أحكام القرآن تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة
وكانت سورة الزلزلة تشتمل على أحكام الآخرة إجمالاً وزادت على القارعة
بإخراج الأثقال وبحديث الأخبار، نبّه ﷺ على شرفها كما جاء في سنن
الترمذي مرفوعاً: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن» وأخرج ابن مردويه
والواحدي بأسانيدهما إلى أبي بن كعب بلفظ: «من قرأ "إذا زلزلت" أعطي من
الأجر كمن قرأ القرآن» وقد وردت عقب سورة أهل الكتاب لتنبئهم
وتذكيرهم بالآخرة التي من خسرها فلا ربح له بوجه ما. واعلم أن إنكارهم
البعث بعد الموت فيه نكتة حسنة ودقيقة مستحسنة وهي أنهم يرون أنفسهم قد
بلغوا من مراتب الاختراع قاصيتها وملكوا من المآرب ناصيتها وأتيح لهم من
الحضارة إلى حيث أمّلوا نيل مرتبة القدرة الإلهية وحين أعجزتهم مسألة الموت

والحياة عمدوا إلى الإنكار والمكابرة والتهكم! ولما ذكر الحق في سورة غافر ما منّ به على بني إسرائيل من إيراثهم الكتاب أردف ذلك بالإنحاء على جداهم فيه ثم قال ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد بالناس هنا خصوص بني إسرائيل كما يقتضيه السياق المكتنف بالسباق واللاحق. وقد افتتحت سورة البقرة بتقرير أن أعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، ومداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب فلذلك سميت بها السورة وهذه التسمية من قبيل تسمية الكل بالجزء الأشهر أو الأغرب الأعجب وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة ولا سيما وقد أُتبع بوصف القسوة لقلوب المغضوب عليهم والضالين فوصفها بالقسوة الموجبة للشقوة ووصفت الحجارة بالخشية الناشئة في الجملة عن التقوى المانحة للمدد المتعدي نفعه إلى عباد الله. وسورة الانشقاق ابتدئت بوصف أشرط الساعة وحلول يوم البعث واختلاف أحوال الخلق بين أهل نعيم وأهل شقاء وأطنب الحق تعالى في وصف أحوال أهل الشقاء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وهذه الصورة أشنع وأبين لنفاقهم ويومئ إلى ذلك قوله في السياق ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ وأصل الإيعاء جعل الشيء في وعاء واستعمل في هذه الآية في الإخفاء لأن الإيعاء يستلزم الإخفاء فهو هنا مجاز مرسل والمعنى والله أعلم بما توعيه صدور هؤلاء الكفرة المنافقين من التكذيب باليوم الآخر حسبما ينبئ عنه قوله قبله ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْوَِرَ﴾ أي ظن أن لن يُبعث! ولما صرح سبحانه بإنكارهم لما أخبرهم به الرسل من البعث، سبب عنه الإقسام على صحة ذلك فقال ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفقِ،

والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، لتركن طبقاً عن طبق) وأول أطباق الإنسان ضعف ثم قوة ثم ضعف وشيبة ثم موت وبعده نشر وحشر وحساب وجنة أو نار...والسياق يصور الحالة النفسية في ركوب الأطباق وينسقها مع إيقاع المشاهد الكونية في الآفاق ويكشف عن حال بعد حال من مواطن يوم التلاق فالتضمين جرى في "تركن" ومراده "تكشفن" المتعدي بـ"عن" وجاء الركوب على طرف من الملاحظة لأنه وسيلة من وسائل الكشف عن أحوال وشدائد وأهوال يوم القيامة، وفي الآية وعيد وتهديد للمكذبين المنافقين والمعنى لتكشفن عن منزل بعد منزل ولتلاقن هولاً أعظم من هول من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر، ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد، سبب عن ذلك الإنكار عليهم والتوبيخ والتفريع والتهديد فقال معرضاً عن خطابهم إلى الغيبة إيذاناً باستحقاقهم للأخذ إن لم يرجعوا ﴿فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له تعالى بالوحدانية وهو شعار الإسلام إذ لا فائدة في تكليفهم بسجود الصلاة قبل أن يُسلموا ثم ارتقى في التعجيب والإنكار عليهم إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على التكذيب فقال معبراً عنه بالمضارعة التي تصور حالهم وتدل على استمرارهم جيلاً بعد جيل ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ ففي اجتلاب الفعل المضارع دلالة على حدوث التكذيب منهم وتجدده. وقد ذكر عز وجل حال منافقي بني إسرائيل على لسان نبيهم عزير عليه السلام ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ ونسب القول إليه ومعناه للقوم الذين ينكرون البعث وفي هذا النوع من الحكاية ضرب من التعريض ولأجل قصد التعريض في نحوه قيل: إياك أعني واسمعي يا جارة! ويدل عليه قول

الخليل ﷺ بعده ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ وسؤاله ﷺ لم يكن من جهة شكه لكن من جهة طلب الدليل لقومه حساً وعياناً فإنه لما احتج عليهم بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك ليُظهر لهم دليله عياناً فالكلام جرى على سبيل التنبيه لقومه على البعث والنشور بعد أن شك في إيمانهم باليوم الآخر وهو معنى قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أريني كيف تحيي الموتى قال أُولَمْ تُؤْمِنُ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» والله ورسوله أعلم.

﴿أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ التفكير فيما خلق الله تعالى يفتح باباً عظيماً للإيمان بالبعث ولمعرفة عظمة قدرة الله تعالى وعزة ربوبيته وسيادة ألوهيته ولذلك أثنى الله تعالى على الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض فيزدادون إيماناً بالله تعالى ومعرفة بعظمته وكبريائه وكمال أسمائه وصفاته فجميع مخلوقاته سبحانه هي آثار أسمائه وصفاته وقد ورد في الخبر عن النبي الصادق الأبر: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» أي لا تقدروا أن تحيطوا به علماً ولا على معرفة كنه ذاته فذاته سبحانه لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والكاف هنا فاضلة وفائدتها تأكيد نفي المثل من وجهين: أحدهما لفظي والآخر معنوي أما اللفظي فيفيد ما يفيد التوكيد اللفظي من الاعتناء به فإن كل حرف فاضل في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى فعلى هذا يكون المعنى: ليس مثله شيء ليس مثله شيء وأما المعنوي فإنه من باب قول العرب: مثلك لا يفعل كذا وهم يريدون نفيه عن ذاته لأنهم قصدوا المبالغة في

ذلك فسلكوا به طريق الكناية. وروى ابن أبي عاصم وأبو يعلى وابن السني عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن مقاليد السموات والأرض فقال: «ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول الآخر الظاهر الباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات أعطاه الله بها ست خصال: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطاراً في الجنة، وأما الثالثة: ترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فله فيها من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل، وأما السادسة يا عثمان: له كمن حج واعتمر فقبل الله حجه وعمرته وإن مات من يومه ختم له بطابع الشهداء».

﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي بل تكذبون بأنكم تبعثون وتدانون وتجازون بأعمالكم فإنه يراد بالدين الجزاء ومنه سُمي الله تعالى: الديان أي المجازي المحاسب الذي دانت له الموجودات وانقادت لحُكمه البريات! وقرئ **﴿يكذبون﴾** وصيغة المضارع تفيد التعجيب من تكذبيهم وأن تكذبيهم متجدد لا يقلعون عنه كما حكى تعالى قولهم **﴿وكنّا نكذب بيوم الدين﴾** والدين جماعه الحكم كما في الآية **﴿ملك يوم الدين﴾** أي أنه تعالى المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشارك. ووصفه سبحانه لنفسه بالملك والمَلِك ليوم الدين فيه تمجيد لنفسه سبحانه كما جاء في الحديث: «فإذا قال العبد: **﴿مالك يوم الدين﴾** قال الله تعالى: **مجدني عبدي﴾** وروى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد أو الناس عراة غرلاً بهما» قال الناس: فما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمع من بعد كما يسمع من

قرب: أنا الملك، أنا الديان» ووصفه تعالى بملك يوم الدين تكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، وهو وصف ينشأ عن عموم التصرف في المخلوقات، فالملك الحق هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت سيطرته، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الحفاة العراة على أنفسهم مثل (صاحب السمو الملكي) وما شابه ذلك، وفي تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين إدماج التشبيه على اختصاص الله بالحكم لأن إثارة لفظ الدين للإشعار بأنه أقام الحكم مقامه وحوى الدين كله فيه، ولذلك لم يقل مالك يوم الحساب، وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كل من قراءة **(ملك)** بدون ألف وقراءة **(مالك)** بالألف من خصوصيات بحسب قصر النظر على مفهوم كلمة ملك ومفهوم كلمة مالك، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين، فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه لا يشركه أحد في حكمه ذلك اليوم، فوصفه تعالى بأنه ملك يوم الدين وصف له بأشرف معنى الملك فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في الحكم...

(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) نزلت الآية في ناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ويواصلونهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم وربما أخبروا اليهود بأحوال المسلمين عن غفلة وقلة حذر فنبههم الله إلى أن لا يتولاهم، والآية تؤكد لما في أول السورة **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)** فإنهم وُصفوا بالعدو لله، والعدو مغضوب عليه، قال الإمام القرطبي في تفسيره: "قد يئسوا من الآخرة" يعني اليهود قاله ابن زيد. وقيل: هم المنافقون. وقال الحسن:

هم اليهود والنصارى. وقال الماوردي في تفسير قوله "قد يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور" فيه أربعة أوجه: أحدها: يؤسوا من ثواب الآخرة كما يؤس الكفار من بعث من في القبور، قاله ابن عباس. الثاني: قد يؤسوا من ثواب الآخرة كما يؤس أصحاب القبور بعد المعينة من ثواب الآخرة لأنهم تيقنوا العذاب، قاله مجاهد. الثالث: قد يؤسوا من البعث والرجعة كما يؤس منها من مات منهم وقبر. الرابع: يؤسوا أن يكون لهم في الآخرة خير كما يؤسوا أن ينالهم من أصحاب القبور خير. وقد استقصت سورة الممتحنة إرشاد المسلمين إلى ما يجب في المعاملة معهم، والسورة تستهدف إقامة مجتمع رباني لا نفاق فيه، تنفصل فيه العلاقات بين رؤوس الشرك في جزيرة العرب وبين المسلمين واضعة لهم قيماً جديدة وموازين جديدة وتبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته، وتفتح أعينهم على ما يُدبره أعداؤهم من عداوات ومكر وكيد، وفي المقابل تقرر السورة المداراة والبر والقسط إلى الشعوب المسالمة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ والتعامل معهم يجب أن يصحبه اللطف والبر قائماً على القسط والعدل دون غش لهم ولا بنحس لحقوقهم ولا خيانة ولا غبن ولا ظلم ولابغي ولا اعتداء ولا إيذاء بالقول ولا بالعمل هذا كله مقتضى البر إليهم والقسط معهم كما هو واجب المسلمين مع بعضهم بعضاً... روى الإمام البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: «نعم» قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. والفرق بين المداراة وبين المداهنة: أنَّ المداهنة: إظهار الرضا بفعل الفاسق من غير إنكار

عليه، والمداراة: الرفق في تعليم الجاهل والملاطفة في نهيهِ عن فعله. ثم يعود التحذير من موالاته المشركين الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود وبخاصة بعد أن شعروا بخطر الإسلام ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُولُوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ وقد نهي تعالى عن مولاتهم في آيات عديدة وجعل مآل ذلك إلى العذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ والسلطان في اللغة: الحجة وإنما قيل للخليفة: سلطان لأنه ذو حجة، والمعنى لا توالوا الذين أبطنوا الكفر موالاته الرؤوس للرئيس ولا تستعينوا بهم استعانة المنتصر بالناصر فإن فعلتم ذلك جعلتم على أنفسكم سلطاناً للعقاب إذ من صنيعكم هذا يلوح أثر التحاقكم بهم، وموقع هذه الآية بين قوله ﴿إِن الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وقوله ﴿إِن الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ يفيد التبصير بحقيقتهم والتحذير من ولايتهم وردّهم إلى أحكام الكفر الأصلية والتنبية على أن كفرهم خفيّ، فرما غفل المسلمون عنهم أو نسوهم، وسورة المنافقون كشفت القناع عن أنموذج الإفك والكذب والزور ومدرسة القبض والنقض والإرجاف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وإسناد فعل "آمنوا" إليهم مع الإخبار عنهم قبل ذلك بأنهم كاذبون في قولهم "نشهد إنك لرسول الله" مستعمل في مجازة والمراد أنهم أظهروا الإيمان كذباً وكفروا سراً فتجرأت أنفسهم على الجرائم وضريت بها حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير - والله أعلم - وتكاد السورة أن ترصد للأمة مرحلة تاريخية خطيرة ارتبطت بالديانة من حيث كونها تؤصل منهجية النفاق التاريخي داخل الأمة المسلمة.

(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم، وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به **مؤمنون**) مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أنه تعالى لما ذكر النهي عن موالاة الكفار والتودد إليهم ذكر جل وعلا هاهنا جملة من أحكامهم وهي خاصة فيمن يكون بينهم وبين المؤمنين عهد، وتحقيقه وجود إمام للمسلمين...وفي النظم الجليل من محسن الاحتباك ومزيد الارتباط ما لا يخفى.

كهيعص

جاءت سورة مريم بعد سورة الكهف ولهذا الترتيب دلالة إذ أن سورة مريم تتحدث عن مولد ابن مريم ونفي بنوته التي زعمها بنو إسرائيل لصرف الناس إلى شرك العبادة وهو ما ختمت به سورة الكهف، وقد جاء في هذا الختام بمحسّن ردّ العجز على الصدر، فإن سورة الكهف افتتحت بالإنكار على الذين أشركوا بالعبادة، وتسلسل الكلام في التحذير من شرك الحكم وارتباطه بشرك العبادة إلى أن أفضى إلى قوله **(ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)** ولما كانت سرائر الربوبية والعبودية من مرموزات الوحدانية ومن الأوصاف العلية جاءت في ذكر الرحمة التي رحم الله بها نبيه زكريا **(ذكر رحمت ربك عبده زكريا)** وكانت إليه الحبورة بينما كانت السياسة إلى عمران فخاف شرار بني إسرائيل أن لا يحسنوا

الخلافة في أمته ويبدلوا الإسلام ويحرفوا الدين فسأل ربه بعد مشاهدته للحوارق الظاهرة في حق مريم ولياً يرثه العلم ويرث من آل يعقوب الحكم فأجاب الله دعاءه ووهبه غلاماً اسمه يحيى لم يجعل له من قبل سميّاً وذلك أن انفراده ﷺ بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة أي لم يكن له سميّ قبله فلا أحد كفؤ له في استجماع أوصاف فضله. ثم أردف تعالى بذكر ابن مريم وأنكر على من زعم أن الله سبحانه اتخذ ولداً من النبين، وذيلت السورة بالإنكار على من زعم أن الله اتخذ ولداً من الملائكة، والذي يدور عليه قطب هذه السورة الكريمة كلام المسيح ﷺ ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ واتصل الكلام آخذاً بعضه بحجز بعض متخللاً بالمستطردات ومتخلصاً إلى تقرّيعهم في اتخاذ آلهة في الحكم ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاء﴾ أي آلهة ليتعزّزوا ويمتنعوا بهم من المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة﴾.

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر مشاهد من صناعه الرائق وتدييره اللائق أردف بأنه تعالى هو الحق أي واجب الوجود الذاتي كما ورد في الصحيحين: «أنت الحق» والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقيقة إلهيته به تعالى مستتبعة للدلالة على بطلان إلهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد واسم الجلالة علّم على الذات الإلهية أي المنفرد في الإلهية المتصف بجميع الكمالات المطلقة حتى نص كثير من العلماء والأئمة الفضلاء على أنه هو اسم الله الأعظم وأعظميته باعتبار مدلوله لأنه اسم أي علم على الذات وبقية الأسماء أعلام على الصفات ولا يخفى ما بينهما من الفرق

الكلي ومما يدل ذلك على مزيد شرف هذا الاسم الكريم أنك لو حذفت الألف لقلت: لله ولو حذفت إحدى لاميه ونطقت بما بقي من حروفه لكان إله ولو حذفت اللامين معاً لقلت: آه وهو اسم من أسماء الله تعالى ولو حذفت الألف مع اللام الأولى لقلت: له ولو حذفت الألف مع اللامين لقلت: هو فهو بتصرفاته جميعها دال على الذات الأقدس سبحانه وتعالى بخلاف بقية الأسماء الجليلة فإنك لو فككتها لم تستفد منها ما استفيد من اسم الجلال ومما يدل ذلك أيضاً على مزيد شرف هذا الاسم وعلو شأنه أنه لم يتسم به أحد غير الله سبحانه وتعالى بل حجب الله جل جلاله وعم نواله كافة المخلوقات عن التسمية بهذا الاسم ولذلك قال تعالى **(هل تعلم له سمياً)** أي هل تعلم أحداً غير الله سمي الله فإن المشركين وإن سمو الصنم إلهاً لم يسموه الله قط وذلك لظهور أحديته تعالى، وهذا الاسم مشتمل على جميع الأسماء الحسنی والصفات العليا التي لا نهاية لها "وأن الله هو العلي" أي يعلو أن يحيط به وصف الوصفين وهو تعالى المرتفع عن كل شيء العلي فوق خلقه بالقهر والاعتدار الرفيع القدر "الكبير" الذي لا تهتدي العقول لوصف كبريائه المتفرد بالعلو والكبرياء شأناً وسلطاناً ذاتاً وصفة قولاً وفعلاً، وفي وصفه بذلك إعلام بأنه قادر على نصر جنده وإعزاز دينه وعون أوليائه، وحث على مراقبته بجهاد أعدائه ودوام الخضوع لديه والضراعة إليه.

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون، أم يريدون كيداً) الاستفهام تهكمي إنكاري، قال القتيبي: يكتبون: يحكمون، والكتاب: الحكم. ونظيره في الآية الأخرى **(أم عندهم الغيب فهم يكتبون، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)** والغرض من ذكر يونس هنا تثبيت النبي ﷺ وحثه على

المصابرة وإظهار مرتبته في تحمُّله وعدم تذمره وتعريفه بأن ذلك يرفع درجته في مقام الرسالة فذكره بَمَثَلِ يونس عَلَيْهِ السَّلَام إِذْ تَعَجَّلَ أمر ربه فأدبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين تذكيراً مراداً به التحذير، وتقديم **(عندهم)** لإفادة الاختصاص أي صار علم الغيب عندهم، فهم يفرضون الأحداث ويُعيّنون الرؤساء والشركاء بتمثابة الآلهة ويضعون النبوءات ويرسمون السياسات المستقبلية ويفرضون ذلك على الدهماء! والفاء تفريع على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين في استنادهم إلى علم المغيبات حسبما ينطق به قوله تعالى **(أعنده علم الغيب فهو يرى)** وقال سبحانه **(أطلع الغيب)** وها هم اليوم يلون الأحداث وفق أساليبهم الشيطانية الخبيثة ويوحون إلى المؤمنين أن خلافاً سيقع بين ثلاثة من بني سعود يظهر على إثره المهدي الذي ربما أعدّوه مسبقاً، وما حادثة جهيمان منا ببعيدة! وهكذا يكيدون **(إنهم يكيدون كيدا، وأكد كيدا)** إن الذي يملك أمر الغيب ويُقدّر ويُدبّر هو الذي يحكم لا غيره وهو الذي يكيد، وهؤلاء السفهاء لا يُقدّرون ولا يُدبّرون ولا يضعون ولا يرفعون، وكيدهم صائر إلى ما صار إليه كيد فرعون.

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون

كل هذه الصور لا وجود لها في الكون الذي يشهد بوحدة خالقه ويشهد بوحدة مدبره ويشهد كل جزء فيه على وحدة مبدعه، وتتناسق كل ذرة مع الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب...وقد وردت الآية ناعية على

المنافقين شناعة صفتهم وسماجة حالهم فإنه تعالى لما ذكر طريقتهم في إنكار البعث قررهم بتوحيده ثم بيّن أن الأمر ليس كما يقولون من نسبتهم إليه تعالى ما لا يليق به ﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ أراد فيما ذكره تعالى به من الأولاد والأنداد والآية تدمغهم بالدليل الكوني المشاهد الذي ينفي دعواهم وإنما قدم نفي الإشراك في العبادة ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ على نفي الإشراك في الحكم ﴿وما كان معه من إله﴾ استقصاء للرد على تلبيس أئمة الكفر الذين جعلوا الإشراك في العبادة وسيلة للسيطرة على أتباعهم، فنفى سبحانه عن ذاته العلية الإشراك في العبادة ﴿ما اتخذ الله من ولد... سبحانه الله عما يصفون﴾ ثم نفى عن ذاته العلية الإشراك في الحكم ﴿وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض... فتعالى عما يشركون﴾ وفي سورة يونس عكس الترتيب لأن السورة تضمنت الكلام عن شركاء الحكم ﴿ألا إن الله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، قالوا اتخذ الله ولداً﴾ وفي سَوق آية الليل النهار دليل على قدرة خالق الضدين وعجز شركائهم على مثل ذلك، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عمّ وجوده ولا ضدّ له عسر إدراكه، وكذلك لا يعرف التوحيد من لم يعرف الشرك. والمقصود من قوله ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ تأييس المشركين من نصرة آلهتهم، إذ يخامرهم بعض الشك في صدق ما توعدّهم الله به من الهزيمة والعذاب، ثم يغالطون أنفسهم ويسلّون قلوبهم بأنه إن تحقق ذلك سيجدون من آلهتهم التأييد والدفع والحماية والنصرة ويقولون في أنفسهم: لمثل هذا اتخذناهم،

فسيق هذا الكلام لقطع رجائهم منهم بالاستدلال على أنهم دون ما يظن بهم والله أعلم، وجملة ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ كالنتيجة للجملة الأولى إذ المعنى أن الجميع ملك لله، وأتباع المشركين شركاءهم اتباع خاطئ باطل... ولما أقام الدليل على كذبهم بالأدلة على عظمتهم وتعالیه عن كل ما يقول الظالمون وبين لهم الأمر غاية البيان بعد أن هددهم بمثل ما أنزله بالماضين وأحله بالمكذبين وكان من المعلوم أنه ليس بعد الإعذار إلا إيقاع القضاء وإنزال البلاء وكان من الممكن أن يعم سبحانه الظالم وغيره بعذابه لأنه لا يسأل عما يفعل، أمره أن يتعوذ من ذلك إظهاراً لعظمة الربوبية وذل العبودية وتنبهاً على الزيادة في الضراعة بتكرير النداء بصفة الإحسان تعبدًا وتخشعًا وتذللًا وتخضعًا ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون، رب فلا تجعلني في القوم الظالمين، وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون، ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ ولما كانت الرؤية لنفاقهم الذي يجتهدون في إخفائه وكان المؤمنون لا اطلاع لأكثرهم عليه، ختم الآية بما يناسب ذلك المقام ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي بوصفهم إياك أو بالذي يصفونك به من السوء وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له ﷺ إلى تفويض أمره إليه تعالى ونظيره قوله سبحانه ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي عظ به من ينفعه تذكيرك ومن لم يعظه القرآن فلو تناطحت بين يديه الجبال ما اتعظ!

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ لما كان الشيطان هو الداعي إلى الإشراك بالله والمسؤول للمشركين التكذيب باليوم الآخر، أمر الحق بالتعوذ من همزاته ونزغاته ثم بين سبحانه أن أضر أوقات حضوره ساعة الموت وحالة

الفوت وانكشاف الغطاء وظهور العذاب... وضمائر الغيبة عائدة إلى ما عادت عليه الضمائر السابقة من قوله "قالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون" ولقصد إدماج التهديد بما سيشاهده من عذاب أعدَّ له فيندم على تفريطه قائلاً ﴿لعلِّي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ والبرزخ هو العالم الذي ينتقل إليه الإنسان بعد الموت ويبقى إلى يوم البعث فهو عالم واقع بين الدنيا والآخرة ويسمى عالم القبر وهو ما يصير إليه الإنسان من حيث جسمه فحيثما صار إليه الجسم بعد موته فهو قبره ولو أكلته السباع على أن تسميته بعالم القبر هي أغلبية لأن جميع الأموات يصيرون إلى عالم البرزخ قُبُروا أم لم يُقْبَرُوا ولبثهم فيه مؤقت كزيارة الزائر المؤقتة ثم المصير إلى ما وراء ذلك قال تعالى ﴿أهلأكم التكآثر، حتى زرتم المقابر﴾ أي شغلتم الدنيا والتكآثر فيها والتنافس عليها حتى متم وزرتم القبور، والزيارة إنما تكون مدة مؤقتة، قال تعالى في حق آل فرعون ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ أي في قبورهم في البرزخ ثم ينتقلون إلى الجحيم التي يقيمون فيها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ وهو عذاب الآخرة الخالد. نعوذ بالله من النار ومن حال أهل البوار.

﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يبحدون﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر المفاوطة في الأعمار المنادية بالاعتبار لأولي الأبصار، تنبأ بالمفاوطة في الأرزاق وبيّن أن تساوي المملوك في رتبة المالك مما يتعاضمهم في حقوقهم ولا يدانونه وإن أدى إلى ذهاب أرواحهم فنبههم سبحانه على ما وقعوا فيه في حقه من ذلك بسبب الإشراف مع أنه مالك الملك بعد ما اجترؤوا

عليه في تفضيل أنفسهم في نسبة البنات إليه، ومعنى الآية: أن الأحرار المالكين منكم لا تسخو أنفسهم بدفع أموالهم إلى عبيدهم ليشاركوهم في الملك فيكونوا وهم سواء فإذا لم ترضوا هذا لأنفسكم فكيف ترضون الله تعالى أن تصفوا له شريكاً في ملكه وصفاته، وتصفوا له ولداً من عباده؟ وهذا مثل ضربه الله للمشركين في تصييرهم عبداً له شركاء له، فقال: إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء في الملك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؟ فكما لا يردُّ أحدكم على مملوكه مما رزقه حتى يكون مثله، فكذلك لا يكون الله والشركاء الذين هم من خلقه ومملكه سواء. ونظير هذا ما ذكر في سورة الروم ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ ثم وقفهم على جحدهم نعمة الله فقال ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات، ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أحوالهم ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم وليكون ذلك تنبيهاً على إنعامه تعالى عليهم بمثل هذه النعم فقال ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون﴾ قال عطاء: يصدقون أن لي شريكاً وصاحبة وولداً، وبنعمت الله هم يكفرون أي بأن يضيفوها إلى غير الله ويتركوا إضافتها إلى الله تعالى! ولما شرح تعالى أنواعاً كثيرة في دلائل التوحيد وعدّد عليهم أصنافاً من النعم الجليلة الشريفة، أتبعها بالرد عليهم ووبخهم على إشراكهم مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظّ لها في الإناعم عليهم فقال ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون﴾ ثم التفت إلى خطابهم للإيذان بالاهتمام بشأن النهي فقال ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي فلا

تتخذوا لله أمثالا من الخلق وأشباهاً في حكمه وعبادته وهذا جاء على طريقة قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى: فلا تضربوا الأمثال التي توجب الاشتباه له وتشبيهه عز وجل بخلقه كزعمكم أنه تعالى جالس على عرشه بذاته فإنه سبحانه واحد لا مثيل له أي فلا تجعلوا له مثلاً وشبهاً تقيسونه عليه أو تشركونه به فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي لا تشبهوه بخلقه. اهـ. ومن نظر إلى الحق من حيث الخلق وقع في ظلمات التشبيه وضل عن معرفة المعبود الحق تعالى جده وجل جلاله، وهذا النهي عام في كل مثل لخطر الأمر خشية أن يكون ذلك المثل غير لائق بمقداره فإنه تعالى تقدس عن الأوهام والإشارات والعبارات وتنزه عن درك الخليقة فإن الخلق لا يدرك إلا خلقاً ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه: "إنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها فلا يعرف الله تعالى إلا الله عز وجل" وقد تقرر أن درء المفسد أولى من جلب المصالح لاسيما في هذا لأن الخطأ فيه كفر ويدل على ذلك تعليل الحكم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم أعقب زجرهم بتمثيل بديع حيث شبه حال آلهتهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالا وشبه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَاهُ حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ومعرفة الحالين المشبهتين يدل عليها المقام، والمقصود نفي المماثلة بين الحاليتين، فكيف يزعمون مماثلة آلهتهم لله تعالى؟ ولذلك أعقب بجملة ﴿أَهْلٌ يَسْتَوُونَ﴾ والمراد من قوله ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف وعدم الوقاية من

مانع إياه عن الإنفاق والله أعلم وأحكم. ثم ضرب مثلاً آخر ومثل بحالتين باختلاف وجه الشبه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ واعتبر هنا المعنى الحاصل من حال الأبكم وهو العجز عن الإدراك، وزيد في وصفه أنه زَمَنٌ لا يقدر على شيء وهو عالة على كافله لا يدبّر أمر نفسه ولا نصرة موله، وأينما يوجّهه موله لا يهتدي إلى ما وجّه إليه فلا يحسم أمراً ولا يأت بخير، والخير هو ما فيه تحصيل الغرض من النفع والنصرة، وهذا مثل لأهتهم التي لا يأتي من جهتها خير البتة وهي محتاجة إلى من يوجّهها لسوء فهمها وإدراكها! والمثل الآخر ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وسجال فضائله وسحائب الطافه وفنون نعمه، فهل يستوي مع من لا يعرف هدياً ولا يستطيع إرشاداً بل هو محتاج إلى من يوجهه؟ والمثل يزيد الكلام الجليل بهجة وتفخيماً ويكسبه قبولاً ويجعل له قدراً في النفوس وحلاوة في الصدور ويدعو القلوب إلى وعيه ويعيها على الاستظهار به أوان المحاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلقات المفاولة، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد والتنوير في الروض والتسليم في البرد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الحمل المنفي هو ما كان المقصود منه دفع التبعة عن الغير وتبرئته من جناياته فلا ينافيه إثبات حمل آخر عليهم هو حمل المؤاخذه على الإضلال حيث أثبت تعالى حملهم أثقال أنفسهم وأثقال الذين أغروهم، وقوله ﴿وَلَيَسْأَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تذييل جامع

لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوا للمسلمين من الإفك والإضلال بإيقاعهم في الشرك، والآية إنما وردت عقيب ما مضى من ذكر المنافقين وموردها في زعمائهم الذين موهوا الضلالة وثبتوا عليها، والعطف في قوله ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ على جملة ﴿وليعلمن المنافقين﴾ عطف بيان للدلالة على كفرهم والمراد كشف حالهم ففي حكاية وصفهم بالكفر تورك عليهم وهو معنى قولهم للمؤمنين "كونوا هوداً أو نصارى" كما تقدم والله تعالى أعلم. روى الإمام البزار من حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: «ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده فعليه وزرها ووزر من عمل من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» وهي ما يجري من سنن على أيدي الدجاجة المنافقين ويستن بها المسلمون بعلم أو بغير علم وهو مضمون الحديث الجامع: «لتتبعن سنن بني إسرائيل» وروى الإمام مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يحيى يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى» وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت مسلم إلا أدخل الله عز وجل مكانه النار يهودياً أو نصرانياً» قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ وزيادة العذاب عليهم من جهة أنهم أضلوا غيرهم وأدخلوا عليهم الشبه فالزيادة المذكورة خاصة بالأئمة المضلين وإضلالهم من أعمالهم حقيقة فما ثم زيادة إلا من هذه الحثية والغرض تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم والتعريض بالتحذير من الوقوع في شركهم... فافهم كشف الله عنك حجابك وستر عليك جنابك فإن العبارة هاهنا لا تسع غير هذا.

(أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) لما كان السياق في الحكم والقهر وكانت عادة الحكام أن يكلفوا بعض الأتباع ببعض ويأخذوهم بجوارئهم لينتظم لهم العلو على الكل لعدم إحاطة علمهم بكل مخالف لأمرهم، بين سبحانه أن الأتباع لا يحملون أوزار غيرهم والمقصود والله أعلم أنهم يحملون جزاء الضلال وأما المتبوعون المضلون فيحملون جزاء الإضلال حسبما يفيد قوله جل شأنه (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضْلُوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ) وخص تعالى إبراهيم وموسى عليهما السلام لأن المدعين من بني إسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعتهم ولا متمسك لهم ولا سلف في نبوة محققة ولا شريعة محفوظة! ولما نفى سبحانه أن يضر ذلك السائر وزر غيره نفى أن ينفعه سعي غيره فقال (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) قال عكرمة: كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى عليهما السلام، وأما هذه الأمة فلا إنسان منها سعي غيره يدل عليه حديث سعد بن عباد: هل لأمي إذا تطوعت عنها؟ قال ﷺ: «نعم».

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضْلُوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ) لما ذكر تعالى استكبارهم وإنكارهم الوحانية الناشئة عن عدم إيمانهم بالآخرة أتبع ذلك بصددهم الناس عن اتباع الإسلام بمعاذيرهم الباطلة ووصفهم القرآن الداعي إلى الوحانية والمعالج لأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل بأنه مقتبس من كتب الأولين ويصفون القرآن الذي يعالج أوضاع الحياة وأحوال البشر وسلوك الناس بأنه لا يتعدى مرحلة النبوة التي نزل فيها! وذكر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم وليس على سبيل الفرض وأنهم

يجيبون بما ذكر مكرراً بالدين وتظاهراً بمظهر الناصحين للمسترشدين المستنصحين بقرينة قوله تعالى "ومن أوزار الذين يضلوهم بغير علم" أي بغير حجة بل يأخذون الناس بشبهات وأباطيل! فهم لا يخلون بين النبي ﷺ وبين من يتطلب الهدى، مضلون للناس صادّوهم عن الإسلام يديرون حرب دعاية منظمة على هذا الكتاب الحكيم! وخطابهم لشركائهم مذكور على سبيل السخرية والتهكم، وأما خطابهم للمسلمين فهو على معنى أن القرآن يحكي قصص أبي جهل وأضرابه الأولين وما قبلهم من الغابرين فحسب وأنه من جنس سائر الكتب المشتملة على أخبار الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزاً خارقاً للعادة! يريدون - قاتلهم الله - تعطيل القرآن عن أن يتناولهم ويتناول آلهتهم، وقد أداهم ذلك إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين أضلوهم وسوّلوا لهم الشرك والبهتان ووضعوا لهم العقائد الزائغة والباطلة وصدوهم عن القرآن والإيمان وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته! وإنما يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال وفيه تنبيه على أن كيدهم لا يروج على ذي لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وفيه زيادة تعيير لهم وذم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم، وقد أفادت الآية أنهم يحملون وزر الإضلال أي أن المتبوعين إذا وضعوا سنة قبيحة عظم عقابهم حتى أن ذلك العقاب يكون مساوياً لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، وليت شعري كيف سيلقى الحفاة العراة ربهم وهم يحملون أوزارهم وأوزار من يضلوهم؟ وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة بحال الذي يحمل متاعه وهو موقر به فيزاد حمل أمتعة أناس آخرين! روى ابن ماجه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبَعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هَدًى فَاتَّبَعَ فَإِنَّ

له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئاً» وحكمة ذلك أن من كان سبباً في إيجاد شيء صحت نسبة ذلك الشيء إليه على الدوام وبدوام نسبته إليه يضاعف ثوابه وعقابه لأنه الأصل فيه. وروى الإمام الطبراني من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ومن سنّ شراً كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» وفي صحيح الإمام مسلم: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» فإثم الروم والفرس على الذين أضلوهم وذلك أن هذا المضل يحمل وزر نفسه كاملاً ويحمل وزراً من وزر كل مضل بسببه ولا تنقص أوزار أولئك، وإن كان الأتباع لا يعتقدون حقيقة المتبوعين ويستصغرونهم ألا ترى قول الروم لهرقل كما جاء في صحيح البخاري: «ليس يخطتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واکتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود» ولما حكى تعالى جواب المبطلين المضلين المستكبرين عن التوحيد وذكر قولهم عن القرآن المنزل بأنه أساطير أبي جهل وأضرابه فحسب قاصدين إضلال الناس ومحو الحق وإخفاء أمره وإقامة شبه لحجب العقول عن إدراك المعقول، شرع سبحانه يهدد الماكرين ويحذرهم وقوع ما وقع بمن كانوا أكثر منهم عدداً وأقوى يداً فقال جل شأنه ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ والآية تصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف، والكلام تمثيل يعني أن حالهم في تسويتهم الحيل ليمكروا بها وإبطال الله إياها وجعلها سبباً لهلاكهم كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وهلكوا تحته، ووجه الشبه

أن ما نصبوه وخيلوه سبب التحصن والاستيلاء صار سبب البوار والفناء،
 فالعقائد المزورة والسياسات المدبرة بمنزلة المنصوبات وانقلابها عليهم مهلكة
 كانقلاب تلك الحيل على أصحابها، والبنیان ما تواطؤوا عليه من الرأي المدعم
 بالمكائد العظيمة، فأتى الله بنيانهم من جهة الدعائم والعمد التي بنوا عليها وهو
 مشهد للتدمير الكامل الشامل يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم
 فيدفنهم، وإذا بناؤهم الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه إذا هو
 مقبرتهم التي تحتويهم ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم وهو
 الذي اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يكون سبب هلاكهم، إنه مشهد للدمار
 والهلاك! مشهد للسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين الذين يقفون لدعوة
 الإسلام ويحسبون مكرهم لا يرد وتديبرهم لا يخيب والله من ورائهم محيط، ثم
 يرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه المستكبرون الماكرون موقف الخزي
 وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر وجاؤوا إلى صاحب الخلق والأمر يسألهم
 سؤال التبكيت والتوبيخ والتأنيب الساخر (أين شركائي الذين كنتم تشاقون
 فيهم) وقرئ بكسر النون في لفظ (تشاقون) يعني تنازعون فيهم الحكم
 والسلطان، فيوقفون مع شركائهم ويسألون كما قال سبحانه (وقفوهم إنهم
 مسؤولون، مالكم لا تنصرون) أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال
 رسول الله ﷺ: «ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به
 لا يفارقه، وإن دعا رجل إلى رجل» ثم قرأ قول الله (وقفوهم إنهم مسؤولون،
 مالكم لا تنصرون).

(وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) يعني اتخذوه تراويل
 وتعاويز ورقى وأدعية فحسب، ولم يقيموه على واقع حياتهم وواقع المرحلة

الزمنية التي يعيشونها ولم يسترشدوه بل قالوا فيه هجراً وفحشاً وسوءاً وتركاً
وصداً، وكلمة **(قومي)** تعني: العرب على وجه الخصوص، والتعبير عن بني
إسرائيل بـ**(قومي)** لزيادة التذمر من فعلهم معه لأن شأن قوم الرجل أن
يوافقوه، وحال هؤلاء كحال من سبقهم من الغابرين ويؤيد هذا القصد التعقيب
بقوله **(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً)**
والتنصيص على الإجماع أعظم من العداوة المطلقة لأن في الإجماع عداوة مع
استخفاف واستهزاء بدعوة الأنبياء. ثم ذكر تعالى اعتراضهم الدال على شرادهم
عن الحق واقتراحهم نزول القرآن جملة واحدة تعنتاً وأردف بإبطال شبهاتهم
بالقرآن وبيّن أن الذي يأتي به أحسن تفسيراً لأجل ما فيه من المزية في البيان
والظهور، ثم عطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذبين رسلهم وأتبعه بذكر
كتاب موسى معرضاً بسوء ما هم عليه فأننتجت الآيات أنهم معاندون مكابرون
غير طالبين للحق إذ لو طلبوا الحق بإنصاف لكفتهم معجزة القرآن.

الفصل الثالث: متاركة أهل الكتاب

﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا

عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين﴾

اعلم أيها الموحد المتيقن بحقية القرآن المجانب لقرن الشيطان أنه تعالى لما قال لحبيبه "إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتى" أمره أن يخاطب المنافقين بأنه لا يعبد ما يعبدون وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه وقد ذكرهم الله تعالى في هذه السورة بالكافرين لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم فلا بد وأن تكون المبالغة فيها أشد وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أشع من لفظ الكافر وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق، قال صاحب نظم الدرر: وتسمى الإخلاص والمقشقة مقصودها إثبات مقصود الكوثر بالدليل اليهودي على منزلها كامل العلم شامل القدرة لأنه المنفرد بالوحدانية فلذلك لا يقاوى من كان معه ولذلك لما نزلت قرأها ﷺ عليهم في المسجد أجمع ما كانوا وهذا المراد بكل من أسمائها، أما الكافرون فمن وجهين، ناظر إلى إثبات وناظر إلى نفي، أما المثبت فمن حيث أنه إشارة إلى تأمل جميع السورة من إطلاق البعض على الكل، وأما النافي فمن جهة أنهم إنما كفروا بإنكار ما هو مقصودها إما صريحاً كالوحدانية وتام القدرة وإما لزوماً وهو العلم فإنه يلزم من نقص القدرة نقصه، وأما الإخلاص فلأن من اعتقد ذلك كان مؤمناً مخلصاً برئياً من كل شرك وكل كفر، وأما المقشقة فلأنها أبرأت من كل نفاق وكفر، من قولهم: تقشقت قروحه إذا تقشرت للبرء، وعندي أنه من الجمع أخذاً من القش الذي هو تطلب المأكول من ههنا وههنا فإنها جمعت جميع أصول الدين

فأثبتتها على أتم وجه فلزم من ذلك أنها جمعت جميع أنواع الكفر فحذفتها ونفتها. قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف أحوال كل فريق وشتى درجاتهم وأعني بالفريقين من أشير إليه في قوله سبحانه وتعالى "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم" فهذا طريق أحد الفريقين وفي قوله "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" إشارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق إذ ليس إلا طريق السلامة أو طريق الهلاك "فريق في الجنة وفريق في السعير" "فمنكم كافر ومنكم مؤمن" والساكون طريق السلامة فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم يليهم أتباعهم من صالحى العباد وعلمائهم العاملين وعبادهم وأهل الخصوص منهم والقرب من أحوال من تنسك منهم ورتبتهم مختلفة وإن جمعهم جامع وهو قوله "فريق في الجنة" وأما أهل التنكب عن هذا الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضاً ويضم جميعهم طريق واحد فكيفما تشعبت الطرق فإلى ما ذكر من الفريقين مرجعهما وباختلاف سبل الجميع عُرِفَت آي الكتاب وفصلت، ذكر كله تفصيلاً لا يبقى معه ارتياب لمن وفق، فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن "هدى للمتقين" إلى قوله "إن شائئك هو الأبتى" أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى "قل يا أيها الكافرون" فبين سبحانه أن من قضي عليه بالكفر والوفاة عليه لا سبيل له إلى خروجه عن ذلك ولا يقع منه الإيمان أبداً... ثم قال لهم "لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد" إلى آخرها فبان أمر الفريقين وارتفع الإشكال واستمر كل على طريقه... فتأمل موقع هذه السورة وأنها الخاتمة لما قصد في الكتاب يلح لك وجه

تأخيرها والله أعلم. اهـ. وقد تضمنت السورة النفي والإثبات، أثبتت أن للمسلم معبوداً يعبد وحده وهم بريئون من عبادته وجاء النفي من معبوديهم بالفعل الدال على الحدوث والتجدد للبراءة من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أنتم عابدون مثل عبادتي المبنية على التوحيد والإخلاص واليقين، ونفي عبادتهم معبوده بناء على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراف المحبط لها وجعلها هباء منثوراً إذ أنهم ما عبدوا الله إلا في تشريكهم معه غيره كما حكى تعالى عنهم ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فأبطل عبادتهم لله تعالى مظنة أن يقولوا لغفلة عن المراد: كيف يسوغ لك أن تنفي عنك عبادة ما نعبد وعنا عبادة ما تعبد ونحن أيضاً نعبد الله تعالى؟ واعلم أن الحق دلّ بهاتين الآيتين ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على اليهود، وبالآيتين الأخريين ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على النصارى، وحينئذ يظهر التفاوت بين الآيات التي جمعت اليهود والنصارى المعبّر عنهما في الأحاديث المتواترة الصحاح بـ«قرنا الشيطان» ولما كان الأهم انتفاءه عليه الصلاة والسلام من دينهم، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه وبعد تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فدينكم مشوب بالشرك والعدوان والفسق والعصيان وديني هو التوحيد الخالص من شوائب الشرك وتلبيسات التوهب ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لا معبر ولا جسر ولا طريق... متاركة شاملة تزيد في غيظ قلوبهم حتى تتحقق الغيرية المذكورة في خاتمة الفاتحة، فإن المؤمن لما طلب أشرف طريق وسأل أحسن رفيق استعاذ من أولئك الذين شاهدتهم في التيه سائرين وعن القصد جائرين أو حائرين ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وقد خص الله

رسوله محمداً ﷺ بالأمية من بين سائر رسله لتحقيق هذه البراءة إتماماً للإعجاز الذي أيده الله به، فجعل الأمية وصفاً ذاتياً له، وهذه المباينة والمخالفة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الكامل الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق... الاختلاف في القبلة والوجهة والشرعة **(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)** ومن ثم يفر المسلم من الشرك في صورته الخفية التي تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافات وتتلوى، ويختلط الصالح بالفساد فيها اختلاطاً يغري أحياناً المسلم بالأمل في تعديل الجانب الفاسد، وهذا الإغراء في منتهى الخطورة... والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والمهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه... وبغير هذه المفارقة سيبقى الغش وتبقى المداينة ويبقى اللبس والترقيع... والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة، إنما لا تقوم إلا على البراءة الكاملة والمزايلة التامة... وسورة الكافرون براءة من الشرك كما جاء في الحديث الصحيح وتعديل ربع القرآن، وهي نفي لأي تشابه أو التقاء بين التوحيد والشرك، كما أن سورة الإخلاص إثبات وتقرير للتوحيد المطلق، وسُنَّ للمسلم قراءتهما في ركعتي الفجر ليظفر بالبراءة من الشرك والاتصاف بالتوحيد أول النهار ثمرة ما ورد أن من صلى الصبح كان في ذمة الله، ومن كان كذلك كان جديراً بأن ينال ما أشارت إليه السورتان اللتان بين الكافرون والإخلاص من الفتح والنصر له، والخيبة والحسرة لعدوه. وفي الآيات التالية حكمة بالغة ومنحة سابغة، وبصيرة لمبصر وعبرة لناظر مفكر **(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون)** فتشبت أيها الخفيف

بأذيال همم أرباب التحقيق من الأنبياء الهادين والأولياء المهتدين إذ هم خلاصة بحر الوجود وزبدة أرباب الكشف والشهود وإياك إياك أن تجالس أهل الضلال ولا تصاحبهم في حال من الأحوال فإن صحبتك معهم تبعذك عن الحق وتغريك نحو الباطل فإن النفوس الإنسانية سارقة طبعاً مائلة نحو الباطل قطعاً.

﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي التي أسلكها وهي الطريقة المحمدية المخالفة لشياطين أهل الكتاب العاملين على التفريق والخراب الجاهدين لفصل ما أمر الله به أن يوصل ووصل ما أمر الله به أن يفصل وإبرام ما يجب فصله وفصم ما يجب إبرامه! فالمتبعون له ﷺ سائرون وراءه "أنا ومن اتبعني" لأنه إمامهم فهو إمامهم هؤلاء على بصيرة في كل العوالم وقد أشرقت عليهم أنواره التي جاء بها ﷺ فاستنارت قلوبهم وعقولهم ومداركهم وحواسهم ووجوههم كل واحد منهم على حسب اتباعه، شمسهم التي تشرق نورها عليهم هي الشمس المحمدية يستمدون أنوارهم منها... روى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن أبي قلابة أن عمر بن الخطاب مرّ برجل يقرأ كتاباً سمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل: أتكتب من هذا الكتاب؟ قال: نعم، فاشتري أديماً لنفسه ثم جاء به إليه فنسخه في بطنه وظهره ثم أتى به النبي ﷺ فجعل يقرأه عليه وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى إلى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ هذا الكتاب؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلككنم المتهوكون» والتهوك هو التحير! والشرعية المحمدية لا التباس فيها ولا تحير ولا شك ولا وهم كلها حقائق وبصائر مبصرة

لكل عاقل فلا يميل إلى أهواء فاسدة وآراء ضالة وعقائد زائغة فإنه لا يزيغ عن الطريقة المحمدية إلا هالك وكان بعد ذلك الفاروق الأعظم سيدنا عمر رضي الله عنه يعلو بالدرة من يقرأ كتبهم على نحو ما رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف والعسكري في المواعظ وابن الضريس في فضائل القرآن عن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة رجل يطلب كتب دانيال وذاك الضرب فجاء فيه كتاب من عمر بن الخطاب أن يُرفع إليه فلما قدم على عمر علاه بالدرة ثم جعل يقرأ عليه "الر تلك آيات الكتاب المبين" حتى بلغ "الغافلين" قال: فعرفت ما يريد، فقلت: يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما أدع عندي شيئاً من تلك الكتب إلا حرقته، قال: ثم تركه. والأثر أخرجه المتقي الهندي في الكنز في "صفات المنافقين" والكلام في الآية الكريمة متصل بالآيات التي أوردها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قوله ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وأفضى إلى قوله ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ ثم انتقل إلى وصية يعقوب عليه السلام ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت﴾ وانتهى إلى قوله ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ روى ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن عن العرياض بن سارية أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك» فما ترك رسول الله ﷺ أمته في حيرة ولا في عماوة ولا جهالة ولا في ظلمة بل تركهم على ملة غراء وشريعة سمحاء بيضاء لا يميل عنها إلا هالك يتبع أهواء أهل الكتاب... وبالجملة فالحكمة الكبرى في إرسال الرسل ليست إلا معرفة الصانع المجيد وعبادة البارئ المبدئ المعيد، ولا سبيل إلى ذاك المطلوب الجليل سوى الوقوف على مواقف التنزيل واتباع الرسول الجليل ﷺ وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عارفاً بطريق الإيصال إليه

سبحانه على حجة واضحة غير عمياء، وإذا تحقق الحكم لله تحققت العبادة، وما عدا ذلك عبودية للعبيد وإن تراءت في صورة التوحيد.

إن جاهلية بني إسرائيل لا تختلف في مقوماتها عن كل جاهلية أخرى واجهتها دعوة الرسل على مدار التاريخ، والذين يظنون أنهم مسلمون عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي في جزيرة العرب والتدسس الناعم من خلال الدعوة الوهابية إلى الإسلام! هؤلاء لا يدركون طبيعة الإسلام، إن أصحاب ميثاق الدرعية أنفسهم يكشفون اليوم عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص؟ وسبيلهم التي تفرق تماماً عن سبيل الجاهلية؟ إن الرسول الأعظم ﷺ ليس بدعاً من الرسل ورسالته ليست بدعاً من الرسالات وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل آيات معروضة في الأرض ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ وأهل الكتاب يعرفون جيداً عاقبة الذين من قبلهم... يعرفون أن الله أهلكهم بسبب استهزائهم برسلمهم وإعراضهم عن توحيد ربهم! يعرفون الحق ثم يكتُمونه! يعرفون سبيل الإسلام لكنهم يبغونها عوجاً فلا يؤمنون بها ويطلبون لها تأويلاً وإمالة إلى الباطل ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾ والعوج يعني به الزيغ والتحريف أي تلتمسون لسبيله الزيغ والتحريف بالشبه التي توردها على الضعفة فالمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد، والآية نزلت في أحبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح، وكان الأوس

والخزرج في الجاهلية قد شجر بينهم بسعاية بني إسرائيل ما شجر حتى تفانوا، فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم وأصبحوا عدة للإسلام فساء ذلك اليهود فقام شاس بن قيس وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - وما أشبهه بشيطان الدرعية... أشبه الفرخ أباه... والعصا من العصية... وهل تلد الحية إلا حية - فمر على نفر منهم في مجلس لهم يتحدثون فغاضه ذلك وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم وقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم. وكانت تلك الحروب قد ضربتهم وأفنت سراهم حتى رفعها الله بالإسلام، فحذّرهم الله تعالى من طاعة أهل الكتاب وعدّد نعمته عليهم وعلى المؤمنين في تأليفهم بعد العداوة وذكرهم بها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ والاعتصام بالقرآن مستلزم الاعتصام بالسنة لقوله ﷺ: «ترك فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ» وهذا دليل على ملازمة السنة للكتاب ولا

يجوز فصل السنة عن الكتاب لأنها بيان له كما قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي علينا أن نبينه لك ثم تبين للناس ما نزل إليهم... وفي رواية لمسلم: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي» والتحقيق أن الروایتين يكمل بعضهما بعضاً فالسنة: تعليم، والعتره: تزكية... فالتعليم من دون تزكية لا يؤتي أكله وربما أفضى إلى النكوص على الأعقاب والوقوع في طاعة قادة النفاق والتلقي عنهم واقتباس منهاجهم والتخلي عن منهج الله وهذا بذاته ديبب الكفر في النفس وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب، ومن ثم ورد التحذير الشديد للمؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم» ولما عجز أهل الكتاب أن يحاربوا الإسلام ظاهرين تلبسوا فيه مكرين وبذلوا في سبيل تحويل الأمة عن دينها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة ومن قوة وعُدة، وحين يجد إخوة القردة والخنازير استماعاً واتباعاً من بعض السُّدَج من المسلمين فهم ولا شك سيستخدمونهم في نهش أمتهم وسيقودونهم ويقودون الأمة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال، ومن ثم جاء هذا التحذير الحاسم المخيف ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً

من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) وقد أخبر النبي ﷺ عن أربع فتن تصير الأمة فيها إلى الكفر على نحو ما ورد في الفتن لنعيم بن حماد عن أرطاة بن المنذر قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تكون في أمتي أربع فتن تصيب أمتي في آخرها فتن مترادفة فالأولى تصيبهم فيها بلاء حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، والثانية حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، والثالثة كلما قيل: انقضت تمادت، والفتنة الرابعة تصيرون فيها إلى الكفر إذا كانت الأمة مع هذا مرة ومع هذا مرة بلا إمام ولا جماعة» وأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على صرف المسلمين عن المشرب الحمدي والطريق الأحمدى والنظر في أدلة الإسلام وعن أعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد إلى القول بالتشبيه والجهة والمكان والجسمية وصفاتها ولوازمها! فجمعوا بين الضلال والإضلال! وهنا يتوجه الخطاب إليهم بالتقريع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً﴾ وسبيل الله المصدود عنها هي السبيل الحمدي الذي لا سبيل في الحقيقة غيره، والسبيل التي يريدونها هي ما هم عليه من الدين بعد نسخه وتحريفه! والعوج الذي طلبوه شبههم أو وصفهم لها بما يُنقصها أو يناقضها وإلا فلا عوج فيها ولذا جوّز فيه التهكم! ويحتمل أن يكون المعنى: تطلبون زوالها فإن العوج يفضي إلى الزوال أو ترومونها معوجة أي تبغون سبيلاً معوجة وهي سبيل الشرك! وقد حُكي نظير ذلك في قوله تعالى ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ أي تطلبون اعوجاجها وتصفونها بما ينفر السالك عنها من الزيغ والميل عن الحق والسعي في إلقاء الشكوك والشبهات فيه ومحاولة تقبيح صفته بكل الحيل.

خالفوا اليهود والنصارى

وردت في السيرة والأحاديث النبوية حوادث دالة على سيطرة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي ومن ذلك ما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية» وفي رواية: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية» وفي رواية للبخاري: «وكان يوماً تستر فيه الكعبة» فلما قدم النبي ﷺ المدينة أمر بمخالفة أهل الكتاب كما روى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، صوموا قبله يوماً أو بعده يوماً» فأمر ﷺ بمخالفة أولياء الشيطان في أدنى جزئيات الدين، وحكى تعالى في كتابه المبين شدة عداوتهم لعباده المؤمنين، وأخبر سبحانه بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم لا يرضون من المؤمنين بأدنى من الموافقة فيما أقاموه لهم من أمور الملة والدين، ولذلك حثَّ جلَّ شأنه على مخالفتهم وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم وأوصى بالتبري من سيئ حالهم والتنزه عن سوء محالهم ونفّر الأمة عنهم وحذرهم منهم بخطاب الرأس ليكون ذلك أدعى لقبول الأتباع فقال (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وبذلك جاءت الوصايا النبوية الشريفة فقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار بيض لحاهم فقال: «يا معشر الأنصار حمّروا وصفّروا وخالفوا أهل الكتاب» قال: فقلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسولون ولا يأترون، فقال رسول الله ﷺ: «تسولوا وائتروا وخالفوا أهل الكتاب» قال: فقلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يتخفون ولا ينتعلون، قال: فقال النبي ﷺ: «فتخفوا وانتعلوا وخالفوا أهل الكتاب» قال: فقلنا: يا رسول الله إن أهل

الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم، قال: فقال النبي ﷺ: «قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب» ويُفهم من الحديث أنهم ليسوا على حال واحدة بل يتقلبون وهذا أمر مشاهد فإنهم اليوم يتسربلون ويتنعلون ويصلون في خفافهم ونعالهم خلافاً لحالهم بالأمس ومن ثم جاء التوجيه النبوي حاضاً على مخالفتهم في جميع أحوالهم لأنهم خالفوا أوامر الله وعصوا رسله! وتفسيراً لهذا المعنى الكريم يقول الرسول العظيم: «لا تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» ومما يروى في هذا الباب ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود والنصارى، فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا في نعالهم» وروى الإمام محيي الدين عبد القادر الجيلي في الغنية أن رسول الله ﷺ قال: «صوموا يوم السبت والأحد، وخالفوا اليهود والنصارى» وفي رواية للطبراني عن جابر بن عبد الله قال: قالوا: يا رسول الله إن المشركين يتسربلون ولا يتزرون؟ قال: «تسربلوا أنتم واتزروا» قالوا: يا رسول الله فإن المشركين يحتفون ولا ينتعلون؟ قال: «فاحتفوا أنتم وانتعلوا، خالفوا أولياء الشيطان كلما استطعتم» وقد نبّه الرسول الأعظم ﷺ هنا على المولاة بينهم وبين الشيطان وهذا منطوق ما رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا» قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا» قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: «هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان» إشارة إلى بني إسرائيل. وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع

قرن الشيطان» يعني المشرق. وفي رواية: «إن الفتنة تجيء من هاهنا» وأوماً بيده نحو المشرق «من حيث يطلع قرنا الشيطان» أي اليهود والنصارى. فتبصر أيها اللبيب بالإنصاف، ولا تتهور بتقليد ذوي الاعتساف.

(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس

المصير)

يقول الحق جل جلاله: يا أيها النبي أي المشرف حالاً، المفخم قدراً، العلي رتبة، لأن النبوة مشتقة من النبوة وهي الرفعة لأنه مرفوع الرتبة ورافع رتبة من اتبعه، أو من النبأ وهو الخبر أي يا أيها المخبر عنا، المأمون على وحيانا، المبلغ خطابنا إلى أحبائنا... وعطف المنافقين على الكفار للتوضيح والبيان وتعدد الصفة، يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالكفر والنفاق وهو وصف لطائفة واحدة، وفي القرآن من هذا الباب كثير وهو أن يُنعت قوم بنعوت شتى يُعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد، ونظير هذا في صحيح الإمام البخاري: «رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر» وهذا العطف البياني له نظائره في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن وهو يخاطب كل جيل بما يدخل في طوقه ويلامس واقعه، فلا ينكر أن يأتي بما هو في كلامهم معروف مشهور إلا من عدم حسه وفارق فطنته. ومعنى الآية: جاهد الكفار والمنافقين بالبيان والسنان، وخالفهم في الأقوال والأفعال، ونكّل بهم ليكون ذلك أهيب وأوقع للفرع في قلوبهم. وهذه الآية إيذان للمنافقين بأن النفاق يوجب قتالهم قطعاً لشأفتهم، وإنما كان ﷺ ممسكاً عن قتلهم سداً لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام

كما قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فلما كثر الداخلون في الإسلام وشاع من أمر المنافقين وخيانتهم ما تحققه النبيه والخامل والعاقل والجاهل، لا جرم آذهم بالحرب وتمحضت المصلحة في استئصال شأفتهم ووجوب قتالهم بعد أن صرحوا بكلمات الكفر وصدرت منهم أقوال وأفعال تدل على أنهم مستهزون بالدين، وعلم الله أنه إن بقيت هذه الفئة تفاقم أمرها وعسر تداركها واقتدى بها كل من في قلبه مرض، ومن حكمة الإعلام بهذا الجهاد تهيئة المسلمين لجهادهم في مرحلة استخلافهم لا سيما أنهم نقضوا عرى الإسلام وزعموا أنهم مسلمون.

الفصل الرابع:

فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا

أي جاهدكم بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة. والنهي مستعمل في التحذير من أدنى طاعة، والكلام متصل بمطلع السورة (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) ثم تخلص إلى إبطال طعنهم والرد على تعللهم الفاسدة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وانتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيته موسى عليه السلام وكيف استأصل تعالى الذين كذبوه، واستطرد بذكر قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط، ثم انتقل إلى استهزائهم بالنبي ﷺ وأشار إلى تخرجه من إعراض قومه عن دعوته، وتسلسل الكلام بضرب المثل بمدّ الظل وقبضه وبحال الليل والنهار وبارسال الرياح إيماء إلى إحياء القلوب الميتة كما تحيا الأرض المجدبة إذا ما مسها المطر، حتى انتهى إلى قوله (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا، فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا) أي لو شئنا لحففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا في كل قرية نبيا ينذرنا ولكن شئنا أن نجتمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين فقصرنا الأمر عليك وعظمنالك به فتكون وحدك ككلهم فقابل ذلك بالشدة والعنف لا بالملاينة والملاءمة والمداراة وجاهدكم بالقرآن وجادلهم به وقرعهم بالعجز عنه جهادا كبيرا موقعه عندهم إذ يُفزع قلوبهم ويزلزل نفوسهم ويُضعف شوكتهم ويكسر سورتهم، وكما آثرتك على جميع الأنبياء فأثر رضائي على جميع الأهواء وأريد بهذا تهيجه وتهيج المؤمنين وتحريكهم كما في قوله تعالى "يا أيها النبي جاهد

الكفار والمنافقين واغلظ عليهم" وجهادهم بالقرآن هو جهادهم بحججه ومجادلتهم بإقامة بيناته وهذا الجهاد بالبرهان أكبر وأشد على المستخلفين المخالفين من جهاد السيف والسنان ولذا سماه الحق تعالى جهاداً كبيراً وهذه الآية الكريمة تدل على أمور: الأول: الأمر بمجادلتهم ومجاہتہم بالبينات والحجج المزیلة لشبهاتهم والمبطله لمزاعمهم والدامغة لأدلتهم حتى تزول ظلمات الشكوك والشبهات بأنوار الحجج والبينات. الثاني: في الآية دليل صريح على أن سيف حجج القرآن سيف بآثر قاطع يقطع دابر حجج الكافرين ويدحض شبهاتهم ويبطل ضلالاتهم على مختلف أنواعها وأنه ما من ضلالة ولا شبهة ولا باطل إلا وفي القرآن ردُّ عليه وإبطال له بحجج معقولة وبينات مقبولة يعلم ذلك من تدبر آيات الله وتفكر فيها ولولا أن سيف حجج القرآن قاطع ومدمر لأباطيل وضلالات المبطلين ما أمر الله نبيه ﷺ أن يجاهدهم به وهل يتصور العاقل أن الله تعالى يعطي رسوله ﷺ سيفاً مثلوماً غير قاطع ثم يأمره أن يجاهدهم به فإن ذلك يعود على دعوته بالنقض والخذلان كلا ثم كلا بل لما أمره تعالى بذلك علمنا يقيناً أن في القرآن سرّاً يقطع دابر الكافرين. الثالث: من هنا يعلم العاقل أن هذا القرآن قام على دعائم الحجج والبراهين التي فيها ابتلاج الحق وزهوق الباطل. قال الإمام الماتريدي: فيه دلالة إثبات رسالته لأنه أمر بالخلاف لهم والقيام بمجاهدتهم بالحجج والآيات وهم يعلمون ألا يكون في وسع واحد القيام لذلك لأمثالهم وكانت همتهم القتل والإهلاك لمن خالفهم فعلموا أنه إنما قام لذلك بالله لا بنفسه إذ لا يملك واحد القيام لذلك والله أعلم. وقال الإمام القشيري: أي كن قائماً بحقنا من غير أن يكون منك جنوح إلى غيرنا أو مبالاة بمن سوانا فإننا نعصمك بكل وجه ولا نرفع عنك ظل عنايتنا بحال. وقال الإمام النسفي:

اجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدكم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة. وقال العلامة الآلوسي: ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة وأوفرهم حظاً المجاهدون بالقرآن منهم. وبعد أن أمر المولى سبحانه بجهادهم بالفرقان أردف ذلك بمشهد من مشاهد البحار (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) وفي الآية من مفارقتهم ومزايلتهم ما لا يخفى كما أن الماء العذب لا يختلط بالملح الأجاج مع كون نسبة الماء العذب من الملح الأجاج كنسبة الصّتم إلى الجيش الدّهم، ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد، وإذا نظر العاقل إلى قدرة الله وتكوينه وحكمته كيف جعل من ضخامة وغزارة البحر الأجاج سداً يمنع من طغيانه على العذب القليل اليسير علم يقيناً أن التصرفات الحادثة في عالم الكون والفساد إنما هي مستندة إلى الله واقعة في ملكه وملكوته فليتوكل الموحد المفوض أمره كله إليه وليبذل مهجته في ترويج دينه وطريق توحيده وإعلاء كلمته. قال ابن عطاء: تلاطمت صفتان فتلاقيتا في قلوب الخلق فقلوب أهل المعرفة منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفة معرضة عن سنن التوفيق وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها ليس معها خطاب ولا لها جواب.

ما ذكر عن بني إسرائيل في اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» القتال هاهنا عبارة عن الطرد والإبعاد عن الرحمة فمؤداه ومؤدى اللعنة واحد. فإن قيل: لم خصص اليهود هنا بالذكر؟ فالجواب: أنهم ابتدعوا هذا الاتخاذ وابتدؤوا به فهم أظلم، وضم إليهم النصارى في رواية الإمام مسلم: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقد استشكل ذكر النصارى في الحديث إذ أنه لم يكن لهم نبي بعد عيسى عليه السلام وقد رفع ولم يُقبر، وأجيب بأن أنبياء اليهود أنبياء للنصارى أي يهود ونصارى بني إسرائيل لأن أنبياءهم أرسلوا إليهم ولم يرسلوا إلى الناس كافة، واتخاذ قبور أنبيائهم مساجد يماثل اتخاذ أنبيائهم أرباباً وهو إنما كان لإضلال الناس لا للاعتقاد الناشئ عن ولايتهم وصلاحهم وحبهم إياه من المعلوم أن بني إسرائيل قد آذوا أنبياءهم ورموهم بالسحر والجنون ولم يخل حالهم مع أنبيائهم من التكذيب أو القتل بل يفتخرون بقتلهم كما في شأن عيسى عليه السلام زعموا أنهم قتلوه في تبجح واستهزاء! أما اليوم فقد اتخذوا من هذه النصوص وسيلة للتخلص من جرائمهم وطلباً لتفريق كلمة المسلمين وتشغيلاً وتشكيكاً في عقائدهم! عملاً بالمثل السائر "المهجوم أفضل وسيلة للدفاع" ونحن الآن نعصد الكلام بوضحة لا يأبأها منصف، ولا يفتحهم ردها إلا متعسف، قال الإمام ابن بطال في شرح صحيح البخاري: فإن قيل: فهل يجوز أن يبنى المسجد على قبور المسلمين؟ وهل يدخل ذلك في معنى لعنة اليهود لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد؟ قيل: لا يدخل في ذلك لافتراق المعنى وذلك أنه عليه السلام أخبر أن اليهود يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ويقصدونها بعبادتهم وقد نسخ الله جميع المعبودات بالإسلام والتوحيد

وأمر بعبادته وحده لا شريك له. اهـ. فمعنى اتخاذ القبور مساجد: أي السجود لها على وجه عبادتها كالسجود للأصنام وهذا المعنى منطوق اللفظ وحقيقته ولذا قال ﷺ كما في الموطأ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وبدعائه ﷺ حفظ الله تعالى أمته من عبادة قبره ولذا عمد أهل الكتاب إلى تحريف معنى هذه الأحاديث النبوية وأوهموا بعض الأغرار أن المراد منها ما قرروه من أهوائهم الزائغة، فإن الإشارة في الحديث إلى من اتخذوا القبور مساجد لعبادتها لا إلى بناء المسجد بل هو جائز على الأصل فإن المسجد النبوي لما ضاق بالمصلين بعد الزيادة التي زادها عمر وعثمان رضي الله عنهما قام عمر بن عبد العزيز بإزالة بيوت أمهات المؤمنين وأدخلها في المسجد وفيها القبور الثلاثة ولم يبن جداراً يحجز بينها وبين المسجد فلم ينكر عليه أحد من العلماء ولم ير أحد منهم أن إدخال القبور في المسجد مخالف للدين، وتوالت القرون والمسجد النبوي يزار من طبقات الأمة، والروضة الشريفة داخله يزورونها ويتبركون بها، وهذا إجماع قطعي يفيد أن وجود القبر في المسجد لا شيء فيه، يضاف إلى هذا الإجماع حديث: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» وروي بلفظ: «بيتي» وهذا اللفظ ترجم له الإمام البخاري في صحيحه بقوله: "باب فضل ما بين القبر والمنبر" للإشارة إلى أن قبره في بيته إذ لا يمكن أن يكون ما بين القبر والمنبر روضة إلا بكونهما داخل المسجد لا خارجه وهذا مدرك بالضرورة الحسية، وقد أجمع الصحابة على دفنه ﷺ في بيته. والدليل على جواز بناء المساجد على القبور قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْهُمْ أَعْثَرُ غَائِبِهِمْ لِيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ بِاللَّهِ يَكْفِرُونَ﴾ وفيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين

غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) والذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون على الصحيح لأن المسجد إنما يبينه المؤمنون وأما الكافرون فقالوا ابنوا عليهم بنياناً، والدليل من هذه الآية إقرار الله تعالى إياهم على ما قالوا وعدم رده عليهم فإن الله تعالى إذا حكى في كتابه عن قوم ما لا يرضاه ذكر معه ما يدل على فسادهم وبينه على بطلانه إما قبله وإما بعده فإذا لم ينبه على ذلك دل على رضاه تعالى به وعلى صحته، فإن قيل: هذا مسلم لو لم يرد شرعنا بدم ذلك فقد لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، والجواب عن هذا من وجوه: الوجه الأول: أن الله تعالى حكى ذلك عن المؤمنين والنبي ﷺ حكاه عن اليهود والنصارى وفرق بين حال الفريقين فإن المؤمنين فعلوا ذلك للتبرك بآثار الصالحين الذين أكرمهم الله تعالى بهذه الآية وحفظ أرواحهم وأجسامهم تلك القرون الطويلة، واليهود والنصارى يفعلون ذلك للعبادة والإشراك مع الله تعالى، فالدليلان غير متواردين على محل واحد فإن النبي ﷺ إنما لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد يأمرهم بعبادتها والسجود إليها ويجعلونها قبلة لاتخاذهم الأنبياء شركاء مع الله تعالى فيما يستحقه من العبادة. الوجه الثاني: أنه لو كان كل من بنى على المسجد قبراً ولو للتبرك والزيارة ملعوناً كما في الحديث لكان هؤلاء المؤمنون الذي حكى الله عنهم ملعونين أيضاً داخلين في لعنة النبي ﷺ على من فعل الذي حكاه الله عنهم ولو كانوا كذلك لما سكت الله تعالى عن ذمهم ولعنهم والإشارة إلى ضلالهم وخروجهم عن الصراط المستقيم فيما أتوا كما عرف من عادته في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن الباطل الإقرار على حكاية المحرم الملعون فاعله فدل ذلك على أن فعلهم جائز لا شبهة فيه. الوجه الثالث: أن

النبى ﷺ قال فى الذين يتخذون القبور مساجد: «أولئك شرار الخلق عند الله» وثبت بالكتاب والسنة المتواترة أن أمتة خير أمة أخرجت للناس وأنها أشرف الأمم وأفضلها على الإطلاق وأنهم عدول اتخذهم الله تعالى شهداء على اليهود والنصارى وعلى الأمم السابقة وذكر الله لهم من الفضل ما رغبت الأنبياء والمرسلون فيه وتمنوا أن يكونوا من أمتة ﷺ وأخبر أنهم لا يجتمعون على ضلالة، وأن من لم يتبع سبيلهم فهو من أهل النار، وأن ما رأوه حسناً فهو عند الله حسن، وقد علم الله تعالى فى سابق علمه وما قضاه وقدره فى أزله أن هذه الأمة ستجتمع أولها وآخرها على بناء المسجد على قبر نبيها أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وعلى اتخاذ المساجد على قبور الأولياء والصالحين والعلماء العاملين وعلى شد الرحال من البلاد البعيدة إلى زيارتهم وقد شد الإمام النووي الرحلة من الشام إلى مصر لزيارة قبر الإمام الشافعي الذي عليه مسجد وقبة. الوجه الرابع: أنه جاء فى عدة أحاديث وآثار أن جماعة من الأنبياء والمرسلين مدفونون فى المسجد الحرام ما بين زمزم والمقام وأخبر النبى ﷺ أن منهم نوحاً وهوداً وصالحاً وشعيباً وأن قبورهم بين زمزم والحجر وكذلك ورد فى قبر إسماعيل أنه بالمسجد الحرام وهو أشرف مسجد على وجه الأرض هو ومسجد النبى ﷺ فلو كان وجود القبر فى المسجد محرماً لذاته لنبش النبى ﷺ قبورهم وأخرجهم فدفنهم خارج المسجد إذ أنهم أحياء فى قبورهم والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء. الوجه الخامس: أن ما لا يتوصل إلى المطلوب إلا به فهو المطلوب وزيارة القبور مطلوبة وقد أمر النبى ﷺ بها ورغب فيها وفى زيارة قبره المعظم على نحو ما روى الدارقطني وأبو الشيخ وابن أبي الدنيا كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من زار قبري وجبت له

«شفاعتي» أي له شفاعاة خاصة ترفع درجة الزائر وتزيد في تكريمه وتشريفه وهو حديث صحيح له طرق متعددة أفردھا الحفاظ بالتأليف ومنهم التقي السبكي. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى وكنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» رواه البيهقي كما في المواهب وشرحها، والله در القائل:

أتيتك زائراً ووددت أني ... جعلت سواد عيني أمتطيه

وما لي لا أسير على المآقي ... إلى قبر رسول الله فيه

وأما قول علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع تماثلاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» فالصحيح أنه أراد قبور المشركين التي كانوا يقدسونها في الجاهلية وفي بلاد الكفار التي افتتحها الصحابة رضي الله عنهم بدليل ذكر التماثيل معها وإلا فالسنة وعمل الصحابة على خلافه بالنسبة لقبور المسلمين وقبر سيد المرسلين فإن قبره ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما كانت مرتفعة بفعل الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب نفسه رضي الله عنه لأنه كان وقتئذ بالمدينة وهو من أهل الحل والعقد لا يفعل أمراً مثل هذا إلا بموافقة ولو كان عنده أمر من النبي ﷺ بتسوية القبور لما وافق على رفع قبره وقبر صاحبيه فكيف يجوز مع هذا أن يأمر أبا الهياج بتسوية القبور؟ والذي عليه التعويل في الجملة والتفصيل أن الصحابة رضوان الله عليهم شهدوا وغنبا، واستيقنوا عن عيان واستربنا، وكانوا قدوة الأنام وأسوة الإسلام، لا يأخذهم في الله عدل وملام، ولم يرهق وجوههم الكريمة وهج البدع والأهواء، ولم يقتحموا جرائم اختلاف الآراء، فليت شعري كيف لم يفهموا

على ذكاء القرائح النصوص الشاهدة على أهل الكتاب بالقبائح، وتفطن لها المتضمنون بالمخازي والفضائح؟! ومن الأدلة على أن قبور الشهداء والصحابة كانت مرتفعة ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي بصير قال: وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير ليقدا عليه ومن معهما من المسلمين أن يلحقوا ببلادهم وأهليهم فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ بيده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه وبنى على قبره مسجداً. اهـ. ولا شك أن النبي ﷺ اطلع على ذلك ولم يأمر بهدمه إذ لو أمر بذلك لنقل في نفس الخبر أو غيره لأنه شرع لا يمكن أن يضيع بل يستحيل ذلك لخبر الله تعالى أنه حفظ الدين من أن يضيع منه شيء ولا يصل إلى آخر هذه الأمة ما وصل إلى أولها فلما لم يأمر بهدمه دل ذلك على جوازه. وبالجملة فإن تسوية القبور وتسطيحها صار اليوم شعاراً لأهل الكتاب وقد أمرنا بمخالفتهم. وروى أبو داود عن المطلب قال: لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنائزه فدفن فأمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر فلم يستطع حمله فقام إليها رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه، قال كثير: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك: عن رسول الله ﷺ، قال: كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنهما ثم حملها فوضعها عند رأسه وقال: «أتعلم بها قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي» فهذا تأسيس لوضع العلامة على القبر وتشريع لها وللمحافظة على القبر لا سيما قبور الصالحين والعلامة لا تنحصر في الصخرة وإنما وضعها النبي ﷺ لأنها كانت المتيسرة أمامه ساعة الدفن، وروى البخاري في صحيحه عن خارجة بن زيد قال: «رأيتني ونحن شبان في زمن عثمان رضي الله عنه وإن أشدنا وثبة الذي يشب قبر عثمان بن مظعون حتى

يجاوزه» وكون الشاب لا يستطيع أن يثب عليه إلا إذا كان قوياً شديداً يدل على عظم ارتفاعه وتباعد جانبيه وذلك لا يمكن بالتراب وحده ولا بالصخرة وحدها لوجوه: أحدها: أن وضع التراب الكثير على القبر الزائد على الخارج منه مكروه. والثاني: أنه لا يمكن في العادة أن يبقى التراب الكثير مرتفعاً مجموعاً فوق القبر أزيد من ثلاثين سنة. والثالث: أن التراب المجلوب لا يمكن أن يرتفع هذا الارتفاع المشار إليه دون أن يخالطه حجارة وطين كما أنه لا يمكن أن يدوم هذه المدة الطويلة فإننا نرى التراب الذي يجعل على القبر لا يمر عليه سنة أو سنتان حتى يذهب وتنسفه الرياح ويبقى القبر مسوى بالأرض. والرابع: أن هذا لا يمكن أيضاً بالنسبة للصخرة التي وضعها رسول الله ﷺ عند قبره لأنها وإن كانت كبيرة فهي لا تصل إلى هذا الحد الذي لا يستطيع أن يثب عليها إلا الشاب القوي لأن النبي ﷺ حملها بيده الكريمة ووضعها عند القبر وأيضاً لو كان ذلك بالنسبة لها لقال: وإن أشدنا الذي يثب الصخرة التي على قبر عثمان، مع أنه عبر بالقبر دون الصخرة فدل على أنه كان مبنياً في زمن الخلفاء الراشدين الذين فهموا من وضع العلامة على قبره الإذن في البناء عليه، فقد روى ابن أبي شيبه في المصنف عن عبد الله بن أبي بكر قال: «رأيت قبر عثمان بن مظعون مرتفعاً» فهذا صريح في أنه كان مبنياً بناء مرتفعاً. وفي رواية له عن الشعبي قال: «أتيت على قبور شهداء أحد فإذا هي مشخصة من الأرض» والقبور المشخصة بالتراب لا يمكن عادة أن تبقى من وقت عزوة أحد في السنة الثالثة إلى زمن التابعين.

وبهذا الجمع بين الأحاديث يرتفع الإشكال في الباب ويُعلم خطأ من يذهب إلى وجوب تسوية القبور وهدم ما عليها من البناء والقباب كأهل الكتاب الذين

فعلوا ذلك بقبور الصحابة والشهداء والصالحين بالمدينة ومكة وغيرهما مما احتلوه من البلاد فليتنق الله من ينصر مذهبهم الفاسد ورأيهم الباطل وضلالهم المنصوص عليه من النبي ﷺ إذ سماهم كلاب النار وأخبر بأنهم شر من تحت أديم السماء وأنهم رأس الكفر وأنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية وأنهم يقولون من خير قول البرية وهو ما يتشدقون به من التوحيد والعمل بالسنة ومحاربة البدعة وهم والله غرقى في البدعة بل لا بدعة شر من بدعتهم، فليحذر المسلم من تلبسائهم ودعوتهم الإبلسية التي ما تمسك بها أحد إلا كان خاتمة أمره الإلحاد والمروق من الدين كما هو مشاهد.

روى الإمام مالك في الموطأ: كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا ييقين دينان بأرض العرب» وهذه الرواية تشير إلى يهود ونصارى جزيرة العرب أعني الأئمة المضلين أهل النفاق والزيف والتدليس، وأصحاب التبديل والتحريف والتلبيس. والحديث برواياته من جوامع الكلم الذي خص به هذا النبي المكرم ﷺ وهو مشتمل على بيان إضلالهم فإنهم إنما استحقوا اللعن لاحتياهم في الدين إذ دعوا أتباعهم الذين تدينوا باليهودية والنصرانية إلى عبادة القبور ونحتوا فيها الصور والتمائيل إضلالاً واستعباداً لهم كما جاء في الصحيحين: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» فاتخاذهم الصور والتمائيل فيه دليل على أنهم يفعلون ذلك لأجل عبادتهم ومعلوم أنهم أشركوا بعبادة صور الصالحين وقبورهم وهذا لا يوجد منه شيء عند المسلمين، فيؤول اتخاذ اليهود والنصارى قبور أنبيائهم مساجد على إرادة عبادتها والصلاة إليها بدلالة ثبوت اللعن

عليهم. قال القاضي عياض: كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور أنبيائهم ويجعلونها قبلة ويتوجهون في الصلاة نحوها فقد اتخذوها أوثاناً فلذلك لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك، أما من اتخذ مسجداً في جوار صالح أو صلى في مقبرة وقصد الاستظهار بروحه أو وصول أثر ما من أثر عبادته إليه لا للتعظيم له والتوجه نحوه فلا حرج عليه، ألا ترى أن مرقد إسماعيل عليه السلام في المسجد الحرام عند الحطيم، ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلي لصلاته. وروى الخطيب البغدادي عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأترك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم - يعني زائراً - فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تُقضى. وزيارة قبر النبي ﷺ من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال ومشروعيتها محل إجماع بلا نزاع، كذا ذكره شيخ الإسلام ابن حجر في الفتح. ولا يزال أهل التوحيد يخرجون من بيوتهم بنية الزيارة النبوية المشرفة يقصدون هذا النبي الأُمي المعظم شأنه ﷺ من أقاصي الأرضين لا يلوون على أحد، سار في ذلك العلماء والجموع والوحدان، والمشايخ والكهول والشبان، حتى ظهر في آخر الزمان أولياء الشيطان، لبسوا على أشباه الرجال ومن شابههم من سيئي الأذهان، فصدوهم بتمويههم عن سبيل أهل الإيمان، ولا يمكن لعاقل أن يسمع لهم ويذر كل هذا التضايف من أئمة الإسلام وهداة الأنام. قال حجة الإسلام الإمام الغزالي في الإحياء: وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بالحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها الخبر: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» والحديث إنما ورد في

المساجد وليس في معناها المشاهد لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام فالمنع من ذلك في غاية الإحالة فإذا جوز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد. اهـ. والحق أن حال بني إسرائيل مع قبور أنبيائهم كحالهم مع أنبيائهم، ولما كانت كراحتهم للأنبياء تحوّل بينهم وبين توقيرهم والاستظهار بمكانهم عمدوا إلى مسالك شيطانية بادّعاء ألوهيتهم وتألّبوا على تلفيق كلامهم وتضليل المتصدين للتبرك بهم وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والاحتيال والتلبيس! وقد حذّر ﷺ من التشبه بهم وذكر ما نالهم من اللعنة لما صدر منهم من التلبيس والتبديل والمغالطة وقلب الحقيقة وصرفها عن جهة الصواب كما ورد في الصحيحين: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. وذلك أنهم دعوا الناس إلى عبادة الأنبياء واصفين الله تعالى بالحلول والاتحاد فيهم! والحديث أورده الإمام البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ورواية الإمام مالك كشفت عن مكان إقامتهم وفضحت نفاقهم: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يقين دينان بأرض العرب» ومن المعلوم أن قبور أنبياء بني إسرائيل كانت في الشام والعراق ومصر فأراد ﷺ أن يُنبّه أمته إلى أولياء الشيطان في جزيرة العرب وقد وقعت اللعنة عليهم لأنهم بدّلوا القول وقصدوا عبادتها بدل التبرك بالقرب منها، وتبديل القول ديدنهم

ودأبهم في جميع أزمائهم! وقد أشارت آية البقرة ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير
الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ إلى
تبديلهم التوحيد بشرك العباد، والمعنى: فبدل الذين أشركوا بالعبادة قولاً غير
الذي قيل لهم. وأشارت آية الأعراف إلى تبديلهم التوحيد بشرك الحكم ﴿فبدل
الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما
كانوا يظلمون﴾ ونكتة الإتيان بلفظ ﴿منهم﴾ لأن شرك الحكم يخصهم دون
غيرهم لكونهم مستخلفين في الأرض. وسياق آيتي البقرة والأعراف يواجه بني
إسرائيل بانحرافهم ونكولهم عن دخول القرية سجداً خشعاً خاضعين لله
مستسلمين لحكميته جامعين بين الخضوع بالجنان والاستغفار باللسان، فخالفوا
أمر ربهم وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم إذ دخلوا منحرفين على أوراكهم وقالوا:
حبة في شعرة - استهزاء بأمر الله - وإذا كان ذلك الحادث قد وقع في الجليل
الأول الذي عاجله موسى أشد المعالجة؛ فإن تاريخهم كله واحد، قديمه كحديثه،
ووسطه كطرفيه، كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف، والقرآن يخاطبهم بأمر
يعرفونه... والمراد من الرجز في الآية ﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾ أي
الطاعون والوجع - والله أعلم - كما جاء في الصحيحين من حديث أسامة بن
زيد رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني
إسرائيل» الحديث. والطاعون يشمل الأمراض الخبيثة التي مات بها كثير منهم،
وإنما جعل من السماء لأن الملائكة رمتهم به جزاء تبديلهم الكلم!

إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه

اعلم أن السبت هو الراحة والسكون ومنه قول الأصمعي: "يصبح مخموراً ويمسي سبتاً" أي ساكناً، ومعنى الآية - والله أعلم - إنما فرض تعظيم يوم الراحة على الذين اختلفوا فيه وهم بنو إسرائيل، قال مجاهد: عدلوا عما أمروا به من تعظيم الجمعة تغليلاً لحزمة السبت والأحد. وقال الخفاجي: معنى اختلفوا فيه: خالفوا جميعهم نبيهم فهو اختلاف بينهم وبين نبيهم. وظاهر الأخبار يقتضي أنه عيّن لهم يوم الجمعة وقال: تفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وبدّلوه بالسبت، ثم جاءهم عيسى عليه السلام بالجمعة فاتخذوا الأحد كما جاء في الحديث المتفق عليه: «ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد» والمعنى أنه تعالى فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة فبدلوه، وفرض علينا ففزنا بفضيلته فمن فعل ذلك فهو تبع لنا. واستدل به الإمام النووي رحمه الله تعالى على فرضية الجمعة عليهم لقوله: "فرض عليهم فهدانا الله له" فإن التقدير فرض عليهم وعلينا فضلوا وهُدِينَا. قال الإمام الهروي في الزاهر: كان يسمى ذلك يوم العروبة في أولية العرب. وقال الكشميري في فيض الباري شرح البخاري: وقد ثبت عندي من التوراة أن السبت كان اسماً للجمعة ولا أدري متى وقع فيه التحريف، وكُتِبَتْ شروح التوراة في بيت المقدس وبابل ويقال لها "كمارى" وفيها أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يعظمهم يوم الجمعة ويشرهم بنبأ النبي السبتي، وفي الروايات أنه لما حارب مع العمالقة وكادت الشمس أن تغرب قبل أن يفتح له دعا الله سبحانه أن يؤخر غروب الشمس وكان غداً الجمعة، وفي الإنجيل أنهم صلبوا رجلاً يوم

الخميس فبادروا فيه لثلا يأتي عليهم السبت، فدل ذلك كله على أن السبت في التوراة هو يوم الجمعة. اهـ. وموقع الكلام في ملة إبراهيم بين الآية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وبين الآية ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ينادي على أنه تضمن متاركة أهل الكتاب وأن حرمة اليوم الذي يلي الجمعة والذي بعده لم تكن من ملة إبراهيم فأصحاب تلك الحرمة ليسوا على ملة إبراهيم، وقد قصّ الله تعالى في سورة الأنعام النازلة قبل هذه السورة ما حرّم عليهم من الشحوم والشروب ولحوم الإبل وكل ذي ظفر بسبب عصيانهم واعتدائهم... وكانت الحيتان تأتيهم يوم راحتهم كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم في سائر أيام العمل كما حكى تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ فَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ والكلام عطف على تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فكان يوم الراحة أي الجمعة من جملة ما بدلوه، وقد نهوا عن العمل فيه وأخذ عليهم الميثاق الغليظ كما في قوله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ فاستحقوا اللعنة والمسح وصاروا قردة تُعاوي لها أذناب على نحو ما ذكر في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿أَوْ نُلْعَنُكُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وقد بدلوا وغيروا كما

تقدم...وفي سورة الجمعة تعريض وإيماء يتخلله وعيد وتهجين ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ ومعنى لم يحملوها أي لم يعملوا بما في تضاعيفها التي من جملتها الآيات الناطقة بتعظيم يوم الجمعة، وفي الكلام تعريض بالتوبيخ ليكون توطئة للانتقال إلى قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ ولما كان دأب بني إسرائيل وديدهم حب الدنيا وزينتها وإيثار البيع واللهو والتجارة قال معرضاً بهم ناهياً عن التخلق بأخلاقهم ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ روى الطبراني عن أنس بن مالك قال: عرضت الجمعة على رسول الله ﷺ، جاء جبريل في كفه كالمرآة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء، فقال: «ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ولكم فيها خير تكون أنت الأول ويكون اليهود والنصارى من بعدك، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه بخير هو له قسم إلا أعطاه، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، وذلك أن ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين فجلس على كرسیه وحف الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجواهر وجاء الصديقون والشهداء فجلسوا عليها وجاء أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على الكتيب وهو كتيب أبيض من مسك أذفر ثم يتجلى لهم فيقول: أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل كرامتي فسلوني، فيسألونه الرضا فيقول: رضاي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فسلوني، فيسألونه الرضا فيشهد عليهم على الرضا ثم يفتح لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر إلى

مقدار منصرفهم من الجمعة وهي زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء مطردة فيها
أنهارها متدلّية فيها ثمارها فيها أزواجها وخدمها فليس هم في الجنة بأشوق منهم
إلى يوم الجمعة ليزدادوا نظراً إلى ربهم عز وجل وكرامته، ولذلك دعي يوم
المزید» وفي مسند الشاميين للطبراني: «تخسر الأيام يوم القيامة على هياتها وتخسر
الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى خدرها تضيء لهم
يمشون في ضوئها ألوانهم كالثلج بياضاً وريحهم كالمسك يخوضون في جبال
الكافور ينظر إليهم الثقلان لا يطرفون تعجباً حتى يدخلون الجنة لا يخالطهم
أحد إلا المؤذنون المحتسبون» وفي صحيح الإمام مسلم: «إن في الجنة لسوقاً
يأتونها كل جمعة فتهب ریح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً
وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلهم: والله
لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون: وأنتم، والله لقد ازددتم بعدنا حسناً
وجمالاً» وفي مسند الإمام أحمد: «إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا
على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها» وروى الإمام عبد الرزاق في
تفسيره عن معمر قال أخبرني من سمع مجاهداً يقول في قوله تعالى "إنما جعل
السبت على الذين اختلفوا فيه" قال: أرادوا الجمعة فأخذوا السبت مكانه. ولما
كان الإشراك واضحاً في أمرهم، استغنى عن التصريح بأنه ليس على دينهم ثم
حذر من الاختلاف مثبتاً أمر البعث فقال سبحانه "وإن ربك ليحكم بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" أي ليحكم بين هؤلاء المختلفين في قبول الجمعة
وردها وفي الإذعان لتحريم الصيد وإبائه فيجازى كل فريق منهم بما يستحقه،
وقد افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عن الشريك وإنذار المشركين ودعوتهم إلى
التوحيد وقدّم سبحانه حكاية كثير من استهزائهم وتكذيبهم لرسله على أبشع

وجه، وختمت بالأمر بالدعوة إلى سبيله تعالى على حسب مراتب المكلفين في قابليتهم ومقابلتهم وتقبلهم وإعراضهم **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)** وقد بين الحق هنا أنهم على أصناف ثلاثة: الأول: اللبيب الذكي الذي لا يعاند ولا يعارض له قلب واع يدرك الحقائق فهذا يُدعى بطريق عرض الحكمة عليه وإلقائها بين يديه فإذا بدت له أسرع إليها وتقبلها وتمسك بها وتعشقها. والثاني: العاقل القابل للحق ولكن سرت إليه عقائد أهل الكتاب فصارت عنده شبهات ضالة تمكنت فيه وهذا يُدعى بطريق الموعظة الحسنة والحجة المقترنة ببيان حقيقة بني إسرائيل أهل الكتاب الذين عناهم الحق بقوله **(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا)** وقد بين المفسر الأعظم رحمته الله حقيقتهم في أحاديث عديدة وأخبر رحمته الله عن اتباع أمته سننهم ولا بد في حسن الموعظة من لين المقال وعدم مقابلة الجافي بجفوة. الثالث: المستخلفون المفسدون المعاندون من بني إسرائيل وهؤلاء يجادلون بالتي هي أحسن **(وجادلهم بالتي هي أحسن)** أي ناظرهم بالحجة القطعية المزيحة للشبه والأقوال البليغة والعبر البينة والطرق التي درج عليها الأنبياء والرسل من الدعوة إلى الوحدةانية وجادلهم بها وادفع سفهمهم ببيانها تسكيناً لشغبهم وإطفاء للهبهم اتباعاً للأب الأعظم الذي أمرنا الله بالاستئنان بآثاره والافتداء بإضماره وإظهاره وهذه المجادلة تستلزم أن تكون الحجة عليهم قائمة على أساس مسلم ومقطوع به عندهم على نحو ما جاء على لسان منقذهم ورسولهم الأول **(فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)** فيُحتج عليهم بما يعرفون ولما كانت تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية فإن المكاملة

اللائقة هؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام ويُصار بهم إلى الجدال بالغلظة والأخذ بالشدّة والعنف والإلزام ويجري عليهم حكم الإسلام بالقتل والإخراج كما ورد عن صاحب البيان النبوي في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج النبي صلّى الله عليه وآله فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس فقال: «أسلموا تسلموا واعلموا أن الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله» فجاء صلّى الله عليه وآله بالبرهان الساطع والدليل القاطع حتى يكون المتبع له والسائر على سبيله وراءه على بصيرة من عقيدته بلا عماوة ولا غشاوة ولا غواية ولا ضلالة. وبذلك عانق آخر السورة أولها وواصل مفصلها موصلها ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد فسبحان من أنزله رحمة للعباد وهادياً إلى الصواب والساد.

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) جاءت قصة المعتدين في السبت مبينة نقضهم لما أخذ عليهم من الميثاق إذ كان حاصلها أنهم ضيعوا أمراً من أوامر الله تعالى وهو تحريم السبت واستخفوا به واحتالوا عليه بأنواع من الحيل فعذبهم بالمسخ وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترؤوا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه! والتحيل من طباع القردة وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة جراءة على الله تعالى (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) أي جعلنا الأمة التي مسخت عبرة أو عقوبة منكرة لما بحضرتها من الناجين وما يجيء بعدها من المستخلفين

وتذكرة للمتقين. ولما ذكر تعالى في سورة الأعراف ما هددهم به من العذاب الشديد، أتبعه الهلاك فقال "فلما عتوا" أي استعصوا وتكبروا جلافة وبيساً عن الانتهاء "عن ما نھوا عنه" أي من اعتدائهم في السبب وتحيلهم على التخلص من الأوامر والنواهي بمراعاتها ظاهراً ومخالفتها باطناً وكان إمھالهم مع الوعظ أكسبهم غلظ الأكباد "قلنا لهم كونوا قردة خاسئين" أي مبعدين صاغرين مطرودين. قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصادت، وفرقة نھت وجاھرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه، وإن هذه الفرقة لما رأت مجاھرة الناهية وطغيان العاصية وعتوها قالت للناھية "لم تعظون قوما" يريدون العاصية "اللھ مهلكهم أو معذبهم" على غلبة الظن وما عهد من فعل اللھ حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى اللھ، ثم اختلف بعد هذا فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النھي قاله ابن عباس رضي اللھ عنھما وقال أيضاً: ما أدري ما فعل بهم، وقالت فرقة: بل نجت مع الناهية لأنها لم تعص ولا رضيت قاله عكرمة والحسن وغيرھما، وقال ابن الكلبي فيما أسند عنه الطبري: إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين فرقة عصت وجاھرت وفرقة نھت وغيرت واعتزلت وقالت للعاصية إن اللھ يهلكهم ويعذبهم، فقالت أمة من العاصين للناھين على جهة الاستهزاء: لم تعظون قوماً قد علمتم أن اللھ مهلكهم أو معذبهم؟.

(وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) لما شرح تعالى قبائح أفعال بني إسرائيل وأنه مسخهم قردة صاغرين مطرودين؛ ذكر في هذه الآية أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، فقد سلط

عليهم الأمم ومزقهم في الأرض كل ممزق من بعد موسى عليه السلام إلى حين أنكروا رسالة عيسى عليه السلام، فكانوا مرة تحت حكم البابليين وأخرى تحت أيدي الفرس وكرة تحت قهر الروم وأخرى في أسر غيرهم يخربون ديارهم ويقتلون مقاتلتهم ويسبون نساءهم وذرايهم ويضربون الجزية عليهم حتى آل أمرهم إلى ثلاث قبائل فبعث الله تعالى عليهم رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة فجاس خلال ديارهم واستأصل بني قريظة وسبى نساءهم وذرايهم وأمر بإجلاء بني النضير وبني قينقاع.

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) لما أخبر تعالى بما على المفرقين بين الله ورسله وما لأضدادهم أتبعه بعض ما أرادوا به الفرقة، وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن العيزار قالا كذباً: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء نعاينه حين ينزل، فأنزل الله تعالى موجهاً لهم على ذلك مشيراً إلى كفرهم بالله ورسله موهياً لسؤالهم محذراً من غوائله مبيناً تعنتهم وسخريتهم، كأنه قيل: إن موسى لما نزلت عليه التوراة لم يكتفوا بذلك بل طلبوا منه الرؤية على سبيل المعاينة كقولهم (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) وهذا يدل على أن طلب هؤلاء لنزول الكتاب عليهم ليس لأجل الاسترشاد بل لمحض التعنت والسخرية! والذين سألوا موسى أكبر من ذلك هم النقباء السبعون الذين اختارهم موسى وإنما أسند السؤال إلى هؤلاء الحاضرين وإن وجد من آبائهم لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت والاستهزاء (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات) والمعنى بيان

كمال جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم فإنهم ما اكتفوا بعد نزول التوراة عليهم بطلب الرؤية جهرة، بل ضموا إليه عبادة العجل ولم يكن لهم شبهة في اتخاذه وإنما انتقلوا إلى التجسيم والحلول وجوزوا حلول الإله في العجل بعد استبصارهم بالتوحيد! وقوله ﴿وَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي حجة واضحة ومعجزة بينة. ثم ذكر تعالى آيات أخرى أظهرها لهم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَاثَهُمْ﴾ وقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقَا غُلِظًا﴾ والميثاق الغليظ هو المأخوذ على لسان موسى وهارون أن يأخذوا التوراة بقوة ويعملوا بجميع ما فيها ويوصلوها إلى أبنائهم ويتبعوا محمداً ﷺ، ودخول الباب سجداً كناية عن التواضع والخضوع والخشوع والإخبات الذي هو ثمرة الإيمان، ولما تعلق قلوب بني إسرائيل بالدنيا وتهالكوا عليها وتهافتوا فيها وفُتِنُوا بِهَا، شَدَّدَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الرَّاحَةِ لِيُرَوْضَ نَفُوسَهُمْ فَقَالَ ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ وقرئ بفتح العين وتشديد الدال، وفي قراءة ثالثة بإسكان العين مع تشديد الدال، وفي قراءة رابعة باختلاس فتحة العين مع تشديد الدال، وفي الحديث عند الترمذي والنسائي: «وَعَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ خَاصَّةً أَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ» فوقعوا في الضد مما أخذوا به ونقضوا الميثاق الذي رفع عليهم الطور بسببه وجعلوا بدل الإيمان كفرهم بآيات الله، وانتهكوا أعظم الحرم وهو قتل الأنبياء، وقابلوا أخذ الميثاق الغليظ بسخرية قائلين: قلوبنا غلف أي غلف على ما فيها وهي لصلابتها وقوتها تمنع أن يصل إليها غير ما فيها كالغلاف الذي يصون المغلف أن يصل إليه ما بغيره، فأضرب تعالى عن قلوبهم وأخبر أنه طبع عليها بسبب كفرهم بموسى وبسبب كفرهم بعبسى وقولهم على مريم المنزهة عن مطلق الكدورات البشرية بهتاناً عظيماً مع كمال عصمتها وعفتها

وافتحارهم بقتل عيسى عليه السلام ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ و"ما" في قوله "فبما" نكرة موصوفة و"نقضهم" بدل منها وحذف جواب هذا الكلام بليغ مبهم متروك مع ذهن السامع تقديره: لعناهم وقد جاء مصرحاً به في قوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ أي فبسبب نقض بني إسرائيل ميثاقهم لعناهم وأغرينا بين الطائفتين العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة عقاباً لهم على نسيانهم ما ذكروا به وجعلنا قلوبهم صلبة قاسية بالغش فهي غير قابلة للنصحية فإنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه! وقرئ **(قسية)** بجذف الألف وتشديد الياء دلالة على شدة اليبس والصلابة وقد أشار إليهم المبين الأكرم عليه السلام بقوله في الحديث المتقدم: **«ألا إن القسوة غلظ القلوب في الفدادين»** قال إمام أهل اللغة ابن الأعرابي: فدَّدَ الرجلُ تفديداً إذا مشى على الأرض كبراً وبطراً. ثم بين تعالى قساوة قلوبهم بما دل على نقضهم بقوله **(يحرفون الكلم عن مواضعه)** أي يجددون كل وقت تحريفه فإنهم كلما وجدوا شيئاً من كلام الله يشهد بضلالهم حرفوا معناه وأولوه التأويل الباطل! ولما كانوا قد تركوا أصلاً ورأساً ما لا يقدرّون لصراحته على تحريفه، قال معبراً بالماضي إعلماً بتركهم توحيد الحكّمية وما أمروا به من التسليم للحضرة

الحمدية والأحدية الأحمدية ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ والنسيان يستعمل في
 الترك كثيراً في لسان العرب، والتكثير في قوله ﴿حظاً﴾ للتعظيم والتكثير بقرينة
 الدم، ثم بين تعالى عادتهم التي كان عليها أسلافهم فقال ﴿ولا تزال تطلع على
 حائنة منهم﴾ أي يطلعك الله على نفاقهم فيكون ذلك آية من آيات النبوة ﴿إلا
 قليلاً منهم﴾ أي ممن أظهروا الكفر لأن أغلب أحوالهم النفاق! وفي قوله ﴿فاعف
 عنهم واصفح﴾ بعث على الترفع عنهم، والعفو أصل معناه الترك وعليه مدار
 معانيه فيفسر في كل مقام بما يناسبه، ومعناه هنا ترفع عنهم ولا تنزل نفسك في
 الرد على كل ما تطلع عليه من تحايلاتهم وتحريفاتهم لأنهم قوم بهت ينكرون
 الحقائق ويدعون الإيمان! والصفح معناه الإعراض يقال: صفح فلان عني أي
 أعرض بوجهه وولّني وجه قفاه، ثم خص النصارى بالذكر لأن نفاقهم أشد
 وأصح فقال ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ والتعبير بذلك دون "ومن النصارى"
 لمزيد تقرير نفاقهم وأنهم تسموا بما لم يفوا به! ونظير هذا المعنى قوله تعالى ﴿ود
 كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند
 أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ أي
 أعرضوا عنهم لأنكم لو ذكرتم لهم ما انطووا عليه من ودادهم لأنكروا وأدعوا
 الإيمان! ومن هذا المعنى قوله عز وجل ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون
 أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ والغرض من سوق الآية هنا توطئة
 لقوله بعده ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة﴾ أثار ذلك ما تقدم
 من قوله ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كأن
 لم يسمعها فبشره بعذاب أليم، وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم
 عذاب مهين﴾ فكان المقصد الترفع عن الدخول في المجادلة معهم.

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أحسن التأويلات في هذه الآية أن تكون "من" في محل نصب أي ومن اتبعك من المؤمنين كيفيهم الله.

(وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) الضمير في "وإن يريدوا" عائد على الذين قيل في حقهم "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين" والكلام في الآيات وقع عقب ذكر أهل الكتاب الذين زين لهم الشيطان أعمالهم والمعنى هنا: وإن يريدوا خيانتك في إظهار الصلح...ويمكن أن تكون الخيانة في كونهم أظهر الإسلام بعضهم ثم رُدوا إلى دينهم، وقوله "فأمكن منهم" أي أقدرك عليهم حسبما حصل في قريظة وأضراهم، والآيات لا تقتصر على الزمن الذي نزلت فيه فإن سبب النزول لا يصلح مخصصاً.

ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب

الكلام في الآية متصل بمطلع السورة في الرد على المجادلين ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى وعد تعالى الرسل وأتباعهم بالنصر على أعدائهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ثم أتبع ذلك بذكر نوع من أنواع تلك النصر في الدنيا وهي الحجة الواضحة المزيحة للشبه القاذحة وقد سمى الله الحجة سلطاناً وهذا السلطان الحاصل بالحجة يبقى أبد الأباد بخلاف سلطنة المبطلين فإنها تزول وينكشف للناس أنها وقعت على خلاف الواجب ونقيض الحق وبزوالها تزول آثارها ولا ينفع للمبطلين شيء من المعاذير البتة ولهم اللعنة أي أنها مقصورة

عليهم ولهم سوء الدار، ولما كان التقدير: فلقد نصرنا موسى مع إبراق فرعون وإرعاده؛ عطف عليه قوله دالاً على ما أورث بني إسرائيل ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ وهذه الآية تعتبر واسطة عقد السورة مجاوبة لمفتتحها ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ ناظرة الى خاتمتها ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ مذكرة بامتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم والاعتداء على موسى بالتكذيب والمنافقة ومحاولة الفتك، وتمثيلهم لهم أمرهم بفرعون، مُخبرة بعظيم هذا الميراث الذي قابله بالكفر والعصيان والتكذيب والاستهزاء...ولما كان هؤلاء لا يعشرون فرعون فيما كان فيه من الجبروت والقهر والعز والسلطان والمكر ولم ينفعه شيء منه، سبب عنه قوله ﴿فاصبر﴾ أي على أذاهم فإننا نوقع الأشياء في أتم محالها ونُجري المسببات على أسبابها، ثم علل ذلك بقوله صارفاً القول عن مظهر العظمة إلى اسم الذات الجامع لجميع الكمالات التي من أعظمها إنفاذ الأمر وصدق الوعد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي في إظهار دينك وإعزاز أمرك فقد رأيت ما اتفق لموسى ﷺ مع أمكر أهل ذلك الزمان وما كان له من العاقبة. ثم عاد الكلام إلى التعجيب من أمر المجادلين في آيات الله وهي دلائله التي نصبها على توحيده وكتبه المنزلة ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ أي في صدورهم تكبر وتعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم، وهذا الذي يحملهم على المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة، وكانوا يقولون: سيقوم لنا مُلك عظيم في آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر، والمجادلة: أشد المخاصمة وأصلها من الجدل وهو شدة الفتل والمعنى أنهم يجادلون في دفع آيات الله عن فهم ما ضمن فيها ويوردون

الشُّبه في القرآن لينقلوا أهل هذا الدين عنه إلى ما هم عليه من الباطل بغير سلطان أي بغير وجه صحيح وإنما وضعوا الآيات والأدلة في غير محلها وحرفوها عن مواضعها وساروا بها في غير مسالكها وكرّوا عليها بالإبطال بعد قيام الحجة ووضح الحجة قصداً لإفحام المؤمنين وتمويهاً لتغليطهم! والمراد بآيات الله: دلائله سبحانه التي نصبها على توحيده في كتبه المنزلة وما جاء على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام والله أعلم، والسورة بُنيت على إبطال جدالهم في آيات الله جدال التكذيب والتورك إذ كان من أولها قوله ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ وتكرر ذلك خمس مرار، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها حتى انتهى إلى قوله ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في القرآن! وتفسيراً لهذا المعنى الكريم يقول النبي العظيم ﷺ: «**جدالٌ في القرآن كُفْرٌ**» وسماه كفراً لأنه من عمل اليهود والنصارى يجادلون في القرآن لإيقاع الشك والريبة فيه وتكذيبه ويتبعون متشابهه المؤدي إلى الجحود ويسعون إلى دفع بعضه ببعض فيطرقون إليه قدحاً وطعناً! ولما كان ذلك مشتملاً على الاختلاف والانحطاط في هوى أهل الكتاب المختلفين في الكتاب المخالفين أمر منزل الكتاب، نهى عنه ﷺ وشدد في النهي وتضافرت بذلك الأخبار كما روى الهيثمي والسيوطي والديلمي عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال: «**مهلاً يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا**،

ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى إثماً أن لا تزال ممارياً، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة: في رباضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان: المراء وشرب الخمر، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس أن يعبد ولكنه قد رضي منكم بالتحريش وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم» قالوا: يا رسول الله ما السواد الأعظم؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي من لم يمار في دين الله ولم يكفر أحداً من أهل التوحيد بذنب غفر له» ثم قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً» قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله ولا يكفرون أحداً من أهل التوحيد بذنب» وجاء في رواية ابن أبي شيبة: «دعوا المراء في القرآن فإن الأمم قبلكم لم يُلعنوا حتى اختلفوا في القرآن فإن مراء في القرآن كفر» أي دعوا الجدل فيما بينكم وأما مع أهل الكتاب المبطلين فهو أمر محمود يصل في بعض المواقف إلى درجة الوجوب. ثم يبين تعالى أنهم هم الذين كذبوا بالقرآن المشتمل على جميع الكتب الإلهية (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) والجملة بدل من قوله (الذين يجادلون في آيات الله) لأن صليتي الموصولين صادقتان على شيء واحد، والعطف في قوله (وبما أرسلنا به رسلنا) عطف بيان يُبين وحدة الرسالة والرسول ويكشف عن جدال المعاندين ومحال المباحلين. ثم تأتي الإهانة والتحقير في العذاب يوم القيامة والآيات تصورهم وهم يسحبون كالدواب بعد أن خلعوا

عن أنفسهم شارة التكريم والتفضيل ونعمة الاستخلاف، ثم في النار يسجرون على طريقة سحر الكلاب ثم يوجه إليهم التبكيت والتقريع والتوبيخ ﴿أين ما كنتم تشركون﴾ أين شركاءكم الذين تدعون من دون الله؟ أين الشيطان؟ أين أمريكا؟ أين بريطانيا؟ أين فرنسا؟ أين روسيا؟ أين الصين؟ أين الأمم المتحدة؟ فيجيبون في العذاب إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته وهو يائس حسير ﴿قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين﴾ ولما حثهم تعالى على النظر في عاقبة الأمم الهالكة وآثارهم الدالة على مكنتهم، سبب عنه شرح حالهم الذي أدى إلى هلاكهم فقال على وجه التعريض ﴿فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ والفرح مكنى به هنا عن جدالهم ومكابرتهم أي فرحوا بما عندهم من التوراة والزبور والإنجيل كما قال تعالى "وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم" ويحتمل أنهم فرحوا بما عندهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة التي يدفعون بها البينات ويؤمّوهون بها على أهل الصدق ويقطعون عليهم طريق الحق! وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدتهم، ويحتمل أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، أراد أنهم لجرائهم على الله استهزؤوا بالبينات مخادعين أمة الإسلام، ويؤيد هذا قوله بعده ﴿وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ والحق ما يحيط بالإنسان من مكروه فعله، وهو هنا مستعار للشدة التي لا تنفيس بها لأن المحيط بشيء لا يدع له مفرجاً، والإتيان بـ ﴿يستهزئون﴾ مضارعاً يفيد تجدد استهزائهم.

أول خطوات النصر

لما قرر سبحانه أن كل أناس يُدعون يوم القيامة بمتبوعهم الذي كانوا يتبعونه، أتبعه منفراً من الأئمة المضلين ومحذراً للبصراء عن الاغترار بوساوس الأشقياء فقال ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ والكلام جرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ والمراد من أرسل إليه، وقد وقع في ربة التقليد من توهم أن المراد بها رسول الله ﷺ لاجتماعنا على عصمته من الوقوع فيما يخالف به الأدب فضلاً عن وقوعه في مثل ما ذكر في هذه الآيات من الركون إلى أهل الباطل... والآيات تبين أن الحرب مع أهل الكتاب هي حرب فكرية، وهي بدون شك أشد خطراً من البندقية بجوها وملابساتها ووقائعها... حربٌ لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها، يهدف من ورائها إضلال المسلمين وإيرادهم النار انتقاماً من النبي ﷺ، وقد عُدي لفظ "يفتنونك" بحرف "عن" لتضمينه معنى فعلٍ كان الفتن لأجله وهو "يُحرفونك" والانحراف في شيء يسير ينتهي إلى انحراف كبير ولذلك جاء التحذير الرهيب! وأول الانحراف أن يخالطوا المسلم مخالطة تُمليه إلى جهة قصدهم بكثرة خداعهم بإطماعهم له في موافقتهم في فهم القرآن الكريم فإن إظهار الهوادة تُطمعهم في الترفي إلى موافقتهم ومخالطتهم! فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم هي المقصودة - والله أعلم - وأهل الكتاب يجادلون في عنف ويشردون في جموح ويتناولون في قحة ويتعننون في عناد ويجنحون عن الهدى الواضح الناطق المبين! وفي الآية دلالة على شدة مكرهم وتناهي خداعهم إلى حالة لا يدرك وصفها، وهم أشد الناس مكرًا

وأكثرهم كيداً وأعلمهم بالخداع! والمعنى أنهم قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فأتين عن الذي أوحينا إليك من توحيدنا وفهم كتابنا والكلام جار مجرى التحذير من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبس **(وإذا لاتخذوك خليلاً)** ومخاطبة النبي ﷺ ههنا هي مخاطبة لأمتة كما بيناه ومثله في القرآن كثير والمعنى: لو فعلت ما أرادوا لكان بينك وبينهم محالة وصداقة لكونك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم، وهم أعداء الله تعالى فمخاللتهم تقتضي الانقطاع عن ولايته عز وجل، ومن كان خليل الكفار لم يكن خليل الله! وقد حذر المولى عز وجل أدنى مقاربة مع المشركين من خلال أربعة أمور وهي **(لولا)** الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون، والتحقيق المستفاد من **(شيئاً)** والتقليل المستفاد من **(قليلاً)** وأول محاولات الأمة الملعونة محاولة فتنة المسلم عما أوحى الله إليه من هذا القرآن فيأخذ بعقيدتهم ويستمع إلى فتاواهم ويدرس كتبهم ويوافقهم في الكذب الذي افتروه على الله حتى يكون تابعاً لهم كما قال سبحانه **(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير)** روى الدارمي عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله رضي الله عنه رباً وبالإسلام ديناً ومحمد نبياً، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتهم عن سواء السبيل، ولو كان حياً**

وأدرك نبوتي لاتبعني» وهذه الحكمة النبوية والسنة المصطفوية هي مدلولات الإرشادات القرآنية، قال جل شأنه ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ﴾ وقال عز وجل ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعِ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وقد جاء التهديد في آخر سورة النور يحذر من تسول له نفسه أن يتصل بالمشركين أو يخرج بغير إذن رسول الله ﷺ في أحلك الظروف وأشدّها حين حزب بنو إسرائيل الأحزاب على حرب رسولنا ﷺ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِن الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله "يخالفون" تضمن معنى "يحيدون" والحيّدان أدنى درجات المخالفة، وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله "أن تصيبهم فتنة" قال: «يعني بالفتنة الكفر» وروى عن السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك. وأهل الكتاب يحاولون إغراء المسلمين في صور شتى لينحرفوا عن تعظيم الرسول الأعظم ﷺ ويرضوا بما وضعوه لهم من العقائد الزائغة والسياسات الفارغة! ومن العلماء من يفتن بهذا عن دينه لأنه يرى الأمر هيناً! فإخوان القردة والخنازير لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية إنما يطلبون تعديلات طفيفة! والتسليم في جانب ولو ضئيل أو الاعتماد عليهم في نصرة رسول الإسلام هو هزيمة روحية وانحراف عن أمر الحكيم الخبير القائل في

علاه **(ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا)** والله وحده هو الذي يعتمد عليه المسلم **(ولولا أن ثبتناك)** أي لولا تثبيتنا لك وعصمتنا لقاربت أن تميل إليهم لقوة خدعهم وشدة احتياليهم ومكرهم وفي هذا لطف للحبيب الأعظم ﷺ لأن أهل الكتاب قصدوا أن يفتنوا أمتهم عن شرعته وأن يزيلوها عن منهجه، وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجثو عندها ويتدبرها وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله تعالى. والركون مستعمل في الموافقة بعلاقة القرب، وحاصل الكلام أن المؤمن لو مكن خواطر الشيطان وعقد على الركون إليهم لاستحق ضعف عذاب الحياة **(إذا لأذقناك ضعف الحياة)** بتراكم المصائب والأرزاء في حياته وزوال ما كان يناله من بهجة وسرور بتمام دعوته وانتظام أمره فيتمكن منه أعداؤه **(وضعف الممات)** أي وضعف عذاب الممات بأن يموت مكموداً مستذلاً بين كفار يرون أنهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه! وهذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله الأكرم ﷺ هي محاولات إغرائهم لأهل التوحيد اليوم لينحرفوا عن صراط الله المستقيم ويرضوا بالحللول الوسط ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق وينقلب النصر إلى هزيمة! وجملة **(ثم لا تجد لك علينا نصيرا)** معطوفة على جملة لأذقناك وموقعها تحقيق عدم الخلاص من تلك الإذاقة، وهذا تعريف للمسلمين لئلا يركن أحد منهم إلى شرعة المشركين ومنهجهم وزينتهم وأموالهم وهو دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن مرتكبه وارتفاع منزلته، وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الأبواب، جعلنا الله تعالى ممن يقرأ فيرقى لا ممن يقرأ فيشقى ورزقنا الفهم عنه بمنه وكرمه...ولما بين تعالى أنهم استمالوه بالرفق حتى

كادوا أن يفتنوه، دل على أنهم أخافوه بعد ذلك حتى كادوا أن يخرجوه من قبلته المكية التي هي الأرض كلها لأنها أمّها ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ والاستفزاز: الاستخفاف والحمل على الترحل وهو استفعال من فَرَّ بمعنى بارح المكان، وهو كناية عن الإبعاد، وقوله ﴿ليخرجوك﴾ تعليل للاستفزاز أي استفزازاً لقصد الإخراج، والمراد بالإخراج: مفارقة المكان دون رجوع، وبهذا الاعتبار جعل علة للاستفزاز لأن الاستفزاز أعم من الإخراج والله أعلم، وقوله ﴿خلافك﴾ أي بعدك، يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، وقرئ ﴿خلفك﴾ وأصل الخلف الوراثة فاستعمل مجازاً في البعدية... وقد جاء التوجيه من الله للمؤمن بعد هذه الآيات بالتوكل عليه وحده والالتجاء إليه ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتعبد به نافلة لك﴾ وهذا هو الزاد، كما جاء في سورة هود ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون، وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ وفي الآية تحذير من الركون إلى أهل الكتاب الذين ينازعون الله في حكمه ويقدمون المال والسلاح لجميع الأطراف المتنازعة ويمشون بين المجاهدين بالوقعة، والركون إليهم حيدان عن أمر الله وهذا ما وقعت فيه كثير من الحركات الجهادية التي أخطأت المفصل وما أجادت الحزب! وقد بين تعالى للمؤمنين حقيقة العبادة وأمرهم بالتوكل عليه وحده وطلب العون منه وحده والرجاء منه وحده حتى يحصل لهم الأمن كما حكى تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ وتحصل الألفة والمحبة بينهم كما قال تعالى ﴿وَألف بين قلوبهم﴾ ووصفهم بقوله ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على

الكافرين) وبقوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وهي من أعظم العلامات الدالة على تحقق التوحيد وصدق الإيمان، وقد أمر المولى سبحانه عباده المؤمنين بالاعتصام بجبل التوحيد جميعاً ثم أردف بقوله (فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) والألفة لا تكون إلا بالحنيفية ومتاركة المشركين الذين نسجوا شبكتهم الحريية على الأرض! إضلال عن سبيل الله إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة والجاه في النفوس، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم، والمال والزينة تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين فتنتهي إلى الانحلال والتهوي في الضلال! وفي سنن الترمذي عن ابن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يززع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار! وقد تحدّث موسى عن الواقع المشهود اليوم... تحدّث عن أخطر ما يعانيه الجهاد في هذه الحقبة من التاريخ وأفتك الأسلحة التي يحارب بها أعداؤه! وطلب من ربه لوقف هذا الإضلال أن يطمس على الأموال ويجرد القوة الباغية المضلة من وسائل الإغراء والزينة والأموال بحيث لا ينتفع بها أصحابها، ونادى الله بوصف الربوبية ثلاث مرار ليبين دليل الإسلام الذي أضل الفراعنة الناس عنه (ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وفرّع على إجابة دعوتهم أمرهما بالاستقامة، فعلم أن الاستقامة ترك الزينة والأموال التي يدلي بها فرعون وملؤه، وإذ قد كان موسى وهارون مستقيمين وناهيك باستقامة النبوة كان

أمرهما بالاستقامة مستعملاً في الأمر لأتباعهما بطريقة الموعظة والتوجيه، وأعقب حثهما على الاستقامة بالنهاي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي أسباب النصر واهتماماً بالتحذير من مصادد الأعداء ﴿قال قد أجييت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ أي استقيما على توحيدى ومقام ربوبيتى، وفي حديث سفيان الثقفى قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل ربى الله ثم استقم» وهذا المقام ينافى قبول عطايا المشركين، ألا ترى أن بني إسرائيل لما قبلوا الحلى والزينة من القبط تمكنت الشهوة والشبهة فى قلوبهم ففعل بهم السامرى ما فعل حتى جاء موسى عليه السلام فحرقها وقذفها فى اليم كما قذف سبحانه أشخاص مالكيها وغرقهم فيه.

﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ لما أئذر الحق فى مطلع السورة أهل الكتاب الذين قالوا اتخذ الله ولداً وأردف ذلك بقصة أصحاب الكهف وما فيها من عبر وأسرار يتفطن لها أهل النظر والاعتبار ثم بذكر قصة الرجلين ويّين أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر الذى لم ينفعه ماله وأعوانه وجنده وأنصاره وذكر إنكار هؤلاء المستخلفين البعث والقيامة وما يجرى عند الحشر ووضع الكتاب وأورد قصة إبليس وتكبره على آدم وترفعه عليه وأنكر عليهم فى أسلوب الخطاب - لأنه أدل على تناهى الغضب وأوجع فى التبكيت - اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله تعالى، لما ذكر ذلك كله ساق الكلام مساق التعليل للاتخاذ المذكور بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة الأصل والفسق والعداوة، والضمير فى قوله "ما أشهدتهم" إما أن يكون عائداً إلى الظالمين وهو

الأولى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات وهو قوله تعالى "بئس للظالمين بدلاً" والمراد بالظالمين: أولياء الشيطان اليهود والنصارى - والله أعلم - والمعنى ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق وهم المراد بالمضلين في قوله تعالى "وما كنت متخذ المضلين عضداً" وإنما وضع ذلك موضع ضميرهم ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيدها لما سبق من إنكار اتخاذهم إبليس وذريته أولياء وقد خاف ﷺ على أمته منهم على نحو ما رواه الترمذي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى إبليس وذريته ونفي هذا الشهود يستلزم نفي الشركة بالفحوى فإن خلق السماوات والأرض كان قبل وجود إبليس وذريته فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم وكل ما جاز عليه العدم استحالة عليه القدم والقدم من لوازم الإلهية فثبت بذلك تفرده عز وجل بالإلهية والملك ومن كان له ملك هذا العالم لا يمكن أن يشركه أحد. ويكون المراد بـ"المضلين" الشياطين لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، وجملة "وما كنت متخذ المضلين عضداً" تذييل لجملة "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض" والمعنى كما قال صاحب التحرير والتنوير: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعواناً فأشركهم في تصرفي في الإنشاء فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة أي لا يعين المعين إلا على عمل أمثاله ولا يكون إلا قريناً لأشكاله. وقرأ أبو جعفر "ما أشهدناهم" بنون العظمة، كما قرأ "وما كنت" بفتح التاء على الخطاب والخطاب للسيد الأعظم ﷺ وهو خبر مستعمل في النهي وما ورد من هذا النوع

الذي يوههم من النبي ﷺ فهو محمول على إرادة أمته لعصمته ﷺ وهو خبر مستعمل في النهي ولا يخفى ما في الآية من التحذير من الاستعانة بالظالمين على حد قوله تعالى "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون" وهذه الحنيفية التي يطبعها القرآن في قلب المسلم تثير في نفسه قوة هذا الدين وعظمته وهي تصور أمامه هذا المشهد الكوني الباهر الذي يشهد بتوحيد الله في كل ذرة من ذراته المنشورة. ولما أنكر تعالى على الظالمين اتخاذهم إبليس وذريته أولياء من دون الله تعالى، أعقب بقوله (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً) والمعنى أنه تعالى يقول للخلفاء المفسدين الذين أشركوا به: نادوا شركائي أي على وجه الاستغاثة بهم! وأمره إياهم بمناداة شركائهم مستعمل في بطلان النصر بقرينة فعل الزعم، ولذلك لم يسعهم إلا أن ينادوهم لطمعهم في نصرهم فإذا نادوهم تبين لهم خذلانهم! ولما كانوا في غاية الاستبعاد لأن يحال بينهم وبين معبوداتهم قال في مظهر العظمة "وجعلنا بينهم موبقاً" أي فاصلاً حائلاً بينهم مهلكاً قوياً ثابتاً لا يشذ عنه منهم أحد وذلك عند مجيء أمر الله في الموعد المحدد في الحياة الدنيا والآخرة إذ ينادي بنو إسرائيل شركاءهم الذين كانوا يتناصرون بهم في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملهمات المدلّمة فيجعل الله فيما بين مكافئهم ومكان شركائهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء.

أم تسألهم خرجاً؟

لما افتتح المولى السورة بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك وأعقب ذلك بوصف

خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرد به بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدىً ولعباً وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعاته وأردف بذكر الحمل على الفلك وتخلص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق وما كان من عقاب المكذبين وأعقب ذلك بتنبية المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة وقد أراهم الله مخائل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم وبأنهم عرفوا الرسول وأردف ببيان أن الوحي لو جاء على ما يشتهون لفسد نظام العالم بل جاءهم بالكتاب الذي فيه تذكيرهم ووعظهم وتنوير عقولهم فأعرضوا عنه عتواً واستكباراً، لما ذكر ذلك كله وأبطل وجوه طعنهم في المرسل به والمرسل من جهة جهلهم مرة ومن جهة ادعائهم البطالان أخرى نبّه على أنه ﷺ لم يسألهم عليه أجراً وفيه نهي للمؤمنين عن ذلك فيكون الاستفهام المقدر هنا إنكاراً غرضه الإعراض عن عطاء المشركين، وقرئ **(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خِراجاً)** والخراج: العطاء على الأرضين، والخرج: على غيرها من المال، وقال ثعلب: الخرج أخص والخراج أعم. وفي عدم قبول عطاء المشركين وردّ هداياهم إغاضةً لهم وإثارةً لحسرتهم وكمداً لمقاصدهم فقد روى الإمام الطبراني عن كعب بن مالك قال: جاء ملاعب الأسنة إلى النبي ﷺ بهدية فعرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم فقال النبي ﷺ: **«فإني لا أقبل هدية**

مُشْرِك» وروى أبو داود والترمذي عن عياض قال: أهديتُ للنبي ﷺ ناقة، فقال: «أسلمت؟» فقلت: لا، فقال النبي ﷺ: «إني نُهِيتُ عن زَبْدِ المُشْرِكِينَ» يعني: عن رِفْدِهِمْ وَعَطَائِهِمْ. وماذا يطمع المجاهد أن ينال من خراج المُشْرِكِينَ؟ قاطع أعداءك تنتصر عليهم... قابل أسلحتهم بسلاح واحد وهو الإعراض عن عروضهم كلها فإن محل القرية مقدّس عن اجتلاب الحظوظ... والدنيا جيفة وأولياء الشيطان كلاهما، فإن خالطتهم ناهشوك، وإن تركت لهم جيفتهم سلّمتَ منهم، فطالبُ العون منهم عند شدّته... كطالب الثلج من إبليس في سقرٍ، واعلم أن الاتكال على الضعيف ضعف، والاتكال على القوي قوة، ومن توكل على مولاه كفاه ورزقه وتولاه، ومن توكل على المُشْرِكِينَ خذله الله ووكله إليهم فرلت قدمه وتحول من مجاهد في سبيل الله إلى مقاتل في مصالح المبطلين كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلّاعه في نفع غيره! وفي قصة سليمان دروس وعبر (قال أتمدنون بمال فما آتان الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وروى الديلمي عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي وإني وجدت فيما أوحيت إليّ: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله" الآية. ونكتة المسألة تجريد التوحيد لله، وصاحبه مؤيّد منصور، والمألوف أن تسري سنة الله (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني... فهزموهم بإذن الله... تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) مرعى المشتهى هشيم... ليل الجهل مُعْتِم... سُور الهوى مُغرِق... رَوْضُ اللّهُوِ وبَيّ... غدير اللذاتِ غَدْر... رأس الدواء الحمية. روى الإمام البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بني إسرائيل من حديث

حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً فأما الذي يرى الناس أنها النار فماء بارد، وأما الذي يرى الناس أنه ماء بارد فنار تحرق، فمن أدرك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار فإنه عذب بارد» وقد يبلغ بهم المكر أن يقوموا بإمداد المجاهدين عن طريق الفرس! روى ابن ماجه عن سيدنا علي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً بيده قوس فارسية فقال: «ما هذه؟ ألقها» الحديث. ولما ذكر الحق في سورة الأنفال ما وقع لبني إسرائيل وما اشتملت عليه صفاتهم من نقض العهد أتبعه الأمر بالإعداد فقال ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ والخيل معقود في نواصيها النصر في الدنيا والثواب في الآخرة على نحو ما ورد في الحديث المتفق عليه: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم» وقد نبه الحق على متاركة أهل الكتاب والاعتماد عليه سبحانه فقال ﴿فَخِرَاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير لك من جعلهم وخراجهم وقرئ ﴿فَخِرَاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وكأن اختيار خراجاً في جانبه عليه الصلاة والسلام للإشارة إلى قوة تمكنهم في الكفر واختيار خراجاً في جانبه تعالى للمبالغة في حط قدر خراجهم حيث كان المعنى فالشيء القليل منه عز وجل خير من كثيرهم فما الظن بكثيره جل وعلا وهو خير الرازقين أي وإن نسبوك إلى الفقر والفاقة قل هو سبحانه خير من أعطى عوضاً على عمل لأن ما يعطيه لا ينقطع ولا يتكدر وهو تقدير لخيرية خراجه تعالى، روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَحْمِي وَجُعِلَ الذُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» ولما أمر المولى سبحانه نبيه بما يسر نهاه عما يضر، فقال ذاكراً ثمة النذارة ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعنى "ودع أذاهم" أي لا تعتمد عليهم في شيء،

فكل ما يقدمونه من مساعدات وصدقات هي في حقيقتها أذى ناهيك عن المنّ وقد شرط الله تعالى في الإنفاق أن لا يُتَّبَعَ مَنًّا ولا أذى ولم يكتف بذلك حتى جعل المن والأذى مبطلاً للصدقة ثم نهى عن الإبطال بهما معرضاً بالكافرين مبكناً لهم ليقوي اجتناب المؤمن لهما فقال ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ولما حذر المولى من عطاء المشركين أتبعه بتنزيه الإسلام عما وسموه به من الأباطيل والتنزيه بإثبات ضد ذلك فقال ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي اتباعي صراط مستقيم لا التواء فيه.

وقد جعل الله سبحانه الإيمان شرط صحة الأعمال فقال ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ وجعله شرط اقتحام العقبة فقال ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة، ثم كان من الذين آمنوا﴾ وقرئ ﴿فك رقبة، أو أطعم﴾ قال الزجاج: وهذا نحو قوله تعالى ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ فهو نفي محض كأنه قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً. وقوله "ثم كان" للتراخي الرتي فتدل على أن مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوفة عليه فيصير تقدير الكلام: فلا اقتحم العقبة بفك رقبة أو إطعام بعد كونه مؤمناً، وفي فعل "كان"

إشعار بأن إيمانه سابق على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التويخ على انتفائها عنه وأنه ملوم على ما فرط فيه لانتفاء إيمانه وأنه لو فعل شيئاً من هذه الأعمال الحسنة ولم يكن من الذين آمنوا ما نفعه عمله شيئاً لأنه قد انتفى عنه الحظ الأعظم من الصالحات كما دلت عليه "ثم" من التراخي الرتي فهو مؤذن بأنه شرط في الاعتداد بالأعمال وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ويحمل على إبله لله فهل ينفعه ذلك شيئاً قال: «لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» ويفهم من الآية بمفهوم صفة الذين آمنوا أنه لو عمل هذه القرب في الجاهلية وآمن بالله حين جاء الإسلام لكان عمله ذلك محموداً ومن يجعل ثم مفيدة للتراخي في الزمان يجعل المعنى: لا اقتحم العقبة وأتبعها بالإيمان أي اقتحم العقبة في الجاهلية وأسلم لما جاء الإسلام، وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين توصيهم بالصبر وتوصيهم بالمرحمة لتمييزهم عن المنافقين.

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر فيما قبلها حالة بني النضير ونظرائهم من بني إسرائيل، افتتح هذه بالنهي عن موالاتهم والتودد إليهم وأضاف في قوله (عدوي) إلى ضميره عز وجل تغليظاً لجرمهم وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم، ولما كانوا يحسنون في الظاهر، والإنسان مجبول على من أحسن إليه من أجل إحسانه وعلى استجلابه الود من أشكاله؛ لم يكتف تعالى بقوله (عدوي) بل زاد (وعدوكم) ليعظمهم إلينا بدل محبتهم التي كانت عندنا فلا نؤثر هوانا على مرضاته تعالى... ثم أتبع في سورة الصف بذكرهم وذكر مكابرتهم ومعاداتهم للرسول ليكون بعد ما تمهد قبل

أوقع في الزجر. وقد نزلت هذه الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة لمجرد أنه كتب إلى المشركين يطلعهم على أمر كان رسول الله قد أخفاه عنهم، فقال له رسول الله: «يا حاطب ما حملك على هذا؟» فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ في القوم ليس لي أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليه... فكانت هذه المصانعة إلقاء إليهم بالمودة وسبيلاً إلى الموالاة ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ إنها قضية المفارقة بين المسلمين والمشركين، قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه، والتوحيد الذي من أجله أخرج أصحاب الرسل ﴿إن يثقوكم يكونوا لكم أعداء ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا﴾ فهل تعي الأمة هذا الدرس؟ ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم، لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ إن بني إسرائيل اليوم يريدون قطع أسباب النصر من خلال أمرين؛ الأول: نشر دعوتهم الوهابية بين صفوف المجاهدين ليتحول الجهاد إلى فتنة واضطراب وفرقة فلا ترى غير وجوه مقطبة ونفوس منقبضة وأشلاء فوق أشلاء ودماء إثر دماء وشقاء ليس يعدله شقاء، والأمر الآخر: الركون إلى أي جهة تتبّعهم ليتحول النصر إلى هزيمة... وإخوان القردة والخنازير لا يطلبون منا أن نترك الجهاد بالكلية، إنما يطلبون تعديلات

طفيفة لنتقي معهم في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على المجاهدين من هذه الثغرة، لينتهي بهم في نهاية الطريق إلى الانحراف الكامل وفقدان الهيبة والحصانة وفقدان النصير! والمسألة مسألة إسلام وشرك، فالذي يركن إليهم شيئاً قليلاً سينتهي به الأمر إلى الوقوع في فتنهم والعذاب المضاعف في الحياة وفي الممات... وقد قرن الله نصره لعباده بتوحيده ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ ولنا في رسول الله ﷺ أسوة، فقد أخرج ابن حبان وابن ماجه وأحمد وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من المشركين لحق بالنبي ﷺ ليقاتل معه في غزوة بدر فقال له النبي ﷺ: «ارجع فَإِنَا لَا نَسْتَعِينُ بِمَشْرُكٍ» وروى الطبراني في الأوسط عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة جيش فقال: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قالوا: هذا عبد الله بن أبي في ستمائة من مواليه من اليهود من بني قينقاع قال: «وَقَدْ أَسْلَمُوا؟» قالوا: لا يا رسول الله قال: «مَرَوْهُمْ فَلِيرْجِعُوا فَإِنَا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمَشْرِكِينَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ» أمّا والمسلمون في حال القوة فلا بأس إذا كان ذلك لمصلحة يراها الإمام كالصلح الذي يعقده مع الروم قبل نزول ابن مريم كما هو مبين في الحديث: «سَتَصَالِحُكُمُ الرُّومُ صِلْحًا آمِنًا» وقد نزلت الآيات في سورة هود بعد سورة الإسراء في أخرج الفترات وأشقها في تاريخ الرسالة حيث استهزاء المشركين وارتداد بعضهم بعد دخوله في الإسلام وبلغت الحرب على الرسالة أقصى مداها وما نال المشركون من رسول الله أكثر من تلك الفترة وهم يريدونه أن يداهنهم والآيات تنزل ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَهَّنَ فَيَدَهَّنُونَ﴾ فكانت المباينة والبراءة التامة، والآيات تزوده بزيادة الطريق ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ،

واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) فكان الحسم الكامل في متاركة لا مجادلة بعدها ولا مصاحبة، وإن الدعاة المهزومين أمام الهجوم الماكر على الدين يحاولون أن يجدوا من صلح الحديبية مهرباً من الحقيقة التي تقوم عليها هذه النصوص متناسين أن رسول الله ﷺ عقد صلح الحديبية بعد انتصاره في أمكر معركة حزّب خلالها بنو إسرائيل الأحزاب عليه، وكانت له دولة مهابة خضع له فيها بنو إسرائيل وأقرّوا له بالسلطة العليا في الصحيفة والوثيقة الشهيرة، وكان ﷺ أقوى ممن عقد معهم الصلح حتى اضطروا لبعث سهيل بن عمرو فوثب عمر قائلاً: علام نعطي الدنية في ديننا؟ واليوم يخرج اليائسون ليحملوا نصوص الكتاب والسنة على ما تمليه الهزيمة أمام بني إسرائيل ومنظومتهم المعادية التي تعدّهم بالوعود الكاذبة والأوهام الباطلة والأمانى الخادعة...والقرآن الكريم يكشف نواياهم وحيلهم عبر بث الفتنة والفرقة والكيد داخل الصف ويحذر المؤمنين من هذا المعسكر اللعين (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) والخبال: الفساد وتفكك الشيء الملتحم الملتئم فأطلق هنا على السعي بين المسلمين بالتفريق والتضريب والنمائم لتتفرق كلمتهم ويحتل نظامهم وذلك بتزيين أمر لقوم وتقييحه لقوم آخرين ليختلفوا ويرجعوا كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، قال الإمام الرازي: واعلم أن حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه ثم بين تعالى أنهم لا يقتصرون على ذلك بل يمشون بين الأكابر بالنميمة فيكون الإفساد أكثر

وهو المراد بقوله "ولأوضحوا خلالكم". اهـ. وحقيقة "لأوضحوا" أسرعوا سير الركاب وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع الفرقة والافتتال بين المسلمين وأصله قولهم: يسعى لكذا إلا أنه لما شاع إطلاق السعي في الحرص على الشيء خفيت ملاحظة تمثيل الحالة عند إطلاقه لكثرة الاستعمال فلذلك اختير هنا ذكر الإيضاع لعزة هذا المعنى ولما فيه من الصلاحية لتفكيك الهيئة بأن يشبه الفاتنون بالركب ووسائل الفتنة بالرواحل وفي ذكر "خلالكم" ما يصلح لتشبيه استقرائهم الجماعات والأفراد بتغلغل الرواحل في خلال الطرق والشعاب، والخلال: جمع خَلَل وهو الفرجة بين شيئين واستعير هنا لمعنى بينكم تشبيهاً لجماعات المسلمين بالأجزاء المتفرقة! والمراد بالفتنة: الشرك والكفر والردة، قال الإمام الماتريدي: ييغون منكم الفتنة وهو الشرك الذي كانوا هم عليه. وورد "سماعون" بصيغة المبالغة للدلالة على أن استماعهم تام وهو الاستماع الذي يقارنه اعتقاد كحال من أخذ بعقائدهم، قال قتادة: معناه وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم. وعن الحسن ومجاهد وابن زيد معنى "سماعون لهم" أي جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم. وقال صاحب التحرير والتنوير: وجملة "والله عليم بالظالمين" تذييل قصد منه إعلام المسلمين بأن الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر وليتوسموا فيهم ما وسمهم القرآن به وليعلموا أن الاستماع لهم هو ضرب من الظلم والظلم هنا الكفر والشرك "إن الشرك لظلم عظيم" وروى ابن جرير وابن أبي شيبه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد "ولأوضحوا خلالكم ييغونكم الفتنة" يبطئونكم، قال: رفاعة بن التابوت وعبد الله بن أبي وأوس بن قيظي. وروى ابن إسحق وابن المنذر عن الحسن البصري قال: كان عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل

ورفاعه بن زيد بن التابوت من عظماء المنافقين وكانوا ممن يكد الإسلام وأهله وفيهم أنزل الله تعالى "لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور" إلى آخر الآية. وروى الدارمي وغيره عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله إذا لقي العدو قاتل حتى قتل قال النبي ﷺ فيه: فذلك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة، ومؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً جاهد بنفسه وماله في سبيل الله إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، قال النبي ﷺ: فيه مُصَمِّصَةٌ تحت ذنوبه وخطاياهم إن السيف محاء للخطايا وأدخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء، ومنافق جاهد بنفسه وماله فإذا لقي العدو قاتل حتى يقتل فذاك في النار إن السيف لا يحو النفاق» ولما كان الكل مشترك في وصف المقاتلة إلى أن يقتلوا، بين ﷺ أنه لا بد من التمايز بينهم لحصول المرام في الكلام... وقد كشف أهل الكتاب مرة أو مرات عن الوجه الكالح للحركات التي يُعدونها ويكفلونها اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ويهيئون لها الحماية والمعونات المتنوعة مباشرة أو عبر شركائهم، وللأخرى بإعلان الحرب عليها، ويقومون مع بعضها الآخر بتعاون عسكري مشترك... وكثير من المسلمين يُخدعون! ومن هؤلاء كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتخرجون من وصف أوضاعهم بصفاتها الحقيقية! إذ استقر في أذهانهم أن رأس الكفر أمريكا أو الدولة العبرية! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي لمواجهة المنافقين! وإن نقطة البدء هي تعريتهم من الرداء الزائف وإظهارهم على حقيقتهم شركاً وكفراً، فهؤلاء لو خرجوا في المسلمين ل زادوهم اضطراباً وفوضى ولأسرعوا بينهم بالوقعة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم وهذا أمر مشاهد... ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكأ

رجالها المخلصين، كفى المؤمنين وفضح المنافقين وكشف نواياهم وحيلهم إذ سَعَوْا على الإسلام وابتغوا الشرك وقلبوا الأمور وحرفوا النصوص ودبروا الحيل والمكائد ودَوَّرُوا الآراء (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) أي ابتغوا الشرك وإيقاع الخلاف وتفريق الكلمة وصدد الناس عن دين الإسلام من قبل مبعثك أو من قبل هجرتك رموك عن قوس واحدة أو من قبل واقعة تبوك أو من قبل استخلافهم وظهور أمرهم وعلوهم في الأرض بالسعي في تشتيت شمل المسلمين وإفساد عقيدتهم وتفريقهم بعد ألفتهم وسعوا على الإسلام وتكلفوا واجتهدوا ليطفئوا هذا النور وبَعَوْا للسيد الأعظم ﷺ الغوائل والآفات واحتالوا في قتله وفي هلاكه من كل وجه "وقلبوا لك الأمور" وتقلب الأمور هو تدبيرها ظهراً لبطن والنظر في نواحيها وأقسامها وطلب المكيدة والسعي بكل حيلة، وهي إما من قلب الشيء إذا تأمل باطنه وظاهره ليطلع على دقائق صفاته أو من قلب بمعنى فتش وبحث استعير التقلب للبحث والتفتيش لمشاهدة التفتيش للتقلب في الإحاطة بحال الشيء ويجوز أن يكون قلبوا مبالغة في قلب الأمر إذا أخفى ما كان ظاهراً منه وأبدى ما كان خفياً كقولهم: قلب له ظهر الجحش. وبالجملة فإنهم سعوا بكل حيلة في كتمان الحق وإيقاع الناس في الفتنة وتحريف معاني القرآن والسنة وأجالوا آراءهم في كيد سيد المرسلين وفي إبطال ما جاء به وسعوا في تقليل شأنه وتشتيت أمره وتشويش ملته وتفريق أمته وظاهروا شركاءهم الروم والفرس وحرصوهم على غزو ديار المسلمين، وقوله "حتى جاء الحق" أي سطوع ضوء القرآن وشرعية سيد ولد عدنان، والمراد بظهور أمر الله - والله أعلم - نصر المسلمين بالجنوس خلال ديار المشركين في الوعد الأول ثم بإساءة وجوههم

وانكشاف أمرهم ودخول المسجد الحرام في الوعد الآخر... ثم كشف تعالى استهزاءهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا) أي وقعوا في أعظم الفتنة بالشرك والكفر والنفاق والتمرد، وفي التعبير بالسقوط دلالة على انتشارهم في أشراك الفتنة انتشاراً سريعاً بقوة فصار يعسر خلاصهم معه! روى الإمام مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يشير بيده نحو المشرق ويقول: «ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا ثلاثاً حيث يطلع قرنا الشيطان».

ادفع بالتي هي أحسن

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) مجيء حرف العطف في صدر الآية يقتضي أنها نزلت متناسقة مع ما قبلها وهو قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وأنها وإياها واردتان في غرض واحد، وهذا العطف له موقع عجيب فإن الآية المعطوف عليها تضمنت إفراد الله بالربوبية، روى الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) قال: «قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام» وفي الآيات منزع عظيم لفضيلة العلماء الذين بينوا السنن ووضحوا الأحكام واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خلقه، فإنه لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيده تعالى بإيراد الحجج الشافية والبيانات الكافية في دفع الشبهات وإزالة الضلالات، وعمل صالحاً على وفق ما جاء به الدين من الجهاد بالسيف والسنان، وقال إنني

من المسلمين المنقادين لحكم الحكيم الكريم المنان، وقال تواضعاً إنني من جملة عامة المسلمين أراد الانتماء والفناء في جماعة الأمة الكبرى وأهل النمط الأوسط الذين قال فيهم سيدنا علي كرم الله وجهه: «خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي» وهذا بيان لمحاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب إرغماً للمتعالين على العباد الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأهل توحيده وخاصته. ومعنى قوله **(ادفع بالتي هي أحسن)** أي ادفع الشرك بالكلمة الحسنى الرفيعة الدالة على الإقرار لله بالوحدانية وجاهد في سبيل الله لإعلانها وحرّض المؤمنين حتى يصير من تبعك عليها كأنه ولي حميم، ولما كان الشيطان اللعين هو الصارف عن الوحدانية، المفرّق بين الجمع، المغري بين العباد، حَسُنْ أن يعطف عليه **(وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله)** أي وإن صرفك الشيطان عن مقتضى ما أمرت به فاستعذ بالله منه وامض على شأنك واعصه كما قال تعالى في سورة الإسراء **(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم)** والمقصود دعوتهم إلى توحيد الربوبية وعدم التفرقة بينه وبين توحيد الألوهية ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون **(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك)** عقيب قوله **(فقولا له قولا لينا)** وما ذاك إلا لأن الدعوة إلى ربوبية الله تعالى توجب تليين القلوب. ولما كانت أمّاً جامعاً لأصول الدين قال منبهاً على عظيم وبديع نبلها حاثاً على الرغبة في طلبها من واهبها والاستغلال بجميع ظلها مشيراً بالبناء للمفعول إلى أنها هي العمدة المقصودة بالذات **(وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)** وكرر إظهار البناء للمفعول للتنبيه على أنه لا يلقاها إلا من يصبر على متاعب مسالك التوحيد المسقط للخلافات

الفرعية والاختلافات الصورية. وقد نزلت الآية **(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)** في أبي سفيان وكان عدواً للنبي ﷺ في الجاهلية فصار بعد إسلامه ولياً مصافياً وزالت عداوته كما زالت عداوة ملك اليمامة ثُمّامة بن أثال بعد إسلامه حتى قال لرسول الله ﷺ يا محمد: ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فقد أصبح اليوم بلدك أحب البلاد إليّ... ومعنى الآية: لا تستوي حسنة من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين؛ وسيئة من قال لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون.

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)

لما انتهى الكلام إلى روح الدين وسر اليقين مما لا يعلمه حق علمه إلا العلماء بالكتب السماوية والأخبار الإلهية وكان أهل الكتاب يقدرّون على إيراد الشكوك وترويج الشبه فرموا أضلوا بالشبهة الواحدة النيام من الناس بما لهم من فنون المكر والتليس وبما للنفوس من النزوع إلى الأباطيل وبما للشيطان في ذلك من التزيين، وكان الجدل يورث الإحن ويفتح أبواب الحن فيحمل على الضلال، قال تعالى عاطفاً على الأمر بتلاوة الكتاب مخاطباً العلماء "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم" والمجادلة: مفاعلة من الجدل وهو إقامة الدليل على رأي يختلف فيه صاحبه مع غيره، ومعنى الآية: ناظروهم بالحجة القطعية المزيحة للشبه والأقوال البليغة والعبر البينة والطرق التي

درج عليها الأنبياء والرسل من الدعوة إلى الوحداية وجادلوهم بها وادفعوا
 سفهم ببيانها تسكيناً لشغبهم وإطفاءً للهبهم اتباعاً للأب الأعظم الذي أمرنا
 الله بالاستئنان بآثاره والاقتداء بإضماره وإظهاره كما تقدم في قوله ﴿وجادلهم
 بالتي هي أحسن﴾ فإن لم يُسلموا وكانت تغلب على طباعهم المشاغبة
 والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية فإن المكاملة اللاتقة بهؤلاء
 المجادلة التي تفيد الإفحام إذ يُصار بهم إلى الجدال بالغلظة والأخذ بالشدة والعنف
 والإلزام ويجري عليهم حكم الإسلام بالقتل والإخراج ويحققه قوله بعده "إلا
 الذين ظلموا" أي الذين بقوا على كفرهم وغدروا من قريظة والنضير وقينقاع
 وجعلوا يكيدون للنبي ﷺ وأخذوا يتنكرون للإسلام ونشأ منهم المنافقون وكل
 هذا ظلم واعتداء فهؤلاء يجادلون بالسيف وبالأغلظ والأحشن ويبالغ في تهجين
 عقائدهم ومناهجهم وتوهين شبههم وأقوالهم! ويمكن أن يكون الاستثناء
 منقطعاً والمعنى: لكن الذين ظلموا يشغبون عليكم فقولوا ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا
 وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم واحد ونحن له مسلمون﴾ وتقديم المجرور على عامله
 في قوله "له مسلمون" لإفادة الاختصاص تعريضاً بالذين لم يفرّدوا الله بالإلهية.
 روى الإمام البيهقي في الآداب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تصدقوا أهل
 الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم
 واحد ونحن له مسلمون» وروى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن عطاء بن
 يسار قال: كانت اليهود يحدثون أصحاب النبي ﷺ فيسبحون كأنهم يتعجبون!
 قال: فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل
 إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم واحد ونحن له مسلمون» وهذا موجب
 للإعراض عنهم رأساً ومنابدتهم قولاً وفعلاً ومتاركتهم طريقاً ومنهجاً بسبب

لبسهم الحق بالباطل وإلقاء الشبهات المضلة والأهوية الضالة ورواه الإمام البخاري في صحيحه في باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، كما ذكر في باب قول النبي ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**» وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن: سمع معاوية يحدث رهطاً من قریش بالمدينة وذكر كعب الأخبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. ولما تقدم في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزول شرع وكتاب من عند الله على الأنبياء السابقين حسن لذلك عطف **(وكذلك أنزلنا إليك الكتاب)** على ما في المضمرة وهذا تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل أي مثل ذلك الإنزال البديع الشأن الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة فهو بديع في فصاحته وشرف معانيه وعذوبة تراكيبه وارتفاعه على كل كلام من كلام البلغاء، وقد تفرع على بداعة تنزيله الإخبار بأن الذين آتاهم الله الكتاب يؤمنون به **(فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به)** أي يصدقون أنه من عند الله لأنهم أدركوا بأساليب الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء وأعلم بسمات الرسل وشمائلهم وإنما قال "فالذين آتيناهم الكتاب" لأن فيه تذكيراً لهم بأنهم آمناء عليه كما قال تعالى "بما است حفظوا من كتاب الله" والإشارة بهؤلاء **(ومن هؤلاء من يؤمن به)** إلى من آمن من أتباعهم كالنجاشي وأصحابه ومن بعدهم وهكذا اصطلاح القرآن حيث يذكر هؤلاء بدون سبق ما يصلح للإشارة إليه، ثم أنحى على الجاحدين من الأمة الإسرائيلية وحصل الجاحدون في أخس رتبة من الضلال **(وما يبيح)**

بآياتنا إلا الكافرون) وفيه إشارة إلى نفاقهم وأنهم يكتُمون إيمانهم جحوداً منهم لأجل تصلبهم في الكفر فالتعريف في الكافرون للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعرف أي إلا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه ليظهر وجه الاختلاف بين ما يجحد وبين الكافرون إذ لولا الدلالة على معنى الكمال لصار معنى الكلام: وما يجحد إلا الجاحدون. ثم بين تعالى الحجة على المبطلين المرتابين ما وضع أن مما يقوي نزول هذا القرآن من عند الله أنه ﷺ جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيوب وغير ذلك وهو ﷺ لم يخالطهم ولم يتلو كتبهم ولم يخط حرفاً من كلامهم (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) وهذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها سيد الوجود وحبيب الرب المعبود ﷺ وحجة على الذين يسعون في إبطال الحق فإنه لو كان ﷺ ممن يتصل بهم ويتلق عنهم ويخط صحفهم لكان لهم وجه ارتياب، ولما لم يحصل شيء من ذلك فلا وجه للارتياب وذلك أدخل في الإبطال، ووصف المكذبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنهم كذبوا مع انتفاء شبهة الكذب فكان تكذيبهم الآن باطلاً فهم مبطلون متوغلون في الباطل فالقول في وصفهم بالمبطلين كالقول في وصفهم بالكافرين. ثم أضرب عن ذلك وانتقل إلى الشناء على القرآن وأنه آيات واضحات دالة على وحدانية الرب وألوهيته وصدق رسوله ﷺ من غير أن يلتقط من كتبهم ولا يقدر أحد على تحريفه لكونه محفوظاً في الصدور كما قال صاحب البيان النبوي مبيناً صفة هذه الأمة في الحديث عند البيهقي والطبراني: «أناجيلهم في صدورهم» ولما كان التقدير: ولكنه لا ريبة لهم أصلاً، قال (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) قال الإمام أبو القاسم القشيري قدس الله مرقده وبلّ بمزن الرحمة معهده: قلوب

الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب، فيها أودع براهين حقه وبينات سرّه ودلائل توحيده وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق قلوبهم، وكلّ شيء يطلب من موطنه ومحلّه، فالدرّ يطلب من الصدف لأن ذلك مسكنه، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها، والشهد يطلب من النحل لأنه عشه، كذلك المعرفة تطلب من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته. اهـ. وجملّة ﴿وما يحدد بآياتنا إلا الظالمون﴾ تذييل يؤذن بأنهم جحدوا آيات القرآن على ما هي عليه من وضوح الدلالة على أنها من عند الله لأنهم ظالمون لا إنصاف لهم، والجحد: إنكار الأمر المعروف إنكار مكابرة مع العلم بوقوع ما ينكر كما في قوله "وكانوا بآياتنا يحدون" وشأن الظالمين جحد الحق يحملهم على جحده هوى نفوسهم للظلم كما قال تعالى "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً" فهم متوغلون في الظلم كما تقدم في وصفهم بالكافرين والمبطلين، والله تعالى أعلم. ولما ذكر الجاحدين ثلاث مرات ووصفهم بالكافرين والمبطلين والظالمين انتقل الكلام إلى مقالتهم الناشئة عن جحودهم وذلك طلبهم أن يأتي ﷺ بآيات مرئية خارقة للعادة تدل على أن الله خلقها تصديقاً للرسول الأكرم كما خلق عصا موسى ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ وهذا من جلافتهم أن لا يتأثروا إلا للأمر المشاهدة وهم يحسبون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ينتصب للمعاندة معهم فهم يقترحون عليه ما يرغبونه ليجعلوا ما يسألونه من الخوارق حديث النوادي حتى يكون محضر الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم كمحضر المشعوذين وأصحاب الخنق طرات ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي أنها من عمل القدرة الذي يجري على وفق إرادته تعالى فلكونها منوطة بإرادته شبهت بالشيء المحفوظ عند مالكه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وخص بالذكر من أحوال الرسالة

وصف النذير تعريضاً بالمتعنتين بأن حالهم يقتضي الإنذار وهو توقع الشر. ولما قطع الله نوازع الرغبة عندهم كان من البين أن لسان الحال يقول: ألم يكفهم ما جئتهم به من الآيات المرثيات والمسموعات وعجزوا عن الإتيان بشيء منها، عطف على ذلك قوله منكرأ على جهلهم وعنادهم **(أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم)** أي يتجدد متابعة قراءته عليهم شيئاً بعد شيء في كل مكان وكل زمان من كل تالٍ مصداقاً لما في الكتب القديمة من إعلاء أمرك وإظهار شرفك وتعظيم شأنك وتفخيم مكانك وإجلال قدرك الشريف ورفعة محلك المنيف يتحدثون بكل شيء نزل من الكتاب ويصفعون بذلك مدى الدهر في أقفائهم ويدفعون فكلما أرادوا التقدم ردوا عجزاً إلى ورائهم فأعظم به آية باقية إذ كل آية سواء منقضية ماضية، ولما كان هذا أعظم من كل آية يقترحونها ولو توالى عليهم إتيانها كل يوم لدوام هذا على مر الأيام والشهور حتى تفتى الأزمان والدهور، أشار تعالى إلى هذا العظمة مع ما فيها من النعمة بقوله مؤكداً على جهلهم فيما لزم من كلامهم الأول من إنكار أن يكون في القرآن آية تدلهم على الصدق **(إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)** وقد أشارت الآية إلى ثلاث مزايا للقرآن على غيره من المعجزات، الأولى: ما أشار إليه قوله "يتلى عليهم" من انتشار إعجازه وعمومه في الجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختص بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص شأن المعجزات المرئية لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية، والثانية: ما أشار إليه قوله "إن في ذلك لرحمة" فإنها واردة مورد التعليل للتعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب وفي التعليل تتميم لما اقتضاه التعبير بالكتاب

وبـ"يتلى عليهم" فالإشارة بـ"ذلك" إلى الكتاب ليستحضر بصفاته كلها وللتنويه به بما تقتضيه الإشارة من التعظيم، وتنكير "رحمة" للتعظيم أي لا يقادر قدرها، والثالثة: ما أشار إليه قوله "وذكرى" فإن القرآن مشتمل على مواعظ ونذر وتعريف بعواقب الأعمال وإعداد إلى الحياة الثانية ونحو ذلك مما هو تذكير بما في تذكره خير الدارين وبذلك فضل غيره من المعجزات الصامته التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقاً، وعُلّقَ بالرحمة والذكرى قوله "لقوم يؤمنون" للإشارة إلى أن تلك المنافع من القرآن لقوم شعارهم أن يؤمنوا يعني لقوم شعارهم النظر والإنصاف فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلماً وعلواً فالفعل مراد به الحال القريبة من الاستقبال وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها.

فأجمعوا أمركم وشركاءكم

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون) لما ابتدأ تعالى السورة بإثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ وأردف بإثبات انفراد الله تعالى بالإلهية وإبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته وإبطال شفاعتهم وتخلل ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذبوا الرسل وانتقل إلى مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان نصره شركائهم وتفنيد أكاذيبهم وافتراءهم بنسبة الولدية له تعالى وتخلل ذلك التعريض لهم بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، ذكر قصة نوح استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج فإن نوحاً ﷺ مع

قومه مثل لحال محمد ﷺ مع أهل الكتاب ففي ذكر قصة نوح عظة لأهل الكتاب وكذلك قصة موسى ﷺ عقبها... وافتتاح خطاب نوح قومه بـ "يا قوم" إيدان بأهمية ما سيلقيه إليهم وخصّ بالذكر من أحواله فيهم تذكيره إياهم بآيات الله للتنبية على عنايته بهم إيقاظاً لعقولهم... وتَحَهُمُ الحقُّ على أمثالهم شَنِشَنَةِ المتوغلين في الفساد المأسورين للهوى إذ تقع لديهم الدعوة إلى الإقلاع عنه والتثويب بهم إلى الرشاد موقعاً مرّ المذاق من نفوسهم شديد الإيلام لقلوبهم لما في منازعة الحق نفوسهم من صولة عليها لا يستطيعون الاستخفاف بها ولا يطاوعهم هواهم على الإذعان إليها فيتورطون في حيرة ومنازعة نفسانية تثقل عليهم وتشمئز منها نفوسهم وتكدر عليهم صفو انسياقهم مع هواهم. ثم بيّن ﷺ أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا (فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم) وقرئ بوصل الهمزة وفتح الميم "فأجمعوا" قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هاهنا وجوه كيدهم ومكرهم. وقرئ برفع الهمزة "وشركاؤكم" والتقدير: فأجمعوا أنتم وشركاؤكم أي في الحكم ثم امضوا إلي بمكروهم وما توعدونني به ولا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقت عليه... وذكر بعضهم أنه ﷺ قال في أول الأمر فعلى الله توكلت فإني واثق بوعد الله جازم بأنه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم إياي بالقتل والإيذاء يمنعني من الدعاء إلى الله تعالى، ثم إنه ﷺ أورد ما يدل على صحة دعوته فقال: فأجمعوا أمركم فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركائهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثاً وهو قوله: ثم لا يكن أمركم عليكم غمة وأراد

أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليها: رابعاً فقال: ثم اقضوا إليّ والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور إليّ، ثم ضم إلى ذلك خامساً وهو قوله: ولا تنظرون أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه ﷺ كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه. وهذا التحدي الصريح المثير لا يقوله إلا مؤمن توكل على مولاه ووثق كل الوثوق بقوة الله، حتى ليغري خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول على مهاجمته وهم من لديهم قوى الأرض جميعها، فتتصاغر أمامه تلك القوى لأنه في معية مولاه الذي لا يدع أوليائه لأوليائه الشيطان، والعجيب في هذا الدين أنه أقوى ما يكون حين يكون أتباعه أضعف ما يكونون... والله سبحانه يضع لنا نموذجاً في قصة عبده نوح ﷺ وهو لا يبالي بما يهيئونه له من الضر لتأسى به ونخذو حذوه، وهذا ليس قهوراً أو غروراً أو انتحاراً بل يعني تحدي القوى الحقيقية للقوى الهزيلة الفانية التي يديرها صناديد الكفر الذين يتصيدون كل شبهة وكل حيلة لينفذوا منها إلى احتواء العُصب المجاهدة من خلال بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب كيداً لهذا الدين وأهله بكل صنوف المكر التي كشفها القرآن الكريم كي ينقلب النصر إلى هزيمة - والكل دون الله مثل بعوضة... وهو القوي القاهر المتكبر - وضرب الله لنا مثلاً في هود يسخر منه قومه فيقول مبيناً مواجهاً (قال إني أشهد الله واشهدوا أي بريء مما تشركون، من دونه فكيدي جميعاً ثم لا تنظرون، إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) رجل واحد يواجه ملوك الأرض وأعتى أهل الأرض

وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة في زمانه، يواجههم في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ويرأ منهم ويتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال وأن يفعلوا ما في وسعهم وهو لا يباليهم بحال! وهذا شعيب يتهدده قومه ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ وقد عُدِّي العود بـ(في) لتضمنه معنى الدخول والثبوت إذ الكفار وضعوا المؤمنين بين أمرين: الخروج من الأرض أو الثبوت في الملة وممراده الاندماج والذوبان! ونظير هذا في الحديث المتفق عليه: «وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ» فالمقصود من قولهم ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾ الاندماج في عقائدهم والانتظام في سياساتهم - والله أعلم - كما هو حال المشركين الجدد! ولذلك قال أصحاب الكهف ﴿إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ وينتقل التاريخ فينتحل المشركون الجدد أساليب القدامى، وقد يستفزون المسلم باتباع دعوتهم وفق أساليب شيطانية فيقتسمون المهام والوظائف ويحومون على المنع وينسبونهم إلى الحزم على مبدأ: كل ممنوع محرورص عليه! وقد أمرنا المولى سبحانه أن نقول لهم في مباينة حاسمة وبراءة تامة ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وهذه المباينة لازمة في دين الأنبياء جميعاً فهذا شعيب يقول لقومه ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ دلالة على أن عملهم مخالف لعمله وأنه متاركهم، وهذا ما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ ﴿وقل للذين لا

يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون) وقد صف الحق الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين والغرض: التبرؤ منهم والإعراض عنهم. والنصوص القرآنية تبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة المقدسة التي يخوضها مع ملوك الأرض لتحقيق حكم الله في الأرض (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) حتى لا يجاهد وفق القواعد التي وضعها العدو الذي يقاومه، ولننظر إلى قول رسول الله ﷺ لبني شيبان: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصِرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ» لقد حدّد ﷺ في هذه الكلمة مهمة من ينبري لنصرة دين الله، وأن النصره يجب أن تكون شاملة قوية قاهرة لا تهاب قوة من قوى الأرض والبشر، فالنبي ﷺ بيّن للقوم أن جهدهم الجزئي في نصرة دين الله تعالى لن ينصره في دعوته وتبليغ رسالته لأن دين الله في شموله وخلوده وقوة سلطانه ينافي تعدد الآلهة ولا يقبل أنصاف الحلول ولا المداينة ولا المساومة ولا تصلح له المفاوضات والمناورات! وقد ذكر الحق نبأ نوح وتحديّ قومه بأن يجمعوا أمرهم وشركاءهم في الحكم بعد ذكر الإشراف بالعبادة وما وصفه به المشركون من المحال وهو اتخاذه سبحانه الولد! وفي سورة نوح عكس الترتيب (وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًا وَلَا سِوَاكَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) ودلّت العبارة الأولى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ) على إشراكهم في الحكم! ودلّ قوله (وَلَا تَذَرُنْ وَدًا وَلَا سِوَاكَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) على إشراكهم بالعبادة كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبادت. وبالجملة فإن عبادتهم لها من تسويلات شياطين الجن ويؤيده السياق المكتنف بالسباق

واللحاق وما ورد في سورة الجن وقد ذكرنا ما رواه ابن أبي حاتم عن سفيان أنه ليس من صنم إلا فيه شيطان. وروى ابن الجوزي عن ابن عباس وأبي بن كعب نحوه. فكانت عبادتهم الأنصاب عبادة للشيطان لأنه هو الأمر بذلك. وذكر تعالى مكر قوم نوح وإضلالهم ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ وما أشبه هذا بإضلال أهل الكتاب ومكرهم المتمثل في صورٍ شتى ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ وها هم اليوم يجتهدون في استخراج كافة أنواع المكر والإضلال كي يُيقوا الناس على طاعتهم والانقياد لهم، أشاعوا التفرقة المنهجية وخلطوا العقائد وطمسوا الحق وجعلوا الدعوة إلى توحيد الله ونبذ ضروب الشرك طريقة خاصة بهدم الأضرحة المبنية على القبور فمن حاد عنها فقد عرض دينه للخطر! وجربوا كل فكرة باطلة وبثوها في أذهان المسلمين بأخبث الوسائل وأمكر الطرق وأخفى الأساليب وأضلوا المجاهدين وساروا بهم في كل اتجاه ثم قاموا باستفزازهم وخداعهم بمصائد ورايات مضللة بأسلوب الجهاد المضاد ليصلوا بهم إلى الفوضى الشاملة! روى الإمام الترمذي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به» وقد واظب نوح عليه السلام على دعوة قومه وواجههم بالخطاب الجزل وكان أشدهم خطراً: المنافقون وكان ابنه منهم ولم يطلعه الله على نفاقه ولما قال ﴿إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق﴾ أجابه المولى عز وجل ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ ومعنى العمل غير الصالح: النفاق كما أشارت القراءة الأخرى ﴿إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ يعني ما لا تعلم نفاقه ولما ناداه ﴿وكان في معزل﴾ أي عن الكفار في الظاهر في ما يبدو للمؤمنين ﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ حيث لم يقل سنأوي أو يعصمنا فإن أفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين يشعر بانفرداه

من الكافرين واعتزاله عنهم! وهذه طريقة المنافقين الذين تولى العليم الحكيم كشف أسرارهم والذين قال فيهم على لسان نوح **(إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ)** وإنما يتم الإضلال عبر المكر والخدعة! وكان نوح **(عليه السلام)** قد أوصى ابنه بوصية بالغة كما روى الهيثمي وغيره عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله **(ﷺ)**: «ألا أخبركم بوصية نوح ابنه؟» قالوا: بلى، قال: «أوصى نوح ابنه فقال لابنه: يا بني، إني أوصيك باثنتين وأثناك عن اثنتين، أوصيك بقول: لا إله إلا الله فإنها لو وضعت في كفة الميزان ووضعت السماوات والأرض في كفة لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله، وبقول: سبحان الله العظيم وبحمده فإنها عبادة الخلق وبها تقطع أرزاقهم، وأثناك عن اثنتين: الشرك والكبر فإنهما يحجبان عن الله» وهاتان الخصلتان في المستخلفين الجدد كما جاء في الحديث عند الإمام أحمد: «رأس الكفر المشرق والكبر والفخر في الفدادين أصحاب الوبر» وجبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح يقع في منطقة مكة المكرمة كما تقدم، ومقصد سورة نوح ضرب المثل لكفار مكة القدامى والجدد بقوم نوح وفي ذلك تمثيل لحال النبي **(ﷺ)** مع قومه بحالهم **(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)** وكان قومه مستخلفين في مكة... ولما بين نوح **(عليه السلام)** فيما تقدم أنه لا يخاف شرَّ قومه بوجه من الوجوه أردف ببيان أنه لا يسألهم أجراً فقال **(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** وهذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغاً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب، وماذا يطمع المسلم أن ينال من البشر المحاويج وهو متصل بالفيض اللدني الذي لا يغيض ولا ينضب؟ والمعنى: فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فما سألتكم من

أجر فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم إن أجري إلا على الله وهو الثواب الذي يشيني به في الآخرة أي ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا وأمرت أن أكون من المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير. وفيه أن من دعا الناس إلى هداية أو علمهم من علوم الدين شيئاً وأخذ عليه الأجرة خرج من جملة الورثة وفيه أيضاً على هذا المعنى من تأكيد المتاركة والمزايلة والمباعدة والمخالفة والمفارقة وتقرير مضمونها ما لا يخفى... وعلى مدار تاريخ الأنبياء والرسل لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أوليائه أعداءه واختاروا الله وحده فلم يعتمدوا على غيره ولم يستنصروا سواه.

الموت وحقيقته

قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي قدس الله روحه: اعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية وهو طارئ عليها بعدما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علة الحياة، وقال أيضاً: والموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة وما هو - أي ليس هو - عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر وإنما الله تعالى أخذ بأبصارنا فلا تُدرك حياته وقد ورد النص في الشهداء في سبيل الله تعالى أنهم أحياء يرزقون ونهينا أن نقول فيهم أموات فالميت عندنا ينتقل وحياته باقية لا تزول وإنما يزول الوالي - وهو الروح

- عن هذا الملك - أي التصرف في الجسم الذي وكله الله تعالى بتدبيره أيام ولايته عليه - قال: والميت عندنا يعلم في نفسه أنه حي وإنما تحكم عليه بأنه ليس بحي جهلاً منك ووقوفك مع بصرك ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت من حركة ونطق وتصرف وقد أصبح متصرفاً فيه لا متصرفاً، ثم قال: فالموت انتقال خاص على وجه مخصوص. وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي: اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد اخطؤوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بضار ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر وقال آخرون: إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى إنها - الروح - لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح - أي القلب الروحاني لا القلب الصنوبري الجسماني - والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى

معها بعد مفارقتها الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء تتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد.

(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) يصلح هذا أن يكون مثلاً لحال ضلال الضالين وهدى المهتدين نشأ عن قوله "فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل" ويجوز أن يكون انتقالاً إلى استدلال على تفرد الله تعالى بالتصرف في الأحوال بعد ذكر دليل التصرف بخلق الذوات ودليل التصرف بخلق أحوال ذوات وإنشاء ذوات من تلك الأحوال وقد أعقب كل دليل بما يظهر فيه أثره من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفس المخلوقات وهي حالة الموت وحالة النوم تنبيهاً لمن ينكرون البعث وقد أنبأ عن الاستدلال قوله "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" فهذا دليل من أنفسهم فتكون الجملة استئنافاً ابتدائياً للتدرج في الاستدلال ولها اتصال بجملة "خلق السماوات والأرض بالحق" وجملة "ألم تر أن الله أنزل" وعلى كلا الوجهين أفادت الآية إبراز حقيقتين عظيمتين من نواميس الحياتين النفسية والجسدية، وتقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر أي الله يتوفى لا غيره فهو قصر حقيقي لإظهار فساد أن أشركوا به آلهة لا تملك تصرفاً في أحوال الناس، فالتوفية جاءت على نوعين: توفية النوم وبهذه التوفية تتوجه الروح لعالم آخر مع بقائها في الجسم فالحياة ثابتة في الجسم لم تفارقه ولكنها توجهت إلى عالم برزخي بين عالم اليقظة وعالم الأرواح. وتوفية الموت

وبهذه التوفية تُقبض الروح من الجسم فلا حياة فيه كما كان من قبل فتلتحق الروح بعالم البرزخ بين الدنيا والآخرة.

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ)

الشفاعة: السعي في حصول نفع أو دفع ضرر، والشفعاء هنا: الشركاء، والشافع هو الجاعل الفرد زوجاً والوتر شفعاً، ويجوز أن يكون الشافع بمعنى المعين والناصر، قال النابغة:

أتاك امرؤ مستعلن شأنه ... له من عدو مثل ذلك شافع

والآية تتميم للتنويه بالقرآن الذي أنزله على رسوله بالحق وأن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، ونظم الآية دقيق وتحتة معان حمة وأولاها أنه تعالى الإله العالم أحق بالعبادة من الشفعاء، والاستفهام الذي تشعر به **(أَمْ)** هو هنا للإِنكار والتشنيع والتحقيق والتهكم بملوك الأرض الذين اتخذوا من دون الله شفعاء يتوارون خلفهم ويطلبونهم في الأزمات فأني يصرفون؟ كيف يُصرف الذين آتاهم الله الحكم والعلم فيستنصرون بالذين لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ والأعجب من ذلك أنهم يجعلون لهم نصيباً من أموالهم كما قال جل شأنه "ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم" أي يجعلون في أموالهم حقاً لشركائهم! والجملة **(قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ)** لقصد التعريض بشركائهم بأنهم حمير وليس للحمار إلا شيئان: صبره وقوته! وأفاد تنكير "شيئاً" في سياق النفي عموم كل ما يُملك، والكلام تهكم بهم حين اتخذوا من لا يعقل إلهاً من دون الله، فإنه لعدم عقله لا يمكن تحقق نصرته فاتخاذهم شفعاء من الحماقة! وشبيه هذا المعنى قوله سبحانه **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا**

خلقناكم أول مرة وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴿والآيات تبين حقيقة الشفعاء والشياطين الشركاء المهازيل وتشخصهم بصورة مزرية فيها ضعف ووهن وجهالة! ولما نفى أن يكون لشركائهم شيء من الشفاعة في عموم نفي ملك شيء من الموجودات قبل بقوله ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ لأنه إذا كان له الملك كله كان مالكا للشفاعة، فموقع جملة ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ موقع التذليل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة، فإذا كان ذلك الملك له فلا يستطيع أحد صرفه عن أمر أراد وقوعه إلى ضد ذلك الأمر، وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم نصرة في الدنيا، وعُطِفَ عليه ﴿ثم إليه ترجعون﴾ لقصد إثبات البعث وإبطال نصرتهم في الآخرة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه عز وجل. وقد بولغ في بيان حالهم القبيحة حيث عطف على قوله ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ قوله ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ والغرض منه بيان حالهم وذمهم بالمناقضة والتعكيس إذ كيف يدّعي التوحيد من إذا ذكر الله وحده اشمأز قلبه ونكص على أعقابهِ وارتكس في أمره وولى على أدبارهِ؟ كما في قوله تعالى ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا﴾ وهكذا انخرفت فطرتهم والتوت طبيعتهم وأظلمت قلوبهم وأعتمت أبصارهم وانطمست بصائرهم، وقد رأيناهم على نحو هذه الصفة التي وصفهم بها علام الغيوب يتقلبون في البلاد لهثاً خلف الشركاء! يُحسّون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، يعانون عذاب الأحقاد ويذيقون المسلمين رجوع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بينهم ليجرّوا من ورائها مزيداً من السيطرة والمغانم،

تشمئز قلوبهم وتنقبض قسّمات وجوههم إذا ذكر الله في الموالد والحضرات! ويستبشرون إذا خلوا إلى شياطينهم في المواسم والحفلات! ولما كان أكثر ما تقدم من السورة مشعراً بالاختلاف بين المنافقين والمؤمنين، وبأن المنافقين مصممون على باطلهم على ما غمرهم من حجج الحق دون إغناء الآيات والتدبر عنهم، أمر الله رسوله أن يقول في مواجهة هذه الحال ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ إعداراً لهم بالندارة، وإشعاراً لهم بأن الحق في جانبهم مضاع، وأن الأجدر برسول الله متاركتهم وأن يفوض الحكم في خلافهم إلى الله، ووقوع الخبر ﴿يختلفون﴾ فعلاً مضارعاً تعريضاً بأنه اختلاف متجدد إذ لا طماعية في ارعواء المعاندين الألداء عن باطلهم، وكان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بهذه الكلمات: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» ولما حكى تعالى عن المشركين أنواعاً من الأعمال القبيحة، ذكر في وعيدهم أشياء نبّه بها على عظم عقابهم، أولها: أنهم لو ملكوا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من عذاب الآخرة. وثانيها: أنه قد ظهرت لهم أنواع من العذاب في الحياة الدنيا لم تكن في حسابهم ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ وثالثها: ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها وهو قوله ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل بهم مكرهم وعاد عليهم ما استهزؤوا به وحق بهم من كل الجوانب، والحق في اللغة ما أحاط بالإنسان من مكر يعمل به فينزل به.

ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير

سورة المؤمن - مؤمن آل فرعون - المسماة بسورة غافر تعالج قضية ضخمة من قضايا البشرية وهي قضية التجبر والتكبر والعلو والفساد وهذا معنى فرعون! والسورة ترسم المعركة بين الحق والباطل، والشرك والإسلام، والكفر والإيمان، بين بني إسرائيل وسَحَرْتَهُمْ وبين أمة الإسلام كما كانت من قبل بين فرعون وسَحَرْتَهُ وبين موسى، لم تتغير سوى الأشكال والصور والمسميات، وأهم عملية يقوم بها السحرة: تزيف الحقائق وتغييرها وجعل الناس يرون الحقائق على غير ما هي عليه في الواقع ولذلك وصفهم الحق بقوله "سحروا أعين الناس" أي لم يغيروا في خصائص الأشياء ولكن غيَّروا في قابلية استقبال الأشياء وتلقي العلوم فالتغيير حصل عند المستقبل وليس في الواقع وهذا هو دور السحر... وحتى ينجح الساحر يستعين بخادم للسحر! واعلم أن شخصية فرعون جمعت بين الشرك والسحر والخداع وبين البطش والفساد والعلو كما نراها اليوم تماماً وكما سطرها القرآن الكريم، والإشارة بـ **(ذلكم)** إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله **(ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم)** وما عقب به من قولهم **(فهل إلى خروج من سبيل)** أي ذلكم الذي أنتم فيه بسبب كفركم بالوحدانية وإيمانكم بالإشراك أي إذا ذكرت أمريكا وأمثالها وذكرت الشياطين صدقتم واستقرت نفوسكم، فالحكم لله العلي الكبير لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الحكم. ولما ذكر تعالى دلائل وحدانيته أردفها بما يقرر إقامة الحجة على المشركين فقال **(هو الذي يريكم آياته)** والمعنى أنه يريكم آيات

القرآن المتضمنة حجج الله على خلقه، وجيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالاتها على التجدد.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ ذكر قارون مع فرعون وهامان لكونه أشهر الأتباع وكان من أبصر الناس وأعلمهم برسالة موسى ولم يفده ذلك شيئاً لأنه تولى فرعون وهامان فاعتبر منهما وهو رمز لأصحاب الثروات، والضمير في قولهم: "اقتلوا" مخاطب به فرعون خطاب تعظيم وإنما أجهل القائلون لعدم تعلق الغرض بعلمه لأن المقصود قوله بعده ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ وهو محل الاعتبار للفراغة الجدد بأن كيد أمثالهم كان مضاعفاً فكذلك يكون كيدهم، وهذا القتل غير القتل الذي فعله فرعون الذي ولد موسى في زمنه، وسمي هذا الرأي كيداً لأنهم تشاوروا في إلقاء الشبهات في دعوة موسى لإيقاع الفتنة بين المؤمنين حتى يغير بعضهم على بعضهم ويقتل بعضهم بعضاً، فانقلب كيد المجرمين عليهم وأحس فرعون أن موسى سيثُلُّ عرشه ويهدم ملكه فرأى أن الأجدد قتله دونهم لأنه أقطع لفتنتهم! ثم نحا إلى المخرقة وأتبع بقوله ﴿وليدع ربه﴾ على سبيل الاستهزاء أي أي أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني! ثم علل ذلك لقومه يريهم الخيانة في قالب النصيح مؤكداً بأن الأمر خطير جداً ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ وقرئ بالواو المفتوحة ﴿وأن يظهر في الأرض الفساد﴾ فسمي اللعين الصلاح فساداً لمخالفته لطريقته

الفاسدة كما هو شأن كل منافق مفسد مع المصلحين، فإنَّ شأنه التظاهر بشرع الله مع إضمار الكفر وإلحاق الأذى بالمؤمنين، ألا ترى إلى قول فرعون لسحرته حين آمنوا ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين﴾ أراد تقرير حكم الحراة فيهم على حد قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ فقلَّب اللعين الحكم الذي تقرر فيه وفي أمثاله وجعله في المؤمنين!!!

مؤمن آل فرعون

لما ظهرت آيات موسى ﷺ أهدَّ ركن فرعون واضطربت معتقدات أصحابه، فأثنى الله على رجل مؤمن من آل فرعون كتم إيمانه وأسرَّه، ثم أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى وشافَه فرعون بالحق، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبت ذكره في المصحف لكلام قاله أمام سلطان جائر، ثم وعظ الرجل المؤمن قومه وذكَّرههم بالنعم وأنذرهم بحلول النقم وقرَّرههم على من هو الناصر لهم من بأس الله ﴿ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ وعرَّضَ بالمسرفين في القتل والكذابين في ادعاء التوحيد والمبطلين الذين انتحلوا شرع الله وقلبوا آيات الله واتبعوا ما تشابه منها لإيقاع الفتنة بين الناس وإفساد عقائدهم عن منهج التوحيد ولحمل الكتاب على غير الوجه المراد منه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائفة التي توافق أغراضهم الفاسدة ليفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس، وقد حذر النبي ﷺ أمته منهم في حديث عائشة رضي الله عنها كما جاء في الصحيحين: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه

فأولئك الذين سَمَى الله فاحذروهم» وقد نصح الرجل المؤمن لقومه وحذّره أن يحل بهم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وخوفهم بالعذاب الآخروي ثم نَبَّههم إلى رسالة التوحيد التي جاء بها يوسف ثم بعث بها موسى على فترة من يوسف ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ وظاهر هذه الآية أن يوسف كان رسولا إلى القبط فأمن على يديه ملك مصر - بعد تعبير الرؤيا التي رَمَزت إلى حرب دامت سبع سنين، وتمّ الإعداد لها سبع سنين - والتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون هو من دقائق إعجاز القرآن، وقد عبّر عنه في التوراة بفرعون! ويدل عليه قول الخضر لموسى ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ والوراء: مجاز أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص ولا يشعر به ويغفل عن معرفته، ويطلق الوراء على أمام الشيء وقدامه إذا كان متواريا عنه كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» وكانت مملكة فرعون تشمل جميع البلاد والعباد كالفرس والرومان الذين اتخذهم فرعون شركاء، كما تشمل الآشوريين والكنعانيين المعروفين باسم الهيكسوس أو العمالقة - ويبدو أن العلاقة مع الهيكسوس تتخذ أسلوب الصراع السعودي الإيراني - وهذا المعنى هو الصحيح فلا محيص من صرف الآية عن ظاهرها إلى كلام المؤرخين ولا عبرة لما نقله بعض أهل قصص القرآن عنهم، وقوله ﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ حكاية لرأيهم في رسالة موسى مضموم إلى رأيهم في رسالة يوسف، وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم

بعد الموت تندماً على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه، ورسالة يوسف تتضمن أفراد الله في الحكم والعبادة، وبذلك تتضح صورة التوحيد التي عُرفت قبل توليه مقاليد الحكم في مصر، ثم انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم، فلما مات الملك الصالح ارتد الفراعنة من بعده وأخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر لإعادة الشرك الذي يقوم عليه حكم الفراعنة... وهذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل، إذ أن اختلاف العقيدة ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع، ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك فرعون الذي كان يدعي لنفسه الحكمية المطلقة ولذلك عبّر عنه بفرعون وكانت الرؤيا التي رآها سبباً في طغيانه بينما رؤيا الملك كانت سبباً في إيمانه ثم قعد يوسف على سرير الملك بعد أن كان أميناً على خزائن الأرض حسبما نطق به قوله تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ قال ابن جزى: أي على سرير الملك. وهذا هو الأليق بحال الرسل مع أتباعهم وبعد موته ﷺ بدأت قصة بني إسرائيل مع فرعون حتى بعث الله تعالى موسى ﷺ وبذلك تكون عائلات ملوك القبط قد بقي لها الحكم إلى عهد موسى ﷺ حين انطبق عليهم البحر.

﴿قل إني نهيأت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ لما بين تعالى في الآيات المتقدمة صفات العظمة والجلال والعز والكمال وأنه سبحانه الرب وحده وأن مدعي ربوبية ما سواه

معاند لأنه سبحانه متميز بأفعاله التي لا يشاركه فيها أحد بوجه مركز في الطبائع صحته، واضح في العقول معرفته؛ أورد ذلك على المشركين بآلین قول ليصرفهم عن عبادة الأرباب، ويبيّن أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات المؤيدة بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة بما أوحى من أدلة السمع وما ركب من أدلة العقل، وتلك البينات أن إله العالم فرد واحد صمد منزّه عن الشريك والنظير والضد والند ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأنّ جعل الشيطان وبعض البشر شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل... وبعد أن أخبر تعالى بما يتخلى عنه أتبعه الأمر بما يتحلى به فقال **(وأمرت أن أسلم لرب العالمين)** والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضمير المتكلم لتربية المهابة في نفوس المعرّض بهم ليعلموا أن هذا النهي هو من جانب سيده وسيدهم فما يسعهم إلا أن يطيعوه ولذلك عزّزه بإضافة الرب إلى العالمين أي ربكم ورب غيركم فلا منصرف لكم عن عبادته وطاعته.

(الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) المعنى أنهم يخاصمون في آيات الله يريدون بذلك تحريف معانيها وطمسها وتشكيك المسلمين في القرآن والتشويش عليهم بغير حجة ولا برهان فهؤلاء مُقِتّ جداهم مُقَتّاً شديداً، والمقت كناية عن شدة العقاب على ذلك من الله، وفي الكلام ضرب من التعجب والاستعظام! وكونه مقتاً عند الله لا يحصل عند الناس إلا لمن أوتي الإيمان فزيد الخبر تأييداً لظهوره عندهم، وفي هذا تنويه بالمؤمنين وثناء عليهم... وقد ابتدئت السورة بإظهار حقيقة الأئمة المضلين وبيان كفرهم **(وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد)** واتصل الكلام

بعضه ببعض وامتد على الترتيب والنسق إلى قوله ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار، إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ فنبه في هذه الآية على ما يحملهم على المجادلة في الكتاب وهو الكبر، فلو أنهم آمنوا لزمهم أن يطيعوا الرسول ﷺ ويكونوا تحت أمره ونهيه لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة ولكنهم ظنوا أنهم إن أطاعوه واتبعوه نقصت أحوالهم فأعلم الله تعالى أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أملوه لأن الله تعالى أذلهم، وتكرير ذم المجادلة لتعدد المجادل فيه فإن هذه الآية تشير إلى جدالهم في الآيات الكونية وتصويرهم بناء السماء وشكل الأرض بصورة هزيلة تخالف صريح القرآن وتنم عن استهزائهم بخالق الأكوان! واختيار المضارع في ﴿يجادلون﴾ لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها وهذا كناية عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم، ليعلم المؤمن دخيلتهم فلا ينخدع بهم. أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عنه قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره ما يكون فعظموا أمره وقالوا: يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ والداعي لهم إلى الجدال هو الكبر والحسد وحب ألا تخرج النبوة من بني إسرائيل! فهم يخاصمون في آيات الله بالتلبيس والرد بغير حجة في عقل أو كتاب وليس جدالهم لأمر وضع عندهم بل للحسد والتعظم الذي في صدورهم من التكبر عن الانقياد للحق وما هم ببالغي هذا الكبر الذي في صدورهم! ولما ذكر الحق إراث بني إسرائيل الكتاب ونبه على جدالهم فيه عاد

إلى التعجيب من حالهم بعد بسط الدلائل على الوحداية والقدرة بذكر تصميمهم على الجدل وتكذيبهم بالكتاب وبالرسل وفرّع على ذلك تهديدهم الصريح بالعذاب جزاء إشراكهم فقال ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، في الحميم ثم في النار يسجرون، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون، من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين﴾ وقد بين مؤمن آل فرعون ما بين دعوة قومه ودعوته من البون في أنّ الواحدة شرك وكفر، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عزة الله وغفرانه، ووضّح العلاقة بين الكفر والشرك في كلمات جامعة ألقاها عن علم ووجهها على علم وقذف بها في وجه الجاهلية على علم ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ والمعنى هنا على التعجب يعني أنه يعجب من دعوتهم إياه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحتهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاها به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم! أي تدعونني للكفر بالله وإشراك ما لا أعلم مع الله في الإلهية ما ليس لي به علم أي ما ليس لي بصحته دليل وحجة، والكلام كناية عن كونه يعلم أنها ليست آلهة بطريق الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم. ويُفوّض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله ويكل الأمر له تعالى ويقرر من غير شك أن هؤلاء الشركاء ليس لهم نصرة ولا نجدة في الدنيا ولا في الآخرة ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ وإذا انتفت دعوة الشركاء فقد تحقق إذن أن المرجو

للنجدة والإنعام في الدنيا والآخرة هو الربّ الذي يدعوهم هو إليه. ثم ذكر تعالى قصة المناظرات التي تجري بين التابعين والمتبوعين من أهل النار فقال ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ عَنَا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وقد تكررت الآيات وتكرر التكذيب بها وتكرر كذلك إهلاك المكذبين، وفي الآية تعريض بإنذارهم بالانقراض والزوال ونزول العذاب، ودلالة إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها...والذين استكبروا: هم المستخلفون، والضعفاء: من اتبع دينهم من الأمم التي تنازلت عن أحص خصائص الإنسان حين عطلت ما وهبها الله من حرية الإرادة والتفكير والاعتقاد وجعلت نفسها تبعاً للمستكبرين وانسأقت خلفهم كالدواب! والملاحظ أن لفظ (الضعفوا) ورد مرتين في القرآن مرسوماً على واو، وذلك في سورة غافر ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ وسورة إبراهيم ﴿فَقَالَ الضَّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ والمراد من الضعف: ضعف الإرادة والدين والله أعلم، أمّا ضعف البنية والجسم فقد ورد مرتين مرسوماً على الألف وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَهُ ذَرِيَّةٌ ضِعْفَاءُ﴾ وفي قوله سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾.

المبحث الثامن: المدخل

السُنُوْءُ الخِدَاعَةُ وَدَوْلَةُ إِسْرَائِيلَ

دولة إسرائيل هي المخطط الأم الذي تم إخراجها للعالم وقد عمل الحفاة العراة على إشغال المسلمين بالمسجد الأقصى وإيقاد الحرب العالمية تمهيداً لإعلان ما أسموه بدولة إسرائيل! وتمكنوا من استنفار أتباعهم من جليل سيبيريا إلى أحرار إثيوبيا وسوقهم إلى الأرض الموعودة على حسب زعمهم وفق نبوءة وضعوها لهم لتتحول إلى مصدر أفكارهم ولتصبح هي الغاية والهدف التاريخي العقائدي للعلوج والرسالة المقدسة التي تحملها جيوشهم ومحور حركة تاريخهم كله! والأصح أن يُطلق عليها (دولة الشركاء) التي ضرب الحفاة العراة فيها برواقهم ونصبوا حبالهم وأعملوا مكائدهم ومخائلتهم، واضطرب حبل الإسلام ومرج عهده وماج أهله، وظن المسلمون أن بني إسرائيل هم هؤلاء الأخلاط من الخزر والفلاشا والأشكناز والسفارديم والدونمة وغيرهم ممن يشكلون أكثر من سبعين قومية في فلسطين، ناسين أو ساهين عن قول الحبيب الأعظم ﷺ: «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» يعني المشرق. والشيطان مهندس العلاقات بين بني إسرائيل وأتباعهم وهو أول من سنَّ الكفر والشرك وهو القائل ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والاحتناك: وضع الراكب اللجام في حَنَك الدابة ليركبها ويسيرها، فهو تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإشرار بالله والإفساد والإغواء بتسيير الدابة على ما يريد راکبها. وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه وعقبه بذكر ما جرّه سوء اختياره من جزائه وجزاء أتباعه في قوله ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا، وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ﴾ قال ابن عطية: معناه استخف

واخدع حتى يقع في إرادتك، تقول استفزني فلان في كذا إذا خدعك حتى تقع في أمر أراه. وقال الألويسي: يقال استفزه إذا استخفه فخدعه وأوقعه فيما أراه منه. اهـ. والاستفزاز: الأزرّ والتهيج والإغراء بالملك والرياسة والثروة والجاه وكثرة الأعوان ويتضمن ذلك إيقاع الأتباع في الفرق والأحزاب المصطنعة بالوساوس والتسويات، والكلام صيغ نظمه في صورة توصيف وسائل الغواية الإعلامية لتهيج الفتن والحروب والاستيلاء على القلوب والمشاعر وغسيل الأدمغة والعقول وإثارة الغرائز واستنفار الشهوات وبث الفوضى في العلاقات، يستخدم فيها إبليس جنوده لاستدراج البشرية للفخاخ المنصوبة والمكائد المدبرة! يعدهم بالغلبة ويمنيهم بالثراء ويقودهم إلى الحرب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أي أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكائيدك وعدتك وعتادك، وإبليس له خيل ورجالة من الجن والإنس كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال آخرون: ليس للشيطان خيل ولا رجالة وإنما هما كناية عن الأعوان والأتباع من غير ملاحظة لكون بعضهم راكباً وبعضهم ماشياً وجوز بعضهم أن يكون استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورجله تمثيلاً لتسلطه على من يغويه فكأن مغواراً وقع على قوم فصوت بهم صوتاً يزعجهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ومراده أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية ولا يضر فيها اعتبار مجاز أو كناية في المفردات فلا تغفل، قاله الألويسي. وقال صاحب التحرير والتنوير: وهو تمثيل لحال صرف قوته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجاله... والمعنى: أجمع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائل الفتنة والوسوسة لإضلالهم، فجعلت وسائل الوسوسة بتزيين المفسد وتفضيع المصالح كاختلاف أصناف الجيش فهذا تمثيل حال

الشيطان وحال متبعيه من ذرية آدم بحال من يغزو قوماً بجيش عظيم من فرسان
 ورجالة **(وشاركهم في الأموال والأولاد)** والمشاركة في الأموال عبارة عن كل
 تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في
 غير حقه ويدخل فيه الربا والمعاملات الفاسدة وتحريم البحيرة وأخواتها، وأما
 المشاركة في الأولاد فبدعوتهم إلى الزنا والفواحش والقتل والقتال. ويحتمل أن
 يكون الأولاد مجازاً في الأتباع وذلك بترغيبهم في الأديان الباطلة كاليهودية
 والنصرانية وصبغهم غير صبغة الإسلام، وإذ قد كان الاحتمالان غير متنافيين
 صح تحميل الآية إياهما توفيراً لمعاني الكلام المعجز وهذا من خصائص القرآن
 ومن مقاصد إيجازه. قال الإمام القرطبي: روي عن مجاهد من حديث عائشة
 قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن فيكم مغربين»** قلت: يا رسول الله وما
 المغربون؟ قال: **«الذين يشترك فيهم الجن»** رواه الترمذي الحكيم في نوادر
 الأصول، قال الهروي: سموا مغربين لأنه دخل فيهم عرق غريب. قال الترمذي
 الحكيم: فللجن مساماة بآدم في الأمور والاختلاط فمنهم من يتزوج فيهم
 وكانت بلقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن. اهـ. ولما فخر المتبوعون
 بأموالهم واستنصروا بشركائهم؛ أعلمهم تعالى أن ذلك لا غناء له عنهم ولا
 مدفع بسببه فقال **(لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك**
أصحاب النار هم فيها خالدون) وإبليس مأذون له في استخدام وسائله كلها
 ومنها الوعود المغرية الخداعة **(وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً)** أي
 عدتهم المواعيد الكاذبة من شفاعاة الآلهة وضمنان النصر على الأعداء وشفاعة
 الملائكة والنبين ومنهم بما لا يتم لهم من الخلود وأنهم إذا ماتوا لا يبعثون
 ورغبتهم في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل ونفرتهم عن الاعتقاد الحق وهذه

مشاركة في النفوس، والآية تصف في عمومها شراكة عقدية إعلامية اقتصادية سياسية عسكرية...تقوم بين إبليس وأتباعه تتلخص في ميثاق يضم شعوب الأمم المتحدة ويحكم الأرض من خلاله! والاستفزاز لم يرد في القرآن سوى في سورة بني إسرائيل ومضمونه استنزال بني إسرائيل وإغراؤهم بالملك والرياسة، والاستخفاف بغيرهم واستدراجهم إلى تنظيم أو حزب بأسلوب خبيث وحيل مأكرة أو معارك جوفاء يقوم بها الحلفاء! وهذه طريقة إبليس...وتسلطُ إبليس أشارت إليه الآية ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ وقد تربّع إبليس على عرش الحكم مع الحفاة العراة الذين قاموا بإنشاء ما يُسمى بدولة إسرائيل بعد الانقلاب على الطبقات الحاكمة والمرجعيات الدينية والاجتماعية في فارس والروم، وتبديلها بعائلات لقيطة مُدجّنة ليس لها مطامع سلطوية، ولا تنشط إلا للملذات الحسية التي وفرها لها أسيادها الحفاة العراة، بينما الشعوب تتابع مسرحية محبوكة بشكل متميز تغطيها وسائل الإعلام وتسلط عليها الضوء، وتظل الشعوب تائهة في حالة سكر مزمنة تحت منظومة عالمية جديدة تتفق الأرض كلها على مرجعية سياسية واقتصادية واحدة مستنسخة في جميع الدول! وتمكّن الحفاة العراة من خلال شراكة عقدية بينهم وبين الشيطان من السيطرة على الفرس والروم عبر الجاليات المتهودّة ذات الأصول الخزرية وغيرها والتي انتظمت في منظمات ومحافل ماسونية واتخذت من العمل الفكري والاجتماعي غطاء لها لتخدم أسيادها وهي تحسب أنها تخدم نفسها بعد أن كانت هذه الجاليات مضطهدة في أوروبا من قِبَل الملوك والأباطرة بسبب أعمالها التخريبية المتمثلة في الاستحواذ على الثروات وممارسة الاحتكار وإغراق المجتمعات في الديون الربوية، وظهرت الحركة الفكرية الداعية

إلى تحرر الشعوب من سطوة الإقطاعيين وإلى إنهاء حالة الطبقية والملك الفردي وحالة التسلط الكنسي، وأصبح هناك نظام عالمي قائم على فكرة الجمهوريات أو الملكيات البرلمانية التي يسود فيها أشباه الملوك ولا يحكمون! وهذه الفكرة طبقت عملياً إبان الثورة الفرنسية حيث أطيح بالنظام الملكي واستبدل بالنظام الجمهوري، وتم استنساخ هذه التجربة في العديد من الدول وتمت الإطاحة بالملكيات تبعاً حيث اختفى الملوك وأصبح الجنس البشري أسرة واحدة... وهذا كله نتيجة لإشراك قام بين الشيطان وبين بني إسرائيل الحفاة العراة! ولا تخفى دلالة الحديث المتقدم عن أرض نجد في مسند أحمد: «من هنالك يطلع قرن الشيطان وبها تسعة أعشار الشر» وفي لفظ للطبراني: «إن من هنالك يطلع قرن الشيطان وبه تسعة أعشار الكفر وبه الداء العضال» وقد بلغ بنو إسرائيل العلو الكبير بعد قيام النظام الدولي من خلال إنشاء حكومة واحدة تحكم العالم، وتقوم على مؤسسات عملاقة تغطي جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والأمنية والقضائية والصحية والتعليمية والثقافية والإعلامية ويتفرع عن هذه المؤسسات فروع في كل دولة تتبع المؤسسات الأم وتمارس نشاطها منضبطة بقوانين تابعة لميثاق الأمم المتحدة! لا تخرج عنه أي دولة من الدول! فهناك مركز، وهناك فروع، والفروع تتبع النظام المفروض من المركز مع اختلافات طفيفة حسب طبيعة الدول وعقلية الشعوب، لكن الخطوط العريضة تبقى ثابتة فلا يمكن أن تتمرد دولة على النظام العالمي أو ترفض التعامل بالعملة الورقية أو المنهج التعليمي العالمي... وهكذا فرض النظام العالمي نموذجاً السياسي والاقتصادي والأمني والإعلامي والتربوي على جميع الدول وانخرطت فيه جميع الشعوب طوعاً أو كرهاً، وصار من الصعوبة على أي فرد أن يعيش خارج

إطاره، ولضمان استمرار هذا النظام وضمان خضوع الشعوب له، وضع
الفراعنة لشركائهم شكلاً جديداً لانتقال السلطة عبر ديمقراطية تحول دون ثورة
الشعب الذي أوهموه بأنه هو من يحكم! ولا يمكن أن يثور الإنسان على نفسه
أو على من اختاره ليمثله، ولو ثار فإنه سيصبّ جام غضبه على حكومته،
وحينها تتدخل الشياطين لتبلي له رغباته وتخل البرلمان وتعيد انتخابات جديدة
يتم من خلالها تعيينه مرة أخرى للحفاة العراة، وفي المقابل كانوا قد أنشؤوا
الشيوعية التي هدمت الإنسان والدين والمبادئ والأخلاق والأسرة والملكية
الخاصة وصار العقل وحده هو قانون الناس - والشيوعية شريعة فرعونية إذ كان
يأخذ كل سفينة غصباً والغصب منشؤه التكبر والترفع - وبذلك تسنّموا ذروة
الربوبية في مملكة عظمى لها معالمها الواضحة... والمؤمن ليس في حاجة إلى أدلة
وشواهد أكثر من الدلالات التي حملتها آيات القرآن الكريم والأحاديث المتواترة
الصحيح. وقد أخبر ﷺ عن فتح جزيرة العرب وهي معقل قرن الشيطان ورأس
الكفر وموطن بني إسرائيل الذين عملوا على تغيير هذه الرقعة بإيهاهم المسلمين أن
الدولة العبرية هي التي تدير القوى الدولية، في الوقت الذي سعوا إلى قتل
وتشريد من عارضهم من أبناء ملتهم عبر مذابح الهولوكوست سنة 1938
للمتهودين الذين اعترضوا على تلك الدولة ورفضوا الهجرة إلى فلسطين كما
أشارت الآية ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم
ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾ ولفظ الأولاد مستعمل كناية أو استعارة في
الأتباع، ووجه الشبه: ضعف الإدراك وركاكة العقل! والمراد بالشركاء شياطين
الجن ومعنى الآية أن مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين زينوا لكثير من
بني إسرائيل قتل أتباعهم، وهذا الذي فعلوه مع فرانز فرديناند وهتلر وجون

كنيدي وإسحاق رايبين وغيرهم، وقبل ذلك الانقلاب على السلالات الملكية الحاكمة في فارس والروم وتصفيتها عبر الثورات والحروب، وأفعالهم أدت إلى تهيج الفتن وإثارة الحروب العالمية المتكررة!

لقد حكّت لنا سورة يوسف ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم في اصطحاب أخيه... ولما كانوا مئة لدنوّ كل ناظر وطموح كل طامح أوصاهم بالتفرق ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ ثم علم أن في عقبه استخلاف فذكر في تضاعيف وصيته أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ وهذا نظير قوله تعالى لبني إسرائيل ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ ويُشاكل هذه الآية الكريمة قوله صلوات الله وتسليماته عليه: «يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً» وجملة ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ في موضع الإنذار لمضمون الكلمة التي عليها مدار الكتب الإلهية ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ثم نبّه ﷺ على الاعتماد على الله تعالى وحده معرضاً عما عداه فإنه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار فقال ﴿عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ ويحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره: وقال يا بني إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون وما أغني عنكم من الله من شيء لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة... وقد أفاد النظم الجليل أنهم أنفذوا وصيته في دخولهم ثم خالفوا وصيته في استخلافهم كما أفاده نفي الإغناء وذلك قوله ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ وفي الكلام حذف تقديره: ولما دخلوا من حيث

أمرهم أبوهم لم يحسبهم سوء إلا أنهم لما استخلفوا وارتكبوا الإشرار ما كان يغني عنهم من الله من شيء، والاستثناء منقطع تقديره: لكن حاجة في نفس يعقوب قضائها، والحاجة التي في نفسه هي كلمة التوحيد التي أنفذها حيث نصح لأبنائه ولم يدخر عنهم شيئاً يظنه نافعاً لهم إلا أبلغه إليهم ثم أثنى الحق عليه بالعلم والتدبير وأن ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوة ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ والجملة معترضة بين جملة ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ وبين جملة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي أن أكثر الناس في جهالة عن وضع هاته الحقائق موضعها. وقد نفى المولى عز وجل عنهم العلم لانتفاء العمل ولذلك صيّرهم الله بمنزلة الأنعام! ثم أضاف العلم إليهم ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ ومن هذا القبيل عامة ما وقع في التنزيل من قوله سبحانه ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم﴾ وقوله عز وجل ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ وإنما نفى العلم عنهم تنبيهاً على تقليدهم آباءهم واغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء شهواتها وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق لأن العلم يقتضي العمل ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ والآية نزلت في رافع بن خارجه ومالك بن عوف من بني قينقاع كما روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً

منا فأنزل الله الآية. وعبر عن انتفاء علمهم بانتفاء علم آبائهم نظراً لمشاہتهم في العناد والمكابرة وبعده طباہهم عن قبول الأدلة والحجج والبراهين.

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون) الخطاب للنبي ﷺ والمقصود به أمته والكلام تفريع على مذمة حالهم بإعلام المسلمين أن ما يرون بعض هؤلاء المنافقين فيه من متاع الحياة الدنيا لا ينبغي أن يكون محل إعجاب المؤمنين وأن يحسبوا المنافقين قد نالوا شيئاً من الحظ العاجل ببيان أن ذلك سبب في عذابهم في الدنيا، وقد ورد نحو هذه الآية في السورة تأكيداً للمعنى الذي اشتملت عليه إبلاغاً في نفي الفتنة والحيرة عن الناس (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون) ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمر: أحدها: أن هذه جاء العطف في أولها بالواو والأخرى عطفت بالفاء ومناسبة عدم التفريع هنا أن معنى الآية هذه ليس مفرعاً على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط. ثانيها: أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت "لا" النافية ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيهاً بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم وأولادهم معاً مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين. ثالثها: أنه جاء هنا قوله "إنما يريد الله أن يعذبهم" بإظهار أن دون لام، وفي الآية السالفة "إنما يريد الله ليعذبهم" بذكر لام التعليل وحذف "أن" بعدها، وحذف حرف الجر مع "أن" كثير وهنالك قدرت أن بعد اللام وتقدير "أن" بعد اللام كثير، ومن محاسن

التأكيد الاختلاف في اللفظ وهو تفنن. رابعها: أنه جاء في هذه الآية "في الدنيا" وجاء في الآية السالفة "في الحياة الدنيا" ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا" فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثاً. قاله صاحب التحرير والتنوير.

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) الإشارة بذلك إلى النبأ العالي الرتبة الذي قصصناه قصاً يعجز البلغاء من حملته ورواته من أخبار الغيب التي لها شأن عظيم، والمعنى وما كنت في عالم الظهور حاضر المكان الذي أحكموا التدبير على طرحه في البئر! وعبر بصيغة المضارع تصويراً لحال الإيحاء الشريف وإشارة إلى أنه لا يزال معه يكشف له ما يريد مما قصه الله من مكر بني إسرائيل إذ الضمير عائد إلى كل من صدر منهم المكر في هذه القصة فيشمل إخوة يوسف الذين عزموا على ما هموا به من إخفاء مُعَلِّم التوحيد في غيابة الحب وهم يمكرون به ويغنون له الغوائل وأعقابهم الذين أخفوا حقيقة التوحيد ولبسوه بالشرك وبدلوه تبديلاً وقلبوا الآيات وحرفوا النصوص، ولما كان هذا الإيحاء من الله بمكان سبب عنه الإيلاس من إيمانهم وقلع شبهة الطمع في أموالهم ثم أخبر عن تعاميتهم عن الأدلة في الدنيا وأتبعه ببيان تلبسهم بالشرك فقال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وذكر الإمام القرطبي أقوالاً عديدة منها: أنها نزلت في المنافقين والمعنى: وما يؤمن أكثرهم بالله أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه، ذكره الماوردي عن الحسن. وحكى ابن الأنباري عن الحسن أيضاً: أنهم أهل كتاب. وفي الآية إبطال لما يزعمونه من الإيمان واتباع الإسلام، والمقصود تشنيع حالهم وهذا من قبيل تأكيد الشيء بما

يشبه ضده على وجه التهكم فيإيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره.

(قل أمر ربي بالقسط) لما زعموا على وجه السخرية أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء أي بالإشراك، استأنف استئنافاً استطرادياً بما فيه جماع مقومات الدين الحق الذي يجمعه معنى القسط تعليماً لهم بنقيض جهلهم بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به وهو توحيده تعالى، ثم أعقبه بالأمر بإيقاع الصلاة مستجمعة لشروطها وأركانها وأولها عدم الإشراك به فقال **(وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد)** وإقامة الوجوه تتضمن امتناع الجمع بين الشرك والصلاة واستقباح النفاق وفي الكلام استعارة تبعية بأن شبه تعديل الأركان بتقويم العود بإزالة اعوجاجه فهو قويم تشبيهاً له بالقائم ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام التي صارت حقيقة فيها لتسوية المعاني كتعديل شرط الصلاة على ما هو حقها، والمعنى أقيموا وجوهكم عند التوجه إلى الله في الصلاة بأن لا تشركوا معه غيره ولا تنافقوا وتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منكم خلافه. أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، فتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: أي يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول الله عز وجل: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله عز وجل: إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أعطي، فقال الله عز وجل في كتابه ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾».

﴿فلا تطع المكذبين، ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعو به إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة عدد أصحابه وكثرة أعدائه، وهذا النهي من الله تهيب وإلهاب للتصميم على معاصاتهم والتشدد في مخالفتهم، والآيات وإن نزلت في كفار قريش إلا أن سبب النزول لا يصلح مخصصاً فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه السورة من أوائل ما نزل، وهي تحمل الإسلام كله في حنيفية ومشاركة ومواجهة لمن نسجوا شبكتهم الحريية على الأرض، إضلال عن طريق الله، إما بالإغراء وإما بالقوة، وإذا فشلت القوة أمام عصبة الحق فهناك عروض للالتقاء في منتصف الطريق والتهادن عن تراض، من داهن الأفعى تجرّع سُمّها، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم وقد جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد في الأثر الإلهي يقول سبحانه: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه فإن سألتني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه وإن استغفرتني لم أغفر له، وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات والأرض رزقه فإن سألتني أعطيته وإن دعاني أجبته وإن استغفرتني غفرت له» فيا حسرة من استعان بعدوه وتوكل عليه! وكلام الله يغني عن كلام خلقه ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ أي فعليه اعتمدوا في نصركم وهذا يستلزم مباينة المشركين ومعاداتهم ومكافحتهم بالوعيد ومواجهتهم بالتهديد! وهذه الآية وقعت بعد قول نوح ﴿فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل...وهي أوضح آية في الإرشاد إلى معنى الإسلام والإيمان والإحسان، فمقام الإسلام:

الانقياد، ومقام الإيمان: التصديق، ومقام الإحسان: شهود الحق بالقلب. وهذه الأصول الثلاثة متلازمة في الاعتداد بها في اتباع الدين وجهاد الأئمة المضلين والفراغة المبطلين، ولا يصح واحد بدون الآخر فلزم الجمع لتلازمها كتلازم الأرواح للأجساد إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال لها إلا بها. وفي تقديم التوكل على الدعاء ﴿على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ تلويح بأن الداعي حقه أن يبني دعاءه عليه فإنه أرجى للإجابة، والتوكل قطع الأسباب لأن المراد بذلك قطع النظر عن الأسباب العادية وقصره على مسببها عز وجل واعتقاد أن الأمر مربوط بمشيئته سبحانه كما قال السر الأجمع والبدر الملمع رحمته الله لابن عباس رضي الله عنهما: «وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» وهذا هو توحيد المرسلين الذين قالوا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون، ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وتحقيق ذلك في وصية يعقوب ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ وقال جل شأنه وعز سلطانه ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ وعبودية الله والتوكل عليه تفريع لما اشتمل عليه الكلام من بيان إحاطة العلم وكمال الحكم وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والألوهية. قال الإمام ابن حجر الهيتمي: التوكل يطلق ويراد به الرضا بجميع ما يفعله الله بخلقه كما أشار إليه بشر الحافي أو قطع الرجا من جميع المخلوقين أو أن لا يظهر فيك انزعاج بالأسباب مع شدة فافتك إليها ولا نزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها أو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية

والطمأنينة إلى الكفاية فإذا أعطي شكر وإن منع صبر أو ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة وإنما يتم ذلك لمن يكون دائم الشهوة والاستحضار لكون الله تعالى يعلم ويرى ما هو فيه أو رد عيشك إلى وقتك الحاضر وإسقاط هم غد والاسترسال مع الله تعالى على ما يريد أو أن لا يرى مع الله غير الله أو خلع الأرباب وقطع الأسباب وذلك بإلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية والتعلق بالله في كل حال بأن يترك كل سبب يوصله إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك أو أن يستوى عندك الإكثار والإقلال والاستسلام بجريان القضاء والأحكام أو الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه وأن لا تأكل وفي البلد من هو أحق منك أو العيش مع الله تعالى بلا عاقبة أو السكون إلى الوعد فإن صحبه الاكتفاء بعلم الله فهو التسليم وإن صحبه الرضا بحكمه فهو التفويض أو قطع النظر عن الوسطاء، هذا جماع ما قيل في التوكل وبعضه فيه ذكر حقيقته وبعضه فيه ذكر علاماته، قيل: ومن أحسن حدوده أنه مباشرة الأسباب مع شهود مسببها. انتهى. وأول درجات السير إلى الله عبودية الله تعالى وآخرها التوكل عليه، وإذا كان العبد لا يزال مسافراً إلى ربه لا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة فهو محتاج إلى زاد العبادة لا يستغني عنه البتة ولو أتى بأعمال الثقلين جميعاً وكلما كان العبد إلى ربه أقرب كان جهاده إلى الله أعظم، ولهذا كان النبي ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بوظائف العبادة ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله تعالى وتأمل أصحابه رضي الله عنهم فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب مقاماً عظم جهادهم واجتهادهم. ولما أعد الله نبيه ﷺ للمهمة الكبرى وضع له أسس التوحيد (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) وعلى قدر درجة العبد في التوكل على مولاه تكون درجته من (إياك

نستعين) والتوكل على الله: التعويل على من يدبر أمره وهذا هو الإحسان في أدق معانيه، ولما ذكر تعالى خوف الذين آمنوا من بني إسرائيل أتبعه ما يوجب طمأنينتهم وهو التوكل على الله الذي من راقبه تلاشى عنده كل عظيم فقالوا (على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أي لا تجعلنا موضع فتنة للأتباع بأن تسلطهم علينا فيفتنوا بنا ويعتقدوا أن هلاكنا لبطلان ديننا (وإنجنا برحمتك من القوم الكافرين) أراد المتبوعين وهو دعاء بالإنجاء من العود في ملتهم والانتظام في نظامهم. ولا يكون المسلم على دين الله حتى ينقاد للتكاليف الصادرة منه تعالى فيجهر بها ويفاصل الناس كلهم على أساسها دون حرج مما ينشأ عنها، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وفي رواية «من جامع مع المشرك» أي وافقه وصلى معه. ولما شرح تعالى خوف المؤمنين من الكافرين الكائدين المستهزئين المخادعين القاصدين ستر الحق بأباطيلهم الزائفة، أتبعه ما يوجب متاركتهم وقطع موالاتهم فقال (وإوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكما قبلة وأقيموا الصلاة) وذلك حين أمروا بمجانبة المنافقين إذ قد كان للفراغة مساجد في مصر وكانوا متسمين بالتوحيد فأمر بنو إسرائيل أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجهوا نحو القبلة، وهذا ينبئ أن الصلاة كانت شرعاً قبل نزول التوراة لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر فأمروا بهذه المتاركة والمجانبة حتى لا يخالطوهم ثم خص إقامة الصلاة تغرة إحباطها في مخالطتهم، وهذه البراءة تُلخص الحنيفية وتقرر الربوبية وتحقق الغيرية المذكورة في خاتمة الفاتحة، وقد نهى تعالى عن موالاتهم بصداقة أو قرابة أو نحوهما من أسباب الممازجة والمخالطة فقال تحذيراً وتخويفاً للمؤمنين (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل

ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴿١﴾ ثم تثنى التحذير في حملة متنوعة الإيحاءات والإيماءات والإشارات تنبيهاً على استئصال تلك الموالاة حتى لا يكون إدهان وتمييع وأرجحة بين المسلم وبين رؤوس الشرك تحت دوافع المصلحة العامة، ليتحرر المسلم من قيودهم ويتخلص من أوهاقهم ﴿٢﴾ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴿٣﴾ والأحسن أن يكون الخطاب لأهل الكتاب تنبيهاً على نفاقهم واتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين ولما قالوا لسيدنا رسول الله ﷺ: نحن نتحنث ونعبد الله سبحانه ولسنا مشركين فاذهب إلى قريش فادعهم فهم أهل أصنام! نزل قول الله عز وجل ﴿٤﴾ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴿٥﴾ فنبه تعالى على قضية التبعية لسيد البرية ﷺ والآية عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدعون أنهم يحبون الله ويحبهم وأنهم أهل الحنيفية! قال الحسن: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا. اهـ. ولما زعموا أنهم أحباء الله وادَّعوا توحيده أنبأهم سبحانه أن من انتهى إلى أن يحب الله تعالى فليتبع هذا النبي الذي أحبه، فوجههم إلى وجهة الاتباع لحبيبه الذي أحبه كما قال صاحب الرسالة وإمام أهل الدلالة ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» وإذا كان ذلك في موسى عليه الصلاة والسلام كان في المنتحلين لمثته ألزم، وأصل ذلك أنه ﷺ لما كان المبدأ في الأبد وجب أن يكون النهاية في المعاد، فألزم تعالى الخليفة أن يتبعوه وأجرى ذلك على لسانه إشعاراً بما فيه من الخير والوصول إلى الله سبحانه من حيث إنه نبي بشرت به

الكتب الإلهية وليكون ذلك أكظم لمن أبى اتباعه وأدعى للبراءة منهم فكأن قائلاً يقول: بأي شيء ينال كمال المحبة وموالاته الله؟ فقيل: بعد قطع موالاته أعدائنا تنال تلك الدرجة بالتوجه إلى متابعة حبيبنا إذ كل طريق سوى طريقه مسدود وكل عمل سوى ما أذن به مردود. قال الإمام القشيري: ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية وتقتضى منه تلك الحالة إثارة سبحانه على كل شيء وعلى كل أحد وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال فمن لم يفن عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به وهي إرادة فضل مخصوص وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له وتكون بمعنى فضله المخصوص معه فعلى هذا تكون من صفات فعله ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك، قال قائلهم:

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا ... وتخرس حتى لا تجيب المناذيا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل قال الخليل "فمن تبعني فإنه مني" وقال الحبيب "فاتبعوني يحببكم الله" فإن كان متبع الخليل منه إفضالاً فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه وكفى بذلك قرابة وحالاً ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحد نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة أو التجرد عن آفة لأنه قال "يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم" بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله ويقال قال أولاً "يحببكم الله" ثم قال "ويغفر لكم ذنوبكم" والواو تقتضى الترتيب ليعلم أن المحبة سابقة على الغفران أولاً يحبهم

ويحبونه وبعده يغفر لهم ويستغفرونه فالحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب
الحبة والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حب الأسنان وهو صفاؤها والمحبة
توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا
يرح بالضرب والحب حرفان حاء وباء والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء
إلى البدن فالحب لا يدخر عن محبوه لا قلبه ولا بدنه. اهـ. قال الإمام
القسطلاني قدس الله سره النوراني: وبحسب هذا الاتباع توجب المحبة والمحبة
معاً ولا يتم الأمر إلا بهما فليس الشأن أن تحب الله بل الشأن يحبك الله ولا
يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً وصدقته خيراً وأطعته أمراً وأجبتة دعوة
وآثرته طوعاً وفنيت عن حكم غيره بحكمه وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة
غيره بطاعته وإن لم تكن كذلك فلا تتعن فلست على شيء وتأمل قوله تعالى
(فاتبعوني يحبكم الله) أي الشأن في أن الله يحبكم، لا في أنكم تحبونه وهذا لا
ينالونه إلا باتباع الحبيب. والله در القائل:

أيا قمرأ في مطلع الحسن دائب ... ويا شمس حسن ما لها قط حاجب

ويا سيداً منه العلا والمواهب ... إليك وإلا لا تشد الركائب

وعنك وإلا فالحث كاذب

وحبك يا خير النبيين مذهبي ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

ومن دعاء أبي الحسن الشاذلي قدس سره: اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت
ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالإحسان لا ينفع مع البغض منك
والإساءة لا تضر مع الحب منك. والله در القائل:

وأكمل حالة الإنسان صدق ... وأحسن وصفه حاءً وباءً

واعلم أن حبه ﷺ والتعلق به وتعظيمه حسنة لا يضر معها شيء، هذا ما أعتقده إحساناً للظن بكرم الله تعالى ومحبه لحبيبه ﷺ ومعرفة بشواهد الشرع الشريف. وفي قوله ﷺ: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» إيماء إلى أن الاعتبار هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك كما أشار قوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله) فأوقع متابعتة مكتنفة بين قطري محبة العباد لله ومحبة الله للعباد. واعلم أنه لا بد للمتابع المسترشد من ولي مرشد سلك الطريق على من أخذوا من الشارع الأعظم ﷺ قرناً بعد قرن وهم ورثة أمتهم وكُمّل أهل ملته. وقد اختلف العلماء في تعريف المحبة، وعباراتهم وإن كثرت فليست في الحقيقة ترجع إلى اختلاف مقال، وإنما هي اختلاف أحوال، وأكثرها يرجع إلى ثمراتها، دون حقيقتها، وقد قال بعض المحققين: حقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه. وقال السيد العارف بالله تعالى أبي عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ولا يبقى لك منك شيء. وقال آخرون: المحبة لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهداها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه السنة وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب الإدراك، والمقام الحال وقد وضعوا لمعناها حرفين مناسيين للمسمى غاية المناسبة: "الحاء" التي هي من أقصى الحلق، و"الباء" الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء وللباء الانتهاء

وهذا شأن الحبة وتعلقها بالحبوب فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه، وأعطوا "الحُب" حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة مسماة وقوتها، وأعطوا "الحَب" وهو المحبوب حركة الكسر لحفتها من الضمة، وخفة المحبوب وذكره على قلوبهم وألستهم، فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني، تطلعك على قدر هذه اللغة وأن لها شأنًا ليس لسائر اللغات. واعلم أيها القاصد لاستكشاف سرائر المرتبة المحمدية أن الحبة هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون وإليها يشخص العاملون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفانى المحبون وبروح نسيمها تروّح العابدون فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقوة العيون وهي الحياة التي من حرمتها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه تحمل أثقال السائرين إلى بلد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيه وتوصل إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها وأصلها وتبوؤهم من مقاعد الصدق إلى مقامات لم يكونوا لولا هي داخلها وهي مطايا القوم التي سراهم في ظهورها دائماً إلى الحبيب وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قدر الله يوم قدر مقادير الخلق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب فيا لها من نعمة على المحبين سابعة لقد سبق القوم المحبين السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون ولقد تقدم الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح وبذلوا

نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضى والسماح وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح.

(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لعباده المؤمنين موقف نبيه وحبيبه الأكرم ورسوله المعظم ﷺ وأنه أرحم بهم من أنفسهم وأشد رافة وحناناً وعظفاً وشفقة عليهم من أنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم فمن الواجب الإيماني الحتم عليهم قطعاً - كما تبين الآية الكريمة - أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ومقدماً على أنفسهم كما جاء في الحديث عند الإمام أحمد: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» وكان ﷺ يعلن بأولويته بالمؤمنين من أنفسهم كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه» وفي رواية عند الإمام البخاري: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم"» الحديث. وفي قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) دليل على كمال شفقتهم ورأفتهم ورحمتهم على وجهٍ يعلو ويفوق شفقة ورأفة ورحمة أمهات النسب والوالدات وذلك أن الله تعالى شرفهن إكراماً لحبيبه الأعظم ﷺ ورفع مستواه على غيرهن وجعلهن أمهات المؤمنين أي في وجوب تعظيمهن والأدب معهن والإجلال لهن وحرمة نكاحهن فرضي الله عنهن وأرضاهن عنا.

(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) يحكي سبحانه حال أئمة الكفر مع أتباعهم وقت نزول العذاب مبيناً أن شرك الحكم قام على شرك العبادة والمعنى: فهلا نصر أولئك الأمم المكذبة شركاءهم في الحكم الذين اتخذوا الملائكة والنبیین والصالحين آلهة

من دون الله ليقرّبوهم إليه سبحانه! ويحتمل أن يكون قوله "قربانا" حالاً أو مفعولاً من أجله و"آلهة" المفعول الثاني للاتخاذ ويكون المفعول الأول هو الضمير العائد على "الذين" والتقدير: اتخذوهم. والمعنى: فهلا نصر أولئك الأمم المكذبة الأنبياء والملائكة الذين اتخذوهم آلهة من أجل أن يقربوهم إلى الله زلفى على حد زعمهم المحكي على وجه الاستهزاء "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" إذ جاءهم بأسه؟ وفيه تهكم واستهزاء بهم! ففي الآية إشارة إلى إبطال نصرة وشفاعة آلهتهم، وقوله **(بل ضلوا عنهم)** بمعنى "لكن" إضراباً واستدراكاً بعد التوبيخ لأنه في معنى النفي أي ما نصرهم الذين اتخذوهم آلهة بل غابوا عن نصرتهم، والضلال أصله: عدم الاهتمام للطريق واستعير استعارة تهكمية لعدم النفع بالحضور، وقوله "وذلك" إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أي وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياهم آلهة وثمره شركهم وافتراءهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء! وفيه تهكم بهم وتوجيه التوبيخ إلى الأمم الهالكة على طريقة توجيه النهي لبني إسرائيل، والمقصود بهذا التوبيخ تخطئة الهالكين الذين اتخذوا الشركاء لينصروا ويدفعوا وذلك مستعمل تعريضاً بأهل الكتاب المماثلين لهم في الإشرak استتماماً للموعظة والتوبيخ بطريق التنظير وقياس التمثيل والله أعلم، والقرآن يوضح ضخامة الدور الذي يقومون به ويكشف ألعابهم ودسهم اللئيم الماكر ويظهر طبيعة نفوسهم الخبيثة التي تتظاهر بالإسلام وهي تتبادل المهام والوظائف مع شركائها، ما طلعت شمس ولا غربت إلا وهم يخططون ويكيدون ويمكرون ويدبرون، وعلى القرآن والنبى ﷺ ينقمون، والمعرفة في حقيقتها إنما هي معركة بين الشرك والتوحيد وبين الكفر والإيمان وبين الجاهلية والإسلام وبين الهدى والضلال، معركة بين معسكرين

متميزين لا يمكن أن تقوم بينهما علاقة لأن الخلاف بينهما ليس عرضياً ولا جزئياً، وإن أمة الإسلام لتُخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين إذا هي أفهمت أن أصحاب ميثاق الدرعية قاموا بمحو الشرك والبدع في جزيرة العرب! وهذا ما بيناه في الحرب مع من صار دأبهم كدأب آل فرعون وألحقوا بهم في كل ما لهم من صفات.

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) لما آيس موسى من إيمان فرعون أوحى الله له بالخروج فसार بالأسياب من مصر ليلاً إلى بحر القلزم فلحقهم فرعون بجنوده فلما أبصروا الجيش قالوا: يا موسى أين نمضي؟ البحر أمأمننا والعدو خلفنا، فعند ذلك ضرب موسى عصاه البحر فانفلق على ثنتي عشرة فرقة! فقال فرعون: إنما انفلق من هيبتي، فاقتحم البحر على إثره ودخل القبط كلهم فلما لججوا أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم فعلاهم وأغرقهم، والمقصود من قوله (ما غشيهم) التهويل أي بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يستطيع وصفه وهو من جوامع الكلم التي يقل لفظها ويتشعب القول في معناها.

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً) لم يزل الاعتناء في سورة بني إسرائيل بالمقارنة بين رسالة الرسول العظيم ورسالة موسى الكليم إقامة للحجة على الكتائبين الذين ظاهروا المشركين ولقنوههم شبه الإلحاد في رسالة سيد المرسلين عليه صوات رب العالمين ليصفو لهم جو العلم والحكم وهم ما كانوا يحسبون لما وراء ذلك حساباً، ثم انتقل من ذلك بطريقة التفريع إلى التسجيل ببني إسرائيل

استشهاداً بهم على شركائهم وإدماجاً للتعريض بهم بأنهم ساووا حلفاءهم في إنكار نبوة الرسول الأمين ومظاهرتهم المشركين بالدس وتلقين الشبه تذكيراً لهم بحال فرعون وقومه... ومعنى الآية أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحراً ففي ذلك مثل للمكابرين المعاندين وتسلية للرسول الأمين عليه صلوات رب العالمين... وقد ذكر المفسرون أن الآيات التسع هي: بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها وانقلاب العصا حية والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز وهو الدمل والقحط وهو السنون ونقص الثمرات وجمعها الفيروز آبادي في قوله:

عَصاً سَنَةً بِحَرْ جَرَادٌ وَقَمْلٌ ... يَدٌ وَدَمٌ بَعْدَ الضَّفَادِعِ طُوفَانٌ

والسؤال في كلام العرب على نوعين أشهرهما أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسئول عنه ويعلم المسئول أن السائل عالم وأنه إنما سألته لتقريره وتقريعه وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم وعد سوابق عصيانهم أي ليس عصيانهم إياك ببدع فإن ذلك شنشنة قديمة فيهم وليس سؤال الاستفادة لأن الرسول ﷺ قد أعلم بذلك من جانب ربه تعالى وهو نظير همزة الاستفهام التقريرية! ويبدو أن الآيات التسع تُروى عن أحبارهم ولذلك جاء الأمر بسؤالهم عنها لإشعارهم بأن الله أطلع نبيه عليه الصلاة والسلام عليها وهم كانوا يكتُمونها وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للأمة فيما اجتاحتته من المخالفات والمعاصي تبقي لها عقب الموعظة أثراً قد تعير الأمة به ويحصل غضاظة عندها وامتناع فإذا جاء حكم التاريخ العام بين الأمم تناولت الأمم

أحوال تلك الأمة بالحكم لها وعليها فبقيت حوادث فلتاتها مغمزاً عليها ومعرفة تعير بها وكذلك كان شأن بني إسرائيل لما عصوا أنبياءهم وحرفوا كتبهم حتى أرسل الله محمداً ﷺ فعلمهم من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم وما بقي معرفة لأخلافهم وذلك تحد لهم ووخز على سوء تلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد فقد روى الترمذي بإسناده عن صفوان بن عسال: أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فقال: لا تقل له بني فإنه إن سمعها تقول بني كانت له أربعة أعين، فأتيا النبي ﷺ فسألاه عن قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف - شك شعبة - وعليكم اليهود خاصة ألا تعتدوا في السبت» فقبلا يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: «فما يمنعكما أن تسلما»؟ قالوا: إن داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود.

الفصل الأول: سورة آل عمران

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم

اعلم أنه تعالى لما نصب الأدلة في مطلع السورة على وحدانيته بما أوحى من كتبه الناطقة بذلك تأكيداً للحجة على أهل الكتاب انتقل عَقِيه إلى بسط الدلائل التكوينية والدلائل على سائر كمالاته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره حتى انتهى إلى قوله ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ قال الإمام البغوي "وأولوا العلم" يعني الأنبياء. ومناسبة ذكرهم مع الملائكة لتكون مخلصاً إلى إبطال اتخاذهم أرباباً ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وكما أوجد الحق سبحانه العالم كله عن أسمائه وقسمه قسمين: خلق وأمر فكذلك أنزل القرآن العزيز على عبده إلى شهادتين: شهادة حكم وشهادة عبادة كما قال عز وجل ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وهذه الشهادة إليها قصد القاصدون وسلك السالكون وإليها انتهت الإشارة وعندها وقفت العبارة، وهي أعظم شهادة في كتب الله تعالى النازلة على رسله وفيها دليل على شرف ومكانة الملائكة والعلماء حيث قرن المولى شهادتهم بشهادته لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى، قال مولانا الإمام عبد الله سراج الدين قدس الله سره: في هذه الآية الكريمة قرن الله تعالى شهادة الملائكة وأولي العلم بشهادته سبحانه التي سجلها في جميع كتبه وسطرها على صفحات مكوناته وفي ذلك وجوه من العزة والكرامة والشفرة والمكانة للملائكة الكرام والعلماء العظام الذين قرنهم الله تعالى بملائكته: أولاً:

إنه سبحانه استشهد بشهادة نفسه جل وعلا وهو أجل شاهد وكفى بالله شهيداً ثم بخيار خلقه وهم الملائكة وأولوا العلم وكفاهم بذلك شرفاً وفضلاً على غيرهم من المخلوقات. ثانياً: إنه سبحانه لا يستشهد من خلقه إلا الشهود العدول البررة ففي هذه الآية دليل على عدالتهم وثقتهم وصدقهم وأمانتهم وتزكيتهم وتنقيتهم. ثالثاً: إنه سبحانه استشهد بالملائكة وأولي العلم على أجل مشهود وأعظم معهود وهو شهادة أن لا إله إلا الله ومن المعلوم بداهة أن العظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أفاضل الخلق وسادتهم وكرامهم. رابعاً: إنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم - أي الملائكة وأولوا العلم - عنده سبحانه بمنزلة أدلته وبراهينه الدالة على توحيده سبحانه، هذا وإن اقتران ذكر أولي العلم بالملائكة في مقام الشهادة والاستشهاد بشهادتهم دليل على قوة المناسبة وإحكام المشاهدة بين أولي العلم وبين الملائكة عليهم السلام من وجوه متعددة وذلك أن الملائكة طَهَرَة أطهار بررة أختيار ذووا نفسيات زاكية وسرائر قدسية وهم أنصح خلق الله تعالى وأنفعهم لبني آدم فهم يثنون على محسنهم ويستغفرون لمسيئهم ويعينونهم على أعدائهم من شياطين الإنس والجن ويحرصون على مصالح العباد أضعاف ما يحرص العباد على مصالحهم ويلهمونهم خير الدنيا والآخرة ويحذرونهم من شر الدنيا والآخرة وهكذا موقف العلماء العاملين مع خلق الله تعالى أجمعين، فالمناسبة هي علة الضم والجمع بين جمع وجمع فما أشبه العلماء العاملين بملائكة رب العالمين نفعا الله تعالى بهم أجمعين. اهـ. ولما كان سبحانه موصوفاً بأنه الحكم العدل القائم بالقسط علم أنه يجب أن تخضع له الرقاب ويخلص له التوحيد جميع الأبواب وذلك هو الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام) وقرأ الكسائي بفتح الهمزة وبهذه القراءة تكون الجملة

بيانية تفسيرية لشهادة التوحيد، ذلك أن أساس الإسلام هو إفراد الله في الحكم والعبادة وإعلان هذه الوجدانية للناس وتخليصها من شوائب إشراك أهل الكتاب، وشهادة الله: حُكمه بذلك وتحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك، وشهادة الملائكة: بما أقرّوا فيما نزلوا به من الوحي على الرسل وما نطقوا به من محامد، وشهادة أولي العلم: بما أقاموا من الحجج ونصبوا من الأدلة على اليهود والنصارى إذ أن الآيات نزلت فيهم. وانتصب **(قائما بالقسط)** على الحال من اسم الجلالة والعامل فيه **(شاهد)** إذ أن الشهادة هذه قيام بالقسط، فالشاهد بها قائم بالعدل، وقد أقام الله القسط في تكوين نظام العالم ونظام حياة الناس فهو سبحانه القائم بالعدل، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله. وفي قوله **(العزیز)** قصر العبادة على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد، وفي قوله **(الحكيم)** قصر الحكم على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد. روى الإمام الطبراني عن الزبير بن العوام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وأنا أشهد أنك لا إله إلا أنت العزيز الحكيم» وروي أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» فقالا له: وأنت أحمد؟ فقال: «نعم» فقالا له: إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بما آمنا بك وصدقناك. فقال لهما: «سلاني» فقالا له: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله تعالى. فأنزل الله هذه الآية فأسلم الرجال. والإسلام يشمل قضايا الإيمان الاعتقادية وأمور الإسلام العملية ومراتب الإحسان السامية، ومن مظاهر دين الإسلام أنه جاء بعموم الدعوة

لسائر البشر، وكون أحكامه صالحة لكل زمان، ومن مظاهره جمعه بين إصلاح النفوس بالتزكية وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، ومن مظاهره الرأفة بالناس...والإسلام عَلم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ وربما أطلق على الإيمان والإسلام والإحسان «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» فدين الإسلام هو الدين المحمدي لأن الإسلام صار علماً بالغلبة عليه وهذا مؤكّد بالميثاق العظيم الذي أخذه على النبيين فإن الله تعالى لم يبعث نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ولما بيّن تعالى أنه لا دين عنده غير الإسلام أردف ذلك ببيان سبب اختلاف بني إسرائيل وكأن اختلافهم أمر معلوم للسامع ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله "وما اختلف الذين أوتوا الكتاب" قال: بنو إسرائيل. وفي الآية الكريمة أسلوب عجيب في الإخبار عن حالهم إخباراً يتضمن بيان سببه وإبطال ما يتراءى من الأسباب مع إظهار المقابلة بين حال الدين الذي هم عليه وبين سلامة الإسلام من ذلك ليعلم السامعون أن ما عليه أهل الكتاب وقع فيه التأويل الباطل والتحريف والاختلاف وأن سبب ذلك الاختلاف كان من جهة العتو والاستكبار والتحاسد في طلب الرياسة والحرص على حظوظ الدنيا والخسيس من حطامها فاختلفوا بعد ما جاءهم العلم للبغي لا لقصد البرهان، وهذا ما حملهم في زمن البعثة على إنكار دين الإسلام وإنكار الرسالة المحمدية...وبعد امتداد أحد عشر قرناً في حرب هذا الدين يعودون بلباس الإسلام عبر كيد ماكر لئيم وحقد خبيث، بعد ما علموا من تجاربهم الطويلة أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين سوى

بالتلوي والتخفي والخداع لتمزيق الإسلام وتفتيته من الداخل، وقد جاء العطف بقوله **(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب)** للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم للدين، ومن سوء تغييرهم وتحريفهم للإسلام، وفيه تنبيه على أن الإسلام بعيد عن مثل ما وقعوا فيه من التحريف، وقد جاءت الآية على نظم عجيب يشتمل على معانٍ عديدة: منها: التنبيه على أن اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحق فهو تعريض بأنهم حرّفوا الإسلام وبدلوه، ومنها: الإشارة إلى أن الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان: أحدهما: اختلاف كل أمة مع الأخرى في صحة دينها وقد اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة كما جاء في الحديث، ثم زرعوا هذا الخلاف بين أتباعهم من الأمم على مبدأ "فرق تسد" والثاني: اختلافهم في مفهوم الإسلام وهذا حاصل بينهم دون أن يدخله عليهم غيرهم وهو يشمل كل جيل، كاختلاف اليهود في التوراة، واختلاف النصارى في الإنجيل، ثم اختلافهم في القرآن إذ قال بعضهم: هو حق، وكفر به أكثرهم، وهذا الوجه أوفى مناسبة بقوله تعالى **(إن الدين عند الله الإسلام)** ويكون قوله **(بينهم)** على هذا وصفاً لبغياً أي بغياً واقعاً بينهم، وكلمة **(جاءهم)** مؤذنة بعلم متلقًى من الله تعالى، يعني أن العلم الذي جاءهم من الله تعالى كان من شأنه أن يصدّهم عن الاختلاف في المراد، إلا أنهم أساءوا فكانوا على خلاف مراد الله من إرسال الهدى، وقد أشارت الآية إلى أن هذا الاختلاف والبغي كفرٌ لأنه أفضى بهم إلى نقض قواعد الإسلام وإلى نكران دين الله، ولذلك ذيله بقوله **(ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب)**.

لقد صوّر أصحاب الدعوة الوهابية مدلول "الدين" ومدلول "الإسلام" في نفوس الناس بأنه شعائر تعبدية! وهذا وهمٌ باطل وانحسار وانكماش بل تبديل وتغيير في

مدلول الإسلام، إن مدلول الإسلام هو أفراد الله في الحكم والعبادة والدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن، ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول الإسلام وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية، وإنما أطلق لفظ الإسلام على الشعائر التعبدية باعتباره صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون... صورة لا تستغرق مدلول الإسلام بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة... والفعلية التي من أجلها استحققت الأمم الغابرة الهلاك لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاءت الرسل لتخرجهم منها إلى الإسلام، إنما كانت الفعلية النكراء التي استحقوا من أجلها الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة هي إشراكهم مع الله آلهة أخرى في الحكم!!! إن توحيد الله في الحكم هو الذي استحق كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات واستحق أن تبذل في سبيله كل الجهود وأن تحتل لتحقيقه كل العذابات والآلام على مدار الزمان لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا تصبح حياة لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها.

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين

اعلم أنه تعالى لما حكى في الآيات المتقدمة عن أهل الكتاب إشراكهم في الحكم والعبادة أتبعه بأن بيّن في هذه الآية أن الحكم ليس إلا الإسلام وأن العبادة ليست إلا الإسلام، إذ الدين القويم المستجمع لتوحيد الله في الحكم والعبادة والانقياد لرسوله هو الإسلام لا بثنائه على الوحدانية المطلقة، وكل طريق سوى

هذا الطريق ضلال وضياع وبطلان في الدنيا وحرمان وخسران وخذلان في الآخرة، وفي الآية تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقلوبهم: نحن على ملة إبراهيم! ولما بين تعالى أن من صفة محمد ﷺ كونه مصداقاً لما معهم وعظم سبحانه أمر الإسلام أكد ذلك ببيان وعيد أهل الخدع والنفاق فقال ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ والاستفهام مستعمل في الاستبعاد، ومعنى قوله "كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق" أي جحدوا بعد معرفتهم واستيقانهم وأقروا بألسنتهم أن الرسول حق من غير مواطأة قلوبهم! أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هم أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: هم اليهود. وقد استعظم المولى سبحانه ذلك منهم بعد مجيء البينات، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر أقبح لأن القوم عرفوا ما في كتب الله ثم كابروا وعاندوا وكفروا وقد أوجب تعالى اللعن على هذا الصنف ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ ولما كان كفر الباطن لفظاعته وقبحه وشناعته جديراً بالنفرة عنه والبعد منه نبه تعالى على ذلك باستبعاد إيقاعه فكيف بالتمادي عليه ثم الازدياد منه ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ ولما عظم كفرهم وفحش أمرهم وزاد قبحهم بلغوا في الضلالة أقصى الغايات فلزمهم وصف الضالين وعَلِقَ بهم في آيات كثيرة والمراد النصارى والله أعلم ووصفوا بالضلال لغاية تمردهم في كفرهم إذ نشروا التثليث والحلول والاتحاد والتجسيم والتشبيه فعاقبهم الله تعالى

بأن أوقعهم في الضلالة وضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم فيه كما تقدم، ثم بين تعالى ثبات الفريقين على الكفر ثم الموت عليه ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ وذُيل الكلام بأن من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنقاذ مما يلحقه من الشدائد لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر، وفي الآيات إبطال كل ما خالف الإسلام وأنه لا يُقبل دين عند الله غير الإسلام وهو معنى قوله ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إن الحفاة العراة باستطاعتهم أن يخدعوا المسلمين بلافتات الإسلام! ولكن ما الذي يقولونه أمام هذه النصوص القاطعة؟ هل يقولون على شيء من الإسلام؟ أو هل يبقى لهم شيء من الإسلام؟ إن هناك جهة واحدة هي صاحبة الحق في الحكم والسلطة العليا، وفي تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها وفي وضع القيم والموازن التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها وفي إقامة حياتهم كلها وفق شرعتها.

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ لما أمر تعالى رسوله بالثبات على دينه وكتابه وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجراً من تصلب أولياء الشيطان في كفرهم ونفورهم من الحق وأخبر أن القرآن شرف عظيم له ﷺ ولأتباعه، أعقب ذلك بما مضمونه استحضر ما في القرآن وتأمله غاية التأمل، فالمسؤول في الحقيقة القرآن المهيم على جميع الكتب المعجز على لسان الرسول الذي شهدت له جميع الرسل الذين أخذ عليهم العهد بالإيمان به والمتابعة له، والسؤال الواقع هنا مجاز عن النظر في دين الرسل السابقين الذين قص القرآن خبرهم: هل جاء اتخاذ الآلهة في ملة من مللهم؟ ووصف الآلهة

بصيغة جمع العقلاء **(يعبدون)** يدل على أنها آلهة عاقلة، وعبادتهم إيّاها باعتبار الاتخاذ والمودة والمحبة كمحبة الرئيس لأوليائه وخُلص جنوده، وباعتبار الطلب عند الاحتياج في الأزمات والأمور المهمات لأن من عبد شيئاً فإنه يطلبه عند احتياجه إليه.

وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين ءأسلمتم؟

في الكلام إبطال لما يتظاهرون به من الإسلام لأنهم أشركوا مع الله غيره وأسّسوا الدين على حسب ما يلدّ لهم ويكسبهم الخطوة عند الأمم، ونقضوا أصول التقوى وأخذهم الشّرّ على شهواتهم وأغراضهم فاندفعوا عن الحق المبين وسفّهوا الأنبياء وقتلوا بعضهم وكذبوا الرسل وأخطئوا من الحق السبل وقتلوا الصالحين واستهزؤوا برب العالمين وغيّروا الأحكام اتباعاً للهوى فأنى يكون هؤلاء قد أسلموا؟ وفي قوله **(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله)** متاركة وإعراض عن المجادلة أي اعترفتُ بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بياناً، أي أني أتيت بمنتهى المقدور من الحجة فلم تقتنعوا، فإذا لم يقنعكم ذلك فلا فائدة في الزيادة من الأدلة النظرية، فليست محاجتكم إياي إلا مكابرة وإنكاراً للبديهيّات والضروريات، فالأجدر أن أكف عن الازدياد فإنّ المحق إذا ابتلي بالمبطل اللجوج يقول: أما أنا فمنقاد إلى الحق. ثم نبّه الحق تعالى على مسألة التبعية وبين شرف الاتباع لحبيبه ﷺ فقال **(ومن اتبعن)** أي ومن اتبعني أسلم كما أسلمت. وإسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والانقياد وهو أحسن الكنايات لأن الوجه أشرف الأعضاء وأكرم الجوارح للإنسان وفيه بهاؤه فإذا خضع وجهه لله فقد خضع له جميع جوارحه، وفيه تعريض بنفاق أهل الكتاب أصحاب الوجهين

كما في الحديث عند البزار: «إن شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين» وفي المعجم الأوسط: «ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة له وجهان من نار» والعبارة (فقل أسلمت وجهي لله) جامعة لأصول الإسلام أُلقيت إلى الناس ليتدبروا مطاويها فيهتدي المشركون ويزداد المسلمون يقيناً بدينهم فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، إذ أن مجيئها عقب قوله (إن الدين عند الله الإسلام) وقوله (فإن حاجوك) ثم تعقبه بقوله (ءأسلمتم) يراد منه بيان جامع معاني الدين حتى تسهل المجادلة وتختصر المقابلة ويسهل عرض المتشككين أنفسهم على هذه الحقيقة ليعلموا ما هم عليه من الدين، وقد بينت العبارة أن هذا الدين يترجم عن حقيقة اسمه؛ فإن اسمه الإسلام وهو مفيد معنى معروفاً يرجع إلى السلامة من الشرك وإبطال الشركاء. ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإسلام قال: «لا تشرك بالله شيئاً» ثم استتبع بذكر التطبيقات السلوكية العملية من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، قال: صدقت... وفي رواية عند الإمام مسلم قال ﷺ: «بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه» وفي رواية: «على أن يوحد الله» وفي مسند أحمد: قال: يا رسول الله حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام: أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت» ثم قال في آخره: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» ذلك أن الدين الجامع إنما يقوم بمعالم إسلام ظاهرة، وشعائر إيمان في القلوب باطنة، وحقائق إحسان شهودية، وقد اشتغل بمعالم الإسلام طوائف يسمون الفقهاء، واشتغل بشعائر الإيمان طوائف يسمون الأصوليين، وترامى إلى الإحسان طوائف يسمون

الصوفية فمن أنكر صدق أحوالهم فقد تسنن بسنن الحفاة العراة. فالإسلام عمل، والإيمان تصديق، والإحسان رؤية أو كالرؤية، فحقيقة الإسلام: الانقياد، وحقيقة الإيمان: الاعتقاد، وحقيقة الإحسان: الشهود. وإسلام الوجه لله معناه الانقياد إليه سبحانه كما قال تعالى ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والمعنى: بلى من أسلم إسلاماً لا نفاق فيه، وأراد بإسلام الوجه الاعتراف بوحداية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه وهو محسن أي والحال أنه متصف بالإحسان كما حكى تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ ومعنى واتبع ملة إبراهيم حنيفاً أنه حقق الإيمان الكامل، فهذه ثلاثة أوصاف بها يكمل الدين ولعلها هي: الإسلام والإيمان والإحسان كما قال سبحانه ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ وجملة "وهو محسن" حالية جيء بها لإظهار أنه لا يغني إسلامه بدون إحسان بل لا نجاة إلا بهما، وفي صحيح ابن حبان: قال: «الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك» قال: فإذا فعلت هذا فأنا محسن؟ قال: «نعم» وحاصله أن تعبد الله تعالى على استحضار ما أمكنك من عظمة الله وجلاله حتى تصير كأنك في حضرة الحق ومشاهدته إلا إن لم تتحقق بمقام المشاهدة فتتحقق بمقام المراقبة، وهذا يتضمن المجاهدة وتهذيب النفس ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وتجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله كما روى البيهقي في شعب الإيمان أن النبي ﷺ قال للحارث بن مالك: «ما أنت يا حارث بن مالك؟» أو قال: يا حارث؟ قال: مؤمن يا رسول الله، قال: «مؤمن حقاً؟» قال: مؤمن حقاً، قال: «فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة ذلك؟» قال: عزفت نفسي عن

الدنيا فأسهرت ليلي، وأظلمات فماري، وكأني أنظر إلى عرش ربي حين يجاء به، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار، فقال النبي ﷺ: «مؤمن نور الله قلبه» وقال الإمام القشيري قدس سره: المحاضرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر، ثم بعده المكاشفة وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ولا مستجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب، ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة فإذا أصبحت سماء السر عن غيوم الستر فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف، وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله: وجود الحق مع فقدانك فصاحب المحاضرة مربوط بآياته وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته وصاحب المشاهدة ملقي بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله وصاحب المكاشفة يدينه علمه وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته. اهـ. والاستفهام في قوله ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين﴾ مستعمل في الاستبطاء والتحضيض، وفيه إبطال لكونهم حاصلين على الإسلام. قال الإمام الرازي: دخل كل من يدعي الكتاب تحت قوله "للذين أوتوا الكتاب" ودخل من لا كتاب له تحت قوله "الأمينين". اهـ. والأولى أن يكون الأميون هم المعنيون بالآية الكريمة ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ ودخل فيهم من تبع أهل الكتاب في الأديان الباطلة وإذا كفر أهل العلم المظنون بهم تطلب الحق فكيف الأمر بالأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق وألهى عن تطلبه وأضل في التفرقة بين الحق والباطل وأجدر بالافتداء بأئمتهم؟ والكلام معطوف على قوله ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون﴾ عطف الحال على الحال والمعنى كيف تطمعون أن يؤمنوا

لكم وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة؟ والاستثناء في قوله ﴿إلا أمانى﴾ منقطع لأن الأمانى ليست من جنس الكتاب ولا مندرجة تحت مدلوله، وقرئ بالتخفيف. وأمانيتهم أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو ما يمنيهم أحبارهم من أن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، أو لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعون على ما يسمعونهم كما هو عادة الأمم الضالة إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم، أو لا يعلمون إلا أكاذيب سمعوها من شياطينهم المحرفين فنقلوها على التقليد، وقد نبّه تعالى على أنهم في الضلال سواء لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم. واعلم أيها المواظب على تلاوة كتاب الله الملازم للاسترشاد منه أن الأمي ليس من لا يقرأ ولا يكتب ولا من لا يكتسب علوم الدنيا والشهادات العليا بل الأمي من حُرِّم الوحي وعميت بصيرته عن هدايته وإرشاده ومُنِيَ أزمته طويلة بأوهام وأفهام ومعارف أدخلها عليه أهل التضليل فاختلطت عنده بالعلوم الحقيقية فارتاض على قبولها والتصقت بقلبه التصاق العنكبوت ببيته.

﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ لما ذكر الحق تعالى أنه ليس للملوك الأرض في دفع العذاب الذي أراد بهم ولي يدفع عنهم أو نصير ينصرهم ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ أعقب ذلك بذكر مشهد من دلائل قدرته تعالى وحكمته وأنها تشبه النعم والإحسان

من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه (وهم يجادلون في الله) أي والحال أنهم مع ذلك الذي تقدم من إحاطة علمه وكمال قدرته يجادلون في توحيدهم بالمكر والكيد والخديعة وهو سبحانه شديد الخيال أي شديد كيدهم ومكرهم في عقوبة من مكر في دينه وكاد في توحيدهم وإطفاء نوره، والحال: المكر بالحق، والمماحلة: المماكرة والمكايدة، ولما بين تعالى ما له من الآيات التابعة لصفات الكمال التي منها التنزه عما لا يليق بالجلال وأنه شديد المكر بالماكرين المجادلين في وحدانيته، شرع يبين ضلالهم في إشراكهم فقال مبتدئاً الآية بما أفهمه كونه يجيب الدعوة ويعطي الداعي الموحد الذي انفتحت بصيرته بالتوحيد (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) روى الطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما (له دعوة الحق) قال: «لا إله إلا الله» وقال العلامة ابن منظور: دعوة الحق أنه من دعا الله موحداً استجيب له دعاؤه. ودعوة الله هي وحدها الحق وهي التي تحقق، فكل من في الكون يعنو لله، وكلهم محكومون بإرادته، خاضعون لسنته، مسيرون وفق ناموسه، وهي الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها، وما عداها باطل ذاهب، لا ينال صاحبه منه إلا العناء، ومثلُ المشركين الذين يستنصرون بألهتهم وشركائهم كالعطشان الذي يبسط كفيه إلى الماء فلا هو ببالغ فاه ولا هو بنافعه، فشبه حال المشركين في دعائهم لشركائهم وجلب نفعهم وعدم استجابتهم لهم بشيء؛ بحال الظمان يبسط كفيه يتغى أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلاً، فكذلك الحفاة العراة ضلت عنهم آلهتهم حين رجوا نصرها، وهذا المثل يُضرب

لمن سعى فيما لا يدركه ولمن طلبَ ما لا يبلغه، والاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية.

ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر دعوى أهل الكتاب أنهم على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكان مرادهم إضلال أهل الإسلام، عقب بالإعراب عن ذلك الودُّ وتلك الرغبة القائمة على الحقد والشر لتنتقل إليها أعمال الكيد والمكر والخداع! قال الإمام ابن عطية: أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تود وتشتهي أن تضل المسلمين أي تتلفهم عن دينهم وتجعلهم في ضلال ثم فسر الطائفة بقوله "من أهل الكتاب" فتحتمل من أن تكون للتبعض وتكون الطائفة الرؤساء والأخبار الذين يسكن الناس إلى قولهم ويحتمل أن تكون لبيان الجنس وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب. وقال الإمام القرطبي: نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم وهذه الآية نظير قوله تعالى "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً" و"من" على هذا القول للتبعض وقيل: جميع أهل الكتاب فتكون "من" لبيان الجنس ومعنى "لو يضلونكم" أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له وقال ابن جريج "يضلونكم" أي يهلكونكم ومنه قول الأخطل:

كنتَ القذى في موجٍ أكدرَ مزبِداً ... قذفَ الأتيُّ به فضلٌ ضلالاً

أي هلك هلاكاً. اهـ. وفي الآية تعريض بغاوتهم إذ يوقعون الضلالة بأنفسهم في اللحظة التي يودون فيها إضلال المسلمين وخداعهم! ولما بين حرصهم على إضلال المسلمين قال مستأنفاً بما يدل على غاية التبكيت ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ وأهل الكتاب يشهدون الحق واضحاً في القرآن الكريم، ويعرفون حقيقة التوحيد ومعنى الإسلام ويفهمون الحكمة ويدركون حقيقة الميثاق الذي أخذه الله عليهم، غير أنهم يكفرون! لا لنقص في الدليل ولكن للهوى والمصلحة والرياسة! ثم أتبع سبحانه الكلام باستئناف آخر إلا أن الأول قاصر على ضلالهم وهذا متعدد إلى إضلالهم فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد إظهارهم الإسلام وإبطائهم النفاق. وكانت لهم حرفتان إحداهما: أنهم يكفرون برسالة محمد ﷺ، والأخرى: أنهم يجتهدون في إلقاء الشبهات وإخفاء الدلائل والبيّنات، وقد أنكر عليهم لبس الحق بالباطل وكنتم الحق وكأن الحق منقسم إلى قسمين: قسم خلطوا فيه الباطل حتى لا يتميز، وقسم كتموه بالكلية حتى لا يظهر! واعلم أيها المتحقق بمراتب اليقين الحقي أن شواهد الحق قد تكون واضحة بينة وقد تكون خفية فإذا خفيت أو التبتت غيرها فالمضطلعون بتمييزها وكشفها هم العلماء الحكماء الذين تمرسوا بحقائق الأشياء والتفريق بين متشابهاتها وسبروا أحوال البشر وتعرضت أفهامهم زماناً لتصاريف الشريعة وتوسموا مراميها وغاياتها وعصموا أنفسهم بوازع الحق عن أن يميلوا مع الأهواء. وقد يكون اللبس بمعنى التحريف في التأويل والخلط بين المتشابهات بحيث يعسر معه التمييز لأن بعض الآيات الواردة في الكتب الإلهية متشابهات، فكانوا يُشوّشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات ويتأولون

الآيات على خلاف تأويلها ويحتهدون في إخفاء الحقائق والبيانات ويخلطون دينهم بالإسلام فيلبسون الإسلام باليهودية والنصرانية، كما لبسوا توحيد الحكم بشرك العبادة! فيخفون شرك الحكم ويكتمونه ويضيعونه في غمار شرك العبادة على علم وعن عمد وفي قصد وهو أمر مستنكر قبيح، وهذا الذي ندد الله به سبحانه من أعمال أهل الكتاب هو ديدهم على مدار تاريخهم! مثلهم كمثل الذي آتاه الله آياته لهداية الناس وتنظيم حركة حياتهم فخلط الحق بالباطل وبدّل الآيات وأخفى الإرشادات وغير المأمورات والمنهيات ووقف يلهو بضلال الجميع في الشرائع والأخلاق وعلوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وفي كل اتجاه وهو يعلم يقيناً أنه لا أحد يصل إلى الحقيقة إلا من ملك الأصل وعضّ عليه وتنبه إلى التلبيس والتحريف وعرف القصة من أولها.

وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا

وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون

لما ذكر تعالى حرصهم على إضلال المؤمنين ولبسهم الحق بالباطل وكتماهم الحق أردف ذلك ببيان نفاقهم! والتقيد بالطائفة للإفصاح عما هو المقصود من استحواذ الأحبار على الملوك لأن الأحبار هم الأصل في التحريف والتبديل والكتمان وهم المتبوعون في الأمة الإسرائيلية والله أعلم، وقد أخبر تعالى أنهم ذهبوا إلى خديعة المسلمين والمكر بهم بهذا المنزع بإظهار الإيمان في أول الأمر وإعلان الكفر في آخره لكي يرجعوا عن دينهم! قال الإمام الرازي: يحتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض نفاقوا وأظهروا الوفاق للمؤمنين ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتكم بإخوانكم من أهل

الكتاب فإن أمر هؤلاء المؤمنين في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالنفاق فرموا
ضعف أمرهم واضمحل دينهم ويرجعوا إلى دينكم وهذا قول أبي مسلم
الأصفهاني ويدل عليه وجهان الأول: أنه تعالى لما قال: "إن الذين آمنوا ثم
كفروا ثم آمنوا ثم كفروا" أتبعه بقوله "بشر المنافقين" وهو بمنزلة قوله "وإذا لقوا
الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن"
الثاني: أنه تعالى أتبع هذه الآية بقوله "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" فهذا يدل
على أنهم هموا عن غير دينهم الذي كانوا عليه فكان قولهم "آمنوا وجه النهار"
أمر بالنفاق. وقال صاحب تلخيص البيان في مجازات القرآن: وهذه استعارة
والمراد أول النهار ولم يقل رأس النهار لأن الوجه والرأس وإن اشتركا في كونهما
أول الشيء فإن في الوجه زيادة فائدة وهي أن به تصح المواجهة ومنه تعرف
حقيقة الجملة. وقال الراغب الأصفهاني: ومنهم من حمل وجه النهار وآخره
على مجاز آخر فقال: معناه آمنوا في الظاهر واكفروا به في الحقيقة وذلك هو
المعبر عنه بقوله "وإذا لقوا الذين آمنوا" الآية. ونظيره قول إمام الهدى أبي منصور
الماتريدي: أي أظهروا لهم الإسلام والموافقة ولا تؤمنوا به في الحقيقة يدل على
ذلك قوله "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" في الحقيقة أي: آمنوا به ظاهراً وأما في
الحقيقة فلا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم... والوجه الآخر من تأويل الآية: أن يراد بما
أخبر عنهم أول أمره وآخره لا حقيقة بياض النهار ثم ذلك يخرج على وجهين:
أحدهما: أن يكون دُعاؤه في أول الأمر إلى التوحيد والإيمان بالكتب المتقدمة وهم
يدعون إلى ذلك وعلى ذلك كانوا قبل ظهور رسول الله ﷺ وآخر ذلك بما تبين
من تحريفهم وتعنتهم لما أخذهم البغي وغلبهم الحسد وخافوا على رياستهم
وأشفقوا على ملكهم وجزاء الشح وإظهار كثير مما قد كتم أوائلهم فكذبوه في

هذا والله أعلم، ويحتمل أن يكون ذلك من أئمتهم اصطلاح على الإيمان بذلك حتى يعلم محلهم وحرصهم على قبول الحق ثم يكفرون به ليكون الأول ذريعة لهم في الثاني أنهم إذ ظنوا أنه على الحق أذعنوا له فلما تبين لهم باطله رجعوا عن ذلك فأطلع الله نبيه ﷺ على ما أسروا ليصير ما ظنوا أنه حجة لهم حجة عليهم وجملة ذلك: أنا لا ندري ما السبب الذي كان منهم القول وفيما كان ولكنه قد بان أن ذلك كان منهم إسراراً أطلع الله نبيه ﷺ عليه ليكون حجة له وزجراً لهم عن كل أنواع التبديل في شأن رسوله عليه أفضل الصلوات بما يهتك عليهم فيفتضحون عند من راموا ستر أمرهم وتسقط رياستهم والله الموفق. اهـ. قلت: وانتظام هذه الآية بالآية التي قبلها أنه ذكر في تلك الآية لبسهم الحق بالباطل وذكر في هذه الآية ما ادّعوه من التوحيد! وتوحيدهم إلحادهم في أسمائهم الحسنى وتشبيههم إياه بالخلق وهذا من لبس الحق بالباطل فإن بني إسرائيل يقولون بالتوحيد غير أنهم مشبهة! وقد ذكر النبي ﷺ أن أمته بعد نقض قرار حكمها الإسلامي العام ستتبع أهل الكتاب وأخبر عن أربع فتن: الأحلاس والسراء والدهيماء والرابعة الصيلمة يصير أمر الأمة فيها إلى الكافر على نحو ما ورد في الفتن لنعيم بن حماد عن أرطاة بن المنذر قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تكون في أمتي أربع فتن تصيب أمتي في آخرها فتن مترادفة فالأولى تصيبهم فيها بلاء حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، والثانية حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، والثالثة كلما قيل: انقضت تمادت، والفتنة الرابعة تصيرون فيها إلى الكفر إذا كانت الأمة مع هذا مرة ومع هذا مرة بلا إمام ولا جماعة» والقرآن الكريم كاشف لقناع غوامض أحوال أهل الكتاب وما يفترونه بخداهم ودجلهم وشارح لدورهم في توجيه البشر وتفعيل سياسة

الشیطان الرحیم فی العالم الإنسانی! فهم رأس أعداء الإسلام فی ماضیه کله وفی حاضره، لم یکتب التاریخ أنهم جاوروه فأحسنوا أو عاملوه فصدقوا أو قدروا علیه فعفوا أو حکموا فعدلوا، بل یؤكد الواقع علی أن الإسلام ما جنی منهم إلا الکید له، ویجری علینا حکم المجانین إن تصورنا أن حاضره یخالف ماضیهم أو أن آتیهم خیر من حاضره...إنهم شر، والشر لا یأتی بخیر...إنهم شوک، ولا یجتنی من الشوک العنب، والآیه تكشف عن شدة حسدهم ونهایة بغضهم إذ احتالوا واستخدعوا لإضلال المسلمین إلى حیث قالوا لبعضهم علی سبیل الحیلة والاستهزاء والتسفیة: تظاهروا بالإیمان أول أمرکم واکفروا فی آخره، أو آمنوا بظاهر القرآن واکفروا بتأویله! إشارة إلى بعض ما یقتضیه عموم الآیه. ثم قالوا **(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دینکم)** قصدوا به الاحتراس من المؤمنین! واللام فی قوله "لمن" كشفت عن تضمین "تؤمنوا" معنی الاطمئنان أي لا تطمئنوا إلا لمن تبع طریقتکم وعبر عنها بالذین نظراً لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب وعبر عنها فی موضع آخر بالأهواء وفی موضع ثالث بالشرعة...والبراءة هی خط المعركة بین الأمة المسلمة و بین أهل الکتاب وما یبدلون من حيلة ومکيدة للبس الحق بالباطل وبث الریب والشکوک وتبییت الشر لهذه الأمة بلا وناة ولا انقطاع حقداً وحسداً ونقمة، ولما کان کلامهم هذا عین الضلال أمر سبحانه وتعالی رسوله أن یعجب من حالهم معرضاً عنهم إیداناً بالغضب **(قل إن الهدى هدى الله)** کنایة عن استبعاد حصول اهتدائهم لأن الله حرّمهم التوفیق وأبعدهم عن مرتبة التوحید الی هی مرتبة الخلافة، وفی قوله **(أن یؤتی أحد مثل ما أوتیتم)** قولان: الأول: أن یکون من جملة کلام الله وقرئ بهمزین ووجهه ظاهر، وكذا فی قراءة من قرأ بهمزة واحدة ویقدر همزة الاستفهام للتقریر والتویخ وكذا لام

الجر، والثاني: أن يكون من جملة كلام أهل الكتاب ومن تنمة قولهم **(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)** وتقدير الكلام: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع ملتكم كراهة أن يُخص أحد من العلوم والسيادة. مثل ما خُصصتم وحذراً أن يغالبوكم بالحجة عند ذكر ربكم، وهذا القول ثمره الحسد والكفر والتكذيب بدين الإسلام. وقيل: في الكلام حذف تقديره: قل إن الهدى هدى الله أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أيها المسلمون، فحذف "لا" من الكلام لدليل الخطاب عليها، قال المبرد: لا يكون أن في كلامهم مقتضياً لـ "لا" وإنما تقدير ذلك: كراهة أن يؤتى أحد. وقال الإمام الزاهد أبو منصور الماتريدي: هو على التقديم والتأخير قوله "أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم" كان على أثر قوله "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" يقول بعضهم لبعض: ما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم ولا بعث نبياً مثل نبيكم قالوا ذلك حسداً منهم، وقيل: إن هذا قول رسول الله ﷺ للمسلمين: لما نزل قوله "قل إن الهدى هدى الله" قال لهم "أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم" يقول: دين الله الإسلام هو الدين "أن يؤتى" يقول: لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من دين الإسلام والكتاب الذي فيه الحلال والحرام والله أعلم وأحكم، ويحتمل أن يكون قال: لن يؤتى أحد من الأنبياء قبلي من الآيات مثل ما أوتيت أنا لأن آياتهم كانت كلها حسية يفهمها كل أحد وآيات رسول الله كانت حسية وعقلية لا يفهمها إلا الخواص من الناس وخيرتهم. وقوله **(أو يحاجوكم عند ربكم)** قالوه على وجه السخرية والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر وهو كقوله "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم" فكانوا يظهرون الإسلام ثم إذا خلوا إلى بعضهم قالوا "إنما نحن مستهزئون" وقال الكسائي والفراء: معناه حتى يحاجوكم

عند ربكم على طريق التباعد. وإن شئت قلت: الهدى اسم للبيان وهدى الله بدل ويضمّر لا بعد "إن" والتقدير: قل يا محمد لأمتك إن بيان الله هو أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وأن لا يحاجوكم - يعني أهل الكتاب - عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر في ذلك اليوم أنكم مهتدون وأنهم ضالون. أو أن معنى الكلام: قل إن الهدى هدى الله فلا تجحدوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ويحتمل أن يكون الاستفهام للتوبيخ والتهكم أي أن القول الذي صدر منكم حسداً من أن يؤتى المسلمون مثل ما أوتيتم من الحكم أو يحاجوكم بالعلم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم ويغلبوكم عند ذكر ربكم! واعلم أنه تعالى حكى عن أهل الكتاب أمرين: أحدهما أن يؤمنوا وجه النهار ويكفروا آخره ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام فأجاب بقوله **(قل إن الهدى هدى الله)** وذلك أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة عين ولا أثر. وثانيها أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكمة فأجاب عنه بقوله **(قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء)** والفضل في اللغة الزيادة وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان، والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير، وقوله **(بيد الله)** أي أنه مالك له غالب عليه يوضحه قوله **(يؤتیه من يشاء والله واسع عليم)** أي كامل القدرة عليم بالحكم والمصالح ومواقع فضله فلهذا يختص برحمته من يشاء، والحاصل أنه بيّن بقوله **(إن الفضل بيد الله)** أنه قادر على أن يؤتي بعض عباده مثل ما آتاكم من المناصب العالية ويزيد عليها من جنسها فإن الزيادة من جنس المزيّد عليه، ثم بيّن ثمرة هذه الجملة ونتيجتها فقال **(يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)** والاختصاص: انفراد بعض الشيء بما

لا يشاركه فيه الجملة، والفضل في الإعطاء: الزيادة على المستحق لأنه من تمام قوله ﴿والله واسع عليم﴾ تنبيهاً أنه إذا كان واسعاً وعالمًا فسعته تقتضي أن يوسع على عباده، وعلمه يقتضي أن لا يحرم رحمته مستحقها، وفضله يقتضي أن يتجاوز تحري العدالة إلى تحري الإفضال وهو أن يفضل على غير مستحقه وإلا لم يكن فضل عظيم، والرحمة هاهنا القرآن والوقوف على حقائق كلام الله الذي خص به خواص عباده ولا شك أن من أعطي ذلك فقد خص برحمة من الله تعالى وهي مظنة حسد أهل الكتاب كما حكى تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون

اعلم أنه تعالى لما نسب أهل الكتاب إلى اشتراء الثمن القليل نبّه على اتخاذهم آيات الله مادة للإضلال يلوون بها ألسنتهم وذلك أن شأنهم الخبث والمكر واللي بالألسنة والتنطع والتجمل بالكلام لتشبيهه بغيره وتحريفه بالتأويل الباطل وقلب آيات القرآن التي نزلت فيهم إلى غيرهم ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها فيلوون ألسنتهم عن سنن الصواب بما يأتون به من عند أنفسهم بالتحريف إذ تجرؤوا على الله وحرفوا معنى التوحيد ومحووا الشرك الذي فهو عنه وتكلموا على خلاف ما فيه فأوقعهم ذلك في الزندقة والكفر الذي لا تستحسنه إلا عقولهم الركيكة! وهم في الحقيقة إنما

يروّجون تحريفاتهم على أهل المدارك الرقيقة، العاجزة لقلة البضاعة عن الوصول إلى الحقيقة، فأما أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة، وهذا اللي باللسان موجود حتى الآن فيهم ويحفظ منه في التسجيلات أمثلة عديدة... ولما نفرّ عن سماع كلامهم؛ نبّه على أنه في غاية البعد عن الكتاب فقال ﴿وما هو من الكتاب﴾ وهذا نفي خاص ثم عطف عليه النفي العام فقال ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ ثم أخبر أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم تشنيعاً عليهم وأنهم غير معذورين بوجه فقال ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي وهم يعلمون أنهم كاذبون عليه سبحانه وهو تسجيل عليهم بأن ما افتروه عن عمد لا خطأ وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله تعالى ما ليس منه. ولما ذكر سبحانه ليّ ألسنتهم بالكتاب وهو ضرب من التحريف وفرغ من بيان ما أراد من كتمانهم للحق مع الإشارة إلى بعض توابعه إلى أن ختم بأنهم لا يتحاشون من الكذب على الله المقتضي للكذب على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومهما كان القول كذباً على الله سبحانه وتعالى اقتضى أن يكون تعبداً للمنسوب إليه من دون الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذي شرعه وذلك بعد أن أوضح سبحانه من صفات المسيح المقتضية لنفي الإلهية عنه ما لا يخفى على ذي لب شرع يبين أنهم كاذبون فيما يدعونه فيه فنفي أن يكون قال لهم ذلك فقال ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ والآية تنزيهه لأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام إثر تنزيه الله تعالى عن نسبة ما افتراه أهل الكتاب إليه، والمعنى: ما كان

لبشر كائناً من كان من عيسى وعزير عليهما الصلاة والسلام وغيرهما أن يؤتياه الله الكتاب المؤيد بالحكم والنبوة ثم يكذب على الله سبحانه بأن يصرف الناس عن عبادة الله إلى عبادته ولكن يقول لهم: كونوا علماء عاملين تثبتون رباً واحداً بما تُعلّمون غيركم إشارة إلى فحوى قوله "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" والرباني: الذي لا يثبت غير ربه موحداً ولا يشهد ذرة من الخو والإثبات لغيره أو من غيره. وقيل: من ارتفع عنه ظل نفسه وعاش في كنف ظله سبحانه. وقيل: من هو محق في وجوده سبحانه ومحو عن شهوده فالقائم عنه غيره والمجري لما عليه سواه. وقيل: الذي لا تؤثر فيه تصارييف الأقدار على اختلافها. وقيل: الذي لا تغيره محنة ولا تضربه نعمة فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق. وقيل: الذي لا يتأثر بورود وارد عليه فمن استنطقته رقة قلب أو استماله هجوم أمر أو تفاوتت عنده أخطار حادث فليس برباني. ويقال: هو الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقلبه وسرّه ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله. وبالجملة كما قال الإمام القشيري: هم العلماء بالله الحلماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله المستهلكة حظوظهم المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ينطقون بالله ويسمعون بالله وينظرون بالله فهم بالله محو عما سوى الله. وقدم تعليم الكتاب على دراسته لوفور شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم، ويجوز أن يكون المعنى على تقدير بما تدرّسونه على الناس. وقرئ (تَعْلَمُونَ) بإسكان العين وتخفيف اللام وقراءة التشديد أبلغ في التقرّيع لأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم! وذكر الإمام الطبري عن ابن زيد قال: الربانيون: الذين يربون الناس ولاة هذا الأمر يربوهم: يلوهم، وقرأ: "لولا ينهاهم الربانيون

والأخبار" قال: الربانيون: الولاة، والأخبار: العلماء. فالربانيون إذاً هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأخبار. لأن الأخبار هم العلماء، والرباني: الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم. اهـ.

والآيات تحكي هذا الفريق من أهل الكتاب الذين اتخذوا أرباباً في العبادة، ثم اتخذوا أرباباً في الحكم...ولمّا بيّن تعالى أن عادتهم التحريف والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما حرّفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعي الإلهية وأنه كان يأمر قومه بعبادته، وفي جانب علاقتهم مع أهل الإسلام عملوا على تحريف معاني التوحيد ليدخل المسلمون تحت سلطانهم وينقادوا لهم، روى ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله **(كونوا عباداً لي من دون الله)** قال: كان ناس من اليهود يتعبدون الناس من دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن مواضعه بغير الذي يقرؤون مما أنزل الله في كتابه. وحين ادّعوا أن الكتاب والحكم والنبوة فيهم وأن أحداً لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه؛ قال الله لهم: إن كان الأمر كما قلتم وجب ألا تشتغلوا باستعباد الناس واستخدامهم ولكن كونوا خلفاء مصلحين، والرباني: الداعي إلى ربوبية الله المتخلق بأخلاق الرب علماً وحكماً، وسبب نزول الآية أن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **«معاذ الله ما بذلك أمرت، ولا إليه دعوت»** فنزلت الآية، وأرادوا أن يلزموا هذا القول محمداً ﷺ لما تلا عليهم **(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني)** أي إن كان هذا من قولكم - يعني في عيسى - حباً لله وتعظيماً له - فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - أي ما مضى من كفركم - والله

غفور رحيم. فحرّفوا ذلك بتأويلهم وهذا من نوع ليّهم الكتاب بالسنتهم، وفي هذا المعنى ما رواه الإمام البخاري من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ألا ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم وقلولاء: عبد الله **ورسوله**» والمقصود النهي عن اتخاذه صلّى الله عليه وآله معبوداً وربّاً، أي لا تغلوا في وصفي كغلوّ بني إسرائيل في وصف ابن مريم بدعواهم أنه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة... وما أحسن قول صاحب البردة:

دع ما ادّعتة النصرارى في نبيّهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
ولما قالوا: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يتخذه الله تعالى نبياً ثم يقول أنا ربكم ويأمرهم باتخاذ الملائكة والنبين أرباباً وهو قوله **(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً)** وقُرئ برفع راء **(يأمركم)** على ابتداء الكلام، والمعنى على هذه القراءة: ما كان لبشر أن يرسله الله للدعوة إلى ربوبيته ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولا هو يأمرهم أن يتخذوا الملائكة أرباباً، والمعنى على قراءة النصب: لا ينبغي لبشر أوتي الكتاب أن يأمرهم أن يتخذوا الملائكة والنبين أرباباً، وتكون **(لا)** في تخريج هذه القراءة لتأكيد النفي، والمعنى: لا تشركوا في الحكم ولا تأمروا الناس أن يشركوا بالعبادة. والمقصود من قوله **(أرباباً)** الإيماء إلى الغلوّ والمبالغة في التعظيم وذلك أن أهل الكتاب جعلوا للملائكة والنبين صفة من صفات الربوبية والألوهية وزعموا أن الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن! وقد بيّن تعالى في الآية **(وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة)** أنهم أثبتوا لله

شركاء الجن في الحكم ونسبوا له تعالى كذباً وزوراً بنين من النبيين وبنات من الملائكة أشركوهم بالعبادة على وجه السخرية - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - وقوله **(يغير علم)** أي بغير دليل مقتبس من الشريعة الشريفة مستند إلى الوحي فائض عليهم بل يأخذون الناس بشبهات وأباطيل وهوى مركوز في جبلتهم وحمية مركوزة في خبث طينتهم وخسة طبيعتهم بمقتضى الشقاوة الأزلية، وهذه الطقوس التي بلغت أقصى غايات الكفر حملهم عليها إبليس فأطاعوه وسجدوا له مقابل تسخير البشر وتسليم زمام الأرض وكشف ما فيها من قوى وطاقات وكنوز وخامات... وقال سبحانه **(ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)** والمعنى أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها ولكنهم عبدوا الجن فسوّلت لهم عبادتنا، والمقصد من المحاورة إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات الله من أمهات سروات الجن! ومورد التنزيه في قول الملائكة **(سبحانك)** هو أن يكون غير الله مستحقاً أن يعبد، وتبرؤ من الرضى بأن يعبدهم المشركون، وهذا نظير ما حكاه سبحانه عنهم في قوله **(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل، قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا)** والمقصود بـ"ما" العقلاء المعبودون - والله أعلم - قال مجاهد وابن جريج: المراد الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد. وقرئ بنون العظمة "نحشرهم" بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كما

قرئ "فنقول" بنون العظمة وفيها إشارة إلى أن الحشر أمر عظيم. والتسبيح إن كان من أوليائهم من الجن والإنس فالمقصود به أنهم ينزهون الله عن الشركاء يومئذ ويجحدون ولايتهم ويتبرؤون منهم ويؤيده قراءة أبي جعفر "تُتخذ" وإن كان من الملائكة والنبين فهو كناية عن كونهم موسومين بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده والمراد نفي أن يكونوا هم مضليهم على أبلغ وجه كأهم قالوا: ما صح وما استقام لنا أن نتخذ متجاوزين إياك أولياء نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلاً أن يتخذونا ولياً، أي ما ينبغي لنا ولعابدنا أن نتخذ من دونك من شركاء! أو لم نأمر هؤلاء بعبادتنا فنكون بذلك قد اتخذناهم لنا أولياء لأنهم إذا والونا بأمرنا فقد واليناهم نحن وصار بعضنا أولياء بعض! وتلخيصه: ما كان لنا أن نتخذ من دونك من يوالينا فيعبدنا دونك ومعناه التبرؤ من الرضا بشرك هؤلاء والانتفاء منهم. ومن للتبعيض أي لا نتخذ بعض شركاء. وجوابهم فيه نكايه بالمشركين وتشهير وتأنيب، ومعنى "تُتخذ" أي يتخذنا أحد آلهة وشركاء نتولى أموره! وذهب ابن جني إلى جواز زيادة من في المفعول الثاني أي على معنى ما اتخذت فلاناً شريكاً أي شريك كان من أصناف الشركاء! والمعنى عليه: أنهم يتبرؤون من أن يدعوا الناس لعبادتهم وهذا تسفيه للذين أشركوهم مع الله تعالى، والاستدراك الذي أفاده "ولكن" ناشئ عن التبرؤ من أن يكونوا هم المضلين أي ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا في الشهوات حتى تركوا الذكر الحكيم والتوحيد القويم وجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية. روى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله "ويوم

يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي" قال: عيسى وعزير والملائكة. والإشارة بهؤلاء إلى أهل الكتاب الحاضرين مُتَعَوًا في هذه الدنيا بأحوال ورياسة ووسّع عليهم المعيشة حتى ماتوا على ذلك من غير أن أصابهم شيء مما أوعدوا في الكتاب ومما أوعدهم الرسل من الهلاك والعذاب على ما اختاروا من الدين وصنيعهم فظنوا أنهم على حق من ذلك حيث لم يصبهم من المواعيد المذكورة في كتابهم أو ما أوعدهم رسلهم بشيء وكانوا قد دعوا أتباعهم إلى إشراك الملائكة والنبين بالعبادة مع الله وإلى ما هم عليه من التكذيب برسوله وما أنزل عليه! وقوله ﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا﴾ أي فما تستطيعون صرف قول من عبدتموهم وتكذيبهم حين كذبوكم كما لا يستطيع شركاؤكم في الحكم نصركم كما يفيد توجيه القراءة الأخرى ﴿فما يستطيعون﴾ أي الآلهة المعبودون صرف العذاب ولا الآلهة في الحكم نصركم أبداً. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يشفع لهم شافع ولا ينصرهم ناصر.

وقد ذيلت سورة الكهف بالتحذير من شرك العباداة ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ أي أحداً من مخلوقاته سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكاً... والكلام متصل بقوله ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي أفحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي من الملائكة والنبين أولياء؟ يعني أفظنوا أنهم ينتفعون بمن عبدوهم وجعلوا بعضهم ولداً؟ فإنهم لا يجدون عندهم منتفعاً ولا يشفعون لهم وليس لهم من ولاية هؤلاء الذين تولوهم شيء. والاستفهام إنكاري والإنكار متسلط على معمول المفعول الثاني وهو أولياء المعمول لـ "يتخذوا" بقرينة ما دل عليه فعل فحسب من أن هنالك محسوباً باطلاً وهو

كوهم أولياء باعتبار ما تقتضيه حقيقة الولاية من الشفاعة. ويجوز أن يكون المعنى: أفحسبوا أي أمرهم بذلك أو أذنت لهم؟ ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري: ليس الأمر كذلك بل خاب جدهم وغاب سعدهم وأصلد زندهم، حسن قوله مؤكداً لأجل إنكارهم ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ لأنهم اتخذوا الملائكة والنبين أولياء من دون الله وأشركوهم بالعبادة مع الله على وجه الاستهزاء كما دلّ عليه قوله بعده ﴿واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ وبدلوا كتابهم واقتسموا المهام السياسية والشرائع الإلهية وصاغوا الهندوسية والعقائد الإغريقية والرومانية ووضعوا هذا الخليط العجيب من الديانات الباطلة التي تحار فيها العقول! وقد أشار قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين﴾ إلى نفاقهم وإشراكهم الملائكة والنبين بالعبادة، والمعنى أن الذين آمنوا بالسنتهم من غير مواطاة القلوب والذين عبدوا عزيزاً والذين عبدوا المسيح والذين عبدوا الملائكة من آمن إيماناً خالصاً وعمل صالحاً فلهم أجرهم الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم. روى عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: الصابئون قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرؤون الزبور. وروى ابن جرير عن سفيان قال: سئل السدي عن الصابئين فقال: هم طائفة من أهل الكتاب. وفي رواية عن أبي العالية قال: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. ويبدو أن هذه الفرقة نشأت في زمن داود وسليمان عليهما السلام. ولما بين تعالى فيما مضى أن التولي عن الرسل كفر وذكر كثيراً من النبين فخص في ذكرهم وعمم، ذكر الميثاق العظيم الذي أخذه منهم للحقيقة الأحمدية والنور المحمدي المنقذ من النور الإلهي والمتشعشع في مشكاة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فقال ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبين لما آتيتكم من

كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال
 ءأقرتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من
 الشاهدين وفي هذه الآية الشريفة من التعظيم له ﷺ والتفخيم ورفع الشأن
 والتنويه بالذكر وتشريف الجناح ما لا يخفى، وفيها مع ذلك: أنه على تقدير
 مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من
 آدم إلى يوم القيامة، ويتبين بذلك معنى قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح
 والجسد» وفي رواية عند الحاكم مرفوعاً: «إني عند الله في أول الكتاب لخاتم
 النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم
 وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور
 الشام» وقد خُص باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح فإن محمداً ﷺ هو
 المقصود من خلق النوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده كما جاء
 في الحديث - الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به -
 عن جابر مرفوعاً: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر» وإنه لعمرى أبو
 الأنوار، وما نور النبيين بالنسبة إلى نوره ﷺ إلا النجم وشمس النهار، ولو رآته
 زليخة لقالت: ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم! إعظماً له ﷺ من أن
 يكون من النوع الإنساني، وفي ذلك يقول السيد أبو الهدى الصيادي:

فتذكر حديث جابر يبدو ... لك مكنون سره الإبتداء

يا له من خطير سر ابتداء ... ما لعلياه والفخار انتهاء

خدمته الأملاك دارت به الأفلاك ... غشى الأحلاك منه ضياء

وقضى الحق أنه علة الخلق ... وطرز الورى لذا إيماء

هو لولاه ما هي الأرض أرض ... وذووها ولا السماء سماء

سبب شقت الوجودات عنه ... بانفتاق أرتاقها الطمساء

وروي أن الله تعالى لما خلق نور نبينا محمد ﷺ أمره أن ينظر إلى أنوار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به وقالوا: يا ربنا، من غشنا نوره؟ فقال الله تعالى: هذا نور محمد بن عبد الله إن آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا: آمنا به وبنوته فقال الله تعالى: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم. وروي عن سيدنا علي بن أبي طالب أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه. والله در القائل:

ما مضت فترة من الرسل إلا ... بَشَّرْتُ قومَهَا بك الأنبياءُ

تتباهاى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء

قال العارف بالحقيقة الحمديد الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني قدس الله سره النوراني: النور الحمدي روح ماء الحياة ويسمى الحقيقة الحمديدية الجامعة للكلديات كلها وقد أثبتتها الجمهور من العلماء والعرفاء والمحدثين فهناك عالم الحقيقة وبعده عالم الروح وبعده عالم الأجساد فعالم الحقائق النورانية أسبق في الوجود ثم خلق الله الأرواح ثم خلق الأجسام وبثّ فيها الأرواح فهو عليه الصلاة والسلام أول حقيقة نورانية خلقها الله في عالم الحقائق وعنّها تفرعت الحقائق كما تناقله علماء الحديث المحققون في السند عن جابر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى، قال: «يا جابر إن أول ما خلق الله

نور نبيك من نوره» أي ابتداء من نوره لا جزءاً لأن نور الله لا يتجزأ وهذا يسمى النور الحمدي والحقيقة الحمديّة والكلية الجامعة ولها أسماء وقد ورد أيضاً بالسند عن بعض المحدثين عن سيدنا علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«كنت نوراً بين ربي عز وجل قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»** وروى أبو نعيم وغيره: **«أنا أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث»** أي أولهم في عالم الحقيقة النورانية وآخرهم بعثاً... وهو ﷺ أول الأرواح إذ الأرواح خلقت بعد الحقائق النورانية والدليل على ذلك أن عدداً من الصحابة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام في عدة مناسبات فقد سأله أبو هريرة رضي الله عنه متى كنت يا رسول الله نبياً؟ قال: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»** وسأله آخر فقال: متى استنبتت يا رسول الله؟ قال: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»** وسأله آخر فقال: متى وجبت لك النبوة؟ قال: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»** فهو ﷺ أول ما خلق الله في عالم الأرواح ونبأه في ذلك العالم قبل الأنبياء كلهم صلوات الله عليه وعليهم فهو أول الأرواح خلقاً وهكذا نور الحقيقة الحمديّة هو روح حياة الماء، فقبل الماء إنما هو الحقيقة النورانية الحمديّة التي هي روح حياة الماء الذي خلق الله منه جميع الأشياء كما قال ﷺ: **«كل شيء خلق من الماء»** وهذا الماء غير الماء المعهود وإنما هو ماء الحياة وفيه جمع عناصر التكوين وما أصاب شيئاً إلا دبّت فيه الحياة وهو الذي قال الله فيه **(وجعلنا من الماء كل شيء حي)** وقال سبحانه فيه أيضاً **(وكان عرشه على الماء)** وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفتين أربعون»** قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: **«ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون**

كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يئلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب
الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» وهو ماء الحياة وهو أيضاً الماء الذي
يصب على عصاة الأمة بعد خروجهم من النار فينبتون كما تنبت الحبة في حميل
السيل وهو أيضاً الماء الذي أصاب الحوت الذي حملة موسى ﷺ فاتخذ سبيله
في البحر عجباً...

وفي أخذ الموائيق من النبيين معنى آخر في الاستخلاف ولذلك دخلت لام القسم
في ﴿لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرَنَّهُ﴾ وكأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء ولعل أيمان
الخلفاء أخذت من هنا. واعلم أيها المجبول على الحكمة الفطرية أنه لما تعلق
إرادة الحق بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية في الحضرة
الأحدية ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها على صورة حكمته كما سبق
في سابق إرادته وعلمه ثم أعلمه بنبوته وبشره برسالته ثم انبجست منه ﷺ عيون
الأرواح فظهر بالملأ الأعلى وهو بالنظر الأجلى وكان له المورد الأجلى فهو ﷺ
الجنس العالي على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس ولما
انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به
انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً فهو
ﷺ وإن تأخرت طينته فقد عرفت قيمته فهو خزانة السر وموضع نفوذ الأمر فلا
ينفذ أمر إلا منه ولا ينقل خير إلا عنه، فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء
ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه وحصل هذا في الدنيا ليلة الإسراء
والمعراج حين حققوا التبعية والإقرار به كما أفاد ذلك الحديث الذي رواه الإمام
النسائي: «ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل
حتى أمتهم» ثم بين تعالى حال من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول وعن نصرة

رسالته ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ والفاسقون هم الذين نقضوا العهد وأشركوا بالله الواحد الصمد! ولما كانت مرتبته ﷺ بداية عموم المراتب ونهايتها نبه تعالى على تلك المرتبة التي طويت دونها المراتب وقصرت عن دركها العقول وكلت عن وصفها الألسن وارتجت دونها طرق الوصول واضمحلت هناك السمات والعلامات وبطلت العبارات والاعتبارات وارتفعت الجهات والإشارات فقال سبحانه جاعلاً دين رسوله دينه ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ ثم بين أنه عين ما نزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعين ما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ثم أردف ببيان أن من ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وذلك ما تضمنه قوله ﷺ لو قد عبد القيس في الحديث المتفق عليه: «أمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله» ولم يقل هاهنا: "ورسوله" لتضمن هذا الإيمان الشهادة له ﷺ بالرسالة لأن قول العبد: لا إله إلا الله هو عين إثبات رسالته وقد فسرهما لهم فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» كما أن مشاقة الله هي عين مشاقة رسوله وهو معنى قوله ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ وقد فسرهما في الآية الأخرى ﴿ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ وقد نزلت الآية الكريمة ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ في نفر من اليهود اختصموا مع النصارى إلى النبي ﷺ فقالوا: أينما أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دينه» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. وقرئ بالتاء "تبغون" على معنى المخاطبة والمعنى: أفتبغون غير دين الله وقد انقاد له تعالى من في السماوات والأرض طائعين ومكرهين لا يخرجون عن إرادته كما قال تعالى ﴿ولله يسجد من في

السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) والاستفهام في قوله (أفغير دين الله يبغون) للتعجب من فعل أهل الكتاب في اتخاذهم آلهة من دون الله وتوغلهم في الكفر وغلوهم في النفاق وتوليهم عن الجنب الحمدي والنور النبوي الأحمدى وتباعدهم عن الإسلام المبني على التوحيد العملي والاعتقادي! والفاء تفریع عن ذكر أحوالهم فإنهم لما نقضوا دين الإسلام ابتغوا دين الشرك، وهذا نظير ما حكاه الله عنهم في قوله (أفحكم الجاهلية يبغون) والمشركون الجدد أشد انحرافاً من مشركي الجاهلية الأولى وأكثر خطراً على الأمة، فالمعركة في الجاهلية الأولى كانت سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين، أما جاهلية الحفاة العراة فتستتر بستار الإسلام وهي تقيم الشرك في حياة الناس وترعه في فكرهم وأوضاعهم لتفتنهم عن الإسلام... وإن نقطة البدء في دعوة الإسلام اليوم هي تعرية الجاهلية من رذائلها الزائف وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً ووصف بني إسرائيل بالوصف الذي يمثل واقعهم والذي وصفهم به الحكيم الخبير كي تنتبه الأمة إلى معرفة عدوها وإلى حقيقة ما انتهى إليه أمرها عسى أن يوقظها قرآنها إلى تغيير ما بأنفسها ليغير الله ما بها من الذلة والشقوة والنكد والضياع والتهيه... وإن الخطر الحقيقي على الإسلام أن يكون في دعاة المسلمين فريق ينطلي عليهم حيل أهل الكتاب ويعجبون بشعاراتهم ويتأثرون بمناهجهم ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحق! واعلم أيها اللبيب الرشيد أن الخروج عن جادة التوحيد على وجهين؛ أما أحدهما: فرجل زلّ عن الطريق وهو لا يريد إلا الخير، فلا يُقتدى بزلته، وآخر عاند الحق وجادل في الكتاب وحادّ الله ورسوله، فهو ضال مضل شيطان مريد في هذه الأمة، حقيق على من يعرفه أن يحذر الناس منه ويبين لهم قصته لئلا يقع أحد في

دعوته فيهلك...أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمه مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى علماؤهم شر من تحت أديم السماء من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود» وروى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زحرفت مساجدكم وحلّيت مصاحفكم فالدمار عليكم» وهذه الظاهرة تشير إلى هبوط الإيمان وسوء علاقة المصلين بالله الملك الديان! ويُفسّر هذه الظواهر قوله ﷺ: «ويكثر ولد الزنى وتفشو الغيبة ويُعظّم رب المال وترتفع الأصوات في المساجد ويظهر أهل المنكر ويظهر البناء» رواه ابن مردويه. وهناك نماذج عديدة أشارت إليها الأحاديث منها: ظاهرة الشذوذ الجنسي كما جاء في الخبر النبوي عند الطبراني: «إن من أعلام الساعة وأشراتها أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء» ومنها: التغاير على الغلمان كما جاء في الخبر النبوي عند الديلمي: «لا تقوم الساعة حتى يُتغايّر على الغلام كما يُتغايّر على المرأة».

(لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله

شهيدا)

لما كان الله تعالى قد جعله ﷺ شاهداً على الوحداية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحداية مدعياً لها لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوحداية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً له تعالى فقال سبحانه (والله يعلم إنك لرسوله) ومن هذا قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست

مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴿فاستشهد على رسالته بشهادة الله له، وكذلك قوله تعالى ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهداً لرسوله.

﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ لما وجه تعالى الأمر في آخر سورة السجدة بالإعراض عن المستهزئين وانتظار ما يكون من عاقبة أمرهم أتبعه النهي عن طاعتهم في مطلع هذه السورة وأعلمه أن الفتح إنما يكون مع التقوى فأمره بما بعد أمره بانتظار نصره، والخطاب هاهنا لأمرته ﷺ إذ لا يجوز عليه أن يطيع الكافرين والمنافقين، حاشاه الله من ذلك، ويدل عليه قوله تعالى ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ولم يقل "بما تعمل" ومثله في القرآن كثير كقوله ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ وكقوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ فالمراد غيره وأن هذه حال من أشرك والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا... فكل ما جاء في القرآن من نذارة... إلى النبي صاحب البشارة... كن لبياً وافهم الإشارة... إياك أعني واسمعي يا جارة... فإن من فتوات الأرسال... تحملهم عن الخلق أعباء الخطابات الثقال... وقد أنزل الله تعالى إبطال التبني وأن ولاية النبي ﷺ للمؤمنين أقوى ولاية ولأزواجه حرمة الأمهات لهم وتلك ولاية من جعل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام وحرّض تعالى المؤمنين على التمسك بما شرعه لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين ثم شرع في ذكر قصة الأحزاب وهي وقعة الخندق ﴿يا أيها الذين

آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا و جنودا لم
 تروها وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم
 وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿وهم قريظة
 والنضير جماعات من بني إسرائيل زحفوا مع أحزابهم من قريش و غطفان وبني
 أسد وبني عامر وبني سليم في عشرة آلاف مقاتل أو أكثر على المدينة لاستئصال
 شأفته ﷺ وشأفة الإسلام والمسلمين! وقد ترجم الحق حال المؤمنين بقوله
 ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا﴾ ثم بين المولى حال قادة النفاق من
 بني إسرائيل ومن تبعهم وانخرط في سلكهم ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في
 قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل
 يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة
 وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا
 الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون
 الأدبار وكان عهد الله مسئولا، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو
 القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا، قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم
 سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا، قد يعلم الله
 المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا، أشحة
 عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه
 من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم
 يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا، يحسبون الأحزاب لم
 يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدوا لو أنهم بادون في الأعراب يستلون عن أنبيائكم
 ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ ومقصود السورة إعلاء أمر النبي ﷺ وإظهار

شرفه وتعظيم شأنه وتفخيم مكانه وفيها إجلال لقدره الشريف وتنويه برفعة محله المنيف واعتناء بأهل بيته الذين خلقوا من عنصره اللطيف حسبما نطق به قوله ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إلى الآية التي توسطت عقد الكتب الإلهية وسارت في الحضرات العلية والمقامات السنية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وفي السورة إرغام لأنف أعداء النبي الأمين عليه صلوات رب العالمين وتحقير وإذلال وطرد ولعن وتوعد بالقتل والأسر والعذاب المهين، ومن أهم أغراضها: الرد على المنافقين قولهم: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك فأنزل الله الآيات في إبطال التبني إلى قوله ﴿لَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ وفي السورة وعيد وتخويف للمنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين وتحذير من التورط في ذلك كيلا يقع المسلمون فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام... والسورة تربط المعركة التي حارب خلالها بنو إسرائيل الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ. بمعركة الأمة الحمديّة اليوم، وتضع الخط العريض الفاصل بين الأمة الملعونة في القرآن وبين الأمة المسلمة من خلال هذه التوجيهات الأربعة: تقوى الله واستشعار جلاله، ومخالفة الكافرين والمنافقين، واتباع وحي الله الخبير بالخفيات، والتوكل على الله... ولما كان موقع القلب في البدن موقع الرئيس، والحكمة تقتضي وحدة الرئيس أتبع ذلك بقوله ﴿لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلِيلٍ فِي جَوْفِهِ﴾ وفي الآية طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم فبين تعالى أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى الغير انصرفت عن الله، وهذا حال من رضي بالدون، وباع حظه من قرب الله بصفقة خاسر مغبون! والسورة تعرض دسائسهم وكيدهم للمسلمين في أخلاقهم وآدابهم ويوهمهم ونسائهم عن طريق الهجوم الإعلامي على الآداب الخلقية

والدعوة إلى نشر الرذيلة وإطلاق الشهوات من عقالها لسحق القاعدة الخلقية وبت الهزيمة واليأس وإحداث الإرجاف والخلخلة في الصف! وفيها تهديد لهم على الإرجاف بالأخبار الكاذبة...ومدار السورة على قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَنْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ والسورة تسمهم في مطلعها بالكفر والنفاق وفي آخرها بالشرك والنفاق ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ والعطف للتوضيح والبيان وتعدد الصفة كما في قوله تعالى ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّهُمُ السُّوءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وأصحاب هذه الصفات هم اليهود والنصارى...وشرك الحكم آثاره ماحقة مدمرة على المجتمعات إذ يتبعه دمار المدن والقرى وهلاك الحرث والنسل، ومن علاماته ضياع الأمانة وتفكك الأسر وقطيعة الأرحام وإثارة الأحقاد وظلم المرأة واتباع الشهوات وفوضى العلاقات الجنسية! وختمت السورة بالتنبيه على استخلاف قادة النفاق وصناديد الشرك وأئمة الكفر والتحذير من الاغترار بهم فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ والكفر والنفاق صفتان لموصوف واحد له أحوال متعددة.

﴿سَنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ مناسبة الآية لما قبلها: أنه لما أمره تعالى بالتسبيح الذي هو تنزيهه عما وصفه به أئمة الكفر والنفاق من اتخاذ الأنداد والأولاد وما نسبوه من صفات النقص التي لا تليق بجلاله وكماله، بشره بأنه تعالى سيقرئه ويعلمه وفرّغ عليه النهي عن تعاطي أسباب النسيان، ولما كان سبحانه قد قضى أنه

سيرفع العلم أوماً إلى ذلك قوله **(إلا ما شاء الله)** ثم أتبعه التهديد لأئمة الكفر والنفاق **(إنه يعلم الجهر وما يخفى)** ولما ذكر تعالى هؤلاء الذين شدد عليهم أتبعه بذكر ما منَّ به من العودة إلى الاهتداء والهداية والتوفيق للشرعية المحمدية السهلة والحنيفية السمحة **(ونيسرك ليسرى)** ولما أكمل الدين وهياه للأيسر ويسره غاية التيسير، سبب عنه وجوب التذكير لكل أحد في كل حالة وأشار إلى أن السالك يحتاج إلى العلم والتزكية من المشايخ فقال **(فذكر إن نفعت الذكرى)** ثم قسم الناس إلى قسمين: قسم يقبل العلاج وقسم لا يقبله وأوضح أنه سبحانه وتعالى عالم بكل من القسمين...

سورة النور

مقصود السورة مدلول اسمها المودع قلبها المراد منه بيان شرف المصطفى ورفيع منزلته وكرامته على ربه وغاية النزاهة والشرف والطهارة لأمة المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي مات النبي ﷺ وهو عنها راض وماتت هي رضي الله عنها صالحة محسنة، وهذا هو المقصود بالذات - والله أعلم - ولو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكفى بها فضلاً **(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون)** والتذكير مفيد للفخامة من حيث الذات كما أن الإنزال مفيد لها من حيث الصفة أي أنزلناها من عالم القدس بواسطة جبريل وأوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً وأنزلنا في تضعيفها آيات بينات وهي الآيات الفاضحة لأهل الكتاب المظهرين الإيمان المبطنين للكفر المجاهرين بالزنا وبذلك استأنف وصفهم بأوصاف توجب التنفير عما اعتادوه، والتحذير من مثل ما ارتكبهوه، والتخلق بضد ما فعلوه

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) والآية الجليلة تتضمن النهي عن نكاح الكتابيات وللعلماء فيها بحث طويل نقتصر على الغرض الأسمى وهو التنفير من أفعال أهل الكتاب والتعريض بالتحذير من الوقوع في حبائلهم وكبائثهم لأنهم رأس كل شر وفساد، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم والمدينة غالية السعر شديدة الجهد وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب وإماء لبعض الأنصار قد رفعت كل امرأة منهن على بابها علامة لتعرف أنها زانية وكن من أحصب أهل المدينة وأكثرهم خيراً فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي فيهم من الجهد فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من فضول ما يكتسبن فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا: يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن فأنزل الله تعالى الآية. ثم استطرد معرضاً بذكر نوع آخر من قبائحهم فقال (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) وقد نزلت بسبب قصة الإفك التي تولى كبرها اليهود لعنهم الله، حين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة التي خُدع فيها بعض المسلمين كحمنة وحسان ومسطح، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة اللعينة التي كانت تتوارى خلف ابن سلول، كما تتوارى اليوم خلف

الجنوس! ويجسم المقام هذه الجريمة ويشعها... جريمة تتمثل فيها الخسة، ومن ثم عاجل الله لهم باللعة في الدنيا والآخرة... وهذه الجريمة ليست الأولى بل تاريخهم حافل بالمخازي والفري على أنبيائهم، وقد رموا مريم بمثل ذلك كما يقتضيه قوله **(ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم)** أي وشبهاً من أحوالهم بقذفهم مريم عليها السلام. وسورة النور نور يتلأل... نور يشع على بيت النبوة... وأئنا عائشة رضي الله عنها نور في كل بيت... ومن قذفها فهو كافر ويجب قتله ولا تقبل توبته. وكان ﷺ يحبها حباً شديداً حتى لا يكاد يصبر عنها فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته كما جاء في مسند الإمام أحمد أنه ﷺ قال: **«إنه ليهون علي الموت أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة»** فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة وقد سأله ﷺ عمرو بن العاص قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ فقال: **«عائشة»** قال: قلت: من الرجال؟ قال: **«أبوها»** قال: قلت: ثم من؟ قال: **«عمر»**. والسورة تحدثنا عن أضخم معركة خاضها سيد الخلق وأكرم الرسل صاحب المقام المحمود والحوض المورود عليه الصلاة والسلام وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه، وتتلخص القصة في قوله تعالى **(هذا إفك مبين)** والسورة اشتملت على أحكام الاستئذان وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة، والتحريض على التزويج ومكاتبة العبيد وتحريم البغاء، وضرب المثل لهدي الإيمان والتنويه ببيوت الله والقائمين فيها فذكر تعالى حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم وأنهم في الدنيا يكونون على نور من ربهم وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم ثم

أعقب ذلك بالإخبار عن أضدادهم الذين اتبعوا الباطل فحالت جباله الوعرة الشاخنة بين أبصار بصائرهم وبين تلك الأنوار بضد حالهم فقال ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ فمثل لهم ولأعمالهم مثلين: أحدهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة وأنها لا تنفعهم بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. والثاني: يقتضي حال أعمالهم في الدنيا وأنها في غاية الفساد والضلال فشبهها في ظلمتها وسوادها وخلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، والتمثيل في الآية صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها فعقائدهم تشبه الظلمات، وأعمالهم التي اقتحموها تشبه البحر اللجي، وما يخالط أعمالهم الحسنة من الإشراك بالعبادة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأول، وما يخالطها من الإشراك في الحكم يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلل والإفساد وهو الموج الثاني، وما هم عليه من النفاق يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم، وتطلبهم الانتفاع من عملهم يشبه إخراج الماخريده لإصلاح أمر سفينته أو تناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريد تناوله. ولما وصف تعالى ضلالتهم بأنها في نهاية الظلمة أردفها بقوله ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ والمقصود من ذلك والله أعلم أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان وظلمة الطريق لا تمنع منه فإن الكل مربوط بمشيئة الله تعالى وهدايته وتكوينه، وبالجملة من لم يصبه

رشاش النور الإلهي فما له من نور يخرج منه تلك الظلمات. ثم تخلل الكلام وصف عظمته تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس، وعاد إلى ذكر الكفار القائلين آمنا بالله وبالرسل وأطعنا، المتسللين لواداً، وذكر مجافاتهم للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم **(ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون)** وهذا إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان لا الفريق المتولي وحده، وإذا دعوا إلى الله ورسوله المستخلف منه سبحانه النائب عنه بإذنه ليحكم بينهم لأنه المباشرة حقيقة للحكم وإن كان ذلك حكم الله حقيقة - وذكر الله تعالى لتفخيم الرسول الجليل الأعظم ﷺ والإيذان بجلالة قدره عنده - فاجئوا إلى الإعراض والانصراف عن حكم الله وحكم رسوله لكون الحق عليهم وإن يكن لهم الحق على غيرهم يأتوا إليه مذعنين طلباً لحقهم لا رضاءً بحكم رسولهم، ولما كان هذا شأنًا عجيباً استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على ما انطوا عليه من أحوال النفاق الخفية **(أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون)** واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلت به قضية ومن لم تحل، وبل للإضراب الانتقالي كأنه قيل: دع التقسيم فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف فلذلك صدوا عن حكومتك، ثم ذكر سبحانه ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن وأردف بحكاية بعض أكاذيبهم

المؤكد بالآيمان الفاجرة الدالة على خداعهم واستهزائهم فقال ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي أقسموا بالله ترويحاً لنفاقهم وتغريراً للمؤمنين مبالغين مغلظين في أيمانهم لئِنْ أَمَرْتَهُمْ بالخروج من أموالهم والجلءاء عن ديارهم ليخرجن عنها بلا مطل وتسويق ممثلين لأمرك مطيعين لحكمك وما هذا الا من غاية تلييسهم ونهاية نفاقهم وتغريهم، والنهي عن القسم من قبيل التهكم، ولما نبه على خداعهم أمر بتغريبهم وترهيبهم فقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وهذا تبكيت لهم ليعلموا أنهم لا يضرون بتوليهم إلا أنفسهم، ثم بيّن تعالى أن تمكّن الدين غير مفتقر إليهم سواء أقبلوا أو أدبروا، ووعد سبحانه مؤمني هذه الأمة بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل خوفهم بالأمن، ووعد الله عز وجل واقع لا محالة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ وفي هذا وعد لطيف وإنهاء شريف إلى أن الأمة المحمدية سيقام بها ملك عتيد كما أقيم لمن قبلها... قال الإمام الطبري: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها "كما استخلف الذين من قبلهم" يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل إذ أهلك الجبابرة بالشام وجعلهم ملوكها وسكانها. اهـ. ثم أشار الحق إلى عودة قادة النفاق إلى الكفر برفقة الدجال فقال ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم عرض بهم أمراً بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول المعظم ﷺ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وأطيعوا الرسول لعلمكم ترحمون) ولما كان الكفار من القوة بمكان، كان الحال جديراً بتوهين أمرهم (ولا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) ثم ذكر سبحانه أمر الاستئذان على الوجه الأبلغ وذيل السورة بالأمر بتوقير سيد الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات وأمر العباد أن يدعوه بأشرف أسمائه ولا يجعلوا مخاطبته في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض فإن سيرة الجفاة كانت على غاية البداوة وقلة الاهتبال.

الله نور السماوات والأرض

لما ذكر تعالى إنزاله لآيات القرآن وما أودعها من الأدلة اللاتحة على السنن الأقوم والنظم المحكم أتبع ذلك بالامتنان بأن الله هو مكوّن أصول الهداية العامة والمعارف الشاملة للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق، وفي هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته ما لا يخفى... وأحسن ما يفسّر به قوله (الله نور السماوات والأرض) أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة القيمة والحجة القائمة والمرشد إلى السعادات الأبدية في العوالم العلوية والسفلية (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) والنبي ﷺ هو النور الذي قال "مثل نوره" لأنه ﷺ هو المرشد والمبين والناقل عن الله ما هو نير كما قال تعالى "قد جاءكم من الله نور" فإن النور عبارة عن الظهور وقد انكشف به الحقائق الإلهية والأسرار الأحدية والأستار الصمدية وبه أشرقت

الكائنات وخرجت عن حيز الظلمات، والشجرة هي شجرة الوحي الحمدي الذي جاء بما فيه سعادة الدنيا والآخرة وفلاحها ونجاحها فسيدنا محمد ﷺ هو المصباح الذي تستمد من نوره مصابيح القلوب والعقول والمدارك والأفكار والأرواح والأشباح كل على حسب قابليته واستعداده ولذلك سماه الله ووصفه بأنه سراج منير أي يفيض النور فالمتبعون له هم المشاؤون على النور والهدى في جميع الأمور. قال مولاي وسيدي وقرة عيني الإمام الرواس قدس سره الغالي: فمشكاة جسمه - ﷺ - ومصباح قلبه وزجاجة عقله وكوكب سره المتوقد من شجرة النور الممدود من نور ربه، نور على نور، الضمير البارز المستور في النور الثاني الآخر المضروب به الأمثال في عالم المثال، من نورت يا الله بنوره ملكوت سمواتك وأرضك مثل نوره كمشكاة فيها مصباح من نوره المصباح في زجاجة أجساد أنبيائك ورسلك الزجاجة كأنها كوكب دري سره يوقد من شجرة أصله النور الذي هو من فيض أسمائك نور على نور يهدي الله لنوره بنور محمد ﷺ من يشاء من خلقه ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم. اهـ.

وجائز أن يكون النور هو الكتاب المبين مثله في إنارة عقول المهتدين كمشكاة فيها مصباح... والكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به الأنوار، وهذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابهاً لجزء من الهيئة المشبه بها، فالمشكاة يشبهها ما في الإرشاد الإلهي في التأويل والتفسير، والمصباح يشبهه ما في الإرشاد النبوي في الإيضاح والتبصير، وسلامتهما من أن يطرقهما الشك واللبس يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه، والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة يشبه الكوكب الدري، ودوام ذلك الإرشاد

وتجده يشبه الإيقاد من الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد، وسماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق فهو وسط بين الشدة المخرجة وبين اللين المفرط، وإرشاد العلماء ببيان القرآن يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة ويومئ إلى استمرار هذا الإرشاد، واجتهادهم في بيان السنة على مرور الأزمنة يشبه استخراج الزيت من ثمر الشجرة واعتصار الثمرة... ووصف الزيتون بالمباركة لأنها من شجر الشام وهي أصل منبت شجرة الزيتون في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها، وضرب المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به الملة الحنيفية، ليست يهودية ولا نصرانية، ثم أخبر سبحانه عن هذا النور الذي اكتسبه العلماء بفضلته تعالى وأنه بيانٌ أضافه إلى برهانهم وعيانٌ أضافه إلى استدلالهم، فهو نور على نور... فحصل تمثيل حال الكتاب المنزل من الله في بيانه وسرعة فشوه في الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حَفَّ به من أسباب قوة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به... وقال الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني قدس سره النوراني: ذكر سبحانه النور الذي أظهر به وجود الأكوان والنور الذي أضاء به القلوب بالإيمان: فالأول أشار إليه بقوله سبحانه **(الله نور السماوات والأرض)** فهو سبحانه الذي أفاض على السموات والأرض ومن فيهن نور الوجود فأظهرها من ظلمة العدم الإمكانية فمعنى أنه سبحانه هو نورها أي به ظهورها فإن النور هو ما كان ظاهراً بنفسه ومُظهراً لغيره... وأما النور الذي أضاء به القلوب بالإيمان والمعرفة فهو المذكور في قوله تعالى **(مثل نوره كمشكاة)** وقد جاء عن أبي بن كعب وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتابعين قالوا: مثل نور الله تعالى في قلب عبده المؤمن كمشكاة فيها مصباح، وإن أول القلوب

استنارة بهذا النور وأوسع القلوب إشراقاً بهذا النور هو قلب سيد العالمين وإمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ الذي أفاض الله تعالى عليه ما أفاض وأعطاه ما أعطاه من قبل أن يخلق آدم عليه السلام... إلخ. وقال كثير من المحققين والعارفين: إن المراد بالمشكاة هو صدر سيدنا محمد ﷺ، والزجاجة هي قلبه الشريف، والمصباح هو النور الإيماني الحمدي الذي أفاضه الله تعالى وأمدّه به منذ كان في العوالم السابقة: عالم الذر وعالم الأرواح وما هنالك وهو لا يزال ﷺ يمدّه الله تعالى بمدّه الأعظم ويفيض عليه من الأنوار والأسرار على وجه لا يحصى عدداً ولا ينقطع أبداً. وحكى الإمام الطبري في تفسيره عن كعب وسعيد بن جبير أن الهاء في قوله **(مثل نوره)** لسيدنا النبي ﷺ كما حكاه الإمام الماتريدي في تفسيره عن مجاهد. وقد جاء إطلاق النور عليه ﷺ في قوله تعالى **(قد جاءكم من الله نور)** ولذلك لم يقع له ﷺ ظل على الأرض ولا رؤي له ظل في شمس ولا قمر لأنه كان نوراً كله، قال رزين: لغلبة أنواره، وروى ابن المبارك وابن الجوزي عن ابن عباس قال: لم يكن للنبي ﷺ ظل، ولم يقم مع الشمس قط إلا غلب ضوءه ضوء الشمس، ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوءه ضوء السراج. وقد وصفه تعالى بالسراج المنير في قوله **(وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)** فسيدنا محمد ﷺ هو السراج المنير المنور للعوالم كلها الذي لا يُستغنى عنه لا في الليل ولا في النهار نور الأرواح والقلوب والعقول والمدارك وكما أن الأبصار العينية لا ينتفع صاحبها إلا إذا مشت على نور خارجي يضيء لها فكذلك العقول البشرية لا تنفع صاحبها إلا إذا مشت على نور الشمس المحمدية، والمراد من الآية الكريمة كونه هادياً مبيناً كالسراج الذي يُري الطريق ويبين الهدى والرشاد وما ذاك إلا لقوة النور الذي جاء به ﷺ وجلائه وبهائه وظهوره وعمومه، فبيانه

أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، وإذا كانت الشمس في عالم الأجسام ينتفع منها الناس بنسبة محدودة ويستغنون عنها مدة مديدة فإن الشمس المحمدية تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية في سائر الأوقات الزمنية.

ثم بعد هذا أنوار التوحيد سطعت على الأكوان، وشمس التجريد أشرقت على الأعيان، فليس يحجبها سحب ولا يغشاها ضباب.

قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم

اعلم أيها الشاهد أن النبي ﷺ لما أورد عليهم أنواع الدلائل وانقطعوا ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وأبوا، دعوا إلى أيسر من ذلك وهي الكلمة السواء... والخطاب لأهل الكتاب من بني إسرائيل بالأصالة وغيرهم ممن دخل في دينهم قبل التبديل كقيصر الروم مندرج بالتبع... و"الكلمة" هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها وهي ما اجتمعت عليه الكتب واتفقت عليه الرسل ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يقف أمامها الجميع ولا يأبأها إلا متعنت مفسد؛ واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب: أعلاها اعتقادهم في عزيز والمسيح الربوبية وعبادتهم لهم على ذلك، وأدنى ذلك طاعتهم لأحبارهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً ولا معنى للربوبية إلا ذلك، فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله وأن يكون الممثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم أمر تعالى في حال توليهم بالإعلان بالمباينة لهم ومواجهتهم بذلك وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

اشهدوا بأنا مسلمون) أي سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون. وقد أبطل الإسلام ربوبية الملوك وربوبية رجال الدين الذين بتكوا أصول التوحيد ثم وضعوا أنفسهم موضع الإله بصياغتهم عقائد البشرية وأنجوا الديانات الباطلة والفرق والمذاهب والحركات الهدامة! ثم انتقل من دعوتهم إلى محاجتهم (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) ومناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى هذا الكلام نشأت من قوله "فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" لأن أهل الكتاب ادَّعوا أنه كان منهم وأنه كان يدين دينهم فعابهم الله عز وجل بادعائهم ذلك ودل على مناقضتهم فقال: كيف تدعون أنه كان على ملتكم ودينكم؟ ودينكم اليهودية والنصرانية! والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد حينٍ من وفاة إبراهيم ودين إبراهيم الإسلام "إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين" فما وجه اختصامكم فيه وادعائكم أنه منكم والأمر فيه على ما قد علمتم؟ وقد استفيد من التقرير في قوله (لم تحاجون في إبراهيم) وفي قوله (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) أنه لا علم لهم بصحف إبراهيم وبدعوة إبراهيم وبدين إبراهيم، والاستفهام مقصود منه التنبيه على الغلط. ومحاجتهم هي ما يلبسوه به على الناس بسبب الشبهات التي يوردونها لإدخال الشك عليهم في اتباع الملة الحنيفية! وجيء بذكر إبراهيم عقب ذكر عيسى لاتحاد مضمون الرسالتين وللتنبيه على دخائل أحوال أهل الكتاب واجتهادهم في إضلال المسلمين. ومعنى قوله (ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم) أي: خاصمتم وخالفتم، والاحتجاج في كلام العرب هو إتيان المحتج بما يظنه حجة ولو مغالطة يقال: احتج إذا أتى بما يظنه حجة، وإطلاق الحجة على الشبهة مجاز لأنها تُورَد في صورتها ومنه قوله تعالى (حجتهم

داحضة عند ربهم) فمعنى قوله (ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم) يفيد الخصام بباطل أي: أنتم خاصتم خصاماً باطلاً وخالفتم فيما لكم به علم في التوراة والإنجيل فلم تغالبون بما تزعمون أنه حجة وهو لا يستحق أن يسمى شبهة فضلاً عن أن يكون حجة (فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم) يعني الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه ولم تجدوه في كتب الله ولا أتتكم به أنبياءكم ولا شاهدتموه فتعلموه، وقوله (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) يدل على أن الله أنبأ في القرآن بأنه أرسل محمداً ﷺ بالإسلام دين إبراهيم وهو أعلم منكم بذلك وأنتم لا تعلمون ذلك، وهذا كقوله في سورة البقرة "أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله" وقد نفى الله عز وجل عن إبراهيم ما عليه المتعنتون المنافقون من اليهودية والنصرانية وأثبت أنه كان حنيفاً - يعني منحرفاً عن الشرك مائلاً منياً إلى الله - مسلماً - يعني سالماً من الشرك مستسلاً لأمر الله مسلماً زمامه إلى الله (وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) وشيئه قوله تعالى (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون) والإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء ﷺ هو الذي كان جاء به إبراهيم عليه السلام لا ما قاله قرنا الشيطان "كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا" فإن إبراهيم لم يكن وهابياً ولا سعودياً وإنما جاء بالتوحيد وأعلنه إعلاناً لم يترك للشرك مسلكاً إلى نفوس الغافلين وأقام هيكلًا وهو الكعبة أول بيت وضع للناس وفرض حجّه على الناس ارتباطاً بمغزاه وأعلن تمام العبودية لله تعالى بقوله "ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي

شيئا" وأخلص القول والعمل لله تعالى فقال "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا" وتطلب الهدى بقوله "ربنا واجعلنا مسلمين لك" ويقوله "وأرنا مناسكنا وتب علينا" وتصدى للاحتجاج على الوحدانية وصفات الله "قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" وكل ذلك لا يبغي شكاً في أن الإسلام هو إسلام إبراهيم، وعطف قوله "وما كان من المشركين" لייأس أتباع بني إسرائيل من أن يكونوا على ملة إبراهيم وحتى لا يتوهم متوهم أن القصر المستفاد من قوله "ولكن حنيفا مسلما" قصر إضافي بالنسبة لليهودية والنصرانية. وفي الآية تعريض بأنهم في غاية العناد والخلافة واليبس في التمسك بالمألوفات وترك ما أتاهم من واضح الأدلة وقاطع الحجج البينات. ثم بين تعالى أن أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم للذين اتبعوه أي في دينه من أمته وكل من جاء من بعده من الأنبياء من أولاده وأتباعه في أصل التوحيد وتجريد التوكل وتفويض التفريد، وهذا النبي المبعوث المتبوع من شيعته المنشعب من أهل بيته وزمرته والذين آمنوا به وبكتابه المهيمن على عموم الكتب السالفة المبين لطريق الوحدانية... روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي أبي وخليل ري، ثم قرأ: إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» ونظير هذا المعنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والأمر باتباع الملة لا اتباع إبراهيم عليه السلام يدل على أنه ﷺ ليس بتابع له بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عليه السلام عنه فهو ﷺ مأمور باتباع الدين لأن أصله من الله تعالى لا باتباع أحد من الأنبياء وهذا واضح من قوله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم

في البعث» والأحسن من ذلك أن يكون الكلام في الآية الكريمة جرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ على طريقة الإدماج فكل ما جاء في القرآن من نذارة، إلى النبي صاحب البشارة، كن لبياً وافهم الإشارة، إياك أعني واسمعي يا جارة... فإن من فتوات الأرسال، تحملهم عن الخلق أعباء الخطابات الثقال... وقد تضمنت حادثة الإسراء والمعراج من خصائصه ﷺ وانطوت على ما حصل منه المنصوص في الصحيح والمجمع عليه ما يدل على أنه الإمام الأعظم والنبي الأكرم المقدم، وهو ﷺ كذلك أقرب الناس بعيسى من جهة قرب زمانه من زمانه واتصال دعوته بدعوته كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي»** والذين اتبعوه هم الذين اتبعوا الرسول النبي الأمي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل **(وَجَاعَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)** وهم المتبعون لسيدنا محمد رسول الإسلام الداعون إلى دين الإسلام المقام على أساس ربوبية الرحمن كما جاء على لسان خليل الرحمن **(قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ)** وفي هذا المعنى قوله تعالى **(وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ)** قال الأخفش: الربيون منسوبون إلى الرب. قلت: من حيث أنهم علماء بكتابه مجاهدون لتقرير ربوبيته عز وجل، قال الخليل: الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نُسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية لله تعالى والله أعلم. وقال الزجاج: ربيون بكسر الراء وضمها وهم الجماعة الكثيرة. وقيل: الربيون العلماء الأتقياء الصبر. وقرئ **(وَقُتِلَ)** بحذف الألف وضم القاف وكسر التاء، وهذا النموذج الذي وضعه الله قدوة لمن استخلفهم اليوم في هذا الملك العريض كما ورد في الآية 54 من سورة البقرة، والآية 111 من

سورة التوبة، وقد حكى المولى سبحانه عن صاحب الجنتين إشراكه برؤية الله والذي من جملة معتقداته إنكار البعث فأنكر عليه صاحبه ثم أكد له إثبات اعترافه بتوحيد الربوبية بمؤكدات أربعة **(لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً)** وهي: الجملتان الإسميتان، وضمير الشأن في قوله "لكننا هو الله ربي" وتعريف المسند والمسند إليه في قوله "الله ربي" المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم قصراً إضافياً بالنسبة لمخاطبه وهذا القصر تأكيد مضاعف، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله **(ولا أشرك بربي أحداً)**.

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب) أي قل لهم في مقر التوحيد معرضاً عن قشور التقليد: إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب، ثم أعرض عن الوهاية المتشبهين بأذيال السلفية المزيفة التي زوّرتهم أحلامهم السخيفة وحرّفتها أقلامهم الخبيثة وشوّهتها رسائلهم المموهة بتمويهات الأوهام الباطلة الشيطانية، وها هم أولاء في البيت الحرام يخرجون عن مسالك التوحيد ويتمردون عن ربة الإيمان فيعقدون الدروس والدورات لتعليم الناس كتب الضلالة والكذب والبهتان! ويدّعون أنهم ورثة إبراهيم كذباً على الله ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح! وقد طالب الحق بني إسرائيل فيما ادعوه بكتاب الله تعالى ثم فرّغ عليه قوله **(فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون)** وهذا نهاية لتسجيل كذبهم أي من استمر على الكذب على الله بعد أن جعلنا التوراة فيصلاً بيننا فأولئك هم الظالمون واسم الإشارة مقصود منه تمييز المشار إليه أكمل تمييز وهو من يفترى الكذب على الله اهتماماً بإيقاع وصف الظالمين عليهم وصيغة الحصر للمبالغة بمعنى أن ظلم غيرهم كلا ظلم بالنسبة لعظمة ظلمهم! ونظيره قوله سبحانه **(إنما**

يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) وجاء الرد عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرر المتجدد وأكد تعالى فعل الافتراء بمفعوله الذي هو بمعنى المفعول المطلق لكونه أثلاً إليه المعنى وعرف الكذب بأداة تعريف الجنس الدالة على تميز ماهية الجنس واستحضرها فإن تعريف اسم الجنس أقوى من تنكيهه وعبر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة ولأن للصلة أثراً في افتراءهم لما تفيد الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر ثم أردفت جملة القصر بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل وطريق تعريف المسند وهي جملة "وأولئك هم الكاذبون" وافتتحت باسم الإشارة بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة وهو قصرهم على الكذب لأن من لا يؤمن بآيات الله يتخذ الكذب ديدناً له متجدداً وجعل المسند في هذه الجملة معرفاً باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتحد بهم وصار منحصراً فيهم أي الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء واختير في الصلة صيغة "لا يؤمنون" لما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرّون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضد ذلك.

(كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) المعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة غير المطعم الواحد الذي حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه حين نذر لئن عافاه الله من مرضه أن يمتنع تطوعاً عن أحب شيء إلى نفسه، والكلام في الآية ردُّ عليهم وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم بما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم،

فادَّعُوا أَنْ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ كَانَ مُحَرَّمًا عَلَى إِسْرَائِيلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَكْذِيبًا لَهُمْ. وَغَرَضُهُمْ تَكْذِيبُ شَهَادَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالصَّدْعِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَكْلِ الرِّبَا وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَمَا عَدَدَ مِنْ مَسَاوِيهِمْ الَّتِي كُلَّمَا ارْتَكَبُوا مِنْهَا كَبِيرَةً حَرَّمَ عَلَيْهِمْ نَوْعَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ عَقُوبَةً لَهُمْ، وَفِي اسْتِدْعَاءِ التَّوْرَةِ مِنْهُمْ وَتَلَاوُحِهَا الْحُجَّةَ الْوَاضِحَةَ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كُتُبَهُمْ وَأَخَذَ يَحَاجُّهُمْ وَيَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِيهَا وَلَا يَجِدُونَ مِنْ إنْكَارِهِ مَحِصًا! وَالْجَامِعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا قَبْلُهَا وَمَا بَعْدُهَا أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ جُمْلًا مِنْ أَحْوَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ وَنَاسَبَ ذَلِكَ ذَكَرَ افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بَعْدَهَا ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أَيُّ الْأَمْرِ الصَّدَقُ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ لَا مَا افْتَرَوْهُ مِنَ الْكَذِبِ! ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَعَرَّضَ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِلَى أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ! وَلَمَّا أُلْزِمَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالذَّلِيلِ الَّذِي دَلَّ عَلَى نَسْخِ قَبْلَتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعَهَا بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهَا هِيَ مَا عَلَيْهِ السَّيِّدُ الْأَعْظَمُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَاتِّبَاعَهُ، أَخْبَرَ عَنْ الْبَيْتِ مُشِيرًا إِلَى اسْتِخْلَافِهِمْ فِيهِ مَبِينًا أَنَّهُ مُحَجَّجٌ آدَمَ وَسَائِرَ النَّبِيِّينَ وَمُحَجَّجٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُنْبِتٌ وَلَدَهُ وَمُحَجَّجٌ الْعَرَبَ عَلَى مَرِّ الْحَقِّبِ وَمَحَلُّ أَشْرَافِهَا وَذَوِي أخطَارِهَا عَلَى عَظَمِ شَأْنِهِمْ وَفَخَامَةِ أَمْرِهِمْ وَهُوَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ الْمُبَارَكُ الْمَحْجُوجُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ الَّذِي يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهِ وَقَدَمَهُ أَهْلُ الشَّرَفِ مِنْ مَضَى وَمَنْ خَلْفَ وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ وَلَهُ الْفَضْلُ الْمَشْهُورُ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ يُوَصِّلُهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَطْهِيرِ النَفُوسِ مِنْ خَبْثِ الشَّرِكِ لَوْ كُوشِفُوا بِسَرَائِرِ وَضْعِهِ وَتَشْرِيعِهِ ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ عِبَادَةٍ حَقَّةً وَضَعَ لِإِعْلَانِ التَّوْحِيدِ بِقَرِينَةٍ

المقام وذلك يوجب اتباع الملة المبنية على أسس ملة بانيه، وهذا المفاد من تفريع الأمر الذي وقعت منه الآية موقع التعليل ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وبيان وجه التعليل أن هذا البيت لما كان أول بيت وضع للهدى وإعلان توحيد الله ليكون علماً مشهوداً بالحسّ على معنى الوجدانية ونفي العقائد الشركية فقد كان جامعاً لدلائل الحنيفية المدركة بالأنوار المحمدية فإذا ثبت له شرف الأولوية ودوام الحرمة على ممر العصور، كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحل العناية من الله تعالى فدل على أن الدين الذي قارن إقامته هو الدين المراد من قول الله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وهم يعترفون بأصالة دين إبراهيم ﷺ فيلزمهم الالتزام بملته واتباع دينه، ورصف الآية فيه تعريض لا يخفى ببني إسرائيل، وجملة ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ استئناف ثناء على البيت بما حفّ به من الفضائل والمناقب والمزايا، وأشار بقوله ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى مقامه في التوحيد والحنيفية وبعده عن الإشراك.

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً

الملاحظ في هذا التعميم الشامل في فرضية الحج ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ دون قوله: على المسلمين، أن هذا الحج مكتوب على أهل الكتاب - فهم أنفسهم مطالبون بالحج إلى البيت الذي مكنهم الله فيه - فإنه تعالى لما أخبر سبحانه عن عظيم اجترائهم على الكذب طالبهم باتباع الملة الإبراهيمية المدركة بالأنوار المحمدية والسير خلف العترة النبوية ورد الأمانة إلى الأسر القرشية والركوع مع الأمة المحمدية وإلا فهو الكفر الصريح ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن زيد: ومن كفر بهذه الآيات التي ذكرها الله تعالى في قوله "فيه آيات بينات" وقال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم

فخطبهم وقال: «إن الله عز وجل كتب عليكم الحج فحجوا» فأمن به المسلمون وكفر به الباقون، فأنزل الله قوله "ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" ولما أورد تعالى شبهات القوم فيما يتعلق بإنكار النسخ ووجوب حج البيت عند هذا كمل الجواب بعد بيان فضائل الكعبة عن شبهات أرباب الضلال فخطبهم مبيناً أنهم عالمين بأن هذا هو الدين الحق مصرحاً بكفرهم ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ والاستفهام وعظي أمر فيه المولى رسوله عليه الصلاة والسلام بالصدع والإنكار على أهل الكتاب وهو موصول بما تقدم من قوله "فيه آيات بينات" واعلم أن المبطل إما أن يكون ضالاً فقط وإما أن يكون مع كونه ضالاً يكون مضلاً والقوم كانوا موصوفين بالأمرين جميعاً فبدأ تعالى بالإنكار عليهم في الصفة الأولى وبين معرفتهم بما في كتبهم من الآيات الدالة على التوحيد وأصل النبوة ثم إنه تعالى لما أنكر عليهم في ضلالهم استفهمهم على جهة التوبيخ صدودهم عن الملة السمحاء وابتغاءهم السبيل العوجاء ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾ وسبيل الله هو السبيل الحمدي الذي لا سبيل في الحقيقة غيره إذ ييغون له اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة بإيهاهمهم على الناس أنهم على الحق تنفيقاً لتحريفهم وتقويماً لدعاويهم الباطلة، والعوج يعني به الزيغ والتحريف أي تلتمسون لسبيله الزيغ والتحريف بالشبه التي توردها على الضعفة فتخادعون المؤمنين وتوهمونهم أنكم أهل التوحيد بينما الحقيقة عكس ذلك إذ أشركتم بالله تعالى وصددتم الناس عن بيته الحرام! والصد - كما تقدم - محمول على الاستيلاء والتسلط والسيطرة والمنازعة في الأمر وإلا فإن أصحاب ميثاق الدرعية لا يمنعون أحداً من حج

البيت ما دام مقرّاً بسيادتهم ومنتمياً بالولاء لهم! ويحتمل أن يكون عوجاً في موضع الحال والمعنى: تبغونها ضالين وذلك أنهم يدعون أنهم على دين الله وسبيله فقال الله تعالى: إنكم تبغون سبيل الله ضالين تكفرون بآيات الله وتشهدون على أعمالكم بالكفر والإفساد والإضلال، ويسجل الله عليهم معرفتهم بالحق **(وأنتم شهداء)** يعني أنتم شهداء أن في كتبكم حقيقة الوجدانية ومكانة سيد البشرية مما يجزم بأنهم على يقين من صلاح ما يصدون الناس عنه من أمر سيد الأنام الذي جاء بدين الإسلام وهو أمر بشع مستنكر لا يستحق فاعله إلا المهانة والتهديد **(وما الله بغافل عما تعملون)** وهي حقيقة من شأنها أن تزههم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه، ثم إن المخدوعين بالحفاة العراة يسقط هذا الخداع عنهم وهم يرون الله سبحانه يعلن حقيقة أهل الكتاب ويدمغهم بالكفر الكامل الصريح فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب، وليس هذا فحسب بل يستتبع المولى سبحانه بالتحذير من طاعة هؤلاء المستهزين ويجعل طاعتهم ارتداداً على الأعقاب فإنه تعالى لما وبخ سبحانه أهل الكتاب في الآية الأولى على كفرهم وإغوائهم وإضلالهم وأقام الحجج عليهم وأزال شبهاتهم خاطب المؤمنين في الآية التالية محذراً لهم من إغواء أهل الكتاب وإضلالهم مانعاً عن الالتفات إلى قولهم مبيناً لهم أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم لأنهم دعاة فتنة وعمال إفساد وأنصار باطل فقال **(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)** وموقع الآية عقيب ذكر الحج فيه تحريضاً على تطهير البيت ومشاركة المشركين في مناسك الحج، والسورة نزلت سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله ﷺ إلا بعد فتح مكة حيث أمر عتاب بن أسيد سنة ثمان حين ولاه مكة أن يقيم الحج للناس وبعث أبا بكر الصديق سنة تسع فأقام الحج

للناس وحج ﷺ سنة عشر من الهجرة النبوية على صاحبها أزكى سلام
وتحية... وفي الآية تحذير هائل شديد من فتنة أهل الكتاب، والتحذير بهذه
الصورة يلهب الضمير ويوقظه بشدة لصوت النذير، ويا لها من خسارة أن يكفر
المؤمنون بعد إيمانهم وآيات الله تتلى عليهم ورسوله فيهم ودواعي الإيمان حاضرة
والدعوة إلى الإيمان قائمة ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا
النور ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ والكتاب
باق على وجه الدهر، وأما النبي ﷺ فإن نور سره باق بين عترته وورثته يقومون
مقامه... وقد نبه تعالى على أن المقصد الأقصى لأهل الكتاب أن يردوا المسلمين
عن دينهم ثم أرشدهم إلى أنه يجب أن لا يلتفتوا إلى قول أعدائهم بل الواجب
أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها منهم إلى الرسول الأعظم ﷺ حتى يكشف
عنها ويزيل وجه الشبهة فيها... وحكى بعضهم أن من العواصم من الكفر تعلق
القلب برسول الله ﷺ. وطريق العصمة بين ولواء العصمة مرفوع ﴿ومن يعتصم
بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ والاعتصام بالله استعارة للتمسك بكتابه
واتباع رسوله، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن بعضهم في تفسير قوله تعالى
﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أنه محمد ﷺ. لأنه العقد الوثيق المحكم في الدين
والسبب الموصل لرب العالمين، ففيه استعارة تصريحية تمثيلية لأن من اتبعه لا يقع
في هوة الضلال كما أن من مسك حبلاً متيناً صعد به من حضيض المهالك،
والاستمسك ترشيح... ثم بين الحق تعالى عظم شأن هذا الكتاب الحكيم في
كشفه عن ضمائر المنافقين وإخباره عن أحوالهم فإنه تعالى لما حذر المؤمنين من
إضلال الأئمة المضلين ومن تلبسائهم، أمر المؤمنين بمجامع الطاعات ومعاهد
الخيرات وهي تقوى الله كما يحق أن يُتقى والاعتصام بحبل الله المتين وهو

الكتاب المبين الكاشف عن أحوال المنافقين (ويا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) روى البزار في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» قال: قلت فما المخرج منها رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من يرد من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيج به الأهواء ولا تشيع منه العلماء ولا يخلق عن رد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم».

الفصل الثاني: سورة النساء

فقاتلوا أولياء الشيطان

لما كان الشيطان هو الداعي إلى قطيعة الأرحام وأكل ميراث الأيتام وإشاعة الفواحش بين الأنعام وجعل شركاء لذي الجلال والإكرام جاءت سورة النساء مخدرة من اتباعه محرضة على قتال أوليائه المعبر عنهم في الأحاديث المتواترة الصحاح بـ«**قرن الشيطان**» ووجه تسميتها بسورة النساء أنها افتتحت وختمت بأحكام تخص النساء، وتسمى بسورة النساء الكبرى أو الطولى، كما تسمى سورة الطلاق بسورة النساء الصغرى أو القصوى. وقد اشتركت السورتان في بيان أحكام المرأة التي تُبنى عليها الأسرة والتي هي نواة المجتمع كله بل الحياة بأسرها، وأوصى ﷺ بها خيراً كما جاء في الحديث المتفق عليه: «**استوصوا بالنساء خيراً**» والاستيلاء قبول الوصية والمعنى أوصيكم بهن خيراً فاقبلوا وصيتي فيهن، وإن فساد الأمة تابع لفساد الأسرة كما أشارت الآيات ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسَلَهُ فَحَاسِبْنَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَكَرًا، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا، رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وهذا أحسن أنواع الترتيب فإنه تعالى ذكر في مطلع السورة أحكام النساء من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان وأعقب ذلك بالموعدة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله كما ذكر سبحانه في أول سورة النساء أحكام النساء ثم أتبعها بشرح أحوال المنافقين الذين أفسدوا في الأرض

وابتدعوا العقائد الضالة والعوائد الفاسدة التي من حملتها الجور على النساء وظلمهن ففصل أحكامهم وكشف ولايتهم للشيطان وأمر بقتلهم واستقصى في ذلك ثم عاد بعد ذلك إلى بيان أحكام النساء فقال ﴿ويستفتونك في النساء﴾ الآيات، ثم قال ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا، والله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا﴾ وعادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه فإنه تعالى أدمج في أثناء الكلام عن الإشراف والتوحيد والخلافة والتفريد؛ الوصية بالنساء وجل مقصوده بيان ارتباط الآيات بعضها ببعض حتى أن كل آية تكون آخذة بحجرة ما أمامها متصلة بها وذلك هو المقصود من القرآن وسره ولبابه الذي هو بمنزلة الروح وكل آية على حيالها بمنزلة الجسد يدرك ذلك من يذوق ويفهم ويسري ذهنه في ميادين التراكم ويعلم - والله تعالى أعلم - وفي قوله "من قبلكم" إشعار بأنهم من القوم الذين يرجع بنو إسرائيل إليهم بأنسابهم إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة "وإياكم" أي ووصيناكم يا أمة محمد في كتابكم... ولما حذر سبحانه من أهل الكتاب الذين يتبعون الشهوات ويبن أن الشيطان قرينهم وأخبر بخلهم وريائهم في الإنفاق وفي الصلاة مشعراً بطريق التعريض بصلاحتهم حال السكر والجنابة والحدث، قطع ببيان أحوالهم وأقاصيص تحريفاتهم وخفي نفاقهم فقال ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم

وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيرا لهم وأقوم
ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) ومن علامات الإعجاز في كتاب
الله أن هذه الألفاظ القرآنية التي نزلت لتواجه المعركة التي خاضها رسولنا عليه
الصلاة والسلام مع فتحاص وأشيع وزيد بن اللصيت وآزر بن أبي آزر ورفاعة
بن زيد بن التابوت وسلام بن أبي الحقيق ورافع بن حريملة... لا تزال بذاتها هي
هي توضح وتبين وتكشف لنا معركة اليوم مع فراخهم الحفاة العراة الذين
أغواهم الشيطان وزين له هواهم، وسلكهم سبيل الضلالة، وأرداهم في مهاوي
الهلكة بتحريف الكتاب ودفعه بأنواع المحال والحيدة عنه مما لم ينزل الله به من
سلطان، ولا عرفه أهل التأويل واللسان، ولا خطر على قلب عاقل بما يقتضيه
من برهان، ولا انشرح له صدر موحد عن فكر أو عيان، فاستحوذ عليهم
الشيطان، وأحاط بهم الخذلان، وأغواهم بعصيان الرحمن، حتى كابروا أنفسهم
بالزور والبهتان، وروى البيهقي عن النبي العدنان المبيّن للقرآن: «إن أخوف ما
أخاف عليكم بعدي منافق عالم اللسان» ولا تزال أهدافهم هي هي وإن
اختلفت وسائلها وأدواتها، والمراد بما أوتوه من الكتاب ما بيّن لهم فيه من العلوم
والأحكام وحقية الإسلام واتباع سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام،
والتعبير عن الكتاب بالنصيب باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به
فالذي لم يعملوا به منه كأهم لم يؤثروا وقد أوتوا الكتاب كله حقيقة باعتبار
كونه بين أيديهم، والكتاب هو القرآن المهيم على كل كتاب قبله يخبر عما فيه
من الحق ويصونه من العبث والتغيير... وهم لا يكتفون بضلال أنفسهم بل
يريدون بما فعلوا من التحريف أن يكون أهل الإسلام أيضاً ضالين الطريق
المستقيم الموصل إلى الحق! والتعبير بصيغة المضارع في الموضعين للإيذان

بالاستمرار التجديدي فإن تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه في قوة تجدد نفسه وتكرره وفي ذلك أيضاً من التشنيع ما لا يخفى، وقد نُزِلت حالة اشترائهم الضلالة منزلة المشاهد المرئي، يريدون إضلال المسلمين والتلبس عليهم لينخرطوا في سلوكهم فتحصل لهم الرياسة! فهم أهل ضلال وإضلال على نحو ما ورد في الخبر عن النبي الصادق الأبر: «أئمةٌ مضلين» وأصحاب نفاق وشقاق وتمويه يضلون الأنام ويحرفون الكلام، والتحريف هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى وصريحه إلى التأويل الباطل والانتحال الفاسد ووضعه في غير ما وُضع له وقد وُصفوا بشدة التمرد والطغيان وإظهار العداوة واشترائهم الضلالة ونقض الميثاق وقتل الأنبياء ألا ترى إلى قوله (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) فكأنهم لم يتركوا الكلم من التحريف عن ما يراد بها بل بادروا إلى تحريفها بأول وهلة، وها هم اليوم قد ترجموا القرآن إلى أربع وسبعين لغة! وليان قباحة هؤلاء الشياطين المستهزئين؛ أسوق ما كتبه محمد بن عبد الوهاب في الرسالة السابعة إلى عالم من أهل المدينة يقول فيها: فرأس الأمر عندنا وأساسه إخلاص الدين لله نقول ما يدعى إلا الله ولا ينذر إلا الله ولا يذبح قربان إلا الله ولا يخاف خوف الله إلا من الله فمن جعل من هذا شيئاً لغير الله فنقول هذا الشرك بالله الذي قال الله فيه (إن الله لا يغفر أن يشرك به)!!! وهذا أقبح أنواع الاستهزاء إذ نسبوا لله ولداً وأثبتوا له شريكاً ثم ادّعوا أنهم أهل التوحيد وانطلقوا إلى آيات نزلت فيهم وفي نظرائهم فجعلوها على المؤمنين! نعوذ بالله من الجراءة على الله وكلماته وتحريف آيات القرآن وبياناته، ولا أدري هل كان الحفاة العراة أحرص على الأمة المسلمة من رسول الله ﷺ وهو القائل كما جاء في الصحيحين: «وإني والله ما أخاف

عليكم أن تشركوا بعدي» وقد أفادت العبارة (يُحرفون الكلم عن مواضعه) أن مواضع الكلم مستقرة كتوحيد الربوبية أو المعبر عنه في الكتب السابقة بتوحيد الرب كما جاء في الإصحاح الثاني والأربعين من العهد القديم: «أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر» وفي الكلام الذي أوحاه الله إلى موسى في الإصحاح العشرين من سفر الخروج ما نصه: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» وجاء فيه: «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يرى من نطق باسمه باطلاً» فخالفوا هذه النصوص ونطقوا باسم الرب والإله ليطلوا حجج الحق وحرفوا معاني التوراة والإنجيل والقرآن، كما جاء في الرسالة الثالثة عشرة في توحيد العبادة لمحمد بن عبد الوهاب حيث قال: **واعلم أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ صفة إشراكهم أنهم يدعون الله ويدعون معه الأصنام والصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة... ثم قال: وعرفت أنهم لا يعرفون إلا التوحيد توحيد الكفار توحيد الربوبية... إلخ.** ومن مغالطات هذا الخبر أنه جعل توحيد الكفار توحيد الربوبية! وهذا كذبٌ قبيحٌ وزعمٌ باطلٌ ردّه الله عليه وأكذبه فيه وأثبت تعالى أن الكفار كفروا بالربوبية وحكى قول الكفار يوم القيامة **(تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين)** وقال تعالى **(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير)** وروى الحاكم في المستدرک عن قرّة بن إياس رضي الله عنه أنه لما كان يوم القادسية قال المغيرة بن شعبة للعلاج: كنا قوماً نعبد الحجارة والأوثان فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره ولا نعرف رباً... الحديث. وبذلك بطل ادّعاء الوهاية وطاح، واستبان الحق لباغيه ولاح، فإن جميع الرسل بعثت لتقرير هذا التوحيد باللسان العربي وما يُقال لسيدنا محمد

ﷺ إلا ما قد قيل للرسول من قبله كما جاء في التنزيل العزيز ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ والتعرض لعنوان الربوبية تأكيد لبيان ما ألدوا فيها، والإلحاد والتحريف في كلم القرآن المبين أو كلم الرسول الأمين لا يكون إلا في التأويل وغرضهم إضلال المسلمين والانخراط في سلكهم لتحصل لهم الرياسة ثم يصوبون طلقاتهم الماكرة ويوقعون العداوات بين الأمة تماماً كما أوقعوا بالأمس بين الأوس والخزرج عداوات تطاولت فتنتها عشرين ومائة سنة حتى افترق ملؤهم وقُتلت ساداتهم وكان آخرها يوم بعاث، وهؤلاء اليوم يواجهون الأمة بشتى المعسكرات الشرقية والغربية ويوقدون بينها الحروب للاستيلاء على أرضها واستغلال طاقاتها وقواها وغلاتها ويشرفون على عمليات القتل الوحشية وهم يقبعون في صياصيتهم يوحون إليها أن لا حيلة لهم في الأمر تارة، وأخرى أنهم يرضخون لضغط القوى الكبرى، وثالثة أنهم انسحبوا من مجلس الأمن في مسرحية ساخرة! وفي كلام الله درس لعلماء ودعاة الإسلام الذين يذودون عن الدين ليقوموا بواجبهم في إعداد الأمة للمعركة مع أعدائها المظهرين الإسلام لغرض الطعن فيه، فلسان حالهم ﴿سمعنا وعصينا﴾ مبالغة منهم في عتوهم في الكفر وجرياً على عادتهم مع الأنبياء، ألا ترى إلى قوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ ولسان مقالهم ﴿اسمع غير مسمع﴾ وهو قولٌ ذو وجهين ظاهره المدح أي اسمع غير مسمع مكروهاً، وباطنه السب أي اسمع غير مسمع محبوباً، فكانوا سخرية بالدين وهزواً بالرسول الأمين يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام، ونظيره قولهم ﴿راعنا﴾ وهو من ضروب تمويه الألفاظ كما جاء في آية البقرة عقيب آية السحر للدلالة على أن هذه الصناعة

ضرب من ضروب السحر...والسحرة الكبار هم الأخبار الذين يزحزون الكلمة عن موضعها ويلعبون في مشترك الدلالة لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، والليّ هو الفتل والقلب وأصله الانعطاف والانتشاء، وإنما كان قولهم طعناً في الدين لأنهم قلبوا دلالة معاني كلمات التوحيد والشرك! والمقصود من قوله ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم واقوم﴾ الاستجابة والتسليم وتغيير الحال وإصلاحه والله أعلم، فلو أنهم قالوا ﴿واسمع﴾ أي واسمع منا ما يسرّك بدل قولهم ﴿عصينا﴾ وقالوا ﴿وانظرنا﴾ أي زكّنا بنظرك بدل قولهم ﴿راعنا﴾ ولم يدسّوا تحت كلامهم شراً وفساداً لكان خيراً لهم وأقوم، وهذا من أبدع البلاغة فإن إصلاح المقال دليل على إصلاح الحال، وحُسن الخطاب من تمام الآداب وتمام الآداب هو السبب الموصل إلى عين الصواب ومن حرم الأدب حُرّم الخير كله ومن أُعطي الأدب فقد مُكّن من مفاتيح القلوب، وقد قيل: الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الدنيا والعقبى...وفي الآية التالية يخاطبهم تعالى بتهديد عنيف يليق بطبيعتهم الغليظة الجاسية القاسية ويعدّهم بزوال وجاهتهم وبرميهم بالمذلة بعد أن كانوا هناك أعزة ذوي مال وعدة ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلغنها كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي آمنوا بما نزلنا من الكتاب المشتمل على توحيدنا والتدين بالدين المنزل من عندنا، كما قال تعالى ﴿وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ والمراد من قوله ﴿نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ أي المسخ وتغيير الخلقة والله أعلم لأنهم غيروا الحق عن جهته وحرفوا الكلام عن موضعه وحجبوا قلوب

الخلق وأعينهم عن رؤية الحق! يخادعون المؤمنين بالحيل ويتقلبون في الدين
كتقلب القردة ومن شأن القردة المداهنة واللعب والبطالة! ويكبّون على الدنيا
كإكباب الخنازير ومن شأن الخنازير الإكباب على المزابل والعذرات لا تتأذى
بسوء رائحتها! ويخلون بسوء السريرة وطمأنينتهم إلى الشركاء، يستبشرون
بذكرهم ويركنون إليهم! رضوا بالقول دون الفعل فلما حلت اللعنة والسخطة
مُسَخَّ شَبَّانهم قردة وشيوخهم خنازير لكثرة ذنوب الشيوخ وتخفيف أمر الشبان
فإن القردة يبقى فيه نوع من المعرفة وصنف من المشاهدة بالجنس الإنساني، وجاء
في صحيح البخاري: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر
والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم يعني
الفقير لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غدا فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة
وخنازير إلى يوم القيامة» وقوله "من أمتي" أي فيما يزعمون أو فيما يبدو للناس
- والله ورسوله أعلم - وقوله "يروح عليهم بسارحة لهم" أي يروح عليهم
الراعي، قال صاحب المرقاة: وفيه إشارة لطيفة إلى أنهم في سيرهم تابعون
لحيواناتهم على مقتضى الطباع الحيوانية والشهوات النفسانية وتاركون متابعة
العلماء بالآيات القرآنية والأحاديث النورانية ولذا وقعوا فيما وقعوا أولاً
وجوزوا على ما فعلوا آخرًا. اهـ. وقوله "فيقولوا ارجع إلينا غدا" أي سخرية
وبخلاً. وقوله "ويضع العلم" أي يوقع ويسقط الله الجبل على بعضهم كما يدل
عليه قوله "ويمسخ آخرين قردة وخنازير" أي ويحول صور بعضهم إلى صور
القردة والخنازير. وبالجملة فإن هذا يكون عقوبة لما فيه من المثلة والفضيحة
وعوقبوا يوم القيامة على خداعهم ونفاقهم بإيتائهم كتابهم وراء ظهورهم كما
في قوله ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وهذه الصورة أشنع وأبين لنفاقهم

ويومئ إلى ذلك قوله في السياق ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي بما توعيه صدور هؤلاء الكفرة المنافقين من التكذيب والمعنى أنهم يؤتون كتابهم من خلفهم فيأخذونه بشمالهم كما يقتضيه قوله ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ تحقيراً لهم ويُناول لهم من وراء ظهورهم فضيحة وكشفاً لنفاقهم والله أعلم. ثم قرّر تعالى الوعيد بالمسخ واللعن مشيراً إلى ما حكاه عنهم من تحريفهم فقال ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ والكلام في الآية متصل بقوله ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ ثم استطرد بذكر قرن الشيطان ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ روى الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» وقد قرن تعالى العذاب بالإشراك به فقال ﴿ثم أنتم تشركون، قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ وهذا ما أخبر عنه سبحانه في سورة بني إسرائيل ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ والمراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض، ولما عرّض تعالى في السورة بالتهديد للمشركين في قوله ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ وتحذاهم بقوله ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بحلول عذاب الاستئصال ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ واقتضت هذه الآية أن

مخالفة الملك الحق تؤول الى خراب العالم وفناء الخلق. وفي الصحيح من حديث عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراف بالله» والإشراف نتيجه العذاب والقتل والهلاك والدمار. وحتى نستبين سبيل المجرمين الذين أشركوا في الحكم والعبادة وحرفوا الكلم، أسوق كلام ابن عبد الوهاب في الرسالة التاسعة: اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض: الأول: الشرك في عبادة الله تعالى قال الله تعالى ﴿إِن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقال ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر، الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة كفر إجماعاً، الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر إجماعاً... إلخ. وإذا أردنا أن نعرف هؤلاء المشركين الذين كفرهم ابن عبد الوهاب - ملأ الله قبره ناراً - نرجع إلى استقراء الأحداث التاريخية، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، لنعلم أن خصوم الدولة الوهابية الناشئة هي الدولة العثمانية، فانطلق الخبيث إلى النصوص فأسقطها عليها وقام بتوجيه سهامه إليها، وتظاهر بالدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك في العبادات والقبور... وقد تقنع الغنم بالمذهب النبائي لكنّ للذئاب رأياً آخر! جاء في الأجوبة النجدية ما نصه: مما يوجب الجهاد لمن اتصف به: عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم فإن ذلك من نواقض الإسلام ومبطلاته فمن اتصف به فقد كفر وحل دمه وماله ووجب قتاله حتى يكفر المشركين والدليل على ذلك قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه» فعلق عصمة المال والدم بأمرين: الأمر الأول قول: لا إله إلا الله، الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلا

يعصم دم العبد وماله حتى يأتي بهذين الأمرين الأول: قوله لا إله إلا الله، والمراد معناها لا مجرد لفظها، ومعناها هو توحيد الله بجميع أنواع العبادة، الأمر الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله والمراد بذلك تكفير المشركين والبراءة منهم ومما يعبدون مع الله فمن لم يُكفر المشركين من الدولة التركية وعباد القبور كأهل مكة وغيرهم ممن عبد الصالحين وعدل عن توحيد الله إلى الشرك وبدّل سنّة رسوله ﷺ بالبدع فهو كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويجب الإسلام والمسلمين، فإن الذي لا يكفر المشركين غير مصدق بالقرآن، فإن القرآن قد كفر المشركين وأمر بتكفيرهم وعداوتهم وقتالهم. اهـ. وهذه طريقة علماء بني إسرائيل أحزاهم الله، قلبوا دين الله وشرعه واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة، يصرفون الناس عن حقيقة ما نهوا عنه بأسلوب شيطاني، وهذا ما فعلوه مع عيسى عليه السلام فإنه حين نهاهم عن تولي الذين كفروا عصوا أمره وبدلوا قوله وتآمروا على قتله ثم دَعُوا الناس إلى عبادته! مُسخت فطرتهم وموازينهم حتى صار الكذب دينهم ودينتهم. وبعد أن أرشد سبحانه إلى التوحيد وكشف حقيقة الشرك وحذّر منه وهدّد عليه، بيّن حال المبطلين وأظهر منكرهم وأزال أقنعتهم وأوضح كذبهم وافترائهم على الله فيما زعموه أنهم أئمة التوحيد وشيوخ الإسلام! ولا يفعل ذلك إلا من تلفت فطرته وارتدت أسفل سافلين وتهيأ لحياة الجحيم ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً﴾ وفي الكلام تعجيب من وقاحتهم واجترائهم على خالقهم، وتصريح بإبطال تزكيتهم، وتحويل من افترائهم الكذب على ربهم! ثم حكى تعالى عنهم نوعاً آخر من الكذب والنفاق والتناقض ﴿ألم تر إلى الذين

أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) والجبت: السحر أو الساحر وهو المترجم بين يدي الصنم، والطاغوت: الشيطان. والآية نزلت كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من يهود وذلك أنهم خرجوا إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزلوا على أبي سفيان فقال لهم أبو سفيان: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرّاً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، ففعلوا، فذلك قوله تعالى (يؤمنون بالجبت والطاغوت) وروى الطبري عن ابن زيد قال: جاء حيي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: نحن وأنتم خير منهم. فذلك قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) إلى قوله (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً). وها هم الملعونون المبعدون يؤمنون بالسحر والشيطان ويتقلبون في الأديان الباطلة ويقولون لشركائهم من الإنس هؤلاء - يعني أنتم يا هؤلاء - أهدى من الذين آمنوا سبيلاً! ولما أنتج ذلك خزيهم قال (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) ولما كان التقدير: كذلك كان من إلزامهم الذل والصغار، عطف عليه قوله (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً) والمراد بالملك: الكتاب والحكمة - والله أعلم - وأردفه بذكر البخل والكتمان ليكون المسبب المذكوراً عقيب السبب، وانتقل إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شر الرذائل وأقبحها لا سيما على ما هم بمعزل من استحقاقه ودل على نهاية حسدهم بأداة الاستعلاء (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) روى

عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك في الآية قال: يحسدون محمداً حين لم يكن منهم وكفروا به. ويتضمن ذلك ورثته وعترته ﷺ ويؤيد ذلك ما رواه ابن المنذر والطبراني من طريق عطاء عن ابن عباس قال: نحن الناس دون الناس. ثم تسبب عن هذا توقع السامع لإعلاء الأمة المحمدية وإدامة ذل الأمة الإسرائيلية وموتها بحسدها فقال **(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً)** أي فتسبب عن هذا وتعقبه أنا آتيناهم الذي أعلمانكم في كتابكم أنا أقسمنا لإبراهيم أنا نجعل ابنه إسماعيل حلالاً على جميع إخوته ونجعل يده في جميع الناس ويده على كل أحد ونعز ذريته ونهديهم ونؤتيهم الكتاب أي القرآن الذي لا كتاب إلا هو لما له من الحفظ والفضل بالإعجاز والفصل ونؤتيهم الحكمة أي النبوة التي ثمرتها العمل المتقن بالعلم المحرر المحكم وآتيناهم مع ذلك ملكاً ضخماً واسعاً باقياً إلى أن تقوم الساعة، ونحو هذا ما رواه الترمذي مرفوعاً: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»** وذكر الإمام النسفي في تفسيره أن آل إبراهيم هو محمد عليه الصلاة والسلام. وروى ابن المنذر بإسناده عن سعيد بن جبير والحسن في قوله عز وجل "الكتاب والحكمة" قال: الكتاب: القرآن، والحكمة: السنة. وروى عن مجاهد في قوله عز وجل "وآتيناهم ملكاً عظيماً" قال: النبوة. قلت: وهذا ظاهر فإن الأنبياء خلقوا من نوره ﷺ على ما تقدم في حديث عبد الرزاق فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس، وخلفاؤه أيدوا بالملائكة والجنود كما روى ابن المنذر بإسناده عن همام بن الحارث "وآتيناهم ملكاً عظيماً" قال: أيدوا بالملائكة والجنود. ولما كان ﷺ شهيداً على أهل الكتاب، تسبب عليه ما فرغ عنه من قوله **(فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه)** والمراد أن هؤلاء القوم الذين أوتوا

نصيباً من الكتاب آمن بعضهم بالنبي الأكرم الذي جاء بالكتاب المكرم، وبعضهم أعرض بنفسه حسداً وعتواً وعناداً وسعى في صد الناس عنه. ثم عطف عليه قوله مشيراً إلى من كفر بالنبي المختار مبيناً أمرهم في الآخرة بعد الذل والصغار في هذه الدار **(وَكفى بِهِم سعيراً)** ثم وصف تعالى حالهم في النار وحال المؤمنين في الجنة وأردف ذلك بأمر المؤمنين برد أمانة العلم وأمانة الخلافة إلى أهلها ليعود المنهج القويم ويقود البشرية من جديد تحت قيادة أولي الأمر من أمة محمد ﷺ لا من قتلة الأنبياء **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)** والمناسبة بين ما سبقها أن ما استطرد من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه وليتهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من الطعن برسول الله ﷺ وافترائهم على الله الكذب وإيمانهم بالجبب والطاغوت وحسداهم الرسول الأمين عليه صلوات رب العالمين وأتباعه المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين والعلم فناسب أن يعقب ذلك بالتحريض عليهم والأمر برد الحكم إلى أربابه وأصحابه وتبليغ العلم والشرعية على حقها، وإذا كان النبي قد سلّم مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة وابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وقال: **«خذوها خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم»** فإن الأمة اليوم مكلفة بقتال أولياء الشيطان اليهود والنصارى ورد الخلافة إلى أهلها والمقدسات إلى أربابها البريئين إلى الله من حلف بني إسرائيل... ثم حوّل الكلام إلى خطاب أولي الأمر بقوله **(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ**

أن تحكموا بالعدل) وهو كالتصريح بأنه ليس لجميع الناس أن يشرّعوا في الحكم بل ذلك لأولي الأمر، ولما كانت الحوادث لا تخلو من حدوث الخلاف بين أفراد الأمة أرشدهم الله إلى طريقة فصل الخلاف بالردّ إلى الله وإلى الرسول، ومعنى الردّ إلى الله: الردّ إلى كتابه تعظيماً لله تعالى ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بواسطة رسوله ﷺ إذ لولا الوساطة لذهب - كما قيل - الموسوط، ومعنى الردّ إلى الرسول ﷺ: إنهاء الأمور إلى أقواله وأفعاله والاحتذاء بسننه، إذ الرسول ﷺ هو المنبئ عن مراد الله تعالى وهو المبلغ شريعة الله والهادي إليها والحاكم بها. وأولوا الأمر هم أهل العلم العدول بذاتهم لأن صفة العلم لا تحتاج إلى ولاية، بل هي صفة قائمة بأربابها، روى ابن جرير عن ابن عباس وعطاء ومجاهد في قوله "وأولي الأمر منكم" قالوا: هم أهل الفقه والعلم. وقال الإمام مالك: أولوا الأمر: أهل القرآن والعلم. يعني أهل العلم بالقرآن والاجتهاد، وروى السيوطي في الجامع الصغير من حديث أبي ذر: «العالم سلطان الله في الأرض» وفي هذا وخز لقلوب أهل الكتاب، أفاده استفهام الإنكار في قوله **(ألم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً)** ثم أعقب تعالى بوصف أخص مظاهر نفاقهم **(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)** وصيغة المضارع تفيد التعجب من زعمهم وأن نفاقهم متجدد لا يقلعون عنه، قال السدي: نزلت في المنافقين من قريظة والنضير. ولبيان سبيل هؤلاء المستهزئين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم ثم يهدمون هذا الزعم في ازدواجية وتناقض يدل على سخريتهم بالنصوص القرآنية؛ أسوق ما كتبه ابن عبد الوهاب في الرسالة السادسة: **والطواغيت كثيرة**

ورؤوسهم خمسة: الأول: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله والدليل قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾... إلخ. فيا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ويأبى إلا أن يناقض بديهيات الفطرة... وإلا ما كان نفاقاً... إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به وإلى من آمن به فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية فأما حين يأمر الناس بالبر وينسى نفسه وتناقض أفعاله أقواله فهو يكشف عن نفاقه وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان... وهؤلاء المنافقون يسلكون هذا النفاق المظلم حتى لا ينكشف أمرهم ولكن يأبى الله إلا أن يكشف حالهم ويفضح دعواهم ويفند حججهم ويبين سخريتهم واستهزاءهم بآياته ويرد عليهم كيدهم بالحق الواضح الصريح...

جاء في المادة 34 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

لمجلس الأمن أن يفحص أي نزاع أو أي موقف قد يؤدي إلى احتكاك دولي أو قد يثير نزاعاً لكي يقرر ما إذا كان استمرار هذا النزاع أو الموقف من شأنه أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولي.

وجاء في المادة 92 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

محكمة العدل الدولية هي الأداة القضائية الرئيسية للأمم المتحدة وتقوم بعملها وفق نظامها الأساسي الملحق بهذا الميثاق وهو مبني على النظام الأساسي للمحكمة الدائمة للعدل الدولي وجزء لا يتجزأ من الميثاق.

ولما ذكر تعالى ضلالهم بالإرادة في التحاكم إلى الطاغوت، ذكر نفرهم عن التحاكم إلى الله ورسوله فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ وهي رؤية قلب لمن صد منهم مكرراً وتخابثاً ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منهم إلا بالتأويل عليهم والقرائن الصادرة عنهم وإنما صدوا لعداوتهم في الدين لأنهم كانوا مشركين، ثم ذكر سبحانه وتعالى بعض ما يصدر منهم من التناقضات وهم غير محتشمين ولا هائبين فقال مهولاً لوعيدهم بالإلحاح والتعجب منه بالاستفهام، معلماً بأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ والغرض من هذا الكلام بيان أن ما في قلوبهم من النفرة عن التحاكم إلى الله ورسوله لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا وسواء بعدوا أم قربوا، ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ والمراد بالوعظ والقول البليغ ما بينه بعده بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ما يؤمرون به من قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم... ولما توعدهم سبحانه وأمر بالإعراض عنهم ووعظهم عطف عليه قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والآية توضح إشكالية القوم مع الجناح الأشم والمنصب الأتم صلوات ربي وسلامه عليه ومع من سبقه من الأنبياء والمرسلين فما من رسول إلا بعثه الله حاكماً يقرر سلطان الله ويطاع بإذن الله، وكل

رسول له مقامه في الخلافة عن الله، وسيدنا محمد هو خليفة الله الأعظم، الحاكم بأمر الله والمؤيد بنصر الله، مَنْ بايعه فقد بايع الله كما حكى الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه وجزائه، ولم تأت هذه الكلمات الجامعات لأعلى مراتب الكمالات إلا لسيدنا محمد عليه كوامل الصلوات حيث أكد تعالى معنى خلافته عن الله ورفعة شأنها وعلو مقامها على طريق الاستئناف ليقرر أن عقد الميثاق مع هذا الرسول الكريم هو عقد ميثاق مع الله، فمن نكثه فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه، وقد جاءت الآية على طريق الفصل من غير وصل بعاطف بعد قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا ومشاهداً كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا، وسراجاً يستضيئون بك، وشمساً تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وقدمك وخدمك. وقد استخلف الله جميع الرسل في الأرض لكن لم ينل أحد منهم مقام خلافة رسولنا العظمى العامة الشاملة...ومن هنا كان تاريخ الإسلام نظاماً وحكماً وخلافة تقوم بدين الله في الأرض لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول عليه الصلاة والسلام فتكون طاعته طاعة لله، ولم يرسل الرسول لجرد شعائر عبودية يستهتر بها المستهترون ويبتذلها المبتذلون، فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل، وهي إقامة منهج للحياة في واقع الحياة يقوم على

إعلان سلطان الله، وليست هنالك صورة أخرى يقال لها الإسلام إلا أن تكون طاعة للرسول محققة في حكم وفي نظام يقوم على إفراد الله سبحانه بالإلهية التي تجعل الحكم ابتداء حقاً لله لا يشاركه فيه سواه ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ أي ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك معظمين محبين متبعين أمرك ومقتفين لآثارك مجتهدين في بذل النفس والمال لأجلك فاستغفروا الله متوسلين بك إليه لوجدوا الله تواباً رحيماً ونحو هذا المعنى قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي وما كان الله ليعذبهم وحبك متمكن في قلوبهم وما داموا مستغفرين من ذنبهم مستشفعين بك إلى ربهم، والعدول عن الخطاب إلى الغيبة ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ تفخيم لشأن رسول الله ﷺ حيث عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته على طريق حكم الخليفة بكذا مكان حكمت وتعظيم لاستغفاره عليه الصلاة والسلام حيث أسنده إلى لفظ مبنئ عن علو مرتبته، وثمة فائدة أخرى وهي التبرؤ من حالهم إذ ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وعصيان الرسول والتحاكم إلى الشيطان فناسب هذا الانتقال إلى الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد لأنهم لوؤوسهم وصدّوا صد المستكبر عن طلب الاستغفار فأبعدوا عن الجنب الرفيع والمقام العظيم مقام سيد السادات ومنبع الكمالات وصاحب المعجزات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، قال الإمام نجم الدين الغزي: عندي أن من أراد أن يتنصل من ذنبه فتمام توبته أن يتوجه بقلبه إلى روح النبي ﷺ حيثما كان من الأرض مهما لم يمكنه إتيان قبره الشريف فذلك ما يمكنه من الجيء إليه ثم يستغفر ويرجو من النبي ﷺ شفاعته له في حصول المغفرة من الله تعالى فإن لذلك تأثيراً عظيماً في حصول

المقصود. اهـ. وينبغي لكل مسلم اعتقاد كون زيارته ﷺ قربة كما أشارت الآية لأن تعظيمه ﷺ لا ينقطع بموته فقد روى الإمام النووي في كتابه "الإيضاح" وابن قدامة في كتابه "المغني" الحكاية المشهورة عن العُتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشد يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له» وذكر الإمام القرطبي قصة تشبهها في تفسيره عن سيدنا علي قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحثا على رأسه من ترابه فقال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر: إنه قد غفر لك... قال الفيروزآبادي في كتابه الصلوات والبشر: ولا شك أنه ﷺ حي وأن أعمال أمته معروضة عليه. اهـ. ثم أظهر تعالى منزلة الروح الأعظم والحبيب الأكرم ﷺ فجعل الرضا بحكمه سبباً لإيمان المؤمنين كما جعل الرضا بقضائه سبباً لإيقان الموقنين فقال ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ وفي

ذلك إظهار لعنايته تعالى برسوله ﷺ إذ جعل حكمه وقضائه قضاءه وأوجب على العباد الاستسلام لحكمه والانقياد لأمره ولم يقبل منهم الإيمان به تعالى حتى يدعوا لأحكام رسوله ﷺ سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفهم كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمناً وعلى أنه لا بد من حصول الرضا بحكمه في القلب وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به ﷺ هو الحق والصدق فلا بد من الانقياد باطناً وظاهراً، ثم لم يكتف سبحانه بنفي الإيمان عمن لم يُحكّم أو حَكّم ووجد الحرج في نفسه حتى أقسم على ذلك مؤثراً عنوان الربوبية مضافاً إلى ضميره ﷺ رافة وعناية وتخصيصاً ورعاية وإشعاراً بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته، فمن لم يمش تحت قبابه ويسلك طريقه ويعترف بمحبته فليس من الله في شيء ثم جعل جل شأنه من شرط الإيمان زوال المعارضة بالكلية، وقد نفى تعالى عن المنافقين الإيمان في حال يظنهم الناس مؤمنين ولا يشعرون بكفرهم فلذلك احتاج الخبر للتأكيد بالقسم وبالتوكيد اللفظي ليكشف مخفيات أمورهم، فقد واجهوا رسلهم بالتمرد والعصيان وعصوا موسى في مواقع، وعصوا عيسى في معظم أمره، وعصوا سيد المصطفين الأخيار ولم يعص أحد من الأمة المحمدية إلا بتأول، ولذلك كان أكمل مظاهر الرسالة تأييد الرسول بالحكم والسلطان، وكون السلطان في شخصه لكيلا يكون في حاجة إلى غيره، وإنما تم هذا المظهر في رسالته ولذلك وصف بأنه نبي الملاحم، وقد ابتدأت بوارق ذلك في رسالة موسى عليه السلام ولم تستكمل، وكملت لسيدنا محمد ﷺ وهو القائل: «وأنا نبي الملحمة» إشارة إلى ما بعث به من القتال والسيف،

ولم يجاهد نبى وأمه قط ما جاهد ﷺ وأمه، والملاحم التى وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار لم يعهد مثلها قبله فإن أمته يقاتلون الكفار فى الأقطار على تعاقب الأعصار حتى يقاتلون الأعور الدجال، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ ولا نحسبه أراد يرسله إلا رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام وكان هو المراد من الجمع لأنه الأكمل فيهم. ثم دعا تعالى التائبين من بني إسرائيل إلى قتل من عبد الطاغوت منهم حتى يدفعوا الضريبة الفادحة الثقيلة التى تؤدبهم وتربيههم أو الهجرة فى سبيل الله والخروج من أرضهم وديارهم لقتال شركائهم الكافرين ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ والذي يفهم من فحوى الآيات والأخبار وتشهد له طرق الاعتبار أن هذه الكتابة أمر مفروض على بني إسرائيل بالكلام مستعمل فى التأكيد لما كتب الله عليهم من القتل أو الخروج وهو ما دل عليه قوله ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين فعلوا ما يؤمرون به من القتل أو الخروج والهجرة لحصل لهم التثبيت والخير الجزيل. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي فى الآية قال: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا، فأنزل الله فى هذا ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾. قال الإمام الواحدي: فى هذه الآية قبيلان: مكتوب عليهم وهم المنافقون، ومستثنى وهم الأنصار. ووجه اتصال الآية بما قبلها أن

المنافقين لما عصوا الرسول ﷺ وأرادوا التحاكم إلى الطاغوت شدد الله عليهم وأمرهم أن يقتل التائب منهم المجرم كما في قوله ﴿فأقتلوا أنفسكم﴾ أو يهاجروا ويخرجوا من جزيرة العرب لقتال شركائهم الكافرين كما قال تعالى ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ أي استدعون إلى قتال الفرس والروم، ولو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً، ثم لما لم يفعلوا ذلك أمرنا تعالى بقتلهم وإخراجهم فقال ﴿وأقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ ومعنى قوله "من حيث أخرجوكم" أي أنهم بالغوا في تخويفكم وتشديد الأمر عليكم حتى اضطروكم إلى الخروج وهذا معلوم فإن كثيراً من أهل الحجاز خرجوا بسبب أفعال أصحاب ميثاق الدرعية وفلول الحمجية ومرترقة البوادي.

فتوبوا إلى بارئكم فأقتلوا أنفسكم

هذا الأمر العنيف يتناسب مع طبيعة بني إسرائيل القاسية المتبلدة المعاندة التي لا تقومها إلا كفارة صارمة وتكليف شاق وتأديب عنيف... عنيف في طريقته وفي تنفيذه، وهذا الأمر الصارم لا يقتصر على ذلك الجيل بل هو ماض إلى كل الأجيال المتعاقبة من بني إسرائيل في فترة استخلافها - والله أعلم - وإذا أراد هؤلاء الذين حملوا الأمانة التي ناءت بحملها السماوات والأرض والجبال أن يتوبوا إلى بارئهم فليقوموا بتنفيذ هذا الأمر الصارم وليقتل التائب منهم المجرم. وقد نصت التوراة على قتل أنفسهم كما نصت على العمل بجميع الوصايا، فإن لم يستجيبوا ويعملوا فسيخصهم الرب بضربات موجعة ويبتليهم ويبتلي نسلهم من بعدهم، وينزل بهم جميع الضربات التي أنزلها بآل فرعون حتى يهلكوا ويبقى

من نسلهم عدد قليل من بعد كثرتهم التي كانت قد صارت مثل نجوم السماء، ويفرقهم الرب بين جميع الشعوب، ويباعون عبيداً وإماء! هذه بعض أقوال العهد التي أمر الله بها موسى أن يعاهد بني إسرائيل في أرض موآب. ثم حُرِّضَ تعالى على قتالهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾ أي احذروا عدوكم والأمر بالحذر يتضمن الأمر بأخذ السلاح، والسلاح يسمى حِذراً، والثبات: جماعات متفرقة، وأصلها من ثَبَّتَ الشيء إذا جمَعْتُهُ، والمعنى: انهضوا لقتال العدو إما ثبات أي عُصَباً وسرايا متفرقين، وإما جميعاً أي كوكبة واحدة مجتمعين، ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر طاعته وطاعة رسوله وكان من أهم الطاعات إحياء دين الله، نادى المؤمنين وحرَّكهم إلى إحياء دينه وإعلاء كلمته وأمرهم أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة فقال: خذوا حذرکم أي احترزوا من العدو واستعدوا للقاءه، يقال: أَخَذَ حِذْرَهُ إذا احترز من المخوِّف كأنه جعل الحذر آله التي يتقي بها ويعتصم، وبعد ما علمهم سبحانه مباشرة الحروب أمرهم بالخروج إلى الجهاد سرايا وعصابات - كعصابة أبي بصير عتبة بن أسيد، وعصابة عبد الله بن عتيك، وعصابة محمد بن مسلمة - وهذه الخلايا الإرهابية المجاهدة مهمتها نصب الكمائن لاغتيال صناديد الكفر داخل جزيرة العرب، واعتماد سياسة حرب الإنهاك الطويلة المدى في المواجهة باستخدام أسلوب حروب العصابات السرية ولا سيما أسلوب الإرهاب والردع بتشكيل سرايا صغيرة مكونة من ثلاثة أشخاص إلى ثلاثة وثلاثين، واستهداف قصر الحكم بالرياض وتعقب أحبار بني إسرائيل المعاندين لله والترصد للساسنة في الطرق والقصور ودور الإمارة...تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وطاعة لأمر الله تعالى ﴿فاقتلوا

المشركين حيث وجدتهم وحذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) والأخذ عبارة عن الأسر، والإحصار مجاز في الاسترقاق، والقيود لهم كل مرصد كناية عن الاغتيال، وفي إطلاق الأمر بالقتل دليل على قتلهم بأي وجه كان، وقد قتل أبو بكر رضي الله عنه المرتدين بالإحراق بالنار وبالحجارة وبالرمي من رؤوس الجبال والتنكيس في الآبار وتعلق بعموم هذه الآية وكتب بوصايا إلى خالد بن الوليد وفي آخرها: إن أظفرك الله بأهل الإمامة فيأياك والإبقاء منهم أجهز على جريحهم واطلب مدبرهم واحمل أسيرهم على السيف وهول فيهم القتل وأحرقهم بالنار وإياك أن تخالف أمري. اهـ. وقد أحرق علي كرم الله وجهه قوماً منهم، وكانوا امتداداً لتلك الطبائع والعوائد والعقائد التي بذرتها الأمة المسبوخة فاستحكم غرسها وتمهد أسسها، وفي الآية تنبيه على إيصال الأذى إليهم بكل طريق. روى الطبراني بإسناده عن رافع بن خديج قال: «قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب، فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أخرى أن يكون الإسلام لم يقرّ في قلوبهم من بني حنيفة» ومن ثم لم يشك من في قلبه إيمان وله عقل في عدم ظهور الخير من الإمامة مع ما ذكرنا من ذمه عليه الصلاة والسلام لأهل نجد ودعائه عليهم وشهادته لهم إلى يوم القيامة وكذا أصحابه ومن تبعهم بإحسان.

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) شاع في القرآن التعبير عن الشيطان بالطاغوت، وفي ذلك وجوه ثلاثة من المبالغة، أحدها: تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان، الثاني: بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة، الثالث: تقديم لأمه على عينه ليفيد اختصاصه بهذه التسمية. وناسب هذا أنه فرّع عليه الأمر

بقتال أوليائه حتى يضعف كيده، والمراد - والله أعلم - أن كيد الشيطان يضعف إذا قوتل أولياؤه وإلاّ كان عظيماً، ألا ترى إلى كيد الشيطان في إغوائه البشرية وإضلالها وإخراج آدم وزوجه من الجنة؟ والطاغوت اسم جنس يقع على القليل والكثير، وليس شيئاً أشد على الشيطان من أن ينكشف حاله ويفتضح عمله وكذلك حال أوليائه المنافقين ولذلك أمر عز وجل بقتلهم وبين أن كيد الشيطان ضعيف وأمره هين خفيف وإله سخيف فقال التفاتاً إلى المؤمنين زيادة في تنشيطهم وتشجيعهم وتثبيتهم ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ والآيات توضح العلاقة بين الشيطان وبين أوليائه وحزبه كما ورد في الآثار المسندة الصحاح: «أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ» وقرن الشيطان: حزبه وأتباعه وأعوانه وأشيعاه وزمانه وأهل وقته، وقيل: شدته وقوته ومحل ملكه وتصرفه. قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصَدُونَ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وقال عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وإنما جعلوا أولياء لهم لأنهم استنصروهم واستعاذوا بهم كما أشارت الآية ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يعني زادوهم غشياناً وتسلطاً وجراءة عليهم فصاروا في فرق وخوف وعذاب، وعبادتهم الشيطان باعتبار اتخاذه ولياً وشريكاً في الحكم وهو حال الحفافة العراة الذين يسعون بالتحريش بين المؤمنين كما روى الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمَصْلُونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» والمصلون هم المؤمنون وسموا بذلك لأن الصلاة أشرف الأعمال وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان، والمراد - والله ورسوله أعلم

- أن المؤمنين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان كما فعلته اليهود والنصارى ولكن الشيطان يسعى في التحريش بين المسلمين وإغراء بعضهم على بعض والتحريض بالشر بينهم من قتل وخصومة وحملهم على الفتن والخصومات والحروب عبر حزيه المشار إليهما في صحيح الإمام مسلم: «إن الفتنة تجيء من هاهنا من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض» وأضافهما إلى الشيطان لاتباعهما له وكان كما أخبر فكان معجزة له عليه الصلاة والسلام.

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً) لما أمر تعالى في الآية المتقدمة بقتال أولياء الشيطان قهراً الأمر لبيان حالهم وكشف نفاقهم إذ تظاهروا بالرغبة في القتال تمويهاً للنفاق فلما أمروا بالقتال جبنوا قائلين: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ وذكر الإمام الماتريدي أن الآية نزلت الآية في بني إسرائيل وهي الآية التي ذكرها الله تعالى في سورة البقرة (ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى) إلى قوله (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم) وبالجملة فإن الاعتراض على الله ليس إلا من صفتهم ليوقعوا الوهن في قلوب المسلمين! وهذا هو الملائم للإخبار عنهم بأنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وتأويل وصفهم بقوله (منهم) أي من (الذين قيل لهم كفوا أيديكم) وهذا على غموضه هو الذي ينسجم مع أسلوب بقية الكلام في قوله (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله) وما بعده... وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

مجاهد في قوله ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ إلى قوله ﴿لاتبغتم الشيطان إلا قليلاً﴾ ما بين ذلك في يهود. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم﴾ الآية قال: نهي الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم. اهـ. ثم أخبرهم بأن الموت الذي لأجله يكرهون القتال زعماً منهم أنه من مظانه ويحبون القعود عنه يدركهم أينما يكونوا في حصون مشيدة وقصور محصنة أو في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب، وقد حكى تعالى عنهم خصلة قبيحة دالة على كفرهم بالقدر، والقضاء والقدر يُستعمل كل منهما بمعنى الآخر إن افترقا، وإن اجتمعا يكون القضاء هو الحكم الإلهي على الشيء بكذا فله المضاء في أمره، وأما القدر فهو الوقت المعين لإظهار الحكم، قال تعالى ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ والجملة اعتراض وسط بين الموصولين الجارين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير الأمر الذي وقته الله في إبطال النبي وتبليغ رسالات الله... وبعد أن أمر الله رسوله بما يجيب به هؤلاء الضالين، علّمه حقيقة التفصيل في إصابة الحسنة والسيئة من جهة تمحّض النسبة إلى الله تعالى أو اختلاطها بالانتساب إلى العبد فقال ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ووُجّه الخطاب للرسول لأنه المبلغ عن الله، واعلم أن الله قدّر المنافع والمضار وخلق مؤثراتها وأسبابها فهذا الجزء لله وحده لقوله ﴿قل كل من عند الله﴾ والله نصب الأدلة للناس وبعث الرسل وشرع الشرائع فأكمل المنّة وأقام الحجة وقطع المَعذرة، وأما الأسباب المقارنة للحوادث الحسنة والسيئة فذلك بمقدار ما يحصله الإنسان من وسائل الرشاد، ومقداراً ضد ذلك: من غلبة الجهل والارتقاء في المهالك بدون تبصّر، وهذا الجزء جعل الله للإنسان حظاً فيه، ملكه إياه فإذا جاءت الحسنة أحداً فإن

المنة فيها لله وحده إذ لولا لطفه وإرشاده وهديه لكان الإنسان في حيرة، فصح
 أن الحسنه من الله، أما السيئه فإنها وإن كانت من الله ولكن إصابه معظمها
 الإنسان يأتي من جهله أو تفريطه أو تغليب هواه على رشده، وقد فسّر هذا
 المعنى ما ورد في سنن الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا
 يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»
 ولكون هذه القضية دقيقة الفهم نبّه الله على قلة فهم المشركين للمعاني الخفية
 بقوله ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ والكلام مسوق لتعيرهم
 بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم! فقوله: لا يكادون أي
 يكادون لا يفقهون فيكون فيه استبقاء عليهم في المذمة، ويجوز أن يكون على
 أصل وضع التركيب أي لا يقاربون فهم الحديث الذي لا يعقله إلا الفطناء
 فيكون أشد في المذمة، وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من
 كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل
 أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن
 الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد
 بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى
 جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا
 محمد أخبرني عن الإسلام... الحديث. وهذه لفظة هامة لا بد من الوقوف عندها
 لفهم واقع الحفاة العراة. ولما نفى تعالى عنهم في التخلف عن طاعته إلى أن ختم
 بالشهادة برسالته؛ أثبت أن الرسول في تبليغه إنما يبلغ عن الله فأمره أمر الله ونهيّه
 نهي الله، وقد دل على ذلك قوله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما
 أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد

على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، روى الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله أنه قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس» فجعلوا طاعة الله تعالى طاعة رسوله كما في قوله ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ فجعل الكناية واحدة مع أنه تقدم ذكر الله ورسوله وفي ذلك ما لا يخفى من الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام، ونحوه قوله ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ والضمير للنبي ﷺ على طريقة الاستخدام من ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنه الموضح له الداعي إليه... وقوله ﴿فَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تعريض بأهل الكتاب وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم فيعلم أن الله سيتولى عقابهم، ثم شرع يخبره بما يخفونه فقال حاكياً لبعض أقوالهم مبيناً نفاقهم وخداعهم وأنهم لضعف نفوسهم لا يعرضون جهراً بل يظهرون الطاعة:

ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول
وإسناد الفعل إلى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون له بالذات والباقون أتباع لهم
في ذلك لا لأنهم ثابتون على الطاعة، والمعنى إذا فارقوك بيّتوا خلاف ما تقول
وهو الخلاف والعصيان المشتمل على بواطنهم! ولذلك جاء التهديد بإعلامهم
أن الله لن يفلتهم من عقابه **(والله يكتب ما يبيتون)** وأتى بصيغة المضارع في
قوله **(يقولون)** و**(يبيتون)** لإفادة تجدد ذلك منهم، وقوله **(فأعرض عنهم)** أمرٌ
بمجانبتهم وعدم الاكتراث بهم والتوكل على الله وحده **(وتوكل على الله وكفى
بالله وكيلًا)** أي مُتوكلاً على فضل الله تعالى لا على زاد المنافقين ولا يحزنك
خلافهم ولا تكثرث بقوتهم، والتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل
وحده، فإن ثبت في نفس المتوكل أنه لا فاعل إلا الله مع تمام العلم والقدرة على
كفاية العباد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا
وراء منتهى عنايته ورحمته عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبه عليه وحده ولم
يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته، ولما ذكر تعالى أنه يكتب ما
يبيتون في كتابه أي ينزله في القرآن ويطلعك عليه ناسب ذلك التفريع بما يهزمهم
هزة توقظ وجدانهم **(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً)** والفاء تفريع على الكلام السابق المتعلق بكشف حال المنافقين
بقولهم **(طاعة)** ثم تدبير المخالفة فيما وعدوا بالطاعة، ولما كان ذلك كله أثراً
من آثار استبطان الكفر والشك كان المقام لتفريع الاستفهام عن قلة تفهمهم
القرآن الذي يكشف مثالبهم فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم، وقد
تحدّاهم الله تعالى بمعاني القرآن وألفاظه وبلاغته، كيف وهو يحوي من المدلولات
والموحيات والإشارات والتوجيهات والحقائق والبيّنات في بلاغة كل لفظ،

ومعنى كل عبارة، ما يعجز عن إحاطته مداد البحور...ولما أمر سبحانه بالنفر إلى جهاد المنافقين ودعاهم إلى تدبر القرآن؛ ذكر المخذلين والمغربين محذراً من الالتفات إلى الشائعات في أخطر مرحلة تمر بها الأمة المسلمة (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) والكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنایات المنافقين المعهودة في وسائل الإعلام معطوف على قوله (ويقولون طاعة) ومسوق مساق اللوم لمن يقبل مثل تلك الإذاعة من المسلمين الأغرار، والمعنى أن المنافقين إذا سمعوا خبراً عن سرايا المسلمين بالظهور على بعض الأعداء أو ببلاء وشدة نزلت بالمؤمنين أفشوه ونشروه لقصد التثييط عن الإعداد وقصد التجبين للتخلف عن الغزو إذا استنفر إليه فتعود الإذاعة مفسدة! فقطع الله معذرتهم في كيدهم بقوله "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم" أي لولا أنهم يقصدون السوء لاستثبتوا الخبر من الرسول ومن كبراء المسلمين الذين نالوا مقام الوراثة الحمديدية، ووصف أولي الأمر بأنهم منهم جار على ظاهر الأمر وإرخاء العنان أي أولو الأمر الذين يجعلون أنفسهم بعضهم، والاستنباط حقيقته طلب النبـط وهو أول الماء الذي يخرج من البئر عند الحفر وهو هنا إما استعارة مكنية: شبه الخبر الحادث بحفير يطلب منه الماء وذكر الاستنباط تخييل وشاعت هذه الاستعارة حتى صارت حقيقة عرفية فصار الاستنباط بمعنى التفسير والتبيين ويكون ضمير منهم الثاني يعود على أولي الأمر من المسلمين أي فلبينوا الأمر على وجهه فيكون الموصول صادقاً عليهم والمعنى فيفهمه الفاهمون من أولي الأمر من المسلمين، أو استعارة تبعية بأن شبه الخبر المختلق بالماء المحفور عنه وأطلق يستنبطون بمعنى يختلقون

وتعدى الفعل إلى ضمير الخبر لأنه المستخرج ويكون ضمير منهم الثاني عائداً على كبراء المنافقين الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم أي لعلم ذلك الذين اختلقوا الخبر فلخابوا فيكون الموصول صادقاً عليهم أي على المختلقين بدلالة المقام. ثم التفت الحق إلى خطاب المؤمنين فقال ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي ولولا فضله سبحانه عليكم ورحمته بإرشادكم إلى سبيل الرشاد الذي هو الرد إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر لاتبعتم الشيطان وعملتم بآرائكم الضعيفة أو أخذتم بآراء المنافقين فيما تأتون وتذرون ولم تهتدوا إلى صوب الصواب إلا قليلاً وهم أولو الأمر المستنيرة عقولهم بأنوار الإيمان الراسخ الذين يُرد إليهم ما أشكل من المتشابه وما خفي من الكتاب ومكنون الخطاب الواقفون على الأسرار الراسخون في معرفة الأحكام بواسطة الاقتباس من مشكاة الرسالة وأنوار شمس السيادة والبسالة. والآية نزلت في شأن الوقائع المتعلقة بجهاد المنافقين وفيها امتنان بإرشاد المسلمين إلى أنواع المصالح وتحذير من متابعة وسائل الإعلام واتباع حبائل الشيطان ومكائده أوليائه. ولما بين تعالى نفاق أهل الكتاب؛ ناسب أن يضع قاعدة راسخة في خطاب يستثير فيه الهمم لقتالهم في معركة يكون المؤمن فيها مسؤولاً عن نفسه فحسب واثقاً ببأس الله وقوته محرضاً إخوانه ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ والصورة التي ترسمها الآية في قتال هؤلاء المشركين تأخذ خطة الذئب المنفرد، كما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس إلى ابن نبيح ليقنتله، فقال: صفه لي يا رسول الله، فقال: «إذا رأيته هبته وفرقت منه وذكر الشيطان» قال: وكنت لا أهاب الرجال فاستأذنت رسول الله أن أقول، فأذن لي فأخذت سيفي وخرجت إليه

حتى إذا كنت ببطن عُرنَة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش فعرفته بنعت رسول الله ﷺ وهبته فقلت: صدق الله ورسوله، فقال: مَنْ الرجل؟ فقلت: رجل من بني خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتكَ لأكون معك، قال: أجل إني لأجمع له، فمشيت معه ساعة وحدثته فاستحلى حديثي حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه حتى إذا هداً الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله ﷺ بالمسجد فلما رأيته قال: «أفلح الوجه» قلت: أفلح وجهك يا رسول الله، فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبري فدفع إليّ عصاً فقال: «تخصّر بهذه في الجنة» فكانت عنده فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها في كفنه فجعلوها في كفنه بين جلده وثيابه. وإن خداع المشركين للفتك بهم وكسر شوكتهم وتفريق كلمتهم من أعظم الجهاد وأنفعه وأشدّه... وإذ قد تحرر أن المنافقين من أهل الكتاب كفرة لا لبس في أمرهم وأمر الحق بقتلهم وذكر أن التحريض على القتال في سبيل الله من الشفاعة الحسنة وأن سعي المبطلين للناس من قبيل الشفاعة السيئة، أتبع بذكر أمر التحية وأنه قد يُسلم المنافق على الرجل المسلم أو المسلم على المسلم فإذا سلم المسلم فليرد عليه بأحسن منها كما روى الإمام البخاري في الأدب المفرد عن سالم مولى عبد الله بن عمرو قال: وكان ابن عمرو إذا سلم عليه فرد زاد فأتيته وهو جالس فقلت: «السلام عليكم، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، ثم أتيت مرة أخرى فقلت: السلام عليكم ورحمة الله، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم أتيت مرة أخرى فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وطيب صلواته» وإذا سلم الكتابي على المسلم فليقل "وعليكم" كما جاء في الحديث المتفق عليه: «إذا سلم

عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» ولما كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أردف ذلك بيان أن التوحيد والبعث متلازمان فقال عز وجل ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ فأعلم سبحانه بتوحيد الألوهية وحال الوجدانية وأعلم باليوم الآخر إعلماً بقسم! والمقسم به تقديره: وعظمته ليجمعنكم... والجمع هنا بمعنى الحشر أي لا ريب في حقيقة أمره وإن لم يؤمن به أهل الكتاب الذين خسروا أنفسهم حسبما يفيدته قوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ ولما كان سبحانه قد أحاط بالناس علماً وقدرة وسلطاناً فهم في قبضته لا يقدرّون على الخروج عن مشيئته أعقب بقوله وهو أصدق القائلين ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ وظاهره الاستفهام ومعناه تقرير الخبر والتقدير: لا أحد أصدق من الله تعالى لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته الخوف والرجاء أو سوء السجية وهذه منفية في حق الله تعالى وتقدست أسماؤه... ثم حذر تعالى من التخلف عن غزو أهل الكتاب المخادعين المكذبين بيوم الدين فقال محرضاً على قتالهم ﴿فمالكم في المنافقين فتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سيلاً﴾ وهذه شهادة من الله حاسمة في أمرهم حيث نكسهم وردهم في كفرهم وأوقعهم في غيهم وغيابة ريبهم وأضلهم بظلمهم وأهلكهم بسبب إشراكهم وأمر بالاجتماع على قتالهم كما في قوله ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي كما اجتمعوا على قتالكم اجتمعوا على قتالهم ولا تتفرقوا وتختلفوا في مقاتلتهم، ولما ردّهم تعالى منكوسين مقلوبين، كشف تعالى لنا ما تكنه صدورهم من الحقد والشحناء والحسد والبغضاء فقال ﴿ودوا لو تكفرون كما

كفروا فتكونون سواء) وهكذا بين سبحانه حقيقة صفاتهم وكشف عن أغلبية قلوبهم وأوضح اختلال أمرهم وانقلاب أحوالهم من حسن مظهرهم إلى قبيح كفرهم... والكافر لا يستريح لوجود المؤمنين في الأرض فهو يسعى دائماً في جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر، ولذلك يتوجه الأمر الإلهي إلى المؤمنين في لحظة التحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهدهم من قبل المنافقين وذلك بالنهي عن اتخاذهم أولياء فلا ولاية بينهم وبين المسلمين حتى يخرجوا مهاجرين من جزيرة العرب ويجاهدوا في سبيل الله خاضعين تحت راية المسلمين من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا... وهكذا حسم المولى أمرهم وأوصانا حبيبه الأعظم ﷺ بإخراجهم. والمهاجرة في سبيل الله هي الخروج من جزيرة العرب وقاتل شركائهم الكافرين ولذلك قال (في سبيل الله) أي لأجل الوصول إلى دين الله الذي أراده. ولما نهي عن موالاتهم وجعل غاية النهي أن يهاجروا، سبب عنه قوله (فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) يعني إن أعرضوا عن المهاجرة فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فإنما دم أحدهم دم كلب... أخرج أبو داود والترمذي عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرهم» ثم انتقل من أحكام قتال قادة النفاق من بني إسرائيل إلى أحكام حلفائهم، والمناسبة بين الغرض المنتقل منه والمنتقل إليه: أنه قد كان الكلام في قتال المنافقين من أهل الكتاب الذين ظهر نفاقهم، فلا جرم أن تتشوف النفس إلى حكم قتال من تبعهم (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم

سبيلاً والاستثناء منقطع - لأن مسألة بني إسرائيل لا تعدو كونها من الالتفاف والغارة على المسلمين - وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك فالكلام استطراد للتنبيه على أحكام المقاتلين من أتباعهم وأعوانهم بأن صاروا في شق الموادعين بعد ما كانوا في شق الأعداء المحاربين والمعنى: لكن الذين يلتحقون بقوم بينكم وبينهم ميثاق الإسلام ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم - وهؤلاء أحكامهم مختلفة عن بني إسرائيل الذين أمروا بقتال قومهم - فإن اعتزلوكم فلا تتعرضوا لهم بالقتل ولا حظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم وقد أشار إليهم الحق في سورة التوبة بقوله **(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً)** وبقوله **(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)** وهذا يقتضي أن يسمعهم كلام الله تعالى مصوناً من كل دخیل ومشغبة وسالماً من كل شائعة وملاعبة وقد أمر سبحانه بالكف عن أخذهم وقتلهم حال كونهم حصرت أي ضاقت وهابت وأحجمت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، وقُرئ **(حَصْرَةً)** بصيغة الصفة وبهاء تأنيث الوصف في آخره منصوبة منونة. ثم عاد الكلام إلى صنف آخر من المنافقين **(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً)** والقوم: الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها، وقوم الرجل الذين يتعصبون له، ومعنى الآية راجع إلى المنافقين يريدون أن يأمنوكم ثم إذا خلوا إلى كبار كهنتهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم أظهروا الكفر **(كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا**

فيها) أي قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، والوجدان في قوله (ستجدون) راجع إلى
 الآية الأولى (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) وهو بمعنى العثور والاطلاع
 أي ستطَّلعون على قوم من بني إسرائيل مخادعين مبطلين مبطين الكفر يقولون
 لكم: نحن معكم وعلى دينكم خبثة منهم وخديعة، ويقولون لشیاطينهم: إنا
 معكم إنما نحن مستهزئون، فالآية مؤكدة لمعنى الأولى مقررّة لها إلا أن هذه
 زادت ببيان أحوال الأُميين منهم أو أن الآية الأولى في اليهود وهذه في النصارى
 - والله أعلم - وعبر عنهم بلفظ (آخرين) دفعاً لتوهم الاستثناء في الآية السابقة
 (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) والفتنة هنا: المحنة في إظهار
 الشرك، وقد جعل الشرط المفروض بالنسبة إليهم أنهم لا يعتزلون المسلمين ولا
 يلقون إليهم السلم ولا يكفون أيديهم عنهم، وجاء التعبير في هذه الآية بلفظ
 (تقتلهم) مشيراً إلى تلوّثهم مع المسلمين فليس من السهل أن يعرف المسلم
 هذه الجبلّة المتلوّنة الملعونة إلا بعد حذق وعلم وفطنة وفقه ووعي وإدراك، وهذه
 كلها من معاني "تُقْف" ولما كانت الفتنة ناشئة عن التصلب في شركهم، أمر
 تعالى بأن يقتلوا جميعاً حتى يزول الشرك ويثبت الإسلام، وقد جعل الله لهم
 أحكاماً خاصة فلا يقاس غيرهم من المنافقين عليهم ولا يصح إجراء أحكام
 عصاة المسلمين عليهم، وحالهم اليوم يختلف عن زمن البعثة في العناوين
 والشعارات والصور والأوضاع والأوصاف والأحوال فإن هؤلاء اليوم قد اتخذوا
 من الكتاب والسنة ستاراً يُسبلونه على قلوب ضعفة المسلمين! فليس لهم إلا
 الاستئصال بعد أن خيّرهم تعالى بين قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم للجهاد
 في سبيل الله، فلا تجوز موادعتهم ومهادنتهم وإنما الواجب على المسلمين قتلهم
 وإن تعلقوا بأستار الكعبة وقد قال ﷺ في نفر من الخائنين: «اقتلوهم وإن

وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة» لأن في قتلهم صلاح البشرية كما أن الطبيب الحاذق يأمر بقطع العضو الفاسد إبقاء على سائر البدن. والإشارة في قوله ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾ للفريقين: الأول ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلَوْهُمْ﴾ حيث وجدتموهم﴾ والآخر ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلَوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ والسلطان المبين هو الحجة الواضحة في التعرض لهم بالقتل والسيي لظهور عدواتهم وانكشاف حالهم في الكفر والنفاق والغدر وإضرارهم بأهل الإسلام، والأحسن أن يكون معنى قوله "سلطاناً مبيناً" تسلطاً ظاهراً وفيه بشارة بأن الأمة المسلمة ستستولي عليهم وتغلبهم وتقهرهم... وبهذا التفسير تزول الحيرة في استخلاص معاني هذه الآيات. ولَمَّا رَغِبَ تعالى في مقاتلة المنافقين وحرّض عليها، عَظَّمَ وهَوَّلَ بعد ذلك قتل المؤمن وجعله في حَيِّزٍ ما لا يكون وجاء بصيغة المبالغة في النفي لتغليظ الزجر عن القتل لما للنفوس عند الحظوظ من الدواعي إليه فقال ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ولما ساق تعالى الخطأ مساق ما هو للفاعل منفراً عنه هذا التنفير، ناسب كل المناسبة أن يذكر العمد معرضاً ببني إسرائيل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وقد أشار ﷺ إلى سعي اليهود والنصارى بالوقعة بين المسلمين كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا - وَأَوْماً بِيَدِهِ نَحْوُ الْمَشْرِقِ - مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ،

وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل له: وقتلت نفسك فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً» وقرنا الشيطان شعبته من الكفر اللذان حرصا على إشاعة الفتن وإيقاد الحروب بين المسلمين ونشر الشقاق والأفكار الفاسدة والعقائد الزائغة التي أفضت إلى اضطراب الأمة والنخر فيها، وفي الحديث تحذير للمسلمين من فتنة اليهود والنصارى الساعين في الأرض بالفساد، الأبالسة الصادّين عن منهج الرشاد، الجبابرة المتقلّين بين الناس بالسعاية والإفساد، الفراغنة المتمادين في الجور والعناد، ووجه المناسبة بين صدر الحديث وعجزه ظاهر لا يخفى. قال ابن هبيرة: هذا الحديث يتضمن التهديد والوعيد لمن أقدم على القتل بغير حق لأن موسى عليه السلام قتل نفساً تستحق القتل لكن بغير إذن فعوتب، فالمعنى إذا كان هذا نبياً معظماً وقد عوتب على هذا فكيف بكم وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض؟! وروى أبو يعلى وابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله لموسى "وفتناك فتونا" فسألته على الفتون ما هي؟ فقال لي: استأنف النهار يا ابن جبيرة فإن لها حديثاً طويلاً قال: فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني، قال: فقال ابن عباس: تذاكر فرعون وجلساؤه ما وعد الله إبراهيم من أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك وما يشكون فيه ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد الله إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ قال: فأتروا بينهم وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجلهم وأن الصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بني إسرائيل فتصرون إلى أن تباشروا من

الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فيقل
أبناءؤهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحد، فتشب الصغار مكان من يموت من
الكبار فإنهم لن يكثروا. بمن تستحيون منهم فتخافون مكاثرهم إياكم ولن يقلوا
.من تقتلون فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام المقبل
الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة حتى إذا كان العام المقبل حملت
بموسى فوق في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير مما دخل عليه في
بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله تبارك وتعالى إليها أن "لا تخافي ولا تحزني إنا
رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين" وأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم
تلقيه في اليم فلما ولدته فعلت ما أمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها
إبليس، فقالت في نفسها: ما صنعت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان
أحب إلي من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودورانه، فانطلق به الماء حتى أوفى
به فريضة مستقى جوارى آل فرعون فلما رأيته أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت
فقال بعضهن: إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا
فيه فحملنه كهيته لم يحركن منه شيئاً حتى دفعنه إليها فلما فتحته رأت فيه
غلاماً فألقي عليه منها محبة لم يلق مثلها منها على أحد من الناس فأصبح فؤاد أم
موسى فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا
إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير
فقالت للذباحين: انصرفوا عني فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل فآتي
فرعون فأستوهبه إياه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم
ألكم، فلما أتت به فرعون قالت "قرة عين لي ولك" قال فرعون: يكون لك،
وأما أنا فلا حاجة لي فيه، فقال: والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة

عين كما أقرت به لهداه الله به كما هدى به امرأته ولكن الله حرمه ذلك، فأرسلت إلى من حولها من كل أنثى لها لبن لتختار له ظئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق مجمع الناس ترجو أن تصيب له ظئراً يأخذ منها فلم يقبل من أحد وأصبحت أم موسى فقالت لأختها: قصيه واطلبيه هل تسمعين له ذكراً؟ أحي ابني أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدّها فبصرت به أختها عن جنب وهم لا يشعرون فقالت من الفرح حين أعياهم الظنورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها وقالوا: وما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤورة الملك ورجاء منفعتهم فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها حتى امتلأ جنباه فانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً فأرسلت إليها فأتيت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي عندي حتى ترضعي ابني هذا فأبني لم أحب حبه شيئاً قط، قال: فقالت: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً فعلت وإلا فأبني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت أم موسى ما كان الله وعدّها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله تبارك وتعالى منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها فأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم مجتمعون في ناحية المدينة يمتنعون به من الظلم والسخره التي كانت فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني

فوعدها يوماً تزيرها إياه فيه فقالت لخواصها وظهورتها وقهارمتها: لا ييقين أحد منكم إلا استقبل ابني بهدية وكرامة ليرى ذلك وأنا باعثة أمينة تحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدية والكرامة والتحف تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها نخلته وأكرمته وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه وقالت: انطلقن به إلى فرعون فلينحله وليكرمه فلما دخلوا به عليه جعلته في حجره فتناول موسى لحية فرعون حتى مدها فقال عدو من أعداء الله: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم أنه سيصرعك ويعلوك فأرسل إلى الذباحين ليدبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي؟ قال: ألا ترين يزعم أنه سيصرعني ويعلوني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين علمت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين فاعلم أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فنزعوهما منه مخافة أن تحرقا يده فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما قد هم به وكان الله بالغاً فيه أمره فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل امتناع فبينما هو يمشي ذات يوم في ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون فاستغاثة الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنما ذلك من قبل الرضاعة غير أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على

ما لم يطلع عليه غيره فوكر موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل "هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين" ثم قال: "رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم" "فأصبح في المدينة خائفاً يترقب" الأخبار فأتي فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك فقال: ابغوني قاتله ومن شهد عليه لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ولا ثبت فطلبوا له ذلك فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبثاً إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى فغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني قال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم "إنك لغوي مبين" فنظر الإسرائيلي موسى بعد ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال له "إنك لغوي مبين" أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني فخاف الإسرائيلي فحاجز الفرعوني فقال "يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس" وإنما قال ذلك مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتتاركا فانطلق الفرعوني إلى قومه فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس؟ فأرسل فرعون الذباحين فسلك موسى الطريق الأعظم فطلبوه وهم لا يخافون أن يفوقهم وجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر وذلك من الفتون يا ابن جبير. اهـ. وذكر الفتون بين تعداد المنن إدماج للإعلام بأن الله لم يهمل دم القبطي الذي قتله موسى لأن الإسرائيليين لم يؤمروا بقتال المنافقين وإنما أمروا بالصبر

كما يفيد قوله تعالى ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ وكذلك الأمم السابقة كما حكى تعالى قول الرسل السابقين ﴿ولنصبرن على ما آذيتمون﴾ إذ قتال المنافقين من خصوصيات هذه الأمة، فحين أنجى الله موسى من المؤاخذه بدم القبطي ابتلاه بالخوف والغربة عتاباً له على إقدامه على قتل النفس كما في الآية الأخرى ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ ولما بين هذا البسط أمر المنافقين من بني إسرائيل وكان ربما التبس الحال بغيرهم، أتبع ذلك التصريح بالأمر بالتثبت والتحرز الشديد في طريق الجهاد ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبنوا﴾ أي تأملوا وتحروا وميزوا بين الإسرائيلي وبين غيره، وقرئ ﴿فتثبتوا﴾ أي فاطلبوا ثبات الأمر ولا تعجلوا فيه ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ أي لا تقولوا لمن أظهر لكم ما يدل على إسلامه من غير منافقي بني إسرائيل: لست مؤمناً، بل اقبلوا منه ما أظهر وعاملوه بموجبه، وقرئ ﴿السلام﴾ أي الاستسلام. والسلام: الإسلام أي لا تنفوا ذلك عنه لأجل الغنيمة وعرض الحياة الزائل، وقرئ ﴿لست مؤمناً﴾ أي لست مُحَصِّلاً تأميناً إياك. روى الإمام مسلم وأحمد عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ سرية إلى الحُرقات فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلاً فلما غشينا قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه، فعرض في نفسي من ذلك شيء فذكرته لرسول الله ﷺ، فقال: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها مخافة السلاح والقتل، فقال: «ألا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ. وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال

رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»
وروى ابن ماجه عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا
أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق».

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله
ولا تكن للخائنين خصيماً

الخطاب للنبي ﷺ بالأصالة والاستقلال ولورثته بعده قرناً بعد قرن بالفرعية
والتبعية وفي هذا المعنى قوله ﷺ: «ومن حكم به عدل» والكلام في الآية راجع
إلى ما مضى من وصف أحوال المنافقين فنهى عن حسن الظن بهم وعن الدفاع
عنهم، وتخلل وصف أحوالهم والتحريض على قتالهم، واستطرد لذكر قتل الخطأ
والعمد محرضاً مرة أخرى على جهادهم محذراً من الإقامة بين أظهرهم
والاندماج في نظامهم والأخذ بعقائدهم فقال (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي
أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله
واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) ونزلت هذه الآية
في جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا ولم يهاجروا فلما كان أمر بدر خرجوا
مع الكفار فقتلوا، والذي تقتضيه الأصول أن حكم الآية مختص بمن قُتل في
جيوش المشركين مع علمه بهم بعد أن قبل الفتنة وارتد، ثم انتقل النظم إلى
التنويه بشأن الهجرة بأن جعل ثوابها حاصلاً بمجرد الخروج من بين أظهر
المشركين ولو لم يبلغ إلى البلد المهاجر إليه، وتضمن (فتهاجروا) معنى "تضربوا"
والمتعدي بـ"في" جمع إلى الهجرة جهاد النفس حيث يضرب المؤمن في الأرض
الواسعة ليوثر الأمن لعقيدته وينجو من الفتنة في دينه تصاوناً من رذيلة القعود

والتخلف مع المتخلفين، ولما ذكر تعالى الهجرة أردف بذكر صلاة السفر وصلاة الخوف، ثم عاد الكلام إلى أحوال أهل الخدع والنفاق، وأتبعه بالتنويه بشأن الكتاب فقال ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ وذكر الراغب الأصفهاني عن ابن بحر قال: يجوز أن تكون هذه الآية راجعة إلى قوله "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً" فبين أنهم مع إظهارهم الإيمان بما أنزل على الأنبياء يصدون عما يدعون إليه من حكم الكتاب. قال: ومعنى "ولا تكن للخائنين خصيماً" راجع إلى قوله "فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا" فنهى عن حسن الظن بأمثالهم ونهى في هذه الآية عن الدفع عنهم. اهـ. وقد نزلت الآية تنصف يهودياً اتهمه رجل من الأنصار ظلماً بسرقة، وكانت الأنصار عدة رسول الله ﷺ وجنده وحماة الرسالة والدين الجديد، وفي أخرج الأوقات وأشدّها خطورة كان اليهود يطلقون سهامهم المسمومة على أهل الإسلام ويؤلّبون شركاءهم ويشجعون المنافقين ويرسمون لهم الخطط ويطلقون الإشاعات وينشرون الأكاذيب ويضلون العقول ويطعنون في رسول الله ﷺ ويؤلّبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج ويشككون في الوحي ويحاولون تقسيم المسلمين، ورواسب الجاهلية ما يزال آثارها في بعض النفوس إضافة إلى وشائج القرى والمصالح بين بعض المسلمين والمنافقين واليهود، ومع كل هذا تنزل الآيات لتحكم بين الناس وتقيم الميزان الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية أياً كانت الظروف والملابسات، وكل ما جعله الله حقاً في كتابه فقد أمر بالحكم به بين الناس، وليس المراد أنه يُعلمه الحق في جانب هذه القصة

فحسب، بل المراد أنه أنزل عليه الكتاب ليحكم بالطرق والقضايا الدالة على وصف الأحوال التي يتحقق بها العدل فيحكم بين الناس على حسب ذلك بأن تدرج جزئيات أحوالهم عند التقاضي تحت الأوصاف الكلية المبينة في الكتاب والله أعلم، والخطاب **(ولا تكن للخائنين خصيماً)** للنبي ﷺ والمراد أمته ليكون ذلك أبلغ في سماعهم فإنه - أرواحنا له الفداء - محروس بالعصمة أن يخاصم عن المبطلين، قال الإمام أبو حيان: وما خوطب به من هو معصوم مما لا يمكن وقوعه منه فهو محمول على إرادة أمته ومن يمكن وقوع ذلك منه وإنما جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر والتفخيم لشأنه حتى يحصل التباعد منه. اهـ. والأمرُ باستغفار الله جرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول، وقد أخطأ في الفهم ومات في ربة التقليد من توهم أن النبي ﷺ خطر بباله ما أوجب أمره بالاستغفار، وهذا من أفهام الضعفاء وسوء وضعهم الأخبار لتأييد سقيم أفهامهم، وقوله **(ولا تجادل)** المراد منه هي الأمة عن الجدال عن المنافقين لأن مثله لا يترقب صدوره من الرسول عليه الصلاة والسلام كما يرشد إليه النظم **(ها أنتم هؤلاء جادلتهم عنهم في الحياة الدنيا)** وهكذا يورد القرآن النصوص في جوحي يتجاوب فيه المؤمنون، وهو في الوقت ذاته يحيط ببني إسرائيل ويصف واقعهم ويكشف حقيقتهم ويبيّن طبيعتهم، ويصدر الأحكام عليهم ليتعامل معهم المؤمنون، وإلا كانت النصوص جافة مجردة... والآية تكشف الخائنين وتقرر توحيده والانقياد لرسوله وتبين الملابس التاريخية لبني إسرائيل بين قضية إشراكهم في الحكم وإشراكهم في العبادة، وهي تربط بين ذلك الجيل الأول المتذبذب في حقيقة المسيح، وهذا الجيل الذي يجعل من قضية المسيح وسيلة لإمساك العصا من الوسط والدخول في جميع المعسكرات التي

نازع وشاقّ الله فيها؛ معسكر ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ ومعسكر ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ ومعسكر ﴿المسيح ابن الله﴾ وهو في الوقت ذاته يستحقهم ويدعي قتل المسيح ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ على طريقة السخرية والاستهزاء بدعواه الرسالة! بما يدل على شدة قساوته وخبائثة باطنه ونهاية استغفاله واستهباله! ولما نهى تعالى عن الخصام عن الخائنين؛ أتبعه النهي عن المجادلة عمن تعمد الخيانة منهم فقال ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ ثم أظهر مناصر الخائنين ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ ثم التفت الخطاب إلى المجادلين عنهم وهو مؤذن بالتوبيخ والتفريع وحصول الإثم ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ ثم ندب إلى التوبة من الدفاع عنهم فقال ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ثم بيّن أن ضرر الآثم لا يتعدى نفسه ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾ ولما ذكر ما يخص المجادل من إثم؛ أتبعه بتهديد المجادل عنه فقال ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ ومن نسب الشك إلى مسلم بريء ما هو صفته من الكفر والشك عكس الله عليه الحال، وألبس ذلك البريء ثوب محاسن راميته، وسحب ذيل العفو على مساويه، وقلب الحال على المنافق بما يفضحه بين أشكاله في عامة أحواله... ولما كان هذا الكشف إنما هو لأجل بيان مكانة الرتبة النبوية والمنزلة المصطفوية أردف تعالى بنعمته على حبيبه ﷺ في إطلاعه على أسرار الكتاب وإيقافه على حقائق الحكمة وخاطبه على سبيل التغليب لأتمته معجزاً أهل

الكتاب عما أرادوها من الوقوع في فخاخ دعوتهم، مبيناً أن سوء فعلهم ووبال ضلالتهم عائد عليهم وعلى أمثالهم من أشياعهم فقال ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ وقد تكفل الله لنبيه بأن يعصمه من نيل المنافقين أدنى شيء من الضرر مما يريدون إيصاله إليه فهو ﷺ أجل مقاماً وعصمة وأعلى دراية وحكمة بما علمه الله من أن ينال منه المنافقون بخبثهم وكذب ألسنتهم، قال الإمام الشافعي رحمه الله: وما أعلمنا الله مما سبق في علمه وحتم قضائه الذي لا يرد من فضله عليه ونعمته: أنه منعه من أن يهوما به أن يضلوه وأعلمه أنهم لا يضرونه من شيء. اهـ. ثم نبّه تعالى على ما ينبغي أن يقع به التناجي وهو الحث على الصدقة والمعروف وإصلاح ذات البين مع إخلاص النية، ثم رتب سبحانه العقاب الشديد على المشاققين المتبعين للشيطان ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً﴾ وفي الصحيحين من حديث معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: لا، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» وقد ساق هذا الحديث الخبر المستهزئ ابن عبد الوهاب - عليه لعائن الله تترى - في رسالة أرسلها إلى عالم من أهل المدينة جاء فيها: فرأس الأمر عندنا وأساسه: إخلاص الدين لله، نقول: ما يدعى إلا الله ولا ينذر إلا الله ولا يذبح القربان إلا لله ولا يخاف خوف الله إلا من الله، فمن جعل من هذا شيئاً غير الله فنقول: هذا الشرك بالله الذي قال الله فيه ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية. اهـ. وهؤلاء المستهزئون ظنوا أن الحق لا يفضحهم فتمادوا في فنون الغي الذي

انطوت عليه سرائرهم، وأرعى الله عنان إمهالهم ثم هتك الستر عن نفاقهم فكشف شبهاهم وبين مقابحهم.

إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً

التعبير عن الآلهة في الحكم بالإناث لمضاهاتها لها في الضعف والنقص والחסاسة، فالكلام محمول على المجاز، سماها إناثاً لضعفها وقلة خيرها وعدم نصرها واتضاع منزلتها وانحطاط قدرها بناء على أن العرب تطلق الأنثى على كل ما اتضعت منزلته من أي جنس كان، وإنما جعلوا يدعون الشيطان لأنه سؤل لهم ذلك الاتخاذ! وقوله **(يدعون)** كنى بالدعاء عن العبادة لأن من عبد شيئاً دعاه عند مصالحه واشتداد أزماته واعتمد على الاستنصار به، والمعنى: ما يدعون من دون الله إلا آلهة ضعافاً وما يعبدون من دونه إلا شيطاناً مطروداً مردوداً قد حملهم وأغراهم على الإشرار بالله، وعبادة هؤلاء الهلكى إنما هي عائدة إليه ولعنة الله راجعة نحوه وهو ما يلتزم مع قوله بعده **(لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً)** والعجيب في أمر الحفاة العراة أنهم يعبدونه وقد لعنه الله وطرده عن عز حضوره بسبب عصيانه وتغريه وتلييسه ودعوته إياهم إلى الشرك والطغيان! وبعد ما أيس الشيطان عن روح الله وقنط عن رحمته قال لأتخذن من عبادك منتقماً منهم نصيباً مفروضاً وحظاً كاملاً مما فضلت عليهم بحيث أغريهم وألبس عليهم وأزين لهم الفسوق والعصيان وأبالغ في إضلالهم إلى أن يشركوا بك وينسبوا إليك ما لا يليق بشأنك وجنابك فينحطوا بذلك عن كنف حفظك وجوارك ويستحقوا سخطك وغضبك! وقد بلغ من حقد الشيطان بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله سبحانه إذناً بأن يخذع المنافقين

ويغوي المشركين بالأمنيات الكاذبة حتى يكونوا من نصيبه، وكل حظ كان للشيطان في تصرفات أوليائه من أعمالهم المعنوية: كالعقائد الزائفة والأفكار الفاسدة، ومن أعمالهم المحسوسة: كالفساد في الأرض وفتنة الناس وتسخيرهم وإعطاء الأموال لضلالهم، كل ذلك من النصيب المفروض.

﴿وَلَا ضَلَنَهُمْ وَلَا مَنِينُهُمْ وَلَا مَرْهَمٌ فَلْيَبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْهَمٌ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَانًا مُبِينًا﴾ والآية توضح إصرار الشيطان على إضلال بني آدم وتغريهم بالأمان وإيقاعهم في الغلط! ومعنى تبتيك آذان الأنعام وتغيير خلق الله: استئصال التوحيد وتشويه الدين وتبديل أحكام الله وتغيير الفطرة وتسويل الإعراض عن دين الإسلام الذي هو دين الفطرة، والفطرة خلق الله كما جاء في التنزيل العزيز ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإقامة الوجه: تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يميناً ولا شمالاً وهو تمثيل لحالة الإقبال على الشيء والتمحض للشغل به بحال قصر النظر إلى صوب قبالته وذلك معنى التمحيض لربوبية الله، وأفادت الآية أن هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقته الفطرة، والفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، وأصول الدين مبنية على الفطرة. بمعنى أنها ناظرة إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب ولا للأحزاب، وقد بعث الله رسوله بدين الإسلام واختار أن يكون ظهوره بين ظهري أمة لم تسبق لها سابقة سلطان ولا كانت وقت إسلامها ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض ولكنها أمة سلمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية التي أضلها الشيطان، وفي صحيح الإمام

مسلم أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «وإني خلقت عبادي حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ وَإِنَّمِ اتَّهَمَ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَشْرَكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» وفي حديث جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يَبْعَثُ الشَّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً».

وإبليس صاحب القصة مع أبينا آدم، وقد أقسم بعزة الله وسلطانه أنه يغوي ذرية آدم أجمع إلا من استخلصه الله لنفسه واصطفاه لحضرته (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) والآية الكريمة متصلة بسابقاتها اتصال بيان وتتميم فبعد أن أقسم تعالى بالقرآن الذي كذب به كفرة أهل الكتاب ابتداءً أتبعه بذكر الأمم التي مواضع العبرة والعظة ثم قص سبحانه قصص أنبياء بني إسرائيل: داود وسليمان وأيوب... ثم عاد إلى ذكر المكذبين بقوله (هذا وإن للطاغين لشر مآب) حتى انتهى إلى قصة آدم وإبليس وقسم إبليس بعزة الله تحقيقاً لقيامه بالإغواء دون تخلف، والعزة: القهر والسلطان، وعزة الله هي العزة الكاملة التي لا تحتل حقيقتها ولا يتخلف سلطانها، وقسم إبليس بما ناشىء عن علمه بأنه لا يستطيع الإغواء إلا لأن الله أقدره ولولا ذلك لم يستطع نقض قدرة الله تعالى وإنما أقسم على ذلك وهو يعلم عظمة هذا القسم لأنه وجد في نفسه أن الله أقدره على القيام بالإغواء والوسوسة كما قال في سورة الحجر (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) وهذا القسم من عدو الله يدل على عظيم الإغواء والخديعة التي حاكها لبني آدم! والمعلوم بيقين أن انحرافات أهل الكتاب والعلمانية والإلحاد والشيوعية والليبرالية والأفكار الوثنية والجاهلية تصب في مشروع الشيطان المرید! وفتنة الشيطان فتنة عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس

لولا إرشاد الوحي، والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية مع الإسلام والشرك حيث أخضع البشرية لحاكميته! وفي سورة بني إسرائيل بين الحق أن التبذير يجعل صاحبه ملزوماً في قرن الشياطين ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه من صفات السوء والبعد من الرحمة والاحتراق في اللعنة فإن فعلهم فعل النار التي هي أغلب أجزائهم وهو إحراق ما وصلت إليه لنفع وغير نفع فإذا لم يجدوا أخذوا ما ليس لهم! والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم وتابع أمرهم: هو أخوهم! وشأن الشيطان أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى إلى الإفساد في الأرض وإضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوه فإن الكفر بالربوبية غاية الكفران ونهاية الطغيان، وهذا حال من كان الشيطان قرينهم ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ وهذا نظير ما حكاه الله عنهم في قوله ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا فَزِينُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ والمعنى: أتخنا وهيئنا لهم أخداناً وأصحاباً من غواة الجن يستولون عليهم استيلاء القبيض أي القشر على البيض فحسّنوا لهم ما بين أيديهم من معتقدات السوء في الرسل والنبوات واتباع فعل الآباء، وما خلفهم مما يأتي بعدهم من أمر القيامة والمعاد، ولما أخبر بملازمة الشياطين لهم وعرفوا أن القرآن نزل بفضحهم وهتك سترهم، احتالوا بكل وجه وتمالؤوا ودبروا تدبيراً لمنع الناس من فهمه فعمدوا إلى التظاهر بالإيمان وتحريف معاني القرآن وصرف الآيات إلى أتباعهم وإقامة دولة في فلسطين رجاء أن يغلبوا المسلمين ﴿وَقَالَ

الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ واللغو: القول الذي لا فائدة فيه أي تكلموا كلاماً غير مراد منه إفادة، قصدوا فقدان مراده وتشويش معتاده، وهذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن القرآن غالبهم.

﴿فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين، ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ قال الإمام الطبري: ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة "واجتنبوا الطاغوت" يقول: وابتعدوا من الشيطان واحذروا أن يغويكم ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا. اهـ. والشيطان هو الذي أغوى أوليائه وحملهم على الإشراك والاستهزاء! واتباع الشيطان وعبادته عادة مطردة في الأمم الغابرة، وفي الحديث المتفق عليه: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» قال صاحب عمدة القاري: الطاغوت الشيطان.

﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون، ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ الخطاب هاهنا - والله أعلم - المقصود منه ابتداء المستخلفون قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون وأسلاف بني إسرائيل الذين أشركوا بالله وأخلافهم المقتدين بأبائهم المعبر عنهم في الآثار

المتواترة الصحاح بـ«**قرن الشيطان**» لأهم المستخلفون في الأرض ولأن الغرض إبطال ما هم عليه من الشرك ويدخل من استن بهم واقتحم معهم الضلالة بالتبعية - ومن لم تتضح له تنزلات الخطاب عمي عن تبصر محجة الصواب - وقد خاطبهم تعالى ببني آدم تذكيراً بقصة أبيهم آدم عليه السلام حين غره الشيطان حتى أخرجهم من الجنة مع كونه صفي الله ليشثد الحذر من عدوهم كما حذر أباهم عليه السلام! وفي قوله "وامتازوا" توبيخ وتوقيف على عهده إليهم ومخالفتهم له، وقد ذكر المولى عز وجل بعد هذه الآية أنهم اتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون، والشيطان هو الذي دعاهم إلى اتخاذها ووعدهم بالنصر فإذا اتخذوها فكأنهم عبدوه إذ بأمره وبدعائه اتخذوها. وفي سورة المائدة ذكر تعالى من صفاتهم أنواعاً أولها: أنه تعالى لعنهم، وثانيها: أنه غضب عليهم، وثالثها: أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، قال الإمام الماتريدي في تفسيره: "وعبد الطاغوت" يعني الشيطان. ولما كان الشيطان طالباً شركة المستخلفين في حكمهم وكان ذلك مقتضياً لعبادته التي هي نتيجة طاعته والانقياد لإغوائه، أردف ذلك سبحانه بالأمر بعبادته عز وجل معرفاً بحسنها حاثاً على لزومها **(وأن اعبدوني)** أي أطيعوني ووحدوني واعتقدوا كمال أسمائي وأوصافي واستقلالي في عموم تدبيراتي وتصرفاتي في ملكي وملكوتي وامثلوا أمري ولا تشاركوا معي شيئاً من مخلوقاتي واتبعوا رسولي **(هذا صراط مستقيم)** وقد وجّه تعالى الخطاب إليهم ابتداء على جهة التقرير والتوبيخ مبيناً جناياتهم بنقض العهد وبعدم الاعتاز بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان ثم أردف ذلك بقوله **(ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون)** أي أن الشيطان أضل منكم جمعاً عظيماً وخلقاً كثيراً، وقرئ **(جبلاً)**

بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وبضمهما مع تشديد اللام، وبضم الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام. وعبادتهم لشياطين الجن أشار إليها القرآن في آيات عديدة، ومنها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي أنهم أثبتوا لله شركاء الجن في الحكم ونسبوا له تعالى كذباً وزوراً بنين من النبيين وبَنَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَشْرَكُوهُمْ بِالْعِبَادَةِ عَلَى وَجْهِ السَّخَرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ عَلَى قُبْحِ صَنِيعِهِمْ وَافْتِرَائِهِمُ الْبَاطِلَ! تعالى الله وتنزهه وتقدس عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالى. وحكومة المملكة العربية السعودية تستعين بشياطين الجن وتقوم بتعذيب الناشطين في سجونها بشتى أنواع السحر ناهيك عن ارتكاب الجريمة القذرة في غرف التعذيب بالاعتداء الجنسي عليهم كما حصل في سجن الرويس وكان القائم على التعذيب مجوسياً بتوجيهات من نايف بن عبد العزيز آل سعود أشعل الله قبره ناراً.

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين

الأظهر أن هذا عطف على قوله "وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد" وأن ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار كما تقدم واقع موقع الاستطراد والاعتراض فيكون ضمير عليهم عائداً إلى الذين كفروا من قوله "وقال الذين كفروا هل ندلكم" الخ. ويحققه قوله بعده "وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة

من هو منها في شك" ولذلك ابتدئت السورة بذكر الحمد له تعالى في الآخرة، واختتمت بقوله "ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب، وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب" والذي درج عليه المفسرون أن ضمير "عليهم" عائد إلى سبأ المتحدث عنهم ولكن لا مفر من أن قوله تعالى بعد ذلك "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله" الآيات هو عود إلى محاجة المشركين المنتقل منها بذكر قصة داود وسليمان وأهل سبأ، وصلوحية الآية للمحملين ناشئة من موقعها وهذا من بلاغة القرآن المستفادة من ترتيب مواقع الآية، وسياق الآية منصب على قوله "تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين" أي بان أمرها كأنه قال افتضحت الجن أي للإنس، ويحتمل أن يكون قوله تبينت الجن بمعنى علمت الجن وتحققت ويريد الجن جمهورهم والفعله منهم والخدمة ويريد بالضمير في "كانوا" رؤساءهم وكبارهم لأنهم هم الذين يدعون علم الغيب لأتباعهم من الجن والإنس ويوهموهم ذلك - قاله قتادة - فيتيقن الأتباع أن الرؤساء لو كانوا عالمين الغيب ما لبثوا وأن على التأويل الأول بدل من الجن وعلى التأويل الثاني مفعولة محضة، وقرئ "تبينت الجن" على بناء الفعل للمفعول أي تبينتها الناس. والمقصود من قوله (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه) تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان وسوء عاقبة أتباعه ليحذروه ويستيقظوا لكيدته فلا يقعوا في شرك وسوسته فالمعنى: أن الشيطان سول للمشركين أو سول للممثل بهم حال المشركين الإشارك بالمنعم وحسن لهم ضد النعمة حتى تمنوه وتوسم فيهم الانخداع له فألقى إليهم وسوسته وكره إليهم

نصائح الصالحين منهم فصدق توسمه فيهم أنهم يأخذون بدعوته فقبلوها وأعرضوا عن خلافها فاتبعوه، ففي قوله "صدق عليهم إبليس ظنه" إيجاز حذف لأن صدق الظن المفرع عنه اتباعهم يقتضي أنه دعاهم إلى شيء ظاناً استجابة دعوته إياهم، وحال سبأ مع شياطين الجن أشبه ما يكون بحال أهل الكتاب الذين حملهم إبليس بعظيم خداعه على التكذيب بالبعث واليوم الآخر! ويبدو أن سليمان عليه السلام هو الذي دعا أهل سبأ إلى الإسلام لما بين ملك سليمان وبين مملكة سبأ من الاتصال في سورة سبأ وسورة النمل، ولأن في حال أهل سبأ مضادة لأحوال سليمان، وصبغة ملكة سبأ **(وأوتيت من كل شيء)** كصبغة ملكة سليمان **(وأوتينا من كل شيء)** ويبدو أن إعراضهم عن دعوته كان بعد إسلام ملكتهم بلقيس **(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم)** أي فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعاهم إليه النبي من الإيمان بالله واليوم الآخر... والأظهر أن سليمان عليه السلام أرسل عليهم نفراً من الجن يهدمون السد بإذن ربه، ويفيد هذا المعنى قوة **(ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه)** في سياق واحد. ثم أرسل عليهم جيشاً مزقههم تمزيقاً ضربت به العرب المثل في قولهم: تفرقوا أيدي سبا! وحكاية قولهم **(فأعرضوا)** يقتضي دعوة لشيء، ويؤيده قوله **(وظلموا أنفسهم)** وظلم النفس أطلق في القرآن على الإشراك وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق! ولما أعرضوا وكذبوا بالبعث وبدّلوا الدين بدّل الله بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حُمط وأثل وشيء من سدر قليل علاجاً لزماتهن! وقولهم **(ربنا باعد بين أسفارنا)** قالوه جواباً عن موعظته واستهزاء به وإفحاماً لدعوته! وقرئ بحذف الألف مع تشديد العين مكسورة وإسكان الدال على أنه فعل أمر، وفي قراءة أخرى برفع باء ربنا وبإثبات الألف بعد باء باعد

مع فتح العين مخفية وفتح الدال على أنه ماضٍ، وهذه القراءات تؤكد أنهم قالوه على وجه الاستهزاء! وحالهم مع إبليس كحال الحفاة العراة ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ وقرأ بتخفيف دال صدق وضمن معنى أوقع أو ألقى أي أوقع عليهم ظنه فصدق فيه، والعطف في الآية على قصة سباً لإيراد تمثيل أمة بأمة فمثّل الله حال القرى الظاهرة بسباً وما كان من هلاكهم بالكفر والعتوّ والتكذيب بالبعث، وقوله "إلا فريقاً من المؤمنين" أي من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون "وما كان له عليهم من سلطان" أي تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقيل: المراد ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك. والخلاصة أن إبليس سؤل للمشرّكين الإشرّاك في الحكم والعبادة والتكذيب باليوم الآخر كما دل عليه مطلع السورة ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ إلى قوله ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ وهذا من تسويلات القرين كما في قوله تعالى ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول أئنك لمن المصدقين، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾ أي كان لي شيطان يقول مكذباً بالبعث مستبعداً له غاية الاستبعاد مجدداً لقوله في كل وقت يريد أن يحتدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده: أئنك لمن المصدقين بالبعث؟ يوجني بذلك ويستقصر باعي في النظر استشارة لهمتي وإلهاباً لنخوتي وحميتي ويكرر الإنكار بقوله: أئذا متنا وذهبت أوراحنّا وكنا تراباً وعظاماً فانمّحقت أجسامنا التي هي مراكب الأرواح أئنا لجزيون بعد ذلك بما عملنا بأن نبعث ونجازى؟ وفي سورة النمل لما بيّن سبحانه أنه الإله المعبود المختص بالقدرة

والمختص بعلم الغيب، نفى سبحانه عن آلهتهم المسترقين السمع: العلم بالغيب ووقت البعث مع أن معرفة وقته مما لا بد منه في الألوهية ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ ثم أتبع ذلك بالإخبار عن أحوال ثلاثة تلبس بها الشيطان وأوليأؤه ﴿بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ أي أدرك علمهم في الآخرة لوصول النذر إليهم وتحقق الموعد به، بل هم في شك من وقوعها، بل هم منها عمون عمي قلب وبصيرة! وفي سورة الكهف ذكر تعالى إنكارهم البعث والقيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب ﴿وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ ثم أورد قصة إبليس وتكبره على آدم وترفعه عليه وأنكر عليهم في أسلوب الخطاب - لأنه أوجع في التبكيت - اتخاذ إبليس وذريته شركاء من دونه تعالى ﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ ولما ذكر الحق تعالى في سورة النحل أنه بعث في كل أمة رسولا بعبادة الله وحده واجتناب عبادة الشيطان أعقب ذلك بذكر حال أولياء الشيطان فقال ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ وفي سورة البقرة وردت قصة إبليس نحو آدم عقب قوله تعالى ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ وفي سورة الأعراف افتتحت القصة بالإخبار عن جزاء الأعمال يوم القيامة والفصل بين الخلائق

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ وذيلت بالإخبار عن حياتهم في الأرض وموتهم وبعثهم للحساب يوم القيامة ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ ولما ذكر الله تعالى في سورة الحجر قوله ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ أردف ذلك بقصة إبليس وآدم ثم ذكر أحوالهم في النار... وفي سورة بني إسرائيل وردت قصة إبليس وترفعه على آدم بين الآية ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ وبين الآية ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ وفي سورة طه تقدم القصة قوله تعالى ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾ ثم ختمت بذكر وعيد في الآخرة بعد وعيد... وفي سورة الشعراء ذكر الحق كبكبتهم مع شركائهم من الجن والإنس في الجحيم ﴿فككبوا فيها هم والغاؤون، وجنود إبليس أجمعون﴾ وفي سورة صاد تقدم قصة إبليس وآدم ذكر أحوالهم في النار... فهذه إحدى عشرة مرة ذكر فيها شيخهم اللعين إبليس في القرآن الكريم. وقد توسم اللعين في المستخلفين الانخداع له فألقى إليهم وسوسته وحَبَّب إليهم الكفر والإشراك والتكذيب بالبعث فصدق توسُّمه فيهم! وحقيق بمن كان إبليس اللعين قرينه وصفيّه، والشيطان الرجيم نصيره ووليّه، أن يصل لمثل ذلك، ويقع في أودية المهالك! أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «قال الله: كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذّبيه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدّاني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفأ أحد» وهذا حال المستهزئين الذين أخبر المولى عنهم ﴿إنهم لا إيمان لهم﴾ أي: لا دين لهم! ولما أخبر تعالى عن إبليس وجنوده أنهم لا يملكون مثقال ذرة وهو أحقر الأشياء أي

أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، أخبر أنهم ما لهم في السماوات ولا في الأرض من شركة فنفي نوعي الملك من الاستبداد والشركة ثم نفى الإعانة منهم له تعالى في شيء مما أنشأ بقوله ﴿وما له منهم من ظهير﴾ فبيّن عجز شركائهم في الحكم، ثم أبطل شفاعته من اتخذوهم شركاء في العبادة فقال ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ وقد تقدم تفسير الآية مستوفى.

الفصل الثالث: سورة المائدة

يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين

اعلم أيها الشاهد أن المولى سبحانه لما حكى في الآيات المتقدمة عن بني إسرائيل نقضهم ميثاقهم وتحريفهم الكلم وتركهم نصيباً جزيلاً وقسطاً وافياً مما أمروا به من الإيمان بالوحدانية والنبوة المحمدية، أتبعه بيان ما يخفونه من الحق، ففي جانب علاقتهم مع المسلمين أخفوا توحيد الله في الحكم كقوله جل شأنه ﴿ألا له الحكم﴾ وهذا لم يذكروه في كتبهم ورسائلهم! وقد عبّر عنه بقوله ﴿كثيراً﴾ باعتباره أصل الكتاب وقاعدته وأساس دين الإسلام وجميع الكتب السماوية جاءت لحفظه وتحقيقه وصيانته كما حكى تعالى ﴿وتخفون كثيراً﴾ وفي جانب علاقتهم مع أتباعهم الذين تدينوا بدين اليهودية والنصرانية أخفوا صفة سيدنا محمد ﷺ وهذا يعني إخفاء جميع الرسائل السماوية وهدم الدين من أساسه! ومعنى قوله ﴿ويعفوا عن كثير﴾ أي يعفو عن كفركم إذا تبتم وقتلتم أنفسكم أو خرجتم من دياركم... ولعله عبر بالمضارع في قوله ﴿يبين﴾ إشارة إلى أن دينه وبيانه لا ينقطع أصلاً ولا يخفى أن عترة الرسول عليه الصلاة والسلام يقومون مقامه فيتناولهم حكم البيان الوارد له ﷺ فكلما اندرس الدين منح الله بعالم يرد الناس إلى الحق بالكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، ولما أخبر تعالى عن بيانه للخفايا وكان التفصيل لا يكون إلا بالنور، قال مفتتحاً بحرف التحقيق ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ أي واضح النورية وهو نور الأنوار والرسول المختار ﷺ الذي كشف بالكتاب المبين ظلمات الشك والشرك وسماه

كتاباً لأنه جامع لكل شيء، والجملة بدل من جملة **(قد جاءكم رسولنا)** بدل
اشتمال لأن مجيء الرسول اشتمل على مجيء القرآن، ولذلك وحد الضمير في
قوله **(يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى
النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)** وعليه فإن الطرق إلى الله تعالى
مسدودة إلا على من اتبع سيد الكائنات وخير البريات الحائز على أعلى
المقامات في سائر الأحوال والشؤونات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات
فمن نوره انشقت أسرار الذات وانفلقت أنوار الصفات وامتدت جميع
الكائنات. روى الإمام عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قلت: يا
رسول الله بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء، قال: **«يا
جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور
بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار
ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد
الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم ومن
الثاني اللوح ومن الثالث العرش ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء
الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة ثم قسم الجزء
الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السماوات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث
الجنة والنار ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن
الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور إنسهم وهو التوحيد: لا إله
إلا الله محمد رسول الله»** الحديث. قال الإمام سهل التستري قدس الله تعالى سره
العزیز: وخلق آدم عليه السلام من طين العزة من نور محمد صلى الله عليه وسلم. وقال أيضاً: والذرية
ثلاث: أول وثاني وثالث: فالأول: محمد صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى لما أراد أن يخلق

محمداً ﷺ أظهر من نوره نوراً فلما بلغ حجاب العظمة سجد لله سجدة فخلق سبحانه من سجدة عموداً عظيماً كالزجاج من النور أي باطنه وظاهره فيه عين محمد ﷺ... الثاني: آدم صلوات الله عليه خلقه من نور قال العلي عليه السلام: «وخلق محمداً ﷺ يعني جسده من طين آدم عليه السلام» والثالث: ذرية آدم، وإن الله عز وجل خلق المرادين من نور آدم وخلق المرادين من نور محمد ﷺ فالعامة من الخلق يعيشون في رحمة أهل القرب، وأهل القرب يعيشون في رحمة المقرب "يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم" وقال الحسين بن منصور الحلاج: أنوار النبوة من نوره برزت وأنوارهم من نوره ظهرت وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم سبقت همته الهمم ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم. وقال الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله تعالى عنه: إنه تعالى نور ليس كالأنوار، والروح النبوية القدسية لمعة من نوره، والملائكة شرر تلك الأنوار، وقال ﷺ: «أول ما خلق الله نوري، ومن نوري خلق كل شيء» وغيره مما في معناه. نقله عنه العلامة الفاسي في مطالع المسرات. ونقل الإمام أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه في علم القلوب كلام الإمام التستري رحمه الله تعالى السالف ذكره محتجاً به ونقله كذلك الإمام أبي الحسن علي بن محمد الديلمي رضي الله تعالى عنه ونقل تعليق تلميذه عمر بن واصل العنبري عليه وفيه: وهو القول الصحيح الذي لا زيادة عليه. وقال باز الله الأشهب وقطب الأقطاب وغوث الخلائق سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره النوراني: فلما خلق الله روح محمد ﷺ أولاً من نور جماله كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «خلقت محمداً أولاً من نور وجهي» وكما قال النبي ﷺ: «أول ما خلق الله روحي وأول ما خلق الله نوري وأول ما

خلق الله القلم وأول ما خلق الله العقل» والمراد منهم شيء واحد وهو الحقيقة الحمديّة لكن سُمّي نوراً لكونه صافياً عن الظلمانية الجلالية كما قال الله تعالى ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ وعقلاً لكونه مدركاً للكليات، وقلماً لكونه سبباً لنقل العلم كما أن القلم سبب نقل العلم في عالم الحروف فالروح الحمدي خلاصة الأكوان وأول الكائنات وأصلها كما قال ﷺ: «أنا من الله، والمؤمنون مني» فخلق منه الأرواح كلها في عالم اللاهوت في أحسن التقويم الحقيقي وهو اسم حجة الأنس في ذلك العالم وهو الوطن الأصلي فلما مضى عليها أربعة آلاف سنة خلق الله العرش من نور عين محمد ﷺ وبواقي الكليات منه. وقال الشيخ الأكبر والكبير الأحمري محيي الدين بن عربي قدس الله سره العزيز: وأول النشأ نشأ سيدنا محمد ﷺ على أكمل وجه وأبدع نظام بحر اللؤلؤ والمرجان المودع في العالم الأكبر والإنسان ولما تعلقت إرادة الحق سبحانه بإيجاد خلقه وتقدير رزقه برزت الحقيقة الحمديّة من الأنوار الصمديّة في الحضرة الأحديّة... فأوجد الحقيقة الحمديّة على صورة حكمه فسلخها من ليل غيبه فكانت نهاراً وفجرها عيوناً وأهواراً ثم سلخ العالم منها فكانت سماء عليهم مداراً وذلك أنه سبحانه اقتطع من نور غيبه قطعة لم تكن متصلة فتكون عنه عند التقاطع منفصلة... ولما اقتطع القطعة المذكورة مضاهية للصورة أنشأ منها محمداً ﷺ على النشأة التي تنجلي أعلامها ولا يظهر من صفاته إلا أحكامها ثم انقطع العالم كله تفصيلاً على تلك الصورة وأقامه متفرقاً على غير تلك النشأة المذكورة. وقد ذكرها كذلك في كتبه "الفتوحات المكية" و"تلقيح الفهوم" و"التدبيرات الإلهية" و"الدوائر" فلا سبيل للقول بأنها مدسوسة عليه أو أن كلامه على غير ظاهره. وألف ابن سبعين رسالة في أنوار النبي ﷺ. وقال العارف بالله

عبد الكريم الجيلي رضي الله تعالى عنه: وإنه أفضل العالم وأشرف الخلق بالإجماع لكونه مخلوقاً من نور الذات الإلهية وما سواه فإنما هو مخلوق من أنوار الأسماء والصفات فلاجل ذلك كان ﷺ أول مخلوق خلقه الله تعالى فكما أن الذات مقدمة على الصفات فمظهرها أيضاً مقدم على مظهر الصفات وقد أخبر عن نفسه في حديث جابر رضي الله عنه فقال: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر» ثم خلق العرش منه ثم خلق العالم بعد ذلك منه وقد رتب خلق العالم في ذلك الحديث من أعلاه وأسفله والسر في ذلك أن الذات سابقة الوجود في الحكم على الصفات وإلا فلا مفارقة بين الصفات والذات لأن السبق إنما هو في الحكم لا في الزمان لأن الصفات لا بد لها من ذات أقدم في الوجود، فكان رسول الله أقدم في الوجود لأنه ذات محض والعالم جميعه صفات تلك الذات وهذا معنى خلق الله العالم منه، وروح محمد ﷺ هو المعبر عنها بالقلم الأعلى وبالعقل الأول لبعض وجوهه، ومن هذا المعنى ورد قوله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم» وقد قال: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر» ولو لم تكن الثلاثة أشياء عبارة عن وجود واحد هو روح محمد ﷺ لكان التناقض لازماً في هذه الثلاثة أخبار وليس الأمر كذلك بل هي جميعها عبارة عنه كما يعبر عن قلم الكتابة بالبراعة تارة وتارة بالآلة وتارة بالقلم كل ذلك لوجوهه من غير زيادة ونقص. وقال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ... فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفاضل ومدده الواسع من غير أن ينقص منه شيء وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام حيث جعله الله خليفة وأمه بالأسماء كلها... ثم توالى الخلائف في الأرض إلى أن وصل زمان وجود صورة

جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور. وقال الإمام نظام الدين النيسابوري رضي الله تعالى عنه: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة" أي كان في الأول مقدراً لكم متابعة رسول الله ﷺ فتعلقت قدرتنا بإخراج أرواحكم من العدم إلى الوجود عقيب إخراج روح الرسول من العدم إلى الوجود «أول ما خلق الله نوري أو روحي» وبحسب القرب إلى روح الرسول والبعد عنه يكون حال الأسوة وكل ما يجري على الإنسان من بداية عمره إلى نهاية عمره من الأفعال والأقوال والأخلاق والأحوال.

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) لما بين تعالى ما يخفونه من الكتاب وكشف عن كفرهم وغرور أنفسهم وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ذكر مجيء رسوله الأعظم على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والصلبان، إنشاء بوحدة الرسالات في الأصول كراهية أن يقولوا ما جاءنا رسول بهذه الوحداية! فالزمهم الله وجوب اتباعه على نحو قوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) ولعله عبر بالمضارع في قوله (يبين) إشارة إلى أن دينه وبيانه لا ينقطع أصلاً بحفظ كتابه فكلما اندرس الدين منح الله بعالم يرد الناس إلى الحق بالكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، وقدرة الله تعالى لا يعجزها ممكن ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة.

تبديل القول وتحريف الكلم

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) لما ذكر الحق أحوال بني إسرائيل انتقل إلى خطاب الجنب الشريف ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف قائلاً يا أيها الرسول الكريم والسيد العظيم لك المقام المحمود واللواء المعقود والرتب الشريفة والمنازل العلية والسنن المرضية وأنت سيد الأولين والآخرين ولا يدانيك أحد فضلاً عن أن يساميك فلا يحزنك كفرهم فإن من أقصاه الحق عن محل التقريب وأرخص له عنان الإمهال وكله إلى مكره ولبس عليه حاله وسره فهو ينهمك في أودية حسابه وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وباله... والمسارة في الكفر تعني إظهار آثاره عند أدنى مناسبة وفي كل فرصة واستخراج وجوهه احتيلاً وكيداً ومكراً، وقوله (ومن الذين هادوا) معطوف على ما تضمنته الجملة السابقة من الحديث عن النصارى، وتقدير الكلام: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من النصارى ومن اليهود، كقوله في الآيتين المتقدمتين (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أي أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من اليهود،

والضمير في كلمتي ﴿مِثَاقَهُمْ﴾ عائد على بني إسرائيل، وعبر عن النصارى بـ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ تسجيلاً عليهم بأن اسم دينهم مشير إلى أصل من أصوله وهو أن يكون أتباعه أنصاراً لله ورسله، كما عبر عن اليهود في هذه الآية بـ﴿الذين هادوا﴾ تسجيلاً عليهم بأن اسم دينهم مشير إلى أصل من أصوله وهو أن يكون أتباعه تائبين وراجعين إلى الله كما حكى تعالى قولهم ﴿إنا هدنا إليك﴾ ولما ذكر تعالى التحريف، ذكر أثره وهو التشوّف للكذب فقال مؤكداً لوصفهم زيادة في توبيخهم وتقييح شأنهم ﴿سماعون للكذب﴾ والجملة خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم سماعون للكذب، والضمير المقدر عائد على الفريقين: النصارى واليهود بقرينة الحديث عن الفريقين، والمعنى أنهم يتشوّفون للكذب ويرتاحون له وهم يعرفونه كذباً، أي أنهم يحفلون بذلك ويتطلبونه فيكثر سماعهم إياه، وفي هذا كناية عن تفشي الكذب في سياساتهم وإعلامهم وعقائدهم وجماعاتهم بين سامع ومختلق، والمراد بالكذب كذب أخبارهم الزاعمين أنهم أئمة التوحيد، كما زعم أسلافهم أن حكم الزنى في التوراة التحميم! وقوله ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ جملة معترضة بين جملة ﴿سماعون للكذب﴾ وبين جملة ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ للدلالة على رؤسائهم وكبار كهنتهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم وعتوهم، وقد تضمن السمع معنى الاطمئنان أي يطمئنون لكبار كهنتهم المبالغين في العتو والمكابرة كما أشارت العبارة ﴿لم يأتوك﴾ أي لم يصلوا إلى مجلسك وتحافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة بغضهم وعداوتهم وهم الأخبار المحرفون المجترؤون على الله بتبديل آياته ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ وقد أفادت الجملة إبطال العمل بكلام ثابت في الكتب الإلهية إذ ألغوا حكم الله الثابت فيها فضلاً عن تحريفهم ألفاظ

التوراة والإنجيل حتى صار فيهما من كثرة التناقض في الأخبار ونسبة أشياء إلى الله تعالى وإلى أنبيائه ما ينزه العاقل نفسه عن أن يتصف بشيء منها فضلاً عن جلالة القدر ومنصب النبوة! وهذا التحريف أشد جرأة من التحريف المشار إليه في الكلام السابق **(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)** لأن قوله **(مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ)** يقتضي تغيير الكلام بكلام آخر كتحريفهم حكم الرجم الثابت في التوراة إلى الجلد حيث وضعوا الجلد مكان الرجم، وتحريفهم في نعت النبي ﷺ! فكان قوله **(مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ)** أبلغ في تحريف الكلام فالبارة دالة على أنهم أخرجوا اللفظ من الكتاب وبدّلوه بغيره لأن لفظ **(بَعْدَ)** يقتضي الإخراج من موضعه وفيه من المبالغة في التشنيع ما لا يخفى، فالتحريف هنا يكون بتبديل الألفاظ، وأما التحريف في قوله **(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)** فيكون بسوء التأويل وحمله على غير المراد وإجرائه في غير موردّه وهذا أخطر على أمة الإسلام ولذلك أتبعوا باللعنة. وهؤلاء الملعونون الذين توارثوا بالأمس الكتب الإلهية وتوارثوا معها كتمانها وتحريفها عبر القرون لا يزالون اليوم يتواصلون بالكتمان والتحريف ويتواطون عليه ولا يزالون يُخْرِجُونَ للبشر النسخ المحرفة ويُزِيلُونَ آثار الوحي من المجتمعات ويُحَذِّرُونَ من يحيد عنهم ويقولون لأتباعهم السماعين لهم **(إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا فَخَذُّوهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا)** والإشارة إلى الكلم المحرف، والأخذ بمعنى القبول، ولما كان التقدير: فأولئك الذين أراد الله فتنتهم، عطف عليه قوله **(وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)** وهؤلاء القوم سلكوا سبيل الفتنة ولجّوا فيها وهم واقعون فيها فقد عاندوا الله وحرفوا كلامه حسبما ينبئ عنه قوله سبحانه **(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** أي يعلمون علماً جازماً بحقية كلام

الله تعالى وآياته ويعلمون بطلان ما حرفوه وبدلوه! وقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره أنهم كانوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله تعالى ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك فلذلك وصفهم بما وصفهم به للخصوص الذي كان خص به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى، ويعني بقوله "ثم يحرفونه" ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه، وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها فكذلك قوله "يحرفونه" أي يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه إلى غيره فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا وأنه بخلاف ما حرفوه إليه فقال "يحرفونه من بعد ما عقلوه" يعني من بعد ما عقلوا تأويله "وهم يعلمون" أي يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون وذلك إخبار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه الصلاة والسلام وأن بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد ﷺ بغياً وحسداً على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه الصلاة والسلام. وقال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿سَلِّبْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المراد من تبديلها تحريفها وإدخال الشبهة فيها. وقال الإمام الثعلبي: يغيّر كتاب الله. وقال الإمام النسفي: حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ. والمقصود من السؤال - والله أعلم - إقامة الحجة على أهل الكتاب وهو سؤال التقرير للتقريع فإنهم لو سئلوا لسكتوا سكوت ذل وهوان ولما تفوهوا ببنت شفة، والتبديل على هذا يؤوّل بتبديل المقصود منها واستعمالها في غير المراد منها مثل دخولهم القرية في الزمن الأول يزحفون على أستاههم قائلين: «حبة في

شعرة» والمراد: المخالفة والتبديل مصحوباً بالاستهزاء والسخرية! وكان موسى قد أرسل اثني عشر رجلاً إلى القرية فوق عشرة منهم في شرك الحكم وبدّلوا ما أمروا به من القول والفعل وعملوا جواسيس للجبارين وأشاعوا الإرجاف في بني إسرائيل فكانوا السبب في شقاء أمة كاملة وحُرموا من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون في الأرض، ولما خرجوا من التيه مع يوشع بن نون وفتح الله عليهم بيت المقدس أمروا بدخول باب القرية - وكان قِبَل القبلة - سجداً خضوعاً شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والإنقاذ من التيه وأمروا أن يقولوا حطة أي يسألوا الله المغفرة، فبدلوا السجود بالزحف فدخلوا يزحفون على أوراكنهم وقالوا كلاماً مهماً غرضهم به المخالفة لما أمروا به من الكلام المستلزم للاستغفار وحط العقوبة عنهم وزادوا على ذلك الاستهزاء: حبة في شعرة! فخالفوا في القول والفعل فعاقبهم الله بالطاعون حتى هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة واحدة... كذلك اليوم حرّفوا الإسلام وبدلوه وبحثوا عن أسباب الصد عن الحق والتمسوا أوجه الشبهات البعيدة لخداع الناس وردهم عن دينهم وجادلوا في آيات الله وبدلوا كلمات الله! والتبديل في القرآن يكون بالتأويلات الفاسدة، وكذلك في الكتب السابقة كما جاء في إنجيل متى الإصحاح الخامس: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون» وتكرر ذلك في الأنجيل غير مرة فبدلوها ولم يراعوا أصول الديانة التي توجب تأويلها، ألا ترى أن المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبينوا دليلها؟ كما في الحديث: «**الخلقُ عيالُ الله**» ولما ذكر تعالى التحريف، ذكر أثره وهو الحكم به فقال مبالغاً في وصفهم زائداً في توبيخهم وتقريعهم وتقبيح شأنهم (**يسمعون للكذب أكالون للسحت**) أي أنهم ألفوا قول الأباطيل وخداع العامة

وصناعة الكذب فأسماعهم تتشوّف له وألسنتهم تحترفه، كما أَلَفُوا أكل الربا وأخذ الرشوة في الحكم، وكذلك هي الأبعاد والجوارح التي بناها أصحابها من حرام! وتضمن (سمع) معنى (تشوّف) يكشف عن مدى لؤمهم وخستهم وجبنهم! فهم يجبنون عن اختلاق الكذب علانية ويتشوّفون لسماعه من أتباعهم وشركائهم! ثم أعلم الله تعالى الحاكم بما يفعل في شأنهم، وحذره غوائل مكرهم ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرُضْ عَنْهُمْ﴾ روى ابن جرير عن الحسن البصري قال: نُسخَت بقوله ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهو قول عكرمة ومجاهد والسدي. وقيل: هو على التخيير أي إن جاءوك أيها العارف يستخبرونك ويزعمون أنهم موافقون للسنة فأنت مخير بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم ووجه التخيير تعارض السببين فسبب إقامة العدل يقتضي الحكم بينهم، وسبب معاملتهم بنقيض قصدهم من محاولة مصادفة الحكم لهوهم يقتضي الإعراض عنهم، وإن شئت قلت: فإن جاءوك بثوب النفاق ورداء المداورة ووجه الخداع فاحكم بينهم بالقسط على الوجه الذي بينه الله في كتابه، وفي قوله ﴿وَإِنْ تَعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا﴾ تطمين للحاكم وفيه إشعار بأنهم ليس لهم سلطان على من تاركهم وأعرض عن أهوائهم وأحزاهم ومناهجهم، والإعراض لا يعني شيوع الروح الفردية وغياب الروح الجماعية خاصة بين علماء الأمة الذين هم أقدر الناس على مواجهة الأئمة المضلين، وابتداء التخيير بالحكم بينهم إشارة إلى أنه أولى ويؤيده قوله بعد ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وقد حكم رسول الله ﷺ بأنهم كتموا ما في التوراة وبيّن لهم حقيقة ما جاء فيها فاتضح بطلان ما كانوا يحكمون به لعدم موافقته شرعهم ولعدم موافقته شرع الإسلام؛ فهو حُكْم على اليهود بأنهم

كتموا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا فقال لهم: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟» قالوا: نحممهما ونضربهما فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتهم فأتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما... وهذه النسخة التي نطقت بالحق أين هي اليوم؟ هل في تل أبيب وروما... أم في الدرعية ونواحيها؟! ثم إن الحفاة العراة لو أقاموا حدّ الزنى أو حدّ اللواط لما نجا ملك من ملوكهم من الرجم، ناهيك عن الحُشوة والدهماء منهم! ولما كان التقدير: فكيف يحكمونك وهم يكذبونك ويدعون أنك مبطل، عطف عليه قوله معجباً منهم موجّهاً لهم (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) يعني فيها الأحكام التفصيلية التي تتفرع عن الإقرار بحُكْمِية الله وهذا هو الأصل العظيم، والاستفهام في الآية للتعجب من تحكيمهم إياه مع أنهم لا يؤمنون به ولا بكتابه! ويُحتمل أن يكون الاستفهام إنكاري أي هم لا يحكمونك حقاً، ومحل الإنكار هو أصل ما يدل عليه الفعل من كون فاعله جاداً أي لا يكون تحكيمهم صادقاً بل هو تحكيم صوري يبتغون به خداعك وخداع المؤمنين وهذا أكثر ملاءمة للسياق فإنه في المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم! وعليه فإن فعل (يحكمونك) مستعمل في التظاهر بمعنى الفعل دون وقوعه كما يرشد إليه قوله (ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أي ما آمنوا بالتوراة ولا بالقرآن فجمعوا عدم الرضى بحكم التوراة وبحكمك، وهؤلاء

الفجرة نقضوا الأصل والفرع وحرفوا الكلم، وأقاموا الشرع لكل أمة وفق العقائد التي قرروها لها ووفق القيم التي رسموها ثم قالوا: هذا من عند الله... وما يحسم هذه الفوضى وهذا الاحتيال على الناس باسم الله إلا أن يكون هناك مصدر واحد هو الكتاب المهيمن الأمين على كل كتاب قبله يخبر عما فيه من الحق ويصونه من العبث والتغيير فإن خالف ما فيه الذي يقوله أهل ذاك الكتاب دل على تحريفهم وتبديلهم... وتحريف الكلم هو جوهر جبلتهم وهو حالهم طوال تاريخهم مع أنبيائهم حتى قدومهم إلى الجزيرة العربية، ولا تزال حالهم كذلك منذ بزوغ فجر الرسالة المحمدية تتلون مع الأحداث التاريخية والوقائع والمعطيات... فكما أخفوا بالأمس حكم الرجم الثابت في التوراة نراهم اليوم أشد جرأة من الأمس إذ حرفوا معاني القرآن وأتوا على الإسلام من القواعد، وما زلنا نراهم عقارب وحيات وثعالب تضمّر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين، إذ نصبوا لهم الفخاخ وأقاموا لهم المصائد وتآمروا مع كل عدو للإسلام ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان﴾ أي حزبه الذين استولى عليهم فأنساهم وحدانية الله عز وجل!

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون

لما وصف عز وجل التوراة بأن فيها حكم الله استأنف ثناء عليها وعلى الحاكمين بها فقال ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ أي أدرجنا فيها هدى لمن استرشد طريق الهداية، ونور يكشف طريق التوحيد لمن استكشف الأسرار واقتبس الأنوار ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار

بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ روى الطبري عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول لما أنزلت هذه الآية: «نحن نحكم على اليهود وعلى من سواهم من أهل الأديان» وهذا ما أكدته قوله بعده ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) والمقصود من الوصف بقوله ﴿الذين أسلموا﴾ الإشارة إلى شرف الإسلام وفضله إذ كان دين الأنبياء جميعاً وأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا بالإسلام وتقرير توحيد الله تعالى وإظهار أحكامه والانقياد لتكاليفه والله أعلم، وفيه تعريض بأن الذين هادوا بُعداء من الإسلام، واللام في العبارة ﴿للذين هادوا﴾ للاختصاص، ووقوع العبارة بين المتعاطفين للإيزان بأن الأصل في الحكم بالتوراة هم النبيون، وإنما الربانيون والأخبار خلفاء ونواب لهم وورثة علمهم كما ينبى عنه قوله ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ وهو مشعر باستخلافهم في إجراء أحكام التوراة، والباء للملابسة أي حكماً ملابساً للحق متصلاً به غير مبدل ولا محرف ولا مؤول تأويلاً لأجل الهوى، واستعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي رقباء يحمونه من أن يحوم حول حماه التبديل بوجه من الوجوه، فوكل الله الحفظ إليهم وتعهّد بحفظ القرآن، فكان الربانيون والأخبار حفظة على كتاب الله وحرّاساً له من التبديل والتحريف وسوء التأويل ويحملون الناس على حق فهمه وحق العمل به، ولذلك عقبه بجملة ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ المتفرّعة عن مضمون قوله ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ لأن تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالرؤساء رضوا أم سخطوا، كما يظهر في قصر الاعتداد على رضا الله سبحانه،

والربانيون هم أهل الحقيقة، والأخبار هم أهل الشريعة، وقوله **(ولا تشتروا**
بآياتي ثمناً قليلاً) أي لا تستبدلوا نفيساً بخسيس، إذ أن الثمن الذي تباع به
إضاعة الآيات هو قليل ولو كان رئاسة وسلطة... ولما أظهروا الباطل وانتحلوا له
سبيلاً من الرأي استصغاراً لحكمة الشرع وتعزراً بالأمر فحكموا به، قال لهم
المنتقم الجبار **(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)** والآية نزلت في
بني إسرائيل وليس في أهل الإسلام منها شيء، والمقصود منها بيان كفرهم إذ
أخفوا الحكمة وحرفوا الوجدانية؛ فوصفهم الله بأنهم كافرون بما كتموا وحرفوا
من الميثاق الذي أحذه الله عليهم، وقد كشف النظم نقضهم لميثاق الله وتحريفهم
للكلم، والغرض من الآية التنبيه على قبح طريقتهم فإن غرضهم اليوم من ادّعاء
التوحيد؛ مخادعة الناس واستتباع العوام وهذا عمل الشياطين! لا يظهرون الكفر
علانية ولا يتنكرون للدين جملة، إنما يلجؤون إلى نفس طريق
الشياطين... يقولون: نحن نطبق الشرع! ويزعمون أن ما يشرعونه للناس من
أصل هذا الدين! وهذا من أحبث الكيد وأمكر الأساليب الشيطانية... ثم يجيء
السذج ممن فاتهم لبوس العلم ومعارف العلماء فيفرغون جهدهم في تبرير هذه
الأوضاع المزورة المغتصبة لألوهية الله وسلطانه بالجملة، وبهذه الغيرة الغبية
يسبغون على هذه الأوضاع الجاهلية طابع الإسلام، ويشهدون لها شهادة ضمنية
خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين، ويؤدي هؤلاء المتحمسون دورهم لتثبيت
هذه الأوضاع وتطهيرها وقد فاتهم أن المعركة الحقيقية التي خاضها النبي ﷺ
ليقرر الإسلام هي معركة الحكمة لمن تكون؟ لذلك خاضها وهو في
مكة... خاضها وهو ينشئ الإسلام فلما ترسّخت الحكمة في نفوس أصحابه في
مكة، تمكّنوا من مزاولتها الواقعية في المدينة وخضع لهم بنو إسرائيل في ميثاق

الصحيفة الشهيرة ثم نقضوا الميثاق! أخرج الإمام النسائي عن ابن عباس رضي
 الله عنهما قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بدّلوا
 التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة، فقيل للملوكهم: ما نجد
 شتماً أشد من شتم يشتموننا هؤلاء، إنهم يقرؤون ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله
 فأولئك هم الكافرون﴾ وهؤلاء الآيات مع ما يعيّننا به في أعمالنا في قراءتهم،
 فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنّا، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم
 القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى
 ذلك دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم اعطونا
 شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح
 في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم
 فاقتلونا، وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث
 البقول فلا نرد ولا نمرّ بكم، وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم، قال:
 ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء
 رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ والآخرين قالوا: نتعبد كما تعبد فلان
 ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان على شركهم لا علم لهم
 بإيمان الذين اقتدوا به... الحديث. ولما كان ختام الآيات في بيان الحكمة،
 أردف ببيان ما تفرع عنها من إقامة الحدود فقال عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها
 أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن
 والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ وفائدة الإعلام بما شرع الله لبني
 إسرائيل في القصاص هنا زيادة تسجيل مخالفتهم لأحكام كتابهم وذلك أنهم
 كانوا قد دخلوا في حروب بعث فكانت قريظة والنضير حرباً ثم تهاجزوا

وانهزمت قريظة فشرطت النضير على قريظة أن دية النضيري على الضعف من دية القرظي وعلى أن القرظي يقتل بالنضيري ولا يقتل النضيري بالقرظي فبين تعالى تحريفهم لكتابهم. ولما أظهروا الباطل وهيئوا له سبيلاً شرعياً أدخلته غلبتهم وشوكتهم في الحكم، قال الحق تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ولما كانت هذه الآيات ناقضة لما ادَّعوا من التوحيد، أتبعها بذكر ما أتى به عيسى عليه السلام من تصديق التوراة مؤكداً أطراد التوحيد الذي هو عماد الدين ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ والمصدق: المخبر بتصديق مخبر وأريد به هنا المؤيد المقرر للتوراة، وقوله "لما بين يديه" من مجاز الكلام وذلك أن ما بين يديه أمامه فقبل لكل شيء تقدم على الشيء: هو بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره، وقوله "مصدقا" حال من الإنجيل فلا تكرار بين قوله ﴿مصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ وبين قوله ﴿ومصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ لاختلاف صاحب الحال واختلاف كيفية التصديق فتصديق عيسى التوراة أمره بإحياء أحكامها وهو تصديق حقيقي، وتصديق الإنجيل التوراة اشتماله على مضمونها من الدعوة إلى الوحدانية والبشارة بسيد البرية ﷺ فهو تصديق مجازي، ولما احتالوا في الحكم فجعلوا له وجهاً في الظاهر وأبطنوا الباطل قال لهم الحكم العدل ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ والفاسقون هم الخارجون عن ربة الإيمان الواقعون في بحر الضلال والطغيان، والمراد من الآية زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل مثل ما فعلوه في التوراة والله أعلم.

جاء في المادة 94 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

1- يتعهد كل عضو من أعضاء الأمم المتحدة أن ينزل على حكم محكمة العدل الدولية في أية قضية يكون طرفاً فيها.

2- إذا امتنع أحد المتقاضين في قضية ما عن القيام بما يفرضه عليه حكم تصدره المحكمة فللطرف الآخر أن يلجأ إلى مجلس الأمن ولهذا المجلس إذا رأى ضرورة لذلك أن يقدم توصياته أو يصدر قراراً بالتدابير التي يجب اتخاذها لتنفيذ هذا الحكم.

وهذه الآيات الثلاث ليس في أهل الإسلام منها شيء، إنما هي في الكفار كما ثبت بالنصوص الصريحة والأخبار الصحيحة ففي صحيح الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب قال: «في الكفار كلها» ويتأصل بهذا المفهوم الحذر من الأمة الإسرائيلية التي طوعت النصوص لإحراج الأمة المحمدية فيما لا يلزمها الإحراج فيه.

لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

لما بينت الآيات المتقدمة أصل الإسلام وقاعدته وأساس دعوة التوراة والإنجيل آبت منها إلى المقصود وهو إنزال القرآن ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ والخطاب لرسول الله خطاب لأئمة وإنما وجّه الخطاب إليه ﷺ لأنه موضع الخطاب من الحق إلى الخلق والبرزخ الوسط الفارق بين الخلق والحق. وقوله ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ مقصود منه شدة التحذير من كيد وخداع الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، والنهي على هذا النحو له إيجاز في الحذر من المقاربة في منهاجهم ثم أشار إلى

ما في قلوبهم من النفاق وردّهم إلى أحكامهم الأصلية فقال ﴿لَـكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ والمنهاج هو الخطة المرسومة المتمثلة في القواعد والأسس
والمنطلقات التي ينطلق منها الشخص في فهمه للدين بحكم ارتباطه بأمة ما
وولائه لها وانتمائه إليها... وكل أمة تمشي على الصراط ورسولها أمامها وتكون
مؤاخذتهم على حسب تكاليفهم ولذلك قال ﷺ: «ثم يضرب الصراط بين
ظهري جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمرته» لأنه ﷺ صاحب الهدى
الجامع وشريعته جامعة للخير العام لجميع الأنام ولذلك كانت فاتحة خطبته ﷺ:
«أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد» ومن هنا
قال ﷺ: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني» وإنشاء أمة راشدة يبدأ
بالمباعدة والمباينة التامة، وإن أخطر قضية بيننا وبين الأمة الملعونة في القرآن
هي طعننا في ديننا وتزويره وتحريف كتب وفتاوى منسوبة إلى بعض علماء
القرن الثامن الهجري الذين وصفهم ابن عبد الوهاب بأنهم سادات المتأخرين
وقادتهم! فاندفعت الأمة وراءهم بلا تثبت ولا روية وتسارعت إلى تلقي هذه
الكتب دون سند صحيح يُعرف ودون تبصر في صحة نسبتها من النقل أو
إعمال للعقل! والقضية التي تعالجها الآية الكريمة هي أخطر وأكبر قضايا آيات
القرآن! قضية المفارقة بين الأمتين... وهي أخطر ما تعانيه أمة الإسلام في هذه
الحقبة من التاريخ وهي أفتك الأسلحة التي يحاربه بها أعداؤه الذين لم يستطيعوا
التسلط عليه إلا بعد تقرير عقائدهم وتثبيت لافتة الإسلام على أشخاصهم! فلا
تقارب ولا إدهان حتى تتحقق الغيرية المذكورة في خاتمة أم القرآن ﴿غير
المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقد وقع قوله ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ إتماماً
لترتيب نزول الكتب الإلهية وتمهيداً لقوله ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ فجاءت

الآيات كلها منتظمة متناسقة على أبدع وجه. ومن ثم فإن الأمة المسلمة أن تكون حاکمة على أهل الكتاب غير متأثرة بمودتهم أو شنائهم بعد أن دنسوا قبلتها وغير متأثرة كذلك بانحرافهم وغير متبعة لأهوائهم وأغراضهم الفاسدة فلا تنحرف قيد شعرة عن منهاجها وشرعتها لاسترضاء أحد منهم ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي جعلناك على منهاج وطريقة إحسانية صوفية من الدين مخالفة لطريقتهم روى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن الزهري أن حفصة زوج النبي ﷺ جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرأ عليه والنبي ﷺ يتلون وجهه فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا فيكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتكم» وهذه هي تكاليف الوصاية والقوامة والحكم كما جاء في التنزيل العزيز ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ وقال جل شأنه وعز سلطانه ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ وملة إبراهيم هي الحنيفية السالمة من الشرك والمعنى إلزموا ملة أبيكم إبراهيم أي العقيدة التوحيدية الإيمانية التي جاء بها خير البرية عليه أفضل الصلاة والسلام وأكرم التحية، وفي تذييل سورة الحج بهذه الآية إيماء إلى مجانية أهل الكتاب، وفي قوله ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وخز لقلوب أهل الكتاب الذين شدد الله عليهم، وهذا مما لا يحتاج إلى بيانه لوضوحه، فإن شريعة موسى ﷺ كانت شريعة جلال وقهر، أمروا بقتل نفوسهم في التوبة وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات وحرمت عليهم الغنائم وعجل لهم في العقوبات ما عجل، وحملوا من

الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم. وأما نبينا ﷺ فكان مظهر الرأفة والرحمة وقد وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه - كما جاء في الصحيحين - فما سُئل عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» وقال ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة» فيكون ذلك أنكى لمن أوقع الحرج عليهم وأغيط. ولما كان الأمر بالحكم فيما مضى لكونه مسبباً عما قبله من إنزال الكتاب على الأحوال المذكورة، أعاد الأمر به سبحانه مصرحاً بذلك لذاته لا لشيء آخر ليكون الأمر به مؤكداً غاية التأكيد بالأمر به مرتين: مرة لأن الله أمر به، وأخرى لأنه على وفق الحكمة فقال تأكيداً له وتنوياًً بعظيم شأنه ومحذراً من أهل الكتاب فيما يلقونه من الشبه للصد عنه ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي وأنزلنا إليك الأمر بالحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم فإن من تعمد أتباعهم فعل الله به ما فعل بهم! قال صاحب التحرير والتنوير: لما ذكر الله تعالى أنه أنزل الكتاب إلى رسوله رتب عليه الأمر بالحكم بما أنزل به بواسطة الفاء فقال ﴿فاحكم بينهم﴾ فدل على أن الحكم بما فيه هو من آثار تنزيله، وعطف عليه ما يدل على أن الكتاب يأمر بالحكم بما فيه بما دلت عليه (أن) التفسيرية في قوله ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فتأكد الغرض بذكره مرتين مع تفنن الأسلوب وبداعته، فصار التقدير: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن احكم بينهم بما أنزل الله فاحكم بينهم به ومما حسن عطف التفسير هنا طول الكلام الفاصل بين الفعل المفسر وبين تفسيره. اهـ. وتضمنين ﴿يَفْتَنُوكَ﴾ والمتعدي بغير حرفه معنى "يُحَرِّفُوكَ" أدنى للسياق، والانحراف - وهو

من صور الفتنة - في جزء يسير ينتهي إلى انحراف كبير ولذلك جاء التحذير الرهيب بخطاب الرسول ليكون ذلك أدعى لقبول الأتباع **(واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)** أي احذر مخادعتهم ومداھنتهم ومداراتهم واحذر فتنتهم وأن يحرفوك عن بعض ما أنزل الله إليك بتصوير الباطل بصورة الحق! قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد به يردوك إلى أهوائهم فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله **(وإن كادوا ليفتنوك)** والفتنة هاهنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل وكان ﷺ يقول: **«أعوذ بك من فتنة المحيا»** ومعنى قوله **(فإن تولوا)** أي فإن حكمت بينهم بما أنزل الله ولم تتبع أهواءهم وتولوا **(فاعلم)** أي فتلك أمانة انتصارك ونزول الشقاء والعذاب عليهم، وأي نصر أعظم من الخلاص والتبع للأمة الإسرائيلية إلى مصير الأمة مالكة أمر نفسها ذات سيادة على الأمم كلها؟ وقد أنجز الله الوعد الأول بقصة بني قريظة وإجلاء عمر ﷺ أهل خير وفدك ووادي القرى، وحان وعد الآخرة بإساءة وجوههم وتبوير ملكهم وتطهير القبله من رجسهم، وخصص تعالى إصابتهم ببعض الذنوب دون كلها لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا وإنما يعذبون بالكل في الآخرة.

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟

الفاء تفريع على مضمون الآيات المتقدمة استفهاماً عن مرادهم من ذلك الإعراض عن حكم الله، والاستفهام إنكاري لأنهم قرّروا حكم الجاهلية في ميثاقهم! ويقف المسلم أمام هذه الآيات فيعجب كيف ساغ للحفاة العراة أن يدعوا الإسلام بعد هذا الشرك الصريح الواضح! وكيف يُسمون أنفسهم

مسلمين وقد خلعوا ربة الإسلام من رقابهم؟ كما خلعوا شرع الله كله ورفضوا الإقرار لله بالحكم! إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص، فالجاهلية رفض حكم الله، والذي لا يتغني حكم الله ويتغني حكم الجاهلية والذي يرفض شرع الله يقبل شرع الجاهلية ويعيش في الجاهلية! إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم وألا يتردد في تطبيقها على واقع الحفاة العراة! وما لم يحسم المسلم هذه القضية فلن يستقيم له ميزان ولن يتضح له منهج ولن يفرق بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح، وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الدهماء فلا يجوز أن تبقى غامضة أو مائعة في نفوس العلماء وهم يُدركون تماماً أن جاهلية الحفاة العراة أشد خطراً من جاهلية أبي جهل... وقرئ **(تبغون)** بقاء الخطاب على أنه خطاب للحفاة العراة على طريقة الالتفات.

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين

اعلم أيها الشاهد أنه تعالى نهي في الآيات المتقدمة عن اتباع أهواء أهل الكتاب وساق الكلام في تقريره ثم ذكر هاهنا النهي العام عن موالاتهم، ودلت الآية على أنه لا يجوز موالاة أعداء الله وهذا متأكد بعموم قوله تعالى **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)** والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين الذي به يتقرب إلى الله تعالى، وإذا كان كذلك كانت العداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العداوة وبذلك امتنع طلب الولاية في الموضع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلاً فيه. والآية في بني إسرائيل من أهل

الكتاب اليهود والنصارى المعبر عنهما في الآثار المتواترة الصحاح بـ«قرنا الشيطان» لأن الكلام سيق بالأصالة فيهم فإنهم هم المقصودون ابتداء كما يقتضيه سباق النظم وسياقه وصرائح الآيات والأخبار ويدخل معهم شركاؤهم بحكم التبعية في الدين. والضمير في قوله "بعضهم" يعود على الطائفتين اليهود والنصارى والجملة مستأنفة تعليلاً للنهي قبلها وتأكيداً لإيجاب اجتناب المنهي عنه أي أنهم متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتك ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويغنونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاتة؟ وقيل: إن معنى (بعضهم أولياء بعض) أي في النصره. وفي الآية تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبه المخالف في الدين واعتزاله كما جاء في السنن من حديث جرير أن رسول الله ﷺ قال: «لا تراءى ناراها» ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى: لا تكموهم إذ أهاهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله. وروى ابن حجر في المطالب العالية بإسناده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كثر سواد قوم فهو منهم ومن رضي عمل قوم كان شريكاً من عمل به» وفي رواية لابن أبي عاصم: «من سوّد مع قوم فهو منهم» وكون المرء موالياً لهم يتضمن ثلاثة أصناف، الأول: أن يعلم حالهم ويكون راضياً بكفرهم ويتولاهم لأجله ومن فعل ذلك فهو منهم في الكفر، والثاني: أن يجهل حالهم ويتولاهم بأن يتبعهم في مسلكهم ويتنظم في سلوكهم ويغتر بدعوتهم ومن فعل ذلك فهو منهم في المذمة الواقعة عليهم وعليه، والثالث: أن يركن إليهم ويناصرهم ومن فعل ذلك فهو منهم في الردة لأن الموالاتة بهذا المعنى تجرّه إلى مُحَادَة الله ورسوله والردة عن دينه كما يقتضيه نظام الكلام إذ ربط بين

موالاتهم وبين الارتداد عن الإسلام والله أعلم، أخرج عبد بن حميد عن حذيفة رضي الله عنه قال: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر وتلا **(لومن يتولهم منكم فإنه منهم)**. وقال الإمام الماتريدي: يحتمل قوله تعالى "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" وجوهاً: يحتمل: لا تتخذوا أولياء في الدين أي لا تدينوا بدينهم فإنكم إذا دنتم بدينهم صرتم أولياءهم، ويحتمل: لا تتخذوهم أولياء في النصر والمعونة لأنهم إذا اتخذوهم أولياء في النصر والمعونة صاروا أمثالهم لأنهم إذا نصروا الكفار على المسلمين وأعانوهم فقد كفروا وهو كقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم" الآية، فهاهم أن يتخذوا أولئك موضع سرهم وخفياتهم فعلى ذلك الأول والله أعلم، والثالث "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" في المكسب والدنيا فإنهم إذا فعلوا ذلك لابد من أن يميلوا إليهم ويصدروا عن رأيهم في شيء فذلك مما يفسقهم ويجرح شهادتهم فهذا النهي يحتمل هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرنا والله أعلم. وقال الإمام ابن عطية: نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاوضة وحكم هذه الآية باق وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى "فإنه منهم". اهـ. ولما نهى سبحانه عن موالاتهم وزجر عنها، علل ذلك ترهيباً لتوليهم بقوله **(إن الله لا يهدي القوم الظالمين)** وعموم القوم الظالمين شمل اليهود والنصارى ومتوليهم وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيهاً على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض للنفس للعذاب الخالد ووضع للشيء في غير موضعه وكان الأصل: لا يهديهم ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف والمعنى أنه يخليهم وشأنهم فيقعون في الضلالة والكفر والردة. ثم فرّع على موالاتهم تمييز

الخالص الصحيح من المكدر بكدورات النفاق فقال سبحانه ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ والمرض هنا أطلق على النفاق وأطلق عليه مرض لأنه مفسد للإيمان، والكلام تفريع لبيان حالة منافقي الأمة في مولاة اليهود والنصارى، وما أشبه الليلة بالبارحة حين قال ابن سلول: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية مواليّ يعني بني قينقاع ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ والدائرة المخشّية هي خشية ذهاب مصالحهم ونزول الشدة والضائقة بهم، وهذا يؤيده قوله في تذييله ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ أي يندمون على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى، وذلك حين يجيء الفتح للمؤمنين على أعدائهم أو أمر من عند الله يقطع شأفة بني إسرائيل ويجليهم عن بلادهم فيصبح الذين تولوهم نادمين على ما حدثوا به أنفسهم، وذلك أنهم كانوا يشكون في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين. ثم انتقل الكلام إلى حكاية قول المؤمنين لمنافقي الأمة الذي سارعوا في مولاة قادة النفاق من اليهود والنصارى ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ والاستفهام للتعجب! ومحل العجب هو قسم اليهود والنصارى أنهم معهم! وقد دل هذا التعجب على أن المؤمنين يوبّخون من وإلى اليهود والنصارى إذ تحقق عندهم نفاق اليهود والنصارى الذين كانوا ييطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً ويرزون لأهل الإسلام ظاهراً كظاهر المؤمنين المخلصين! روى النسائي وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن نبي الله ﷺ قال: «لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم» وقوله ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ من جملة مقول الذين أوتوا العلم والإيمان وفيه من التفريع للمخاطبين والاستهزاء باليهود

والنصارى ما لا يخفى، وأهل الحقيقة في كل وقت قليل عددهم، كبير عند الله خطرهم، أعلى الله منارهم، وأسطع في ملكوته أنوارهم. وبعد أن نهي تعالى عن موالاة اليهود والنصارى وأخبر أن فاعلها منهم؛ قال مظهراً لنتيجة ما سبق (يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه) وهذا النداء تأكيد وتقرير للنداء الأول وقد بين هنا أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين، وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فأنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم» أي راجعين عن الدين والإشارة بهذا إلى المنافقين كما قال الإمام ابن هبيرة في الإفصاح. وقوله سبحانه (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) وعد بأن هذا الدين لا يعدم أتباعاً بررة مخلصين "يحبهم ويحبونه" ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه والمدح والثناء عليه أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله وأما محبة العبد لله سبحانه فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه وتحمله تلك الحالة على إثارة موافقة أمره وترك حظوظ نفسه وإثارة حقوقه سبحانه بكل وجه ويقال: المحبة غريم يلازمك لا يبرح ورقيب من المحبوب يستوفي له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال ثم بين الله تعالى صفة المحبين فقال (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون

في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) يذلون المهج في المحبوب من غير كراهة
ويذلون الأرواح في الذبّ عن المحبوب ويجاهدون بأنفسهم بجميع ما تصل
قدرتهم وتبلغ قوتهم إليه من إنكال الأعداء وإهانتهم ومناصرة الأولياء
ومعاضدتهم ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ويجاهدون بأسرارهم
بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات
ولا يلاحظون نصح حميم كما وصفهم النبي الكريم: **«لا تزال عصابة من أمّتي**
يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة
وهم على ذلك» ولما نهى تعالى في الآيات المتقدمة عن موالة اليهود والنصارى
أعقب ذلك بالأمر بموالة من يجب موالاته فقال **(إنما وليكم الله ورسوله والذين**
آمَنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وقوله "وهم راكعون"
أي لما فيهم من آثار الخشوع والإخبات والسكينة والتواضع لله تعالى والمقصود
تميز المنافقين من المؤمنين المخلصين وقد تظاهرت الروايات على أن هذه الآية
الكريمة نزلت في حق سيدنا علي كرم الله وجهه وولاية أهل البيت لائحة من
معنى قوله تعالى **(قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)** ومن معنى قوله
ﷺ: **«أذكركم الله في أهل بيّتي»** وروى ابن أبي شيبه عن علي كرم الله وجهه
قال: **«خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي»**
وأهل النمط الأوسط هم الأئمة العلماء والعارفون الأثبات من أهل البيت، وفي
هذا رد على الروافض حيث يظنون بأهل السنة أنهم ييغضون أهل البيت
لاعتقادهم الفاسد ووههم الكاسد وإلا فأهل الحق يحمون جميع الصحابة وكل
أهل البيت... وقد أفادت الآية الكريمة أن الدخول على الله من باب رسوله
والدخول على رسوله من باب أهل بيته. ولما كان التقدير: فمن يتول غير الله

ورسوله والذين آمنوا فأولئك أولياء الشيطان عطف عليه ﴿ومن يتول الله
ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي لا غيرهم بل غيرهم من
اليهود والنصارى مغلوبون ثم إلى النار محشورون وإذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل
أهل الباطل ومن قام لله بصدق انخس دونه كل مبطل. ثم جاء النداء الثالث في
حملة ضخمة عنيفة وتهديد رعب يحذر من موالاة المستهزئين المظهرين الإسلام
المنطوين على الكفر ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً
ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾ قال مكّي بن أبي طالب
القيرواني: ومعنى اتخاذهم ديننا هزواً ولعباً: هو إيمانهم ثم كفرهم وإظهارهم
خلاف ما يظنون أخبر الله عنهم أنهم وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا
إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. اهـ. وكيف يقوم ولاء بين
المسلم وبين الذين يستهزئون بدينه؟ وقوله ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بيان
للمستهزئين والتعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم
لما أن إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب
المصدق لكتابتهم! وخصهم بذكر القبلية ﴿من قبلكم﴾ للإشعار بأنهم من القوم
الذين يرجع بنو إسرائيل إليهم بأنسابهم إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة.
وقوله ﴿والكفار﴾ أريد بهم الشركاء حملاً على الفعل ﴿لا تتخذوا﴾ فلا يكون
النهي بالنظر إليهم حينئذ معللاً بالاستهزاء، والمعنى: لا تتخذوا المستهزئين الذين
أوتوا الكتاب وشركاءهم أولياء، وقرئ بالخفض ﴿والكفار﴾ والعطف حينئذ
للتوضيح والبيان وتعدد الصفة، والمعنى: لا تتخذوا الذين جمعوا بين الاستهزاء
والكفر من الذين أوتوا الكتاب أولياء. والولاء مسألة حاسمة لا تقبل التميع ولا
يقبل الله فيها إلا البراءة منهم لأنها قضية عقيدة ونصرة، ولن تقوم للمسلمين

راية ما لم يعرفوا طبيعة عدوهم وبواعثه وحقيقة المعركة، وكل من يحمل راية الجهاد في الأرض لن يحقق في الواقع حكم الله ما لم تتم المفاصلة الكاملة بينه وبين الحفاة العراة، وما لم يوقن بأن هؤلاء هم الذين قالوا: الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله ويد الله مغولة...ومن تَنَكَّبَ الطريق هلك وأهلك، وأغرق السفينة التي تحمل الذخيرة

فلا يُرْتَجَى نصرٌ ولا كشفٌ علةٍ إذا جاء داءٌ من مكان دواءٍ

والنص القرآني يحذر الأمة من هذا المعسكر اللعين المتلون ويستنهضها لقتاله، ويصفه بالكفر وبالفسق وبالشرك وبالنفاق وبالردة...في حملة استنهاض متنوعة الأساليب توقظ الأمة لتأخذ بثأرها منه بعد أن شتتها وقطع أوصالها، وهو يكشف لها حقيقة هذا العدو الماكر ومدى فسقه وانحرافه وتلوّنه ليعرف المسلم حقيقة من يحاربه ويطمئن ضميره للمعركة التي يخوضها والتي لن تقف إلا في عقر داره.

جاء في المادة 41 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

لمجلس الأمن أن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته وله أن يطلب إلى أعضاء الأمم المتحدة تطبيق هذه التدابير ويجوز أن يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفاً جزئياً أو كلياً وقطع العلاقات الدبلوماسية.

وجاء في المادة 42 ما يلي: إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها في المادة 41 لا تفي بالغرض أو ثبت أنها لم تف به جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء الأمم المتحدة.

وهكذا يكشف لنا هذا الميثاق عن مدى جريمة وخبث الكيد الوهابي السعودي للإسلام وأهله وهم اليوم يعيدون ما فعلوه مع عيسى ويحيى وزكريا وأنبيائهم جميعاً عليهم الصلاة والسلام ثم ما فعلوه مع نبينا ﷺ وها هم يشنون علينا حرباً مأكرة خبيثة لثيمة قاسية ومن يراجع ما حكاه القرآن عنهم يطلع على المدى الواسع المتطاوّل الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم، والذي يراجع التاريخ منذ قدوم سيدنا محمد ﷺ المدينة إلى اللحظة الحاضرة يدرك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود، وهم يستخدمون اليوم من ألوان الحرب والمكر والكيد أضعاف ما استخدموه طوال القرون الماضية وهم يعالجون إزالة هذا الدين بجملته في المعركة الفاصلة، ولذلك يستخدمون جميع الأساليب التي جربوها في القرون الماضية. ولما عمّ سبحانه في بيان استهزائهم جميع الدين؛ خصّ روحه وخالسته وسره فقال ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهو تخصيص بعد العموم أي يتخذون الدين جملة هُزُوءاً ولعباً ويتخذون النداء إلى الصلاة كذلك بإظهارهم خلاف ما يبتغون وتمرّهم على النفاق والعصيان وتمردهم في الكيد والطغيان واستهانتهم بمخادعة من لا تخفى عليه خافية ولا يبقى لمن عاداه باقية كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا﴾ قال القاضي أبو محمد

الحسين بن محمد بن أحمد المروروذي في تعليقه: إذا أم الكافر لا يحكم بإسلامه عندنا إذا كان في دار الإسلام وكذا لو صلى منفرداً لأنه يتصور أنه أراد به الاستهزاء بالمسلمين. اهـ. ولما كانوا أهل علم لا ينهض بمحاجتهم إلا الأفراد من خلص العباد قال تعالى دالاً على ما ختم به الآية من عدم عقلهم أمراً لأعظم خلقه بتبكيته وتوبيخهم وتقريعهم ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ والكلام وارد على نهج التهكم أي تنقمون منا أننا صدقنا رسلكم وكتبكم وذلك نقم عجب وأنا آمنا بما أنزل إلينا وذلك لا يهكم وتنقمون منا مخالفتكم حيث أن أكثركم فاسقون أي ونحن صالحون أي هذا نقم حسد فظهرت قرينة التهكم فصار في الاستفهام إنكاراً فتعجب فتهمك تولد بعضها عن بعض وكلها متولدة من استعمال الاستفهام في مجازاته أو في معان كناية. وسبب نزول الآية أن نفراً من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فلما ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بمن آمن بعيسى ولا نعلم ديناً شراً من دينكم وما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم. ولما أمر ﷺ بالزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو كفرهم بما هو مسلم لهم أمر عقيه بأن ييكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم واللعنة والغضب والمسخ حقيقة ما هم عليه من الاستهزاء بالدين وينعى عليهم في ضمن البيان جنايةهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ وصفة المغضوب عليهم ﴿وغضب عليه﴾ تكرر في القرآن إلحاقها باليهود كما أن صفة الضلال ﴿وأضل﴾ تكرر في القرآن إلحاقها بالنصارى. وقوله ﴿وعبد الطاغوت﴾ معطوف

على الصلة في قوله **(من لعنه الله)** أي ومن عبدوا الطاغوت أي الشيطان البالغ غاية الطغيان ومادة طوغ مهمة والمبالغة فيه من وجهين لأنه صيغة للمبالغة كالملكوت والوصف بالمصدر يفيد ذلك أيضاً فمعناه شديد الطغيان ولذلك اختص بالشيطان لأنه رأس الطاغين. قال في الكشف: الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدراً وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء مبالغة فإن الرحموت: الرحمة الواسعة والملكوت: الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان. وذكر العلامة الألوسي أن المراد بالطاغوت عند الجبائي العجل الذي عبده اليهود، وعن ابن عباس والحسن أنه الشيطان. وقال الإمام النسفي: أي العجل أو الشيطان لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان. اهـ. فإن قيل: ما وجه تسمية العجل بالطاغوت على التفسير الثاني مع أنه لا يطلق إلا على الشيطان كما مر؟ أجيب: بأنه أطلق عليه على سبيل المجاز لأن الطغيان لما حصل بسبب عبادته والتقرب إليه وصفه بذلك إطلاقاً لاسم السبب على المسبب بحسب الظاهر. وقرئ **(وعبد الطاغوت)** بضم الباء وجر الطاغوت على أن **(عبد)** جمع عبد وهو على هذه القراءة معطوف على **(القردة والخنازير)** قال صاحب أنوار التنزيل وأسرار التأويل: مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شباههم قردة ومشايخهم خنازير. وقال الإمام القرطبي: لما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم "يا إخوة القردة والخنازير" فنكسوا رؤوسهم افتضاحاً. والمقصود من ذكر ذلك هنا تعييرهم بمساوئ أسلافهم

إبكائاً لهم عن التطاول على أنه إذا كانت تلك شنشنتهم أزمان قيام الرسل
والنبيين بين ظهرانهم فهم فيما بعد ذلك أسوأ حالاً وأجدر بكونهم شراً فيكون
الكلام من ذم القبيل كله على أن كثيراً من موجبات اللعنة والغضب والمسوخ قد
ارتكبتها الأخلاف حين خادعوا المسلمين واستهزؤوا بدينهم كما يرشد إليه
قوله بعده ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيحق شتمهم بما نعتقده فيهم، ومعنى قوله ﴿وَقَدْ دَخَلُوا
بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أن الإيمان لم يخالط قلوبهم طرفة عين، لشدة قسوة
قلوبهم فهم دخلوا كافرين وخرجوا كذلك. وقد أشبع تعالى في سورة البقرة في
إقناط المؤمنين من إيمانهم وكشف عن أغطية قلوبهم وفضح نفاقهم فقال
﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقوله "ليحاجوكم به عند ربكم" أبرزوا ما قطعوا بانتفائه
واستحالاته في صورة التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر فكانوا
يظهرون الإسلام ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا إنما نحن مستهزئون! والآية
نزلت في نفر من اليهود إذ قالوا عند انصواء بعضهم إلى بعضهم: أتخبرون
المؤمنين بما أخذ الله عليكم من الميثاق ليجاحوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟
والاستفهام للتوبيخ بقرينة أن المقام دل على أنهم لما سمعوا من القرآن ما فيه
فضيحة أحوالهم وخفايا أخبارهم وذكر ما لا يعلمه إلا خاصتهم ظنوا أن ذلك
خلص للمؤمنين من بعضهم فوبخوهم على ذلك! فحكى الله ذلك عنهم حكاية
لحيرتهم واضطراب أمرهم وفضح أحوالهم وأحوال أسلافهم، والصفات القبيحة

المفصلة في القرآن لم تزل فيهم نسلًا بعد نسل ابتداء من عهد موسى إلى أن ينزل عيسى ويقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله. روى ابن جرير عن مجاهد في قوله "بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم" قال: قول يهود بني قريظة حين سبهم النبي ﷺ بأنهم إخوة القردة والخنازير، قالوا: من حدثك؟ هذا حين أرسل إليهم علياً فأذوا محمداً فقال: يا إخوة القردة والخنازير. وفي رواية قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم فقال: «يا إخوان القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت» فقالوا: من أخبر هذا محمداً؟ ما خرج هذا إلا منكم! أتحدثوهم بما فتح الله عليكم! - بما حكم الله للفتح - ليكون لهم حجة عليكم. قال مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً فأذوا محمداً ﷺ. وعن السدي قال: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض: أتحدثوهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم؟ وقال ابن زيد: كانوا إذا سئلوا عن الشيء قالوا: أما تعلمون في التوراة كذا وكذا؟ قالوا: بلى، فيقول لهم رؤسائهم الذين يرجعون إليهم: ما لكم تخبروهم بالذي أنزل الله عليكم فيحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن» فقال رؤسائهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم. قال: فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر وقرأ قول الله "وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون" وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون! ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر! فلما أخبر الله نبيه ﷺ بهم قطع ذلك عنهم فلم يكونوا

يدخلون! وكان المؤمنون الذين مع رسول الله ﷺ يظنون أنهم مؤمنون فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى! فإذا رجعوا إلى قومهم يعني الرؤساء قالوا "أتحدثوهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون" وأصل الفتح في كلام العرب: النصر والقضاء والحكم. يقال منه: اللهم افتح بيني وبين فلان أي احكم بيني وبينه. قال أبو جعفر الطبري: ويقال للقاضي: الفتح ومنه قول الله عز وجل "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" أي احكم بيننا وبينهم فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا تبين أن معنى قوله "قالوا أتحدثوهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم" إنما هو أتحدثوهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به في التوراة ومن قضائه فيهم أن جعل منهم القردة والخنازير وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم وكل ذلك كان لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به حجة على المكذبين من اليهود المقرين بحكم التوراة وغير ذلك من أحكامه وقضائه. قلت: وكانوا قد أخفوا نعت النبي ﷺ كما روى ابن جرير عن قتادة في قوله "أتحدثوهم بما فتح الله عليكم" قال: يعني بما أنزل الله عليكم من أمر محمد ﷺ ونعته. ويحتمل أن يكون في حكايته سبحانه عنهم "أتحدثوهم بما فتح الله عليكم" دلالة على أن عندهم نوعان من العلم: الأول هو الحقيقي الذي لا يعلمه سواهم، والآخر: هو الذي كتبوه لأتباعهم من المناهج الزائفة فيجتهد الأتباع ويُفرعون عليها تفريعات لا تنتهي متبعين أهواء أئمتهم، وهذا الداء لم يقتصر على أتباعهم الذين تدينوا بدين اليهودية والنصرانية بل امتد أواره إلى المسلمين! وحكى تعالى في سورة آل عمران عن أهل الكتاب قولهم "أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند

ربكم" فالوجه المجهول والباطن المطوي الذي تكتمه صدورهم وتحجبه عن الكتب أقلامهم هو مسألة التوحيد وما أوتوه من وحي ليعلموه فكتموه وأخرجوا نسخة محرفة من الرسائل والكتب إنما هي تمويه وتليس وإظهار دعوى بتدليس للاستحواذ على الناس وإضلالهم وإفسادهم وبذلك يضع العلم الذي لن يخاطروا بكشف أسرارهِ وتنقطع الصلة بين الناس وبين الكتب الإلهية فلا يبقى إلا المستخلفين هم وحدهم العالمون بالوحي، فالسر الدفين وحقائق ما فتح الله عليهم وما أوتوه هو في حوزة أحبارهم فحسب. واعلم أَرانا الله وإياك رشدنا أنك إذا تفتنت لخدعتهم وفهمت القرآن النازل بفضائهم فقد أزلت سحرهم الذي مرَّ على الأمم فقهرها أمة بعد أمة وفتحت الطريق لتحرير البشرية.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) الآية عطفٌ على قوله "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا" وهذا الذي عطف عليه اعتراض وقع في البين لبيان أصنافهم استطراداً لأولئك المخرفين. قال صاحب التحرير والتنوير: الأمانِي هي التقادير النفسية أي الاعتقادات التي يحسبها صاحبها حقاً وليست بحق أو هي الفعال التي يحسبها العامة من الدين وليست منه بل ينسبون الدين ويحفظونها وهذا دأب الأمم الضالة عن شرعها أن تعتقد ما لها من العوائد والرسوم والمواسم شرعاً أو هي التقادير التي وضعها الأحبار موضع الوحي الإلهي إما زيادة عليه حتى أنستهم الأصل وإما تضليلاً وهذا أظهر الوجوه وقيل: الأمانِي هنا الأكاذيب أي ما وضعه لهم الذين حرفوا الدين وقد قيل الأمانِي القراءة أي لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنى كما هو عادة الأمم الضالة إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم. وقال الإمام الطبري في تفسيره: وإنما وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم في تحريضهم

على ظن أنهم محقون وهم مبطلون لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأخبارهم أموراً حسبوها من كتاب الله ولم تكن من كتاب الله فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد ﷺ ويتبعون ما هم فيه شاكون وفي حقيقته مرتابون مما أخبرهم به كبارؤهم ورؤسائهم وأخبارهم عناداً منهم لله ولرسوله ومخالفة منهم لأمر الله واغتراراً منهم بامهال الله إياهم. قال قتادة: إنما هم أمثال البهائم لا يعلمون شيئاً.

قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم

روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قال: القرآن. وروى الطبري عن ابن عباس قال: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم - من بني النضير - ورافع بن حارثة ومالك بن الصيف ورافع بن حريملة - من بني قينقاع - فقالوا: يا محمد أأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ «بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس وأنا بريء من أحداثكم» قالوا: فإننا نأخذ بما في أيدينا فإننا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾. اهـ. وفي ذكر الرب تذكّار لهم في أنه كان يريهم ويصلح حالهم إذا كان سيدهم ومالكهم وهم عبيده لكنهم عصوه وخالفوا أمره،

والقرآن يجابههم بحقيقة موقفهم ويصفهم بصفتهم التي يدارونها بمظهر الإسلام! بينما هم في حقيقتهم كفار يكفرون بالربوبية وهذا كفر بالكتاب كله، فحقيقة الدين واحدة، من عرفها عرف ما جاءت به الرسل والرسالات وأوجب على نفسه الإسلام لله وهي حقيقة من شأنها أن تهزمهم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه، ثم إن المخدوعين من المسلمين يكون هؤلاء الناس على شيء من الإسلام، يسقط هذا الخداع عنهم، وهم يرون الله تعالى يعلن حقيقة أهل الكتاب ويدمغهم بالكفر الكامل الصريح فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب. فإن قيل: كيف يقيمون التوراة والإنجيل والقرآن مع اختلافها في الشرائع ونسخ القرآن لها؟ قلنا: المراد من الآية تحقيق وحدانية الله تعالى واتباع رسوله ﷺ وإظهار ما أخفوه لأتباعهم من نبوته والله تعالى أعلم. وفي تعليق الإنزال بأنه من الربّ تذكير لكمال جلال الله تعالى وربوبيته، وفي الحديث عند أبي داود: «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب كل شيء فائق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن» وما بين الآية (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم) والآية (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) خطاب للرسول المعظم ﷺ بتبليغ القرآن مشيراً إلى ما وهبه من الأحوال السنية والكمال، وما خصه من التشريف والإجلال - بعد أن سلاه وصبره وآنسه وأزال وحشته في الخطاب الأول عما صدر منهم من المسارعة في الكفر - قصد منه توبيخ أهل الكتاب إذ رفضوا الإقرار بالربوبية لذي الجلال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) والمعنى يا أيها الرسول الكريم والسيد العظيم لك المقام المحمود واللواء المعقود والرتب الشريفة والمنازل العلية والسنن المرضية وأنت سيد الأولين والآخرين ولا

يدانيك أحد فضلاً عن أن يساميك بلغ جميع ما أنزل إليك من مالك أمورك ومبلغك إلى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظك وكلاءتك أي بلغه غير مراقب في ذلك أحد ولا خائف أن ينالك مكروه أبداً، وفي معنى البلاغ ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» والمعنى: أنقلوا إلى الناس وأفيدوهم ما أمكنكم ولو آية، والمراد من الآية - والله ورسوله أعلم - الحكم الموحى إليه ﷺ بحكم عموم الوحي الخفي والجلي لأن كل ما صدر عنه فهو آية دالة على رسالته وذلك يتضمن القرآن فإن مدار آياته على بني إسرائيل، ولا تضيق صدوركم ولا تتخرجوا بما سمعتموه عنهم في القرآن والسنة من الفظائع وجلائل الأمور والأعاجيب والجرأة على الله ورسله، أي حدثوا عنهم بما جاء به القرآن وما حدثكم به عنهم ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به الشارع، ويعضد هذا التأويل قوله ﷺ: «نَصَّرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» وقد يدخر الله للمتأخرين ما لم يعطه للأولين مزية وتفضلاً من الله تعالى وذلك لا يقتضي الأفضلية على المتقدمين رضي الله عنهم أجمعين، وفي قوله: «ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» تعريض ببني إسرائيل الذين كذبوا على ربهم وعلى رسولهم. وروى ابن جرير وأبو الشيخ من طريق قتادة عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله تعالى فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذها أو تركها» قال الإمام القشيري قدس الله روحه ونور ضريحه: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو ﷺ قبل أن يوجد كان

رسولاً وفي حال كونه وإلى الأبد رسولاً لبقاء الكلام وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى. ونقل السبكي في طبقاته عن ابن فورك أنه قال: إنه ﷺ حي في قبره، رسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى. ونحن نعتقد أنه ﷺ حي في قبره المنيف حياة برزخية تليق بجنابه الشريف يفيض بفيض الله ويحسن بإحسان الله ويعطي بالله ويمنع بالله وله اليد على كل ذرة مخلوقة في ملك الله. والذي يظهر من قوله **(والله يعصمك من الناس)** أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم، والرسول ﷺ كُلف بمواجهتهم بهذه الرسالة السماوية التي تكشف حقيقة تلاعبهم وموقفهم من الأمر الإلهي الذي لا يزيدهم إلا طغياناً وكفراً وعناداً ولجاجاً، فلما دعاهم إلى التوحيد الذي يصدق ما بأيديهم من التوراة والإنجيل تأمروا على قتله وحزبوا شركاءهم عليه، شأهم في هذا كشأنهم مع أنبيائهم من قبل، والسورة كلها تبدو وكأنها مطارق ومقارع تقع على أهل الكتاب وتطرق قلوبهم بعنف وشدة، والآيات صريحة وحاسمة في أنهم ليسوا على شيء من دين الله، ولما كان إبلاغ ما يخالف الأهواء من الشدة على النفوس بمكان، كان المقام مقتضياً لتأكيد الإبلاغ بأن قال **(وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)** وجاء الشرط بأن التي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط لأن عدم التبليغ غير مضمون بالرسول الأعظم ﷺ وإنما فرض هذا الشرط ليبني عليه الجواب وهو قوله **(فما بلغت رسالته)** ليستفيق الذين يرجون أن يسكت رسول الله ﷺ عن القرآن النازل بفضائح أهل الكتاب! وقد نزلت هذه السورة على الرسول الأكرم ﷺ في حجة الوداع وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها، وفي رواية: نزلت عليه سورة المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة. فهل

يعني هذا دعاة الأمة الذين يوازنون بين المصالح والمفاسد تجنباً للاصطدام بأهواء الناس وواقع المجتمع؟ روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيباً فكان فيما قال: «ألا لا يَمْنَعَنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه» فإياك وكتمان المواهب فإنه سوء أدب مع الواهب. وقد أعيد افتتاح الخطاب لرسول الله ﷺ بوصف الرسول (يا أيها الرسول) المشعر بمنتهى شرفه إذ كان واسطة بين الله وخلقه، ولهذا الوصف في الخطاب الثاني موقع زائد على موقعه في الخطاب الأول وهو ما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الكلام الآتي بعده وهو قوله (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وقُرى (رسالاته) بالجمع، دلالة على وحدة الكتب الإلهية في الدعوة إلى التوحيد كما حكى تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) وابتدأ بذكره عليه أفضل الصلاة والسلام لأنه الأوجه والإمام فحق له أن يكون هو الوجه وله الأمام، وقُرى (وكتابه) بصيغة المفرد فإن معاني كل الكتب مجموعة في القرآن وقد حُكي نظير ذلك في حديث جبريل عليه السلام في صحيح الإمام مسلم: قال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه» واستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع. وكما ثبت الله قلب رسوله ﷺ بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) حذّر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أنزل من القرآن في شأنهم إذ لعله يزيدهم عناداً وكفراً، وفي تعليق الإنزال بأنه من الرب (بلغ ما أنزل إليك من ربك) دلالة على أن المُلْك والسلطان له لا لغيره، وفيه تنبيه على عهد التوحيد الذي أخذه الله منهم في منزل (ألسن بربكم) والمقصود إبلاغه إياهم والله

أعلم. ونحن نشهد أن رسول الله ﷺ قد بلغ، فجزاه الله عنا أفضل ما جرى مرسلًا عمن أرسل إليه، فقد أنقذنا به من الهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، فلم تُمس بنا نعمة ظهرت ولا بَطُنت نلنا بها حظًا في دين ودنيا إلا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ سببها، القائدُ إلى خيرها والهادي إلى رشدِها، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها، صلى عليه الله ثم سلما... ما دامت الأرض وما دام السما.

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم سلك الله بي وبك مناهج سنته وأماتنا على محبته بمنّهِ ورحمته أنه لما أحاط جماعات من بني إسرائيل مع أحزابهم وكانوا عشرة آلاف بالرسول الأمين وصحبه الغر الميامين نزلت سورة الأحزاب تُظهر عناية الله تعالى بنبيه الكريم وحيبيه العظيم ونصره على أعدائه الكافرين والمنافقين ونعمة الله عليه بأن أعطاه بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب وفي السورة نهيٌ عن التبني والادعاء الذي هو من عوائد الأمم المسخلفة كما قال العزيز لامرأته لما اشترى يوسف العليل **(أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)** وقالت امرأة فرعون لما جيء بموسى العليل **(لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)** ومن عوائد اليهود ادّعائهم إلى غير آبائهم وتغيير أنسابهم فإن النبي ﷺ لما سألهم يوم خيبر قائلاً: **«من أبوكم؟»** قالوا: فلان، فقال: **«كذبتُم بل أبوكم فلان»** وفي السورة تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرف وعلو قدر أهل البيت الطيبين الطاهرين والأزواج أمهات المؤمنين وختمت بتهديد الخونة المستخلفين

المنافقين فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها "ولا تطع الكافرين والمنافقين" وتخلل ذلك مستطردات من وعيدهم إذ يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين وأخير أن المؤذي لحبيبه ﷺ كمن آذى الله عز وجل وحذر الأمة من التورط في ذلك كيلا تقع فيما وقع فيه الذين آذوا موسى ﷺ ولا يخفى ما في السورة من الأمر بالائتساء بالنبي ﷺ وتعظيم قدره عند الله وفي الملاء الأعلى والأمر في هذه الآية الكريمة بالصلاة والسلام عليه وكان قد قدم قوله "هو الذي يصلي عليكم وملائكته" فأفرد كلاً بخبر وكان النبي ﷺ أعلى المخاطبين حظاً فإنه رأس المؤمنين أفرد ههنا بهذه الصلاة التي جمع فيها الملائكة الكرام معه سبحانه وجعل الخبر عنهم خبراً واحداً ليكون أتم، وذكر بين الآيتين أنه جل شأنه أحل له أجناس المنكوحات وزاد له الواهبة نفسها من غير عوض ثم قال **﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بَهَنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾** أي لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً) أي لا يحل لك النساء من بعد المسلمات: مشركات كتابيات ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من الكتابيات أي لا يتزوج يهودية ولا نصرانية فتكون من أمهات المؤمنين إلا أن تكون أمة من ما ملكت يمينك فلا بأس أن تشتري اليهودية والنصرانية إذلالاً وإخزاء لأهل الكتاب، ثم أمر سبحانه بحفظ الأدب في الاستئذان ومراعاة الوقت وإيجاب الاحترام وحفظ أحكام تلك الحضرة النبوية الشريفة... قال شيخ الإسلام مولانا أبو الهدى الصيادي الرفاعي قدس سره: لا يخفى أن هذه الآية الكريمة قد حوت تشريعاً عظيماً لهذه الأمة المحمدية والملة الأحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأتم السلام وذلك لأن الله تعالى خاطبها بقوله عز شأنه: "يا أيها الذين آمنوا" ونسب فعل الإيمان إليها مع أنه هو الذي تفضل بنعمة الإيمان علينا

وأوصل هذا الخير والبر إلينا فلولا هدايته ما اهتدينا ولولا عنايته ما اتبعنا ولا اقتدينا... وخطاب هذه الأمة المحمدية بوصف الإيمان الذي لا يساميه عز ولا افتخار تأكيد وتأييد لما تضمنته الآية الأخرى وهي قوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس" من خيرية هذه وتفضيلها على سائر الأمم قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعطى الله لهذه الأمة المحمدية تشريفاً بقوله تعالى "هو الذي يصلي عليكم وملائكته" ثم قال: عندي أشرف من هذا قال تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام "لا تخف إنك أنت الأعلى" وقال لهذه الأمة "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" وقال تعالى "وكلم الله موسى تكليماً" وقال لهذه الأمة "فاذكروني أذكركم" وقال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام "واتخذ الله إبراهيم خليلاً" وقال لهذه الأمة "يحبهم ويحبونه" وقال لعيسى "وأيدناه بروح القدس" وقال لهذه الأمة "وأيدهم بروح منه" وقال لسيدنا ونبينا ﷺ "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وأكرم هذه الأمة لأجله بقوله تعالى "رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه" وجاء: إن الجنة تقول خمس مرات كل يوم: واشوقاه إلى أمة محمد ﷺ... ثم قال قدس الله سره: والصلاة أحسن ما قيل فيها إن معناها: العناية، لكن في كل محل بحسبه فالصلاة من الله تعالى اعتناؤه بنبيه ﷺ بإعلاء قدره وإظهار فخره وإعلان شرفه والثناء عليه وإيصال كل خير وبر إليه ومضاعفة تعظيمه وزيادة تعزيزه وتكريمه، والصلاة من الملائكة والآدميين: تضرع إلى الله تعالى في أن يزيد عزه وإكرامه ويرفع قدره ومقامه وهو سبحانه وتعالى لا زالت إفضالاته لهذا النبي الكريم والرسول الرحيم متواصلة أمد الدوام لا يعترئها انقطاع ولا انقسام ومع ذلك فقد أمر تعالى بالصلاة محضاً لإظهار قدر نبينا المعظم ورسولنا المكرم ﷺ ولتمحيص ذنوبنا

وستر عيوبنا وتشریفنا بجعلنا محلاً لصلاته تعالى علينا... وأتى سبحانه وتعالى بالجملة الإسمية للتأكيد وزاد هذا التأكيد وقرره وقواه بالتعبير بأن عبر عن الصلاة بلفظ المضارع المفيد للتجدد إشارة إلى أنه تعالى في كل آن وفي كل زمان يصلي عليه فكذلك أنتم أكثروا من صلاة الله في جميع الأوقات وعلى سائر الحالات وفي هذه الآية مزية شريفة ومنقبة منيفة وهي من خصوصياته والتي لم تسبق لغيره من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ولا شك أنها أكمل وأعظم وأجل وأتم من الخصوصية التي خص الله بها صفيه آدم عليه الصلاة والسلام التي هي سجود الملائكة له لأن قضية السجود وقعت وانقطعت والصلاة على هذا السيد السند ﷺ لا تنقطع ولا تبطل بل لم تنزل تتضاعف وتزيد وأيضاً فالسجود لا يتصور وقوعه منه تعالى وأما الصلاة فهي حاصلة منه جل وعلا مع حصولها من الملائكة والآدميين بل ومن غير الآدميين كالحیوانات وسائر الجمادات. اهـ. وقال صاحب روح البيان: اعلم أن الملائكة عند أهل الكشف من أكابر أهل الله على قسمين: قسم تنزلوا من مرتبة الأرواح إلى مرتبة الأجسام فلهم أجسام لطيفة كما أن للبشر أجساماً كثيفة وهم المأمورون بالسجود لآدم عليه السلام ويدخل فيهم جميع الملائكة الأرضية والسموية أصاغرهم وأكابرهم كجبريل وغيره بحيث لا يشذ منهم فرد أصلاً، وقسم بقوا في عالم الأرواح وتجردوا عن ملابس الجسمانية لطيفة كانت أو كثيفة وهم المهيمون الذين أشير إليهم بقوله تعالى "أم كنت من العالين" وهم غير مأمورين بالسجود إذ ليس لهم شعور أصلاً لا بأنفسهم ولا بغيرهم من الموجودات مطلقاً لاستغراقهم في بحر شهود الحق، والإنسان أفضل من هذين القسمين في شرف الحال ورتبة الكمال لأنه مخلوق بقبضتي الجمال والجلال

بخلاف الملائكة فإنهم مخلوقون بيد الجمال فقط. اهـ. وصلاة الله هي إمداد النبي ﷺ ليكون رحمة للعالمين فيمدهم بالرحمة والمقصود من الصلاة على النبي ﷺ: تعظيمه تعالى إياه في الدنيا بإعلاء ذكره وتفخيم شأنه وإكمال شرفه وإظهار دينه وإبقاء العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وإجزال أجره ومثوبته وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود وتقديمه على كافة المقربين الشهود، وفائدة طلبنا له ذلك مع أنه حاصل له لا محالة بوعده الله تعالى، أمور: منها: إظهار شرفه وكمال منزلته وعظم قدره ورفع ذكره وتوقيره. ومنها: مجازاته ﷺ على إحسانه إلينا. ومنها: حصول الثواب لنا. وصلاة الملائكة وغيرهم عليه طلب ذلك له من الله تعالى والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة كما قال أبو العالية. والأمر بالصلاة عليه تمثلاً بالملائكة لاستمداد أسباب الهداية والترقية ولما خص الله نبيه الأكرم بهذا الشرف العظيم أدخل أمته في هذا الخير فقال ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» واشتهر زيادة "سيدنا" عند كثير من المصلين، وروي عن ابن عبد السلام أنه جعله من باب سلوك الأدب وهو مبني على أن سلوك طريق الأدب أحب من الامتثال، ويؤيده حديث أبي بكر رضي الله عنه حين أمره رسول الله ﷺ أن يثبت مكانه فلم يمتثل وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك امتناع علي رضي الله عنه عن محو اسم النبي ﷺ من الصحيفة في صلح الحديبية بعد أن أمره بذلك وقال: لا أمحو اسمك أبداً، فتقريره ﷺ لهما على الامتناع من امتثال الأمر تأدباً مشعر بأولويته. وآله ﷺ: هم أهل بيته وكل تقي من أمته، وذكر العلامة شيخ المتأخرين الفاضل الباجوري أنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب. قال السيد أبو الهدى الصيادي: والأحسن أن لا يطلق القول فيه بل يفسر باعتبار المقامات

والقرائن...وقد قرر مثل ذلك العلامة الصبان على شرح الأشموني. ولما نزلت الآية قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: ما أنزل الله تعالى عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت **(هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)** والصلاة من الله على عبده تكريم وتشريف ورحمة، والصلاة من العبد على رسول الله دعاء وثناء ينال شرفها وبركتها العبد في الدنيا والآخرة كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: «من صلى على رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم صلاة صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر» والتخيير بعد الإعلام على جهة التحذير من التفريط في تحصيله وهو قريب من معنى التهديد. وروى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: **«من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»** وفي مسند الروياني عن أنس بن مالك قال: دخل أبو طلحة على النبي صلی اللہ علیہ وسلم فقال: بأبي أنت وأمي ما رأيتك أطيب نفساً ولا أشرق وجهاً منك اليوم، فقال: **«تلومني يا أبا طلحة وقد خرج من عندي جبريل أنفا فأخبرني ما أعطيت أمتي»** قال: بأبي أنت وأمي، وما أعطيت أمتك؟ قال: قال: **«يا محمد من صلى عليك صلاة كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، وردّ عليه ما قال»** فهي سبب وثيق لاستجلاب صلاة الله على العبد، وإذا صلى الله على عبده أنار له الطريق الذي به يزكي نفسه ويخرجه من ظلمات الوهم إلى أنوار الفهم، ومن أوحال الأغيار إلى سماء الأنوار، ومن دجى الشك إلى ضياء الحقيقة، وقد وُعد مَنْ داوم عليها حسن المآب وجزيل الثواب، وهي من أنجح الأعمال وأرجح الأقوال وأزكى الأحوال، وأحظى القربات وأعم البركات، وبها يتوصل إلى رضا الرحمن وتنال السعادة والرضوان، وتجاب الدعوات ويُرتقى إلى أرفع الدرجات. روى البيهقي والترمذي عن الطفيل بن

أبي بن كعب عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: كم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قال: الثلث؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو أفضل، قال: النصف؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو أفضل، قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إِذَا يَكْفِيكَ اللَّهُ هَمَّكَ وَيَغْفِرَ لَكَ ذَنْبَكَ» ومعنى قوله: كم أجعل لك من صلاتي؟ أي من دعائي الذي أدعو به لنفسي بدليل ما جاء في الرواية الأخرى: «قال رجل: يا رسول الله أريد أجعل شطر دعائي لك» وقوله: أجعل لك صلاتي كلها؟ أي: أجعل دعائي كله صلاة عليك. وقال صاحب التاج الجامع للأصول: أجعل مجالسي كلها في الصلاة عليك؟ وروى أبو نعيم عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ في التوراة: «يا موسى أتريد أن أكون لك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن وساوس قلبك إلى قلبك ومن روحك إلى بدنك ومن نور بصرك إلى عينك؟ قال: نعم يا رب، قال: فأكثر الصلاة على محمد ﷺ» ونبينا عليه الصلاة والسلام هو الوسيلة بيننا وبين الله تعالى والدليل لنا عليه والمعرف لنا به عز وجل فإن الوسيلة هو السبب في الدخول على الملك فهو وسيلتنا إليه تعالى ولا بد من تقديم الوسيلة قبل الطلب كما قال سبحانه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والوسيلة: كل ما جعله الله سبباً في الزلفى عنده ووُصلة إلى قضاء الحوائج منه - والمدار فيها على أن يكون للوسيلة قدر وحرمة عند المتوسِّل إليه - ولا وسيلة إلى الله تعالى أقرب ولا أعظم من رسوله الأكرم ﷺ فهو السر المصون والجوهر المكنون حجاب الله الأعظم وبابه الأكرم فمن رام الدخول من غير بابه طُرِد وأبعد. وكان شعار المسلمين في حربهم ضد أهل الردة في نجد يوم اليمامة: «يا محمداه» كذا ذكره ابن الأثير في الكامل وابن كثير في البداية والنهاية والطبري في تاريخه. وروى الحاكم في المستدرک عن عثمان بن حنيف

قال: سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «أنت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيجلي لي عن بصري، اللهم شفعه فيّ وشفعني في نفسي» قال عثمان: فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضرر قط. وروى الدارمي عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: «قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كواً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق» وروى البيهقي عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «أنت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له: عليك بالكيس الكيس» فأتى الرجل فأخبر عمر فقال: يا رب! لا آلو إلا ما عجزت عنه. وروى البزار في مجمع الزوائد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت الله لكم» وروى الطبراني في المعجم الكبير عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها، صوروا لي بالماء والطين، حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه» وروى الطبراني أيضاً عن خريم بن أوس قال: كنا عند

النبي ﷺ فقال له العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله إني أريد أن أمدحك، فقال له النبي ﷺ: «هات لا يفضض الله فاك» فأنشأ العباس يقول:

مِنْ قَبْلِهَا طُبَّتْ فِي الظَّلَالِ فِي ... مُسْتَوْدِعٍ حَيْثُ يُخْصِفُ الْوَرَقَ
ثُمَّ هَبَطَتِ الْبِلَادُ لَا بَشَرَ ... أَنْتَ وَلَا مَضْغَةَ وَلَا عِلْقَ
بَلْ نَطْفَةٍ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أُلْجِمَ نَسْرًا وَأَهْلُهُ الْغَرَقَ
تَنْقُلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقَ
وَرَدَتْ نَارُ الْخَلِيلِ مَكْتَمًا ... فِي صُلْبِهِ أَنْتَ كَيْفَ يَحْتَرِقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتَكَ الْمَهِيْمَنَ مِنْ ... خَنْدَفٍ عَلِيَاءٍ تَحْتَهَا النُّطْقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ ... الْأَرْضَ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْقُ
فَنَحْنُ فِي الضِّيَاءِ فِي النُّورِ ... وَسَبِيلُ الرِّشَادِ نَخْتَرُقُ

واعلم أن الله تعالى لما أحبه جعله شفيعاً لخلقه إليه يوم القيامة حين يفزعون إليه وليس لأحد من الخلق عموم الشفاعة سواه وسر ذلك أن الأنبياء لم يبعثوا إلى كافة الخلق وإنما بعث إلى كافة الخلق سيدنا محمد ﷺ فهو مقدمهم وراعيهم وكل راع مسؤول عن رعيته فأوجب الله تعالى عليه الشفاعة لهم والقيام بمصالحهم دنيا وأخرى، فلما كان ﷺ واسطة الجميع في البداية لأجل الظهور، كان واسطتهم في النهاية لأجل النعيم المقيم، فليس في الأزل والأبد وسيلة ولا واسطة ولا علة لوجود كل خير، ولكل موجود أحد سواه ﷺ. قال سيدي وقرّة عيني الإمام أحمد الكبير الرفاعي قدس الله سره النوراني: أي سادة! عظموا

شأن نبيكم، هو البرزخ الوسط، الفارق بين الخلق والحق، عبد الله، حبيب الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدال على الله، الداعي إلى الله، المخبر عن الله، الآخذ من الله، باب الكل إلى الحظيرة الرحمانية، وسيلة الكل إلى الحظيرة الصمدانية، من اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل، قال صلوات الله وتسليماته عليه: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» اهـ.

ولما كان مقام الوسيلة بهذا المعنى خاصاً بنبينا العظيم الأكرم ﷺ ذكرَ تعالى تفضيل النبيين بعضهم على بعض وأعلمَ المشركين بأن محمداً ﷺ وسيلة الذين يدعونه من دونه سبحانه فقال **(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً، قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين تدعون ويتبعون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً)** فكل من عبد من دون الله تعالى من الملائكة والنبيين عليهم السلام وسيلتهم إلى الله تعالى نبينا ﷺ على ما أحكمه صدر السورة **(سبحان الذي أسرى بعبده)** بل هو عليه الصلاة والسلام وسيلة سائر الموجودات والواسطة بينهم وبين الله تعالى في إفاضته سبحانه الوجود وكذا سائر ما أفيض عليهم وأحظى الخلق بوساطته الأنبياء عليهم السلام فإنهم أشعة أنواره وعكوسات آثاره وهو النور الحق والنبى المطلق وكان نبياً وآدم بين الماء والطين وقد تلقى الأنبياء منه من وراء حجاب الأرحام والأصلاب وظهروا إذ كان محتجباً ظهور الكواكب في الليل فلما بزغت شمس النبوة المطلقة من أفق الظهور غابوا ونسخت أحكامهم على نحو غيبوبة الكواكب وانمحاق أنوارها وأضوائها عند طلوع الشمس من تحت الحجاب منخلعة عن الجلباب. وهل الحشر برمته والساعة بشدتها وبأهوالها إلا إثبات لمقام

الواسطة والوسيلة لرسول الله ﷺ فمن الأولى أن تتعلق أيها الموحد بجنابه وتعتكف على بابه، ألا ترى أن الله تعالى استأنف سورة الإخلاص الخالصة في توحيده بكلمة "قل" فقال عز وجل **(قل هو الله أحد)** والمخاطب النبي ﷺ ليُعلم أن الوصول إلى مرتبة التوحيد لا تحصل إلا بمتابعة الرسول الشهيد ﷺ وبذلك يحصل الميل من الجهتين، ألا تراه ﷺ قال للأعرابي الذي تمنى عليه أن يكون رفيقه في الجنة: **«أعني على نفسك بكثرة السجود»** فقله ﷺ: "أعني" دليل على أنه وسيلته إلى الله تعالى فأراد أن يكون الجذب من الجهتين ليسرع وصوله إلى الممدود وأمره أن يعينه على نفسه بالسجود ليتحقق المقصود، ولهذا كان دأب الكمل من الأولياء رضوان الله عليهم أن يتعلقوا بجنابه ويخطوا جباههم على بابه ﷺ ولم يزل ذلك دأبهم ودأب كل من أراد الله تكميله، فلازم أيها المسترشد بهذا الجنب العظيم والنبي الكريم ﷺ وداوم الصلاة عليه وكن في حال ذكرك له كأنك بين يديه في حياته متأدباً بالإجلال والتعظيم والهيبة والحياء فإنه يراك ويسمعك كلما ذكرته لأنه متصف بصفات الله سبحانه والله جليس من ذكره، فللنبي ﷺ نصيب وافر من هذه الصفة لأن العارف وصفه وصف معروفة وهو أعرف الناس بالله تعالى. اللهم إنا نسألك ونتوجه إليك بحبيبك المصطفى عندك يا حبيبنا يا سيدنا يا محمد إنا نتوسل بك إلى ربك فاشفع لنا عند المولى العظيم يا نعم الرسول الرحيم اللهم شفّعه فينا بجاهه عندك واجعلنا من خير المصلين والمسلمين عليه ومن خير المقربين منه والواردين عليه ومن أختيار المحبين فيه والمحبوبين لديه، وسير بنا في معارج مدارج **(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)** وإذا كان الله وحده هو الذي يصلي على حبيبه ﷺ وكانت صلاة الله ذاتية بمقتضى الصلة العينية بين الحضرة

الأحدية والحقيقة المحمدية فإن العقول تتقاصر عن إدراكها... فمن الذي يدرك شؤون الذات حتى يحيط بتجلياتها؟ ومن ذا الذي اطلع على الحقيقة المحمدية حتى يدرك مدى قابليتها؟ فلا نعلم متى صلى الله على حبيبه ﷺ لأنه تعالى منزّه عن الزمان وفعله محيط بالأكوان... ولا نعلم كم صلى على حبيبه ﷺ لأن أفعال الله تعالى منزّهة عن الحد مستغرقة للعد... ولا نعلم كيف صلى على حبيبه ﷺ لأن تجليات الله تعالى منزّهة عن الكيف مهيمنة على الوصف... وما دام الحبيب الأعظم ﷺ يصلي لمولاه على قدم العبودية الصمدية فلا زال الله تعالى يصلي عليه بمقتضى التجليات الأحادية، ولهذا جاءت آية الصلاة باسم الجلال الذي هو علم على الذات الجامع لكل الأسماء والصفات. قال القطب الكتاني قدس سره النوراني: معنى قولنا "اللهم صلّ" أي يا الله ابسط شعاع المواصلّة على كل نعت من نعوت هيكلة الجامع ليصير هيولى تنطبع فيه أشتات المزايَا والكمالات الإلهية. وروى السلمي في حقائق التفسير عن ابن عطاء أنه قال: الصلاة من الله وصلة ومن الملائكة رفعة ومن الأمة متابعة ومحبة. وحكى عن الواسطي أنه قال: صلّ عليه بالوقار ولا تجعل لها في قلبك مقدار. قال عبد الواحد السيارى: لا تجعل لصلّاتك عليه في قلبك مقداراً تظن أنك تقضي به من حقه شيئاً بصلّاتك عليه فإنك تقضي حق نفسك إذ حقه أجلّ من أن تقضيه أمته أجمع إذ هو في صلاة الله تعالى بقوله "إن الله وملائكته يصلون على النبي" فصلاّتك عليه استجلاب رحمة على نفسك به. وذكر السنوسي في شرح الجزائرية أن المراد بالتحية في حقه: أن يُسمعه كلامه القديم الدال على رفعة مقامه العظيم. قال الإمام الدارمي في سننه: باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته ثم روى في هذا الباب بإسناده عن نبيه بن وهب أن كعباً دخل على عائشة فذكروا رسول

الله ﷺ فقال كعب: «ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبي ﷺ يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه» وفي لفظ: «يوقرونه». صلى الله وسلم عليه وعلى آله الخواص من الأنام، وصحبه الزهر الأعلام، نجوم الهدى ومصابيح الظلام، اللهم بحق حرمة وقدره عندك صلنا إليك من بابه، وأدخلنا عليك من أعتابه، وعرفنا سرّك بواسطة جنابه. روى أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب عن سيدنا علي أن رسول الله ﷺ قال: «ما من دعاء إلا وبينه وبين السماء حجاب حتى يُصلى على النبي ﷺ وعلى آل محمد، فإذا فعل ذلك انخرق ذلك الحجاب ودخل الدعاء، وإن لم يفعل ذلك رجع الدعاء» وروى أبو داود في السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وذكر الإمام السخاوي في ثواب الصلاة على رسول الله ﷺ فوائد شريفة وتحقيقات لطيفة لمن صلى عليه من صلاة الله جل جلاله وملائكته ورسوله وتكفير الخطايا والكيل بالمكيال الأوفى وكفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل صلاته كلها صلاة عليه ومحو الخطايا وفضلها على عتق الرقاب والنجاة بها من الأهوال وشهادة الرسول بها ووجوب الشفاعة ورضى الله ورحمته والأمان من سخطه والدخول تحت ظل العرش ورجحان الميزان وورود الحوض والأمان من العطش والعتق من النار والجواز على الصراط ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت وكثرة الأزواج في الجنة ورجحانها على أكثر من عشرين غزوة وقيامها مقام الصدقة للمعسر

وإنها زكاة وطهارة وينمو المال ببركتها وتنقضي بها من الحوائج مائة بل أكثر
وإنها عبادة وأحب الأعمال إلى الله وتزيد المال وتنفي الفقر وضيق العيش
ويلتمس بها مظهر الخير وإن فاعلها أولى الناس به وينتفع هو وولده وولد ولده
بها ومن أهديت في صحيفته بثوابها وتُقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإنها
نور وتنصر على الأعداء وتطهر القلب من النفاق والصدأ وتوجب محبة الناس
ورؤية النبي في المنام وتمنع من اغتياب صاحبها وهي من أبرك الأعمال وأفضلها
وأكثرها نفعاً في الدين والدنيا وغير ذلك من الثواب المرغوب للظن الحريص
على اقتناء ذخائر الأعمال واجتناء الثمرة من نضائر الآمال في العمل المشتمل
على هذه الفضائل العظيمة والمناقب الكريمة والفوائد الجمّة العظيمة التي لا توجد
في غيره من الأعمال ولا تعرف سواه من الأفعال والأقوال ﷺ تسليماً كثيراً.
وبالجملة: فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت
نفوسهم بالصلاة عليه واستأنسوا بقربه وتنعموا بمحبته ففي القلب طاقة لا
يسدها إلا محبة الله ورسوله ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام
وحسرات، ولن يصل العبد إلى هذه المحبة الحقيقية والمرتبة السنية والمنزلة العلية
حتى يقتدي به ويتبع سنته ويسلك طريقته ويهتدي بهديه وسيرته فإذا صدق في
ذلك رزق محبة الرسول ﷺ واستولت روحانيته على قلبه، وفتح عليه بفهم
الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أنزلت فيه
وماذا أريد بها، فعليك أيها المحب بكثرة الذكر والصلاة والسلام على إمام
المرسلين حتى تلحق بركب العارفين وتندرج في سلك الخاصة أهل المخدع
رضي الله عنهم أجمعين، واعلم أن القلب كالقصر والمعرفة فيه كالسلطان،
والعقل أمير على الأركان، والأركان له تبع وأعوان، واللسان كالترجمان، والسر

من خزائن الرحمن، وبدون ذلك لا تستطيع أن تعي كلام الصالحين أهل الإشارات الذين أخبر عنهم ﷺ بقوله كما رواه الديلمي والسلمي والترمذي في نواذر الأصول: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل» والجملة (إن الله وملائكته يصلون على النبي) تفيد الدوام نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجدها وقتاً فوقتاً، والجمع بين الله والملائكة في ضمير واحد فيه إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم وذلك مستلزم لتعظيمه ﷺ. بما يصل إليه منهم من حيث إن العظيم لا يصدر منه إلا عظيم، ثم فيه التنبيه على كثرتهم وأن الصلاة من هذا الجمع الكثير الذي لا يحيط بمنتهاه غير خالقه واصله إليه ﷺ على ممر الأعوام والدهور وكر الأيام والشهور مع تجدها كل وقت وحين، وهذا أبلغ تعظيم وأتمه وأكمله وأشمله وأزكاه، وعبر بالنبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختص به سيد الحكماء وسند الأنبياء صلى عليه خالق الأشياء من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر، وأكد ذلك الإشعار بأل التي للغلبة إشارة إلى أنه ﷺ المعروف الحقيق بهذا الوصف، فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملاء الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ارتقى على المنبر فأمّن ثلاث مرات ثم قال: «تدرون لم أمّنت؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «جاءني جبريل عليه السلام فأخبرني أنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك دخل النار

فأبعده الله وأسحقه، فقلت: آمين» الحديث. وليس شيء من العبادات أفضل من الصلاة على النبي ﷺ لأن سائر العبادات أمر الله تعالى بها عباده، وأمّا الصلاة على نبيه وحبيبه فقد صلى عليه أولاً هو بنفسه، وأمر الملائكة بذلك، ثم أمر العباد بذلك، ثم قال ﴿وسلموا تسليماً﴾ ثم جعل من آذى محمداً ﷺ كمن آذى الله سبحانه، فقرن اسمه باسم رسوله، ويشير إلى عظم قدره قول حسان:

أغر عليه للنبوّة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليُجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

ولا يخفى ما في الآية من إظهار شرفه وتخصيص حالته وإثبات رتبته وعلو شأنه وسمو برهانه وإيجاب تعظيمه وتوقيره والانقياد له في عموم أوامره ونواهيه، ولما أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حرمة حبيبه محمد ﷺ وتكريمه وحذرهم مما قد يخفى على بعضهم من خفي الأذى في جانبه بقوله ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أردف ذلك بوعيد قوم اتسموا بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام فأعلم الله المؤمنين بأن أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة ليعلم المؤمنون أن أولئك ليسوا من الإيمان في شيء وأنهم منافقون لأن مثل هذا الوعيد لا يعهد إلا للكافرين فقال ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ والمراد اليهود والنصارى والله تعالى أعلم وغيرهم تبع لهم فإنهم أصل الشرور والقبائح والمفاسد وجيء باسم الموصول للدلالة على أنهم عرفوا بأن إيذاء النبي ﷺ من أحوالهم المختصة بهم ولدلالة الصلة على أن آذى النبي ﷺ هو علة لعنهم وعذابهم،

واللعن: الإبعاد عن الرحمة وتحقير الملعون فهم في الدنيا محقرون عند المسلمين ومحرومون من لطف الله وعنايته وهم في الآخرة محقرون بالإهانة في الحشر وفي الدخول في النار، والقرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أن أذى الرسول ﷺ يغضب الله تعالى فكأنه أذى لله وفعل يؤذون معدى إلى اسم الله على معنى المجاز المرسل في اجتلاب غضب الله، وتعديته إلى الرسول حقيقة فاستعمل يؤذون في معنیه المجازي والحقيقي ومعنى هذا قوله ﷺ: «من آذاني فقد آذى الله» وأذى الرسول عليه الصلاة والسلام يحصل بالكيد له وبأذى أهله مثل خوضهم في شأنه من نكاح زينب رضي الله عنها وطعنهم في عائشة أم المؤمنين وطعنهم في أعماله وقد قال لهم: «احسبوا يا إخوة القردة والخنازير» وفي الحديث المتفق عليه: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» وعند الإمام مسلم: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» وفي رواية عند أحمد بلفظ: «فإذا لقيتم المشركين» ثم بين سبحانه نفاقهم وأمر بنفيهم وقتلهم وبيّن أنهم أينما ثقفوا أخذوا ملعونين وأتبع ببيان استحقاقهم اللعن الكبير والعذاب المهيّن في النار، ثم بين إنكارهم للبعث وسؤالهم عن الساعة على وجه السخرية (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً، إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً، خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً، ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) وقوله "يسألك الناس" أي الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ثم لعنهم مع سادتهم وكبرائهم المستكبرين الذين لم يأتوا رسول الله ﷺ والسادة: الملوك،

والكبراء: الأخبار والرهبان! ولما كان السبب في هذا التهديد كله ما كانوا يتعمدونه من أذى رسول الله ﷺ أتبعه ما هو كالنتيجة له فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ أي من بني إسرائيل آذوه بأنواع الأذى! وفي الحديث عند البخاري: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلاً يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجهها" وبالجمللة فإن الحجر موحد لله عارف بالله ينفذ أمر الله تعالى ويعرف أن موسى رسول من الله وله إدراكه الخاص به ولولا ذلك لما ضربه موسى ﷺ. ثم نهى تعالى المؤمنين عن أن يتشبهوا ببني إسرائيل في سوء أدهم وعظيم مرتكبهم فقال منادياً لهم إشفاقاً وإرشاداً ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجهها﴾ وإيذاؤهم موسى قولهم له في وقاحة وجرأة لا تصدر ممن شَمَّ رائحة الإيمان ولا تعلق بشيء من الإسلام: اذهب أنت وربك فقاتلا! وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة! وقالوا: أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا! وقالوا: لن نصبر على طعام واحد! وقالوا مرة: ألتخذنا هزواً، فنسبوه إلى السخرية! واتهموه بقتل

هارون! ونسبوه إلى عيب في بدنه! وأطاعوا السامري! واستأجروا مومسة لتقذفه بنفسها فبرأة الله من جميع ذلك وأوضح أنه رفيع القدر ذو وجاهة ومنزلة عند الله تدفع عنه التهم وتقيط الأذى الذي لقيه من قومه المستهزئين الذين نافقوا وخالف باطنهم ظاهرهم فقال تعالى معرضاً بهم أمراً بأخذ الحذر منهم ومخالفتهم في كل شيء رابطاً ذلك بتقوى الله مكرراً للنداء استعظافاً وإظهاراً للاهتمام مطالباً بالقول السداد الذي يوافق ظاهره باطنه ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديدا﴾ ثم رتب على تلك الأقوال والأفعال المتلقة عن الله ورسوله ﷺ صلاح العمل وغفران الذنب وجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاه فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين ﴿يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ وبعد أن نظم الحق ما نظم رتب على ذلك كله قضية استخلاف قوم موسى وألمح إلى أنهم ضيعوا العهد وخانوا أمانة الاستخلاف في الأرض ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ والظلم هو الذي من شأنه الشرك! والجهول الذي من دأبه الاستهزاء! وفي الحديث عند الإمام البخاري: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعته؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» والمراد إضاعة الخلافة وإسناد أمر الحكم والعلم إلى الحفاة العراة كما تقدم والله ورسوله أعلم.

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ لما ختمت سورة الصف بذكر كفر بعض بني إسرائيل بعد أن زاغوا فأزاغ الله قلوبهم بما أفهمه إطلاق

الضمير عليهم وقد عرف عنهم قولهم على الله سبحانه إن له شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فناسب ذلك ذكر التسييح الذي هو الأعظم الأشهر لتنزهه تعالى عما ادعوه من الشرك غاية التنزه وكان سبحانه قد ذكر التسييح بلفظ الماضي ثلاث مرات في افتتاح ثلاث سور وذلك نهاية الإثبات المؤكد ثم أخبر أول هذه السورة أن ذلك التنزيه على وجه التجديد والاستمرار بالتعبير بالمضارع لاستمرار ملكه فقال **(يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم)** ثم دل سبحانه على قدرته في عزته وحكمته وملكه وقده على تزكية الأمة الإسماعيلية بقوله **(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)** أي يقرأ عليهم الآيات التي فيها بيان ما في التوراة والإنجيل وسيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية وتقلبهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل حتى يصبح! ويزكيهم أي يطهر نفوسهم ويدلهم على التربية الإيمانية الشرعية، ويعلمهم فهم معاني القرآن السنة... ولما كانت تزكيته لهم أمراً باهراً في دلالاته على تمام النعمة، زاد في الدلالة على ذلك بإلحاق ذريتهم بهم فقال **(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)** وهم عدول الأمة ورجال سندها، ولما كان هذا أمراً باهراً عظمه بقوله **(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)** وكرر الاسم الأعظم هنا تعظيماً لما ذكر من النعم مشيراً بذلك كله إلى التمكن من الإعطاء باختباره وغزارة فضله أي الذي لا يحصر بحد ولا يدخل تحت عد. والكلام استئناف بياني ناشئ عن إجراء الصفات المذكورة في مطلع السورة على

اسم الجلالة "الملك القدوس العزيز الحكيم" إذ يتساءل السامع عن وجه تخصيص تلك الصفات بالذكر من بين صفات الله تعالى فكأن الحال مقتضياً أن يبين شيء عظيم من تعلق تلك الصفات بأحوال خلقه تعالى إذ بعث فيهم رسولاً منهم يحدثهم عن أشراط الساعة ويطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس فترتقي بصفائها ولطفها من ذروة الدين إلى محل يؤمن عليها فيه أن تنحرف أو ترتد على أدبارها كما فعلت الأمة الإسرائيلية... فصفة "الملك" تعلق بآن يتولى أمر عباده ويدير شؤونهم، وصفة "القدوس" تعلق بآن يزكي نفوسهم، وصفة "العزيز" اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال فينالوا عزة العلم وشرفه، وصفة "الحكيم" اقتضت أن يجعل الحكم فيهم وينزعه من أهل الكتاب، وابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لتكون جملة اسمية تنفيذ تقوية هذا الحكم وتأكيده، وفي هذه الأوصاف تحدُّ بمعجزة الأمية في رسول الله ﷺ أي هو مع كونه أمياً قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أمهم ولم ينقص عنهم شيئاً، فتمحضت الأمية بمعجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من رسل أهل الكتاب وأنبيائهم، والأمي من أحص أسمائه ﷺ فإنه لم يخالط أهل الكتاب الذين خُتمت بالتنفير والتبرئ منهم سورة أم الكتاب، وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» أراد أننا على جبلتنا الأولى. قال ابن زيد: «سميت أمة محمد أميين لأنه لم ينزل عليهم كتاباً قبل القرآن» وقيل: إن الأميين إنما نسبوا إلى أم القرى وهي مكة. والأمية وصف خص الله به من رسله محمداً إتماماً للإعجاز الذي أيده الله به، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان لأنه لما حصل له من العلم ما لا يحتمل

الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات وكان على يقين من علمه وبينه من أمره ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين؛ صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من فيوضات إلهية، فهو تعالى يقرؤه ما كتبه بيده وما خطته أقلامه العلمية في ألواح قدسه الأقدسية فيغنيه بذلك عن أن يقرأ ما تكتب الخلق، والمراد بالأميين: بنو إسماعيل والله أعلم، وهذه منة موجهة لهم ليشكروا نعمة الله على لطفه بهم فإن كون رسول القوم منهم نعمة زائدة على نعمة الإرشاد والهدي، وفي الحديث عند الإمام الترمذي: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» وفي رواية لابن عساكر عن ابن عباس مرفوعاً: «ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفىً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما قد أخذ الله بالنبوة ميثاقى وبالإسلام عهدي ونشر في التوراة والإنجيل ذكرى ويين كل نبي صفى تشرق الأرض بنوري والغمام لوجهي وعلمي كتابه ورقاني في سمائه وشق لي اسماً من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وعدني أن يحبوني بالحوض والكوثر وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع ثم أخرجني من خير قرن لأمتي وهم الحمادون يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر» وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» وعليهم يحمل قوله ﷺ: «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق» رواه الحاكم، وفي رواية

للترمذي: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي» وذلك لأنهم أولاد إسماعيل عليه السلام ولأنهم تحملوا الشريعة ونقلوها وضبطوا أقوال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات والتسليمات وأفعاله ونقلوا معجزاته ولأنهم مادة الإسلام وبهم فتحت البلاد وانتشر الإسلام في أقطار العالم. وليس لله منة على المؤمنين أعظم من إرساله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم لأن النعمة به صلى الله عليه وسلم تمت بها مصالح الدنيا والآخرة وكمل بسببها دين الله الذي رضي له عباده، وتذكير بني إسماعيل بهذه النعمة استنزال لطائر نفوسهم، وفيه استحثاث لهم فإن كون الرسول منهم هو أعون على تلقي الإرشاد منه إذ يحملهم على ما يصلح شأنهم ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم، وفي الحديث عند الإمام أحمد: «والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به» ولما نوه المولى بالذين أنعم عليهم من النبيين من ذرية إبراهيم وإسرائيل أردف بالتنويه بالأمة المسلمة فقال **(وومن هدينا واجتبتينا)** أي من بني إسماعيل، وإسناد الهداية والاجتباء إلى الله تعالى فيه تشريف لهم. وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على التمسك بالكتاب والعترة كما روى الإمام مسلم عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» وروى الترمذي عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قال:

قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتابُ الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلُ بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»

أجلُّ بني العلياء أصلاً ومظهراً ... وأطول سادات البرايا مناسبا

إذا أمَّ للدين المؤمل غيرهم ... يروح عنان المستحيلات جاذبا

أبى الله إلا أن نسير بإثرهم ... رضينا بهاتيك الخلال مشاربا

قال القرطبي: وهذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام أهله وإبرارهم وتوقيرهم ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف عنها هذا مع ما علم من خصوصيتهم بالنبي ﷺ وبأنهم جزء منه فإنهم أصوله التي نشأ عنها وفروعه التي نشؤوا عنه كما قال: «فاطمة بضعة مني» اهـ. وإذا تأملنا مظاهر الاصطفاء بين العذراء والزهراء نجد أن كل ما ورد في القرآن الكريم في فضل السيدة مريم يشير إلى الحضرة الفاطمية وأنها أفضل وأجل وأكرم، والله در القائل:

بضعة المصطفى وللجزء حكم ال ... كل يرضيه كل ما يرضيك

وفي صحيح البخاري: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» وفي رواية للحاكم في المستدرک: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء المؤمنين؟» وهذه وراثه للعالمية المحمدية المهيمنة على كل العوالم وستجلى هذه السلطة على الملائ يوم القيامة، وقد تجلت فضيلة مريم العذراء (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرک واصطفاك على

نساء العالمين في مقام السيدة الزهراء بأعظم من ذلك حيث يقول ﷺ: «أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وأفضلهن عالماً فاطمة» رواه ابن عساكر، ومعلوم أن العالم الحمدي أفضل وأقدس حسبما ينطق به قوله ﷺ: «خير القرون قرني» والسيدة الزهراء جاءت في القرن الحمدي الخاص وفي الأمة الحمدية التي هي أفضل من الأمة الإسرائيلية فالسيدة مريم داخلية تحت السلطة الفاطمية وهو ما عبر عنه ﷺ بقوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: يا أهل الجمع نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم حتى تثر فاطمة بنت محمد على الصراط، فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمرّ البرق» وإذا كانت العذراء قد أحصنت فرجها فإن سيد الوجود قال في حق ابنته الزهراء: «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار» كناية عن بركتها السارية في ذريتها كما بورك البطن المريمي... وكما نزلت الملائكة بالبشارة للسيدة العذراء كذلك نزلت بالبشارة للسيدة الزهراء كما قال ﷺ: «إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علي ويشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة» بل جاءت البشارة إلى سيد الوجود ﷺ من حضرة الرب المعبود **(إنا أعطيناك الكوثر)** وهي الذرية الكثيرة من البطن الفاطمي المطهر وجاء الكوثر هنا مقابل البتر الذي ادعاه الشائون في عقب النبي الأمين حسبما يرشد إليه السباق والسياق ويدل عليه قول صاحب البراق ﷺ: «وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي» وإذا كانت السيدة العذراء قد انتبذت من أهلها لتتجرد إلى مولاهما فإن السيدة الزهراء انغمست في نور أبيها وسلكت على قدم الحب والاجتماع من أول قدم على ما جرى في

القدم، والسر في العناية السابقة لا في الرعاية اللاحقة...وقد دعا لها سيد
الوجود ﷺ ليلة عرسها حين دعا بماء في تور فمَج فيه من ريقة الشريف ثم نضح
بين ثدييها وعلى رأسها وصب بين كتفيها وقال: «اللهم إني أعيذها بك
وذريتها من الشيطان الرجيم» ثم قال: «ايتوني بماء» قال علي: فعلمت الذي
يريد فقممت فملأت القعب ماء وأتيته به فأخذه فمَج فيه ثم قال لي: «تقدم»
فصب على رأسي وبين ثديي ثم قال: «اللهم إني أعيذه بك وذريته من الشيطان
الرجيم» ثم قال: «أدبر» فأدبرت فصبه بين كتفي وقال: «اللهم إني أعيذه بك
وذريته من الشيطان الرجيم» وإذا كان مقام الصديقية برزخاً ما بين النبوة
والولاية فإن هذا اللقب كان سائداً عند أهل البيت للسيدة الزهراء الصديقة
عليها السلام كما روي عن سيدنا جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت فاطمة
تسمى الصديقة» وذلك لبلوغها شأو الكمال الذي لم يبلغه إلا القلة من الرجال
وللصديقية شأن مع بيت النبوة فإنه لما ختمت النبوة بقيت الصديقية تسري في
الذرية النبوية وعلى رأسها الصديقة الزهراء وبعلمها علي المقام العظيم الذي قال
عن نفسه: «أنا الصديق الأكبر» واعلم أن الحقائق كلما علت خفيت ألا ترى
أن الأسماء الحسنى لما ذكرت صريحة بقي الاسم الأعظم باطناً يسري في الكتاب
العزیز وكذلك الزهراء عليها السلام بعد تحققها بمظهرية النور الحمدي صار لها
مقام البطون في الخصوص بل هي مظهر أم الكتاب الساري سرها في السبع
المثاني والقرآن العظيم المكنونة في سر البسملة والمصونة في سر الباء والمضونة في
نقطتها ولا يهتدي لها إلا أهل الفتح الأكبر...وأما أن نسبها فهو أشرف
الأنساب على الإطلاق وإلى ذلك أشار أشرف وأجود وأقدس العالمين عليه

صلوات رب العالمين حيث يقول: «أما ترضين أن الله اطلع إلى أهل الأرض فاختار منهم رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك».

وفي مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما روى الإمام البخاري بإسناده عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته» أي احفظوه فيهم وذلك يكون بودادهم وتعظيمهم ومراعاة حقوقهم والدخول في عقد ولائهم أحياناً الله على توقيرهم وأمانتنا على محبتهم وحشرنا في زمركم بمنه آمين. وفي صحيح ابن حبان أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «والذي نفسي بيده لقراءة رسول الله ﷺ أحب إليّ من أن أصل أهلي وقرايتي» وعن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب» قال بعضهم: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ فإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه. وروى ابن أبي عاصم عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها أتت الحسن والحسين ابنيها النبي ﷺ في شكواه الذي توفي فيه فقالت: يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً فقال: «أما الحسن فله هيبتي وسؤددي وأما الحسين فله جرأتي وجودي» وروى الحكيم الترمذي بإسناده عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحسين فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة» وفي رواية له من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي» وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: نظر النبي ﷺ إلى علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم» فاعرف أيها السالك المتوجه نحو القبلة الحمدية الحقّ لنبيك بمحبة آله الأطهار،

وذريته السادة الأبرار، فهم معادن حاله، ومظاهر جماله، وكنوز كماله، ومطالع سعوده، وأتمودج نور وجوده، واعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه ﷺ على جميع من سواه، وخصه بما عمّه به من فضله الباهر وحباه، أعلى بركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملة أهل بيته المعظم وذريته، وأنزل الآيات القرآنية بتعظيم العترة النبوية والقراة المحمدية، فقال رب البرية **(قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)** وروى الطبراني عن ابن عباس أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله، ومن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **«علي وفاطمة وابناهما»** قال الإمام القرطبي في تفسيره: ويدل عليه أيضاً ما روي عن علي رضي الله عنه قال: شكوت إلى النبي ﷺ حسد الناس لي فقال: **«أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيمننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا»** وعن النبي ﷺ: **«حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة»** اهـ. ونقل نحو هذا الحديث المفسر الكبير العلامة الرازي الشهير ثم قال: وأنا أقول: آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل... ثم قال: وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله "واتبعوه لعلمكم تهتدون" ولقوله تعالى "فليحذر الذين يخالفون عن أمره" ولقوله "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني

يحبيكم الله" ولقوله سبحانه "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" ثم قال
 نفعا الله به: وسمعت بعض المذكرين قال أنه ﷺ قال: «مثل أهل بيتي كمثل
 سفينة نوح من ركب فيها نجا» وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم
 اهتديتم» ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات
 وراكب البحر يحتاج إلى أمرين أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب والثقب،
 والثاني: الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره
 على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً فكذلك ركب أصحابنا
 أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا
 من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة. اهـ. وروى ابن
 أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (ومن يقترف حسنة) قال: المودة لآل
 محمد ﷺ. وروى الطبراني في الأوسط عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ
 قال: «الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله عز وجل وهو يودنا دخل الجنة
 بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا» ومودتهم يعود
 نفعها إلى من يودهم لأنها سبب للفيض وهم رضي الله تعالى عنهم أبوابه، ففي
 أحاديث الشفا عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ: «معرفة آل محمد
 براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من
 العذاب» ومعرفتهم هي معرفة مكاتبتهم من رسول الله ﷺ وإذا عرفهم بذلك
 عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه فقد روى الطبراني عن ابن عباس أن
 رسول الله ﷺ قال: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي»
 وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل جعل
 ذرية كل نبي في صلبه وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب

رضي الله عنه» وروى الترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: رأيت
 النبي ﷺ وحسن وحسين على وركيه فقال: «هذان ابناي وابنا بني، اللهم إني
 أحبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ من يحبُّهما» وروى الحاكم في الفضائل عن فاطمة بنت
 رسول الله ﷺ قالت: قال النبي ﷺ: «كل بني أب يتمون إلى عصة غير ولد
 فاطمة فإني أنا أبوهم وأبوها وعصبتهم معي» وهذا يدل على مكانتهم العالية
 وأوصافهم الجليلة كيف لا وهم بضعة الهادي المعظم وسلالة السيد الرسول
 المكرم وهم شمس الأكوان وأقمارها ورياض الفضائل وأزهارها وأغصان
 الكمال وثمارها وبحور المكارم وأثمارها، بهم استنارت البصائر من ظلمة الحجاب
 وفتحت لطالبي الهداية الأبواب ومنهم الأولياء والأوتاد والأقطاب والأفراد
 والأغوات والأنجاء، قوم شهد الوجود بفخرهم وأذعن هامة الكائنات
 لأمرهم واعترفت العوالم كلها بفضلهم وأيد الله شرفهم بنص الكتاب وقد
 أوضح ذلك في أحاديثه سيد الأحاب، ومعلوم أن أحكام الشريعة في قسمة
 الغنائم ونحوها وفي عدم حل الصدقات لهم وغير ذلك من الخصوصيات التي
 يطول شرحها تثبت ما لهم من الشرف والفخار المخصوص التي طفحت به
 النقول والنصوص كيف لا وهم آل البضعة النقية فاطمة الزهراء النبوية التي قال
 فيها والدها روح الوجود وسيد كل موجود كما في صحيح البخاري: «فاطمة
 بضعة مني فمن أغضبها أغضبني» وفي رواية لمسلم: «إنما فاطمة بضعة مني
 يؤذي مني ما آذاها» وفي رواية للبيهقي: «فاطمة مضغة مني يقبضي ما قبضها
 ويسطني ما بسطها وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسي وسبي وصهري»
 فتعظيم أهل البيت الذين هم آل فاطمة رضي الله عنها وعنهم تعظيم لرسول الله
 ﷺ لأنهم ذريته وبضعة منه عليه الصلاة والسلام فعلى العاقل أن يتخذ حب الآل

ذخيرة القُدوم على الملك المتعال وأن يجعل القلب سليماً من بغضهم منوراً
 بحبهم قياماً بواجب حق جدّهم سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام. روى
 الترمذي عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على
 النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ في
 بيت أم سلمة فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً فجلبهم بكساء وعليّ خلف ظهره
 فجلبه بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم
 تطهيراً» وفي مسند الإمام أحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة:
 «اتّني بزوجه وابنيك» فجاءت بهم فألقى عليهم كساء فديكاً، قال: ثم وضع
 يده عليهم ثم قال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد فأجعل صلواتك وبركاتك على
 محمد وعليّ وآل محمد إنك حميد مجيد» وقد حكى بعض الأفاضل أن من لا يقبل
 على محبة أهل البيت الطاهرين وينصرف عن موالاتهم فهو من الرجس الذي
 يذهبه الله تعالى عنهم. والله در القائل:

وحديث الكساء تاج من المختار ... يزري بتاج كل الملوك

وسموا أهل الكساء لكونه ﷺ جلبهم بكساء، وهم المعروفون بأصحاب العبا وفي
 حقهم يقول القائل:

لي خمسة أطفي بهم ... حرّ لهيب الحاطمة

المصطفى والمرضى ... وابناهما والفاطمة

قال الطيبي: لعل السر في هذه التوصية واقتران العترة بالقرآن أن إيجاب محبتهم
 لائح من معنى قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فإنه

تعالى جعل شكر إنعامه وإحسانه بالقرآن منوطاً بمحبتهم على سبيل الحصر فكأنه ﷺ يوصي الأمة بقيام الشكر وقيد تلك النعمة به ويحذرهم عن الكفران فمن أقام بالوصية وشكر تلك الصنعة بحسن الخلافة فيهما لن يفترقا فلا يفارقانه في مواطن القيامة ومشاهدها حتى يرد الحوض فشكرا صنيعه عند رسول الله ﷺ فحينئذ هو بنفسه يكافئه والله تعالى يجازيه بالجزاء الأوفى، ومن أضاع الوصية وكفر النعمة فحكمه على العكس وعلى هذا التأويل حسن موقع قوله: «فانظروا كيف تخلفوني فيهما» والنظر بمعنى التأمل والتفكر أي تأملوا واستعملوا الروية في استخلافي إياكم هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء. وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «اخلفوني في أهل بيتي» وفي رواية: «الصلاة الصلاة وآل بيتي» وهي أمانة وضعها رسول الله ﷺ في أعناق الأمة أن يعرفوا حق القربى كنخمس الخمس وتقدمتهم وتكرماتهم والاستفادة من علمهم وخلقهم... وروى الإمام أحمد عن المطلب بن ربيعة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم الله ولقرايتي» فحب أهل البيت ومدرستهم قضية الإسلام كله... والله در الإمام الشافعي القائل:

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزلهُ

كفاكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

ومما قرره العلماء المحققون رضي الله عنهم أن أهل البيت يختم لهم بالحسنى فهم ناجون يوم القيامة كرامة لجدهم المصطفى ﷺ ولا فرق بين المطيع منهم والعاصي، فإن قلت: قال الله تعالى ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾

ولا يتساءلون﴾ أجبتك بما قاله خاتمة المحققين وأستاذ الفقهاء المتأخرين أمين فتوى الشام العلامة ابن عابدين؛ قال في رسالته "العلم الظاهر في نفع النسب الطاهر":
وأما الآية السابقة فهي واردة في شأن الكفار بدليل السباق والسياق فهي ليست بعامة ولو قيل بالعموم يقال: إنها من العام الذي أريد به الخصوص بشهادة ما تقدم من النصوص الدالة على أن نسبه الشريف نافع لذريته الطاهرة وأنهم أسعد الأنام في الدنيا والآخرة. وذكر العلامة ابن عابدين أيضاً في رسالته هذه شيئاً مما يستأنس به فقال: ومما يستأنس به في المقام ما أخبرني به بعض مشايخي الكرام عن بعض مشايخه بوالله تعالى الجميع دار السلام: أنه كان مجاوراً في مكة المشرفة وكان يقرأ درساً فمرَّ به قوله تعالى **﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** فاستدل بعض العلماء به على أن ذريته عليهم السلام يموتون على أكمل الأحوال فنظر إلى الدليل فرآه قوياً ثم استبعد ذلك بما يبلغه عن شرفاء مكة المشرفة فنام فرأى حضرة صاحب الرسالة عليه السلام في منامه وهو معرض عنه فقال له: **«أَتَسْتَبْعِدُ أَنْ يَمُوتَ أَهْلُ بَيْتِي عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ؟»** أو كما قال فاستيقظ خائفاً ورجع عن ذلك. وقد قال من قبله سلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي قدس الله روحه في الفتوحات المكية: وينبغي لكل مسلم يؤمن بالله وما أنزله أن يصدق الله تعالى في قوله **﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله تعالى قد عفا عنهم فيه فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمة بهم ولا ما يشناً أعراض من قد شهد الله بتطهيرهم وذهاب الرجز عنهم؛ لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه بل بسابق عناية من الله بهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال مولاي وسيدي وقرة عيني الإمام الرواس عليه رضوان رب الناس: لله سبحانه

وتعالى أسرار في آل نبيه الحبيب المختار، لا بد وأن يَظْهَر منها في الأكوان آثار، سنذكر منها شيئاً للعبرة "فاعتبروا يا أولي الأبصار" فمن سرّ الله تعالى في آل نبيه ﷺ أن اختارهم في عالم أزله فهم مختارون والمختار مقبول، والمقبول مغفور له، ومن سرّ الله فيهم أن من أحبهم وتقرب إلى مودتهم تظهر فيه البركة في أمر دينه ودنياه ومن أذاهم وأساءهم يظهر فيه الخذل والخزي في أمر دينه ودنياه ولو بعد حين، ومن سرّ الله فيهم أن الله يتولى أمورهم بذاته فينصر من والاهم ويقهر من عاداهم، ومن سرّ الله فيهم أن من أحبهم على القاعدة المرعية المعروفة عند أهلها مع السلامة من رفض الصحابة والغلوّ الدافع إلى المزالق، لا بدّ وأن تحصل له نفحة سماوية تُصلح قلبه فيعلو قدره ويعظم أمره ولا يُفضح ولا يهان ويكون معهم إن شاء الله تعالى وهم مع أبيهم روح الأكوان حبيب الرحمن عليه صلوات الملك الديان. اهـ. وما أحسن ما أجاب به مولانا الشيخ حسن البيرقي قدس سره حين سئل عن رجلين وليين أحدهما من الآل والآخر من غيرهم؟ فقال:

آل النبي لهم في نفس نسبتهم ... سر عظيم له في الجمد غاياتُ

والأولياء وإن جلت مراتبهم ... في رتبة العبد والسادات ساداتُ

وقد أجاب وأجاد ووضّح وأفاد وشفى غليل الفؤاد وبيّن حقوق الأولياء والأوتاد والسادات والأسياد وأعطى البضعة النبوية حقها من التعظيم وأتى بما يرضي الرسول الكريم والنبي الرحيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، ومن جوابه تعلم أن منصب الولاية يحصل لآل البيت ولغيرهم من خواص العباد أهل الفيض والرشاد المتبعين لأشرف نبي وأكرم هاد غير أن بين الولي الشريف والولي

غير الشريف بوناً عظيماً وفرقاً جسيماً فإن مدد الرسول ﷺ وإن كان واصلاً بكم الفضل والجلود إلى ساحة الوجود ليغترف من أنهارها كل موجود لكن للآل الذين هم بضعة من الذات النبوية أرفع مزية وأعلى خصوصية ولهذا خصهم الله بمقام الغوثية فلا يكون الغوث المتصرف بأمر الله في ملك الله نيابة عن رسول الله ﷺ إلا منهم كما أطبق عليه جماهير السادات الصوفية وخواص هذه الأمة المحمدية على نبينا أفضل الصلاة وأكمل التحية، فينبغي على المسلم لزوم مودتهم ومعرفة حقهم كما روى الهيثمي في مجمع الزوائد والطبراني في الأوسط عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله عز وجل وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا» وروى الديلمي عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدبوا أولادكم على خصال ثلاث: على حب نبيكم، وحب أهل بيته، وعلى قراءة القرآن فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفياه» وفي رواية له: «أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي وأصحابي» وفي رواية: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي والقاضي لهم حوائجهم والساعي لهم أمورهم عندما اضطروا والمحب لهم بقلبه ولسانه» وهذه الأحاديث النبوية مع الآيات القرآنية شاهدة بأجمعها بفضل آل الرسول أهل الشرف والمجد والقبول، بضعة خير الأنبياء العظام وسلالة سيد الرسل الكرام الذين هم بركة الأنام وأئمة الإسلام الداعون بشريعة جدهم إلى دار السلام جعلنا الله من خدمته أعتابهم ومن جملة محبيهم وأحبائهم آمين آمين بحاجه سيد المرسلين وحبيب رب العالمين عليه وعليهم أفضل صلاة المصلين وأتم سلام المسلمين صلاة وسلاماً دائماً دائمين إلى يوم الدين، وقد تبين مما مر نقله من

الآيات والآثار أن حب آل الله ﷺ واجب على كل مسلم وجوباً مؤكداً ولذلك أمر النبي ﷺ بالصلاة عليهم تبعاً له ﷺ ويكفيك ما أخرجه الدارقطني عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يصل فيها علي ولا على أهل بيتي لم تقبل منه» وقد أخذ الإمام الرئيس ذو العلم النفيس مولانا محمد بن إدريس الشافعي القرشي رضي الله عنه بهذا الحديث فمذهبه أن من لم يصل على النبي ﷺ فصلاته باطلة ومن لم يصل على آل الله في نافلة فهي ناقصة فانظر بعين الإنصاف وتأمل ما خص الله به آل الأشراف من المزية العلية والخصوصية السنية وتفكر في أن القوم الذين لا تتم صلاتك إلا بالصلاة عليهم فيها هم في أي درجة عالية وفي أي مرتبة سامية خصهم الله تعالى بها حيث لم يرض النبي ﷺ إلا بقرن اسمهم باسمه ومقارنة الصلاة عليهم بالصلاة عليه لتعلم فرضية حبهم وتعظيمهم ووجوب احترامهم وتكريمهم وتحذر من إيذائهم فقد روى الديلمي عن أبي سعيد مرفوعاً: «اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي» وروى الطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاثاً: أن يثبت قائمكم، وأن يهدي ضالكم، وأن يعلم جاهلكم، وسألت الله أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء فلو أن رجلاً صنف بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار» وفي رواية للطبراني عن الحسن رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يغيظنا أحد، لا يحسدنا أحد، إلا زيد يوم القيامة عن الحوض سباط من نار» وروى ابن حبان في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي محاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمسلط بالجبروت ليدل بذلك من أعز الله وليعز به من أذل الله، والمستحل

حَرَّمَ اللَّهُ، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك لسنتي» والمستحل من عترته ﷺ ما حرم الله: من يفعل بهم ذلك كإيذائهم وترك تعظيمهم والتقصير في أداء حقوقهم... وفي رواية للطبراني عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وإنما مثل أهل بيتي مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له» قال الإمام الرواس قدس سره: قال محمد صلوات الله وتسليماته عليه وعليهم هم أئمة الأرواح يقتدي بهم في طريق الله الموفقون ويقف بأبوابهم الصالحون وينهج بشريف مناهجهم المهتدون وينحرف عنهم المخدولون ويباعدهم الزالقون وقاعدة محبتهم سلام الله عليهم ممتزجة بإجلال الصحابة الكرام والثناء عليهم والكف عما شج بينهم إجلالاً لجناب رسول الله ﷺ. وقال حجة الله على أوليائه في عصره ونتيجة المفاخر في دهره الإمام أبو الهدى الصيادي أعاد الله على المسلمين من عميم بركاته: واعلم أن أصحابه ﷺ أفضل من غيرهم من جميع من جاء بعدهم للأحاديث الكثيرة الصحيحة والنصوص القطعية الصريحة الواردة في علو شأنهم ورفعة قدرهم وتفضيلهم على غيرهم كقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وقوله ﷺ: «إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين» وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه» والأحاديث في ذلك كثيرة ولا يخفى أن الصحابة يتفاوتون في الفضيلة فليسوا فيها سواء بل أفضل أصحابه ﷺ الأربعة المعبر عنهم بالخلفاء الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يليهم في الفضل بقية العشرة

المبشرين بالجنة وهم طلحة والزبير وسعد وسعيد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان... ورؤساء الأولياء وأئمة الأصفياء لا يساوون من فاز بصحبة سيد المرسلين واقتصر على فرائض الدين وذلك لما له من الخصوصية التي لا تضاهى والفضيلة التي لا تباهى وهو اجتماعه برسول الله ﷺ بعد الإيمان والتصديق بما جاء به اجتماعاً متعارفاً. وفيما يتعلق بالنصوص الصريحة المؤيدة سلامة انتقال الخلافة إلى أبي بكر الصديق بالاجتهاد والمشورة فمنها قوله ﷺ: «القائم بعدي في الجنة والذي يقوم بعده في الجنة والثالث والرابع في الجنة» وفيه دلالة صريحة على أن كل واحد منهم قد قام بالأمر والخلافة وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله من نؤمر بعدك؟ قال: «إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا علياً - ولا أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الطريق المستقيم» وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أن رجلاً قال للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نسمعك تقول في الخطبة: «اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين» فمن هم؟ فاغرورقت عيناه وقال: «هما حبيبي أبو بكر وعمر إماما الهدى وشيخا الإسلام ورجلا قریش والمقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ من اقتدى بهما عُصم ومن اتبع آثارهما هدي إلى الصراط المستقيم ومن تمسك بهما فهو من حزب الله» وانتزع الإمام مالك رضي الله عنه من الآية الكريمة (ليغيظ بهم الكفار) تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر. وروى ابن النجار عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء أساس، وأساس الإسلام حب أصحاب

رسول الله ﷺ «حب أهل بيته» وفي الحديث المتقدم: «ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم» إشارة إلى أن بغضهم كفر لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له كان كفراً بلا نزاع، قال سهل التستري: لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعزّ أوامره. ويجب الإمساك عما شجر بينهم كما جاء عن صاحب البيان النبوي في الحديث عند الطبراني: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» وأن يلتمس لهم مما نُقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات ويخرج لهم أصوب المخارج إذ هم أهل ذلك كما هو في مناقبهم ومعدود من مآثرهم، وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات، فاحفظ نبيك بأصحابه الكرام، أئمة الدين الأعلام، فهم ورّاث حكّمه، وخزائن علمه، وسيوف أمره، وأسود برّه، وأمواج بحره، رضي الله عنهم أجمعين، وأحياناً على منهاجهم وحشرنا في زمرتهم آمين. روى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه. وروى عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري في قوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: نزلت في أصحاب محمد خاصة. واعلم أيها المحب لآل النبي الكريم الباحث عن تفاصيل جمل قدرهم العظيم أن سورة الإنسان نزلت فيهم وصح عن سيدي ومولاي السيد أحمد الرفاعي رحمه الله أنه قال: أي أولادي عظموا شأن أهل البيت وكرمهم وبلوهم وإذا سمعتم أحداً يقول في شأنهم أشياء قبيحة أنكروها أو فاجعلوا أصابعكم في آذانكم وذوبوا عن أعراض الصحابة قاطبة وعليكم بمحبتهم ومدحهم فإن هؤلاء القوم قد عفا الحق سبحانه عنهم ولا يؤاخذهم بما جرى بينهم وإنهم يتواهبون ويدخلون الجنة واعلموا أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ

أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وروى أبو يعلى عن سلمة بن الأكوع عن النبي ﷺ قال: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي» وفي رواية للحاكم: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» قال العلامة العدوي في كتابه مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار عند ذكر هذا الحديث الشرف مانصه: ولعل المراد من الغرق: ما يلحقهم من العذاب لولا وجودهم كما يدل عليه ما في بعض الروايات: «فإذا ذهب أهل بيتي جاء أهل الأرض ما كانوا يوعدون» ويحتمل أن المعنى: أن من أحبههم وعمل بمقتضى سنة جدهم نجا من ظلمة الأغيار والطغيان ومن تخلف عنهما غرق في بحر كفر النعمة والبهتان. وروى ابن أبي عاصم في المسند عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله يقول: «أول من يرد عليّ الحوض أهل بيتي ومن أحبني من أمتي» قال الإمام بدیع الزمان سعيد النورسي في اللمعات: الحكمة في إرادته ﷺ في جمع الأمة حول آل البيت هي: أن الرسول الكريم ﷺ قد علم بإذن إلهي أن آل البيت سيكثر نسلهم بمرور الزمن بينما الإسلام سيؤول إلى الضعف فيلزم والحالة هذه وجود جماعة مترابطة متساندة في منتهى القوة والكثرة لتكون مركزاً ومحوراً لرقى العالم الإسلامي المعنوي وقد علم ﷺ بهذا بإذن إلهي فرغب في جمع أمته حول آل بيته، نعم؛ إن أفراد آل البيت وإن لم يكونوا سابقين ومتقدمين على غيرهم في الإيمان والاعتقاد إلا أنهم يسبقونهم كثيراً في التسليم والالتزام والولاء للإسلام لأنهم

يوالون الإسلام فطرة وطبعاً ونسلاً فالموالة الطبيعية لا تُترك ولو كانت في ضعف وعدم شهرة أو حتى على باطل فكيف بالموالة لحقيقة ارتبطت بها سلسلة أجداده الذين ضحّوا بأرواحهم رخيصة في سبيلها فنالوا الشرف بها فتلك الحقيقة هي في منتهى القوة وذروة الشرف وعلى الحق المبين أفيستطيع من يشعر بداهة بمدى أصالة هذه الموالة الفطرية أن يتركها؟ فأهل البيت بهذا الالتزام الشديد للإسلام وهو التزام فطري يرون الأمانة البسيطة بجانب الإسلام برهاناً قوياً لأنهم يوالون الإسلام فطرة بينما غيرهم لا يلتزم إلا بعد اقتناعه بالبرهان القوي. اهـ. وذكر الإمام السيد أبو الهدى الصيادي قدس سره أن السادات الصوفية وراث الشريعة والطريقة الحمديّة قد اتفقت كلمتهم قديماً وحديثاً على أن رئيس الأقطاب المقلب بالغوث لا يكون إلا من الآل بلا ريب ولا إشكال ولا كلام في أن الغوث هو الذي يتلقى خلعة الولاية من رسول الله ﷺ ويوصلها إلى من اختاره الله من عباده واجتباها إلى طرق رشاده وقد علم المسلمون في المشرق والمغرب أن رؤساء الأولياء وأئمة الأصفياء من بعده عليه الصلاة والسلام من ذريته وأولاده الطاهرين يتناسلون بطناً بعد بطن وجيلاً بعد جيل إلى زمننا هذا وهم أولياء الأولياء بلا ريب وقادتهم إلى الحضرة القدسية المحفوظة من الدنس والعيب ومن في أولياء الصدر الأول بعد الطبقة المشرفة بصحبة النبي الكريم كالحسن والحسين والباقر والكاظم والصادق والجواد والهادي والتقي والنقي والعسكري والرفاعي والجيلاني والبدوي والدسوقي والشاذلي رضي الله عنهم أجمعين ألم يكونوا كلهم من أهل البيت؟ وأولادهم وأحفادهم وذريتهم شيوخ الرجال وأعيانهم إلى الآن تسلسلاً وتديلاً وقد اتفق القوم والعلماء والعامّة أيضاً على الاعتقاد بهم رضي الله تعالى عنهم واتخذوهم

ضراعاً إلى الله تعالى ووسائل عند الدعاء في الملمات والمهمات ولهم الأيدي على
 كمل الواصلين وبهم وصلوا وبآداهم تأدبوا وبتربيتهم تربوا وعليهم انحسبوا
 وإليهم انتسبوا... ومما يدل على فضلهم وشرفهم نفعا الله بحبهم في الحياة وبعد
 الممات قوله عز من قائل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وإذا كان كل ابن يرتقي في الجنة إلى منازل
 آبائه فما بالك بأبناء فاطمة البتول الذين هم ذرية الرسول فهل يلوح لأفكار من
 له أدنى إلمام بفضل هؤلاء السادات الكرام أن يساويهم أحد من الأنام في دار
 السلام بعد الأنبياء العظام والأصحاب الكرام؟ حاشا أن يظن ذلك إلا من
 ساءت سريره وانطمست بصيرته، وما أحسن ما قاله الشيخ الأكبر سيدي محي
 الدين بن عربي قدس سره في فتوحاته عند ذكر قوله تعالى ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ
 وَالرَّسُولَ﴾ إن من خيانة رسول الله ﷺ عدم مودة قرابته وآله الذين سئلنا مودتهم
 بقوله تعالى "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى". اهـ. ومن الآيات
 القرآنية الدالة على فضل عترته وشرف ذريته قوله عز شأنه ﴿النبي أولى بالمؤمنين
 من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ ليؤذن بأنه بمنزلة الأب وأزواجه بمنزلة الأمهات
 وتؤيده قراءة ابن مسعود "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم" ووقعت
 النسبية في قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقد روى الإمام أحمد عن البراء
 بن عازب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي فينا:
 الصلاة جامعة وكُسِحَ لرسول الله ﷺ تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد
 علي عليه السلام فقال: «ألستم تعلمون أي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى،
 قال: «ألستم تعلمون أي أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: فأخذ
 بيد علي فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من

عاداه» قال: فلقية عمر بعد ذلك فقال له: «هنيئاً يا ابن أبي طالب! أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة» وقال ﷺ: «من أحب علياً فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن آذى علياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله» وروى الترمذي بإسناده عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وقال له ﷺ: «يهلك فيك رجلان: محبٌ مُطَرٍّ وكذابٌ مُفْتَرٍ» وقال له: «تفترق فيك أمتي كما افترقت بنو إسرائيل في عيسى» وهذا واضح جلي لا يخفى فإن الروافض ألَّهوه والخوارج قتلوه! وروى الحاكم بإسناده عن حيان الأسدي قال: سمعت علياً يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الأمة ستعذر بك بعدي وأنت تعيش على ملتي وتقتل على سنتي من أحبك أحبني ومن أبغضك أبغضني وإن هذه ستخضب من هذا» يعني لحيته من رأسه. وعن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) على رسول الله ﷺ يوم غدِير خُم في علي بن أبي طالب. وروى الشجري في الأمالي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في علي أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وذكر البغوي والواحدي والنسفي عن مقاتل أن الآية الكريمة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثماً مبيناً) نزلت في علي بن أبي طالب وذلك أن ناساً من المنافقين كانوا يؤذونه ويشتمونه. وروى الطبراني والهيثمي عن أنس بن مالك قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ فقدم فرحاً مشوياً فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ائتني بأحب الخلق إليك

وإلي يأكل معي من هذا الفرخ» فجاء علي فدق الباب فقال أنس: من هذا؟ قال: علي فقلت: النبي ﷺ على حاجة فانصرف، ثم تنحى رسول الله ﷺ وأكل ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم ائني بأحب الخلق إليك وإلي يأكل معي من هذا الفرخ» فجاء علي فدق الباب دقاً شديداً فسمع رسول الله ﷺ فقال: «يا أنس من هذا؟» قلت: علي، قال: «أدخله» فدخل فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألت الله ثلاثاً بأن يأتيني بأحب الخلق إليه وإلي يأكل معي من هذا الفرخ» فقال علي: وأنا يا رسول الله لقد جئت ثلاثاً كل ذلك يردني أنس، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس ما حملك على ما صنعت؟» قلت: أحببت أن تدرك الدعوة رجلاً من قومي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يلام الرجل على حب قومه» وبالجملة فإنك إذا فقهت ما في ذلك من أسرار عرفت فضل ذرية النبي المختار وعرفت ما لهم علينا من التوقير والاحترام والتعظيم والإكرام لا سيما أن الوحي منزل بيوهم وحقائق الآيات عنهم تنقل والنبي ﷺ حثّ على الأخذ بكتاب الله كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل» وقد أودع المولى جل جلاله صدور العلماء معرفته وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله، وخصّ الأصفياء ببركة سيد الأنبياء فهم ما أودعه من لطائف أسرار وأنواره لاستبصار دقيق إشاراته وخفي مرموزاته، بما لوح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أعيانهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون، وعن سنة رسوله يفصحون، دليلهم في السرى إن تاه غيرهم... هدي من السنة العرا وقرآن. روى الإمام الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

الله ﷻ: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض» والسنة هي الحكمة التي أوحاها الله إلى رسوله كما جاء في التنزيل العزيز ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ وهي ميزان العلم والفهم المشار إليه في الآية ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ ولذلك يجب على العارف العالم أن يرجع في جميع أقواله وأفعاله وعلومه إلى الميزان الحمدي فما وافقه فهو الحق المقصود وما خالفه فهو الباطل المردود، وكل علم سوى الكتاب والسنة وما يستند إليهما فهو باطل، ومن تحلى بغيرهما فهو عاطل. قال الامام الغزالي رحمه الله: أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعر والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيار والقبان؟ ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان! فاتق الله ولا تتعسف في التأويل واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته ليتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا من ملائكته فالله هو المعلم الأول والثاني جبريل والثالث الرسول والخلق كلهم يتعلمون من الرسول ما لهم طريق في المعرفة سواء اهـ. وفي معنى قوله ﴿هو الذي بعث في الأميين﴾ تحقيق الغيرية المذكورة في خاتمة الفاتحة، وأوثر التعبير بالأميين توركاً على أهل الكتاب لأنهم كانوا يقصدون به الغض من أمة الإسلام ومن نبياها جهلاً منهم فيقولون: هو رسول الأميين وليس رسولاً إلينا، وقد قال ابن صياد للنبي لما قال له: «أشهد أني رسول الله؟» أشهد أنك رسول الأميين. وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون على حد زعمهم كما حكى تعالى ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ استخفافاً بهم، فتحدى الله اليهود بأنه بعث رسولاً إلى الأميين وبأن الرسول أُمِّي لم يتصل بأهل الكتاب ولم يتلق عنهم ولم يخط كتبهم بيمينه،

وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما أرشد النظم الكريم **(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)** فكان اشتمال القرآن على العلوم التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين، فكان علماء الأمة بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر أهل الكتاب، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة ضالة جاهلة لا تعرف كتابها، وزال اختصاص اليهود بعلم الكتاب، وهذا أجدع لأنفهم إذ حالوا أن ترشد الأمة فضلاً عن أن تفوق من كانوا أمكن في المعارف والسلطان، وهذا تمهيد ومقدمة لقوله تعالى **(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)** وإيثار لفظ السفر لتحمله معنى الكشف من العلم أي يحمل كتباً كباراً على ما يشعر به التكرير، يتعب بحملها ويجهل نفائسها الدقيقة وأغوارها العميقة وقلائدها الأنيقة، والغرض من التمثيل توجيه الذم إلى من حُرِم الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمّل التعب في استصحابه، وفيه ما لا يخفى من الترغيب في تعلم العلوم وترك الاتكال على الرواية دون الدراية، وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع أهل الكتاب. ولما كان قولهم أنهم أهل التوحيد وأولياء الله في غاية البعد من هذا المثل، استأنف ما يدل على صحة المثل قطعاً فقال مندياً لهم متهمكماً بهم **(قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)** والحياة محبوبة عندهم لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن الحياة التي هي مرموقهم ومعشوقهم! روى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن كنتم في مقاتكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا، فوالذي نفسي في يده لا**

يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه» فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم جزعاً أن ينزل بهم الموت، ويؤيده قوله بعده ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ وأعظم مصداق في هذا أنهم ما قوتلوا قط إلا أرزوا إلى حصونهم، فدل ذلك على أنهم أحرص الناس على حياة! فإنهم عالمون بأنهم يصيرون إلى النار، وقد نبّه على بلادتهم تبكيتاً لهم فقال ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ والجبان حتفه من فوقه، ومنيته تحوم على رأسه. وإذا كان الكافر يفر من الموت فإن المؤمن تُحفته الموت كما جاء في مسند عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «تحفة المؤمن الموت» وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تحفة في حقه.

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾ لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أن عقى كيدهم في الدنيا تدميرهم فإن عناية الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الآخرة، وفيها بيان عظيم كرامة سيدنا محمد ﷺ على ربه تعالى وعنايته سبحانه به ﷺ وتكفله تعالى بحفظه وحفظ البيت المعظم الذي سيكون قبلته ومحجه ومحج أمته وحفظ دينه وشريعته إلى يوم الدين، وقد كانت هذه القصة إرهاباً بين يدي مولده الشريف ﷺ ودلالة على يمنه وخيره وبركته وتشريفاً له وإجلالاً لشأنه وأمره وتمييزاً لعظيم مقامه

وتأسيساً لنبوته فإن أصحاب الفيل كانوا نصارى أهل شرك فنصر الله تعالى قريشاً عليهم نصراً لا صنع للبشر فيه وذلك بعد معركة حدثت في اليمن بين النصارى وبين اليهود الذين أحرقوا المؤمنين بنار الأخدود على ما أشارت سورة البروج وكل ذلك من مآثر شرائع وعقائد بني إسرائيل! وكان أبرهة والياً على اليمن من قبل النجاشي جد الذي كان في حياة النبي ﷺ والقصة مشهورة في كتب السير... وتعليق الرؤية بكيفية فعله تعالى لا بنفسه لتهويل الحادثة والإيدان بوقوعها على هيئات عجيبة دالة على عظم قدرة الله وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله عليه أكمل الصلوات والتسليمات إذ كان هذا عام مولده ﷺ كما جاء في تاريخ ابن حبان. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل. وما أحسن قول الأبوصيري:

مولدٌ كان منه في طالع الكف... سر وبألٍ عليهم ووباءُ

ليلة المولد الذي كان للدي... من سرور بيومه وازدهاءُ

ولما اختار سبحانه وتعالى لحبيه ﷺ المكان المعظم لانطلاق رسالته الخاتمة اختار كذلك العام الذي برزت فيه الحقيقة المحمدية من صدفة الغيب إلى صدفة الشهادة ومن عالم الباطن إلى عالم الظاهر وجاءت الذات الأحمدية لتشرف هذه الأكوان كما شرفت عالم الباطن جاء دورها لتشرف عالم الظاهر تحت اسم الله عز وجل الباطن الظاهر الأول الآخر وهذا التوقيت له أهميته في حياة سيدنا رسول الله ﷺ كما جاء في التنزيل العزيز (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فجعل هذا التوقيت إرهاباً وتوطئة وتقدمة لظهور أنواره ﷺ وتأسيساً لرسالته المباركة، وكأن لسان حال حادثة الفيل يقول: يا معشر قريش هذا الانتصار

صيانة وحماية لهذا المولود المبارك فكانت آية الفيل التي بقيت وستظل ماثلة
وعلى ذكر من المسلمين إلى يوم القيامة وناطقة بقدر هذا النبي المصطفى وعظمة
هذا الرسول المجتبي وبركة هذا الحبيب المقتدى

في يوم مولده كم آية ظهرت ... للناس أشهر من نارٍ على علمٍ
ما معبد الفرس إذ نيرانه حُمِدَت ... أدهى مُصاباً من الإيوان ذي الكُلمِ
وفي سماوة غيضُ الماء ينبئنا ... عن غيض ساوة في مستنقع العجمِ
طفلٌ مع اليُتم تهتر العروش له ... وهو ابنٌ مهدٍ رضيعٌ غيرٌ مُنطِمْ

وقد وافق يوم ولادته العشرون من شهر نيسان سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد
السيد المسيح عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام وسرُّ مولده ﷺ في الربيعين
الميلادي والهجري يتعلق أولاً بشرف الزمان وثانياً بشبه الزمان وثالثاً بما في هذا
الشهر من الأقوات والأغذية... وذكر الحافظ شهاب الدين القسطلاني - أفاض
الله عليه سجال رحمته ورضوانه وأسكننا معه في بحبوحة جنانه - أن ليلة مولده
ﷺ أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره
ﷺ وليلة القدر معطاة له وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أشرف مما
شرف بسبب ما أعطيه ولا نزاع في ذلك فكانت ليلة المولد أفضل من ليلة
القدر. الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها وليلة المولد شرفت
بظهوره ﷺ ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر على
الأصح المرتضى فتكون ليلة المولد أفضل. الثالث: أن ليلة القدر وقع فيها
التفضيل على أمة محمد ﷺ وليلة المولد الشريف وقع التفضل فيها على سائر

الموجودات فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين فعمت به النعمة على جميع الخلائق فكانت ليلة المولد أعم نفعاً فكانت أفضل. وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له ما حالك؟ قال: في النار إلا أنه خفف عني كل ليلة اثنين وأمص من بين أصبعي هاتين ماء وأشار برأس أصبعه وأن ذلك بإعتاقي لثوية عند ما بشرتني بولادة النبي ﷺ وبارضاعها له. فافهم أيها العاقل فإنك إذا فهمت همت حباً في هذا الرسول الأكرم والحيب الأعظم ﷺ. قال ابن الجزري: فإذا كان هذا الكافر الذي نزل القرآن بدمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به فما حال المسلم الموحد من أمته ﷺ يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ؟ لعمرى إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم، ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه الصلاة والسلام ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم، ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام فرحم الله امرأ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعيب داء.

(قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون) لما أنكر أولياء الشيطان - وأتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة - البعث ونفوه النفي المحتم أمر تعالى نبيه أن يقررهم بأشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الإقرار بالبعث قطعاً فالآيات الثلاث

تقرير للسابق وتمهيد للاحق وقد روعي في السؤال فيها قضية الترقى فابتدئ
بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنها أقرب العوامل لإدراك المخاطبين، ثم
ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السماوات والعرش، ثم ارتقى إلى ما هو أعم وأشمل
وهو تصرفه المطلق في الأشياء كلها وأوثر الملكوت وهو الملك الواسع، فعيروا
أولاً بعدم التذكر ثم بعدم الالتقاء ثم بالتعجب من خدع عقولهم. والاستفهام
تقريري وهو استئناف استدلالٍ عليهم في إثبات التوحيد لله تعالى، والمقصود -
والله أعلم - إثبات لازم جوابهم وهو انفراده تعالى بالوحدانية، وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة الاستفهام عليه، تقديره: فأجيبوني عن
السؤال، وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأملوا فيظهر لهم أن الأرض لله وأن
من فيها لله فإن كون جميع ذلك لله قد يخفى لأن الناس اعتادوا نسبة المسببات
إلى أسبابها المقارنة والتصرفات إلى مباشرتها فنبهوا إلى التأمل بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ وأردف بقوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي يجيبون عقب التأمل جواباً أقرته
ألسنتهم وأنكرته أفعالهم! ووقع الاستفهام ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جواباً لإقرارهم
أي أتقولون لله وتشركون به تعالى؟ والاستفهام إنكاري إنكار لعدم تذكرهم
بذلك، ثم أتبعه باستفهام آخر ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والمقصود من وقوع السؤال دمغهم بالحجة
لكون المستفهم عنه لوحظ بوصفه بكمال ربوبيته الشاملة للعالم العلوي
والسفلي والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها، وذلك لقصد التعريض
بهم لأنهم أثبتوا مع الله أرباباً وأخفوا مسألة الحكم! ثم عدلوا عما فيه نفي
الربوبية عن شركائهم واقتصروا على أن توحيد الربوبية هو أن الله سبحانه
متفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة... وذلك لا ييطل أوهام شركهم من

أصلها، ففي حكاية جوابهم بهذا اللفظ ترك عليهم، ولذلك ذيل حكاية جوابهم بالإنكار عليهم انتفاء اتقائهم الله تعالى، ثم ختم على منوال الاستفهامات السابقة زيادة في تعداد خطئهم ﴿قل فأن تسحرون﴾ مبالغة في التوبيخ أي كيف تخدعون عن توحيد؟ والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور. وقد ذيلت الآيات بتقرير كذبهم الأكيد ﴿بل أتيناكم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ وجيء بالجملة الإسمية الدالة على الدوام والثبات أي أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها، ولما كان من أعظم كذبهم قولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والجن شركاء الله في ملكه قال ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ ونورد ما كتبه المفسد العليم ابن عبد الوهاب في الرسالة الحادية والعشرين: **والطاغوت هو الذي يسمى "السيد" الذي يُنحى ويُندر له ويُطلب منه تفريج الكربات غير الله تعالى وهذا يتبين بأمرين عظيمين: الأول: توحيد الربوبية وهو الشهادة بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا هو؛ وهذا حق ولكن أعظم الكفار كفراً الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون به ولم يدخلهم في الإسلام...!** وبهذه المغالطة نسف عدو الله التوحيد من أساسه وأتى على أصل الإسلام من القواعد! لقد ورد الأمر الإلهي ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ بين الآية ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وبين الآية ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ للإيذان برفعة شأن الربوبية وعظم خطرها والتنبيه على ضلال المشركين في شأنها وفي شأن الرسالة وأن ما زعموه في توحيد الربوبية هو من كذبهم

وخذاعهم ومكرهم. قال سهل التستري في قوله "واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة": حقيقة الذكر تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك وتراه بقلبك قريباً منك وتستحي منه ثم تؤثره على نفسك في أحوالك كلها ثم قال: ليس من ادعى الذكر فهو ذاكر، فقل له: ما معنى قوله ﷺ: «الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى» فقال "ذكر الله" هاهنا الزهد عن الحرام وهو أن يستقبله حرام فيذكر الله تعالى ويعلم أنه مطلع عليه فيجتنب ذلك الحرام ثم قال: ما من أحد ذهب منه نفس واحد في غير ذكر الله إلا وهو غافل عن الله عز وجل. وقال أهل التصوف: للذكر بداية وهي توجه صادق، وله توسط وهو نور طارق، وله نهاية وهي حال خارق، وله أصل وهو الصفا، وله فرع وهو الوفا، وله شرط وهو الحضور، وله بساط وهو العمل الصالح، وله خاصية وهي الفتح المبين. وقال أبو سعيد الخراز: إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبداً فتح له باب الذكر فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة فإذا نظر الجلال والعظمة بقي بلا "هو" فيصير فانياً بريئاً عن دعوات نفسه محفوظاً بالله. وقال غيره: الذكر ترياق المذنبين وأنيس المنقطعين وكنز المتوكلين وغذاء الموقنين وحيلة الراضين ومبدء العارفين وبساط المقربين وشراب المحبين.

(ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لما كان هذا الحاج بعيداً من الصواب كثيف الحجاب عجب سبحانه من خصامه ومعارضة ربوبيته في ربه! وأوضح سبحانه على

لسان إبراهيم عليه السلام توحيدَه في ربوبيته وتفردَه في وحدانيته، وركز ذلك في جميع الفطر وقادها إلى بحور جلاله بأدنى نظر، ثم عرّفه إبراهيم عليه السلام بربه مستدلاً على البعث والنشور **(ربي الذي يحيي ويميت)** أي المتصرف فيك وفي أشباهك بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك من هذين الوصفين العظيمين المشاهدين للعالم اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء ولا طب الأطباء! فأنكر اللعين وعارضه بضرب من المغالطة فدعا برجلين فقتل أحدهما وعفا عن الآخر أو أنه استعان بالشیطان فتمثل له نحو الميت فلما رأى إبراهيم عليه السلام غلظه وتشغيبه انتقل من الاستدلال على ربوبية الله في الأرض إلى الاستدلال على ربوبيته تعالى في العوالم العلوية وهذا برهان ودليل ناهض مبكت للمخالف وهي حجة موسى لفرعون **(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون)** وقد أثنى المولى عز وجل على عباده الخفاء وعظّم شأنهم فقال عز وجل **(إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم برهم لا يشركون)** والآية الثالثة تشير إلى مقام الإسلام، والثانية تشير إلى مقام الإيمان، والأولى تشير إلى مقام الإحسان وهو الانتقال من المراقبة إلى المشاهدة، أو من نظر الكون إلى شهود المكوّن، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى، أو من رسوم الشريعة إلى شواهد الحقيقة. والتعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها وأهميتها، وذلك العنوان يصلح لأن يكون حجة على الفراعنة الجدد، فإن الله لما أرسل موسى إلى فرعون أمره بالدعوة إلى توحيد الربوبية **(وأهديك إلى ربك فتحشى)** وجعل الخشية مؤخّرة عن الهداية إلى الربوبية ومفرعة عليها وأوماً إلى كونها آية كبرى لأنها تنهض من الجهل إلى المعرفة ومن الغفلة إلى اليقظة. وقد أشار تعالى إلى وصف المؤمنين وصفاً فاقوا به فقال معرّضاً بالمنافقين **(والذين إذا**

ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) أي إذا ذكروا ووعظوا بآيات ربهم الدالة على توحيده واستقلاله في ربوبيته لم يفعلوا فعل المنافقين المستعدين عليها المعرضين عنها الساترين لها سترًا وتغطيةً لما عرفوا من حقيقتها ولما رأوا من نورها وفعلوا فعل من لا يسمع ولا يبصر، بل قابلوها بالتفكير والتأمل واستعمال النظر والسقوط والبكاء عند سماعها، سقوط سامع منتفع بسمعه بصير منتفع ببصره وبصيرته كما تقدم في أول أوصافهم... ولما ذكر سبحانه في سورة آل عمران مُلكه العظيم وختم بشمول قدرته ونّبه على التفكير في هذا الملك الموجب للتوحيد؛ نوّه تعالى بأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فأوصلهم التفكير في خلق السماوات والأرض إلى إجابة دعوة الرسول والاعتراف بربوبية الله **(ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا)** وقوله "أن" بمعنى أي، وقال بعضهم: هي مصدرية أي: لأن آمنوا. "فآمنوا" أي اعتقاداً وعملاً وقولاً لأن الإيمان يطلق على الأعمال أيضاً فالإيمان يشمل الاعتقاد والعمل والقول والخلق قال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»** أما معنى الرب: فيطلق لغة على الشيء الثابت ويراد به السيد، والرب هو المالك، والرب هو المتولي المصالح والشؤون، ولما تطلق كلمة الرب دونما إضافة فهي تدل على أنه سبحانه الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير وله الأزل والأبد فهو الثابت وجوداً فلا أول لأوليته ولا آخر لآخريته وما من شيء إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده ولما كان الرب هو المالك والسيد تعلق أولو الألباب في دعائهم ورجائهم بحضرة الربوبية لأنه سبحانه مصلح شؤونهم ومالكهم وسيدهم فالمالك أحق بالملوك والسيد أحق بالعبد ولهذا لجأ إليه أولو الألباب في دعائهم وحاجاتهم وجعلوا يقولون: ربنا ربنا ربنا... وقد ذكر الله

تعالى عن أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين حينما يدعونه ويسألونه يتوجهون إليه باسم الرب لما علموا أنه أحالهم إلى هذا الاسم في الدعاء الذي ذكره سبحانه في كثير من الآيات القرآنية ومن ذلك قوله تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ فقد فهموا من قوله تعالى "ربكم" أنه أحالهم في السؤال والدعاء إلى حضرة الربوبية وأخبر سبحانه عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في دعائه ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ وقد تكرر قول المؤمنين ﴿ربنا﴾ في آخر سورة آل عمران خمس مرار وهذا شأن العبد أن يلبس شعار العبودية ويلاحظ مقام الربوبية فانظر أيها العاقل المؤمن إلى صفة أولي الأبواب أولي الحكمة والذكر والفكر انظر إلى موقفهم مع الله تعالى بهم وكيف سألوه ودعوه بصفة الذل والانكسار والاعتراف ولما استشعروا عبوديتهم أمام حضرة الربوبية ضمن لهم سبحانه الإجابة ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ أي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله﴾ وهي سنة منه سبحانه ألا يخيب راجيه ولا يرد مؤمليه، وقُرئ بالتشديد ﴿وقُتِلُوا﴾ وفي قراءة ثالثة بتقديم قتلوا المبني للمفعول على قاتلوا المبني للفاعل ﴿وقُتِلُوا وقتلوا﴾ وهذه حالة تصدق على التائبين من أهل الكتاب الموصوفين في الآية التي تليها بقوله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ ومن رغب عن القتال ألبس ثوب الذل، ودُيْتُ بالصَّغار، وأدب الحق منه، ومُنِعَ النَّصَف، وسيم الخسف، وضرب على قلبه بالإسهاب، ولما كثر في هذه السورة الأمر بمقاساة الشدائد وتجرع مرارات الأذى واقتحام

الحروب واستهانة عظام الكروب، كانت نتيجة ذلك لا محالة قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على دوام الإيمان، ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان، وتوقوا عقاب الله لعلكم تفلحون بتحقيق فهم الدين، وهذه الآية داعية إلى تذكير أولي الألباب بالمراقبة للواحد الحي القيوم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وبذلك عانق ابتداء السورة تمامها، ووفى مطلعها مقطوعها.

إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا

لما عرض المولى سبحانه لأهل الكتاب مشهداً من آياته الكونية أردف ذلك بما فيه تهديدهم كاشفاً عن إلحادهم الدال على سوء نياتهم وخبث صنيعهم، والإلحاد: التلوية والانحراف عن جهة الصحة والاستقامة للتلبيس وإظهار الغلبة، يقال ألحد ولحد في الدين إذا مال وحاد عنه ومارى فيه وجادل وأدخل ما ليس فيه، والإلحاد في الآيات الكونية يشمل تصويرهم هيئة السماء والأرض بصورة مخالفة لها مشوهة ممسوخة، والإلحاد في الآيات الشرعية يظهر في كتبهم ورسائلهم وفي تناشر ألسنتهم في المماراة والمغالطة والخداع والتشكيك للتلبيس على الناس وتزوير الباطل في صورة الحق وترويجه بالسفسطة ليبطلوا حجج الحق وكفى بذلك تشنيعاً لكفرهم! وقرئ ﴿يَلْحَدُونَ﴾ وذلك الإلحاد يشمل تغيير اللفظ وتبديله في الكتب الإلهية السابقة. وما كان لهؤلاء الملحدون أن يفتضح أمرهم لولا كلام الله الذي كشف ما خفي من دسائسهم... إنه القرآن الذي يجهله أهله اليوم لأنهم لا يعرفونه إلا تراويل وترانيم وتعاويد وقهاويم، بعد ما

صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم...ولما كان الكلام المتقدم تهديداً هائلاً، أتبعه ما هو أشد منه مؤكداً لإنكارهم مضامين ما دخل عليه التأكيد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أراد أنهم جديرون بالعقوبة والخزي والعذاب إذ كفروا بالآيات وسترُوا مرآي العقول الدالة على الحق مكذبين بالذكر الذي لا ذكر في الحقيقة غيره، وهو الذي يَغلب ولا يُغلب وكذلك حجج القرآن، وخبر إنَّ محذوف دل عليه سياق الكلام، والأحسن أن يكون تقديره بما تدل عليه جملة الحال من جلالة الذكر ونفاسته، وفي هذا الحذف توفيرٌ للمعاني وإيجازٌ في اللفظ ومجالٌ تذهب فيه نفس السامع كل مذهب، وقد أجري على القرآن عدة أوصاف ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم، وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بالذكر وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه وفرطوا في أسباب فوزهم في الدارين ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي: كتاب نفيس وأصله من العزة وهي المنعة، كما أنه مشتمل على الحكمة وهي العلم بالله وإفراده في الوحدانية المطلقة. والكلام في قوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ جواب لسؤال يثيره قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وما تخلل ذلك من الأوصاف فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه وألحدوا في الربوبية؟ فأجيب بأن هذه سنة الأنبياء مع أممهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاؤوا به! والأنبياء عليهم السلام أتوا إلى الناس في عصور مختلفة ورسالتهم واحدة وعقيدتهم واحدة ولسانهم واحد ودينهم واحد، دين الإسلام الذي قوبل عبر

التاريخ بتكذيب واحد وجدال واحد واستهزاءات واحدة ومكر واحد! وأي
شعور بالاعتزاز والكرامة يصيغه القرآن ويزرعه في نفس المسلم الذي يتخطى
عشرات الطريق وهو يشعر أن أسلافه في هذه الطريق هم تلك العُصبة المختارة
من بني البشر؟

الفصل الرابع: سورة الأنعام

روى الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد» وحكمة إنزالها دفعة واحدة أنها استجمعت كل قواعد التوحيد وأصول الدين وأبطلت عقائد المبطلين ومذاهب الملحدين، وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في جاهلية الأمس وجاهلية اليوم، وأشدّها مقارعة جدالٍ لهم واحتجاج على سفاهة أحوالهم، وابتدأت السورة بإشعار الناس بأن حق الحمد ليس إلا لله لأنه مبدع العوالم فعلم أنه المتفرد بالإلهية والربوبية ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا برهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواه ويسوونه به في الربوبية. والآية نزلت في أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس قال: هي في التوراة بستمائة آية. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه أتاه رجل من الخوارج فقال ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا برهم يعدلون﴾ أليس كذلك؟ قال: نعم، فانصرف عنه ثم قال: ارجع، فرجع فقال: إنما أنزلت في أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه أنه أتاه رجل من الخوارج فقرأ عليه ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا برهم يعدلون﴾ ثم قال: أليس الذين كفروا برهم يعدلون؟ قال: بلى، فانصرف عنه الرجل فقال له رجل من القوم: يا ابن أبزي إن هذا أراد تفسير الآية غير ما ترى إنه رجل من الخوارج، قال: ردوه علي، فلما جاء قال: أتدري فيمن أنزلت هذه الآية؟ قال: لا، قال: نزلت في أهل الكتاب فلا تضعها في غير موضعها. وهذا القول ﴿وقالوا لولا

أنزل عليه ملك) صادر من أهل الكتاب ويتلقفه كفار مكة الذين لم ينقطعوا عن الاتصال بهم منذ دخولهم جزيرة العرب ويجري هذا المعنى على سائر الآيات...وجملة (الحمد لله) تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنه أعظم مستحق لأن يحمد، فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم، والحمد لغة: الشاء بالكلام على الجميل الاختياري على جهة التبجيل والتعظيم. واصطلاحاً: فعلٌ ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث كونه منعماً على الحامد أو غيره سواء كان ذلك قولاً باللسان أو اعتقاداً بالجنان أو عملاً بالأركان. والحمد يشمل التنزيه، وفي الحديث عند ابن ماجه والحاكم: «أفضل الدعاء: الحمد لله» ثم يجيء الإنكار العنيف لمن يتخذ ولياً من دون الله، ويقرر أنه مناقض لحقيقة الإسلام وأنه الشرك الأكبر الصريح الذي يحبط العمل كله (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) والمقصود الإنكار على الذين عبدوا غيره واتخذوهم أولياء، ومعنى (أول من أسلم) أنه ﷺ أول من يتصف بالإسلام وإليه الإشارة بما رواه ابن أبي شيبة وغيره: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» فأول روح ركضت في ميدان الخضوع والانقياد والمحبة روح نبينا ﷺ وقد أسلم نفسه لمولاه بلا واسطة وكل إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أسلموا نفوسهم بواسطته فهو ﷺ المرسل إلى الأنبياء والمرسلين في عالم الأرواح وهو أول من دعاهم إلى دين الإسلام المبين في قوله (إن الدين عند الله الإسلام) وهو أول من تنشق عنه الأرض كما جاء في سنن الترمذي: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وييدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت

لوائى، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» وفي رواية: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى الحلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري» وأوليته في الإعادة تدل على أوليته في البداية. ثم تأتي الآية التاسعة عشرة من السورة تقرر التوحيد في روعة باهرة تشدُّه الحس وتبهر النفس في الأمر الإلهي المتكرر قل...قل...قل...قل...للحبيب الأعظم المذثر ﷺ وهو يقذف في وجه الجاهلية كلمات كالشهب المحرقة عالية مدوية

فاصلة مزلزلة **(قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون)** فأعلن الحق تعالى شهادته التي هي أكبر من كل الشهادات في الآيات التكوينية السماوية والأرضية بأنه سبحانه إله واحد وأن محمداً رسولهُ ﷺ وإذا كان الله عز وجل هو الشهيد بينه وبينهم فأكثر شيء شهادة شهيد له، ونقل في الكشف أنه إن جعل تمام الجواب عند قوله سبحانه "الله" فهو للتسلق من إثبات التوحيد إلى إثبات النبوة بأن هذا الشاهد الذي لا أصدق منه شهد لي بإحياء هذا القرآن وإن جعل الكلام بمجموعه الجواب فهو من الأسلوب الحكيم لأن الوهم لا يذهب إلى أن هذا الشاهد يحتمل أن يكون غيره تعالى بل الكلام في أنه يشهد لنبوته أولاً فليفهم والاستفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ والاستنكار! والكتب السابقة حافلة بالتحذير من اتخاذ الآلهة، فقد ورد في سفر التثنية من الإصحاح الحادي عشر ما يلي: «واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن الطريق التي أنا أوصيكم بها اليوم لتذهبوا وراء آلهة أخرى» وقوله **(لأنذركم به ومن بلغ)** أي لأنذركم به يا أهل زماني وأنذر به كل من بلغه هذا القرآن إلى يوم الدين

كما في قوله ﴿وَأَن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ ولذلك قال ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به» أي فكأنما اجتمعت به وقرأت عليه الدعوة والرسالة وروى ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ - أي فبلّغه - وفي لفظ آخر له: من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله فكأنه عاين رسول الله ﷺ وكلمه. ومادام القرآن قد نقل إليك بالتواتر جيلاً بعد جيل فلا فرق بين أهل هذا الزمان وبين الذي كانوا في زمن رسول الله ﷺ فكما بلغ أولئك فكذلك بلغ هؤلاء اليوم وهذا المراد من قوله تعالى ﴿وَأوحى إلي﴾ أي وقل لهم أوحى إلي ﴿هذا القرآن﴾ وأهل الكتاب يعرفون القرآن والرسول العدنان ﷺ وصدق قوله وصحة ما جاء به وقد دل على هذا المعنى قوله بعده ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ والنظم يواجههم مواجهة تبدأ باستفهام تقريرى لظلمهم بتحريف الكتاب وافتراء الكذب على الله وادّعاء أنهم على دينه وأنهم على ملة إبراهيم ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾ ويواجههم بحقيقة ما يكتبونه في سلسلة رسائل التوحيد، وهذا من الكذب المفترى على الله! ذلك أنهم يصدرُونَ أحكاماً وينشئون أوضاعاً يغتصبون فيها سلطان الله، وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الشرك بالظلم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ وقد ورد في صورة التفضيع له والتقييح وهو التعبير الغالب في السياق القرآني، وذلك حين يريد أن يبشعه وينفر منه فالشرك ظلم للحق وظلم للنفس وظلم للناس، وهو اعتداء على حق الله عز وجل في أن يوحد ويعبد بلا شريك، واعتداء على النفس بإيرادها موارد

الخسارة والبوار، واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء، ومن ثم فالشرك ظلم عظيم! والله سبحانه يبين موقف أهل الكتاب يوم الحشر والحساب في مشهد حيٍّ شاخص ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ ولما كان القرآن يفضح نفاقهم ويكشف إشراكهم ثم إنكارهم شركته تعالى أتبعه ببيان اهتمامهم به وحرصهم على سماعه ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وقد شبّهت قلوبهم في عدم خلوص الحق إليها بأشياء محجوبة عن شيء وأثبتت لها الأكنة تخيلاً وأسند جعل تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى عقاباً لهم على تصلّبهم في شركهم وإعراضهم عن دعوة رسله واتباع أهوائهم التي تُخَيِّرُ لهم المنع من اتباع الحق، كما وقع في الآية الأخرى ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتباعوا أهواءهم﴾ وهذا القول صادر من منافقي أهل الكتاب - ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم - ثم أخبر تعالى أنهم ينهون عن استماع واتباع القرآن ويعدّون عنه ثم صوّر حالهم عند وقوفهم على النار وقد كُشف الغطاء ثم أكّد طبعهم على الكفر وأخبر عن إنكارهم البعث والنشور بقوله ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾

كما أخبر عنهم في سورة الجاثية ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ولما حكى عنهم إنكارهم للحشر والبعث، بين كيفية حالهم في القيامة فقال ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وأهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب حقّ من عند الله ويعرفون ما فيه من طاقة دافعة للأمة، وكبراؤهم يحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الإسلام! إنهم يعرفون ما فيه من حق ويعرفون ما هم فيه من باطل ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها وصارت إليها أنظمتهم لا يمكن أن يهادنوا الإسلام أو يبقي عليها، ويعرفون أنها معركة لا تهدأ حتى يُطاردوا ويُقتلوا ويُجلبوا عن جزيرة العرب، ويستعلي الدين حتى يكون كله لله... إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة ويدرسون الإسلام دراسة دقيقة عميقة وينقبون عن أسرار قوته وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها ويعملون على إفساد القوة الموجهة في هذا الدين ويوهمون أتباعهم أن عقيدتهم صحيحة مصونة! إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرناً ينطق بحقيقة واحدة... هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم والتي تتضح في هذه المرحلة وتتجلى بصورة خاصة! إن الرسائل والفتاوى التي كتبها أهل الكتاب تنطق بمدى معرفتهم بطبيعة هذا الدين وتاريخه ومصادر قوته ووسائل مقاومته وطرق إفساد توجيهه! يلجئون إلى أخبث الطرق لكي يُطفئوا النور الإلهي ويشيرون حماسة التوحيد والجهاد الموجهة حتى ينالوا ثقة المسلمين واطمئنانهم ثم يضعون السم في الدسم... وقد أمر تعالى بمماركتهم متاركة لا يمكن معها اتباع أهوائهم وهي المباشرة في الدين فقال مبيناً أن اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة ﴿قل إني نهي

أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من
 المهتدين ﴿وما نفى أن يكون متبعاً أهواءهم أخبرهم بما هو متمكن فيه من النور
 وما هم فيه من العمى﴾ (قل إني على بينة من ربي وكذبتكم به ما عندي ما
 تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) وهذه الوحداية
 التي أمر المولى سبحانه المؤمن أن يتعلمها ليقذف في وجه الجاهلية الخداعة
 كلمات كالشهب المحرقة يقولها المسلم عن علم ويوجهها على علم أي على
 بصيرة، والآية تقرّر وحدة العلاقة بين الربوبية والحكمية والإلهية، وقوله ﴿وما
 عندي ما تستعجلون به﴾ استئنافٌ يُبين حالهم في الإصرار على التكذيب
 والشقاق والعناد إذ كانوا يستعجلون العذاب والساعة كما حكى تعالى
 ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ وقد تأكد ذلك بالتعقيب بقوله ﴿وعنده
 مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ ولما كذبوا بالقرآن وهو بينة عظيمة، وسألوا
 تعجيل العذاب تعجيزاً، أردف بقوله ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق﴾ والقص
 اعتباراً باقتطاع الخبر على ما هو به، وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص
 والأخبار فكن حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر
 معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه! وقرئ ﴿يقض الحق﴾ أي القضاء الحق والعدل،
 وهو خير من يفصل القضاء، فجمع النظم الكريم بين القضاء والحكم وبين ما
 قصّة من أخبار تصدّقه بلفظ معجز من لدن حكيم حميد، على نحو ما ورد في
 آية النمل ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ ولما ثبت له تعالى الحكم المطلق في
 سلطنته وبسطته حسب وحدته والقضاء المقارن بكمال الاقتدار في عموم ما
 كان وما يكون أزلاً وابدأً بمقتضى ألوهيته وربوبيته، أردف بشأن ما كانوا
 يستعجلونه من أمر الساعة فقال لرسوله ﷺ ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به

لقضي الأمر بيني وبينكم) ولما كانوا مبطينين الشرك مظهرين الإسلام حقق ذلك بقوله (والله أعلم بالظالمين) والتعبير بالظالمين إظهار في مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم ظالمون في شركهم، ثم انتقل من خاص إلى عام وهو علمه تعالى بجميع الأمور الغيبية فقال عاطفاً على معنى ما سبق (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ولما كان من مفاتيح الغيب الموت والبعث الذي ينكرونه وكان من أدلته النوم والإيقاظ منه وكان فيه تقرير لكمال الحكم بعد تقريره لكمال العلم، أتبع ذلك قوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) ثم أخبر تعالى عن سطوة قهره للملوك وغيرهم بالموت الذي لم يقدر أحد على الخلاص منه ولا المنازعة فيه فقال (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) ولما أشار سبحانه إلى ملائكته التي تفوت الحصر - وإن كان عنهم غنياً بصفة القهر - نبه بصيغة الجهول إلى استحضار حَكَمِيَّته وشامل جبروته وقدرته وقوة عظمته الباهرة وعزة سلطنته القاهرة.

ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين، قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) أي أنتم الذين تقرون بالحكم لله في الكرب؛ تشركون به قبل الكرب وبعده،

وجيء بالمسند فعلاً مضارعاً لإفادة تجدد إشراكهم وأن ذلك التجدد والدوام
 عليه أعجب! والمعنى أن الله أنجاهم فوعدهم أن تكونوا من المسلمين فإذا أنتم
 تشركون! وهذا المشهد (تدعونه تضرعاً وخفية لئلا نجيتنا من هذه لنكونن من
 الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) يُشخص
 طبيعة النفاق وشخصية المنافق الذي ينقلب على عقبيه ويصور حقيقة الذين
 أخلفوا الله ما وعدوه كما حكى تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله
 لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم
 معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما
 كانوا يكذبون) وقد اشتملت الآيات على ثلاث خصال من خصال المنافقين
 كما جاء في الحديث المتفق عليه: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا
 وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وفي رواية لابن حبان: «وإن صام وصلى وزعم
 أنه مسلم» واستشكل ذلك بأن الخصال قد توجد في كثير من المسلمين،
 وأجيب بأن الأخبار الواردة في هذا الباب إنما هي في بني إسرائيل وأما غيرهم
 فدخولهم فيها ليس على وجه العموم بل على وجه الخصوص في المنافقين الذين
 كانوا في زمنه عليه الصلاة والسلام وروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وعطاء
 بن أبي رباح وسعيد بن جبير وغيرهم، وكذلك الآثار المرويات بذكر الكفر
 والشرك ووجوبهما بالمعاصي فإن معناها عندنا ليست تُثبت على أهل الإسلام
 كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه ويلحقانه بردة، إنما وجوها: أنها من
 الأخلاق والسنن التي عليها الكفار ليتحاماها المسلمون ويتجنبوها فلا يتشبهوا
 بشيء من أخلاقهم ولا شرائعهم، وبذلك جاءت السنة مفسرة فقد روى أبو
 داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان:

الكف عمن قال: لا إله إلا الله ولا نكفره بذنوب ولا نخرجه من الإسلام بعمل» الحديث. ولما ظن المشركون أن الشدة زالت عنهم زوالاً لا يعود؛ حذرهم الجلال من سطوته وخوفهم من بالغ قدرته فقال ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد».

﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل﴾ يعني كذبوا بهذا القرآن الداعي إلى توحيد الله بالربوبية، رجوعاً بالكلام إلى قوله ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتهم به﴾ أي كذبتهم بالقرآن على وجه جعل ﴿من﴾ ابتدائية، أي كذبتهم بالقرآن واستعجلتم العذاب تصديقاً لرسالي وذلك ليس بيدي، ثم اعترض بقوله ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ ثم ما بعده من التعريض بالوعيد، ثم بنى عليه قوله ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ فكأنه قيل: قل إني على بينة من توحيد ربي وكذبتهم به وهو الحق، ثم أخبرهم بأنه لا يجبرهم على التصديق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ وجملة ﴿لكل نبأ مستقر﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن قوله ﴿وهو الحق﴾ يثير سؤالهم أن يقولوا: فمتى ينزل العذاب، فأجيبوا بقوله ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾ ثم أمر المولى عز وجل بمباينة ومفارقة الذين اتخذوا الدين لعباً ولهواً وخذعتهم الحياة الدنيا، وفي الآيات تحذير من مخالطة من يدعون أنهم أئمة في الدين لأن في دعوتهم شهادة ضد الحق وفيها تلبيس على الناس ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله، ومن قام بنشر دعوتهم فقد أعان على هدم الإسلام، ومن أحبهم أخرج الله الإسلام من قلبه، ومن نجا من فتنهم نجا من

فتنة الدجال... يدعون الناس إلى الإسلام وليس عندهم إلا المعاكسة للإسلام وأهله! ويدعون المسلمين إلى عبادة الله وهم يعبدون غير الله استهزاء بالله سبحانه وتعالى ولذلك كانت مخالطتهم ارتداداً على الأعقاب **(قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا)** وهي صورة شاخصة مثيرة **(كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا)** أي كالذي استزلته واستغوته الشياطين وحرار عن الحق وضل عنه وله أصحاب منافقون يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه هدى! أي يدعونه إلى ذلك الضلال ويُسمّونه بأنه هو الهدى بزعمهم وإنما يوهّمونه فيلقونه في مضلة ومهلكة ويصبح حائراً في تلك العقائد والمهام! وهذا المثل يشخص أصحاب الدعوة الوهابية وهم يدعون الناس في تمكّم ساخر إلى الهدى! سفهاء أحلام صعاقة لئام طغام، يرفعون بيد لواء الإصلاح والتصحيح، وبالأخرى فأساً يهدمون به الدين الصحيح! وهاهي راياتهم العميّة وجامعاتهم الإسلامية التي تستقبل المسلمين من أنحاء العالم وحالها: هلمّ إلى الهدى ائتنا! فليكن حالك أيها المسلم: فلا مجالسة الأوباش تجمل بي، كذلك الباز لا يأوي مع الرّحم... من سمع بالدجال فليأمن عنه... من جاور الشرّ لا يأمن عواقبه... كيف النجاة مع الحيات في سَفَطٍ؟ روى الإمام أبو داود عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سمع بالدجال فليأمن عنه، فوالله إن الرجل ليأمن به وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات»** ولذلك ذيلت الآية بالتقرير الحاسم في الاتجاه الثابت المستقيم **(قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين)** والمعنى ما أنت عليه يا محمد من الهدى الذي يضعه الله في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي لا ما يدّعيه هؤلاء النتن!

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون

المراد من هذا الهدى هو المذكور في قصة إبراهيم ومحاكمته قومه والله أعلم وكذلك فيمن تقدم ذكره من الأنبياء وآبائهم وذرياتهم وإخوانهم وهو معرفة الله بوحانيته وتنزيهه عن الشرك لأنه قال بعده ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ وهو راجع إلى قوله ﴿أنتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ وإلى قوله ﴿ألا له الحكم﴾ وأخبر عن الهدى بأنه هدى الله لتشريف أمره وبيان عصمته من الخطأ والضلال، وفيه تعريض بما عليه المشركون مما يزعمونه هدى ويتلقونه عن كبرائهم أمثال حبي بن أخطب ورفاعة بن التابوت ورافع بن حريملة وأخلافهم الصم البكم، ثم نوّه المولى بشأن الأنبياء ونبه على كفر السفهاء ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ والإشارة هؤلاء إلى المستخلفين المخالفين الذين دعينا إلى مجاهدتهم وإظهار المكاشفة معهم، ثم قال مستأنفاً لتكرار أمداح سيد النبيين ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وفي أمره عليه الصلاة والسلام بالاعتداء بهداهم دون الاقتداء بهم حيث لم يقل "فيهم اقتده" ما لا يخفى من الإشارة إلى علو مقامه ﷺ عند أرباب الذوق لأن هداهم من الله تعالى وهو شرع رسول الله ﷺ فالمعنى إلزم شرعك الذي ظهر به نوابك قبل ظهور جسدك الشريف وهذا واضح من قوله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» وقد جمع تعالى في حبيبه ﷺ ما افترق فيهم وزاد عليهم بالحبّة ورفع الدرجات فكان هو سيدهم

وإمامهم، فكل من اقتدى به في أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه، وفي التعبير بالاقتداء إيماء إلى تبكيت أهل الكتاب حيث اقتدوا بمن لا يصلح للقدوة من آبائهم وتركوا من يجب الاقتداء به. ثم فسر تعالى الهدى بمعظم أسبابه فقال **(قل لا أسألكم عليه أجراً)** ومن جملة هدى الأنبياء ترك طلب الأجر في إيصال الدين وإبلاغ الشريعة ليكون ذلك تنبيهاً للاستدلال على صدقهم لأنهم لو كانوا يريدون لأنفسهم نفعاً لصانعوا المستهزئين ووافقوهم وانتظموا في سلك مؤسساقتهم وانخرطوا في دولتهم وما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لا يحصها إلا حسم المطامع وما دام يتوهم شيء منها لم تنفع ولم تنجع، ثم بين تعالى أن هذه الدعوة عامة لسائر الناس فقال **(إن هو إلا ذكرى للعالمين)** وفيه دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كل أهل الدنيا لا إلى قوم دون قوم. ولما حكى تعالى في الآيات المتقدمة عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى في التوحيد ونصرها وحكى سبحانه تعداد أنواع نعمه عليه جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد وذكر احتراز الأنبياء عن الشرك وإنكارهم له وجهادهم بإبطاله وإصرارهم على التوحيد، أعقب بكشف حقيقة الحفاة العراة وكفرهم بالقرآن وبسبب الأنام عليه الصلاة والسلام على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب الإلهية **(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء)** وحاصل ذلك أنهم أبرزوا إنزال الكتب بالحكمة في صورة الممتنع حتى بالغوا في إنكارها، وقد نقض المولى كلامهم وأبطله بقوله **(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس بيدونها وتخفون كثيراً)** والاستفهام على جهة التقرير على موضع الحجة، وقرئ **(يجعلونه قراطيس بيدونها ويخفون كثيراً)** فنعى عليهم سوء حملهم

لكتابهم وسعيهم في إخفاء الوحداية! وقد عبّر عنه بقوله "كثيرا" باعتبارها أصل الكتاب وقاعدته وأساس دين الإسلام، وفي جانب علاقتهم مع أتباعهم الذين تدينوا بدين اليهودية والنصرانية أخفوا البشارة بالنبى ﷺ وكتّموا صفاته عن العامة وهذا يعني إخفاء جميع الرسائل السماوية وهدم الدين من أساسه! وقوله **(وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)** أي علمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، ثم أمر تعالى بالمبادرة إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة **(قل الله)** أي قل الله أنزله فإنهم لا يقدرّون أن يناكروك لأن الكتاب الموصوف بالنور والهدى بلغت دلالاته من الوضوح إلى حيث يجب أن يعترف بأن منزله هو الله سواء أقر الخصم بها أم لم يقر.

ثم بيّن المولى سبحانه شأن هذا الكتاب العظيم المحكم المبارك المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة والمهيمن عليها في أحكامها المجملّة والمفصلة وشأن الرسول المعظم ﷺ الذي نُزل عليه، وهو ينذر أهل مكة ومن حولها من القرى بعذاب شديد فقال معرّضاً بمن نزلت هذه الآيات فيهم من أهل الكتاب مبكّثاً لهم بكفرهم بالآخرة **(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون)** وموقع هذه الآية عقب ذكر كتاب موسى بين المناسبة، فإنه لما تقضى إبطال ما زعموه من نفي الإرسال والإنزال على بشر من شيء، أثبت أن هذا الكتاب منزل من الله لا يقدر أهل الكتاب على إنكاره لتصديقه توراههم وقد أنزله تعالى لينذر أم القرى أي لينذر المستخلفين في مكة ومن حولها من الديار الحجازية والنجدية المنكرين للآخرة الجاحدين للبعث والنشور ولما تكرّر وصف المنافقين بالكفر باليوم الآخر والتكاسل عن الصلاة جعل الإيمان بالآخرة

والمحافظة على الصلاة علماً على الإيمان بالكتاب الكاشف والمبين لأحوال أهل الكتاب... ثم أعقب بعد ذلك بإبطال ما اختلقوه من الشرائع الضالة وبين أنهم قد كذبوا على الله فيما زعموا أنه تعالى أمرهم بها لأنهم عطلوا طريق وصول مراد الله إلى خلقه وجأؤوا بأعجب مقالة (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) والذين افتروا على الله كذباً هم أهل الكتاب لأنهم حللوا وحرّموا بهوهم وزعموا أن الله أمرهم بذلك وأثبتوا لله شفعاء عنده كذباً... والآية وإن نزلت في مسيلمة الكذاب إلا أن مضمونها صادق على علماء بني إسرائيل لأن سبب النزول لا يصلح مخصصاً، وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي بكرة قال: أكثر الناس في شأن مسيلمة الكذاب قبل أن يقول فيه النبي ﷺ شيئاً، ثم قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد في شأن هذا الرجل الذي قد أكثرتم في شأنه فإنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون قبل الدجال» وفي رواية للحاكم من حديث سمرة: «وإنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال» وفي لفظ لأبي داود في حديث أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً دجالاً كلهم يكذب على الله وعلى رسوله» وفي لفظ للطبراني في حديث ابن عمر: «إن بين يدي الساعة الدجال وبين يدي الدجال كذابون ثلاثون أو أكثر» قلنا: ما آيتهم؟ قال: «أن يأتوكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها ستكم ودينكم فإذا رأيتموهم فاجتنبوهم وعادوهم» ثم وجّه تعالى الخطاب إلى المشركين في تهكم ساحر مهين

يليق باستهزائهم ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ والشفاعة: مصدر قولهم شفع يشفع والشفع ضم الشيء إلى مثله ومعناها انضمام شخص إلى آخر ناصرًا له ومدافعًا عنه ومقويًا ومشاركًا في نفعه وضره. وإن شئت قلت: هي انضمام الأضعف إلى الأقوى ليستعين به. فالشفعاء عند الكبراء والملوك: هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم! وتقديم الجور في قوله ﴿فيكم شركاء﴾ والتعبير بقوله ﴿فيكم﴾ دون قوله "فينا شركاء" وتقديمه للاهتمام الذي وجهه التعجب من هذا المزعوم إذ استخدموهم وأشركوهم ليضمنوا لهم الحماية والاستقرار بعد ما ألبسوا عليهم دينهم وأفسدوا عقولهم! ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ألم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ والكلام تهكم بهم حين اتخذوا جهلة العجم والرعا من الأمم: شفعاء! فإنهم لجهالتهم لا يمكن أن يضمنوا لهم الحماية فاتخاذهم شفعاء من حماقة! وإضافة الشفعاء إلى ضمير المخاطبين باعتبار الزعم كما يفصح عنه وصفهم بقوله عز وجل "الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء" أي الذين زعمتم أنهم شركاء لله في حكمكم وزعمتم أنهم نصراؤكم عند الله بل شغلواهم بأنفسهم؛ يخبر عن سفههم وقلة نظرهم فيهم. ومن اللافت للنظر أن رسم الهمزة المضمومة في المصحف لكلمة ﴿شركوا﴾ وردت في موضعين على واو بخلاف المواضع الأخرى المضمومة، وهذا يعني - والله أعلم - أن كلمة ﴿شركاء﴾ التي لم ترسم فيها الهمزة المضمومة على واو يُراد بها شراكة مصلحة، أما التي رسمت على واو فيُراد بها شراكة دينية عقدية وهي في موضعي الأنعام ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم﴾

(شركوا) والشورى (أم لهم شركوا شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا
 كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وفي خط المصحف
 عجائب وغرائب تحيرت فيها عقول العقلاء وعجزت عنها آراء الرجال البلغاء
 وكما أن لفظ القرآن معجز فكذلك رسمه خارج عن طوق البشر والحكمة في
 الرسم أن لا يعتمد القارئ على المصحف بل يأخذ القرآن من أفواه الرجال
 الآخذين عن رسول الله بالسند العالي...ومن اللافت للنظر أن النظم في
 الموضوعين - الأنعام والشورى - ورد فيه إنذار لأم القرى ومن حولها،
 والاقتصار على إنذار أهل مكة ومن حولها لأنهم المقصود بالرد عليهم لإنكارهم
 هذا الكتاب المبارك! والاستفهام للتقريع على ضلالهم عن سنن الله المحررة
 وشرائعه الثابتة المقررة وتشريعهم لشركائهم أحكاماً ومواثيق لم يأذن بها الله
 كميثاق الأمم المتحدة! ويضاف الشركاء إليهم تارة لأنهم متخذوهم وتارة إلى
 الله تعالى لأنهم أشركوهم به، والعبارة تأتي بحسب المقام (لقد تقطع بينكم وضل
 عنكم ما كنتم تزعمون) وقد شاع في كلام العرب ذكر التقطع مستعاراً للبعد
 وبطلان الاتصال تبعاً لاستعارة الحبل للاتصال فمن ثم حسن حذف الفاعل في
 الآية على هذه القراءة لدلالة المقام عليه فصار كالمثل، وعلى قراءة الرفع جعل
 (بينكم) فاعلاً أي أخرج عن الظرفية وجعل اسماً للمكان الذي يجتمع فيه ما
 صدق الضمير المضاف إليه اسم المكان أي انفصل المكان الذي كان محل
 اتصالكم فيكون كناية عن انفصال أصحاب المكان الذي كان محل اجتماع كما
 قال صاحب التحرير والتنوير. وموقع آية الشورى (وكذلك أوحينا إليك قرآنا
 عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) بين قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء)
 وقوله (أم اتخذوا من دونه أولياء) واضح المناسبة.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ البصائر جمع بصيرة، والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القلب، فالبصيرة ترى المعاني النورانية والبصر يرى المحسوسات الظلمانية، أو نقول: البصيرة ترى اللطيف والبصر يرى الكثيف، وهذه البصائر القرآنية هي بينات القرآن وأدلته وحججه وقد بينها صاحب البيان عن القرآن ﷺ فهي بصائر تبصر القلوب وتنور العقول كالنيرات المنيرات للأعين البصرية فمن فتح عينيه للنور اهتدى للأمور ومشى سالماً آمناً دون تخبط لا تخليط ومن تعامى سقط في الهاوي وهلك في المهالك والعمى الذي يجعل صاحبه شقياً في الدنيا والآخرة هو عمى القلب عن نور الرب النازل على رسول العجم والعرب ﷺ... وشعاع البصيرة هو نور الإسلام، وعين البصيرة هو نور الإيمان، وحق البصيرة هو نور الإحسان... وهذا تنويه بشأن القرآن ﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون﴾ والآيات هنا هي دلائل الوحدانية، وتصريف الآيات اختلاف أنواعها فهي متحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامها وخاصها، وهي أيضاً مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير ومن المقدمات العقلية وغيرها بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول، والمعنى نأتي بالآيات في جميع الوجوه البديعة النافعة البليغة الدالة على توحيدنا، وغاية أمرهم ونهاية قدهم أن يصرفوا ضعفاء العوام عنها! وقوله ﴿وليقولوا درست﴾ أي نصرف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة وتلقيته من كتبهم حتى انتظم لك هذا الانتظام وتم لك هذا التمام، فشبه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة الغائية واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة على وجه

الاستعارة التبعية ولذلك سمي بعض النحويين مثل هذه اللام لام الصيرورة وليس مرادهم أن الصيرورة معنى من معاني اللام ولكنه إفصاح عن حاصل المعنى، وحاصل قولهم أنهم جاؤوا بيهتان مكشوفة أسرارها، مهتوكة أستارها، بعد أن وصل إليهم على هذا السبك البديع والأسلوب الرفيع! وقرأ بفتح السين وسكون التاء **(دَرَسْتَ)** أي تقادمت وانمحت وعفت، وهذا في معنى قولهم **(أساطير الأولين)** وفي قراءة أخرى على صيغة المفاعلة **(دارست)** أي دارست غيرك من الأعاجم كما حكى تعالى **(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)** والمراد بالإلحاد - والله أعلم - الميل بكلامهم المبهم إلى قصد معين وهو أنه ﷺ تعلم من جبر الرومي أو سلمان الفارسي وأن كتبهم نزلت على الأعاجم باللسان الأعجمي - وما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة - وقد كشفت الآية اللبس بأوضح كشف: إذ كيف يعلمه أعجمي وهذا القرآن فصيح عربي معجز؟ ثم اعلم أن الإنكار لم يزل في كل عصر من بني إسرائيل على علماء الأمة يقولون حسداً: هذا علم أخذ من كتب المتقدمين! فانظر كيف يؤدي الحسد والإنكار إلى الخسارة في الدنيا والآخرة! ثم أوقع تعالى الفصل بين قوم مبصرين يعلمون، وقوم عمي لا يعلمون، وأصدر الأمر العلوي للرسول الأعظم **(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو)** والمعنى: اتبع عموم ما أوحى إليك من دلائل توحيد ربك واستيقن بوحدانيته وجانب المشركين **(وأعرض عن المشركين)** وهذه المجانبة تقتضي منع الاندماج في دائرتهم والانتظام في سلوكهم، ثم قال سبحانه مسلياً لحبيبه ﷺ عن استهزائهم به وردهم لقوله عاطفاً على ما تقديره: فلو شاء الله ما خالفوك ولا تكلموا فيك ببنت شفة **(ولو شاء الله ما أشركوا)** ثم بين سبحانه أنه حفيظ

عليهم وأشار إلى أن ذلك ليس بغيره سبحانه ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾ ولما طوى الكلام عن الرؤساء المتبوعين تشوفت النفوس إلى معرفة أحكام أتباعهم الذين يدعونهم من دون الله فقال ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ والمراد من الموصول أتباع بني إسرائيل - والله أعلم - والعائد حينئذ مقدر أي الذين يدعونهم من دون الله شركاء والنهي في الحقيقة إنما هو عن العدول عن دعوة أتباعهم إلى شتمهم وقتلهم كأنه قيل: لا تخرجوا من دعوة أتباعهم ومحاجتهم إلى مواجهم فإن ذلك أتباع لأهواء قرن الشيطان ويجر إلى سب النبي العدنان ﴿فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ والمراد بسب الله تعالى سب رسوله ﷺ ونظير ذلك من وجه قوله تعالى "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" وقرئ بضم العين والdal وتشديد الواو وهو مصدر كالعدو أي فیسبوا الرسول ﷺ اعتداء جهلاً بعظم الجرم الذي اقترفوه! ومفهوم المخالفة أو دليل الخطاب يقتضي سب أهل الكتاب فقد غزاهم رسول الله ﷺ في عقر دارهم ومحل قرارهم وقال لهم ﷺ في غزوة بني قريظة: «يا إخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟» وفي رواية عند ابن جرير: «يا إخوان القردة ويا إخوان الخنازير ويا عبدة الطاغوت» والطاغوت هو الشيطان ومعنى عبادته: أتباعه وطاعته فيما يغويه ويزينه. ثم اقتضى الحال أن يبين سبحانه أنه زين للأمة التابعة والأمة المتبوعة عملهم وذلك قوله ﴿كذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ ثم توعدهم بالعذاب مثبتاً المعاد والبعث الذي ينكرونه ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ ربهم لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه بأنهم يرجعون إلى مالکهم الذي أشركوا به فكانوا كالعبيد الآبقين يطوفون ما يطوفون ثم يقعون في يد مالکهم.

وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون

لما بيّن تعالى في الآيات المتقدمة أنه يصرف الآيات الدالة على توحيده ونهى عن سب الذين يدعونهم من دون الله، أشار هنا إلى شيء من تعللات قادة النفاق والكفر بعد ظهور الحجج الدامغة لهم كما تعللوا بسؤالهم آية خارقة للعادة، وهؤلاء يتعنتون في طلب الأدلة والبراهين مع وضوحها في كتاب الله فيقولون: ما دليلكم على هذا التوحيد الذي تزعمونه؟ فيجيب الرد بأن الذي ينقصكم آفة في القلب وانطماس في الضمير وعمى في البصيرة وانحراف في الفطرة وتعطل في المدارك فلا تؤمنوا ولو نزلت إليكم الملائكة وكلمكم الموتى... ثم أخبرهم تعالى بعلمه بهم وأن الآيات لا تنجع فيهم فقال كما في القراءة الأخرى ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ على أن الكلام قد تمّ قبلها بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم؟ والاستفهام في الآية محمول على معنى التنبيه والتشكيك في الظن، وفعل ﴿يشعركم﴾ يحمل على أصل مقتضى أمثاله من أفعال العلم، وإذا كان كذلك كان نفي إيمان المشركين بإتيان آية وإثباته سواء في الفرض الذي اقتضاه الاستفهام، فكان المتكلم بالخيار بين أن يقول: إنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأن يقول: إنها إذا جاءت يؤمنون، وإنما أوتر جانب النفي للإيماء إلى أنه الطرف الراجح الذي ينبغي اعتماده في هذا الظن، والمقصود من الآية تقرير الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده والله أعلم، ألا ترى أن الله أدمج آيات القرآن بها فقال ﴿لئن جاءتهم آية﴾ ثم عدل عن التعبير بقوله: كما لم يؤمنوا بها إلى قوله ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ والضمير المحرور بالباء

عائد إلى القرآن لإفادة هذا الإدماج، والكلام مرتبط بقوله قبله ﴿ألا له الحكم﴾ وهو أليق بقوله بعده ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ وقرأ الشامي وحزمة بتاء الخطاب ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون﴾ وبهذه القراءة يكون الخطاب للمشركين، ويكون الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتغليظ، ومما يشاكل هذا من حيث المعنى قوله تعالى ﴿وإذا جاءهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله﴾ ولما أخبر أنهم لا يؤمنون عند آية مقترحة عمم على وجه مفصل لإجمال ما قبله فقال ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ والاستدراك راجع إلى ما تضمنه الشرط وجوابه: من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم أي لا يؤمنون ويزيدهم ذلك جهلاً على جهلهم فيكون المراد بالجهل ضد الحلم لأنهم مستهزون، وضمير يجهلون عائد إلى المشركين لا محالة كبقية الضمائر التي قبله أي أهل جهل واستهزاء مطبوعون فيه.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي كما خلّينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم من الإنس والجن، والوحي: الكلام الخفي كالوسوسة وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النفس من حديث يُزوّر في صورة الكلام، وقد يتصور شياطين الجن في صورة الإنس كما روى الإمام مسلم عن عامر بن عبدة قال: قال عبد الله: «إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث» وظاهره أنه من حديث رسول الله ﷺ فلهذا يعتني به رئيسهم ويؤوله تأويلاً باطلاً ويحرف معناه ويتصوره بصورة

حسية تقوية للوسوسة الداخلية المعنوية، وكما يحدثون بالحديث كذلك يقرؤون القرآن ويؤولونه تأويلاً فاسداً كما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً» وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أعرف اسمه، يحدث كذا وكذا» وروى أبو نعيم من حديث أبي هريرة: «لا تنقضي الدنيا حتى يخرج شياطين البحر يعلمون الناس القرآن» وشيطان الجن كشيطان الإنس يجيء في صورة رجل صالح ثقة فيضل الناس ويغويهم ويفتنهم عن دينهم! ومعنى الآية الكريمة أن شياطين الجن وشياطين الإنس يتعاونون ويتعاضدون في نفاقهم فيخادعون أهل الإسلام ويغرون ضعفاء الأنام بزخارف أقوالهم ويزينون لهم شبهاتهم! ونظير هذا المعنى قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ والمراد بشياطين الإنس - والله أعلم - بنو إسرائيل أهل المكر والكيد والتختل المعبر عنهم في الآثار المتواترة الصحاح بـ«**قرن الشيطان**» وقدّمهم لأنهم أشد خطراً ووسواسهم شر من وسواس شياطين الجن وهو على الناس أخطر وهم بالتعوذ منهم أجدر لأنهم منهم أقرب ولأنهم في وسائل الضر أدخل وأقدر! وفي سورة الناس: صيّر الموسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وإن شئت قلت: على التقديم والتأخير: قل أعوذ برب الناس من الجنة والناس الذي يوسوس في صدور الناس - وقدّم الجن لأنهم أصل الوسواس - وفسّر بعضهم صدور الناس بعلية القوم ورؤوسهم وملوكهم وسراهم وعلمائهم إذ باغوائهم والسيطرة على عقولهم وقلوبهم يبدأ سقوط المجتمع الإسلامي من

داخله ويتربع الفساد على مقدرات العلم والحكم وهذا ما فعله شياطين الإنس والجن! والوسوسة هي الخطرات التي تلقيها الشياطين والإنس والجن في القلوب فتُحرك هذه الخطرة الرديئة تحرك الرغبة في الإنسان إلى فعل المكروه فإذا قويت الرغبة صارت عزيمة فإذا قويت صارت نية فإذا استحكمت النية في القلب حملت صاحبها على العمل. ثم بيّن تعالى أن انتفاء المشيئة راجع إلى حكمة الخلقه ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ وهذا تلطفٌ مع الحبيب الأعظم ﷺ وتطمين لقلبه وإزالة لما يلقاه من الكدر من عداوتهم ولذلك فرّع عليه الأمر بتركهم وافترائهم ﴿فذرهم وما يفترون﴾ وهو ترك إعراض عن الاهتمام بغرورهم والنكد منه فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة، ثم عطف قوله ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقتربون﴾ وتقدير الكلام: وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً يضادونه من شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليُغرّوا به الناس! وإن شئت قلت: ليُغرّوا أي شياطين الإنس والجن بذلك ولتميل إليه أي إلى ذلك القول المزخرف أفئدتهم وليرضوه وليقتروا ما هم مقتربون، وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة فكل واحد مسبب عما قبله إذ يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الاقتراف، وخص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة إشعاراً بما هو المدار في صغو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكارة وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراء تلك المكارة لذات ودون الشهوات آلاماً وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا من اللذات وحب الشهوات التي من جملتها مزخرفات الأقاويل ومموهات الأباطيل وأما المؤمنون فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال لم

يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها، ولما كان فيما تقدم الإخبار عن أولياء الشيطان بأنهم يتخذون غير الله حكماً، سبب عن ذلك ما فصله القرآن أحسن تفصيل في أساليب قصرت عنها الأوهام وكُتبت دونها نوافذ الأفهام فكان إسلامهم إسلام نفاق إذ كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به فكان الجواب عما اقتضاه لسان حالهم من التحاكم إلى الشيطان ببلغ الإنكار عليهم بقوله ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً﴾ والكلام وارد على إرادة القول، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أي قل لهم: أأميل إلى زخارفكم فأبتغي حكماً غير الله؟ وفي الآية تقرير لجهة الحكمة في كل شأن من شؤون الحياة وإفرادها بهذا الحق الذي يجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً! ثم أفادت الآية ما اعتنى به القرآن في هذه السورة بالتنبيه على التفصيل لوقوع العلم من أرباب البصائر عن العلماء المنافقين ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ والجملة حالية مؤكدة لإنكار ابتغاء غيره تعالى حكماً، ونسبة الإنزال إليهم خاصة لأنهم المعنيون بهذا الخطاب وعليهم مدار آيات الكتاب وهم أعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب سواء أقرأوا أو كتموا ووجدوا، فالأمر في الحالين واحد وهو إخبار الله سبحانه، وخبره هو الصدق، والحق محتواه، كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والكلام مسوق من جهته تعالى لتحقيق حقيقة الكتاب الذي نيط به أمر الحكمة، ولا يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق، ولا يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به، ومن هذا الحق الذي يحتويه، ولا يزالون يحاربون هذا الدين ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ...وأشد هذه الحرب وأعظمها، هو

تحويل الحكمة عن ميثاق هذا الكتاب إلى موثيق أخرى من صنعهم حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ولا يصبح لدين الله وجود! والخطاب هنا ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ وإن كان للنبي ﷺ صورة إلا أن المراد منه أمته فكأنه بمنزلة فلا تشكوا أن أهل الدراسة من أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربكم بالحق ولا يريكم جحود أكثرهم وكفرهم به. ثم أخبر تعالى أن هذا الكتاب تام الدلالة ناهض الحجة صادق الخبر عادل فيما حكم به ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ وقرأ بلفظ الجمع "كلمات" إشارة إلى الكتب السماوية إذ أن القرآن زُبدتها ومجمع ثمرتها وهو شاهد وحاكم ومهيمن عليها جميعاً... ولما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمة لاستقلاله بما يوجب ذلك من إنزال الكتاب الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدله في أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيئاً منها واستبداده سبحانه بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات أردف ذلك ببيان أن أهل الكتاب الذين ينازعون الله تعالى في الحكمة خراصون كذابون في ادعاء التوحيد متصفون بالضلال والإضلال واتباع الظنون الفاسدة والكذب على الله تعالى ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ ولما ادَّعوا أنهم أهل التوحيد والهداية وأن من خالفهم أهل الشرك والضلالة قرّر تعالى أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال، هو الله وحده صاحب الحق في وضع هذا الميزان، وليس أهل الكتاب الذين يصدر عن هذه الأحكام وفق أهوائهم ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله "إن ربك" لتشريف المضاف إليه وإظهار أن هدي الرسول عليه الصلاة والسلام هو الهدى وأن الذين أخبر عنهم بأنهم

مضلون لا حظ لهم في الهدى لأنهم كفروا بالربوبية وادّعوا الوجدانية وأحدثوا ما أحدثوا في أصول العقائد، ونقضوا من دعائم الإسلام الأركان والمعاهد... وتبعهم خلق كثير زلّوا عن صراط الله إلا من تداركه شوافع عصمته وتناولوه واسع رحمته، جعلنا الله ممن نال من عصمته الحظ الأوفى وكمال له مولاه من رحمته فأوفى... وبعد هذا الاستطراد في مسألة الحكمية تجيء مسألة الأنعام والذبائح مبنية على هذه الوجدانية ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين، ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي يضلون الناس منقادين للهوى فيشرعون شرائع ليست من عند الله بغير حجة ولا برهان بل يأخذون الناس بشبهات وأباطيل، وقرئ "يضلون" على معنى إسناد الضلال إليهم وفي هذا إشارة أن كل من تكلم في الدين بما لا يعلمه أو دعا الناس إلى شيء لا يعلم حقيقته مقلداً الأئمة المضلين فهو معتد ظالم لنفسه وللناس وكذلك كل من أفتى وليس هو بكفء للإفتاء، وأما قراءة الضم فعلى معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم وهذه أبلغ في ذم المتبوعين! والمراد بالعلم: الجزم المطابق للواقع عن دليل. ولما كان أهل الكتاب مدّعين الهداية والعدالة منكرين الاعتداء والغواية أردف ذلك بقوله ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ وفيه توعّد من الله وتهديد وتقريع للرؤساء المتبوعين الأئمة المضلين الذين شرعوا ما لم يأذن به الله كتحريم البحيرة وأخواتها... وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم لأنهم وافقوهم على ذلك وتنبه على أن طريقتهم اليوم كطريقة أسلافهم بالأمس بناء على أن الفرع يتبع أصله والولد نسخة من أبيه! والإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إياهم بالعقوبة وأنه لا يفلتهم لأنهم

درسوا الكتاب وقرئ عليهم ثم خالفوه وتقلدوا الضلال فكانوا معتدين على أنفسهم ومعتدين على كل من دعوه إلى موافقتهم. ولما عتب تعالى على المؤمنين في ترك أكل ما سُمي الله عليه أمر بترك ظاهر الإثم وباطنه فقال ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ والإثم: معصية الله بفعل ما لا يرضى، والمراد به هنا: الشرك والله أعلم، ونحوه قوله تعالى ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم﴾ وظاهر الإثم: ما يراه الناس، وباطنه: ما لا يطلع عليه الناس ويقع في السرّ ولا يعرفه كثير من الناس ويُشكل مصدر خطر كبير على نظام البشر، ولذلك أعقب بتوعد المكتسبين وتهديد المقترفين ﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ وإظهار لفظ الإثم في مقام إضماره إذ لم يقل: إن الذين يكسبونه لزيادة التنديد بالشرك وليستقر في ذهن السامع أكمل استقرار ولتكون الحملة مستقلة فتسير مسير الأمثال والحكم... ثم نبّه تعالى إلى المباينة في الأفعال والمتاركة والبراءة الكاملة من المشركين وربط سبحانه أمر الأنعام والذبائح بمسألة الحكمية والتشريع ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ وكيف يأكل المسلم ذبائح من ينازعون الله في حكمه ولا يدينون دين الحق؟ ولذلك جاءت التوصية بالتصليب في مجانبة الأكل من ذبائحهم لكونه موقعاً في الشرك وموجباً للأوجاع والأسقام وانتكاس الفطرة وانعكاس الطبع وخبثاة النفس وشكاسة الأخلاق ﴿وإنه لفسق﴾ والفسق هو الخروج عن حكمه تعالى عناداً ومكراً ومكابرة! وهذا حال بني إسرائيل يحاربون الله حرباً لا تهدأ، ولذلك لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم قطعاً... والذين تعايشوا في سلطان الطاغوت وغاصت أقدامهم في وثنية شرك أهل الكتاب وإلحادهم السافر، يحاولون تمييع هذه البراءة الحاسمة لأنهم جهلوا

وظيفة القرآن وجدية تنزيله. روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» وهذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، فقد ذهب أدلاء الطريق وأرباب التحقيق، واتخذ الناس رؤوساً لم تظهر عليهم أنوار المعرفة ومراتب الولاية! وفَسَّرَ بعض الأكابر قبض العلماء بعزلهم وتصدير الجهلاء. ومعنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني عدو الله إبليس أوحى إلى أوليائه من أهل الضلالة من بني إسرائيل ليجادلوا المسلمين في شأن الحكم والطاعة والاتباع في الدين...

وإن أطعتموهم إنكم لمشركون

قال الإمام أبو حيان: أي وإن أطعتم أولياء الشياطين إنكم لمشركون لأن طاعتهم طاعة للشياطين وذلك إشراك ولا يكون مشركاً حقيقة حتى يطيعه في الاعتقاد وأما إذا أطاعه في الفعل وهو سليم الاعتقاد فهو فاسق وهذه الجملة إخبار يتضمن الوعيد وأصعب ما على المؤمن أن يشبه المشرك فضلاً أن يُحَكِّمَ عليه بالشرك. وقال الإمام الألوسي: وإن الشياطين وهم المحجوبون بالظاهر عن الباطن ليوحون إلى أوليائهم أي من يواليهم من المنكرين ليجادلوكم بما يتلقونه من الشبه وإن أطعتموهم وتركتم ما أنتم عليه من التوحيد إنكم لمشركون مثلهم. والآية نزلت في اليهود كما روى أبو داود والبخاري والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج: وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك وإنما سمي

مشاركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى وهذا هو الشرك. والآية تقرر في حسم وصراحة ووضوح أن من أطاعهم فيما يجادلون فيه فقد أشرك، ويجري هذا الوصف بعد بلوغ العلم كما تقرر في موضعه لأن الخطاب إنما يلزم بالعلم به، فلا يُستنصح علمائهم لأن الله يقول ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنهزاً بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ والنهي غايته أن يكفوا عن الخوض في الكفر بالآيات والاستهزاء بها، ومدار متاركتهم هو العلم بخوضهم فيها ولذلك عبر عن ذلك بالسماع وفي آية الأنعام بالرؤية ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ روى ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هم أهل الكتاب، فهي أن يقعد معهم إذا سمعهم يقولون في القرآن غير الحق ﴿وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي إن أنساك الشيطان حالهم ثم تذكرت وعلمت فلا تقعد بعد العلم مع المستهزئين الذين أحبط الله أعمالهم وأخرج نور الإسلام من قلوبهم فإن جليس السوء كالقنبر الأصغر إن لم يحرقك بناره يؤذك بدخانته كما جاء في الحديث عند أبي داود: «مثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه» وفي الصحيحين: «ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة» فلزم على كل ذي طبع كريم وقلب سليم أن ينحرف عن صحبة الظالمين ويجتنب مودة الفاسقين على أن الطبع البشري سراق قريب المأخذ كالماء يتلون بلون إنائه ويتشبه بكل رفقاءه، وقد نهى ﷺ عن مقاربتهم كما جاء في السنن من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستضيؤوا بنار المشركين» يعني لا تشاوروهم ولا تقربوهم ولا تقعدوا معهم. روى الإمام أبو

داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادُلُوكُمْ وَإِنْ أُطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وهذا الاستفهام الصادر من اليهود: "نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟" يراد منه السخرية من رسول الله ﷺ والاستهزاء بآيات الله، وهذا من الكفر. بمكان نعوذ بالله من أهل الخذلان، ومن هذا القبيل قولهم لمنقذهم ورسولهم الأول ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً﴾ وهذا على نحو قول أصحاب الأيكة لرسولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يستهزئون به! والمقصود من الآية - والله أعلم - تحذير المسلمين من تمويهات أولياء الشيطان فإنهم يذبجون للشيطان ويتحيلون على المسلمين ويجادلونهم في أمر الذبح لغير الله؛ تماماً كاتخاذ قبور أنبيائهم مساجد وجدهم في اتخاذ القبور مساجد! روى الإمام مسلم عن أبي الطفيل قال: قلنا لعلي بن أبي طالب أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله ﷺ فقال: ما أسرَّ إليَّ شيئاً كتمه الناس ولكني سمعته يقول: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لغيرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدَّثاً، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالديه، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ» قال صاحب التحرير والتنوير: فإن اعتدنا بالمقصد والسياق كان اسم الموصول مراداً به شيء معين لم يذكر اسم الله عليه فكان حكمها قاصراً على ذلك المعين ولا تتعلق بها مسألة وجوب التسمية في الذكاة ولا كونها شرطاً أو غير شرط بله حكم نسيانها وإن جعلنا هذا المقصد بمنزلة سبب للنزول واعتدنا بالموصول صادقاً على كل ما لم يذكر اسم الله عليه كانت الآية من العام الوارد على سبب خاص فلا يخص بصورة السبب وإلى هذا الاعتبار مال جمهور الفقهاء المختلفين في حكم التسمية على الذبيحة. اهـ. وهذا يؤيده حديث

البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المسلم يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم» ويُشاكل هذا الحديث الشريف ما رواه أبو داود والبيهقي عن الصلت قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله» قال الإمام الشافعي رحمته الله: فأول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة علمنا أن المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص ومما يؤكد هذا المعنى هو أنه تعالى قال "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق" فقد صار هذا النهي مخصوصاً بما إذا كان هذا الأمر فسقاً ثم طلبنا في كتاب الله تعالى أنه متى يصير فسقاً؟ فرأينا هذا الفسق مفسراً في آية أخرى وهو قوله "قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به" فصار الفسق في هذه الآية مفسراً بما أهل به لغير الله وإذا كان كذلك كان قوله "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق" مخصوصاً بما أهل به لغير الله. وقال الزجاج: وفيه دليل على أن كل من أهل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى وهذا هو الشرك. اهـ. وقد تضمنت الآيات تهديداً حاسماً وتحذيراً عنيفاً من طاعة أهل الكتاب واتباع أهوائهم ومتابعتهم والميل إليهم ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ ولا يكون بعد هذا التهديد تهديد ولا بعد هذا التحذير تحذير ولا بعد هذا الوعيد والردع الشديد وعيد ونحوه قوله جل شأنه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وهذا هو حجر الزاوية في مخطط إفساد المسلمين فإن طاعة أهل

الكتاب والميل إلى منهاجهم يؤدي إلى زعزعة العقيدة وتغطية الحق وإزاحة الدين من الأذهان فلا يكون ثمة ميزان للخير والشر ويصبح الهوى هو مرجع الإنسان فيفقد تمييز ما تخفيه في طيها من زيغ وضلال ويساق إلى الفساد وهو راضٍ بغطاء من الشعارات المزخرفة! والحركات والمناهج التي صاغوها هي لبنة في صرحهم يقوم عليها عبقرى يختاره إبليس! ولا يمكن أن تلتقي مع الحق... إن الإيمان منهج، والكفر منهج آخر، وإن الإسلام منهج، والشرك منهج آخر، ولا يلتقيان، وإن تحقيق الإسلام وتحقيق الإيمان يبدأ بمشاركة أهل الكتاب وتحقيق الغيرية المذكورة في آخر سورة أم الكتاب **(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)** والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف لتأكيد النفي المستفاد من لفظ "غير" على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيز النفي، ومن الوارد على هذا الرعي قوله تعالى **(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)** أخرج الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»** وفي رواية عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، قال فسُرِّي عن النبي ﷺ ثم قال: **«والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»** وفي قول سيدنا عمر رضي الله عنه "مررت بأخ لي من بني قريظة"

دلالة على نفاقهم إذ لا يكون الأخ إلا مؤمناً، وفي هذه القصة دلالة على حرص أهل الكتاب على إحداث العراقيل لصرف المسلمين عن أسباب النصر وصدّهم عن الوصول إلى حضرة حكيم الأنبياء ونبى الحكماء ﷺ بوجوه الخديعة والمكر والكيد! وروى الإمام أبو داود عن ابن أبي نملة الأنصاري عن أبيه: أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مر بجنّازة فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنّازة؟ فقال النبي ﷺ: «الله أعلم» فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوه، وإن كان حقاً لم تكذبوه» لقد كان درساً بليغاً للصحابّة ومن بعدهم، فحواه: عُذ إلى الروضة إن الغيث يَهْمِي في روايها ويكسوها جمالا، لقد كان ﷺ يريد أن يربي جيلاً خالص القلب والعقل والشعور والتصور، ولما اختلطت الينابيع وشيّبت والتفت الجبل إلى المبطلين انحط وسقط! لقد كان شيوع موجة الإلحاد في موطن الدعوة النجدية ردة فعل طبيعية بعد تحريف الإسلام وتظاهر أعدائه به بصورة مشوّهة ممسوخة فما لبث الناس أن خرجوا من الإسلام أفواجاً ودخلوا في دين عدوهم الذي يدعو إلى إلغاء العقل بدعوى اتباع النقل، ويدعو إلى الخضوع والعبودية باسم طاعة ولي الأمر، ويدعو إلى الاستسلام بعد غياب الإسلام! والآية تشخص حالة واقعية لجاهلية اليوم وتستهدف إنشاء مجتمع وقيم وموازن وأوضاع مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن في جزيرة العرب من رواسب الجاهلية في النفوس والعقول والتقاليد والعادات ولذلك قال أهل الطريق وسادات أهل التحقيق: ملاك القصد إلى الله تعالى خلع العادات واستجداد قبول الأمور المنزلات من قيوم الأرض والسموات... وقد يحس من يعيش في الجاهلية الخداعة أن الآية غريبة على البيئة

ثقيلة على النفوس مستنكرة في القلوب، تحمل تكاليف باهظة بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل على المجتمع، ومن ثم يجد في صدره حرجاً من مواجهة الناس بهذا الحق الثقيل إذ أنه سيقابل بإنكار ودهشة وغرابة ونفرة لهذا التغيير الكامل الشامل، لأن الناس توهموا أن ما خالف النقل عن المفسرين إخراج للقرآن عن مراد الله، وصارت كتب التفسير عالة على كلام الأقدمين الذين لا همّ لأكثرهم إلا جمع الأقوال، وبهذه النظرة أصبح التفسير تسجيلاً يُقيد به فهم القرآن ويُضيق به معناه! قال تعالى ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به﴾ أي فلا يضيق صدرك عن الذي فرض الله عليك فيه من البلاغ إلى قومك بتكذيبهم في دعوة القرآن الكريم أو فلا يكن في صدرك شك - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما - فالخطاب للرسول عليه أكمل الصلوات والتسليمات والمراد خلفاءه - والله أعلم - فإنه محفوظ ومعصوم من الشكوك فيما أنزل، ولا يخفى أن ورثته يقومون مقامه فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له ﷺ...والحرج أصله الضيق واستعماله في الشك مجاز علاقته اللزوم فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه. روى الإمام البيهقي في السنن الكبرى عن إبراهيم العذري قال: قال رسول الله ﷺ: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين» وفي السنن: «إن العلماء ورثة الأنبياء» وفي رواية لابن عدي: «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء» وقد أخرج ﷺ أن الإسلام بدأ في آحادٍ من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، وسيعود كما بدأ فيلحقه النقص والاختلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة كما بدأ ففي الحديث عند البيهقي: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء ألا إنه لا غربة على مؤمن

ما مات في أرض غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» وفي رواية: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي» وروى البيهقي وأحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «أحب شيء إلى الله الغرباء» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «الفرارون بدينهم يبعثهم الله عز وجل يوم القيامة مع عيسى ابن مريم ﷺ» وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «اعبد الله كأنك تراه وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وروى الحاكم وابن أبي شيبه والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم أنجي الناس منها صاحب شاهقة يأكل من رسل غنمه أو رجل من وراء الدروب آخذ بعنان فرسه يأكل من فيء سيفه» وهذا الحديث عظيمة دلالاته حيث أخبر ﷺ أن أنجي الناس رجل أعرض عن شرار بني إسرائيل فلم ينتظم في نظامهم ولم يكسر سوادهم، أو رجل قاتلهم وحكم بينهم بحكم الله كما قال ﷺ لسعد بن معاذ في بني قريظة: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك» قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسي الذرية، قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» رواه البخاري، وفي رواية لمسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل» وقد قرن تعالى قضية الشرك بقضية التشريع بغير إذن من الله، ولما سأل جبريل ﷺ رسولنا ﷺ عن الإسلام كما في رواية مسلم من حديث أبي هريرة قال: «لا تشرك بالله شيئاً» فدعوى الإسلام باللسان أو بالوراثة كما يريدونها الحفاة العراة لا تفيد إسلاماً ولا تحقق إيماناً، ودين الله ليس راية أو شعاراً يرفعه العابثون! إن الإسلام مواجهة دائمة للبشرية إلى يوم القيامة وليس حادثاً تاريخياً وقع مرة ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه، بل

يواجهها كلما انخرفت فيردها إلى مثل ما كانت فيه أول مرة، وكلما رجعت البشرية إلى جاهليتها المزدولة يتقدم الإسلام ليؤدي دوره في انتشالها آخذاً بيدها إلى صراط الله المستقيم. والآيات تربط مسألة التحليل والتحريم بمسألة الإسلام والشرك، وتبصّر الأمة بالكيد والعنت والتكذيب والجحود والإضلال الذي تلقاه من بني إسرائيل... وقد فصل المولى سبحانه الحديث عن أنعام المشركين وحذر من أكل ذبائحهم مُعللاً بقوله ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ ومثله حُكم النكاح ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأُمَّةٌ مَوْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ونحو هذا قوله عز وجل في حق الرسول المعظم ﷺ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي لا يحل لك النساء من بعد المسلمات: مشركات كتابيات ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من الكتابيات أي لا يتزوج يهودية ولا نصرانية فتكون من أمهات المؤمنين إلا أن تكون أمة من ما ملكت يمينك فلا بأس أن تشتري اليهودية والنصرانية إذلالاً وإخزاء لأهل الكتاب. روى الإمام البخاري في صحيحه عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: «إن الله حرم المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئاً أكبر من أن تقول المرأة: ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله» ثم ذكر سبحانه رفع الحرج عن أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم بعد القتل والإخراج وتحرير البيت الحرام وإكمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلْتُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ

المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) ولما نزلت الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) بكى سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص فقال: «صدقت». ومن الملاحظ تكرار كلمة "اليوم...اليوم...اليوم" في سياق واحد! والإحصان مجاز في العفة، فيحرم نكاح البغايا، وظاهر قوله (أوتوا الكتاب من قبلكم) أنه مختص ببني إسرائيل. قال الإمام الشافعي رحمته الله: ولم أعلم مخالفاً في أن لا تنكح نساء المجوس ولا تؤكل ذبائحهم فلما دل الإجماع على أن حكم أهل الكتاب حكمان وأن منهم من تنكح نساؤه وتؤكل ذبيحته ومنهم من لا تنكح نساؤه ولا تؤكل ذبيحته وذكر الله عز وجل نعمته على بني إسرائيل في غير موضع من كتابه وما آتاهم دون غيرهم من أهل دهرهم كان من دان دين بني إسرائيل قبل الإسلام من غير بني إسرائيل في غير معنى من بني إسرائيل أن ينكح لأنه لا يقع عليهم أهل الكتاب بأن آباءهم كانوا غير أهل الكتاب ومن غير نسب بني إسرائيل فلم يكونوا أهل كتاب إلا بمعنى لا أهل كتاب مطلق فلم يجز والله تعالى أعلم أن ينكح نساء أحد من العرب والعجم غير بني إسرائيل دان دين اليهود والنصارى بحال. أخبرنا إبراهيم بن محمد عن عبد الله بن دينار عن سعد الجاري أو عبد الله بن سعيد مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب قال: ما نصارى العرب - يعني من غير بني إسرائيل - بأهل كتاب وما تحل لنا ذبائحهم وما أنا بتاركهم حتى يسلموا أو أضرب أعناقهم. قال الإمام الشافعي رحمته الله: فمن كان من بني إسرائيل يدين دين اليهود والنصارى نكح نساؤه وأكلت ذبيحته

ومن نُكح نساؤه فسُبي منهم أحد وُطئ بالملك ومن دان دين بني إسرائيل من غيرهم لم تُنكح نساؤه ولم تُؤكل ذبيحته ولم توطأ أمته، وإذا لم تُنكح نساؤهم ولم توطأ منهم أمة بملك اليمين لم تُنكح منهم امرأة. وروى البيهقي في السنن عن عطاء قال: «ليس نصارى العرب بأهل الكتاب، إنما أهل الكتاب بنو إسرائيل والذين جاءتهم التوراة والإنجيل، فأما من دخل فيهم من الناس فليسوا منهم» وقال الإمام الماوردي في الحاوي الكبير: وأما غير بني إسرائيل ممن دخل في اليهودية من النصرانية من العرب والعجم والترك فهم ثلاثة أصناف: صنف دخلوا فيه قبل التبديل كالروم حين دخلوا النصرانية فهؤلاء كبنى إسرائيل في إقرارهم بالجزية وأكل ذبائحهم ونكاح حرائرهم لأن النبي ﷺ كتب إلى قيصر الروم كتاباً قال فيه (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله) الآية فجعلهم أهل الكتاب ولأن الحرمة للدين والكتاب لا للنسب فلذلك ما استوى حكم بني إسرائيل وغيرهم فيه. والصنف الثاني: أن يكونوا قد دخلوا فيه بعد التبديل فهؤلاء لم يكونوا على حق ولا تمسكوا بكتاب صحيح فصاروا إن لم يكن لهم حرمة كعبدة الأوثان في أن لا تقبل لهم جزية ولا يؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح منهم امرأة. والصنف الثالث: أن يشك فيهم هل دخلوا فيه قبل التبديل أو بعده كنصارى العرب كوج وفهر وتغلب فهؤلاء شك فيهم عمر فشاور فيهم الصحابة فاتفقوا على إقرارهم بالجزية حقناً لدمائهم وأن لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم لأن الدماء محقونة فلا تباح بالشك والفروج محظورة لا تستباح بالشك، فهذا حكم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. اهـ. وأما في هذا الزمان فإن عموم الداخلين في اليهودية والنصرانية قد تحولوا إلى الإلحاد فصاروا كعبدة الأوثان.

(فتول عنهم فما أنت بمعلوم) لما كان الاهتمام بأمر الرزق شاغلاً للإنسان،
انفتت الكلام إلى سياق الاسم الأعظم الذي لم يتسم به تعالى غيره بالغاً من
الإرشاد أقصى المراد (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فينبغي للمؤمن أن لا
يوجه رغبته إلا على الذي فطره ولا يكون أسير ريال ودولار ووظيفة ودار،
وأن يعتزل المنافقين وما يدعون من دون الله... وهذه رسالة الأنبياء جميعاً كما
بيّن تعالى (فما سألتكم من أجر) وقال تعالى (وما تسألهم عليه من أجر) وجاء
على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب (وما أسألكم عليه من أجر)
أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا أسألكم على ما
أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلا أن تودّوا الله وأن تقرّبوا إليه بطاعته»
ومودة الله والتقرب إليه بطاعته عني به الأمر بمودة قرابة رسول الله ﷺ أي إلا أن
توادوا الله وتتقربوا إليه بمودة رسوله في قرابته كما قال تعالى (قل لا أسألكم
عليه أجراً إلا المودة في القربى) ونحوه قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر
إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) واتخاذ السبيل إلى الله هي المودة في القربى
التي تقرّبكم عند الله زلفى فذكر الوصاة بأهل البيت واحترامهم وإكرامهم إذ
هم من ذرية أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً
وأعظمهم اتباعاً للسنة الصحيحة كما كان عليه سلفهم رضي الله عنهم ونفعنا
بمحبتهم... وتقدير الكلام: إلا عمل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً وذلك هو
اتباع دين الإسلام ومودة رسول السلام في قرابته وبذل المال في الإنفاق كما
فعل مخيريق وكان حبراً عالماً غنياً كثير الأموال من النخل، حتى إذا كان يوم
أحد قال: والله يا معشر يهود إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا:
إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى

رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قُتلت هذا اليوم فأموالي إلى محمد يصنع فيها ما أراه الله، وكانت سبعة حوائط، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل.

(يُؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الأبواب) لما أبدى سبحانه وتعالى أمر الآخرة وأظهر ما فيها وبين أمر الدنيا من الترتيب والتسبيب ورجع بعضها على بعض عوداً على بدء، أنبأ تعالى أن ذلك من حكمته وأنه الحكمة لما فيها من استيفاء حكمة الدارين فليس الحكيم من علم أمر الدنيا بل من علم أمر ما بين الدنيا والآخرة فداوى أدواء الدنيا بدواء الآخرة وداوى النفس بدواء الدارين وضم جوامعها في تيسير الكلم كما ضمّها لمن اصطفاه وفي ترتيبها على "واسع عليم" التحذير من التعريض لإنفاق ما يرده لعزته وغناه وسعته ويذم عليه لعلمه لردائه أو فساد في نيته وإن خفي فإن ذلك خارج عن منهاج الحكمة منا ومقتضى الحكمة منه سبحانه وتعالى، والحكمة قوة تجمع أمرين: العلم المطابق وفعل العدل وهو العمل على وفق العلم، وقد مدح تعالى من حلاه بها فقال مشيراً ببناء الفعل للمفعول إلى أنها مقصودة في نفسها "ومن يؤت الحكمة" أي التي هي صفة من صفاته "فقد أوتي خيراً كثيراً" ولما كان التقدير: فإن ذلك الذي أوتي الحكمة يصير ذا لبّ فيتأهل لأن يتذكر بما يلقيه الله سبحانه وتعالى من كلمته ما بثّ من حكمته وصل به قوله "وما يذكر" أي بكلام الله سبحانه وتعالى حكمه "إلا أولوا الأبواب" أي أصحاب العقول الصافية عن دواعي الهوى المنبعثة من التوهّمات الحاصلة عن الوسوسة فهم يترقون بالتذكر بأنهم لا حول لهم عن المسببات إلى أسبابها إلى أن يصلوا إلى مسببها فيعرفوه حق معرفته... روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود

أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» والحكمة هي السنة المبينة للقرآن يؤيد ذلك ما جاء في الرواية الأخرى: «رجل آتاه الله القرآن» قال الله تعالى "ويعلمهم الكتاب والحكمة" وقال شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري: "آتاه الله الحكمة" أي القرآن. والذي يتبادر من موقع الآية الكريمة أنها جامع لموقع تذييل لما قبلها ومقدمة لما بعدها من الحث على الإنفاق في سبيل نصره دين الله عز وجل بما تضمنه النظم في هذا المعنى حيث نبّه أن أهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة الإنفاق ويضعونه في محله، وما يتعظ بمضمون هذه الآية الكريمة الشاملة لفوائد لا تحصى إلا الواصلون إلى الحقائق الرفيعة المتوجهون إلى الله بالعزائم الصحيحة وإنما هو فضله تعالى يؤتاه من يشاء ومن تخلص من الأهواء ترقى عما في محسوسه من المهادي الشهوانية وتنشأت له سبل الهداية الربانية. وحكيم الأنبياء وني الحكماء حضرة خاتم الرسالة ومحدد جهات العدالة والبسالة ﷺ، لا ما ذهب إليه أهل الكتاب ومن مشى على آثارهم واعتكف في رواق أفكارهم فإن الجهل أولى بكثير مما ذهبوا إليه وأسلم بمراتب مما عولوا عليه، وقد نهى ﷺ عن النظر في كتبهم كما جاء في حديث جابر أن عمر رضي الله تعالى عنه استأذن رسول الله ﷺ في جوامع من التوراة ليقراها ويزداد بها علماً إلى علمه، فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب» ووجه الاستدلال أنه ﷺ - أرواحنا له الفداء - لم ييح استعمال الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى في وقت كانت فيه أنوار النبوة ساطعة وسحائب الشبه والشكوك بالرجوع إليه منقشعة، فكيف يباح الاشتغال بما وضعه المتخبطون من علماء بني إسرائيل إفكاً وزوراً في وقت كثرت فيه الظنون

وعظمت فيه الأوهام وعاد الإسلام فيه غريباً؟ وفي كتاب الله تعالى غنى عما سواه كما لا يخفى على من ميز القشر من اللباب والخطأ من الصواب وما يذكر إلا أولوا الألباب وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة، ولإظهار الاعتناء بمدحهم بهذه الصفة أقيم الظاهر مقام المضمّر. ومن باب الإشارة في الآيات أنها اشتملت على ثلاثة إنفاقات متفاضلة، الأول: الإنفاق في سبيل الله تعالى، والثاني: الإنفاق لطلب رضا الله تعالى، والثالث: إنفاق النفس بعد تركيها والنفس مكتسبة بهذا الاعتبار وصاحب هذا الإنفاق لا يزال ينفق من الحكم الإلهية والعلوم اللدنية لارتفاع البين وشهود العين.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر سبحانه وتعالى ما أوصى لقمان به ولده من شكر المنعم الأول الذي لم يشركه في إيجاده أحد وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة والبشاعة، أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب في وجود الولد تفخيماً لحق الوالدين لكونه قرن عقوقهما بالشرك وإعلاماً بأن الوفاء شيء واحد متى نقص شيء منه تداعى سائرهما كما في الفردوس عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن العبد لقي الله بكمال ما افترض عليه ما خلا بر الوالدين ما دخل الجنة وإن بر الوالدين لنظام التوحيد والصلاة والذكر» وروي أن لقمان لما أبلغ ابنه هذا قال له: إن الله رضيني لك فلم يوصني بك ولم يرضك لي فأوصاك بي. ولما كان لقمان عليه السلام قاضياً في الأمة الإسرائيلية ورأى في أصناف هذه الأمة ما كان من أحوال القرون الماضية لفت الكلام إلى لما قد يخيله

الشيطان من أن التقيد بطاعة الوالد شرك مضمناً أجود الوصايا في تحسين الشكر وتقبيح الشرك مبيناً حق الوالدين ومعرفاً قباحة من أمر ابنه بالشرك موجباً مخالفة الابن لأبيه فيه تقدماً لأعظم الحقين وارتكاباً لأخف الضررين، والمعنى: وإن جاهدك على إشراك ما لا تعلم مع الله أي ما ليس لك بصحته علم فلا تطعهما، ولا يخفى ما تضمنته العبارة "ما ليس لك به علم" من الحث على تعلم كتاب الله والسؤال والبحث والنظر ونبد التقليد... وأما آية الأحقاف **(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً)** فمبنية وواردة على ما تقدمها من الإخبار عن كتاب موسى وعيسى المعبر عنه بقوله "وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله" وفي سورة العنكبوت لما ذكر سبحانه أنه لا بد من الفتنة وحذر من كفر وبشر من صبر أشار إلى تعظيم حرمة الوالد حيث جعلها في سياق تعظيم الواحد الماجد **(ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون)** والمقصود من سياق الكلام - والله أعلم - إظهار النصفة والتنبيه على النصيحة ليكون أدعى إلى القبول، قال صاحب كتاب "التضمين في الكتاب المبين" أفاض الله علينا من سجال معارفه وحقائقه: تضمنت "الوصاة" هنا معنى "السؤال". بمعنى الطلب والمتعدي لمفعولين أولهما الإنسان وثانيهما الإحسان يسأل الله الأبناء أن يكونوا في مستوى الإحسان، ودرجة الحسن هذه "بوالديه حسناً" فوق درجة الإسلام والإيمان فإذا نزل عن هذا المستوى السامق: مستوى سؤاله الإحسان بوالديه إلى الجبل الطينية لتضمن الوصاة معنى "الإلزام والأمر" كما جاء عند كثير من المفسرين فقد أخلد إلى الأرض، وفي تعليق شبه الجملة "بوالديه" بـ "وصينا" يجعل معنى الإحسان في منظور ضيق وينطفئ نور المادة اللغوية للإحسان لتصبح

حروفاً جافة تنتهي إلى حطب يابس، لا ظل ولا ثمر ولا عطر ولا زهر نعم وصاة الإنسان بالإحسان وسيلة تربوية: سألناه وطالبناه إحساناً بوالديه، فالولاء واللين والوجه السمع يحتاج إلى قلب كبير، الوداعة والسكنية والكلمة الطيبة والصوت الخفيض والبسمة الحانية بحاجة إلى ممارسة طويلة، التذلل لا عن ضعف بل عن حب تفيض به النفس على الجوارح فإذا هو خفيض الجناح، هذا التوازن لا يكون إلا بأن يأخذ التعليم طريقه إلى مسارب النفس ودروبها وأشواكها حتى تصل إلى درجة تخرج عن دائرة التربية والتعليم إلى ما هو أعلى، إلى الإيمان، إلى درجة الإحسان، وربط الجار والمجرور "بوالديه" بالإحسان أكشف لمزية المراد وأبهر من ربطها بـ "وصى" فالوصى بهما منوطان بالإحسان والإجلال والإلطف، لا بالوصاة الخاوية من الظلال، ودليل آخر قول يوسف عليه السلام "وقد أحسن بي" فمن كمال عبوديته جاء بالباء لتفصح عما غمره به مولاه من الإحسان، يمسه، يرتديه، يتقلب في أعطافه، فالحرف عبّر عن رصيد الجميل والإحسان المذخور في نفسه... ومنع قوم تقديم معمول المصدر عليه والصحيح أنه يجوز إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً، وأخيراً أقول: الوصاة إشارة تُغني عن العبارة لمن هو في المستوى الإنساني الشفيف، وصلة الوصاة بالإحسان من أكبر غايات الأداء التربوي للتعامل بين الأبناء والآباء، والتلميح بالوصاة يغني عن التصريح وهو السؤال والاستعطاء والطلب، فالإلزام يخرج عن الأريحية والطوعية إلى القسرية، والله يريد أن يصدر الإحسان من ذات الإنسان راغباً غير مجبر ليحقق الأهداف التربوية المنشودة من وراء الوصاة، وفي هذا تكريم للأبناء أي تكريم. اهـ. وفي سورة بني إسرائيل على نحو هذا **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾** وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه

قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وروى أبو نعيم عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في التوراة: «يا موسى إن جهنم وما فيها تلظى وتلهب على المشرك وكل عاق لوالديه» وقد شَرَّك الله في الآية ﴿أَن اشْكُر لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ الأم والأب في رتبة الوصية بهما ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ودرجة الرضاع فتحصل للأم ثلاث مراتب وللأب واحدة كما جاء في الآثار المشهورة... والتعبير بحرف ﴿على﴾ في آية لقمان أدل على تمكن المجاهدة، أي مجاهدة قوية للإشراك، والمجاهدة: شدة السعي والإلحاح والمعنى: إن ألحاً وبالغا في دعوتك إلى الإشراك بي فلا تطعهما وهذا تأكيد للنهي عن الإصغاء إليهما إذا دعوا إلى الإشراك، وأما آية العنكبوت فجاء فيها بلام العلة لأن النظم يقتضي الإعراض عنهما ابتغاء الجهاد في سبيل الله كما أشارت آية الإسراء ﴿وَمَا تَرْضَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ فاحفظ في النوع الآدمي الحق الأعظم لأبويك، والزم طاعة والديك، ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، وأعظم شأن أبيك، فسترى من بركة قلبه بشأنك العجائب، قم بإجلال منزلته حياً وميتاً، فإنه من المقبولين في الحضرة لدى الجناب المحمدي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنَّ اللَّهَ يُحْكِمُ مَا يُرِيدُ﴾ في الآية تعريض بمن نكثوا العهد والميثاق، والافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لترقيته أسماعهم بشوق، ووصفهم بالذين آمنوا جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا الأمر بالامتثال بعقد الإيمان بالله والاعتراف

بربوبيته وألوهيته ومقتضيات هذا الاعتراف من العبودية المطلقة والالتزام الشامل والاستسلام الكامل... وقد استهلت سورة المائدة بهذه الآية التي حسمت تحريم أكل ذبائح الذين أشركوا من أهل الكتاب في بيان المستثنيات من حكم الحل العام، وربطت هذا العقد بالعقد الأكبر، وبينت طليقة مشيئة الله، حاكمة إرادته سبحانه متفرداً بالحكم وفق ما يريد، ليس هنالك من يريد معه وليس هنالك من يحكم بعده ولا راد لما يحكم به، وهذا هو حكمه في حل ما يشاء وحرمة ما يشاء (إن الله يحكم ما يريد) وفي الآية إيقاعات عنيفة ومقارع متوالية على من فضلهم الله على العالمين فعاندوه فلعنهم كما لعن أسلافهم، وعلى قدر الصعود يكون السقوط... وقوله سبحانه (إلا ما يتلى عليكم) أي مما أهل لغير الله به ولم يذكر اسم الله عليه، لعل تنافي سلامة الفطرة وطهارة الروح ووحدة المتجه... فتحریم هدي وذبائح أهل الكتاب لمنازعتهم الله تعالى في ربوبيته! وهذا ألصق بالعقيدة من الميتة والدم ولحم الخنزير... ومن هنا تتجلى علاقة التحليل والتحریم بالحديث عن وحدانية الله فالصلة قوية ومباشرة بين الاعتراف برب واحد وبين التلقي عن أمر الله في التحليل والتحریم وفي سائر أمور التشريع، ولما بين سبحانه حرمة إحلال الحرم الذي هو من شعائر الحج، عقب جل شأنه ببيان إحلال سائر الشعائر وهو جمع شعرة وهي اسم لما أشعر أي جعل شعاراً وعلامة للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والطواف والمسعى والأفعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها وتهويل الخطب في إحلالها والمراد منه التهاون بحرماتها وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون

فضلا من ربهـم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وشعائر الله: معالم دينه وذلك عام في جميع تكاليفه، وقيل: معالم الحج ومناسكه، قال زيد بن أسلم: الشعائر ست: الصفا والمروة، والبدن، والجمار، والمشعر الحرام، وعرفة، والركن. والحرمت خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمُحَرَّم حتى يَحِلَّ. وروي عن عطاء أنه فسر الشعائر بمعالم حدود الله تعالى وأمره ونهيه وفرضه، وخصت بالذكر الأشهر الحرم والهدي والقلائد تشريفاً لها واعتناء بها، وقوله (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهـم ورضوانا) أي ولا تحلوا أقواماً قاصدين البيت الحرام بأن تصدوهم عنه بأي وجه كان وجوز أن يكون على حذف مضاف أي قتال قوم أو أذى قوم آمين، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم والإشعار بحصول مبتغاهم إذ يطلبون رضوانه سبحانه فإن رضى المحبوب هو غاية المطلوب والمراد بهم أهل الإيمان خاصة والآية محكمة كما ذكر العلامة الألوسي، والذي ينبغي أن تحمل عليه الآية: النهي عن التعرض للقاصدين البيت والحذر من طاعة أهل الكتاب الصادقين عن سبيل الله والمسجد الحرام بشتى الوسائل الشيطانية والأهواء الظلمانية وكانوا في أول أمرهم قد وضعوا المنافذ ورصدوا الشعاب وسدوا المسالك وصدوا القاصد والسالك وتعرضوا لأذى العمار والحجاج وقعدوا على أذنان الأودية ومراصد الجبال وعدوا على المسافرين ونهبوا البغال والجمال وكلما نفرت إليهم عساكر العثمانيين فروا إلى الجبال وتباعدوا وإذا عادت عادوا كعادتهم للأذية وتمردوا ولم يزل الحال على ذلك مدة منتظمين في سلك

الطغيان ومنتسقين وقد أشار إليهم سيد الأولين والآخرين عليه صلوات رب العالمين بقوله: «يقعد أعراها على أذنب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد» والنظم الكريم أكد تحريم قاصد البيت العظيم ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغض الأغفال الأغرار المنخدعين بمنهاج أهل الكتاب الأشرار أن تعتدوا حكم الله فيهم فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه. والصد عن البيت محمول على الاستيلاء والمنازعة في الأمر فإنهم لما تمكنوا من السيطرة على الحرم حَجَّوا بالناس بمكر تكاد تزول منه جبال الحرم! ولما كان أهل الكتاب قد افتروا على الله الكذب وأحلوا للناس ما حرم الله بهواهم وزعموا أن الله أمرهم بذلك، أشار تعالى إلى ذلك بقوله ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام﴾ ولما كانت هذه الأشياء موجبة للفسوق قال سبحانه مشيراً إلى أفعال أهل الكتاب ﴿ذلكم فسق﴾ والفسق هو الخروج عن حكمه تعالى وأمره وسلطانه عناداً ومكراً ومكابرة.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ روى الشيخان واللفظ للبخاري عن طارق بن شهاب قالت اليهود لعمر: إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة وإنا والله بعرفة - قال سفيان: وأشك - كان يوم الجمعة أم لا ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. وقد أنزلها الله تعالى على أكرم الأولين والآخرين حبيب رب العالمين إعلاناً بأكملية هذا الدين القويم وإعلاماً بأفضلية هذا الشرع الحكيم فقرأها ﷺ وأسمعها جميع من

كان معه ليشهدوا ويشاهدوا تلك الأنوار المحمدية وطلعت الساطعة البهية صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعلينا معهم وسلم تسليماً في كل لحة ونفس وغدوة وعشية. وهذه النعمة الربانية رفعت الأمة المسلمة عن وهدة الجاهلية إلى أفق التوحيد الرفيع وحررتها من سلطان الكهانة إلى سدة الرئاسة والسيادة، ولعل تضمين "أتممت" معنى "أسبغت" وتضمين "رضيت" معنى "وهبت" أسوغ وآنس، فهذه الهبة الإلهية من تمام النعمة وكمالها وهي رمز الرضا وعنوان المحبة... ولما نزلت هذه الآية بكى سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ييكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص فقال: «صدقت» والمراد من إكمال الدين أفرادهم بالبيت الحرام وإجلاء المشركين عنه إذ لم يخالطهم في حجهم مشرك فأخلص لهم البيت ونفى المشركين عنه والله أعلم. روى الشيخان عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» لقد حرص صلى الله عليه وسلم على إبلاغ الناس بأن الزمان قد عاد إلى وضعه الصحيح، وانسجم واقع الناس مع الواقع الكوني، فإذا كان النسيء قد أحدث فوضى، فإن الإسلام قد أعاد الأمور إلى نصابها، ولاشك أن الدين القيم هو الدين القائم على توحيد الله وهو الدين الذي يتبنى في تشريعاته مصالح البشر، وينسجم مع القانون الكوني لأن الذي خلق الكون ونواميسه هو الذي أنزل الدين وتشريعاته. وقد وعد صلى الله عليه وسلم أمته بفتح جزيرة العرب على ما أشرنا إليه من التأويل وسلكناه من التوجيه والتعليل وهذا يعني إخراج المشركين منها وتطهير البيت ونفي المشركين عنه، واعلم أن الأمر مترتب على أسباب وشروط

غيبية أخفاها الله تعالى لتظهر قهرية عزته وحكمته، فشُدَّ يدك على ما وعد به رب الأرض والسموات وما أخبر عنه رسوله عليه أكمل الصلوات والتسليمات، وإياك أن تضمر الشك فيكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك، فإن الذي ينبغي أن يعول عليه التسليم بما جاء عن رسول الله ﷺ فليس وراءه عليه الصلاة والسلام حكيم. روى الدارمي عن جبير بن مطعم: أنه شهد خطبة رسول الله ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع قال: «أيها الناس إني والله لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد يومي هذا بمكاني هذا فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها فرب حامل فقه ولا فقه له ولرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة هذا اليوم في هذا الشهر في هذا البلد واعلموا أن القلوب لا تغل على ثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، وعلى لزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» واعتبر أهل العلم خطبته ﷺ في حجة الوداع هي البيان الأخير في شأن الديانة والتدين وفيها حدد ﷺ معالم المستقبل وأخبر بما سيحصل من بعده في محيط الحكم والعلم ووضع المعالجات لشتى الظروف المتوقعة فعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» ووردت أحاديث شتى حول ما حذر منه ﷺ حول مسألة الاختلاف في القرار منها ما رواه الإمام مسلم عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد ثم صعد المنبر كالمودع

للأحياء والأموات فقال: «إني فرطكم على الحوض، وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة، إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم» قال عقبه: فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر. وروى ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال: لما أقبلنا مع النبي ﷺ في حجة الوداع حتى إذا كنا بغدير خم نودي فينا: الصلاة جامعة وكسح النبي ﷺ تحت شجرتين فأخذ النبي ﷺ بيد فقال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: «أليس أزواجي أمهاتهم» قالوا: بلى يا رسول الله، قال «فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فلقبه عمر بعد ذلك فقال: نسيناك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة، وفي رواية: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار» وروى الإمام الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» والله در القائل:

ومن دنس الرجس قد طهروا ... فيا فضل من بهم يهتدي

هم حجج الله في خلقه ... عليهم هدى كل مسترشد

بهم أحييت سنن المرسلين ... على الرغم من أنف الحسد

(هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا) أي في ذلك المقام النصرة والتولي لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها سواه، وقرئ بكسر الواو

"الولاية" أي السلطان والملك لله الحق، وقُرئ "الحق" بالرفع على أنه صفة للولاية تقريراً لقوله ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾ ولما ذكر تعالى من قصة الرجلين ما ذكر علمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر الذي أُلجئ إلى قوله ﴿ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ جزعاً مما دهاه من شؤم كفره إذ علم أنه لم تغن ولاية الأرباب عنه شيئاً.

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ قوله "كذلك" أي هكذا عادته سبحانه ومقتضى حكمته وعدله أن يجعل هذا الرجس وهو الكفر بسبب ضيق الصدر الذي صاروا إليه يجعله على الذين لا يؤمنون بالحق بعد ما تبين لهم فكذبوا بالآيات البينات ووجدوا بها بعد علمهم أنها حق من عند الله تعالى وأن الذي جاء بها هو رسول الله حقاً ﷺ، والكلام تفریع على قوله تعالى ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ وما بين الآيتين اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق، وتمثيل استدعاه تناسب المعاني بتشبيه المؤمن بالحي المستضيئ بأنوار الوحي الإلهي يتصرف به كيف سلك، يمشي به في الناس يهدي الضال ويلتقط الشارد ويطمئن الخائف ويحرر المستعبد ويكشف معالم الطريق ويعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد، وتشبيه الكافر بالمختلط في الظلمات المستقر فيها وقد استحوذت عليه الشياطين وزينت له هذا التزيين العجيب الذي لو أراد أحد تقريره لم يجد ضاللاً مزيناً أوضح منه وأعجب ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ قال ابن عباس رضي الله عنها: «أكابر مجرمي مكة المستهزون المقتسمون عقاب

مكة» ويتحصل من هذا أن المراد بالقرية أهلها المستخلفون في الأرض والآية نزلت في المستهزئين يعني أن التمثيل لهم، وخص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع العوام والمكر بهم وأقدر على الفساد والتحيل لرئاستهم وسعة أموالهم! أي ومثل هذا الجعل الذي جعلناه للمستخلفين المفسدين جعلنا في كل قرية مضت أكابر يصدون عن الخير فشبه أكابر الجرمين في مكة بأكابر الجرمين في أهل القرى في الأمم الغابرة أي أن أمر هؤلاء ليس ببدع ولا خاص بأعداء هذا الدين فإنه سنة الجرمين مع الرسل الأولين! والأظهر في نظم الآية أن جعلنا بمعنى صيرنا فيتعدى إلى مفعولين: مجرميها المفعول الأول، وأكابر مفعول ثان أي جعلنا مجرميها أكابر، وقدم المفعول الثاني للاهتمام به لغرابة شأنه لأن مصير الجرمين أكابر وسادة أمر عجيب إذ ليسوا بأهل للرياسة والسيادة! والمراد بالمكر هنا تحيل زعماء المشركين على الناس في صرفهم عن متابعة الإسلام، واعلم أن كل من شعر بالمكر فليس بممكور به، ولما قرر ذلك أتبعه بمقالة لهم تدل على تكبرهم فقال ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ﴾ أي حتى ينزل علينا الوحي كما نزل على محمد ﷺ لأنهم علموا أن الرسالة لا تجعل إلا في المعظم عند الله والمفضل لديه ولو لم يكن كذلك لم يكونوا يتمنون إيتاء ما أوتي وعلموا أن هذا القرآن الذي أنزل عليه ﷺ آية وحجة حيث قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ولما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولى بالرسالة من الرسول النبي الأمي، ردَّ الله عز وجل عليهم بأن الرسالة لا تعطى بسؤال سائلها مع التعريض بأن أمثالهم ليسوا بأهل لها ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي لا يجعلها إلا في عظماء البشر وكبرائهم، وقرئ بصيغة الجمع ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ وفيها تنبيه على كفرهم بجميع الرسل وانحطاط نفوس

سادتهم عن نوال هذه المرتبة وانعدام استعدادهم لها ولذلك قال **(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)** وقدم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقبولوا بالهوان والذل. ولما أعلم تعالى أن مكر المجرمين إنما هو بإرادته ونافذ قدرته، علم أن الأمر أمره والقلوب بيده فتسبب عن ذلك قوله **(فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)** وإنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية! والإسلام هو الدين المشتمل على توحيد الله في الحكم والعبادة مع الذل والانكسار للعزیز الحكيم وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد مال القلب وحصل في النفس رغبة شديدة في تحصيله، وهذا هو انشراح الصدر للإسلام، فأما إذا حصل في القلب نبوءة عن قبول الحق فعند هذا يترتب على حصول هذا الاعتقاد نفرة شديدة عنه فلا يكاد يكون للخير فيه منفذ وهذا هو المراد والله أعلم من قوله **(وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا)** والخرج: غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل من بني مدلج: ما الحرجة؟ فقال: الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير... ثم يجيء التعقيب الأخير بهذا البيان الموحى بالتلازم بين الحكم والتشريع **(وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون)** وأشار بقوله "وهذا" أي ما تقدم ذكره من شرح صدر ذاك وتضييق صدر ذاك "وهذا صراط ربك مستقيماً" أي صراط الحق والعدل الرباني ومقتضى الحكمة الربانية فهو سبحانه يتصرف في ملكه على طريق العدل وصراط الحق وذلك يوجب التوحيد المحض، والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن

المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره ﷺ ما لا يخفى، وإنما سماه صراطاً مستقيماً لأن العلم به يؤدي إلى العلم بالتوحيد الحق. ولما حض سبحانه على التذكر؛ نبّه على استيلاء الشيطان وإغوائه للبشر الغافلين فقال ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ والمراد بمعشر الجن - والله أعلم - مردة الشياطين المسلطون على الإنس يقول لهم الحق تبارك وتعالى "قد استكثرتم من الإنس" أي تجاوزتم الحدّ في استهوائهم واستغوائهم بالسوسة والتخيل والإرهاب والمس ونحو ذلك فطوّعتم منهم كثيراً وسخرتموهم لأوليائكم المستخلفين فالكلام على حذف مضاف وهذا بطريق التوبيخ والتفريع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ وأوليائهم من الإنس: المواليون للجن والمنقطعون إلى التعلق بأحوالهم المشار إليهم في صحيح الإمام مسلم من حديث سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال وهو مستقبل المشرق: «ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي الإعادة ثلاثاً إيماء إلى دولتهم الأولى والثانية والثالثة، وفي رواية أخرى أعادها مرتين إشارة إلى اليهود والنصارى صاحبي ميثاق الدرعية كما في صحيح الإمام البخاري: «ها إن الفتنة هاهنا، إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي رواية له قالها مرة واحدة مشيراً إلى بني إسرائيل: «ألا إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» وهؤلاء هم أولياء الجن الموبخون على جهة الاعتذار عن الجن "ربنا استمتع بعضنا ببعض" قال الضحاك: يعني خدع بعضنا بعضاً عن دينك. وقيل: هو طاعة بعضهم بعضاً وموافقة بعضهم بعضاً، والحاصل أنه نال كل من الفريقين انتفاعاً بصاحبه في الإعانة على الفساد والإضلال والوقوف في وجه دعوة الأنبياء والصد عن

الإسلام، والمعنى راجع إلى ما تقدم في قوله تعالى ﴿وَكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ ثم وبَّخهم لأنهم لم يسمعوا مَنْ يدعوهم إلى آيات القرآن من قوله ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ إلى قوله ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ فإنه تدرج في التوبيخ وقطع المذدرة، وقد قص القرآن من دلائل الصدق والرشاد ما قامت به الحجة على المستخلفين... ثم تمضي الآيات كاشفة عن استخلاف بني إسرائيل، مؤكدة ما يخفونه من نسبهم، مبينة عاقبتهم، أمرة المؤمنين بالمواجهة والمباينة والبراءة التامة منهم ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين، إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين، قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ وأراد بقوله ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أنهم أدعياء ينتسبون إلى قوم ليسوا منهم إذ يدعون أنهم من ذرية عنزة وقيم - والله أعلم - ونحوه قوله جل شأنه ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ والمولى سبحانه يخاطبهم بصيغة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التي يدبرونها للمسلمين، ومن حرب يشنونها عليهم بكافة الصور والأشكال ليردوهم عن دينهم... ثم يجيء الأمر بمواجهتهم ومماركتهم متاركة تبين حقيقة التنافر بين طبيعة الإيمان وطبيعة المداهنين وتلخص دين الإسلام ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ وهذه المفارقة هي دين الأنبياء والمرسلين، فهذا إبراهيم والذين آمنوا معه يتبرؤون من قومهم الكفار ومن شركاء قومهم ويصرحون لهم بالعداوة

والبغضاء ولم يكثرثوا بهم وبشركائهم ﴿إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ وهذا هو التوحيد في نقائه...أخرج الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قلت: يا رسول الله اشترط عليّ، فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتصلّى الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتنصح للمسلم وتبرأ من الكافر» ثم أعقب تعالى مبيناً آلية بني إسرائيل في تسيير الحكومات والمنظمات والمؤسسات التابعة للأمم المتحدة ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ والحرث في اللغة: ما يخرج من الأرض بالتثوير من الزروع والمعادن، فجعلوا منه لشركائهم الحظ الأوفر وبالتالي لا يصل إلى الفقراء والمساكين منه شيء حتى لو كان الفقير يتبعهم كما حكى تعالى ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ ونظيره ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء﴾ وجعلوا بزعمهم الباطل جزءاً من الحرث والأنعام للفقراء والمنكوبين يتم توزيعه عبر المنظمات والوكالات التابعة للأمم المتحدة تثبيتاً لحكمهم كما حكى سبحانه ﴿وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ فيقوم شركاؤهم بتوجيه المساعدات وفق أغراضهم الخبيثة ولذلك جاء التعقيب المناسب ﴿ساء ما يحكمون﴾ حيث جعلوا لله أرذل أموالهم، ولشركائهم أكرمها - وأهل الكتاب يحرصون على إفساد الفقراء والمنكوبين بالأموال الخبيثة القذرة - وفي مسألة الأنعام يطلقون لآلهم صنوفاً منها لا تخضع أحكامها لحكم الله ولا تدين لسلطانه، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ويجعلونها لشركائهم! ونقطة الانطلاق في طريق الإسلام هي لمن الإلهية

على الناس؟ ولمن الحكم في حياة الناس؟ لله وحده كما قرر في شريعته؟ أم لغير الله فيما يقرره المشركون لأنفسهم من أحكام وشرائع؟ ومن ثم يقرر القرآن أن الله تعالى لم يشرع هذه الطقوس... والحفاة العراة كفار يفترون على الله الكذب، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون: شريعة الله! ومرة يقولون: إننا نشرع لشركائنا ولا ندخل شريعة الله في أوضاعنا، ونحن لا نعصي الله! وهذا كله كذب على الله (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) وإنما يفترون على الله الكذب بزعمهم أن ما يشرعونه إذن لهم به الله!

جاء في المادة 62 من ميثاق الأمم المتحدة ما يلي:

للمجلس الاقتصادي والاجتماعي أن يقوم بدراسات ويضع تقارير عن المسائل الدولية في أمور الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بها كما أن له أن يوجه إلى مثل تلك الدراسات وإلى وضع مثل تلك التقارير وله أن يقدم توصياته في أية مسألة من تلك المسائل إلى الجمعية العامة وإلى أعضاء الأمم المتحدة وإلى الوكالات المتخصصة ذات الشأن.

وجاء في المادة 65 ما يلي:

للمجلس الاقتصادي والاجتماعي أن يمد مجلس الأمن بما يلزم من المعلومات وعليه أن يعاونه متى طلب إليه ذلك.

وقد تفرع عن الأمم المتحدة منظمات دولية كثيرة اقتسمت مهمة إخضاع الشعوب الضعيفة والسيطرة عليها في مجالات التعليم والصحة والزراعة والتنمية البشرية والاقتصادية لتتركها عالة تدور في فلكها...

ولما ذكر عز وجل أحكامهم الفاسدة في الأموال أعقب بذكر أفعالهم الباطلة في الأولاد فقال ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ أي كما زين شركاء الجن لبني إسرائيل تجزئة المال، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم ومعنى تزيينهم لهم ذلك تحسينه لهم وحثهم عليه، ولفظ الأولاد مستعمل في الأتباع كما تقدم وذلك يفيد التنبيه على جهالة الأتباع واستغلاق عقولهم واستطارة رشدهم! وقرأ الجمهور بنصب "قتل" على المفعولية لـ "زين" ورفع "شركائهم" على أنه فاعل "زين" وجر "أولادهم" بإضافة "قتل" إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله. وقرأ الشامي ببناء فعل "زين" للنائب ورفع "قتل" على أنه نائب الفاعل ونصب "أولادهم" على أنه مفعول "قتل" وجر "شركائهم" على إضافة "قتل" إليه من إضافة المصدر إلى فاعله. والفصل بين المضاف والمضاف إليه للإثارة والإهتمام والتعجب! وجاء بعضهم في ذلك بالتهويل والضحيج والعيول كيف يفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهذا جري على عادتهم في توهين القراءات المتواترة إذا خالفت ما دون عليه علم النحو لتوهمهم أن القراءات اختيارات وأقيسة من القراء وإنما هي روايات صحيحة متواترة وفي الإعراب دلالة على المقصود لا تناكد الفصاحة ومدونات النحو ما قصد بها إلا ضبط قواعد العربية الغالبة ليجري عليها الناشئون في اللغة العربية وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب والقراء حجة على النحاة دون العكس

وقواعد النحو لا تمنع إلا قياس المولدين على ما ورد نادراً في الكلام الفصيح والندرة لا تنافي الفصاحة. ومعنى الآية أن مُزَيَّنًا زَيْنَ لكثير من المشركين أن يقتل شركائهم أولادهم ليوقعوهم في الردى وهو الموت ويستعمل في الضر الشديد مجازاً أو استعارة وليوقعوهم في اللبس وهو الخلط والاشتباه فيوهموهم الضلال رشدًا وأنه مراد الله منهم، وإسناد القتل إلى الشركاء على الحقيقة لأن الجن تشارك في الحروب وتشكل بأشكال مختلفة وتباشر القتل أو على طريقة المجاز لأن شركاء الجن سبب القتل حيث زينوا للإنس قتل بعضهم أو لأن الذين شرّعوا القتل هم بنو إسرائيل القائمون بديانة الشرك! أمّا توجيه قراءة الجمهور فالتزيين لبني إسرائيل من شركائهم الجن إذ وضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم ليهلكوهم بالإغواء وليخلطوا عليهم دينهم الذي يجب أن يكونوا عليه أو ليوقعوهم في دين ملتبس! ويمكن إجراء الكلام على ظاهره وحمل الأولاد على الحقيقة فيكون معنى قتل الأولاد: الواد ونظيره الإجهاض...والأبتاع يفعلون ذلك خشية الفقر والإملاق أو هروباً من المسؤولية أو دفعاً للعار عند بعضهم إذا كان الحمل من الزنا وكل ذلك مؤداه فساد البشر! وإن شئت قلت: إسناد التزيين إلى الشركاء لإرادة الشياطين الشركاء فالتزيين تزيين الشياطين بالوسوسة فيكون الإسناد حقيقة عقلية، أو لأن التزيين نشأ لهم بشرع وضعه لهم بنو إسرائيل! وأمّا إسناد القتل إلى الشركاء على قراءة الشامي فهو على طريقة المجاز العقلي إما لأن الشركاء سبب القتل، وإما لأن الذين شرّعوا لهم القتل هم بنو إسرائيل فالشركاء سبب السبب لأنه من شرائع الشرك. ولما ذكر تعالى تفاصيل سفههم وأشار إلى معانيها، جمعها وصرح بما أثمرته من الخيبة في سبع خلال كل واحدة منها سبب تام في حصول الخسران

فقال ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي بغير دليل مستند إلى الوحي بل عن هوى مركوز في جبلتهم وكفر مرتكز في خبث طينتهم وهزء مركب في طبيعتهم، وجعلوا لأتباعهم القدامى والجدد شرائع مختلفة من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام تحريماً من الشيطان.

سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من

شيء

لما حذرهم تعالى من سلوك طريق الشيطان التي سَوَّها لهم في أمر ما شرعوه لأتباعهم من تحريم البحيرة وأخواتها من الأزواج الثمانية ليضلّوهم بغير علم، أعقب بذكر ما حرّم عليهم من الشحوم والثروب ولحوم الإبل وكل ذي ظفر عقاباً لهم، ثم ذكر حالاً من أحوال مكابرتهم واستهزائهم فقال ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ والمعنى أنهم قالوا ذلك على الاستهزاء والسخرية لا على الجد فيكون قصدهم تلبيس الصدق على الناس ورده كقوله عز وجل "ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف أخرج حياً" وهذا القول حق وصدق لكن إنما قال ذلك استهزاء منه وإنكاراً للبعث! فعلى ذلك قول أولئك وإن كان في الظاهر صدقاً فهم إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية على سبيل الإنكار وتلبيس الحق فيكون إخبارهم من هذا الوجه ولهذا الغرض حرصاً وكذباً - والله أعلم - وهذا الاستهزاء مبني على التباس المشيئة التكوينية بالمشيئة التكليفية كما حكى سبحانه في الآية الأخرى ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ ويبدو أن الآية الأولى إخبار عن بني إسرائيل فيما حرم عليهم

وكشفٌ عن تحريمهم الذكور تارة والإناث أخرى وما اشتملت عليه الرحم أخرى ثم ورد بعدها قوله تعالى ﴿قل هلم شهدائكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ وهو خطاب لهم أيضاً فقد اكتنف الآية المذكورة ما مرجعه إلى بني إسرائيل فيما حرم عليهم وما ألحقوه بذلك تحريفاً وتبديلاً ووردت الآية المتكلم فيها مورد ما يرد من الجمل الاعتراضية لاتصال ما بعدها بما قبلها فلم يكن ليلائم ذلك الإسهاب وطول الكلام إذ الوجه فيما يرد اعتراضاً أن يؤخر وأما آية النحل فقد أطنب في تذكيرهم ووعظهم وقد بسط لهم ذكر نعم ودلائل فناسب ذلك الإسهاب الوارد فيها من قوله ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ والله سبحانه أعلم. ويحتمل أنهم قالوا ذلك وفي قلوبهم بخلاف ما أخبروا وهو أن الإشراك والتحريم ليس مما شاء الله تعالى وإنما شاء الإيمان... وهذا الإشراك والتحريم والهزء والكذب الفاحش لم يُعهد في تاريخ البشرية سوى في بني إسرائيل ومن قبلهم من المستخلفين الهالكين الغابرين ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ وهو البأس الذي ينتظره المفترون الجدد... ولما كان ما قالوه شبهة بعيدة عن العلم، أمرهم بتصحيح منهج الفكر والنظر ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ والمقصود من الاستفهام التجهيل والتهكّم، وقرينة التهكم بادية لأنه لا يظن بالمؤمنين أن يطلبوا العلم من المشركين، كيف وهم يصارحونهم بالتجهيل والتحقير والترذيل، والمعنى المراد - والله أعلم - لقد أبدعتم في هذا العلم الذي أخرجتموه في استفادتكم أن الله أمركم بالشرك وتحريم ما حرّمتموه بدافع مشيئته على أفعالكم إذ لو شاء لما فعلتموها فزيدونا من هذا العلم. وهذا الجواب يشبه المنع في اصطلاح أهل الجدل، ولما كان هذا الاستفهام صورياً

وكان المتكلم جازماً بانتفاء ما استَفْهم عنه؛ أعقبه بالجواب بقوله ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ والجملة مستأنفة لأنها ابتداء كلام بإضراب عن الكلام الذي قبله فبعد أن تَهَكَّم بهم جدّ في جوابهم فقال ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي لا علم عندكم، وقصارى ما عندكم هو الظن والمراد بالظن: الظن الكاذب وهو إطلاق له شائع والله أعلم. ولَمَّا بَيَّنَّ تعالى أن إشراكهم بغير حجة ولا دليل وأنكر تعليقهم بالإشراك بمشيئته عز وجل على جهة السخرية؛ أعقب بذكر حجته البالغة تكملة لجوابهم وزيادة في إبطال قولهم فقال ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقد أفاد العطف في الآية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على قوله ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تأكيد استهزائهم! ولَمَّا أقام الحجة عليهم حَسُنْ وقوع تحذير التقرير بقوله ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ثم أمر تعالى بمشاركة المستهزئين الذين شاركوا المولى سبحانه في أخص خصائص الربوبية والإلهية وزاولوا التشريع من دونه وقرروا أنظمة الرق والجنسية والتأثيرات والمحاكم... ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويبتلعوا أمثال الجبال من الحرام؛ فيسألهم سبحانه في إنكار، علام تحيلون هذه الشرائع واللوائح التي تقررونها؟ فَحَكَّمَ اللَّهُ على هؤلاء المشرّعين للناس من عند أنفسهم - وهم ينسبون ذلك إلى الله - بأبشع خصلة ألا وهي الكذب، وقد ساوى الله في الآيات بين الشرك الواضح باتخاذ آلهة مع الله وبين الكذب على الله في التحليل والتحريم دون اعتبار لما يدعونه بأن ما يشرعونه هو شريعة الله ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُهَدَاءِكُمُ الَّذِينَ يُشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي أحضروا شركاءكم وأعوانكم من الجن خاصة والأمر للتعجيز،

وأضيف الشهداء إلى ضمير المخاطبين لزيادة تعجيزهم لأن شأن الحق أن يكون له أعوان يعلمهم فيحضرهم إذا دعي إلى إحقاق حق، واستعمل النهي عن موافقتهم في لازمه وهو التكذيب لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً وإرادة هذا المعنى من "لا تشهد" إما على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل من ذكر اللازم وإرادة الملزوم لأن الشهادة من لوازم التسليم أو الكناية أو هو من باب المشاكلة، وعُطِفَ على النهي عن تصديقهم النهي عن اتباع هواهم ووضع المظهر موضع المضمحل للإيماء إلى أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير وأن النفوس مائلة بطبعها إلى أهواء أهل الكتاب، وقوله "والذين لا يؤمنون بالآخرة" عطف على "الذين كذبوا" والمقصود عطف الصلة على الصلة لأن أصحاب الصلتين متحدون وهذا كعطف الصفات في قول القائل أنشدته الفراء:

إلى الملك القرم وابن الهمما ... م وليث الكتبية في المزرحم

كان مقتضى الظاهر أن لا يعاد اسم الموصول لأن حرف العطف مغن عنه ولكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التشهير بهم كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار. ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذَنُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ونحو هذا في سورة النحل ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ وفي سورة المائدة نحوه ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقد رجح ابن جرير مستنداً إلى السياق قول الشعبي بأن

المعنيين بقوله "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب" هم المتبوعون الذين سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة، وأن المعنيين بقوله "وأكثرهم لا يعقلون" هم أتباع من سنّ لهم هذه السنن من جهلة المشركين، ووافقه ابن عطية. وإذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم حلال أو تحليل حرام استحق هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد كان وعيده أشد وأشق كحال بني إسرائيل الذين أبطلوا أصل الإسلام ثم أخذوا يتكلمون في الحلال والحرام ويصدرون الفتاوى والتأويلات للمسلمين! وفي جانب علاقتهم مع غير المسلمين حللوا الحرام وحرّموا الحلال، فقالوا: هذه أنعام وحرث حجر وأنعام محرّمة الظهور وأنعام لا يذكر عليها اسم الله، فجعلوها أجناساً بهواهم ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله على جهة الافتراء اتّباعاً لافتراء الشيطان، والعطف بالواو يشير إلى أن ما قالوه هو من تلقين شركائهم الشياطين! وقالوا في أجنة البحائر والسواحب: ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث! والتحريم والتحليل تشريع، والتشريع من خصائص الربوبية **(وهم برهم يعدلون)** أي يجعلون له عدلاً ومثيلاً وشبيهاً ونظيراً في الربوبية إذ جعلوا من يعبدونهم دون الله عدلاً لله وأثبتوا المعادلة بينهم وبين الله تعالى وليس لله تعالى عديل ولا شريك ولا صاحبة ولا ولد تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وقد حُكي نظير ذلك في مطلع السورة **(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا برهم يعدلون)** أي يعدلون به رباً غيره لم يخلق شيئاً! والآية نزلت في أهل الكتاب، والحجة ناهضة عليهم لأنهم يعترفون بأن الله خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم يكفرون بربوبيته ويعدلون به أرباباً في العبادة والحكم!

والقرآن يواجههم بهذه الجاهلية المعتدية على سلطان الله! فالربوبية هي القضية الكبرى والتطبيق الواقعي لشهادة أن لا إله إلا الله... وإن الاعتراف بالشعائر التعبدية يستتبعه حتماً أن يكون الله هو المالك المطلق والملك الأعظم وأن يكون هو الذي يحكم في أمر الناس كله، والآيات تواجههم بالتشنيع بين ما يقررونه من المسائل الفرعية وما يزاولونه من ربوبية، وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك الأكبر الصريح كما يدمغ من يتبع أهواءهم غياً مع العلم بالحق، فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان... وبعد هذا المشهد يلقي الله إليهم بالمقررات الإلهية التي تتضمن ما حرمه عليهم، وأولها الشرك بالله وهو الأصل الذي تتفرع عنه جميع الكبائر والحرمات، وهذه الوصايا العشر كُتبت في التوراة وقررها القرآن الكريم. أخرج الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد تضمن قوله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ نفي الإشراف في الحكم والعبادة كما في قوله ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وفي الحديث المتفق عليه: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار» ولا يخفى ما في التعرض لعنوان الربوبية ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ عقب قوله ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون بربهم أرباباً في العبادة والحكم.

وخاتمة الوصايا العشر ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَبِيلِهِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ رَبِّي لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ نَكَلُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أخرج الدارمي عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبيل، على كل سبيل منها

شيطان يدعو إليه» ثم تلا ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
 فتفرق بكم عن سبيله﴾ وفي رواية لأحمد عن النواس بن سمعان الأنصاري عن
 رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط
 سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط
 داعٍ يقول: أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجّوا، وداعٍ يدعو من فوق
 الصراط فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن
 تفتحه تُلجّه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب
 المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله عز وجل،
 والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم» ثم أورد الكلام من جهته
 تعالى تقريراً بأن حق الحمد ليس إلا لله وإبطالاً للشركاء وتنزيهاً لله عن الولد
 والصاحبة وموعظة للمعرضين عن آيات القرآن والمكذّبين بها وتهديدهم بأن يحل
 بهم ما حل بالقرون المكذّبين من قبلهم وأنهم ما يضرّون بالإنكار إلا أنفسهم
 ووعدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ثم عند البعث وتسفيهم فيما اقترحوه
 على النبي ﷺ من طلب إظهار الخوارق تهماً وإبطال اعتقادهم أن الله لقنهم
 على عقيدة الإشراف قصداً منهم لإفحام الرسول ﷺ وبيان حقيقة مشيئة الله
 وإثبات صدق القرآن بأنهم يعرفون أنه الحق والإنحاء عليهم تكذيبهم بالبعث
 وتحقيق أنه واقع وأنهم يشهدون بعده العذاب وتبرأ منهم آلهتهم التي عبدوها
 وسندمون على ذلك كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا فإنهم لا يدعون
 إلا الله عند النوائب وإبطال ما شرعوه من شرائع الضلال ﴿ثم آتينا موسى
 الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء﴾ وثم هنا عاطفة على ما
 تقدم من أول السورة فإن المقصود من ذكر إيتاء موسى ﷺ الكتاب ليس لذاته

بل هو التمهيد لقوله ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ ليرتب عليه قوله ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي فاتقوا أن تقولوا يا أهل الكتاب إنما أنزلت التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى من قبلنا وإن كنا غافلين عن اتباع رشدكم! والخطاب لبني إسرائيل الحاضرين الذين جاءهم التوراة والإنجيل كما روى البيهقي عن عطاء قال: «إنما أهل الكتاب بنو إسرائيل والذين جاءهم التوراة والإنجيل فأما من دخل فيهم من الناس فليسوا منهم» فمعنى الكلام: وفوق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك جمع فيه ما أوتيته موسى عليه السلام وهو أعظم ما أوتيته الأنبياء من قبله وما في القرآن: الذي هو مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه إن اتبعتموه واتيتم رحمتكم ولا معذرة لكم، وكانت توراة موسى عشرة ألواح مكتوبة نقشاً في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى، ليتوصل القوم من خلالها إلى كل علم الكتاب، ولهذا سُميت بالألواح إيماء إلى الكتاب! والتوراة تعدل عشرة أجزاء من القرآن كما أشار الحديث المتقدم: «أعطيت مكان التوراة السبع» يجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لعدم البسملة «وأعطيت مكان الإنجيل المثاني» والكلام في الآية ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ تصديق لما بين يدي هذا الكتاب من الكتب وشاهد بما فيها وحاكم عليها ومقرر ومبين لما تقدم من قوله ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون

بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) أخرج الإمام الدارمي عن كعب قال: عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم وأحدث الكتب بالرحمن عهداً. وقال في التوراة: «يا محمد إني منزل عليك توراة حديثة تفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً» وقد قطع الله معاذير اليهود والنصارى وأزال الحجة عنهم وأزاح تعلقهم (أن يقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أي أنزلناه كراهة أن يقولوا إنما أنزل الكتاب على آبائنا اليهود والنصارى والمراد بهذا إثبات الدلائل عليهم كي لا يدّعوا أنهم غافلون عن الدراسة والنظر في التوراة والإنجيل (أو يقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أي يقولوا متحسرين لو أن القرآن أنزل على رسول منا لكنا أرشد وأسرع اهتداء من الأميين فإنهم حسدوا الرسول الأعظم ﷺ لأنه كان من أم القرى ولأنه لم يكن من نسلهم (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) فإن مجيء الرسول الجليل والقرآن المشتمل على التوراة والإنجيل موجب للهداية والرحمة، وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تأكيد لبيان ما حرفوه، ولما قامت عليهم الحجة حسن وقوع تحذير التقرير بقوله (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) أي بعد مجيء البينة والهدى والنور لا يكون أحد أشد ظلماً من المكذب بالآيات الواضحة التي لا شبهة فيها، والمُضل عنها الناس بعد ما لاحت له صحتها وصدقها. وقد خُتمت السورة بتقرير الربوبية لله وحده كما بُدئت ليتشاكل المبدأ والمقطع (قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وكان إبراهيم عليه السلام مستقيماً على صراط التوحيد مستوياً عليه، ولما كان كأن سائلاً

قال: وما هذه الملة التي تكرر مدحها والدعاء إليها؟ أجاب بقوله **(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له)** وفي ذلك إنباء بتبرئة كيان إبراهيم عليه السلام من أمر الشرك وإفهام أنه من أمر محمد عليه أكمل الصلوات والتسليمات في الكمال الخاتم كما أن محمداً منه في الابتداء الفاتح، وفي أمالي أبي سهل بن القطان عن سهل بن صالح الهمداني قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي كيف صار محمد صلى الله عليه وآله يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ كان محمد صلى الله عليه وآله أول من قال: بلى، ولذلك صار محمد صلى الله عليه وآله يتقدم الأنبياء وهو آخر من بُعث. اهـ. وهو ما دل عليه قوله **(وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)** فهذه أولية رتبة الكمال التي هي خاصة بإمام الأنبياء ومن سواه فهو منه فيها، لأن نفي الشيء يفهم البراءة واللاحاق بالمتأصل في مقابله... ثم هكذا تكون صلاة المسلم ونسكه وجميع أعماله حتى زمن إشرافه على الموت خالصة لسيده ومالكه عز وجل كما هي واقعة بحُكمه تعالى وهذا حال عبدٍ مفقود لنفسه موجودٍ لربه. وجملة **(لا شريك له)** حال من اسم الجلالة مصرحة بما أفاده جمع التوكيد مع لام الملك من إفادة القصر. ثم تأتي الكلمات الذي لا يعبر عن بهائها وجلالها وعظمتها وروعيتها إلا القرآن المجيد وهو يقرر الحكم المطلق متناسقاً مع الإيقاعات الأولى في مطلع السورة في دلائل شاهدة بأن الله وحده المالك التام الملك والمَلِك المنفرد بالملك وهو المهيمن القوام المتصرف رب العالمين **(قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء)** وكيف أبتغي حكماً وسلطاناً وربّاً، وربوبية الله شاملة لكل شيء في هذا الكون الفسيح؟ والربوبية هي مقام العارفين وهي اسم للمرتبة المقتضية للأسماء التي تتضمن الحكم والمُلْك، ألا ترى

أن الأرواح أول ما شنت آذاها وعطرت أردانها بسماع وصف الربوبية كما يشعر بذلك قوله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فهم ينادونه سبحانه بأول اسم قرّره به فأقروا وأخذ به عليهم العهد فاستقروا. ثم بيّن تعالى بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمول عليها لا على غيرها ﴿وَلَا تَكْسِبُ نَفْسٌ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وهذا لا ينافيه إثبات حمل المؤاخذة على الإضلال حيث أثبت تعالى للمستخلفين المضلين حملهم أوزار أنفسهم وأوزار الذين أضلّوهم بشبهات وأباطيل حسبما يفيد قوله جل شأنه ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ولما قام عليهم هذا البرهان القطعي، أردف ذلك ببيان أنه يقضي بينهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم ذلّل السورة بتذكير المستخلفين في الأرض بنعمة الاستخلاف فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والآية معطوفة على ما قبلها من أخبار ضلالهم في شأن الربوبية.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

جاءت الهداية متعددة إلى مفعولين ولعل تضمنين (هداه) معنى (سلّكه ونظمه مسالكه) يصور مفهوم الهداية هنا على أشرف أحوالها وأنوه صفاتها... إنها التسليك في طريق الحقيقة واتباع صاحب الشريعة وبه فُسّر الصراط المستقيم ويؤيده قوله عز وجل ﴿وَاتَّبِعُوا هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال أبو العالية والحسن البصري: الصراط المستقيم هو رسول الله وخيار أهل بيته وأصحابه. فليست الهداية رجاء أو التماساً أو تعريفاً بل تسليكاً - وللعارفين في هذا الباب ملاحظ

ومباحث لا ترقى إليها إلا الخاصة - وأي فائدة من معرفة صراط الذين أنعمت عليهم إن لم يكن لنا من الله تسليك؟ فأنزلت الهداية على حكم التسليك والتسيير على الصراط السوي في مسلك المهتدين، وهذا أكشف عن وجه المعنى، فالمتعدي بحرف اللام أو (إلى) يطلب الوصول إليها ولكنه قد يشرّد أو يزيغ، أما المتعدي بنفسه وإلى مفعولين فيطلب من الله التسليك عليها وهو ثمرة الهداية وخلاصتها ولّبها وهو ضمان السعادة في الدارين

ما أتعس المرء لولا الله سلّكه ... صراطه مستقيماً غير ذي عوج

ومن الذي يخفى عليه موضع المزية وصورة الفرقان بين قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط﴾ وبين قولنا: اهدنا إلى الصراط؟ يفقد الرجاء نوره وينقطع حبله وتكاد تفقد نشوتك حين تنشّد التعرف على الصراط سعياً في الوصول إليه حين تجعل الصراط منصوباً على نزع الخافض "لو ذاق نشوتها لم يدر ما صنعنا" نحن الآن مع التضمين حيال الصراط لا نبرح ولا نريم وكل ما نرجوه أن يتم التسليك عليه منحة منه سبحانه لنبقى على اتصال بمصدره المشعّ ونوره وفيض عطائه. حرارة هذا الرجاء هي بلوغ الهداية وثمرّة العبادة فالهداية في الآية تتجلى في صورة آنق وأبهر حين تكشف عن معنى يُكسبها نبلاً ويظهر فيها مزية. قال صاحب كتاب "التضمين في الكتاب المبين" نفعا الله بعلومه وأعاد علينا من بركاته: وما وقفتُ في كتاب الله على أشفق ولا أجمع ولا أفضل من رجاء في التماس هذا الطلب ﴿اهدنا الصراط﴾ مناجاة... لتوثيق حبل الوصال، تبعث الأمل تمنح الطمأنينة تسكب برد اليقين على قلب موجوع وخاطر قلق، ومتى غاض معين فضله؟! حتى ينقطع حبل وداده. إنه المدد... وإنه والله الزاد لا يزيغ عنه إلا

هالك... يارب يا هادي الحيران خذ بيدي، سلكني صراطك، لا تدعني لنفسي،
فأضل وأشقى. نعم... لا يزيغ وقد سلكه الطريق... وكيف... وقد جهزه
بالدليل...؟! وهل يضل ومعه الزاد ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾

من فيض جودك أن فهّمتنا العملا ... كيما نوثق حبل الود ما اتصلا

برد اليقين كفى لتائه قلق ... فيطمئن لجود يبعث الأمل

ما غاض في لحظةٍ معينه كرمًا ... به يُنيل الذي يرجوه ما سأل

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ الله المتفضل على عباده وهل تصدر النعم إلا عن
صاحب فضل؟ ولا فضل أعظم من الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا نعمة أسمى
من نعمة هذا الدين الحنيف، فمن شملتهم لم تبق نعمة بعدها إلا أصابتهم
وكانت مَعْلَاة لهم شاهدة بفضلهم. سلّكنا الطريق الموصلة إليك مع الاستقامة
عليها، فهذه الهداية هي ضمان السعادة وصراط المهتدين الواصلين. و"على" في
جوارها بالإنعام ومؤانستها له، يُتعدّى بها ولا يُستغنى عنها لتبدو منها محاسنه
وتحصر عن وجه نعمته ملامحه، تملأ الطرف وتُغني عن الوصف. الفعل "أنعم"
يتعدى ب"على" كما جاء في قوله سبحانه ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾
وفي قول النبي ﷺ: «أحب أهلي إليّ من قد أنعم الله عليه وأنعمت عليه: أسامة
بن زيد» رواه الإمام الترمذي.

الفصل الخامس: سورة التوبة

وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة

الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون

قال الإمام القشيري في تفسيره: إذا جنحوا إلى الغدر ونكثوا ما قدّموه من ضمان الوفاء بالعهد وبسطوا ألسنتهم فيكم باللوم فاقصدوا من رحى الفتنة عليه تدور وغصن الشر من أصله يتشعب وهم سادة الكفار وقادتهم. وقوله "وطعنوا في دينكم" يحتمل وجهين كما قال الماوردي: أحدهما: إظهار الذم له، والثاني: إظهار الفساد فيه. وقال الإمام الرازي: عابوا دينكم وقدحوا فيه. وقال العلامة الألوسي: قدحوا فيه بأن أعابوه وقبحوا أحكامه علانية. والأمر في الآية للوجوب أي يجب قتال رؤوس الكفر ذباً عن حرمة الدين وقمعاً لشرهم وقد أشار إليهم المفسر الأعظم رحمه الله بقوله: «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» يعني المشرق. ونكتة وضع هذا الاسم (أئمة الكفر) موضع الضمير حين لم يقل "فقاتلوهم" لزيادة التشنيع عليهم ببلوغهم هذه المنزلة. وتخصيص الأمر بمقاتلة الأئمة لما أن الأتباع أبداً يقلدون الأئمة ويصدرون عن آرائهم وتديبرهم فإذا قوتلوا ضعف كيدهم وانكشف أمرهم وبطل سحرهم، قال الإمام الماتريدي: خص الأئمة بالقتال لأنهم إذا قتلوهم لم يبق لهم إمام في الكفر فيذهب الكفر رأساً وهو كقوله "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" الآية. ومعنى طعنوا في دينكم أي دخلوا فيه مخادعين لقصد الطعن والقبح فيه فثلبوه وعابوه، فلا عهد ولا أمان لهم، وقرأ الشامي بكسر الهمزة (لا إيمان لهم) أي لا دين لهم ولا إسلام ولا يُعطون الأمان بعد النكث والردة ولا سبيل إليه. وقال

الإمام الطبري: أي لا تؤمنوهم ولكن اقتلوهم حيث وجدتموهم. وروى الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له..**» وأخرج الحاكم وابن أبي شيبة والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم عن حذيفة رضي الله عنه أنه قرأ **(فقاتلوا أئمة الكفر)** فقال: «ما قتل أهل هذه الآية ولم يأت تأويلها بعد» ولعله يشير إلى قتالهم في هذه المرحلة الزمنية. والكلام في الآية متصل بمطلع السورة **(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين)** وكان المشركون قد أوثقهم رسول الله ﷺ عهداً عاماً على ألا يصدوا عن المسجد الحرام فنبذ العهد بهذه الآية، والآيات وإن نزلت في المشركين القدامى إلا أنها تشمل المشركين الجدد لأن سبب النزول لا يُخصص، ويبدو أن الأشهر الأربعة هي المدة بين الفتح والصلح الذي يكون بالشام وبين فتح المسجد الحرام - والله ورسوله أعلم - وقد أعلم سبحانه أنه بريء من المشركين بقوله **(أن الله بريء من المشركين)** إلى قوله **(وبشر الذين كفروا بعذاب أليم)** لإبطائهم الغدر، ثم انتقل الكلام إلى أتباعهم وأعوانهم والذين أمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم ما استقاموا على العهد بقوله **(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم)** والاستثناء هنا منقطع أي لكن الذين عاهدتم...وهؤلاء والله أعلم هم الذين أرادهم الله بقوله **(إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)** أي لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم المعنيون بالآية الكريمة **(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)** وهذا يقتضي أن يسمعهم كلام الله تعالى مصوناً من كل دخيل ومشغبة وسالماً من كل شائعة وملاعبة لتندفع به الغواية وتحصل به الهداية وقد تقدمت الإشارة

إليهم في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يِقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ وحالهم مضاد لحال بني إسرائيل الذين تعيّن قتالهم حيث وجدوا حتى يتوبوا والمراد من توبتهم في الآيتين ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ قتل بعضهم بعضاً كما تقدم... وقد بين تعالى أن صفة الاعتداء أصيلة فيهم، تبدأ من نقطة كرههم للإيمان وصدودهم عن الإسلام وتربصهم بالمؤمنين وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة إذا هم ظهروا عليهم وأمنوا بأسهم وقوتهم، وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً وُصِفَ به أهل الكتاب، ثم ذكر تعالى أن خيانتهم ليست خاصة بالمجاهدين بل عامة لكل من اتصف بصفة الإيمان ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ وأخبر تعالى أنهم إن ظفروا بالمؤمنين نكّلوا بهم فقال ﴿إِنْ يَتَقَفُواكُم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وقد وقع فعل ﴿وَدُوا﴾ ماضياً ولم يقع مضارعاً مثل الأفعال الثلاثة قبله لأن محبتهم أن يكفر المؤمنون محبة غير مقيدة بالشرط! ولا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المؤمنين حتى يوقعوا بهم ما يملكون من أذى وتنكيل بالأيدي والألسنة وكل وسيلة وكل سبيل، وسجّوهم لا تزال شاهدة... وحين ظهروا على إخواننا تجاوزا كل حدّ في التنكيل بهم، وأفعلهم في العراق والشام واليمن وأرض الكنانة بينة قائمة! وهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاص بذواتهم... إنهم يضمرون الحقد لكل مؤمن، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم! إنهم يوجّهون حقدهم وانتقامهم للإيمان ذاته كما هو

المعهود منهم على مدار القرون **(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله)** فالإيمان هو سبب النعمة، ولفظ **(تنقمون)** يتعدى بنفسه فعلاً العليم الخبير بـ "من" لتضمينه معنى "تصيبون" ليجمع مع المشاعر النفسية المصائب الحسية، فإن ما يُنزلون بالمؤمنين من المصائب لم ينقطع على مدار التاريخ... حرب لم تضع أوزارها تتمثل في قتل الأبرياء وتدمير المساجد والمنازل! ومقصود سورة التوبة معادة أهل الكتاب الذين أعرضوا عما دعت إليه سورة الأنفال من اتباع الداعي إلى الله في توحيده واتباع ما يرضيه وموالاته من أقبل عليه، وكذا الإعرض عنهم بكل اعتبار حتى بالكلام وتسميتها براءة واضح أيضاً فيما ذكر من مقصودها، وكذا الفاضحة لأن من افتضح كان أهلاً للبراءة منه، والحفارة والمخزية والمهلكة والمشردة والمشددة والمنكلة وعن حذيفة: أنه سماها "سورة العذاب" لأنها نزلت بعذاب الكفار أي عذاب القتل والأخذ حين يثقفون، وعن عبيد بن عمير أنه سماها "المنقرة" لأنها نقرت عما في قلوب المشركين، يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتماهي على نقض العهد، وعن المقداد بن الأسود وأبي أيوب الأنصاري: تسميتها "البَحوث" بمعنى الباحثة، وعن الحسن البصري أنه دعاها "الحافرة" كأما حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق فأظهرته للمسلمين، وعن قتادة: أنها تسمى "المثيرة" لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها، وعن ابن عباس أنه سماها "المبعثرة" لأنها بعثت عن أسرار المنافقين أي أخرجتها من مكائدها، وكذا المقشقة لأنها جمعت أصناف المنافقين وأحوالهم، وعن سفيان أنها تسمى "المدمدة" من دمدم إذا أهلك لأنها كانت سبب هلاك المنافقين، ووجه تسميتها بالتوبة أنها وردت فيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، والسورة تتشابه مع التي قبلها في

الحث على تطهير المسجد الحرام وأنه لا يصلح لولايته إلا المتقون وأن المشركين نجس لا صلاحية فيهم لقربانه وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم حتى يعطوا الجزية، وأن قلة المسلمين لا تضرهم إذا لزموا دعائم النصر، وكثرهم لا تغنيهم إذا حصل في ثباتهم لبس، وفي السورة الحث على الجهاد في غير موضع وتحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير ونصر رسول الله ﷺ وأن الله ناصره وناصر الذين ينصرونه، وفيها صفات المنافقين من جبن وبخل وحرص على أخذ الصدقات مع أنهم ليسوا بمستحقيها وذكر أذاهم الرسول ﷺ بالقول وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين والأمر بضرب الجزية عليهم ومذمة ما أدخله أحبارهم ورهبانهم من العقائد الباطلة ومن التكالب على الأموال ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم والاستغفار لهم والصلاة على موتاهم إكمالاً للبراءة منهم، وضرب المثل بالأمم الماضية، وذكر اتخاذهم مسجد الضرار عن سوء نية، وفضل مسجد النبوي وانتقل إلى وصفهم بالأعراب وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادها صفات من آمن منهم وذكر ما أعد لهم من الخير وذكر في خلال ذلك فضل المهاجرين والأنصار والتحريض على تحرير المدينة من رجس المنافقين والصدقة والتوبة والعمل الصالح وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين، قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف بتوجيهه حتى أن شدة المشاهدة والالتزام أوجب أن لا يفصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال...فالتحمت السورتان أعظم التحام ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أستارهم. اهـ. وأما تطابق آخر الأنفال مع أولها فقد ظهر مما مضى وأيضاً فلما ذكر في آخر

التي قبلها أمر العهد تارة بنبذه إلى من خيفت خيانتته من أهل الكتاب في قوله **(فانبذ إليهم على سواء)** وتارة بالتمسك به وذلك إلى أهل القبلة في قوله **(إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)** فبين تعالى من يصلح للموالة ومن لا يصلح وختمت بالإخبار بشمول علمه وابتدئت سورة التوبة بالأمر بالنبذ إلى أناس بأعيانهم نقضوا أو خيف منهم ذلك وهم اليهود والنصارى، وقد ذلت السورة بوصفه ﷺ بأوصاف حميدة والثناء عليه بمحامد كثيرة من حرصه على رشدهم وإسلامهم **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم)** يقال في اللغة: عز عليه الأمر أي صعب عليه وشق، والعنت: الإثم، والمعنى أنه ﷺ يصعب عليه عنتم أي إثمكم بالشرك والمعاصي حريص عليكم أن تهتدوا وقد ضرب لنا مثلاً لشدة حرصه ﷺ على هدايتهم فقال: **«إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»** وبعد أن خاطبهم الله سبحانه وتعالى وذكر حرص رسوله عليه الصلاة والسلام على هدايتهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم فقال **(بالمؤمنين رؤوف رحيم)** والرافة: دفع ما فيه عذاب أو إيلام أو شدة أو مشقة، وأما الرحمة: فهي إيصال الخير والنفع والبر، وكثيراً ما يقدم ذكر الرافة على ذكر الرحمة من باب التخلية ثم التحلية، وهذه الآية الكريمة ثبتت بشهادة خزيمة وحده والسبب في ذلك أنه شهد بالوحي وهي أتم من الشهادة بالمعينة فإنه لم يكن حاضراً في قصة بيع الفرس وإنما قال: أشهد بتصديقك يا رسول الله،

فجعل شهادته بشهادة رجلين. قال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته فعرّفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته فأقام سبحانه بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة فقال **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم)** وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً وجعل طاعته طاعته وموافقته موافقته وألبسه من نعته الرأفة والرحمة ثم أفرد له نفسه خاصة وآواه إليه بشهوده عليه في جميع أنفاسه وسلى قلبه عن إعراضهم عن متابعتة بقوله جل شأنه **(فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)** ولما تضمنت السورة قوله تعالى **(إلا تنصروه فقد نصره الله)** إلى ما تحلل أثناء آياتها مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب وهو ما انطوت الأنفال من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء كلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه وكان ذلك كله مظنة لتعجيب المرتاب وتوقف الشاك ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عليه الصلاة والسلام، افتتح السورة التي تليها بقوله **(الر تلك آيات الكتاب الحكيم، أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين)** وقد جاؤوا بما هو في غاية البعد عن وصفه فإن السحر قد تقرر لكل ذي لب أنه شر محض ليس فيه شيء من الحكمة ثم شرع سبحانه يقيم الدليل على بطلان قولهم ويبين ما جاء به رسوله من التوحيد **(إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه**

أفلا تذكرون أي ذلکم الله المنفرد بالربوبية بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الصنع والاختراع والاستواء على العرش والتدبير بحكمه هو الحقيق بالعبادة.

ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة **أتخشونهم** فالله أحق أن تخشوه **إن كنتم مؤمنين** هم اليهود الذين نقضوا العهد وخرجوا مع الأحزاب وهموا بإخراج الرسول ﷺ من المدينة كما قال الجبائي. وأما كفار قريش فقد استقر رأيهم في دار الندوة على القتل لا الإخراج، وذلك بعد أن اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل من أهل نجد عليه بتلة... وفي الآية دلالة إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ لأنه معلوم أن اليهود أسروا في أنفسهم وفيما بينهم إخراجهم وقتله كما ذكر الإمام الماتريدي. ولفظ **ألا** للتحضيض على القتال على طريقة المبالغة في التحذير من التهاون بقتالهم مع بيان استحقاتهم إياه، وهذا يفيد إثارة غيظ الأمة المسلمة على بني إسرائيل، وهذا أصل عظيم في تربية الأمة ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات أعدائهم ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر... وفي الآية من المبالغة في الحض على قتالهم ما لا يترك عذراً للمؤمن. والاستفهام في قوله **أتخشونهم** لزيادة التحريض على قتالهم، وفيه إنكار على سبب التردد في قتالهم. وقد اقتضت سورة التوبة بياناً مطولاً مفصلاً متعدد الأساليب والإيجاءات لمعالجة هذه الشبهات في قلوب بعض المسلمين الذين لم يعرفوا أئمة الكفر، واقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين... ثم كرّر المولى سبحانه الأمر بقتالهم وبشّر بمعية الله ونصره للمجاهدين وهزيمة الباطل وتشريد المبطلين، وليس هذا فحسب بل **ويكشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم** فجراح المؤمنين في كل بقعة من بقاع المسلمين لم تضمّد. ولما أمر تعالى بقتال أئمة الكفر بنى

عليه قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ والمقصود من الآية صنفان: الأول: القاعدون من المؤمنين، والثاني: المنافقون الذين اتصلوا بأئمة الكفر وتوددوا إليهم وأطلعوهم على الأسرار الخفية والله أعلم، والوليعة: الرجل يدخل في القوم وليس منهم! ومعلوم أن الجهاد أنواع: جهاد بالسيف والسنان وجهاد بما جاء به القرآن من الحجّة والبرهان وجهاد بالجنان وذلك أعلى الإيمان كما قال صاحب البيان في صحيح ابن حبان: «المجاهد من جاهد نفسه في الله تعالى» ثم بيّن تعالى أن الوليعة التي يتخذها بعضهم لا تصلح للعاطفة بما اتصفت به من محاسن الأعمال ما لم توضع تلك المحاسن على الأساس الذي هو الإيمان المبين بدلائله، فقال سائقاً له مساق جواب قائل يقول: إن فيهم من أفعال الخير ما يدعو إلى الكف عنهم من عمارة المسجد الحرام وخدمته وأفعال الخير ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فأنكر تعالى أن يكون لهم الحق في عمارة بيوت الله فهو حق خالص للمسلمين، وما كانت رعاية كفار قريش للبيت في الجاهلية لتغير من هذه القاعدة فبيوت الله خالصة لله وكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلبه وهو يدعو مع الله شركاء، ويشهد على نفسه بالكفر شهادة الواقع الذي لا يملك إنكاره ولا يسعه إلا إقراره! والمراد بالمساجد - والله أعلم - المسجد الحرام وما يتبعه من الشعائر وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها المتوجهة إليه محاريبها فأمره كأمرها ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي ليس لهم ذلك وإن كانوا قد عمروه تغلباً وظلماً فعمارهم تخريب لتنافي أفعالهم، وعمر المساجد: العبادة فيها لأنها إنما وضعت

للعادة فعمرها بمن يحل فيها من المتعبدين والمعنى: ما يحق للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله، وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين إيماء إلى أن الشرك موجب لحرماتهم من دخول مساجد الله أي ليسوا بأهل لأن يعمرُوا مساجد الله بما تعمر به من العبادات، قال الإمام الماتريدي في تفسيره: هذه الآيات كلها في المنافقين الذين أظهروا الإيمان باللسان وأروا المؤمنين الذين حققوا الإيمان وأخلصوا الإسلام الموافقة لهم فقال "أم حسبتم أن تتركوا" على ما أظهرتم من الإيمان باللسان فلا تبتلون بالقتال جعل الله تعالى القتال مع الكفرة والله أعلم وأمر به لمعنيين: أحدهما: تطهيراً للأرض من الكفر كقوله تعالى "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" والثاني: امتحاناً للمنافقين لبيان نفاق من أظهر الإيمان باللسان مراعاة وصدق من أظهره حقيقة ليعرف الحق المخلص من المنافق المرائي لأن القتال هو أرفع أعلام يظهر بها نفاق المنافق لأنهم إنما كانوا يظهرُونَ الموافقة لهم طمعاً في الدنيا لتسلم لهم المنافع التي كانوا ينتفعون بها وفي الأمر بالقتال خوف الهلاك فإذا خافوا الهلاك على أنفسهم امتنعوا عنه كقوله "قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا" خوفاً وإشفافاً على أنفسهم لما ذكرنا أنهم إنما كانوا يظهرُونَ الإيمان باللسان ليسلم لهم ما طمعوا من المنافع كقوله "ومن الناس من يعبد الله على حرف" الآية، هذا وصف المنافق وأما المؤمن الحق للإيمان المخلص للإسلام فإنه يسلم نفسه لله في جميع أحواله وإن كان فيه تلف نفسه لما لم تكن عبادته لله على حرف ووجهه كالمنافق ولكن على الوجوه كلها والأحوال جميعاً عبادته تكون لله لا يمنعه خوف الهلاك عن القتال بل نفسه تخضع لذلك وترضى ولا كذلك المنافق. اهـ. ولما نفى تعالى عن المشركين أهلية العمارة، بيّن من يصلح لها

فقال ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وفي هذا تعريض بأهل الكتاب فإنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن كان كذلك كان بيناً بعده من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية من الله. ولما بين سبحانه الصالح لعمارة بيته من غيره، أنكر على من لم يفرق بين الصنفين فقال ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والمقصود من الآيات - والله أعلم - التحريض على قتال المشركين ومنعهم من دخول المسجد الحرام وإقامة شعائره بطواف أو غيره لأنهم نجس وترغب المسلمين في ثواب الجهاد وهو توطئة لقوله ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهذه الآيات نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة العربية في زمن البعثة، وهي في الوقت ذاته تقرر أحكام التعامل مع أهل الكتاب، والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بفهم واقع اليوم الذي يشابه الأمس... فلم يكن بد أن يجاهد المسلمون الحفاة العراة وأن تنبذ عهودهم كافة وأن يقف المسلمون إزاءهم صفاً واحداً... لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا وإزالة الأستار التي يقف خلفها أئمة الكفر، والأعداء التي يحتج بها من يتعاملون معهم ومن يوادونهم لآصرة من قرى أو مصلحة... ولم يكن بد من إعلان المباينة بين الفئة المسلمة وبين الفئة اللعينة التي تجيد المداورة وتنفذ من الأسوار وتمسك العصا من الوسط وتدور من خلف أمة الإسلام وتتصل بخصومها مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات بين المعسكرات فإذا وضحت المفارقة وتحققت المباينة قطعت الطريق على المداورين المتلوتين وكشفت مداخلهم ومسارهم... ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام ﴿إِنِّي

تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكذلك أيها المسلم الأريب الباحث عن التوحيد اتعظ بمواعظ الكتاب الإلهي وتذكيراته وحكمه وأسراره ورموزه وإشاراتِه وقل بعد ما تحققتَ وتيقنتَ: إني بعد ما انكشف الغطاء عن بصري وارتفعت الحجب عن بصيرتي قد تركت بتوفيق الله ملة قوم ذوي حجب لا يؤمنون بالله وبتوحيده وهم بالآخرة والنشأة المعدة لجزائهم جاحدون.

عفا الله عنك لم أذنت لهم

اعلم أنه تعالى بالغ في تحريض المؤمنين على قتال أئمة الكفر وأنكر تنافلهم وميلهم إلى شهوات الدنيا وعاتبهم على تباطئهم عن الجهاد ونصرة خير العباد (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا) وأسند الإخراج إليهم لأنهم تسبوا فيه بأن دوروا الآراء في أمره ودبروا لخروجه كما جاء في سورة بني إسرائيل (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) خلافاً لقريش فإنهم كانوا مصممين على منعه من الخروج كما هو معلوم، والآيات في سورة التوبة نزلت في غزوة تبوك وكان أهل الكتاب قد كتبوا إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي قد خرج يدعي النبوة هلك وأصاب أصحابه سنون أهلك أموالهم. فأعلم الله رسوله بأحوال المنافقين وشرح فضائعهم وأظهر قبائحهم فقال (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) ثم أقبل إليه بلذيد الخطاب على الاسترسال في اللين والائتلاف وأخذ العفو وترك الخلاف، فقال مؤذناً بأنهم ما تخلفوا إلا بإذنه لأعذار ادعوها كاذبين

فيها كما كذبوا في هذا الحلف مقدماً شدة الاعتناء بشأنه واللفظ به **(عفا الله عنك لم أذنت لهم)** وهذا من عتاب الأحابب للأحابب، ومبناه عند أولى الألباب: أنه قد بذلت في تحصيل رضانا ما أتعب نفسك الكريمة فافرق بنفسك فقد رضينا منك دون ذلك، وقد نقل البغوي في تفسيره: أن الله عز وجل وقر نبيه ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك! ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك! ألا زرتني. اهـ. فالعفو هنا معناه الإكرام والتعظيم والإعزاز، أي أعزك الله وأكرمك فيما كان من إحسانك في أن أذنت لهم! قال العلامة الألوسي النقشبندي عليه رضوان الله تعالى: وفي تصدير الخطاب بما صدر به تعظيم لقدر النبي ﷺ وتوقير له وتوفير لحرمة عليه الصلاة والسلام وكثيراً ما يصدر الخطاب بنحو ما ذكر لتعظيم المخاطب فيقال: عفا الله تعالى عنك ما صنعت في أمري؟ ورضي الله سبحانه عنك! ما جوابك عن كلامي؟ والغرض التعظيم، ومن ذلك قول علي بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه:

عفا الله عنك! ألا حرمة ... تجود بفضلك يا ابن العلاء

ألم تر عبداً عدا طوره ... ومولى عفا ورشيداً هدى

أقلني أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

ومما ينظم في هذا السلك ما روي من قوله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف **عليه السلام** وكرمه وصبره! والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني». اهـ. والمراد بقوله: "والله تعالى يغفر له" المدح والثناء وليس المراد المغفرة التي هي من روادف ذنب صدر

كما هو معلوم لأولي الألباب، وليس العفو المذكور عن ذنب صدر أو عتاب على أمر هو خلاف الأولى، وقد نزهه مولاه عز وجل عن الخطأ في الحكم والاجتهاد ومجانبة الأولى والصواب. وعليه فإن قوله **(لم أذنت لهم)** بيان لما صُدّر به من تعظيمه وإكرامه بقوله **(عفا الله عنك)** ووقع الجواب بقوله **(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)** وتعلقت "حتى" بالمقدّر من السؤال، وتقديره: لم أذنت لهم؟ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وهم الذين لم يستأذنوا أصلاً بل أعدوا للخروج عدته وامتلأوا الأمر بالخروج للجهاد، وتعلم الكاذبين الذين تعللوا بالأعذار الكاذبة وعزموا على القعود أذنت لهم أو لم تأذن لهم فعرفتهم وأذنت لهم إعراضاً عنهم وحفظاً على صف المسلمين أن يحصل فيه صدع. فالسؤال هنا لتعريف المسؤول وتبينه وهذا كما إذا أردت أن تثني على امرئ عظيم قد أحسن في أمر غاية الإحسان فتقول مثلاً: أيدك الله! لم فعلت كذا؟ ثم تبدأ تذكر وجوه الحكمة والحسن فيما فعل، فتقول: فعلت كذا حتى يحصل من الخير ودفع السوء كذا وكذا. وبهذا يتبين أن الاستفهام هنا جاء على معنى الإقرار ويؤيده الإقرار المذكور في الآيات بعدها، وليس على معنى الإنكار، وكيف ينكر على أمر وقع الثناء لأجله وجاء النص على بيان مكرمه والثناء عليه بما أتى من فعل الأولى والأتم الأكمل؟! والقول الصدق عند الراسخين في العلم: أن النبي ﷺ معصوم في اجتهاده ومصيب قطعاً وأنه لا يجوز عليه الخطأ أصلاً لا بدءاً ولا انتهاء وأن اجتهاده ﷺ نوع من أنواع الوحي، وما كان من أنواع الوحي فلا يتأتى فيه احتمال وقوع الخطأ بوجه من الوجوه لما في ذلك من مناقضة الوحي، وفعله ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه شيء هو مما فوض إليه الحكم فيه، وقد ذكر بعض العلماء خلاف ذلك وأجازوا الخطأ في اجتهاده ﷺ ولكن

لا يقر عليه، وحاشاه من ذلك، والحق أن هذا الخلاف من الأمور الاعتقادية الإيمانية التي تُختبر بها الأمة فتتفاوت بسببها درجات أولي العلم والفهم تقدماً أو تأخراً فيُرفع بها أقوام ويوضع آخرون. روى أبو داود عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو على المنبر: «يا أيها الناس: إن الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن الله كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف» وقال الإمام الشافعي رحمته الله: قال بعض أهل العلم: في هذه الآية **(يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)** - والله أعلم - دلالة على أن الله جعل لرسوله أن يقول من تلقاء نفسه بتوفيقه فيما لم ينزل فيه كتاباً، والله أعلم. اهـ. وما أحلى قول ابن المنير في قوله **(عفا الله عنك)** قال: دِعامَة في الكلام يَقصد المتكلم بها ملاطفة المخاطب وهو عادة العرب في التلطف بتقديم الدعاء لاستدعاء الإصغاء، أو خبر معناه: لا عهدة عليك لأنه تعالى غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فهو تخصيص وتمييز، لا أن الإذن ذنب متعلق به العفو لأن تحمله ومسامحته لهم مع أذاهم حملاً للمشقة على نفسه وإسقاطاً للحفظ، فهو عتب عليه بلفظ لا ملامة فيه، أي قد بلغت في الامتثال والاحتمال الغاية وزدت ما أجحف بك في محبة الله وطاعته والرفق بالبر والفاجر، وأين هذا من التخطئة التي نزع بها الزمخشري عرق العجمة لإساءة الأدب على المصطفى، وأراد بعضهم أن يصلح فأفسد فقال: بدأ بالعفو قبل الذنب، ولو عكس انقطع نياط قلبه. والعفو هنا تنبيه على أنه أمر أن يرفق بنفسه فكأنه قيل له: إن أبيت إلا الحلم والاحتمال فأنت غير مؤاخذ بل مثاب كمن يَرخص له في لذة وراحة فيعمل بالعزيمة فيقال له: ما كان هذا بلازم لك فإذا احتملته فلا عهدة عليك إيجاباً لحقه ورفعاً لقدره لالتزامه ما لا يلزمه، وذلك أنهم ادَّعوا الطاعة وزاحموا المطيعين في رتبته

فاستأذنوا ليكون قعودهم بإذن لا ينافي دعواهم، ولو لم يأذن لهم هتكوا حجاب
 الهيبة وخلعوا ربقة الطاعة وقامت الحجة عليهم فإنهم ليسوا في ورد ولا صدر
 فلما أذن لهم تمت مكيدتهم وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْذِينَ
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وليس في هذا مخالفة مصلحة مرضية فإن الله تعالى بين
 أنه بإذنه لهم طبق نحو الكراهة - يعني كره انبعاثهم - فإنه لا مصلحة في
 خروجهم بل فيه مفسدة شوهاء وعاقبة شنعاء لأنهم لو خرجوا كانوا مخذلين
 باعثين للفتنة يمشون بالنمائم ويثيرون غبار الضغائن مشتتين للشمل كالظربان
 فإنهم ذباب يقعون على الدبر والقذر فكانت المصلحة العظمى في قعودهم وإن
 كان فيه ستر لأمرهم واحتمال لمكرهم وغاية الغائلة التباس أمرهم وقيام حجتهم
 وهو ﷺ قد عرفهم وانكشف له عورتهم ولكن لم يفضحهم حلماً وكرماً
 واتساع صدر. قال شهاب الدين الخفاجي في تعليقه على ابن المنير: جزاه الله
 خيراً عما أهداه للعقول السليمة من أنفس التحف ودافع به عن حرمة النبوة
 العالي الرتبة لمن عرف، وأنت إذا تأملت ما بعده من النظم تراه مصرحاً بما
 أفاده، ألم تسمع قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُفْعَالًا﴾
 ﴿حَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ فأني رأي أرشد من الإذن في
 تخلفهم! وأي حلم أعظم من الستر عليهم! فكيف يكون في أول الكلام عتاب
 وآخره بيان بأن ما وقع عين الصواب؟! لو كان هذا في رسالة كاتب مزقها
 سلطانه، فما ظنك بمالك الملك تعالى شأنه. اهـ.

الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على
رسوله والله عليم حكيم

لما قدم تعالى في السورة ما ذكر من الأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب
ومذمة ما أدخله الأحرار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة ونعتهم بالكفر
والمنافقين وأمر بجهادهم ونهى المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار
لهم ونهى نبيه ﷺ عن الصلاة على موتاهم وحرص على المبادرة بالإجابة إلى
النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبي ﷺ وأن الله ناصر نبيه وناصر الذين
ينصرونه إذ أنجاه من كيد المشركين بما هيا له من الهجرة إلى المدينة وأشار إلى
التجهيز بغزوة تبوك وذم المنافقين المتأقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلف بلا
عذر وذكر صفاتهم من جبن وبخل وحرص على أخذ الصدقات مع أنهم ليسوا
بمستحقيها وذكر أذاهم الرسول ﷺ بالقول وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر
ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين التفت إلى
قوله **(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً)** يعني أن كفرهم أمكن في النفوس من كفر
أتباعهم، ونفاقهم أمكن من نفوسهم كذلك، أي أمكن في جانب الكفر
والنفاق منه والبعد عن الإقلاع عنه وظهور بوادر الشر منهم لتوارثهم أخلاق
أسلافهم، ثم إن قساوة قلوبهم وجلافة طبعهم تزيد نفوسهم السيئة وحشة
ونفوراً، والكلام متصل بقوله **(وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى
المسيح ابن الله)** وتفنن الحديث عن كشف دخائلهم وفضح أمرهم وهتك
أسرارهم وبيان عوارهم واستهزائهم وكذبهم في عهودهم وذكر مختلف أحوالهم!
وهذا الاستطراد في سورة التوبة يراد منه تنبيه المسلمين لأحوال الحفافة العراة

لأنهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنون بهم خيراً. وقد أشار النبي ﷺ إليهم في حديث جبريل كما جاء في صحيح ابن حبان: «إذا رأيت العالة الحفاة العراة يتطاولون في البناء وكانوا ملوكاً» قال: ما العالة الحفاة العراة؟ قال: «العريب» والمراد بهم الأعراب أهل البادية، ومن نزل البادية فهم أعراب كما أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَجَاءَكُمْ مِنْ الْبَدْوِ﴾ وإذا ثبت هذا فنقول - متمسكين بجبل الله المتين وفضله المبين وهو المعتصم في كل مطلب وليس وراء الله للمرء مذهب - المراد من الأعراب في القرآن ابتداء: جمع معيّنون من بني إسرائيل نشئوا بالبادية ثم استوطنوا المدن فانصرف هذا اللفظ إليهم كما سيأتي بيانه عند قوله ﴿وَمِنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ وحكى القشيري أن جمع العربي العرب وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب. وفي قوله ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ حذفٌ والتقدير: وأجدُر بأن لا يعلموا مراتب أدلة العدل والمعاد وحجج الله في الوحداية وعلو شأن رسوله ورفعة درجته ومكانته عند ربه على حد قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا وَلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ والمقصود من الوصف في قوله ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وعيده سبحانه إياهم على مخالفة الرسول الأعظم والنبي الأفخم بقرينة المقام والله أعلم. وفي هذا الوصف يظهر التفاوت بين طبقة أهل العلم والمعرفة والحكمة المفسرة من الأمة المسلمة على الطبقة المماثلة لها من بني إسرائيل والضد يظهر حسنه الضد، ولما أثبت سبحانه أنواع الخبث لهذا الصنف بيّن أن أفرادهم انقسموا إلى من ثبت على ما هو الأليق بحالهم، وقسم نزع إلى

الإيمان، وبدأ بالخبث لأنه الأصل فيهم فقال ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ روى الإمام الطبري عن ابن زيد قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء أن يُغزوا أو يحاربوا أو يقاتلوا ويرون نفقتهم مغرماً ألا تراه يقول "ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء" واختلفت القراء في قراءة ذلك فقراً عامة أهل المدينة والكوفة "عليهم دائرة السوء" بفتح السين بمعنى النعت للدائرة وإن كانت الدائرة مضافة إليه كقولهم: هو رجل السوء وامرؤ الصدق كأنه إذا فتح مصدر من قولهم: سؤته أسوءه سوءاً ومساءة ومسائية وقرأ ذلك بعض أهل الحجاز وبعض البصريين "عليهم دائرة السوء" بضم السين كأنه جعله اسماً كما يقال عليه دائرة البلاء والعذاب. ولما بين سبحانه أنه حصل في الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرماً، بين أيضاً أن فيهم قوماً مؤمنين فقال ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾ وقد وصف تعالى هذا الفريق بوصفين: الأول: كونه مؤمناً بالله واليوم الآخر، والثاني: كونه معظماً لرسول الله ﷺ بحيث يتخذ الإنفاق قربة عند صلوات الرسول أي يجعله تقرباً كائناً في مكان الدنو من صلوات الرسول تشبيهاً للتسبب في الشيء بالاقتراب منه أي يجعل الإنفاق سبباً لدعاء الرسول له ويجوز أن يكون "وصلوات الرسول" عطفاً على قربات عند الله أي يتخذ ما ينفق دعوات الرسول أخبر عن الإنفاق باتخاذ دعوات الرسول لأنه يتوسل بالإنفاق إلى دعوات الرسول، وجملة "ألا إنها قربة لهم" مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه وافتتحت الجملة بحرف الاستفتاح للاهتمام بها ليعظم السامع شأن رسول الله ﷺ، وجاءت

الجملة إسمية لتدل على الدوام وأُكدت بأن للتقوية والتعظيم، وتنكير قربة يفيد التعظيم والتفخيم، وجملة "سيدخلهم الله في رحمته" واقعة موقع البيان لجملة "إنها قربة لهم" أي أن صلوات الرسول قربة لهم وسبب وصولهم إليه سبحانه، وإن صلاة الحبيب الأكرم ﷺ على العبد ودعائه له هو محاب قطعاً وفيها مجامع خير الدنيا والآخرة ولها شأن عظيم فبكرامتها وبجاهه وبوجاهته تكشف الظلماء وينتشر الضياء وتنفرج الكروب وتفرح القلوب وتُغفر الذنوب ويُظفر بالمطلوب.

﴿وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ لما استوفى تعالى الكلام عن المنافقين وبين أنه عالم بالخفايا، قال مصرحاً بما لم يتقدم التصريح به من نفاق الذين استوطنوا المدينة وتظاهروا بالإسلام وكان منهم رفاعة بن زيد بن التابوت من بني قينقاع وكان كهفاً للمنافقين! روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب فزعم أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مَنَافِقٍ» فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. وفي مسند أحمد عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ في سفر، قال: فهبت ريح شديدة، فقال: «هَذِهِ لِمَوْتِ مَنَافِقٍ» قال: فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات منافق عظيم من عظماء المنافقين. قال ابن هشام: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الرياح. وروى الواقدي في المغازي عن جابر بن عبد الله قال: كانت الرياح يومئذ أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ثم سكنت آخر النهار، قال جابر: فسألت حين قدمت قبل أن أدخل

بيتي: من مات؟ فقالوا: زيد بن رفاعه بن التابوت، وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك من شدة الريح حتى دفن عدو الله فسكنت الريح. اهـ. وقد ذكر ابن إسحاق كثيرين ممن نافقوا من اليهود الذين أظهروا الإسلام وأخفوا عقيدتهم وأكنوا الأذى للمسلمين والكيد للنبي ﷺ. وبذلك يتضح أن النفاق كان ابتداءً مع أهل الكتاب وإن كانت صورته مع منافقي الأنصار ألا ترى أنه ﷺ لم يصل على أحد من منافقي بني إسرائيل في الوقت الذي صلى على ابن سلول في العام التاسع وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حال صلاته على ابن سلول: «دعني فإنه لم ينزل عليّ في الأمر شيء» ثم نفث عليه من ريقه وأسنده إلى ركبتيه وألبسه قميصه الذي يلي جلده قبل نزول آية النهي، وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاه ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد هلك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة، وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره. ولقائل أن يقول: لماذا لم يصل النبي ﷺ على رفاعه مع أنه لم يكن منهياً عن الصلاة عن المنافقين وقتها؟ وجوابه: أن امتناعه ﷺ عن الصلاة على رفاعه الإسرائيلي يشير إلى عظيم شر المنافقين الإسرائيليين الذين نزلت عليهم الكتب الإلهية وعرفوا ما فيها ثم عاندوا وخالفوا وكابروا حتى جسرهم المكابرة على العظيمة التي هي زعمهم أنه تعالى هو المسيح وأنه سبحانه ثالث ثلاثة وأنه عز وجل فقير وهم

أغنياء...والحق أنهم أكبر شراً وأعظم ضرراً من المنافقين الذين لم تنزل عليهم الكتب السماوية قبل القرآن ولذلك قال رسول الله ﷺ في رافع بن حريملة الإسرائيلي حين مات: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ومعنى **(مردوا)** أي مرنوا على النفاق، يُقال: مَرَدَ على الأمر أي مَرِنَ وثبت عليه ودَرَبَ به حتى مهر فيه، ومنه الشيطان المارد، أي في الشيطنة وفي وصفه بالمارد إشارة إلى أن ما يصيب شركاءه من العذاب في الدنيا لا يعظه عن شركه ونفاقه لما جبل عليه طبعه الشيطاني من المداومة على تلك السجايا الخبيثة، ومعنى **(وَمِنْ حَوْلِكُمْ)** أي حول المدينة أراد بذلك جزيرة العرب وخاصة منطقة نجد والله أعلم، وفي الآية تقديم وتأخير تقديره: ومِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَمِنْ اسْتَوْطَنُوا الْمَدِينَةَ مَنَافِقُونَ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ، وجاء في مصنف الإمام عبد الرزاق من حديث ابن مسعود: «وَأَنْ يَكُونَ رِعَاةُ الْغَنَمِ الْحَفَاةُ الْعَرَاةُ فِي بَيُوتِ الْمَدْرِ» أي يتحولون من البوادي إلى المدن. والملاحظ أن لفظ **(منافقون)** لم يرد في القرآن الكريم بدون ال التعريف سوى في هذا الموضع ولذلك جاء التعقيب العجيب **(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ)** والخطاب للنبي والمراد أمته لاجتماعنا على أنه ﷺ أخبر حذيفة رضي الله عنه بالحديث المتفق عليه: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» ونحوه قوله تعالى **(وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)** والمعنى أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوّق في مراعاة التقية والتحامي عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى على المؤمن حالهم حيث يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم ويبرزون له ظاهراً كظواهر المخلصين من المؤمنين لا يشك معه في إيمانهم! وفي الآية بعثٌ على تدبر القرآن والتفتيش عنهم في هذا الكتاب المعجز! ثم استأنف جزاءهم بقوله **(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)** قال الإمام

الطبري: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين: إحداهما في الدنيا والأخرى في القبر ثم اختلف أهل التأويل في التي في الدنيا ما هي؛ فقال بعضهم: هي فضيحتهم فضحهم الله بكشف أمورهم وتبيين سرائرهم للناس على لسان رسول الله ﷺ. وروى عن ابن اسحاق أنه قال: العذاب الذي وعدهم مرتين فيما بلغني عنهم ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبر إذ صاروا إليه، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة ويخلدون فيه. قلت: وفي المرتين إشارة إلى الوعدين. وصلتهم بشركائهم تتضح من حديث كعب بن مالك المروي في الصحيحين: قال: فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. ويبدو أن الله تعالى أرجأ أمر الثلاثة الذين خلفوا عمن حلف له واعتذر إليه ليفضح أئمة الكفر وقادة النفاق. ولما ذكر تعالى هذا المارد الجافي؛ ثنى باللين الصافي وهم الذين نبز المتاب عليهم والنظر بعين الرحمة إليهم فقال **(وآخرون اعترفوا بذنوبهم)** قال قتادة: نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله فأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد وأقسم أن لا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية وأمر رسول الله ﷺ بحله. والأظهر إجراء الكلام على الذين مالوا إلى المنافقين وندموا على

ذلك ثم صاروا كغيرهم من خلص المؤمنين، ولما كان من شأن الرضوان قبول القربان أمر تعالى رسوله بأخذ الصدقة منهم والصلاة عليهم تطهيراً وتزكية لهم وتطيباً لحاظرهم وأخبر أن صلاته عليهم سكونة لقلوبهم ووقار وطمأنينة لنفوسهم وسبب لتقررهم وتثبيتهم على جادة التوحيد، لأن روحه عليه الصلاة والسلام مشرقة صافية قوية باهرة فإذا دعا لهم فاضت آثارها على أرواحهم فأشرقت واستنارت وصفت وتألأت ﴿أخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ وقرئ بالجمع ﴿صلواتك﴾ دلالة على بركتها وخيرها، وفي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: «اللهم صل عليهم» ثم رغبتهم تعالى في العمل بقوله ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أما المستخلفون فقد خوَّفهم في الآية السابقة بقوله ﴿قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ ولم يذكر المؤمنين لأنهم ليسوا منهم في شيء من الدين وإنما هم مَسْحَة إسرائيلية نخرت عضد الأمة الحمودية! وقد بين تعالى مكانة رسوله ﷺ إذ قرن سبحانه ذكره بذكره فما أذن باسم أحد سواه، ولا قرن اسم أحد مع اسمه إلا إياه، ابتداء من مطلع السورة ﴿براءة من الله ورسوله﴾ ثم قوله ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قوله ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم قوله ﴿وَلَا يَجْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قوله ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ ثم قوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم قوله ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ثم قوله ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ثم قوله ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم قوله ﴿كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ثم قوله ﴿إِذَا

نصحو الله ورسوله) ثم قوله (وسيرى الله عملكم ورسوله) ثم قوله (فسيرى الله عملكم ورسوله) إلى قوله (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله) فقرن تعالى اسمه الكريم باسمه ﷺ عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعدته ووعدته تعظيماً لقدره وتشريفاً له على غيره ﷺ وفيه ما لا يخفى من التعريض بالمنافقين الذين حسدوه ﷺ وكذبوا وبغوا عليه... ثم ذكر الحق تعالى صنفاً آخر (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم) والآية كما ذكر بعضهم نزلت في المنافقين المعرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار ويدل على ذلك قوله بعده وفق قراءة نافع وأبي جعفر والشامي (الذين اتخذوا مسجداً ضراراً) والأظهر إجراء الكلام على الذين اندمجوا في ديانة المنافقين إما يعذبهم إن بقوا على ما هم عليه وماتوا على ذلك، أو يتوب عليهم إن خلصت نيتهم وفارقوا المشركين، ولا مانع من حمل الآية على كلا الفريقين... وفي النظم الجليل تحضيض عميق على النفرة للجهاد لتحرير مدينة رسول الله ﷺ من رجس المشركين (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطناً يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) والمدينة مهاجر سيد الكونين وعروس الحضرتين ونقطة الدائرة المتضمنة أسرار الدارين، ومن أسمائها: البارة، البلاط، الحبيبة، الحرم، الخيرة، الدار، دار الأبرار، دار الأخيار، دار الإيمان، دار السلامة، دار الفتح، الدرع، الحصينة، سيدة البلدان، الشافية، طابة، طيبة، العاصمة، العذراء، الغراء، الفاضحة، القاصمة، قبة الإسلام، القرية، قلب الإيمان، المؤمنة، المباركة، المجبورة،

الحبة، المحبوبة، المحروسة، المحفوفة، المحفوظة، المختارة، المرحومة، المرزوقة، المسلمة، مضجع رسول الله ﷺ، المطيبة، المقدسة، المقر، المكيعة، الموفية، النافية، أكالة البلدان، أكالة القرى، وهذا مطابق لما جاء في الصحيحين: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد» ومعناه أن الفضائل تضمحل في جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدماً، وذلك ينزع إلى تفضيل المدينة على مكة وهو ما ذهب إليه الإمام مالك لأن المدينة هي التي أدخلت مكة وغيرها من القرى في الإسلام فصار الجميع في صحائف أهلها، وفي آخر الأمر يبرز الدين إليها من أقاصي الأراضي وشاسع البلاد... ولما سئل ابن عقيل الحنبلي عن المفاضلة بين الحجرة والكعبة قال: إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل وإن أردت وهو ﷺ فيها فلا والله لا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح. رزقني الله زيارة قبره المنيف والصلاة في مسجده الشريف والتبرك بمشاهدة آثاره وآثار أصحابه والممات على محبته هنالك يا سيدي يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربك في ذلك وفي جميع أموري اللهم شفّعه فيّ وفي سلفي. قال الإمام السمرقندي في تفسير قوله تعالى "ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب" يعني المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة. وروى ابن جرير عن الأوزاعي وعبد الله بن المبارك والفزاري والسبيعي وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز أنهم يقولون في هذه الآية: إنها لأول هذه الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله. ولما تواترت النواهي للمنافقين وتواصلت الزواجر وتعاضم التبكيث والتهديد وكانوا مجهولين غير معروفين، أتبع ذلك قوله ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ولما علمت المقاصد وتهيأت القلوب لقبول الفوائد وأمر بالإنذار بالفقه في الدين وبيان حال المنافقين، أقبل على الفقهاء في الدين محرضاً على قتال المتظاهرين بالوحدانية داخل الجزيرة العربية فقال (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قريظة والنضير وخيبر وفدك. ولنتأمل قول رسول الله ﷺ وثنائه على البطل الهمام عامر بن الأكوع كما جاء في الصحيحين: «إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهدٌ مجاهدٌ قلٌّ عربيٌّ مشى بها مثله» وذلك في يوم خيبر عند ما تصاف القوم فتناول عامر بسيفه ساق مرحب اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه... ومعنى الحديث: قلٌّ مجاهد في جزيرة العرب قام بهذه العملية وأطاقها مثله، وفي رواية للبخاري: «قلٌّ عربيٌّ نشأ بها مثله» وفي رواية أخرى: «قلٌّ عربياً نشأ بها مثله» وفي هذا معنى المدح لأن (عربياً) منصوب على التمييز، و(مثله) فاعل (قلٌّ) ووقع في رواية: «قلٌّ عربيٌّ مُشاهماً مثله» وحاصل معناه: ليس له مشاهماً في صفة الكمال في القتال، وانتصابه بفعل محذوف، والتقدير: ليس عربي رأته مشاهماً، وإنما فسرناه بذلك لما في (قلٌّ) من معنى النفي فتأمل، وهذه الروايات من معجزات من أوتي جوامع الكلم ﷺ، وفيها تحريض على قتال بني إسرائيل داخل جزيرة العرب، وقد جعل ﷺ أجرين للمجاهد؛ الأول: لقتاله أهل الكتاب في عقر دارهم، والآخر: للجزاء الذي به تقوية نفوس المسلمين لما فيه من ذكر الشجاعة في قتالهم... وروى الإمام أبو داود في سننه عن عبد الخبير بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه عن جده قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ يقال لها أم خلاد وهي منتقبة تسأل عن ابنها وهو

مقتول فقال لها بعض أصحاب النبي ﷺ: جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة؟
فقلت: إن أرزأ ابني فلن أرزأ حيائي فقال رسول الله ﷺ: «ابنك له أجر
شهيدين» قالت: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «لأنه قتله أهل الكتاب» وأخرج
الطبراني في المعجم عن ابن شهاب: في تسمية من استشهد يوم خيبر مع رسول
الله ﷺ من الأنصار ثم من بني حارثة محمود بن مسلمة وذكروا أن رسول الله
ﷺ قال لمحمد بن مسلمة: «أخوك له أجر شهيدين» وذكر الواقدي في المغازي
عن أبي رافع قال: كنا مع علي السرخسي حين بعثه النبي ﷺ بالراية فلقي علي السرخسي
رجلاً على باب الحصن فضرب علياً واتفقاه بالترس علي فتناول علي باباً كان
عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده حتى فتح الله عليه الحصن وبعث
رجلاً يبشر النبي ﷺ بفتح الحصن حصن مرحب ودخلهم الحصن، ويقال: إن
مرحب برز وهو كالفحل الصؤول يرتجز وهو يقول: قد علمت خير أني
مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب ... أضرب أحياناً وحيناً أضرب. يدعو
للبراز فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أنا والله الموتور الثائر قتل أخي
بالأمس فائذن لي في قتال مرحب وهو قاتل أخي فأذن له رسول الله ﷺ في
مبارزته ودعا له بدعوات وأعطاه سيفه فخرج محمد فصاح: يا مرحب، هل لك
في البراز؟ فقال: نعم، فبرز إليه مرحب وهو يرتجز: قد علمت خير أني مرحب،
وخرج محمد بن مسلمة وهو يقول:

قد علمت خير أني ماض ... حلو إذا شئت وسم قاض

ويقال: إنه جعل يومئذ يرتجز ويقول:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... لا صبر لي بعد أبي النبيت

وكان أخوه محمود يكنى بأبي النبيت، قال: وبرز كل واحد منهما إلى صاحبه، قال: فحال بينهما عشرات أصلها كمثل أصل الفحل من النخل وأفنان منكرة فكلما ضرب أحدهما صاحبه استتر بالعشر حتى قطعاً كل ساق لها وبقي أصلها قائماً كأنه الرجل القائم وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه وبدر مرحب محمداً فيرفع السيف ليضربه فاتقاه محمد بالدركة فلحج سيفه وعلى مرحب درع مشمرة فيضرب محمد ساقه مرحب فقطعهما ويقال: لما اتقى محمد بالدركة وثمرت الدرع عن ساقه مرحب حين رفع يديه بالسيف فطأطأ محمد بالسيف فقطع رجله ووقع مرحب، فقال مرحب: أجهز يا محمد! قال محمد: ذق الموت كما ذاقه أخي محمود! وجاوزه ومر به علي فضرب عنقه وأخذ سلبه فاختمهما إلى رسول الله ﷺ في سلبه، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله، والله ما قطعت رجله ثم تركته إلا ليدوق مر السلاح وشدة الموت كما ذاق أخي مكث ثلاثاً يموت وما منعي من الإجهاز عليه شيء قد كنت قادراً بعد أن قطعت رجله أن أجهز عليه فقال علي عليه السلام: صدق ضربت عنقه بعد أن قطع رجله، فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ودرعه ومغفره وبيضته فكان عند آل محمد بن مسلمة سيفه فيه كتاب لا يدرى ما هو حتى قرأه يهودي من يهود تيماء فإذا فيه: هذا سيف مرحب ... من يذقه يعطب، قالوا: وبرز أسير وكان رجلاً أيداً وكان إلى القصر فجعل يصيح من يبارز؟ فبرز له محمد بن مسلمة فاختلفا ضربات ثم قتله محمد بن مسلمة ثم برز ياسر وكان من أشدائهم وكانت معه حربة يحوش بها المسلمين حوشاً فبرز له علي عليه السلام فقال الزبير: أقسمت عليك ألا خلعت بيني وبينه، ففعل علي وأقبل ياسر بحرته يسوق بها الناس فبرز له الزبير فقالت صفية: يا رسول الله واحزني! ابني يقتل يا رسول

الله! فقال: بل ابنك يقتله، قال: فاقتتلا فقتله الزبير فقال له رسول الله ﷺ: فذاك عم وخال! وقال النبي ﷺ: لكل نبي حواري وحواري الزبير وابن عمي - وفي هذا الموطن العظيم من التلاحم بالرماح وبالسيوف يختار ﷺ حواريه - فلما قتل مرحب وياسر قال رسول الله ﷺ: أبشروا، قد ترحبت خير وتيسرت.

سورة بني النضير

مقصودها بيان ما دلت عليه المجادلة من أحوال المنافقين المتناجين بالسوء الحالفين على الكذب المحادين لله ورسوله وأدل ما في سورة الحشر تأمل قصة بني النضير المعلم بأول الحشر المؤذن بالحشر الحقيقي بالقدره عليه إذ ينكرونه ولذا سميت الحشر وبني النضير لأنه سبحانه وتعالى حشرهم بقدرته من المدينة الشريفة إلى خيبر والشام...روى الإمام البخاري في صحيحه عن سعيد قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الحشر، قال: «قل سورة النضير» ويبدو أن المقصد منها حكم أموالهم بعد الانتصار عليهم وعلى نظرائهم الإسرائيليين وكانت غزوة بني النضير بعد ستة أشهر من معركة أحد وسببها تأمرهم على قتل رسول الله ﷺ لما جاء إلى ديارهم ليعينوه في دية قتيلين من بني عامر فأجابوه وذهبوا يتشاورون على قتله وهو بجانب جدار من جدران بيوتهم واتفقوا على إلقاء صخرة عليه فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ بما يتوهم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فأخبر أصحابه الخبر وأمرهم بالتهيب لحرهم وحاصرهم ست ليال وقطع النخل وحرقها مما أثار خوفهم فأنزل الله ﴿وما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ وقذف الله في قلوبهم الرعب فقبلوا الجلاء عن المدينة بشرط الكف عن دمائهم ولهم ما حملت الإبل من الأموال إلا

السلاح ولحقوا بخير وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوابه ومصالح
 المسلمين ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا
 ركاب ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب
 ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ وقد اشتملت
 السورة على أن ما في السماوات وما في الأرض دال على تنزيه الله وكون ما في
 السماوات والأرض ملكه وأنه الغالب المدبر، وعلى ذكر نعمة الله على ما يسر
 من إجلاء أئمة الكفر مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة وتلك آية من
 آيات تأييد رسول الله ﷺ وغلبته على أعدائه، وذكر ما أجراه المسلمون من
 إتلاف أموال الإسرائيليين وأحكام ذلك في أموالهم وتعيين مستحقه من
 المسلمين، وأوماً إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي
 نظمها الإسلام بحيث لا تبقى متقلة في جهة واحدة بل المقصد دوراتها لينال
 الفقراء منها حظوظهم فيصبحوا أغنياء فلا تكون دولة جاهلية بين طائفة
 الأغنياء! ثم أمر باتباع ما يشرعه تعالى على لسان رسوله ﷺ ﴿وما آتاكم
 الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وفيه دلالة بينة على تفضيل نبيه الأقرب
 وحببيه المنتخب ﷺ وذلك أنه أمر بالاعتداء به على الإطلاق فأطلق الاقتداء ولم
 يقيده بشيء وتوعد على تركه بالعقاب الشديد، وأردف بذكر تعظيم شأن
 المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين، وكشف دخائل المنافقين
 من أهل الكتاب ومواعيدهم لكبرائهم أن ينصروهم وكيف كذبوا وعدهم،
 وأنحى عليهم بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغريهم لأتباعهم بتغيير
 الشيطان لهم وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار ﴿ألم
 تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم

لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إناهم لكاذبون﴾ قال السدي: أسلم ناس من بني قريظة والنضير وكان فيهم منافقون فبعثوا إلى بني النضير ما قص الله تعالى. وروى ابن جرير عن الحارث أن الآية في رفاعه بن تابوت ولم يشك فيه. ومعنى "نافقوا" أي أظهروا بألستهم بالإيمان وأسروا الكفر وهو مأخوذ من نفاق الضب وهو أحد جحريه إذا أخذ عليه أحدهما أخذ في جحر آخر فيقال فيه نفق ونافق فيدخل من باب ويخرج من آخر فشبه فعل المنافق بفعل الضب لأنه يدخل في الإسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد والنفاق، قال الإمام ابن قتيبة: والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه. اهـ. وقوله ﴿كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي مثل هؤلاء الحاضرين كمثل الذين من قبلهم وهم بنو قريظة ضرب أعناقهم رسول الله ﷺ وسبى ذراريهم وأجلى بني قينقاع وبني النضير فكانوا مثلاً لهم! ثم ذكر مثلهم مع الشيطان الذي أغواهم وحرصهم على الثبات ووعدهم بالنصر ثم خذلهم وتركهم في أسوأ حال ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي كمثل الشيطان الذي غرّ إنساناً ووعدته النصره عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه وقال: إني أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك لئلا يشركني معك في العذاب! قال ذلك على وجه الاستهزاء وكشف عن نفاقه وخبث طويته يورط الإنسان في المعصية ثم يفر منه! وصفة النفاق والاستهزاء ورثتهم إياها شيخهم إبليس الذي طاعوه في كل ما زينه لهم... روى ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان عن عبيد بن رفاعه يبلغ به النبي ﷺ يقول: «كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في

قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتي بها الراهب فأبى أن يقبلها فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده فأتاه الشيطان فسول له إيقاع الفعل بها فأحبها ثم أتاه فقال له: الآن تفتضح، يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل ماتت، فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى في قلوبهم أنه أحبها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها يسألونه عنها فقال: ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي ضربتها وخنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها وأنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنجو اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله عز وجل: كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» ولما كان قد مر في هذه السورة من حكمة هذا القرآن وإعجازه تارة بمطابقته لما نزل بسببه مطابقة تجلو عنه كل إشكال، وتارة بما يشاهد من صدقه فيما أخبر بإتيانه من الأفعال، وأخرى بما يتحدى به من الأقوال، ومرة بنظم كل جملة مع ما تقدمها على ما لم يكن لبشر مثله في الأحوال، إلى غير ذلك من أمور لا يحصرها المقال، ترتب على ذلك قوله مبيناً أن سبب افتراق أصحاب النار وأصحاب الجنة في العقبى افتراقهم في هذا القرآن في الأولى تمثيلاً للقلوب في قسوتها أو لينها عند سماع القرآن معجباً من تصلب الجفأة غلاظ الأكباد في الضلال، ونبوء قلوبهم عن فهمه ومجّ أسماعهم له لافتاً القول إلى أسلوب العظمة لاقتضاء الحال (ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) أي لتكون حالهم حال من يرجى تفكره في تلك الأمثال فيتخلى عن الشهوات البهيمية وينجو من الحظوظ النفسية ويتحلى بالملابس الروحانية فيصير بالمجاهدات والمنازلات إلى الصفات الملكية ويكون أهلاً للمقامات القدسية في

الجنان العلية. واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال ﴿هو﴾ أي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له أصلاً بوجه من الوجوه فلا يستحق الوصف بـ"هو" غيره لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً فهو حاضر في كل ضمير غائب بعظمته عن كل حسن، ولما عبر بأخص أسمائه أخبر عنه لطفاً بنا وتنزلاً لنا بأشهرها الذي هو مسمي الأسماء كلها فقال ﴿الله﴾ ومعناه من له الإلهية - وهي القدرة على اختراع الأعيان وهذه صفة يستحقها بذاته - المعبود بحق المحتجب بسرادات الجلال والمرتفع عن إدراك الخيال، الغائب عن أن تدركه الأبصار أو تحيط به الأفكار، الذي بطن بما لم تحط ولا تحيط به العقول من نعوت الكبرياء والعظمة والإكرام فظهر بأفعاله التي لا تضاهي بوجه غاية الظهور فتميز غاية التميز فلم يلحقه شرك أصلاً في أمة من الأمم ولا نسمة من النسم، فلذلك كان وصفه ﴿الذي لا إله إلا هو﴾ فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شيء والإله أول اسم الله فلذلك لا يكون أحداً مسلماً إلا بتوحيده ولن يشهد التوحيد في هذه الكلمة التي مضمونها توحيد اسم الإله إحساناً إلا بعد إحصاء جميع الأسماء علماً، قال الحرالي: والإله التعبد وهو التذلل فمن توهم حاجته بشيء وتوهم أن عنده قوام حاجته تذلل فكان تذلل لله تألهاً. ولما أخبر بتفرده، دل عليه بآية استحقاقه لذلك فقال مقدماً لما هو متقدم في الوجود ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي كل ما غاب عن العباد وما شاهدوه واطلعوا عليه، ولما تعالى في صفات العظمة ونعوت الجلال والكبر فبطن غاية البطون، قال بانياً الكلام على الضمير إعلماً بأن المحدث عنه أولاً هو بعينه المحدث عنه ثانياً ﴿هو الرحمن﴾ أي المستوي على عروش الأكوان، ولما كانت الرحمانية كمال استيلاء

على الخلق أردفها بوصف الرحمة لإيقاع العبد في كل أحواله بين الخوف والرجاء يرجو رحمة ربه لعمله ويحذر عذابه لتقصيره في عمله فيزكي نفسه بالوعد والوعيد ويصفي باطنه في مقام القلب بنور التوحيد ليتهيأ لتجليات الصفات ويطلب الهداية في مقام الروح ليشاهد تجلي الذات ولا يكون في اليأس والقنوط **(الرحيم)** وهي رحمة وسعت كل شيء ولم يحدها شيء، ثم قال مصرحاً بما في تضمنه اسم الله من القهرية الجلالية والأحدية الإحاطية فقال **(هو الله الذي لا إله إلا هو الملك)** أي التام الملك فلا ملك في الحقيقة إلا هو لأنه لا يحتاج إلى شيء فإنه مهما أراد كان، ولما كان الملك أصل ما لحق الخلق من الآفات، قال تعالى منزهاً نفسه عن الأولاد والأنداد **(القدوس)** مصرحاً بما لزم عن تمام ملكه من أنه بليغ في النزاهة عن كل وصم يدركه حسن أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير فإن القدس طهر لا يقبل التغير ولا يلحقه رجس فلا يزال على وصف الحمد بثبات القدس، ولما كان سبحانه لتمام ملكه وعلو ملكه وكمال قدسه لا يتصور أن يلحقه نقص في ذات ولا صفة ولا فعل لعلمه بالظواهر والبواطن على حد سواء يصنع الأمور في أحكم مواضعها بما لا يدركه غيره أصلاً أو لا يدركه حق إدراكه فاحتيج إلى ما يؤمن من ذلك وكان السلام حد ما بين الألفة والفرقة وحد ما بين الرحمة والسطوة وهو أدنى منال الجاهل من عباد الرحمن ومنال المعتدي من المقتدر وكان سلام المسلم للجاهل مدارة لئلا يزيد في جهله عليه أو ارتقاباً لاستقبال مكنة وكان الله لا يعبأ بالخلق ولا يحتاج لارتقاب مكنة لأنه لا يعجزه شيء فلم يتحقق السلام بكل معنى من وجود السلامة له وإفاضتها على غيره تماماً إلا منه إعفاء من معالجة استحقاق السطوة وحفيظة حرمة اختصاص الرحمة أتبع ذلك مؤمناً

للعاصي من المعاجلة والمطيع من سوء المعاملة فقال **(السلام)** وفي الحديث: **«اللهم أنت السلام»** أي الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل آفة وهو المنزه في ذاته سبحانه عن الصور والهيئات والكيفيات وذلك لأنه لما توجه المصلي في صلاته إلى ربه مرت على قلبه صور إيمانية قلبية لكنه سبحانه هو السلام بمعنى أنه أجل وأكبر مما تصور المصلي أو تخيل أو مر على قلبه ونظير هذا أنك إذا أثنت عليه سبحانه ومدحته وعظمته فإنه سبحانه أجل وأعظم وأكبر مما مدحت وأثنت ولذلك شرع رسول الله ﷺ للمؤمن أن يقول: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»** فمهما عرفت وارتقيت ومهما مرت على قلبك من الصور الإيمانية والتجليات الإلهية فهو سبحانه أجل وأعظم من ذلك لأنه هو السلام - أي المنزه في ذاته عن الصور والهيئات والكيفيات - فهو سبحانه السلام أي لا يقارب ولا ينازع في التصوير فكن أيها العبد في أمان فلا تنازع في أن تحده سبحانه أو تقيده فيما تصورت فلا تنازع صفات الربوبية فهو سبحانه كما هو لا يعلم كيف هو إلا هو وعلى هذا فمعنى: **«أنت السلام»** أي مهما عرفناك يا رب وتصورنا من معارفنا بك فأنت أجل وأكبر من ذلك... والسلام حد ما بين المعاجلة للعاصي وسوء المعاملة للمطيع ظاهراً ولذلك أردفه بما يتعلق بالباطن لتحصل إحاطة السلامة ظاهراً وباطناً فقال **(المؤمن)** وهو الذي يُعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ومنع أسباب المخاوف فلا أمن في الوجود ولا أمان إلا وهو مستفاد من جهته، والأمن حد ما بين الحبة والكره فيمن لا وسيلة له للحب وهو أدنى ما يقبله ذو الحق ممن يستحق منه الحب ولذلك لم يقبل الحق ممن كان ظاهر الوسيلة للحب إلا بالحب فلم يثبت إيمان المؤمن بمجرد الإيمان حباً له بل إثارةً لمحبهته على كل حب

ومساواة لأخيه المؤمن فيما يجب لنفسه وأدناه الأمانة في الغيب من الغيبة إلى غاية الأمان من بوائق الغشم والظلم من الجار المستحق حفظ جاره في غيبه فالإحلال بالإيمان لكونه الأمانة في الغيب نفاق والإحلال بالإسلام لكونه السلم في المواجهة إحرام فبأدنى إحلال في جانب الحق أو الخلق ينثلم الإسلام والإيمان وذلك كله إنما هو في الحقيقة من الله تعالى، وقيل: هو الذي صدق نفسه وصدق عباده المؤمنين فتصديقه لنفسه علمه بأنه صادق وتصديقه لعباده علمه بأنهم صادقون، وقيل: المؤمن الموحد لنفسه وهو من صفات ذاته، ولما كان الاطلاع على ذلك خفياً يفتقر إلى مزيد علم قال **(المهيمن)** أي الرقيب والحافظ والأمين والشهيد على خلقه بما يكون منهم من قول أو عمل فإن الهيمنة شهادة خبرة وإحاطة وإبصار لكلية ظاهر الأمر وباطنه وإحاطة معناه لا يكاد يقع له في الخلق مسوغ إطلاق إلا مسامحة لأن الخلق لا يشهدون إلا الظواهر ولا يشهدون من الباطن ولذلك انعجم معناه على كثير من فصحاء العرب فمفهوم معناه موجب توحيده فواضح إذ لا مهيمن بمعنى أنه شهيد على الوجه المشروح مع الأمانة المأمونة والحفظ والرعاية والاستيلاء فيكون قائماً على كل شيء بكل ما له من رزق وعمل وأجل إلا هو ولذلك كان القرآن الذي هو صفته سبحانه وتعالى مهيماً على جميع الكتب التي قبله مصداقاً لما يستحق التصديق منها مكذباً لما يستحق التكذيب فمن كان به أمهر كان بذلك أعلم، ولما كان تمام الخبرة ملزوماً لتمام القدرة صرح بها اللازم فقال **(العزیز)** والعزة غلبة لا يجد معها المغلوب وجه مدافعة وجه مدافعة ولا انفلات ولا إعجاز فالعزیز الذي صعب على طالبه إدراكه مع افتقار كل شيء إليه في كل لحظة، الشديد في انتقامه الذي لا معجز له في إنفاذ حكمه، المنيع الذي لا يوصل إليه، القادر

القوي الذي لا مثل له، قال الغزالي: وهو الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه. ولما كان المغلوب على الشيء فيؤخذ من يده قد لا ينقاد باطناً فلا يباشر ما غلب عليه للغالب وقد لا يكون العز ظاهراً لكل أحد، أردفه بقوله **(الجبار)** وهو العظيم الذي يفوت المقاوم مناله ولا يجري في ملكه غير ما أراد فهو على هذا من أسماء الذات ويصلح أمور من يريد من الخلق ويقهرهم على ما يريد فهم أحقر من أن يعصوه طرفة عين بغير إرادته، ولا يخرج شيء من قبضته وتقصّر الأيدي عن حمى عز حصرتة، ولا ينال منه إلا ما نول وهو أبعد شيء عن أوصاف الخلق لمنال الذباب منهم ما شاء وعجزهم عن استنقاذه، فله الملك ظهوراً بالأيدي الظاهرة من الإنسان وما دونه، وله الملكوت بطوناً بالأيدي الباطنة من الملك وما دونه، وله الجبروت اختصاصاً من وراء كل ملك وملكوت، ولما أثبت الجبروتية أردفها بالكبرياء فقال **(المتكبر)** أي المتعالي عن صفات الخلق وهذه صفة يستحقها بذاته وهو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فيقصمهم والكبرياء: الكبر الحق الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود فالكل حقيرون بالإضافة إلى جلاله وعز جبروته وعظمته وكماله فلم يصح منهم كبر ولا شرع لهم تكبر، فاختص بهذا الاسم لاستيلائه على الظواهر بإظهار ما له من الكبر لعدم حاجته إلى شيء وبإلجاء غيره إلى الاحتياج إليه والإيقاع بالجباية وإذلالهم وغير ذلك من الأمور المزعجة المرهبة من غير مبالاة بشيء كما اختص بالجبار لاستيلائه على البواطن، ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة المهيمن أن جميع ما ذكره آنفاً من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربه بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة المهيمن تؤذن بأمر مشترك فعقت بصفة العزيز ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء

واتبعت بصفة الجبار الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة المتكبر الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت الصفات قبلها في جانب الإطماع، ولما تقرر بما ذكر من مظاهر عظمته استيلاؤه على الظواهر والبواطن باللطف والعنف، أنتج ذلك تعاليه عن شوب نقص لا سيما بالشرك فقال سبحانه ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ أي تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شيء من نقص من هذه المخلوقات مما في الأرض أو في السماء من كبير وصغير وجليل وحقيق، وتقدس عن أن يكون له شركاء وضمير يشركون عائداً إلى معلوم من المقام وهم أهل الكتاب الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ، ولما تم دليل الوجدانية بما حل من التفهيم بالتدني إلى الملك ثم بالتعلي إلى التكبر فأنشأ هذه الخاتمة، ابتدأ سبحانه دليلاً آخر هو في غاية التنزل والوضوح فقال مفتتحاً بما افتتح به الأول من الترتيب في المراتب الثلاث غيب الغيب ثم الغيب ثم الظهور على مراتبه إعلاماً بأنه لا براح عن الإيمان بالغيب ومن برح عنه هلك ﴿هو﴾ أي الذي لا شيء يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لأن وجوده من ذاته ولا شيء غيره إلا وهو ممكن فهو أهل لأن لا يكون فلا يكون له ظهور لكيون له بطون، ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الأشياء أخبر عنه بأشهر الأسماء الذي لم يقع فيه شركة بوجه فقال ﴿الله﴾ معناه من له الإلهية وهي القدرة على اختراع الأعيان وهذه صفة يستحقها بذاته وهو الذي ليس له سمي فلا كفاء له فهو المعهود بالحق فلا شريك له بوجه، ولما بدأ سبحانه بهذا الدليل الجامع بين الغيب والظهور، ثنى بتنزيل متضمن للعلم والقدرة فهو في غاية الظهور فقال ﴿الخالق﴾

أي المبدع المخترع للخلق على غير مثال سبق والمقدر لما يوجده وهو سابق للبري والبري فالخالق في الحقيقة هو الذي كل شيء عنده بمقدار، ومن ناشئة القدر الفرق والترتيب، ومن ناشئة الفرق والترتيب الإحياء والإماتة، والخلق لا يحيطون بتقدير ما يسرعون في قدره ولا يقدرّون بعد الفرق والبري على رمة ووصله فكان القادر على جمع ما فرق الذي كما بدء أول خلق يعيده هو أحسن الخالقين، وتلايح تحت هذا اللبس في إطلاق اسم الخالق على الخالق الحق ذي الحول والقوة والقدرة والإحاطة والإبداء والإعادة أنه لا خالق إلا الله كما أنه لا معيد لما بدأ إلا الله، ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبري أردفه تنبيهاً على ذلك وتصريحاً وتأكيذاً قوله **(البارئ)** أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال، ولما كان من يهيئ الأمور للتصوير قد لا يتقنه قال **(المصور)** فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور، ويتضح الفرق جداً بين الأسماء الثلاثة بالبناء فإنه يحتاج أولاً إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الحجر واللبن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها وهذا يتولاه المهندس في رسمه وهو الخلق ثم يحتاج إلى حجار ينحت الحجارة ويهيئها لتصلح لمواضعها التي تكون فيها من الأبواب وأوساط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك وهو البرئ ثم يأخذ الكل البناء فيضعها مواضعها إلى أن تقوم صورتها التي رسمها المهندس أولاً وقدرها ولا تقوم الصورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحسب الطاقة كما أن البناء يضع الحجارة أولاً ثم يجعل الخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة ولو قلب ذلك لم تثبت الصورة ولم يكن لها الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره

أعظم ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله سبحانه، قال البيهقي في الاعتقاد: هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة. وقال الرازي في اللوامع: والتصوير موجود في كل أجزاء العالم وإن صغر حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها ووجه الحكمة فيها فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان. ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة، أردفه بقوله ﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي الدالة على ثبوت صفات كمال حقيقي ولا يحسن الاتصاف بها إلا في جانب الله فأسماءه سبحانه في حسنها ما لها نهاية ولا حد فكان اتصاف المخلوق بها منشأ فساد في الأرض وكان اتصاف الخالق بها منشأ صلاح لأنها مصدر العدالة والجزاء القسط، ووجه ذكر الصفات الثلاث عقب الصفات المتقدمة: الإشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كفيته البديعة ليشير داعية شكرهم على ذلك. ولما أخبر سبحانه أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعاً لعزته وحكمته ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسمع الآذان الواعية بالأسماء الحسنى دل على دوام اتصافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير فعبر بالمضارع فقال ﴿يسبح له﴾ أي يكرر التنزيه الأعظم من كل شائبة نقص على سبيل التجدد والاستمرار على وجه التخصيص. بما أفهمه قصر المتعدي وتعديته باللام ﴿ما في السماوات والأرض﴾ وهو ما افتتحت به السورة إلا أنها هنا جمعت ذلك في اسم واحد لأنها تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك

كله في اسم واحد هو ما الموصولة التي صلتها قوله: في السماوات والأرض،
وأما فاتحتها فقد سيقّت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية
وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص
بهم وهي ما الموصولة الثانية التي صلتها في الأرض. ومن تأمل الوجود مجملًا
ومفصلاً علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصاف الجلال والجمال (وهو)
أي والحال أنه وحده (العزیز) أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ولا
يوجد له مثل ويعز الوصول إليه وتشتد الحاجة إليه، ولما كان من يكون بهذه
الصفة لا يتم أمره ولا يثبت كل ما يريده إلا إن كان متقن الحكم قال
(الحكيم) من الحكمة وهي إتقان الحكم وإنهاؤه إلى حد لا يمكن نقضه،
والحكم: المنع عما يترامى إليه المحكوم إيالة عليه وحمله على ما يمتنع منه نظراً له
ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم، ولما لم يكن للخلق من
العلم إلا بقدر ما يهبهم الله لم يكن لهم من الحكمة إلا مقدار ما يورثهم كما
أتى لقمان الحكمة، ولما كان إنما العلم عند الله كان إنما الحكمة حكمة الله وإنما
الحكم حكم الله فهو الحكيم الذي لا حكيم إلا هو، واعلم أن وجه إرجاع
الصفات الحسنى إلى ما يناسبها مما اشتملت عليه السورة يتعلق بما يناسب أحوال
أهل الكتاب المنافقين وأحلافهم المتألبين على النبي ﷺ وعلى المسلمين بالحرب
والكيد والأذى، وإلى هذا القسم تنضوي صفة (لا إله إلا هو) وهذه الصفة هي
الأصل في التهيؤ للتدبر والنظر في بقية الصفات فإن الإشراف أصل الضلالات،
والمشركون من أهل الكتاب هم الذين تستروا بإظهار الإسلام وأغروا أتباعهم
وصدوهم عن الوصول إلى مسالك الهدى وشاقوا الله ورسوله وأنكروا الغيب
الذي من آثاره إنكار البعث والجزاء!

وقد علم سر إتباع الأسماء الشريفة من غير عطف وذاك أنه لما ابتداء ب"هو" وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف إعلاماً بأنه لا شيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم المتعارف عند أهل اللغة ولذلك جمع بعدها الأسماء إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصاف المنزلة في كتبه والمأخذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه وليس شيء مما ذكر ههنا مضاداً في المعنى الظاهري للآخر كالأول والآخر حتى يظن لأجله نقص في المعنى بسبب ترك العطف وأما ترتيبها هكذا فلأن كل اسم منها كما مضى شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للآزمه وموضع لما ألاح أنه من مضمونه، وقد انعطف على افتتاحها وختامها، وعانق ابتدائها تمامها، ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد، فسبحان من أنزله برحمته رحمة للعباد، وهادياً إلى الصواب والسداد. قال الإمام البيهقي في الاعتقاد: لله عز اسمه أسماء وصفات، وأسماءه صفاته وصفاته أوصافه وهي على قسمين: أحدهما صفات ذات والآخر صفات فعل فصفات ذاته ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال وهو على قسمين: أحدهما عقلي والآخر: سمعي فالعقلي: ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به وهو على قسمين: أحدهما ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على ذاته كوصف الواصف له بأنه شيء ذات موجود قديم إله ملك قدوس جليل عظيم متكبر والاسم والمسمى في هذا القسم واحد، والثاني: ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على صفات زائدات على ذاته قائمات به وهو كوصف الواصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باق فدلّت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته قائمة به

كحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه وبقائه والاسم في هذا القسم صفة قائمة بالمسمى لا يقال: إنها هي المسمى ولا إنها غير المسمى وأما السمعي: فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط كالوجه واليدين والعين وهذه أيضاً صفات قائمة بذاته لا يقال فيها: إنها هي المسمى ولا غير المسمى ولا يجوز تكيفها فالوجه له صفة وليست بصورة واليدان له صفتان وليستا الجارحتين والعين له صفة وليست بحدقة وطريق إثباتها له صفات ذات ورد خبر الصادق به وأما صفات فعله: فهي تسميات مشتقة من أفعاله ورد السمع بها مستحقة له فيما لا يزال دون الأزل لأن الأفعال التي اشتقت منها لم تكن في الأزل وهو كوصف الواصف له بأنه خالق رازق محي مميت منعم مفضل فالتسمية في هذا القسم إن كانت من الله عز وجل فهي صفة قائمة بذاته وهو كلامه، لا يقال: إنها المسمى ولا غير المسمى وإن كانت التسمية من المخلوق فهي فيها غير المسمى ومن أصحابنا من ذهب إلى أن جميع أسمائه لذاته الذي له صفات الذات وصفات الفعل فعلى هذا الاسم والمسمى في الجميع واحد والله أعلم وعلى هذه الطريقة يدل كلام المتقدمين من أصحابنا. اهـ. روى الإمام الترمذي عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكَلَّ الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة».

سورة المنافقون

لما ذكر سبحانه الذين نافقوا في سورة بني النضير ونهى في الممتحنة عن اتخاذ عدوه ولياً، وذم في الصف على المخالفة بين القول والفعل مشيراً إلى بني إسرائيل، وحذر في الجمعة من أصحاب اللهو والتجارة الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، أتبع بما هو أوقع في الغرض وأبلغ في المقصود، وهو ذكر طائفة من بني إسرائيل تلبست في الظاهر بالإيمان وأظهرت الانقياد والإذعان، وتعرضت فأعرضت وتنصّلت فيما وصلت، بل عاقبتها الأقدار فعميت البصائر والأبصار! وقد بالغ تعالى في ذمهم بأقبح الذم ليكون زاجراً عن كل ما ظاهره نفاق فقال ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي يا أيها الرسول المبشر به في التوراة والإنجيل إذا جاءك العريقون في وصف النفاق وافقوا الحق بظاهر أحوالهم، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم! وهذا القول صادر من منافقي بني إسرائيل ويتلقفه أتباعهم الذين استنوا بهم في ذلك الضرب من النفاق! وموقع هذه السورة بين سورتي الجمعة والتغابن اللتين افتتحتا بالإخبار عن تسييح ما في السماوات وما في الأرض بلفظ المضارع ﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يفيد استمرار التسييح وتجدده ودوامه وابتداء تقرير تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تعريضاً بالمنافقين الذين نسبوا إليه شركاء ونازعوه الملك! ولما كانت الشهادة الإخبار عن علم اليقين ومواطأة القلوب للألسنة، صدّق سبحانه المشهود به وكذبهم في الإقسام بالشهادة فقال ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في إخبارهم عن أنفسهم أنهم يشهدون لأن قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك، ومن شرط قول الحق أن يتصل ظاهره باطنه وسره بعلايته، ومتى تخالف ذلك فهو كذب، وجيء بفعل يشهد

في الإخبار عن تكذيب الله تعالى إياهم للمشاكلة حتى يكون إبطال خبرهم مساوياً لإخبارهم، ثم أخبر تعالى أنهم اتخذوا أيمانهم وقاية تقيهم المكارة الدنيوية واستتروا بها ليصونوا دماءهم وأموالهم، فصدوا عن الإسلام الذي شرعه الله لعباده ليصلوا به إلى محل رضوانه، ولما كانت المعاصي تعمي القلب فكيف بأعظمها، علله بقوله **(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)** قال الإمام القرطبي: هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر أي أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب. وقال صاحب التحرير والتنوير: ومعنى الباء السببية وثم للتراخي الرتي فإن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح وأن كفرهم أرسخ فيهم من إظهار أيمانهم. وقال العلامة الألوسي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام. ثم أردف سبحانه بوصف ظواهرهم وحذر من الاغترار بهياكلهم وألستهم وبيّن أنهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، شجر لا شجر، لا حياة ولا ثمر، لا خير فيهم ولا فضل في سجاياهم، اشتغلوا بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم **(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)** أي أنهم ذووا هياكل ضخمة وأشكال وسيمة وثبت في الأحاديث الشريفة أنهم أقوى أجساماً من الأمة المحمدية كما جاء في صحيح البخاري أن موسى عليه السلام قال: **«يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً»** وفي رواية للبخاري: **«فإن أمتك أضعف الأمم فقد لقيت من بني إسرائيل شدة»** ثم بيّن تعالى أنهم وطنوا أنفسهم على الوقاحة وخلعوا لباس الحياء بالكذب **(وإن يقولوا تسمع لقولهم)** أي أنهم ذووا ألسنة ذرية يلوونها عن الحق ويستميلون الناس لاتباع أهوائهم وأفكارهم المنحوتة بدلائل مغلوطة

ومحرفة عن معانيها الأصلية. قال الإمام أبو حيان: ضَمَّنَ يسمع معنى يُصْنَعُ ويُملَّ
تعدَّى باللام وليست زائدة فيكون قولهم هو المسموع. وقد أشار إليهم صاحب
الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله بقوله: «**إن أخوف ما أخاف على أمي كل**
منافق عليم اللسان» وها هي اليوم دروس وكلمات حبرهم وناظر بيت
مدراسهم وولي دينهم صالح آل الشيخ مبنوثة منشورة تحكي لي ألسنتهم وإيهام
الناس أن ما يقولون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى يحسبه الناس كذلك!
وهذا الحديث يبرز لنا نموذجاً خاصاً من علماء اللسان الذين تخوف ﷺ من
فصاحتهم وبلاغتهم وقدراتهم المعرفية حتى أنهم يأخذون باللب ويستدرجون
السامع لاتباع أهوائهم وعقائدهم التي تخدم سياسة التسعير الإبليلية بين الأمة
المسلمة! يُخفون الكفر والعصيان ويُظهرون التوحيد والإيمان ما قصدوا بذلك
إلا التلبس والخداع والعدوان! أقاموا دولةً لشركائهم في فلسطين وخدعوا الأمة
بشعارات الجهاد والتحرير ولم تزل كلمات الهالك العين فيصل آل سعود
تستميل الكثير من المسلمين! وفي جانب العقيدة والدين لم يزل أحبارهم
ورهبانهم آل الشيخ في ليلهم ونهارهم مجتهدين في هدم شرع الله العلي القدير
والتقليل من شأن الرسول البشير النذير ونشر عقائد التضليل والتبديع والتكفير!
وقد شُبِّهوا في نفاقهم وفساد بواطنهم بالخشب التي فسد جوفها **(كأنهم خشب**
مُسندة) أو أنهم في كتمان الحق وترك التفهّم والاستبصار والتعامي عن النظر
والاعتبار والإعراض عن التدبر والافتكار والاعتماد على الشركاء بمنزلة
الأخشاب المتأكلة المعتمدة على غيرها إذ يستعينون بشركائهم لينصروهم
ولينالوا حمايتهم! وفي جانب علائقهم مع المسلمين يستندون إلى الإيمان لحقن
دمائهم! انتهوا في خور الطبيعة وهلع النفوس والجن والفرع إلى أقصى الغايات

وأعظم النهايات **(يحسبون كل صيحة عليهم)** أي هم في خوف وهلع لسوء ما يضررونه للمسلمين من العداوة! إذا سمعوا صيحة خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم للإيقاع بهم! إنه النفاق وإنه الخوف من أن ينكشف ويفتضح! ثم أخبر سبحانه أنهم أعداء أعداء المسلمين يتربصون بهم المصائب والهلكات والمعاطب فقال **(هم العدو فاحذرهم)** والعجيب أن لفظ "العدو" لم يأت معرّفاً بالألف واللام سوى في هذه الآية التي تشخصهم بصورة فاضحة ساخرة توجب أخذ الحذر من هذا الصنف الممسوخ الخاوي الجبان الحاقد الكنود الماكر الكامن المختبئ في الصف! والتعريف في "العدو" يفيد تأكيد قصر صفة العداوة عليهم وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل عداوة غيرهم في جانب عداوتهم منزلة العدم، فإن أعدى الأعادي العدو المداري وتحت ضلوعه الداء الدوي! وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم، والمراد: الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابه لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد والله أعلم. فاحذرهم فأعمالهم دلت على أنهم حمُرٌ... فإصلاحهم هدمٌ وتثقيفهم عمى... عقيدتهم زيغٌ ومنطقهم هجرٌ... فلو قيس إبليس بهم وهو شيخهم... لكان لهم شرٌّ وهو له شرٌّ. والآية تصورهم أبداً مقنعين يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف، يتوجسون من كل صوت وهاتف يحسبونه يطلبهم **(يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم)** هم العدو المستبد المجرم وجموعهم سبئية تتعلقم... لثام وأنذال... ولا يُكرم اللثام ولا يُدارى الأنذال... ومن يداريهم فذا في خبالٍ... وطامع فيما غدا كالحال **(قاتلهم الله)** وهذا الدعاء من الله يفيد نزول اللعنة عليهم، وهو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، وقول الله قضاء نافذ

لا راد له ولا معقب عليه، فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا، ثم أخبر تعالى أنه إذا أرشدهم غيرهم إلى الحجيء إلى أشرف الخلق متذللين مستشفعين مستغفرين غير مرأين ولا مستهزئين جاؤوا بحجيء المستنكف المستكبر ووقف المرائي المستهزئ لغلبة الشيطنة واستيلاء القوة الوهمية واحتجاجهم بالأنانية وانهمالكهم في ظلمة الشهوات الحيوانية والأخلاق البهيمية! ولما نعى سبحانه عليهم إباءهم عن الإتيان خاضعين أشار إلى عدم فائدة الاستغفار لهم لما علم سبحانه من سوء استعدادهم وكثافة طباعهم وغلظة جبلتهم ورسوخهم في الكفر والاستهزاء وخروجهم عن حُكم الله تعالى تمرداً ومكابرة! ثم أعرب الحق عن مكرهم وسوء طواياهم انتقلاً من وصف إعراضهم إلى وصف لون آخر من كفرهم وهو الكيد للدين وإغلاق المنافذ على أتباع الرسول الأمين! قائلين: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا! وقد عبر في الرد عليهم بنفي الفقاهاة عنهم أي عدم فهم الأمور الخفية ودلّ عليه بقوله سبحانه **(ولكن المنافقين لا يفقهون)** لأنهم لا يعرفون إلا الأسباب الظاهرية! ثم بيّن حماقتهم وجهلهم وغرورهم بقوله **(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)** ومضمون الآية صادق على بني إسرائيل ولا ينافي ذلك خصوص سبب النزول، ولجملة الأوصاف المذكورة في الآية أضداد يرد بيان القرآن فيها بحسب تقابلها ويجري معها إفهامه، وفي الآية من الدلالة على عظيم رتبته ﷺ ومن لطيف أمداح القرآن له وشرف المؤمنين ما فيها، ومن غاب عنه الفهم نُفي عنه العلم ووُصف سمعه بالصمم وعينه بالعمى ونُسب إلى البهيمية. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»** قال ابن الملقن: هذا

إنما هو خبر عن وقت دون وقت. قلت: هو خبر عن الأزمنة الإسلامية يقصد المسلمون زيارة النبي المعظم ﷺ شأنه والتبرك بمشاهدته وآثاره وآثار أصحابه الكرام فلما رجع أهل الكتاب إلى المدينة تغيرت الأحوال على ما لا يخفى. وجحر الحية: هو الذي خرجت منه فلذلك تأرز إليه، يقال: أرزت الحية إلى جحرها تأرز أرزاً إذا انضمت واجتمع بعضها إلى بعض فيه، والإيمان إنما خرج من المدينة لما دخلها أهل الكتاب ثم إليها يرجع. قال العلامة علي القاري في المرقاة: المراد المدينة وجوانبها وحواليها ليشمل مكة فيوافق رواية الحجاز وهذا أظهر والله أعلم. اهـ. وتفسيراً لهذا المعنى الكريم روى الترمذي عن عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنّي» والأرز: أن تدخل الحية جحرها على ذنبها فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعد، والأروية: الأنثى من الوعول، وخصها بالذكر لأنها أقدر من الذكر على التمكن مما توغر من الجبل، والمراد من الحجاز: المسجدين مكة والمدينة، والمعنى أن الدين في آخر الزمان عند ظهور الفتن واستيلاء أهل الكتاب على الحجاز يخرج من موطنه ثم يعود إليه كما بدأ منه فيكون عزيزاً قوياً فيه كالأروية في شناخيب الجبال، والمناسبة بين أول الحديث وآخره ظاهرة وأشبه لمعنى الحديث ما رواه الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» قال صاحب فيض القدير: اعلم أن الأرض كانت قبل بعثة النبي ﷺ مظلمة مطبقة وأنوار الإيمان غائبة عن الأرض موجودة عند الملائكة وأهل الإيمان

بالغيب فلما أرسل الله رسوله ﷺ طلعت بظهوره شمس الإيمان بمكة فاستنار به من قبل من نوره بالإيمان به فلم يزل الدين يظهر شيئاً فشيئاً لكن بحكم الضعف لأنه طلع في سحاب متراكم بعضه على بعض فلم يزل كذلك مرة يظهر ومرة يخفى حتى هاجر من هاجر من أصحابه وبقي المستضعفون بمكة حتى ظهر المصطفى ﷺ بالمدينة وافتتح الأقطار شيئاً بعد شيء حتى فتح مكة واتصل النور وانفتح حتى توفي وبقي الفتحة ظاهراً حتى غمر الأرض بوجود نوره عند خلفائه والقائمين به من بعده فلما ضعف الإيمان الذي هو النور بقبضه عن الخلق لمخالفتهم ظهر سلطان الليل حتى يأتي وعيد الله. اهـ. أخرج الإمام الحاكم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «ليعودن الأمر كما بدأ ليعودن كل إيمان إلى المدينة كما بدأ منها» وحمل بعضهم الأحاديث على زمن الدجال فيكون معنى رجوع الإيمان إلى المدينة على التعكيس إذ تكون حصناً للمؤمنين من رعب الدجال لأنه لا يدخلها ولا يدخل مكة خلافاً لأهل الكتاب في هذا الزمان والأولى حمل الأحاديث على كلا الزمنين لكونه ﷺ أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً... ولما كانت الدلائل على عزة الله لا تخفى على أحد لما تحقق من قهره للملوك، ومن نصر الرسل وأتباعهم بإهلاك أعدائهم بأنواع الهلاك وبأنه سبحانه ما قال شيئاً إلا تم ولا قالت الرسل شيئاً إلا صدقهم فيه، ختم سبحانه الآية بالعلم الأعم من الفقه فقال (ولكن المنافقين لا يعلمون) ونفي العلم أبلغ من نفي الفقه فأوتر ما هو أبلغ لما هو أدعى له. ولما كان هذا الذي حكاه سبحانه وتعالى عن المنافقين بحيث يعجب غاية العجب من تصور قائله له فضلاً عن أن يتفوه به فكيف بأن يعتقد، نبه على أن العلة الموجبة له طمس البصيرة، وأن العلة في طمس البصيرة الإقبال بجميع القلب على الدنيا

وزينتها...وقد استهلت السورة بفضح أحوالهم وكشف دخائلهم وإظهار كذبهم وبيان استهزائهم ثم ذيلت بالتحريض على قتالهم والتحذير من ملهامة الأموال والأولاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والتعبير عن جهادهم بذكر الله للتنبيه على قدسية الجهاد لأنه ذروة سنام الإسلام كما جاء في مسند أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله» وروى الحاكم والبيهقي عن أبي المثني العبدى قال: سمعت ابن الخصاصة يقول: أتيت رسول الله ﷺ لأبأيعه على الإسلام فاشتراط علي: «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله» قال: قلت: يا رسول الله أما اثنتان فلا أطيعهما، أما الزكاة فما لي إلا عشر ذود هن رسل أهلي وحمولتهن، وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله فأخاف إذا حضرن قتال كرهت وجشعت نفسي، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها ثم قال: «لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟» قال: ثم قلت: يا رسول الله أبأيعك فبأيعني عليهن كلهن. وذكر الله تعالى هو الحافظ من وساوس الجنة والناس وهو المنجي من عذاب الله في الدنيا والآخرة المقرب للفتح لمن لازمه الموجب للثواب المقيم والأجر العظيم كما جاء في الخبر الأطهر: «أعظم المجاهدين أجراً: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً» وروى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً يقول المنافقون إنكم تراءون» وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين».

لنغرينك بهم

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً) هذه الأوصاف الثلاثة الواردة في الآية هي صفات قائمة ببني إسرائيل للتنبيه على أحوالهم المختلطة - فهو من عطف المرادف - وقد تواعدهم الله بأن يغري نبيه بهم "لنغرينك بهم" قال قتادة: لنولعنك ولنحرسنك بهم. وقال بعضهم: لنعلمنك بهم ولنسلطنك عليهم ولنحملنك على قتلهم. وقال محمد بن يزيد: قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتصال الكلام بها وهو قوله عز وجل "أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً" فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. قال الإمام القرطبي: وفي الحديث عن النبي ﷺ: «خمس يقتلن في الحل والحرم» فهذا فيه معنى الأمر كآلية سواء، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. انتهى. وروى الإمام مسلم من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» فكانت اللعنة التي لحقتهم من رسول الله ﷺ لحديثهم ولانتسابهم إلى غير آبائهم أن قُتلوا وأُخرجوا لإنجازاً لوعد الله تعالى وإنفاذاً لأمر رسوله المعظم ﷺ بعد أن كانوا مستخلفين ممكنين... ثم عادوا في المرة الثانية إليها وما ينتظرون إلا مثل أيام آبائهم الذين أجلوا من ديارهم وقد أشار سبحانه إلى

إخراجهم بأداة التراخي **(ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً)** لأن الجلاء أعظم رتبة في أذاهم من غيره إذ الإخراج من الأوطان من أعظم المهوان! قال الإمام الفخر: والاستثناء فيه لطيفة وهي أن الله تعالى وعد النبي ﷺ أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته ولو كان النفي بإرادة الله من غير واسطة النبي لأحلى المدينة عنهم في ألطف آن بقوله كن فيكون ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال "ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً" وهو أن يتهيئوا ويتأهبوا للخروج. اهـ. ولما كان معنى الكلام أنهم ينفون لأنه ﷺ أمر بنفيهم وإبعادهم وقتلهم، بين حالهم في نفيهم أو نصبه على الشتم فقال **(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً)** والمعنى أنه في ذلك القليل الذي يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين وإذا خرجوا لا ينفكون عن القتل والتشريد، أي لا يجاورونك إلا ملعونين، وينتفون ملعونين ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون، وفي الحديث عند الإمام مسلم: **«ألا إن المدينة كالكير تُخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»** ولما كان الخبيث المنفي قد يُترك، بين أنهم على غير ذلك فقال **(أينما ثقفوا)** أي وجدوا وواجههم أحذق منهم وأظن وأكيس وأصنع، وقوله **(أخذوا)** أي أخذهم ذلك الواحد لهم **(وقتلوا)** أي أكثر قتلهم وبلغ فيه، ثم أكده بالمصدر بغضاً فيهم وإرهاباً لهم فقال **(تقتيلاً)** ثم بين تعالى أن تلك عادته في أعدائه فقال مؤكداً بالإقامة في موضع المصدر لما لهم من استبعاد ذلك لكونهم لم يعهدوا مثله مع ما لهم من الاشتباك بالقبائل المسلمة فقال **(سنة الله في الذي خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)** أي سن الله الملك الأعظم في الذين كانوا ينافقون الأنبياء كعيسى ومحمد عليهما

السلام أن يجري عليهم الجلاء والأخذ والقتل حيثما ظفر بهم، وقد مضت أيامهم وأخبارهم وانقضت وقائعهم وأعمارهم! وموقع هذه الآيات عقب الأمر بالصلاة والسلام على النبي المؤيد المعظم والحبيب الجليل المكرم ﷺ يقتضي مناسبة في النظم داعية إلى مزيد فضله وفخامة شأنه وجلالة مقداره... وروى الديلمي وابن منده وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ في المسجد ومعه ناس من أهل المدينة وهم من أهل النفاق فإذا سحاب فقال رسول الله ﷺ: «سَلِّمْ عَلَيَّ مَلِكْ ثُمَّ قَالَ: لَمْ أَزَلْ أَسْتَأْذِنُ رَبِّي فِي لِقَائِكَ حَتَّى كَانَ هَذَا أَوْ أُنْ أَذِنَ لِي، وَإِنِّي أَبْشُرُكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ».

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين

هذه خطة الحركة الجهادية التي أمر الله تعالى بها والتي سار عليها المصطفى الأعظم ﷺ يقاتل من يليه ويجاوره مرحلة فمرحلة فجاهد كفار مكة ثم قاتل أهل الكتاب ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد فارس والروم. والمقصود من الكفار هنا - والله أعلم - الذين أوتوا الكتاب وذلك ظاهر من النظم وهو متصل بقوله ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾ وبقوله ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ وما قبله من قوله ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ وانتقل إلى فضح مقالهم ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم حتى انتهى إلى قوله ﴿وإذا ما

أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وهو عطف على جملة (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) قال الإمام أبو السعود في شرح قوله "وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض" بيان لأحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه. وقال الإمام القشيري في تفسيره: تقنعوا بخمار التلبس ظانين أنهم يبقون في سر بتكلفهم والحق أبي إلا أن فضحهم وكما وسمهم برقم النكرة أطلع أسرار الموحدين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم. اهـ. والمنافقون لا يروعهم سلاح المسلمين وإنما يروعهم أن يفطن لهم المسلمون ويقفوا على حقيقتهم ويظهروا على سرائرهم التي يستسرون من الكفر والإشراك في حكمه تعالى وعبادته! وجهادهم وغزوهم أولى من جهاد وغزو الروم والفرس إذ الروم والفرس تدينوا بدينهم الذي حرفوه لهم وهؤلاء كفار مشركون أعداء جميع الأنبياء وجميع الكتب التي أنزلها الله، والروم والفرس لا يكتمون دينهم بل يعلنوه، وهؤلاء يضمرون الكفر والشرك ويخدعون الناس بشعار التوحيد. وقوله "نظر بعضهم إلى بعض" أي نظر الطعن والاستهزاء والازدراء بالوحي ثم انصرفوا عن الإيمان وذلك وقت رجوعهم إليه وإقبالهم عليه فلو اهتموا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتمام كما في قوله "مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون" ومعنى قوله "وليجدوا فيكم غلظة" أي شدة وخشونة وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة والمباينة وعدم المصانعة والملاينة والمقصد من ذلك إلقاء الرعب

في قلوبهم حتى يخشوا عاقبة الاستهزاء بالدين والإضرار بالمسلمين... إن قتال من يلي المسلمين من الكفار يهول المهزومين روحياً ويتعاضمهم لأن تكاليفه شاقة عسيرة، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم بعث الله محمداً ﷺ ليخرج الناس من جاهليتهم إلى سلطان الله وحده، فقاتل ﷺ إخوة القردة والخنازير الذين يقتسمون الأديان والمناهج والأحزاب قبل أن يقاتل فارس والروم. والأمة اليوم تواجه هجوماً منظماً لثيماً مكرراً خبيثاً يقول لها: أنا حارس الإيمان والإسلام! وهو يحرس الأنظمة الدولية ويدير عمليات القتل والإبادة لشعوب بأسرها لمجرد أنها قالت ربي الله! لقد وضع الله تعالى قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال سبحانه (فإنما تتقفنهم في الحرب فشردهم من خلفهم) أي فافعل بهم من النعمة ما يكون تشريداً لشركائهم ومن وراءهم من الكفرة بقتلهم شرّ قتلة والنكاية فيهم حتى لا يجسر عليك أحد بعدهم اعتباراً بهم واتعاضاً بحالهم.

يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد

عامهم هذا

لما بيّن الحق الحكيم المرهبة والمرغبة في البراءة من المنافقين الطاعنين في الرسول الأمين وأتباعه المؤمنين، رجع إلى غرض إقصائهم عن المسجد الحرام المفاد بقوله "ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله" وجيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليله بعلّة أخرى تقتضي إبعادهم عنه وهي أنهم نجس فقد علل فيما مضى بأنهم شاهدون على أنفسهم بالكفر والآيات في المنافقين - كما تقدم - فليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني للتوحيد وبين هنا أن العلة في مدافعتهم

وشديد مقاطعتهم أنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة حكمية وحقيقية أو أنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة في باطنهم حيث تنجسوا بالشرك والاعتقاد الباطل ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات والمقصود تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير لأن المواضع التي ظهرت فيها أنوار عظمتة وجلالته ولملت فيها بروق كبره وجالت صوارم نفيه وأمره وأشرقت عليها شمس النبوة والرسالة مواضع القدس ومواطن الأنس من دنا إليها من غير أهلها احترق بنارها وبهرت بصره أشعة أنوارها، والإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية وهو العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله عنه ونادى علي رضي الله عنه بالأذان وتلا على المشركين براءة وذلك لتسع سنين مضين من هجرة رسول الله ﷺ ثم حج ﷺ من العام المقبل حجة الوداع لم يحج قبلها ولا بعدها، والمقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحج لأن مناسك الحج كلها تتقدمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك ولذلك لما نزلت براءة أرسل النبي ﷺ بأن ينادى في الموسم أن لا يحج بعد العام مشرك وقرينة ذلك توقيت ابتداء النهي بما بعد عامهم الحاضر فدل على أن النهي منظور فيه إلى عمل يكمل مع اقتراب اكتمال العام وذلك هو الحج ولولا إرادة ذلك لما كان في توقيت النهي عن اقتراب المسجد بانتهاء العام حكمة ولكان النهي على الفور، ويؤيده قوله ﷺ في الحديث عند النسائي: «ألا لا يحجن بعد العام مشرك» ولما خاف المسلمون انقطاع الميرة وما كانوا يجلبونه من الأرزاق والمكاسب أعقبه بقوله "وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم" وقيده بالمشيئة لئلا يتعلق القلب بتحقق الموعد بل يتعلق بكرم من وعد به ويتضرع إليه في نيل جميع المهمات ودفع جميع الآفات والبلبات...وسياق النظم الجليل يشير إلى منع

أهل الكتاب من أن يحوموا حول المسجد الحرام ويوجب قتالهم ابتداء لأهم أئمة الكفر وقادة النفاق وصناديد الشرك ومعلوم أن كفار قريش لم ينقطعوا عن الاتصال بأهل الكتاب منذ ظهرت دعوة الإسلام يلوذون بهم يسترشدونهم في الدين فكان أهل الكتاب يُضلّلونهم ويلقّنونهم أنواع زخرفهم وسحرهم ثم ضلّلوا الأمة وفرقوها فرقاً وطوائف ثم دويلات وحكومات واحتلوا قبلتها ولهذه المناسبة والمشاركة أردف الحق بتخصيصهم بالذكر وإيجاب قتالهم فقال عز وجل ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وقد نزلت الآية في اليهود والنصارى وخص المولى سبحانه قتالهم لكونهم عالمين بالميثاق الذي أخذه المولى عليهم، فلما أشركوا بالله تعالى ولم يراعوا حرمة بيته الحرام تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة! وكان آخر كلام تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» أراد اليهود والنصارى على نحو ما جاء في مسند البزار: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وذلك يقتضي إخراجهم من المسجد الحرام ومنعهم من أن يحوموا حوله بطريق الأولى، والله ورسوله أعلم. وقوله ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ كقوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا﴾ وجملة "يخادعون" بدل اشتغال من جملة ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ لأن قولهم ذلك يشتمل على المخادعة! قال الإمام الماتريدي قدس سره: لا يقصد أحد مخادعة الله لكنهم كانوا يقصدون مخادعة المؤمنين وأولياء الله فأضاف الله عز وجل ذلك إلى نفسه لعظم قدرهم وارتفاع منزلتهم عند الله وهو كقوله "إن تنصروا الله

ينصركم" والله لا يحتاج أن ينصر ولكن كأنه قال: إن تنصروا أولياء الله ينصركم، وهو كقوله "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" والله لا يبايع ولكن إضافة ذلك إلى نفسه لعظم قدر نبيه وعلو منزلته عند الله تعالى فكذلك الأول أضاف مخادعتهم أوليائه إلى نفسه لعلو منزلتهم عند الله وقدرهم لديه، والمخادعة هو فعل اثنين لخداع هؤلاء بحضور المؤمنين لذلك المعنى ذكر المفاعلة والله أعلم. اهـ. والكلام مؤذن بأن المتحدث عنهم ستساق في شأنهم حالة شنيعة مذمومة إذ لا يُستر ذكركم إلا لأن حالهم من الشناعة بحيث يستحي المتكلم أن يصرح بموصوفها وفي ذلك من تحقير شأن النفاق ومذمته أمر كبير، فوردت في شأنهم آيات نُعيَ عليهم فيها خبثهم ومكرهم وسوء عواقبهم وسفه أحلامهم وجهالتهم وأردف ذلك كله بشتى واستهزاء وتمثيل حالهم في أشنع الصور وهم أحرىء بذلك فإن نفوسهم تجمع مدام كثيرة من المخادعة والكذب والجبن وأفن الرأي والبله وسوء السلوك وزوال الثقة والغدر والخيانة وعداوة الأصحاب واضمحلال الفضيلة. وفي الحديث عند الإمام أحمد: قال: **يا رسول الله فحدثني ما الإيمان؟** قال: **«الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر...»** وكانوا قد ألصقوا باليوم الآخر تحيَّلات فاسدة وتوهمات كاسدة تنافي حقيقة الجزاء كقولهم **(لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة)** وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون شيئاً مما حرم الله ورسوله لأنهم لا دين ولا شريعة لهم، فليس عندهم حلال وحرام ولا يدينون دين الإسلام، وفائدة ذكر **(أوتوا الكتاب)** تشنيع حالهم وتبيين حقيقتهم وفضح أمرهم وكشف واقعهم والتنديد عليهم بأنهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاءت به الكتب الإلهية وإنما دانوا بما حرِّفوا منها وما أنكروا منها وما ألصقوا بها، ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام المنزل

من الحكيم العلام...وقوله **(حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)** يعني أهل الكتاب من بني إسرائيل فإن الجزية تؤخذ منهم على الصغار والذل والهوان ثلاثة عشر عاماً أو نحواً من ذلك كما ورد في الخبر: **«نقركم ما أقركم الله»** ثم ينفوا من جزيرة العرب كما فعل الفاروق عمر رضي الله عنه حين أجلاهم سنة عشرين للهجرة أي بعد ثلاثة عشر عاماً تنفيذاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم - والله ورسوله أعلم - وأما أتباعهم الذين تدينوا بأديانهم بعد التبديل فهؤلاء كعبدة الأوثان وقد قرر الإمام الشافعي رضي الله أن الجزية لا تقبل من أحد دان دين كتابي إلا أن يكون آباؤه أو هو دان ذلك الدين قبل نزول القرآن وذكر هذه المسألة في مواضع من كتابه الأم ومن ذلك قوله: أصل ما نبي عليه أن الجزية لا تقبل من أحد دان دين كتابي إلا أن يكون آباؤه أو هو دان ذلك الدين قبل نزول القرآن. وقال رضي الله عنه: وكل من دخل عليه الإسلام ولا يدين دين أهل الكتاب ممن كان عربياً أو عجمياً فأراد أن تؤخذ منه الجزية ويقر على دينه أو يحدث أن يدين دين أهل الكتاب فليس للإمام أن يأخذ منه الجزية وعليه أن يقاتله حتى يسلم كما يقاتل أهل الأوثان حتى يسلموا. وقال أيضاً: وذكر الله عز وجل نعمته على بني إسرائيل في غير موضع من كتابه وما آتاهم دون غيرهم من أهل دهرهم، كان من دان دين بني إسرائيل قبل الإسلام من غير بني إسرائيل في غير معنى من بني إسرائيل أن ينكح لأنه لا يقع عليهم أهل الكتاب بأن آباءهم كانوا غير أهل الكتاب ومن غير نسب بني إسرائيل. اهـ. وفي الآية أمر صريح بقتال أئمة الكفر وصناديد الشرك وقادة النفاق في جزيرة العرب، ولما أمر تعالى بقتالهم ووصفهم بما هو السبب الباعث على ذلك، عطف عليه بعض أقوالهم المبيحة لقتالهم الموجبة لنكاحهم فقال **(وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى**

المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم
الله أنى يؤفكون) وإشراك عزير والمسيح بالعبادة هو الأساس الذي قام عليه
شرك الحكم فإن اليهود والنصارى دعوا الناس إلى عبادة الأنبياء واصفين الله
تعالى بالحلول والاتحاد فيهم ولذلك استحقوا اللعنة ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لعنة
الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فافهم ولا تحتجب
بسلاسل التقييدات وأغلال التقلييدات. قال السدي: لما رجع عزير إلى قومه وقد
أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزير على التوراة
فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى
بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبياً فقال: أنا عزير فلم يصدقوه فقال:
إني عزير قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا: أملها علينا، فأملها
عليهم عن ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلا
أنه ابنه، فقالوا: عزير ابن الله. اهـ. وهذه الآية هي محور السورة وعليها مدار
آياتها، إذ تفضح منافقي بني إسرائيل، والسورة تكشف عن نواياهم وتبرزهم
على حقيقتهم وتخلع عنهم رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق. وقد أورد تعالى
مقاتلتهم الشنعاء عقب الأمر بتطهير المسجد الحرام وهي تبين الأسباب التاريخية
في انحراف بني إسرائيل عن دين الله الصحيح، وفي الآية إلزام لهم بهذا القول،
وسد باب تنصلهم منه إذ هو إقرارهم بأفواههم وصريح كلامهم، والدليل على
أن هذا القول فيهم: أن البيان وصل إليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم
على التكذيب! ورصف الآي كله تحضيض وتأليب على قتالهم في الوقت الذي
يعتلج في نفوس المسلمين التخرج والتردد والتخوف في اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة
بسبب عوامل الإضلال والخداع! فالنص في كتاب الله يزيل الشبهات والمعوقات

التي تحيك في نفوس المسلمين تجاه المستهزئين الذين تظاهروا بالإسلام، وقلوبهم كفرًا وعنادًا متكاثفة الإظلام، اتخذوا مال الله دُولًا ودين الله دَخَلًا وعباد الله حَوَلًا، وتداعوا عليهم من كل أفق ثم أخذوا أموالهم بأشكال وأساليب مختلفة وقدموها عربون مودة لشركائهم! والقرآن يعيد إلى الأذهان تحريف عقيدة أهل الكتاب في المجامع الحلولية الرومانية واليونانية والمحافل الوثنية ليلبسوا الحق بالباطل ويصرفوا الناس إلى شرك العبادة منازعة لله في سلطانه واستعباداً لعباده تماماً كما هو حالهم اليوم ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ أي يشاهون قول آبائهم الأقدمين ومن سبقهم من الأقوام المتقدمين! والمفاعلة في قوله ﴿قاتلهم الله﴾ للمبالغة في الدعاء وهو مركّب يستعمل في التعجب من عمل شنيع! وقوله ﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل وسطوح البرهان؟ والإفك بمعنى الكذب وقد جاء من هذه المادة لأن الكاذب يصرف السامع عن الصدق، واعلم أنه تعالى وصف اليهود والنصارى بضرب آخر من الشرك بقوله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ روى الإمام الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» وفي رواية عند الطبراني أن عدي بن حاتم قال: إنا لسنا نعبدهم، فقال ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟» قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». ولا يخفى على ذي تمييز أنهم

أحلوا لهم الربا والسحت والخمر والزنى والفواحش... وحرّموا عليهم كل ما يقرّبهم إلى الله ورسوله! وروى البيهقي عن حذيفة رضي الله عنه قال: أما إنهم ما عبدوهم ولكنهم أحلوا ما حرم الله عليهم فاستحلوه وحرّموا عليهم ما أحل الله لهم فحرّموه فصاروا بذلك أرباباً. وروى الطبري عن ابن عباس قال: زينوا لهم طاعتهم. وروى ابن عبد البر عن أبي البختري قال: أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية. وفي رواية عن حذيفة أنه قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم في المعاصي. ومن خلال هذه الروايات يتبين أنهم أقروا لهم بحق التشريع والإفتاء والتحليل والتحريم ومنحوهم خاصية من خصائص الربوبية والألوهية وخالفوا ما أمروا به من التوحيد، وقد سمّى سبحانه كل من يُتخذ أو يطاع أو يُدعى أو يُتبع من دون الله رباً وإلهاً، وبنو إسرائيل أعظم كفراً وشرّاً من أبي جهل وأضرابه فإن بني إسرائيل أقروا بالفروع وأبطلوا الأصول فخادعوا المؤمنين واستهزؤوا بكلام رب العالمين وكلام رسوله الأمين! متمثلون على مناواة الإسلام... مرادهم إطفاء نور الله بأفواههم! ودلت الآية على أنّ آل الشيخ هم الأصل في الحكم، وأمّا آل سعود فهم تبع لهم خلافاً لما يتوهمه كثير من الناس. ولما ذكر تعالى أفتياهم على الشرع؛ وجّه الخطاب إلى المؤمنين ليكونوا أشداء عليهم **(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)** وروى الإمام الطبري عن السدي قال: أما الأحبار فمن اليهود، وأمّا الرهبان فمن النصارى، وأمّا سبيل الله فمحمد صلّى الله عليه وآله. اهـ. وأكلهم أموال الناس يتمثل في

صور شتى... وقصور المفتي الأعور عبد العزيز آل الشيخ لا تزال شاهدة، وقد شهد تاريخ آل الشيخ أموالاً ضخمة تنتهي إلى أيدي شركائهم! ويبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما هم عليه مفاجئ! ولذلك احتاج الانطلاق الكامل لمواجهتهم كثيراً من البيان في سورة التوبة نظراً للملابسات التي تحيط بهم... إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين الله ألزم وأشد ضرورة من بيان حال شركائهم، ذلك أن نفوس المسلمين لا تنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماماً وجه الجاهلية! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالشركاء وليس الحال كذلك فيما يختص بالحفاة العراة وعلى وجه التحديد آل الشيخ الذين أعطوا الشرعية لآل سعود وصالوا على نصوص الكتاب والسنة صيال المحاربين لله ولرسوله! على وجوههم سفعة من الشيطان، وقتلهم من أعظم الجهاد في سبيل الله. وإذا كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب في الفترة الأولى قد اقتضى كل هذه الحملة نظراً لتلك الملابسات التي كانت قائمة في تكوين المجتمع المسلم في تلك الفترة، فإن الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب اليوم في حاجة إلى حملة أشد وأعمق تستهدف أول ما تستهدف تعريتهم من لافطة الإسلام وتظهرهم على حقيقتهم... روى الطبري عن الربيع بن أنس قال: قلت لأبي العالية: كيف كانت الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: قالوا: ما أمرنا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، وهم يجدون في كتاب الله ما أمرنا به وما نهوا عنه، فاستنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فحصل من مجموع أقوال اليهود والنصارى أنهم جعلوا لبعض أئبارهم ورهبانهم مرتبة الربوبية في اعتقادهم فكانت الشناعة لازمة لهم، ولو كان من بينهم من لم يقل بمقالمهم كما زعم عدي بن حاتم فإن الأمة تؤاخذ بما يصدر من أفرادها إذا أقرته

ولم تنكره...وقد تأوّل الأخبار والرهبان كلمات الله وأخرجوها عن مفهومها الذي لها إلى المفهوم الذي يرونه وبدلوا الوجدانية! وفي جانب علاقتهم مع المسلمين تظاهروا بالدعوة إلى توحيد العبادة، ومن هنا كان للبابوات هذا السلطان المبسوط على أتباعهم...وجملة **(وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً)** في موضع الحال من ضمير **(اتخذوا أخبارهم ورهبانهم)** وهي محطّ زيادة التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم بأنهم لا عذر لهم فيما زعموا لأن وصايا التوراة والإنجيل والقرآن - بالتحذير من شرك الربوبية والألوهية - طافحة، وأعلام الوجدانية فيها لائحة، وتخصيص المسيح بالذكر دون عزيز لأن بني إسرائيل جعلوا من أكذوبة صلبه وسيلة لنقض توحيد الربوبية والألوهية!

(ومنها الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) الإخبار بـ"هو أذن" كناية عن تصديقه ﷺ بكل ما يسمع ومرادهم أنه لا يعرف مكر من يمكر به وخداع من يخادعه وكذبوا فإنه أعرف الناس بنفاقهم...وجملة "قل أذن خير لكم" مستأنفة استئنافاً ابتدائياً على طريقة المقابلة والمحاورة لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاطة لهم وكمداً لمقاصدهم وهو ضرب من المحازم المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد في أحد الجانبين يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده تنبيهاً له على أنه الأولى بأن يرد، ثم فسر ذلك بقوله "يؤمن بالله" والمقصود أنه يعامل أهل النفاق بما أمر الله به من المعاملة بالعفو والصفح والإعراض عنهم، والإيمان للمؤمنين تصديقهم في ما يخبرونه فإنه لو حملهم على مبلغ علمه وتفرسه لقصرت عن ذلك غالب الأفهام وتاهت بسببه أكثر الأوهام ووقع من الأغلب الاتهام، وقوله "ورحمة للذين آمنوا منكم"

أي للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه تعالى للإيمان منهم ولو آخذهم بحالهم دون مهل لسبق السيف العذل، ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول الحبيب ﷺ الواسطة بين الحق والخلق في إصلاح أحوالهم فإنما يستحق منهم الشكر والإكرام لا الأذى والإيلام فمن آذاه استحق العذاب الأليم وهو إنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة! ثم علل ذلك باستهانتهم بالله ورسوله وأخبر أنهم يخشون على دمائهم فيصلحون ظواهرهم حفظاً لها بالإيمان الكاذبة فقال ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ولما كان المقصود المبالغة في تعظيم الرسول الكريم ﷺ أفرد الضمير الدال على وحدة الراضي لأن كل ما يرضي أحدهما يرضي الآخر.

يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا
إن الله مخرج ما تحذرون

الأمر بالاستهزاء أمر تهديد ووعيد، وهذا الحذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا رسول الله يذكر كل شيء فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره، وهو يلتئم مع قوله بعده ﴿قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ وسورة براءة تُسمى الحافرة حفرت عما في قلوب أئمة النفاق وهتكت عليهم أستارهم وأفشت أسرارهم فضلاً عما كانوا يظهرونه من أقاويل الكفر! والمراد بالتنبئة - والله أعلم - إذاعة ما كانوا يخفونه من أسرارهم فيسمعونها من أفواه الناس مذاعة فكأنها تخبرهم بها وإلا فما في قلوبهم معلوم لهم والمحذور عندهم إطلاع المؤمنين عليه! وكان المنافقون صنفين:

الأول: الأتباع كعبد الله بن أبيّ بن سلول وهؤلاء طابت نفوسهم بوسوسة أهل الكتاب واثتمروا بأمرهم واتخذوهم أولياء. والصنف الآخر: المتبوعون من أهل الكتاب المعلنون بالأراجيف فعذبوا بالقتل والإخراج من جزيرة العرب وانكشاف معظم أحوالهم. ولما وصفهم بالنفاق والاستهزاء حققه باجترائهم ووقاحتهم فقال ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ والخوض واللعب يشمل الاستهزاء! وقد تأكد ذلك بقوله ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جواب الموقن بحالهم بعد أن أعلمه بما سيعتذرون به، والاستفهام إنكاري توبيخي! أي قل لهم تقريراً على استهزائهم متوعداً لهم ﴿أبالله﴾ المحيط بصفات الكمال ﴿وآياته﴾ التي لا يمكن تبديلها ولا تخفى على ذي بصر ولا بصيرة ﴿ورسوله﴾ الذي عظمت من عظمتة وهو مجتهد في إصلاحكم ﴿كنتم تستهزئون﴾ ولما حقق استهزاءهم أنتج قوله ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي الذي ادعيتموه بالسنتكم نفاقاً... وماذا يُتوقع من هؤلاء الذين استهزؤوا بأنبيائهم؟ ثم نراهم اليوم يحركون شركاءهم ليستهزؤوا بنبينا محمد ﷺ عبر الرسومات الساخرة! ثم شرح تعالى نوعاً آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم فقال ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ والمقصود - والله أعلم - بيان أن إناهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة ولما تطبعوا بهذه النقائص كلها؛ اختصوا بكمال الفسق وهو الخروج عن حكمه تعالى، ثم بين تعالى أن لهم على هذا الخداع العذاب الدائم والطرْد اللازم فقال ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ ثم أخبر سبحانه أن

حال المستخلفين الجدد متشابهاً لحال من كان قبلهم من الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في النفاق والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه! وقد ذكرت الكتب المصرية القديمة أن ديانة الفراعنة ديانة توحيدية! فحصلت المشابهة بين الفريقين في النفاق والمكر والخديعة والتمثل بدعوة الأنبياء والاستهزاء بهم، ولما آذن هذا النظم لهم بالخسارة؛ حصل التشوف إلى عاقبة أمرهم فأخبر عن ذلك بقوله ﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ ثم أخبر تعالى عن إهلاك ست أمم عربية مستخلفة خاضت في النفاق والاستهزاء بآيات الله ورسوله ﴿ألم يأثم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ والآيات تبوح بأسرار اللعنة النازلة ببني إسرائيل وتكشف دسائسهم وأحاييلهم وتفضح طرقهم الملتوية وحيلهم الماكرة لتبين لأمة الإسلام طريقتهم في العمل والكيد والادعاء على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم والجديد، وما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائسهم ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع بتلك التوجيهات القرآنية وبهذا الهدى الإلهي الذي انتفع به أسلافها، ولا يزال بنو إسرائيل بلؤمهم ومكرهم يضلون هذه الأمة عن دينها ويصرفونها عن قرآنها كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية... وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية، وينابيع معرفتها الصافية... وسيظل بنو إسرائيل في مأمن من هذه الأمة ما دامت

مصروفة عن فهم كتاب ربها الذي تستمد منه وجودها وقوتها وغلبتها...ولما ختم سبحانه بما سبب هلاك الكفار والمنافقين من إصرارهم وعدم اعتبارهم عطف ببيان حال المؤمنين ترغيباً في التوبة طعماً في مثل حالهم...ثم أتبع ذلك الأمر بجهاد الكفار والمنافقين بما يليق بعنادهم فقال **(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)** وهو أمر بالإغلاظ عليهم في القتال والمخاشنة في القول، وقد وردت الآية في كل من سورتي التوبة والتحريم، ويبدو أن آية التحريم تشير إلى الجهاد بالسيف وآية التوبة تشير إلى جهادهم بالقرآن. روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: **«إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»**.

(ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) نزلت الآية على إثر الصلاة على ابن سلول وذلك أنه لما مرض بعث إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه فلما دخل عليه قال له: **أهلكك حب يهود!** والآية وإن نزلت فيه إلا أن مضمونها صادق على بني إسرائيل وقد عرفت مراراً أن خصوص سبب النزول لا ينافي عموم الحكم، وجملة **(ولا تصل)** عطف على جملة **(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم)** عطف كلامٍ يراد إلحاقه بكلام آخر لأن القرآن ينزل مراعىً فيه مواقع الآيات وقد علل سبحانه عدم المغفرة بفسقهم ودل على عراقتهم في الفسق سرورهم بالقعود عن الغزو مخالفين لرسول الله عليه شرائف الصلوات والتحيات وقالوا للمؤمنين تشبيطاً لهم عن الجهاد: لا تنفروا في الحر! فجمعوا ثلاث خصال من خصال الكفر وهي: الفرح بالقعود وكرهية الجهاد ونهي الغير عنه، روى ابن هشام عن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن حارثة عن أبيه عن

جده قال: بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان بيته عند جاسوم يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم... والكلام في هذه السورة تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه بقوله ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوالهم من الآيات التي اتصل بعضها ببعض، وقرائن الآيات دالة على أن المقصود منعه من أن يصلي على أحد منهم إذ وصفهم الله تعالى بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر تنبيهاً على شدة نفاقهم. ثم بين تعالى أن أموالهم إنما هي لفتنتهم لا لرحمتهم ولختهم لا لمنحتهم، وأتبع ذلك عاطفاً على ما أفهمه النظم من كفرهم بالله وتخلفهم عن الجهاد فقال ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ وأولوا الطول هم الرؤساء، ومعنى الطول: ما يستطيل به المتبوع على من يتبعه، وقولهم ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ في حقيقته كفر أظهره في صورة السخرية والاستهزاء! روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله».

الفصل السادس: سورة التحريم

مقصود السورة الحث على المبالغة في الأدب مع رسول الله ﷺ والندب إلى التخلق بالخلق النبوي وحسن المعاشرة للنساء اقتداء به ﷺ في حسن عشرته وكريم صحبته، وهي متوخية مع التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء وهذه على تحريم الإماء وبينهما من الملابس ما لا يخفى، ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ذكر في هذه خصومة نساء المصطفى ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة فأفردن بسورة خاصة ولذا ختمت بذكر زوجيه في الجنة آسية ومريم، وافتتحت ببدء إقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عظيم خلقه وحسن عشرته وكريم صحبته وعصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم، ولذلك تلطف له العزيز الوهاب فقال ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وهذا من أوضح المواضع التي يبين الله فيها كرامة نبيه وعظمة قدره فأثنى عليه بأحسنية ما صدر عنه من الإذن لهم كأحسنيته في سائر الشؤون إذ لا أحسن مما يصدر عن مقامه الأسنى... وكان ﷺ ألمَّ بجاريته مارية في بيت بعض نسائه، فغارت من ذلك فطَّيَّب خاطرها بامتناعه منها واستكتمها ذلك فأفشته إلى بعض نسائه فأنزل الله ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ وفي هذه الآية الكريمة أقوى ألوان النصر والتأييد للرسول الأكرم ﷺ وأسمى ما يتصوره الإنسان من تكريم الله تعالى لنبيه ومن غيرته تعالى عليه ومن دفاعه عنه، وهكذا فإنه ﷺ - أرواحنا له الفداء - ليس في الكرامة والنجابة كآحاد الناس بل ليس كآحاد الأنبياء والرسل وكذلك نساؤه أيضاً لنسبتهن إليه ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ إذ فضيلته ﷺ قد سرت إليهن، وهذه الحملة الهائلة

المهولة تكشف عمق الحادث وأثره في قلب البرزخ الأعظم والنبى الأفخم ﷺ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاته الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير! فهو سبحانه ناصره ومتولي أمره كله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة كلهم أعيان مظاهرون ومؤيدون لهذا الرسول الكريم ﷺ وفي هذا دليل على عظيم انتصار الله تعالى لرسوله سيدنا محمد ﷺ وأن امرأتين إن يصدر منها تظاهر عليه فإن الله تعالى الكبير المتعال هو مولاه الناصر له وإن جبريل بقوته وسطوته وصالح المؤمنين بعزيمتهم وهمتهم والملائكة بجمعيتهم وجهرتهم كل أولئك مؤيدون لرسول الله ﷺ يعني أنه سبحانه لا يسلمه ولا يتركه في ذلك فكيف يسلمه ويتركه فيما هو أشد من ذلك فاعتبر يا عاقل بما هنالك لتعلم فضل رسول الله ﷺ وكرامته عند الله تعالى! وتوجيه الخطاب إلى بعض نساء النبي عليه أكمل الصلوات والتسليمات **(وإن تظاهرا عليه)** مستعمل في التعريض بالمستخلفين على طريقة المثل السائر: إيتاك أعني واسمعي يا جارة! والموقف يتبين من هذه الآية ومما جاء في الرواية التي وردت في صحيح الإمام البخاري على لسان الأنصاري صاحب عمر رضي الله عنهما وهو يسأله: أ جاءت غسان؟ فيقول: لا بل أعظم منه وأطول! وغسان هي الدولة الموالية للروم، وهجومها إذ ذاك أمر خطير! ولكن الأمر كان أعظم وأطول في نفوس المؤمنين! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير وهذا البيت الكريم أكبر من كل شأن وأن اضطرابه وقلقه أخطر من هجوم عملاء الروم. واعلم أيها الحمدي المترصد لفيضان الكشف واليقين أن موالاته الله وجبريل وصالح المؤمنين ومظاهرة الملائكة إبلاغٌ في التهويل وإلا فالواحد من هؤلاء المذكورين يكفي لتظاهر امرأتين، والحق أن مساق الكلام على ما دل عليه سياقه ولحاظه في الأمر بجهاد الذين

كفروا بعد ما أزاح عُذرهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾ ولذلك لا يفهم القرآن من لم يأخذه بحملته... وكل من له وعي يعلم كفايته سبحانه لحبيبه العالي القدر العظيم الجاه فهو تعالى يعمل أبلغ ما يعملهُ مولى مع من هو متول لأمره، وفي معاونته له إظهار لشرفه ومراعاة لحفظ خاطره وشرح لصدوره... ثم جاء الخطاب لجميع زوجاته عليه الصلاة والسلام على سبيل الالتفات ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ وهذه الخيرية لما علقت بما لم يقع لم تكن واقعة في نفسها فإن المذهب أنه ليس على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين وخوطين لأنهن في مهبط الوحي وساحة العز والحضور. ثم توعدَّ سبحانه في الآيات من حاد عن هدي نبيه ﷺ وخرج عن مقتضى الأدب معه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي الحديث عند الإمام المروزي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً تَرَعِدُ فَرَائِصَهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ مَا مِنْهُمْ مَلِكٌ يَقْطُرُ دَمْعُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ مَلَكًا قَائِمًا يَصْلِي وَإِنْ مِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ سَجُودًا مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ لَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنْ مِنْهُمْ رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ كَمَا يَنْبَغِي لَكَ» ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى دواء التقصير وناداهم بما هو أليق بهم من أداة البعد ودعاهم إلى التوبة النصوح وبشرهم مستحماً لهم ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نورهَم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فسارع أيها اللبيب

إلى أمر ربك وكن محباً لنبيك ﷺ حريصاً على تعظيم سنته ومتشوقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركاً بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة. وفي حديث الشفاعة: أنه ﷺ تضرع في أمر أمته فأوحى الله إليه: إن شئت جعلتُ حسابهم إليك، فقال: «يا رب أنت أرحم بهم مني» فقال تعالى: إذاً لا أخزيك فيهم. ولما نفى عنهم الخزي، فسّره بالنور الذي اقتبسوه من مشكاة النبوة المصطفوية إذ النظم لتعظيم النبي الأكرم والرسول الأفخم عروس مملكة الحضرة الإلهية وواسطة عقد نظام العوالم السفلية والعلوية.

﴿ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ قال القاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ليس فيه إلزامٌ ذنبٍ للنبي ﷺ بل فيه بيان ما خُص به وفُضِّل من بين سائر الأنبياء فكأنه قال: ما كان هذا لني غيرك، كما قال ﷺ: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لني قبلي» فإن قيل: فما معنى قوله تعالى ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ الآية، قيل: المعنى الخطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرّد غرضه لغرض الدنيا وحده والاستكثار منها وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عليّة أصحابه، بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو ثم قال تعالى ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ فاختلف المفسرون في معنى الآية فقليل: معناها لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية، وقيل: المعنى لولا إيمانكم بالقرآن وهو الكتاب السابق فاستوجبتم به الصفح

لعوقبتهم على الغنائم، ويزداد هذا القول تفسيراً وبياناً بأن يقال: لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن وكنتم ممن أحلت لهم الغنائم لعوقبتهم كما عوقب من تعدى، وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتهم، فهذا كله ينفي الذنب والمعصية لأن من فعل ما أحل له لم يعص، قال الله تعالى ﴿فكُلُوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وقيل: بل كان ﷺ قد خير في ذلك وقد روي عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل السكيت إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم، فقالوا: الفداء ويقتل منا، وهذا دليل على صحة ما قلنا وأنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبيّن لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم وكلهم غير عصاة ولا مذنبين وإلى نحو هذا أشار الطبري، وقوله ﷺ في هذه القضية: «لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر» إشارة إلى هذا من تصويب رأيه ورأي من أخذ بما أخذه في إعزاز الدين وإظهار كلمته وإبادة عدوه وأن هذه القضية لو استوجبت عذاباً نجا منه عمر وعيّن عمر لأنه أول من أشار بقتلهم ولكن الله لم يُقدّر عليهم في ذلك عذاباً لحله لهم فيما سبق، وقال الداودي: والخبر بهذا لا يثبت ولو ثبت لما جاز أن يُظن أن النبي ﷺ حكم بما لا نص فيه ولا دليل من نص ولا جعل الأمر فيه إليه وقد نزهه الله تعالى عن ذلك، وقال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفداء وقد كان قبل هذا فادّوا في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي والحكم بن كيسان وصاحبه فما عتب الله عليهم وذلك قبل بدر بأزيد من عام، فهذا كله

يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرى كان على تأويل وبصيرة وعلى ما تقدم قبل مثله فلم ينكره الله تعالى عليهم لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسراها والله أعلم إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لهم لا على وجه عتاب وإنكار وتذنيب، هذا معنى كلامه. اهـ. وقد خاطب المولى سبحانه نبيه ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن على معنى إرادة التخفيف عنه والتلطف به وإعزازه والإشفاق على شخصه والرفق بنفسه، ومنها قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ الآيات فقد رضي الله من نبيه ﷺ فيها بالاعتصاف على صالحه من اتبعه والاهتمام بهم وألا يشق على نفسه الكريمة على الله بإثقال كاهله بحمل عبء دعوة من استغنى، وفيها تعريض وإشعار بأن من تصدى ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلاً فلا يبال بهم ولا يُجهد نفسه الكريمة في دعوتهم، فتدبر هذا فإن فيه إعزازاً عزيزاً وتلطفاً لطيفاً من الله جلّ في علاه بحبيبه الذي اصطفاه من خلقه واجتباها. قال القاضي عياض: وقيل أراد بـ"عبس وتولى" الكافر الذي كان مع النبي ﷺ قاله أبو تمام.

سورة الحديد

هذه السورة أول المسبحات ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ روى هشام بن عمار بإسناده عن أبي سلام الحبشي قال: حدثت أن النبي ﷺ كان يقول: «فُضِّلْتُ عَلَى مَنْ قَبْلِي بِسِتٍّ وَلَا فَخْرَ» وذكر منها: قال: «وَأَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَجْعَلُونَهَا جِزْءًا بِاللَّيْلِ إِلَى الصَّبَاحِ، فَجَمَعَهَا لِي رَبِّي فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز

الحكيم)». وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليقوع في القلوب الرهبة والخشية والارتعاش، فيأخذها أخذاً وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه إلا إليه، هذا المطلع الموحى حشد فيه من خصائص الإلهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء، العليمة بكل شيء، وما تعرضه من إبداع اليد القادرة وهي تجول في محيط السماوات والأرض وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب وتشرف من علٍ على الوجود وما فيه ومن فيه **(له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور)** وقوله **(وإلى الله ترجع الأمور)** تذييل جامع لمعنى الملك، وتأكيّد لنظيره في الآية السابقة **(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير)** وفي الآية تعريض بمن استخلفهم الله ملوكاً في الأرض، وتحذير للمستخلفين بأن الله مطلع على كل عمل يعملونه وكل كيد يكيدونه، ولذلك اختير وصف **(بصير)** من بين بقية أسماء الجلال وصفات الكمال لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته. ولما ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل على التوحيد أتبعها بتوجيه الخطاب إلى المستخلفين ابتداء **(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)** أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، فأمرهم بالإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا وإنفاقها في سبيل الإسلام مصرّحاً باستخلافهم ثم ونجهم على ترك الإيمان بأمرين أحدهما: أن الرسول يدعوهم ليؤمنوا برهم والمراد أنه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة، والآخر: أنه تعالى أخذ الميثاق عليهم **(وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين)**

والكلام معهم على سبيل التوبيخ والتقريع، والمعنى أنه لم يبق لكم عذر في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهم عليكم ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج وينصب لكم الأدلة ويزيح عنكم العلل، وقد أشار إلى هذا المعنى حديث أبي هريرة في الصحيحين قال: سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» والإيمان بالله لا يتم إلا بالتسليم للواسطة العظمى بين الله وبين عباده على نحو ما ورد في صحيح الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال لو فد عبد القيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وفي الصحيحين من حديث أسماء أن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار وإنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً أو مثل فتنة المسيح الدجال فيؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد هو رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وأطعنا - ثلاث مرار - فيقال له: نعم قد كنا نعلم إنك لتؤمن به فنم صالحاً، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون: شيئاً فقلت» وفي حديث البراء بن عازب عند الإمام أبي داود: «وإن الكافر - فذكر موته - قال: وتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: له من ربك؟ فيقول: هاه هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، قال: فيأتيه من حرها وسمومها، قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه - زاد في حديث جرير - قال: ثم

يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار تراباً، قال:
فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير تراباً، قال:
ثم تعاد فيه الروح» ومدار سورة الحديد حول الذين استخلفوا فخانوا الأمانة
وخالفوا الديانة وتشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة،
وتصورهم في مشهد القيامة وهم في حيرة وضلال وفي مهانة وإهمال وهم
يتعلقون بأذيال المؤمنين (اليوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا
نقتبس من نوركم) فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين يشع ذلك النور اللطيف
الشفيف، ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها
في الظلام؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهم (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) ويبدو أنه
صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام، إذ لا
نور وراءهم وإنما أرادت ملائكة العذاب إطماعهم ثم تخيبهم بضرب السور
بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة، وهذا الاستهزاء جزاء
على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم...وقد ذكر لهم المؤمنون خمسة
أصول متفرعة على النفاق، الأول: فتنتهم أنفسهم وهذا ينشأ عنه الكذب
والخداع والاستهزاء والطعن في المسلمين، الثاني: التربص وهو انتظار شيء،
وحذف هنا مفعوله ومتعلقه ليشمل عدة أمور ينتظرها المنافقون في شأن المؤمنين
وهي كثيرة مرجعها إلى أذى المسلمين والإضرار بهم فيتربصون هزيمة المسلمين
في الغزوات ونحوها من الأحداث، الثالث: الارتياح في الدين وهو الشك فتارة
يعتمدون على المسلمين وتارة على الكافرين لإمساك العصا من الوسط، الرابع:
الغرور بالأمان والمراد بها ما كانوا يمنون به أنفسهم من أن انتصار المؤمنين
عرض زائل وأن الحوادث تجري على رغبتهم وهواهم، الخامس: غرهم بالله

الغرور، والمراد به الشيطان أي خدعهم بإلقائه خواطر النفاق في نفوسهم بتلويينه في لون الحق وإرضاء دين الكفر الذي يزعمون أنه يرضي الله، وأن العاقبة لهم وأن الجنة لهم من دون الناس وأنهم شعب الله المختار فتوعدهم الحق تعالى وذكرهم أحوال يوم القيامة حين لا تنفع الندامة ولا يقبل منهم ولا من شركائهم عدل ولا فدية! ولما كان هذا وعظاً شافياً للصدور وكاشفاً لغطاء الكروب أنتج قوله مظهراً أمر المنافقين مصرحاً بأنهم من الكتابيين حاثاً على الإقبال على ما نزل من الذكر المبين معاتباً المؤمنين محذراً من الوقوع في مهواة قساوة قلوب النجديين ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ والآية تحتل وجوهاً: أحدها: ما قال بعض أهل التأويل: إنها نزلت في المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر والمعنى: ألم يأن للذين آمنوا ظاهراً وأظهروا الموافقة للمؤمنين أن تخشع وترق قلوبهم لذكر الله وما نزل من القرآن إذا تلي عليهم لما وجدوا نعته في كتابهم ولا يكونوا كالذين كانوا من قبلهم من أهل الكتاب الذين تهادوا في الضلال وقساوة القلوب لما طال عليهم أن ينظروا في كتبهم فقست قلوبهم بطول ترك نظرهم فيها. ويحتمل أن تكون الآية في المؤمنين الذين حققوا الإيمان بالله ورسوله والمعنى: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق في شأن المنافقين من أهل الكتاب فيحملهم ذلك على قطع شهواتهم وأمانيتهم في الدنيا وزيادة الإيمان واليقين ولا يكونوا كالذين غفلوا عن كتاب الله وذكره وتركوا النظر فيه والتفكير فقست قلوبهم وكثير منهم خارجون عن جادة توحيد ربهم معاندون لرسولهم! و"لا" نافية ويجوز أن تكون ناهية وتعلق النهي بالغائب التفاتاً

أو المراد: أبلغهم أن لا يكونوا، وقرئ **(ولا تكونوا)** على سبيل الالتفات نهيًا عن أن يكونوا في قساوة القلوب مثل الذين أوتوا الكتاب طالت أعمارهم في الغفلة ومالوا إلى الدنيا فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السبب! وخصهم بذكر القبلية **(من قبل)** للإشعار بأنهم من القوم الذين يرجع بنو إسرائيل إليهم بأنسابهم إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وقد أشار إليهم ﷺ في الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عمر أنه ﷺ استقبل مطلع الشمس فقال: **«من هاهنا يطلع قرن الشيطان وهاهنا الفتن والزلازل والفدادون وغلظ القلوب»** والعطف في الحديث من باب عطف الصفات للموصوف الواحد وليس من عطف الأصناف وذلك مثل العطف في قول الشاعر الذي أنشده الفراء في معاني القرآن:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وفي صحيح مسلم: **«والرياء في الفدادين»** والرياء هو النفاق! وموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدماتها إذ كانت المقدمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والإصغاء إليها، أما القلوب القاسية والنفوس المتعاصية فلن تأسوها آسية. ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث وكان عمل العامل بما يدل على القسوة عمل من ينكره، قال مهدياً به أهل الكتاب مقررًا لما ابتداء به السورة من أمر الإحياء **(اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون)** وكما يفعل بالأجسام فيحييها كذلك فإنه قادر على إحياء القلوب بروح الوحي كما أحيا الأرض

بروح الماء لتصير بإحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الأرض بالماء رابية بعد خشوعها وموتها.

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ البينات جمع بينة وهي الأدلة والبراهين العقلية التي تثبت قضايا الإيمان وصدق الرسل بما جاؤوا به وهناك البينات المشهودة وهي المعجزات الكونية يعني خوارق العادات البشرية التي يعجز الإنس والجن عن فعلها وتشهد للرسل على صدقهم وحقيقة ما جاؤوا به، وقد أفادت الآية أن قوام الدين بالكتاب والحديد فمن عدل عن الكتاب قوم بالسيف، ويمكن قسمة الآية إلى شقين؛ شق يتحدث عن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ أما الشق الثاني فيتحدث عن عنصر الحديد وخصائصه لتأييد الدين ودفع المعتدين وقاتل المستكبرين ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ وقوله "بالغيب" يتعلق بـ "ينصره" أي ينصره نصراً يدفعه إليه إيمانه بالغيب الذي أخبر عنه... ولا نحسبه أراد برسله إلا رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام وكان هو المراد من الجمع لأنه الأكمل فيهم... وقد جاء ذكر الحديد تنويهاً به إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته ليحصل به تأييد الدين وقاتل المشركين، كما يحصل به منافع للغالبين من فتوحات وغنائم وأسرى. ولما ذكر تعالى أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات وأنه أنزل الميزان والحديد وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله أتبع ذلك ببيان شرف نوح وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة وخصهما بالذكر لأنهما من أول

الرسول، وذكر تعالى نعمه على ذريتهما بالنبوة والكتاب وذلك في ذرية إبراهيم عليه السلام، ثم أتبع تعالى بذكر ابن مريم معرّضاً بأهل الكتاب **(ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها)** ولما كان ابن مريم عليه السلام مبشراً بالرسول الخاتم المنعوت بالرأفة والرحمة بالمؤمنين متبعاً له ﷺ سرى هذان الوصفان في قلوب الأتباع، وأما الرهبانية فقد ابتدعوها لأنفسهم ما شرعها الحق لهم وليست مما يشمل الأمر برضوان الله تعالى وهم ظنوا أنهم يرضون الله بها، والاستثناء في الآية منقطع، والمعنى: لكن كتبنا عليهم ابتغاء ما يوجب رضوانه تعالى بتحقيق الوحداية فلم يروعوها ولزموا العزلة الروحية دون فهم الحكمية حتى وقعوا في التشبيه والجسمية! والنصب في قوله **(ورهبانية)** على طريقة الاشتغال وليس عطفاً على **(رأفة ورحمة)** والتقدير: وابتدعوا رهبانية، لأن هذه الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم فلا يستقيم كونها مفعولاً لـ **(جعلنا)** ولأن الرهبانية عمل لا يتعلق بالقلوب، وفعل **(جعلنا)** مقيد بقوله **(في قلوب الذين اتبعوه)** فتكون مفعولاته مقيدة بذلك. وفي الحديث عند الإمام الطبراني أن رسول الله ﷺ قال لعثمان بن مظعون: **«يا عثمان إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة»** الحديث... وروى الإمام البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»**.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) الإيمان عبارة عن التصديق القلبي للرسول ﷺ بكل ما علم مجيؤه به بالضرورة، ولما قرر سبحانه أن الرسل دعاة للحق إلى سيدهم طوعاً أو كرهاً بالكتاب والحديد، وقرر أن السعادة كلها في

اتباعهم، نَبّه سبحانه على عظم شأن رسوله ﷺ وجلالة قدره ومكانته حيث أطلق لفظ "رسوله" إيذاناً بأنه علم فرد الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره فقال مخاطباً لمن آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: اتقوا الله في محمد وآمنوا به إيماناً مضموماً إلى إيمانكم بالله فإنه لا يصح الإيمان به إلا مع الإيمان برسوله وتعظيمه وتوقيره مضموماً إلى الإيمان بمن تقدمه وإياكم أن يميلكم عنه ميل من حسد أو غيره فبادروا إلى إجابته والزموا جميعاً هديه ولا تبطنوا خلافه ولا تميلوا إلى مخادعة أو بدعة، يؤتكم ثواباً على اتباعه نصيبين ضخمين من رحمته ويجعل لكم مع ذلك نوراً مقتبساً من مشكاته المخصوصة بالحضرة الختمية ويغفر لكم ما فرط منكم، قال ابن عباس: النور القرآن. ولما كان أهل الكتاب قد تابعوا أهويتهم على بغض المسلمين وأشربت قلوبهم أن النبوة مختصة بهم قال دالاً على حرمانهم عن ساحة الفضل الإلهي وانحطاطهم عن مرتبة الخلافة الجامعة لعموم المراتب الشريفة **(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)** واللام للعاقبة، و(لا) نافية، وضمير يقدرون عائد إلى الموحدتين الحمديين على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأصله أن لا تقدروا، وإذا انتفى علم أهل الكتاب بأن المؤمنين الحمديين لا يقدرون على شيء من فضل الله ثبت ضد ذلك في علمهم ويكون ذلك كناية عن انتفاء الفضل عن أهل الكتاب لأنهم يرون أن الله قد فضلهم على جميع الخلق فأعلمهم الله تعالى أنه قد نزع النبوة منهم ووضعها في بني عمهم إسماعيل عليه السلام الذين كانوا لا يقيمون لهم وزناً، وكأنه يقول: لا تكثرثوا بعدم علم أهل الكتاب وجهلهم المركب في استمرارهم على الاغترار بأن لهم منزلة عند الله تعالى! وقد أعطيناكم هذا الفضل وحرمنا منه أهل

الكتاب فبقي أهل الكتاب في جهلهم وغرورهم! وفي هذا إغاطة لهم وإثارة لحسرتهم وكمد لمقاصدهم. ومعنى إيتاء المؤمنين الموحدين المحمدين كفلين من الأجر: أن لهم مثل أجرَي من آمن من أهل الكتاب، ويؤيد هذا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراً فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: مالنا أكثر عملاً وأقل عطاء؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء» واسم (أهل الكتاب) لقب في القرآن لليهود ونصارى بني إسرائيل الذين لم يتدينوا بالإسلام، ومن صار مؤمناً من اليهود والنصارى لا يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن الكريم، إذ أنهم صاروا مؤمنين فانسلخ عنهم وصف أهل الكتاب وبقي الوصف بذلك خاصاً بمن لم يؤمن منهم، وقد يجيء الوصف مقيداً لتعريف من آمن منهم كقوله (منهم المؤمنون) ونظير هذا قوله تعالى (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فإن قيل: ما فائدة ذكر انتفاء الريبة بعد قوله (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً) فالجواب: أن المطلوب إذا كان غامضاً دقيق الحجة كثير الشبهة ربما تحصل فيه الريبة فإذا اجتهد فيه زالت تلك الريبة والله أعلم، ونكتة التعبير عن المؤمنين من أهل الكتاب بالاستيقان لأنهم يجدون هذا العدد مصداقاً لما في كتبهم، ويزداد الذين آمنوا إيماناً فيكونوا بذلك أكثر انقياداً للدين، وبقي في هذا الكلام الجليل لطائف غير ما ذكرنا فالله تعالى در التنزيل ما

أعذب ماء فصاحته! وأنضر رونق بلاغته! ولما أثبت تعالى لكل من أهل الكتاب والمؤمنين ما أثبت، أكد به بنفي ضده مبيناً للفتنة ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضلل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ ثم قال رادعاً من ذلك ومنبهاً على الاستعداد والحذر بكلمة ﴿كلام﴾ للردع والتنبيه، ولما حصر أمرها في الذكرى ونفى أن يظن بها نقص فيما جعلت له تأكيداً للكلام إشارة إلى ما لأغلب المخاطبين من الشكاسة والعوج إيقاظاً إلى ما هم فيه من الغفلة وتلطيفاً لما لهم من اللوم والكثافة وتنبهاً لهم على السعي في تقويم أنفسهم وعلاج أمراض قلوبهم، زاد الأمر تأكيداً فأقسم على ذلك بما هو ذكرى للناس ولا يظهر معه ظلام الليل كما أن ضياء القرآن لا يظهر معه ظلام الجهل من أعمل عين فكرته وألقى حظوظ نفسه فقال ﴿والقمر﴾ أي الذي هو آية الليل الهادية لمن ضل بظلامه ﴿والليل إذ أدبر﴾ أي مضى فانقلب راجعاً من حيث جاء فانكشف ظلامه فزال الجهل بانكشافه وانصرفت الريب والشكوك بانصرافه، وقرئ ﴿والليل إذا دبر﴾ بمعنى "أقبل" قال قطرب: تقول العرب: دبرني فلان أي جاء خلفي. والقراءة الأولى أنسب بقوله تعالى ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أقبل ضياؤه فحل العلم بحلوله وحصلت الهداية بحصوله، ولما أقسم على ما أخبر به من ذكرى النار وعدة الملائكة وأكدته لإنكارهم العظيم لبلاياها استأنف تعظيمها والتخويف منها تأكيداً للتخويف لما تقدم من الإنكار وزاد في التأكيد على مقتضى زيادتهم في الاستهزاء فقال ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ أي من الدواهي والعظائم الكبرى إنذاراً

للبشر (نذيراً للبشر) وقيل: هو متصل بأول السورة يعني: قم نذيراً للبشر وهو من بدائع التفسير.

(قال ألقها يا موسى) المراد من الآية أن يُري الله موسى كيفية الاستدلال على فرعون بالمعجزة العظيمة الدالة على ربوبية الله تعالى والله أعلم، ومن معجزات آيات القرآن إدماج معجزة الآيات الحسية التي كانت للرسل الأولين بمعجزة القرآن اللفظية والمعنوية ويرشد إلى هذا قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وفي الحديث الشريف نكتتان: الأولى: أن قوله: «ما مثله آمن عليه البشر» اقتضى أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة، الثانية: أن قوله: «وإنما كان الذي أوتيت وحياً» اقتضى أن معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني، ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: «فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً» وقد تحقق ذلك لأن المعني بالتابع التابع له في حقائق الدين الحق لا اتباع الادعاء والانتساب بالقول، ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعاً أي أكثر أتباعاً من أتباع جميع الأنبياء كلهم كما جاء في الخبر عن النبي الصادق الأبر: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر» واعلم أيها اللبيب أن عصا موسى عليه السلام جزء من معجزة سيدنا محمد ﷺ ومعجزة القرآن تحتاج إلى من يتلقاها ويلقيها (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) وحينما نتلقى

هذه الكلمات ونلقي بها سيكون لها فعل عصا موسى (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، قال بل ألقوا فإذا جباهم وعصيهم يخیل إليه من سحرهم أنها تسعى) والسحرة الجدد غطوا عملهم بالكلام، وقد صح أنه قدّم رجلان من نجد فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرا» فشبه ﷺ كلامهما بالسحر لما فيه من التلبیس وإزالة الحق عن موضعه وتصوير الباطل في صورة الحق. وكلام أهل الكتاب فيه حق وفيه سحر وإن شئت قلت: سحر شيطاني. والفراعنة الجدد يستيقنون معجزة القرآن ولكنهم يحدونها كما جحد فرعون معجزة موسى! ذلك أنهم يريدون الإبقاء على عقائدهم لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم، فسلطتهم ورئاستهم تقوم على تلك العقائد المزورة والباطلة التي يحسون خطر رسالة القرآن عليها، ويحسونها تنزل تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم، ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب، وكذلك الحق لا يحدده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه بل لأنهم يعرفونه! يحدونه وقد استيقنته نفوسهم لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين.

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم أهل الكتاب. واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا عند المصيبة هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك، بين أنه عند وصول الحق إليهم قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى! فهؤلاء عند المصيبة يتعلقون بشبهة وعند إقامة الحجة يتعلقون بأخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزیغ والعناد، وقد وقع منهم في آيات موسى ما وقع منهم

في آيات الرسول الجليل الأعظم، وذلك أن تكذيبهم ﷺ تكذيب لموسى
 ﷺ، ونسبتهم السحر للرسول الأعظم نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء هم من
 واد واحد، فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق، كان ناسباً ذلك إلى جميع
 الأنبياء، وتتناسق الضمائر كلها في هذا... وقرأ **(قالوا ساحران تظاهرا)** أي
 موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والمعنى أنه لما بهرهم الآيات وجاءهم
 الرسول المصدق بالكتاب المعجز وقطع معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم جاؤوا
 بالافتراحت المبنية على التعنت والعناد وحملوا المعجزة على السحر ليدفعوا
 الحجة الواضحة والمعجزة البينة! ووصّفهم المعجزة بكونها سحراً يدل على عظم
 محلها عندهم وأنه تعذر عليهم معارضتها فاحتاجوا إلى هذا الكلام. ولما أجاب
 سبحانه عن شبههم ذكرّ الحجة الدالة على صدق سيدنا محمد ﷺ **(قل فأتوا**
بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) وهذا تنبيه على
 عجزهم عن الإتيان بمثله، ومثل هذا الشرط يأتي به من يدل بوضوح حجته لأن
 الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر يبيّن الاستحالة فيوسع دائرة الكلام
 للتبكي والإلزام، والآية من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بدّ من
 إيراد الحجج والبراهين لإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين، وقوله "أتبعه"
 جواب "فأتوا" أي إن تأتوا به أتبعه وهو مبالغة في التعجيز لأنه إذا وعدهم بأن
 يتبع ما يأتون به فهو يتبعهم وذلك مما يوفر دواعيهم على محاولة الإتيان بكتاب
 أهدى من كتابه لو استطاعوه فإن لم يفعلوا فقد حق عليهم الحق ووجبت
 عليهم المغلوبة فكان ذلك أدل على عجزهم وأثبت في إعجاز القرآن وقد
 تحداهم في هذه الآية بما اشتمل عليه من الهدى ببلاغة نظمه وحسن مبانيه ودقة
 معانيه وغرابة أسلوبه وكونه مبيناً لسائر الكتب وهذا دليل على أن مما يشتمل

عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى بعده ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا من التعليق على ما تحقق عدم وقوعه فالمعلق حينئذ ممتنع الوقوع ولكونه ممتنع الوقوع أمر الله رسوله أن يقول له وقد فهم من قوله "فإن لم يستجيبوا" ومن إقحام "فاعلم" أنهم لا يأتون بذلك البتة وهذا من الإعجاز بالإخبار عن الغيب، وجاء في آخر الكلام تذييل عجيب وهو أنه لا أحد أشد ضلالاً من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله! ووجه كونه لا أضل منه أن الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنه يقع في أحوال متفاوتة على حسب تفاوت شدة الضلال واتباع الهوى مع إلغاء أعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضر فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال فصاحبه أشد الضالين ضلالاً ثم ذيل بما هو تمامه إذ فيه تعيين هذا الفريق المبهم فإنه الفريق الذين كان الظلم شأنهم وقوام قوميتهم ولذلك عبر عنهم بالقوم، والمراد بـ"الظالمين" البالغون المبلغ العظيم في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف على الكمال إذ أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وأعظم من ذلك إشراكهم بالله واستهزاءهم بإظهار الإسلام وإخفاء الكفر فهؤلاء لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منه على أفعالهم فهم باقون في الضلال يتخبطون فيه فهم أضل الضالين! وقد أفاد قوله "ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" أن الهوى قد يكون محموداً إذا كان هوى المرء عن هدى، فافهم فإنه محل اعتبار وإمعان ومن لم يستضيء بمصباح لا يستفيد بإصباح.

(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) روى الطبري عن ابن عباس قال: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. أي مفتوحة لك، ووجه ارتباط السورة بما تقدمها أنه تعالى لما ذكر البلدة التي حرمها أعقبها بذكر تمكينها لهؤلاء الحاضرين (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً) وفي السورة تعريض ببني إسرائيل بتنظيرهم بفرعون وفيها تفصيل ما أجمل في سورة النمل ففصّلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس النار ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكّرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك ليعلم المستخلفون سنة الله في بعثة الرسل ومعاملته المكذبين، وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله وساق لهم أدلة على وحدانيته تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء وأنحى عنهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى وأعقبه بضرب المثل لأصحاب القناطر الذين تولوهم بحال قارون وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين وتخلل ذلك إيماء إلى أن الله مستخلف الأميين بقوله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وختم الكلام بتسليّة النبي ﷺ وتثبيتته ووعدته بأنه يمكنه من نواصي المضلين ويرده إلى مكة ظاهراً غالباً عليهم ظافراً طالباً للثأر، ولما كان هذا مثار غرابة وتنازع وأخذ ورد ومغامز ومطاعن ومحط قيل وقال واحتمال مشاق حراب وقتال، افتتح السورة التي بعدها بقوله (الم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون).

الفصل السابع: سورة الحج

لما ختمت سورة الأنبياء بالترهيب من الفزع الأكبر وطيّ السماء وإتيان ما يوعدون والدينونة بما يستحقون وكان أعظم ذلك يوم الدين، افتتحت سورة الحج بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد وأول تقوى الله تعالى هو تنزيهه عن النقائص وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته، ولما كان التكذيب بذلك اليوم من عوائد أولياء الشيطان وأئمة الكفر وقادة الشرك الذين يجادلون ويلوون في آيات الله ويتصدّون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لديهم من شبه وتمويه وكان حالهم في تكذيبهم ليوم البعث حال المستهزئ، أردف بقوله **(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد)** أي يخاصمون ويمارون في توحيد الله بشبهات وأباطيل ويتبعون مردة الشياطين وقد عبّر عنهم صاحب الخبر عن الله صلى وسلم عليه الله بـ **«قرن الشيطان»** وأهل الكتاب أشد الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق حيث دوّنوا الضلال تدويناً ولقنوه الناس تلقيناً وكأهم ساطوه بلحومهم ودمائهم! ومعنى الآية أنهم يوردون الشبهة لينقلوا أهل هذا الدين عنه إلى ما هم عليه من الباطل إذ وضعوا الأدلة في غير محلها وحرفوها عن مواضعها وساروا بها في غير مسالكها وكرّوا عليها بالإبطال بعد قيام الحجة ووضوح المحجة قصداً ليدخلوا المؤمنين في دينهم ويصيروا تحت سلطانهم، والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا إضلالهم الناس وصدّهم إياهم عن متابعة الدين لاتبّع عامة الناس الإسلام لظهور حجته وقبولها في الفطرة، والمولى عز وجل يكشف مكرهم ويفطّع جدالهم في الله

وإنكارهم اليوم الآخر، وقد وصفهم ﷺ بصفات ثلاث كما جاء في حديث أبي هريرة عند الحاكم وصححه: «ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول» ومجادلتهم دالة على تمكن الكفر منهم وأنهم معاندون، وهم المذكورون في الأثر المتقدم عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر بن الخطاب: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: جدال المنافق بالكتاب... ولما ذكر الحق ربيهم في البعث والنشور وبيّن الدلالة على أمره، انتقل إلى الكلام عن جدالهم بغير دليل عقلي فاض عليهم يمكن التوصل به إلى إثبات ادعائهم بطريق النظر والاستدلال ولا هدى وكشف صريح لدي قد نبع من قلوبهم بلا افتقار إلى مقدمات الوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب ولا كتاب منير ودليل نقلي ينور خلده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض بل إنه ما نشأ عموم ما نشأ منهم من المجادلات إلا من محض التقليد الحاصل من متابعة القوى الوهمية والخيالية الغالبة (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين) والمعنى بهذه الآية هو المعنى بالآية السابقة فيكون المراد - والله أعلم - فريق المعاندين المكابرين ودافعهم إلى الجدل في الله اتباعهم وسواس الشياطين والتكبر عن الاعتراف بالحجة والإضلال عن سبيله تعالى فيؤول إلى معنى أن أحوال هؤلاء مختلفة وأصحابها فريق واحد هو فريق أهل الشرك والغواية والكبر والتبخر وهو معنى قوله بعده (ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله) أي يجادل في الله حال كونه لاوياً عنقه مولياً جنبيه طاوياً كشحه كبراً وخيلاء وهؤلاء القوم هم المعنيون في الخبر عن النبي الصادق الأبر: «والخيلاء والكبرياء في الفدادين أهل الوبر» وقرئ "ليضل" بفتح الياء أي ليضل في نفسه والتعبير بصيغة المضارع مع أنه لم يكن مهتدياً لجعل تمكنه من الهدى كالهدى لكونه

هدى بالقوة يجوز أن يراد ليستمر على الضلال أو ليزيد ضلاله وقيل: إن ذلك
 لجعل ضلاله الأول كالإضلال. ثم انتقلت الآيات إلى بيان حال آخر من أحوالهم
 الفظيعة وكشف صورة من صور تقلباتهم الشنيعة ﴿ومن الناس من يعبد الله على
 حرف﴾ فهم متأرجحون قابلون للانقلاب في أي لحظة... يتذبذبون بين معسكر
 الإسلام ومعسكر الكفر ويتربصون بالمسلمين الدوائر! ووجه آخر وهو أن
 المعهود هو التوسعة على الكافر استدراجاً له فإذا نال في الدنيا مهناً فكفر
 النعمة وأصابته مصابها سخط وضج وخسر الدنيا والآخرة! وقوله عز وجل
 ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد﴾ هو المنافق
 المتبع للشيطان فأخبر تعالى أنه يعبد ما لا يضره إن ترك العبادة له ولا ينفعه إن
 عبده، يدل على ذلك قوله "ذلك هو الضلال البعيد" لأنه عبد من لا يضره إن
 لم يعبد ولا ينفعه إن عبده فذلك هو الضلال البعيد! ثم قال ﴿يدعو لمن ضره
 أقرب من نفعه﴾ إن كان يلتذ بالتبعية للشيطان فحمله أوزار من تبعه وأضله
 أقرب من ذلك النفع وأشدّ بأساً ثم قال وقوله الحق ﴿لبئس المولى﴾ تولاّه يعني
 الشيطان ﴿ولبئس العشير﴾ هؤلاء الأتباع والغاشية بئس ما عاشروا داعيتهم
 أصاروه حاملاً لأثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم! ثم أردف الحق بلهجة التحدي
 الساخرة له لشكه بوعده النصر للمسلمين في الوقت الذي يعجزه سبحانه عن
 الوصول إلى السماء لقطع أسباب النصر عن رسوله الأمين ﴿من كان يظن أن لن
 ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل
 يذهبن كيده ما يغيظ﴾ والضمير المستتر في قوله "فليمدد" عائد على المنافق الذي
 يعبد الله على حرف، والأمر للتعجيز، قال ابن زيد: من كان يظن أن لن ينصر
 الله نبيه ﷺ ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ومنه فليقطع ذلك من أصله من حيث

يأتيه فإن أصله في السماء فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتيه من الله. وقال الإمام الماتريدي: ليحبس ما وعد له من النصر إن غاظه ما وعد ليذهب غيظه الذي غاظه. ويمكن أن يكون المعنى: من كان يحسب أن لن ينصر الله دينه ورسوله وأمه في الدنيا فليمدد بجبل إلى سقف أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه ثم يختنق إذا اغتاط من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه فلينظر هل يذهبن كيده احتناقه كذلك ما يغيط؟ فإن لم يذهب ذلك غيظه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه فكذلك استعجاله النصر لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته ولا يقدم قبل حينه. والآية تُسجّت على إيجاز جليل، شُبّهت حالة استبطان المنافقين الكفر وإظهارهم الإسلام على حنق وحالة ترددهم بين المسلمين وبين الكفار بحالة الغتاط مما صنع فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيط وضائق عليهم سُبُل الانفراج - فموتوا بغيظكم - وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم وإنذار باستمرار فتنهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة، وكذلك أنزل المولى آيات بينات واضحات جليات وهو سبحانه وتعالى يهدي من يريد.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ هذا الكلام راجع معناه إلى المرتابين الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ولما اشتملت الآيات على بيان جدال هؤلاء المتبوعين الذين صاغوا لكل أمة ملة كان ذلك مثاراً لأن يتساءل عن الدين الحق لأن كل أمة تدّعي أنها على الحق، فبينت هذه الآية أن الفصل بين

الأعيان والأعوان يكون يوم القيامة إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا، وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض ومثله يكون كناية عن تصويب المتكلم طريقته وتخطئته طريقة خصمه لأن مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلا من الواثق بأنه على الحق، ونظيره قوله تعالى "لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير" وذلك من قبيل الكناية التعريضية... والآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بينهم! وقد كشف المولى عز وجل في آية الحج هذه وفي آية البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وآية المائدة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عن تَقَلُّبِ بني إسرائيل في الشرائع والملل وبيّن طريقة تبادلهم الوظائف المختلفة واقتسامهم النحل المتخالفة فالمراد بأصحاب هذه الصلوات خصوص بني إسرائيل وهم قد عُرِفُوا بمضمون هذه الصلوات في مواضع كثيرة من القرآن وأما غيرهم فمندرج بالتبع وجاء في السيرة أن أبا سفيان قال لجمع من اليهود: إن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا. ورُوي عن ابن عباس أنهم لما قدموا على قريش قالت: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن اتبعه. وابتدأت الآيات بوصف أخطر من يطعن في الإسلام - وهو من يتظاهر به - ودعاهم المولى عز وجل في آية البقرة والمائدة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وحثهم على الجهاد في سبيل الله، وفي سياق الآيات ذكّرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم وبالرسل الذين أرسلوا إليهم،

والتصدير بذكر الذين آمنوا للتنبيه على خطر المنافقين المظهرين الإيمان، وقَدَّمَ الصابئين على النصارى لتقدمهم عليهم في الزمان، وأخَّرَهم في آية البقرة لمراعاة الملازمة بين الملتين اليهودية والنصرانية. ورفع ما بعد الذين آمنوا في آية المائدة على الابتداء، والخبر محذوف والنية به التأخر عما في حيز "إن" والتقدير: إن الذين آمنوا حكمهم كذا، والذين هادوا والصابئون والنصارى كذلك، وفائدة العدول عن النصب إلى الرفع أن مظنة العفو في حق المنافقين وهم المعنيون بـ"الذين آمنوا" أبعد منها في حق الذين هادوا والصابئين والنصارى لأن عناد المنافقين واستهزاءهم أكبر فوجب في حقهم أن يُذكروا في صدر الكلام. وقوله "والجوس" هم عبدة النيران أو الأنوار أو الشمس والقمر والكواكب وقيل: إن أصل عبادة النيران قابيل فإنه لما لم يتقبل الله منه قربانه آتاه إبليس وقال له: إنما قبلت النار قربان أخيك لأنه يعبدها فقال: وأنا أعبد ناراً أخرى فبنى بيوت النار! وقد قرر بنو إسرائيل مع شياطينهم هذه العبادة لأتباعهم في بلاد فارس والرافدين ثم أنشؤوا الشيعة على هذا الدين فعبدوا علماً كما عبد اليهود عزيزاً والنصارى المسيح والصابئون الملائكة. وقوله "والذين أشركوا" أي أشركوا الشيطان في أعمالهم وقيل: عبدة الأصنام والأوثان ويدخل فيهم الملاحدة ومن لا يدينون بدين من جميع الفرق والنحل التي ابتدعها أهل الكتاب وهذا نظير ما جاء في صحيح الإمام مسلم: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويُمشرّكانه» وفي الصحيحين: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» والعطف بالواو إيماء إلى المتبوعين أئمة الكفر المضلين الذين فرقوا دين الله فجعلوه أدياناً مختلفة! وقد جاء في صحيح البخاري: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وفي سنن الترمذي: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه» إشارة إلى الأتباع من الأمم

التي اتبعت بني إسرائيل، والآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بينهم! ولما كان جميع ما تقدم في هذه السورة دالاً على أنه الرب الحق والإله الحق والملك الحق اقتضى ذلك قيوميته فقرر ذلك في قوله ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ ولما قسم الناس إلى مخالف ومؤلف أتبعه جزاءهم بما يرغب المؤلف ويرهب المخالف على وجه موجب للأمر بالمعروف الذي من جملة الجهاد لوجهه خالصاً فقال ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ أي في شأن ربوبيته تعالى وصفاته وتوحيده واستقلاله في ملكه مطلقاً بلا مظاهرة أحد ومشاركة ضد وند، واعتقاد كل من الفريقين حقيقة ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه. روى الإمام الطبري عن عطاء بن يسار قال: نزلت هؤلاء الآيات في الذين تبارزوا يوم بدر... وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم أهل الكتاب... والأولى أن تحمل الآية على الفريقين: الأتباع والمتبوعين كما تقدم آنفاً. ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى ذكر صدهم عن رسول الإسلام والمسجد الحرام ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ وفي الآية ما لا يخفى من تحريض المؤمنين على تطهير البيت وهو مسبب على التأذين بالحج ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ ثم بين تعالى أنه جعل لكل أمة منسكاً فقال مؤكداً أنه هو الذي مكن لهؤلاء المستخلفين كما مكن لأشياعهم بالأمس ونصب الشريعة لأجل امتحان العباد وإظهار ما خبأ في جلبة كل منهم من طاعة وعصيان وشكر وكفران ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليعلموا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمكم إليه واحداً فله أسلموا وبشر المختبين﴾ والنسك هنا هو

موضع القربان المعروف اليوم بالمسلخ الذي تراق فيه الدماء، والتنكير في قوله "منسكا" للإفراد أي واحداً لا متعدداً ومحل الفائدة هو إسناد الجعل إلى ضمير الجلالة وقد دل على ذلك قوله "ليذكروا اسم الله" وأدل عليه التفریع بقوله "فإلهكم إله واحد فله أسلموا" والمراد أن المسلمين لهم منسك واحد وفي هذا ردُّ على الذين اتبعوا الشيطان وزعموا أنهم أهل السنة والقرآن! والكلام يفيد اتِّباع ملة إبراهيم وهو مرتب على الأمر باجتناب الشرك واجتناب الكذب بقولهم: هذا حلال وهذا حرام وبزعمهم أنهم على جادة التوحيد وهو معنى قول الزور ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به﴾ فإن صدق القول في توحيد الله ونفي الشركاء عنه أعظم الحرمات وفي هذا بيان للملة الحنيفية فالحنيف هو المقبل على الله تعالى بكلية توحيداً وإيماناً وعبادة مائلاً عن الشرك بكل تفصيلاته اعتقاداً وسياسة واقتصاداً. والمراد من ذكر اسم الله أن يقول: باسم الله والله أكبر، والمعنى أنه تعالى أكبر من كل كبير وأجل وأنزه من كل جليل وأعلى من كل ما يقع في الوهم وأعظم من كل ما يصل إليه الفهم بل هو أكبر من أن يقاس إليه شيء ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال "الله أكبر" أي وصفه بأنه أكبر من كل شيء فكيف يُشرك في حكمه ويبارى في أمره؟! وهذا نظير ما أمر الله به في سورة الأنعام من قوله ﴿فكلموا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ إلى قوله ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ والكلام مرتب على الإقرار بحكميته عز وجل ﴿أفغير الله أتبغي حكماً﴾ وفي سورة الحج توجيه للمسلمين بالمباينة بينهم وبين المستهزئين حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان أو مجرد راية وشعار أو مجرد كلمة تقال باللسان، فلكل أمة شرعة ولكل أمة منهاج ولكل أمة قبلة ولكل أمة

منسك، وقد تضمن الأمر بمفارقتهم في أماكن إهراق الدماء لأنهم لم يدينوا دين الحق بالاعتراف بحكمة الله. إن تعظيم حرمانات الله وشعائره من تقوى القلوب كما أخبر علام الغيوب **(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)** والشعائر ما جعل علامة على أداء عمل من أعمال الحج والعمرة وهي المواضع المعظمة مثل المواقيت التي يقع عندها الإحرام، ومنها البلد الحرام والمسجد الحرام والكعبة والمقام والصفاء والمروة وعرفة والمشعر الحرام بمزدلفة ومنى والجمار والبُدن وسُميت بذلك لأنهم يجعلون فيها شعيراً، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعنًا حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نُذرت للهدى، وتعظيم الشعائر إنما يكون بالانقياد لله وتوحيده كما أرشد تعالى إليه بقوله **(فإلهكم إله واحد فله أسلموا)** أي إذ كان قد جعل لكل أمة منسكاً فقد نبهكم إلى توحيده ومشاركة أعدائه، وأصل النظم: فله أسلموا لأن إلهكم إله واحد، ولما أمر بالإسلام وكان الإسلام هو سهولة الانقياد بالظاهر والباطن من غير كبر ولا شমাخة وكان منشأ الطمأنينة والتواضع للذين هما أنسب شيء لحال الحاج المتجرد من المخيط المكشوف الرأس الطالب لوضع أوزاره وتخفيف آصاره لستر عوراه، أقبل سبحانه على الحائزين على رتب الكمال وخلال الجمال والجلال فقال **(وبشر المختبين)** والمختب المتواضع الخاشع، وتقديم المجرور في **(فله أسلموا)** للحصر أي أسلموا له لا لغيره. ومن أغراض سورة الحج: الاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية وعن المجادلة في ذلك اتباعاً لوساوس الشيطان، وأن الشيطان لا يغني عنهم شيئاً ولا ينصرهم في الدنيا وفي الآخرة، وتفضيع جدالهم في الوجدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون

عن الحجة ليضلوا الناس، وأنهم لا يؤمنون بالبعث واليوم الآخر، وأن اختلاف الأمم بين الحق والباطل أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الحق وجزاء أهل الباطل، وأن المهتدين والمبطلين خصمان اختصموا في شأن ربهم وتوحيده فكان لكل فريق جزاؤه، وفي السورة تعريض بهم بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين، وتذكير لهم بما منّ الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته، وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم الغابرة الذين تلقوا دعوة الرسل بالمماكرة والإعراض والكفر فحل بهم العذاب، وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله فلا يغرم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم وفي ذلك بشارة للمؤمنين بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وبالغوا في تخويفهم وتشديد الأمر عليهم حتى اضطروهم إلى الخروج من بلاد الحرمين **(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)** وهذا معلوم فإن كثيراً من أهل الحجاز خرجوا بسبب أفعال أصحاب ميثاق الدرعية وفلول الهمجية ومرترقة البوادي! ولما ذكر سبحانه مواطن الحج مشيراً إلى استخلاف المفسدين، بين أن هدمهم الصوامع والبيع والمساجد دليل على استيلائهم على الأمم والشعوب والتلبيس عليهم وإغوائهم وإغرائهم وتسليط بعضهم على بعض **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً)** وقوله "لولا" حرف امتناع لوجود ويدل على امتناع التدافع - في زمن استخلاف المفسدين - لوجود هدم الصوامع والبيع والمساجد وتخطُّف الناس حول جزيرة العرب! وإضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي علاقته السببية أي لما كان

تعالى سبب الدفع نسب إليه وفيه تهيج للناس أن يرجعوا إلى رشدهم ويدفعوا عن أماكن عبادتهم وهذا يهيب بهم إلى قتال أولياء الشيطان واتباع سبيل الرحمن! ونظير هذا قوله تعالى بعد ذكر فساد بني إسرائيل وقتل داود جالوت وإيتائه الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ فدل على أن استخلاف جالوت انتقل إلى داود بعد فساد الأرض. ثم سلى الله رسوله عليه الصلاة والسلام بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يبطل ما يلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين ينكرون آيات القرآن ويغضون المرسل بالتبيان!

فلا ينازعنك في الأمر

روى الشيخان عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ» وفي رواية للبخاري: «الخدعة في النار من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» قال النووي: هذا الحديث مما ينبغي أن يعتنى بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك. وقال الطريقي: هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع. وقال ابن حجر: ويستفاد منه أن حكم الحاكم لا يغير ما في باطن الأمر لقوله: ليس عليه أمرنا. اهـ. والمراد من الأمر في الآية والحديث: أمر الدين والحكم والخلافة لأنه هو المقصود ابتداءً وبغيره مندرج بالتبع والله تعالى أعلم. والحديث فيه: ما يُضاده وينقضه فمن أحدث فيه أي جدد وابتدع أو أظهر واخترع في دين الإسلام بتسويل الشيطان فهو مردود لم يتبع إلا شيطاناً مريداً لعنه الله، وفي إيراد اسم الإشارة بدلاً أو صلة إفادة التعظيم وإشارة إلى تمييز الدين أكمل تمييز

وعبر عنه بالأمر تنبيهاً على أن هذا الدين هو أمرنا الذي نهتم له ونشتغل به بحيث لا يخلو عنه شيء من أقوالنا وأفعالنا، قال صاحب مرقاة المفاتيح: وهذا الحديث عماد في التمسك بالعروة الوثقى وأصل في الاعتصام بجبل الله الأعلى ورد للمحدثات والبدع والهوى، وقد أنشد في هذا المعنى:

إذا ما دجا الليل البهيم وأظلما ... بأمر فظيع شق أسود أدهما

فأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى ... وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى

ومن ترك القرآن قد ضل سعيه ... وهل يترك القرآن من كان مسلماً

وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ ونحوه ما رواه الحاكم في المستدرک عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله» وفيه إشارة إلى موقع قرار الديانة وخطورة امتلاك القرار من غير أهله كما في صحيح الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» والمراد من الأمر - والله ورسوله أعلم - : الخلافة والحكم. وروى الإمام مسلم من حديث عقبة مرفوعاً: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» وفي رواية أخرى للإمام البخاري: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» فقال مالك بن يُخامر: سمعت معاذاً يقول: وهم بالشام. وقد نبّه تعالى في سورة الحج إلى وجوب الحذر من مخادعة المشركين فقال ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ واسم الأمر هنا خاص مراد به

الخلافة والحكم أو مجمل مراد به التوحيد فإن أصحاب ميثاق الدرعية يزعمون أنهم على ملة إبراهيم فجعلوا ذلك ذريعة إلى ادعاء أنهم على الحق فكانت الآية كشفاً لشبهتهم بأن الحج منسك حق وهو رمز التوحيد وأن ما عداه باطل طارئ عليه فلا ينافي عنك في أمر الحج بعد هذا ولا يستخفك عن دينك إلى أديانهم فتكون بصورة المنزوع عن شيء إلى غيره، وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين من أهل الكتاب لأن هذه السورة نزلت بالمدينة وعلى كلٍ فإن أسباب النزول لا تُخصص كما لا يخفى ولا يناكد موقع هذا التذييل على أن السلف كانوا يطلقون سبب النزول على كل ما نزلت الآيات للدلالة عليه ولو كانت سابقة على ما عدوه من السبب، والآية وردت بعد قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وجاء في هذه بالواو لأن الأولى وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها، وأما الأخرى فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً، وقد فصل بين الآيتين ما اقتضى الحال استطراده من البشارات والإذن بالقتال والحديث عن سنة التدافع ثم التمكين لأهل الصلاح ﴿وَبَشِّرِ الْحَسَنِينَ، إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ والكلام راجع إلى الغرض الذي في قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ

من بهيمة الأنعام فإلهمكم إله واحد فله أسلموا) ليبي عليه قوله (فلا ينازعك في الأمر وادع إلى ربك) ففي الآية الأولى بين تعالى انفراده بالإلهية وفرّج عليه الأمر بعبادته والانقياد الكلي له سبحانه والامتثال لأوامره ونواهيه خالصاً لوجهه من غير شائبة إشراك، وفي الآية الثانية دعوة إلى إفراده تعالى بالربوبية ولذلك قال (وادع إلى ربك) أي إلى توحيد الربوبية، والمقصود من الآية - والله أعلم - إلزامهم باتباعك والثبات على التوحيد ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك بما يلقيه الشيطان إليهم من الشبه ليزيلوك عنه فإن لم يستجيبوا لك فلهم شرعتهم ولك شرعة أخرى ولهم منهاجهم ولك منهاج آخر حسبما ينطق به قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ونحوه قوله تعالى في الآية الثانية (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) قال الإمام الرازي: المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا". اهـ. وقيل المنسك: اسم مكان النسك، وأصل النسك العبادة وشاع في أعمال الحج ومنها: القربان المشار إليه بقوله (ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) فالنسك هنا هو موضع القربان، والكلام عطف على قوله تعالى (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق) وهو من تنمة الكلام مع المؤمنين، والمقصود من هذا - والله أعلم - الرد على المشركين المتلاعبين بالدين بطريق التعريض إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم! وقد تضمن الكلام متاركتهم في أماكن إهراق الدماء أي المسالخ التي أنشئوها، فالخفاة العراة لا تحل ذبائحهم لأنهم لم يدينوا دين الحق وشابوا عبادة الرحمن بعبادة الشيطان وخلطوا أمور الشرك بأديانهم واتخذوا آلهة

في الحكم والعبادة وموّهوا على الناس. وإن الطريق لتمكين الإسلام وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب **(للكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه)** قال الإمام الماتريدي: ذلك كقوله "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا". اهـ. أي لكل أمة منسكاً هم ناسكوه ومنهجاً هم سالكوه. وقوله **(فلا ينازعنك في الأمر)** على تأويل من يقول: إن المنسك هو الدين أي لا يخالجنك في نفسك أن الذي أنت عليه هو دين الله وادع الناس إليه، أو أن **(الأمر)** هنا مجمل مراد به الحكم بالقرينة، وأصحاب ميثاق الدرعية يزعمون أنهم على ملة إبراهيم فكان قوله تعالى **(للكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه)** كشفاً لشبهتهم إذ أن الحج رمز توحيد الله، وبيت الله مركز حكم المسلمين فجاء التحذير للأمة المسلمة ألا تدع للأمة المشتركة فرصة لمنازعة الحكم، والآية تربط بين الشعائر التعبدية وبين الحكمة... وكانت المبينة هي الطريقة في التعامل مع هؤلاء المشركين خلال أكبر اجتماع عالمي للمسلمين في موسم الحج حسبما ينطق به قوله تعالى **(لكم دينكم ولي دين)** وهذه هي ملة إبراهيم إذ لا لقاء بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم ولا معبر بين المنعم عليهم والضالين، قال تعالى **(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)** والأولى حمل الملة في الآية الكريمة على مناسك الحج كما روى البيهقي في السنن الكبرى عن عبد الله بن عمرو قال: «أفاض جبرائيل عليه السلام بإبراهيم عليه السلام إلى منى فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ثم غدا من منى إلى عرفات فصلى بها الصلاتين ثم وقف حتى غابت الشمس ثم أتى به إلى المزدلفة فنزل بها فبات ثم صلى بها يعني الصبح كأعجل ما يصلي أحد من المسلمين ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين ثم دفع إلى منى فرمى وذبح وحلق ثم أوحى الله عز

وجل إلى محمد ﷺ: أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» وفي ذلك إرغام لبني إسرائيل وتكذيب لهم في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم وقد أخطئوها. والأمر باتباع الملة لا اتباع إبراهيم عليه السلام يدل على أنه ﷺ ليس بتابع له بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عليه السلام عنه، فقد تضمنت السنة من خصائصه ﷺ وانطوت على ما حصل منه المنصوص في الصحيح والجمع عليه ما يدل على أنه الإمام الأعظم والنبي الأكرم المقدم. ولما كان النهي عن المنازعة في الحقيقة له ﷺ إلهاباً وتهيجاً إلى الإعراض عنهم لأنهم أهل لذلك لأن كيدهم في تضليل وكان التعبير بما تقدم من تحويله إليهم لتأكيد الأمر مع دلالة على إجلاله ﷺ عن المواجهة بالنهي، عطف عليه قوله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ فإنهم مغلوبون لا محالة ولا تتأمل عاقبة من العواقب بل أقدم على الأمر وإن ظن أن فيه الهلاك فإنه ليس عليك إلا ذلك وأما نظم الأمور على نهج السداد في إظهار الدين وقهر المعاندين فالإلى الذي أمرك بتلك الأوامر وأحكم الشأن في جميع الزواجر، فإن الصراط المستقيم يتضمن تحقيق الغيرية والدعوة إلى توحيد الربوبية المنبئة عن المالكية وهو معنى قوله بعده ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى مضمون ما تقدم، فإنك على محجة الحق في مفارقتك إياهم ودعوتك إلى عبادة ربك وهم الضلال على قصد السبيل لمخالفتهم أمر ربهم في عبادتهم الشيطان... والذي يدور عليه قطب هذه السورة الكريمة الكلام في مجادلة أولياء الشيطان وإثبات ما ينكرونه من أمر البعث والنشور والنعي عليهم بشدة شكيمتهم ألا ترى كيف افتتحها بقوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ وكرر ذلك وجعله أصلاً للمعنى المهتم به وكلما شرع في أمر كر إليه تثبيتاً لقلب حبيبته ﷺ ومسلاة لصدره الشريف عليه

الصلاة والسلام ففي قوله ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾ تفويض أمرهم إلى الله تعالى وهو كناية عن قطع المجادلة معهم وإدماج بتعريض بالوعيد والإنذار بكلام موجه صالح لما يتظاهرون به من تطلب الحجة ولما يعملونه من أنواع المجادلة بالباطل ليدحضوا ويزيلوا الحق ولما في نفوسهم من إبطان العناد، ولما أمر تعالى بالإعراض عنهم وكان ذلك شديداً على النفس لتشوفها إلى النصر، رجاء في ذلك بقوله مستأنفاً مبدلاً من مقول الجزاء تحذيراً لهم ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ ولما كان أمرهم في غاية الخفاء، أتبعه معرضاً بنفاقهم مبيناً أمرهم ليكون في منتهى الجلاء ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ ولما دعا إلى الإعراض عن الجدال معهم أعقب معجباً من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم على عبادة الآلهة واتخاذ الشركاء ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم﴾ والمعنى: جادلوك في الدين بعد ما رأوا الدلائل البينات والحجج الواضحات مستمرين على عبادة ما لا يستحق العبادة ولم يُنزل به الله أمراً إلهياً وارداً على السنة رسله وفي كتبه وشرائعه، وإسناد نفي العلم إليهم منظور فيه إلى الغرض التعريضي وهو المكابرة والعناد، وفي قوله تعالى ﴿وما للظالمين من نصير﴾ من المبالغة في الإقنات ما لا يخفى! أي أنهم عبدوهم رجاء النصر، وما للمشركين من نصير كما حكى سبحانه ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم﴾ ولما ذكر تعالى عبادتهم لما ليس لهم به عرفان، ذكر إنكارهم للقرآن ومحاولتهم إيقاع السطوة بالذين يبينون لهم آيات الفرقان ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يستطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ ولما استحقوا بإنكارهم وما أرادوه من الأذى لأولياء

الله النكال، تسبب عنه إعلامهم بما استحقوه فقال مؤذناً بالغضب بالإعراض عنهم أمراً له ﷺ بتهديدهم ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعِندَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ ولما أبلغ في إنذارهم، ناداهم ملهياً ومهيجاً إلى عداوتهم مبيناً حقارة شركائهم في الحكم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهَ لَقَوِيَ عَزِيزٌ﴾ ثم دعا تعالى إلى مباينتهم في أكبر اجتماع عالمي في موسم الحج كما كانت المباينة بين المشركين والمسلمين قبل فتح مكة أيام الحج، والمسلم الذي لا يملك القدرة على مفارقة المشركين في مناسك الحج يمتنع وجوب الحج عليه، فلا تقارب ولا تمييع ولا إدهان بدءاً من مناسك الحج وأماكن العبادة وإهراق دماء الهدي... وما يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ولا في أي طريق، وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان، جاهلية الأمس وجاهلية اليوم وجاهلية الغد كلها سواء لا تقام عليها قنطرة للعبور وإنما هو البراء الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق، ومتابعة المسلم لبني إسرائيل في أدنى جزئية لا تعتمد على الاعتراف بسلطان الله من بعد ما جاءه من العلم يعني خروجه من الإسلام إلى الشرك، وقد حذر المولى سبحانه من أكل ذبائح المشركين وقرن ذلك بالشرك وقول الزور ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ روى الإمام أحمد عن أيمن بن حريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ إِشْرَاكاً بِاللَّهِ - ثلاثاً - ثم قرأ: "فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ"» وجيء بالمضارع في قوله ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ليشمل ما يأتي تصديقه

من بعد، وعبر عن الشرك بالرجس من الأوثان لأن الشرك اعتداء على سلطان الله، وأمر باجتنب قول الزور لأن إلباس التوحيد بالشرك افتراء على الله وزور ولذلك جاء التعليل في متاركة الجاهلية الخداعة واتباع الملة الحنيفية (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به) أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله وتكونوا على ملة إبراهيم حقاً، ولذلك زاد معنى (حنفاء) الولاء والبراء بقوله (غير مشركين به) وهذا كقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) والشرك بالله دنس يلوث القلوب ويصيبها بالقسوة والانتكاس ويجلب الأمراض النفسية ويضرب الأمم بالأوجاع والأدواء المستعصية (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) وقرأ "فتخطفه" بفتح الحاء وتشديد الطاء، وهذا حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد فيهوي إلى درك الشرك فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبداً، يهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، ويفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها - قاعدة التوحيد - ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه ويفقد السعادة والأمن والاطمئنان بعد ما فقد العروة الوثقى والقاعدة الثابتة التي تربطه بخالقه فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح... وقد أشارت الآية إلى أن المشركين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وهو إيماء إلى أتباع بني إسرائيل، وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه فهو مشبه بمن ألقته الريح في المطاوح البعيدة، وهو إيماء إلى بني إسرائيل حيث أن شركهم لا يرجى منه خلاص وتوبتهم أمر بعيد عسير

الحصول. ثم ختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقاً من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى جهاد أدعياء الإسلام وإقامة دين الإسلام ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ كما جاء في المعجم الكبير للطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفسي بيده لغداة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة» وقد وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه - كما جاء في الصحيحين - فما سُئل عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» وهذا أنكى لمن أوقع الحرج عليهم وأغيط. وقال ﷺ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة» رواه الإمام أحمد، وفي رواية أخرى: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» وفي رواية: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» فهذه الحنيفية السمحة، لا تشدد ولا حرج، والحفاة العراة شددوا على المسلمين الذين ساروا بسيرهم وأخذوا بمنهجهم، وتلك الشدة هي التي حملها الله على أهل الكتاب فجاءت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش منحة للأمة المحمدية ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ وكم قتلوا من المسلمين بفتاواهم وشددوا عليهم بما وضعوه من مناهج حملوهم بها على التكفير حتى

ماج المسلمون بعضهم في بعض مهملين سدى، متهافتين على مهاوي الردى!
كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إن الفتنة تجيء من هاهنا من حيث يطلع
قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض» وفي الحديث من أدلة النبوة
المشاهدة ما لا ينكرها المسلمون إذ فرقهم أولياء الشيطان شيعاً وأحزاباً يضرب
بعضهم رقاب بعض فصاروا على مناهجهم يبنون فيما يأتون ويدرون.

(إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا
ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من
ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا
على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير، والذين كفروا بعضهم
أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، والذين آمنوا وهاجروا
وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة
ورزق كريم، والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم
وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم) أخرج
أبو داود والترمذي عن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم
فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فقال رسول الله ﷺ: «أنا بريء من
كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لا تراءى
ناراهما» أي لا يتسم المسلم بسمة المشرك ولا يتشبه به في هديه ولا يتخلق
بأخلاقه ولا ينزل بالموضع الذي يرى ناره المشرك إذا أوقد ولكن ينزل مع
المسلمين في دارهم ألا ترى أن المحبين لما قالوا (ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) ذيلوا
كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم أن يتوفاهم مع أهل التوحيد القائمين لله

بشراط التفرید (وتوفنا مع الأبرار) أي مغتنمين لجوارهم معدودين من زمرةهم. ولما نهى تعالى عن الإشراف في حكمه (ولا تشرك في حكمه أحداً) حسن تعقيبه بقوله عطفاً على أمره بتلاوة الكتاب (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) أخرج النسائي عن بهز بن حكيم يحدث عن أبيه عن جده قال: قلت: يا نبي الله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عدد من أصابع يديه ألا أتيتك ولا آتي دينك وإني كنت امرأ لا أعقل شيئاً إلا ما علمني الله ورسوله وإني أسألك بوجه الله عز وجل بما بعثك ربك إلينا؟ قال: «بالإسلام» قال: قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: «أن تقول أسلمت وجهي إلى الله عز وجل وتخلت، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، كل مسلم على مسلم محرم، أخوان نصيران، لا يقبل الله عز وجل من مشرك بعد ما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين» ومعنى قوله: أسلمت وجهي إلى الله عز وجل أي: جعلت ذاتي منقاداً لحكمه، ومعنى: وتخلت أي: تركت المشركين. وفي رواية: «لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بعد إسلامه» وفي رواية: «لا يقبل الله من مشرك أشرك بعد ما أسلم عملاً، وتفارق المشركين إلى المسلمين، ما لي أمسك بحجزكم عن النار، ألا إن ربي داعي وإنه سألني: هل بلغت عباده؟ وإني قائل: رب إني قد بلغتهم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون مُفدّمة أفواهكم بالفِدام، ثم إن أول ما يُبين عن أحدكم لفخذه وكفه» قلت: يا نبي الله هذا ديننا؟ قال: «هذا دينكم وأينما تُحسن يَكفِك» وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الكبائر سبع: أولهما الإشراف بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم إلى

أن يكبر، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، والانتقال إلى الأعراب بعد الهجرة» وأخرج الإمام أحمد عن لقيط قال: قلت: يا رسول الله ما أبايعك؟ قال: فبسط النبي ﷺ يده وقال: «على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيل المشرك - أي مفارقتة - وأن لا تشرك بالله إلهاً غيره» والصلاة هي المعراج الحقيقي إلى ذروة التوحيد والعروج إليها لا يتحقق إلا بمتاركة المغضوب عليهم ومفارقة الضالين، والزكاة هي التخلية والتطهير عن الرذائل والخبائث المتعلقة بالنفوس البشرية والطريق إليها لا يتحقق إلا بطرح العلائق الدنيوية المبعدة عن صفاء الوحدة الذاتية. وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس) قال: قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيز وأنا وأصحابي حيز» وقال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» والمعنى: أنه ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه قبل فتح مكة فازوا بثواب الهجرة فهم في ناحية، ومن لم يهاجر معه ﷺ إلى أن فتحت مكة في ناحية أخرى فلا ثواب لهم في الهجرة. ثم أخبر المولى جل وعلا أن الكافرين بعضهم أولياء بعض يجمعهم داعي الشيطان بوصف الكفران وحذر أشد التحذير من موالاتهم فقال (إلا تفعلوه) أي إلا تفعلوا قطع العلائق بينكم وبين الكفار يقع الشرك في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام، ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى، قال العلامة الطاهر بن عاشور أفاض الله على روحه فواضل الرحمة: المراد بالفساد هنا ضد صلاح اجتماع الكلمة فإن المسلمين إذا لم يظهروا يداً واحدة على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم ولأنه قد يحدث بينهم الاختلاف من جراء اختلافهم في مقدار

مواصلتهم للمشركين ويرمي بعضهم بعضاً بالكفر أو النفاق وذلك يفضي إلى تفرق جماعتهم وهذا فساد كبير ولأن المقصود إيجاد الجامعة الإسلامية وإنما يظهر كمالها بالتفاف أهلها التفافاً واحداً وتجنب ما يضادها فإذا لم يقع ذلك ضعف شأن جامعتهم في المرأى وفي القوة وذلك فساد كبير. ولما حذر سبحانه من مولاة الكافرين عاد إلى الثناء على المهاجرين والأنصار بأنهم الفائزون بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم بالمغفرة التي لا يقادر قدرها والرزق الكريم الذي لا تبعة له ولا منة فيه، وبعد أن منع الله ولاية المسلمين للذين آمنوا ولم يهاجروا ابتداءً، وكان ذلك مثيراً في نفوس السامعين أن يتساءلوا: هل لأولئك تمكن من تدارك أمرهم برأب هذه الثلثة عنهم؟ ففتح الله باب التدارك بقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي مثلكم في النصر والموالاتة، ولما كان ذلك قد يشغل السامعين عن ولاية ذوي أرحامهم من المسلمين، جاء قوله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يذكر بأن ولاية الأرحام قائمة وأنها مرجحة لغيرها من الولاية فموقعها كموقع الشروط، وشأن الصفات والغايات بعد الجمل المتعاطفة أنها تعود إلى جميع تلك الجمل.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السَّوْأَى أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ معنى أساءوا أي أشركوا، والسوآى: الخلّة التي هي أسوأ من إشراكهم، أما في الدنيا فالعذاب والبوار، وأما في الآخرة فالنار، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخرة» ولا تكون الإساءة هنا إلا الكفر والشرك والردة

ونقض الميثاق، للإجماع على أن المسلم لا يؤخذ بما عمل في الجاهلية. وقد ورد نظير هذا في مسند أحمد: «والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه» وقوله ﴿أَنْ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جمعوا بين التكذيب والاستهزاء بآيات الله الناطقة بتوحيده تعالى كلاً أو بعضاً مع ما بها من النعوت الموجهة للإيمان بها بأن كذبوا بالقرآن ابتداءً وبسائر الكتب الإلهية تبعاً لما أن تكذيب المصدق موجب لتكذيب ما يصدقه حتماً ومن أعظم الاستهزاء الجرأة على عداوته تعالى مع ادعاء ولايته.

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ، لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الآيات مسوقة لإثبات الوحدانية، لا لإثبات وجود الصانع المجيد ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولكنها منتظمة على ما يناسب دعوتهم الباطلة لكشف حيلهم وإعلان باطلهم، وعليه فإن الاستدلال بالآية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ مسوق لإبطال تعدد خاص وهو تعدد الآلهة في الحكم، وفرع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ للتنبيه على أن الاشتغال بالتسييح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهاً عما يصفونه به من وجود الشريك. وقد تأكد هذا بالتعقيب بالبرهان القطعي المشاهد ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

والضمير عائد إلى الآلهة، فكأنهم يسألون كناية عن تبعيتهم لمن أقامهم، وليس المقصود هنا السؤال في الآخرة لأن المخاطبين لا يؤمنون باليوم الآخر كما حكي سبحانه ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ واستدلال إمكان التمانع على طريقة المقلّدين لا يوجب فهو ض الدليل! وفي الآيات دلالة على أن طريقة التقليد مهجورة. وقوله ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ عطف إضراب انتقالي من الكلام عن إظهار مزية الملائكة إلى إبطال الإشارك انتقالاً من الغرض السابق الذي في قوله تعالى ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ إلى غرض إبطال تعدد الآلهة، و﴿أم﴾ تؤذن بأن الكلام بعدها مسوق مساق الاستفهام وهو استفهام إنكاري أنكر عليه اتخاذهم آلهة في الحكم! ووصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين وتأكيد بعجز آلهتهم عن الوصول إلى السماء! وذكر الأرض هنا مقابلة لقوله تعالى ﴿ومن عنده﴾ والمقصود أهل السماء والله أعلم. وأراد بقوله ﴿هم ينشرون﴾ إنبشار الأموات أي بعثهم وهذا مسوق للتهكم وإدماج لإثبات البعث بطريقة سوق المعلوم مساق غيره المسمى بتجاهل العارف إذ أبرز تكذيبهم بالبعث في صورة تكذيبهم استطاعة الله ذلك وعجزه عنه أي أن الأولى بالقدرة على البعث شركاؤهم فكأن وقوع البعث أمر لا ينبغي النزاع فيه فإن نازع فيه المنازعون فإنما ينازعون في نسبته إلى الله ويرومون بذلك نسبته إلى شركائهم فأنكرت عليهم هذه النسبة على هذه الطريقة المفعمة بالنكت، والمشركون لم يدعوا لآلهتهم أنها تبعث الموتى ولا هم معترفون بوقوع البعث ولكن نُزلوا منزلة من يدعي ذلك مبالغة في الإلزام. وقوله ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ عطف إضراب انتقالي من الكلام عن إبطال إشارك آلهة في الحكم إلى

إبطال إشراك آلهة في العبادة استعظماً لفظاعته وليُبنى عليه استدلالٌ آخر كما بُني على نظيره السابق، وقد تأكّد هذا بالتعقيب بقوله ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ يعنى الملائكة وعزير والمسيح، فلحق الله رسوله ﷺ أن يقول ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا دليلاً على أن الله شركاء من شواهد القرآن، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ودليل على أن كل قول لا برهان عليه باطل، ولما كان الكريم سبحانه لا يؤاخذ حتى يبعث الرسل، أتبعه قوله مشيراً إلى ما بعث الله به الرسل من الكتب ﴿هذا ذكر من معي﴾ والمراد من الإشارة تمييز القرآن والله أعلم وقد بحث العلماء والعرفاء في العلوم المستنبطة منه فلم ينتهوا إلى استقصاء أصولها وإنما تكلم كل منهم على حسب علمه وقدر فهمه الذي أعطيه، وبحر معاني القرآن وأسراره لا يتناهى، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ثوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين» وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين» وروى الديلمي من حديث أنس: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» وهو كما قال، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره، وصفاً له فهمه، حتى تشهد كل كلمة منه بأنه كلامٌ جبار قاهر، مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر... وبعد التنويه بالقرآن أردف بذكر التوراة والإنجيل والكتب السابقة ﴿وذكر من قبلي﴾ واعلم أن المقصود من الكتب الإلهية السالفة هو القرآن فهو مجمع ثمرتها وزبدتها وأعظمها وجامع لما فيها من الأحكام والآداب والفضائل متضمن للحجج والبراهين والدلائل، وكذلك المقصود الإلهي من ترتيب سلسلة الأنبياء عليهم السلام هو وجود محمد ﷺ فوجود الأنبياء قبله كالمقدمة لوجوده الشريف فهو الخلاصة والنتيجة والزبدة وهو إمامهم وأشرفهم

وأعظمهم وأزكاهم. والمراد بقوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أنهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفریع علیه بقوله تعالى ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها وإنما أسند هذا الحكم إلى أكثرهم إيماء إلى قلة من قهيات نفوسهم لقبول الحق والله أعلم. وموقع الآيات بين قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ثم تذييل السورة بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يفيد التشريف والتبجيل والتعظيم لمقام المعلم الأول والقائد الأعظم سيدنا محمد ﷺ نبي الرحمة واعلم أن جميع العوالم توقف ظهورها على إرساله إليها فصارت يده العليا على سائر العوالم، وفي الحديث عند الإمام مسلم: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة» فهو رحمة مهداة للعالم كما روى الطبراني: «بُعِثَتْ رَحْمَةٌ مَّهْدَاةٌ» فزيّنه الله تعالى بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فأما محمد ﷺ فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة، قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فالرسل خلقوا للرحمة ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة فلذلك صار أماناً للخلق، لما بعثه الله آمن الخلق العذاب إلى نفخة الصور، وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا المحل ولذلك قال ﷺ: «أنا رحمة مهداة» يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله، وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق. اهـ. وهو ﷺ رحمة للكافر بتأخير العذاب حسبما نطق به قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ

فيهم) وكان كل نبي إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وقد أخرج الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت أو إلى القيامة إجلالاً لقدره وإكراماً لحله فالآية تدل على تشريف قدره ﷺ وهي متصلة بما قبلها على أنها حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ يذكره جهالتهم وغرهم واستفتاحهم على أنفسهم **(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)** الآية ثم أردف ببيان أن الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما دامت سنته باقية فهو باق فإذا أميت سنته فلينتظروا البلاء والفتن **(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)** أي وما كان الله ليعذبهم وحبك متمكن في قلوبهم وما دامت سنتك باقية وفيهم من يستغفر، والله در القائل: يا سيدنا يا رسول الله أنت المقصود من الوجود وأنت سيد كل والد ومولود، عبيدك ومواليك يتوسلون بك في غفران الخطيئات، يا ربنا بجاهه عند امح عنا السيئات وتقبل منا الدعوات. اهـ. وقيل الاستغفار في هذا الموضع: الإسلام أي وما كان الله معذبهم وهم يسلمون، قاله مجاهد وعكرمة ورواه عنه عبد بن حميد وابن جرير الطبري، ثم قال جل شأنه رداً عليهم **(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه)** والصد - كما تقدم - محمول على الاستيلاء والتسلط والسيطرة والمنازعة في الأمر وإلا فإن أصحاب ميثاق الدرعية لا يمتنعون أحداً من دخول الحرم ما دام مقرأ بسيادتهم ومنتمياً بالولاء لهم! وشبيه هذا المعنى قوله سبحانه بعد الأمر بحج البيت **(قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون)** والعوج يعني به الزيغ والتحريف بالشبه التي يوردونها على الضعفة فالمراد بالعوج

هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنا يُصْحِبُونَ﴾

الاستفهام في الآية إنكار وتقريع، أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا، وجملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ مستأنفة معترضة، وضمير ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ عائد إلى آلهة بني إسرائيل من الإنس والجن، والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم كما حكى تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ والصحبة في قوله ﴿وَلَا هُمْ مِنْنا يُصْحِبُونَ﴾ تقتضي النصر والتأييد، والمعنى: ليسوا بمصحوبين من الله بالنصر والتأييد فكيف ينصرون غيرهم ويمنعونهم؟ على تضمين ﴿يُصْحِبُونَ﴾ معنى يُجَارُونَ وَيُمنَعُونَ، والعرب تُضمن الفعل معنى الفعل وتودعه معناه وتعديّه تعديته حين يتعدى بحرفٍ ليس من عاداته التعدي به، والغرض منه إعطاء مجموع المعنيين: أحدهما: مدلولاً عليه بالتعريض والتلميح، والآخر: بالتصريح مَنبَهِةً على غرضه وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد وأبلغ في الإعجاز، ويجري على التضمن بهذه الدلالة كثير من أفعال القرآن الكريم، فَتَفْطَنُ لَأَسْرَارِ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَتُسَلِّمَ لِعَظَمَةِ الصَّنِيعَةِ فِيهِ. ثم أضرب النظم إضراباً انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجرأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد وهو قوله تعالى ﴿بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي فما هم مستمرون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال حتى طالت أعمارهم، والإشارة بـ"هؤلاء" إلى الحاضرين في الأذهان المستخلفين في

الأرض، ونظيره ﴿بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ وقد وُجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ والمعنى: من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة؟ وهو استفهام إنكاري، أي: لا أحد يفعل ذلك، يقال: كلاه الله أي حفظه وحرسه، وقال ابن عباس: من يمنعكم من عذاب الرحمن. ولعله على تضمين الفعل ﴿يكلؤكم﴾ معنى "يمنعكم" وإنما خص هنا ذكر الكلاءة بالليل والنهار ليتأمل القوم ذكر ربهم ويشكروا إنعامه عليهم، ثم أُعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يمنعهم أحد من بأس الرحمن جعلهم أحرىء بالإعراض عنهم، وقوله ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ أي نقص من أرض المستخلفين بما نفتح على المسلمين منها كما جاء في آية الرعد ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ وذلك حين يستولون على أطراف الشام ويأخذونها قهراً وجبراً، وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال وعلى الكفر بالذلة والإدبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار، والمعقب: هو الذي يكرّ على الشيء فيبطله ويقفيه بالرد والإبطال، وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وترتية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى.

﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ الخطاب لجميع الخلق والمقصود بالخصوص منه بنو إسرائيل كما هو غالب اصطلاح القرآن والله أعلم، وجيء بصيغة النهي تنبيهاً على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها، والذم هنا لاحق بالمستخلفين الذين نفخوا في غير ضرم واستسموا ذا

ورم إذ ليس لهم حق يتعيّن ولا حق يتضح ويتبيّن. ويبدو أن مورد الآية في النهي عن اتخاذ آلهة في العبادة، وأما الآية الأخرى فموردها في النهي عن اتخاذ آلهة في الحكم ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل، وفي رواية عنه: ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى. أي من قوله تعالى ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ إلى قوله ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ وقد ذكر تعالى بين الآيتين خمسة عشر تشريعاً لإكمال نظام المجتمع ولبیان طريقة بني إسرائيل المتظاهرين بتوحيد العبادة والمنغمسين في تلك المنهيات ليعلموا أن الذي فضلهم هو المستحق للإلهية وأن الذي يعجز عن خرق الأرض ومطاوله الجبال لا ينبغي أن يتكبر في الأرض ولا يمشي الخيلاء ولا يتهكم في القول ولا يتألى وليعلم أن الاستخلاف من ربه وأن الملك عارية عنده وأنه إنما يستبقي النعمة بإدامة الشكر ويتعرض لسلبها بالكفر.

الفصل الثامن: الرحمن

أسماء وصفات الكمال ونعوت الجلال تنزهت عن مشاهدة الأمثال وتعاضمت عن مطلق المشاركة معها في عموم الآثار والأفعال سيما عما يصفه به المبطلون السفلة الأندال، واسم "الرحمن" ممنوع من سواه تبارك وتعالى، خاص له، لا يتسمى به إلا هو، دلالته في السموات والأرض ظاهرة، وعلاماته وشواهد في الوجود والوحي شائعة، ومعناه: إعلان هيمنة الله الكاملة على كل شيء وكمال قدرته وإعلان ربوبيته تعالى وسلطانه على عروش عموم الأكوان كما قال جلّ شأنه ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أي استواء هو أعلم به "ليس كمثله شيء" وأهل التأويل يقولون: استوى برحمانيته على العرش فلم تخرج ذرة من ذرات الممكنات عن ملكه وملكه فما من ذرة إلا ولها مدد إيجاد ومدد إمداد، فالعرش العظيم محيط بجميع العوالم وهو أي العرش محاط باسم الرحمن، وقال سبحانه ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ فتدبير الأمر بحكمه صادر عن رحمانيته ومن المعلوم أن العرش العظيم هو محيط بجميع العوالم كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية... قال تعالى ذاكراً ظهور عزته وكبريائه وأن أحداً من الخلق لا يمكنه أن يخاطبه في شيء ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً﴾ وقوله "الرحمن" صفة للرب المالك المتصرف بالتدبير، وجيء بهذين الوصفين لبيان أن رحمانيته تعالى ملازمة لربوبيته، والفرق بينهما أن الرحمن اسم لمرتبة انفردت به الذات الإلهية واحتصت بجميع الأوصاف العلية فهو أكثر شولا من الرب، وقد قرّر هذا المعنى تعالى وأكده بقوله ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ وفي هذا الموقف يتقدم

البرزخ الأعظم والنبى الأقدم والشفيع المقدم والنعمة المسداة والرحمة المهداة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وتخضع أعظم المخلوقات خلقاً وقدرًا وأكثرها قدرة وقوة إجلالاً وخوفاً وخضوعاً للرحمن الذي وسع مُلكه تعالى كل شيء فلم يخل شيء في الوجود الكوني من رحمته... وفي سورة الرحمن التي افتتحها تعالى باسمه **(الرحمن)** نرى مظاهر هذا الاسم المستولي على جميع العوالم والأكوان المشهوده بالجنان والمبصرة بالعيان وما في ذلك من آلائه التي كلما ذكر منها صنفاً أردفها بقوله **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** فمقصودها إثبات الاتصاف بعظيم الملك وتمام الاقتدار المدلول عليه بكمال العلم وشمول القدرة والإحاطة بجميع أوصاف الكمال وعلى ذلك دل اسمها الرحمن، وروى البيهقي في شعب الإيمان عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن»** واسمها واضح البيان في ذلك لأنها الحاوية لما فيه من حلى وحلل وجواهر وكلل، والعروس بجميع النعم والجمال والبهجة من نوعها والكمال، ووجه مناسبة السورة بما قبلها أنه تعالى لما أبرز قوله سبحانه **(عند مليك مقتدر)** بصورة التنكير للتعظيم وأشار إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنههما فهو تعالى مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه غالبٌ على عموم المقدورات والمرادات بحيث لا يخرج عن حيطه قدرته شيء؛ فكأن سائلاً يسأل من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين؟ فقل **(الرحمن)** وهو الملك الأعظم، ولهذا الاسم الشريف سر في الانتصار على الظالمين، وقد ختمت السورة كما ابتدئت به **(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام)** أي تعالى اسمه الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن الربوبية وختمت بذلك للإعلام بما له تعالى من السطوة التامة والإكرام البالغ الذي يقتضي مقامه إكرام الأولياء

وإهانة الأعداء. وفي الحديث عند البيهقي: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه» وفي سورة الملك أتى باسم الرحمن الدال على ملكه الواسع الذي وسع العوالم كلها علويها وسفليها ومنها عالم الطير ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فهو سبحانه الرحمن يمد الكل بالإيجاد والإمداد فلم تخرج ذرة من ذرات الممكنات عن ملكه وملكه. ولما ذكر سبحانه صفة الرحمن المتضمنة للقدره والغلبة أتبعها بذكر الرحمة فقال ﴿الرحمن الرحيم﴾ ليبقى العبد بين الخوف والرجاء فإن شهود الرجاء مُطمع وشهود الخوف مُجزع والأمر بين الشهودين، وفي هذا المعنى قوله عز وجل ﴿وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ وفي الخبر عن النبي الصادق الأبرار عليه السلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن» أي يرحمهم الحكم الأعظم العزيز الأكرم ألا ترى أنه تعالى ذكر عزته وحكميته مبتدئاً ذلك بذكر سعة ساحه مغفرته ورحمته على نحو ما حكاه سبحانه على لسان عيسى عليه السلام ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: إن تعذبهم تميمهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم، هذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا. ونحوه ما حكاه تعالى عن مؤمن آل فرعون في قوله ﴿وأننا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ وقوله "العزيز" إشارة إلى عزته وكمال قدرته وغلبته، وقوله "الغفار" إشارة إلى سعة رحمته وعفوه ومغفرته. وفي ذكر الرحمن تعريض بالمشركين إذ أنكروا هذا الاسم وكفروا به كما حكى تعالى عنهم بقوله ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وقال سبحانه ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي الذي

أشهدهم ربوبيته في ذاتهم وذراتهم وذرياتهم كما دل عليه قوله بعده ﴿قل هو ربي﴾ والرب صاحب السيادة المطلقة الحقيقية الحقية، وثنى بقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ والإلهية هي نتيجة حتمية للربوبية، وثلث بقوله ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وهذا من معالي درجات التوحيد. وقد بين ذلك هارون لبني إسرائيل في قوله ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ ونظيره قوله سبحانه ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن﴾ والرحمن عطف بيان من ربنا، وفيه توركُّ على المشركين لأنهم أنكروا اسم الرحمن، ولذلك أردفه بقوله ﴿المستعان على ما تصفون﴾ أي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم "اتخذ الرحمن ولداً" وأستعينه على احتمال ما تصفونه تعالى وما تصدر به أقوالكم من الأباطيل! والتعرض لعنوان الرحمانية في قوله تعالى ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ لتشديد النكير وتأكيده. وقال عز وجل ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ أي قل يا رسول الله هو الله ربنا الرحمن آمنا به لأن آيات ربوبيته مشهودة في جميع الأكوان ومشاهد رحانيته مرئية بالعيان فإنه الملك الذي وسع ملكه كل شيء وهو المستوي على عروش عموم الأكوان بكمال الاستيلاء والاستحقاق آمنا به ولم نكفر كما كفرتم، ولما جعل الكفر سبب الإساءة في الآية الأولى جعل الإيمان سبب الإجارة في هذه ليتم التقابل ويقع التعريض موقعه، وحسن التقديم في قوله تعالى ﴿وعليه توكلنا﴾ لاقتضاء التعريض بهم في أمر التوكل أي وعليه توكلنا فاتخذناه وكياً واعتقدناه حسيماً وكفياً لمخلصين مستوثقين بحبل جوده وكرمه لا على غيره، وأنتم غررتم أموالكم وجعلتم إبليس وجنوده وكلاءكم ومعتمدكم. وجاء هذا الأمر ﴿قل هو الرحمن﴾ بمناسبة الكلام السابق فإنه بعد أن سوى بين فرض غلبة أحد الفريقين في الدنيا، أعقبه

بأن المسلمين آمنوا بالرحمن فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فينصرهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أي الفريقين في ضلال حين يرون نصر المسلمين وانتفاء نصر آلهتهم كما أشار النظم المعجز ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ ولما أخبر سبحانه عن نزول الملائكة لنصرة أهل الحق وقطع شأفة أهل الباطل؛ أثبت تعالى لنفسه تمام الملك وأردفه بوصف نفسه بما يدل على كمال الاستعلاء والسلطان القاهر والاستيلاء الثابت صورة ومعنى فقال عز وجل ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ وهذا المقام لا يناسبه ذكر الرحمة والغفران كما لا يخفى على ذوي العرفان. وفي مسند البزار: قال رجل: يا رسول الله بوهي بالخيّل وألقي السلاح وزعموا أن لا قتال، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا الآن حان القتال لا تزال من أمّتي أمة قائمة على الحق ظاهرة» وقال وهو مولي ظهره إلى اليمن: «إني أجد نفس الرحمن من هاهنا» وفي مسند أحمد: «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن - وقال أبو المغيرة: من قبل المغرب» أي الشام. وقد نوّه الله بشأن النبيين والمهتدين وأخبر عن إخبارهم له سبحانه ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكياً﴾ وهذا من تمكنهم في مقر التوحيد وكمال يقينهم وعرفانهم بالكتب المنزلة التي تُبين كمال عزة الله وحكمته وغاية عظمتهم وربوبيته ونهاية الوصف الأرفع الأعلى والشأن الأتم الذي ليس لغيره مثله. ونظير هذا المعنى مبدأ كتاب سليمان ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولعلّ هذا الذي حدا بسهيل بن عمرو في عقد الصلح على منع كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ولجّ حتى كتب باسمك اللهم! وكان مشركوا مكة يدينون لأهل الكتاب بالولاء الروحي. ولما كان القرآن مشتملاً على أسماء كثيرة من أسماء الله

الحسنى وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: «يا الله، يا رحمن» أنكر عليه الأتباع من كفار قريش ذكر الرحمن وقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلهين وهو يدعو إلهاً آخر، وقال المتبوعون من أهل الكتاب: إنك لتُقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله تعالى ذكره في التوراة! فأنزل الله رداً على الفريقين ﴿قُلْ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ والمقصود من التخيير أنه لا فرق بين الألوهية والرحمانية لأللهما متلازمان يقع كل منهما موقع الآخر والله أعلم، وهذه الآية خاتمة التوراة. وذكر صاحب فتح القدير عن إبراهيم النخعي أنه قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن فنزلت الآية. قال الإمام الطبري في تفسيره: وإنما قيل ذلك له ﷺ لأن المشركين فيما ذكر سمعوا النبي ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن فظنوا أنه يدعو إلهين فأنزل الله على نبيه عليه الصلاة والسلام هذه الآية احتجاجاً لنبيه عليهم. وروى الحكيم الترمذي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً: «قال الله: أنا الله وأنا الرحمن» وفي صحيح البخاري: «إن الرحم شجنة من الرحمن» أي أنها مشتقة من الرحمن وقيل: يعني قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق شبهه بذلك مجازاً أو اتساعاً والمقصود أن القرابة موضع الذب والحماية والعون والمدافعة والمعاوضة والمنعة والنصرة حسبما تنطق به الرواية الأخرى: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب، قال: فذاك» والحقو فيه مجاز وتمثيل لما جعل الرحم شجنة من الرحمن استعار لها الاستمساك به كما يستمسك الضعيف بالقوي والمرؤوس بالرئيس والرقيق بالسيد القاهر والله ورسوله أعلم. وروى ابن حبان في صحيحه عن عبد

الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر: «يأخذ الله سماواته وأرضيه بيده ثم يقول: أنا الله - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الرحمن أنا الملك» وفي الحديث عند الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والبخاري عن النبي الصادق المختار: «اعبدوا الرحمن» وأخرج الطبراني ومحمد بن أيوب بن الضريس في فضائل القرآن وسمويه في فوائده وابن منده والبيهقي في الدلائل كلهم من طريق محبوب بن هلال عن عطاء بن أبي ميمونة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزني أفتحب أن تصلي عليه؟ قال: «نعم» قال: فضرب جبرائيل عليه السلام بجناحه فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ورفع له سريرته حتى نظر إليه وصلى عليه وخلفه صفان من الملائكة كل صف سبعون ألف ملك فقال النبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام: «يا جبرائيل بما نال هذه المنزلة» فقال: بحبه "قل هو الله أحد" وقراءته إياها جائياً وذاهباً وقائماً وقاعداً وعلى كل حال. وفي الصحيحين عن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبهم» ولما بين تعالى كفرهم بما يجب أن يذكر به الرحمن (وهم بذكر الرحمن هم كفرون) أعقب بعد ذلك بقوله (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أي من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة؟ وجيء بعد هذا الاستفهام التقريري بإضراب انتقالي تأييساً من اعترافهم بربوبية ربهم (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) وتنبهاً على وحدة العلاقة بين صفة الرحمن وصفة الرب! ولما ألقى إبراهيم إلى أبيه حجة فساد عبادته للشيطان أعقب منبهاً على

عصيان الشيطان أمر ربه ومالكه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ثم حذره من سوء عاقبة ما هو فيه ﴿يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ وفي آية الزخرف إشارة إلى العلاقة بين الشيطان وأوليائه ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ويشاكل هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿فَوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ وذكر صفة الرحمن هنا لتفطيع عتوهم وتجبرهم على ربوبية الله! وقد ورد في سورة مريم لفظ ﴿الرحمن﴾ ست عشرة مرة فأنبأ بأن من مقاصد صفة الرحمن تحقيق ربوبية الله التي بينها بقوله ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ والرد على المشركين الذين تقعرُوا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نفورا﴾ وقرأ بياء الغيبة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا﴾ على أن قولهم ذلك يقولونه بينهم، والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له تعالى بالوحدانية والإقرار له سبحانه بالحكم والعبادة وهو شعار الإسلام، وأما سجود الصلاة فليس مراداً هنا إذ لا فائدة في تكليفهم به قبل أن يُسلموا، وهذا نظير ما حكاه الله عنهم في قوله ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ وكذلك يحمل قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ وتأكد نفورهم من توحيد الربوبية بالكلام المتقدم ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ فأثبت سبحانه لذاته العلية كمال الاستعلاء على كل شيء، وقد تضمن قوله "فاسأل به" معنى فاكتف به خبيراً لدى سؤالك، والعلاقة واضحة بين المضمَّن والمضمَّن فيه فالسائل إنما يكفيه الخبر لأنه حين يسأل فإن لديه حاجة يسأل من يكفيه إياها وهل يسأل إلا خبيراً؟ فتفطن

لأسرار هذه الحروف في كتاب الله لتجني ثمرها. وفُرع على وصفه بالرحمن قوله ﴿فاسأل به خبيراً﴾ للدلالة على أن في علمه وحُكمه من العظمة والشمول ما لا تفي فيه العبارة فيعدل عن سؤال الحقيير إلى الاكتفاء بالخبير سبحانه، وفي الآية دلالة على ما بينه القرآن من البراءة والإعراض عن المستهزئين من علماء بني إسرائيل - أساء الله وجوههم - وقد برزوا يعلمون الناس التوحيد!!! وما للأحذية عندهم أثر، ولا في شجرها لديهم ثمر، فالله أكبر مفاصلة، ولا إله إلا الله مفاصلة عن مواصلة أهل المخاتلة.

﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذکر آهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ لما خوَّفهم سبحانه بالموت أردف ذلك بيان قساوة قلوبهم واستهزاءهم بالنبي ﷺ وكل من كان له وارثاً ولدينه مجدداً اتخذوه هزواً وظاهر الآية أن الأعيان والأعوان يعمهم هذا المعنى من أنهم ينكرون أخذ رسول الله ﷺ في أمر آهتهم على نحو ما جاء في سورة الفرقان ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ ويبيّن تعالى غاية جهالتهم وتعكيس قضيتهم بكفرهم بما يجب أن يُذكر به الرحمن، ثم أعقب ذلك بذكر استعجالهم العذاب في قوله ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ والظاهر أنه يراد بالإنسان هنا الكفرة خاصة ولذلك توعدهم بقوله ﴿سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ أي سآتي ما يسوءكم من العذاب الأبدي والهلاك السرمدى، ثم فسر استعجالهم بحكاية قولهم على سبيل الاستهزاء والاستبعاد الدال على شدة عتوهم وكبرهم وتكذيبهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ولما قالوا ذلك على وجه الهزاء والاستهبال وكانوا بتلك الصفة من الكفر والاستعجال؛

أجاب بقوله ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ ولما بين سبحانه شدة العقوبة أوضح أن وقت مجيئها غير معلوم لهم ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾ ثم أنس تعالى رسوله ﷺ بما جرى على سائر الأنبياء من استهزاء قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين فقال ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ قال شيخ الطريقين وعمدة الفريقين الإمام أبو العباس أحمد بن عجيبة الحسيني قدس الله نفسه الزاكية: كل من خرق عوائد نفسه وخرج عن عوائد الناس أو أمر بالخروج عن العوائد رفضه الناس واتخذوه هزواً، سنة الله التي قد خلت من قبل، لم يأت أحد بذلك إلا عودي، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية من علم لدي أو هداية خلق على يده، استعجلوه بإظهار الكرامة كما هو شأن الإنسان خلق من عجل، فيقول: "سأوريكم آياتي" فإن الأمر إذا كان مؤسساً على الحق لا بد أن تظهر أنواره وأسراره.

﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا﴾ أخرج الإمام أحمد عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا نَعَزَّ - يعني طلب العزة من الله - ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا﴾ وفي رواية: آية العز ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا﴾ الآية كلها. وهذه الآية رادة على بني إسرائيل في جعلهم الملائكة وعزيراً والمسيح ذرية لله سبحانه وتعالى، واردة عليهم في دعواهم أن إبليس وجنوده شركاء لله تعالى في الملك، واردة عليهم في زعمهم أن الله أولياء يعاونوه ليستعزز بهم من الدن، وقيد لفظ الآية نفى الولاية لله عز وجل بطريق الدن وعلى جهة الانتصار إذ ولايته موجودة بتفضله ورحمته

لمن والى من صالحى عباده الذين جاد عليهم بالتقريب وجعلهم أنصاراً لدينه
رحمة منه لهم لا احتياجاً منه إليهم. وقد حمد المولى سبحانه نفسه وهو أهل
الحمد منكرأ على كفره بني إسرائيل إشراكهم بالعبادة والحكم والتدبير وأثبت
لنفسه الغنى المطلق، بخلاف الملوك الذين يعجزون عن تدبير رعيتهم ودفع
أعدائهم إلا بأعوان يعينونهم لذهم وعجزهم وحاجتهم وفقرهم، والمقصود
الأول من قوله " وكبره تكبيرا " أن ينزه سبحانه عن الشرك فإن التكبير تنزيهه
تعالى عن الإشراف وعن قيد الجهات والتحويلات وعن سائر أحكام الحصر والله
أعلم، ومعنى: الله أكبر أي أكبر من أن يناله الحواس ويدرك جلاله بالعقل
والقياس بل أكبر من أن يدرك كنهه جلاله غيره بل أكبر من أن يعرفه غيره فإنه
لا يعرف الله إلا الله وقيل أكبر من أن يقال له أكبر أو يدرك كنهه كبريائه غيره
أو أكبر أن يقيد ربي حال من الأحوال بل هو تعالى في كل الأحوال أكبر لأن
كل ما سواه نور من أنوار قدرته وأعلم أن اسم التفضيل إذا أطلق على الله تعالى
فهو بمنزلة المعرف باللام في المعنى فهو بمعنى الله هو الأكبر فهو في حقه تعالى دال
على زيادة المبالغة والكمال المطلق الذي لا يتصور أن يشاركه فيه أحد مما
سواه. وقد تناولت الآية ذم بني إسرائيل الذين جعلوا لله شريكاً في الحكم
والعبادة وجعلوا تصرف الأولياء استقلالاً من دون أمر الله وإرادته! وقرروا في
ميثاق الأمم المتحدة أن الله تعالى لم يعد هو الأكبر فسلبوه عز وجل الربوبية
والإلهية وتنقصوه ثم ادَّعوا توحيده على وجه السخرية والاستهزاء! سبحانه أن
يلحق ساحة عظمتة شيء من شوائب النقص، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وقد
ختمت سورة الإسراء بتحميدة التوحيد المطلق التي افتتحت بها سورة الكهف،
والحمد أعم من الشكر إذ الشكر يكون على المحاسن وقد روى الشهاب في

مسنده عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «التحدث بالنعم شكر» والشكر نقيضه الكفران، والحمد نقيضه الذم، ولذلك كان أول ما لقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، والحكيم يث في الناس تلك الحقائق مع حملهم على العمل بما علموه، وذلك العمل من الشكر، فالشكر هو مبدأ الكمالات علماً وغايتها عملاً، ومن بلاغة القرآن وبديع إيجازه أن كان قوله ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ جامعاً لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان، وإنما قوبل الإعراض عن الشكر بوصف الله بأنه حميد لأن الحمد رأس الشكر كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده» رواه البيهقي. وهذا بعينه هو أول السورة التي بعدها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ وقد صُدِّرت السورة بإعلام الله بالحمد على نفسه تعليمًا له ﷺ وإرشاداً لأمته، والحمد مشتمل على الأوصاف الجميلة والنعوت الجليلة ومستجمع لجميع أوصاف الكمال المستحق لعموم الحامد، وقوله ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ أي المستجمع لجميع مراتب الكمال المستحق لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه بالأصالة يعني سيد العرب والعجم نبينا النبي الأعظم والرسول الأجل الأكرم بحر الله المظمم وكنزه المقدس المطلسم الذي لا إمام له إذ هو إمام كل إمام ولا أحد أمامه إلا الله تعالى والشفيع الذي لا شفيع له ﷺ المنزل عليه الكتاب المفصل لمرتبه والموضح لشأنه والمبين لعروجه الى معارج العناية الإلهية، ولا يخفى على المحققين المحمدين المتحققين بمقام المعرفة والتوحيد المسترشدين من القرآن المجيد استقامة هذا الكتاب المنزل على العدالة والقسط الإلهي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾

والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه، ولا ريب فهو المشتمل على عموم ما في الكتب السالفة مع زيادات قد حلت عنها تلك الكتب من الرموز والإشارات المتعلقة بالتوحيد المسقط لتحريفات وتبديلات أهل الكتاب والمبني لطريق الوحدة على الوجه الأعدل الأبلغ الأتم الأقوم بحيث لم يجعل له عوجاً وانحرافاً في تبينه ولم يجعل له زوالاً فإن العوج يفضي إلى الزوال بل جعله قيماً معتدلاً باقياً لينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وهو الإنذار الذي ختمت به الإسراء بزوال دولة بني إسرائيل ووقوع بأس الله بهم. وقد نقلوا عن آبائهم الكفر الذي تهرب العقول منه وتنفر الطباع السليمة عنه ولذلك عقّب المولى جل وعلا بعد قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ بالآية ﴿ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ والتعرض لنفي العلم عنهم لبيان أن قولهم هذا لا يقتضيه العلم وقد عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه عز وجل.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الكلام عطف على قوله ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ وهذا من عطف حكايات ضلالاتهم وعنادهم ونفاقهم وبيان أحوالهم في معاذيرهم عن الإعراض عن دعوة القرآن واشترائهم أنفسهم بالكفر حسداً أن يكون الوحي في غيرهم ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ والبغي: الظلم وهو ظلم الحسد! فلا ينبغي لأحد أن يكون على صلة

بالوحي سواهم حتى لا يكون بهذه الصلة فوقهم فإذا اصطفى الله تعالى غيرهم
جهدوا في قطع تلك الصلة حسداً وضناً بشرف الوحي والسيادة على البشر
بسلطان الله والحكم باسمه على غيرهم، والله در السيد الرواس حيث يقول:

قل للأذلاء ممن طمهم حسدٌ ... نحن مع الله مهما شئتموا قولوا

لقد عرفتم لنا شأنًا فهاج بكم ... وشأنكم عندنا يا قومٌ مجهول

صُلنا ببأس رسول الله عن أدبٍ ... ألا بيهتانكم بين الملا صولوا

ضاءت لنا برسول الله طالعةٌ ... لها جنابٌ بكف العون محمول

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

لنا نظامٌ جلا القرآنُ حكمته ... لم تنفع الحُبُّ في ذاك الأقاويل

طريقنا سُنّة قامت دِعامتها ... عن النبي الذي وافاه جبريل

والمراد بقوله ﴿آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ جميع الكتب من توراة وإنجيل وقرآن لأن الكفر
ببعضها كفر بكلها والله أعلم وأحكم، قال تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ يدل على أنهم انقطعوا فاحتجوا
بآخر ما يحتج به المحجوج يتقلب عليه فلا يبصر إلا وهو مثلوج مشجوج، إذ لو
آمنوا بالتوراة حقاً لما قتل أسلافهم الأنبياء الذين هم من قومهم حين دعوهم إلى
العمل بالتوراة ولكنهم يعرضون عن كل ما لا يوافق أهواءهم، وذموا على هذه
المقالة لأنهم حرّفوا كتبهم وصرفوها عن محاملها الصحيحة كما هو ديدنهم في
تأويل القرآن بغير المراد منه، والمقصود بما وراءه خصوص القرآن بقريئة السياق
لتقدم قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ولتعقيبه بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾

ويمكن حمله على باطن معانيه التي هي وراء ألفاظه وجعل الورا مجازاً أو كناية عما لا يظهر معناه والله أعلم، وفي صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن» وفي رواية للطبراني: «إن القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مُطَّلَع» أي لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به، وظهره: ما ظهر تأويله، وبطنه: ما خفي تفسيره. ولا يكون الرجل كاملاً في العلم حتى يجمع بين علم الظاهر والباطن، والباطن لا يعارض الظاهر كما أن الظاهر لا يعارض الباطن، وذلك النهج بعيد كل البعد عما نادى به أهل الكتاب من الأخذ بظاهر القرآن وقصرهم معانيه على ما ادعوه من تفسيراتهم دون غيره وهم لا يقرون الشريعة ويطلقون العمل بها كما لا يُخضعون دعواهم للنص القرآني بل يُخضعون النص القرآني لدعواهم. وإنما عصى إبليس بالأخذ بالظاهر، فقس مع الظاهر تحصيل على فائدة عظمية وتُخَفَّف عن هذه الأمة فإن ذلك مقصود نبينا عليه أكمل الصلوات والتسليمات. واعلم أن بني إسرائيل لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ مُسخوا قرده فإن من معاني كونهم قرده أنهم أشبهوها في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميزوا عنها إلا بالشكل الإنساني وهذه القرده تشاركهم في هذا الشبه. ثم كشف تعالى ستر ادّعائهم بالإيمان بما أنزل عليهم بآيين نقض فقال **(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ)** وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم من قتل أنبيائهم، ومن إعجاز القرآن أنه يصف بني إسرائيل بالصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا، مما جعل القرآن يخاطبهم في عهد الرسالة المحمدية كما لو كانوا هم

أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبهة واحدة لا تتغير ولا تتبدل سماقم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان! ومن ثم يكثُر الالتفات في النظم من خطاب أولئك الذين آذوا موسى ومكروا بعيسى، إلى خطاب الذين حزبوا الأحزاب على سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء، إلى خطاب الجليل الذي نراه اليوم، ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة وموقف بني إسرائيل منها، وتظل هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد وحرب متنوعة المظاهر متحدة الحقيقة...

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾

في هذا خبر من الله تعالى مؤكد عن أمر عظيم الوقع تحقيق النفع إذا توفرت شروطه لا يمكن تخلفه وفيه نوع من التحدي لمن لا يصدق ذلك أن من كان له قلب ومن شأنه أن يعقل به وأحضر قلبه وجمعه على تفهم القرآن وتدبره ولم يتسبب في إغراض قلبه وتفرقه فإنه لا بد أن ينتفع به وتحصل له الذكرى القلبية والقناعة العقلية. قال العلامة ابن عطية: القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله. اهـ. أي أن القلب محل العقل فأطلق المحل وأراد ما حل فيه وهو العقل، والناس في هذه الآية على ثلاثة أصناف: الأول: مَنْ كان له قلب ذكي واعٍ بحيث إذا عُرِضت الحكمة عليه تذكر وازدجر واهتدى للحق واعتبر فهو كامل الاستعداد قابل للحق والإمداد إذا تجلّى له نور الله تعالى في كلامه انجذب قلبه إليه واستسلمت نفسه مطمئنة لديه. والصنف الثاني: مَنْ سرت إليه شبهات أهل

الكتاب وتمكنت فيه فيحتاج إلى إلقاء سمعه وجمع فكرته وبذلك يتبين له وجه الحق الذي جاء به القرآن الكريم فيعلم حقيقته وصدقه ويؤمن به ويتشربه قلبه ويذوق حلاوته وإليه الإشارة في قوله جل شأنه ﴿أَوَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ والصنف الثالث: من ليس له قلب ولا عنده الإلقاء السمعي فهو معاند معارض لدود مفسد منافق حقوق شيطان متلون كنود وهذا يجادل بالتي هي أحسن وهذه المجادلة تستلزم أن تكون الحجة عليه قائمة على أساس مسلم ومقطوع به عنده فإن تكبر وعاند وحمله كبر النفس وعتوها على محاربة الله ورسوله ﷺ وتحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه يصار به إلى الجدل بالغلظة والأخذ بالشدّة والعنف، قال جل شأنه وعز سلطانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال تعالى آمراً بقتلهم حيث وجدوا ومستنكراً لانقسام المؤمنين في أمرهم إلى فرقتين مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جليلة ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُسَهُمْ﴾ بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ وقد تقدم تفسير هذه الآيات مستوفى.

وعلم آدم الأسماء كلها

أي علّمه أسماء ذريته أجمعين، وقيل: أسماء كل شيء، وقيل: أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، والذي يقتضيه منصب الخلافة أنها أسماء المسخلفين، ولما كان العرض على الملائكة بالغاً في المراد أشار إلى رتبته في إظهار مزية آدم

بحرف التراخي فقال **(ثم عرضهم على الملائكة)** والعرب لا تكاد تكتي بالهاء والميم إلا عن العاقل وأما إذا كانت عن أسماء غير العاقل فإنها تكتي عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، ولما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في استخلاف ذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يُفصّل فيبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علمه أسماء المستخلفين على مرّ الدهور والسنين يُظهر فضله وقصورهم عنه في العلم وليكون إنباؤه الملائكة بذلك أهر لهم في فضيلته، فتأكد الجواب الإجمالي بالترفضيل، وظاهر قوله **(فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء)** حضور ذريته حالة العرض على الملائكة حيث أمرهم بتعيين الخلفاء المفسدين، والإنباء: إخبار فيه إعلام بعظم خطر هؤلاء المستخلفين وهذا مبني على أن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم، قال الإمام الرازي: ذكروا في قوله **(إن كنتم صادقين)** وجوهاً: أحدها: معناه أعلموني أسماء هؤلاء إن علمتم أنكم تكونون صادقين في ذلك الإعلام. وثانيها: معناه أخبروني ولا تقولوا إلا حقاً وصدقاً فيكون الغرض منه التوكيد لما نبههم عليه من القصور والعجز لأنه متى تمكن في أنفسهم العلم بأنهم إن أخبروا لم يكونوا صادقين ولا لهم إليه سبيل علموا أن ذلك متعذر عليهم. وثالثها: إن كنتم صادقين في قولكم أنه لا شيء مما يتعبد به الخلق إلا وأنتم تصلحون وتقومون به وهو قول ابن عباس وابن مسعود. ورابعها: إن كنتم صادقين في قولكم أي لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء. اهـ. وفي استعمال ثم والفاء ما لا يخفى من الاعتناء بشأن آدم عليه السلام الذي فضله بالعلم فإنه سبحانه ما جعله مسجود الملائكة إلا بهاته المنقبة الجليلة، ولعل توجيه الكلام إلى الملائكة يراد منه إظهار مزية العلم الذي خص الله به آدم ليكون إنباؤه الملائكة بالأسماء أهر لهم في فضيلته، وآدم

يشمل ذريته الأنبياء، وقد توجه الخطاب إلى سيد الأنبياء في أول القصة (وإذ قال ربك) وإضافة رب إليه ومخاطبته بالكاف تشريف منه له وإظهار اختصاصه به، ألا ترى إلى قول سيد البشر صلاة الرحمن وسلامه عليه: «رأيت ربي في أحسن صورة، قال: فيم يختصم الملائ الأعلى؟ فقلت: أنت أعلم يا رب، قال: فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماوات والأرض» ولا عجب فهو ﷺ الإمام المقدم في الأرض والسماوات قبل آدم، وخليفة الله الأعظم، ونوره الأسبق، وصراطه المحقق، المعفّر له جباه الملائك، المشرف بلولأك لولأك ما خلقت الأفلاك، وأنت إذا تأملت أن كل كرامة أوتيها واحد من هذه الأمة في علم أو عمل، هي من آثار معجزة نبيه ﷺ وسر تصديقه، وبركات طريقه، وثمرات الاهتداء بهديه وتوفيقه، واستحضرت ما أوتيته علماء أمته الأشراف، قضيت بأن ما منحه ﷺ من العلوم والمعارف، لا تحيط به العبارات، ولا تدرك حقيقة كنهه الإشارات، صلى الله وسلم عليه، وزاده فضلاً وشفراً لديه، وأفاض علينا من سحائب علومه ومعارفه، وتعطف علينا بعواطفه، قال تعالى (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان) والإنسان ههنا النبي ﷺ علمه القرآن الذي فيه بيان كل شيء. وقيل: الإنسان ههنا آدم عليه السلام. وعلى كل فإن آدم خلق من نوره ﷺ، وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام» وفي الخبر: «لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلعب في جبينه فيغلب على سائر نوره ثم رفعه الله على سرير مملكته وحمله على أكتاف ملائكته وأمرهم فطافوا

به في السماوات ليرى عجائب ملكوته» والله در ابن الفارض حيث يقول على لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

فإن أول ما انفلق الوجود انفلق على المحتد الكمالي الأعلى فكان مظهره سيد الوجود ﷺ ثم منه خلق الله الخلق والأكوان وكل شيء، ومن منصبه برز العلم والأقدار وقُسمت العطايا الإلهية ولأجل هذا المحتد الكمالي الأعلى خلق الله الوجود لأنه عين النسبة الدالة عليه وعين النسبة الموصلة إليه سبحانه فما يُتوصل إلى الله إلا بهذا المحتد الكمالي ولا يُعرف الله سبحانه إلا من خلال هذا المحتد الكمالي. وروى الإمام الحاكم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك» وروى ابن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب قال: «لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل فقال: يا آدم! هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل، قال: قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك فمجده وامدح فليس شيء أحب إلى الله من المدح، قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير

كله وهو على كل شيء قدير ثم تبوء بخطيئتك فتقول: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إني ظلمت نفسي وعملت سوء فاعفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي، قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم! من علمك هذا؟ فقال: يا رب! إنك لما نفخت في الروح فقممت بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوباً: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله، فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب ولا نبي مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك، قال: صدقت، وقد ثبت عليك وغفرت لك خطيئتك» وقد أتى في بعض الكتب السماوية: «والله لو استفتحوا عليّ كل باب وسلكوا إليّ كل طريق فلن أقبلهم حتى يأتوا من خلفك يا محمد» وروى ابن عساكر عن كعب الأحرار قال: «أنزل الله على آدم عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بُني أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين ثم إني طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوباً عليه ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحر الحور العين وعلى ورق قصب آجام الجنة وعلى ورق شجرة طوبى وعلى ورق سدرة المنتهى وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها» وفي رواية لابن الجوزي عن ميسرة قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب

على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وآدم بين الروح والجسد فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبر أنه سيد ولدك فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه» ولما أعطي ﷺ هذه المنزلة علمنا أنه الممد لكل نبي مبعوث، وما أحسن قول الأبوصيري:

وكل آي أتى الرسلُ الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهرن أنوارها للناس في الظلم

يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ، فجميع ما ظهر على الرسل عليهم الصلاة والسلام سواء من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض ومدده الواسع من غير أن ينقص منه شيء، وأول ما ظهر ذلك في آدم ﷺ حيث أمده الله تعالى بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته، فلما برز كان اندرج في نوره كل نور وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء ودخلت الرسائل كلها في صلب نبوته، والنبوات كلها تحت لواء رسالته، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطي ﷺ مثلها، وأما سجود الملائكة لآدم فقال الإمام الفخر في تفسيره: إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد ﷺ في جبهة آدم. والله در القائل:

تجليتَ جل الله في وجه آدم ... فصلى له الأملاك حين توسل

وأما تعليم آدم الأسماء كلها فروى الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمي من الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها» والله در الأبوصيري حيث قال:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ... ب ومنها لآدم الأسماء

وافتح كلام الملائكة بالتسبيح (قالوا سبحانك) وقوف في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة، وفي تصدير كلامهم بسبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجلاً بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم... وقول الملائكة (لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) خبر مراد منه الاعتراف بالعجز، وأن علومهم محدودة مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها... والعليم معناه: العالم، والحكيم معناه: الحاكم، وبينهما مزية المبالغة في حق الله عز وجل، ولما علم سبحانه استحقاق آدم للنياحة ولياقته للإمامة أظهر فضله في مشهد من الملائكة الكرام لينبئهم بأسماء المستخلفين من ذريته فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) إرشاداً للملائكة على مرتبة العلم، ولما سأل رئيسهم أمين الوحي جبريل عليه السلام عن أشراط الساعة أجابه الحبيب الأعظم ﷺ بقوله: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب» ومن الوارد على هذا الرعي قوله سبحانه (ليسوا وجوهكم) والمقصود من خطاب آدم - والله أعلم - أن يظهر فضله عليهم في العلم من هاته الناحية إذ علم ما لم يعلموه فكان الخطاب

بمنزلة أن يكون مسوقاً إليهم لقوله عقب ذلك **(قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)** وكان الذي كتموا قولهم: "لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم" كما روي عن الحسن والربيع وقتادة. وأمّا قوله **(اسجدوا لآدم)** فهو تمثيل لحالة تدل على تعظيم، وقد كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام تعظيماً لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله إذ كان في صلبه، وأخذ رئيس الملائكة جبريل عليه السلام بركاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله ليلة الإسراء والمعراج وهذا أعظم من السجود! وجلسَ جلسة المتعلم بين يدي المعلم بأدب واستعداد لما يسمع من الحديث ووضع كفيه على فخذي النبي صلى الله عليه وآله كهيئة السجود وهي هيئة تعظيم. وقال: **«السلام عليك يا رسول الله»** وفي رواية: **«يا رسول الله أدنو منك؟»** قال: **«ادن»** وفي رواية أخرى: **«فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله واضعاً كفيه على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك من كمال التوقير والأدب منه أمام مقام النبي صلى الله عليه وآله في مشهد من الصحابة فكان السائل جبريل ورسول الله صلى الله عليه وآله يجيب... والله در القائل:**

وهل من بعد مدحة ربنا ... وخدمة جبريل مقال لقائل

وفي رواية عن ابن عمر في مسند أبي حنيفة: قال: والله بينما أنا قاعد عند رسول الله صلى الله عليه وآله في أناس من أصحابه إذ أقبل شاب جميل حسن اللمة طيب الريح عليه ثياب بيض، فقال: **السلام عليك يا رسول الله! السلام عليكم،** فرد النبي صلى الله عليه وآله، ورددنا عليه، ثم قال: **أأدنو يا رسول الله!** قال: **«ادنه»** فدنا دنوة أو دنوتين، فقلنا: ما رأينا كالיום قط رجلاً أشد توقيراً لرسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: **أأدنو يا رسول الله!** قال: **«ادنه»** فدنا حتى كادت تصيب بركبته ركة رسول الله صلى الله عليه وآله،

ثم قال: **أَسْأَلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!** قال: **«نعم»** وفي رواية عند الإمام أحمد: قال القوم: ما رأينا رجلاً أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا... ولذلك كان ﷺ أفضل خلق الله تعالى وأعظمهم على الإطلاق، كلهم تحت لواء حمده وراية مجده، والأحاديث في مزيد فضيلته وعلو شأنه ودرجته كثيرة جداً، لا تحصى ولا تحصر عدا، وقد رفع الله ذكره وأعلى قدره فلم تطاوله سماء ولم يرق رقبته أحد من الأنبياء، كيف وهو ﷺ أشرفهم مجداً وأرفعهم شأنًا وأفضلهم مولداً وأزكاهم عنصراً وأطيبهم نفساً وأعلاهم همة وأعظمهم بياناً وأحلاهم تبياناً، وقد أحضروا له في بيت المقدس وقدمه جبريل عليهم فأمهم في محلته وأوقفه على أماكنهم في السماوات ومقاماتهم وعرج به - من الصخرة التي هي في بيت المقدس والموازية تماماً لباب السماء الدنيا الذي يسمى باب الحفظة - إلى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وملك مقرب وتخط عندها الأوامر الإلهية ومنها تنزل إلى العوالم فتأخر جبريل، ثم رفع النبي ﷺ إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بما جرى ثم يجري من الأحكام الإلهية وناجاه بالخطاب فألقى عليه ما ألقى وأوحى إليه ما أوحى وأراه من الآيات الملكوتية الدالة على وحدانيته وكمال عظمتة الجبروتية وعجائب قدرته الربانية، ليدل ذلك على أنه الرئيس الأعظم والإمام المقدم الأقدم، ولا عجب فهو القائل ﷺ كما ورد في سنن الترمذي: **«أَنَا وَابْنُ حَبِيبِ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ»** أي أعطيت مقاماً فريداً في المحبوبة فأنا أحب حبيب إلى الله، وفي مسند البزار: **«فقال له ربه تبارك وتعالى: قد اتخذتك خليلاً وهو مكتوب في التوراة: محمد حبيب الرحمن»** وفي رواية: **«فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»** فما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مقام الخلّة فقد أعطيه نبينا ﷺ وزاد بمقام المحبة، والفرق

بينهما أن الخليل يكون فعله برضا الله، والحبيب يكون فعل الله برضاه، وقد روي في حديث الشفاعة عند الإمام مسلم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قيل له: اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا قال: «لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء» فنبينا ﷺ نال درجة الخلّة التي اشتهرت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام على وجه نطق إبراهيم بأن نصيب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام منه الأعلى بمفهوم قوله عن نفسه: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» فلم يشفع، وفيه دليل على أنه إنما يشفع من كان خليلاً لا من وراء وراء بل مع الكشف والعيان وقرب المكانة من حظيرة القدس لا المكان، وذلك مقام محمد ﷺ بالدليل والبرهان، فحصل له من مقام الخلّة ما لم يحصل لأبيه إبراهيم عليه السلام، وفي الفرع ما في الأصل وزيادة، ويرشدك إلى ذلك أن التخلق بأخلاق الله تعالى الذي هو من آثار الخلّة عند أهل الاختصاص أظهر وأتم في نبينا ﷺ منه في إبراهيم عليه السلام فقد صح أن خلقه القرآن وشهد الله تعالى له بقوله **(وإنك لعلى خلق عظيم)** وحكى مرتبته بقوله **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** وجمهور العارفين قدّست أسرارهم على أن المراد من العالمين جميع الخلق وهو ﷺ رحمة لكل منهم إلا أن الحظوظ متفاوتة ويشارك الجميع في أنه سبب لوجودهم، ولله در القائل:

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى ... ومن خاف أن يلقاه بغي من العدا

تعال إليه تلق من نور وجهه ... دليلاً ومن كفيه بحراً من النّدا

وروي أنه ﷺ قال لجبريل: **«هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟»** قال: **«نعم أصابني من هذه الرحمة شيء، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك»** وهو عليه الصلاة والسلام أمان أهل الأرض على الحقيقة كما يرشد إليه قوله **(وما كان**

الله ليعذبهم وأنت فيهم) واعلم أنه تعالى أخرج الشيطان وأولياءه من هذه الرحمة فلا نصيب لهم فيها كما ترمز إلى ذلك حادثة شق صدره الشريف وإخراج حظ الشيطان. ولما عرج به ﷺ ليلة المعراج أمره جبريل أن يسلم على ربه فقال: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، فأجابه حضرة الحق جل جلاله: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فشرَّك النبي ﷺ كل عبد صالح في السماء والأرض: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقال جبريل ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم لما سمعت الملائكة بذلك فرحوا وقالوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. والمراد بآل إبراهيم على وجه الخصوص أسرة إسماعيل بفروعهم الذين أووا إلى مكة وكان في أصلهم صفوة الخلق سيدنا محمد ﷺ وكانوا على الحنيفية دين أبيهم إبراهيم، وعندي في نصرة هذا القول دليل مركب من مقدمات ثلاث:

الأولى: أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل فقد أخرج الترمذي وأحمد وابن أبي شيبة عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» وأخرجه الحافظ أبو القاسم السهمي في فضائل العباس من حديث واثلة بلفظ: «إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذ خليلاً واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزار ثم اصطفى من ولد نزار مضر ثم اصطفى من مضر كنانة ثم اصطفى من كنانة

قريشاً ثم اصطفى من قريش بني هاشم ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ثم اصطفاني من بني عبد المطلب» أورده الحب الطبري في ذخائر العقبى. وروى البزار عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَتَقْلِبُكُ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: «من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبياً» وروى الديلمي عن جابر قال: خطبنا النبي ﷺ فقال في خطبته: «أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر، وأكرم الناس قدراً ولا فخر» وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا من خيار إلى خيار» وبذلك تكون نكتة التشبيه في الصلاة الإبراهيمية ربط الفروع بالأصول، والأبناء بالآباء، وإلحاق الأزواج والذرية بالأروم والأصول، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأن الفرع الإسماعيلي وإيذاناً باستقلاله كما جاء في صحيح الإمام البخاري: «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» واحتج بالحديث طائفة من العلماء على أن الآل هم الأزواج والذرية وكانت أم إسماعيل هاجر من القبط وكانوا آنذاك ملوك الأرض وهم الذين استعبدوا بني إسرائيل.

والثانية: أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن كل أصل من أصول النبي ﷺ من آدم إلى أبيه عبد الله فهو من خير أهل قرنه وأفضلهم على نحو ما ورد في الحديث عند الترمذي: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» وهذا دليل على تمجيد الفرع

الإسماعيلي فإنه ﷺ لما كان في أصلاب بني إسماعيل كانت في الفرقة الأخرى أنبياء بني إسرائيل فكان ﷺ في خيرهما فرقة وأفضلهما حسباً وأشرفهما من ناحية النسب الحمدي لا من ناحية النبوة، وفي صحيح الإمام البخاري: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه» وأخرج ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير العرب مضر، وخير مضر بنو عبد مناف، وخير بني مناف بنو هاشم، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب، والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما» وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفىً مهذباً، لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما» وأخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أنس قال: خطب النبي ﷺ فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً» ولما ثبت ذلك أنتج قطعاً أن آباء النبي ﷺ لم يكن فيهم مشرك لأنه قد ثبت في كل منهم أنه من خير قرنه من خير أهل الأرض ولأنه ورد النهي في الأحاديث الكثيرة عن الانتساب إلى الآباء في الجاهلية على سبيل الافتخار كقوله ﷺ: «لا تفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية» وكقوله: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكرماً فهو عاشرهم في النار»

وثبت عنه ﷺ أنه قال يوم حنين: «أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب» وجاء في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل قوله ﷺ: «العباس صِنُّ أَبِي» والصنو هو المثل فهل يتصور العاقل أن يشبه رسول الله ﷺ سيدنا العباس بأبيه ويكون كافراً؟! كلا ثم كلا بل الحق الثابت بالأدلة أن آباء سيدنا رسول الله ﷺ كانوا على التوحيد لما بلغهم من شريعة إسماعيل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

والثالثة: أن الله تعالى اختص إسماعيل عليه السلام مع أبيه ببناء البيت ورفع قواعده ومنحه الفضيلة فيه - دون أسرة إسحاق - وهذه لعمر الله مزية لا تعدلها مزية فإنه تعالى لما عهد إلى إبراهيم وإسماعيل بالقيام على هذا البيت وتطهيره للطائفتين والعاكفين والركع السجود، أتبعه بذكر بنائه تعديداً لوجوه النعم على أسرة إسماعيل ليظهر بذلك التفاوت ما بين الفريقين ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وأراد به سيدنا محمداً ﷺ فإنه ما تقدر البيت إلا لأجله فهو عروس الكون بخيله ورجله، ومصدق هذا ما رواه السيوطي وغيره عن الضحاك أن النبي ﷺ قال: «أنا دعوة إبراهيم قال وهو يرفع القواعد من البيت ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ حتى أتم الآية» وبذلك صار وجود البيت عائداً على بني إسماعيل وكانت الكعبة قياماً لهم وهذا قيام خاص بأهله ولما كان اختصاصهم بالبيت مشهوراً واضحاً عند جميع الطوائف حسن أن يختم الطلب المذكور في حديث أبي مسعود عند مسلم ومالك وغيرهما بقوله:

«**في العالمين إنك حميد مجيد**» أي كما نشرت ذكر أصوله ﷺ وأظهرت شرفهم وزدت من فضلهم بحيث استفاض ذلك واشتهر بين العالمين حقق دوام ذلك في الفروع لأن البيت لما عمه النور الحمدي صار مصدر هداية للعالمين كما قال عز وجل **(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين)** أي جعله الله متعبداً للناس وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض تحته ولما ذكر تعالى أن البيت كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض عدد من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال **(فيه آيات بينات مقام إبراهيم)** أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها مقام إبراهيم وهو الذي قام عليه وابنه إسماعيل حين رفع القواعد من البيت ثم نادى نداء سمعه جميع أهل الأرض: ألا إن ربكم قد وضع بيتاً وأمركم أن تحجوه. واعلم أن البيت نال قوامه بالنور الحمدي وتجددت في البيت روحانية الحبيب الأعظم حين رفع الخليل وابنه إسماعيل قواعد البيت في العشر التي أقسم الله تعالى بمن ولعل هذا سرّ الحديث الجامع عند الترمذي: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**» فقالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**» وفي رواية للبيهقي: «**فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير فيها أيام التهليل والتكبير وذكر الله وإن صيام يوم منها يعدل صيام سنة والعمل فيهن يضاعف ست مائة ضعف**» وفي لفظ: «**وقيام كل ليلة بقيام ليلة القدر**» وسارت في البيت بركات الحقيقة الحمدية التي هي سر الوجود والجمال

والكمال فأشرقت على العالم فصار البيت محج العالم وهذا هو معنى العالمية
(وهدى للعالمين) أما أسرة إسحاق بفروعهم من الأنبياء فلم تتحقق فيهم العالمية
لأنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة وأما كثرة أنبيائهم فهي دليل على كثرة
فسادهم وانحرافهم! وقد نبه تعالى على سفههم وإعراضهم عن ملة إبراهيم
وعرض بما وعدهم به من الاستخلاف في البيت على لسان أبيهم يعقوب عليه السلام
(ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين) وسجل عنادهم وشدة تعنتهم ولؤم
طبعهم ونبه المؤمنين على نفاقهم وكيدهم وخداعهم أمراً بالتولية شطر القبلة
وتطهيرها من رجسهم ممتناً على المؤمنين بإرسال الرسول مفاتحة لأبواب
الوصول **(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم
الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)** وقد جاء في هذا بمحسن ردّ
العجز على الصدر من ذكر الامتنان على بني إسماعيل بإجابة دعوة أبيهم
إسماعيل وإبراهيم خليل الرحمن حيث بعث فيهم من أنسابهم رسولا يعرفون
نسبه ومولده ومنشأه بين أظهرهم **(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم
آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم)** فكان في سابق علمه سبحانه أن
أكرمهم بإرسال الرسول الخاتم إليهم بفنون القرب والزلف، وألزم غيرهم
بإرسال الرسل إليهم الكلف، وشتان بين قوم وقوم! وفي سورة آل عمران
طالبهم بالحج إلى البيت الذي مكنهم الله فيه بعد الأمر باتباع الملة الإبراهيمية
المدرّكة بالأنوار الحمديّة واستفهمهم على جهة التوبيخ صدودهم عنها
وابتغاءهم السبيل العوجاء! وفي سورة إبراهيم ذكر تعالى ما أنعم به على بني
إسماعيل وما اختصهم به من دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام حين كان مع ولده
إسماعيل في البيت الحرام وسأل الله تعالى أن يجنّب عبادة الأصنام وبنيه يعني

إسماعيل وفروعه الذين كان في أصلهم صفوة الخلق ﷺ كما ذكر الإمام السيوطي عن مجاهد في الآية **(واجنبي وبني أن نعبد الأصنام)** قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً - يعني من آباء النبي ﷺ - بعد دعوته واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله من الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه: أن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش، فذكر الحديث بطوله في قصة البيت الحرام، وفيه من قول الله لآدم في حق إبراهيم عليهما السلام: وأجعله أمة واحداً قانتاً بأمرى داعياً إلى سبيلي أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم أستجيب دعوته في ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته، الحديث. هذا الأثر موافق لقول مجاهد المذكور آنفاً ولا شك أن ولاية البيت كانت معروفة بأجداد النبي ﷺ خاصة دون سائر ذرية إبراهيم إلى أن انتزعها منهم عمرو الخزاعي ثم عادت إليهم فعرف أن كل ما ذكر عن ذرية إبراهيم فإن أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة الذين خصوا بالاصطفاء وانتقل إليهم نور النبوة واحداً بعد واحد فهم أولى بأن يكونوا هم البعض المشار إليهم في قوله "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي". اهـ. وإذا قارنت بين هذه المقدمات أنتج منها أن آل إبراهيم ابتداء هم أسرة إسماعيل بفروعهم لأنه قد ثبت في كل منهم أنه من خير قرنه...فهذه شواهد على ما اختصهم به من الفضيلة وزلفى الوسيلة ورفيع المنزلة وعلو المرتبة فإن موقع التشبيه في قوله "كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم" يدل على أصول النور الأعظم ﷺ وقد علمنا أنه قد اجتذبه عرق أبيه إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام فجاء أشبه الناس به سمتاً ودلاً وهدياً كما صح في الحديث

عند الترمذي: «ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم يعني نفسه» وبالحملة فإن صلاتنا على سيدنا محمد وآل بيته مرتبطة بالصلاة على سيدنا إبراهيم وآل بيته ارتباطاً وثيقاً فهم أصوله وأجداده وبذلك تكون الصلاة الإبراهيمية تأسيساً وامتداداً للجامعة المحمدية.

قال السيد الإمام المجدد الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني رحمته الله: اعلم يا إنسان أن تخصيص الخليل سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام بذكره دون غيره من الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم في الصلاة الإبراهيمية سببه المكافأة له على إرساله السلام على هذه الأمة المحمدية مع سيد الأنام عليه السلام ليلة المعراج كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرى أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فمكافأة الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام على هذه التحية وحسن الوصية خصّ بالذكر والتشبيه.

خاتمة

عَود على بدء

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) هذه قصة انحراف البشرية عن الفطرة، لأجيال متلاحقة، جيل بعد جيل... يكشف لنا المولى سبحانه عن مدارج الانحراف للمشركين، وهذا الشرك الذي لا تختلف فيه سوى الأشكال والمسميات، تتكشف فيه طبيعة النفس البشرية التي تلجأ إلى ربها في الضراء وتشرك في السراء، والكلام تمثيلٌ لحال الأسرتين المستخلفتين بحال زوجين متلازمين بعقدة نكاح، واستعير ما يستعمل في المشبه به من الألفاظ للمشبه... والضمير لبني إسرائيل لأنهم المقصود من هذه الحجج والله أعلم وأحكم، والقصة كالتكملة لما سبق من الحديث عنهم تسلية للنبي ﷺ وحملاً له على الصبر اقتداءً بموسى عليه السلام فإن ما قاساه من بني إسرائيل كان شديد الشبه بما كان يقاسيه ﷺ منهم وذيلت بما يقتضي العطف على المعنى الذي سيق له الكلام أولاً، والسورة تبعث على التأمل والنظر في دلائل وحدانية الله وهدى كتابه وهدى رسوله ﷺ، والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبه من الإشراك الذي هو غاية في الكفران، والمعنى: دعوا الله مالك أمرهما أن يؤتيهما مُلْكاً صالحاً أي نافعاً ووعداً بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمي: لكونن من الشاكرين أي الموحدين، فلما أعطاهما

ما سألاه جعلاً لله شركاء فيما آتاهما من الملك، وقرئ بكسر الشين وسكون الراء وحذف الهمزة على المصدر **(جَعَلَا لَهُ شِرْكَاءً)** أي ذا شرك أراد إبليس لأنه هو الموسوس والمهندس، والخبر مراد منه مع الإخبار التعجيب من سفه أحلامهما إذ لا يجعل العاقل شريكاً لأحد في ملكه وصنعه بدون حق فلذلك عرف المشرك فيه بالموصولية دون الإضمار "شركاء فيه" لما تؤذن به الصلة من فساد ذلك الجعل وظلم جاعليه إذ كفرا المعطي الواحد الأحد وأخلفا الوعد المؤكد! ولما لم يضر المشركون بالإشراك إلا أنفسهم، سبب عن ذلك قوله **(فتعالى الله)** وموقع فاء التفريع موقع بديع لأن التنزيه عما أحدثوه من الشرك يترتب على ما قبله من انفراده بالربوبية، فهو متعال عن إشراكهم لا يليق به ذلك وليس له شريك بحق، وإجراء لفظ الجمع **(يشركون)** على غير ما أجري عليه الأول **(جَعَلَا لَهُ)** لا يوجب اختلال النظم بل يوجب التثامه وقد تقدم الكلام في نظير هذه المسألة في الحديثين المتفق عليهما: أحدهما بلفظ: **«قرن الشيطان»** والآخر بلفظ: **«قرنا الشيطان»** والإنصاف أن الآية على هذا الوجه من قبيل اللغز.

يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له

إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم

الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب

ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز

والحمد لله ختماً بعد مفتوح	موافياً فوق حصر الخط والرقم
وصل رب وسلم دائماً أبداً	على نبيك رب التاج والعلم
محمد سيد الكونين والثقلين	والقبيلين موصول ومنصـرم
منزه عن شريك في محاسنه	والخلق فيه حيارى طول دهرهم
ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به	إلا ونلت جواراً منه لم يضم
ولا التمت غنى الدارين من يده	إلا ورحت ندي الكف بالنعم
ولا تشبثت في أذيال دولته	إلا استلمت الندى من خير مستلم
إليك يا أشرف الرسل التجأت ومن	حسنك أمّلت قريباً يوم مزدحم
غوّثاه يا سيد السادات خذيدي	يا أيها الملجأ الأعلى لمعتصم
فإن من جودك الدنيا وضرّتها	وأنت أكرم من يمشي على قدم
فمن فهموك تفسير الكتاب بدا	ومن علومك علم اللوح والقلم

الفهرس:

11.....	الباب الأول
13.....	مقدمة
16.....	المبحث الأول: حقبة المتزل وصدق المتزل عليه
21.....	الفصل الأول: عداوة الشيطان للإنسان
29.....	الفصل الثاني: يا حذيفة تَعَلَّمْ كتاب الله واتبع ما فيه
43.....	الفصل الثالث: الإيمان بالغيب
57.....	العلاقة بين عالم ال جن وعالم الإنس
57.....	وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة
75.....	قل هو نبأ عظيم
80.....	وأن أتلوا القرآن
100.....	قرن الشيطان
117.....	قصة آدم وإبليس
131.....	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة
139.....	الإيمان في أهل اليمن والشام ورياسة الكفر في نجد
185.....	الفصل الرابع: مفهوم الاستخلاف
135.....	يا بني إسرائيل
211.....	وكذلك أنزلناه حكماً عربياً
223.....	وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون
233.....	الفصل الخامس: حقيقة الشرك

233	شرك الحكم وشرك العبادة
238	خطاب الرسل لطبقتي الملا والشعب
238	نموذج إبراهيم عليه السلام
249	نموذج موسى عليه السلام
262	الشرك في الحكم ومفهوم الآلهة
295	الإعجاز القرآني في توصيف أئمة الشرك والشركاء
295	الوصف الأول: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً
	الوصف الثاني: ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً
301	الوصف الثالث: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى؟
302	الوصف الرابع: وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين
305	الوصف الخامس: أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟
309	سورة ص
319	الوصف السادس: ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون
326	تاريخ الشرك في الحكم
366	الفصل السادس: توحيد الربوبية
372	قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون
387	الفصل السابع: ما هو الشرك الذي وقع فيه بنو إسرائيل؟
390	ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم!
393	حكمة لقمان
408	

413	المبحث الثاني: حديث سيدنا جبريل عليه السلام
414	الفصل الأول: خصوصية ورمزية نزول جبريل عليه السلام
420	أشراط الساعة العظمى
445	الفصل الثاني: قال: فأخبرني عن الساعة
471	الفصل الثالث: الإسلام
514	الفصل الرابع: الإيمان
539	الفصل الخامس: الإحسان
548	الباب الثاني
549	بنو إسرائيل أصل الخوارج
561	المبحث الثالث: أبعاد المعركة
562	الفصل الأول: البعد المتعلق بالزمان
564	الفصل الثاني: البعد المتعلق بالأشخاص
564	1-لمحة عن تاريخ بني إسرائيل
570	يوسف عليه السلام وتوحيد الملك العلام
586	استعباد فرعون لبني إسرائيل ومشابهم لفرعون بعد ذلك
589	قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل
593	يوشع بن نون ودخول القدس
597	عهد سليمان
602	عقيدة التثليث ومؤتمر نيقية
609	بنو إسرائيل في جزيرة العرب
610	2-صفات بني إسرائيل

- 610 الصفة الأولى: العُروبة
- 610 ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً
- 622 ءأعجمي وعربي؟
- 625 تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة
- 627 عقيدة التجسيم والتشبيه والحلول والاتحاد
- 641 الصفة الثانية: النفاق والاستهزاء
- 644 هم العدو فاحذرهم
- 645 الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت
- 646 ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون
- 648 وليعلم الذين نافقوا
- الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا
 661 ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين
- 664 الصفة الثالثة: الخداع والمكر
- 664 لُعنتم لعناً تخذعون الأمة كلها
- 673 حقيقة المعركة!
- وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون
- 674
- 677 إن رسلنا يكتبون ما تمكرون
- 679 الصفة الرابعة: الإفساد في الأرض وإيقاد الحروب
- 679 وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون
- 690 الفصل الثالث: البعد المتعلق بالمكان
- 690 مركزية مكة المكرمة

وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود

699

707 الصراع الإسماعيلي الإسرائيلي على البيت الحرام

707 وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود

710 وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى

718 رب اجعل هذا البلد آمناً

723 مقدمة الباب الثاني

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم

723 يتقون

738 أم الكتاب

742 ألا لله الدين الخالص

762 المبحث الرابع: ولتستبين سبيل المجرمين

763 الفصل الأول: اقرأ

772 وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين

775 وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه

780 نبوءة التوراة وتصديق القرآن

786 قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين

788 الفصل الثاني: قصة الاستخلاف

788 إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها

إننا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان

791 إنه كان ظلوماً جهولاً

- يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون793
- ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين
- إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين 805
- ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون 808
- ما تعبدون من بعدي؟ 810
- قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا 838
- كأنهم لا يعلمون! 844
- يعلمون الناس السحر 848
- ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم 857
- واقتلوهم حيث ثقتموهم 862
- الفصل الثالث: ميثاق أهل الكتاب 886
- هكذا تلقّت الأمة الملعونة ميثاق السماء! 886
- وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة 889
- وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة
- 924
- ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون 927
- هل ينظرون إلا تأويله 928
- الفصل الرابع: توصيف المعركة 958
- الأمة المفضلة والأمة المجتابة 958
- ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين968
- ولقد اخترناهم على علم على العالمين 984
- الربا... والحرب المشبوبة. 989

1000	 كما أنزلنا على المقتسمين
1015	 المبحث الخامس: بنو إسرائيل والمسيح
1016	 الفصل الأول: رسالة المسيح إلى بني إسرائيل
1027	 الفصل الثاني: وثنية بني إسرائيل
1042	 الفصل الثالث: وما من إله إلا إله واحد
1048	 الفصل الرابع: فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبین
1068	 الفصل الخامس: وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
1101	 الفصل السادس: ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون
1112	 الفصل السابع: مسيح الهداية مُؤَيَّدٌ بالملائكة... ومسيح الضلالة مقرون بالشياطين
1115	 الفصل الثامن: حكمة المسيح
1129	 المبحث السادس: سورة بني إسرائيل
1130	 الفصل الأول: الإسرائاء
1138	 سورة النجم
1166	 الفصل الثاني: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا
1171	 الفصل الثالث: فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا
1180	 وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم
1192	 الفصل الرابع: فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم
1205	 الفصل الخامس: وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة
1219	 سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟
1222	 وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

1225	 فول وجهك شطر المسجد الحرام
1228	 وصية الرسول الأعظم ﷺ
1244	 الفصل السادس: وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض
1230	 وعد الآخرة وغزو جزيرة العرب
1248	 المبحث السابع: موضع المؤمن في هذا الصراع
1249	 الفصل الأول: عظم الخالق وحال الشركاء
1266	 الفصل الثاني: الشرك والشركاء
1266	 قل أروني الذين ألحقتم به شركاء!
1278	 إني كفرت بما أشركتمون من قبل
1295	 أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟
1297	 قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟
1308	 كهيعص
	ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض
1311	 سبحانه الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون
1324	 الفصل الثالث: متاركة أهل الكتاب
1334	 خالفوا اليهود والنصارى
1338	 الفصل الرابع: فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا
1342	 ما ذكر عن بني إسرائيل في اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد
1353	 إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه
1364	 ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب
1369	 أول خطوات النصر
1377	 أم تسألهم خرجاً؟

1389	ادفع بالتي هي أحسن
1397	فأجمعوا أمركم وشركاءكم
1410	ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرک به تؤمنوا فالحکم لله العلي الكبير
1412	مؤمن آل فرعون
1419	المبحث الثامن: المدخل
1420	السنون الخداعة ودولة إسرائيل
1445	الفصل الأول: سورة آل عمران
1445	شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم
1450	ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين
1453	وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين؟
1459	ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون
	وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم
1461	يرجعون
	وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من
1467	عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون
1487	سورة النور
1493	الله نور السماوات والأرض
1497	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم
1505	ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا
1510	الفصل الثاني: سورة النساء
1510	فقاتلوا أولياء الشيطان
1532	فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم

- ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول 1540
- إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً .. 1555
- إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً 1560
- ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين 1566
- الفصل الثالث: سورة المائدة 1573
- يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين 1573
- تبدیل القول وتحریف الکلم 1579
- ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون 1586
- لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا 1591
- أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ 1595
- يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين 1596
- قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم 1611
- إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا 1672
- الفصل الرابع: سورة الأنعام 1675
- ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين 1682
- ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون .. 1686
- وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون 1695
- وإن أطعتموهم إنكم لمشركون 1703
- سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمننا من شيء 1736

1749	الفصل الخامس: سورة التوبة
1749	وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون
1760	عفا الله عنك لم أذنت لهم.....
1765	الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم
1778	سورة بني النضير
1793	سورة المنافقون
1801	لنغرينك بهم.....
1803	يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين
1805	يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون
1815	
1820	الفصل السادس: سورة التحريم
1825	سورة الحديد
1841	الفصل السابع: سورة الحج
1851	فلا ينازعنك في الأمر
1865	لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا
1873	الفصل الثامن: الرحمن
1889	وعلم آدم الأسماء كلها.....
1909	خاتمة.....

1909 عَود على بدء

1911 يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له

1913 الفهرس: